

جنا الأثر الغوي

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الأثر الغوي

الأثر الغوي

كتاب الأثر الغوي

بسم الله الرحمن الرحيم









الجامع  
تاريخ الأدب العربي

الطبعة الأولى ١٩٨٦  
جميع الحقوق محفوظة

حنّا الفّاخوري

الجامع  
في

# تاريخ الأدب العربي

الأدب القديم

دار الجيل  
بيروت - لبنان



## مقدمتہ

ہلہ محاولۂ جدیدۂ لتسهیل دراسۃ الأدب العربی دراسۃ تذهب فی العمق ، وتشمل القسم الأكبر من تراثنا الفکری الأدبی فی تسلسل إیجازی ، وجلولة إیضاحیة ، وإبراز للأفکار یحاطب العین والذهن عظامۂ ترسیخ منظم ، وتحلیل بعید عن الثرثرة ، واستجلاء خال من کلّ تأویل مزخرف ، ومجرد من کلّ تعلیل مزیف .

کان لنا فی میدان الأدب العربی جولات متعده ، ومعالجات مختلفة ، منها الطویل والمفصل ، ومنها الموجز والجمل ، وكان لکتابنا «تاریخ الأدب العربی» انتشار قل نظیره ، وقد امتدت إلیه الأیدی امتداد استفادة ، أو اقتطاف شهادة ، وامتدت إلیه المهتم امتداد تقلید ، أو منطلقاً للتولید والتجدید ، وهو صابر علی النکبات ، صامد فی أداء الرسالة الفکرية والحضاریة ، وهو یغزو الأقطار فی صورہ المختلفة ، وإخراجاته المتباينة ، حریصاً علی محتواه الفکری والأدبی والفنی ، یوزع علی طلاب العلم فیض بنايحه الثرة ، وعلى المتعطشين الی المعرفة موارد آیاته الکبری . ولکتابها الأيام قد أثقلت کاهله ، والأنواء قد عکرت مناهله ، فکان لا بد من حركة تصحیحیة ، ومن محاولة تجدیديّة ، فکان هذا «الجامع» ، وفیه آفاق جدیدة ، ونظرات حديثة ، وفیه توضیحات أشمل کلاماً وأعمق مراماً ، وفیه المناهل والجداول ، والشواهد والمساند ؛ وفیه الی ذلك کله امتداد الی الأدب الحدیث والمعاصر وقد ضاق به کتابنا القديم ، کما ضاق بالکثرین من أديبائنا الأقدمین والمحدثین ، فعملنا علی رأب الصدع ، وسد الفراغ ، وأقمنا التوازن فی الدراسات ، والمعادلة فی المعالجات ، فی دقة ووضوح وصفاء .

والی ذلك کله فقد أکببنا علی الإخراج نُحَدِّثُه ونزینُه بما یلیق من الرسوم ، ونبت فيه روحاً وحیاء ، ونبعث فی کل جانب من جوانبه ما یعتلج فینا من آمال ، راجین أن

يكون من كل ذلك المثقني الأمة وطلاب الثقافة مَرَجِع ومَوْرِد ، وأن يكون في عملنا خدمة للتراث العربي الكريم ، ولا يسعنا بعد ذلك إلا أن نوجّه الشكر الى جميع الذين آزرونا بالرأي أو أسهموا في تنظيم الأبواب والفصول أو سَخَرُوا قُتُبهم الرفيع في إخراج الكتاب إخراجاً فنياً رائعاً . هذا والله ولي التوفيق ومصدر النور والهداية .

حنا الفاخوري



## المعلم حنا الفاخوري

درسنا عليه الأدب العربي ، وقرأنا أبرز محطات تراثنا الشعرية والقصصية والمسرحية والأسلوبية واللغوية ، وحفظنا عن ظهر قلب أبياتاً من المتنبي وأبي نواس والحمداني وسعيد عقل وفوزي المعلوف وصلاح لبكي وسواهم من المبدعين ، وكنا في حضرة موجزه الذي يصدره اليوم في أربعة أجزاء وفي طباعة أنيقة عن «دار الجبل» نرى إليه من خلال ذاكرتنا الشعرية والأدبية والتربوية.

واليوم بعد انقطاعنا عن حنا الفاخوري ، الى المقلب التجريبي الآخر ، في الصحافة والأدب ، قريباً من مدرسة الممارسة والحياة ، نشعر بأن الماضي الذي ورثناه عن طريقته في فهم واستيعاب الأدب العربي ، أعطت بدورها ، في حاضرنا اليوم. وامتدت لتشمل ، بواقعتها وبأسلوبها الانطباعي التعبيري ، أكثر من شاعر وأديب وكاتب وصحافي ناشئ في الوطن.

وإذا شئنا أن نتكلم على مدرسة حنا الفاخوري في الأدب العربي ، أكثر فأكثر ، وبوضوح أكبر ، فلا يمكننا نحن الذين تعلمنا مع الحليب كتبه وحفظنا الشيء المُلَفَّت المغير فيها ، إلا ونعترف له بأنه كان معلم جيل ، في المدرسة اللبنانية الأدبية التراثية ، ولم يحد في منهجيته عن الأصولية الكلاسيكية ، في فهم وتفسير واستيعاب اتجاهات الأدب العربي جميعاً ، من الجاهلية حتى مطلع النهضة الثانية.

إن حنا الفاخوري المعلم ، حنا الفاخوري المؤسس لنهج وخطة تربوية في آدابنا ، لا يماثله أو يجاريه في ذلك إلا الأعداء من معلمينا وشعرائنا وأدبائنا لدرجة أنه يقف ، في

عطاءاته وفي نتاجه التربوي ، ندّاً كبيراً للمعلم بطرس البستاني في محاضراته عن عصور الأدب وتاريخها الذهبي .

قائمة بين الاثنين قرابة روحية وأدبية وتربوية ، حتى لو اختلفا ، في نظرتهما الى التراث ، هي ، في شكلها ومضمونها ، لإفادة أجيال الأدب عندنا ، ولتشذيب أساليبهم التعبيرية بلبونة كتابية واضحة ومناسكة معنى ومبنى .

إن المصممين البستاني — الفاخوري ، يقفان ، في مدارستا ، وحيدين لا يحاريهما في العلم سوى الاستاذ والطالب اللذين ينكيان انكباب المستميت على رشف الأدب وتاريخه الحقيقي ، بوعي منها لما في هذا التراث من مادة تربوية متحركة ، هي في النهاية لصالح العقل المعرفي والعلوم الانسانية الحية ، لا بل لصالح التغيير الحر لأي تجربة واقعية مدركة ومسؤولة في الحاضر الأدبي التأسيسي والتواصلي في لبنان المدرسة والجامعة الآن .

ذلك أن المتغيرات التي أحدثها الفاخوري في تصوير ووصف ماهية تاريخ الأدب العربي ، وضرورته اليبانية ، هي معطيات إدراك حسي وخبرة فعلية لنا ، للوقوف عند التراث وكأنه الامتداد الروحي والثقافي للماضي الاختباري فينا ، بما فيه من مجازاة للموضوعي والواقعي في حاضر تجربتنا ، أو في مقومات الصور والمعاني ، في اللغة الأدبية أو في سواها .

فليس قصدنا في معايشة ما حققه حنا الفاخوري ، أو تفسير ما أعطاه في «موجز الأدب العربي وتاريخه» ، سوى إشارة الى الزمن التأسيسي الأصيل الذي اتصل بالجوهر الأدبي ، في لبنان والعالم العربي ، بمنهجية فنومنولوجية ، أفادت كثيرين على دروب المدرسة والجامعة وأخرجت كثيرين من الأدب العربي وقيمته المادية والروحية ، الى النقوض واللامسؤولية والتغريب للملّ الخالص .

فبواسطة هذا التواصل مع التأسيس الأول ، والفكرة المحورية التي ينطلق منها حنا الفاخوري الى الأدب بخلاصة سجالية مختارة ودقيقة عنه ، يكون قد جسّد إيمانه على أرض الواقع بأن أخرج الى النور أربعة أجزاء منقحة ومزينة ، مع لغات متسلسلة عن

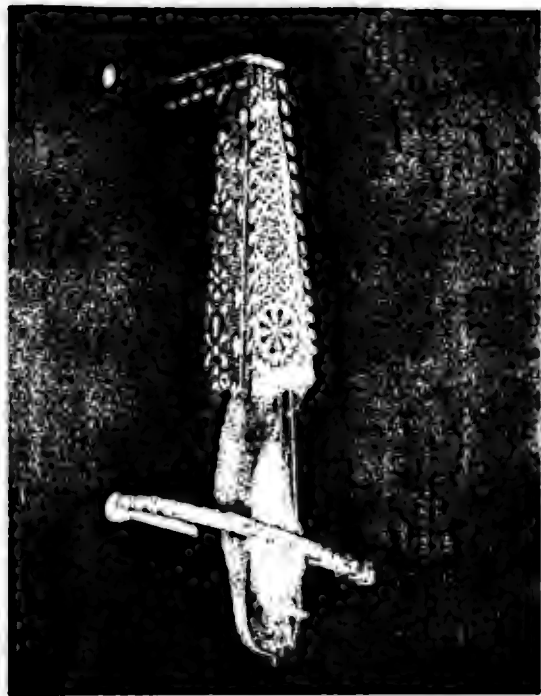


عصور الأدب العربي ، هي لنا الآن بمثابة المرجع الكتبي التوثيقي الذي يحتاجه المعلم والمتعلم .- الأديب والباحث ، المثقف ورجل العلم ، لأنه ، في ذاته ، مرجع تدقيق وتحقيق للأدب العربي الطويل في تاريخه وإيجازه .

رياض فاضل فاضل

(جريدة الأنوار ٨ - ٣ - ١٩٨٥)





# نظرة تمهيدية للأدب وفنائه

## أ - حقيقة الأدب :

١ - تطور معنى «أدب» من «الحطة الأخلاقية» إلى «عبارة عما سبَّك في قالب ظريف، وصيغ على نمط الإنشاء الأتيق من الكلام المنظوم والشعر».

٢ - مادة وصورة :

يتألف الأدب من عنصرين متكاملين هما : المادة والصورة. إنه تعبير عن الحياة وميله اللغة

## ب - عناصره

١ - العنصر الحياتي، والعنصر العقي، والعنصر العاطفي، والعنصر الخيالي، والعنصر الفني أي عصر التأليف والأسلوب.

٢ - لا يلع الأدب مبلغ الروعة الخالدة إلا إذا تحلَّى بالوصوح والعمق والسمو

٣ - رموز اللغة :

١ - اختيار الألفاظ، معددة ومركبة، عمل جوهري لقيام العمل الأدبي.

٢ - العمل الأدبي بناء لغوي يستعمل كل إمكانات اللغة الموسيقية والتصويرية والخيالية والتعبيرية بحيث ينقل إلى القارئ تجربة جديدة من تجارب الحياة.

٣ - الأسلوب هو الكاتب هو طريقتة الخاصة في التعبير والتعبير اللغوي.

٤ - الأدب كائن حي، إنه ذو كيانه الخاص وشخصية خاصة، وهو شديد المرونة يتكيف كالأحياء بكميَّات الزمان والمكان.

ج - القوى الأدبية. هي العقل المفكر الذي يتردُّ الصور ويبني ألبية الفكر، والفكرة التي تنقل المحسوسات وترزقها، وتلَوِّن وتضخِّم، والعاطفة التي تنفص وتحيي، والذوق الذي يُبعد عن كلِّ شذوَد.

د - مقاييس المادَّة الأدبية : مقياس الفكرة الحقيقية الأدبية - أي موافقة الأدب للواقع من جهة الاختيار والعرض وإعادة والتعلق. ومقياس الصورة الأسطباعية الأدبية الخافية من دبالغة الاحاطة والتقصه بالجدة، ومقياس العاطفة الصادق، ومقياس العبارة الفصححة والبلاغة

هـ - الأدب والبيئة : الأدب ابن بيته.

العلاقة بين الأدب والمجتمع :

١ - اردواح بين طريقة الأدب الخاصة في استخدام اللغة والطريقة التي تُستخدم بها هذه اللغة في المجتمع

٢ - تداخل في التأثير والتأثر بين الأدب ومجتمعه في إنتاجه الأدبي.

- ٣ - الكاتب يعبر عن تجربته وفهمه العام للحياة . والأدب تصور لقهم الأديب ونقل له . انه قيمة إنسانية اجتماعية .
- و - نزعات الأدب أو مدارسه : المدرسة الانباعية ، المدرسة الاعتدالية ، والمدرسة الواقعية ، والمدرسة الرمزية ، والمدرسة السريالية .
- ز - الفنون الأدبية :
- أ - الفنون الشعرية : الشعر الملحمي ، الشعر الغنائي ، الشعر التليفي ، الشعر المسرحي ... يكاد ينحصر الشعر العربي في الفن الغنائي .
- ب - الفنون النثرية : القصة ، التاريخ ، الرسالة ، الخطابة ، المقالة ، النقد الأدبي .
- ح - الأدب وتاريخه :
- أ . تاريخ الأدب هم يتناول الأدب من ناحية تطوره التاريخي والمعني .
- ب . لم يعرفه العرب في معناه الدقيق إلا في العصور الحديثة .
- ط - الأدب العربي على مرّ العصور :
- أ . نشأ في قلب الجزيرة نشأة غامضة المبادئ .
- ب . امتدّ في عهد الفتح وازدهر في العهد العباسي ازدهاراً شليطاً .
- ج . تطوّرت موضوعاته من أدب صحراوي غثالي النزعة ، الى غطب ورسائل وسياسيات ، الى غير ذلك حتى تناول في العصور الأخيرة جميع مظاهر الحياة

## أ - حقيقة الأدب

### ١ - تطوّر معنى الأدب :

ذهب علماء اللغة في معنى لفظة «أدب» مذاهب شتى ، فمنهم من قال إنه «الظرف وحسن التناول» ، ومنهم من قال انه «عبارة عن معرفة ما يُحترز به عن جميع أنواع الخطأ»<sup>١</sup> . ويُستفاد من أقوالهم جميعاً أنّه حُطّة المحامد وسُنّة الفضيلة والاستقامة .

١ - قال السيد المرتضى الحسيني الزبيدي (١٧٩١م) في «تاج العروس» : «الأدب محرّكة ، الذي يتأدّب به الأديب من الناس ، سمي به لأنه يؤدّب الناس الى المحامد وينهاهم عن المنقب ، وأصل الأدب الدعاء .»

وأن من تتبع تاريخ اللفظة عصرًا بعد عصر وجد أن الجاهليين استعمالوها بمعنى الخطئة الأخلاقية ولا سيما تلك التي سار عليها السلف الصالح ، قال أشعشيمون : «جروا على أدب مني بلا زرق» ، واستعملوها أيضاً بمعنى التعلم كما يتضح من الحديث المشهور : «أدبني ربي فأحسن تأديبي»<sup>١</sup> . وبعد ظهور الإسلام إلى أواخر العهد الأموي ظلّ للأدب هذا المجال المعنوي . قال الحجاج في خطاب وجهه إلى أهل الكوفة : «أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردّوا عليه شيئاً ! . أما والله لأؤدّبكنم غير هذا الأدب» . وفي العهد العباسي حين بلغت الحضارة العربية أوجها امتدّ معنى الأدب تارة إلى مجموع المعارف البشرية ، وطوراً إلى المنهج الذي يجب اتباعه في فنّ من الفنون أو عمل من الأعمال ، فقالوا : «أدب الكاتب» و«أدب المجالسة» ، و«أدب الكسب» ... قال كارلو ناليتو : «لا غرو أن لفظ الأدب عندهم أخذ يعدل عن معنى محض الأخلاق الحمودة ، الحاصلة من حسن تربية النفوس ، حتى صار عبارة عن كل ما وجب مراعاته ومعرفته والتحلّي به على من أراد بمجالسة اللطفاء والوجهاء ، وتمتدّ جميع أنواع النظرف في أعماله وأفكاره وحديثه ...»

وخلاصة القول أن المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث (المجري) إظهار الأخلاق المُرهبية للجلساء ، والظرف والأناقة في اللباس والطعام والشراب ، وسائر أحوال الحياة ، والأنس والقصاحة وعذوبة الكلام ، ثم

---

وقال المرحلي (١٤١٣م) في كتاب «التعريفات» : «الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخلق — آداب البحث صناعة نظرية يستفيد منها الانسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخط في البحث وإثباتاً للنصم وإقناعاً» .

وقال الجواليقي (١٤٤٤م) : «الأدب في اللغة حسن الأخلاق وفن المكارم ، وإطلاقه على العموم العربية مولد حدث في الإسلام» .

وقال أبو زيد الأنصاري (٨٣٠م) : «الأدب يقع على كلّ رياضة عمودة ينتخرج بها الإنسان على فضيلة من الفضائل» .

١ - جاء في الأحاديث الشريفة أن علي بن أبي طالب حين سمع النبي يعاتب وقد بني نهدي قال : «يا رسول الله ، نحن بنو أبي واسد نراك تكلم وفرد العرب بما لا تفهم أكثره» ، فقال : «أدبني ربي فأحسن تأديبي ورييت في بني

سعد» .

حفظ الأبيات والنكت مع أخذ شيء من كل علم لتوشية الحديث به<sup>١</sup>، وقد ميزوا بين الأدب والعالم فجعلوا «الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه، والعالم من يقصد لفن من العلم فيعتلمه»<sup>٢</sup>. ثم انهم فرّعوا من تلك المعاني معنى خاصاً كان الأدب فيه جملة الفنون الكتابية المستظرفة، والأديب كل من أحسن العربية وتعاطى صناعتها النظم والنثر ببلادة<sup>٣</sup>. أما في عهد النهضة فقد اشترك العرب في مفهوم الغربيين لمعنى الأدب، وكان الأدب ذا معنيين: معنى عام ومعنى خاص. أما المعنى العام فهو عبارة عن جملة ما أنشأته أقدام العلماء والكتاب والشعراء. وأما المعنى الخاص فهو عبارة عما سبك في قالب ظريف، وصيغ على غلط الإنشاء الأنيق من الكلام المنظوم والمنثور<sup>٤</sup>.

#### ٢ - مادة وصورة :

وهكذا فالأدب يتألف من عنصرين جوهريين متكاملين هما : المادة والصورة ، أما المادة فكل موضوع آتيا كان نوعه ، ومن أي شيء كان فحواه . وأما الصورة فهي الشكل الخاص الذي يقدم فيه الموضوع ويجعله أدبياً . أجل ان الأدب — شأن سائر العلوم والفنون — هو طريقة من طرق نقل المعرفة ، ولكنه يختلف عن البحث العلمي في كونه يجمع الى هدف المعرفة هدفاً آخر هو إحداث الرضى الفني ، فليس هنالك معرفة وحسب ، بل هنالك أيضاً متعة ترافق نقل المعرفة ، أو قل هنالك طريقة خاصة لنقل تلك المعرفة نقلاً يرضي القارئ ويُبتهج ، ويبعث فيه إنساناً جديداً من الافعال والتفاعل . وهكذا يختلف الأدب عن علوم الفلك والاقتصاد والسياسة والتاريخ ... في كونه لا يتوجه الى طبقة خاصة من القراء ، بل الى الناس من حيث هم ناس ، إذ إنه ينقل الانسان مع المعرفة . قال وللم هنري هيدسن : « غنايتنا بالأدب ترجع أولاً وقبل كل شيء الى أهميته الإنسانية العميقة الباقية . فالكتاب العظيم يستمد مباشرة من

١ - تاريخ الآداب العربية - ١٩٥٤ ، ص ٢٦ .

٢ - طالع «إرشاد الأديب» الى معرفة الأديب» لياقوت - طبعة ليدن - ١ ، ص ١٧ .

٣ - وذهب بعض علماء ذلك العصر مدعياً جبرزوا فيه كل حد فأطلقوا لفظة «الأدب» على علوم اللغة والبيان ، وكان ذلك في أواخر العهد العباسي وفي عهد الاضطراب

٤ - كارلو نيلو : تاريخ الآداب العربية ، ص ٤١ .

الحياة ؛ ونحن حين نقرأ نجد بين أنفسنا والحياة علاقات كثيرة وطيدة وجديدة . وفي هذه الحقيقة نجد التفسير النهائي لما له من قوة . فالأدب سجلٌ حيٌّ لما رآه الناسُ في الحياة ، وما خبروه منها ، وما فكروا فيه وأحسوا به إزاء مظاهرها التي لها عندنا جميعاً أهمية مباشرة وثابتة تفوق كل أهمية . وهو بعد ذلك يُعدُّ - بصورة أساسية - تعبيراً عن الحياة وسيلته اللغة . وإنه لمن المهم أن نفهم منذ البداية أن الأدب يعيش بفضل الحياة التي تتمثلُ فيه<sup>١</sup> . وهكذا فالأدب موضوع حياة ، أي نفعٌ ومُتعة . وقوة المتعة منوطه بأهمية الناحية الحياتية في الأدب ، فمقدار ما تكون أهمية تلك الناحية يكون عظمُ المتعة ؛ وإنَّ في الصلة الوثيقة بين الأدب والحياة سرٌّ ما يتضمنُ من متعة ومنفعة ، لأننا نحسُّ أن نرى الحياة منقولة إلينا ... وقيمة الكتاب الذي نقرأه لا تقف عند مجرد قضاء سُرورات في استعراض مشاهد مُتعة من الحياة ، بل إننا نمضي بعد الفراغ من القراءة لنناقش ما قرأنا ، وكثيراً ما نناقش أنفسنا بسبب كتاب قرأناه ؛ وكما من كتاب غيرُ مجرى الحياة عند القارئ تغييراً كاملاً . وهذا يبدو ما للأدب من نفع ، حين يزيدنا فحماً للحياة ، وخصوصاً حين يوجه حياتنا . وهكذا فالأدب يستمدُّ من الحياة ليدفع الحياة ويوجهها<sup>٢</sup> .

ونقلُ الحياة في الأدب ليس ذلك النقل « الفوتوغرافي » الآلي ، بل ذلك النقل الحي ، إذ يصل إلينا من خلال فهم الكاتب لتلك الحياة ، وشعوره بها ، وتفاعله معها . إنه نقلٌ تفسيريٌّ مثقَّلٌ بنجارب الكاتب الذاتية . وهكذا فالحقيقة الأدبية غير الحقيقة الموضوعية المجرَّدة . إنها الحقيقة الموضوعية مجبولة بالحقيقة الذاتية في الكاتب ومنه ؛ إنها حقيقة الحياة يحياها الكاتب ويُعبّر عنها إذ يحياها وبعد أن يحياها ، ولهذا فهي ذاتية موضوعية ، أو قل موضوعية المادة ذاتية الصورة . ولهذا نقول أيضاً إنَّ العمل الأدبي مؤلَّفٌ من مادة وصورة .

١ - طالع .

William Henry Hudson, *an Introduction to the study of Literature* 2nd ed., p. 10.

عز الدين اسماعيل : الأدب وفنونه ، ص ٧ - ٨ .

٢ - نفس المرجع ، ص ١١ . و« الأدب وفنونه » ، ص ١٠ .

٣ - عز الدين اسماعيل : الأدب وفنونه ، ص ١٠ - ١١ .

## ب - عناصر الأدب

### ١ - العناصر الأربعة :

في الأدب أربعة عناصر أصليّة ، وما سواها فروع وامتنادات . قال همدسون : هنالك أولاً العناصر التي تقدّمها الحياة ذاتها ، وهي بمثابة المادة الأولى لكل عمل أدبيّ ، سواء أكان قصيدة أم مقالة أم مسرحية أم قصة . ثم هنالك العناصر التي يُضيفها المؤلف عندما ينقل تلك المادة الأولى الى أحد أنواع الفنّ الأدبيّ . ونقسم تلك العناصر الى أربعة أقسام : **العنصر العقليّ** أي الأفكار التي يأتي بها الكاتب لبناء الموضوع والتي يعمل على التعبير عنها في عمله الفنيّ ؛ ثم **العنصر العاطفيّ** أي الشعور الذي يثيره الموضوع في نفسه ، والذي يُحاول أن يثيره في نفس القارئ ؛ ثم **العنصر الخياليّ** أي القدرة على النظر الى الأشياء نظراً قوياً وعميقاً ، بحيث تتمثل له تلك الأشياء في صور وظلال ، وبحيث يُصبح القارئ ، ذا مقدرة مماثلة على ذلك النظر الممثل والمصور . ومتى اجتمعت هذه العناصر قدّمت للأدب مادّة وحياته . إلا أنّ معطيات التجربة هذه وإن اتّسع نطاقها ، ومعطيات الفكر والشعور والخيال وإن بلغت من الجلّة مبلغاً عظيماً ، لا بدّ معها للكاتب من عنصر آخر يُمكنه من إتمام العمل الأدبيّ ، ومن معالجة العناصر السابقة معالجة ترتيب وتهذيب وفقاً لمبادئ النظام والتناسق والجمال والتأثير ، وهذا العنصر الرابع هو **العنصر الفنيّ** ، أي عنصر التأليف والأسلوب<sup>١</sup> .

### ٢ - طريق الروعة : وضوح وعمق وسجوّ :

ولكي يبلغ الأدب هدفه ، وينال الرضى الفنيّ ، لا بدّ له من صفات أهمّها **الوضوح والعمق والسجوّ** .

أما **الوضوح** فيتمّ له إذا أحسن صاحبه اختيار المادة ونظّمها تنظيماً موجّهاً الى الهدف وموجّهاً إليه ، ثم إذا ركّز اهتمامه واهتمام القارئ على الفكرة الرئيسيّة في الموضوع بحيث تُصبح نقطة الدّائرة ؛ وهكذا تتألف العناصر ، وترابط الأجزاء ، بحيث تبدو الحياة وحيدة خالية من كلّ تفكّك .



وأما العمق فيتم للأدب إذا استطاع صاحبه أن يفهمنا معنى الحياة ، أي أن يُطلعنا على عالم الفكر والشعور ، فلا يكتفي بمعالجة الظواهر المحسوسة من الحياة ، بل يتخطاها الى أجواء النفس ، ويكشف عن التفاعل بين ذات نفسه وتلك الظواهر المحسوسة ، مُشيراً الى دقائق المعاني في الكيان الذي لا تراه العين ، ولا تسمعه الأذن ، ولا نتمتد إليه الأنامل ...

وأما السمو فيتم للأدب متى تم له العمق ، وذلك أنه متى تغلغل في المعالجة على عالم الروح ، كان له من القوة والفعالية ما يشعرنا بأننا نسمو معه ، وبأننا نبلغ إلى أجواء تشترك فيها مجموعة كبيرة من البشر ، أي الى أجواء الإنسانية التي تتخطى الزمان والمكان . فلا حدود ولا سلود ، ولا رُبط ولا قيود ، بل تخليق في أعالي الأعالي ، حيث تفتح الآفاق ، وتندفق الأنوار ، وحيث يتكلم الفن على ساعد الخلود . والجدير بالذكر أن الأدب لا يبلغ مبلغ الروعة الخالدة إلا إذا تحلى بهذه الصفات جميعاً .

#### ٢٠ شأن اللغة :

وهكذا فالأدب مادة أولى تقسمها الحياة ، ويعالجها الكاتب بفكره وخياله وشعوره ، ثم بناءً فتي يتناول المادة ويسبكها سبك نظام ووحدة ، فتخرج به ومعه في شكل خاص ، وصورة فنية خاصة . وهذا كله ينقله الأدب الى القارئ بواسطة رموز اللغة ، ومن ثمّ فشأن اللغة أن تكون الصلة الوحيدة القائمة بين الكاتب والقارئ ، والقناة الوحيدة التي تنقل الأديب في عمله الأدبي الى القارئ في تقبله وتأثره وتفاعله .

وإذ كانت اللغة هي الوسيلة الضرورية التي لا بُدّ منها لقيام الأدب ، كان شأنها عند الأديب شأن سائر العناصر التي يرفع بها بناءه ، وكان اختيار ألفاظها ، مفردة ومركبة ، عملاً جوهرياً لقيام العمل الأدبي وبلوغ الهدف المنشود . والاختيار أمر شاق لأن رسالة الأدب شاقة ومعقدة . فهناك معانٍ فكرية وشعورية وخيالية لا بُدّ من تأديتها في دقة وأمانة ، وهناك شعوراً لا بُدّ من إثارته في القارئ ، وهناك كيان حيّ من كاتب وقارئ لا بُدّ من تحقيقه ، فالملوّف لا يكتفي بأن يجد اللغة الدالة على ما

يرغب في أن يقوله، ولكنّه يجب كذلك أن يذهب — أبعد من الدلالة — الى الإيحاءات الفنية خلال اهتزازات النفس والفكر<sup>١</sup> .

وقد يتوهم بعضهم أنّ هنالك لغة أدبية وأخرى غير أدبية، وليس الأمر كذلك، بل الالفاظ كلها صالحة لأن تُستعمل في العمل الأدبي على أن يضع الكاتب كل لفظة في الموضع الذي تكون فيه أصلح ما يمكن استعماله، حتى إذا وقعت في موقعها كان لها الأثر الخاص في موكب العبارات شطر الهدف المنشود.

واللفظة تحت قلم الكاتب القدير ذات شخصية خاصة تستمد قوتها من قوة شخصيته، وتؤثر بجويته شخصيته وفعاليته سيطرته. وهكذا فاللغة في العمل الأدبي إيحاءية، «لا تكني بأن تُقرّر وتُعبّر، بل تهدف كذلك الى التأثير في توجبه القارئ وإقناعه، وتعبيره تغييراً تاماً». ولذلك يعمل الكاتب على استخدام جميع إمكاناتها، فيستخدم في طريق غابته طاقاتها الموسيقية، وطاقاتها التلوينية والتصويرية والتشكيلية.

وهذا لا يعني أنّ الأدب موسيقى أو تحت أو فرّ آخر من فنون التعبير الجاني. «والأديب الذي يُخيل إليه أنّه يستطيع في عمده خلق بناء موسيقي إنّما هو أديب واهم، لأنّ الموسيقى فنّ قائم بذاته، وإمكاناته الخاصة تنتهي وراء ما تنتهي إليه لغة الكلام». وكذلك فقد وهم الأديباء الذين ظنّوا أنّ اللغة بين أيديهم تستطيع أداء مهمة الفنّ التصويري أو الفنّ التشكيلي، وجرّهم وهمهم الى محاكاة رجال هذين الفنّين، فاهتموا كلّ الاهتمام لما تقع عليه العين من التفاصيل، أو لوصف اللون من أعمال الفنّ التشكيلي. أجل إن العمل الأدبي، من حيث هو بناء لغوي، يتضمن إمكانات موسيقية وأخرى تشكيلية. ولكن هذه الإمكانيات تُعدّ في اللغة وسيلة لا غاية، وقد يستفيد الأديب من الإيقاع، والتناغم، وغير ذلك من الزخارف الصوتية التي يستطيع إدخالها في عمله الأدبي، إلّا أنّه متى اعتمدها اعتياداً، ووجّه إليها كلّ همّه حاد عن

١. N.C. Starr, *The dynamics of Literature*, p. 30.

عن كتاب «الأدب وفنونه» لعز الدين اساعيل. ص ٢١

٢. Wellek and Warren, *Theory of Literature*, p. 12

٣. J.M. Murry, *The problem of style*, p. 87.

جاذبة الآدب ، لأن الآدب غير الموسيقى . وقد يستفيد الآدب من الصور الحسية التي يلجأ إليها لإخراج المشاعر والمعاني على نحو ملموس مؤثر — كما يحدث عند استخدام الاستعارة مثلاً — ولكن تلك الصور لا تتمثل إلا في الخيال ... وهي متى تعددت وازدحمت كانت كالحشد الموسيقي بعيدة عن الفن الآدي . وهكذا فمن الأفضل أن نقول : ان العمل الآدي بناء لغوي يستغل كل إمكانات اللغة الموسيقية والتصويرية والإيحائية والتعبيرية بحيث ينقل الى القارئ تجربة جديدة من تجارب الحياة<sup>١</sup> .

#### ٤ - الأسلوب هو الكاتب :

وهنا نصل الى حقيقة أخرى ، هي أن لكل كاتب طريقته الخاصة في استخدام اللغة . كما أن لكل كاتب شخصيته الخاصة . وهكذا فالأسلوب هو الكاتب ، هو طريقته الخاصة في التفكير والشعور والتعبير اللغوي . ويكون الأسلوب كاملاً بقدر ما يكون قادراً على الإيصال الكامل والدقيق لشئ المعاني التي يستوعبها العمل الآدي . ومن ثم فالتقليد بعيد عن الذاتية التي يمتاز بها الأسلوب ، بعيد عن العمل الإبداعي الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بشخصية المؤلف ، ومن ثم فالكتاب الذين يحاكون غيرهم في أسلوب كتابتهم إنما يعرضون شخصيات غير شخصياتهم ، ويجرون على طرائق غير طرائقهم ، وكتابتهم من ثم غير ذات قيمة حقيقية .

ومن الجدير بالذكر أن الأسلوب هو الكتابة الشخصية في مضمونها وظاهرها ، وليس كما يتوهم بعضهم مجرد شكل توضع فيه الكتابة ، إنه ، في نظر أفلاطون ونظر النقد الحديث ، صفة حاصلة في ما هو مكتوب ، واللفظة هي الفكرة البارزة الى حيز الوجود الحسي الخارجي .

ومما لا شك فيه أن الكاتب يعتمد الى اللغة الشائعة التي يستعملها جميع الناس ، وأنه من ثم يستعمل ألفاظاً ذات صفة عامة بعيدة عن الشخصية التي تكلمت عنها ولكن هذه الشخصية في الألفاظ من حيث وجودها مستمدة عن ذات الكاتب ،

١ عرّ الدين إسماعيل : الآدب وموهبه ، ص ٢٤ - ٢٥ ، غلاً عن المصادر المذكورة . وتصرف في بعض الترجمات والامباس .

تُصبح شخصية عندما يتناولها ويجعلها عنصراً جوهرياً في فكره البارز الى حيز الوجود ،  
وتُصبح شخصية عندما يرصفها رصفاً صادراً عن ذاته ومتناغماً وتلك الذات .

### ٥ - الأدب كائن حي :

يتضح لك من كل ما تقدم أن الأدب كائن حي ذو كيان خاص وشخصية خاصة .  
وإذا كان كذلك كان كسائر الأحياء شليد المرونة ، يتكيف بكميات كل زمان ومكان ،  
ويتغلب بتلك المرونة على صروف الدهر ، وصعوبات الحياة ، ويواصل سيره نابضاً  
بالحيوية ، متضخماً عما ينضم الى مجراه من شتى التفاعلات البشرية ، وهكذا فالعمل  
الأدبي ليس شيئاً بسيطاً . إنه يستمد من الحياة ، ولكنه ليس مجرد معنى للحياة أو فكرة  
عنها تتعسها كما نتعلم الأشياء الأخرى ، أو كما نتعلم ذلك من الفلسفة مثلاً ، إنه طاقة  
هائلة تشع ألواناً من الإشعاعات على مر الزمن ، فلا يجبو لمعانها حتى يتحدد مع  
الإنسانية المتجددة الدائمة في التجدد ، وهي طاقة هائلة التأثير ، فيكني أن يقول الأدب  
كلماه حتى يكون لها من الفعل بالنفوس ، ومن تحريك الأرواح ، ما يفوق أثره كل قوة .  
ذلك أن فعلها لا يقتصر على جعاعة في وقت من الأوقات ، ولكنه من الممكن أن يمتد  
الى كل إنسان في كل زمان وكل مكان . ويوم يطلق الشاعر قصيدته يكون العالم قد  
كسب قوة هائلة جديدة ، ولكنها قوة خالصة باقية . إن خفقة القلب لتدفع الى الوجود  
وجوداً ، وإن لغة الروح لتنفذ فتخترق قيوداً وسدوداً . وفي الوجود الأكبر تلتقي كل  
طاقة كونية : تلتقي الطاقة تشعها الذرة ، وتلتقي الطاقة يشعها الأدب .

## ج - القوى الأدبية

### ١ - الأربع الرئيسية :

مما لا شك فيه أن الأدب يُخلق أديباً لأن ملكة الأدب ، وإن كانت قابلة للقو  
بالكسب ، لا يتلقاها الكسب مهما اتسعت مآذنه ، ومهما ترامت أطراف رقعته . ومن ثم

فالقوة الأدبية الأولى هي الملكة الطبيعية التي توجه الإنسان الى الأدب ، وقد تصبح عبقرية إذا تفوّقت على غيرها بالثروة الفنية والكسب .

ومن قوى الأدب في الإنسان العقل للفكر الذي يجرد صور المحسوسات ويبني منها أبنية الفكر التي يمتاز بها الإنسان دون سائر الأرضيات ، ويعملها ركن كتابته وفنه . ثم هنالك الخيلة التي تنقل المحسوسات الى عالمها ، وتخزنها مصورة في مختلف أشكالها وتلاويناها ، ثم تعرف من كثرتها ما تجسم به القول وتصبغه وترخرفه وتضخمه بطريقة جمالية عذبة .

ثم هنالك العاطفة التي تتأثر وتتفعل ، ثم تنطلق في انفعالها وتنساب في الكتابة ماءً وحياة ، ومناجيات لكل نفس وكل قلب .

ثم هنالك الذوق الذي يستمتع بالجمال ، والذي يجعل الأديب متلبساً لموضوعه ، يزنه بكل ميزان من موازين الأنافة ، ويعده عن كل شذوذ أو إسفاف في استخدام العقل والخيلة والشعور . فالذوق هو النظرة التي تدرك سر الفن ، والمقص الذي يشدّب ، والريشة التي تراوح بين الأصباغ ، والإصبع التي ترافق الأصابع على الأوتار فلا تنطلقها إلا بالرائع . الذوق هو المشرف على تناسق المداميك ومنظم الحركة والعمل . والذوق هبة طبيعية تُربى في مهد الفن الصحيح العبد عن كل ابتذال وتبذّل ، وعن كل سُخف وقفاظة ، وهو يُسمى بمطالعة كبار الكتاب وتحليل رواعهم الأدبية ، وبالدراسات العميقة لكل فن من فنون الكلام ، ولكل مذهب من مذاهب القول . ومهما كانت القوى الأدبية الأخرى في الكاتب غنية فهي بدون الذوق فوضى ؛ وإن ضعف الذوق في الكاتب لم يتمّ التناسق بين القوى ، فتختلط الأساليب ، ولم تراع مقتضيات الحال ، فتُفقد البلاغة ، ويتفكّ الحيال من قيود المعقول ، وتعصف العاطفة عصفاً ، ويصبح الأدب ثورات عاطفية صاخبة ، أو فلتات خيالية جامحة ، أو دراسات علمية جافة .

بعد الاعتبارات السابقة يجدر بنا أن نقف أمام معطيات القوى لتقيسها بمقاييس التقييم التي تعطي كل أديب حقه ومرتبته .

## ٢ - المقاييس الأربعة :

**مقياس الفكرة :** أما الفكرة ، ثمرة العقل ، فقياسها الحقيقة الأدبية ، ونعني بالحقيقة الأدبية موافقة الأدب للواقع المحسوس ، لا من جهة جعل التفاصيل والحزبات ، بل من جهة اختيار الأشد إيجازاً جمالياً منها . وينظر الى هذا الاختيار من ناحية العمق الإدراكي ، وبُعد المدى في التلقُّط ؛ ومن ناحية الجودة الابتكارية التي إن لم تختَر تكسو القديم لباس الحديث ؛ وتصيغه بصيغة الشخصية ؛ ومن ناحية المنطق الأدبي الذي يُحسن سلسلة المعاني بحسب كل لون من ألوان الكلام ، فإن كان اللون قصصياً أحسن السياق سواء أكان في الزمان أو في أهمية الأحداث ؛ وإن كان اللون مسرحياً أحسن تتبع الصراع النفسي في منرجاته وتزيّاته وتقلباته ؛ وإن كان اللون غنائياً أحسن تتبع فورات العاطفة في طريقها الطبيعي الحياتي .

**مقياس الصورة :** وأما الصورة ، ثمرة الخيال ، فقياسها الانطباعية الأدبية ، ونعني بها مجموعة الصفات التي تجعل الصورة سريعة الانطباع ، شديدة الرسوخ في نفس السامع ، شديدة الفاعلية من حيث الإيهام المعتدل ، لا تخلو من عصف في قوى السامع بحيث تنقله من جو الواقع الجاف الى جو الواقع الممتلئ ، وترقى به بفعل الألوان وتضخيم الأشياء الى عالم من حقيقة وشبه حقيقة ، الى عالم يفجر منه الإعجاب ، ويبعث في نفسه الارتياح الى غير ما هو فيه من مهام الوجود .

ولكي تكون الصورة انطباعية يجب أن تخو من المبالغة الإحالية التي تخرج بها عن حدود المعقول والإمكان . ولئن قيل في ما مضى «أعذب الشعر أكذبه» فما ذلك إلا إشارة الى المبالغة المستعذبة التي تمكن رجلها من الواقع وتبسط جناحها الى مستوى المثالية ، لأنّ الأديب ، ولا سيما الشاعر - على حد قول أرمطو في كتاب «الشعر» - لا يقول الأمور كما تكون بل كما ينبغي أن تكون . وهنا لا بدّ من الإشارة الى أن الغلو الإحالي لا يجوز أن يعتمد إليه الأديب إلا إذا قرّبه الى الحقيقة بفعل مقاربة أو بقيد أو ما الى ذلك . ثم لا بدّ للصورة من أن تتصف بالجودة ، والجودة لا تعني الخلق مما لم يكن ، بل تعني ذلك وتعني بنوع خاص تجديد ما كان وما قيل ، بإخراجه مُخرِجاً مُبتكراً مستقيّاً من أصاليب المدينية الجديدة ، ومن طاقة الأديب الخاصة . ولا بدّ للصورة

من أن تكون إيحائية، وتكون كذلك إذا اتسعت آفاقها وتضمنت من العناصر الفنية ما يمتدُّ نشراً بعد طي إلى حد بعيد. ولا بدّ للصورة من الوضوح في الخطوط والألوان. وهذا الوضوح لا يتنافى والعنى الإيحائي.

والخيال كما لا يخفى، هو العنصر الأساسي في الأدب، وهو أنواع عند الأدباء، منها الخيال الحسّي الذي ينتزع مادة تصويره من الطبيعة الحسّية ولا يتعدّاها، ومنها الخيال التأمليّ الذي ينطلق من المحسوس إلى اللامحسوس، فيحمل المحسوس درجة من درجات تصعيده، ويعلّق تحليقات خضافة الجناح في كلّ سماء، ويشب وثبات واسعة في آفاق فسيحة الأرجاء، ومنها الخيال التحليلي الذي يذهب في العمق أكثر مما يذهب في الطول، ويستغلّ التفاصيل والدقائق التي لا يبصرها إلّا النظر الثاقب.

مقياس العاطفة: وأما العاطفة، ثمرة الشعور، فقياسها الصدق، ونعني به أن يكون بين نفس الأديب وما يقوله أو يكتبه صلة العلة والمعلول، أي أن يكون الأدب مرآة لنفس الأديب ينضج بما فيها من احتلاجات واهتزازات حقيقية، ولا يكون مجرد صنعة وتصنع ورثاء. ذلك أن الأدب يتنكر للرتاء ويأبى أن يصطبغ بصبغته، لأنّ العاطفة الصادقة هي الماء والحياة، هي التي تهز السامع وتنقل كيمياء الجلال إلى القلب «وبقدر ما تكون عميقة يكون أثرها بليغاً».

مقياس العبارة: وأما العبارة فقياسها الفصاحة والبلاغة، ونعني بالفصاحة أن تكون العبارة صحيحة التركيب بحيث تؤدي المعنى تأدية تامة في سهولة ووضوح، أي من غير تعقيد ولا إغراب ولا غموض، ونعني بالبلاغة أن تكون العبارة بحسب مقتضى الحال، أي أن تكون بحسب متطلبات كلّ مقال وكلّ مجال. والعبارة الأدبية غير العبارة العلمية: لأنّ العبارة العلمية هي عبارة الحقيقة المجردة، والواقع الجاف. أما العبارة الأدبية فهي عبارة الجلال ومن ميزات الإشراق والحيوية، ومن ميزات أيضاً أن تردان بحسنات البيان والبدیع، وأن تصطبغ بصبغة الجاز في قصيد واعتدال.

#### ٣- النثر والشعر:

والعبارة الأدبية نوعان لها فروع وشعاب: عبارة نثرية، وعبارة شعرية. والنثر هو الكلام المرسل على سجيته لا يقيد ولا وزن إلّا في ما هنالك ممّا يسى سجعاً،

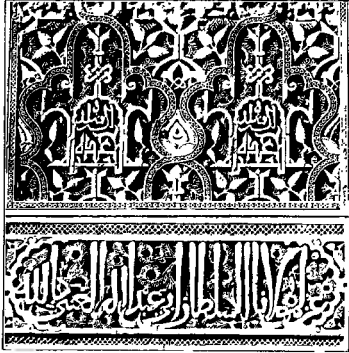
والسَّجْع هو الكلام ذو الفواصل والقوافي ، وأحسنه ما تساوت فيه الفواصل ثم ما كانت الثانية فيه أطول من الأولى... والشعر هو المعنى الجميل في الكلام الموزون المقفى ، أي هو المعنى الجميل في القالب الجميل ، والوزن أو البحر في الشعر هو المقياس المؤلف من تفاعيل سباعية أو خماسية أو ممتزجة ، وقد عرف العرب ستة عشر بحراً جمع منها الخليل بن أحمد (٧٨٦ م) خمسة عشر وتدارك عليه الأخفش بحراً آخر سمى بالمتدارك. والشعر مركب من أبيات ولكل بيت صدر وعجز. ومجموعة الأبيات تُسمى قصيدة. والقصيدة تُبنى في الأصل على قافية واحدة، والقافية هي الساكنان الأخيران من البيت ، والحرف المتحرك قبلها ، والأحرف الواقعة حشواً بينها. وفي القافية الروي وهو الحرف الذي بُنى عليه القصيدة وتُسمى به. وقد توسع الشعراء أخيراً في استعمال الأوزان والقوافي ففرعوا منها أوزاناً كثيرة ولم يتقيدوا أحياناً ، في القصيدة الواحدة ، بالوزن والقافية الواحدة ، وذلك لتوسيع نطاق القول ، ولتنوع الموسيقى الشعرية وفقاً لاختلاف خلجات الصدور .

#### ٤ - المحسنات البيانية :

واعلم أن محسنات العبارة عند العرب ترجع إلى ما انطوى عليه عبا البيان والبديع ، ونحن نذكر منها التشبيه ، والاستعارة ، والجاز المرسل ، والكتابة ، والطباق والتورية ، والجناس .

أما التشبيه فهو مشاركة أمرٍ لآخر بواسطة أداة تُدعى أداة التشبيه ، كما لو قلت : هذا الرجل كالنار التهاباً. وفي التشبيه تحسين للكلام لأنه يقوي المعنى إذ يُلفت إليه النظر بشدة وذلك عن طريق التجسيم وإشراك المعنى بالمعنى ، وكذلك في سائر الوجوه البيانية والبديعية تقوية للمعنى ولفت نظر إليه. وأما الاستعارة فهي التعبير عن معنى بلفظ لم يوضع له لعلاقة تشبيهية بين الطرفين ، كما لو قلت : رأيت ناراً تتقد في عيّن. وأما الجاز المرسل فهو التعبير عن معنى بلفظ لم يوضع له لعلاقة غير التشبيه ، كما لو قلت : بنى الأمير مدينة. وأما الكتابة فهي التعبير عن معنى من خلال معنى آخر ، كما لو قلت : رأيت رجلاً عريض المنكبين ، أي قوياً. وأما الطباق فهو أن يجمع صفتين في عبارة ، كما لو قلت : هذا الرجل أبيض الشعر أسود القلب. وأما التورية فهي أن توري





معنى وراء معنى ، أي أن تستعمل لفظة ذات معنيين أحدهم قريب والآخر بعيد فتريد البعيد من وراء القريب ، كما لو قلت : ما برحت لعين الدهر إنسانا . وأما الجنس فهو أن تستعمل لفظتين متشابهتين في النطق مختلفتين في المعنى ، كما لو قلت : عَصْنَا الدهر ينابه ، ليت ما حلَّ بنا به .

#### د - الأدب والبيئة

##### ١ - الأدب ابن بيئته :

يجدر بنا بعد ما ذكرنا أن نعرض لقضية الأدب والبيئة ولاسيما وقد قيل :  
«الأدب ابن بيئته» . فما معنى البيئة ، وما أثرها في الأدب ؟ أما البيئة فهي ما يحيط

بالأديب من أحداث وأحوال وملابسات ، هي الزمان والمكان والأرض والسماء ، هي الناس في مجتمعهم وثقافتهم وسياساتهم وكل ما يتعلق بهم . وما لا شك فيه أن لكل ذلك أثراً في الأديب وأدبه ، في مادة صوره وانطلاق آفائه ، في توجيه فكره وتعبئة آرائه ، في إذكاء قريحته وإيقاظ شعوره ، في تليين عبارته أو تخشينها ، في التصريح أو التلميح ، في الإجمال أو التفصيل . قال عز الدين اسماعيل ملخصاً المذاهب الحديثة في الموضوع :

## ٢ - الأدب والمجتمع :

« هنا نجد أنفسنا أمام مشكلة ذات جانبيين هي مشكلة العلاقة بين الأدب والمجتمع . أما الجانب الأول فيبحث فيه عن موقف الأديب من المجتمع ، وعن المضمون الاجتماعي لأعماله الأدبية ذاتها ، وأخيراً عن أثر هذا الأدب في المجتمع . وأما الجانب الثاني فتدرس فيه ظاهرة العبقرية الخاصة بالأديب ، واستقلال هذه العبقرية عن مجتمع بلداته .

ونحن نبدأ هنا في شرح ذلك من حيث وقفنا في العنصر السابق . أعني العلاقة الأسلوبية اللغوية بين الأديب والمجتمع . وقد رأينا أن الازدواج واقع بين طريقة الأديب الخاصة في استخدام اللغة ، والطريقة التي تستخدم بها هذه اللغة في المجتمع . إننا نستطيع أن ندرس طرق التعبير عند فرد من الأفراد ، أو جماعة من الجماعات ، أو عصر من العصور ، فنجد أن الفرد — من حيث أنه يختار من المادة التي أعدها اللغة — يتأثر بالحساسية اللغوية لجماعته وعصره . وهو بمقدار ما يعكس من هذه الحساسية يساعد على توطين الصور الأسلوبية . ولكن حساسيته الشخصية تقوم كذلك بدور فعال ، فهو ذاته يستطيع في هذه الحال أن يؤثر في جماعته التي ستؤثر بدورها في مجالات واسعة . فنحن لا نستطيع أن ننكر أنه وجد أسلوب رومانتيكي مثلاً له خصائص أسلوبية فردية ، ولكنه كذلك قد خلق حساسية لغوية جديدة وعامة » .

معنى هذا أن هناك تبادلاً في التأثير والتأثر بين الأديب ومجتمعه في استخدام اللغة .

فإذا ما توسعنا قليلاً — وهو هنا توسع معقول ومشروع لما بين اللغة والأدب من علاقة — قلنا إن هناك تبادلاً في التأثير والتأثر بين الأدب ومجتمعه في إنتاجه الأدبي.

فالأديب يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته، القائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع. وهنا تأتي العبارة المأخوذة عن «دي بونا» والتي تقول: «إن الأدب تعبير عن المجتمع»<sup>١</sup>. وعندئذ نساءل مع «ولك» و«وارن»: ما معنى هذه الحقيقة التي يسلم بها الناس دون برهان؟ إذا كانت تعني أن الأدب — في أي زمان من الأزمان — مرآة تنقل أحوال المجتمع نقلاً «صادقاً» فإنها تكون باطلة. إنها حقيقة عادية وقديمة مبهمة إذا كانت تعني فقط أن الأدب يصور بعض مظاهر الواقع الاجتماعي. وحتى القول إن الأدب مرآة تنقل الحياة أو تعبر عنها قول أكثر غموضاً. إن الكاتب لا يملك إلا أن يعبر عن تجربته وفهمه العام للحياة... وإنها لقاعدة تقديرية خاصة أن تقول إن المؤلف يبني أن يعبر عن الحياة في زمنه تعبيراً كاملاً، وأن يكون «مثلاً» لعصره ومجتمعه<sup>٢</sup>.

فالأديب حين يتأثر بالمجتمع إنما يعكس فهمه هو على هذا المجتمع والأدب تصوير لهذا الفهم ونقل له. أما أن ينقل الأديب حياة المجتمع، أو أن يكون المرآة التي تعكس حياة هذا المجتمع ليتلقاها أو يراها المجتمع ذاته فعبث ليس من الأدب في شيء. فالأديب يتخذ لنفسه دائماً موقفاً «فكرياً» من مجتمعه. ومن هنا فقط تأتي الفرصة لأن تقول إن الأديب يؤثر في مجتمعه، إنه يعيش في مجتمعه، ولكنه لا ينتج أدبه إلا في الحالة التي تستقل فيها ذاته عن هذا المجتمع، مستخلة موقفاً فكرياً خاصاً منه.

إن هناك عوامل تؤثر تأثيراً واضحاً في إنتاج الأديب مرجعها إلى المجتمع. ولكن فعن هذه العوامل لا يكون قوياً ذا أثر بعيد في العمل الأدبي الأصيل. من ذلك أن الأديب يكتب لجماعة دائماً، وهو — فضلاً عن أنه يحقق ذاته في الجماعة بهذا العمل — يريد أن يؤثر فيهم وأن يكسب رضاهم. ووسيلته إلى هذا التأثير وهذا الكسب أن يتحدث في ما بينهم. والحد الفاصل هنا بين الأدب العظيم والأدب «التجاري» غاية في الدقة.

١ - انظر: Welick & Warren، كتابها السابق، ص ٩٠.

٢ - نفس المصدر، ص ٩٠.

فالأديب العظيم يستطيع أن يؤثر في مجتمعه وأن يكسب رضاه دون أن يخضع لإرادة هذا المجتمع ، بل ربما استطاع تحقيق ذلك وهو يقف معارضاً للمجتمع ، والأديب التجاري وحده هو الذي يتملق الجماهير ، ويخضع لها ، ويترك لإرادته تذوب في إرادتها . والأول هو الذي يؤدي دور الأديب الحق في مجتمعه ، حين يتأثر بهذا المجتمع ثم يحاول التأثير فيه . وهو تأثير له خطورته لأن له خطئته وهدفه . أما الثاني فلا يمكن أن يكون عامل دفع في مجتمعه ، لأنه سيرك المجتمع يدوز في نطاق ذاته .

والمضمون الاجتماعي للعمل الأدبي — بهذا المعنى — لا يستمد في الحقيقة من واقع الحياة في المجتمع ، بل من «موقف» الأديب «الفكري» من هذه الحياة في هذا المجتمع . والمضمون في ذاته قيمة . وهي قيمة تتولد عن موقف الأديب الفكري من القيم الأخرى السائدة في المجتمع . فالعمل الأدبي ذو المضمون الاجتماعي هو الذي يضيف إلى مجموعة القيم الحاصلة قيمة جديدة قد تلغيها أو تعكس منها .

وهنا يأتي الحديث عن أثر الأدب في المجتمع ، فهو بما يقدم إليه من قيم جديدة يساعده على تعبيره وتشكيله . وأقرب مثال نسوقه هنا دليلاً على ذلك أن أبطال القصص والمسرحيات — وهي أعمال أدبية — ليست سوى قيم مجسمة ، إذا أمكن التعبير . وكثير من الناس قد غيروا أو — على الأقل — عدلوا من اتجاههم في الحياة وفهمهم لها ، وموقفهم منها ، متأثرين بشخصية بلداتها في قصة أو مسرحية . والأفضل هنا أن نقول متأثرين بقيمة جديدة أو بمضمون .

هذا فيما يختص بمشكلات الجانب الأول من العلاقة بين الأدب والمجتمع .

أما الجانب الثاني فيقوم على نظرية العبقرية «فالعبقريه والإلهام ينظر إليهما بوصفهما قوة خفية تدب في الإنسان مستقلة عن مجهوداته الخاصة . فمثلاً نجد «موزار» يؤلف في سن السادسة ، ويصير «كيتس» شاعراً عظيماً في سن العشرين ، ويكتب «هيوم» عملاً فلسفياً حاسماً في الثانية والعشرين . فهل العبقرية في الحقيقة مبدع أم مجرد منفذ تُعبّر روح العالم وعقل العالم عن نفسها بواسطته؟»<sup>١</sup>

فإذا قلنا إنَّ العبقرية مبدعة أسقطنا ، أو استعملنا أن نسقط ، أثر البيئة وأثر المجتمع في إنتاج الفنان والأديب ، لأنَّ « موزار » في سنِّ السَّادسة لا يمكن أن يقال إنه حين ألَّف أَعْمالاً موسيقية كان قد اتخذ لنفسه « موقفاً فكرياً » خاصاً من مجتمعه ، وإنَّ تأليفه كان متأثراً بهذا الموقف .

وإذا قلنا إنَّ العبقرية محرَّدة منعزل ألغينا كيان الأديب وفرديته ، وقربنا من القول بالآلية .

وليس هنا مجال التوسع في شرح هذه المسائل<sup>١</sup> ، ولكن الذي يهمنا هنا هو أن نكون على وعي بموقف الأديب من المجتمع . فالأديب له فرديته ولا شك ، ولكنها الفردية المتحققة بوجود المجموعة وفيها . وهو كذلك له عبقرية المبدعة ، ولكنَّ ما يبدعه لا تكون له قيمة إلا بما يُحدث من أثر في المجموعة .

فالأدب إذن — في عبارة موجزة — قيمة إنسانية اجتماعية .

• • •

ومن الممكن النظر إلى التاريخ كله ، والعوامل البيئية كلها على أنها تشكِّل العمل الفني . ومعظم دارسي الأدب يحاولون أن يعزلوا مجموعة خاصة من ألوان النشاط والإبداع البشري ، ويعزون إليها وحدها الأثر الحاسم في العمل الأدبي . ومن ثمَّ تنظر مجموعة من الدارسين إلى الأدب على أنه - بصفة أساسية - نتاج مبدع فرد ، ويتبنون من ذلك إلى أنَّ الأدب ينبغي أن يفحص — بصفة أساسية — خلال الترجمة لحياة المؤلف ، ودراسة نفسيته .

ومجموعة ثانية تبحث عن العوامل الأساسية الحاسمة للإبداع الأدبي في حياة الإنسان العامة — تبحث عنها في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ومجموعة أخرى تبحث عن التفسير السببي للأدب بصفة خاصة في نتائج جمعي آخر للعقل الشرعي ، كتاريخ الأفكار ، وتاريخ الديانة ، والفنون الأخرى .

١ للتوسع في ذلك «دلع كتاب» الأسس الخلقية في نقد العربي ، لعز الدين اسماعيل .

وأخيراً هناك مجموعة من الدارسين تحاول شرح الأدب في ضوء نظرية «روح العصر» Zeitgeist<sup>١</sup>.

ويبدو أنَّ الرجوع بالأدب إلى أن يكون أثراً لسبب واحد من هذه الأسباب أو غيرها خطأ ظاهر.

وقد قامت نظرية «تين» Taine في تفسير الأدب على اعتبار لثلاثة عوامل هي : (١) الجنس ، (٢) البيئة (٣) العصر. أما الجنس فلم تكن دراسة «تين» له دراسة حاسمة. وأما العصر فقد دخل في مفهوم البيئة. ويبقى تأثير الأدب بالبيئة. ومن الممكن أن يرتبط الأدب بالأوضاع الاقتصادية المادية والسياسية والاجتماعية، ولكن بطريقة غير مباشرة. وطبيعي أنَّ هناك علاقات بين كلِّ ميادين ألوان النشاط البشري. ونحن نستطيع مثلاً أن نجد علاقة بين طرق الإنتاج والأدب، من حيث إنَّ النظام الاقتصادي له من القوة ما يتحكَّم به في أساليب حياة الأسرة. وتقوم الأسرة بدور هامٍّ في الثقافة، في معاني الجنس وفي الحب، وفي كلِّ الأمور العادية والتقليدية في المشاعر الإنسانية<sup>٢</sup>.

ولكن هل حقاً تؤثر الفلسفة، أو النظريات الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية، هل تؤثر حقاً في توجيه الأدب توجيهاً خاصاً؟ وأين تكون إذن نقطة البداية؟ من أين تنطلق الشرارة الأولى؟ هل تبدأ السياسة فتؤثر في هذه المظاهر الحضارية الأخرى لأمة من الأمم، أم هل تكون البداية للنظريات الاجتماعية؟ ولماذا في هذه الحالة — لا نقول إنَّ الأدب قد يكون هو الموجه الأول الذي يؤثر في اتجاه ألوان النشاط الأخرى؟

من الممكن أن يحاول كاتب من الكتاب أن يبين كيف أنَّ فلسفة معينة لعلم من أعلام الفلسفة قد أثرت في اتجاه الحياة الأدبية في عصر من العصور. وكل ما يمكن أن يقال عن هذا التعامل بين الفلسفة والأدب يمكن — كذلك — أن يقال عن التعامل بين الأدب والاجتماع، وبين الأدب وعلم النفس، وبين الأدب والسياسة...

١. طبع Welck & Warren . كتابها السابق ص ٦٥ — ٦٦

٢. المرجع السابق ص ١٠١.

فأصحاب هذه المبادئ يستطيعون أن يتطوعوا بتقديم التفسيرات المختلفة المتضاربة أو المتفقة، لانتاج أدبي سائد في عصر من العصور.

وقد قررنا أن الأدب يتأثر بظروف الحياة المختلفة، إلا أنه «يبدو من غير الممكن — مع ذلك قبول وجهة نظر تجعل من لون خاص من ألوان النشاط البشري «نقطة البداية» لكل ألوان النشاط الأخرى، سواء أكانت نظرية «نين» الذي يرد كل القدرة الإبداعية إلى عامل بيولوجي غامض هو الجنس، أو نظرية «هيجل» والميجلين الذين يعدون «الروح» القوة المحركة الوحيدة في التاريخ؛ أو نظرية الماركسيين الذين يأخذون كل شيء عن طريق الإنتاج»<sup>(١)</sup>.

وبحسب ذلك نستطيع أن ننفي ما شاع خطأ من أن الأدب يتأثر بالبيئة والثقافة ونظام الحكم، أو بأي لون آخر من ألوان النشاط البشري لأن هذه الأشياء ذاتها قد تتأثر بالأدب بنفس المعنى. ولكن من الأفضل أن نعتبر كل ألوان النشاط صوراً تعبيرية إنسانية مختلفة لجو عام، أو طابع عام، أو «روح عام». «فليس الأدب سوى مرآة من المسارب الكثيرة التي يصب فيها عصر من العصور نشاطه؛ في حركاته السياسية، وفي فكره الديني، وفي نظره الفلسفي وفي فنه، نجد نفس النشاط وقد اتخذ صوراً أخرى من التعبير»<sup>٢</sup>.

### هـ - نزعات الأدب أو مدارس

بالنظر إلى تنازع القوى الأدبية في الأدب والنظر إلى أحوال البيئة وروح العصر ترى الأدب يتزع نزعات مختلفة ينشأ منها مدارس أدبية شتى أشهرها: المدرسة الاتباعية أو الكلاسيكية، والمدرسة الابتداعية أو الرومنطيقية، والمدرسة الواقعية، والمدرسة الرمزية، والمدرسة السيريالية.

١ - المرجع السابق.

Hudson, *An Introduction to the Study of Literature*, p. 47.

٢

عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه، ص ٣١ - ٣٩.

## ١ - المذهب الكلاسيكي أو الاتباعي :

ازدهرت الكلاسيكية في القرن السابع عشر ، إثر انتشار النهضة الثقافية في أوربا وبعث الآثار اليونانية والرومانية . وهي تعالج بعض الأغوار السحيقة في النفس البشرية . وتُحلّل العواطف الإنسانية الأساسية بأسلوب عقلي ، وبعبارة واضحة بسيطة . وهكذا فالكتابة الكلاسيكية خاضعة للعقل يهذبها ويصقلها ، ويعدها عن كل شروء فكري أو خيالي أو عاطفي ، وهي أدب فكرة أكثر مما هي أدب صورة ، ينتصر فيها النظام الخُلقي على كل نظام . كما ينتصر فيها الواجب على كل عاطفة .

## ٢ - المذهب الرومنطيقي أو الابتداعي :

رأى الرومنطيقيون أن عالم العقل الذي انحصرت فيه الكلاسيكية هو جزء يسير من عالم النفس ، فسعوا إلى التحرر من سلطة العقل كما سعوا إلى تحرير الوجود الفردي من الوجود الاجتماعي ، وهكذا أصبح الأدب ، في هذا المذهب ، محور الأدب ومصدره وغايته ، وأفلتت العاطفة والمُخيّلة من سلطان العقل ، وكنت الانفجارات العاطفية والخيالية من مقومات الأدب ؛ وقد ربط الأدباء الابتداعيون الواقع الاجتماعي والواقع الإنساني العام بواقعهم الخاص ، فشخصوا النبات والحيوان ، وجسدوا عواطفهم في ما لا عاطفة له كأنّ ثمة خلويّة بين ذواتهم وذات الأشياء . أضف إلى ذلك أنهم تعمّقوا الطبيعة وحنّوا ، بدأ إلى الطفولة التي لم تقع بعد تحت سلطان العقل ، وقدسوا الألم . وحنّوا إلى الموت حينئذ صوّفياً غامضاً .

## ٣ - المذهب الواقعي :

استمرت الرومنطيكية مهيمنة حتى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد تلتها الواقعية التي تتعلّق بدنيا الواقع وتصدف عن الاستغراق في الأحلام والتحليق في أحواء الخيال . إنها ثمرة الروح العلمية التي سيطرت إذ ذاك ، فراح الواقعيون يتلمّسون الحقيقة في الواقع الملموس وفي ما يمكن الوصول إليه عن طريق التجربة ، وقد امتاز منههم بالصراحة والحرارة في معالجة قضايا الواقع . فهو لا يستكف من شيء ولا



يقتصد في التصوير، ولا يتأبى الموضوعات الدني، ولا يلجأ الى التوبة والمداورة، أو التبتين والتخفيف. إنه مذهب الواقع بكل ما في الكلمة من معنى.

#### ٤ - المذهب الرمزي:

ظهر المذهب الرمزي في أعقاب المذهب الواقعي، وذلك أن كل تيار من التيارات الأدبية يتطرق في اتجاهه حتى يصل الى زمن يحس الناس فيه بأنه ليس كافياً للتعبير، ويضمون يبحثون عن أسلوب جديد. والمذهب الرمزي يعبر عن حالات غامضة في الناحية العاطفية من النفس، متبعاً طريق الصور والألفاظ، طريق الإيحاء الخبيلي واللفظي، في جو من الموسيقى البعيدة المرامي. وهكذا من خلال الضباب، ومن وراء الإيحاء، تراءى الحقائق بعيدة المنال، غير واضحة المعالم. وقد قامت الرمزية في وجه الحركة الواقعية العلمية، ودعت الى عالم مثالي هو في نظرها أكثر واقعية من عالم الحواس، وحاولت أن تنقل «تجربة علوية في لغة الأشياء الموثقة».

والجدير بالذكر أن القرن العشرين كان عصر الوعي الباطن، وأن النزعة العامة للأدب فيه كانت القرار من العالم الخارجي الى العالم الداخلي، واللجوء الى الذكرة «اللاواعية» يثيرها الأدب ويخرج مكنوناتها فيسجها أفكاراً غريبة لا يتحدث بها الى وطن أو جيل، بل الى نفسه.

#### ٥ - المذهب السريالي:

في هذا المذهب تتجلى بوضوح نزعة الأدب الحديث الى ارتداد الوعي الباطن والتعبير الآلي التلقائي عن مكنونه، فالسريالية «آلية نفسية صرفة» تهدف الى التعبير - سواء باللغة أو بالكتابة أو بأي طريقة أخرى - عن العمل الحقيقي للفكر. فهي إملاء للفكر، دون وجود أي رقابة للعقل، وبعيداً عن كل اهتمام فني أو أخلاقي.

### و - الفنون الأدبية

عرفنا ما هو الفن وعرفنا ما هو الأدب، وقد رأينا المحل الذي يحتله الأدب بين الفنون الجميلة وما لا يخفى أن للأدب مناطق مختلفة وميادين متعددة تنحصر فيها

طوائف الكتانة وشعاب الكلام . وتُسمى فنوناً أدبية ، ومرجعها الى فنون شعرية وفنون نثرية . أما الفنون الشعرية فهي الشعر الملحمي ، والشعر الغنائي ، والشعر التعليمي ، والشعر المسرحي ، وأما الفنون النثرية فهي القصة ، والتاريخ ، والرسالة ، والخطابة ، والمقالة ، والتقد الأدبي وما إلى ذلك . ومما لا يخفى أن الأدب العربي خلا من الملحمة كما خلا من الشعر المسرحي وإن لم يخلُ من النفعات الملحمية ومن مسرحيات شعرية ظهرت في العهد الحديث وامتازت ببعض ما امتازت به المسرحيات في الآداب الأخرى . وقد نزع الأدب العربي في أكثر شعره نزعة غنائية ، كما درج أدباء العرب على تقسيم شعرهم بحسب أغراضه المختلفة ، فكان عندهم الغزل ، والمدح ، والثناء ، والهجاء ، والوصف ، والفخر ، والحماسة ، والعتاب ، والاعتذار ، والحمز ، والالهو وما إلى ذلك مما هو تعبير عن ذات الشاعر في أملها وألمها ، في حبها وبغضها ، في أسفها وفرحها ...

وهكذا كان الشعر العربي منحصراً ضمن دائرة الفن الغنائي لا يكاد يخرج منه إلا في لحاح ضيقة النطاق كما سينجلي لنا ذلك في دراستنا الآتية .

## ز - الأدب وتاريخه

الأدب إذن جملة الآثار المكتوبة بأسلوب جميل . والأدب كالإنسان له نشأته ، وله ترعرعه ، وله تقلباته وتطوراتهِ وفاقاً للأحوال والأحداث . فإذا عمدنا الى ذلك الأدب نصفه ونبين أسبابه وعوامله وأطواره ، ونقيم الصلة فيما بينه وبين حياة أصحابه وملابسات يثبتهم ، ونوضح تأثير أجزائه الواحد على الآخر ، وتفاعل تلك الأجزاء فيما بينها ، ونبين الصحيح منه والمنحول ، ثم ندلي برأينا في قيمته بالاستناد الى القوانين المرعية في العلم والفن ، إذا فعلنا كل ذلك كان عملنا موضوع علم يُسمى «تاريخ الأدب» .

وهكذا فتاريخ الأدب هو علم يتناول الأدب من ناحية تطوره التاريخي والفني ، أو هو كما قال حفني ناصيف : «وصف الكلام من شعر ونثر في كل عصر من عصور التاريخ ، وذكر نوابغ الشعراء والخطباء والكتّاب والمؤلفين ، وبيان تأثير كلامهم في من

بعدهم ، وتأثرهم بمن قبلهم وما حولهم ، والموازنة بينهم ، والإلمام بمؤلفاتهم<sup>١</sup> . ومن ثم فليس هذا العلم مجرد وصف للأدب أو تحليل له ، وليس هو مجرد نقد يظهر الحسنات والسيئات فيه ، وإنما هو هذا وذاك ؛ وهو أيضاً تحليل وتبويب ، وهو تشريح نفسي للأنفعالات وفعاليتها ، ولنعقل وإدراكه ، ولشئى القوى وثمارها الفنية ؛ وهو مقارنة وموازنة ، وربط لاحق بسابق وما الى ذلك مما يتطلب عنماً وسعاً ، ووقوفاً على خمايا النفس الفردية والجماعية ، وحكماً صائباً ، وذوقاً رفيعاً وعقلاً راجحاً ، ونظراً رصيناً لا تميل به الأهواء ، ولا تنحرف به العاطفة الجامحة<sup>٢</sup> .

ولم يعرف العرب هذه الدراسة التاريخية العلمية للأدب إلا في عصورهم المتأخرة وذلك عندما احتكوا بنهضة الغرب في العلم والفن . أما ما وضعوه من ذلك في عصورهم القديمة فكان تراجم أكثر مما كان تاريخ أدب ، وقد خلت تلك التراجم من الجمع والزرج والترتيب والتعليل . وأشهر ما بقي لنا في ذلك «طبقات الشعراء» لمحمد ابن سلام الجسّاسي (م ٨٤٥) و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (م ٨٨٩) ، و«قلائد العقبان ومطعم الأنفس» للفتح بن خاقان الأندلسي (م ٩٤٦) ، و«معجم الشعراء» للمرزباني (م ٩٩٤) و«يتممة الشعر في شعراء العصر» لأبي منصور الثعالبي (م ١٠٣٧) و«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسّام الأندلسي (م ١٠٣٧) ، و«دمية القصر» لأبي حسن الباخريزي (م ١٠٧٤) ، و«سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر» لصدر الدين المديني (القرن الحادي عشر) ، و«رحانة الألباء لشهاب الدين الحفاجي» (م ١٦٥٨) .

### ح - الأدب العربي على مرّ العصور

الأدب العربي هو جملة الآثار الجميلة المكتوبة باللغة العربية سواء أكان كاتبها من أصل عربي أم غير عربي ، وأياً كانت البلاد التي ظهر فيها . وقد نشأ الأدب العربي في

١ - تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية القاهرة ١٩٣٠ ، ص ٦ .

٢ - توسّع بعض الكتاب بمفهوم تاريخ الأدب وشملوه أيضاً «سير العلوم في مدارج الترقّي» وأحوال مشاهير أصحاب الحكمة والفلسفة والرياضيات والملك والعلوّ وهلمّ جرّاً . (تاريخ الآداب العربية ، لطيح ص ٤٢ .

طالع أيضاً تاريخ آداب اللغة العربية ، لجرجي زيدان ، ١ ص ٩ )

شبه الجزيرة العربية حيث نشأت اللغة ، ونشأ بين واحات التخيل ، وبين كُتبان الرِّمل ، كما نشأ على أكتاف الإبل والحيل.

#### ١ - نشأة الأدب العربي :

والذي نلاحظه أن نشأة الأدب كانت في قلب شبه الجزيرة أكثر مما كانت في الأطراف ، وذلك أن الأطراف كانت بلاد تجارة وزراعة ، وكانت أبداً محطاً لرحال القامحين ، والسباح ، وكانت تعيش في قرف وخفض ، لا يهملها إلا العمل والكسب ، وكانت فيها اللغة العربية غير صافية ، وغير ثابتة الأركان ، ومن ثم فقد خضت فيها صوت الأدب خفوتاً لم يبلغنا منه أيُّ صدى . ودارت الأيام دورتها ، وتمازجت القبائل بفعل العوامل المختلفة من تجارية ودينية وطبيعية وغيرها ، فامتدَّ لواء الأدب فوق سطح البلاد العربية كلها ، ولا سيما وإن الأديب كان يحتلّ في تلك العصور القصبة مكاناً مرموقاً ، وكان يعدُّ شبه نبيّ ينطق بالوحي الذي يأتيه من شيطانه الخاص . وقام التنافس بين القبائل ، وراح الأديباء والشعراء يتبارون في مجال القول ، وأقيمت الأسواق ميداناً لتلك المباريات ، وأصبح الأدب حديث كلِّ مجلس وكلِّ طريق .

#### ٢ - غموض مبادئه :

ومبادئ الأدب العربي غامضة لضعف عوامل التدوين في التاريخ العربي القديم ، ولاعتقاد الأديباء والشعراء على ذاكرة الرواة والمنشدين . وجُلُّ ما نعرفه أن نشأة الأدب عند العرب تضعح أوائها في الماضي السحيق ، وذلك أن العربيّ ميالٌ من طبعه الى الإنشاد والتغني بمقاطع موزونة مقفأة ، تتنوّج بين ألفاظها الصور والألوان ، وتنطلق في أشائها الثورات العاطفية مختلفة الأوتار والألحان ، وكان ذلك التغني في أغلب الأحيان حدهاء وأراجيز تنوّعت مع الأيام ، وتعدّدت فروعها فصارت لوزناً شعرية ذات أقيسة وقواف ، وصارت ذات أغراض مختلفة ، أو خطأً وأحاديث تناقلتها ألسنة الرواة الى أن شاعت الكتابة ، فذوّن منها ما لم يأت عليه الذّهر ولم يمحّ من سجلّ الوجود .

#### ٣ - امتداده :

ثم جاء الرسول العربيّ ، وجمع شتيت القبائل تحت لواء الإسلام . ووجه العرب .

شطر الفتح والامتداد في الآفاق ، وترك لهم القرآن مثلاً أعلى للقصاحة والبلاغة ، وإذا البلاد غير البلاد ، والعباد غير العباد ، وإذا على كل طريق جيوش وقواد ، وإذا الشعب العربي في مصر وسوريا والعراق وفارس وشمال أفريقيا وأطراف الهند وغيرها من الأقطار ، واللغة العربية شيئاً فشيئاً لغة حوض البحر الأبيض المتوسط ، ينطق بها الأصيل والدخيل ، ويكتب بها العربي والأعجمي . وهكذا اتسع نطاق موطن الأدب ، وكان له من كل احتكاك موضوعات ونزعات ، وكان له من كل بلد أصباغ وألوان ، وكان له من كل أمة ومن كل بيئة فنون وشعاب . وهكذا كان لكل بلد من البلاد المفتوحة أدب عربي بلغة غريبة هصيحة .

اشتد نمو الأدب العربي حيث توافرت عوامه وحوافره . في عهد الخلافة الراشدة اتجه هم الناس إلى الفتح واشتغلوا بالحروب فتضاءل ظل الأدب ، وفي عهد الخلافة الأموية ازدهر الأدب في الشام مقر الخلافة ، وفي الحجاز مقر الترف والفرح . وفي عهد الخلافة العباسية ازدهر الأدب في العراق مقر الخلافة ، وفي مصر وحسب والأندلس والمغرب مقر الإمارات والممالك المنشقة عن السلطة . وبعد الخلافة العباسية خفت الأدب لتقلب العناصر الأعجمية . وفي القرن التاسع عشر وما بعده ازدهر الأدب في لبنان ومصر ثم في سائر البلاد العربية . وهكذا كان الأدب يحوم حول مقر السلطة مصدر الحير ، كما كان يحوم حول مواطن الترف والرُخاء ، أو مواطن الانطلاق الحياتي والاجتماعي .

#### ٤ - موضوعاته :

أما موضوعات الأدب العربي ونزعاته فن مؤحيات البيئة ومُعطيات الأحوال ، والعربي من أشد الناس لصوقاً بالبيئة التي يعيش فيها ، ويمتزج بها امتزاجاً ، وينطبق عليها انطباقاً ، وينفتح على ما فيها انفتاحاً ، فيأخذ ويعطي ، ويعصر الأخذ والعطاء مادة قول وكتابة . وهكذا كانت موضوعات أدب شبه الجزيرة ممّا توحى به الصحارى الواسعة والفيافي الشاسعة ، وحيوان الصحراء ونباتها وما فيها من أنواء ومن جفاف وشظف عيش . وهكذا كان الأدب أوصافاً للحيوانات والنباتات والأحوال الصحراوية . وبكاء على الطلول ، وتنفسات غرامية ، وخطباً حكيمية ، وترداداً للذكرى

المفاخر والآيام ، وما الى ذلك مما تصغه استناجة بصعته الفطرية العذبة ومما لا يقيد قيد تشكيري عميق فينطلق مع العاطفة من أخشن ملبس الى ألين ملبس .

وكانت موضوعات أدب الخلافة الراشدية خطباً ورسائل في أمور الحرب والفتح والإدارة وما الى ذلك ، فيما كانت موضوعات أدب الخلافة الأموية تنازعات سياسية وحزبية وتنازعات شعبية لقيام الأحزاب والشيع ، ولتناحر أهل الطمع والطموح . ولهذا راج الفخر والهجاء ، وتبسط الشعراء في بذية القول وسافل الكلام .

وكانت موضوعات أدب الخلافة العباسية علماً واجتماعاً ومديحاً وهجاءً وهواً وما الى ذلك ، لانبساط رقعة الدولة . وتوافر المال في الحزينة ، ورغبة الناس في سماع الإطراء ، ثم لاندفاق السيول الأعجمية على ابلاد العربية ، وليل الناس الى ترجمة كتب اليونان والفرس والهنود وغيرهم في الفلسفة والعلم والحكمة والفنون ...

وراحت الموضوعات في القرن التاسع عشر وما بعده تتسع آفاقاً لانفتاح أجواء المدنية ، وتشمل العلم والاجتماع وتحليل النفوس وما الى ذلك مما سنبينه فيما بعد . وهكذا نشأ الأدب العربي في مهد الصحراء وراح يرافق الأيام ، ويرافق السُلطان على عرشه ، والشعب في ميدان عمله وهواه ، وهو لا يزال سائراً الى الأمام في همّة لا تعرف الملل ونشاط لا يعرفه وهن ولا كسل .

## ٥ - أطواره :

اختلف المؤرخون في تقسيم الأدب العربي ، فهم من نظر إليه من ناحية أصالة لغته قسموه الى أدب قديم ، وأدب مخضرم ، وأدب مولد ، وأدب محدث<sup>١</sup> ، ومنهم من نظر إليه من ناحية علاقته بالبيئة السياسية والاجتماعية قسموه الى أدب جاهلي ، وأدب إسلامي ، وأدب عباسي ، وأدب انحطاط ، وأدب نهضة ، وهكذا يكون تقسيمهم له على الوجه التالي :

١ - الأدب القديم هو أدب الجاهلية وقد لُحق به المؤرخون أدب صدر الإسلام ، والأدب المخضرم هو ما ابتدأ في الجاهلية وانتهى في صدر الإسلام ، والأدب للمولد هو في مفهوم العلماء أدب العهد العباسي والأدب الأندلسي لأنها في نظرم غير خالصي العروبة في لغتها ، والأدب المحدث هو أدب المصور المنشئة .

أ - الأدب العربي القديم .

- ١ - الأدب الجاهلي (٤٧٥ - ٦٢٢ م) أي الى ظهور الإسلام .
- ٢ - الأدب الإسلامي (٦٢٢ - ٧٥٠ م / ١ - ١٣٢ هـ) أي الى ظهور بني العباس

ب - الأدب العربي المولّد .

- ١ - الأدب العباسي (٧٥٠ - ١٢٥٨ م / ١٣٢ - ٦٥٦ هـ) .
- ٢ - الأدب الأندلسي (٧١٠ - ١٤٩٢ م / ٩١ - ٨٩٧ هـ) .

ج - الأدب المنهار أو أدب الانحطاط :

(١٢٥٨ - ١٧٩٨ م / ٦٥٦ - ١٢١٣ هـ)

د - الأدب الجديد .

- ١ - النهضة (١٧٩٨ - ١٩٠٠ م / ١٢١٣ - ١٣١٨ هـ)
- ٢ - الأدب الحديث والأدب المعاصر .

أو يكون تقسيمهم له على الوجه التالي :

أ - العهد الجاهلي :

- الأول : ما قبل القرن الخامس للميلاد .
- الثاني : ما بعد القرن الخامس للميلاد الى سنة ٦٢٢ (الهجرة النبوية) .

ب - العهد الإسلامي : (٦٢٢ - ٧٥٠ م / ١ - ١٣٢ هـ)

- عهد النبوة والخلفاء الراشدين : (٦٢٢ - ٦٦١ / ١ - ٤٠ هـ)
- عهد بني أمية : (٦٦١ - ٧٥٠ م / ٤٠ - ١٣٢ هـ)

ج - العهد العباسي : (٧٥٠ - ١٢٥٨ م / ١٣٢ - ٦٥٦ هـ)

- الأول : (٧٥٠ - ١٠٨٥ م / ١٣٢ - ٤٥٠ هـ) . عهد الازدهار والكمال .
- الثاني : (١٠٨٥ - ١٢٥٨ م / ٤٥٠ - ٦٥٦ هـ) بدء الانحطاط ثم سقوط بغداد في يد التتار .
- عهد الانحطاط : (١٢٥٨ - ١٨٠٥ م / ٦٥٦ - ١٢٢٠ هـ) أي من سقوط بغداد في يد هولاكو إلى استيلاء محمد علي باشا على مصر .

د - عهد النهضة : (١٨٠٥ م / ١٢٢٠ هـ) أي من ابتداء ولاية محمد علي باشا إلى يومنا هذا .

## مصادر ومراجع

- أرسطو: في الشعر — ترجمة عبد الرحمن بدوي. القاهرة.
- ابن خلدون: المقدمة بيروت ١٩٦١.
- سليمان البستاني: مقدمة الإلياذة.
- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام — الجزء الأول والجزء الثاني بغداد.
- عز الدين إسحاقيل:
- الأدب وفنونه — القاهرة ١٩٥٥.
- الأئسس الجمالية في النقد العربي — القاهرة ١٩٥٥.
- فيليب حتي: تاريخ العرب — بيروت ١٩٤٩.
- أحمد أمين: فجر الإسلام — الطبعة الخامسة — القاهرة ١٩٤٥.
- محمد أحمد جاد المولى: أيام العرب في الحاهلية — اطعة الثانية — مصر ١٩٤٦.
- اغناطيوس جويندي: مختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة القاهرة ١٩٣٠.
- زكي طليمات: الرواية التمثيلية ولماذا لم يعالجها العرب — جريدة الانباء — العددان ١٠٤، ١٠٥ سنة ١٩٥٣.
- C. Brockelmann: Histoire des Peuples et des Etats islamiques, Paris 1949.
- P.H. Lammens: La Mecque a la veille de l'Hégire Beyrouth 1924.
- M. Guidi: Storia della Religione del Islam — Torino 1936.
- M.J. de Goeje: Arabic — in Encyclopédie de l'Islam. T.I., 372 - 382.
- F. Hommel: L'Arabie avant l'Islam, in Encycl. de l'Islam I, 382 - 386.
- W. H. Hudson: An introduction of the study of literature, London.
- F.L. Lucas: Literature and Psychology, London 1930.
- R. Wellek and A. Warren: Theory of literature, London 1949.
- Longhaye: Théorie des Belles Lettres, 6 sq.
- I. Goldziher: Adab, in Encycl. de l'Islam, T. I. 124 - 125



## جدول بعض صور الأدب العربي وخصائصه العامة

- تغزوه الواقعية في الموضوعات، وصدق النقل عن الحياة واستكمال الصورة العامة لجميع عناصرها، والحرص على الجزئيات، وصرحة التصوير وصدق، ودقة التعبير.
- ٢ - النثر: يمتاز النثر الجاهلي بالتفكك، والإيجاز، والتقطيع انصوتي.

### خصائص الأدب الإسلامي

- ١ - الشعر:
  - ركود ثم انتشار: ركند الشعر في صدر الإسلام بعض الركود ثم ازدهر ازدهاراً شليداً في العهد الأموي لما بقي من تشجيع ولما كان له من الأثر
  - شعر النضال الديني. هو الذي رافق ظهور الإسلام وكان بصيراً أو تغييراً اشتهر به كعب بن زهير، وحسان بن ثابت. سلك فيه الشعراء مسلك الجاهليين في المدح والوصف بالحكمة والشجاعة، ثم في الهجاء والتفاخر والتنافر.
  - شعر الفتح: هو شعر بطونة وموажد ووصف للحروب وحزين الى الأوطان. اشتهر فيه قيس بن المكشوح والقطامي.

### خصائص الأدب الجاهلي

- ١ - الشعر. يمتاز الشعر الجاهلي بكونه:
  - مقطوعات وأبياتاً وفقاً للحياة المضطربة ولبدائية الشاعر الجاهلي ابن الفكره المحاصرة، والاعمال القائمة.
  - ذا نزعة الفردانية قليلة، تمتاز فيها الذاتية بالشمسية القليلة. والشاعر الجاهلي "أناي" تتضح أنايته في شخص قبلته، فطلق بلسانها، ويتكلم باسم الجماعة، ولا سبياً وقد لحظه شاعرته من القبيلة مركز رئاسة وقبدة وتوجيه.
  - ذا نزعة تقليدية بسبب واقع الحياة القبيلة التي تربط الشاعر بالماضي. والبيئة الصحراوية التي تدعو الى التأمل واحترار الأحلام السالفة، والبدائية التي تشد الى ابواء أكثر مما تدفع الى الأمام.
  - تسير عليه المادية في مصدر الوحي وفي موضوع القول وهندسة البناء، وفي التعبير والتجوير. وذلك أن حياة الجاهلي غارقة في المادّة، وهو يعبر عن فكره بالمادية المحسوسة عن طريق التشبيه والتمثيل وهكذا فصييره مقارنة بين مشهد داخلي وحالة خارجية محسوسة.

### خصائص الأدب العباسي

#### أ الشعر:

- الشعر الرسمي: هو الشعر يقال في العظماء مدحاً أو رثاءً للتكسب المادي أو المعنوي ولا سيما وقد أصبح الشاعر في هذا العصر بلبل القصود وتدمر الملوك، وقد تنافس الأمراء في تقرب الشعراء وتكريمهم.

كان هدف الشعراء دغدغة الأثرة في العظماء، فقالوا في المعاني، وزيقوا العواطف وساروا على عمود الشعر في جلال، وبطء، وحلجلة أوزان وقواف، وتأنقوا في التعبير فأغرقوا المعاني القديمة في جو من الرخوة الحديثة.

- الشعر الشعبي: هو شعر اللهو والحمر، يمثل واقع الحياة وبعض طماهراتها، ويميل إلى إرضاء الناس عامة، في تحرر من قيود القديم، وسهولة تعبيرية، وثورة اجتماعية (بشار — أبو نواس).

#### ٤ - النثر:

كان النثر في هذا العهد خطابة، وكتابة، ورسائل، وتصنيفاً، ومقامات، ومنتازات، وروايات وأقاصيص. اتسع فيه مجال التفكير، وعني الكتاب بربط الأساليب

- شعر النضال السياسي: هو شعر الأحزاب: تأييد وتقرير لآراء الحزب، وردة لأقوال الأعداء وقد امتاز شعر الخوارج بالعقيدة والحماة والمثناة (الطرماح بن حكيم)، وامتاز شعر الشيعة بالسخط والحزن (الكثير بن زيد الأسدي)، وامتاز شعر الأمويين بالزعة الضعيفة. وإلى جنب هذا كله نشأ شعر الموالي في مفاخرة العرب.

- شعر النضال العصبي: لم تزل العصبية القبلية من النفوس وقد أوحى بشعر شبيه بالشعر الجاهلي (الأخطل، جرير، الفرزدق).

- شعر اللهو: توافرت أسباب اللهو والفناء فاستقل الشعر الغزلي، ونزع في المدن نزعاً إباحية. وأما الشعر الحمر فلم يزدده إلا في العراق.

#### ٤ - النثر:

- كان خطابة، ورسائل وقصصاً، ومنتازات وتوقيعات.
- كان ذا أصالة عربية، ونزعة إيماء وتوجيه اجتماعي.
- كان للقرآن والحديث فيه أثر فعال.

يصبح كل موجود تعبيراً عن نفس الشاعر وقليه .

• موسيقى تنبعث أصداؤها من كل لفظة ومن كل عبارة . إنها أوزان رقيقة ، وأنغام حافلة بالعذوبة .

٢ الشعر :

كان النثر في الأندلس كما كان في الشرق أي خطابة وترسلاً وتصيفاً . وكان في بدءه أمره تقليداً للنثر المشرقي ، ثم منافسة له في التصنيف والإجادة ، ثم أخذت تدب فيه عوامل الانحطاط وتدوي نضارته تحت زخرف التصنع اللغوي القبيح .

### خصائص أدب الانحطاط

١ الشعر :

عهد الانحطاط هو العهد الذي تسط فيه الحمول على العقول ، والتقليد على المعاني ، والصناعة القبيحة على الأساليب .

• وباء التعميق اللغوي : جف ماء الحياة في الشعر ، وغاصت المعاني في العقول ، فانصرف الشعراء الى تكرير المعاني الغثة في أساليب البديع والبيان ، وأولموا بالتورية ، وجنحوا الى الترام ما لا يلزم ، وبالفوا في التواريخ الشعرية والألاعب اللفظية والنحوية .

بالسبب ، ومالوا الى السهولة في العبارة ، والتأقن في اللفظ ، والحدود في الرصف والتفصيل والتطويل .

ومال الكتاب في الرسائل والمقدمات الى التعميق والزخرفة في تكلف ظاهر ، وتأن يميل الى الشكل أكثر مما يميل الى المعنى .

### خصائص الأدب الأندلسي

١ الشعر :

انتشر الشعر في الأندلس انتشاراً واسعاً بداعي الحياة الجميلة المترقة . وهو :

• طبيعة جميلة تُصوّر طبيعة البلاد ، وتزف الحياة . وقد اتخذ الأندلسيون الطبيعة إطاراً للهوهم ، ومنطلقاً لأحلامهم ، ومادة لزخرفة شعرهم .

• تجديد وتقليد بمتزجان أعجب امتزاج . فالشاعر الأندلسي يعمل على تقليد الشاعر المشرقي من غير أن يفقد شخصيته الأندلسية .

• تعميق وزخرفة الى حد الإغراق . والشاعر الأندلسي يرتاد في شعره أجواء العظمة الجميلة التي تتظم التصنع التميمي بمثابة عنصر ضروري من عناصر الحياة

• تشخيص لكل شيء بحيث تنتشر الحياة في كل موجود ، وبحيث

كان في بدء أمره تقليداً مضطرباً للشعر  
البياسي، ثم محاولة للجمع بين أساليب  
الأقدمين وأساليب العصر الجديد ثم  
انطلاقاً جديداً. وكان في هذا  
الانطلاق:

• تياراً رومنتيقياً إبداعياً انبثق من  
وبلات احرب ومن الاستبداد  
والضيقة وسادت فيه العاطفة المثقلة.  
• تياراً واقعياً يدل على شعور الشعراء  
بوجود الخروج من حياة الانكماش  
والعزلة، وحمل قسط من المسؤولية  
الاجتماعية.

• تياراً رمزياً كان ترتيباً موسيقياً آمراً  
مع الصيرفي وقباني وغيرهما، وكان  
تعبيراً وصورة مع سعيد عقل وأمين  
نخلة وغيرهما، وكان موضوعاً أو  
تجربة مع ايليا أبي ماضي وغيره.

٦ النثر: كان في بدء أمره تقليداً جامداً،  
ثم أصالة قديمة ورقعة حديثة، ثم تحرراً  
في جدّة الأسلوب، ودقّة المعاني،  
وسهولة العبارة.

وكان في أغراضه نثرأ أدبياً (نرسلاً  
وقصة) ونثرأ اجتماعياً، ونثرأ سياسياً  
(خطابة وصحافة...) ونثرأ علمياً  
(تاريخاً أو عموماً...).

• صراحة وعامية: وأسرف الشعراء في  
استعمال الكلام العادي الصريح في  
الحجر، وانتشرت في الشعر الألفاظ  
العامة والأوزان الشعبية.

٧ - النثر:

• الكتابة الميوانية حفلت بالتصميم،  
 وأنواع البديع والزخرفة.

• الوسائل الأدبية: راعى الكتّاب فيها  
شكل الألفاظ أكثر من جوهر  
المعاني.

• التصنيف: كان أسلوب أصحابه  
أقرب الى الطبع، لأن غايتهم  
العلمية لم تدع لهم مجالاً للسعي وراء  
التنميق اللقضي.

### خصائص أدب النهضة الحديثة

١ - الشعر: كانت النهضة الحديثة ثمرة وعي  
شرقي شامل عندما احتك الشرق بمدنيّة  
الغرب، ومن ظاهرات تلك النهضة  
المدارس والطباعة والصحافة والبعثات  
الى الخارج... أما الشعر الحديث فقد

# الأدب العَرَبِيّ القديم

## الأدب الجاهلي

(٤٧٥ ٦٢٢م)

١ - لغته : اللغة العربية لغة المدّ الصّيريّ والانشاع المحيطيّ.

٢ - بيئته :

١ - بيئته الجبّرافية.

٢ - بيئته البشريّة والاجتماعيّة.

٣ - بواعثه ومصادره.

٣ - النثر الجاهليّ :

١ - غموض واضطراب.

٢ - سجع الكهان والحكمة والمثلّ.

٣ - الخطابة والقصص.

٤ - مشاهير الحكماء والخطباء.

٤ - الشعر الجاهليّ :

١ - نظرة عامّة وتقوم.

٢ - شعر الانفراديّة البدويّة.

٣ - شعر الحباله والمناقب القبليّة

٤ - شعر البلاط والتكسّب

٥ - شعر المذاهب الدينيّة والآراء الاجتماعيّة.



مرمر مجمل نقوشا عربية وكتابة جمنيرية (منصف اللؤلؤ)

# اللغة العربية لغة المد الشعبي والإقصاد المحيطي الباب الأول

### ١ اللغة ونظورها :

- ١ أصل اللغة العربية ومشتاتها : هي إحدى اللغات السامية ، وهذه اللغات وليدة لغة سامية عامة .
- ٢ تطور اللغة العربية : للشعر الجاهلي لغة فصلى واحدة هي في الأصل عجة أهل نجد .
- ٣ أسباب تكوين اللغة الأدبية : الأسوق ، قريش ، احصارات المتاعمة . وتمتاز تلك اللغة بأها إعرابية ، اشتقاقية ، فيها ضروب من النعت والقب والترادف ...
- ٤ - الكتابة العربية : تولدت الكتابة العربية بتويع الحرف اسبطي .
- ٥ الكتابة والقراءة في الجاهلية .
- ١ شيوخ الكتابة والقراءة في العهد الجاهلي : كانت اكتابة شائعة في العهد الجاهلي ، وكان لعرب كتابت لتعليم القراءة والكتابة
- ٢ كتابت القراءة والكتابة : اشتهر في ذلك أهل الطائف . من أبناء العربية من كانوا يجيدون قراءة عدة لغات أجنبية وكتابها
- ٣ أدوات الكتابة والقراءة . أدواتها الجلد أو الرق ، والقلم الحريري أو الفلعي ، والسمب ، والعظم ، والحجارة

### أشهر تقسيم للغات السامية

#### ١ اللغات السامية الشمالية :

- الأشورية - الآرامية - الكنعانية - العبرانية - الفينيقية .
- اللهجة التي ظهرت في صناع تل العمارنة وتضمنت المراسلات التي تدلها الأقوال الفلسطينية وملك مصر أمينوفيس الرابع في القرن ١٥ ق.م .

#### ٢ - اللغات السامية الجنوبية

العربية :

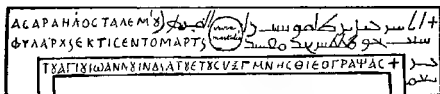
- القرن الشمالي (ومع العربية الفصحى ولهجاتها لغة المتعددة) .
- المربع الجنوبي أي الجيمري .
- السبئي .
- المعيني .
- الحشبية الجيرية ، وتصل بها التيفريّة والتفريّة والأحريرة .

اللغة من أعظم مظاهر الحضارة وأجلّها شأنًا، لأنها، في مفرداتها وتراكيبها، سجلّ النفوس وصورة المجتمع؛ واللغة العربية الجاهليّة، بنحوها وصرفها واشتقاقها وشئى فنونها البلاغيّة والعروضيّة، أوضح دليل على ما بلغه القوم من رقيّ عقليّ، ونضوج تفكيريّ.

## ١ - اللغة وتطوّرها

### ١ - أصل اللغة العربيّة ونشأتها :

اللغة العربيّة هي إحدى اللّغات السّاميّة<sup>١</sup>، وقد تباينت آراء العلماء في تعيين منشأ هذه اللّغات وما قد يكون لها من الصّلة باللّغة السّاميّة الأصليّة<sup>٢</sup>. والثابت أنّ بين اللّغات السّاميّة قرابة واضحة، وأنها جميعاً وليدة لغة سامية عامّة قد بادت وصار من المتعذّر علينا أن نعرف شيئاً يذكر منها، والذي نعرفه إنّما هو نتيجة مقارنات نقيّمها بين شئى



نقش حِزَان

١ - «السّاميّة» اسم اصطلاحيّ نشأ في القرن الثامن عشر، استعمله للمرة الأولى المستشرق العلّامة شلوزر Aug. Ludwig Schlozer في كتابه *Von den Chaldaern* الذي ظهر سنة ١٧٨١، وذلك بتأثير الفصل العاشر من سفر التكوين الذي يشير إلى أنّ العبريّين والآراميين والعرب من أبناء سام ابن نوح — طالع هدي فيش: باريس ١٩٤٧ ص ١٧ وما يتبعها.

يقسم بروكلمان اللّغات السّاميّة لثلاثة أقسام: اللّغات الشرقيّة (الأشوريّة وتوابعها)، والعربيّة النّسائيّة (الآراميّة والكنعانيّة)، والعربيّة الجنوبيّة (العربيّة والحشيّة).

*Comparative Grammar of Semitic Languages*

٢ طالع الفصل الأول من كتاب

W. Wright للعلّامة وايت



$\theta \phi \psi \chi$

کتابہ صفویہ لرتق، الی سنۃ ۱۲۹ للمیلاد.

الفروع<sup>١</sup>. ويرى بعضهم أن بلاد العرب منشأ اللغات السامية<sup>٢</sup>، ويرون أن صفات الساميين العنصرية، ومنها الإيمان الشديد والتعصب والتصور، تدل على أصل صحراوي يحبونه بلاد العرب.

## ٢ تطور اللغة العربية :

يرى جماعة من المحققين أن اللغة العربية أقرب من أخواتها إلى الأصل السامي وإن كانت الآرامية أقدم منها عهداً، وقد تكون العربية أرقى اللغات السامية وأشدّها فصاحةً واتساعاً. قال الدكتور طلس: «إن أقدم النصوص العربية الفصحى التي عُثِرَ عليها ترجع إلى الفترة التي تمتدّ من القرن الثالث بعد الميلاد إلى القرن الخامس. وهذه النصوص هي الشعر الجاهليّ، والحكم الجاهليّة. ولكن من يدقّق في هذه النصوص يجدها كاملةً مهذّبة، ذات نحو متّسق وصرف منظم، وقواعد عروضيّة وشعرية راقية، ولا شكّ في أن اللغة العربية قد مرّت بأطوار بعيدة العهد تطوّرت فيها وتدرّجت إلى هذا

١ طالع كتاب هريش المذكور سابقاً ص ٢٢-٢٣ — وذهب بعض العلماء إلى أن ين المصرية  
والعالمات اسبعية قراءة أصلية. وقراءة اللغات لسبب لغات الأفريقية المعروفة بالاسم مسألة تختلف عليه، والأرجح  
أن تلك القرية ثابتة في رأي عدد كبير من العلماء — طالع «العاب الآرامية وآدابها» للأب شايو تعريب اعطوان  
شكري لودنس ..

۲- هذا رأي سايس Sayce ، وشبرجر Sprenger ، وشراذر Schrader ، ودي عوحه De Goeje ، ورايت Wright

الكمال الذي وجدناه في الشعر الجاهليّ ثم في القرآن<sup>١</sup>. « وانه لمن الصعب جداً تحديد تلك الأطوار لأن ما لدينا من الوثائق غير كاف للقيام بمثل هذا العمل. وجلّ ما نستطيع قوله إنّ للشعر في الجاهلية لغة فصحي خاصة تقيد بها جميع الشعراء أيّاً كانت لهجاتهم، وكان الى جنب هذه اللغة الموحدة الفصحى لهجات متعددة تختلف فيما بينها اختلافاً بيناً، وتختلف قريباً وبعداً عن اللغة الأمّ الفصحى، ولهجات أواسط الجزيرة كانت أفصح لهجات بعدها عن الأعاجم من فرس وأحاش وروم... ويلبها في الفصاحة لهجات عرب مشارف الشام<sup>٢</sup>. » قال جرجي زيدان: « أكثر سكان أواسط جزيرة العرب من قبائل مُضَر، وكانت أعظمها يومئذ تميم في شرقي نجد وشمالها، وغطفان (عبس وذبيان)، وسليم وغيرها في نجد، وأرقاها قریش في مكة. وكان من القبائل القحطانية هناك طيّ في نجد، ومذحج في أطراف الحجاز، وأكثر سكانها في الشمال من ربيعة وفيهم بكر وتغلب في بادية العراق والجزيرة. فلغات هذه القبائل كانت تختلف بعضها عن بعض باختلاف أحوالها ومساكنها، وكان الاختلاف على معظمه بين لغات اليمن ولغات الحجاز ونجد، أي بين جوب الجزيرة وشمالها<sup>٣</sup>. »

وإذا كان الأمر كذلك فما اللهجة التي كانت في أصل اللغة الفصحى، أي لغة الشعر الجاهليّ؟ لقد تباينت آراء العلماء في هذه القضية. قال مارسيه: « إنّ لغة الشعراء العرب هي لغة شرعية لم تكن لغة مخاطب، وهي قائمة، في الأصل، على لهجة أهل نجد<sup>٤</sup>. » وقد انتشرت تلك اللهجة، وسيطرت شيئاً فشيئاً، وكانت قریش أفصح من نطق بها. ولما ظهر الإسلام ثبتت تلك اللغة ونشرها في كل مكان استقر فيه، فباد كل ما سواها ولم يبق له أثر يذكر<sup>٥</sup>.

١ - تاريخ الأمة العربية ١، ص ١٤٩.

٢ - نفس المصدر ص ١٥٠.

٣ - تاريخ آداب اللغة العربية ١ ص ٢٤.

٤ - وفي نجد، كما رأينا، قبيلة تميم وهي من أعظم القبائل العربية. جاء في «دائرة المعارف الإسلامية»: «تعدّ تميم في الشعر وفي الخطابة مقرّ اللغة العربية الحقيقية».

Encycl. de l'Islam art Tamim, t IV p 679, col b.

٥ - لقد أثبت عدد من علماء الاستشراق من مثل مولر D.H. Muller وبر M. Bittner بقايا للغات العربية الجنوبية في أطراف شبه الجزيرة عن المحيط الهندي (اللغة المهرية).

يتضح لنا من خلال هذه الآراء أنَّ هالك لغتين رئيسيتين تفرعت عنها سائر اللهجات العربية هم لغة الحبوب أو اللغة الجُمُيرية . ولغة التمال أو اللغة المُضَرية . وكانت لغة اليمن القحطانية تختلف عن لغة الحجاز العدنانية في الأوضاع والتصاريف وأحوال الاشتقاق حتى قال عمرو بن لعلاء ( ٧٧٠ م ) : « ليست لغة جُمَيْر بلغتنا ولا عربيّتهم بعريتنا » وكانت لغة اليمن أكثر اتصالاً باللغة الحبشية والأكدية ، ولغة الحجاز أكثر اتصالاً باللغة العبرية والنسبية . وقد ذهب بعض العلماء الى أن لغة الحبوب القحطانية كانت أصلاً من أصول عدنانية . واعتمدوا في قولهم هذا على القوش اليمية المكتشفة حديثاً ، فقد وحدوا فيها عبارات تتفق والعربية المضرية لفظاً وتركيباً . وهناك مئات من الألفاظ مشتركة بين اللتين . وبعضها مطابق في رسمه ومعناه لما في العربية مثل أح ، أحت ، وئ ، شيل ، أسد ، شهر ...

### ٣ . أسباب تكوين اللغة الأدبية .

أسباب تكوين لغة الأدبية المنصحي كثيرة يذكر منها ما يلي :

١ الأسواق : وهي أمكنة في شتى أنحاء الجزيرة كان العرب يجتمعون فيها في أوقات معينة لشؤون تجارية وقصائية وأدبية ونسبة وغيرها . فيعالجون فيها مفاديات الأسرى . والخصومات . ويصرفون من المباحرة والمناظرة بالشعر والخطب في الحسب والسب والكرم والعصاة والخيال والشجاعة . كما يصرفون الى مسابقات الخيول وإقامة الألعاب ، وتبدل عروض التجارة وغير ذلك فكانت تلك الأسواق أشبه بمعارض عامة يعد إليها الناس من مختلف أنحاء الجزيرة ، ومن أشهرها سوق عكاظ قرب مكة ، وجمعة ودو الحجاز وكلاهما في صواحي مكة أيضاً . أما سوق عكاظ فهي ملكة الأسواق ، وكانت تقدم من أول ذي القعدة الى العشرين منه ، وكان يجتمع فيها الأشراف والزعماء للمتاجرة والمناظرة ومفاذاة الأسرى والتحكيم في الخصومات وأداء الحج . وكان الكلام فيها بلغة يفهمها الجميع ، يتوخى شاعر أو الخطيب الألفاظ العامة والأساليب العالية في لغة مثالية موحدة تروق كل سامع ، ولا يفر منها أو

يستغرها أحد. فكان من ثمّ للأسواق أثر بليغ في توحيد اللسان وتعميم اللغة المثالية ، وتغليب لغة قريش على سائر اللغات ، لأنّ أشهر الأسواق في بلادهم .

٢ قريش : كانت مكّة محطّاً للقوافل من عهد عهده . وكانت موطن قريش موضوع لإحلال العرب لما ورثته من شرف وسؤدد وثراء ، كما كانت مقام الكعبة يقد إليها الحجاج من جميع الآفاق . فكان لقريش نصيب وافر في توحيد اللغة ، نهذب لهجتها عما تأخذه من لغات القبائل الوافدة على بلادها ، ثم خفف على اللسان وعذب في السمع ؛ وكان العرب يقلّدون لسانها ، والشعراء والخطباء يؤثرون ما هو من ذلك اللسان لأنّ أهمّ الأسواق كانت في قريش والمحكّمين فيها منهم أحياناً كثيرة ؛ وكان الشعر ينتشر من تلك الأصقاع في جميع نواحي البلاد حاملاً إليها لهجة قريش وأسلوبها . وهكذا كانت اللغة المشتركة المثالية قريبة من لغة قريش كلّ القرب .

٣ الحضارات المتاخمة : لم ينحصر العرب في جزيرتهم بمعمل عن تأثيرات حضارات المتاخمة ، بل كانوا أبداً في احتكاك مع من جاورهم فأضيفت الى لغة عدنان ثروة الحضارة القحطانية وحضارة مصر وفارس والروم والحبيشة عن طريق التجارة أو طريق التناقص بين الحيرة وغسان ، والفرس والروم من ورثتها . فكانت اللغة تواصل تطوّرهما مكتملة ما يقصصها بما تأخذه من لغات تلك الحضارات الواسعة النطاق

وهكذا وصلت اللغة العربية الى عصر الأدب الجاهليّ ، راقية ، مروّدة بمحاسن لغات عديدة وحضارات كثيرة ، تستطيع التعبير عن كلّ شيء مها دقّ وسها . وتستطيع الإفصاح عن خلجات النفوس ولواعج الصدور ، وتصوير المناظر والحواسر . وما إن ظهر فيها القرآن الكريم حتى ثبّتها وعمل على حفظها بالرّغم من تقلّبات الأيام وأحداث الزمان .

ونعزّز تلك اللغة العربية بأنها إعرابية اشتقاقية فيها ضروب من التحت والقلب والتزادف ، وأنواع من المجاز والكناية وما أشبه . قال عنها المستشرق بروكلمر : «تتمتاز لغة الشعر العربيّ بثروة واسعة في الصّور النحوية (الإعراب) ، وتعدّ أرقى اللغات السامية تطوّراً من حيث تركيبات الجمل ودقة التعبير ، أما المفردات فهي فيها غنيّة غنى يسترعي الانتباه ، ولا بدع فهي سرّ تصبّ فيه الحدود من شتى القبائل»

## ٢ الكتابة العربية وتطورها

لم توضع الحروف العربية وضعاً، ولكنها تولدت بتتوُّع الحروف النبطي الذي كان شائعاً في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام، فتكون حلقات في سلسلة الخط العربي ثلاثاً: أولاً الخط المصري القديم بأنواعه الثلاثة (اهيروغليبي، واهيراطيقي، والديموطيقي)، وثانيها الخط الفينيقي، وثالثها الخط المسند. والمسند عدة أنواع عُرف منها أربعة: الخط الصفوي، والخط السمودي، والخط اللحياني<sup>١</sup>، والخط السنيي أو الجعفري. ومن المسند تفرع الخط الكندي والنبطي. ومن النبطي الخط الحيري والأثباني، ومنه الخط الحجازي (وهو النسخي العربي) وأما الكوفي فهو نتيجة هندسة ونظام في الخط الحجازي<sup>٢</sup>.

والخدير بالذكر أن أقدم مستند لوجود اللغة الفصحى هو نقش كشف في مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب، في الفارة من أعمال حوران، وهو يرجع إلى سنة ٣٢٨ للميلاد<sup>٣</sup> وتشتمل أحرفه عن الأصل النبطي الذي أخذ عنه، كما تدل الكتابة فيه على طور الانتقال من أحرف النبطية إلى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة

١ اللحياني نسبة إلى يحيى لحيان، والشمودي نسبة إلى نمود سكان مدائن صالح، والصموي نسبة إلى حم صغا وهو يلقب بركاني إلى الجنوب الغربي من دمشق. ومن الخدير ما ذكر أن معظم النقوش المحيطة بوجع في الغلا، وهي ترجع إلى القرن الأول للميلاد، وأما نقوش القويدة فقد وجدت في أماكن مختلفة كالملا، ونخير، وأغوف، وأحدهم يرجع إلى ١٠٦ ق م. وأما النقوش الصفوية فأكثرها وجد في جبل صفا.

٢ يرى أنيس فرجة خلاف هذا الرأي، فيقول: «يجب التمسك إلى حقل وقع فيه مؤرخو العرب وهو انزعج القائل أن الخط السني مشتق من كوفي، والسني هو الخط الذي يميل إلى الاستدارة والتقرص أي هو الخط الممدور والكوفي يميل إلى الارتفاع فهو الممدور. ولكن كشاف كتابات على البردي وكتابات أخرى ترجع إلى الفترة الإسلامية الأولى أثبتت بوضوح لا يقبل الشك أن العرب منذ البدء عرفوا خطين: مدور السني، والممدور الكوفي، والخطان شتا معاً ولم يشق الواحد من الآخر. وبما ظهر أن العرب عرفوا الخط السني لتقديم الممدور، وعرفوا الخط الأثباني المربع الذي كانت تكتب به لأشخاص، وكان يُعرف بالسمرجيلي (أي خط الأناجيل) لأن الخط الممدور فيه جلال وفيه رخوف بابل بأن يُحصر على اباني وأن تكتب به الكتب المقدسة. وأما الخط السني فهو الخط الحجازي الذي يستعمله العامة» (والخط الكوفي) لا تشك في أن الكوفة تعهده وجودت فيه فشب إليها.

٣ امرؤ القيس هو ذا في الأغلب أحد الملوك الحشميين في الحيرة. وقد اكتشف هذا العشب الأثمة دوسر Dussaud سنة ١٩٠١ ونشر للمرة الأولى في مجلة الأثريات 421 - 409 (1902) Revue archéologique II. والعمدة موضع في سوريا، في حرة الصفا، أي في الوادي المنفذ بين جبل الدرور وسهل الرجة عند القلعة بوادي السط.

١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠  
 ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠  
 ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠  
 ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠

نقش النجارة

حتى الآن، وأخصّ مزاياء هذا الانتقال تشبه طريقة تعليق الحروف بعضها ببعض<sup>١</sup>. وهو في مرحلة تاريخية تظهر بوضوح تطوّر الخطّ العربي إذا قيس بالنقوش التي ترجع الى القرن الثالث للميلاد وما قبله. فقد عثر العلماء على عدد كبير من النقوش في جنوبي بلاد العرب وفي المنطقة الشالية التي تمتدّ من العلّا ومدائن صالح الى شمالي بلاد حوران. أما ما يرجع الى الجنوب فقد عثروا الى الآن على نحو سبعة آلاف نقش ترجع الى المعينين والقناتيين والسبئيين والحمْيريين وغيرهم وهذه الكتابات بعيدة شديدة البعد عن الخطّ العربي المعهود. وأما ما يرجع الى لهجات الشمال فقد عثروا على نقوش لحانية، وعوديّة، وصفوية تتضمن معلومات ضئيلة عن أحوال العرب الثقافية والدينيّة قبل الإسلام. وليس هنا مجال لإطالة الكلام في هذه النقوش لأنها بعيدة الصلة بلغتنا الفصحى، وكتابتنا العربيّة، بخلاف كتابة نقش النجارة الذي سبق ذكره.

وقد ظهرت الكتابة العربيّة للمرة الأولى في نقشين وجد أحدهما في خراب زبد<sup>٢</sup> والآخر في حرّان اللّجا<sup>٣</sup>. أما الأولى فكتابة مسيحيّة باللّغات السريانيّة واليونانيّة والعربيّة يرتقي تاريخها الى سنة ٥١٢ / ٥١٣ م. والحروف العربيّة المستعملة فيه هي بمثابة صلة الوصل ما بين الخطّ البطني والخطّ العربي الكوفي. وأما الثاني فقد وجد منقوشاً على حجر فوق باب إحدى الكنائس حرّان اللّجا، وهو مكتوب باللّغتين اليونانيّة والعربيّة الكوفيّة، ويرتقي الى سنة ٥٦٨ م. والنقشان خاليان من التنقيط وحركات الشكّل<sup>٤</sup>.

١ - تقع زُبد بين قسرين والنُّرات شرقي حلب.

٢ - تقع حرّان اللّجا في المنطقة الشالية من جبل الدروز.

٣ - طالع كتاب «تاريخ اللّغات الساميّة» لولفنسون Wolfensohn المعروف بأبي دؤيب. القاهرة ١٩٢٩.  
 ص ١٩٢. - والجدير بالذكر أن التنقيط والإصمام لم يكونا معمولين في الحاشيّة، وإن علّت منها النقوش الأولى وقد عثر العلماء على وثيقة رديّة من سنة ٢٢ للهجرة ظهر فيها التنقيط والإصمام.

والذي نستخلصه مما سبق<sup>١</sup> أن كل دراسة لموضوع الكتابة في العصر الجاهلي ستبقى دراسة مبتورة ناقصة ما دامت رمال الجزيرة العربية تضرّ بهذه الكوز ، التي ترقد في بطونها ، عن أن تجلّوها لأبصار الدارسين ، حتى يسألوها أخبار هؤلاء الأسلاف الذين شاء لهم جحود التاريخ أن يوصموا بالجهل والبدائية<sup>٢</sup> . فقد كان العرب إذن يكتبون في جاهليّتهم ثلاثة قرون على أقلّ تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون . وقد أصبحت معرفة الجاهليّة بالكتابة ، معرفة قديمة ، أمراً يقينياً ، يقرّره البحث العلميّ القائم على الدليل الماديّ المحسوس . وكلّ حديث غير هذا لا يستند إلا إلى الحدس والافتراض . ولا ريب في أنّ ما سيُعثر عليه ، في مقبل الأيام ، من نقوش في قلب الجزيرة سيدعم رأي الدين يذهبون إلى أن عرب الجاهليّة كانوا يعرفون الكتابة منذ قرون قبل الإسلام . وسيلقي كثيراً من النور على ما لا يزال خافياً من أجزاء الموضوع<sup>٣</sup> .

ولا شكّ بعد ذلك كلّه في أنّ رقيّ اللغة الجاهليّة . ورقّيّ الكتابة والنقش في الجاهليّة . من أقوى الأدلّة على رقيّ العقل الجاهليّ وتقدّمه في مضمار الحضارة .

### ٣ - الكتابة والقراءة في الجاهليّة

لقد شاع فيها بين كتّاب العرب عصرأ بعد عصر أنّ الجاهليّة هي عهد الجهل والأمية والتوحّش البعيد عن كلّ رقيّ وعمران . وقد توهم ذلك الجاحظ نفسه في كتابه البيان والتبيين<sup>٤</sup> ، وابن عبد ربه في العقد الفريد<sup>٥</sup> ، ومحمد كرد عليّ في الإسلام والحضارة العربية<sup>٦</sup> . وليس الأمر كذلك فيما يرى وفيما يرى كثيرون من علماء العصر الحديث ، ولاسيما بعد الاكتشافات الأثرية التي أشرنا إليها والتي أظهرت علماً من الحضارات القديمة في جميع أطراف البلاد العربية . وقد تمسّك بعضهم بحجّة بعض

١ - طالع وتاريخ العرب قبل الإسلام ، لحواد علي ، ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ ، ٢٠١

٢ - الدكتور ناصر نذير لأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٣١ - ٣٣

٣ - البيان والتبيين ٣ ، ص ٢٨ .

٤ - العقد الفريد ٤ ، ص ٢٤٢

٥ - الإسلام والحضارة العربية ١ ، ص ١٢٤

الآيات انقرآنية ليصفوا الجاهلية بالأمية والجهل. قال الدكتور ناصر الدين الأسد: «غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعني، في رأينا، الأمية الكتابية ولا العلمية، وإنما يعني الأمية الدينية، أي أنهم لم يكن لهم (يعني غير أهل الكتاب من نصارى ويهود) قبل القرآن الكريم كتاب ديني، ومن هنا كانوا أميين دينياً، ولم يكونوا مثل «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل».

## ١ شيوخ الكتابة والقراءة في العهد الجاهلي:

كانت الكتابة شائعة في العهد الجاهلي ولاسيما في الحواضر، وكان للعرب إذ ذاك كتاتيب لتعليم الكتابة والقراءة، وشيء من مبادئ الحساب ورواية الشعر القديم والحكم المأثورة، وأنهار ادصين وقصصهم، وأنساب العرب الأقدمين وأحوالهم<sup>١</sup>.

لقد ثبت لنا أولاً أن الكتابة العربية وجدت في العهد الجاهلي في ما أشرنا إليه من غوش، ومع نضيق في ذلك أن القرآن نفسه يشير إلى انتشار الكتابة والقراءة في ذلك العهد نفسه. فقد وردت فيه آيات كثيرة تحتوي ذكر الكتابة والقراءة وتحتي بها احتفاءً عظيماً. ثم في انتشار اليهود والنصارى على النحو الذي بيّناه دليل واضح على انتشار الكتابة والقراءة، وهم أهل كتاب يقرأونه وينسخونه ويحاولون نشره في بيئاتهم المختلفة. أضف إلى ذلك أن الجهمشاري<sup>٢</sup> وابن عبد ربه<sup>٣</sup> والمسدودي<sup>٤</sup> ذكروا أسماء الذين كتبوا للبي العربي، وجمعهم مراتب ومنازل.

## ٢ - كتاتيب القراءة والكتابة:

ومن الثابت أيضاً وجود المعلمين والكتاتيب في الجاهلية، وقد اشتهر في ذلك أهل الطوائف وجماعة هيف. ذكر المؤرخون عدداً من المعلمين منهم يوسف بن الحكم النقي

١ - مصادر الشعر الجاهلي، ص ٤٤ - ٤٥

٢ - الدكتور طه حسين: تاريخ الأمة العربية ١ ص ١٥٢، ١٥٣، وقد عثّل ذلك في كتب وتاريخ التربة والسلم عبد الصمد - بيروت ١٩٥٦

٣ - كتاب الزوراء والكتاتيب، ص ١٢ - ١٤.

٤ - المعتمد القريب ٤، ص ٢٤٦.

٥ - المتنبي والإشراف، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.



وابنه الحجاج ، كما ذكر الطبري أنَّ جُفَيْنَةَ - وكان نصرانياً من أهل الحيرة — كان يعلم الكتانة بالمدينة ، وذكر البلاذري أنه « كان الكتاب في الأوس والخزرج قليلاً ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في انزمن الأول . وجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدَّة يكتبون<sup>١</sup> . » ومثل ذلك رواه كثيرون وقد دلَّوا به على انتشار الكتيب وحلقات التعليم ، كما دلَّوا على وجود مجالس لتدريس الأخبار والأشعار والأنساب<sup>٢</sup> .

ومن الجدير بالذكر أنَّ عدداً من أبهاء العربية كانوا يجيدون قراءة عدلة لغات أجنبية وكتابتها ، ومن أولئك علي بن زيد العبَّادي الذي أتقن الخط الفارسي<sup>٣</sup> ، « صار أمصح الماس وأكثبهم بالعربية والفارسية » ، ثم انتقل إلى بلاد فارس فأصبح كاتباً بالعربية ومترجماً في ديوان كسرى<sup>٤</sup> ، وزيد بن ثابت الذي أمره النبي بتعلم العبرانية ، وورقة ابن نوفل الذي تنصَّر في الجاهلية وكان يكتب بالعبرانية ، وغيرهم ممن لا مجال للذكر أسماهم ومن كانوا يتعلمون اللغات الشائعة إذ ذاك لهدف ديني أو تجاري أو سياسي .

### ٣ أدوات الكتابة والقراءة :

وهكذا يتضح لنا أنَّ الجاهلية لم تكن عهد ظلمة وأمية ، فالكتابة فيها معروفة منتشرة ، وإن لم تعمَّ العدد الأكبر من الناس ، وأما أدواتها فالجلد وكثونا يسمونه « الرق » و« الأديم » و« القضم » ، والقماش الحريري أو القطني ويسمونه « المهرقج . مَهَارِق » ، والعصيب أو جريدة النخل ، وعظام الكتف والأضلاع ، والحجارة وما إلى ذلك . وكانوا يستعملون في كتابتهم قَلَم القصب واللواة والمداد ، كما كانوا يستعملون أدوات أخرى للنقش والحفر . وقد ورد ذكر ذلك كله في أقوالهم وأشعارهم ودلَّ على مدى تقدُّمهم ورفقيهم .

١ فتح البلدان طبعة مصر ، ص ٤٧٩

٢ طبع تفصيل ذلك في كتاب « مصادر الشعر الجاهلي » ، للنصر الدين الأسد ، ص ٥٠ — ٥٤ .



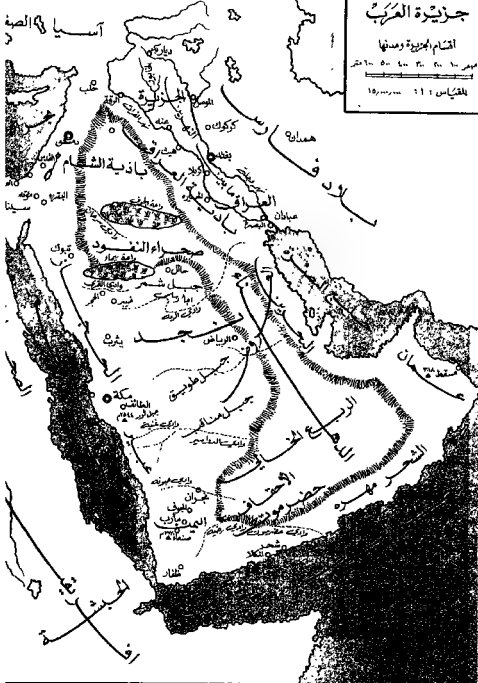
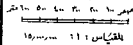
## مصادر ومراجع

- ولفسون. تاريخ اللغات السامية - القاهرة ١٩٢٩.
- حواد عليّ: تاريخ العرب قبل الإسلام - دمشق ١٩٥٧.
- أحمد فخري: بين آثار العالم العربي - القاهرة ١٩٥٨.
- ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهليّ - القاهرة ١٩٥٦.
- مليح حني. تاريخ العرب (الترجمة العربية) الجزء الأول - بيروت ١٩٤٩.
- اغناطيوس جويدي. المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة - القاهرة ١٩٣٠.
- محمد طاهر بن عبد القادر الملكي الخطاط. تاريخ الخط العربي وآدابه - القاهرة ١٩٣٩.
- عمر الناصويّ. النايقة الديبالي (المقدمات) - القاهرة ١٩٤٩.
- جرجي زيدان: تاريخ التمدّن الإسلامي - الجزء الثالث ص ٥٢ - ٥٥ - القاهرة ١٩٠٥.
- أيس فرينة: حروف الفحاء العربية - نشأتها، تطوّرها، مشاكلها - عن مجلة والأبحاث - بيروت - ١٩٥٢.

- B. Moritz : Ecriture arabe, in Encycl. de l'Islam, art. Arabie, T 1, 387 - 399.
- J. Halévy : Etudes sabéennes - Paris 1872
- H. Fleish : Introduction à l'étude des langues sémitiques - Paris 1947.
- P. Dhorne : Langues et Ecritures sémitiques - Paris 1930
- De Sacy : Nouveaux aperçus sur l'histoire de l'écriture chez les Arabes du Hedjaz, in Journal Asiatique 1ere ser., IX, 209 sq.
- Sedillot and L. Lacy O'Leary: Arabia before Mohamed, 1927
- Driver, G.R. : Semitic Writing. London 1948

# جزيرة العرب

أقسام الجزيرة ومعدنها



# الباب الثاني

## بيئة الأوب الجاهلي

### الفصل الأول

### البيئة الجغرافية

١ - شبه الجزيرة العربية : هو القمة الممتدة بين البحر الأحمر غرباً ، والمحيط الهندي جنوباً ، وخليج فارس شرقاً ، والعراق وبلاد الشام شمالاً على مساحة نحو ٣ ملايين كلم<sup>٢</sup>.

أ - أقسامه :

- ١ - نجد : هضبة واسعة خصبة في وسط شبه الجزيرة تكثر فيها الغرار . من أطيب بلاد العرب مثلاً وهواءً وخصباً.
- ٢ - الحجاز : يحد بين الشام وإيبس ، وهو في طريق قوافل التجارة . أكثر أرضه حرار وصحارى من أمكنته واحي القرى . من أشهر مدنه مكة وفيها الكعبة ، والطائف مصيف للموسرين من أهل مكة ، ويثر أو المدينة ، وحير ، والملا ، وملائن صانع ، وثيلة مدينة السموال
- ٣ - اليمن : القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية السعيدة ، ويدخل فيه حضرموت ومهرة وعان . أعنى بلاد العرب وأنصبيها ، قديمة المدنية من مدنها صنعاء ، وساء ، وأرب ، ومعين ، وبحران
- ٤ - الصحاري : صحراء الفود من واحة يمام الى واحة الحوف في الشمال وصحراء اللعنه . من الشمال الى الجنوب وفيها اربع الخالي

ب - منتجاته :

- ١ - النبات . الحيل وأنواع شتى من الحبوب والأشجار المثمرة والأطياب
- ٢ - المعادن : الجواهر الخظفة
- ٣ - الحيوان : الخيل والابل وقرى الوحش والعنم والمري ..

٢ - العراق

أ - موقعه : على ضفتي دجلة .

ب - البيئة : خصب وماء وفروة طبيعية . من أشهر مدنه الكوفة ، والأبار ، والمدن ، والحيرة وفندت إليه قبائل ترح منذ أوائل القرن الثالث لميلاد

٣ - الشام :

أ - موقعه : من القرات الى العريش التاعم مصر .

ب - البيئة : قام فيها قبل الاسلام ثلاث دول عربية

١ - دولة الأبياد في الجنوب وقاعدتها البتراء . الحارث رأس سلسلة ملوكها .

٢ - دولة تدمر في الشمال . من أشهر ملوكها أدبة ثم ريب

٣ - دولة الصناسة على رأس سلسلة ملوكها الحارث بن حلة .



دلتون (تريش) المنقح لسنة ١٩٥٠  
 أبيض كقشر الشحلة المتفكك

الأدب العربي شديد الصلة بالبيئة التي نشأ وترعرع فيها ، وقد كان شبه الجزيرة العربية موطنه الأول ، فيه انطلق انطلاقته الأولى ، وفيه نما وازدهر ، ومنه راقق القوافل الى قاصي البلاد ودانها ، فاخترق بادية الشام وشبه جزيرة سيناء ، وانتشر في بلاد ما بين النهرين ، وراح يفتتح الممالك والمسالك . فكان له في مملكة الحيرة ملكٌ وسلطان ، وكان له في مملكة عُصَّان أنصارٌ وأعوان ، ثم كان العهد الإسلامي فراقق الفتوحات ، وسار مع اللغة العربية يحلّ حيث حلّت ، ويزدهر حيث تزدهر وتنتشر .

## ١ - شبه الجزيرة العربية

### ١ - حدوده :

شبه الجزيرة العربية هو موطن العرب في جاهليتهم ، اختلف العلماء في تسميته وتحديد عى مرّ العصور ، وذلك بسبب تقلّبات الأنواء ورقعة الأرض وصفحة السماء ، وبسبب طبيعة السكان وأحوالهم الاجتماعية والمعيشية .

وشبه الجزيرة في الحقيقة هو البقعة الممتدة بين البحر الأحمر غرباً ، والمحيط الهندي جنوباً ، وخليج العرب شرقاً . والعراق وبلاد الشام شمالاً ، على مساحة نحو ثلاثة ملايين كيلومتر مربع .

### ٢ - سطحه وجوّه :

شبه جزيرة العرب بلاد أكثرها صحاري ودارات<sup>١</sup> ، وهي أعلى ما تكون غرباً ثم تتحدّر الى الشرق إلّا عند عُصَّان ، وتقع في المنطقة الحارة ، فلا يحسن مناخها إلّا على الهضاب المرتفعة . ولا يعكّر صفاء جوّها إلّا بعض الغيوم الثابتة هنا وهناك ، تأتي بأعطار موسمية ، تنثرها في بعض الأماكن القليلة ؛ وكثيراً ما تتأهبها مواسم جفاف فتجفّ معها الحياة ، وليس في شبه الجزيرة نهرٌ واحد دائم الجريان بل شبكة من الأودية تجري فيها

١ - التارة أرضٌ واسعة بين جبال ، ودارات العرب أمكنة في بلادهم تُنف على مئة وعشر ، وهي أراضي مسطّرة بين التلال الرملية ، ذات حصص أحياناً .

السُّيُول إذا تساقط المطر ، فيعتمد الناس الى السُدُودِ يحبسون بها المياه وينزبون بها لأوقات الحاجة .

وأما الرِّياح فلها في البلاد مسارج و« مناسج » ، منها « الصَّبا » تهبُّ في الشمال شرقية لطيفة ؛ ومنها الغربية تحمل من البحر الأبيض بلالاً وأمطاراً ، ومنها الجنوبية تهبُّ حارة في الصيف ومطيرة في الشتاء ، ومنها أخيراً السَّموُمُ شرَّ الرِّياح ومركبة الشرِّ والويل ، تأتي موسميةً ، وتهبُّ في وسط الصحراء براثةً كبريتية وقسوة عنيفة ، فتسلب رطوبة الهواء ، وتقضي على الحياة والأحياء .

### ٣ أقسامه :

شبه جزيرة العرب عدَّة أقسام : قسم غربيّ ينحدر من سلسلة جبال السَّراة الى شاطئ البحر الأحمر ويُسمَّى « الغَوَر » ، أو « تِهَامَة » ؛ وقسم يمتدُّ شرقيّ سلسلة السَّراة الى أطراف العراق وبادية السماوة ويُسمَّى « نجداً » ؛ وقسم يفصل ما بين تهامة ونجد ويُسمَّى « حجازاً » ، وقسم يقع جنوبيّ الحجاز ونجد ويُسمَّى « اليَمَن » و« حضرموت » و« الشَّحْر » ؛ وقسم أخير يمتدُّ من حدود نجد الى خليج البصرة ويُسمَّى « العروص » .

تهامة : أما تهامة فسهولٌ رمليةٌ تُخذدُ أطرافها الشرقية أوديةٌ جافة ، ويتقلب فيها أعرابٌ على تطّيف في العيش وجاهلية في الأخلاق . قال ياقوت : « سُميت تهامة لشدة حرّها وركود ريحها » .

نجد : وأما نجد فهضبة واسعة خصبة تقع في وسط الجزيرة العربية ، وتطّيف بها القلوات والجبال من كل جانب . وهي من أطيب بلاد العرب مناخاً ، وفيها الخيول العراب والأفاويه الشديدة التي تطّيب الهواء ؛ ولم يذكر الشعراء موضعاً أكثر مما ذكروا نجداً وتشوقوا إليه<sup>٢</sup> .

١ . معجم البلدان : تهامة - انور .

٢ . قال امرئ القيس :

أَكْرَرْتُ لِمَرْقِي نَحْوُ نَحْمٍ وَإِنِّي      إليهِ وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْ لَكُرْفٍ أَنْظُرُ  
خَبِيناً إِلَى أَرْضٍ كَأَنَّ ثَرَاتِهَا ،      إِذَا مُنْطَرَفَتْ ، عَوْدٌ وَبِسْكَ وَعَسْرُ  
بِلَادٍ كَأَنَّ الْأَسْمُونَ بِرُؤُوسِهِمْ      وَنَزْدُ الْأَفْكَاسِي وَشَيْءٌ نَبْرٌ مُخْشَرُ



**الحجاز :** وأما الحجاز فكان في طريق القوافل التجارية سواء توجهت من الشمال الى الجنوب ، أم من الجنوب الى الشمال . وأكثر أرضه صحارٍ وجرا . ومن أمكنته وادي القرى بين تيماء وخيبر وفيه الطريق من يثرب الى الشام . وأشهر مدنه مكة<sup>١</sup> ، وهي مقام ديني منذ القدم ، وفي وسطها البطحاء مسكن الأشراف ، وأشهر ما فيها الكعبة وبئر زمزم . وكان لموقع مكة الجغرافي أثر جليل في حياتها الاقتصادية ، وقد جعلها إحدى المحطات الكبرى التي تستقبل القوافل وما تحمله من طيب وخير الى شتى أنحاء العالم . وفي مكة وطدت قريش مركزها وسنت رحلتها الصيف (الى الشام) والشتاء (الى اليمن) ، فتدفق الخير في جنباتها ، وقامت الأسواق الكبرى في جوارها حتى مثل عكاظ ، ودو الحجاز ، ومجنة .

**اليمن :** وأما اليمن فهي «العربية السعيدة» على حد قول اليونان والرومان ، لأنها من أقدم البلاد عمراناً وأعرقها حضارة ، ولأنها من أغنى الأرض العربية خيراً وأخصبها ثروة . يضاف إليها خصومات بند التجارة ، وعُمان بلد الملاحة . ومن أشهر مدنها اليمن نجران وصنعاء موطن الأنسجة المطرزة والبرود والسيوف ، وظفار بلد الطيب والبخور ، ومارب ذات السد المشهور .

**الصحاري :** وأما الصحاري فتحتل قسماً كبيراً من شبه الجزيرة . هنالك صحراء النفود في الشمال تتصل ببادية الشام ؛ وصحراء الدهناء تستطيل من النفود الى الجنوب ، وتعرف الجانب الجنوبي الغربي منها باسم الأحقاف ، والجانب الجنوبي الشرقي باسم مفازة صيهذ أو الربع الخالي... والصحاري قفار ذات رمال تسفيها الرياح فتجعل منها أدهاصاً وكتباناً ، وتغطيها السماء أحياناً بالغيث فتجعل منها مرعى ومُنتجعا للمواشي وسرعان ما تجف موارد واحتياها ومراعيها .

وقد ورد في أشعار العرب أسماء كثيرة لجبال وأودية وبقع كانوا يتزلونها ، لكنهم نسوا في الأرملة الأخيرة أكثرها ، ومن ذلك أنهم كانوا يضيفون الى بعض الأسماء لفظة «برقاء» أو «برقة» أو ما أشبه ذلك . والبرقاء هي الأرض الغليظة ذات الحجارة ،

١ - الجرار جمع حرة : وهي أرض تركانية تتكون من بقايا الحمم التي تغلفها البراكين من باطن الأرض .

٢ - ويسمى بطليموس «مكورا» ، وللغة سبئية جبرية معناها «مفليس» أو «حرم»

فيقولون : برقاء جُنْدَب ، و برقاء شِمْلِيل ، و برقاء الأَجْدَيْن ، و بركة نُهْمَد ، ... وكذلك لفظة « بُيَيْر » فقد أطلقوها على عدة جبال بقرب مكة ، ومن ذلك بُيَيْر الزَّنج ، و بُيَيْر الأعرج ، و بُيَيْر الخضراء ، و بُيَيْر الأحذب ، و يقال لها الأَثِيرَة . وكانوا يتصرفون بمثل تلك الأسماء شتى التصرفات ، فيقولون مثلاً : ذو سَلَم ، و ذو الغضا ، و ذو قار ، و ذو طُلُوح ، و يقولون : ذات الشَّيْح ، و ذات الحُرْمَل ، و ذات عِرْق ، و يقولون : بطن قَوْ ، و بطن أنف ، و بطن مرّ ، و بطن إِيَاد . وقد أضافوا لفظة « دَارَة » الى أسماء كثيرة ذكر منها ياقوت أكثر من أربعين ، و ذكر الفيروزآبادي أكثر من مئة .

#### ٤ - مستجانه :

لا شك في أن قسماً كبيراً من شبة الجزيرة العربية تبتلعه الصَّحاري ، ولكن إلى جانبه واحات وأودية ينبت فيها التَّخِين ، وأراضي زراعية تصلح لأنواع شتى من الحبوب والأشجار المثمرة .

وكثيراً ما تكلم الأقدمون على ثروة بلاد العرب المعدنية فذكروا التَّيْر والجواهر الخفية ، وتكلموا كذلك على بعض الصناعات كدبغ الجلود ، وأفاضوا في القول عن الأطياب والعطور كاللِّبَان والسَّليخة والسَّنَا ... وعن الحيوان الداجن والمتوحش ، ولا سيما الجمال والفرس رفيق البليوي في حله وترحاله . وقد قيل : « الدوي والجمال والنخل والصحراء أشخاص التمثيل على مسرح الحياة في البادية » فالجمال « هبة الله » ومنه



الجمال مهيبة الصحراء .



مشهد من الصحراء تتوج فيه الرمال أدهاصاً وكثائناً (أطلس بدران)

البعير حامل الأثقال ، والدَّلُول أو الهجان حامل الناس . والبدوي الذي تضطره الطبيعة إلى التنقل من مكان إلى مكان في طلب الكلأ والماء ، وتضطره عادات الغزو إلى الكرّ والفرّ ، والتاجر الجاهلي الذي يجتاز المسافات الشاسعة للتجارة ، ورجال الحرب الذين يُغيرون أو يُغار عليهم ، كل أولئك كانوا بحاجة إلى الفرس والجمل . والجمل « سفينة الصحراء » وهو حيوان قوي ، يحتمل المشاق ويصبر أياماً على العطش ، وليس في البادية حيوان يقوم مقامه في الركوب وحمل الأثقال . وإلى جانب الإبل والحيل قطعان من ذوات الحافر والظلف ، وأسراب من القطا والحجل . وفي الشعر القديم مكان واسع لهذا الحيوان الذي كان للبدوي رفيقاً وأنبساً ، أو كان له مصدر خير ومير .

#### ٢ - العراق

قال ياقوت : « العراق أعدل أرض الله هواءً ، وأصحها مزاجاً وماءً ، فذلك كان أهل العراق هم أهل العقول الصحيحة ، والآراء الرّاجحة . والشهوات المحمودة ، والشائات الظرفية ، والبراعة في كل صناعة ، مع اعتدال الأعضاء ، واستواء الأخلاط ، وسُعة الألوان »<sup>١</sup> .

ومن أشهر مدن العراق الكوفة وهي على ساعد الفرات غرباً ، وكان ظاهرها منازل النعمان بن المنذر ، والأنبار ، والقادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق ، والمدائن جنوبيّ بغداد وفيها بقايا إيوان كسرى ، والخيرة وهي قاعدة الملوك اللّخميّين .

### ٣ - الشام

بلاد الشام هي نقطة دائرة العالم التاريخي ، وقد كانت على مرّ التاريخ هدفاً للغزوات ، فاجتمع فيها خليط من السكّان مختلف الأعراق والمداهب ، وقام فيها قل الإسلام ثلاث دول عربيّة : دولة الأنباط في الجنوب ، ودولة تدمر في الشمال ، ودولة الغساسنة بينها .

• • •

هذا هو المسرح الذي نشأ فيه الأدب الجاهليّ وترعرع وازدهر . وهو مسرح عجيب في تنوّع ألوانه وأحواله ، تتكوّن من أعمق أودية وأعلى قمم ، من أنضر بقاع وأشدها جفافاً وقسوة ، من ألين نسيم وأعنف سموم ، ومن أزهى حضارة وأدنى بداءة ، أي من كل شيء وضدّه . فما تأثيره على الأدب وممّا تأثير الأدب فيه ؟ هذا ما سيتضح لنا في الدروس الآتية .

### مصادر ومراجع

- فيبيب حتي : تاريخ العرب — مطّول - الجزء الأول - بيروت ١٩٥٨  
 جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الأول - دمشق ١٩٥٧ .  
 محمد عزة دروزة عصر النبي - دمشق ١٩٤٦ .  
 أحمد فخري : بين آثار العالم العربي القاهرة ١٩٥٨ .  
 محمد أسعد طلس : تاريخ الأمة العربية الجزء ١ - بيروت ١٩٥٧ .  
 سيديو : تاريخ العرب العالم — تعريب عادل زعير — مصر ١٩٤٨  
 جرجي زيدان : تاريخ العرب قبل الاسلام - القاهرة ١٩٠٨ .

H. Lammens: Le Berceau de l'Islam Rome, 1914

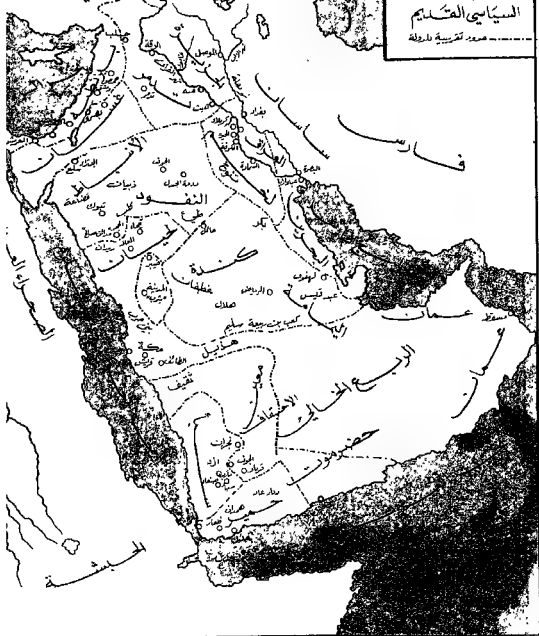
De Lacy O'Leary: Arabia Muhammad - London, 1927.



مصباح غزالي

من آثار الحضارة العربية الأولى

آسيا الصغرى



## الفصل الثاني البيئة البشرية والاجتماعية

١ - أصل العرب . لعرب من الشعوب السامية ، ابتداءً تاريخهم حوالي القرن الأربعين قبل الميلاد ، وكانوا مبعثراً والموجات السامية .

٢ - أقسامهم : ينقسم العرب الى ثلاثة كنانة وثمود ، وائل باعنة ، ومن هؤلاء العرب العاربة وهم القحطانيون الحنوني ، والعرب المستعربة وهم العدنانيون سكان الشمال .

٣ - حالهم قبل الاسلام

١ - حالهم الاقتصادية : لعرب الحاهلية حضارة ذات شأن تقوم في أساسها على التجارة ، ولاسيما وان بلادهم وسط بين اقم العالم ، وصلة وصل بين الهند وحوض البحر المتوسط ، وكانت قوافل التجارة تحترق اسلاك من اقاصها الى اقاصها ، وكانت هي والقوافل الطبيعية (كخضار سد مأرب) سبباً في اختلاط السكان ، وكان الاختلاط عامل هبلة اقتصادية وأدبية مرموقة .

ب - حالهم الاجتماعية والسياسية كان العرب حصراً وبدواً أما المحصر فهم سكان المدن والقرى ، ولم تجارة وريادة وصناعة من أشهر مملكتهم جند ، وأنهم ، وعسك . وأما البدو فهم القسم الأكبر ، وقد انتشروا في شمالي الجزيرة لا ينحصر لهم نظام القبيلة .

ج - حالهم الدينية . أشهر ديانات العرب في الحاهلية يهودية ذات جاليات قوية في الشمال والحجر والإيس ، ونضارية انتشرت منذ القرن الأول للميلاد في جميع أنحاء الجزيرة ، ووثنية على أساس صهيوني في الحبوب ، وحجوري بين العرب المستعربة .

د - حالهم الثقافية أخبار وأسباب ، ومعارف فلكية وطبيعية ، ومعارف غيبية .

٤ - أخلاقهم . من أخلاقهم الحرية والاستقلال ، الشجاعة والكرم والوفاء .

### ١ - أصل العرب

العرب من الشعوب السامية التي استوطنت جزيرة العرب وآسية الصغرى الى الفرات ، وكان لهم صلة الأصل بالعبرانيين والفينيقيين والآراميين والسريانيين والبابليين والآشوريين ، وكلهم من أرومة واحدة جائست ما بين لغاتهم ، وقربت ما بين تكوينهم الفيزيولوجي والنفسي . والعرب ذوو تاريخ عريق ابتداءً حوالي القرن الأربعين قبل

البلاد، وكانوا، في نظر عدد كبير من العلماء، مصدر موجات كثيرة اندفقت على الأقاليم المجاورة، وعُرفت به الموجات السامية<sup>١</sup>. أما سبب هذه الهجرات فما حلّ ببلاد العرب من جفاف حول معظم أراضيها إلى صحار قاحلة، وقضى على معظم حيوانها ونباتها، واضطرّ الكثيرين من سكّانها إلى مغادرة أرضهم، واللجوء إلى أرض أوفر خيراً، وأجزل عطاء.

## ٢ - أقسامهم

يُقسم العرب من حيث حاطم المعاشية إلى أهل حضر، وأهل وِبَر أو بدو<sup>٢</sup>. ويُقسمون من حيث أصلهم إلى أعراق ثلاثة: العرق الذي يادّ وعفا أثره قبل الإسلام، والعرق القحطاني الذي استقرّ في بلاد اليمن<sup>٣</sup>، والعرق العدناني المتحدّر من اسماعيل<sup>٤</sup>.

### أ - العرب البائدة:

استوطن أولاد سام بن نوح بلاد شبه الجزيرة العربية، ونشأ منهم قبائل ويطون كثيرة ياد أكثرها أو قني في غيره. وهي، على ما ذكر سبع قبائل: عاد، وثمود، وصحار، وجاميم، وويار، وطّسم، وجديس. وكانت مساكنهم بعمّان والبحرين واليمامة. وقد عثر لهم العلماء، بالقرب من تيماء، في شمالي الحجاز، على نقوش بالخط اللحياني والشمودي والصفوي، وهي تُطلّعنا على بعض أحوالهم وعلى ما بين لغتهم ولغة العرب من فروق وتباين.

١ - طالع: جود عي: تاريخ العرب قبل الإسلام ١٠١، ١٤٨.

٢ - جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام ١٠١، ١٥٨.

Die Alte Geographie Arabiens: Sprenger

٣ - يبدو نسبة إلى السادة وهي الصحراء؛ والوِبَر شعر الجبال الذي كانوا يضمنون منه حياهم.

٤ - هؤلاء هم أقدماح العرب.

٤ - طالع كتاب «حصارة العرب» لفوستف لويون، ترجمة عدل وعيتر. الطبعة الثانية، ص ٨٨ -



ب. العرب الباقية : وهم قسبان : القحطانيون أو العرب العاربة ، والعذنيون أو العرب المستعربة .

أما القحطانيون فهم عرب اليمن ، ويُعرفون بعرب الجنوب ، ويُسبون إلى يعرب<sup>١</sup> ابن قحطان. قيل إن قحطان كان ملكاً ، ومن نسله جُمير ، وقبائل العرب العاربة ، وكانت لغتهم «الجُميرية» ، وقد كشفت الحفريات في بلاد اليمن عن عدد كبير من آثارها .

وأما العذنيون فهم عرب الشمال من نسل عدنان ويُقال هم «الترابيون» . وفدوا إلى الحاضرة من البلاد المجاورة واختلطوا بأهلها فتعربوا ، ولهذا قيل لهم «العرب المستعربة» ، ويُعرف منهم الحجازيون ، والنجديون ، والأنباط ، وأهل تدمر .

#### ٤ - حاضهم قبل الاسلام

ليس لدينا من الوثائق ما يطلعنا على أحوال العرب قبل الاسلام إطلاقاً وأياً ، وجنّ اعتمادنا في ذلك على ما جاء في روايات الرواة الإسلاميين ، وما ورد في أشعار الجاهليين ، وفي التوراة والقرآن ، ثم عند بعض الكتاب الأقدمين ، من رومان ويونانيين ، وأخيراً على ما اكتشفه العلماء الأثريون في بلاد اليمن من الكتابات والنقوش الجُميرية ، وما جاء في الخطوط الأشورية ، وغيرها ... والجدير بالذكر أن هذه الحقبة من الزمن التي تمتد في تاريخ العرب منذ ظهورهم إلى الهجرة النبوية سنة ٦٢٢ ، تُسمى «جاهلية» .

١ - قيل إن العرب سُميت «عرباً» نسبة إلى يعرب وكانت الكلمة «عرب» تدلّ على لقتال التبيّة التي كانت منتشرة في شمال الجزيرة ، ثم شاعت لغة هذه القبائل في معظم بلاد الجزيرة فأطلقت اللفظة «عرب» على كلّ من يتكلم بهذه اللغة من السكّان سواء أكانوا بدواً أو من أهل الحضر . وقد ذهب بعض «علماء» إلى أن اللفظة «عرب» يُراد بها في اللغة السامية الأصلية «العربون» أي سكّان عربيّ البراري إلى سحر المتوسط ، وهكذا كان في نظر هؤلاء العلماء ، لفظ «العربي» مرادفاً للفظ «العربي» . ثم أُطلق الاسم على جميع سكّان الجزيرة والجزيرة يذكّر أن العرب أمروا بالسكّان الحياض المتخلفين في الوادي اسم «الأعراب» . وهكذا فالعربي هو العربي من حاضرة البدو ، وليس كلّ عربيّ أمراً .

٢ - قيل إن ملكه سبق عهد الإسكندر المقدونيّ بحو اليّ وسع مئة سنة ، وفيه يقول أحد الشعراء .

ما مثل قحطان الساحة والسدى ولا كُنْته ربّ امصحة يعرب

جاهلية أولى : من زمن ما قبل التاريخ الى القرن الخامس للميلاد ،  
وجاهلية ثانية : من القرن الخامس الى سنة ٦٢٢م .

توهم الكثيرون أن بلاد العرب قبل الإسلام كانت بلادَ بدوٍ وجهالة ، وليس الأمر كذلك ، فلعرب الجاهلية حضارة ليست دون حضارة الآشوريين والبابليين عراقيةً وشأنًا. قال ونكلر Winckler ان تاريخ الجزيرة العربية ، كما توضحه النقوش ، يُظهر لنا مجموعة من الحكومات والدُول المنظمة منذ أقدم القَدَم . وقال هومل Hommel ان الحضارة العربية الجنوبية يأتها ومدابجها ذات البخور ، ونقوشها وحُصونها وقلاعها ، لا بُدَّ أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد<sup>١</sup>.

#### أ - حالهم الاقتصادية :

التجارة في أساس حضارة العرب : كانت بلاد الشرق ، منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، مهد الحضارات القديمة ، وقد تمازجت تلك الحضارات وتفاعمت ، وكانت التجارة من أهم عوامل الاختلاط والتمازج . وبلاد العرب ، بسبب موقعها الجغرافي ، كانت صلة وصل بين الشرق الهندي والغرب (حوض البحر الأبيض المتوسط) ، وطريقاً للقوافل التي تحمل السلع ومع السلع حضارة وثقافة .

كانت طرق القوافل تحطّ الجزيرة من أطرافها الأربعة ، وقد امتاز عرب الجنوب بالتجارة بين الهند ومصر ودول بحر الروم ، وأسسوا لهم مستعمرات في شمالي الجزيرة على خطوط المواصلات أصبحت مع الأيام دُوَلات ذات شأن : أثبات البتراء ، وعرب ندمر ، ثم غساسنة بصرى ولخيجي الحيرة ...

وبعد خراب سد مأرب بسبيل العَرم ، أي نحو سنة ١١٥ قبل الميلاد ، نزح عدد كبير من أبناء الجنوب قاصدين ديار عدنان في الشمال ، وقصد بنو ثعلبة بن عمرو

١ - نقل أقوال العلماء في هذا الشأن الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه «مصدر الشعر الجاهلي وقبته التاريخية» ، ص ١١ - ١٢  
— طالع أيضاً :

Margoliouth Relations between Arabs and Ysraelites, prior to the Rise of Islam, 24.

- الدكتور أحمد محري ، بين آثار «عالم العربي» ، القاهرة ١٩٥٨

يثرب وكان من بينهم الأوس والخزرج ؛ ونزلت خزاعة مكة وأجلت جرهما عنها ؛ ونزل جثمة بن عمرو وبنيه الشام وسُموا غسانة نسبة الى ماء هناك يُدعى غساناً ؛ وتوجّهت قبيلة لَحْم بن عدي نحو الحيرة بالعراق ، ومنها نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة ؛ وحلّت طي في الجبلين أجاً وسُلَمى الى الشمال الشرقي من يثرب . وهكذا تفرقت تلك القبائل في جميع الأنحاء حتى ضرب بها المثل فقول : « تفرقوا أيدي سباء » . وأدّى ذلك الى اختلاط شديد بين عرب الجنوب وعرب الشمال بالجوار والمصاهرة والحروب والتجارة . ولكن ذلك الاختلاط لم يُزل ما بين الفريقين من تنافر ظلّ دهرًا طويلاً حتى بعد ظهور الإسلام ؛ وان كان العامل الأكبر ، في الفريق الخامس والسادس ، لاستفاقة الحجاز الشديدة التي كانت منها النهضة الجاهلية في حقل الاقتصاد والأدب .

والجدير بالذكر أيضاً أن بلاد العرب ، بسبب موقعها التجاري ، كانت هدفاً لكل طامع ، فكان يقصدها الهنود والأحباش من الجنوب ، والعُرس والآراميون والروم والمصريون من الشمال ؛ وكانت تحاول السيطرة عليها كل دولة تمتد لها السيادة في الشرق ، وذلك لتضع يدها على طريق القوافل ، أي طرق المواصلات الوحيدة بين الشرق والبحر لذلك العهد . وهكذا جرى تمازج شديد في بلاد العرب بين المدنيّات والحضارات .

## ب - حافهم الاجتماعية والسياسية :

ذكرنا سابقاً أنّ العرب قسيان : أهل حضر وبدو ، ولكل من هذين القسمين حالة اجتماعية وسياسية .

- ١ كان بنو غسان يؤرخون بالتصجار سداً ما رُب جاهلين ذلك الحادث بداية عهدهم الجديد . وقد انفجر ذلك السد غير مرّة ولا تزال أغصانه ظاهرة الى اليوم
- ٢ لقد عزم الاسكندر المقدوني على فتح بلاد العرب ، ولكنه مات قبل أن يتم ذلك . وساق أوغسطس قيصر ارماني سنة ٢٤ ق م . الى اليمن جيشاً جزاراً لم يُلاق إلا الأهوال ، ووصل بعد ستة أشهر الى عمران ، وفل وصوله الى مارب انتهى باليهين في معركة قضت قضاءً تاماً على أمل الرومان في السيطرة على تلك البلاد .

**أهل الحضر:** أما أهل الحضر فهم سكّان المدن والقرى؛ كانوا يعيشون عيشة قرار ويتعاطون التجارة والزراعة والصناعة، وقد اشتهرت جبرتهم المفقوة<sup>١</sup>، وبرودهم وميوهم اليمنية، والجلود التي افتتوا في ديبها، والأفاويه والعطور التي حملوها الى جميع البلدان. وكانت مدنهم أبنية ذات هياكل وقصور، ومن قصورهم المشهورة الخورنق والسدير في العراق، وعُمدان بظاهر صعاء اليمن، وهو سبع طبقات وفيه ما لا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة. وكانت لهم ممالك عدّة، من أشهرها:

• **مملكة حمير:** في اليمن، وهي من أقدم الممالك العربية وأطولها أجلاً. اشتهرت بعلم الهندسة وتنظيم الري، ومن آثارها سد مأرب.

• **مملكة نهم:** وهي من أعظم الدّول العربية شأنًا، وقد بلغت أوجها في عهد أدنيّة الثاني الذي منحه روما سنة ٢٦٤ لقب حاكم عام على المشرق من حدود أرمينية الى جزيرة العرب، ثم في عهد امراته زينب المعروفة بالربّاء.

• **مملكة الأنباط:** قامت في جنوبي الشام وشمالى شبه جزيرة سيناء، وعاصمتها مدينة سَلْعُ المعروفة بالبتراء<sup>٢</sup>. وقد امتدّ عهدها الى أوائل القرن الثاني للميلاد أي الى أن استولى عليها الرومان سنة ١٠٦ م. قال ديودورس الصقلّي: «إن الأنباط يعيشون في البادية الجرداء التي لا أنهار فيها ولا سيول ولا ينابيع... وثروتهم من الاتجار بالأطياب والمر... يحملونها من اليمن وغيرها الى مصر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، ولم تكن تمرّ تجارة في أيامهم بين الشرق والغرب إلّا على يدهم، ويحملون الى مصر على الخصوص القار لأجل التحنيط. وهم ضنينون بحريّتهم، فلذا دهمهم عدو يخافون بطشه قروا الى الصحراء»<sup>٣</sup>.

١ - الحبر مفقوفة ضرب من برود اليمن فيها حطوط بيضاء مستطيلة.

٢ - وما تزال أطلال هذه المدينة الجبارة. شاهدها على ما يبغى أهلها من الرقي العمراني والهندسي والفني. وأجل هذه الأطلال القصر المعروف اليوم بـ«خربة فرعون»، وهو بناء شامخ مقنن في الصخور ذات اللون الوردّي البديع، وقد نقشب واحده هذا القصر نقشاً عديداً، وزيّت بالكائنات السلطانية الجميلة، وأنعم الى جانب القصر مدرج صخري كان يتخذ مسرحاً للألعاب العامة، يذكرها محسّارح روما وأثينا، ومن آثارها أيضاً «قصر اللدير» وهو كهف ضخم بارع الهندسة، كثير النقوش عني بالزخارف. (الدكتور طلس)

٣ - عن تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، الجزء ١، ص ١٧٧

• مملكة المناذرة : هي مملكة اللخمين ، وقد امتدَّ عهدها من أوائل القرن الثالث للميلاد الى القرن السابع ، وكانت قاعدتها الحيرة بالعراق ، وكان ملوكها موالين للفرس يأتمرون بأمرهم ، ومن أشهرهم النعمان الأول (٤٠٠ - ٤١٨ م) صاحب قصري الحوزنق والسدير ، والمنذر الثالث ابن امرئ القيس بن ماء السماء (٥٠٥ - ٥٥٤) ، وعمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩) الذي كان بلاطه موثلاً للشعراء والأدباء ، والنعمان بن المنذر «أبو قابوس» الذي مدحه النابغة الذبياني .

• مملكة الغساسنة (أولاد جفنة) وكانوا يقيمون في بلاد حوران ، أي في بصرى وما حولها ، وقد امتدَّ عهدهم من أوائل القرن الثالث للميلاد الى الفتح الإسلامي ، وكانوا موالين لروم البيزنطيين . من ملوكهم الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩) الذي انتصر على المنذر بن ماء السماء في يوم حليمة ، وكان قصره مرتاداً للشعراء .



من آثار البتراء .

١ - طالع «بين آثار العالم العربي» للدكتور أحمد فخري ، صفحة ٤٩ . ومدينة بصرى من أهم مناطق الآثار في البلاد العربية . فيها آثار وثنية ربما كان أهمها المسرح الشهير الذي كان يتسع لأكثر من أربعة عشر ألف شخص ، وفيها آثار مسيحية من أهمها الكاتدرائية ودير بجرار لراعي . وفيه أيضاً آثار إسلامية من جوامع ومساجد وما إلى ذلك .

• مملكة كندة: في نجد، وقد امتدَّ عهدها من نحو سنة ٤٥٠ الى نحو سنة ٥٥٤. وكان أمراؤها تارةً مع يزنطية وتارةً مع الساسانيين الفُرس، وكان حُجْر والد الشاعر امرئ القيس آخر ملوكها قتله بنو أُمْدٍ.

أهل الوَبَر أو البدو: وأما البدو فهم القسم الأكبر، وقد انتشر أكثرهم في شمالي الجزيرة، وكُنِت البيئة الصحراوية حالهم الاجتماعية، فاحتقروا الصناعة والزراعة، وعاشوا تحت الحيام<sup>٢</sup> على رعي الأنعام، يطعمون من لحمها ولَبَنِها، ويكتسون بصوفها ووبرها. ويشعون مواقع المطر طلباً للكلأ والماء؛ وإذا احتاجوا الى غير ما تنتجه ماشيتهم تحاملوا عن طريق البَدَل، فاستبدلوا بالماشية ونتاجها ما يتطلبون من ثَمَر ولباس وغير ذلك من المأكول والملبوس. وقد يلجأون الى الغزو والسلب إن عَصَتِهم الحاجة أو دعاهم طلب الثأر<sup>٣</sup>.

وهم لا ينصعون لنظام غير نظام القبيلة ولا يعرفون حكومة أو مملكة في غير الأسرة والعشيرة. فكان مجتمعهم مجتمع القبيلة والحيمة لا مجتمع الأمة والشعب. وكان لكلِّ قبيلة رئيس هو شيخها والسيد فيها، وهو عصبها ورباط وحدتها والحكم في شئونها. وأفراد القبيلة متضامنون ينصرون أخاهم ظالماً كان أو مظلوماً. وشعور البدوي بارتباطه بقبيلة يحميه وتحمية هو المسمى بالعصية. وكان سلطان الأب في بيته مطلقاً يتصرف في أمور أهله على هواه. وكان للمرأة أن تشارك زوجها في أمور الحياة وكانت موضوع إجلال في البيت كما كانت تتمتع بحظٍّ وافر من الحرية والاستقلال.

والعرب تُقسَم في اصطلاح علماء النَّسَب الى طوائف أعَمَّها الشَّعْب كبنِي مُضَرَ،

١ طاع أوبيدر. ملوك كندة The Kings of Kinda طاعة ليزج.

٢ - من أنواع بيوت البدو ما يسمى بـسُرْدَق، وهو حيمة من نسيج القطن، والفُسطاط وهو بيت كبير من الشعر. ولحاء وهو بيت من الصوف. والنجاد من الوَبَر، والحيمة من العزل، والقَنَّة من اللُّب، والحظيرة من الشجر. والطراف من الأديم. وكان الرئيس عندهم، إذا صرب على أحد قَبْه حمران من آدم، عُرفَ قدره منه ومكانه عنده.

٣ قال جواد علي: «قد ربط أخذ الثأر عند الجاهليين بحقيقة تتعلق بمستقبل المقتول ومستقبل أهله، فالمقتول لا يمكن أن يستقر روحه ونسج إلا بالأخذ بثأره. إنها تعرف مائة على القبر، تقول: اسقوني اسقوني! ول تستقر إلا بعد الأخذ بالثأر ومفك دم القاتل أو من يُسفك دمه مكانه».

(تاريخ العرب قبل الاسلام ٦ ص ٣٤١)

وأخص منه القبيلة كيني قيس بن عيلان بن مُضَر، ثم العارة كيني سعد بن قيس بن عيلان، ثم البطن كيني غطفان بن سعد بن قيس، ثم الفخذ كيني ذبيان بن بغض بن ريث بن غطفان، ثم القصيلة كيني فزارة بن ذبيان، ثم العشيرة وهم أدنى الأقاليم كيني بدر الغزاري<sup>١</sup>.

#### جـ - حاضرم الدينية:

ديانات العرب في الجاهلية ثلاث: اليهودية، والنصرانية، والوثنية. أما اليهودية فقديم العهد عندهم، دخلت الجزيرة في زمن إسماعيل وإبراهيم الخليل، ثم شتلت هجرة اليهود إليها بعد انهيار الدولة اليهودية وخراب المدينة المقدسة والهيكل<sup>٢</sup>، فأنشأوا لهم جاليات قوية في الشمال والحجاز واليمن، وانتشروا في مكة والمدينة والطائف، واستقلوا في خيبر وفدك، وأنشأوا لهم أحياء خاصة في مدُن ساحل البحر الأحمر. وقد دعا اليهود الى التوحيد فدخل عدد من العرب في دينهم، وصاروا يُعبرون العرب حُهاراً بوثنيتهم حتى زالت قداصة الأصنام من نفوسهم<sup>٣</sup>.

وأما النصرانية فقد دخلت بلاد العرب منذ عهد الرسل خلفاء المسيح. وأثبت ابن هشام<sup>٤</sup> والطبري<sup>٥</sup> وابن خلدون<sup>٦</sup> أنَّ عيسى عليه السلام بعث ابن ثلثة<sup>٧</sup>، وهو من

١ - أشهر القبائل العربية كما رتبها عدد من المؤرخين.

٢ - عرب الجنوب أو القحطانيون:

(١) قحطان: يعرب - يشحب - ساء. ومن ساء كهلال وجيز.

(٢) كهلان. حبيي همدان - عاملة حُمدان (ومها لحم، وكبد)، والأرد (ومها لفسامة، وخزاعة، والأوس والخزرج) أنادر.

(٣) جيز: قصاعة - نوح - كلب جهينة - عُدرة.

عرب الشمال أو العدنانيون

(١) عدنان: عمَد - نزار - ربيعة - إباد - مُضَر.

(٢) ربيعة: أمد - وائل (ومنها بكر، وتعب).

(٣) مُضَر: قيس عيلان (ومها هوازن، ومُكلم، وعطفان، ومن غطفان عس وذُبيك) - نعيم هُليل

كِنانة (ومنها قُرَيْش). ٢ - دُمَرا أبرومان سنة ٧٠.

٣ - محمد حسين هيكَل - حياة محمد، ص ٢٩٦. ٤ - ابن هشام: السيرة، ص ٢٥٥.

٥ - الطبري: أخبار الرسل والملوك ١ ص ٧٣٨. ٦ - ابن خلدون: كتاب البَحر، ص ٢٠٠. ٧ - ابن هشام: السيرة، ص ١٥٠.

٧ - ابن ثلثة أي برتلانوس، ولغة دير بالآرامية معناها «ابن».

الحواريين، إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز. وانتشرت النصرانية انتشاراً واسعاً في جميع أنحاء الجزيرة، ودان بها عدد كبير من القبائل. قال البخاري: «إن قضاة أول من قدم الشام من العرب، فصارت إلى ملوك الروم فملكهم. فكان أول الملوك لتتوخ ابن مالك، فدخلوا في دين النصرانية، فملكهم الروم على من بلاد الشام من العرب<sup>١</sup>». ثم قدمت غسان الشام وتصرّت وملكها الروم على العرب. وقد سيطرت النصرانية على الشام وأعلى العراق والحجاز<sup>٢</sup>، كما شاعت في اليمن وابتنى أبرهة، عامل التجاشي، كنيسة في صنعاء من أعظم الكنائس سماها «القلبيص» وكان ينوي أن ينافس بها مكة الوثنية، وبصرف إليها حج العرب<sup>٣</sup>. وتسربت النصرانية إلى يرب ومكة، وكان لها في كل مكان أساقفة، كما كان لها أساقفة يرحلون مع أهل البدو، سموهم «أساقفة المضارب». وهكذا كان التوحيد المسيحي منتشر في جميع البلاد العربية لذلك العهد.

وأما الوثنية فكانت شائعة أيضاً في شتى أنحاء الجزيرة، ويرى الدكتور جواد علي وغيره من علماء التاريخ أن الشعوب السامية كانت في الأصل على التوحيد، وأن الوثنية والأصنام والشرك عرّص طراً على حياتهم الدينية<sup>٤</sup>. وكانت الديانة الوثنية في جنوب شبه الجزيرة على أساس فلكي، تقوم على عبادة القمر «الإله ود»، وتعد الشمس زوجة له. وعشتر، أي الزهرة، ابناً لها. أما وثنية العرب المستعربة فكانت على أساس حجري تعد بعض الأحجار بيتاً لله، ويقام حول تلك الأحجار المقدسة بناء يدعى «حرمًا». وكانت زيارة ما يسمونه «بيت الله» أو الحج في أوقات معلومة يسمونها «الأشهر الحرم». وأشهر «بيت الله» كعبة مكة لوقوعها في الوسط من طريق القوافل، لذلك لزم قريش جوارها وقامت بسلطانها. وكان في الكعبة أصنام لجميع القبائل، وكبير الآلهة فيها الضمن «هبل». وكان المقدّم على المعبودات التي حوتها

١ - تاريخ البخاري ١ ص ٢٣٤

٢ - طالع وتاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٥ ص ٣٩٩، وسيرة الرسول، لدروزة ٢ ص ١٤٣، وخطط الشام، لحمد كرد علي ١ ص ١٠٥

٣ - ابن هشام: السيرة ١ ص ٤٤.

٤ - تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ ص ٢٠ و ١٢٠

٥ - عشر هو عشائر الدالية، وعشורות الغببية.



الكعبة إذ ذاك الله<sup>١</sup>، ويسوغ الاستنتاج أن الله كان المعبود القلبي لقريش قبل الاسلام<sup>٢</sup>. والظاهر أن إكرام أهل مكة للآلات والعزى ومناة كان إكراماً للملائكة<sup>٣</sup>.

#### د - حالهم الثقافية :

لقد شاع فيما بين كتاب العرب عصرًا بعد عصر أن الجاهلية عهد الجهل والامية<sup>٤</sup>، وتمسك بعضهم بحقيقة بعض الآيات القرآنية ليقفوا الموقف نفسه من ذلك العهد، وليس الأمر كذلك في نظر العلماء. قال الدكتور ناصر الدين الأسد : « عبر أن هذا الوصف بالامية لا يعني ، في رأينا ، الامية الكتابية ولا العلمية ، وإنما يعني الامية الدينية ، أي أنهم لم يكن لهم (يعني غير أهل الكتاب من نصارى ويهود) قبل القرآن الكريم كتاب ديني ، ومن هنا كانوا أميين دينيًا ، ولم يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل<sup>٥</sup> ».

الكتابة والقراءة : كانت الكتابة شائعة في العهد الجاهلي ، ولاسيما في الحواضر ، وكان للعرب إذ ذاك كتابات لتعليم القراءة والكتابة ، وشيء من مبادئ الحساب ، ورواية الشعر القديم والحكم المأثورة ، وأخبار الماضين وقصصهم ، وأنساب العرب الأقدمين وأحوالهم<sup>٦</sup>.

لقد ثبت لنا ان الكتابة العربية وجدت في العهد الجاهلي في ما أشرنا إليه من نقوش ، ومن الثابت أيضاً وجود معلمين وكتاتيب ، وقد اشتهر في ذلك أهل الطائف وجماعة ثقيف<sup>٧</sup> ومن الجدير بالذكر أن عدداً من أبناء العربية كانوا يجيدون قراءة عدة لغات أجنبية وكانوا يكتبونها ، من أولئك عدني بن زيد العبدي وورقة بن نوفل.

١ - الدكتور فليب حتي : تاريخ العرب ١ ص ١٣٩ - ١٤١.

٢ - راجع السيرة لابن هشام ٢ ص ٢٨٥.

٣ - الجاحظ في البيان والبيان ٣ ص ٢٨ ، وابن عدوت في «العقد الفريد» ٤ ص ٢٤٢ ، وعبد كرد علي في «الاسلام والحضارة العربية» ١ ص ١٢٤.

٤ - مصادر لشعر الجاهلي ص ٤٤ - ٤٥.

٥ - الدكتور طه : تاريخ الأمة العربية ١ ص ١٥٢ - ١٥٣ - وقد نقل ذلك في كتابه «تاريخ التربية والتعليم عند المسلمين».

٦ - ذكر المؤرخون عدداً من المعلمين منهم يومف من الحكم الصفي وأمه الحجاج - طالع كتاب ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد (ص ٥٠ - ٥٤).

**الأخبار والأنساب:** والعرب في الجاهلية شديداً الشَّغَفُ بأخبار الماضين، شديدو التَّشَبُّعِ والرواية لها، يشهد بذلك الشعر الجاهلي والقرآن نفسه، ثم كُتِبَ الإسلاميين من بعد. فقد تداولوا أخبار عرب الجزيرة وممالكها، وقصص الأنبياء والرُّسل، قال الجاحظ: «ومما يتعلَّق بهذا الباب من العلم أخبار العرب وحروبهم وأيامهم وفرسانهم وأسماؤهم، ومن أشهر قصصهم المتوارثة قصص مأرب، وسيرة أصحاب الأخدود، وقصة الفيل، وقصة ذي يزن الحميري، وقصة عمرو بن لحي صاحب عبادة الأصنام في الجزيرة...»<sup>١</sup> وإلى جنب هذا كنهه كان العرب على إلمام بأخبار الفرس والروم وغيرهم. روى الدكتور طلس عن ابن هشام صاحب السيرة أنَّ النضر بن الحارث ذهب إلى فارس وتعلَّم قصص اسفنديار ورستم ثم رجع إلى الحجاز وأخذ يقصُّها على أناس.<sup>٢</sup>

وكان العرب إلى ذلك يتعاطون علم الأنساب وذلك لإيجاد العصية التي بها قوام سطوتهم.<sup>٣</sup> «ولشدة مباحاتهم أنسابهم كان كثيراً ما يقع التنافر بسببها، فكان إذا تنافر رجلان في الحسب والنسب تنافرا إلى حكايتهم، فيقولان عند المنافرة أينا أعزَّ نَفراً؟ والمنفور هو المغلوب والتافر الغالب. ويقدل لمن يقضي في ذلك الحكم. وكان المنفور يعطي التافر ما يقع عليه الشرط، فينحطَّ قدره بين العرب. وكان من حكاياتهم أكرم ابن صفيي، وحاجب بن زرارة... ومن حكاياتهم قيس عامر بن الظرب... ومن حكاياتهم قريش عبد المطلب، وأبو طالب...»<sup>٤</sup>

وقد أورد فضلاً عن ذلك نصاً لأين فارس يثبت فيه أن عرب الجاهلية كانوا على إلمام بعلوم اللغة وقواعدها وعروضها (ص ٤٦ - ٥٠) وجاء في سيرة ابن هشام أن عمرأس قريش أرادوا أن يصموا عى رأيي النبي، فقلوا للغيرة: ونقول كاهن! قال لا والله ما هو بكاهن! لقد رأينا الكهان ما هو بزميمة الكاهن وسجهم! .. قالوا فقول شاعر! قال ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهرجه وقريضه ومقريضه ومسطوطه. فما هو بالشعر... (ص ١٧١).

١ البيان والبيان ١ ص ١٨. والدكتور طلس ١ ص ١٥٣ - ١٥٤

٢ المرجع الأخير، ص ١٥٣.

٣ طالع المقدمة لأين جلدون طبعة دار الكتاب اللبناني. ص ٢٢٨ - ٢٢٩

٤ - صكاة العرب، ص ٤١ - ٤٢.

**الفلك والطبيعة :** كان العرب في الجاهلية ذوي صلة وثيقة بالكلدانيين والصابئة وغيرهم ممن كان لهم الملم واسع بعلوم الفلك والنجوم على الطريقة القديمة ، وكانوا يعرفون الكواكب السيارة السبعة عن رأي القدماء ، ويعرفون أبراج الشمس ومنازل القمر . وكانوا يقسمون السنة الى اثني عشر شهراً قمرياً ، وقد اختلفت أسماء الشهور باختلاف الأيام والقبائل الى أن ثبتت أخيراً التسمية المعروفة الى اليوم<sup>١</sup>.

**الطب :** والعرب في الجاهلية حاولوا أن يكافحوا الأمراض بما لديهم من وسائل ، وكان جلّ اعتمادهم في ذلك على الحشائش التي عرفوا خصائصها وفوائدها ، ثم على الكيّ والعصد . وقد جاء في أمثالهم « آخر الطب الكي » . وكانوا يضيفون الى ذلك طائفة من الرقي والعزائم والتقامم . أما مصدر معرفتهم الطبية فاستقراؤهم وتجاربهم ، ثم السريان والقرس والهنود الذين نقلوا عنهم الشيء الكثير .

ومن أطباهم المشهورين لقمان الحكيم ، وابن حذيم من تيم الزباب ، وهم يضربون فيه المثل بالحقافة في الطب فيقولون : « أطلب من ابن حذيم » ، قال أوس ابن حجر :

قَهْلٌ لَكُمْ فِيهَا إِلَيَّ فَتَنِي بِصِيرٍ بِمَا أَعْيَى النَّطَاسِي حَذِيمًا

ومن أطباهم الحرث بن كلدة ، وهو من بني ثقيف من أهل الطائف ، رحل الى أرض فارس ، وأخذ الطب عن أهل جنديسا بور ، وطبّب في أرض فارس ثم رجع الى الطائف وتوفي نحو سنة ٦٣٤ م . وقد عاصره ابن أبي رومية التميمي ، الذي رواه عنه أنه كان جراحاً ماهراً .

**الكهانة والعرافة :** الكهانة ادّعاء معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب ، أمّا العرافة فهي ادّعاء علم الماضي وكشفه . وهذه الصناعة كانت معروفة عند العرب في الجاهلية ،

١ ذكر بعض المحققين أن تسمية الشهور لعربية بأسمائها كانت لأسباب التالية : الغم كانوا يحرمون فيه القتال ، وضُرّ كانت تصغر فيه بيوتهم جُرحهم الى الغزو ، وشهرا ربيع كانا زمن اربيع ، وشهرا جمادى كان يبعد الماء فيها لشدة البرد ، ورجب الوسط ، وشعبان يشعب فيه القتال ، ورمضان من الرضاء لأنه كان يأتي فيه القيظ ، وشوال تشيل فيه الإبل أدامها ، وذو القعدة لقعودهم في دورهم ، وذو الحجة لأنه شهر الحج .

فكان إذا ناب أحدهم أمر يريد معرفة حقيقته أو مستقبله منه ذهب إلى الكاهن<sup>١</sup> ، فأخبره بما يهيمه ؛ وكانوا يعتقدون أن لكل كاهن صاحباً من الجن يحضر إليه فيخبره بما يريد<sup>٢</sup> . وللكهّان لغة خاصّة تمتاز بالسجع المعروف بـ «سجع الكهّان» .

من أشهر كهّان الجاهليّة شقّ وسطيح .

**القيافة :** القيافة هي الاستدلال من الآثار على الأعيان ، وهي في الجاهليّة نوعان : قيافة البشر ، وقيافة الأثر أما قيافة البشر فهي الاستدلال بخيلان الوجه وشكل الأعضاء على نسب الانسان ، وأما قيافة الأثر فهي الاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف .

**الفراسة والريافة :** الفراسة هي الاستدلال بالنظر إلى وجه الإنسان على ما أخبره في نفسه ، وبالاتّباع إلى كلامه على أمره ، وبالنظر إلى هيئته على صناعته ، وإلى تقاطع سحته على أخلاقه ... والريافة هي الاستدلال بالنظر إلى تربة الأرض وأعشابها على أمكنة الماء في باطن تلك الأرض

**العيافة :** العيافة زجر الطير أي أن يرمى بحصاة أو أن يصيح الرجل به . فإن ولّاه ميامنه في طيرانه تفاعل أي تيمّن ، وإن ولّاه مياميره تشاعم . وقيل إنهم إذا أرادوا السفر خرجوا من العلس والطير في أوكارها ، فيطيرونها فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً ، وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً<sup>٣</sup> . ويلحق بالعيافة «الطرق» وهو الطرّيق أو الضرب بالخصى ، ويسمّى أصحابه الطّواق ، ومنه الطوارق المتكهنات من النساء<sup>٤</sup> .

١ - إن اللفظة «كاهن» نشبه «كوه» العبرانيّة ، و«كهّاء» الآراميّة ، وهي هنا على غير معنى «الكاهن» عند اليهود أو عند النصارى ويذهب جرجي رسك إلى أنّ الكهّانة من العلوم الدخيلة على العرب ، ويرسّخ آل الكلدان حملوها إليهم على علم النجوم ، أما لفظ «الكاهن» عند قبيصة العرب من اليهود . (تاريخ آداب اللغة العربية ١ ، ص ١٨٧) .

٢ - كما كان للقبيلة خطيب وشاعرها كان لها كهنّات كاهنات أو كهّنتها . والكاهن مستشار القبيلة وحكّمها . لا يردّ له كلام ، ولا يرقّص له طرب .

٣ - قال امرؤ القيس :

وقد أعنّدي والطير في وكماها      منحدر قبيل الأوابر هيكلي  
ولك سيد بن ربيعة العامريّ .

تعرّفك م تدري الطوارق بالخصى      ولا زجرات الطير ما بق صانع

## ٤ - أعمالهم

كانت أخلاق العرب ولاسيما البدو منهم وليلة الصحراء والحالة البدائية . فالبادية التي كانت حصن البدوي ومعتصمه دون هجمات الطامعين والفاحين علمته أن يكون طليقاً يتزع أبدأ الى الحرية والاستقلال ولا يطأطأ رأسه أمام نير أجنبي ، كما لا يخضع لقانون أو نظام .

وعيشة البدوي القشقة القاسية علمته أن يكون قنوعاً ، صبوراً على الشقاء والعناء ، كما علمته أن يستسلم للانكاش في أحيان كثيرة فلا يسعى في تحسين حاله وإصلاح بيئته ومعيشتة .

وعزلة البدوي أتمت فيه الروح الفردية فتعذر عليه أن يرفع مستواه الى مصاف الإنسان الاجتماعي المعروف بتزعة الأئمة ، وأبعدته تلك الروح عن الإخلاص لما فيه خير المجموع خارجاً عن نطاق القبيلة .

ثم ان الأخطار المهددة بحياة الصحراء علمت البدوي أن يكون شجاعاً ، فهو أبدأ غاز أو مغز أو معرض لإحدى الحالتين ، وهو أبدأ في قتال مع الأعداء من الناس والحَيوان وعوامل الطبيعة القاسية ، « عصمته سيفه ، وحصه ظهر جواده ، وعدته الصبره . وأكثر ما تتجلى شجاعته في النزال والدفاع والنجدة ...

ومع ما كان للبدوي من حسابان البادية ميداناً للوضى والعبث ، فقد حافظ على فكرة الضيافة والكرم ، يبعث عليها حرصه على جميل الذكر وتحصيل المحمدة والرغبة في أن يعامل بالمثل ، في بلاد كثيرة المخاطر والجاهل . ويتجلى كرمه خصوصاً في إيقاد النيران ونحر الجزور وإضافة اللاجئ . وكان في نفس البدوي الى جنب الكرم كثير من الوفاء تبعث عليه المروءة وعزة النفس ؛ وقد تسوق البدوي عقيدته بالوفاء الى بعث الحرب وبذل الأعز محافظة على قريب أو جار أو مستجير .

زد على ذلك كله ما كان للبدوي من إباء للضم ، وحرص على الحق الى جنب استحلال القوي لغصب الضعيف ، تحصل على صورة مصغرة للبدوي في ميدانه الفسيح ومسرحة الجفاف المذنب .

## مصادر ومراجع

- فيليب حتي: تاريخ العرب مطّول الجزء الأول — بيروت ١٩٥٨  
 جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام — الجزء الأول — دمشق ١٩٥٧.  
 محمد عزّة دروزة: عصر النبي — دمشق ١٩٤٦.  
 أحمد فحري: بين آثار العالم العربي القاهرة ١٩٥٨.  
 محمد أسعد طلس: تاريخ الأئمة العربية — الجزء الأول — بيروت ١٩٥٧.  
 سيديو: تاريخ العرب العام تعريب عادل زعير — مصر ١٩٤٨.  
 جرجي زيدان: تاريخ العرب قبل الإسلام — القاهرة ١٩٠٨.  
 : تاريخ التمدن الإسلامي — الجزء الأول - القاهرة ١٩٠٢.  
 ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي. ترجمة ابراهيم الكيلاني الجزء الأول دمشق ١٩٥٦.  
 ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقصتها التاريخية — مصر ١٩٥٦.  
 ولفنسون: تاريخ اللغات السامية القاهرة ١٩٢٩.  
 محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب — بيروت ١٩٥٥.  
 A. Von Kremer : Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen - Vienne 1877.  
 C. Huart : Histoire des Arabes - Paris 1912.  
 C. Brockelmann : Histoire des peuples et des Etats islamiques (traduction de M. Tazerout) - Paris 1949.  
 M.J. de Goeje : Arabie, in Encycl. de l'Islam, T. I, 372 - 382.  
 J. Tkatsch : Saba' - in Encycl. de l'Islam. T.IV, 3 - 19.  
 P.H. Lammens : La Mecque à la veille de l'Hégire - Beyrouth 1924  
 La cité arabe de Taif à la veille de l'Hégire - Beyrouth 1922.  
 F. Hommel : L'Arabie avant l'Islam, in Encycl. de l'Islam, Art. Arabie, I, 382 - 386  
 C. de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme - Paris 1847.

## الفصل الثالث بواعث الأدب الجاهلي ومصادره

### ١ - بواعث الأدب الجاهلي :

- ١ - العرق والقبيلة : مجتمع قبي من الطبقة الأولى . وحدة القبيلة به مقدسة ، وأبناؤه ذوو إيمان مراعاة الدم . نشأ عن ذلك ثلاث طبقات في القبيلة : الصرحاء والعبيد والموالي . وكان من ذلك كله تارخ اجتماعي كان الشعر لسانه
- ٢ - المسرح الجاهلي : أدى الى المبالغة وعدم الاستقراء . ولى التحرك ، والميل الى كل عظيم ، والشجاعة والكبرياء . كما أدى الى معارك مستتة أياماً . وكل ذلك موضوع كثر للأدب والأدباء .
- ٣ - الأسواق : كانت ميادين مقارحات ومناظرات ، ولاسيما حكاية
- ٤ - الصراع السياسي : أدى الى السامس في استقدم الشعراء وأغدقوا المعطاء ، ومن ثم الى تلذع والاستجداء .
- ٥ - الجيولوجيا : قدمت موضوعات ذات شأن في الأدب الجاهلي .

### ٢ - مصادره :

- ١ - الرواية والتقليد : نقل الشعر الجاهلي عن طريق الرواية كما نقل بعض عن طريق التقليد والكتابة . والرواية أدت الى تغيير وتبديل ونسب في الأدب الجاهلي
- ٢ - صحة الشعر الجاهلي : اختلف العلماء في شأن الشعر الجاهلي اختلافاً شديداً ، فهم من شك في صحته حملة (مرغليوث طه حسين) ومنهم من قال بالحق الجزئي (شال ليل) — جورجيو دالايدي ، ومنهم من قسم الشعر الجاهلي الى ثلاثة أقسام : قسم منحول ، وقسم صحيح . وقسم عتف عليه (ناصر الدين الأسد) . وهذا الرأي الأخير هو الأصح .

لا غرو أن كلامنا سيتناول أدب الجاهلية الثانية ، بسبب غموض تاريخ الأولى وخلو ذلك التاريخ من أدب نعتمد عليه في الدراسة ؛ إلا ما هنالك من نقوش وكتابات تبعد عما نحن فيه . ثم أن أكثر كلامنا سيلور على البادية وما هو في قلبها ، لا شيء إلا لكون أكثر الشعراء من بوادي نجد والحجاز وشنى النواحي في قلب الجزيرة العربية . سواء أكانوا منها أصلاً أو انتساباً بعد أن نزحوا إليها وتفاعلوا معها تفاعلاً

عميقاً. ولا عبء في أن يكون بعض أولئك الشعراء ممن تقلبوا في البلاد واتصلوا بمختلف الحضارات القائمة لذلك العهد، لأنَّ التقلُّب والاتصال لا يمحوان الطبيعة الأولى والمشرَّب الأول وإن كان لهما أثر فعَّال في التوجيه وتوسيع الآفاق وترقيت الأخلاق.

## ١ - بواعث الأدب الجاهلي

### ١ - العرق - القبيلة :

أما البواعث فأكثر من أن تُحصى ، ولهذا سألزم جانب الاجتزاء بما هو أشدُّ نطقاً ، وأوضح دلالةً وفاعليةً ، وبما هو أوفر عناصر تفسيرية لمعاني الشعر الجاهلي ونزعاته التعبيرية والتصويرية . وأول ما يستلقت نظره أصل شعراء الجاهلية ، أعني العرق السامي ، في صيغته العربية الخاصة .

لا شك أنَّ الشعوب السامية تشترك في بعض الصفات الجسدية والنفسية . قال غوستاف لوبون : « إذا جاز لنا أن نحكم من خلال مبادئنا الحاضرة في مبادئ الساميين السياسية والاجتماعية رأيناها قبلية غير راقية ، وذلك مع الاعتراف بأن الأمم السامية أقامت حضارات عظيمة . وأنَّ ثلاثة من الأديان الخمسة أو الستة التي تسود العالم ( وهي اليهودية والنصرانية والإسلام ) نشأت عن الفرعين الساميين : اليهود والعرب . » هذا والعرب فئات شتى بالنظر الى طرائق معيشتهم وأحوال مجتمعاتهم ، ولكننا في كلامنا ستوقف بنوع خاص عند أهل البدو لأنَّ الأدب الجاهلي ، كما سبق لنا القول ، ترعرع وازدهر فيما بينهم . فالبدوي الجاهلي قبلي من الطبقة الأولى ، والمجتمع البدوي مجتمع قبلي انقسم فيه العرب الى وحدات اجتماعية متعددة عرفت كلٌّ منها باسم القبيلة .

• وحدة مقدمة : كان للقبيلة وحدة مقدَّسة وقد ترتبت على الإيمان بالوحدة « طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة دستور يظلم سياستها ، ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق والأساس الذي تقوم عليه نصوص هذا الدستور



«العصبة» وهي إحساس الفرد برباطته القبلية، وواجب تأييد مصالحها، والعمل لها بكل ما يملك من قوة<sup>١</sup>.

• مسؤولية مشتركة. وينص هذا الدستور فيما يتصل بالسياسة الداخلية للقبيلة أن أفراد القبيلة جميعاً متضامنون فيما بينهم أحدهم، أو كما يقول المثل العربي القديم - «في الحرية تشترك العشيرة». أن هذا «العقد الاجتماعي» بين الفرد وقيته قائم على أساس عاطفي بحت، ولا مجال للتذكير فيه، وإنما هي النجدة التي تجيب دون أن تسأل، وهي نجدة عملية سريعة لا تحتمل انتظاراً، إيجابتها تنفيذها. وتنص مواد هذا الدستور على أن نجدة أبناء القبيلة لأحبيهم واجبة سواء أكان جارماً أو مجروماً عليه، فبداهم الذي يسيرون عليه «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، وجناية كل فرد منهم جناية المجموع، يعصّبونها برأس سيد العشيرة<sup>٢</sup>، ولهم عليه أن يتحمل تبعاتها، وله عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به.

• الخلع والتشريد: وفي مقابل هذا الحق الذي كان للفرد على القبيلة، كان عليه واجب لها، عليه أن يحترم رأيها الجماعي، فلا يخرج عليه، ولا يتصرف تصرفاً بدون رضاها. ولا يكون سبباً في تمزيق وحدتها... ومن هنا فرضت وحدة القبيلة، وتحمل المجموع لتبعات الفرد، على سادتها أن يمارسوا نوعاً من «الادارة البوليسية»، فإذا ارتكب فرد جرماً ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه، أو إذا أخطأ في حق قبيلته نفسها، فإنه يطرد منها<sup>٣</sup>، ويسمى هذا الطرد خلعاً، ويسمى الطريد خليعاً... وكان هذا الخلع يتخذ صورة إعلان رسمي يداع على الناس في الأسواق والأسواق، ليكون في ذلك إشهاد لهم عليه، وقد يعنون منادياً بذلك، وقد يكتبون به كتاباً، وبهذا تسقط حقوق الفرد على قبيلته. فلا تتحمل حرية له، ولا تطالب بحريته بحراً أحد عليه. وهنا نجد الخليع

Encycl. de l'Islam, art Arabie p. 376.

١ -

٢ والعرب يقول: سيد معمم يريدون أن كل جناية يجيبها أحد من عشيرته معصوبة برأسه. (ابن تينة: عيون الأخبار ١ ص ٢٢٦).

Encycl de l'Islam, art Arabie pp 376

٣

نفسه أمام مشكلة خطيرة، هي مشكلة الحياة أو الموت. لقد سحبت منه «الجنسية القبلية»، ورفعت القبيلة عنه حمايتها، وطردته من حياها، ولم يُعَدُّ أمامه إلا أحد أمرين: إما أن يفرَّ إلى الصحراء ليلاقي مصيره في البادية القاسية فقيراً مفرداً، لا اعتماد له على أحد، ولا على شيء، وإما أن يلجأ إلى من يحبه ويعيش في جواره، ومن هنا كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي، وهو «قانون الجوار». وقد قدَّس المجتمع الجاهلي هذا القانون تقدُّساً كبيراً، وكان مما يفخر به العربي أن يكون ملاذاً لكلِّ خائف وملجأ لكلِّ طريد<sup>١</sup>.

• وحدة الجنس وامتيازها: «وكما آمنت القبيلة بوحدتها... آمنت بجنسها، وذلك لأن من الأسس التي قامت عليها القبيلة العربية إيمان أبناءها «برابط الدم» أي أنهم جميعاً من دم واحد... وقد نشأ عن هذا الإيمان بوحدة الجنس في نفوس أبناء القبيلة إيمان بامتيازها، فقد آمنوا بأنهم جنس ممتاز لا تفضلهم قبيلة أخرى، وهم يُفضَّلون كلِّ القبائل، أبائهم أشرف آباء، وأمهاتهم أكرم أمهات، وهم أجدر الناس، ولعلَّ في هذا الإيمان بامتياز الجنس ما يُفسِّر تلك المنافرات التي امتلأت بها أخبار العصر الجاهلي، وذلك الفخر الذي تدلِّي أصداؤه في قصائد شعرائه. وبما شجَّع على هذا الإيمان بامتياز الجنس في نفوس أبناء القبيلة صلات العدوة بين القبائل المختلفة التي كانت تسيطر على الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، فقد كانت كلُّ قبيلة تؤلف وحدة مناوئة لكلِّ القبائل الأخرى<sup>٢</sup>.

• الطبقات الثلاث: وقد نشأ عن هذا الإيمان بوحدة الجنس وامتيازها ثلاث طبقات في القبيلة: الصحراء، والعبيد، والموالي. أما الصحراء فهم ذوو الدم النقي لأنهم من أب واحد، ومنهم الطبقة الأرستقراطية في القبيلة، وفيهم رئاستها، ومن هنا حرصت هذه الطبقة على أن تجمع الشرف من كلا طرفيه: الآباء والأمهات. وأما العبيد فهم الأسرى

١ - الشعراء الصالحين، ص ٨٩ - ٩٤.

٢ - نفس المرجع، ص ١٠١ - ١٠٣.

من القبائل الأخرى<sup>١</sup> أو هم الرقيق من البلاد المجاورة للجزيرة العربية كالخبيشة وغيرها<sup>٢</sup>. وأما الموالي فهم العبيد المعتقون والأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى. ومع حرص العربي على الشرف في كلا طرفيه، كان يحدث أحياناً أن يتزوج العربي من أمة، ولكن المجتمع الجاهلي كان يرى في هذا الزواج زواجاً غير متكافئ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسماً خاصاً، فسَمَّى ابن العربي من الأمة «هجيناً». ومن الطبيعي أن هذه الصلة لم يكن يُنظر إليها نظرة احترام. فقد كانت كل أمة عندهم تُدعى فُرْتى أو تُرْتى<sup>٣</sup>، وكانت طبقة العاهرات تتألف عادة من الإماء أو مَن أعتق منهن، ولم يكن العربي يعرف هؤلاء الإماء مساواة في الحقوق ولا مساواة في المعاملة... ومن هنا كانوا يستبعدون أولاد إمامتهم، ويرفضون الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة ممتازة فإنهم حينئذٍ يلحقونهم بنسبهم. وكان أسوأ هؤلاء المهجناء حظاً، وأوضعهم منزلة اجتماعية، أولاد الإماء السود... فقد كان العرب يخضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض<sup>٤</sup>.

## ٢- المسرح الجغرافي:

وفضلاً عن ذلك كله فـ«البيئة الطبيعية» أثر شديد في تكوين الشعر الجاهلي. والمسرح الجغرافي في قلب الجزيرة العربية مسرح جذب وحرّ لقلّة المطر، وحياة أهل الصحراء

١ كان صبي الرجال والنساء على السواء أمراً أساسياً في كلّ عارة، وكانت النساء معرّضات دائماً لفساد ولهذا كانت حياة «الظلمة» عصراً أساسياً من عاصر البطولة العربية، وكانت حياة النساء والأطفال مخطة أسبباً في ص الخليلين الحربي.

Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.  
Lammens, Le Berceau de l'Islam I, p. 280

طالع:

الدكتور يوسف خنّ: الشعراء الصعاليك ص ١٠٤.

٢ كانت تجارة الرقيق منتشرة في بلاد العرب، وكان العبيد يباعون في أسواقها للمواسم طلع. حرجي زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي ٤ ص ٢٠.

Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire p. 167.

٣ من معاني هاتين اللفظتين «البي» و«المرأة الزانية»

٤ الشعراء الصعاليك ص ١٠٧ - ١٠٨. وصف العرب كل مستحسن لديهم بالبياض. وكان مما يمدح به الرجل أو يتشتر به أنه أبيض ومن سيأت جمال المرأة أن تكون بيضاء، وهو أبيض دليل على شرفها.

شديدة الارتباط بالمطر حتى سمّوه غيثاً ، وحتى كانوا يرحون لمشاهدته فرحاً عظيماً جرّ الشعراء الى الوقوف الطويل عند السحاب والبرق والسيل وما الى ذلك ، وحتى كانوا يجعلونه موضوع دعاء وفائحة خير . واحتباس المطر هو احتباس الخير نفسه ، فلا كلاً ولا ماء ، بل حفاف وارتحال وضرب في القلوات<sup>١</sup> . والبلاد العربية لا تخلو من جبال ومن أقاليم ذات حير ومير . وكان لهذا التضاد الجغرافي أثره في نفوس سكان الجزيرة العربية فقد أوجد في شخصياتهم لوناً من « التضاد النفسي » اصطغت عناصره بما في البيئة الجغرافية من لوني المبالغة وعدم الاستقرار . وظهر هذان اللونان الصارخان في نفوس البدو في كلا الجانبين الأخلاقيين : جانب الخير وجانب الشر ، فالبدوي لا يعرف القصد لا في الخير ولا في الشر ، مبالغ في عداوته ، مبالغ في محبته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواء . والبدوي ، الى جانب هذا ، يألف من حياة الاستقرار . يرى الدارسون أن كلّ جانب من جوانب الحياة البشرية في الصحاري يحمل طابع التحرك ، وأن القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو قاعدة متقلقلة . ومن هنا احتقر البدو الزراعة والصناعة<sup>٢</sup> . وهذه البيئة القاسية الفقيرة كانت سبباً فعالاً في وجود الغزو وانتشاره ، كما بثت في نفوس أصحابها حب القوة ، والميل الى كلّ عظيم جبار . والشجاعة والجرأة والكبرياء العنيدة ، وهي صفات طالما تغنى بها الشعراء في شعرهم .

وهكذا كان الغزو من عناصر الحياة البدوية . وفضلاً عن ذلك فكان العرف القائم أن الدم لا يفسله إلا الدم ، وقد يستمر طلب الدم أربعين سنة كما جرى في حرب البسوس بين بكر وتغلب . ولما كان الأمر كذلك تعددت الحروب بين القبائل وتغنى

١ - إن هذا كما يحتمل يدرك ثم كان الشعراء المتقدمون يفخرون بصبرهم عن الأسفار في معاود الصحراء وشحاضتهم في اقتحام أعرافها . ولهذا كان المثل الأعلى للمنى العربي أن يكون نجماً ممشوق الجسم ، مقول الليل ، شديد الخلد ، خفيفاً ، سريع الحركة ، حلياً من البهنة والتمثل والكسل ، حبيب اللابس ، قلبها »

٢ - صالح .

الشعراء الصالحك ص ٧٠ - ٧١ .

حصارة العرب ، لفوستاف لوبيون ، ترجمة عادل رجيت ، ص ٩٠ - ٩١ .

Sample, *Influence of Geographic Environment*, pp. 487 - 490.

٣ - كانت العرب تكتي عن الحرب بثلاثة أشياء . أحدها ثوب محارب وهو رجل من قيس عيلان يتخذ

الشعراء بأيامها كما عُنُوا شديد العناية بوصف آلات الحرب والخييل والإبل وما إلى ذلك . وكان الشعر في الحروب يقوم عند العرب بمقام الآلات الموسيقية والطبول عند غيرهم من الأمم ، فيُغَيِّرون راجزين منشدين المقامع الحماسية التي تثير الحمم ، وكانوا ينصبون الرايات على أبواب بيوتهم لتعرف بها<sup>١</sup> . وكانوا يقاتلون بالكرّ والفرّ<sup>٢</sup> . أمّا أسلحتهم فالدرع السلوقية<sup>٣</sup> ، والرماح الحطية<sup>٤</sup> ، والقسي<sup>٥</sup> ، والمخات أو التروس . وكان من عادتهم إذا التقت كتيبتان منهم شدّت كلّ واحدة منها زجاج الرماح نحو صاحبها وسعى الساعون في الصلح ، فإن أنّا إلّا القادي في القتال قلب كلّ منها الرماح ، واقتلتنا بالأسنة . ولذلك يقولون في المثل : من عصى أطراف الزجاج أطاع عوالي الرماح ، وعالية الرمح ضد سافلته<sup>٦</sup> . ومن أشهر أيام العرب في الجاهلية أيام العرب والفرس ، ومنها يوم ذي قار كان بكر على العجم ، وأيام القحطانية فيما بينها ، ومنها يوم حليلة للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالبحيرة ، وأيام القحطانية والعدنانيين ومنها يوم الكلاب لقيم على مذحج ، وأيام ربيعة فيما بينها ، ومنها حرب البسوس<sup>٧</sup> بين بكر وتغلب ابني وائل ، وأيام ربيعة ونعيم ، ومنها

الدرع ، والدرع أثواب الحرب ، والثاني برد فخر ، وفخرهما رجل من عجم كان أول من لبس الدرع الموشى بهم ، وهو أيضاً كتابة عن الدرع . والثالث عطر مشم ، يقولون في أشغالهم دقوا سهم عطر مشم ، أو يقولون أشام من مشم ، زعم بعضهم أنّ مشم اسم امرأة كانت عطارة تبيع الطيب ، مكبوا د قصصوا الحرب غمسوا ، أسبهم في طيبها وتعالقوا عليه نال يستعينوا في تلك الحرب ( صناعة الطرب ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ) .

١ - كانت الرايات الصفر لأهل اليمن ، والرايات الحمر لأهل الحجاز . ثم في الإسلام كانت الرايات السود لسي الناس حرباً عن شهدتهم وتنعاً على بني أمية في قتلهم . ثم إن المأثور بعد الأخضر لراياته . وكانت الرايات البيضاء للطلحيين من الهاشميين .

٢ - كَرّ الفارس فرّ للجولان ثم عاد للقتل فهو كَرّ ؛ وفرّ الفارس أوسع الجولان للانعطاف

٣ - نسبة إلى سلوق وهي بلدة ما بين نيسب إليها الدرع والكلاب

٤ - نسبة إلى الحط وهي جزيرة بالبحرين . ويقولون أيضاً رماح صحيرية ، ورماح ردينية ، نسبة إلى سمير وردنية . أمّا سمير فرحل الشمر في جزيرة حطّ المذكورة تنقيب الرماح ، وأمّا ردينية فروحة سمير وكانت كروجها مهارة .

٥ - طالع « صناعة الطرب » ص ٣١٣ .

٦ - وقعت في حرب البسوس الأيام التالية : يوم الهبي لتغلب على بكر ، ويوم واردت لتغلب على بكر ، ويوم عيزة تكاماً ، ويوم القصصيات لتغلب على بكر ، ويوم خلائق لقيم بكر على تغلب

يوم ذي طلع لبني يربوع من تميم علي بكر من ربيعة ؛ وأيام قيس فيها ؛ ومنها حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان وكانت الحرب بينهما سجالاً (أي تارة هؤلاء وأخرى عليهم) وانتهت بصبح ؛ وأيام قيس وكنانة ، ومنها أيام الفجار وسميت كذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم إذ فجزوا فيها ؛ وأيام قيس وتمر ومنها يوم رححان لعامر على تميم ... وتعدّ وأيام العرب في الجاهلية مصدراً خصيباً من مصادر التاريخ ، وينبعاً صافياً من ينابيع الأدب . ونوعاً طريفاً من أنواع القصص . . . ولو نظرت الى الشعر الجاهلي في جملة وتفصيله ، وبخاصة ما كان في الفخر والحماسة والثناء والهجاء ، فإنك تجد قد ارتبط بهذه الأيام ارتباطاً تاماً .<sup>٥</sup> وكان العرب شديدي المعرفة لتلك الأيام ، شديدي التمسك بها ، شديدي التفانير بوقائعها ، حتى ملأ ذكرها الدواوين وكتب الأدب .

والبدوي كان غاصاً في بيئته الصحراوية ، وهي تملأ قلبه ونفسه وكيانه ، وتوجه تفكيره وعاطفته وخياله ، كما توجه ثمرة تلك القوى أعني بها الأدب . فقد كانت طبيعة بلاده رهيبة جميلة تتجلى له دون حجاب ، فيراها سافرة بكل ما فيها من قوة وحرارة ، ويعيش أبداً معها ، حتى أضعفت عقله الباطن ، وجعلت أفكاره ظاهرة جليلة ، ووجهت نفسه نحو اليقين ، ولهذا صفت الفكرة في أدبه ، وأوجز اللفظ ، واجتهد خياله عن الانفلات التسيح ؛ فكان عقله واقعياً ، يتحدث عن الطبيعة كما هي بصدق وإخلاص ، ويصورها تصويراً دقيقاً ؛ كل ذلك بمنطق بسيط وخيال قريب وفلسفة سطحية . فكل ما أمامه واضح لا يحتاج الى تأمل ، أو شك أو حدس .

وقد أوردت البدوي مواجهة الطبيعة في كل آن — وهي سريعة التبذل والتلون ولا يؤمن جانبها — حضور البديهة والدكاء اللامح ، كما أوردته الاحساس الدقيق والشعور المُرغف . ولهذا كان أدبه أدب البديهة ، يتزع نزعة الإيجاز ، بعيداً عن التركيب العلمي ، والترتيب المنطقي .

والصحراء ذات النغمة الراتبة المتكررة ، وللموسيقى العابسة القاسية ، بعثت في نفس البدوي شيئاً من الانقباض والكآبة والوجد ؛ فتوحّدت نغمة الأدب وتكررت على وتيرة واحدة ، ضعيفة الحظ من الابتكار تشكو بعض انقباض وجمود .

وهكذا كان الأدب الجاهلي صورةً لحيته ، وثمرةً من أثمارها . فاللغة نفسها تجد ألفاظها في منتهى السعة والدقة إذا كان مدلولها من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية (الإبل ، الكلب ، المرعى ...) ، ونضيق ونغضض إذا لم يكن الأمر كذلك . والأدب يتسع اتساعاً كبيراً لما يتعلق بالبادية ، فصوره وتشابيه من طبيعتها وحياتها ، صادقة دقيقة .

#### ٣ الأسواق :

ومن بواعث الأدب الجاهلي ما كان في بلاد العرب من أسواق تقام في المواسم على طول الطرق التجارية . ولتلك الأسواق أهمية كبرى في حياة العرب الاقتصادية وفي حياتهم الأدبية ، وذلك أن القوافل كانت تتزل فيها بما تحمله من منتجات البلاد الدنية والفاصية ، وكان السكان يتهافنون إليها بسلعهم رغبةً منهم في التبادل التجاري . وكانت الأسواق تقام عادة في الأشهر الحرم التي حُظر فيها القتال ، أي أشهر السنة الثلاثة الأولى ذي القعدة وذو الحجة ومحرم ، وهي أشهر الربيع ، فيوافد إليها أبناء البادية من كل فجٍ وصوب ، ويحجون تلك الحلقات السنوية في البيع والشراء ، ثم في ارتياد الحانات ومواطن اللهو ، وكثيراً ما كانت الحلقات تنقلب إلى مبادين أدبية يتبارى فيها الشعراء والمخطباء ، أمام حَكَم تنصب له قبة من آدم ، ويحكم بتفوق هذا الشاعر على ذاك ، أو هذا المخطيب على قرنه . والأسواق في الجاهلية كثيرة ذكر منها البعقوبي على ذلك ، وكان في ناحية مكة منها ثلاث : عكاظ ، ودو المجاز ، ومجنة . وأشهرها على الإطلاق سوق عكاظ بين نخلة والطائف ، وكان افتتاحها كل سنة في أول ذي القعدة<sup>١</sup> . قال الدكتور فيليب حتي : « يفهم من الأخبار أن نشأة المملقات مقرونة بسوق عكاظ التي أُقيمت بين نخلة والطائف في الحجاز سنة ثلث أخرى ، فجاءت كناية عن مجمع أدبيٍّ أُنمته فحولُ الشعراء يتبارى بأشعارها للفوز . ولم يكن للشاعر من محد أعلى من الفوز في هذه السوق . وإذن فسوق عكاظ في جاهلية التاريخ العربي كانت أشبه شيء

١ أيام العرب في الجاهلية .

٢ تاريخ البعقوبي ١ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

Lammens, la Merque à la veille de l'Hégire, p 153.

٣ - طالع :

«بأكاديمية فرنسية» في بلاد العرب. كان الفائز فيها يباهي بمباهة البطل المجلي من أبطال الإغريق في ألعابهم الأولمبية. وليس بين ناثلي جائزة بول اليوم من يزيد فخره عن فخر أحد أولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية<sup>١</sup>».

#### ٤ - الصراع السياسي:

نشأ الصراع السياسي في البلاد العربية عهد الجاهلية لأسباب اقتصادية قبل أي شيء آخر، أي للسيطرة على طرق القوافل التجارية الكبرى. وظهر الساسانيون في فارس حوالي سنة ٢٢٦ للميلاد آرت نيران العدواة القائمة بين العالم الفارسي والعالم الروماني البيزنطي. وكان الساسانيون والبيزنطيون يلجأون إلى رؤساء من العرب يمنحونهم السلطة على أبناء جلدتهم، وتستخدمهم كل دولة لمحاربة منافستها، وهكذا كانت دولة المناذرة العربية في الحيرة، ودولة الغساسنة في الشام، وهكذا كان كل بلاط يسعى في ضم أكبر عدد من القبائل إليه، وكان كل بلاط يلجأ إلى القوة العسكرية كما يلجأ إلى «القوة الصحافية» أي إلى الشعراء، فبستقدمونهم ويميزونهم العطاء، ليكونوا فلم دعابة ولسان سيطرة. وكان الشعراء والخطباء من أهم العناصر التأثيرية في المجتمع العربي الجاهلي. كما كان البلاط من أهم العناصر التأثيرية على توجيه الشعر في بعض أغراضه ولاسيما المدح والاعتذار والتزلف والاستجداء.

#### ٥ - الميثولوجيا:

إنما نفهم ميثولوجيا العربية تلك المعتقدات والأساطير التي شاعت في الجاهلية قبل الإسلام من مثل الجن وما نسب إليها من أخبار، والغيلان والسعالي، والتوابع وبقراء. وما يتبع ذلك من صلوات الجن بالكهّان والسحر وما إلى ذلك مما أتينا على ذكر بعضه في غير هذا الموضع. قال الدميري: «أعلم أن الأحاديث في وجود الجن والشياطين لا تُحصى. وكذلك أشعار العرب وأخبارها، فالزواج في ذلك مكابرة فيما



هو معلوم بالتواتر<sup>١</sup>، ولسنا هنا في مجال مناقشة الاعتقادات والأساطير، وإنما يهتَمُّ بوجودها وتأثيرها على الأدب. فأخبار الجنّ كثيرة عند العرب، ومواطن الجنّ عندهم هي البوادي الجرداء وبطون الأودية والمغاور والكهوف. روى الجاحظ «أن جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض وتوسّطوا بلاد الخرش، خافوا عبث الجنّان والسعالى والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته: إنا عائلون بسيد هذا الوادي، فلا يؤذيه أحد، وتصير لهم بذلك خفارة»<sup>٢</sup>. ومن مواطن الجنّ أيضاً عُبْقَرُ وهي مجتة اختلفوا في تحديد موقعها. قيل إنها قرية يسكنها الجنّ، ينسبون إليها كل عمل دقيق وعظيم<sup>٣</sup>.

وذكروا أنّ للجنّ مطايا، منها أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات، وأشهرها الثعالب. والجنّ أصناف منها ما لا يأكل ولا يشرب وهو الصميم الخالص من الجنّ، ومنها ما يأكل ويشرب ويتوالد وهم السعالى والغيلان والقطارب<sup>٤</sup> وأشباه ذلك. ويروون أنّ الغيلان تتشكّل وتتلون وتستطيع الظهور في صور مختلفة<sup>٥</sup>، «وزعموا أنّ الجنّ والشياطين والغيلان ينحولون في أيّ صورة شاءوا إلا الغول فلها تتحوّل في جميع صور المرأة ولباسها إلا رجلها فلا بدّ أن تكونا رجلَي حمار»<sup>٦</sup>.

ومن أشهر أخبار الجنّ ما جاء عن سليمان الذي نادى جبريل وجمع الجنّ به وبملائكته، وحشرها طائفة ذليلة، وقد وحدها ذات صور عجيبة. ووجدَ المرّدة فيها ذات فساد وفساد ففرّقهم على الأعمال الشاقة لدعم قوة ملكه.

١ - حبة الحيوان لكبرى ١، ص ١٨٨

٢ - البيان والبيان ٦، ص ٦٧.

٣ - قال امرؤ القيس:

كان صليل المروحين تطيره صليل ربيوف ينفقون بعبقرا

٤ - القطارب ج قُطِرَ وهو في رعمهم ذكر السّلالة يظهر في أكفاف الجن وغيرها.

٥ - قال كعب بن زهير:

وما تزال على حال تكون لها كما تسلّون في أثوابها سمعوب

٦ - محمود سليم، الحوت: الميثولوجيا عند العرب، ص ٢٢٣. - البيان والبيان للحافظ ٦، ص ٦٨

تلك بعض البواعث التي كانت في أصل الأدب الجاهلي ، وهناك عوامل أخرى كثيرة لم نأتِ على ذكرها هنا ، وإنما ألقينا إليها في مواطن شتى من كتابنا هذا وهي ليست



تخفى عن نظر البصير. ولكل من تلك العوامل والبواعث أثر فعال سيتجلى لنا متى عمدنا الى الأدب والأدباء درساً وتحليلاً.

## ٢ - مصادر الأدب الجاهلي

### أ - الرواية والتقليد :

مما لا شك فيه ان الكتانة كانت معروفة لدى الجاهليين ، وأنها كانت منتشرة انتشاراً لا يُستهان به ولا سيما في النواحي المتحضرة من شبه الجزيرة العربية . وما لا شك فيه أيضاً أنَّ الكتابة بالحروف العربية كانت معروفة لدى العرب منذ القرن الرابع للميلاد ، وقد دَوَّنوا بها صكوك حسابهم وعهودهم ومواثيقهم وما الى ذلك . وقد ذهب العلماء مذاهب مختلفة في قضية التدوين لدى الجاهليين<sup>١</sup> ، فذهب بلاشير ، في بعض الحيرة والتردد ، إلى إنكار التدوين لذلك العهد وإلى أنَّ « الأثر الشعري في قضية العصر الجاهلي ، عند الشعراء البلو والحضر ، مصدره في الأصل الارتجال<sup>٢</sup> . » وذهب غولديزير إلى أنَّ الشعر الهجائي كان مكتوباً في أكثره ؛ وذهب آخرون إلى أنَّ الاختلافات الكتانية التي أوردها الزَّوْء في الشعر الجاهلي لا يمكن تفسيرها بالاختلافات الشفوية . وذهب الدكتور ناصر الدين الأسد<sup>٣</sup> إلى أنَّ التقليد والتدوين كانا معروفين لدى الجاهليين . وهو يورد على تقليد الشعر « أدلة عقلية استنباطية » و « أدلة صريحة مباشرة » . أما أدلته العقلية فهي أولاً أنَّ العرب الجاهليين قَبِلُوا بالكتانة ديهم ورسائلهم وعهودهم وما الى ذلك ، وغير معقول ألا يَقْبِلُوا شعرهم وهو عندهم في الدَّروء العليا من القبضة والخطور ، إذ هو ديوان أبحادهم وأحسابهم ، وسجل مفاخرهم ومآثرهم ، وهي ثانياً أنَّ كثيرين من الشعراء جعلوا الشعر مورداً من موارد الارتزاق ، وغير معقول ألا يَقْبِلُوا

١ إن أول من أثار القضية بشدة هو المشرق الألماني فريتس كرنكو (Fritz Krenkow) (١٨٧٢-١٩٥٣) وقد ذهب إلى أنَّ نظم الشعر مرتبة بمعرفة الكتانة (مطلع « تاريخ الأدب العربي » لرييس بلاشير ترجمة ابراهيم الكيلاني ، ص ٩٤ - ٩٥).

٢ - المصدر نفسه ، ص ٩٥ - ٩٨.

٣ . في « مصادر الشعر الجاهلي » ، ص ١٠٨ وما بعدها.

هذا الشعر مصدر الخير، ومورد الرزق<sup>١</sup>؛ وهي ثالثاً أن عدداً من الشعراء نظموا الشعر الحولي المحملي المحملي<sup>٢</sup> ولم يرتجلوه ارتجالاً، وهذا أمرٌ يتطلب التقييد والكتابة. وأما أدلته الصريحة المباشرة فهي روايات ونصوص يفيد أكثرها أن الشعر المقيّد بالكتابة إنما كان رسائل يبعث بها الشعراء، ويشير بعضها إلى تقييد الشعر للحفظ. وهو يستخلص من كل ذلك أن الشعر الجاهلي كان يقيد في صحف متفرقة لأغراض شتى. ولكنه يستند في أدلته وشواهدة إلى نصوص وروايات لا يرتاح نظر الناقد إلى صحة بعضها. والذي يظهر لنا أن أكثر الشعر الجاهلي لم يقيد بالكتابة وإنما قيد بعضه، ولكن تقييد البعض لا يصح الخروج معه إلى حكم عام يشمل ذلك الشعر في محمله أو في أكثره.

وهكذا كان الشعراء في الجاهلية ينشد قصيدته فتعق أشعاره في الأذهان عن طريق الرواية المباشرة المتواترة، وتعود الاختلافات في الرواية إلى جهل النساخ، وما كان الاضطراب المسبب عن بُعد عهد الرواية إلا ليزيد في تلك العيوب. وهكذا فإن القطعة التي كتب لها البقاء تعرض منذ ولادتها إلى طائفة من عوادي الزمن والمصادفات<sup>٣</sup>. أضف إلى ذلك أن الشاعر نفسه كان يغير ترتيب أبياته أو يُقحّنها تنقيحاً يظهرها بغير مظهرها الأول ويعمها من ثم متعددة الرواية. والرواة في الجاهلية كثيرون منهم أبناء العشيرة الذين يهمهم أمر الشاعر ويصبحون رواة متطوعين لنشرها، ومنهم أحد أبناء الشاعر أو أحد أقربائه أو أحد أبناء قبيلة أخرى... ولم يكن الرواة في مأمن من التغيير والتبديل في القصائد ولا سيما وإن بعضهم شعراء ذوو مكانة في عالم الشعر.

١ - وقد ذكر عدداً من الشعراء الجاهليين الذين غرّوا بالكتابة. وإن لم يكونوا جميعهم من ذوي المدح، يهيم عدني بن زيد العدائي، ولقيط بن يثغر الأدي الذي كان كاتباً وترجماً في بلاط فارس، وسويد بن صامت الأسدي، والربيع بن زيد النعسي، والثابتة الليثاني، ولييد بن ربيعة الفارسي، وأبي بن أبي الصلت.

٢ - معنى الرواة العلماء هؤلاء الشعراء وعبيد الشعراء، وكانوا يسمون القصائد المحمكة وحوليات، ومثلقات، ومثقات، ووهكات.

٣ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص ٩٩.

٤ - كان متلاً كتب ولوية لأبيه زهير، وكان زهير رواية لأوس بن حجر، وكان الحطيئة رواية لزهير وآل زهير.

## ٢ - صحة الشعر الجاهلي:

وبعد هذا كله يتبادر الى الذهن سؤالٌ شغلَ النقاد والعلماء ، وهو « ما مدى صحة الشعر الجاهلي »؟ إنه لسؤال يصعب الخواب عليه بدقّة وجزم . وانه لمن العبث أن نشكّ في صحّة الشعر الجاهلي جملةً لمجرّد بعض النحل الذي أدخله الرّواة ، كما انه من السّذاجة أن نولي الروايات الشعرية كامل ثقةنا . وقد اتفق المستشرقون وعلماء العربية على معالجة هذه القضية معالجةً علميّةً بحسب وراحوا يتبعون النصوص والروايات ، ويقارنون فيما بين الأقوال والآراء ، ويقفون صفين متناقضين في المذهب منهم من يرفض الشعر الجاهلي جملةً على أنه منحول ، وكان أول من وقف هذا الموقف بطريقة علمية مُسَهِّبةً المستشرق مرغليوث<sup>١</sup> D.S. Margoliouth الذي ذهب الى أن ذلك الشعر نُظم في العصور الإسلامية ، ثم نُسب الى الجاهليين ، ومنهم من يقف موقفاً معتدلاً فيعترف بالنحل الجزئي دون الكلي كالْمستشرق شارل جيمس ليال<sup>٢</sup> Ch. James Lyall والمستشرق جورجيو لبي دلاً فيدا<sup>٣</sup> G. Levi Della Vida . وسلك مسلك مرغليوث من أدباء العرب الدكتور طه حسين الذي فصل آراءه في كتاب كامل ، وشكّ في صحّة الشعر الجاهلي لأنه لا يمثل في نظره احياء الديبّة والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين ، ولأنه بعيد كلّ البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرّواة أنه قيل فيه ، وبعيد عن أن يمثل اختلاف اللغات وتباين اللهجات فيما بين القبائل

١ - *The origins of Arabic Poetry, in Journal of the Royal Asiatic Society.*

July 1925, pp 417 - 449.

٢ - صالح مقدمة الجزء الثاني من «لُفصِيَّات» سنة ١٩١٨

*Pre-Islamic Arabia, The Arab Heritage,*

New Jersey, 1944, pp. 41 - 48.

٣ - «في لشعر الجاهلي» دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، «في الأدب الجاهلي» دار المعارف مصر

٤ - في الأدب الجاهلي ، ص ٨٠ - ٨٨ .

٥ - نفس المرجع ، ص ٨٨ - ٩٩ .

الجاهلية قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة وهجاء متقاربة<sup>١</sup>، وأخيراً لأن الشعر الجاهلي الذي اتخذ العلماء مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبها الكلامية تحس كأنه إنما قد على قدر القرآن والحديث كما يقدر الثوب على قدر لابس لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة وهذا ليس من طبيعة الأشياء بل أن هذه الدقة في الموازنة تحمل على الشك والحيرة<sup>٢</sup>. ويضيف طه حسين إلى ذلك كله أن الشعر الجاهلي لم يصل إلينا إلا عن طريق الرواية الشفهية وهذا أمر لا يدعو إلى الاطمئنان.

ويرى طه حسين أن الأسباب التي حملت المسلمين على هذا التحل هي العصبية، والدين، والقصاص، والشعرية، والرواة<sup>٣</sup>. فراحوا ينحلون تأييداً لعريق على فريق، أو إثباتاً لصحة النبوة وصدق النبي، أو تعظيماً لشأن النبي من ناحية أمرته ونسبه في قريش... أو تزييناً للقصاص، أو حفظاً لشأن العرب من قبل الشعوية، أو ما إلى ذلك مما تضيق هذه الصفحات بذكره وذكر الشواهد عليه.

وقد أثارت آراء طه حسين عاصفة شديدة في البلاد العربية وراح العلماء ينقضونها ويفتدونها رأياً رأياً<sup>٤</sup>، ويبتنون مواطن الضعف في منهج الدكتور طه حسين، وفي أدلته وشواهد. وكان من أعظم من درس الموضوع بطريقة علمية الدكتور ناصر الدين الأسد الذي قرأه، بعد النقاش الطويل، على أن الشعر المنسوب إلى الجاهلية على ثلاث ضروب: فضرب موضوع متحول... وأكثر شعر هذا الضرب ما وضعه القصاص ليحلوا به قصصهم، أو يكسبوه في نفوس السامعين والقارئ شيئاً من الثقة، وما وضعه هؤلاء القصاص على لسان آدم وغيره من الأنبياء، أو على لسان بعض العرب البائدة، وما وضعه بعض الرواة لئيبثوا به نسباً أو يدلوا به على أن لبعض العرب قدمة وسابقة... وضرب صحيح لا سبيل إلى الشك فيه أو الطعن عليه. وذلك هو

١ - نفس المرجع، ص ١٠١ - ١٠٧.

٢ - نفس المرجع، ص ١١٩ - ١٢١.

٣ - في الأدب الجاهلي، ص ١٣٠ - ٢٠٠.

٤ - من ذلك «تقد كتاب الشعر الجاهلي» لمحمد فريد وجدي القاهرة ١٩٢٦، و«نفس كتاب في الشعر الجاهلي» لمحمد خضير حميد الترسى - القاهرة ١٣٥٤ هـ. و«تقد التحليل لكتاب في الأدب الجاهلي» محمد العمراوي - القاهرة ١٩٢٩.

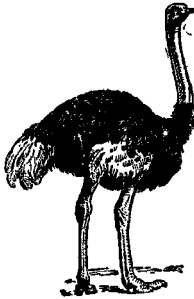
الذي أجمع العلماء الرواة على إثباته بعد أن تدارسوا هذا الشعر وفحصوه ومحصوه... وأما الضرب الثالث من ضروب الشعر الجاهلي فهو المختطف عليه الذي قال عنه ابن سلام «وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر، كما اختلفت في بعض الأشياء»... فمذ مطلع القرن الثاني الهجري، وبعده بقليل، قامت طائفة من العلماء الرواة، من أمثال أبي عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، ثم المفضل وخلف الأحمر وهم الطبقة الأولى من العلماء الذين عرقتهم العربية في تاريخها الحافل — فتلقوا تراث الجاهلية، شيعها وأخبارها وأنسابها؛ وصل إليهم بعضه مدوناً في دواوين كاملة<sup>١</sup> ضمت تراث القبيلة كله أو شعر شاعر فرد من شعرائها، ووصل إليهم بعضه مكتوباً في صحف متفرقة. ثم وصل إليهم بعضه عن طريق الرواية الشفهية التي كان يتناقلها الخلف عن السلف. فحملوا الأمانة، ومضوا يجمعون ما تفرق من هذا التراث، وينظّمون منه ما يجمع، يصيغون إليه ما لم يكن فيه مما ثبت لهم صحته. وينفون عنه ما ثبت لهم ريقه وفساده، ولم يألوا جهداً في التثبت والتحقيق والتعميص والمدارسة، حتى استقام لكل منهم ما يتقن صحته، فمضى يُذيعه على تلامذته في حلقات دروسه، ويشيعه في رواد مجالس علمه، فخلف من بعدهم خلف هم الطبقة الثانية من العلماء الرواة تأسوا بشيوخهم واقتفوا سبيلهم: يجمعون ويدرسون ويمحصون ويمحصون، ثم يستقيم لكل منهم ما يتقن صحته فيذيعه على تلاميذه من علماء الطبقة الثالثة.

ومع ذلك كان لا بدّ لبعض هؤلاء العلماء من أن يختلفوا: فقد وقع لبعضهم من النصحف المكتوبة، أو الدواوين المدونة، أو الرواة من الشيوخ العلماء ومن الأعراب الفصحاه ما لم يقع كله لغيره. ثم كان لكل طائفة من هؤلاء العلماء منهج في الأخذ والتلقي... ولكن هذا الخلاف في المصادر أولاً وفي المبيع ثانياً، لم يمنع العلماء من أن يأخذ بعضهم عن بعض، ومن أن يرحل علماء مصر إلى مصر المجاور، ليأخذوا منهم ويرووا عنهم، ثم ينقلوا ما تيقنوا صحته إلى تلاميذهم، ويكتبوه فيما يجمعون من دواوين. فهذه الدواوين المنسوبة المسندة التي يرتفع إسداها إلى الطبقة الأولى أو إلى

١ - مصادر الشعر الجاهلي، ص ٤٦٥ — ٤٧٧.

٢ - قد أوضحنا في لصفحات السابقة تاريخ التكوين ورأينا في كل ذلك

تلاميذهم من عبياء الطبقة الثانية ، هي التي تحوي بين دفتيها الشعر الجاهلي الذي نيقنوا  
صحته بعد تحرر واستقصاء وجمع وتمحيص ونقد<sup>١</sup> .



النعامة أكلة البوادي

١ - مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٤٧٧ ٤٧٨ .



## مصادر ومراجع

- يوسف خليل: الشعراء الصعاليك — دار المعارف بمصر ١٩٥٩.
- نؤاد البستاني: حول الأدب الجاهلي — للشرق ٢٧ (١٩٢٩) ص ٤٣٤ — ٤٤٣.
- بلاشير: تاريخ الأدب العربي — دمشق.
- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي — القاهرة ١٩٥٦.
- طلح حسين: في الأدب الجاهلي. القاهرة ١٩٣٣، الطبعة الثالثة.
- محمد مصطفى جمعة: الشهاب الراسد — القاهرة ١٩٢٦.
- محمد فريد وجدي: نقد كتاب الشعر الجاهلي — القاهرة ١٩٢٦.
- محمد خضر حسين التونسي: نقض كتاب في الشعر الجاهلي — ١٣٥٤ هـ.
- عمر الدسوقي: النابغة الذبياني (مقدمات) — القاهرة.
- محمد أحمد الغمراوي: النقد التحليلي لكتاب وفي الأدب الجاهلي، القاهرة ١٩٢٩.
- سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي — القاهرة ١٩٤٥.

Encl. de l'Islam, art. Arabie,  
Encl. de l'Islam, art. Djahtya.

C. Brockelmann: Geschichte der Arabischen Literatur - Berlin 1939.



# الباب الثالث النثر الجاهلي الفصل الأول عمومٌ واضطراب

نشأة النثر الجاهلي وما تلقى منه .

عرف الجاهليون النثر ودونوا بعضه ولكن نشأته كانت غامضة وروايته مضطربة . وكان حظه من لحظ أقل من حظ الشعر ، امتدت إليه يد التحريف والنحل فزادته اضطراباً .

## ١ - نشأة النثر الجاهلي

كان النثر الجاهلي موضوع خلاف شديد بين العلماء من مستشرقين وعرب ، وذلك لعمومِ نشأته واضطراب روايته ، فذهب « جيب » الى أنه لا يعقل وجود آثار نثرية للجاهليين لم يبق لها أثر أو ذكر ، وأنكر الآراء التي تقول بتلك الآثار على أنها لا تستند الى براهين مقنعة وعلى أن النقوش والكتابات التي عثر عليها في مملكة الحيرة ليست برهاناً ثابتاً على وجود الأدب النثري في الجاهلية<sup>١</sup> ، فالنثر الفني ، لغة العقل والتفكير . لا يظهر عند أمة من الأمم إلا متى بلغت تلك الأمة درجة عالية من المدنية والحضارة ، بخلاف النثر ، لغة العاطفة والخيال ، فإنه يرافق الإنسان منذ طفولته الاجتماعية<sup>٢</sup>

أما رينجيس بلاشير<sup>٣</sup> فهو يعترف بوجود نثر جاهلي يدور حول الخطابة والأشعار . وما الى ذلك ، قال : « والعربي يحكم وراثته يجب الكلام وسماعه التلق الجيد ، والبدو تبعاً لنوع معيشتهم مدعوون الى تنمية الليل للفصاحة . فإن اللغة العربية أداة قوية وثنية بالأصوات التي تدفع الى التماس الأنعام الإيقاعية والجمل القصيرة أو على العكس الى

١ - مجلة الأدب والعصر ، السنة ١ ، العدد ٢ ، ص ٢ وما يشعها

٢ - كدرو تاييه ، تاريخ الآداب العربية ، ص ٧٦

٣ - تاريخ الأدب العربي ، ص ٤٨ - ٤٩ .

الإطناب الذي يزيد حشو الكلام من قيمته ، كما أنّ حياة الصحراء تساعد على نمو الموهبة الخطائية ... والبدويّ يعمل قليلاً ويقضي أوقاته في أحاديث لا نهاية لها ، أما تلك الأحاديث التي تجري حول الموقد والتي أطلق عليها القدماء اسم « الأسهار » فقد لعبت دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته مثيلاتها في الغرب ...

وتتلور هذه الأحاديث حول الوقائع اليومية التي تنقلها سريعاً الإشاعات في طرق خفية إلى أقاصي الصحراء . وإلى جانب الموضوعات العادية تشكل مادة السمر أقاصيص أخرى هي بحكم نوعيتها مصادر التاريخ والأدب ، فمنها ما له علاقة بالغزو أو المعارك التي أشهر فيها بعض المحاربين ، أو الحساثر التي منيت بها القبيلة في غزواتها القاضنة بالنسبة للمكاسب التي حصلت عليها فيختلط الصحيح بالمشكوك فيه ، والتاريخ بالأسطورة ... ويخلص بلاشير إلى أن هذا الأدب موجود في كتب الأدب ، ولكنه مشوّه لكثرة ما دخل عليه من تحريف وتخل.

ويعجاريه كارلو نالينو في هذا الرأي ويضيف : « إن العرب في الجاهلية لم يفرجوا في النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطعات » كما يضيف إلى مادة النثر الجاهليّ الحكيم والأمثال والأقاصيص التي تفسّر الأمثال ، ثم شيئاً من تواريخ الأمم المجاورة لهم مثل أهل ندمر والفرس والروم والعبرانيين ، وهو يذكر التضرّ بن الحارث بن كلدة « الذي أتى الحيرة وأخذ من أهلها أخبار العجم ثم رجع إلى مكة وعلم سكاتها ضرب العود والغناء ، فإذا جسس النبي مجسّساً دعا فيه الناس إلى الله ، قال هلموا إليّ أحدثكم أحسن من قصص محمد ، ثم حدثهم أحاديث ملوك الفرس وأخبار رُسَم وإِسْفَنْدِيَار » . أما علماء العرب فقد أجمعوا على إثبات نثر جاهليّ واختلفوا في موضوع ذلك النثر ومداه .

## ٤ روايته وما تبقى منه

والذي يترامى لنا هو أنّ الجاهليّين عرفوا النثر ودوّنوا بعضه لنفس الأسباب التي دعيتهم لتسوين بعض الشعر . ولكن ذلك النثر كان حظّه من الحفظ أقلّ من حظّ الشعر

لصعوبة روايته . ثم انه كان أكثر تعرضاً للتحريف والنحل بسبب صعوبة روايته وسهولة تحريفه والإضافة إليه . أما ما بقي لنا منه فبعض أسجاع الكهّان ، وبعض الأمثال والحكم ، والخطب ، والقصص .



## الفصلُ الثَّانِي

### سَجْعُ الْكُهَّانِ - الْحِكْمَةُ وَالْمَثَلُ

#### ١. سَجْعُ الْكُهَّانِ .

أُسْلُوبُ سَجْعِ حَاطِلٍ لِلْأَسْهَامِ وَالْإِبْهَامِ ، وَإِعْرَابُ يَحْتَمِلُ الْوَسْطَى مِنَ التَّأْوِيلِ .

#### ٢ . الْأَمَثَلُ وَالْحِكْمُ .

كَثِيرَةٌ ، وَهِيَ مُسْتَقَدَّةٌ مِنْ خَيْرَةِ الْحِكْمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ . أَكْثَرُهَا جَارٍ عَلَى أُسْلُوبِ السَّجْعِ . تَطْلَعُنَا عَلَى عَقْلِيَّةٍ أَصْحَابِيَّةٍ ، وَسَيَلَرِهِ الْعُرَى فِي بَيْتِهِمْ . كَمَا تَطْلَعُنَا عَلَى حِكْمَةِ الْمَدَائِدِ وَعَنِ انْتِزَاعِ الْبَدَائِي . مِنْ شَهْرِ الْحِكْمَاءِ نَقَّاهُ وَأَكْمَرَهُ مِنْ صَبِي وَعَامِرٍ مِنَ الْقُرْبِ .

#### ١ سَجْعُ الْكُهَّانِ

مَرَّ بِنَا أَنْ التَّكْهُّنَ كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الشَّاعَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ كُلُّ مَتَكْهَّنٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَحَرٌ لَهُ رُئِيٌّ<sup>١</sup> مِنْ الْجَنِّ يَسْتَرْقِي لَهُ السَّمْعُ . فَيَعْرِفُ بِهِ الْمُسْتَقْبَلَ . وَقَدْ نَقَلْتُ إِلَيْنَا كُتُبَ الْأَدَبِ طَائِفَةً مِنْ أَقْوَالِ أُولَئِكَ الْمَتَكْهِنِينَ ، وَهِيَ كُلُّهَا قَائِمَةٌ عَلَى السَّجْعِ ، وَإِنَّا وَإِنْ شَكَكْنَا فِي صِحَّةِ كُلِّ مَا يُقَالُ ، لَا نَشْكُ فِي أَنَّ الْأُسْلُوبَ هُوَ أُسْلُوبُ الْكُهَّانَةِ . قَالَ الْجَاهِلِيُّ : «كَانَ حَارِيٌّ<sup>٢</sup> جَهَنِمِيَّةً وَشَقَّ وَسَطِيحٌ وَعَزَّى سَلْمَةً وَأَشْبَاهَهُمْ يَنْكُهْنُونَ وَيَحْكُمُونَ بِالْأَسْجَاعِ<sup>٣</sup> . » وَهُوَ يُورَدُ مِنْ سَجْعِ عَزَّى قَوْلُهُ : «وَالْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَالْعُقَابُ وَالصَّقْعَاءُ<sup>٤</sup> ، وَأَقَمَّةٌ بِقَعَاءَ<sup>٥</sup> ، لَقَدْ نَفَرَ ابْنُ الْعُشْرَاءِ<sup>٦</sup> ، لِلْمَجْدِ وَالسَّأَاءِ . » وَذَكَرَ

١ - الْيَانِ وَالْيَسِينُ لِلْجَاهِلِيَّةِ ١ ، ص ١٩٥

٢ - الْحَارِيُّ هُوَ الْمَتَكْهِنُ وَالصَّقْعَةُ نَسَبَةٌ هَوَازِيَّةٌ الْعَبْرِيَّةُ طَالَعٌ .

٣ - الْيَانِ وَالْيَسِينُ ١ ص ١٩٥ . *Encycl. de l'Islam. II. pp 624, 625.*

٤ - أَصْقَعَاءُ الشَّمْسِ .

٥ - بِقَعَاءُ مَاءٍ .

٦ - ابْنُ الْعُشْرَاءِ : حَمَامَةٌ مِنْ ذُرَارَةٍ .

المسعودي بعض الأساطير الخائفة حول قصة سد مأرب وسيل الغرم، وضمن أساطيره بعض أقوال الكُهَّان، وهي، وإن خلت من الصحة، تدلّ على الأسلوب المتبع، قال: «كان للملك عمرو بن عامر... أخٌ كاهن عقيم يقال له عمران، وكان لعمرو كاهنة من جُمُير يقال لها طريفة الخير... وبيننا طريفة الكاهنة ذات يوم نائمة إذ رأت فيها يرى الذنم أن سحابة غشيت أرضهم وأرعدت وأبرقت... ففزعت طريفة لذلك ودُعرت ذعراً شديداً، واستبتهت وهي تقول: ما رأيت مثل اليوم، قد أذهب عني النوم، رأيتُ غيماً أبرق وأرعد طويلاً ثم أضحق، فوقع عني شيء إلا أحرقت. فما بعد هذا إلا العرق... ثم دخلت على عمرو... فتكهنّت وقالت: والنور والظلماء، والأرض والسماء، إن الشجر لتألف، وسيعود الماء لما كان في ابدهر السالف...»

وهكذا ترى أن الكُهَّان يعتمدون أسلوب التجميع لموسيقاه الأخاذة. ويكثرون من القسم بالأرض والسماء وما إلى ذلك تقويةً لأقوالهم ووصولاً إلى الإيهام وكانوا إلى ذلك يعتمدون الإيهام اعتماداً ويكثرون لذلك من التقطيع، والحذف، والإغراب حتى تمتدّ أقوالهم إلى ألوانٍ من المعاني ويكثر فيها الاحتمال والتأويل.

## ٤ الحكمة والمثل

التراث الجاهلي: لا شك أن العرب، شأن الأم السامية، شديدو الميل إلى ضرب المثل وإرسال الحكمة لتزيين كلامهم وتقويته. وقد تركوا لنا طائفة جليية من تلك الأمثال كانوا يصيرونها في شتى أحداث حياتهم وتقلبات أحوالهم، غني العلماء عصرًا بعد عصر يجمعها ورواية ما ترمز إليه من أحداث وأقاصيص<sup>١</sup>. وكان للجاهلية حظٌ وافٍ من تلك الأمثال، نسبت إليها، وفُسرَت برواية أحداثها. وما لا شك فيه أن كثيراً من تلك الأمثال لم يثبت للجاهليين بل نحن هم نخلّها، وحشر في أقوالهم حشراً، وأنه لمن الصعب جداً تمييز الصحيح من المنحول، ولكن الأمر يهون بعض الشيء إذا ذكرنا أن

١ - مروج الذهب ٢، ص ١٨٥ - ١٨٧٠

٢ - من أشهر حاسمي الأمثال أبو الفضل الميداني (القرن الثاني عشر هـ/ميلاد) صاحب «جمع الأمثال» وأبو هلال العسكري (القرن الحادي عشر) صاحب «جمهرة أمثال العرب». ومن سبق إلى ذلك الفضل القضي وأبو عيلة.

ما نسب إلى الجاهلية في هذا الموضوع موسوم بالسَّمة الجاهلية والروح الجاهلية، وموضوع بحسب الأسلوب الجاهلي، وهذا من الناحية الفنية التحليلية لا يخرج بنا عما نحن بصددّه.

جمع الأمثال والحكم: ونحن نعلم أنّ عرب الجاهلية حاولوا جمع تلك الحكم، وهي إمّا عربية مما قالته حكام العرب، وإمّا أجنبية مما وصل إلى العرب عن طريق التمازج والأسفار وأصحاب الكتاب. وقد جاء ذكر مثل هذه المجموعات الجاهلية في أخبار كثيرة. قال عامر بن الظُّرب، حكيم العرب، للملك الغساني حينما خافه على نفسه وأراد أن ينجو منه: «إنّ لي كثر عِسم، وإنّ الذي أعجبك من علمي إمّا هو من ذلك الكثر أحتذي عليه، وقد خلّفته خبي، فإن صار في أيدي قومي عِلمٌ كلّهم مثل علمي، فأذن لي حتى أرجع إلى بلادتي فأتيك به<sup>١</sup>». وكان الملوك يرسلون إلى الحكماء يستكتبون حكمهم، أو يطلبون نماذج منها. من ذلك أنّ ملك هَجَرَ (نجران) كتب إلى أكرم بن صيفي طالباً «أن يكتب إليه بأشياء ينفع بها، وأن يوجز، فكتب إليه: إن أحسن الحمن الفجور، وأمثل الأشياء ترك القُصون<sup>٢</sup>...»

وكتب إليه النعمان بن المنذر «أن أعهد إلينا أمراً تعجب به فارس و نرغّبهم به في العرب. فكتب أكرم:

«لن يهلك امرؤ حتى يضع الرّأي عند فعله ويستبدّ على قومه بأمره<sup>٣</sup>...» قال ناصر الدين الأسد: «ومما يدلّ على أنّ هذه الحكم كانت مدوّنة منذ الجاهلية وبقيت إلى عهد الرسول والصحابّة، أن عمران بن حصين قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول: الحياء لا يأتي إلا بخير. فقال بشير بن كعب: وكان قد قرأ الكتب —: إنّ في الحكمة منه ضعفاً. فغضب عمران بن الحصين وقال: أحدثك بما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلّم، وتحدّثني عن صحفك هذه الخبيثة<sup>٤</sup>». ويضيف

١ - أبو حاتم السجستاني: كتاب المعربين، ص ٤٨ - ٤٩. — مصادر النثر الجاهلي، ص ١٦٥ -

١٦٦.

٢ - نفس المصدر، ص ١٧

٣ - أبو حاتم السجستاني. كتاب المعربين، ص ١٩.

٤ - العسكري: التصحيح والتحريف (مطبعة لظاهر عصر ١٩٠٨)، ص ٨.



ناصر الدين الأسد : « ثم هذه الصحيفة التي كانت مع سويد بن الصَّامت ، والتي لم تكن إلا كتاباً فيه حكمة لقمان ؛ وقد قرأها قبل أن يُسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحسنها رسول الله وقال : إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا : قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، هو هديٌّ ونورٌ » .<sup>١</sup>

منزلة الحكيم في الجاهلية : والحكيم عند الجاهليين كان بمنزلة الشاعر ، بل يفوقه رتبةً ، وكانت القبائل ترجع إليه في حائتي الحرب والسلام ، « والذين اشتهروا من هؤلاء الحكماء كانوا يهيجون نهجاً يذكرونا بنهج حكماء الشرق الأدنى ، فكان الحكيم العربي كالحكيم البابلي والعبري يجمع أحياناً إلى عمل القاضي والمشرع حرفة الكاهن والطبيب والمنجم ، فكان الحكيم هو الرجل المثقف ثقافةً جامعةً لشئى ألوان المعرفة ، وكان بعض حكماء العرب يؤرثون الحكمة أبناءهم كما صنع حكماء الشرق القديم حين كانوا يلقنون أولادهم تعاليم الحكمة » .<sup>٢</sup>

قيمة الحكمة الجاهلية : وإن من رجع إلى طائفة الأمثال الجاهلية التي عُيى الأدباء بجمعها ، سواء أكانت صحيحة أم منحولة ، وجدها تختلف اختلافاً شديداً في ميزان التاريخ الذي تشير إليه ، وفي ميران البيان الذي أُخرجت في قوله . فقد استغلقت في بعضها المعاني التاريخية استغلاقاً تاماً ، وقُصّت أحداث بعضها قصاً قائماً على مجرد التخمين والتقدير ، في حال أن بعضها الآخر مُسند إلى أحداث ثابتة ، لا اعوجاج فيها ولا اضطراب . ثم إنها مسكوبة في قالب الإيجاز الذي يخلو في أحيان كثيرة من الروتق البياني على ما هنالك من أمثال حسنة الرص ، شديدة البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكتابة .<sup>٣</sup> وأكثر الأمثال جارٍ على أسلوب السجع الذي يعلق بالذهن في سهولة . هذا والأمثال الجاهلية تطلعننا على عقلية أصحابها وسيطرة القوة في مجتمعهم ، كما تطلعننا على حياة البداوة وعلى التفلسف البدائي للعقل الذي يحسن

١ - السيرة ، لابن هشام ٢ ، ص ٦٨

٢ - مصادر الشعر الجاهلي ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

٣ - عند الحيد عابدين . لأمثال في لثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى ، ص

الاستنتاج أكثر مما يحسن التعليل والتحليل . وأكثر استنتاج العقل البدوي اختباري قائم على تحارب الحياة وماديتها ، لأنَّ العقل البدوي محصور ضمن نطاق المحسوسية التي تطلب النافع قبل أن تطلب الجميل والكامل ، والتي تميل الى العمل أكثر مما تميل الى النظر والتأمل . وقد قالوا مثلاً : « في الجريرة تشترك العشيرة — قلب له ظهر المحزن . ما يوم حليلة بسر... »

**أشهر الحكماء :** ومن أشهر حكماء العرب لقمان الذي ذهب مضرب المثل في الحكمة والتوحيد بين العرب . وهو صاحب مجلة باسمه تدعى «مجلة لقمان» ، وكان له بين عرب الجاهلية جماعة توحيدية تُعرَف باسمه ، منها في المدينة سويد بن صامت ناظر الرسول في مكة . وقد اضطربت الأقوال في شأن لقمان ، قال البيضاوي : « والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً » . ومما تناقلوه عنه في الجاهلية أنه : أول من سنَّ رحم الزوج الخائنة ، وأول من سنَّ قطع يد السارق !

ومن حكماء العرب أكثم بن صفيي التميمي ( القرن السابع ) حكيم العرب ، وعامر ابن الظرب العدواني<sup>٢</sup> وكان حكماً تحتكم إليه العرب



٢ . كان عمر بن الظرب عدوانياً وكان شعراء فيلته يفتخرون به . قال ذو الاصبغ العدواني :  
عذيرُ الحي من عذوان      كماوا حيلة الأرضي  
ونهم عكهم يفتضي      فلا يُنقَضُ ما يفتضي  
يعني : عامر بن الظرب

## الفصل الثالث الخطابة والقصاص

### ١ - الخطابة :

كانت الخطابة للمعاصرة أو المأثرة ، أو لصدد عادي أو حصص على حرب  
اشتهر من خطباء مكة عتبة بن أبي ربيعة ، ومن خطباء المدينة قيس بن الشباس ، ومن خطباء البادية  
أبو عسار الطائي . أشهر القبائل خطابة تميم .  
الخطابة الجاهلية هي خطابة شعب بدائي يحصل بالمظاهر والحركات والبررات الصوتية ، وبحسب الإقناع  
عن طريق التأثير العاطفي .

### ٢ - القصاص :

انتشرت في الجاهلية أخبار الأولين وقصص التاريخ الفدسي وأنباء أصحاب الكتاب . وتضمنت  
كتب القبائل أخباراً وقصصاً متعلقة بالشعر والقبائل والأيام . وروى احمليون أخبار العرب بالبادية  
ومأرب ومذحجا ، وأخبار القصير وعام الفين وما إلى ذلك ، امتزجت فيه الأسطورة بالتاريخ . وسكن  
هذا القصص الخامل قد لعت به أيدي التحريف حتى أصبح غريباً عن أصحابه ورواته الأولين .

### ١ - الخطابة :

١ - شيوخها في الجاهلية : العربي خطيب من طبعته ، تأتيه الخطابة عفواً وتشيعُ  
أساليبها حتى في شعره . والخطابة عند الجاهلي بمقام الشعر ، فهي كالشعر لسان الدفاع  
عن القوم ، والتحريض على القتال ونصرة الضعيف ، ورسالة الملوك والأمراء التي  
يحافظون ببلاغتها على سلطاتهم ونفوذهم ، وكلمة الخبرة والعبرة إلى الناس نوراً وهدياً .  
وكان الخطيب زعيم قومه أو عالمهم أو شاعرهم أو حكيمهم .

وإذا كان العرب أميين في أكثرهم ، ذوي غزوات متواصلة ، بعيدين عن أساليب  
الطباعة والصحافة ، كانت الخطابة أسهل الطرق إلى إثارته ونشر الدعوة فيهم  
وقناعهم ، وقد ساعد على ذلك ما هنالك من أسواق وجماعات ، وما للعرب من

فصاحة وبلاغة فُطروا عليها ، فتعدّد الخطباء وكان لهم في كلّ محفل مواقف ، وفي كلّ منقلب من منقلبات الحياة منابر ومعارب .

قال ريجيس بلاشير : «والعربيّ بحكم وراثته يحبّ الكلام وسماع النطق الجيّد ، والبلدو تبعاً لنوع معيشتهم مدعوّون إلى تنمية الميل للفصاحة . فإن اللغة العربيّة أداة قوية وغنية بالأصوات التي تدفع الى القاس الأنعام الإيقاعيّة والجُمَل القصيرة ، أو على العكس الى الإطناب الذي يزيد حشو الكلام من قيمته ، كما أنّ حياة الصحراء تساعد على نموّ الموهبة الخطائيّة... »<sup>١</sup> ولئن هدف المستشرق ، في كلامه ، إلى إثبات الوجود النثري في الجاهليّة ، فقد أشار إشارة واضحة الى عوامل الخطابة الجاهليّة وأسباب ازدهارها .

٢ - عوامل الخطابة الجاهليّة : الخطابة في الجاهليّة اندفاعٌ فيضيّ دعت إليه البيئة ، وبعثته الطبيعة الغنيّة وقد بقي لها منها بعض الشيء دونه العرب في الجاهليّة كما دَوّنوا بعض الشعر ، وكان حظّه من الصّحّة قليلاً لكثرة ما دخله من التشويه واعتوّره من التحريف .

ومها يكن من أمر فقد شاعت الخطابة في الجاهليّة شيوعاً شديداً لتوافر العوامل والدواعي ، وأصبح الخطيب سيّداً في قومه<sup>٢</sup> يأمر فيطاع ، ويدعو فيُجاب . ويرى المستشرق نالينو أنّ تقدير العرب للخطباء مرتبط بنظامهم السياسيّ القائم على الحرية ونوع من مجلس شوريّ<sup>٣</sup> . وكانت لهم في الجاهليّة ندوات لكلّ كبيرة وصغيرة ، يجتمعون فيها للتشاور ، ويخطب فيها الخطباء ، ويتكلّم الأقبال ، ومن أشهرها «دار الندوة»

١ - تاريخ الأدب العربيّ الترجمة العربية ١ ، ص ٤٨ ٤٩

٢ - يرى أبو عمرو بن العلاء أنّ الخطيب في الجاهليّة فوق الشاعر (طالع اليك والتين للجاحظ ١ ص ١٧٠) .

٣ - يقول نالينو : «كان رجال كل قوم من أهل الدير يبايعون أهمّ أمير القوم في مجلسهم ، كما كان كبار أهل مكة يتفاوضون فيها في دار اسدوة المنسوب تأسيها الى قصي بن كلاب . فكان للخطيب المبلغ شأن عظيم . ومن الحريّ بالذكر أنّ الألفاظ التي كان العرب يعيرون بها من متولي حكم قوم من أقوامهم أعني «السيد» و«الأميرة» عند عرب نجد والحجاز ، و«القبل» في أنحاء اليمن — إذا بحثنا عن اشتغالها بفقارة سائر اللغات السامية ، وجدنا أنّ معناها الأصليّ إمّا كان القائل أو المكلّم...» .

لرؤساء قريش<sup>١</sup>. وكان للجاهليين الى جنب الندوات أسواق مشهورة يجول فيها الخطباء والشعراء جولاتهم الأدبية. وكان للندوات والأسواق أثر فعّال في شيوع الخطابة وازدهارها.

وفضلاً عن ذلك فإن حياة الصحراء وما تقتضيه من بطولات ، وما تدعو إليه من فروسية ، وتنازع البقاء وما يستلزم إليه من غزو و قتال ، والعصبية القبلية وما تحمل عليه من مفخرات ومنافرات ... كل ذلك كان مسرح نشاط للخطابة ، وميدان سباق في حلبة البلاغة.

وهناك الوفود من قوم الى قوم ، ومن قبيلة الى قبيلة ، في سبيل مناصرة أو دفاع ، والوفود من قبيلة الى ملوك اليمن أو الحيرة أو فارس أو غسان ، في سبيل الندود عن الحياض ، أو المطالبة بالحقوق ، وكل ذلك حافز من حوافر الخطابة يعلي شأنها ويمجد سلطانها.

وهناك أخيراً الأديان والمذاهب وما تدعو إليه من زهد ، وما تحرض عليه من فضية. والسبيل كلام يلقى وأصوات تنقل المعاني الى الأسماع.

٣ - موضوعات الخطابة الجاهلية : دارت الخطابة الجاهلية في نطاق البيئة التي نشأت وترعرعت فيها ، فكانت خطابة بطولية وفروسية بغوه بها الخطباء للدعوة الى القتال والخصم على التزال ، وكانت خطابة دفاع أو صلح وسلام ، وكانت خطابة مفارقة أو منافرة أمام حاكم يحكم ، أو في حضرة ملك تميل بمجده كفة الميزان ؛ وكانت خطابة زهد تدعو الناس الى الصدوف عن بهارج الدنيا والتعقّ بمحال الآخرة ، وكانت خطابة كهان يسجعون سجع الحمام في سبيل هدف غيبي يطلقون وراهه الأقاويل ، وينصبون على جوانبه الأحابيل ، وكانت خطابة زواج يُعَدّ ويُبَارَك ، أو خطابة موت يُلمّ فيُجمع ، ويرمي القلوب في هوة سحيقة من الحزن ، ويعمل على التأمل في حقيقة الوجود ؛ وكانت أخيراً خطابة وصايا يتوجّه بها الطاعنون في السن الى أبنائهم وأحفادهم للسبر بهم في سبيل الخير والشرف...

٤ - قيمة الخطابة الجاهلية وأشهر أربابها: الخطابة الجاهلية خطابة شعب بدائي<sup>١</sup> استوحى موضوعاتها وأماليتها من واقع بيئته، وراح يصوّر فيها تلك النفسية العجيبة في سرعة تفاعلها والأحداث، وشدة تقلبها مع الأحوال، تلك النفسية التي ترصّن في وصايا الموت الى حدّ السمو، ويرين عليها الهدوء والتروّي في خطب السلم الى حدّ الخروج عن طور البدائية؛ تلك التي تتنوّى في خطب الحرب الى حدّ العنف، وتندفع في خطب المفارقة الى حدّ الهياج.

والخطيب الجاهلي شديد الاحتفال بالمظاهر التأثيرية كالحركات والتبرات الصوتية، وكثيراً ما يعتمد الى ألوان من هبل الشفاه، والتفجير والتعطيط، والجهورة، والتخمين في الصوت<sup>٢</sup>، وهو في بعض المواقف يعتمد السجع اعتياداً، كما يعتمد التقطيع الموسيقي في العبارة، ولا سيما إذا كان من الكهّان وأشباههم ممّن يستحون بذراية اللسان وعنف البيان.

وهناك الإيجاز والإطناب في الخطابة الجاهلية: إيجاز في رصّ العبارة، وإيجاز في مطلق الكلام حتى لتحسب اللفظة ألفاظاً والعبارة عبارات، وحتى لتغنيك الوصية القصيرة عن المطولات والمفصلات. وكم في هذا الإيجاز من جهل وروعة!... وإطناب الى جانب الإيجاز في بعض الخطب، حتى لتحسب الكلام سلسلة من التكرارات، وحتى لتحسب العبارات المترادفة والمتجاوبة زمزمات القضاء في عالم القناء. وهكذا كانت خطابة القرشيين في مجالسهم حافنة بالذقة والإيجاز فيما كان الأعراب يسترملون في خطبهم استرسالاً تلعب فيه المادّة اللفظية أعظم دور<sup>٣</sup>. وقد اشتهر من خطباء مكة عتبة بن أبي ربيعة الذي جاء عنه في كتاب «الغازي» للواقدي، انه أنطق الناس وأصولهم لساناً، وسهيل بن عمرو الأعلم، ونفيل بن عبد العزى الذي تنافر إليه عبد المطلب وحرب بن أمية فنفر عبد المطلب - أي حكم له<sup>٤</sup>. ومن أشهر خطباء المدينة قيس بن الشّاس، وسعد بن الربيع. ومن أشهر خطباء البادية أبو عمار

١ - طالع «البيان والتبيين» للجاحظ ١، ص ٢٩.

٢ - Lammens, op. cit., 75 - 76.

٣ - «البيان والتبيين للجاحظ»، ص ٣٠٤.

الطائي خطيب ملحق كلَّها وهاني بن قبيصة خطيب شيان يوم ذي قار، وزهير بن جُنَاب خطيب كلب وقضاة؛ وأشهر القبائل خطابة تميم، ومن خطبائها ضمرة بن ضمرة، وأكثم بن صفي، وعمرو بن الأهمم المنقري «ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه». ومن أشهر خطباء الجاهلية على الإطلاق قس بن ساعدة الأيادي، وهو خطيب العرب وحكيمها وقاضيا.

ولخطابة الجاهليين أسلوبان هَامَان أحدهما يتخذ العقل دليلاً ويركب مركب الحجّة المقنعة، فيعتمد إلى التفصيل والتعليل وإبراز الشواهد والأدلة، ويعتمد العبارة الموجزة والحكم الوافرة التي تحاطب العقل والتي تُسرّد من غير ما ترتيب أو تفسير كأنها آيات مُنزلات لا تقبل ردّاً ولا شكّاً، وكأنّها الدستور الذي لا يجوز الخروج عنه، فهي شُهَب نار، وأسهم حقيقة، وفلسفة حياة، وذلك كلّ من غير ما لجوء إلى مسجع موفور، أو بديع منشور.

أما الأسلوب الثاني فيتخذ العاطفة وسيلةً للإقناع فيعتمد العبارات القصيرة، والسجع الموسيقي، والتشبيه والاستعارة والصور الشديدة الوقع، ويكتفي من المعنى بالقليل المكرّر، ويحاول التأثير بكلّ ذلك على عاطفة السامع وقلبه. ويتجلى لنا هذا الأسلوب في خطبة قس بن ساعدة التي تضيّع بالحياة، وتتقاذف بها الحمل، ويكثر فيها الاستفهام والنداء وما إلى ذلك، وتتوالى فيها المعاني من غير ما رابط حقيقي في ثوب من الخيال قلما يروق، وفي نهج بعيد عن روح الفن.

٥- الوصية: يلحق بالخطابة «الوصية» وهي نصيحة يلقها صاحب الشأن في وقت معيّن ويرمي بها إلى الحضيّ على الخير وتجنب الشرّ، فيوصي الأب أبنائه عند احتضاره، ويوصي شيخ القبيلة رَهطه إذا ما اشتدّ بهم الأمر وأحاطت بهم الصعاب. والوصايا تجري على أسلوب الخطب، وأكثر ما تكون موجزة، شديدة الوقع في النفس لما فيها من عاطفة جياشة ومن أسلوب مُسجّع عادة، رشيق أبداً، يغمّر جوّ من الموسيقى المؤثرة..

## ٢ - القصص :

١ - العرب القدمون والقصّة : لا شكّ أنه كان في الجاهلية معلّمون يعلمون أخبار الأولين وقصص التاريخ ، مثل النضر بن الحارث الذي اكتب أساطير الأولين وكان يحدث الناس عن رستم وإسفنديار وملوك فارس<sup>١</sup> ومثل أصحاب الكتاب الذين كانوا يروون أخبار الأنبياء أضف الى ذلك أنّ العلماء أثبتوا لبعض القبائل الجاهلية كتباً تضمّنت مجموعات شعرية لشعرائها ثم بعض الأخبار والنسب والقصص والأحاديث مما يتصل بالشاعر نفسه ، أو ببعض أفراد قبيلته ، وما يوضح مناسبات القصائد ، ويفسّر بعض أبياتها ، ويبيّن ما فيها من حوادث تاريخية . فيجيء كتاب القبيلة بذلك سجلاً لحوادثها ووقائعها ، وديواناً لمآثرها ومتابها ، ومعرضاً لشعر شعرائها<sup>٢</sup> . فضلاً عن ذلك فقد روى الجاهليون في أسفارهم أخبار العرب البائدة<sup>٣</sup> ، وإرم ذات العماد<sup>٤</sup> ، وعوج بن عناق<sup>٥</sup> ، الذي « كان يحتجز السحاب فيشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، ثم يأكله »<sup>٦</sup> ، وأخبار مأرب وسيل العرم ، وأخبار القصور ، وعام الفيل<sup>٧</sup> ، وأيام العرب وبطولاتهم ، وما إلى ذلك مما مزجوا في أكثره التاريخ بالأسطورة ، وما كان مادة انطلاق لقرائح الرواة وأقلام الأدباء في العصور التالية حتى لم يعد باستطاعتنا أن نقول كلمتنا في تلك الأخبار والأساطير.

٢ - أيام العرب : أما أيام العرب — وهي منثورة طيّ المجاميع الأدبية — فنحن نورد بعض ما جاء عنها في مقدّمة الكتاب القيم الذي نشره جماعة من الأدباء المصريين وعنوانه أيام العرب في الجاهلية<sup>٨</sup> ، وما قيل فيه : « تعتبر أيام العرب في الجاهلية مصدراً

١ - ابن هشام : السيرة ١ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

٢ - نصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، ٥٥٤ - ٥٥٥ .

٣ - للؤلؤجيا عند العرب ، محمود سليم الحوت ، ص ١٧١ .

٤ - نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

٥ - نفس المرجع ص ١٨٢ .

٦ - نفس المرجع ، ص ١٨٣ - ١٩٥ .

٧ - من تأليف وجمع محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفصل إبراهيم ( مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ) .



خصياً من مصادر التاريخ، وينوعاً صافياً من ينابيع الأدب، ونوعاً طريفاً من أنواع القصاص، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث، وما رُوِيَ في أثنائها من نثر وشعر، وما تدسَّى خلالها من مآثور الحكم، وبارع الخيل، ومصطفى القول، ورائع الكلام.

وهي توضح شيئاً من الصلات التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الأمم كالفُرس والروم، وتروي كثيراً مما كان يقع بين العرب القحطايين والعدنانيين من خلاف، وبين العدنانيين أنفسهم من أسباب النزاع، بل إنها سبيل لفهم ما وقع بين العرب بعد الإسلام من حروب شجرت بين القبائل، ووقائع كانت بين البطون والأفخاذ والعشائر.

ثم هي في أسلوبها القصصي، وبينها الفني مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم، وأسلوب الحياة الدائرة بينهم، وشأنهم في الحرب والسلم، والاجتماع والفرقة، والبقاء والأمر، والنجدة والاستقرار، وهي أيضاً مرآة صادقة تظهر فيها فضائلهم وشيمهم: كاللدفاع عن الحرم، والوفاء بالعهد، والانتصار للعشيرة، وحماية الجار، والصبر في القتال، والصدق عند اللقاء، وغير هذا مما تراه وضوحاً في تلك الأيام.

ولو نظرت إلى الشعر الجاهلي في جمته وتفصيله، وبخاصة ما كان في الفخر والحامسة والرثاء والهجاء، فإنك تجده قد ارتبط بهذه الأيام ارتباطاً تاماً، فبينما كان القوارس يناضلون بسيوفهم ورماحهم، ويمجدون نفوسهم رخيصة في سيل أقوامهم كان الشعراء من ورائهم يدفون عن الأحساب بقصيدهم، ويطلقون ألسنتهم في خصومهم وأعدائهم، ويندبون بقوافيهم صرعاهم والقتلى من أشrafهم وزعمائهم، ترى ذلك ممثلاً في شعر الأعشى، وعنترة، وابن حنّظلة، والمهلل بن ربيعة وغيرهم ممن ظهر أثر الأيام في شعره من قريب أو بعيد.

وما تحدثت به الرواة من أخبار مساعير الحرب، وما امتلأت به الكتب من ذكر المغاور من أبطال الوقائع، هذه الأيام هي مورد أقاصيصهم، وساحة بطولتهم، ومسرد حوادثهم، فبسطام بن قيس سيد شيبان، وربيعه بن مكدم فارس كنانة، ودريد

ابن الصمّة قائد جيش ، وجنّاس بن مرّة قاتل كليب ... هؤلاء وغيرهم من قروم الحرب وأحلاس الحيل قد سجّلوا في هذه الأيام مواقف ومغامرات تملأ القلوب دهشة وإعجاباً .

« ولم تخلُ هذه الحروب من زعماء قبائل ، ورؤساء عشائر ، كانوا في زعامتهم ورياستهم مثلاً علياً في نصيحة الرأي ، وإصابة الخبز ، والتهدي إلى مواطن الصواب ، وفي ما أثير عن أكم بن صبي ، وقيس بن عاصم المنقري ، والحارث بن عباد البكري ، وعبد الله بن جدعان القرشي ما هو جديد على الزمن ، باقٍ على مرّ العصور » .

٣ - قيمة القصص الأدبية : للقصّة الجاهليّة - فضلاً عن قيمتها التاريخية التي أثبتناها - قيمة فنية . فهي موجزة ، سريعة الخطى ، عليها من عدوبة الطفولة والسذاجة والحفاة البدائية ما يروق ويشوق ، وفيها من البداهة والانطلاق ما ينسي ما فيها من كثافة ذكر الأسماء ومن ضعف الترتيب ومن إطالة المرويّات الشعريّة ، وما إلى ذلك من عيوب فنّ القصص .



## مصادر ومراجع

- أحمد أمين: فجر الإسلام — القاهرة ١٩٤٥.
- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي — القاهرة ١٩٤٦.
- أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي — بيروت.
- أحمد حسن الزيات: في أصول الأدب — محاضرات ومقالات في الأدب العربي - الطبعة الثالثة — القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م.
- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي — القاهرة ١٩٥٦.
- محمد أحمد حاد المولى: — أيام العرب في الجاهلية — القاهرة ١٩٤٦.
- قصص العرب — القاهرة ١٩٣٩.
- موسى سليمان: الأدب القصصي عند العرب — بيروت ١٩٥٠.
- كارلو نالينو: تاريخ الآداب العربية — القاهرة ١٩٥٤.
- مجلة الأدب والفن — السنة ١ - العدد ١.
- رثيف خوري: أكلهم بن صيني حكيم العرب — مجلة الضاد ٧: ٢٠٧ و ٢٣٧.
- مجلة المشرق ٢١ — ٩٩.



## الفصل الرابع

### مشاهير الحكماء والمُطَبِّاء في الجاهلية

### قُتَب بن سَاعِدَة - أَكْثَم بن صَيْفِي

### عَمْرُو بن مَعْدِي كَرِب

أ - قُتَب بن سَاعِدَة .

شاع أنه من إباد وأنه كان يقف في عكاظ واعظاً ، وقد تَرَعَّد وتَمَدَّد . وبوئي نحو سنة ٦٠٠ م -  
كان حطيب العرب وشاعرها وحكيمها في عصره ، يعتمد أسلوب التسييع والتبويل وضرب  
الأمثال ونعريه الحقائق المصيرية . خطابه رسالة تشييرية توقف الضمائر .

ب - أَكْثَم بن صَيْفِي .

هو من أشهر حكماء العرب في الجاهلية . توفي نحو سنة ٦٣٠ . كان مثال الرصانة ورجل العقل  
يتخلله وسيلة للتأثير والإقناع .

ج - عَمْرُو بن مَعْدِي كَرِب :

اشهر بالناس . أهدم وشهد الفادسية وتوفي نحو سنة ٦٤٣ . كان سيداً مُطَلَعاً في قومه كما كان  
خطيباً وشاعراً . له مقطوعات شعرية وشريفة ماثلة في كتب الأدب .

أ - قُتَب بن سَاعِدَة الإيادي (٦٠٠ م) :

٩ تاريخه : ليس لدينا من أخبار هذا الرجل شيء ثابت . وقد تضاربت الآراء في  
شأنه واختلف المؤرخون في حقيقة أمره فقال بعضهم إنه صائفي ، أو ركوسي<sup>١</sup> ، وقال  
بعضهم انه نصراني<sup>٢</sup> ، وذهب أكثرهم الى أنه من رجال الدين النصاري بل من

١ - الركوسية فرقة تنف بين النصرانية والنصانة ، والنصانة طائفة من الخنفاء الذين كانوا يعبدون الله ويؤجَّهون  
إليه في دينهم .

وللفظة «ركس» لفظة نصرانية عرفت في الجاهلية ولا تزال مستعملة حتى الآن . وهي من أصل آرامي وتعني  
«كاهن» و«شيخ» . وقد استعملها أمية بن أبي الصلت في شعره وجمعها عن «قساقسة» ، ووردت مجموعة على  
«قسيسين» في القرآن الكريم .

أخبارهم . وإن فاتنا تاريخ ولادته فقد تناقل الرواة أنه توفي نحو السنة ٦٠٠ للميلاد ، وأنه كان من نجران في اليمن ، وكان له شقيقان بعيدان الله معه فاتا ودفنها معاً ، وكان يردد على قبريها ويندبها .

وقد شاع أنه من إباد ، وهي قبيلة عدنانية ، وأنه كان يقف في عكاظ واعظاً ومرشداً ، وكان يند على القيص من حين إلى حين فيكرمه ، ولكنه صدف عن الدنيا وترهد وعاش على الكفاف متعبداً وداعياً إلى التقوى والتضرع في حقيقة الدنيا والتأهب للآخرة . وقيل إنه عمّر طويلاً وإن النبي سمعه في عكاظ فأثنى عليه ، وأنه قال فيه : « رحم الله قساً ! إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده . »

٤- أدبه : كان قُسَّ بن ساعدة خطيب العرب وشاعرها وحكيمها في عصره . ويقال إنه أول من خطب على شرف وأثكأ على سيف وأول من قال « أما بعد » . وما روي لنا من خطبه وحكمه يدل على اعتماد قُسَّ الأسلوب المسجع القريب من أسلوب الكهان في سجعهم ، ويكثر من التويل ، وضرب الأمثال ، وتعمية الحقائق المصيرية ، باللفاظ يتخيرها ، وفواصل قصيرة تتلاحق في سرعة ، وموسيقى لفظية يقض بها على سامعيه انقباضاً لكي يقتلهم من ذواتهم المادية وينضمهم إلى ذواتهم الروحية ، فبرتقوا من صميمتهم إلى عبادة الله الحق . وهكذا فخطابته رسالة تبشيرية توقظ الضالين وترغب في الخير والحسن .

ومن أقواله :

أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، أنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ... إن في السماء خيراً ، وإن في الأرض لخبيراً ... يا معشر إباد ، أين الآباء والأجداد ، وأين الفراغة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً ، وأطول أجالاً ؟ ١٤  
طَحْمُهم الدهر بِكَلْكَلِهِ ، ومَرْقُهم بِتَطَاوُلِهِ ١

ب - أَكْثَمُ بن صِفْيَى (٦٣٠ م) :

١- تلويحه : حكمة أَكْثَمُ أشهر من أخباره التي وصلت إلينا منقطعة مضطربة ، وجل ما نعرفه عنه أنه ابن رباح بن الحارث التميمي ، وأنه من أشهر حكماء العرب في

الجاهلية وأكثرهم ضرباً مثل . عُرِفَ بنزاهته وبرّه فكان العرب يتقاسمون إليه ولا يردّون له حكماً ، وكان رفيع المكانة في قومه ، علماً بالأنساب ، شديد الرأي ، قويّ الحجّة . قيل إنّ كسرى أنوشروان رآه وسمع كلامه فقال : « لو لم يكن للعرب غيره لكفى . » وقيل انه عمّر طويلاً وانه قصد المدينة ليُسَلِّمَ فتوقّى في الطريق ، وكان ذلك نحو سنة ٦٣٠ م / ٩ هـ .

٢ - أده : لأكرم بن صيفي خطب وحكم وأمثال لم يبقَ لها منها إلا نثف لا تُروى من عطش السحث . والذي نستخلصه منها أن أكرم بن صيفي مثال الرصانة ورجل العقل يتخذها وسيلة للتأثير والإقناع ، والعقل عنده عقل تفكير لا عقل منطق . وكان بعض الملوك يرسلون إليه يستكثبون حكمته ، فقد كتب إليه ملك هجر ، أو نجران ، أن يكتب إليه بأشياء ينفع بها ، وأن يوجز ، فكتب إليه : « إن أحقّق الحَقُّ الفجور ، وأمثل الأشياء ترك الفضول . » وكتب إليه الحارث بن أبي شُرّ العسائي ملك العرب « ... فأعهد إينا أمراً نعرف به أنّ في العرب ... حكمةً وعقلاً وألسنة . » فكتب إليه أكرم : « إن المروءة أن تكون عالماً كجاهل ، وناطقاً كصبي . » وكتب إليه كذلك النعمان ابن المنذر : « أن اعهد إينا أمراً نُعجب به فارس ونرغبهم به في العرب . » فكتب أكرم : « لن يهلك امرؤ حتى يضعيع الرأي عند فعله ، ويستبدّ على قومه بأمره . ... »

ومن حكمه : إياك والتبذير فإن التبذير مفتاح البؤس حبّ المديح رأس الضياع -- في المشورة صلاح الرعية ومادة الرأي — المزاح يورث الضغائن .

ج - عمرو بن معدى كرب الزبيدي (٦٤٣ م / ٢٣ هـ) .

١ - تاريخه : هو فارس اليمَن وخطيب العرب مرجعه إلى زبيد من مَنحج من كهلان ، وقد اشتهر بالبأس فقدم في ذلك على زيد الحيل . وهو يكي أبانور ، ويقال له ماتق بني زبيد لسرعة غضبه وشدته . التقى السبي لدى منصرفه من تبوك سنة ٩ من الهجرة فأسلم هو وقومه ، ثم ارتد عن الإسلام ، ثم رجع إليه وجاهد في سبيله ، وشهد القادسية وله من العمر نحو مئة وعشرين سنين . وقد اختلف الرواة والمؤرخون في تاريخ وفاته ، والأشهر أنه مات في آخر خلافة عمر بن الخطاب نحو سنة ٦٤٣ م / ٢٣ هـ . وقيل أنه قُتل في وقعة نهاوند وإن قبره في ظاهرها .

وكان عمرو بن معدي كرب يدينأ أكلأ ، وقدرأى صاحب الأغاني من أخباره في هذا الباب شيئاً كثيراً . من ذلك أنه كان « شيخاً عظيماً أعظم ما يكون من الرجال ، أجش الصوت ، إذا التفت التفت بجميع جسده ... » وأن « عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فرض لعمر بن معدي كرب ألفين ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ألف ههنا — وأوماً إلى شئ بطنه الأيمن — وألف ههنا — وأوماً إلى شئ بطنه الأيسر — لما يكون ههنا ؟ — وأوماً إلى وسط بطنه — فضحك عمر ، رضوان الله عليه ، وزاده خمس مئة » .

وكان عمرو بن معد يكرب سيداً مطاعاً في قومه ، كما كان خطيباً وشاعراً .  
٤ أديبه : لعمر بن معد يكرب مقطوعات شعرية ونثرية مبثوثة هنا وهناك في كتاب الأغاني للأصفهاني ، وفي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وفي غيرهما من كتب الأدب . وكثيراً ما نراه يتحدث عن نفسه في الشعر . ولئن لم يبلغ من الشعر مرتبة عالية فقد جرى في الخطابة أرباب تلك الصناعة . ومن أقواله أمام كسرى أنوشروان بالمداين قوله :

إنما المرء بأصغرته قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق السداد ، وملاك التجمعة الارتداد ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة . فأجئب طاعتنا بلفظك ، واكظم بادرتنا بجليلك ، وألن لنا كتفك لين لك قيادنا ...



## مصادر ومراجع

- الأغاني — طبعة دار الثقافة — بيروت ١٩٥٨ .  
 الشعر والشعراء لابن قتيبة — طبعة دار المعارف — بيروت  
 ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي القاهرة ١٩٥٦ .  
 جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام — بيروت ١٩٨٠ .  
 جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية - في مجموعة مؤلفات جرجي زيدان الكاملة - دار  
 الجليل — بيروت ١٩٨٢ .  
 أحمد أمين : فجر الإسلام — القاهرة ١٩٤٥ ص ٦٠ — ٦٨ .  
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي — القاهرة ١٩٤٦ ص ٣ — ١٦ .  
 أبيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي — بيروت ص ١ — ٢٦ .  
 محمد الحصر حسين : الخطابة عند العرب — القاهرة ١٣٤٦ هـ .  
 جيب : مجلة الأدب والفن ، العدد ٢ ، ص ٢ وما يتبعها .  
 ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ١ ص ٤٨ — ٤٩ .  
 كارلو نابليو : تاريخ الآداب العربية ، ص ٧٩ — ٨٠ .

- W. Marçais : Les Origines de la prose littéraire arabe, in Revue  
 Africaine, 1927 15 - 28  
 C.A. Nallino : Sulla Costituzione delle tribù arabe prima dell'islami-  
 smo raccolta di scritti editi e inediti, Roma, 1941.  
 C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Literatur, Berlin 1939.  
 H. Lammens : La Mecque à la veille de l'Hégire  
 Ing. Guide : l'Arabie antéislamique, Paris 1921.



# الباب الرابع الشعر الجاهلي

## الفصل الأول نظرة عامة

١ - نشأة الشعر الجاهلي وما بقى منه :

برز الأدب العربي إلى الوجود بانفجار شعري شدد الانسجام مع طبيعة العربي ، وكان الشعر شئاً فثبتاً دهران العرب وخراتة أجيالهم وأحوالهم . ولم يصب إلينا منه إلا التز اليسير . وهو نديم المهد جنّاً نشأ تشوياً طبيعياً ، وقد يكون النثر المسجع والجداء في أصله . ولما وصل إلينا وصل عن كثير من الكمال ودلّ على أنه ثمرة بادية أكثر مما هو ثمرة حاضرة .

٢ - الشاعر الجاهلي :

لشعر صلة بالمشارك العبيبة ومسح الكهّان ، ولهذا كان الشاعر نور وحي وهداة . وكان من ثمّ لساد لقوم في كل حال ، وصحافهم الموهوب الخائب . لهذا كان له في لقلبية شأن عظيم ، وكان له عدد الملوك والأمراء منزلة رفيعة وتكرّم خاصّ .

٣ - القصيدة الجاهلية :

القصيدة امتداد لكمة البيت الواحد .

وهي عجيبة ابتداءً تجري على أسلوب الذكرى والأفعال والتفاعل . تبدأ بالوقوف على الأطلال يعقده وصف رحلة قدم بها الشاعر على ظهر ناقته ، ومن ثمّ وصف الناقه أو الفرس ، ثمّ وصف لصروب من الملاهي تعرض للشعر في طريقه ، ثمّ فخر بالبطولة والشجاعة ، ثمّ أخيراً ذكر العرس الذي دعا إلى نظم القصيدة :

وهكذا فالقصيدة سلسلة أفعالات ومفاعلات

٤ - أغراض الشعر الجاهلي .

١ - المحر : مرده إلى العصبية والحياة الفطرية وسوء الحياة الصحرارية معانيه : الشجاعة والجلد . والشجاعة شعور بالسّوية الفردية والجماعية . وهي تعور من كُنّ صعد وظلم وعار ، ثمّ هي الغرام بالحرب وأدواتها . ومن معاني الفخر أيضاً الكرم ، والعمو عبد ، المقدر ، وإغاثة الملهوف ، والوفاء ، وما إلى ذلك .

٢ - الوصف : هو التفاعل مع الواقع المحسوس عند الجاهليين . وهو صيغ النطاق ، حامل بالتكرار والتقليد . من موضوعاته الأطلال ، والليل ، والمطر ، والصحر ، والناقة ... والوصف الجاهلي يقوم على عنصر جوهري هو التشبيه المقرد أو المجازي ، الاستناري .

- ٢ - الفزل : تشبيه وتصوير أكثر مما هو تحليل وتأمل.  
 ٣ - الملح : من معانيه الكرم والجود. وهو شعر استجدائي  
 ٤ - الرثاء : هو مزيج من لوعة ومدح وتهديد.  
 ٥ - الهجاء : هو تجريد للمهجور من الخلال الحميدة. وهو وسيلة لردّ التوبيخات ومساندة الأبطال في القتال.  
 ٦ - الحمر : وضعها الشعراء ووصفوا بحالها ومفعولها  
 ٧ - الرهد والحكة : كان للجاهليين حكمة تنصل بما وراء الطبيعة ، شعر تدنّين ، وشعر حنيفي .

#### ٥. أشهر القصائد الجاهلية : المعلقة :

هي سبع قصائد جمعها الجاهليون وقد اختلف العلماء في أمر جمعها وكتابتها وتلقيها في الكعبة ولكن براهيم وحجهم غير مقبلة. أصحاب الملقات : امرؤ القيس ، طرفة بن العبد ، زهير بن أبي سلمى ، ليد بن ربيعة ، عمرو بن كلثوم ، عترة بن شداد ، الحارث بن حلزة

#### ٦. خصائص الشعر الجاهلي :

- ١ - أبيات ومقطوعات : ينفو الشعر الجاهلي من الساء. هو يبرات عاطفية خاضعة لقانون الانتمالية  
 ٢ - النزعة الانفرادية والقبلية : هي نزعة الانفرادية الذاتية التي تبرز فيها الذاتية بالشخصية القبلية عند غير المبدؤين ، وتتضمن فيها الذاتية الفردية عند المبدؤين.  
 ٣ - نزعة التقليد : سبها الحياة القبلية والبيئة الصحراوية والحالة البدائية والرفض القومي.  
 ٤ - الملاية المسيطرة : حياة الجاهلي غارقة في المادة ، فكانت المادة في مصدر الإبداع. وكان موضوع القول كما كانت في مادة التعبير والتحرير.  
 ٥ - الواقعية : في الموضوعات ، وصدق النقل عن الحياة ، واستكمال الصورة العامة لجميع عناصرها ، والحرس على التعاصيل والجزيئات ، وصرامة التصوير وصدق ، ودقة التعبير.  
 ٦ - اللهجة الخطائية : الشاعر خطيب القوم ولسانهم.  
 ٧ - الخيال النظمي : سبق نطاق الخيال والتخيل أدنى إلى تراكم ألفاظ وتشبيهات وعبارة على مادة اصوتية.

#### أ. نشأته وما بقي منه :

- ١ - الشعر ديوان العرب : قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم ممّا قالت العرب إلّا أقلّه. ولو جافاكم وافرأ لجافكم علم وشعر كثير » . ذلك أمر لا يختلف فيه

١٣٢٠. فالأدب العربي برز إلى الوجود بانفجار شعري - على حد قول الدكتور حتى<sup>١</sup> - وهذا الانفجار الشعري شديد الانسجام مع طبيعة العربي، وبسبب هذا الانسجام الشديد كان الشعر شديد التدفق ينشده العرب في مسامراتهم ومواسمهم، في مفاخراتهم ومنافراتهم، في غزواتهم وحروبهم، في حلهم وترحالهم، حتى كان ديوانهم وخزانة أخبارهم وأحوالهم. قال أبو هلال العسكري (١٠٠٥م / ٣٩٥هـ): «ولا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها وقائعها إلا من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومُسْتَنْبَط آدابها، ومستودع علومها». وقال الجاحظ (٨٦٨م / ٢٥٥هـ): «قال الهيثم وابن الكلبي وأبو عبيدة فكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب في جاهليتها تمثال في تحليلها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها. وعلى أن الشعر يُفيد فضيلة البيان على الشاعر الرّاعب والمادح، وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به<sup>٢</sup>». ولما كان الشعر في الجاهلية وديوان علمهم ومتنهم كلهم، به يأخذون وإليه يصيرون<sup>٣</sup>، وفيه كانوا يختصمون، وبه يتمثلون، وبه يتفاضلون، وبه يتقاسمون، وبه يتناضلون، وبه يمدحون ويُعابون<sup>٤</sup>، لما كان الشعر كذلك كان، ولا شك، وافرأ جداً، ولكنه لم يصل إلينا منه إلا التّزّير اليسير لأسباب مختلفة منها ضعف التّدوين وآلانه كما بيّنا ذلك في الفصول السابقة، ومنها القضاء في الإسلام على كلّ ما يعوق الدعوة الإسلامية من آراء الوثنية وأشعارها<sup>٥</sup>، ومنها تشتت القبائل في الأصقاع البعيدة وأندثار كثير من معالم بيانها ورواة أشعارها، والذي وصل إلينا من ذلك الشعر حديث الميلاد. قال الدكتور نأليكو: ولم يُنقل إلينا بيت عربي غير مراتب بصحته أقدم من أواخر القرن الخامس للمسيح، أعني سابقاً للهجرة بأكثر من مئة وثلاثين سنة تقريباً<sup>٦</sup>. وقال الجاحظ في وهم كثير: «وأما

١ - معقول ١، ص ١٢٥.

٢ - كتاب الصناعات الطبعة المصرية ١٣٢٠ - ص ١٠٤.

٣ - كتاب الحيوان ١، ص ٣٦.

٤ - ابن سلام: طبقات الشعراء، ص ١٠.

٥ - البغدادي: تاريخ البغدادي ١، ص ٣٠٤.

٦ - جرى هذا الأمر تصدداً أو عن غير قصد، ولم يكن شاملاً، بل عمد إليه بعض المترجمين.

٧ - تاريخ الآداب العربية، ص ٥٢.

الشعر فحدث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُضْر ومُهَلْهَل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له، إلى أن جاء الله الإسلام، خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار ففتي عام... وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب، والشعر لا يُستطاع أن يُرجم ولا يجوز عليه الثقل<sup>١</sup>،

٢ - بداية الشعر: وبداية الشعر العربي أقدم ممّا وهم الجاحظ، ففي ما وصل إلينا منه إشارة إلى ما افترض، ولم يكُ باليسير كما سبق القول. فأين آثار الجاهلية الأولى، وأين هذا الشعر الكثير الذي أشار إليه الرواة والشعراء في الجاهلية<sup>٢</sup> الثانية، وأين هذا «الديوان» الذي حوى جميع مظاهر الحياة الجاهلية؟ لم يبقَ منه إلا الأبيات والمقطوعات والشُفّ وبعض القصائد التي ليست شيئاً يذكر بالإضافة إلى ما ضاع. أضف إلى ذلك «أنّ من يُسرّح أبصاره في رباض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدلّ على كونه فنّاً صغير السن، فإن جميع ما نُقل إلينا منه يظهر لنا في غابة الإغواء وزناً وثقافة، وفي غاية التمتّن من الاختيار والتّحضيض والتّزجّر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والمجاء والوصف والرّثاء، وهو يجمع رقة العبارة إلى دقّة الإشارة، ومنانة التراكيب إلى رشاقة الأساليب. فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة، لأنّه من المعلوم أنّ كلّ مبتدئ لشيء لم يُسبق إليه، وكلّ مبتدع لأمر لم يُتقدّم فيه عليه، لا بدّ من أن يكون قليلاً ثمّ يكثر، وصغيراً ثمّ يكبر، وضعيفاً ثمّ يتقوى<sup>٣</sup>.» وهكذا نشأ الشعر نشوءاً بطيئاً، وقد يكون النثر المسجع الذي دار على ألسنة الكهان والعرافين مظهرًا من مظاهر البداية الشعرية، لأنّه قائمٌ على الوزن والثّقفة، أي على عنصر الموسيقى الصّوتية التي ترافق أحد المعاني، ولعلّ الموسيقى الصّوتية هذه رافقت حركة كحركة الخيل أو الإبل أو سير الخطى أو ما إلى ذلك ممّا هو طبيعي، فيكون الجداء مثلاً في أصل الشعر، ويكون الرّجز أقدم

١ كتاب الحيوان ١، ص ٣٧.

٢ قال هنّرة بن شداد: «هل غادر الشعراء من مترنم؟» أي هل تركوا شيئاً لم يقولوه؟

٣ كارلو فالينو: تاريخ الآداب العربية، ص ٥٤.

البحور الشعرية ظهوراً<sup>١</sup>، ويكون الهزج مُرافقة الصوت لحركة راكب الناقه، ويكون الطويل مُرافقة الصوت لحركات أربع بطيئة من حركات أخفاف الناقه، ويكون البسيط مُرافقة الصوت لعدو الناقه... وهكذا نشأت الأوزان وزناً وبطريقة طبيعية بدائية بعيدة كل البعد عن الروايات التي اصطنعت فيها بعد، والتي جعلت نشوء الأوزان بين الحدايين والبطالين وغيرهم.

والجدير بالذكر أن عدداً من الأوزان الشعرية والقواعد العروضية كان معروفاً لدى الجاهليين معرفة عامة. قال ابن فارس<sup>٢</sup>: «فأما من حكى عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والذال، فإننا لم نزعهم أن العرب كلها، مدبراً ووبراً، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها... والذي نقوله في الحروف هو قولنا في الإعراب والعروض. والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أننا نستقري قصيدة الخطيئة التي أولها:

شَاقَتْكَ أَظْعَانُ لَيْلَى دُونَ نَاطِرَةِ بَوَاكِرٍ

فنجد قوافيها كلها عند الترتيم والإعراب نجيء مرفوعة، ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبه أن يختص إعرابها، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد — لا

١ - لقد قيل: «الرجز مكر الشعر، السجع أبوه والحذاء أمه». قال الدكتور محمد المدسوقي البهيبي: «إن الرجز كان أول بحور الشعر، وتطعمه على ضربات أرجل الناقه وعزّرت ظهرها فخاراك إذا أراد أن يفتي ليجدوا ناقته ويزيد من نشاطها، وسلي نفسه عن الطريق، فخطره في الآخر أن يختار كلامه بحيث تسجم مع حركة الناقه المضطعة لبرية. ومن هنا نشأ الشعر بوزنه الأول وتفرّع من هذا سائر الأوزان. ذلك كلام يقبله العقل والمنطق وليس من مستحالة صلبة لدخسه». (مجلة الأدب والفن) — ولكن انسجام هذا الرأي لأن شعر بشا في الوادي أولاً لا في الأقاليم المتحضرة صاحبة التجارة والانبساط بالأخاديد والمعدن، ولأن هذا الرأي أقرب إلى طبيعة الأشياء وإلى واقع الحياة البدوية

٢ - هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الراربي (٩٤١ - ١٠٠٤ م / ٣٢٩ - ٣٩٥ هـ)، من أئمة اللغة والأدب. قرأ عليه اللدبع الممداني والصاحب بن عباد وغيرهما من أعيان البنان. أصبه من نزوين وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري فتوفي بها، وإليها نُسب. من مؤلفاته «مقاييس اللغة»، «المجلد»، «الصاحي»، «جامع التأويل»، في تفسير القرآن. (طالع) لأعلام، لخبر الدين الزركلي ١، ص ١٨٤ - الطبعة الثانية.

يكاد يكون. فإن قال قائل: فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود<sup>١</sup> أول من وضع القواعد العربية، وأن الخليل<sup>٢</sup> أول من تكلم في العروض، قيل له: نحن لا ننكر ذلك، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً، وأنت عليها الأيام، وقلاً في أيدي الناس، ثم جدد هما هذان الإمامان، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب. وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا — أو من قال منهم —: إنه شعر. فقال الوليد بن المغيرة مسكراً عليهم: لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقرء الشعر: هزجه ورجزه وكذا وكذا، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك. أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحر الشعر؟....

لا شك أن في كلام ابن فارس بعض الغلو، أو لعله أراد أن الجاهليين كانوا يعرفون من أمر النحو ومن أمر العروض وعيوب القافية<sup>٣</sup> ما يستطيعون به أن يميزوا الصحيح من الخطأ، وما أصبح بعد ذلك أساساً لعلمي النحو والعروض<sup>٤</sup>. وهذا ما نراه نحن. ولعلّ الأقدمين كانوا يفهمون أقرء الشعر بعض النماذج من القصائد أو الأبيات المختلفة الأوزان من غير أن يعرفوا أسماء الأوزان وشتى تفاعيلها، فيقولون مثلاً هذه القصيدة على قرء قفا نكث<sup>٥</sup>. وكانت هذه النماذج بمثابة الألحان يعرفون حركاتها وسكناتها، ويميزون صحيحها من فاسدها<sup>٦</sup>. وبقيت الحال هكذا إلى أن جاء الخليل فاستخرج الأوزان مفصلة وإذا هي خمسة عشر وزناً، ثم جاء الأخفش بعده فتدارك عليه وزن «المتدارك» وصارت به الأوزان ستة عشر إلى يومنا هذا.

١ — هو أبو الأسود الدؤلي (٦٨٨ م / ٦٩ هـ) الذي حرّك المصاحف وجعل علامة النصب نقطة فوق الحرف، وعلامة الجر نقطة تحته، وعلامة الرفع نقطة بين يدي الحرف.

٢ — هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (٧٨٦ م / ١٧٠ هـ).

٣ — من أمثال ذلك ما رواه أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال: تكلّم من الشعراء كما يقولون: النابتة وبشر بن أبي خازم. فأما النابتة فدخل يثرب فثني شعره، فقلن طم بعد إلى إقواء. وأما بشر فقال له سودة أخرى: إنك تقوي. فقال له: وما الإقواء؟ وهكذا كان الجاهليون يعرفون الإقواء كما كانوا يعرفون الإكفاء. — والإقواء هو مخالفة القوافي برفع بيت وجزأ آخر. والإكفاء هو أن يلقى في البيت من القصيدة بروي متجانس في المخرج لا في اللفظ نحو «شارح وشارح» أو «فارس وفارس».

٤ — يذهب بعض المستشرقين إلى أن العرب، كغيرهم من الأمم، انتقلوا من الرقص إلى الموسيقى ثم إلى الشعر. (طالع «تاريخ الأدب العربي» لبلشير ١، ص ١٧٨).

٣ - الشعراء البادية : والأمر الذي نلاحظه أن جميع ما تبقى لنا من شعر الجاهلية إنما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين وما جاور هذه البلاد ، وأنه من ثم ثمرة بادية أكثر مما هو ثمرة حاضرة ، وإن تقلب انشعراء في سائر البلاد ، وضربوا في كل صقع وكل ناحية . وهكذا كانت البادية في أصله وفي توجيهه معنى ومبنى . أضف الى ذلك أن مجاميع الأدب واللغة لم تنقل إلينا من شعراء الجاهلية إلا أسماء ثيف وثمانين شاعراً ، تنشدهم أبيات أو مقطعات أو بعض القصائد .

#### ٤ - الشاعر الجاهلي :

١ صحافي وحكيم وحكم : وهذا يقودنا الى كلمة نقولها في الشاعر الجاهلي . فالشاعر وكما تدل هذه الكلمة في العربية هو في الأصل رجلٌ وهب معرفة ما ستر عن العامة . وذلك بواسطة شعور خفي يوحيه إليه شيطان خاص<sup>٢</sup> . ومن هنا ترى أن للشعر صلة بالمشارك الغيبية التي تحدثنا عنها سابقاً ، وصلة بسجع الكهان . فالشاعر كالساحر في نظر الجاهليين الأولين ، وكانوا يرمون بالسحر كل من يأتي بشيء يثير دهشهم وتقاد إليه نفوسهم بالتعجب والاستحسان والإصغاء . ثم أصبح الشاعر نور وحي وهداية ، وأصبح الشعر في النروة العليا من القيمة والخطر لأنه ديوان الأجداد ، وسجل المفاخر والمآثر . وكان الشاعر لسان القوم في الغارات والغزوات ، يبيب بهم الى أخذ الثأر ، والى حماية الجار ، ودفع كل عار ، وكان في السلم ساحر الجماهير تقاد له صاغرة ، وكان على كل حال وحكيم القوم ، ومرشدهم ، وخطيبهم ، ونائبهم المتكلم

١ - من تلك الجميع :

- العلقم السج .

المفضليات ، للمفصل السبي (محتوي ١٢٦ قصيدة) .

- الأصمعيات ، للأصمعي (محتوي ٩٢ قصيدة ومفعوعة) .

- الحماسة ، لأبي تمام

جمهرة أشعار العرب ، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي .

٢ - فليح حتى : تاريخ العرب - مطر - ص ١٢٩ .

٣ - كان الشاعر في نظر الأولين حليق قوي غفيرة يستطيع أن يأتي بالخير أو أن يزل الشر ، ولهذا كان لهجته صدى عميق في النفوس ، ولهذا عملوا على استرضاء الشعراء

باسمهم ... ومؤرخهم وعلمهم ... وكان يعرف أنساب القبيلة وأخبارها القديمة ويقف على مآتي عظمتها ، ويعرف ما لها من الحقوق في المراعي وخطوط نخومها . وكان عليه فوق ذلك ، بصفته مدركاً لمواطن الضعف النفسي في القبائل التي تنازع قبيلته ، ولتقاوتهم التاريخية ، أن يشهر هذه المثالب ، ويفضح هذه القبائل ، ويجعلها موضوع هزة وسخرية<sup>١</sup> . وهكذا كان صحافي القوم ، يخشى جانبه وتسمع كلمته ، ويفتخر به . ولهذا كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أنت القبائل فهنتها بذلك ، وصنعت الألعسة ، واجتمع النساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن في الأعراس<sup>٢</sup> .

وكانت القبائل تتجنب ذم الشعراء وهجاءهم لشدة سيورة شعرهم وبقائه ؛ وكانوا إذا أسروا شاعراً أدخلوا عليه المواثيق ، ورتما شدوا لسانه ينسعة<sup>٣</sup> حتى لا يجهوم كما صنع بنو تيم بعد بغوث بن وقاص الحارثي حين أسروهم الكلاب ، فقال :

أَقُولُ ، وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنَسْعَةٍ أَمْعَشَرَ تِيمٍ أَطْلَقُوا مِنْ لِسَانِيَا

٢ - لسف الشهرة والتشهير . والى ذلك كان الأسياد والأشراف يُعنون بالشاعر أشدَّ العناية رغبة في مدحه ودفعاً لشهره ، أو توصلاً إلى مد سلطان وتكويناً لرأي عام . وكانوا يينلون كل ما في وسعهم للإتيان بالشعراء الى بلاطاتهم ، ويتنافسون في ذلك أشدَّ المنافسة ، ويجرلون لهم العطاء من إبل وملابس وحلي وقبان ، حتى يذيعوا اسمهم في العرب ، ويعلموا من قدرهم فما بينهم ، ويخلدوا ذكرهم على مر السنين ، ويسهلوا لهم طرُق الاستيلاء على حركة الأعراب فيأمنوا شرهم وغاراتهم على النخوم وعلى طرق القوافل التجارية . وهكذا كان المنموحون حريصين أشدَّ الحرص على مديح الشاعر ، ولئن أعيتهم الحيلة ولم يجدوا وسيلة إلى إرضائه باتوا في كآبة يمشون مغبة الهجاء . وهذا مخارق بن شهاب سيد بني مازن ، أثاره مُحَرِّز بن المكعبير العنبري الشاعر فقال : إن بني يربوع قد أغاروا على إيلي ، فأسع لي فيها . فقال مخارق : وكيف وأنت جار وُزْدان بن

١ - جليب خني : نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

٢ - ابن رشيذ : المعلقة ١ ، ص ٤٩ .

٣ - النسعة : القطعة من الحبل



مُخَرَّمَةٌ؟ فَلَا وَلَّى عَنْهُ مُحَرَّرٌ عَزَوْنًا بِكِي مُخَارِقٌ حَتَّى بَلَ لَحِيتهُ ، فَقَالَتْ لَهُ ابْتِهْ : مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ : وَكَيْفَ لَا أَبْكِي ، وَاسْتَغَاثَنِي شَاعِرٌ مِنْ شُعراءِ الْعَرَبِ وَلَمْ أَغْنِهِ؟ وَاللَّهِ لَئِنْ هَجَانِي لِيَفْضَحَنِي قَوْلُهُ ، وَلَنْ كَفَّ عَنِّي لِيَقْتُلَنِي شُكْرُهُ . ثُمَّ نَهَضَ فَصَاحَ فِي بَنِي مَازِنٍ فَرُدَّتْ عَلَيْهِ إِلَيْهِ<sup>١</sup> .

#### ٢ - القصيدة الجاهلية :

١ - لقد ظهرت القصيدة في الشعر العربي طهوراً طبيعياً ، وكانت اعتداداً لنغمة البيت الواحد ، وتكراراً موسيقياً غنائياً جرَّ معه المعاني والصُّور . وقد نسب أدباء العرب بناء القصيدة إلى المهلهل ، وقالوا إنه أول من قصَّد القصائد<sup>٢</sup> اغترلوا منهم أَنَّ الشعر حديث السنِّ وأنه ابتداء مع امرئ القيس والمهلهل .

٢ والقصيدة الجاهلية عجيبة البناء ، تولد عند الشاعر تبعاً لأحواله النفسية وأحوال زمانه ومكانه ، وكثيراً ما تظهر قسماً بعد قسم ، أو قد يكون الرواة قد حفظوها أقساماً أقساماً يحتفظ كل واحد منهم بأحد تلك الأقسام ، وهي من ثم تبدل لنا ، بعد ما جُمِعتْ أجزؤها ، أحياناً متناعة ، تجري على سنن معلوم في الترتيب وفي مجموعة الأفكار وطرائق التعبير والتصوير والتشبيه . وكان هنالك سُنَّةٌ تقليدية ، كما كان لسجع الكهَّان سُنَّةٌ وطرائق خاصة في التعبير والتصوير ؛ وكانت تلك السُنَّة متبعةً اتباعاً ، لا يكاد يجيد عنها شاعر ، وكان تركيب القصيدة على تلك الطريقة المثال الأعلى لكل من نظم الشعر وأطال النَّظْم . وكأني بالعلاقة بين الأبيات علاقة شعورية ذكورية أكثر مما هي تمكينية عقلية .

٣ - تفتتح القصيدة عادةً بالوقوف على الأطلال واستيفاف الصَّحْبِ وذكر الأُحِبَّةِ ، وذلك أبناً كان نوع القصيدة ، وأياً كان غرضها . وقد أوحيت البيئة اليهم بهذا الافتتاح الكئيب الرتيب ، كما أوحيت المثلوجيا اليونانية لشُعراء اليونان والرومان ومن أحل أحدهم باستحياء ناث الأولمب Muses فحياة العرب في الجاهلية قاسية ،

١ - البيان والتبيين ٤ ص ٤١ ٤٢ . مصادر الشعر الجاهلي ، لناصر الدين الأسد ، ص ١١١ .

٢ طالع «المنلة» لأين رشيقي ١ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ هـ .

وأغاقهم صحراوية تمتد امتداد الآل فوق الرمال ، وقلوبهم خفاقة بالذكرى ، شديدة التأثر والانفعال ؛ والعرب — على حد قول الدكتور النويهي<sup>١</sup> — «قوم ترحال دائم يتنحرون المرعى ، ويؤمّون تلك البقاع من الأرض التي تحفظ قدراً من مطر السماء ، فينبت عليها العشب الذي ترعاه إبلهم ونوقهم ، وهنا يبقون حتى ينفد المرعى ويأكل حيوانهم كل العشب ، فيضطرون إلى الرحلة إلى مكان آخر لا يزال به غنياً. وتختلف مراعيهم بطبيعة الحال بين فصول السنة المختلفة. فلربما اتفق أنهم في أثناء ترحالهم الدائم مرّوا من جديد بقعة كانوا قد سطّخوا فيها من زمن سابق. فيقفون هنالك برهة يعتبرون فيها ويتأسون ويتذكرون ماضي حياتهم وسالف رفاقهم. وهكذا نشأت السّنة الشعرية القديمة من بدء القصيدة باستيقاف الصّبح على أطلال الدور المهجورة وذكر الأُحبة».

٤ - وبعد هذه الفاتحة التي تخرج عند الشاعر بماء العينين ، والتي سمّوها نسبياً ، ينتقل الشاعر إلى ذكر رحلة قام بها على ظهر ناقته وعانى فيها من الأهوال ما تُضرب به الأمثال. ولا غربة في ذلك ، فالبلاد حافلة بالصعوبات والمشقات : فياف شاسعة مجبدة ، ورمال لا نهاية لامتدادها ، وجبال وعرة جرداء ، وعطش ومُحَلٌّ ، وسراب وآل ، ووحشة وانتقال ، وممومٌ وحُرورٌ وأهوال<sup>٢</sup>. ومن آلم ما يواجهه المسافر في الصحراء فيَظنها وشدة حرّها. وكم عانى الشعراء مثل تلك المشقات وهم على ظهر ناقتهم «سفينة الصحراء» وبصحبة بعض الرّفاق الذين لا يؤمن السفر بمعزل عنهم. والناقة أصلح مركب للصحراء لصبرها على العطش ، وشدة بنيانها ، وهي الحيوان

١ - طالع في حلة الأدب والنسب مقالاً متسلسلاً عنوانه «أعمدة الحكمة السبعة» للدكتور محمد الدسوقي النويهي<sup>١</sup>.

٢ - قال سويد بن أبي كاهل اليشكري ، وهو شاعر غصصم :

سارح السَّحْرَ إذا الْآلُ لَسَحَ	كم قعنا دون سلى مهنا
ياخذ السَّارِحَ فيها كالشَّعْ	في حُرورٍ ينضجُ الملحُ بها
سلماتٍ مثل مرقتِ القَرْعِ	وفلازمٍ وأصغرِ أقرابها
وعلى السَّيِّدِ إذا اليومُ مَنَعَ	يسجُ الْآلُ على عُلايها
بجلايلِ الأرضِ فيهنَّ نَجَحَ	فركبناها على مجهولها

الأصيل لبلاد العرب<sup>١</sup> قبل الخيل التي يعدّ اقتناؤها من الأمور الكاثية والتي لم يكن يحوزها إلا صاحب اليسر في العيش.

٥ - والرحلة شديدة اللصوق بالناقة، أو الفرس أحياناً، ولهذا ترى الشاعر يتوقف في قصيدته عند الناقة أو الفرس. فيصفها ويمعن في وصفها. كيف لا وهي أحب إليه من حبيب، أو هي تأتي رأساً بعد الحبيب، وبم يصفها؟ - بالسرعة، والشدة، وعظم البنيان، والشعور مع الراكب وبغير ذلك مما ستره في درامة الآثار الشعرية.

٦ - والاندفاع في الفلوات مغامرة لا حد لها قد تميل بالشاعر الى ضروب من الملاهي كالصيد والشراب والميسر. وصيد الطباء والمها من أمتع ما كان ينصرف إليه الجاهلي. وشرب الخمرة كان شائعاً في بعض مجتمعات العرب، وأحسنت الخمر ما استقدم من الشام والعراق. والميسر هو القمار<sup>٢</sup> وكان في الجاهلية أنواعاً كثيرة.

٧ - ثم ينطلق الشاعر في عالم الذكريات والمشاهد، ويرى نفسه على مسرح الوجود، فيقف عند ذاته، وكم له في الذات رؤى وإحساسات! فيذكر بطولته وشجاعته، وينشر ما طوي في ذاته وفي قبيلته من أجداد، «والأعرابي، وهو شاعر، صبي في خلفه وينطوي تحت دعتة الظاهرة من الثقل ما لا يُشَاهَدُ مثله إلا في الأولاد... وهو كهؤلاء لا يتأثر إلا بعامل الساعة التي يكون فيها، ولا تستويه سوى ظواهر الأمور، ويبره الضجيج والضوضاء والبهرج، وفي اقتنائه سرّ اجتذابه»<sup>٣</sup>.

١ - يبدو العربي في الآثار المصرية والأشورية - البابلية والعربية القديمة جميلاً حياً.

٢ - من عاداتهم أن أهل الثروة كانوا يشترون جزيراً فيبحرونه ويقسمونه ثمانية وعشرين قسماً يسمون عليها بعشرة قنح يسمونها الأوزام (أي السهام قبل أن تراش) ويسمون كل واحد منها باسم وهي العذ، والتوم، والرتيب، والجلس، والمسيك، والمثلي، والقسيح، والشح، والخذ. ويفرضون لسبعة منها أسهمه مقفلة: فيجعلون للعذ منها صبيّاً واحداً، وللتوم نصيبين، وللرتيب ثلاثة، وهكذا إلى المثلي فإن له سبعة أنصبة. وأما الثلاثة الباقية فلا نصيب لها. وكانوا يكتبون على كل عذ سم، وكذا يصمون هذه القفلح في خريطة يصنعونها في يد رجل عذّان يسمونه المُمِيس أو المُمِيس، فيجعلها في تلك الخريطة ويُخرج بها يَدْعَا للرجل من حرح له قنح من ثوات الأنصبة أخذ نصيبه، ومن خرج له منهم قنح لا نصيب له يُحْرَمُ ثَمَرُ الجزير.

ومن أنواع الميسر عددهم ٥ لبيال، وهو أن يُصَمَّ التراب يُدْفَنُ فيه شيء، ثم يجعل التراب نصفين، ويُسأل عن الدفين في أبيها هو، فن أصاب قنراً، ومن أخطأ قنبر .. (ص وصناعة الطرب).

٣ - غوستاف لوبون: حصار العرب، ص ٩٥.

وهكذا يتدقّق فخرًا، ووصفًا، واعتراقات شتى، حتى إذا بلغ آخر القصيدة أتى على ذكر غرضه منها، كأنّ هذا الغرض ليس غاية القصيدة بل كأنه قسمٌ منها أو طرفٌ من أطرافها. وقد يكون تغنيًا بقبيلة أو وصفًا لشهد، أو هجاء لحصم، أو مدحًا لعظيم أو ما إلى ذلك.

— وهكذا ترى القصيدة نبرات عاطفية واهتزازات نفسية، وسلسلة من انفعالات وتفاعلات، وهي من ثم غنية بالعاطفة التي تخرجها لغة محبوكة متينة الرصف إلا أنها فقيرة في الأفكار المبتكرة الطليّة، وعليه فهي قليلة الغناء من حيث أنها أدبٌ عامٌ مشترك يتذوّقه الناس في كلّ صقع. ومن هنا تفقد هذه الأشعار الجاهلية قيمتها حين تترجم إلى لغة أجنبية، لأنّ العصر الشخصي فيها قويٌّ، والمهم فيها هو الناظم لا المنظوم، والفكرة الرئيسية واقعية، والأفق محدود، والنظرة إقليمية بحتة. فإذا تغنى الشاعر بحال المرأة فإنما هو يعني فنانته الخاصة، وإذا وصف فرسًا أو ناقه فن خيله وإبله. ومن هذه الناحية فالشعر العربي يحاكي الأغنية البلدية القروية من الشعر الوصفي عند الإغريق (إيديل<sup>١</sup>)..

## ٤ — أغراض الشعر الجاهليّ:

قال بعضهم في بعض المغالاة: «ليس أحد من العرب إلّا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم». وقال غوستاف لوبيون: «إنّ الأعراب الأجلاف بعاداتهم شعراء بتصوّراتهم، ويندر أن يكون الأعراي غير شاعر<sup>٢</sup>». وهكذا عبّر الجاهليون بالشعر عن شتى أحوالهم، وصمّوه مختلف أغراض حياتهم، فكان ديوان فخر، ووصف، وغزل، ومدح، ورثاء، وهجاء، وخمر، وزهد، وحكمة.

١ — الفخر: كان مرّة الفخر عند الجاهليّ إلى العvisية القبليّة والحياة الفطريّة. أضف إلى ذلك أنّ حياة الجاهليّ الخشنة قد انعكست على نفسه قوّة وصراةً وجلداً، ولا سيما وأنها كانت حياة حافلة بالأخطار. وقد خلعت الصعراء بقوانينها الصّارمة على

١ — فليب سخي: تاريخ العرب — مطرّون — ١ ص ١٢٧.

٢ — حصار العرب، ص ٩٥.

العربي مجموعة من الصفات والفضائل الثمينة ملأت صدره فانفجرت شعراً فخرتاً وحامساً كان صدًى طويلاً لما يجيش في النفوس.

وأول ما تغنى به الشاعر الجاهلي في فخره الشجاعة لأنها كانت السبيل الوحيد للحياة في تلك البيئة الخائفة. والشجاعة صبرٌ وجلدٌ وإقدامٌ، وهي تقتضي أن يكون العربي ناحل الجسم، قوي العضلات، خفيف الحركة، ذا عزيمة وحزم، لا يتردد ولا يتعاس، ولا يتشكى.

والشجاعة شعورٌ بالمسؤولية الفردية والجماعية. والشاعر شديد الفخر بالرفد والعطاء، وإكرام الضيف، وتحمل الديات، وفرض الخصومات، لأنه بها ينزل وعشيرته منزلة رفيعة. وهو الى ذلك يقف في المفاخرات والمنابرات وكأن القبيلة قد تجسست فيه ونطقت بلسانه، فينطلق كلامه مدوياً شديد الوقع والإيقاع، تترجم فيه الأجداد وذكرى الأيام والوقائع.

والشجاعة نفورٌ من كل ضغط وظلم وعار. واثك إذا قرأت الشعر الجاهلي وجدته حافلاً بالإباء وتأيي الملة والممة. قالت الخنساء<sup>١</sup>:

نُهِنُ الثُّفُوسَ، وَبَذَلُ الثُّفُوسِ يَوْمَ الْكَرْبَةِ أَبْقَى لَهَا

ثم إن الشجاعة هي الغرام بالحرب وأدواتها والخيول وصهواتها. وكان الجاهلي شديد التفتي بسلاحه؛ وللسيف والرُمح، والسهم والدرع محل واسع في فخره. وكذلك كان للخيول محل واسع في الفخر الجاهلي، وذلك أنها معاقلهم التي يلجأون إليها إذا جدَّ الجدُّ. قال لبيد<sup>٢</sup>:

مَعَاقِلُنَا الَّتِي نَأْوِي إِلَيْهَا بَنَاتُ الْأَعْوَجِيَّةِ وَالسُّيُوفُ<sup>٣</sup>

١ - الخنساء هي حماسة بنت عمرو بن الشريد السلمية. كان أخوها صحر شريعاً في بني سليم، فقتل وقتل أخوها معاوية فبكى بكاءً مرّاً، ورثها بشعر رقيق توفيت نحو سنة ٦٦٤ م

٢ - لبيد هو أبو عقيل العامري. نشأ في بيت شرف وكرم. اعتنق الإسلام سنة ٦٢٩ م ثم انتقل الى الكوفة وقضى فيها أيامه الأخيرة. توفي نحو سنة ٦٦١ م.

٣ - الأعرج فرسٌ وقت غارة على أصحابه وكان مهراً، فحملوه على الإبل فاعوج ظهره. وكان لبيد كئيباً ثم

ومع الشجاعة تفنّى الجاهلي بالكرم، وفخر بكثرة النيران لأنها أعظم برهان على الأظمة، ولأنها دليل للضيوف بقصودها، ولذلك سميت «نار القرى». وفخر بكونه يُحسن استقبال الضيوف، ويذلّ النفس والنفس، وينزل نفسه منهم منزلة العبد، قال حاتم الطائي<sup>١</sup>:

وَلَمَّيْ لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شَيْمَةُ لِي غَيْرَهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

والى جانب هذا فخر الجاهلي بالحلم، والعفو عند المقدرة. وفخر كذلك بالوفاء والابتعاد عن الغدر لأنه رفيع النفس أيها، ولأنه كريم متلاف، وفخر بحماية الضعيف وإغاثة الملهوف. فهو يحمي النساء والأطفال، ويحمي الجار ولو جار، ويُعزّ حلفاءه والمتحرّمين بجواره، قال السموأل مقلّحاً:

وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ، وَجَارُنَا عَزِيزٌ، وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

وهكذا كان الجاهلي يفخر بعزة الجار، وتلبية دعاء المكروب في الحرب بدون تردّد أو سؤال. قال ودّك المازني<sup>٢</sup>:

مَقَادِيمُ وَصَالُونَ فِي الرُّوْعِ خَطُوبُهُمْ بِكُلِّ رَقِيقٍ الشُّفَرَتَيْنِ يَمَانٍ  
إِذَا أَسْتَجْدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيِّ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانٍ

وانه ليطول بنا المجال لو أردنا الكلام على شتى موضوعات الفخر ودواعيه عند

صار لبي سيم، ثم لبي هلال بن عامر. والله تسبب الاعوجيات، وبنات أعرج. وليس في العرب فعل أشهر منه

١ - هو عبدالله بن سعد بن الحشرج، من شعراء العرب وعظماهم المشهورين. ويكنى بابنته معانة، وبه يضرب الخلل في الكرم، فيقال: «أكرم من حاتم علي» لأنه كان جواداً متلاًفاً.

٢ - هو ودّك بن سنان بن ثعلب أحد بني مازن، وهو شاعر جاهلي، وكان بنو شيبان أرادوا بني مازن عن ما لهم يقال له سفوان وأدعوا أنه لهم، فقال ودّك هذا الشعر.

٣ - المقاديم جمع مقدم وهو الكثير الإقدام في الحرب. الروع: هما عصى الحرب. رقيق الشفرتين: ماضي الحثين. الجاني: السيف الطويح من حديد اليمن.

٤ - الاستجداد الاستنصار - يقول: هؤلاء حرصهم على الحرب إذا دعاهم أحد ليصروه على أعدائه أنجابه ولم يسألوه عنها ولا عن مكاتب، ولم يعللوا بشيء كما يفعل الجبان.

الجاهليين. فهو من منبع النفس العربية والعصبية القبلية، وهو ثمرة تلك الحياة القاسية في بلايا حفلت بالأخطار، وقامت التقاليد فيها مقام القوانين والدساتير. وفي ما ذكرناه إشارة كافية الى ما لم نذكره، ودليل كافٍ على الباعث، وانفعال النفوس، ومدى ذلك الانفعال، وطريقة التعبير عنه.

٦ الوصف: والجاهلي رجل رقت مشاعره فكان كلمة أعصاب تهتز لكل مشهد، وتتفاعل مع كل مظهر. ومن ثم كانت انطباعاته واسعة النطاق، عميقة الأثر من الناحية الشعورية، شديدة اللصوق بالواقع المحسوس، لا تمتداه الى التأمل الفكري البعيد المدى. ولما كان كذلك، ولما كان سريع الاعتراف بالشعور، سريع الجواب سريع الاندفاع، فقد عبّر عن كل ما سمع وما شاهد بشعرٍ وصفي تناول فيه الطبيعة في شتى عناصرها، من جباد وحجوان ونبات وإنسان، وتناول الطبيعة المصطنعة التي كيفتها يد الإنسان وأقامت منها قلاعاً وحصوناً وما الى ذلك مما ينطق به الشعر الجاهلي في غلوه البدائي وحماسته الطفولية.

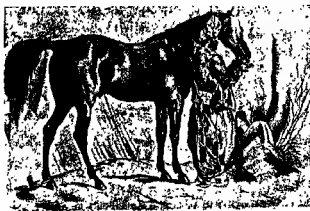
أجل أكثر الجاهليين من الوصف، ولكنه وإن كان كثيراً لا يصور لنا البيئة تمام التصوير للأسباب التي ذكرناها سابقاً، واننا ستوقف عند بعض الموضوعات لنبين بعض المعاني الوصفية التي وردت في ذلك الشعر، معتمدين خطة الإيجاز والتلميح. ولا بد هنا من الإشارة الى أن المعاني الوصفية في الجاهلية تكاد تنحصر في نطاق ضيق مما يدل على خيال مقلد مكرر أكثر مما هو مبتكر. أما الطلول فقد وصفها أكثر الشعراء، وهي عندهم محط الرجال، ومتعلق الذكرى، وهي عندهم مرتع للآرام والوحوش، وميدان للرياح والأنواء، ودار الليل والقناء. وأما الليل فقد وصفوه بالطول وتلاطم الهموم فيه، فكان نجومه شذت الى راسيات الجبال. وأما المطر فوصفوا سحابه وبرقه وانهاره وقفله في الأرض والنبات والحيوان.

وأما الصحراء فهي في شعرهم مثل ظهر الترس موحشة، شديدة القبط، واضحة الأقارب، أي الجوانب والأطراف، يسبح الآكل على رمالها وكتبانها. وأما الناقة فهي قنطرة رومية، شديدة البنيان مفتولة العضلات، نجبة ضامرة، سريعة السير، وهي مروضة ذلول رهن الإشارة، أي هي كاملة الأعضاء، تامة التكوين صلبة الهيكل.

وهي لا تشعر بتغير الجوّ، وشدة الحرّ. وهي من ثمّ خير ما يقتنيه البدويّ لأسفاره في القنوت. وقد أطنب الجاهليّون في وصفها إطناباً عجيباً، وافتنوا في تصويرها وتصوير أعضائها وسيرها افتناناً لا يدع زيادة لمستزيد، وكان طرفة بن العبد من أشهر وصفها كما سنرى.

وأما الفرس فهو في شعرهم كريم، ضخّم الهيكل، مكتنز اللحم، يصبّ عدوه صباً، وهو ضامر الخصر، عظيم الأضلاع، ممثليّ الجنين، وهو يطوي الأرض طياً، يزداد نشاطاً كلّما ازداد عدواً. ويحمل قوظم فيه يعود الى النشاط والسرعة وكرم الأصل. وقد شبهوه بالعقاب، وشبهوا كلّ جزء منه بما يوضح القوة والاكتمال والشدة والسرعة، قال امرؤ القيس:

لَهُ أَبْطَلَا ظَهْبِي، وَسَاقَا تَعَامَةً، وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ، وَقُرْبُ تَشْغُلٍ



١ - أبطلا ظبي: حاصراً عزاز. إرخاء سرحان: عدو ذئب. القرب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. التغل: ولد الثعلب.

قال لمراف: «إن الخيول العربية، وهي قوية عصبية رشيقة، معتخرة صفها، غنّاقة في مراتعها، مثال للأناقة في شكلها والكمال في صفاتها، وهي برؤوسها الصغيرة السخيفة، وأسدانها الواسعة، وسائرها الواسعة، وكواهلها الناعضة، وجوانبها الممتلئة القصيرة، وأكمامها الطويلة، وذيلها المتوجّعة، وورائها الدقيقة للينة، عنوان الجبال، وهي يسختها وبأسها وقناعتها وسرعة عدوها تفضل أحسن الأنواع الأوربية. (طالع حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص ٦١).



هذا بعض ما وصفه الجاهليون ، وتلك بعض معانيهم ، وهي في أكثرها تشبيهات وتمثيلات حسية حافلة بالحركة ناطقة بالقوة التي يتعشّقها ابن الصّحراء ، وللجاهلي ميل خاصّ الى التشبيه التمثيلي ، والاستدالة التشبيهية التي يطلق فيها خياله الحسي ، فيجول في ميادين المقارنات المادية البعيدة عن التحليل العميق وعن الفنّ الذي يشذب ويختار . إنه اندفاق طفولي مغرم بالألوان الظاهرة والمسموعات الشديدة الايقاع .

٣ - الغزل : والغزل ذو نشوء طبيعي في الجاهلية ، وكانت النساء سافرات لا يتبرّقن ولا يتحجّبن عن أنظار الجنس الآخر ، إلا ما كان هنالك من بعض التلّصّ . والنساء أنواع منهم الحرّرات المتصوّنات ، ومنهنّ المتبدّلات . والميل بين الجنسين أحدهما الى آخر ميل طبيعي غايته وكماله الرّواج . وكان تعدّد الزوجات وإباحة ما في ملك الرّجل من الإماء شائعاً في الجاهلية . والميل يظهر بالحبّ والولع بالجمال ، والحبّ والولع يقودان الى التغنّي بمظاهر ذلك الجمال . وهذا التغنّي هو الغزل ، ويُدعى النسيب والتشبيب . قيل بل التشبيب ذكر أيام الشباب ، واللهو والغزل ، وذلك يكون في ابتداء قصائد الشعر . والجمال عند العرب الأقدمين هو اعتدال القدّ ، وذبول العينين السوداوين ، واحمرار الخدين ، وايباض اللون ، وثقل الرّدف ، ونحول الحصر ، وطول الجيد . وقد جاء تلخيص ميزات الجمال الجاهلي الذي تغنّى به الشعراء ، في كلام يُنسب الى امرأة من كندة ، قيل أرسلها الحرث بن عمرو ملك كندة لتختبر له جمال ابنة عوف ابن عيلم الشيباني وكمالها وقوة عقلها . فلما رجعت إليه قالت : « رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعراً حالك كاذناب الخيل ، إن أرسلته خلّته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجّين كأنما خطّا بقلم أو سوّدا بفحم ، تقوساً على مثل عين ظبيّة عبّورة<sup>١</sup> ، بينها أنف كحدّ السيف ، حفّت به وجتان كالأرجوان . في يياض كالجان<sup>٢</sup> ، شقّ فيه فم كالخاتم لذيذ الميسم ، فيه ثنايا<sup>٣</sup> غرّ ذات أشرّ<sup>٤</sup> ، تقلّب فيه لسان

١ - عبّورة . مبتلة الجسم .

٢ - الجان . اللؤلؤ .

٣ - الثنايا . أربع أسنان في مقدّم القدم ، ثنتان من فوق وثنتان من تحت . والقوة يياض الأسنان .

٤ - تأشير الأسنان : تحزيرها وتحديد أطرافها .

ذو فصاحة وبيان، بعقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي فيه شفتان حمران في رقبة يضاء كالفضة رُكبت في صدر كصدر تمثال دمية، وعضدان مدمجان<sup>١</sup> يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يُمس ولا عِرْق يُجس، رُكبت فيهما كتمان دقيق قصبها، لين عصبها، تُعقد إن شئت منها الأنامل... وهذا كان المثال الأعلى في الجلال عند أبناء الجاهلية وهذا ما وصفه شعراؤهم.

والجاهلي يصف حبيته كما يصف ناقته أو فرسه. يحاول تصويرها بأسلوب التشبيه، فينتهز بكل مستحب لديه، ويشبها تشبيهاً حسباً مادياً، ويكثر من التشبيه، والتصوير، ويكثر من النعوت ما استطاع مستعاضاً بذلك عما يعجز عن تبيان من خوالج النفس ولواعج الصدر. وإن تعدى ذلك فلإى ذكر الأحاديث والوقائع الغرامية، وإلى طلب الوصال والكف عن القطيعة، وإلى وصف السطحي من آلام النفس وتراكم الهموم

٤ - المدح: العظماء وأرباب السلطان طائفة من الناس تميل إلى أن يتغنى الناس بمناقبها. وكان الجاهليون والأقدمون عموماً أشد ميلاً من غيرهم إلى هذا النوع من التفخيم ونشر المناقب. وقد بينا كيف كان العظماء يتنافسون في استقدام الشعراء وفي تكريمهم ومدحهم بالمال والنعيم. وكان الشعراء يُطربونهم ويذيعون أعمالهم في العرب ويساعدون بذلك على مد سلطانهم. وكانت معاني المدح تنحصر في الكرم والجود، والقوة والحلم وما إلى ذلك.

٥. الرثاء: هو البكاء على الميت، وكان تشييع الميت عند عرب البادية بمشي الأقارب خلف الجنائزة حفاة، وبحل النساء شعورهن وتلطيف رؤوسهن بأرماذ. وقد يخلق النساء رؤوسهن حراً على الميت. ثم تُستأجر النائحات ليظهرن شِعَارَ الحزن والحسرة، ويذكرن للميت محاسن من حيث كان... من هذه العادات والتقاليد، ومن لوعة النفس الصادقة استنقى الجاهليون معانيهم الرثائية ومزجوها بالمدح والتهديد وطلب الثأر.

٦ - الهجاء : كان للهجاء في الجاهلية وقعٌ شديد ، كما رأينا ، لشدة سيورة الشعر . وكان يلجأ إليه الشعراء ليساندوا به شجاعتهم في الحرب ، ويرفعوا من شأن قبيلتهم ، ويردّوا التعيريات . إنهم يهاجمون به العدو فيجردونه من الصفات التي كانوا يفخرون بها ، ويلحقون به الذلّ والعار . فهو حقيرٌ ، دنيء النفس ، جبان ، بخيل ، ذليل الجار ، له في صفحة الدهر أيام سود ووقائع جرّت الويل على قومه ، والصغار على شرفه وحرّماته .

٧ - الحمر : ذكرنا أن العرب في الجاهلية قد عُتوا بالكرمة وبكلّ ما يستخرج منها . وكانت الكروم في الطائف وبيادر العنب مشهداً طاماً استهوى الأعراب في بوادي تهامة<sup>١</sup> . قال فيليب حتي : « أما حمر الطائف فقد كان رغم كثرة الطلب عليه أقلّ ثمناً من النوع الأجنبي الذي كانوا يستقدمونه من الشام والعراق وبشهرونه في الشعر العربي<sup>٢</sup> . » وكان باعة الحمر في الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم ، ويسمّونها الغاية . وكانت العرب تفتخر بشرها وبلعب القمار لأنها من دلائل الجود عندهم . وقد بلغ تولّعهم في شرب الحمر ما فعله أبو غبشان إذ باع مفاتيح الكعبة بزقّ حمر . ثم إن تفنّنهم في أوصافها أوجبهم أن يسمّوها بأسماء كثيرة في أشعارهم<sup>٣</sup> .

كان إذن من الطبيعي أن يتناول الشعراء الحمر ويصفوها ويصفوها بحلّسها ، وعدّوهم إليها قبل أن يصبح الذبّك ، وشربها وأنتها ومفعولها في النفس . قال عدي بن زيد :

بَكَرَ الْغَاذِلُونَ فِي وَصَحِ الْكُصْبِ      حِجْ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَيْقُ؟  
وَدَعَوْا بِالْكَصْبُوحِ يَوْمًا فَمَجَأتْ      قَبِيئَةً فِي يَمِينِهَا إِيْرُقُ<sup>٤</sup>  
قَدَمَتُهُ عَلَى عَقَارٍ كَعَيْنِ الدُّبِّ      لِكِ صَفَى سَلَاقِهَا لَرَاوُوقُ<sup>٥</sup>

Lammens: *La cité de Taïf à la veille de l'Hégire*, p 149

١

٢ - تاريخ العرب مطبوع ١ ص ١٤٤ .

٣ - صحاح الطرب ، ص ١٢٥ .

٤ - تستيق أي تقيق من عيك وضلالك

٥ - المصوح : الحمر تشرب في الصباح . الفينة : الجارية المنقبة .

٦ - علمته : صفته بالعلماء ، وهو مصفدة . لراووق : الصفاة

مُرَّةً قَبْلَ مَزَجِهَا، فَإِذَا مَا مُرَجَّتْ لَدُ طَعْمِهَا مَنْ يَدُوُّ  
وَوَطَفَا فَوْقَهَا فَقَاقِيعُ كَالْيَا قُوتِ حُمْرٍ يَزِينُهَا التَّصْفِيقُ<sup>١</sup>  
ثُمَّ كَانَ الْإِزَاجُ مَاءَ سَحَابٍ لَا صَدَى آجِرٍ وَلَا مَطْرُوقُ<sup>٢</sup>

٨ - الزهد والحكمة: لا شك أن في الطبيعة البشرية حنيناً إلى عالم روحاني يسمو عن المادّة وشرها. وقد ظهر هذا الحنين عند الجاهليين ظهوراً جلياً عبّروا عنه بأساليبهم الخاصة وسطحيّهم المبهودة، فكان لهم حكمة تتّصل بما وراء الطبيعة، وكان لهم شعر تدنّين، وكان لهم أخيراً شعر حنيّفي.

أما حكمتهم فتمرة تجربة واختبار، وهي موجزة القول، سطحيّة المضمون، ضعيفة الصلّة بالعالم الروحاني، ولا تعدو ما يقع تحت الحسّ من الموت، واخترام المنية الأنفس، وموت الشاب الصغير، وبقاء الشيخ الهرم<sup>٣</sup>. أما شعر التدنّين فقد كانت الغلبة فيه للعنصر الخلفيّ الروحيّ في المسيحيّة، وقد حفظت لنا نصوص هذا الشعر شيئاً عن المسيحية يعتبر أكثر مما حفظت عن أيّ دين آخر من أديان الجاهليّة، ولعلّ هذا يرجع إلى أن المسيحية من أكثر الأديان التي سادت الحياة الجاهليّة إغراقاً في الرّوحانيّة من ناحية، وإلى أن سلطتين قويتين عملتا على نشرها والحفاظة عليها من ناحية أخرى، هاتان السلطانان هما الرّومان في الشمال والأحباش في الجنوب. وقد استطاع الرهبان النصرانيّ بانتشارهم في الصحراء وعكوفهم على العبادة وانصرافهم عن المادّة أن يسترعوا نظر الشعراء الجاهليين أكثر من أيّ مظهر ديني آخر<sup>٤</sup>.

وأما الشّعْر الحنيّفيّ فكان من جملة الحركة التوحيدية الفكرية المستقلّة التي ترعّمها جماعة من المفكرين الموحّدين لقّبوا «بالخفاء» وقد أبوا أن يقبلوا اليهوديّة والنصرانيّة كما هما، بل اكتفوا بعبادة الله لا شريك له مع اتّباع عادات قومه، واتّخذوا لهم إماماً إبراهيم الخليل كليم الله الذي كان على أصل التوحيد الكتابي المنتشر في العالم والجزيرة

١ - التصفيق. نقل الشراب من إناء إلى آخر ليصمو

٢ - الصلّى الأجن: أي الماء النّور العاصد المطروق: دباح الدس.

٣. عبد الحكيم حسّان التصوف في الشعر العربي، ص ٩٥ - من هؤلاء الشعراء رهير بن أبي سلمي

٤. نفس المرجع، ص ١٠٦. ومن شعراء النصرانية عدّي بن زيد.

العربية ؛ وكانوا يُكثرون من الأسفار الى ديار النصرانية والاتصال بعلمائها . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز ، وبلاد الشام ، وأعالي العراق ، أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذ ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان<sup>١</sup> . وكان من هؤلاء المتحفظون شعراء أعرضوا عن الدنيا فكان شعرهم تمثيلاً للترعة الفردية الروحانية . قال زيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن عم عمر بن الخطاب ومن أصحاب التحف :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا تَمَلًّا  
دَحَاها فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ عَلَى الْمَاءِ أَرَسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ  
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ السَّمْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا  
إِذَا هِيَ سَيَفَتْ إِلَى بَلَدٍ أَطَاعَتْ فَصَبَتْ عَلَيْهَا سِجَالًا

تلك نظرة وجيزة على أغراض الأدب الجاهلي ، أو قل بعض أغراضه لأن هنالك تفرعات وامتدادات كثيرة ، وهنالك أغراضاً أخرى أعرضنا عنها خوفاً الإطالة . وفي ما ذكرناه كفاية ولا سيما واننا سنعود في كتابنا الى عدد كبير من الشعراء مفصلين محللين . وما هي هنا إلا نظرة عامة نستوضح من خلالها المعالم الكبرى التي تقود وتهدي .

### ٥ أشهر القصائد الجاهلية : المملقات :

لا شك في أن أشهر القصائد الجاهلية هي المملقات . وقد اختلف العلماء في أمر جمعها وتسميتها . أما التقليد العربي فهي أنها سبع قصائد جمعها الجاهليون لاستحسانهم إياها ، فكتبت في القبايطي بماء الذهب وعلقت على أستان الكعبة<sup>٢</sup> ، هذا ما ذهب إليه ابن عبد ربّه (٩٣٩م) وابن رَشِيق (١٠٦٤) وابن خلدون (١٤٠٥) وغيرهم كثيرون . إلا أن أبا جعفر النحاس (٩٥٠م) قد أنكر هذا الرأي وذهب الى أن حماداً الراوية هو الذي جمع هذه القصائد وسماها المملقات في مطلع العهد العباسي ، وذهب مذهبه كثيرون من العلماء المحدثين ولا سيما المستشرقين منهم ، فرأى بلاشير أن

١ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ٣٩٩ .

٢ - ابن عبد ربّه : العقد ٦ ، ص ١١٩ .

عدّة مجموعات من الشعر ظهرت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بفضل علماء العراق، كان مصدورها المجموعات الشعرية التي عُرفت عند القبائل، ولا يحتوي المنتخب منها في بدء الأمر سوى ستّ أو سبع قصائد، حتى غلب العدد الأخير لما لعدد السبعة من الأهمية والتقدّيس عند الساميين عامّة والعرب خاصة. ثم كانت «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في أواخر القرن الثالث للهجرة، وفي مقدّمتها «المعلقات»، وهكذا طهر اسم المعلقات منذ ذلك القرن.

ويشكّ بلاشير في رواية صاحب الجمهرة، وينسبها إلى حمّاد الراوية<sup>١</sup>، وهو يقول: «يظهر أنّ علماء العراق في القرن الثالث للهجرة كانوا يجهلون أصل التسمية والأسطورة التي رافقتها، فلم يشر إليها ابن الكلبي، ولا مؤرّخو مكّة، ولا من ورد ذكره من الأعلام في كتاب الأغاني<sup>٢</sup>. وقد نذهب إلى أبعد من ذلك فإنّ النحوي المصري المتوفى سنة ٢٣٨هـ / ٩٥٠م يرفض الأسطورة تماماً<sup>٣</sup>، حتى إذا جاء المستشرقون وقفوا الموقف ذاته مستندين على حجج تاريخية<sup>٤</sup> بيد أنهم يتردّدون في قبول معنى «المعلقات»<sup>٥</sup>، وتعتبر فرضية تولّده أقرب إلى المعقول، ويقول هذا العالم: إنّ مؤرّخي العرب في القرون الوسطى يستعملون كلمة بمعنى العقْد أي السِمِط عنواناً لكتبهم، وهذا ما جرى للمعلقات التي سمّيت «بالسموط»<sup>٦</sup>، ويجب متابعة ليال

١ - تاريخ الأدب العربي، ص ١٥١ - ١٥٥.

٢ - تاريخ الأدب العربي، ص ١٥١ - ١٥٥.

٣ - جرحي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ١ ص ٩٠.

٤ - معجم الأدباء ١٠ ص ٢٦٦.

٥ - رذا م يكن بوكوك من أنصار الرافض المطلق فإن رابشك وهانسنبرغ وسلفستر دي سامي يؤثرون الأسطورة والتسمية معاً. — راجع تولّده: محاولة في دراسة الشعر العربي القديم المقدمة، ص ١٧.

٦ - يلحظ ألهوارد إلى أنّ اللفظة تشير إلى المكانة العليا التي احتلها المجموعة في الشعر الجاهلي في نظر علماء العراق وينسب فود كرير إلى أنّ الكلمة مشتقة من «علق» أي كتب، ويسوع ذلك ثقل تلك القصائد على طريق الرواية الشفهية التي عقبها اللاتيون.

٧ - تولّده: محاولة في دراسة الشعر العربي القديم. المقدمة، ص ٢٢. — وقد تناول داسيه هذه الفرضية من جديد وأضاف إليها من عنده كلمة «السموط» أو «السموط» قد وردت في الكتب منذ أواخر القرن الثالث للهجرة. — «الجمهرة» ٤٥؛ المزمع ٢ ص ٤٨٠. زد على ذلك أنّ مخطوطة برلين رقم ٧٤٣٥ صوابها «السموط» السبعة المعلقة من أشعار العرب.

Lyall عندما قال: «إن المعلقات مشتقة من العلق، وهو ما يُضَنّ به من الأشياء والحلي والثياب... بمعنى المعلقات إذا عقود من أحجار كريمة تُعلّق، ويظهر لنا أن اشتقاق التسمية ارتكز على التباس لا يزال الناس يتداولونه منذ القرون الوسطى حتى يومنا هذا»<sup>١</sup>.

ولكن هذه الآراء والبراهين غير مقنعة، ونحن نرى فيها تحذلقات وتكهّنات أكثر مما نرى فيها حقائق. وليس لنا من الأدلة ما يسقط التقليد العربي ويخرج المعلقات عن كونها قصائد استُحسِنَت في الجاهلية وكتبَت على القبايطي وعُلِّقت على أستار الكعبة أو في مكان آخر تقديرًا لأصحابها واعترافًا بجودتها. ثم إن ما ذكره أبو جعفر النحاس من أن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال لا يمنع أن يكون حماد قد جدّد جمع ما سبقه إليه الأولون. أضف إلى ذلك أن البغدادى روى في خزانته عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال: «قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن جِرْلة من مفاخر العرب، كانتا معلقتين بالكعبة دهرًا»<sup>٢</sup>.

زد على ذلك أن للشعراء في الجاهلية — كما سبق القول — منزلة رفيعة تُقَرَّب من النبوة أو السحر أو ما إلى ذلك، وأن للشعر في نفوس القوم تقدساً واحتراماً، فليس من العجيب أن يُعلّق الجيّد الطويل منه على أستار الكعبة. وتعليق مثل هذه الكتابات في الكعبة أمرٌ مألوف عندهم. ذكر محمد بن حبيب عن حلف خزاعة لعبد المطلب قال: «وكتبوا بينهم كتاباً، كتبه لهم أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة... ثم علّقوا الكتاب في الكعبة»<sup>٣</sup>. وجاء في سيرة ابن هشام أن قريشاً كتبت صحيفة، عندما اجتمعت على بني هاشم وبني المطلب ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم<sup>٤</sup>.

١ - بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص ١٥٥ - ١٥٧.

٢ - الخزانة ٣ ص ١٦٢

٣ - ديوان حسان بن ثابت — مخطوطة مكتبة أحمد الثالث — ورقة ١٥ - ١٦ طبع ومصادر الشعر الجاهلي، لتاجر الدين الأسد، ص ١٧١.

٤ - السيرة ١، ص ٣٧٥ - ٣٧٦، و٢ ص ١٦. طالع أيضاً ومروج الذهب للمسعودي ٣ ص ٤٠٤ ومصادر الشعر الجاهلي، ص ١٧١.

وُسِّمَتِ المَعْلَقَاتُ «السَّجْعُ» وَ«السَّيْعُ الطَّوَالُ» وَ«المُدَّهَبَاتُ»، وَ«السُّمُوطُ». أما أصحابها فهم:

امرؤ القيس بن حُجْر الكندي، وطرفة بن العبد البكري، وزهير بن أبي سلمى المزني، ولييد بن ربيعة العامري، وعمرو بن كلثوم التغلي، وعنترة بن شداد العبسي، والحارث بن حلزة الشكري.

وقد اختلفت أسماء الشعراء في مجموعة المَعْلَقَات اختلافاً يَبِيناً بحسب الروايات المختلفة. فهم في الجمهرة: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والتابعة الذبياني والأعشى الأكبر، ولييد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد. وهم عند ابن النحاس: امرؤ القيس، وطرفة، وزهير، وعبيد بن الأبرص، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة. وهم عند الشارح الرُّوزَنِي (٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) كما ذكرهم ابن النحاس. وهم أخيراً عند الشارح التَّبْرِيزِي (٥٠٢هـ / ١١٠٩م) عشرة، وقد أضاف إلى من ذكرهم ابن النحاس التابعة والأعشى، ثم لييد بن ربيعة.

والمَعْلَقَاتُ في نظر الأدباء أروع ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي وأصدق شاهد على البيئة الجاهلية في شتى معانيها ومختلف مناحيها. قال ابن رشيح القيرواني في كتاب العمدة: «إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتداء هذا بنا» فأحكه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه. فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن<sup>٢</sup>.

#### ٦- خصائص الشعر الجاهلي:

١- مقطوعات وأبيات: إن من استقرأ الشعر الجاهلي يجد في أكثره مقطوعات وأبياتاً، وليس للقصيدة المحل الواسع بالنسبة إلى تلك المقطوعات والأبيات المنفردة.

١ - وردت هذه التسمية في «جوهرة أشعار العرب».

٢ - كتاب العملة ١، ص ٥٧ من طبعة مصر ١٣٢٥.



والسبب في ذلك أن أكثر شعراء الجاهلية عاشوا في بيئة قلقة مضطربة لا تستقر على حال ولا يهدأ فيها بال. فتقطعت أوصال العبقرية الشعرية وراحت ترسل الأبيات مسترقة الوقت استرقاقاً، متنسفة تنفسات متقطعة، إلا عند بعض الشعراء الذين ملكوا زمام أوقاتهم، وأتاح لهم فرصة حياتهم أن يطيلوا ويسهبوا في الإطالة الشعرية، من مثل امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنايفة الذبياني. وإنك إن تتبع القصائد نفسها وجدتها، في حقيقة تكوينها، مقطوعات متتابعة، لا قصائد متساوقة في أبياتها وأجزائها. فالشاعر الجاهلي رجل بدائي، رجل افعال وتفاعل، لا رجل تفكير يفجر الفكرة ثم يلاحقها محبلاً مفضلاً، بانياً على تصميم وهندسة بنائية. فالفكرة تثبت عنده نبتاً يتبع الانفعال والتفاعل. وهذه الفكرة تخرج الى حيز الكينونة الفعلية وكأنها مستقلة عن كل سابق ولاحق، ثم تنطلق متجسمة، مضخمة في موسيقى صوتية ترتاح إليها عصبية الشاعر وميله الى القوة والقمقمة. ثم تأتي فكرة ثانية فتدفع الأولى دفعاً ويصبح الشاعر فيها فجملته وكأن ما سبق أو ما لحق ليس منه ولا له. فهو ابن الفكرة الحاضرة، والانفعالة الحاضرة، لا يمتد بنظره وعقله الى أمام أو وراء، ولا يتناول بشخصيته الى كل كامل، بل تهمة الجزئيات لأنه مقطع أوصال الإحساس العميق المستند. وهكذا فالجزئيات للشفرة مع الانفعالات، واللمحات اللثيمة كالبرق، والخفقات الوعائية النباضة، تلك مجموعة شعر الجاهليين بوجه الإجمال.

خذ مثلاً معلقة عنزة بن شداد، وقابها صفحة صفحة، وتبعها جزءاً جزءاً. ماذا نجد فيها؟ إنك تجد قسماً افتتاحياً قائماً بالوقوف على الطلول، يتبعه وصف لعبلة ثم وصف للناقة ثم فخر أو سلسلة من الافتخارات في موضوعات شتى غير متسلسلة ولا متساوقة. فكل قسم قائم بنفسه مستقل عن غيره استقلالاً يكاد يكون كاملاً. وفي كل قسم أبيات متتابعة قلماً نجد فيها بينها تلاصقاً وتلاحقاً. إنها نبزات عاطفية والهامات فكرية تسبقها العاطفة وتجرها هيجراً. وهكذا نستطيع أن نخرج بحكم إجمالي على الشعر الجاهلي خلاصته أن ذلك الشعر يخلو من البناء.

أنصف الى ذلك أن شعراً يخضع لقانون الانفعالية الطارئة كالشعر الجاهلي يخلل بالمتناقضات الفكرية والتصويرية، فبها ترى امرأ القيس مثلاً يحدثك عن الليل ورهبته

بتضخم وتفخيم تراه يعلّق النجوم بأمراس من كنان ، وفيما تراه يشبه الفرس بكل شديد سريع تراه يشبه أيضاً بالأعيب صيبانية تتضاعل أمام العظمة الفرمية التي يرفها أمام النظر والسمع والقلب ، وفيما ترى طريقة بمدّك عن قوة ناقته واندفاعها التلقائي السريع يعود فيحدّك عن ضربه لتلك الناقة حتى تسرع وتشدّد في السرعة .

وفضلاً عن ذلك فالخضوع لقانون الانفعالية يقود الى فتور يحاول الشاعر أن يستعير عنه بالتضخم والإكثار من العتوت والإكثار من الألفاظ ، وكأنني بذلك الشاعر قد أعجبه الإحساس الطارئ الذي مرّ فأراد أن يقف بعد مروره وقوف الطفل الساذج ، فيبعد عليه الكرة إثر فتور ، ويحاول أن يذكيه بعد خمود ، فينقطع النفس المحيي الفعّال ، وتتدفّق الأقوال على فراغ في العمق ، وتتراحم التشبيهات تراحمًا كما تلمس ذلك في وصف طريقة بن العبد لثاقته ، وفي وصف امرئ القيس لفرسه .

٢- النزعة الانفرادية القبلية : وهنالك نزعة تلتفها مسيطرة على الشعر الجاهلي هي نزعة الانفرادية الذاتية التي تخرج فيها الذاتية بالشخصية القبلية عند الشعراء غير المنبوذين من القبيلة ، وتضخّم فيها الذاتية الفردية عند المنبوذين . فالشاعر الجاهلي ، شأن البدائي ، أناني إلى حد بعيد ، لا يكاد يرى على مسرح الوجود إلا ذاته ماثلة أمام عينيه في نفسه منفردة أو مثبّسة القبيلة والعشيرة . ولنسمع الدكتور يوسف خليف يوضح لنا هذه النزعة عند الشعراء الصعاليك وغير الصعاليك فيقول : « نسجل ظاهرة أساسية في الشعر داخل دائرة الصعلكة ، وهي ظاهرة التحلّل من الشخصية القبلية ، وهي ظاهرة ليست غريبة على شعر الصعاليك لأنها تتفق وتوافق الاتفاق بين الصعاليك وقبلتهم مما ترّبّ عليه فقد الإحساس بالعصية القبلية في نفوسهم . ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصية القبلية ، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً فمن الطبيعي أن تنقطع فنياً . وتعني بانقطاعها فنياً تحلّل الشاعر الصعلوك من ذلك «العقد الفني» الذي تراه بين الشاعر القبلي وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك «لسان عشيرته» لأنّ ما بينه وبين عشيرته قد انقطع ، ولا يكون شعره «صحيفة قبيلته» لأنه لم تعد له قبيلة ، ولما يصبح شعره صورة صادقة كلّ الصديق من حياته هو ، يسجل فيه كلّ ما يدور فيها ، ويصبح ضمير الفرد «أنا» أداة التعبير فيه بدلاً من ضمير الجماعة ونحن ، الذي هو أداة التعبير في

الشعر القبلي . وتصبح المادة القبيلة لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته . ومعنى هذا أن ظاهرة « الفناء الفني لشخصية الشاعر القبلي في شخصية قبيلته » التي نلاحظها بوضوح عند « أصحاب المذهب القبلي » في الشعر الجاهلي ، قد اختفت من مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، وحلت محلها ظاهرة أخرى يصح أن نطلق عليها « ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك » . ولكن شخصية الشاعر الصعلوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته ، لأنهم جميعاً يؤمنون بمذهب واحد ، ويدنون بعصية مذهبية واحدة . ومن هنا كانت شخصية الشاعر الصعلوك « شخصية جماعية » ، ولستنا نقصد بالجماعية فناء الشاعر الصعلوك في جماعته فناء يشبه فناء الشاعر القبلي في قبيلته ، وإنما نقصد بها ذلك التشابه في الشخصيات بين أفراد الصعاليك<sup>١</sup> .

وهكذا ترى الشاعر الجاهلي القبلي يتكلم باسم الجماعة ، ولا سيما وقد أحلته شاعريته من القبيلة مركز رئاسة وقيادة وتوجيه ، وأحلته « صحابته » محل المطلوب والموهوب والموهوب . ونفخت في نفسه العصبية أبعاد الماضي وعزة الحاضر ، وعصفت به العنجهية الصلبة القائمة على قانون القوة ، وصحمت صوته وأعلت لهجته ، وأسكرته بالكبرياء البدائية الساذجة<sup>٢</sup> ، وحملته على المغالاة الكاذبة التي تخطف أحياناً كثيرة حدود العادي بله المعقول . وهكذا نسمع السؤال يقول :

وإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْمَوْتَ سَبَّةً إِذَا مَنَّا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَنُؤَلِّ

ونسمع عمرو بن كلثوم يقول :

مَتَى نَنْقُلُ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُوا فِي الْقَاءِ لَهَا طَحِينًا

أما عنبرة بن شداد الذي ذاق مرارة الازدراء من أبناء القبيلة فكثيراً ما يتكلم بضمير المفرد « أنا » :

١ - الشعراء الصعاليك ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

٢ - قال بلاشور : « إن روايتي بعيدة من القفر والحرمان ، واصطفاها طبعياً لا هزادة فيه في الخضم اليدوي يعزّون من هنا لمران القاسي فيجعلان من العربي بصورة عامة رجلاً سفاكاً مكبراً حتى في حالات اليأس ، سريع الانفعال والغضب ، ميلاً إلى ازدراء حياته وحياة الآخرين ، معجباً بالقوة مها كنت ناعمه . ( تاريخ الأدب العربي ، ص ٢٧ )

هَلَّا سَأَلْتَ الْكَفِيلَ يَا بَنَّةَ مَالِكٍ      إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي  
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقَائِعَ أَنِّي      أَغَشَى الْوُحْيَ وَأَعِيفُ عِنْدَ الْمَقَمِّ

٣ - نزعة التقليد : لا شك أنَّ للحياة القبلية تأثيراً شديداً في ربط الشاعر بالماضي ، فهو دائم التطلع الى الوراء . أضف الى ذلك أنَّ البيئة الصحراوية وحالة الطفولة البدائية قَيَّمتا العقل والخيال بقيود التقاليد ، وحاشا دون انفجارهما الجريء في مبادئ الابتكار . فأصبح ما جرى وما كان سةً يتمشَّى عليها الإنسان شاعراً كان أم غير شاعر . وكان الزعماء والرؤساء والرأي العام الى جانب التقليد ، فدرج الشعراء على نظام واحد قلماً يتغير ويتحول ، وانطوى الابتكار التقدمي في الرقابة السهلة التي لا تقضي جهداً عقلياً خاصاً ، وفي الرضى القبلي الذي لا يتطلب ولا يتقلب ، وانتقاد الشعر وكأن القصيدة تأليف مشق على نظامه ومعانيه وأسلوبه ، وكان أقسامه ثابتة لا تبدل .

٤ - المادية المسيطرة : حياة الجاهلي حياة غارقة في المادَّة لا يتجلى لها الوجود إلا من خلال المادَّة ، وذلك أنَّ ضائقة العيش ، وقسوة الأرض والسماء ، وتوافر الأخطار المُحدِّقة ، كلُّ ذلك دعا الجاهلي البدوي الى أن يُعَمِّن في التطلع الى المادَّة . ثم إنَّ البداءة البدويَّة لم تكن لتدرك شيئاً أو تُعبِّر عن شيء إلا من خلال المادَّة ، وذلك لأنَّ القوى الإدراكية والتعبيريَّة عند البدوي لم تكن بعد من الرُّفِي بحيث تستطيع الاعتماد على التجريد والانطلاق في عالم المعقولات والمدركات ، ونحن نعلم أنَّ أكثر شعراء الجاهلية أهل بدوَّة لا أهل حضارة . ولهذا سيطرت المادَّة على مجمل شعرهم ، فكانت في مصدر إيمانهم ، وكانت في موضوع قوهم وهندسة بنائهم ، وكانت أخيراً في مادَّة تعبيرهم وتعبيرهم .

وهكذا قلماً نجد الشاعر الجاهلي في عالم إحصِّرات . فالحبُّ عنده ميل خفي يتجسَّم في وصف محاسن المرأة الجسميَّة ، والكرم عنده نارٌ مشبوبة ، وكلابٌ لا تتيح في وجه الضيف ، ومآكلٌ ومشاربٌ مفضَّلة الجوانب ، وضيفان تذهب ونحيي ، والشجاعة عنده ضربة سيف وطعنة رمح وكرة فرس ، والشرفُّ عنده نساة مصونات وعدوٌّ مقتول ، والمزة عنده جارٌّ محصَّن ، ومضاربٌ في مشارق الأرض ومغاربها ... وهكذا كان أكثر كلامه في مادَّة الفرس والناقة والمطر والمواقع وما الى ذلك . وهو إن عالج عالم

ما وراء المحسوس من شياطين وأرباب وملائكة جسمه في نُصبٍ أو جِنٍّ أو غول أو ما الى ذلك مما يتكوّن من جِهاد أو أعضاء جسميّة مادّية. وهو إن نظّم قصيدة قام بناؤها على المحسوس المؤثّر لا على العقل المُفكّر، أي على انفعالات حسّية أمام الطلول والناقة والقرس والسَّيل والطرائد وما شاكلها.

والشاعر الجاهليّ يُعبّر عن فكره وشئى معاني نفسه وجسمه بالمادّية المحسوسة عن طريق التشبيه والتشثيل، وتلك طريقة العقلية التي لم تتجاوز طور الطفولة. فهو إن نقل مشهداً حاول تجسيمه وتصويره بحيث يتمثّل لحواسنا المدركة، وهكذا لما أراد امرؤ انقيس أن ينقل لنا مشهد السرعة في فرسه صوّر ذلك المشهد تصويراً، وإذا نحن أمام جُلُود من الصخر دفعه السَّيل من أعالي الجبال فراح يمزج الكَرَّ بالفَرِّ والإقبال بالإدبار:

مِكَرٌّ مِفَرٌّ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَجُلُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلَا  
ولما أراد طريقة أن ينقل إلينا معنى كرمه صوّر لنا نزوله في الأعالي دود التلاع حتى يرى ناره كلُّ طالب رِفْد:

وَلَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً، وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدُ الْقَوْمُ أَرْفَدُ؟  
ولما أراد زهير أن ينقل إلينا معنى الحرب وويلاتها صوّر لنا رحيّ تظحن الناس طحناً:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمُ<sup>٢</sup>  
فَتَعَرُّكُمْ عَرَاةَ الرِّحَى يَثْقِلُهَا وَتَلْقَحُ كِشَافًا<sup>٣</sup> ثُمَّ تَنْتَجُ قَسِيمُ<sup>٤</sup>  
فالشاعر الجاهليّ يعتمد الى المادّية المحسوسة ويجعلها أداة للتعبير عن حوالج النفس

١ - المِكَرُّ: الكثير الإقبال. المِفَرُّ: الكثير الإدبار.

٢ - التَّلَاع: منجذفات الأوس. يسترفد: يطلب. يرفد أي دعوة.

٣ - الحَدِيثُ الْمَرْجُمُ: الحديث الذي يتكلّم فيه صاحبه بما لا علم

٤ - الكِشَاف: جلد يُسَطّ تحت الرّيح ليقط عليه ابدقن، والياء عني مع. تَلْقَحُ كِشَافًا أي تحمل في عامين متولين، فيكون نتائجها أردأ النتائج. تنتج: تلد. قَسِيمٌ: تلد تُولِيس.

وعواطف الفؤاد كما سبق القول . ولكن هذه المادية المحسوسة عنده ليست اندفاعاً من الشاعر على المحسوس ، ولا نقلاً للمحسوس الى الحالة الحياتية التي يوجد فيها الشاعر ، بل مقارنة بين مشهد داخلي وتجربة ذاتية من جهة ومشهد خارجي وحالة محسوسة من جهة أخرى . وهكذا لما حزن امرؤ القيس وثقلت عليه وطأة الحزن قال :

كَأَنِّي غَدَاةَ اللَّيْلِ بَوْمٌ تَحْمَلُونَا لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلٌ<sup>١</sup>

فالشاعر لم يحلّل حزنه ، ولم ينقل العالم الخارجي الى علمه الداخلي بحيث يصبح متأثراً معه ، ناطقاً بلسانه ، بل اكتفى بتصوير الرجل الذي دمعت عينه وسكنت العبرات بغزارة لمخائنه الحنظل يديه . والجاهلي كما ترى يدمج تلميحاً ، ويشبه تشبيهاً ، ويدع لنا مجال التصور حتى إذا تصوّرنا استيقظ فينا الشعور وتأثرنا .

والتشبيه عند الجاهلي من مقومات الكلام الاساسية ، فهو يعتمد على اعتياداً ، ويرتكز عليه ارتكازاً لأنه لسان النزعة المادية الحسية التي هي صفة البداية . وهذا التشبيه يتحوّل أحياناً كثيرة الى استعارة ، والاستعارة كما لا يخفى تشبيه خدّف منه المشبّه وأداة التشبيه ، وقام فيه المشبّه به مقام المشبّه لعلاقة وصعية بينهما . وهو في الشعر الجاهلي تارة مفرد وتارة مركّب وكثيراً ما يصبح تمثيلياً استطرادياً يتخذ أسلوب القصص . أما التشبيه المفرد فهو ما كان فيه المشبّه والمشبّه به مفردين أي غير مركّبين كما في قول طرفة مشبّهاً مخذلي الناقة بياهي قصر عالي أملس :

لَهَا فِخْذَانِ كُحَيْلِ النَّحْضُ فِيهَا كَأَنَّهَا بَابَا مُنَيِّفٍ مُسَرِّدٍ<sup>٢</sup>

وأما التشبيه المركّب فهو ما انتزع فيه وجه الشبّه من صورة في حالة يكون فيها المشبّه به كما في قول الملك الفضيل إذ شبّه فرسه بجمود صخر وحطّه السيل من علّه ، وجعل وجه الشبّه صورة الاتحاد الجمود بشدّة أمام اندفاق السيول ؛ فهو لم يشبّه القرس بالجمود مفرداً ، ولكنّه شبّهه به وهو في حالة الاتحاد الشديد ، في حالة الحركة المتوقّبة التي يستحيل معها التمييز بين الكرّ والفرّ والاقبال والإدبار .

١ - ليلين - العراق تحمّلوا . ارتحلوا السمرات جمع سمرّة وهي شجرة صغيرة الورق . ناقف الحنظل من باجعه بلبه فتدمع عنه بشدّة لحدّته .

٢ - النحض : التحمّص : المُنْزِف أي القصر العالي . لمُرْد الأملس .

وأما التشبيه التمثيلي الاستطراذي فهو ما كان فيه المشبه به مركب تركيباً يستعمل بطريقة قصصية بحيث يندفع الشاعر وراء هذا المشبه به مفصلاً ما استطاع التفصيل ، في غير رابط رابط شتى الجزئيات بموضوع التشبيه إلا ما هنالك من توضيح حالة المشبه به ، وتعظيم شأنه حتى يصبح في نظر السامع موضوع إيهام يرتاح إليه الشاعر ارتياح من وفي موضوعه حق من القول والتمثيل . ومثل هذا التشبيه كثير الورد في شعر النابغة الذبياني مثلاً ، أو هو بالحري عنده يصطبغ بصبغة التحضر والثاني التي لا تخو من التصح في التزيّد من القصص والتمثيل لإظهار البراعة وتوضيح الإيهام ، فما هو عند غيره مقتضب لا يبع من الطول التفصيلي ما يبلغه في شعره . وهكذا مثلاً إذا أراد الشاعر أن يصف ناقته بالسرعة والشدة شبهها بالثور الوحشي ؛ ثم تمثل ذلك الثور وقد انفرد عن قطيعه في جو ماطر ، فعرض له القناص وراح يطارده وهو على أشد ما يكون الفياح ، حتى إذا ضاقت به الحال ارتدّ على كلاب الصيد مستمبئاً ، فنشبت بين الفريقين معركة هائلة تسفر عن دم مسوك وهلاك مربع .

والأمر الذي نلاحظه عند الجاهلي أنه شديد الميل الى تمثيل الحوكة ، فهو مغرم بها غرام الأطفال بكل ما يتحرك ، وهي منسجمة مع طبيعته التي صهرتها الصحراء وأيقظت حسنها المخاوف ، ورمّت بها على الرّمضاء كتلة أعصاب تنزّى في نيقظ مستديم وحيوية جائشة . وهكذا ترى الشاعر الجاهلي غارقاً في المادة المحسوسة لا يقوى على التفكّل منها ، وهو يعبر بها عن جملة ذاته وجملة الوجود الخارج عن ذاته ، وبها يشبه ويصوّر ويؤن .

٥ - الواقعية . لما كان الشاعر الجاهلي شديد الانغراس في المادة المحسوسة التي تحيق به والتي يعيش في كنفها ، كان لا بدّ لشعره من أن يعكس صورة الواقع . ويمثل الحياة بما فيها من غير معان في الخيال الذي ينقل من الواقع الى اللاواقع . وإنك تطوف بالشعر الجاهلي من أوله الى آخره فتجده واقعياً في موضوعاته ، واقعياً في صدق نقله عن الحياة ، واقعياً في استكمال الصورة العامة لجميع عناصرها ، واقعياً في حرصه على التفاصيل والجزئيات ، واقعياً في صراحة التصوير وصدق ، واقعياً في دقة التعبير . أما موضوعات الشعر الجاهلي فهي البيئة في شتى صورها ، ولا سيما البيئة

الصحراوية بأرضها وسماها . بجادها وحيوانها ونباتها ؛ والحياة القبلية بجزرها وشرها ؛ وقد فصلنا ذلك كله في غير هذا المكان . وأما صدق النقل عن الحياة فظاهر في الشعر الجاهلي جملة وأجزاء . وإنك إن قُلِّيت المجموعات الشعرية لذلك العهد تحيَّلت نفسك أمام شريط سينمائي تنطق فيه الصور بحقيقة الحياة البدوية وما يتقلب على مسرحها من أحياء وما يتعاقب في ميدانها الفسيح من جباد . وإن في وصف امرئ القيس لفرسه ، ووصف طريقة لاقته خير مثال لهذا النقل الصادق لحقيقة الأشياء . وأما استكمال الصورة العامة لجميع عناصرها فذلك أمرٌ ملموس عند الجاهليين أيضاً . ومن أمثال ذلك ما جاء في قصيدة زهير بن أبي سلمى قالها في مدح حصن بن حذيفة الفزاري لا متناعه على عمرو بن هند وعرض فيها لوصف فرسه في الصيد ووصف الطرائد قال : « إذ نبحت عن الوحش بصيده أقبل خادعنا يمشي على هيئته ويضائل جسمه ، خوف أن تراه الشيا ، فتعطي ساقبه العنان ، فأناياناً أن شياً ترتع وتلعب ؛ فهي تعيش في مرعى خصيب ، قد استأسد بته . وطال عتبه ، واسودَّت مسابيل مائه ... إنها ثلاث شياه ضامرات كالقسي ... وناشط من خمر الوحش قد اخضرت شفتاه من أكل الثبب الأخضر المعمور . وقد فرَّق الصيادون عنه حشاه .. عند ذلك قال أحدنا : ترى ماذا نعمل ؟ أئخذله أم مجاهره الحرب ؟ . ثم حملنا غلامنا على ظهر فرس محبوبك وقلنا له : قوم صُدِّرَ الفرس ، ولا تملُ يمةً أو يسرةً ، وتبين طريقك الذي تسير فيه ، واعلم أن للصيد غرةً فاهتبلها ، وفيه أحياناً غيلة فانهزها ... فتتبع الغلام آثار تلك الحمر ، مثله ، في اندفاعه إلَّاب وانصبابه عليها ، كمثل دفعة المطر يقشِّر وابلها الأكُم ، ويزيل تراها فيظهر نباتها ... فأخذت الحمر الوحشية تنير الحصى في وجه القرس ، وهو لاحق بها مدرك لها حتى ردَّ علينا الغير من غير أئانه . والدَّم ينساب من جنبه ومن فخذِه » .

وأما الحرص على التفاصيل والجزئيات فظاهر أيضاً في كلام زهير كلَّ الظهور . ليس من ذلك وصف الخادم يمشي على هيئته ويضائل جسمه ، ووصف حمار الوحش ماخضراً اندمجتين من أكل العشب ؟ وإذا تركنا زهيراً وأقبلنا على غيره من شعراء ذلك العهد ألا نرى امرأ القيس يعنى شديد العناية بجزئيات فرسه الذي يسير بسرعة ويختلف



في ذلك عن السَّابَّاتِ الضَّعَافِ التي تثير الغبار في الكلبِ المَرَكَلِ<sup>١</sup>، وهو فرس ضئيل يسدُّ قَرْجَهُ<sup>٢</sup> بدنٍ طويلٍ سابغٍ «فوق الأرض»:

ضَلِيعٌ إِذَا اسْتَدْبَرْتُهُ سَدَّ قَرْجَهُ بِضَافٍ فُوقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَعَزَّلَ<sup>٣</sup>

ثمَّ طريقة ألا يبلغ من العناية بالجزئيات أقصى حدودها عندما يعتمد الى ناقته ويصف أقسامها، وأقسام أقسامها، ويقول مثلاً:

جَوْحٌ ذَفَاقٌ عِنْدَكَ ثُمَّ أُفْرِغَتْ لَهَا كَيْفَاهَا فِي مُعَالَى مُصَعَّدٍ<sup>٤</sup>

وأما صراحة التصوير وصدقه فيها من ميزات البدانة والطفولة، وهما لارمان للشعر الجاهلي في جميع فروعه وتشعباته. والصراحة تحمل البدوي على تسجيل الواقع كما هو في غير اعوجاج ولا محاولة إخفاء. فهذا طريقة بن العبد يقول لما أنه أفرد «إفراد البعير المعبد»، ويصرح لنا بلذائذه الثلاث في غير رثاء ولا تحفٍّ، وهذا تأبط شرٍّ يجهز بفقره، والشتفى يعترف بقذارة شعره وبمصحبته لوحش الصحراء... ولكن هذه المصارحة لا تخلو من مغالاة، كثيرة أحياناً، تخرج بالشعر من نطاق الصدق الى نطاق الكذب. إلا أن هذا الكذب نفسه لا نستطيع أن نعدّه كذباً فنياً مصطنعاً بقدر ما هو تضخم عاطفي أو محاولة صادقة للتعبير عن عاطفة صادقة.

وأما الدقة التعبيرية فهي ترجع في بعض نواحيها الى ما ذكرنا من العناية بالتفاصيل والجزئيات والعناية بالنقل الصادق لحقيقة الأشياء، والشاعر الجاهلي يهتم شديد الاهتمام بالتجديدات المكانية والزمانية كما نجد ذلك في مطلع معلقة امرئ القيس مثلاً حيث ذكر موقع المنزل «بسقط اللوى بين الدخول فحوكل فتوضع فالمقراط». وهو يهتم أيضاً لتحديد طول الأشياء وعرضها وعددها ولونها وشكلها وما الى ذلك بطريقته الحسية الملموسة. قال الدكتور خليف: «والى جانب هذا التحديد الجغرافي»

١ الكلب: الأرض تكدها الدواب بجوفه. المَرَكَل: المكند.

٢ الضليع: قوي الجشئين استدرته: نظرت إليه من خلف. الأعزل: الفرس العوج لمصب، أي عظم المنكب، والعرب تشبهون به إذا كانت إماتته الى العين.

٣ الجنوح: المائلة في سيرها من النشاط. التفاق: المنفقة في السير. التدل: العظيمة الرأس. أفرغ: وُفِيت. في معالي: في مرتفع.

« والتحديد المحسائي » نجد صورة أخرى من صور الدقة في التعبير يصبح أن نطلق عليها « التحديد التعبيري » وتقصد به ذلك التحديد اللفظي الدقيق لمدلول العبارة الذي يأتي من طبيعة اللفظ أو النظم أو من طبيعتها معاً. فحين يصف تأبط شراً الحية يذكر أن خروجها يكون « بعيد غروب الشمس » ، والدقة هنا تأتي من هذا التصغير لظرف الزمان وهو تصغير يحدد الوقت تحديداً دقيقاً<sup>٦</sup>.

٦. اللهجة الخطائية : رأينا المكانة التي كان يحتلها الشاعر القبلي في الجاهلية ، ورأينا كيف كان الأمراء يتنافسون في استخدامه إلى بلاتهم ، ثم رأينا مواقفه في الأسواق العامة ، وفي المفاخرات والمنافرات. ورأينا كذلك كيف كان الجاهليون يعدونه من طبقة الموحى إليهم. وهذا كله هيأه لأن يكون خطيب القوم ولسانهم في السر والضرار. وهذا كله جعله على منبر الإقناع بالبلغة الكلامية واللهجة العالية التي تحاول استئثار العواطف وتطلب انقياد النفوس والقلوب. ولهذا نراه يرفع الصوت مدوياً ، ويعمد إلى أساليب الخطباء من تهديد ووعيد ، من حض أو كف ، من قسم وتأكيد ، من إبدال الأنا المفردة بالنحن المجموعة ، من الانتقال السريع المتوَّج من الخبر إلى الإنشاء إلى شتى الأساليب الخطائية ، من الاقتضاب اللماح والجزم الفاصل...

٧. الخيال اللفظي : والجاهلي إلى ذلك كله ضيق نطاق الخيال والتخييل بسبب اشتداد المحسوسية عنده وسيطرة المادية على مجمل كيانه. وهو بعيد عن الاستقرار الذي يفسح المجال للتأمل الطويل العميق ، ومن ثم نراه يعمد إلى الصور القريبة التي تتعقب المحسوس في جزئياته ، وتراه يكتف مائة تشبيه وتصويره ، فيتحوّل عنده الخيال إلى تراكم ألفاظ وتشبيهات أكثر مما ينطلق في عالم الخلق التصويري والابتكار الشخصي البعيد المدى. ولهذا نجد صورة عنيفة في أحبان كثيرة ، وتراه يكثر من الاعتماد على المادة الصوتية في غرابة اللفظ ورتة الوزن والقافية.

١ - وكذلك عند امرئ القيس إذ قال : « بضاب فربق الأرض ليس بأعزلوه ».

٢ - الشعراء اصحابنا ، ص ٢٨٦. وقد اعتمدنا تقسيمه في دراسة الشعر الجاهلي ، وهو تقسيم ينطبق في أكثره على مجمل ذلك الشعر.

تلك هي الخصائص البارزة في الشعر الجاهلي، وهي كافية للدلالة على ما لم نذكره وما لا يخفى على البصر الثاقب. وهي خصائص نذكرها بوضوح بعد ما يتناه في دروسنا السابقة من ميزات العقليّة والبيئة في الجاهلية.

### مصادر ومراجع

- طه حسين: في الأدب الجاهلي — القاهرة ١٩٣٣ (طبعة ثالثة).  
 مارون عبود: الرؤوس — بيروت ١٩٤٦ ص ٨ — ٣٤.  
 أحمد أمين: فجر الإسلام. القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٩ — ٦٨.  
 سليمان البستاني: مقدمة الألفية — ص ١١٦ — ١٣٠.  
 فؤاد البستاني: الشعر الجاهلي — الروائع ٢ بيروت ١٩٣٨.  
 محمد أحمد جاد الملوك، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية — القاهرة ١٩٤٦.  
 ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي. القاهرة ١٩٥٦.  
 عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية في العصر الجاهلي. القاهرة.  
 يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي — القاهرة ١٩٥٩.

R. Basset: La Poésie arabe antéislamique - Paris,, 1880.

C. Brockelmann: Geschichtte des arabische Literatur - Berlin, 1939.

## الفصلُ الثَّانِي

### أقسامُ الشعرِ الجاهليِّ

الأدب الجاهلي هو أدب البطولة. هكذا نظر إليه بعض العلماء<sup>١</sup>، وهكذا يتجلى لنا بطريقة عامة. فالقوة كانت إذ ذاك أساس المجتمع<sup>٢</sup>، ولا سيما المجتمع البدوي الذي يهتَمُّ في موضوع الشعر أكثر من غيره، وما سوى ذلك إطار للجوهر الظاهرة وانعكاسات منه. وهذه الطهارة هي التي تقودنا في تقسيم الشعر كما يقودنا المسرح الذي تفاعل معه والتيارات التي عصفت به. ولهذا رأينا من الموافق أن تكون أقسامه على النحو التالي، مع العلم بأن الحصر غير مطلق وإنما هو على وجه التغليب وبالنظر إلى المشهور من ذلك الشعر: شعر الانفرادية البدوية، شعر الحياة والمناقب القبلية، شعر البلاط، شعر المذاهب الدينية والآراء الاجتماعية.

#### أ - شعر الانفرادية البدوية :

ونحن نعهم بهذا الشعر شعر الصعاليك والذؤبان والشذاذ الذين نبذهم المجتمع الجاهلي فامتزجوا بالبادية امتزاجاً حيوياً شديداً، وكانوا شعراء البادية بكل ما في الكلمة من معنى.

أما الصعاليك فهم جماعة من اللصوص انتشروا في الجزيرة العربية يكسبون العيش بالتهب والسلب. وقد نبذتهم قبائلهم إما لأنهم كانوا أبناء إماء، أو لأنهم أتوا بأعمال

١ - طالع «كتاب الأدب العربي» للمستشرقين جيب، وبلاشير. ص ١٣ في ترجمته العربية.

٢ - كان ذلك المجتمع يؤمن بأن «الغزو أدرك للفرح وأحد للسلاح». ابن قتيبة: عيون الأخبار ١ ص ٢٤٤.

تتنافى وتقاليد تلك القبائل أو تعرضها لأخطار جسيمة . ولما كان الأمر كذلك انقطعت لأولئك الصعاليك كل صلة بالمجتمع القبلي ، وكل أمل بالعدالة الاجتماعية ، ورأوا أنفسهم مجردين من وسائل الحياة المشروعة النبيلة في بلاد حفلت بالقسوة ، وفي مسرح جغرافي لا يعرف إلا الأجواء الجافة ، ورأوا من وراء فقرهم وجوعهم الثروات الطائلة في أيدي التجار وسكان الحواضر فزادهم المشهد تمرداً ونفوراً . وراحوا يملأون الفلوات والجبال والأودية رعباً وهولاً ، ويرفعون علم الصلعة عالياً ، لا يبالون في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة والمعاية تبرز الوسيلة . وكان سلاح صعلكتهم قوة الجسم وقوة النفس ، والقوة من أميز ميراث المجتمع الجاهلي عامة والصعلكي خاصة .

كان الصعلاليك أقوياء يتمشون على شريعة القوة . وتتجلى قوتهم الجسمية بوع خاص في سرعة عدوهم ، فهم « أشد الناس عدواً » حتى لقد نسجت الأساطير حول سرعة ذلك العدو . وهم إلى ذلك جماعة جرداء ، الحياة والموت سواء في نظرهم ، فلا يعبأون بشيء ، همهم الأوحده هو الهدف الذي ينشدونه أيأ كانت العقابه . ولكن جراتهم غير التهور ، فهم ذوو حيلة ، ودوو فرار حيث لا يد من الفرار للنجاة من هلاك محقق ولاستئناف الصراع في سبيل الهدف . وهم مع ذلك كله ذوو نزعة إنسانية تجتمع اجتماعاً عريباً مع صفات التوحش والفتك والقوة . وتتجلى تلك النزعة في عطف الصعلاليك على الفقراء والمعوزين ، وكثيراً ما كانوا يغزون لتوزيع العنينة على ذوي الحاجة ، وكثيراً ما كانوا يوجهون الغزو إلى الأغنياء عامة والبخلاء خاصة لإطعام الأيتام والأرامل

وكان عدد كبير من الصعلاليك شعراء دار شعرهم حول عدوهم وسرعته ، وحول إغاراتهم ومغامراتهم ، وتشردهم في الفلوات ، وكثيراً ما أظهروا استناسهم بوحش الصحراء وتقضييهم له على الأهل . ولا عجب في ذلك فهم أبعد ما يكون الإنسان عن المجتمع البشري ، وهم أقرب ما يكون الإنسان إلى الحياة المتوحشة ، وقد عاشروا الوحوش والطيور والحشرات ، وعرفوا أسرار طبائعها حتى كان لهم بها صلة نفسية

شعورية. ونظموا الشعر في وصفها وتفسير انفعالاتها وتفاعلاتها؛ ثم انهم ألفوا الصحراء بل أدحوا أنفسهم فيها، وكانوا فيها أدلّ من قطاة<sup>١</sup>، وأعلم الناس بأسرارها وبشئ حالاتها، وقد أكثروا من وصفها وذكر مسالكها ومضلاتها. وهكذا كانوا «محلين» بأدق ما اللفظة من معنى، لأنهم كانوا شديدي اللصوق بالبيئة. ومن أشهر أولئك الصعاليك المغاوير تَابِطُ شَرًّا الفهمي، والشغرى الأزدي، وعروة بن الورد العبسي.

والى جنب هؤلاء الصعاليك نذكر امرأ القيس الكندي (الصف الأول من القرن السادس) وإن لم يكن منهم. فهو من أصل ملكي؛ ولكنه طرد من بيت أبيه وراح مع الشذاذ والنزبان يقتل الوقت باللهر والشراب والميسر، متنقلاً من واحة الى واحة، ومن ملهى الى ملهى لا يعرف من الحياة إلا المرأة والفرس؛ وقد تجلّت الحياة الصحراوية اللاحية في معلقته الشهيرة.

#### ب - شعر الحياة والمناقب القبلية :

وحن نفهم بهذا الشعر كلّ ما أُنشد في ظلّ الحياة القبلية، وكانت المناقب القبلية مسيطرة عليه. والقبيلة، كما سبق القول، رابطة اجتماعية بدائية، لها تقاليد وعاداتها وأخلاقها، ولها أيامها ومواقعها، ولها أحداثها ومحدثاتها. فيدخل إذن في هذا الباب كل شعر نظم في غزاة أو حرب، أو في روح قبيلة أباً كانت، وكل شعر كان عامله الحياة القبلية في شتى مظاهرها. ولست بحاجة الى التفصيل بعد ما ذكرنا في الفصول السابقة إجمالاً وتفصيلاً، إنما نذكر أهم الشعراء الذين نعدّهم من هذه الفئة وهم :

- |   |                       |
|---|-----------------------|
| • المهلهل التغلبي (النصف الأول من القرن السادس) |                       |
| • الحارث بن حلزة الشكري                         | { في قطب حرب البسوس . |
| • عمرو بن كلثوم التغلبي                         |                       |
| • عنترة بن شداد العبسي                          | { في قطب حرب السباق . |
| • زهير بن أبي سلمى المزني                       |                       |

- حاتم الطائي (القرن السابع) : ممثل الكرم العربي.
- الأفره الأودي (منتصف القرن السادس) : كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم.
- سلامة بن جندل التميمي (نحو ٦٠٠) : من الشعراء الفرسان.
- دريد بن الصمة الجشمي (٦٣٠) : سيد بني جشم ، غزا نحو مئة غزوة.
- الحنساء السلمية (منتصف القرن السابع) : مسجبة اللوعة الناتجة عن الغزوات.
- قيس بن الخطيم الأوسي (أوائل القرن السابع) : يمثل عادة طلب الثأر عند عرب الجاهلية.

### جـ - شعر البلاط :

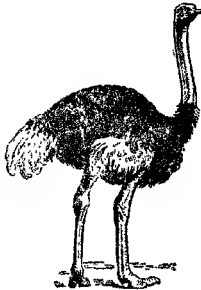
قام التنافس بين البلاطات على مد السلطان وقد استخدم الشعر والشعراء لهذه الغاية ، كما سبق القول ، فالتف الشعراء حول الملوك مادحين مُستجدين . ومن أشهر أولئك الشعراء :

- عبيد بن الأبرص الأسدي (منتصف القرن السادس) : مُجالس المنذر بن ماء السماء بالحيرة .
- طرفة بن العبد البكري : مُجالس عمرو بن هند .
- النابغة الذبياني : مُجالس المنذر بن ماء السماء ، ولننذر بن المنذر ، وأبي قابوس النعمان بن المنذر .
- الأعشى الأكبر البكري : مُجالس ملوك الحيرة وغيرهم .
- أبو ذؤاد الأيادي (منتصف القرن السادس) الذي ولّاه المنذر بن ماء السماء على خيـه .
- المرقش الأكبر (منتصف القرن السادس) : مُجالس الحارث أبي شمر الغساني وكاتبه .
- الخطيمية العبي (انـصـف الثاني من القرن السابع) : الذي امتنـدى كـف كلّ ذي سلطان .

## د - شعر المذاهب الدنيّة والآراء الاجتماعيّة :

لقد مرّ بنا كيف انتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب الى جنب الوثنية . ومرّ بنا أيضاً أنّ المنصر الديني لم يكن له أثر عميق في نفوس الجاهليين ، فكان سطحياً في حوهره ، سطحياً في مقوله ، سطحياً في مظاهره الشعرية . ومن أشهر شعراء المذاهب والتوجيه السلوكي :

- لبيد بن ربيعة العامري . أخذ مظاهر النشاط الروحي في أواخر العهد الجاهلي .
- السموأل بن عادباء اليهودي : يهودي ولكنه لم يهتم بالتعبير عن الأغراض الدينية .
- عديّ بن زيد العباديّ النصراني : شاعر الزهد المسيحيّ .
- أميّة بن أبي الصلت الهفليّ (النصف الأول من القرن السابع) : من حنفاء الجاهليّة بل أفضل للحنفاء الموحّدين .





# الباب الخامس شعراء الأندلسية البدوية

## الفصل الأول

### تأبط شراً - الشنفرى - عروة بن الورد

أ - تأبط شراً

- ١ - تاريخه: ثبت بن جابر الفهيمى عذاه واصل نُسجتْ حوله الأساطير مات نحو ٥٣٠ م.
- ٢ - أدبه: شعر ميثوث في كتب الأدب وفيه رواية حال ووصف أمان لحياة مستردة وتأبط شراً في شعره رحل الأندلسية الجارمة والشخصية القوية والكرم الواسع.
- ٣ - ميزة أدبه: أدبه اعترافى قصصى حائل بالحسوة.

ب - الشنفرى:

- ١ - تاريخه: ثابت بن أوس الأندلسى عاش صعباً مرموقاً بجانب يميز ثم نأوى الى الحيا وقد قُتل في أوائل القرن السادس للميلاد
- ٢ - أدبه: له شعر أشهر ما فيه ولاية العرب
- ٣ - شخصه من خلال شعره: عزة عس، وضمة على مجتمع، وامرأى في صحبة الوحوش والمقار.
- ٤ - ميزة أدبه: حسنة اللفظ في رقة عاطفة وتدفق ملتصق بسدة.

ج - عروة بن الورد:

- ١ - تاريخه: هو ابن ربه عمرو ينهى نسب الى عس. يُعد من الصعاليك الأجواد. توفي نحو سنة ٩٦٠ للميلاد
- ٢ - أدبه: له ديوان شعر طُبع سنة ١٩٢٦.
- ٣ - شخصه من خلال شعره: زحل القبرية
- ٤ - ميزة أدبه: رعة إنسانية، واشراكية سادحة، وحكمة طليعية.

## ١ - تَابِطُ شَرًّا (٥٣٠م)

١ - تاريخه :

هو ثابت بن جابر الفهمي، وفهم إحدى قبائل قيس عيلان المضربة. وقد نُسِبت حوله الأساطير، والمعروف عنه أنه عداء وأنه لصٌّ من أدهم اللصوص وأشدهم فتكاً. ومما يروى عنه أنه تَابِطُ سَكْباً ذات يوم وخرج، فسُئِلَ عنه أمه، فقالت: لا أدري، إنه تَابِطُ شَرًّا وخرج، فذهب كلامها لقباً له. وقد قيل في لقبه هذا غير ذلك. ومما يروى أيضاً أن بني لحيان من هذيل أخذوا عليه طريق جبلي وجدوه فيه ينجي عسلاً، ولم يكن له طريق غيره، فأقبلوا عليه وقالوا: استأسر أو نقتلك. ففكرة أن يستأسر، وصب ما معه من العسل على الصخر، ووضع نفسه عليه حتى انتهى إلى الأرض من غير طريقهم، فصار يبه وبينهم ثلاثة أيام، ونجا منهم، وقد قُتِلَ تَابِطُ شَرًّا في بلاد هذيل ورُمي به في غار، وذلك في نحو ٥٣٠ للميلاد.

٢ - أدبه :

لتَابِطُ شَرًّا شعر ماثوث في كتب الأدب وأكثره في شرح حاله ووصف غاراته وتصوير حياته المتشردة، وهو في شعره رجل الانفرادية الحازمة، والشخصية القوية، كما هو رجل الكرم والجلود الذي يؤثر أضيافه على نفسه. والحياة عنده هزؤٌ بالحياة وتملُّقٌ بها: هي كرامةٌ تُحفظ، ومالٌ يُبذل، وحريةٌ تُقدس، ويدٌ تُبسط، وإطلاقٌ من غير انكفاء، في جوٍّ من الاطمئنان والحدَر، والملاوحي الحازم:

يَا بَسُّ الْجَنِيِّينَ مِنْ غَيْرِ يَوْمٍ      وَتَلْدِي الْكَفَّينِ شَهْمٌ مُدِلٌ  
طَاعِنٌ بِالْحَزْمِ حَتَّى إِذَا مَا      حَلَّ حَلَّ الْحَزْمِ حَيْثُ يَحِلُّ  
غَيْثٌ مَزْنٍ غَايِرٌ حَيْثُ يُجْنَدِي      وَإِذَا بَسَطُوا فَلَيْتُ أَبْلُ

١ - يَابِسُ الْجَنِيِّينَ: هزيل. المُدِلُ: الواثق بنفسه وبعدته.

٢ - الأبل: المصنم الملقب على وجهه لا يُبالي ما نفي

## ٢ - ميزة أدبه :

خشونة في المعاني والمباني ، وتصوير حسي صادق ، ونفس مكسوة بالفاظ ، وألفاظ تراءى فيها العادات والنفسيات ، وسذاجة فطرية حنوة ، وجوّ صحراوي يضطرب فيه حيوان الصحراء ونباتها . وعينها وبرقها ، وتصطبب فيه الشراسة والبرقة ، وتدفق طبيعى على غير نظام ، اللهم إلا نظام الطبيعة العطرنة ، وأوزان مستقيمة ، وقوافل شديدة تتصاعد من خلالها موسيقى الصحراء ، ذلك هو أدب تأبط شرًّا ؛ وهو يروق من حيث يُنفّر ، ويخاطب النفس من حيث يلتصق بالمادّة . هو أدب اعترافي قصصي ملحمي هو أدب النفس والقلب وإن تسربل الأشواك . والتحف بالزّمال والنّبال .

## ب - الشنفرى (القرن الخامس وأوائل السادس)

## ١ - تاريخه :

هو ثابت بن أوس الأزديّ الملقّب بالشنفرى . وقد عاش صعلوكًا ولصًّا مرهوب الجانب لا معتصم له سوى الجبال ، يُغيّر ثم يأوي إليها . يروى ، في ما يروى عنه ، أنه حلف ليقتلنّ مئة رجل من بني سلامان ، فقتل تسعة وتسعين ، ثم احتدلوا عليه فأمسكه رجل منهم عدا . هو أسيد بن جابر ثم قتله ، فحرّبه رجل منهم ، فرفض حميمته ، فدخمت شظية منها برجله فتمتّ القتلى مئة ، وكانت وفاته في أوائل انقرن السادس .

والمرجّح أنه كان من أغرة اجاهلية وآده لسبب ما شبّ خلاف بينه وبين قبيلة الأزد فانتقل الى قبيلة مهم المشهورة لمصوصها . ورأى إذ ذاك أن ينتقم من قبيلته الأزد فراح يغزوها المرّة تلو المرّة ، وقد جاء في الأغاني انه « كال يُغيّر على الأزد على رجله فيمن معه من قهّم ، وكان يُعير عليهم وحده أكثر من ذلك » .

## ٢ - أدبه :

للشنفرى شعر في الفخر والحفاة وأشهره ما يسمونه «لامية العرب» وهي قصيدة

من ٦٨ بيتاً ، وإنها وإن لم تكن ثابتة النسبة إليه في مجملها أو في قسم كبير منها ، فهي تنطق بلسان البادية الأولى وحياة التشرد والعثوان ؛ وقد شرحها الزمخشري<sup>١</sup> وترجمت الى الفرنسية والألمانية والانكليزية .

### ٣ - شخصه من خلال شعره :

القفر والنفس البدوية العزيزة هما مصدر شعر الشنفرى . فحفاف الصحراء ومطاردة الشدائد كراً وقرأ ، والتشكر للمدلة وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وإن جار ، والاكتفاء بالقليل مائة وسكناً ، والصبر على الجوع وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاعة الأيام والقبول بانقصر والغنى ، والارتياح إلى القوس ... وأخيراً الاستسلام الى الضيق طعاماً وغذاء وتفضيل ذلك على القبر الضيق ... هذا هو ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية البدوية . هذا هو الشنفرى .

### ٤ - ميزة أدبه :

لا يختلف أدب الشنفرى عن أدب تأبط شرّاً مائة ونمسا ولزناً علياً وعشونة ألفاظ في رقة عاطفة ، كما لا يختلف عنه تدفقاً فطرياً والتصاقاً بالمادة . وإنه لمن الغريب أن نرى في مثل هذا الصعلوك ذلك الانطلاق النفساني وتلك الحكمة الطبيعية ، وذلك الترف في الاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس . ولكنها النفس العربية ، ولكنها الطينة العربية في تعبيرها الشديد الوطأة ، وفي نبضاتها واختلاجاتها الكريمة الأحاذة على ما هنالك من قسوة وخشونة . فيقول :

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ      سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل  
ولائي كفاي فقد من ليس جازياً      بحسنى ولا في قرية متعل  
ثلاثة أصحاب: مؤاد مشيع      وأبيض إصليت وصفرأ عيطل<sup>٢</sup>

١ - أعجب العجب في شرح لامية العرب . وهناك شروح أخرى ولكنها دون شرح الزمخشري قيمة وشهرة

٢ - الشئج : الشجاع . - الإصبت : السيف الثقيل الماضي . - العيطل : القوس الطويلة المقنى .

## ج - عروة بن الورد (٩٥٩٦)

## ١ تاريخه .

تاريخه غامضُ المعالم ، وهو ابن زيد عمرو ينهبى سبه إلى عيس بن بغض . وهو يعدُّ من الصَّعاليك المُقدِّمين الأجواد ، وكان يُلقَّب عروة الصَّعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أحققوا في غزواتهم . توفي نحو سنة ٥٩٦ للميلاد .

## ٢ - أدبه :

لعروة بن الورد ديوان طُبِعَ في غوتنجن مع ترجمة ألمانية سنة ١٨٦٤ ثم طبعه ابن شنب سنة ١٩٢٦ م .

## ٣ شخصه من خلال شعره :

هذا صعلوك من أشرف الصَّعاليك يعيش لغيره أكثر ممَّا يعيش لنفسه . وينزل كلَّ شيء في سبيل الغير . أما صعلكته فمع حاجةٍ وعن فقر ، وعن رغبةٍ في إغاثة ذوي الحاجة . وهو يعمل ما استطاع العمل ، ويسعى بنشاطٍ في سبيل أهدافه وليبلغ عذراً أو يُصيبَ رغبةً . « وهو لا يهرب الموتَ في سعيه بل يراه أجملَ من أن يعجزَ عن دفع النوازل وإبعادها عن الناس .

## ٤ ميزة أدبه .

أدب عروة أدب إنسانيٍّ في عاطفته وغاياته وإن كان ميكافلياً في أساليبه . وهو يروقنا بعاطفته ولا سيما نزعتَه الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحدب على ذوي اليأس . أما لغته فأقلُّ خشونة من لغة غيره ، تتساق مع نعومة عاطفته ، وأما حِكْمَتُه فطبيعيةٌ مستحبةٌ وإن لم تخلُ من شراسةٍ في ما تدعو إليه من أساليب التحصيل .

## مصادر ومراجع

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . - طعة دار الثقافة - بيروت ١٩٥٥ .  
 الشعر والشعراء لابن قتيبة .  
 خزائن الأدب لعبد القادر البغدادي - القاهرة ١٢٩٩ .  
 المقفليات للمفضل الضبي بيروت ١٩٠٩  
 حرجي زيد : تاريخ آداب اللغة العربية - طبعة دار احيل بيروت ١٩٨٢ .  
 العرب قبل الاسلام القاهرة ١٩٠٨  
 يوسف خنيف : الشعراء الصعاليك - دار المعارف عصر ١٩٥٩ .

Fresnel: Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme - Paris, 1836

Encycl de l'Islam.



## الفصل الثاني المَلِكُ الضَّئِيلُ أَمْرُو الْقَيْسِ (٥٠٠ - ٥٤٠)

١ تاريخه : وُلد امرؤ القيس بجدة نحو سنة ٥٠٠ ، وكان أبوه ملكاً على بني أسد ، وإذا لم يسر مسيره أمام الملوك طرده أبوه فشرَّد وتبدَّل وحدث أن ثار بهو أسد بملكهم وقتلوه ، فذهب الشاعر يطلب الأثر واسترجاع السلطان ، وراح يحشد حواريه القشاش المناصرة ، ويُعير على بني أسد انلوة تلو الغارة ؛ وعندما استنجدوا بالخذلر الثالث ملك الحيرة توجه إلى الفساسة يريد الاستجداد بقبصر الروم ، فماد من القسطنطينية بالحنينة وبالمرض الذي أودى بحياته نحو سنة ٥٤٠ .

٢ - أدبه :

١ - الديوان : لامرؤ القيس ديوان طُمع أولاً في ماريس ثم طُمع في عماري ومصر . وأشهر ما فيه والمعلقة ، وهي من أصح ما بقي له ، ومن أكثر ما في ديوانه تمجيداً لحاله ونفسيته . وشعره تبيان . قسم بلنهره ونشرده ، وقسم يسقطه وطلب ثأره .

٢ - سبب نظم المعلقة ومضمونها : يوم دارة جلجل هو السبب المباشر لنظم المعلقة ، وفيها ثلاثة أقسام : الوقوف بالطلول ، وذكرى اللقاء يوم دارة جلجل ، ولوصاف لمشاهد مختلفة : الليل ، الوادي ، الفرس ...

٣ - تحليل المعلقة :

- في الوقوف بالطلول مأساة الصحراء الكبرى وصراع اللقاء والعتاء .

- في النلوة انصراوية حبيبة بدائية مدمومة وسداحة فطرية عذبة .

- في مشهد دارة جلجل تغور صورة الصحراء في صورة احياة الملكية .

- في مشهد الليل مشكلة الزمان .

- في مشهد الذئب صراع الحياة والموت .

- في مشهد الفرس صورة الخاهلية في حيوتها وصراعاتها

٣ - امرؤ القيس شاعر الوصف والقصص :

في شتى المشهد وصف وجدبي ، وتصوير تشخيصي ، وتجسيد لشعور ، وتضخيم ، وإيجاز إيجائي ، وابتكار تشبيهي .

٤ - فن امرؤ القيس في معلقته :

نحو للعلمة من الوحدة التأليفة ، والتسلسل الموسيقي ، وهيكلته البناء .

الشعر شديد الصلة بجذابة صاحبه

... سرّ الجمال في الجمال الذي يصور ويلون ويصمم ويحيي .

- نيل خلاقي ، حسي ، مادي ، يعتمد التشبيه والاستعارة .

- موسيقى لفظية وإيقاعية

١ - تاريخه :

١ - أصله وقبيلته : هو جندح بن حجر الكنديّ الملقّب بامرئ القيس ، يُقال له « الملك الضليل » و« ذو القروح » ، وُلِدَ بنجد نحو سنة ٥٠٠ من أصل يَمَنِيّ . وكان أبوه ملكاً على بني أسد وغطفان ، وأمّه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب والمهلhel الثعلبيّين . فنشأ نشأة ترف ومجون ونظم الشعر الإباحي ، فردعه أبوه فلم يرتدع ، فطرده من بيته ، فراح يحوب الأعاق في عصابة من الذؤبان والشداذ ، الى أن ثار بنو أسد بأبيه وقتلوه . فهب امرؤ القيس يحاول دعم ذلك العرش المنهار ، عرش كندة ، واسترجاع جانب من ميراثه الضائع ، كما يحاول الاثثار لدم أبيه .

٢ - اغاويلات الفاشلة : حلف امرؤ القيس لا يغسل رأسه ولا يشرب خمرأ حتى يدرك ثأر أبيه يبيي أسد ، وقال : « ضيّعي صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكرٌ غدأ ، اليوم خمر وغدأ أمر . » وأخذ يجمع العدة ويستنجد القبائل ولا سيما أحواله بكر وتغلب ، ثم سار الى بني أسد فأوقع بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ، فطلبوا أن يقدّوه بمئة من وجوههم ، وعندما أبى ذلك تحدّثت عنه بكر وتغلب ، وطلبه المنذر الثالث ملك الحيرة لموجدة كانت في نفسه على قوم كندة ، ففرّ امرؤ القيس وسار في القبائل يطلب النجدة في غير جدوى ، وقد سمّي لذلك « الملك الضليل » . أحياناً قرّ رأيه على أن يتوجّه الى تيماء فيطلب من السموأل كتاباً الى الحارث بن سُرّ العسائيّ علّه يتوسّط لدى قيصر الروم بالقسطنطينيّة ، فيكون له مُنْجِداً ، ويوعز الى حلفائه من قبائل العرب أن يمدّوه بالرّجال .

توجّه امرؤ القيس الى السموأل واستودعه دروعاً كان يتوارثها ملوك كندة ثم غادر تيماء وشخص الى القسطنطينيّة يريد القيصر يوستينيانوس ، ورافقه في مسيرته الشاقة عمرو بن قبيّة ، أحد بني قيس بن ثعلبة ، وكان من خدَم أبيه ، وقد ثقّلت عليه السيرة ، فشكا وبكى ، وقال لامرئ القيس : « غرّرت بنا » ، فأجاب الشاعر بقصيدة شجّع فيها صاحبه ، ووصف أحوال تلك الرّحلة . ولَمّا انتهى الى القيصر أكرم وفادته ووعدّه بالمدد . ولكنّ الآمال لم تتحقّق ، فقفّل امرؤ القيس يائساً ، وفيما هو في الطريق تشقّى فيه داء كالجندريّ ، فتفرّج جسمه كلّهُ ، ومات نحو سنة ٥٤٠ ، ودُفِنَ في أنقرة إحدى مدن الروم ، وسمّي لذلك « ذا القروح » .



٢ - أدبه :

١ - طبقات ديوانه ومضمونه : لامرؤ القيس ديوان شعر طبع أولاً في باريس ثم في يومية فحصر واهتم له أخيراً حسن السندوي فجمعه ورتبه وعلق حواشيه وطبعه بمصر سنة ١٩٣٠ ، وكانت هذه الطبعة أساساً للطبعات اللاحقة . وشعر امرؤ القيس قسبان : قسم للهوى وتشرده ، وقسم لسطحيه وطلب ثاره ، وهكذا نجد فيه صورة كاملة من حياته وحلقه : ففيه عزة الملك ، وتبذل الصعلوك ، وغربة الماجن ، وحماية الثائر ، وشكوى الموتور ، وذلة الشريد .

وأشهر ما في ديوانه المعلقة ، وهي قصيدة طويلة تقع في نحو ٨٠ بيتاً من البحر الطويل . كان لها شهرة واسعة ، وسارت في الناس مسير المثل حتى قيل : « أشهر من قفا بك » ، وهذا مطلعها :

قفا نَبْكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ الْكَلَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمِلِ

٢ - سبب نظم المعلقة ومضمونها : كان يوم دارة جُلُجُلِ السبب المباشر في نظم هذه المعلقة وقد التقى الشاعر بعنيزة بنت عمه شُرَحْبِيلِ حارِجَةً مع من احتمل من الحَيِّ في جماعة من النساء والفتيات ، فنحرن ناقته ، ثم راح ينظم القصيدة واصفاً ذلك اليوم المشهود وما أتبع له فيه من لحظات الحب ومتع الغرام . ومُضِيّاً الى ذلك كله من الذكريات ما تيسر له حتى كانت المعلقة سلسلة أحداث وأوصاف ، وكان يوم الغدير ، أي يوم دارة جُلُجُلِ ، واسطة عقليها ونقطة دائرتها . وهكذا كانت المعلقة ثلاثة أقسام رئيسية : الوقوف بالطلول ، وذكرى اللقاء يوم دارة جُلُجُلِ ، وأوصاف شتى لمشاهد مختلفة تراعت له في حله وترحاله : الليل ، والوادي يعوي فيه الذئب ، والفرس ، والصيد ، والبرق والسيل ...

٣ - تحليل المعلقة : معلقة امرؤ القيس أشهر المعلقات ، وامرؤ القيس في نظر الأقدمين أمير الشعر العربي ، ورأس العمود الشعري ، وقد قيل فيه أنه أول من أجاد القول في استيفاف الصحب ، وبكاء الديار ، وتشبيه النساء بالظاء والمها والبيض ،

وفي وصف الخلل يقيّد الأوبد . وترقيق النسب وتزريب مآخذ الكلام ، وتجويد الاستعارة وتنويع التشبيه

١ - في الوقوف بالطلول وذكرى الحبيب مأساة الصحراء الكبرى ، وصراع البقاء والبقاء على جبهاتها - وصفحة واسعة من صفحات الحياة القلبيّة في انتجاع الكلال والماء . والظعن والارخال ، وجمع الغلّد المشورة هنا وهناك ، حيث كان الحيّ والأحياء ، وحيث درج الحبّ طفلاً . وشبّ يافعاً . إنّ في المشهد حلم الصحراء الذي يطلق من أغوار النفس وتغيّب أواخره في الآفاق التي تعرق في آفاقها الحدود .

٢ - وما هي ذي الرسوم تبجلي شيئاً فشيئاً في مخبلة الشاعر ، وتطفو على سطح نفسه ، فترسم حدودها على الرمال المتوجّة في سقطة اللوى بين الدخول فحومل فتوضّع فالمقراة ، وما هي ذي الرياح تسج عليها الرمال ذهاباً وإياباً ، في حركة منتظمة فتكشف الواحدة ما دفت الأخرى ، وإذا بحر الآرام كحبت الفلفل ، وشجر الطلع الصحراوي يتكئ عليه الشاعر وقد فاضت دموعه وبّلت محمّله ، فكأنه ناقد الحنظل تنحدر الدموع من عييه الحذاراً . وكأنّ اللوحة الصحراوية قد ظهرت خطوطها في وصوح ودقة يذوب الشاعر في مسرحها أسمى ولوعة . وفي اللوحة حسية بدائية ملموسة ، وسداجة فطرية عذبة :

فَمَا تَبَتْ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ      سَقَطَ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ  
فَتَرَصَّحَ فَأَلْمِقِرَةً .      لَمْ يَعْزْ رَسْمُهَا      لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جُتُوبٍ وَشَمَالٍ  
كَأَنَّيْ عِدَّةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا      نَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلٍ ٢

٣ ثم ينتقل الشاعر من موطن الجفاف واللوعة الى دارة جلجل حيث تنجلي حياة ترفه ، ونزوات فوه ، فتفور صورة الصحراء في صورة الحياة الملكية ، لا يتراعى منها إلا بعير على ظهره فتاة حسناء . والشاعر يقنم الخدر في حرّاة ، ويُرقّ في وصف عُميرة ، يعود الى البادية . ويختار أجمل ما فيها بياضاً ، وعينا ، وجيدا ، وشعراً ،

١ لم يعز رسمها : لم يمسح أثرها . والحبوب والشمان ريم الحبوب والشال .

٢ تحمّلوا : ارتحالوا .

وبنائاً، فشبّهه بالبيضة، ووحش وجرة، وجيد الرّثم، وقنو السخلة، ومساويك الإسحل. إنه مشهد الجلال البدوي الغارق في المادية والمحسوسية الفطرية، وموقف الإباحة الملكية :

مُهْفَهْمَةٌ يَبْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَاهُهَا مَصْفُولَةٌ كَالسَّجْنَجِلِ<sup>١</sup>  
تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَسِي بِمَظَرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُطْفِلٍ<sup>٢</sup>  
وَقَرَعَ يَرِينُ الْمُتَنُّ أَسْوَدَ فَاجِحٍ أَثْبَتِ كَحْنُ الثُّحْلَةِ الرُّمْتَكِلِي<sup>٣</sup>

٤ — وما هي ذي صورة الليل القائمة بعد صورة النهار الوضّاح، وما هذا البعير يظهر من جديد، وإذا الليل بعير متمط متناقل، يرك على الشاعر ويعصره عصراً، وإذا هو في ضيقته يراقب النجوم، وإذا النجوم في مكانها ثابتة، والليل طويل لا ينتهي - والهم طويل لا ينقضي، وإذا في ذهن مرئ القيس مشكلة الزمان الذي تدور بحومه حول الأرض — على ما يعتقد القدمون — ولا تدور في نظره الذي توقفت فيه حركة الزمان. وفي المشهد سداجة الفطرة، وتلفس البداءة :

أَلَا أَتَاهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ، أَلَا أَنَجَلِي بِصُبْحٍ. وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمَلٍ  
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَانَتْ نُحُومُهُ بِأُمْرَاسٍ كَتَانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ

٥ - وما هي ذي مشاهد الملك الضليل قبل مقتل أبيه : وإذ يعوي فيه الذئب، وبرق ومطر وسيل، وجواد كهبوب الريح... أمّا الوادي فكجوف العير، لا شيء فيه ينفع، ولا شيء فيه يبهج العين. إنه وإذ أجرد موحش، يعوي فيه الذئب عواء الجوع والشقاء، ويصغي إليه الشاعر إصغاء البؤس والبلاء. فقد طرده أبوه، وتتركزت له الجاعة، وتقطعت النياط بينه وبين الأهل والعشيرة، فهمام في هضاب نجد، وأوغل في القلوات، يعيش عيشة الأعراب ويتبع منهج الصعاليك : وما هوذا يصغي لصوت الذئب في الوادي المفقير، وقلبه يصيح صياحه، ونفسه تن من ضيق. إنها ذئبان عاويان في وجه الزمان. هذا عواؤه في حناياه، وذاك عواؤه في حنايا الفضاء :

١ - للمهمة - الضامرة غير مفادة : غير مسترجة النعم والسججل - المرّة.

٢ - لأسيل : لغة الرقيق. تصوره... أي يمين عمود العطف.

٣ - الفزع الشعر أثبت : غزير. — قنو السخلة لتشكل عتقود السخلة الكثير العروع.

كِلَانًا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرِثُ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يَهْزِلُ

وأما الفرس فرهيق الشاعر في سرّائه وضرائه ، وقد أكثر الشعراء قديماً من نعم الفرس والثاقه بالسرعة ، وذلك أنّ السرعة أمرٌ لا بدّ منه لمن يجتاز الصحاري والقلوات حيث لا ماء ولا غذاء ، وحيث الأرض حرار ورمال ، والسماء نيران وجفاف ، والمسافات شاسعة تمتدّ كلّها امتدّت على صفحتها النظر . والسرعة أمرٌ لا بدّ منه في مجتمع يكون أبداً غازياً أو مغزواً ، تنقّص فيه القبيلة على القبيلة ، وتُساوق النساء والمواشي ؛ وهكذا فعامل الزمن السريع من مقتضيات الحياة في الجاهلية .

وفي وصف الفرس صوراً جاهليةً مستوحاة من حياة البادية ، هنا «جُلْمُودُ صَحْرِ يَحِطُّهُ السَّبِيلُ مِنْ عَلَيَّ» ، والمطر في الصحراء عواصف هذارة تتحوّل بسرعة إلى سيول غدارة ، يعقبها الجفاف ومع الحفاف العطش ؛ وهناك «أبطلا ظمي ، وساقا نعمة ، وإرخاء سرحان ، وتقريب تنفل» ... وكلّ ذلك من اجتمع الحيواني في البوادي ؛ وهناك الإعجاب البدائي الذي ينقلك إلى عالم الطفولة الحلوة .

٦ - نلمس في هذا كله روح امرئ القيس المتوقّفة الميمّرح التي تألف العذاري وتحرّهن المطايا ، وتباهي بالفحش في خلد انهفهة البيضاء ذات الدلال والتعم ؛ ونلمس أيضاً روح الضليل المشرّدة التي ترافق الذئب في القلوات ، وتهم مع الفرس في المفاوز كما نلمس عالم الجاهلية في جوّه الماديّ القاسي ، وحياته القبلية البدوية ، وفي نعيمه الحضريّ النائر على التقاليد والعرف ، وفلسفته الفطرية ومعارفه البدائية .

• • •

### ٣ شاعر الوصف والقصص :

١ مشهد الطلول : في معلّقة امرئ القيس عدّة مشاهد وصيعة أسلوبية فيها هو أسلوبه في سائر شعره . هنالك مشهد الطلول ، وقد «وقف فيه الشاعر واستوقف ، وبكى واستبكى» . إنه نظرة وعبرة : نظرة مُرسلة في طوايا الماضي الذي أحيته رؤية آثار المنزل والخبيب ، وعبرة مُرسلة من عين حرّى على قلب مُتنبّه عليها تشني الجوى ، فلا

تشني من جوى ولا تُخفُفُ من ألم . والنظرة سريعة مقتضية تُعنى بتحديد الموقع ، وتمثّل الأشياء في صُورٍ ماديةٍ محسوسة في غير عمق ذهوليّ ، وفي غير اختراق لسطح الظاهرة . والشاعر في هذا المشهد صاحب معاناة حقيقيّة يحاول الإلام بها للماضى وجدانيّاً ولكنّ جناحه لا يقوى على الانطلاق فيقع في المادّة ، وإذا الوجدان «عبرةٌ مُهرقة» ، وإذا الشاعر محدودٌ محدودُ الأشياء والزمان والمكان ، وإذا هو طوليّ في ظاهره ، عذب في سداجته .

٢ . مشهد الحبيبة : وهناك مشهد الحبيبة يصفّها امرؤ القيس وصفاً غزليّاً كان فيه غير مقدّمة لغزل عمر بن أبي ربيعة . وقد تجاوز إليها أحراساً ومعشراً يصمرون له الشرّ ، وقصّ لنا كيف وصل إليها ، وذكر الحوار الذي دار بينه وبينها ، وراح يحدّد أوصافها ، وإذا هي لطيفة الحصر ضامرة البطن ، تلتصق ترائبها القناع المرأة المصقولة ، وهي بيضاء تشوبُ بياضها صفرةٌ وقد غذاها ماء عذب صاف ، وهي في ذلك أشبه بدرّة فريدة في قعر الماء لا تصل إليها الأيدي ، أمّا خدّها فأسيل ، وأمّا عيناها فأشبه عيون ظباء وجرة أو مهاها اللواتي لهنّ أطفال . والفرع منها أسود فاحم طويل يشبه وقو النخلة المتعكّل .. وهكذا يمجّض الشاعر في الوصف مستعرضاً الأشكال والألوان ، في قصص وصفيّ ، وحوار قصصيّ ، ومعتمداً التشبيه الحسيّ المادّي الذي يظهر فيه لكلّ شيء شيء يشبهه . وهو في عمله أشبه بالنحات الذي يقمّ لحبيته تمثالاً من مرمر ، فيعالجه بالإزميل ضربة هنا وضربة هناك في غير التزام ولا تقيد ، ويضعهم حقائق الواقع تضخيماً يتمشى والمثاليّة لدى الجاهليّين . وهكذا كان المشهد مشهد رصف أوصاف ، وإقامة مقارنات ، في نزعة بدائية حلوة ، وفي مادّيّة سطحيّة ملموسة .

٣ . مشهد الليل : وهناك مشهد الليل ، ليل الموم والأوجاع النفسيّة .

وامرؤ القيس إذا عرض الليل راح يذكر ويمثّل ، وإذا الذكريّ نوقظ الموم ، وإذا الموم تثير العيون ، والعيون ترسل العبرات ، وإذا الليل يمتزج بالموم فيمتدّ سرادقاً ضخمًا من ظلمة وديبور ، سرادقاً لا أول له ولا آخر ، سرادقاً هو كالجمل الذي يُردف الأعمجاز وبنوه بالكلكل ، فيضغط على نفس الشاعر وقلبه ويجعلها أنّه حافلة بالأس والأسى ، وصرخة من صرخات الاسترحام . ويمجّض الشاعر في وصفه وإذا أنت أمام

وصف حيّ قد تغلّغت فيه حياة الشاعر وعواطفه ، وانطلقت في ألفاظه وقوافيه غائمة الأجواء ثقيلة الوطأة .

وأنت أمام وصف وجدانيّ فيه من الوحدة رقة وعاطفة بّاضة ، وقد استحالت سدول الليل فيه الى سدول همّ ، وامتزج ليل النفس بليل الطبيعة ، وانتقل الليل من الطبيعة الى النفس . وانتقلت النفس الى طلمة الطبيعة .

وأنت أمام وصف تصويريّ تشخيصيّ يجعل من الليل شخصاً يقسو على الشاعر ويحطّم يقسوته كلّ أمل ، وهكذا فالصورة في شعره تجسيد للشعور في مادة حسية ملموسة مستقاة من البيئة الجاهليّة . وهذا التجسيد نصفيّ يريك واقع الأشياء مكثراً في غير تحليل ولا تفسير .

وأنت أمام وصف موجز يعتمد اللمح اعتاداً ، فليس ليل إلا أبيات معدودة ولكنها أبيات إذا أجبت فيها النظر انفتحت أمامك أجواء وأجواء ، وأبصرت الجزئيات والتفاصيل .

#### ٤ - مشهد الفرس . وهنالك مشهد الفرس رفيق الحياة في السراء والضراء

وامرؤ القيس إذا عرص للفرس راح يذكر ويتمثل ، وإذا هو أمام الفرس منفعل ينطلق في مبادين الذكري . وكلّما ذكر ارداد افعالاً ، وهو نظرة منتقلة من فوق الى أسفل ومن أسفل الى فوق « متى ما ترقى العين فيه تسهل » ؛ وهو ريشة ترسم القدّ والسرعة ، والكركر والعزّ ، واللون والقوّة ، وما الى ذلك مما يجعلك أمام مشهد من مشاهد التمثيل الجسديّ ، أمام مشهد من مشاهد الحياة المنبثقة من عاطفة الشاعر وصدق شعوره ، ويجعلك تلمس الدقّة . والإيجاز الإيحائيّ . وصدق التصوير في سذاجة الغلوّ .

وتلمس في وصف امرئ القيس شذّة إعجابه بعمره حتى لثراه يريد تمثيل الإعجاب بتكديس النعوت وتكثيف المادة التشبيّهة والإيغال في إلهاب الأبيات والألفاظ : وهو في وصفه يستعرض أجزاء الفرس في غير تساقق وتلاحق . ذلك أن المشهد عنده أجزاء مصقولة مصوّرة خالية من هيكلية البناء .

وكما وصف امرؤ القيس حبيبته وصف فرسه ؛ فهو فرس ماضٍ في السَّير يقيّد  
الوحوش بسرعة لحاقه لها ، عظيم الألواح والجرم ، عجيب في حيويته حتى ليجتمع الكرّ  
والفرّ والإقبال والإدبار جميعاً في ذاته الفرسية :

مِكْرٌ مِقْرٌ مُقْبِلٌ مُذِيرٌ مَعَا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَلَهُ السَّبِيلُ مِنْ عُلَى

وهو أحمر اللون الى سواد ، مكثّر اللحم مُنْمِلِس الصُّلب حتى ليزلّ لبُذُه عن منه كما  
يَزَلُّ الحجر الصَّب المطر ؛ وهو « على الذَّبَلِ جَبَّاشٌ » تغلي فيه حرارة نشاطه على دبول  
خلقه وضمُور بطنه وكان تكسّر صهيله في صدره غليان قدر .. ويذهب الشاعر في  
التقاط الألفاظ والتعابير كلّ مذهب ليوضح فكرة السرعة في ذهن القارئ ويمثّلها  
شديدة الأثر في نفسه ، وكأنّي به ينحت تمثاله الفرسيّ وفي خياله شريط سينمائيّ تتلاحق  
فيه صور الإمبراعات الحسية في الكيان البدويّ ، وتتضحّم فيه الخطوط والظلال  
تضخّماً بدائياً يحسب فيه البدويّ روعة التعبير التصويريّ ، وجمال الصورة التعبيريّة .

٤ خلاصة القول في وصف امرؤ القيس : هكذا يأتي الوصف عند امرؤ القيس  
صوراً إثر صور ، والهَمُّ كلُّ الهَمِّ في تكثيف المادّة المعبرة في إيجاز تلميحٍ عيّ الإيحاء .

وهكذا امتاز امرؤ القيس في وصفه بالابتكار التشبيهيّ فحدّ وراء المادّة التشبيهيّة ،  
وطلب المشبّه به في يشته ، ونقله من الواقع المحسوس نقلاً دقيقاً ، بجسّد انشبه تجسّداً  
تمثليّاً ، ويظهره إظهاراً صادقاً وإن مضخّماً .

وامتاز امرؤ القيس بالقصص والجوار ، فعمد إليهما في مغامرات غرامه وصيده  
وقصّ عليهما شتى الأحداث التي جرت في تلك المغامرات ، وكان في قصصه  
وجملانيّ التّزعة يُعنى عنابة شديدة بالأنّحية الوصفية ، ويكثر من الثّبوت والتشبيّهات  
شأنه في الوصف المجرد وهكذا عندما أورد لنا في المعلقة خبر الصيد لزم جانب  
الانقضاب في السّرد ، وعمل على التمثيل الحسيّ ما استطاع الى ذلك سبيلاً . قال :

فَعَنُّ لَنَا سِرْبٌ كَانَ نِعَاجُهُ عَذَارَى دُؤَارٍ فِي مَلَأَ مُدْبِلِي

إنه قطع من بقر الوحش كأنّ إنثاه نساء عذارى يطفنّ حول الثّصب في ملاه طويلة

الدُّبُول . وقد شبه الشاعر المَها في يياض ألوانها بالعذارى لأنهن مصونات في الحدود لا يغير ألوانهن حرَّ الشمس وغيره ؛ وشبه طول أذيالها وسبوغ شعرها بالملء المذليل ، وشبه حسن مشيها بحسن تبخر العذارى في مشيهن .

ثم قال :

فَأَدْبَرْتُ كَالْحَزَنِّ الْمُفْصَلِ بَيْنَهُ  
بِجِدِّ مُعِمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُحَوَّلٍ

لقد أبصرت النعاج الفارسَ وفرسه ، فأدبرت كالحزَنِّ الجماني الذي فصلَ بينه وبغيره من الجواهر في عتق كريم الأعمام والأحوال . وقد شبه الشاعر بقر الوحش بالحزَنِّ الجماني لأنَّ طَرَفَهُ أَسودَ وسائرُهُ أبيض ، وكذلك بقر الوحش تسودُ أكارعها وخدودها وسائرُها أبيض ؛ وقد شرط كونه في جِدِّ مُعِمٍّ مُحَوَّلٍ لأنَّ الجواهر في مثل تلك القلادة أعظم منها في غيرها ؛ وشرط كونه مَفْصَلًا لَتَفْرَقَهُنَّ عند رؤيته . وفي هذا كَلَمَةٌ تصويُرُ حسيَّ بضع السرد في أشكاله وألوانه ؛ وفيه إيجازٌ إجماليٌّ ، أو قلَّ لُحْجٌ تبرز من خلال كلماته وإشاراته القليلة صورة كاملة توتسم في التخيُّلة أو تسلماً مادياً ذا شُعابٍ وامتدادات . وفي كلام امرئ القيس إلى ذلك كَلَمَةٌ تقيدية تتجلى أحياناً في تخصيص المشبه به وحصره في حالة معينة ، فهو لم يقل مثلاً : « فَأَدْبَرْتُ كَالْحَزَنِّ » ، ولكنه قيَّد الجزع بحالة كان فيها الحزن مَفْصَلًا ، وكان في قلادةٍ معمٍّ مُحَوَّلٍ .

وبعد البينين السابقين عاد الشاعر إلى فرسه وسرعة عدوه ، وإذا بالمقدمات والمتخلفات من قطع البقر الوحشيَّ مجتمعاً بالنسبة إلى سرعته التي لا تدع للطَّرف محال التمييز والتفريق . وبمقضى الفرس فيوالي بين ثور ونعجة من بقر الوحش في طلق واحد ، ولا يعرق عرقاً يغسل جسده لشدة نشاطه وفرط قوته . وهكذا ينتهي المشهد فجأة ، ويفهم أنَّ الفارس صاد ثوراً ونعجة في جولته تلك ؛ وهكذا يورد الشاعر قصبة صيده في خمسة أبيات تاركاً للسَّامع أو القارئ أن يسلسل الأحداث ، ويردَّ كلَّ مسبب إلى سببه ، ويعلق كل أصل بفروعه .

٤ فن امرئ القيس في معلقته :

١ . تخلو قصيدة امرئ القيس من البناء الشامل ، فال موضوعات شتى ، والغدوف



في كلِّ قسم منها غير واحد ، ومن ثم فليس هنالك وحدة تأليفية تعبر عن وحدة المعاناة ، ولكن هنالك امرؤ القيس في شخصيته المزدوجة ، وفي سلسلة ذكرياته التي يتكوّن منها بعض حياته .

٢ - ويخلو كلُّ جزء من أجزاء القصيدة من التسلسل المعنوي ، ففي وصف الليل مثلاً تكلم الشاعر على هول الليل وامتداده ، ثم خاطبه ، ثم عاد الى طوله وجمود كواكبه . ومرجع هذا الاضطراب الفكري الى رواية الرواة الذين روى كلُّ منهم الأبيات على هواه ، ثم مرجعه الى الفن الغنائي الوجداني نفسه الذي لا يضبطه نظام بل يسير مع الحياة في تنزيات متباعدة ، أصف إلى ذلك أن الشاعر جاهلي تغلب البداءة فيه على عمل العقل ، وأنه مغرم بالصورة يقتنصها ويُبنيها حينما تقع له في غير ما نظر إلى نظام البناء .

٣ - وقصيدة امرؤ القيس شديدة الصلة بحياته ، يصوّر كلُّ جزء منها جزءاً من تلك الحياة ، ولهذا تعددت الحالات العاطفية فيها وكانت صادقة ، صريحة تجري في غير اعوجاج ولا تمويه . إنها باكية أمام الطلول ، متوتبة مضطربة في خلدن عزيزة ، كالحلة في طلعة الليل ، مشرقة فياضة أمام الفرس . وأي شيء أدل على دفء الحياة وعلى الخضوع اليائس لأقدارها من قوله : « وان شغائي عبرة مهراقة ... ؟ » وأي شيء أدل على فيض الحياة من قوله : « أغرّك مني أن حبلك قاتلي ... ؟ » وأي شيء أدل على انقباض الحياة من قوله للذئب : « ومن يحترث حرتي وحزرك يهزل ... ؟ » وأي شيء أدل على فيض الحياة من قوله في وصف الفرس : « مكرّ مقرّ مقبل مديبر معاً ... متى ما ترق العين فيه تسفل ... ؟ » .

٤ - وسرّ الجمال في قصيدة امرؤ القيس إنما هو في الخيال الذي يُصوّر ويُلوّن ، ويحسّم ويُعبي . إنه خيال خصب لا ينضب له معين ، فهو يتتبع المشاهد ويحاول أن ينقلها نقلاً دقيقاً ، ويُعمن في التصوير إمعاناً وكأني بالشاعر راضٍ بكل الرضى عما يفعل ، معجب بصوره وكثرتها وتنوعها ، وهو لا يسير فيها على نظام الرصف والبناء بل على طريق القوضى ، وهكذا فالصورة لا تتكامل عنده عن طريق النمو والتطور ، بل عن طريق العناصر المنثورة هنا وهناك في غزارة لا تخلو من تكرار .

٥ - وخيال امرئ القيس مخلّاق يهوى الجديد من الصور كما يهوى تجديد الموروث منها ، فهو أول من قيد الأوابد سرعة الخيل ، وشبه المرأة بيضة الحدر ، وزئانبها بالمرأة . وشعرها بعناقيد النخل ... وهو صاحب الوثبات الخيالية التي تنسج مع الرياح رسوم الدّيار ، وتنيط الشفاء بالدمعة المهرقة ، وتقطرُ الحبي المعلن من شفتي عتيّرة ، وتقسم الفؤاد الهيان إلى نصفين : نصف قتل ونصف مكبل بالحديد ...

٦ - وخيال امرئ القيس خيال حسيّ ماديّ يعالج المادّة الجاهلية صورَ جبال ورواق ، وهكذا فرسوم الدّيار ميدان تنسج عليه الرياح صورة الصراع بين البقاء والقضاء ، والشاعر أمام تلك الرسوم كأنه ناقد الخنظل ، يعالج انفعال نفسه ودموعه ولا يجد صورة أشدّ وأدقّ تعبيراً من مشهد ناقد الخنظل . ولا يتأتى امرؤ القيس عن ذكر بحر الآرام الى جانب دموعه المنهرة ليتمّ المشهد الحسي الصحراوي . وهكذا يمضي في أوصافه المادية من شحم الناقة الخريري ، الى الترائب المصقولة كالمرآة ، الى عيني وحش وجرة ، الى الشعر الأبيض كفقو النخلة ، الى الوادي الذي يشبه جوف العير ، الى غير ذلك ممّا هو كثير . وهذه الصور الحسية تقوم أكثر ما تقوم على التشبيه والاستعارة وهذا التشبيه ماديّ في ركنه الثاني ، أعني المشبه به ، حتى إذا كان الركن الأول غير ماديّ ، ذلك أنّ الشاعر البدائي يفسر كلّ شيء بالظواهر التي تحيط به بعجزه عن التفسير العقلي التجريديّ .

والتشبيه عند امرئ القيس مُفرد في غالب الأحيان ، وقد يرد تمثيلاً مركباً كما في قوله «كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علّ» . والشاعر يتزعّج في تشبيهه منزع الأداء الدقيق ، وإن لم تقم المعادلة في الحجم والضخامة بين المشبه والمشبه به . وهكذا فإننا نلمس عند شعراء الجاهلية عابثتهم بالصناعة العنية ولكنها صناعة قريبة الى الطبع ، بعيدة عن الكلفة ، بمسوحة السلاجة العذبة .

٧ - وامرؤ القيس مغرم بالصورة المتحركة الخافلة بالحياة ، ولا سيما في وصف الفرس ، والحركة عنده أنواع ، فهي تارة اندفاق حارف كالسيل في المنحدر ، وتارة انزلاق خاطف على الصحرة الملساء ، تارة جيشان كغلي للرجل ، وطوراً تجتمع لشي أنواع العدو ... إنها الحركة التي يتعشقها الإنسان ولا سيما إذا كان مطرباً بدائياً ، والتي تدلّ على الحيوية والنشاط وهما من مفضلات الناس في كلّ زمان ومكان .

٨ - - والى جانب هذا كله نجد في شعر امرؤ القيس موسيقى لفظية وإيقاعية ترافق المعنى في شتى أنوائه ، فهي ثقيلة بثقل الليل ، ومديدة بامتداده . وهي مشرقة ضاحكة في خدر المَهْمَهْمَة البيضاء التي « تصدّ وتبدي عن أسيل ، وتتي ... » ، وهي كَرَارَة فَرَارَة مع الفرس ، زَلَالَة ، جَبَاشَة ، سَحَابَة في عنوه ، وهي جميلة ساحرة إلا في بعض المواقع حيث يلحّ الشاعر الى ألفاظ ذات حروف متنافرة كالمتعشكّل ، أو الى إقواء في القافية كما في قوله « ونصف في الحديد مكبّل » .

٩ - وأخيراً نجد في معلقة امرؤ القيس أسلوب القصص والحوار ، في الوهميّة واعترافيّة ، حاليتين من كلّ تحفّظ أو مداورة . إنها بدائية الفن لفنّ ، ونمهد للطريق التي اتبعها بعد الملك الضليل شعراء الإباحة من مثل عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل في عهد بني أميّة .

من هذا كله يتجلى لنا أنّ امرؤ القيس رائد الوصف الثقلي المادّي في الأدب العربي . ومرجع براعته إلى دقة نقله ، وإلى تلك الوجدانية التي تُطلّ من وراء المادة إطلالة صدق وسذاجة وعدوبة . ولئن رفعه القاد الأقدمون ومن أخذ بعدهم من المحدثين إلى أعى الرُتب ، ولئن قال ابن سلام انه « سبق العرب الى أشياء ابتدعها » ، ولئن قيل انه « أول من وقف واستوقف ، وبكى واستبكى » و « أول من قيّد الأوباء ... » فما ذلك كله إلا من قبيل الإعجاب المتحمّس الذي لم يرافقه العقل العلمي في مجاهل الجاهليّة الأولى التي سبقت امرؤ القيس ، ومهدت له الطريق حتى لم نكد نترك للشعراء « من متردّم » . وبما لا شك فيه أنّ امرؤ القيس حققة من سلسلة طويلة سبقتة ، وقد تدرّج معها الشعر العربيّ حتى وصل إلى الكمال النسبيّ الذي عرفه في الجاهليّة الثانية ، جاهليّة العلفات .

## مصادر ومراجع

- محمد فريد أبو حديد: الملوك الضليل القاهرة ١٩٤٤.
- بطرس البستاني: امرؤ القيس شاعر الشخصية المكشوف ١٧٤ : ٦ ٧.
- عبد العظيم علي قناوي. الوصف في الشعر العربي — الجزء الأول — القاهرة ١٩٤٩.
- محمد صالح مملك: أمير الشعراء في العصر القديم — ١٩٣٢.
- سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي القاهرة ١٩٤٥.
- طه حسين: في الأدب الجاهلي — القاهرة ١٩٣٣.
- رثيف خوري: امرؤ القيس — بيروت ١٩٣٤.
- قواد البستاني: امرؤ القيس (الروائع) — بيروت.
- محمد صبري: امرؤ القيس — القاهرة ١٩٤٤.
- محمد عبد المنعم خفاجي: الشعراء الجاهليون. القاهرة.



# البَابُ السَّادِسُ شُعْرَاءُ الْحَيَاةِ وَالْمُنَاقِبِ الْقُبَلِيَّةِ

## الفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي قُطْبِ حَرْبِ الْبَسُوسِ الْمُهْلِلِ (٥٣١؟)

١ - تاريخه : منَ القموضِ معظمُ حياةِ المهليلِ ، وكلُّ ما نعرفه عنه أنه عديّ بن ربيعة التغلبيّ وأنه لُقِّبَ بالمهليلِ لسهولة شعره كما لُقِّبَ ناليزر لشدة ميله إلى محاسبة النساء . كان بطلاً عنيباً من أبطال حرب البسوس التي دارت رحاها بين بكر وتغلب سنة أربعين سنة . وقد أُبِيرَ للمهليلِ ومات في أسرهِ نحو سنة ٥٣١ .

٢ - أدبه . للمهليلِ ديوان شعر لم يُعرف منه إلا ما نقلته كتب الأدب ، ومعظمه في رثاء أخيه كليب ، وفي مهاجمة أعدائه من بني بكر وأحلافهم . وهذا الشعرُ محمولٌ في الكثير منه على المهليلِ ولا سيما بعد أن أصبح بطلاً شعبيّاً في قصة «الزير» المشهورة .

٣ - المهليلُ من شعراء : المهليلِ رجب الانفعال السريع ، والتغلب ، وهو سطحيّ الفكره قليل العمق .  
٤ - ميزة أدبه :

- أدب للمهليلِ هو أدب العاطفة العاصفة ، والتكرار التقريريّ ، والتهديد الدائريّ .

- وشعره نديّ في أبيات متتابعة غير متلاحقة .

وهو مزيج من دمع وحرب ، من عاطفة رقة وعاطفة خشونة : رقة في المناجاة والتصعّب ، وخشونة في قسوة الأعداء والتروعّد .

وتعبير المهليلِ هو تعبير العاطفة التي تعلّفت على العقل وسوّته في التصكير والتحليل

١ - تاريخه :

هو أبو ليلى ، عديّ بن ربيعة التغلبيّ ، وقد رُوِيَ أنه خال الشاعر امرئ القيس ، وجدُّ عمرو بن كلثوم لأُمّه . لُقِّبَ «بالمُهْلِلِ» لتغلبِ الملهلةِ والسهولةِ على شعره<sup>١</sup> ولُقِّبَ به «الزير» لكثرةِ مجالسته النساء .

١ - قال ابن قتيبة : «وسمّي مهليلاً لأنه هلول الشعر أي أرقه ، وكاد فيه حنث»

أما حياته فقد لفت الغموض معظمها ، وأغرق ما وصل إلينا منها في ما يُشبه الأسطورة ، ولا سيما ما كان من حرب البسوس وأخبار مواقعها وأيامها . وهكذا فجُلَّ ما نعرفه عنه أنه بطلٌ عنيد من أبطال تلك الحرب التي دارت رحاها بين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة . وقد أُسِرَ المهلهل في نهاية الأمر ومات في أمره نحو سنة ٥٣١ م . وملخص خبر حرب البسوس أن كليلاً أcha المهلهل قتل ناقة امرأة تدعى السوس وهي خالة جساس بن مرة البكري فانتصر جساس لحائته وقتل كليلاً . فكان ذلك سبب اقتتال تطاول صداه في الأدب العربي .

ويُروى أن الملك المنذر والد عمرو بن هند ملك الحيرة هو الذي أصلح بين الفريقين المتقاتلين بعد موت المهلهل .

ومما حاه في كتاب « أيام العرب » أن المهلهل ما زال يبكي أخاه ويندبه ، ويرثيه بالأشعار . وهو يجترئ بالوعيد لبني مرة حتى يشرك قومه وقالوا : « إنه زير نساء » . وسفرت منه بكر ، وهمت بنو مرة بالرجوع إلى الحمى . وبلغ ذلك المهلهل فانتبه للحرب ، وشمر عن ذراعيه ، وجمع أطراف قومه ، ثم جز شعره ، وقصر ثوبه ، وآلى على نفسه أن لا يهتم بلهو ، ولا يشتم طيباً ، ولا يشرب خمرأ ، ولا يذعن بدهن حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلاً من بني بكر بن وائل ، فيبعث الحرب وبأبى الصلح ، ويظل طول حياته مناضلاً في بطولة وعناد :

خَذِلْ الْعَهْدَ الْأَكِيدَ عَمِيْ عُمَرِي      بِتَرْكِي كُلِّ مَا حَوَتْ الدِّبَارُ  
وَهَجَرِي الْغَايَاتِ وَشَرِبَ كَأْسِي      وَلَبِيْ جُبَّةً لَا تُسْتَعَارُ  
وَلَسْتُ بِجَالِحٍ دِرْعِي وَسَيْفِي      إِنْ أَنْ يَخْلَعَ اللَّيْلُ التَّهَارُ  
وَأَلَّا أَنْ تَبِيدَ سَرَاةً بَكْرِي      فَلَا يَبْقَى لَهَا أَبَدًا أَثَارُ

١ - ورد الخبر في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة كما يلي : « ولا كان يوم قتيته ، وهو آخر أيامهم ، وكان على تغلب ، أسير الحارث بن عذاه مهلهلاً وهو لا يعرفه ، فقال له الحارث : تداني على عدي من ربيعة المهلهل وأنت آبير ؟ فقال له مهلهل : إن دلتك على عدي فأنا آمن ولي عدي ؟ قال الحارث : نعم ، قال : فانا عدي ، فجز ناصيته وحلاه ، وقال : لم أعرف وفي ذلك يقول :

لَمْ تَنْسِي عَمِيْ وَلَمْ أَصْرِفْ عَدِيًّا إِذْ أَمَكَّنْتَنِي الْيَدَايَا .

## ٢ أدبه :

للمهلهل ديوان شعر ذكره حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» ولم تعرف منه إلا ما نقلته كتب الأدب كالأعاني ، وخزانة الأدب ، وديوان الحماسة ، وما جمعه الأب لويس شيخو سنة ١٨٩٠ في كتابه « شعراء البصرية » . وهذا الشعر يدور في أكثره حول حرب البسوس رثاءً لأبيه كليب ، وتوعيداً للأعداء من بني بكر وأحلافهم . وهكذا فادب المهلهل أدب حرب وحماسة ، وكانني به أناشيد ملحمة لا يهدأ هاسعير ، ولا يخمد لها أوار ، وهذه الحماسة الملحمية تضحمت في غيئة الشعب على مرّ الأيام فكان منها الأسطورة الزيرية ، وكان « الزير » هكطور العرب وأخيها في تلك الأسطورة النثرية الشعرية ، كما كان عترة بطل « السيرة » ، وراح الرواة و« الشعار » يُضيفون إلى شعر « الزير » وأحارها ما طاب لهم أن يضيفوا ، فاختلط على العلماء والنقاد أمر الصحة في أدب المهلهل ، وفشت المهلة فيه فشواً شنيعاً . وكان لنا من خلال ذلك كنه أدب لا يخلو من قيمة . أدب يقف شاهداً على حقيقة النفس الجاهلية ، وعلى العبث الذي أباحه « الشعار » لأنفسهم ، والرواة لأنسنتهم . فكان معه الاضطراب الذي شغل العلماء في عصورنا الحديثة والذي حمل الأصمعي قديماً على أن يقول : « أكثر شعر مهلهل محمول عليه . »

## ٣ المهلهل من شعره :

يلنو ، وبحن تقرأ شعر المهلهل ، أن الانفعال الشديد هو ابرزة الرئيسية في نفس الرجل ، وأن هذا الانفعال سريع الاشتعال وسريع الانطفاء ، فهو أبداً بحاجة إلى وقود ، وهو إذا تواصل اضطرامه كان ثورة خيال و ثورة فُعال . وإذا كان عالم المهلهل عالم عاطفة سريعة التأثر ، كان الرجل شديد الاضطراب والتقلب ، قليل العمق ، سطحي الفكرة ، وكان نصيبه من التأمل أكثر من ضيق .

## ٤ - ميزة أدبه :

١ - أدب المهلهل هو أدب العاطفة التي تغالي في وصف الأخ ووصف الهول ، وتعتمد التكرار والتهديد الطفولي وطلب المستحيل في غير منطق ولا تحليل . وذلك كله

تارة في جوٍّ ملحميٍّ من الشعر الحربيِّ الذي تتقاذف ألفاظه ويتعالى دويُّ حوافر أفراسه ، وطوراً في أجواء من الميوعة هي موسيقى خمر ونساء .

٢ - إنه شعر نديبٍ في أبياتٍ متتابعةٍ غير متلاحقة ، ومزيج من بكاء ، وسهر ، وذكرى ، واعتبار ، وتهديد . والمهلل يتعهد لأخيه بأن يميز شعره ويقصر ثوبه وألا يهتّم بلهو ولا يشمّ طيباً ولا يشرب خمراً ولا يذعن بدهن حتى يأخذ بالثأر وقد شمر ذراعيه وقام بمعده كاملاً . ثم حثّ بني تغلب على الأخذ بالثأر ، فنشبت الحرب بين بكر وتغلب ، وراح المهلهل يخوض غمارها في بأس وشجاعة ، وهو أبداً يذكر أخاه ويرثيه ، ويمزج البكاء بتعداد مآثر القصيد ومخامله

٣ - هذا شعر الرثاء كما يتجلى لنا في الجاهلية : هو مزيج من دمع وحرب . من عاطفة رقة تنبعث من قلب عبٍّ ، وعاطفة خشونة تنبعث من حالة البداة والقطرة ؛ وتبدو الرقة في مناجاة الشاعر لأخيه ، وتفجّعه عليه ، وتكرار النداء وإرسال الأناث والزفرات ؛ وتبدو كذلك في اضطرابه وتدافع أقواله في غير سنن ولا مذهب ، وفي غير نظام ولا تسلسل ؛ وتبدو أخيراً في سهولة الكثير من ألفاظه ، وليونة الكثير من أوزانه الشعرية .

وتتجلى الخشونة في بدائية النقمة التي تُصير على طلب الثأر وسفك الدماء ، وفي وحشية الإرعاد والإزباد ، وتوحّش الوعيد والتهديد في غير تبصّر ولا أنزان ، والتبوق ببوق الويل والثبور في غير حدٍّ ولا هوادة .

٤ - وهكذا فثراء المهلهل مزيجٌ من شدّة ولين . يغلب عليه الغلو والاضطراب والتكرار ؛ وتكثر فيه أساليب النداء والمناجاة . إنه رثاء من عاش في الترف واللّهو فلان كلامه ، وطعنٌ في الصميم فهبّ للطعان ، وأرسل الكلام في قالب من الشفّة التي تغوص في بحر من اللين .

٥ - وأما تعبير المهلهل فهو تعبير العاطفة المتدفقة التي تطغى على العقل وسنّيه في التفكير والتحليل ، وتنطلق في غير تسلسل ولا أنزان ؛ لا تعرف غير منطق الانسياق والانجراف ، ولا تؤمن إلّا بالفكرة الإعصارية التي تتكرّر ، في دورة إرثائية حافلة باللوعة ، وفي نقمةٍ شجيّةٍ حافلة بالحنين :



دَعَوْتُكَ يَا كَلِيبُ فلم تُجِبْنِي وكَيْفَ يُجِيبُنِي الْبَلَدُ الْقَفَّارُ  
أُجِيبُنِي يَا كَلِيبُ خَلَائِكَ دَمٌ صَنِينَاتُ النَفُوسِ لَهَا مَرَارُ  
أُجِيبُنِي يَا كَلِيبُ خَلَائِكَ دَمٌ لَقَدْ فُجِعَتْ بِفَارِسِهَا زَارُ

### مصادر ومراجع

- طه حسين . في الأدب الجاهلي القاهرة ١٩٣٣ .  
محمد أحمد جاد المولى.... أيام العرب القاهرة ١٩٤٦ .  
جرمي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية — طبعة دار الجليل — بيروت ١٩٨٢  
العرب قبل الإسلام .  
فؤاد البستاني : المهلهل سلسلة الزوائج — بيروت ١٩٣٩ .



## الحارث بن حلزة - عمرو بن كلثوم

### أ. الحارث بن حلزة

هو حطيب بكر يوم الاحكام لدى عمرو بن هند. ومعلّقه هزلية ذات غرض دفاعي.  
- كان في دفاعه قويّ الفكرة، قويّ اللمحة، وقد استطاع أن يستميل الحكم  
أدبه أدب الرصانة والعقل والفكر والعقيدة الراسخة. لا يخلو من المشاهد للحمية

### ب. عمرو بن كلثوم.

هو حطيب تغلب يوم الاحكام. ومعلّقه نونية غلب عليّ العجز والتهديد  
- كان في دفاعه ثائراً، شديد الاعتداد بنفسه وقومه، ولهذا أحق.  
- قصيدته ثورة عطلة وثورة حبال وثورة الفاظ، وهي ذات نزعة ملحمة.

بكر وتغلب قبيلتان شقيقتان دارت بينهما حربٌ ضروس عرّفت بحرب البسوس،  
وقد دامت أربعين سنة، وأراد عمرو بن هند ملك الحيرة أن يتدخل في أمر الصلح بين  
القبيلتين بعد تلك الحرب المشؤومة، فأخذ من كلا الفريقين رهائن من أبنائهم  
وحدث أن سرح الملك ركباً من تغلب في بعض حاجته، فزعمت تغلب أن الركب نزلوا  
على ماء لبكر فأجلّوهم عنه، وحملوهم على المفازة فماتوا عطشاً، وزعمت بكر أنهم  
أرشدوهم إلى الطريق ولكنهم تاهوا وهلكوا، فذهب الفريقان يتدافعان عند عمرو بن  
هند، وكان في أول أمره ميّالاً مع تغلب، وكان شاعر تغلب عمرو بن كلثوم، وشاعر  
بكر الحارث بن حلزة، فأنشد كلٌ منها قصيدته أو قسماً منها، مدافعاً عن قومه،  
ولكل واحد منها أسلوبه الخاص وبلاغته الخاصة.

## أ - الحارث بن حِزلة (توفي نحو سنة ٥٨٠) :

١. تاريخه :

هو الحارث بن حِزلة اليشكريّ الكريّ. لا نعرف من أخباره إلا أنه اغتاز يوم الاحتكام لانحياز ملك الحيرة الى تغص ، وأنه كان في المجلس مستوراً عن الملك يستار لما كان فيه من الرّص ، وأنه أنشد قصيدته المعلقة ، مرتجلاً بعضها ارتجالاً ، ومفاجراً بقومه وما لهم من المآثر الحميدة ، وأنه لشدة بلاغته استطاع أن يسيطر على الموقف وأن يستميل الملك الى جانب بكر. قبل إنه أنشد معلقته وله من العمر نحو مئة وخمسة وثلاثين سنة .

٢ - معلقته :

هي هزئة تقع في ٨٥ بيتاً على البحر الخفيف مطلعها .

أَذْنَتْهَا بِبَيْتِهَا أَسْمَاءُ رَبُّ نَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَالِ

١. مضمون المعلقة : لمعلقة الحارث بن حِزلة غرض دفاعي وطمع في استئالة الحكم . وقد ضمنها مقدمة تقليدية فيها غزل ووقوف بالديار ووصف للناقة ، ثم انتقل إلى دفاعه ففند أقوال التغلبيين وبين ما في ادعائهم من كذب وما في آرائهم من خطيئ وضعف ، ثم أقام موازنة بين مفاخر البكريين وغhazi التغلبيين ، وراح بعد ذلك ، بدهاء وحذق ، يستميل عمرو بن هند بعد ما مهّد له طريق الحكم بما سقى من قول ، فأحيا في نفسه الذكريات ، وهاج في قلبه ما كان كامناً من حبّ وبغض وخطأ أمام عينيه صورة واضحة للتغلبيين والبكريين وإذا أولئك أعداء للملك ، وإذا هؤلاء موالونٌ مُخلصون ، وخدام أماء ، وأنساء أحياء . وهنا وهناك ينثر الشاعر الملائح للملك إلى أن ينتهي بالظفر والبصر الممين ، ويرجع أعداؤه خائبين .

وراح الشاعر بعد ذلك يقرّر الفكرة ، ويعمل — شأن الخطيب الماهر والمخمي

١ - أذنتها : أعلمتها . بيتها : بغرتها . رَبُّ نَاوٍ : أي رث مقبر لمن إمامته أما اسمه فلا .

القدير على إقناع الحكم بقوة الفكرة وقوة الحجة. وكانت فكرته قوية بترابطها وحسن سياقها، وكانت حجته قوية بحسن تسلسلها وحسن ترتيب براهينها. وهو بعد ما قد أقوال الأعداء وأراجيعهم، سبط مفخر البكرتين فقرب القلوب إليهم لما هم عليه من الصيت الحسن والأيام الرائعة، وأبعد كل ما من شأنه أن ينفر النفوس من الارتياح إليهم، وبعد ذلك انقلب على التقلبين، وكأنه لا يريد نشر مخازيهم، فنشرها بلطف ودهاء لاذع، وأظهر أنهم لا يستحقون أن يميل إليهم الملك، ثم طعنهم طعنة قتالة، إذ أظهر الصلة بينهم وبين الملك، وهي صلة عداة قديم، فبا أن الصلة بين الملك وبين بكر هي صلة قرابة وحسن.

وهكذا كان الشاعر بليغاً شديد البلاغة. جمعت فجته الليونة والتعومة إلى القوة؛ والتلميح إلى المصارحة، والملاح إلى الإثارة. فدخلت قلب الملك من غير ما حاجز، وبعثت فيه انقلاباً على بني تغلب شنيعاً.

٢ - بلاغة الشاعر في دفاعه: افتتح الشاعر معلقته بذكر الديار ووصف الناقه، وكان في افتتاحه أشد كلاسيكية من عمرو بن كلثوم، وأعرق غنائية، وأبعد أثراً في نفوس سامعيه. وقد درج في وصف ناقته وتشبيهها بالنعامة على خطة أكابر الشعراء لذلك العهد، وكان في وصفه ناقلاً، واقعيّاً، شديد التعلق بالحسن والمحسوس. وبعد المقدمة انتقل الشاعر إلى موضوعه انتقالاً رقيقاً وهو انتقال الحكيم الذي يرفع ليربح الدعوى لا ليتبحر. الوسيلة عنده وسية في سبيل الهدف، وسيعمد إلى وسيلة الفطنة، والمنطق، والدّهاء، والملاينة، معالجاً نفس الملك معاملة بليغة، بعيدة عن كل عنف، حافلة بكلّ لين.

بدأ بوصف الأرقام من بني تغلب، فقال: حمت إلينا الأنبياء منهم أمراً جليلاً عُنينا به وقصد به الإساءة إلينا. وذلك أن أولئك الإخوان يغفلون فيما يقولون وينسبون إلينا ما لم نفعل، فلا تنفع البرية ببرايعته، ولهذا تراهم يتلمسون لنا أي ذنب لإيقاظ الفتنة، فيتشاورون في الليل في أمر حربنا والتعبئة له، فلا يصبح الصبح حتى تكون لهم جبة وضوضاء... وقد أبدى الشاعر في هذا المقطع كثيراً من الدّهاء فهو في لباقة يجعل قومه أبرياء ويجعل الفساد كل الفساد في سوء نية الأرقام، فيدرج المعنى على كتف المعنى،

ويُفَرِّج المعنى من المعنى ، في تساوق وتساعد ، وفي ترابطٍ ومسطق ، حتى يصل إلى التعبئة ، فيرسم خطوطها في انتفاضة قلم ، وإذا المشهد تأنى على إنجازهِ ، رائع في شدة سبكهِ :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْءُ  
مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ نَفْسٍ لِي خَبْلٍ خِلَالِ ذَلِكَ رُغَاءُ

٣ - ميزة أدب الحارث بن حِزْرة : أدبه هو أدب الرصانة والعقل المفكر ، والعقيدة القويّة ، والشعور الجبار الذي تسيّره العقيدة ويخضع للعقل النير ، وإننا إذا استثنينا المقدمة نجد في معقّة الحارث بن حِزْرة ما لا نجد في غيرها من الهدوء والاعتزان ، ومن التريب والتنسيق ، والتحليل والتعليل ، وإقامة البرهان وإيراد الشاهد .

وأدبه خطائيّ ملحميّ يرمي إلى الإقناع ويعتمد سرد القصص البطوليّ ، وذلك كلّ في جوٍّ من الموسيقى الشديدة الوقع ، التي تدوّي في هدوء وانطلاق ، وتماشي العقل والشعور والخيال فتزيدها قوّة وعمق تأثير

في معلّقة ابن كلثوم مشاهد ملحميّة كوصف التعبئة ، ووصف المعركة ، ومحاولة سَمَاءة الحكم إلى قومه ... إلا أن تلك المشاهد لا تخرج عن كونها شحات بعيدة عن تصوير المواقف الكاملة ، بعيدة عن السرد القصصي للتلاحم الأجزاء . وعنصر المغالاة عند ابن حِزْرة الصق بالواقع وأقرب إلى التجربة الحياتية منه عند ابن كلثوم ، فكانّ الأول يقول ما كان في دنيا الواقع الحقيقيّ ، وكانّ الثاني يقول ما يكون في عالم الواقع الخيالي . وهكذا فإن حِزْرة بعيد في شعره عن عنصر الحارقة للدهشة ، وإن بث الدهشة في نفس السامع بالدقة الوصفية والروعة الفنية .

## ب - عمرو بن كلثوم (توفي نحو سنة ٦٠٠)

١ - تاريخه :

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبيّ . وأُمّه ليل بنت المهلهل أحي كليب . نشأ عزيز الجانب أنوفاً مُعجَباً بنفسه أشدّ الإعجاب ، وساد قومه وهو ابن

خمس عشرة سنة، وقاد الجيوش مطفراً. ولما قامت المشاحة بين بكر وتغلب واحتكوا إلى عمرو بن هند، وقف عمرو بن كلثوم مدافعاً عن قومه، وما إن فرغ من إنشاد قصيدته حتى ظهر له أن هوى الملك مع بكر، فانصرف وفي نفسه ما فيها. ثم خطر في نفس ابن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها عمرو بن كلثوم، فدعاه هو وأمه لبي، وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها في قضاء أمر، فصاحت لبي: «وادلّاه! يـ تغلب» فسمعها عمرو بن كلثوم فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه. ثم رحل توّ إلى بلاده بالجزيرة الفراتية، وأضاف إلى معلقته قصماً يبين فيه سخطه على عمرو بن هند. وأشار إلى الحادث إشارة واضحة.

وقد عمّر عمرو بن كلثوم طويلاً، وقيل إنه بلغ من العمر مئة وخمسين سنة، وتوفي نحو سنة ٦٠٠ م.

#### ٢ - معلقته :

١ - مضمونها: معلقة عمرو بن كلثوم بونية على البحر الوافر في نحو مئة بيت، قال القسم الأول منها يوم الاحتكام، والقسم الثاني بعد ما ثار بعمرو بن هند وقتله. أما القسم الأول فقد طواه الشاعر على مقلّمة تقليدية ذكر فيها الحمرة كما ذكر الحبيبة وخاطبها ووصفها، وطواه بنوع خاص على المفاخرة دفاعاً وتهديداً. وأما القسم الثاني فلكلام الثورة العامرة على عمرو بن هند، وفيه كثير من الفخر، والألفة، والتأنيب للعار.

والجدير بالذكر أنّ هذه القصيدة من أشهر الشعر الجاهلي وأشدّه سيورة، لا لأنها من أحسنه أو من خير ما فيه، بل لأنها عامرة بالحماسة، عامرة بروح الألفة والعزة، ولأنها ذات حرس موسيقي في الوزن والقافية سرج العلوّ بالأذن والحافظة. وكان بنو تغلب يكرّون من اتّخذي بها حتى قال فيهم أحد البكرين منهكماً:

أَلْهَى بِي تَغْلِبٌ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ      قَصِيدَةُ قَالِهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ  
بُعَايِرُونَ بِهَا مَذْكَانٌ أَوَّلُهُمْ      يَا لِلرِّجَالِ لِمَخَرٍّ غَيْرِ مَسْثُومٍ

أما مطلع القصيدة فهو:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَأَصْبَحِينَا وَلَا تُبْنِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا...

٢ - صحة نسبتها إلى صاحبها: لا شك أن في اضطراب أبيات هذه المعلقة، وفي الفروق الشديدة بين الروايات، وفي التكرارات السهلة، والمعاني السخيفة التي نلاحظها من وقت إلى آخر، ما هو الدليل الواضح على أن الأبيدي لم تحفظ القصيدة سليمة من التحريف والتبديل، ولا سيما أن الموضوع حماسي والورن سهل الانقياد، والموسيقى ملحمية تحمل على النظم والزيادة والتحريف.

٣ - بلاغة الشاعر في دفاعه: إفتح الشاعر قصيدته بذكر الحبيبين: الخمرة والمرأة. أما الخمرة فأندريئة ذات قيمة وشأن. إنها شامية، من أقصى بلاد الشام، وليست من خمور الطائف أو بعض النواحي الأخرى من شبه الجزيرة. وإنها مشروب الأثرياء والأشراف. يشربها هو وقومه بالأقداح الكبيرة الواسعة لسخائهم وعلو منزلتهم. وأما الحبيبة فهي بنت الفكر ومطلع الوحي، وهي الصلة التقليدية بين الشاعر وموضوعه:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَأَصْبَحِينَا وَلَا تُبْنِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا  
مُسْعَسَعَةً كَأَنَّ الْخُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

ويتنقل الشاعر بين الخمرة والتباهي بشرها، وبين وصل الحبيبة وصبرها، حتى يصل إلى موضوعه الذي يهدف إليه، والذي قصد بلاط الخيرة للدفاع عنه، وإذا به يشن هجوماً فيه عنف وعنفوان. يتوجه إلى عمرو بن هند، ويخاطبه مخاطبة الند للند، بل يخاطبه في استعلاء ومكابرة، وكأن كلامه استفزاز وتهديد. إنه سيد تغلب، وتغلب سيف بئار في عنق كل عتيد جبار. وهي موقورة، سير عمرو بن هند جماعة منها ومن بكر في بعض أموره، فافقد أبنائها في الطريق، ولا شك أن البكرين هم الغادرون والمجرمون، ولا شك أن سيد الخيرة الذي أطاعته قبائل العرب هو المسؤول عن النكبة

١ - الصحن: القلح العريض أصحيا. اسقينا بالصبح وهو شرب الخمر في الغداة. الأندرين: جمع الأندر وهي قرية في الشام جمعها بما حوالها.

٢ - الحمرن: الموقورة.

التي حلت بقبيلة تغلب. فعليه الاقتصاد من البكرتين؛ وإلا فالسيف والحرب! أما السيف فبنو تغلب أصحابه؛ وأما الحرب فهم أربابها، يباشرونها برباط يفض لا تلبث أن تصدر حمراء تقطر بالدماء. وسطوة تغلب من أقاصي الجزيرة إلى أقاصيها، ومجدهم عريق يطاعنون دونه حتى يبين. ويمجزون في سبيهم الرؤوس في غير رحمة ولا لين.

لم يوفق الشاعر في دفاعه لأنه عصبي شديد التأثر، ولأنه معتد بنفسه شديد الاعتماد. ولأنه يتحدى الملك في عقداؤه، ولأنه كالسبل الجارف فلا يراعي مقتضى الحال، ولا يقيم للسلطان وزناً. والسياسة والزنا في مثل تلك الحال أقوى حجة للإقناع والاستئالة. فكانني بالشاعر ينطلق في أحواء الفخر والحماة أو في معمعان حرب دامية فيعدّد الأجداد ويهدّد ويتوعّد، ويظهر بذلك أنه وجاعته على غير صراط الحق. وأنه وجاعته من لا يستنام إليهم ولا يؤمن جانبهم. وهكذا أخطأ الشاعر الهدف وجرّ على قومه الرمال.

#### ٤ قيمة أدب عمرو بن كلثوم:

١ - في معلقة عمرو بن كلثوم تمثيل للتجربة النصيب التي عاها الرجل، تلك التجربة الصاحبة التي تتغلب فيها العاطفة وتتدفق في غير روية ولا اعتدال. فابن كلثوم شديد التعامل مع واقع القبيلة وواقع الحياة الجاهلية، شديد الانفعال، يتأثر بسرعة، ويتصمّم تأثره بقدر ما يفعل ويتفاعل مع أفعاله، فيهاجم الملك مهاجمة بطل من أبطال الأساطير، لا يقيم له وزناً، ولا يرعى له حرمة، ويناديه مناداة تحدّ، ويشير إليه بالترث والتأني ربنا يسمع أخبار اليقين. وما أخبار اليقين سوى مشاهد متتالية من أعمال تقتيل وهول سحلتها تاريخ تغلب وبسطها للرؤساء والملوك عبرة فلعلهم يتعبرون.

٢ - والقصيد لثورة عاطفة وثورة خيال وثورة ألفاظ وموسيقى. إنها خالية من وحدة التأليف، فلا ترابط بين الأجزاء، ولا تساوق في المعاني، ولا تطور في الأفكار إلا نادراً وجزئياً حيث يوضح ست من الشعر ما سبقه أو يتم ما جاء فيه. فابن كلثوم لا يبنى ولا يؤلف، وإنما ينساق انسياقاً لا وعياً في تيار معانيه، انسياقاً لا يُسيطر عليه عقل ولا إرادة. فكانه دفع من عاطفة جياشة وخيال وثاب، وكان الهم كل الهم أن يتجسم الهول أمام ابن هند فينقاد للإرهاب في غير تردد ولا عند.



٣ - وفي عصف العاطفة الجائعة لا يتسنى للشاعر أن يعالج الاستطراد شأن الجاهليين ، أو أن يلجأ إلى الأوصاف التشبيعية شأن أصحاب المعقّات . فقصيدته أنشودة مفرّ وحاسمة ، تتسابق فيها الأبيات زاحرة بمواقف العصبية الجاهلية ، ومواقف الثقتيل والسيطرة والقوة ، في غير هوادة ولا اقتصاد ، وفي زحمة من الألفاظ الحريّة ، وموسيقى القتال التي تخلو من كلّ رزاة .

٤ - وابن كلثوم يتنطق بالحوادث والمشاهد بالمعاني التي يطوي عليها شعّره . فهو لا يصرّح بمعانيه تصرّحاً ، وإنّما يبسط المشاهد والمواقف : رايات تُورّد بيصاً وتُصدّر حمراً ، ومبوك ترك على السيوف المَهَج والأرواح ، وبيوت منشورة تحت كلّ سماء ... وهذه المشاهد والمواقف دلالات ومعاني ، ولها من ورائها أصوات تهيب وتهويل . إنها ولا شكّ لمحات ملحمية ، ولكنها لمحات مقتضبة ، غير متلاحقة ولا متلاصقة ، هي جزئيات ملحمية لا تجمعها الوحدة ، ولا يسطها التفصيل ، ولا ترتفع من ثمّ إلى جوّ الحوارق المدهشة التي تفوق مستوى القوى البشرية . لا شكّ أنها حافلة بالتضخيم والتحسيم ، ولا شكّ أنّ هذا التضخيم ملحمي . ولكنّ ملحميته تبقى ضمن نطاق التضخيم الخيالي الذي تنفخ فيه الحنة العاطفية ، ولا يتجاوز حدود هذا انطاق إلى حدود العقيدة التي تجمع بين عالم البشر وعالم ما فوق البشر .

٥ - أضف إلى ذلك أنّ الحاسة الملحمية في القصيدة تنضج إلى حدّ أنها تُصيح طفولية بدائية . فجذّ الرؤوس ، والسيوف المخاريق بأيدي اللاعين ، والرّحى التي تعمل الناس شيئاً من طحين . كلّ ذلك يدلّ على بدائية هي من مُعيزات الشعر الملحمي ، وكلّ ذلك أيضاً يتناغم والبيئة الجاهلية التي تسيطر فيها القوة ، والتي تقترن القوة في بعض نواحيها بالوحشية الضارية :

نُطَاعِرُ مَا تَرَاحَى الْكُلْسُ عَنَّا      وَنَضْرِبُ السَّيْفِ إِذَا عُشِينَا  
بِسْمَرٍ مِنْ فَنَّا الْخَطِيّ لَدُنْ      ذَوَابِلْ ، أَوْ بِبَيْضِ يَعْنِينَا

١ تراعى : تبعد ، عُشِينَا : فجعاً ، انصوّ .

٢ السمر الرّماح . الخطي سبة إلى بلدة الخط على ساحل لحيان تجلب منها الرّماح . اللد ، اللبة الدوابس . اللبة . البيض : السوف

نَشَقُّهَا رُؤُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا      وَنُخْلِهَا الرُّقَابَ فَبَحَثَبْنَا<sup>١</sup>  
 كَأَنَّ جَمَاجِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا      وَسُوقٌ بِالْأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا<sup>٢</sup>  
 نَجْدُ رُؤُوسَهُمْ فِي غَيْرِ بَرٍّ      فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا<sup>٣</sup>  
 كَأَنَّ سُيُوفَنَا، فِينَا وَفِيهِمْ،      مَخَارِقُ بِأَيْدِي لَاعِيشِنَا<sup>٤</sup>  
 كَأَنَّ نِيَانَتَنَا، مِنَّا وَمِنْهُمْ،      خُضْبَنَ بِأَرْجَوَانٍ أَوْ طُلِينَا

٦ وفي القصيدة أساس تاريخي «يقف على باب الأسطورة». فهذه تلك تلميحات إلى مواقع، وذكر لأسماء أبطال، في غير تعريف، ولا تفصيل، ولا رصف، والأساس التاريخي من مميزات الملاحم المشهورة. ولكنه يبقى في معلقة ابن كلثوم شيئاً من إشارة غامضة، وشيئاً من تمجيد بعيد المدلول فيما نراه حلقة من سلسلة في الملاحم، وعنصراً من عناصر العمل القصصي.

٧ والشاعر في المعلقة بطل الموقف ولسان القبيلة، يظهر على مسرح القول والعمل، وليس الأمر كذلك في الملاحم، وإنما القول والفعل لأبطال العمل القصصي. وذلك أن الشاعر الجاهلي ذاتي لا تنفصل شخصيته عما يقول، وهو، بصفة كونه شاعراً، لسان القبيلة، يحمل المسؤولية القبليّة، ويتحمّل هو وقبيلته تبعات قوله وتصرفه.

١ - ونخليا الرقاب أي نقتطع بها الرقاب. يخلين: يقطعن، والضمير يعود إلى السيوف.

٢ - فيها: الضمير للسيوف. وسوق جمع وسق وهو الحمل. الأماعز: أممز. الأرض الصلبة الكثيرة الحصى.

٣ - نجد: قطع. في غير بر: في غير رحمة ولا شفقة.

٤ - الماريق ج عراقي: وهي المتدبل أو الحرقه تلف ويصرب بها، وهي لعة من لعب الصبيان يصف الشاعر قومه وأعداءهم بالسالة ورشاقة الضرب.

## مصادر ومراجع

فريس كزنكو: ديوان شعر عمرو بن كلثوم التغلبيّ وديوان شعر الحارث بن حِزّة البشكري — بيروت ١٩٢٢.

لويس شيخو: ديوان الشاعرين الكبيرين عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حِزّة البشكري المشرق ٢٠ (١٩٢٢): ٥٩١، ٦٩٣.

: شعراء النصرانية — بيروت ١٨٩٠.

قزاد السستاني: عمرو بن كلثوم — الحرث بن حِلوة — الروائع ٢٦ — بيروت.



## الفصل الثاني في قُطب حَرْب السَّباق

حرب السَّباق أو حرب داحس والعمره حرب وقعت بين عيس وديان لخلاف على سباق حيل بين  
الهرسيين الذين هُزمت ناصبها ، وقد استمرَّت سنين طويلاً ، وأشهر أيامها المُرِيب وبطنه عنتره بن شدَّاد  
وكان رهبر س' أبي سلمى من الفُدَّاعين الى الصلح والى التروى

### عَنْتَرَةُ بَنُ شَدَّاد (٥٢٥هـ / ١١٣٥م)

- ١ - قالوا عنه : عنتره بن شدَّاد وُلِدَ في نحو سنة ٥٢٥ . من أُمِّه حبشيَّة ، وقد استطاع أن يتحرَّرَ بسبب عنه  
ومروسيته لأحبِّ علة أمة عنه واستأثرت في سبيل أسئلتها قُلَّ نحو سنة ٦١٥ .
- ٢ - أَدَبُهُ : المَعْلُومَةُ - شعر عنترة لِسَبَّان : قسم عَنائِيّ وحَدائِيّ ، وقسم قصصِيّ ملحمِيّ . نظم مَعْلُومَتُهُ رَدُّ عِلْ  
مَعْيَرِهِ ومَعْدِيّاً لمناويله ، وهي تتضمن مَقْصِدَةً تأثيلاً ، ثم وصفاً لعمته ولتلقته ثم وصفاً لنفسه ولعمره  
١ - عنترة في مَعْلُومَتِهِ رَجُلُ الكَمال العربيِّ الأصيل .
- ٢ - وهو في أدبه شاعر الاعتراف المُصادق ، ونَصْرُاعُ النفسِ العصب ، ومفاخره مزيج من فنِّ عَنائِيّ  
وفنِّ ملحمِيّ ، وهو سهل المحافضة لا يقبل المَلُومَ ، ورجل شجاعه يعيش الوُفَى ويعفُ عَدُوَّ المعصم ،  
ودرجل مروءته ويحده بِكَيْلِ العُثْرَاتِ ويحفظُ الحُرُمَاتِ
- ٣ - وهو صادق العاطفة ، صديقها ، وقيق الشُّعُور ، سببه
- ٤ - أدب عنتره مزيج من عاطفة وحدا ، أم عاطفته عميقة التأثير ، وله حياله لفظويٌّ للتصحيح ،  
ولمَّا فكرته فصيحَةٌ .
- ٥ - له عبرة سهلة صافية التركيب .

### ١ تاريخه :

- ١ مولده ونحوه : هو عنترة بن عمرو بن شدَّاد العبسيُّ أحدُ هُزنان العرب  
وأغربتها وشعرائها المشهورين . وُلِدَ في نَجد نحو سنة ٥٢٥ . وكانت أمُّه أُمِّه حبشيَّة  
اسمها زبيبة وأبوه من سادات عيس . وكان من عادات العرب ألا تُلجِجَ ابنُ الأُمِّ

بسيها ، بل نجعله في عدد العبيد ، ولذلك عاش عنترة منبذاً بين العبدان . يرى الأبل والخيـل . إلّا أنّ نفسه الكبيرة أثبتت أنّ تكون في أجواء الحرية والشهامة ، مراح بمارس الفروسية ولم يمض زمنٌ إلّا وعنترة فارس شجاع . وحدث في أحد الأيام أن أعار بعض العرب على قوم من بني عبس فأصابوا منهم ، فتعهم العبيون ، فحقوهم فقاتلوهم عما معهم . وعنترة فيهم . فقال له أبوه : « كُرباً عنترة ! » فقال عنترة : « العبد لا يحسب الكُرب ، إنما يحسب الجلاب والصرة »<sup>١</sup> . فقال : « كُرباً وانت حرّ » فكَرّ وقاتل قتالاً شديداً حتى هزم القوم واستنقذ الأبل ، فادّعاه أبوه بعد ذلك وولّحق به نسيه .

٢ - بطل داحس والغبراء : ومضى عنترة في طريق المجد يُقاربُ الحوارس في حرب داحس والغبراء ( حرب السباق ) ، وفي نفسه أشياء من ابنة عمّ أحيها وتهاك في حها . فغرت منه لسواده وأصله ونفر منه ذووها ، ومن قوم تحاملوا عليه وغنوا في تعيره . وقد زاده كلّ ذلك استبشاداً لإرضاء عيلة ومدّ أشتاق المتشكّفين . إلّا أنه حز في نفسه فأدأبها عاطفة ولوعة واستعطافاً إلى أن قُتل سنة ٦١٥ وله من العمر تسعون سنة . وقد أصبح عنترة رمز الشجاعة والبأس ونسجت مُمخلة الشعب حول حياته وقبره أسطورة كبرى هي الملحمة الشعبية المعروفة « بقصة عنترة » وإذا عنترة فيها فارس مثالي مضحّم ، وقد نال التصحيم كلّ ما فيه من سواد وبأس وشعور ولوعة ، وإذا الحوارق تُحيط به من كلّ جانب ، وإذا هنالك عالم غريب جمع الشبل والحب والقهوة إلى أقصى حدّ

#### ٢ أدبه - المعلقة :

لعنترة بن شداد ديوان شعر أكثره في العجز والحاسة والغزل العفيف . وقد كثر المنحول فيه كما تعددت الروايات في الثابت منه .

والمعلقة أشهر ما في الديوان ، وهي قصيدة طويلة تقع في نحو تسعة وسبعين بيتاً من البحر الكامل . وهكذا عدد لشعر عنترة وجهين هامين : وجهاً غنائياً وجدائياً ، ووجهاً

١ الصرّ . شدّ الضرع يرباط ، ومن عاداه العرب أن تصرّ صرّح الحلويات إذا أرسوها للرجى سارحة ، ويسمون ذلك الرباط الصرار ، فإذا راحت عشياً حكّت تلك الأميرة وحكّت

قصصاً ملحمة. والوجهان مختلفان متمتجان ، لا يقوم الواحد بدون الآخر ولا يفهم الواحد إلا مع الآخر.

١. سب نظم المعلقة ومطلعها : نظم عنتره هذه المعلقة في أثناء حرب الساق التي انتهت سنة ٦٠٩ . وكان الباعث على نظمها أن رجلاً من عبس ساءب الشاعر وغيره بسواده وسواد أمه وإخوته ، فأجابه بما يعلو به وفصل مناقبه مفاجراً.

وإليك الخبر كما رواه الأقدمون .

وَرَدَ فِي كِتَابِ «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ما يلي : «كان عنتره من أشد أهل زمانه وأجودهم ما ملكت يده . وكان لا يقول من الشعر إلا البتين والثلاثة ، حتى ساءب رجل من بني عس فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وغيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر فقال له عنتره : والله إن الناس ليرافدون بالطعمة لما حضرت مرقاة الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط ، وإن الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بشويعهم ، فما رأيناك في حيل معرة في أوائل الناس قط ، وإن اللبس ليكون بيننا ، لما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطبة فصل ، ولما أنت قفع ست بقرقر واني لأحضر اليأس ، وأوأي المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفضل بخطبة الصمصاء ، وأما الشعر فستعلم . وأنشد معلقته ومطلعها :

هَلْ عَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ ؟  
يَا ذَاكَ عِبَلَةَ سَالِجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمْي صَبَاحاً ذَارَ عِبَلَةَ وَأَسْلَمِي ...»

٢. مضمونها : لمعلقة عنتره مقدمة ضمتها ذكريات وعبراً ، ثم وصفاً لعبلة ولناقته وقد انتقل بعدها الى نفسه فصورها مزيجاً من كرم وشرف وشجاعة وإقدام ، واعتخر في رقة ولوعة ، ووصف فرسه في لطفة ونبض .

١ - يترافون : يتعاونون ، والرمد : المطاء والصفة : الطعمة ، بضم الطاء : المأكلة والدعوة الى الطعام

١ - الفصل : القضاء بين الحق والباطل ، واسم ذلك القاضي الذي يحصل بينها فيصل .

٢ - الققع : ابرح من الكاه وهو أرذوها القعر الأرض المعمنة البينة . وهذا مثل ، يقال : أذل من قع بقرقره لأن الدواب تتجلى بأرجحها ولا أصول له ولا أخصان .

٣ - الصمصاء : الماصية .

٤ - غادر : ترك . المترد : أي شيء يصلح لم يكونوا أصبحوه .

٥ - الجواء : بلد في ديار عس . عي : اسم أي أمه الله صاحبك وأدامك سنة .

٣ - عترة من معلقته : يبدو لنا عترة من خلال معلقته كما صوّره الدكتور طه حسين إذ قال : « في عترة معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيقٌ دون أن تنهي به الرقة الى الضعف ، وهو شديد دون أن تنهي به الشدّة الى العنف ، وهو صاحب شرب دون أن ينهي به السكر الى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب صحو دون أن ينهي به الصحو الى التقصير عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو غفيفٌ إذا قسمت الغنائم ، وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به العربي الكريم ».

#### ٤ - فته في معلقته :

١ - نخلو معلقة عترة من الفكر المتسلسل ، والناء المتربط ، إنها سلسلة من المفاهيم تتخللها النظرات الى عبلة في شوق واستئالة ، ويتمثل عترة لقارئ هذه الأبيات عملاقاً أسود ، حديد القوة ، ملتحع العينين ، مفتول العضلات ، يجمع القسوة الى اللين ، والشجاعة الى الحكمة ، والبداءة الجاهلية الى روح القروسية والإنسانية الرفيعة . واجميل عند هذا البطل أنه صادق في اعترافه ، وإن صدقه هو صدق الطفولة العذبة التي تصحّم المعنى في غير اعتماد شديد عن الواقع .

٢ - كان هدف عترة أن يردّ على المعيرين وأن يقدّم لعبلة صورة غير التي كانت تراها فيه أو تراها على ألسنة الجماعة ، أعني صورة الأسطورة العنصرية والأعجاب والفروسية .

وهكذا كان في نفسه صراع عنيف ، فهو من جهة يعاني شعور النقص الاجتماعي في مجتمع قبلي قائم على العصبية ، وهو من جهة أخرى يعلم أنه كامل العدة والأداة ؛ وهذه الحقيقة الذاتية تنتفض أمام الوهم الاجتماعي الخاطي . وهو مع ذلك يشعر بأن الوهم الاجتماعي هو المسيطر ، وهو المنفذ رأياً وفعلاً ، وأنه إذا أراد الوصول الى أهدافه لا بد له من إزالة ذلك الوهم بحقيقة تقوم مقام النسب والياض ، بحقيقة ترغم الفوس على الإقرار بأنه حرّ ، وبأنه ابن شدّاد ، وبأنه عيسى ومن أساطين بني عيس . وكيف الوصول الى ذلك ؟ ... إنّ الطريق الوحيدة هي أن يرتفع الى أعلى قمة بطولية ومعنوية ، ولاسيما وإنّ المجتمع القبلي قائم قبل كلّ شيء على القوة المادية والمعنوية .

فصالح البطولة الى أقصى الحدود، وغامر ما استطاع المغامرة؛ وعالج القروسية الى أقصى الحدود فكان جواداً، كريماً، أنوفاً، وكان مزيجاً من أشد شدة وألين لين، مزيجاً من أعنف عنف وأحنّ حنان. وجد من نفسه وفطرته ميلاً الى ذلك كله كان له نعم المساعد في كل ما قال وما فعل.

٣ - ومفاخر عترة مزيج من فن غنائي وفن ملحمي. إنه يتحدث عن بطولته ومغامده، وهذا يقوده الى بعض السرد القصصي كما يقوده الى التضخم. فهو أليف السرج على جواد قد الكمال والسرعة والنشاط، لا يرى في الحياة إلا ميدان قروسية ونجدة.

وهو سهل المخالقة إلا أنه لا يقبل الظلم، بل يقابله بظلم أشد منه، وهو يشرب الحمرة ويبدل المال في سبيلها كريماً، إلا أنه لا يُبذل الحمرة من عريضه، ومتى عاد الى صحوه لا يقصّر عن الندى والعطاء:

فلمذا شربت فلم تني مُستهلكاً مالي، وعرضي وإير لَمْ يُكَلِّمْ<sup>١</sup>  
وإذا صحوت فما أقصّر عن ندى وكما علمت شألي وتكرمي<sup>٢</sup>  
هلاً سألت الخيل يا أبتة مالك إن كنت جاهلة بما لَمْ تُعلمي  
إذ لا أزال على رحالة سابع نهدي تعاوره الكأبة مكلّم<sup>٣</sup>  
يُخبرك من شهد الوقائع أنني أغشى الوعى وأعف عند المغمّر

وهو رجل الشجاعة يترك البطل مجدلاً على الأرض ساجداً في دماته، ويحارب بالسيف والرمح والقوس. إنه يغشى الوعى ولكنه عند تقسيم الغنائم عفيف يصدّه عنها حياؤه وتكرمه. وهو يُنازل كل جبار كريم فيقطعنه بالرمح ثم يعلوه بالمهتد، وبعد أن يقضي عليه يتركه طعمة لسباع البر. وهكذا هو لكل كبيرة وصغيرة.

وهكذا فعترة أبي لا يقبل الضم، حساس ذكي الفؤاد، وفيه، لا يطبق الحق، جواد وافر السخاء، شجاع قوي الأمر، إذا جد الخطب التفت طليعة القوم

١ - لم يكلم: لم يظلم.

٢ - صحا: أفاق من سكره - والمغى أنه يسبح في حالة السكر وفي حالة الصبح.

٣ - تعاوره: يطمعه. هد مرة وذلك أخرى الكأبة: الشجعان. مكلّم: الجروح.



يحمل حملة الرِّثَال ويكرِّرُ كُرَّةَ الْقَسْوَرَةِ، تتحماها الفرسان وتكره لقاء الأقبال. وإذا نهد لعدوه فكانه القضاء المسلط أو الشهاب المنقض أو البركان للتفجّر، أو اللهب النائر.

ثم هو صاحب مروعة ونجدة، لا يستبي النساء، ويعاف المغام، ويحفظ الحرمات. ويرعى الجوار ويقبل العثرات، ويتسامح في الزلات، وهو أن ذلك ذاهية في الوأي، صاحب قول ومشورة، ظاهر في قومه، مُرَّرٌ في عشيرته، وموصوع أمل وموئل رغبة، كما أنه في الحرب حامي القبيلة وفارس القوم وقائدهم يحتمون به إذا عتا الكُرب وحمي الطعن والضرب.

٤ - ونحن كان عترة فارس الفرسان، وقاهر الأبطال في الميدان، فهو صادق العاطفة عبقها. وهو رقيق الشعور نبيله

إنه يقف أمام أطلال عيلة في غير اندفاع وجداني. ولكنه يذوب وجداً ولوعة أمام عيلة نفسها. فيريدها أن تسأل عنه الخبل وعجاج القتال حتى تطمئن إليه، وتستقر في جبهاته. وهي أبداً في قلبه وعلى لسانه، وابتهامتها مشرقة في القاعة السيف وتوهج السنان، فيودّ تقبيل السيوف لأنها تلمع كدارق ثغرها المنبس:

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كَدَارِقِ كَفَرِكِ الْمَتَسِّمِ

وهو بوجه الكلام إليها وكأنه لا يطلب إلا رضاها وإن غضب جميع أبناء القبيلة. فهي شقيقة روحه، وهي أمه في هذه الحياة، وهي التي توحى له بأسمى معاني الفروسية وتحمله على أعظم البطولات. وكأنني به لا يجد مفرّاً في قوادة نفسه من نقصه الاجتماعي القبلي، فيتوجّه إلى عيلة ويهرب إليها من التّعير، ويخشى أن يؤثّر في نفسها ذلك التّعير نفسه. يريد أن تكون له مجتاً، ويخشى أن تتحوّل عنه. وهو من ثمّ يحارب على عدّة جبهات: يهاجم أبناء القبيلة المعبرين بمهاجمة الأعداء المعبرين. ويهاجم عيلة بسياج التوقّي ونشر الصفات الحبيّة؛ وذلك كله في صراع وجداني شديد الوطأة، شديد الفعالية...

وهو يهاجم قرّنه في غير احتقار، فيرفع من شأنه ويضعه بالكرم والجود، والهيبة والبطولة. وهذا نبلٌ عربي أصيل، فالكرم الكرم لا ينكر الكرم إذا تجلّى في عدوه.

واشجاع الشجاع لا يُنكر البطولة إذا امتاز بها الخصم. نعم إن عترة يُعلي شأن حصمه لتضخيم نصره عليه ، ولكن هذه المريّة لا توجد إلا في كبار النفوس .

وعترة شديد العطف على جواده ؛ شديد التفاعل وإثاء . إنه يئنّ لوقع القنا بلبائيه . ويكاد يشكو كالجواد بعيره وتَحْمُحُم . وهذا الجواد صوّال جَوّال كصاحبه ، ورقيق الشعور إنسانيّ بإنسانيّة فارسه :

مَا زَلْتُ أُرْمِيهِمْ بِعُرَّةٍ وَجْهِهِ      وَلِبَائِهِ حَتَّى تَسْرِبَلَ بِالْذَمِّ  
فَأَزْدُرُّ مِنْ وَفَعِ الْقَنَا بِلْبَائِهِ      وَشَكَا إِلَيَّ بِعُرَّةٍ وَتَحْمُحُمِ  
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى      وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامُ مُكَلِّمِي

٥ - وإذا انتقلنا إلى الجماليّة الشعريّة في معلّقة عترة وجدنا أنها دون جماليّة امرئ القيس خيالاً ، واستكثاراً ، وإن تفرّقت عنها في القَبُض الوجدانيّ ، والسهولة والطيّة . البحر الطويل في معلّقة امرئ القيس أكثر استيعاباً للمعاني من البحر الكامل في معلّقة عترة ، وهو أشدّ وطأة على النفس ، وأوفر جلالاً ، وأبعد أنراً . والوقوف بالطلّول عند امرئ القيس أكثر إيجازاً ، وأوسع أبعاداً . والوصف عند امرئ القيس أكثر مادنيّة ، وأشدّ اعتياداً على التشبيه والصناعة اليبائيّة .

والعبارة الشعريّة عند امرئ القيس أشدّ أسراً وأروع سبكاً .

ولكنّ عترة أصدق وجداناً ، وأرقّ عاطفةً ، وهو شاعر ملحميّ على طريقة الجاهليّين يتحوّل الوجدان في شعره إلى جنّاحيّ تدوم في أجواء البطولة الأسطوريّة .

وإننا نلمس بعض التشبيه المادّي في معلّقته ، من ذلك أنّ ظلمه مرّكطعم العلقم . وأنّ فرصة خصمه تمكو كشندق الأعم . ولكنّ هذا التشبيه يكاد يخلو من البراعة الفنيّة ، ومن الصورة الحيّة الفعّالة . وأروع تشبيهاته في هذه المعلّقة ما جاء في قوله :

فَوَدِدْتُ تَغْيِيلَ السُّيُوفِ لِأَنْهَا      لَمَعَتْ كِبَارِقِ تَغْرِيكِ الْمُبَشِّمِ

٦ - ومها يكن من أمر لعنترة فارس الشعراء وشاعر الفرسان. وفخره فخر السذاجة والبطولة والأباء. وأسلوبه أسلوب العذوبة واللين والسهولة، وكلامه كلام الروح والقلب واللسان.

### ٣- عنترة الشاعر الفارس:

في عنترة جميع الصفات التي كان يتحلَّى بها فرسان القرون الوسطى من شجاعة وشرف وقِتال في سبيل هدف أعلى، ومناصرة للضعيف، وحبٌّ شديد عميق لفتاة كريمة يعمل جهده في إرضائها. وهو شاعرٌ فَيَّاضُ القريحة يلتبِّحُ حماسةً، فينظم الشعر ويصف مواقفه، وإذا نَفَسَ يقترب من نَفْسِ الملاحم. فهو يجعلنا في جوٍّ ملحميٍّ أبطاله سيف الشاعر ورمحه وساعده، وخوارقه أعمال الشاعر التي يضحُّمها الخيال الخلاق، ويُغشِّي قصصها بالصور والألوان، فتوالى على السمع والبصر في إيجازٍ بعيدٍ عن التخصيل، وفي موسيقى شديدة الوقع، ولغةٍ وقايةٍ فيها عزة الشاعر وثورته ومزاجه. وإننا، ونحن نقرأ شعره، نشعر أننا أمام امرأة هي أشبهُ شيءٍ بهيلاة التي كانت سببَ الحرب بين الإغريق وطروادة. أمام عينة التي يثور لأجسها ويُحارب في سبيلها، ويسفكُ الدماءَ أنهاراً؛ وأننا أمام بطلٍ هو أشبهُ شيءٍ بأخيـل طيار الخطى، الذي يعتزل الحرب لخلافٍ نشب بينه وبين أغاممنون ويترك قومه عرضةً للثف، أمام عنترة يعتزل الحرب لخلافٍ نشب بينه وبين قبيلته، لخلافٍ مرَّده إلى أن عنترة ابن أُمِّه لا يحقُّ له الانتساب إلى قبيلته ولا يحقُّ له الاقترانُ بابنة عمِّه، ولا يحقُّ له أن يكون حراً. وما اشتدَّ الأمرُ على عبسٍ وكاد يذركهم انكفَّ صاحوا به: «وَيْلَكَ عَنَّا أَقْدَم!» فيُقدِّم عنترة حراً، ويُبددُ حيوش الأعداء، وينشرُ الدَّعْرَ في البلاد على جوارٍ يكاد يتكلم، وسيفٍ يحزُّ الرُّؤوس، ورمحٍ يحترق الصدور، ويطيِّر القلوب.

\*\*\*

أدب عنترة مزيج من عاطفة وخيال، يعتمد لوقائع التاريخيَّة أساساً لانطلاقه، والنَّفْسُ مورداً لحنونه وشعابه. أما العاطفة فعميقة التأثير، صادقة الانفعال والوجع بمكوناتها، وأما الخيال فسادجُ التضخيم عذبُ المعالاة، وأما الفكرُ فقليلة العمق بعيدة عن الترتيب والتنسيق والتحليل وأما اللغة فسهلة صافية التراكيب. إلا أن هذا

الأدب حفل بالمنحول من الشعر ولاسيما بعد ظهور «قصّة عنترة»، فتنافس الرواة والأدباء في نظم الشعر العنتري، ونسبوا إلى ابن شدّاد ما لم يقله من المنظوم المضطرب، وهذا لم يحطّ من شأنه بل زاده بروزاً وارتفاعاً.

### مصادر ومراجع

- حسن عبدالله القرشي. فلوس بني عيس — القاهرة ١٩٥٧.
- جرجي زيدان: عنترة بن شدّاد — اعلان ٥ : ٧٢٣.
- نّواد افرام البستاني :
- عنترة بن شدّاد - سلسلة «الروائع» — الحلقة ٢٧
- عنترة التاريخ وعنترة الأسطورة — المشرق ٢٨ : ٥٣٤ ، ٦٣١.
- حنّا الفاخوري: القصر والحجاسة — دار المعارف — القاهرة
- محمد فريد أبو حديد: أبو الفوارس عنترة بن شدّاد — القاهرة ١٩٤٧
- لويس شيخو: شعراء النصرانية — بيروت ١٩٨٠، ص ٧٩٤.
- جرجي زيدان: عنترة العبيسي. شاعر عيس وفلوسهم — اعلان ٥ : ٧٢٣.



# زُهَيْر بن أَبِي سَلَمَى

(٥٣٠هـ / ٦٢٧م)

١ - تاريخه : ولد زهير في نجد نحو سنة ٥٣٠هـ وشأ في عصمان وتلشد في الثغر والحكمة لخدمة ولأوس بن حنظل . له ولدان شاعران هما : كعب وبيشير . قضى حياته يطلب لمحرمه السلام وندح للصلحين من مثل هرم بن سنان توفي نحو سنة ٦٢٧هـ .

٢ - أدبه

- ١ ديوانه : له ديوان شعر أكثره في المدح . وأشهر ما فيه المعلقة .
- ٢ معلقته ومضمونها : هي مبيعة تقع في نحو ٦٠ بيتاً ومها مدح للمضامين . وتفتح لبحر ، وجموعة من الحكم
- ٣ منزلته الأدبية : لزهير شهرة واسعة وهو من أشد شعراء الجاهلية ذكاً في الوصف واستكلاً للصورة الحسية بطريقة متسلسلة

٣ - زهير من معلقته : حكم هادئ يقوده عقل ثير وبصيرة واعية .

٤ - الناحية الفنية في المعلقة - معلقة زهير نعمة التشخيص المائلة .

- ١ الغزل : هو غزل الذكرى . الخالي من الحيوة .
- ٢ المدح والتعجب . فيها قصد واعتدال . وتشخيص وتجسيم ومحاولة لتضخيم لأثر الصورة الحسية .
- ٣ الحكم :

حكمة عقل وخبرة : هي ولادة الزمن والتجربة والتأمل

الحلّ السلمي . هو حير من الحلّ الحربي لأن الحرب ويلي ودمار . وقف زهير موقف الحكم والقاضي وشرع .

معالجة الظاهر : يعمل زهير على معالجة ظواهر الحياة أكثر مما يعمل على معالجة الأسباب والحدود

تفكير في غير بناء . ليس زهير رجل العقل الذي يبني ود كان من المفكرين .

الآثران وثائق : وهو رجل اهداه والتأني والآثران . عاطفة عقلية .

أسلوب تعليمي . ثقافي وتنقيح وصقل وواقعية .

## ١ تاريخه :

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة من مُزَيْنَةِ الْمُضَرَّةِ . وُلِدَ تَجِدَ نحو سنة ٥٣٠ هـ . ونشأ في غَطَفَانَ ، وأخذ الشعر والحكمة والترصن عن بِشَامَةَ خَالِ أَبِيهِ ، وكان شبيحاً مُقْعِداً ، وعنياً برحمة العقل والمال . هلزمه زهير وحفظ له ، كما تتلمذ لزوج أمّه أوس بن حَحرٍ واتَّخذ طريقته في الشعر .

تَرَوَّجَ أُمُّ أَوْفَى ، وإن لم يكن له منها أولاد طَلَّقَهَا واقتَرَنَ بِكَبْشَةَ الَّتِي أُبْجَتَ لَهُ شَاعِرَتَيْنِ هما : كَعْبٌ وَبُجَيْرٌ .

وانقطع زهير لسيد شريف اسمه هَرَمٌ بن سنان ، فلدَّهَ وتَعَيَّى بِكِرْمِهِ وَحَبَّهِ لِلْغَيْرِ وَالسَّلَامِ ، وتوسَّطَهُ بِالصَّلَاحِ بَيْنَ قَبِيلَتَيْ عَبَسٍ وَذُبْيَانَ فِي حَرْبِ السَّبَاقِ ، وقد أغدق عليه هَرَمٌ العطايا .

وتوفي زهير نحو سنة ٦٢٧ وله من العمر نحو ٩٧ سنة قضاهَا رزناً حكيماً داعياً الى الخير والصَّلاح ، منصرفاً الى الحقِّ كُلِّ جوارحه . وكان رجلَ الْعَقْلِ وَالْإِتِّوَانِ يكره الحرب والمناوشات القبليَّة ، ويدعو الى التَّصَنُّعِ والتَّعَالِي عَنِ الْأَحْقَادِ والتَّقَالِيدِ الْبَدَوِيَّةِ الَّتِي تُبْجِحُ الْغَزْو ، وتفتَحُ بَابَ الْمَرَاعَاتِ وَالْحُصُومَاتِ وَاسْعَا .

قال ابن قتيبة : إِنَّ زهيراً كَانَ يَتَأَلَّهُ وَيَتَعَمَّقُ فِي شِعْرِهِ ، وقد نظر إليه الْمُؤَرِّخُونَ نظرة احترام ، ونظر إليه أبنَاءُ زَمَانِهِ نظرة تَحَمُّلَةٍ ، وانقاد له أُنَاءُ قَبِيلَتِهِ عَلَى أَنَّهُ سَيِّدٌ مِنْ أَسْيَادِهَا .

## ٢ - أدبه :

١ ديوانه : لُزْهَرِ دِيوَانُ طُبِعَ فِي لَنْدُنَ سَنَةِ ١٨٧٠ هـ ، ثُمَّ طُبِعَ فِي لَيْدِنَ سَنَةِ ١٨٨٨ هـ مع شرح الأَعْلَمِ الشُّتَمِرِيِّ ، ثُمَّ فِي مِصْرَ ١٣٢٣ هـ . وقد انطوى على مدح لَهَرَمِ بن سنان وأبيهِ وَقَوْمِهِ ، ومَذْحٍ لِلْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ ، كما انطوى على بعض الهجاء والنمخ . وأشهر ما فيه المعلقة .

٢ - معلقته ومضمونها : مَعْفَةُ زهير مِيمِيَّةٌ مِنَ الْحَرْبِ الطَّوِيلِ نَقَعِ فِي حَوْسَيْنِ بَيْتاً ، نظَّمَهَا الشَّاعِرُ عِنْدَمَا تَمَّ الصَّلَاحُ بَيْنَ عَبَسٍ وَذُبْيَانَ عَقِبَ حَرْبِ السَّبَاقِ ، وقد مدح فيها

المُصلِّحين، وحلَّزَّ المُصالحين من إضمار الجُفْد؛ وهكذا رمى إلى مدح هرم بن سنان والحاتر بن عوف اللذين تحمَّلا دياب القتى في تلك الحرب، وحضنا الدماء بين المتقاتلين. فأفتتح كلامه بالوقوف على الأطلال جرياً على عادة الأقدمين، ثم انتقل إلى مدح المُصلِّحين، وتطرق إلى الصِّلح فبيَّن أنه سبيلُ الهناءة في العيش إذا كان صادقاً، ويبيِّن أنَّ الحرب شرٌّ ووبال، ثم نثر حكماً جعلها قاعدةً للسعادة وطريقاً للوفاق.

٣- منزله الأديبة. طارت لزهير بن أبي سلمى شهرة واسعة في عالم الأدب والسياسة. قال ابن عباس: «خرجتُ مع عُمر (ابن الخطاب) في أول غزاة عراها، فقال لي ذات ليلة: يا ابن عباس: أنشدني لشعر الشعراء. قلتُ: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبي سلمى. قلتُ: وبِم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاظم من المنطق، ولا يقول إلّا ما يعرف، ولا يتلدج الرجل إلّا بما يكون فيه».

زهير بن أبي سلمى من أشدَّ الشعراء الجاهليين دقَّة في الوصف، واستكمالاً للصورة الحسية بطريقة متسلسلة نرضي العقل والخيال معاً.

ومن أشهر ما في معلقة زهير حِكْمُهُ التي حولته مكاناً مرموقاً بين الشعراء.

أما مطلع المعلقة فهو:

أَمِرٌ أَمْ أَوْفَى دِمْنَةُ لَمْ تَكَلِّمْ	بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَاسْتَلَّمْ <sup>١</sup>
وَدَارٌ لَهَا بَاكِرَتَيْنِ، كَأَنَّهَا	مَرَجِيعٌ وَشَمٌ فِي تَوَاشِيرٍ مِعْصَمٍ <sup>٢</sup>
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً	فَلَأَيًّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ <sup>٣</sup>
فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِزَيْبِهَا:	«لَا أَنْعِمَ صَبَاحاً. أَبْهَى الرَّبْعُ وَأَسْلَمُ».

١- أس أم أوفى يريد أم سارول أم أوفى، وأم أوفى امرأة الشعر الدمنة: آثار الدار حومة المراح والمتلم. موصون سعد.

٢- الرقمان: موضع. مراحج الوشم؛ خطوطه البجدية. وائر المعصم عروة

٣- لأى: بعد جهْد ومشقة.

## ٤ - زهير من معلقته :

يدو لنا زهير من خلال معتقته شيخاً شيع من الأيام ، وحكيماً تفهم قيمة الحياة ومعناها ، لا تطفئ عليه عاطفة جموح ، ولا يثور به خيال صبياني ، فهو هادي السرب . يقوده عقل نير وبصيرة واعية . فيتخذ العادات العربية النسيئة نبراساً ، في ظل حياة هادئة سعادتها في هدوئها وسلاها . وهو ينصب نفسه حكماً ومرشداً في قومه ، يشجع المصلحين ويدعو الى التفاهم .

## ٥ - الناحية الفنية في المعلقة :

معلقة زهير ، شأن سائر المعلقات ، خالية من الوحدة التأليفية وإن اقترنت من تلك الوحدة وكادت ترمي الى هدف واحد هو الإصلاح ، وهي ثمرة الشيخوخة العاقلة الواعية التي تجعل للعقل والرزانة والتروي المحل الأول في كل شيء .

١ - الغزل : عزل زهير في معلقته هو ذكرى تنفض من بعد عشرين حجة ، هو حب تذكاري ، ولهجة تتخذ من الماضي السحيق بعض القوة ، هو اصطناع للحب ، وهو نعرف الى ديار الحبيب ، وهو سلام ، وتشيع بالنظر مضطجع ، وهو رصانة تنتج عن انطفاء الشيخوخة ، فما في أحبائه إلا ملهى للطيف ومنظر أنيق لعين الناظر للتوسم . وهكذا كان الحب عنده رسالة ، وكانت المسافة رسالة الغرام ، والتوسم انفجار العواطف . وهكذا كان عزله جامداً يسيطر عليه العقل ويقود فيه العاطفة والخيال إلى ما يريد ويقدر ما يريد .

٢ - المدح والتصحیح . ويتنقل زهير بهدوء الى موضوعه الأساسي : أعني الإصلاح فيمدح وينصح ، وإذا في مدحه قصد واعتدال ، وكأني بزهير يقول للمحسن : أحسنت ! ... عافاك ! ... وذلك بلا غلو ولا كذب . ويعتمد زهير على خبرة الأجيال فيبين للممدوح نتائج العمل الصالح من عظمة وتقدير واحترام ، وأوصافه في ممدوحه لا تخرج عن نطاق مقومات الشرف العربي الجاهلي ، وهو في ذلك بشير باهتمام الى ما يرجع بالخير على المجتمع القبلي .

ولهجة زهير في التصحیح لهجة الشيخ الذي يحاول الانفعال ويحاول التشديد في



الكلام ، فيشدّد في إظهار نتائج الحرب وقبحها ، ويشدّد في تجسيم الحرب وتشخيص المول ، ويجعل كلامه محسوساً ملموساً مقنعاً بأسلوبه الخطابي وإيراد البرهان التّجسّمي الحسي ، وإصافة التخويف إلى التّجسيم ، وزيادة بعض الغلو في التّصور . وكأنّني بالشاعر مرتجف الصوت قويّه ، يرسله براتٍ خير وإرشاد وهداية من غير ما خرج عن رصانته وتعلّقه وحسن اختياره لصوره الحسيّة والألفاظ الدقيقة الأداء .

إلا أنّ في وصف الحرب وفي ما هنالك من استطراد تشبيهيّ ما يبعث على بعض الاشتزاز . فإنّ هذا الوصف ، على ما فيه من تجسيم وتصور حسيّ ، يتضائل أمام الذوق الفنّي ويكفهر أمام مقاييس الجمال الأدبيّ ، فهو يحلو من الروعة وإن لم يحلّ من الأثر الحقيقي في قلب البدوي .

٣ الحكيم : وكأنّني بزهير يحتم قصيدته بطائفة من الحكم ليزيد من مدحه ومن أسدى إليه النّصح ثباتاً وعقيدة ، وكأنّني به يريد أن يسنّ دستوراً للحياة يصبّ فيه عصارة معارفه وخلاصة خبرته . ثم يثر أفكاره وإذا هي نظريّات صادقة في الحياة وحسن التصرف فيها ، وهو يذكر الواجب وما ينتج عن الإهمال في القيام به ، وكأنّني بزهير يقيم البرهان على ما يقول بذكر النتيجة وهو يكتفي بهذا البرهان جرياً على عادة الأقدمين في الإيجاز والمّح في التعبير .

١. حكمة عقل وخيرة : حكمة زهير وليدة الزمن والاختيار والعقل المفكّر المهادي الذي يتطلّع الى الحياة تطلّع رصانة وتقيّد بسنن الأخلاق الخاصّة والعامة . وهكذا هالشاعر رجل المجتمع الجاهليّ الذي يؤمن بالآخرة وثوابها وعقابها ، ويؤمن بأنّ الحياة طريق الى تلك الآخرة . وبأنّ الإنسان خلّق لكي يعيش في مجتمع يتفاعل وإياه تفاعلاً إنسانياً بعيداً عن شرعية الغاب ، وبعيداً عن القلق والاضطراب . وهكذا زهير ابن الجاهليّة وهو ابن الاساية أيضاً ، يعمل على التوفيق بين الروح الجاهليّة والزّعة الانسانية في سبل سعادة فردية واجتماعية .

٢. الحلّ السلمي خير من الحلّ الحربي . وقد شهد زهير حروب السباق وتطاحن القبائل ، ورأى أن الحروب من أشدّ الويلات على الانسان فكرهها كرهاً صادقاً ، وسعى في أمر الصلح ، وامتدح المصلحين ، ونذّر بالمحرّضين على استخدام قوّة السلاح ،

ودعا الى نبذ الأحقاد ، ووقف موقف الحكم والقاضي والمشتزع ، كما وقف موقف الهادي والمرشد والمصلح . وكان مداه أن ما يحل سلميًّا خير مما يحل حربيًّا ، وأن الحرب هي آخر ما يجب اللجوء إليه ، وأن الطيش والعناد يقودان الى الدمار :

وَمَنْ يَعْصِرُ اطْرَافَ الرَّجَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتُ كُلِّ لَهْنَمٍ<sup>١</sup>

ولكن عنصر القوة من مقتضيات الحياة القبلية في الجاهلية ، والقبائل مترتبة بعضها ببعض ، فلم يستطع رهبر ، على حبه لسلام ، من الخروج على سنة المجتمع القبلي . فهالك الغرض والشرف ، وهالك العصية التي تدعو الى ماصرة أبناء العشيرة ، وهالك تقاليد الثور ، والدفاع عن اجار ، وهالك موارد المياه ومراعي القطعان ، والطبيعة الشريرة في شتى أهوائها وأطاعها . كل ذلك يفرض على الجاهلي أن لا يتغاضى عن وسيلة السلاح ، وأن لا يظهر بمظهر الضعف في مجتمع لا يؤمن إلا بالقوة . وكأني به يقول ، ورد في المثل اللاتيني : « إذا شئت السلم فأذهب للحرب » :

وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهْدَمَ ، وَمَنْ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ<sup>٢</sup>

٣ . معالجة الظاهر أكثر من معالجة الأسباب والجلود . ورهبر خير بأحوال الناس ونزعات طبائعهم . وهو يحسن التفهم لمعنى الاستقامة والاعوجاج ، ومعنى الرذيلة والفصيلة ، والعوامل التي تصدر عنها أعمال الناس في خيرها وشرها ، فيعمل على معالجتها في الظاهرة ، أكثر مما يعمل على معالجتها في الأسباب والجلود . وذلك أن الرجل جاهلي وهو يخاطب مجتمعا جاهليا ، والرجل والمجتمع بعيدان عن العلم ، بعيدان عن نزعة التحليل والتأمل ، يفهمان الأمور على أنها ظاهرات حسية ، وعلى أنها ذات نتيجة خيرة أو شريرة ، في غير تعمق ولا تفلسف . ولذلك ترى الشاعر يقتصر على الظاهرة ، ويزهوا في سهولة وصراحة وجراحة ، لا يطلب إعجابا بقول ، ولا شاء على بلاغة ، ولا يهدف إلا إلى الإصلاح والإرشاد ، في استقامة خطته ، ووضوح معنى ،

١ - كان من عادة العرب إذا التقى الفريقان أن يثيروا دجاج الرماح (واتزع هو الحديدي في أسفل الرمح) ، ثم يسعى الساعون بالمصلح ، فإن سمحوا ، ولألقوا برماحهم واقتلوا بالأسنة . يقول : من أسى الصنع والمسالة ذللت القوة . - واللهيم . الستان الطويل الحاذق

٢ - الحوص كل ما يخار المرء على حفظه وسلامته . يقول : من لا يذفر انظم يظلم

وبساطة عبارة ، ودقة أداء . ولهذا ترى جميع أبياته الحكيمية قريبة المنزل ، بعيدة عن التعقيد والغموض ، وكأنني به لا يقول إلا ما يعرفه جميع الناس .

٤. تفكير في غير بناء : وزهير رجل العقل الذي يفكر ، وليس رجل العقل الذي يحلل ويبنى ، وذلك لأنه قريب الى الفطرة والبداءة . وهو — شأن الساميين — يهيم أن بدلي بالرأي ، ولا يهيم أن تكون الآراء متسلسلة مترابطة . ولهذا نراه يثر الأفكار فكراً فكراً ، وكأنني بكل « فرد » من « أفراد » هذه الأفكار ، فرد من المجتمع الجاهلي ، في استقلاله ، وانفراد ذاته ، تربطه بغيره روح الجوار والعصبيّة . لا روح التسلسل والبناء . ومع ذلك فزهير يحاول أن يدعم كل رأي من آرائه ببرهان هو نتيجة المخافة وعقوبة العصيان ، وهكذا يستخلص من كلامه دستور للبدوي يتضمن نظام العمل ونظام العقوبات .

٥. اتزان وتأن في هدوء وواقعية : وزهير رجل الاتزان والتأني لأنه نشأ رزياً ، وشاخ رصياً وقوراً . وقد أضفى رصانة شيخوخته على أقواله ، فضاءت فيها العاطفة ، وتقلص ظل الثورة المهادرة ، وتجمد الخيال في الواقعية الصورة والحقيقة ، فأنت أقواله جامدة خالية من الماء والرواء ، تتوجه الى العقل أولاً ، وتترع مترع المصارحة التي لا تثير الأعصاب إلا بقدر محدود . أضف الى ذلك أن زهيراً سيد في قومه ، وأنه يتكلم كلام السيد الذي تعود أن يأمر وينهي ، وهو رجل الحكمة والفطنة الذي يجعل أوامره ونواهيه في شكل نصيح وإرشاد يخففان من وطأتها ويحدان من حدتها . إلا أن هذا الجمود لا ينل من عاطفة عقلية تعمل على إثارة روح الإيابة ، وإيقاظ عاطفة الشرف ، كما أنه لا ينل من الصورة التي تجسم وتوضح في غير زهو ولا تخليق :

وَمَنْ لَا يُصْنِعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ      يُصَرِّسُ بِأَتَابٍ وَيُوطِئُ بِمُتَمِّمٍ<sup>١</sup>  
وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الرَّجَاجِ فَإِنَّهُ      يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتَ كُلِّ لَهْزَمٍ

٦. أسلوب تعليمي : وهكذا فأسلوب زهير في حكمة أقرب الى الأسلوب التعليمي في هدوئه ورصانته وجفافه . وانك تلمس الرصانة في الوزن الشعري ، وفي حسن

اختيار الألفاظ والعبارات ، وفي الوضوح الفكري ، والسهولة الأدائية . وذلك أن زهيراً يرمي الى النفع ، ولا ينظم لإرضاء الفن الصافي ، ولا لإرضاء الحاجة الشعرية فيه ، وهو لأجل ذلك « يأخذ شعره بالثقاف والتشجيع والصقل ، وكأنه يفحص ويمسح كل قطعة من قطع نماذجه » فهو يعنى بتحضير موارده ، وهو يتعب في هذا التحضير تعباً شديداً » ، وقد نسبت إليه « الحوليات » التي قيل انه كان يقضي حولاً كاملاً في نظمها ، ثم في تهذيبها ، ثم في عرضها على أخصائه .

أما التشبيه فيأخذ به زهير في خدمة الإيضاح وحصر أجزاء المعنى ، وتشبيه جاهلي في مصدره ومادته ، كما في قوله :

رَأَيْتُ الْمَنَآيَا خَبَطَ عَشْوَاهُ مَنْ نَصِبَ نُبْتَهُ وَمَنْ تُحْطِئُ يُعَمَّرُ فَيَهْرَمَ

وزهير لا يكتفي ، كما نرى ، بمجرد التشبيه ، ولكنه يمدّه تمجيلاً واستنتاجاً وذلك في إيجاز وحسن الثقات .

وهو يعتمد أحياناً الى الاستعارة التشبيهية لإحياء الصورة وإكسابها طاقة إبداع كما في قوله « يَضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ مَنَسَمِ » . وقد يعتمد أيضاً الى الكناية التي تمثل الفكرة : وَمَنْ يَعْصِي أَطْرَافَ الرَّجَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتِ كُلِّ لَهْزَمٍ ولكن هذا كله ضئيل ، لأن زهيراً آثر المصارحة على أسلوب المداورة بفعل نزعة العقلية الإصلاحية .

هكذا أورد زهير حكمة وأدلى بآرائه ، وقد نظر الى الحياة نظر من سم مشاقها وغموض مستقبها ، وخبط الموت فيها خطاً أعشى لا تميز فيه بين كبير وصغير ، وصالح وشرير . وهكذا فالسأم عنده ثمرة الاحلال والصعوبات التي تعترض الإنسان ، وليس في نظره تشاؤم ، ولا تهرب ، ولا انقباض ، ولكن فيها إقراراً بواقع يأخذ به في غير نقاش ولا جدل ، ويعمل على أن يعيه الناس وعياً حقيقياً ، وأن يتصرفوا تصرفاً مستوحى من حقيقته القاسية .

وهذه النظرة الواقعية جعلت زهيراً يدعو الى أن يعيش الإنسان في يومه مستفيداً من ماضيه ، وأن يتعدى عن أحلام المستقبل وأن يقدم الحذر بالنسبة الى هذا المستقبل

الخصي، وهو، في ما يتعلق بالحياة الفردية الشخصية، يريد للإنسان أن يتحلّى بالوفاء والمقنعة فلا يخون عهداً ولا يلجّ في سؤال، وهو يرى من زينة النفس الإقدام إذا كان ضرورياً من غير أن يكون في الإقدام وقاحة تعرّض صاحبها للشتم، وهو يحذّر الإنسان من الرِواء والتمويه، ويحرضه على احترام نفسه ومراقبة لسانه.

وزهير، فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية، يدعو إلى المصانعة والسياسة، وبذلك المعروف، والتفضّل على القوم بقلب سخي ويد كريمة، وإثبات الرجولة في مواقف الرجولة... وهو في كلّ ذلك يحاول بناء مجتمع أفضل فيه كثير من الإنسانية والرفق.

## مصادر ومراجع

- طه حسين: الأدب الجاهلي — الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٣٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٦.  
حديث الأربعاء الطبعة الثانية ١ : ٩١.  
فؤاد افرايم البستاني: زهير بن أبي سلمى — الروائع ٢٥ بيروت ١٩٤٢.  
جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ١ : ٩٦.  
الأب لويس شيخو شعراء النصرانية — بيروت ١٨٩٠.  
بطرس البستاني: زهير قاضي صلح يُصدر أحكامه شعراً — المكشوف ١٩٣٨، عدد ١٧٦ ص ٢.  
سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي — القاهرة ١٩٤٥ ص ٨٧ - ٩٢.  
شوقي صيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي — القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣ - ١٩.  
عبد العظيم علي فتاوي: الوصف في الشعر العربي — الجزء الأول — القاهرة ١٩٤٩  
دائرة المعارف للبستاني ٩ : ٣١٠.

F. Krenkow: Zuhair b. Abi Sulma, in Encycl de l'Islam, t. IV.

## الفصل الثالث شعر الكرم والفروسيّة والحميّة

### حاتم الطائي - سلامة بن جندل - الأفوه الأوديّ

١ حاتم الطائيّ

١ - تاريخه : حاتم بن عبد الله من قبيلة طليّ اشهر بالهوى والكرم حتى ضرب به المثل وحتى دخل عالم الأسطورة توفي نحو سنة ٦٠٥ م  
٢ أدبه : لحاتم ديوان شعر طبع عدة مرّات ومعظمه في الفصح والمديح . وشعر حاتم شديد التصوّف شخصه ، وهو يمتاز بالصفاء والشخصيّة وأكثر شعره قصائد قصيرة ومقطوعات فيها بعض من وعورة الجاهليّين وكثير من ليونة المتحضرين .

٣ سلامة بن جندل .

١ تاريخه : سلامة بن جندل من فرسان نعيم المنغذودين . كان معاصراً لعمرو بن عبد الله الجاهليّ أبي قابوس وله فيها شعر . توفي نحو سنة ٦٠٨  
٢ أدبه : لسلامة بن جندل ديوان صغير ، وفي شعره حكمة وخودة ومسانة

٤ الأفوه الأوديّ .

١ تاريخه : هو من كبار شعراء الجاهليّة ، كان سيّد قومه وقادهم في حروبهم توفي نحو سنة ٥٧٠  
٢ أدبه : شعره حافل بالسّلاسة والسّلاوة والجرس الموسميّ العذب .

## أ - حاتم الطائي (توفي نحو سنة ٦٠٥ م)

١ - تاريخه :

هو أبو سَفانة حاتم بن عبد الله من قبيلة طي، اشتهر بالجود والكرم والسباحة حتى ضُرب به المثل وقيل « أجود من حاتم طي » ، واشتهر أيضاً بالفروسية والشعر. ويبدو أنه ورث الكرم عن أمه التي اضطُرَّ إخوتها أن يحجروا على أموالها خوفاً من أن تجود بها جميعاً ، وهكذا كن حاتم وجهاً من أجمل الوجوه التي تُمثل الروح العربية في أقصى صفاتها ، وكنت ابنته سَفانة سرّاً أيها تنافسه في العطاء والجود ، قُبِّ الناس كلُّ ما يقدمه لها والدها من إبل ومال . وقد حفلت كتب الأدباء بأنخبار حاتم الطائي وسخائه ، واختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة . وتوفي حاتم نحو سنة ٦٠٥ م .

قال ابن الأعرابي : « كان حاتم من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره حوده ، ويصدق قوله فعله . وكان حينما نزل عرف منزله ، وكان مُطفراً إذا قاتل غلب ، وإذا غُلب ، وإذا سئل أنهب ، وإذا صُرب بالقداح فار ، وإذا ساق سبي ، وإذا أسر أطلق ، وكان يقسم بالله أن لا يقتل واحداً أمه ؛ وكان إذا أهل الشهر الأصم ، الذي كانت مضّر تُعظمه في الجاهلية ، يتحرَّ كل يوم عشرة من الإبل ، فأطعم الناس واحتمعوا إليه »

٢ - أدبه :

لحاتم الطائي ديوان شعر صغير نشره بالطبع رزق الله حسون في لندن سنة ١٨٧٢ ، ثم نشره الأب لويس شيخو في « شعراء النصرانية » سنة ١٨٩٠ ، ثم قام بطبعه وترجمته الى الألمانية المستشرق شولتيس Friedrich Schulthess سنة ١٨٩٧ . ثم طبعته مكتبة صادر في بيروت سنة ١٩٥٣ ، ومعظمه مدح ، وفخر ، ومعظم فخر حاتم بالكرم والجود ، وله في ذلك قصيدة رائعة يبين فيها مذهبه في الحياة ، أي مذهب الجود . فيخاطب ماوية زوجته ، ويوجه إليها آراءه قائلاً :

أَمَاوِيٍّ، قَدْ طَالَ التَّجَنُّبُ وَالْهَجْرُ      وَقَدْ عَذَّرْتَنِي مِنْ طَلَابِكُمْ الْعُدْرُ  
أَمَاوِيٍّ، إِنَّ الْمَالَ غَايِرٌ وَرَائِحٌ      وَيَتَنَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذُّكْرُ  
أَمَاوِيٍّ، إِنِّي لَا أَقُولُ لِسَائِلٍ      إِذَا جَاءَ يَوْمًا، حَلٌّ فِي مَالِنَا نَزْرُ

ويذهب حاتم في نشر فلسفته التي يعتنق مذهبها قولاً وفعلاً، ويرى أن المال لا يورث السعادة النفسية، وهي عند الجاهلي طيب الأحذوتة، وصفات المروءة والفتوة، والمال، في نظره، «غايِرٌ ورَائِحٌ»، وهو لا يُغني عن الفتى إذا دنت ساعة موته، ولا يبقى له منه إلا ما بذّله في سبيل الإنسانية.

### ٣ - ميزة شعره:

يمتاز شعر حاتم بأنه شديد اللُصوق بشخصه، ينطلق بشخصية صاحبه في غير مواربة ولا مداورة، وهو صالِبٌ بصفاء نفس صاحبه، تترلفى فيه ومن خلاله جميع الحلال التي تتحلّى بها تلك النفس الكريمة، من عِزّة، وأُنفة، ونجدة، وكرم، و«عفة في الفقر، وإشراقية في الغنى». وشعر حاتم قصائد قصيرة ومقطوعات فيها بعض من وعورة الجاهليين وكثير من سهولة المنحصرين وليوتهم وهكذا فحاتم حاتم الكرم والجدود، وشعره شعر السلاسة والكماسة.

### ب - سلامة بن جندل (توفي نحو ٦٠٨)

#### ٩ - تاريخه:

هو أبو مالك سلامة بن جندل بن عبد عمرو، من بني كعب بن سعد الشَّميمي. كلُّ ما نعرف عنه أنه من أهل الحجاز ومن فرسان تميم العدودين، وأنه كان معاصراً لعمر بن هند، وللتيمان أبي قابوس آخر ملوك اللخمين بالحيرة، وله فيها شعر.

١ - المُدْرَج غَايِرٌ.

٢ - التَّوَرُّق - القِلَّة.



٤ أدبه :

لِسَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ دِيوانٌ صَغِيرٌ رَوَاهُ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ ، وَطُبِعَ فِي  
بَيْرُوتَ سَنَةِ ١٩١٠ وَفِي شِعْرِهِ حِكْمَةٌ وَجُودَةٌ وَمَتَانَةٌ . مِنْ أَقْوَالِهِ فِي الشَّبَابِ وَالشَّيْبِ :  
أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيداً ذُو الْأَعْجَابِ وَلَّى وَذَلِكَ شَأْنُ غَيْرِ مَطْلُوبٍ  
وَلَّى حَيْثُ هَذَا الشَّيْبُ يَتَّبَعُهُ نَوَ كَانَ يُدْرِكُهُ رَكْضُ الْبِعَاقِبِ<sup>١</sup>

ج - الأَفْوَه الأودِي (توفي نحو سنة ٥٧٠م)

١ تاريخه :

أَبُو رِيْعَةَ صَلَاحَةُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ أَوْدَ مِنْ مَذْحِجٍ ، الْمَلَقَّبُ بِالْأَفْوَه ، مِنْ كَبَارِ شِعْرَاءِ  
الْجَاهِلِيَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا الْكَثِيرُ مِنْ شِعْرِهِ ، وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ وَقَاتِلَهُمْ فِي حُرُوبِهِمْ ،  
وَكَانُوا يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهِ . وَالْعَرَبُ تَعْلَمُهُ مِنْ حِكْمَتِهَا . وَكَانَ يُقَالُ لِأَيِّهِ عَمْرٍو بْنُ  
مَالِكٍ فَارِسُ الشُّوْهَاءِ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَفْوَه :

أَبِي قَارِسُ الشُّوْهَاءُ<sup>٢</sup> عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ غَدَاةَ الْوَعَى إِذْ مَالٌ بِالْجَدِّ عَائِرُ

وَكُتِبَ لِأَدَبِ حَافِلَةٍ بِأَخْبَارِ الْأَفْوَه وَمَوَاقِفِهِ الْبَطُولِيَّةِ ، وَفُرُوسِيَّتِهِ الَّتِي كَانَ شِعَارَهَا  
الْأَنْفَةُ وَالْعَرَّةُ وَالسِّيَادَةُ ، وَلَكِنْ مَرَّحَلُ حَيَاتِهِ غَارِقَةٌ فِي الْأَقَاصِيصِ وَأَخْبَارِ الْحُرُوبِ ،  
وَهَلْكَاءٌ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ تَتَّبِعُ الشَّاعِرَ فِي أَطْوَارِ شَاعِرِيَّتِهِ ، وَإِثْنَاتٌ تَارِيخُ مَوْلَدِهِ . وَكُلَّ  
مَا نَسْتَطِيعُ قَوْلُهُ أَنَّهُ تَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ ٥٧٠م .

٤ - أدبه :

لِلْأَفْوَه الْأودِي شِعْرٌ مَثْبُوثٌ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ ، وَقَدْ جَمَعَهُ الْإِسْتَاذُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمِجْنِي  
وَنَشَرَهُ فِي مَجْمُوعَةِ «الطَّرَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ» سَنَةِ ١٩٣٧ بِالْقَاهِرَةِ . وَالْأَفْوَه الْأودِي فِي شِعْرِهِ  
رَجُلُ الْاجْتِمَاعِ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْأُمُورِ وَالْأَحْدَاثِ وَالنَّاسِ نَظْرَةَ السَّيِّدِ الَّذِي يَتَّقِي بِنَفْسِهِ

١ البعاقب : ج. يُطْلَبُ وَهُوَ ذَكَرُ الْحِجَلِ .

٢ - الشوهاء اسم فارس . - والشوهاء من الخيل . الصونية الرائعة .

ولا يشكُّ في صحته ما يذهب إليه ، ولا في العاقبة التي يدعو إليها أو يحذر منها . أنه صافي الرؤيا ، يتقبل المقلُّ قوله في طمأنينة ورجبة ، ويستسيغ الذوق منه على قدمه . وشعره حافل بالسلاسة والطلاوة ، والثغمة التي تدغدغ الأذن في غير نشوز ولا وعورة . ومن حيد شعره قوله :

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ قَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ      وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهِلَ لَهُمْ سَادُوا  
تَلْقَى الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ      فَلِنْ تَوَلَّوْا فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ  
إِذَا تَوَلَّى سَرَاةَ النَّاسِ أَمْرَهُمْ      نَعَى عَلَى ذَاكَ أَمْرُ الْقَوْمِ فَازْدَادُوا

ومن أقواله في الفخر والحماسة :

نُقَابِلُ أَقْوَاماً فَتَسْبِي نِسَاءَهُمْ      وَلَمْ يَرْ ذُو عِزٍّ لِنِسَوْنَا جَبَلًا  
نَقُودُ وَنَأْبَى أَنْ تُقَادَ وَلَا تَرَى      لِقَوْمٍ عَلَيْنَا فِي مَكَارِمِهِمْ فَضَلَا

• • •

يلحق بشعراء هذا الفصل :

١ - دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ الْجُسَمِيِّ (توفي نحو سنة ٦٣٠ م) . عمر حتى تجاوز المئة ، وخطب النساء فردته فهجاها . وأدرك الإسلام ولكنه لم يُسلم . قيل انه غزا مئة غزاة وما أخفق في واحدة منها . شعره رفيع وأكثره في الفخر والحماسة والحكمة .

٢ - قيس بن الخطيم الأوسي : (توفي نحو سنة ٦١٢ م) : هو شاعر فارس من الأوس وأحد صناديدها . أول ما اشتهر به تبعة قاتلي أبيه وحده حتى قتلها ، وقال في ذلك شعراً . أدرك الإسلام ولكنه لم يعتقه . له ديوان شعر ، وفي الأدباء من يفضلُه على شعر حسَّان .

٣ - عَبْدُ يَهُوُوثَ (توفي نحو سنة ٥٨٠) وهو من عرب اليمن وكان سيداً في قومه بني مذحج . أسره بنو تميم ومات في الأسر . شعره قليل ولكن فيه طبعية وروعة .

٤ - عامر بن الطفيل العامري (٥٥٥ - ٦٣٥ م) : هو من أشهر فرسان الجاهلية . وُلد نحو سنة ٥٥٥ وكان من المعمرين ، وقد توفي بالطاعون . له ديوان شعر جمعه

الأفوه الأودي. ذريد بن الصمّة - قيس بن الخطيم. عبد يغوث عامر بن الطفيل ٢٢٧

---

أبو بكر الأنباري وطبعه في لندن سنة ١٩١٣ المستشرق ليال Lyall ، ومعظمه في الفخر والحجاسة .

### مصادر ومراجع

- الأغاني للأصمهاني - طبعة دار الثقافة ١٢ : ١٦٥ ١٦٩ بيروت ١٩٥٨ .  
الشعر والشعراء لابن قتيبة — طبعة دار الثقافة - بيروت — ١٩٦٤ .  
المفضليات للمفضل الضبي — طبعة القاهرة ١٩٤٣ .  
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية — طبعة دار الحيل — بيروت ١٩٨٢  
ديوان حاتم الطائي قدّم له كرم البستاني — مكتبة صادر — بيروت ١٩٥٣ .  
الأدب لويس شيخو شعراء النصرانية بيروت .





# الباب السابع شعراء البلاط والنكسب

## الفصل الأول في موكب المعلقات

طرفة بن العبد (٥٤٣ / ٥٦٩م)

١ تاريخه . ولد طرفة في البحرين سنة ٥٤٣ ، وقد أبا وهو طفل ولقي من أعلامه ظملاً . نشأ لا محالة  
اتصل بملاط الحبرة وعُضِبَ عليه الملك عمرو بن هند لسلطه لسانه . قتل في البحرين نحو سنة ٥٦٩

٢ أدبه . لطرفة ديوان صغير أشهر ما فيه المعلقة ، وهي دالية تقع في ١٠٤ أبيات ، وفيها شئ الأعراس  
الشعرية المخالفة

٣ طرفة في معلقته

١ هو فيها جاهلي مُتَرَقٍّ في المخالفة روحاً ولغةً وأسلوباً

٢ مع نمسكه بالعصية القليلة يشكر لها على أنها قد احتجعت

٣ - لا يعرف المروعة والرياء بل يعترف اعترافاً صريحاً وخريئاً

٤ - قيمة المعلقة وللسلفه صاحبها .

١ - آراء طرفة ثمرة تأمل بعيد الرامي . وهو يستند فيه من تملعه انوحود .

٢ - في أمثاله ألم حسب يحاول أن يطويه في صباب العروسية والتمتع وهو وجودي التمتع .

٣ - في شعره تعبير عن تجربة حياتية عميقة . ولجته اعترافه بعبد عن المحبة ، ناضج بالحياة

٤ في كلامه بعض التسلسل ومحاولة لدعم الرأي بالحجة

٥ أسلوب جاهلي حسيّ تشبيهي

٦ - غنائية طرفة قريبة من الغنائية الرومسية الحديثة .

٥ طرفة شاعر الغزل والوصف - غزله وصف ، ووصفه دقيق المعنى يعتمد فيه تشبيه اعتياداً شديداً ،  
ويعاود أن يجعل الخرس صدقاً لنعنى والصورة

٦ - طرفة شاعر الملح . مدحه وجيز حاد من التذلل والركف .

٧ مخالفة : شبيب ناضج بالحياة والشعر

## ١ - تاريخه :

١ - طفولة معذبة: عمرو بن العبد الملقب طرفة من بني بكر بن وائل. وُلد في البحرين نحو سنة ٥٤٣ في أسرة كثر فيها الشعراء ، وقد أناه وهو طفل ، فتعهد أعمامه ، إلا أنهم ظلموه وهضموا حقوق أمه وُرّدة بنت عبد المسيح ، فشأ لاهاً يبتدر ماله في السكر والمخون ، فطرده قومه وراح يضرب في البلاد متشرداً ، ثم عاد الى قومه فأزعوه الليل.

٢ في بلاط الحيرة: أهمل طرفة رعاية الإبل حتى قام خلاف بينه وبين أخيه معبد في شأنها . وكانت الخاتمة أن عاد طرفة الى الضرب في البلاد حتى بلغ بلاط الحيرة وفيه صهره عبد عمرو بن بشر وخاله المتلمس ، فاستقبله الملك عمرو بن هند بحفاوة ، ولكنه ما عثم أن غضب عليه لما بلغه من تجرؤ وسلاطة لسان.

٣ - مقتله: هجا طرفة عمرو بن هند ملك الحيرة ، فاضطعها الملك عليه حتى إذا ما جاءه هو وخاله المتلمس يتعرضان لفضله أظهر لها البشاشة وأمر لكل منها بجائزة ، وكتب لها كتابين ، وأحالها على عامله بالبحرين ليستوفيها منه ، وبينما هما في الطريق ارتاب المتلمس في صحيفته ، فعرج على غلام يقرأها له ، ومضى طرفة ، فإذا في الصحيفة الأمر بقتله ، فحاول اللحاق بطرفة ليخبره فلم يستطع ، وفرأ الى ملوك غسان ، وذهب طرفة الى عامل البحرين فقتل هناك نحو سنة ٥٦٩ ، ولما يتجاوز السادسة والعشرين من عمره . وقد نسب الى أخته الخزينة رثاء له ، كما رثاه حاله المتلمس . وهكذا مات طرفة في ربيع الحياة ، ولم يتح له أن يعطي للأدب ما كان باستطاعته أن يعطي ، وكان باستطاعته أن يعطي كثيراً لأن موهنته الشعرية التي تفتحت منذ عهد الطفولة كانت من أعظم المواهب التي عرقها الجاهلية.

## ٢ - أدبه :

لطفرة بن العبد ديوان صغير في الشعر ينطوي على غزل ولهو وفخر وهجاء ووصف . وما الى ذلك مما تجده في أكثر الدواوين الجاهلية . وشرح هذا الديوان الأعم الشنتمري في القرن الحادي عشر ، ونشره بالطبع المستشرق وليم بن الورد

Ahlwardt في لندن سنة ١٨٧٠ ، ثم الأب لويس شيخو في مجموعته «شعراء النصرانية» ، ثم المستشرق سيلغسون Max Seligsohn سنة ١٩٠٠ .

### المعلقة :

١ - مضمونها : المعلقة أشهر ما في الديوان ، وهي دالية من البحر الطويل تقع في ١٠٤ أبيات افتتحها الشاعر بوصف أطلال خولة وما يتعلق بها من رحيل وما الى ذلك مما نَحَدُّه في أكثر المعلقات ، ثم انتقل الى خولة نفسها فوصفها متغزلاً ، ولى الناقة فوصفها مُغزَّفاً في ذكر أجزاء جسمها وظاهرات سرعتها ثم انتقل الى نفسه مُفاخرًا ومُفصلاً ما مرَّ به من أحداث وما قام به من مغامرات ، ومُدلياً بآرائه في الحياة والموت ، ثم انتقل الى ابن عمه مالك يُعاتبه ، ولى ابنة أخيه يُوصيها بأن تندب بهما هو أهل له . ثم يختم الشاعر قصيدته ببعض الحكم والآراء .

وفي هذه المعلقة شتى الأغراض الشعرية التي عالجها الجاهليون ، والذي يهتأ منها ما هنالك من حِكم وخواطر تدلُّ على نفس الشاعر الشاب الذي عبثت به الحياة فأراد أن يعث بها ، والذي نهض في وجه مجتمع يتحدى مذاهبه وتقاليده في جرأة وصرامة .

٢ - مطلعها والباعث على نظمها : حمل طرفة على نظم هذه المطولة تقصير ابن عمه في المعاملة وإساءته إليه في لؤم وإنداء ، ومطلعها :

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالُ بِسُرْقَةٍ تَهْمَدُ      تَلُوحُ كَبَافِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ  
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئُهُمْ      يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَلَّدُ!

### ٣ - طرفة في معلقته :

القسم الرئيسي في معلقة طرفة هو الشكوى والعتاب وما جرَّأه من آراء في الحياة . أما ما تقدّم ذلك من غزل ، ووقوف على الأطلال ، ومن وصف للناقة ، فإطار تقليدي . وذكريات تمهيدية ، وميدان لإظهار الخلق والبراعة في مجالات التنافس والمباراة .

١ - طرفة بن العبد جاهلي مُفَرَّق في الجاهلية روحاً ولغةً وأسلوباً. فهو شديد التمسك بمذهب الجاهليين في تركيب القصيدة من وقوف كلاسيكي بالطلول ، الى وصف لظعن الحبيبة ، الى وصف تفصيلي لسفينة الصحراء ، الى شتى الأغراض التي تخاطر لأبن البوادي وطرفة الى ذلك أشد ما يكون اقتراباً من خطّة امرئ القيس في التبع والتشبيه الحسي والاندفاع الشعري ، وإنك لتجد بعض المعاني مشتركة بين الشعارين .

وفضلاً عن ذلك فطرفة شديد الإغراب في وصف الناقة حتى لتحسب أن ألفاظه ومعانيه من أقصى الجاهلية . وفي خواطره نفسها تجده جاهلياً يتمسك بالمرءة الفطرية ، والتعالي القبي ، والتجدة السريعة ، والكرم البدوي ، والمأخوذة بشرب الحمرة ، والأخذ ببعض المعتقدات ولو في شيء من الاستخفاف :

وَلَسْتُ بِحَلَالِ النَّعْجِ مَحَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْهَدُ  
وَإِنْ يَلْتَمِ الْهَجِيُّ الْجَمِيعُ تَلَاقِي إِلَى دَرَوَةِ النَّيْتِ الْكَرِيمِ الْمُصْمَدُ  
كَرِيمٌ يَرَوِي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ مَخَافَةَ شُرْبٍ فِي الْمَاءِ مُصْرَدُ<sup>٢</sup>

٢ - وعى تمسك طرفة بواقع الجاهلية نراه يمتد الى ما بعدها في المكان والزمان ومعاني الحقائق الوجودية . فهو يتمسك بالعصية القبلية على أنها سائجة مجدة ، وميدان بذل ، ومطلق مفخرة مما يرضي روح الفتوة فيه ؛ ولكنه يتنكر لها على أنها قيد اجتماعي يُصَيِّقُ الآفاق ويحقق الآمال ، وذلك أنه لقي من ذوي قرياه ظمأً فقد عيشوا حتى أمه وردة وأطفالها ، وشردوه كالبعير المعبد ، وعندما عاد الى حيه أرغوه الإبل وتنكر له أخوه معبد ، كما تنكر له بعد ذلك صهره عبد عمرو بن بشر وأعرى به ملك الحيرة ... هذا كله حمل الشاعر على النظرة الانسانية التي لا تنحصر الوجود في القبيلة أو في العشيرة :

وَمَا زَالَ تَشْرَانِي الْخُمُورَ وَلَلْنِّي ، وَيَبِي وَإِنْفَاقِي طَرِيقِي وَمُتَلَدِّي  
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَقْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمَعْبُدِ<sup>٣</sup>

١ - النعاج : الأمكة المخصصة يستريد : يطلب الرشد أي الإعانة

٢ - المصمد . أي البيت الذي يقصده الناس .

٣ - مُصْرَدٌ : أي مقطوع بالوت .

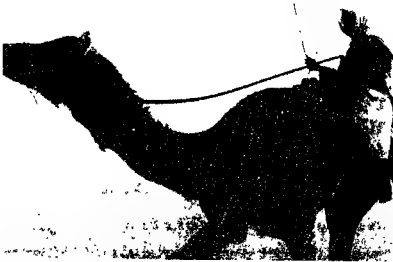
٤ - المبد الطلي بالمطران لإصابته بالعرب .



وَقَلَّمُ دَوِي الْقُرْبَى أَشَدَّ مَضَاضَةً . عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ أَلْمَهَنْدُ

وهو يتمسك بالتقاليد الجاهلية على أنها بناء أجداد . ولكنه يتكبر لها على أنها جمود فكري وقيد حضاري . ولهذا نهض في وجه العرف والرأي السائد ، ومذهبه في ذلك أن العقل يفسر التقاليد ويعطورها ، ويتناول العقائد ويتنخلها - وفي الوجود ظاهرات طبيعية لا شك في حقيقتها ، فعلى الإنسان أن يعتمد ما في تفهمه للطبيعة وما وراء الطبيعة . ومما لا شك فيه أن في هذا الموقف جرأة شديدة ، وكان طرفة معطوفاً على الجرأة الصريحة ، وقد تجلّت لأعيانه الظالمين عندما كان طفلاً فقال لهم :

مَا تَنْطُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ وَكُمُ صَغَرَ الْبَنُونَ وَرَهَطُ وَرْدَةٍ عَيْبُ  
قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ صَغِيرُهُ حَتَّى تَقْلَّ لَهُ الدَّمَاءُ تَصِيبُ



وَأَمَّا الْأَمْسَى أَلْهَمُ عِنْدَ أَخْطَارِهِ بِغَوْجَاءِ مِيرْكَالِ سَوْحٍ وَتَغْنَدِي  
(طرفة)

وَالظُّلْمَ فَرَّقَ بَيْنَ حَيِّيٍّ وَائِلِيٍّ؛ بَكَرْتُ تُسَاقِيهَا الْمَايَا تَغْلِبُ  
وَتَجَلَّتْ جِرَائُهُ عِنْدَمَا أَخَذَ عَلَى خَالِهِ الْمَتْلَمُسَ اسْتِعْمَالاً لَفْظَةً «الصَّبِيرَةُ» فِي شِعْرِهِ ،  
وَكَانَ الْمَتْلَمُسُ مِنْ أَشْهُرِ شُعْرَاءِ زَمَانِهِ وَطَرَفُهُ عَلَماً يَلْعَبُ مَعَ أَتْرَابِهِ ، فَعِنْدَمَا سَمِعَ خَالَهُ  
يَنْشُدُ :

وَقَدْ أَتَانِي الْهَمُّ ، عِنْدَ أَحْتِضَارِهِ ، بِنَاجٍ ، عَلَيْهِ الصَّبِيرَةُ . مُكْدَمٌ<sup>١</sup>

صَاحَ قَاتِلًا : « قَدْ اسْتَوَقَّ الْجَمَلُ ! » لِأَنَّ « الصَّبِيرَةَ » سَمَةً تُوسَمُ بِهَا التَّوَقُّ دُونَ  
الْجَمَالِ . فَغَضِبَ خَالَهُ وَقَالَ لَهُ : « وَيْلٌ لِهَذَا مِنْ هَذَا » أَيْ وَيْلٌ لِهَذَا الرَّأْسِ مِنْ هَذَا  
النَّسَانِ ! وَتَجَلَّتْ جِرَائُهُ فِي مَوَاقِفَ أُخْرَى كَثِيرَةً ، وَلَيْسَ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ تَقْنَبَ هَذِهِ  
الْجُرْأَةُ تَحْدِيثًا لِلْعَرَفِ وَالْمَذْهَبِ :

أَلَا أَيُّهَاذَا اللَّائِي أَعْضَرَ الْوَعْيَ ، وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ ، هَلْ أَتَتْ مُخْطِلِي ؟ !  
فَإِنْ كُنْتُ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَيْتِي فَدَعْنِي أَبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي  
فَلَنْتَنِي أَرْوِي هَامِي فِي حَيَاتِهَا سَتَعْلَمُ إِنْ مَتْنَا عَدَا أَيْنَا الصَّدْي<sup>٢</sup>

٣ - وطرفة بن العبد شاعر جاهلي لا يعرف المروعة والرقاء ، وهو شاعر شاب في  
عنوان الشباب ، تعصف به القوى الحياتية عصفاً يتحدى الحياة نفسها ، وتحمله على  
العبث بالوجود في سبيل الموجود ، فيكْبُ على دنيا المتعة بكلِّ جوارحه ، ويعترف  
بذلك اعترافاً من لا يهاب موتاً ولا يخشى هلاماً . إنها الصراحة التي حطمت القيود ،  
والجرأة التي ترافق الصراحة في هزء وازدواء .

#### ٤ - قيمة المعلقة وفلسفة صاحبها :

١ - تأمل بعيد المرامي : آراء طرفة ثمرة تأمل بعيد المرامي ، إنه نظر في الوجود فرأى  
الحياة تنتهي عند الموت ، ورأى أَنَّ الموت خاتمة المأساة ، فحَزَّ ذلك في نفسه ، وراح

١ - لاجبي : البعير . - الصَّبِيرَةُ : سَمَةٌ فِي عَيْنِ الْمَاتَةِ لَا الْبَعِيرِ

٢ - هَامِي . . . كَانَ الْعَرَبُ الْأَقْدَمُونَ يَحْتَدُونَ أَنْ طَائِرًا اسْمُهُ الْهَامَةُ أَوْ الْعَامَةُ يَمْرُجُ مِنْ رَأْسِ الْقَتْلِ وَيَصِيحُ  
« أَسْمُوْنِي ، أَسْمُوْنِي » إِلَى أَنْ يُجِدَّ طَائِرُهُ .

يفكر في طريق السعادة، فوجد أن السعادة وهبة في حياة تنهي باللاشيء، وراح يجمل الطر في بيته وفي نفسه، فوجد أن البيئة تحلي عليه الفروسية فاعتنق مذهبها، وأن نفسه تحلي عليه المتعة فاعتنق مذهبها في مصدرها الحمرة والمرأة:

قَوْلًا ثَلَاثُ هُنَّ مِنْ لَذَّةِ الْفَنَى ، وَجَدْتُكَ ، ثُمَّ أَحْبَبْتُ مَتَى قَامَ عَوْدِي  
فَمِنْهُنَّ سَبْعِي الْعَذَلَاتِ بِشْرِيَّةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلِّ بِأَلَمِ تَزِيدُ  
وَكُرِّي ، إِذَا نَادَى الْمُضَافُ ، مُحَنًّا كَسِيدَ الْقَضَا ، نَبْهَةً ، الْمُتَوَرِّدُ  
وَنَقْصَرُ يَوْمِ السَّجْنِ ، وَاللَّحْنُ مُعْجِبٌ ، بِيَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِيَاءِ الْمُعْمَدُ

وهو في مذهب المزدوج يستمد يقينه من تهاة الوجود، ولا يرضى عن هذا اليقين إقلاصاً، وإن اعترض عليه معترض أو لاهمه لائم، احتج عليه بطلب المستحيل، أي بطلب الخلود على وجه هذه الأرض إذ لا خلود في نظره بعدها - ومن يستطيع إحلاده على وجه الأرض؟!

٢ نزعة وجودية: وإن في أعاق نفس الرجل لألماً جسيماً يحاول أن يطويه في ضباب الفروسية والمتعة، وهو في ذلك يقاوم العرف الجاهلي لاعتقاده أن التقاليد غير الحقيقة، وأن ما يدعونه محرمات ليس سوى وهم قائم، وأن لا حدود بين الرذيلة والفضيلة، وأن الفخر بالرذيلة هو كالفخر بالفضيلة. وهو من ثم يسير في طريقه الحرة النائرة في جرأة وصرامة، ناهذاً التقاليد، ساخراً مما يعتقد الناس، وهو في ذلك وجودي النزعة، يخرج في شعره عن أسلوب الجاهليين الذين يقفون عند الظاهرة ليتوغل في ما وراءها، وينطلق في أجواء التفكير الوجودي في ثورة حائرة بين تقاليد الفروسية التي لا يستطيع التخلص منها لدافع نفسي فيه، وتقاليد الحياة والموت التي ينبذها ليليل مادي ينتق من عقيدة وجودية عنده. وهكذا ينشأ في ذاته صراع بين تقاليد

١ - وَجَدْتُكَ . الرو القسَم . متى قَامَ عَوْدِي . أي متى مَتَ .

٢ - كُمَيْتٍ : صفة للخمرة ذات اللون الأحمر إلى سواد .

٣ - الْكُرِّي : الحبل : الذي في يده أعماء . السُّدُ : اللث

٤ - الْبَهْكَنَةُ : المرأة الحسناء الخلق

يحفظ بها وتقاليد ينبلها ، هو صراع القلق الانساني ، هو صراع الكفر والإيمان في نفس الانسان .

٣ - حياة وشخصية . وهكذا عرض طريقة لمعضلة إنسانية ، وكان شعره معبراً عن تجربة حياتية عميقة ، وكان من ثم إنسانياً . وهو يبسط آراءه في هجة اعترافية ، بعيدة عن التموهية والإلقاء . ومهما يكن فيها من ضلال في تفهم حقيقة الحياة ، ومن إغراق في المادية ، فهي آراء نابضة بالحياة ، شديدة الالتصاق بشخصية الرجل ، لا تخلو من التماعات تفكيرية تطل علينا بجيل جديد يحاول التخلص من التقاليد الجاهلية العقيمة ، ولا يقوده تفكيره الى غير المادية لأنه لم يجد مذهباً آخر يتقذه من ذاته المأهولة أمام مجهول لا يقوى على حل رموزه .

٤ - بعض التسلسل والتحليل : وطرفة في سلسلة آرائه لا تخلو من بعض التسلسل ، وهو يحاول أن يدعم الرأي بالحجة ، وحجته الكبرى في أن الموت قريب وفي أن ما بعد الموت أمر غير معروف ، والمعروف الذي لا شك فيه أن في الحياة طيبات وجدت له ، وما عليه إلا أن يعيش مرضياً حاجات نفسه وحسده .

٥ - أسلوب جاهلي : وأسلوب طرفة في تعبيره هو أسلوب الجاهليين الحسي التشبيهي ، وهو هنا غيره في وصف الناقة حيث أغرب ما استطاع الإغراب ، فهو يسير في سهولة وصفه ، ويشهج نهج الهدوء الذي تنقله الفكرة ويحجم عنه القلق الحزين ، وتنهض به أحياناً عاطفة المفارقة الجاهلية التي تمد فيه عصياً قوياً في غير قسوة ولا عف .

٦ - غنائية رومسية : ومما لا شك فيه أن غنائية طرفة في خواطره أقرب ما تكون الى غنائية الرومنسية الحديثة ، إنها غنائية الثورة الفكرية وإن لم تخرج عن كلاسيكية الأسلوب العربي القديم .

٧ - طرفة وزهير وامرؤ القيس . كان زهير بكره الحياة وإن كان متمسكاً بها ، وقد كرهها طرفة لأنها لا تدوم ، وبقي كره زهير للحياة في حدود اتناؤه فقط ، أما كره طرفة لها فقد كانت نتيجة مهاجمة الموت واستغلال الحياة القصيرة . وفيما يمثل طرفة فئة العائشين الساخرين الذين يشكون في كل شيء لا يكون المادة والحاضر ، والذين

يريدون ، مع كل ذلك المحافظة على الصفات العربية ، يُمثل زهير فئة المؤمنين بالحياة الأخرى التازعين نزعة روحية - وإن كانت الروح عندهم غارقة في المادة - المتمسكين بالفضيلة البدوية العفيفة .

وكان امرؤ القيس فتى اللهو والتشرد كطرفة ، إلا أنه كان أقرب الى التحشّث ، فيما كان طرفة في شعره أشدّ رجولةً ، وأنفذ قولاً ، وأبعد مدى ، وأوسع آفاقاً .

#### ٥ - طرفة شاعر الغزل والوصف :

١ أما الغزل - وأعني بوع حاص ما ورد في المعلقة - فهو وصف أكثر مما يسمى غزلاً ، وهو وصف مادي وتشبيه حسّي . لا يحوي اختلاجات ولا اضطرابات ، ولا يتنبص بالحياة ، ولا يجاري غزل امرئ القيس في الحوار والقصص ، والشاعر يجرّ به مرّاً ، ويوطئ به لوصف الناقة وللحكمة .

٢ وأما الوصف - ولا سيما وصف الناقة - فهو ميدان واسع للمباهاة والمنافسة ، وقد بدل الشاعر كلّ ما بوسعهُ ليكون الوصف كاملاً يحوي من الألفاظ الغريبة والموسيقى القاسية ما يضطرب في جو من الصخامة الفريدة في نوعها . وكأنّ في بطرفة قد ربط ناقته إزاءه وأخذ يرسم أجزاءها رسماً دقيق المعنى يرتقي على أجنحة من الخيال الأسطوري شديدة الانطلاق وثابة الخطى ، وإنك وأنت تقرأ هذا القسم من المعلقة لتشعر بأنك في بلاد الملاحم والعرايب ، وأن طرفة يتدفّع اندفاعاً شديداً ويريد أن يتباهى بالمعرفة والسلطان على التعبير والتشبيه . وتشبيه متراكم تراكمًا يحمّلك على الظن أن كلّ ما في هذا الوصف صور وأصباغ أو حركة وحياة . وطرفة يسعى عناية خاصة بالتأثير ، وهو يرمي إليه عن طريق الصخامة والموسيقى ، وهو في موسيقاه اشعرية يحاول أن يجسّ النغم صدى للمعنى وصورة له . فإذا قال مثلاً :

صُهَابَةُ الْمُشُونِ ، مُوجَدَّةٌ أَلْقَرًا ، بَعِيدَةٌ وَخَذَ الرَّجُلُ ، مَوَارِدَ الْبَدَا  
جَنُوحٌ ، دُفَاقٌ ، عَدَدَلٌ ، ثُمَّ أَفْرِعَتْ لَهَا كَيْفَهَا فِي مُعَالَى مُصْعِدًا

١ صُهَابَةُ الْمُشُونِ حمراء اشعر تحت النحي . واحمراره مشوب بياض

مُوجَدَّةٌ أَلْقَرًا . شديدة الطهر . - الوجد . بوع من العسر

٢ البلوح : التي تميل في سيرها نشاطاً . التفاق : السرعة - الصد : الكبيرة الرأس .  
أَفْرِعَتْ . ارتفعت .

شَعَرَتْ بِالنَّاقَةِ مَدْفَعَةً أَمَامَكَ ، وَتَحَيَّلَتْهَا فِي حَرَكَتِهَا وَعَلَيَّاتِهَا وَتَتَابَعِ انْتِقَالِ رَجْلَيْهَا  
وَيَدَيْهَا .

وكأنني بطريقة يختار لهذا الوصف اللفظة التي تدلّ بخروفيها على القوة والشدة ، فيكثر  
من التشديد ، ويكثر من الصفات المتتابعة ، والإنصافات ، وما إلى ذلك من الأساليب  
التي تريد بموسيقاها الموقفَ سرعةً وانطلاقاً ، وتمثّلُ الشاعرَ متنبّئاً ، وهو ينظم حركة  
الناقة وحيويتها ، وحركة نَفْسِهِ الشّعريّ وجيشانه ، فيقول مثلاً :

وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَتَيْنِ اسْتَكْنَتَا بِكَهْمِي حِجَاجِي مَصْحَرَةً قَلَّتْ مَوَدِّي<sup>١</sup>

٦ - طريقة شاعر المدح :

مدح طرفه المناذرة بالحيرة ومدح غيرهم كسعد بن مالك ، ومدحُه وجيز يدور  
حول الصفات المعهودة التي يجدها في كلّ مدح من كرم ، وبل أصل ، وطلب العلى ،  
ولكننا لا نجد في مدحه تدلّلاً أو توفّلاً بل نشعر أنّ نفسه تبصّ بالشهامة والعنفوان  
والكرامة .

٧ - خاتمة :

هذا هو طرفه بن العبد بل هذا هو الشباب النابض بالحياة والشعر ، وهذا هو  
العقل الذي فكر فطقت على تفكيره العاطفة القياضة ، وهذه هي الخيلة الصاخبة التي لم  
تخرج في صخبها عن الواقع المحسوس ، ولم تبعد النطق عن الصراحة والصدق . وطرفة ،  
على نظره وضخامة ألفاظه ، رقيق قريب إلى القلب ، نحبه وإن أبغضنا انحراف سيرته  
وبعض آرائه ، ونحترم على كلّ حال نفسه التي تألمت ويشت ، وربّ نفس كبيرة يجني  
عليها ظلم ذوي القربى ! ...

١ - كَالْمَاوِيَتَيْنِ : كالمرتين للصقوتين . اسْتَكْنَتَا : دخلتا وثبتتا . الْحِجَاجَانِ : العُطَيَّانِ المُشْرِفَانِ عَلَى الْعَيْنِ مَتَّ  
بِهَا شَعْرُ الْحَاجِبِ انْقَلَبَتْ : الفترة في المحل ستقع فيها ثلاء . المودد : المثل .

### مصادر ومراجع

- طه حسين : في الأدب الجاهلي القاهرة ١٩٣٣ .  
قزاد البستاني : طرفة وليد - الروائع ٢٤ بيروت ١٩٤٤ .  
مكس سلغسون Max Seligsohn : ديوان طرفة ومقدمته التاريخية الواسعة — ١٩٠٠ .



## عبيد بن الأبرص - الأعشى الأكبر

### أ - عبيد بن الأبرص:

- ١ - تاريخه: شاعر من بني أسد قُلب بين بلاطِي كندة وبنو قنرة، وكان من دُعاة الجاهلية وحكاتها، ومن ذوي الشأن في عومه. قُتل المُنذر بن مَه السَّمْعَى نحو سنة ٥٥٤
- ٢ - أدبه: له ديوان صغير أشهر ما فيه البائية المعلقة، والداية المَجْهُورَة.
- ٣ - صحة نسبة المعلقة ولبثها الفني: شك البعض في صحة نسبة بعض الأقسام من هذه القصيدة ولكن براهم غير قاطعة. ولئن خلت هذه المعلقة من الوحدة التأليفية ومن انساق العكري فهي لا تخلو من الحكمة الرائعة، والوصف الجميل، والحرص الفريد.
- ٤ - شاعريته ابن الأبرص: قلب غني بالخيوية والعاطفة، ونفس كبيرة جاذبة بالآمال، وأسلوب حافل بالموسيقى والسلاسة

### ب - الأعشى الأكبر:

- ١ - تاريخه: وُلد الأعشى نحو سنة ٥٣٠ في قرية معوجة بالجامة ونشأ ماجاً فطلب المال وضرب في البلاد متكسباً. وكان الناس يتناسون في التوثق إليه رغبة في مدحه. وقد توفي سنة ٦٢٩ م
- ٢ - أدبه: له ديوان كبير أشهر ما فيه اللابة التي عُدت من المعلقات
- ٣ - الأعشى في معلقته وديوانه: لشعره رونق عجيب وقد لُقِّب به صابغة لعرب.
- ١ - شاعر الغزل: عزله تحت ورم وموسيقى.
- ٢ - شاعر الحمرة: الحمرة عنده عروس المائل، وهي في شعره وسيلة لا غاية، وقد بلغ الأعشى في الشعر الحمري مدأً عظيماً، فكان وضعه معللاً تصويرياً ذاتياً.
- ٣ - شاعر الوصف: وصف الأعشى تصوير حسبي صادق، عاطفة.
- ٤ - شاعر التبلد والمغزى: تنس عالٍ من الألفة والعنوان.
- ٥ - شاعر للضحك: الأعشى في مدحه صريح التكب.
- في شعر الأعشى عمق في التفكير، وصدق في الشعور، ومثانة في السبك، وسلاسة وموسيقى في التعبير



## ١ عبيد بن الأبرص (توفي نحو سنة ٥٥٤م)

## ٦ تاريخه:

عبيد بن الأبرص بن عوف الأسديّ من مُضَر وهو شاعر من دهاة الجاهلية وحكائها. كان من ذوي الشأن في قومه، ومن المعمرين الذي عُرفوا بالتجدة والمروءة. تقلّب في حياته بين بلاط حجر الكنديّ والد امرئ القيس، وبلاط الحيرة، وكان من المقرّبين عند الكنديّ ينظم فيه الشعر، وقد شفع لديه في أشرف قومه الذين حبسهم لإمساكهم عن دفع الإتاوة، فكانت شفاعته مقبولة. ولبت كذلك مدّة طويلة في بلاط الحيرة ولقي حظوة لدى الماددة. وكان من حديث موته أن المشر بن ماء السماء سكر يوماً فجرّه السكر إلى قتل نديمتين له، وعندما صحبا من سكره ندم على فعلته أشدّ الندم وجعل له يومين في السنة: يوم نعيم يُسبغ فيه نعمته على من يمرّ به، ويوم يؤسّ يقتل فيه من يمرّ به. فكان عبيد بن الأبرص ممّن مرّوا بالملك في يوم الشؤم. وممن كان مروهم سبب موتهم، وذلك في نحو سنة ٥٥٤.

## ٢ أدبه:

لعبيد بن الأبرص ديوان صغير أخرجه المستشرق لايل Lyall مع ديوان عامر ابن الطفيل سنة ١٩١٣، وعلّق عليه تعليقات تاريخيّة وأدبيّة، ونشر الأب لويس شيخو مجموعة شعر عبيد بن الأبرص في كتابه «شعراء النصرانية» سنة ١٨٩٠. وأشهر ما في هذا الديوان قصيدتان: «بائيّة عذّها البعض من المعلقات، ودائيّة أوردّها أبو زيد القرشي في «مجمّعها» وعذّت من المجمعّهرات.

المعلّقة: قصيدة تقع في ٤٨ بيتاً من الشعر على مخلوع البسيط، وقد دخل وزنها كثير من الزحاف والقطع حتى قيل: «كادت أن لا تكون شعراً»، ومطلّعها:  
أففرّ من أهله ملّحوبُ فبالقُطبيّات، فالذّنوبُ

وفي هذه المعلقة وقوف بالديار وبكاء على الأطلال ، ثم حكمٌ ومواظ ، ثم وصف للناقة وللفرس .

#### ٢ صحة نسبة المعلقة وقيمتها الفنية :

إنَّ من أعملَ النظر في معلقة عبيد بن الأبرص ملح فيها إقراراً بالتوحيد ، ورأى أنَّ الحكمَ والمواظَ تفصل الوقوف على الأطلال عن وصف الناقة ، مما حمل بعض النقاد على القول بأنَّ الأبيات الحكمية مدسوسةٌ دساً في المعلقة ، وشاهدُهُم على ذلك أنَّ الشاعر بعيد عن التوحيد وأنَّ في إقحام الحكمة بين المقدمة ووصف الناقة خروجاً عن تقاليد العرب الأقدمين . إلا أنَّ هذا القول غير مطلق الصحة فكم من شاعر جاهلي نظم قصيدته مقاطع ثم جُمِعَتْ وُضِمَ بعضها الى بعض على غير ما ترتيب وتنسيق ، أضف الى ذلك أنَّ فكرة التوحيد غير مجهولة في العهد الجاهلي لما انتشر إذ ذاك في بلاد العرب من تعاليم المسيحية واليهودية .

المعلقة كسائر المعلقات تخلو من الوحدة التأليفية ومن الترتيب والتساق في الأفكار إلا أنَّ فيها حكمة لا تخلو من روعة ، ووصفاً جميلاً ، وجرساً فريداً . وإليك بعض التفصيل :

١ - الحكمة : تدور الحكمة في معلقة عبيد بن الأبرص حول زوال النعم ، والاعتصام بالله الأحد . والصدوق عن الكذب لأنه يجر العذاب ، والعمل أبداً ودائماً مهما تقلبت الأحوال .

وهذه الحكمة اختيارية عليها مسحة من السناجدة والبساطة والسطحية هي ثمرة حياة الطفولة ، وهذه السناجدة ممزوجة برصانة حقيقية واتزان من حكمة الدَّهر وعرف طبائع البشر وحال الدُّنيا مزده وحذر ، وقد حاول أن يقيم البرهان فاكفى بالتلميح والإيجاز ، وربَّ إيجاز وتلميح خير من تطويل وإسهاب .

٢ - الوصف : أما وصف عبيد بن الأبرص فجعله قائم على حياة نابضة مندعة اندفاعاً شديداً ، وعلى دقة في التفصيل تظهر في الأفعال المتتابعة والحالات

المتجاوبة ، وإنك وأنت تقرأ وصف الشاعر تشعر بنفسه ترافك مضطربة محتدمة ، بل تشعر بها مختلفة بين يديك ، متدفقة بقوة وعنف .

٣ الجرس : وفي معلقة عبيد بن الأبرص موسيقى مختلفة النغمات تواكب الموضوعات المختلفة وتعرّ بنراتها عن المعاني التي قد لا تعيدها الألفاظ ، وإذا المعاني ثيارات موسيقى تارة عميقة اللوي مع الحكمة وذكر الموت ، وطورا عنيفة متوالية مع الوصف . اسمعُ يخاطب امرأ القيس وقد شهد مقتل أبيه الملك حجر :

يَا ذَا الْمُخَوُّنَا بِقَتْلِ	أَبِيهِ إِذْ لَأَ وَحَيْنَا
أَزَعَمْتَ أَنْكَ قَدْ قَتَلْتَ	نَ سَرَانَا كَذِباً وَمِينَا؟
هَلَّا عَلَى حَجَرٍ نَبْ أ	مُ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا!
إِنَّا إِذَا غَضَّ أَلْسُنَا	فُ بِرَأْسِ صَعْدَتِنَا لَوْنَا
نَحْمِي حَقِيقَتَنَا وَبَعْدُ	خُسُ الْقَوْمِ يَسْفُطُ بَيْنَ يَتْنَا
هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنِ	حَذَّةَ يَوْمٍ وَلَوْ: أَيْنَ أَيْنَا؟
أَيَّامُ تَضْرِبُ هَامَهُمْ	بِبَوَائِرٍ حَتَّى أَلْحَتَيْنَا

٤ - شاعرية ابن الأبرص :

شاعرية ابن الأبرص هي قلب غني بالعاطفة والحياة ، وهي نفس كبيرة حافلة بالآمال ، والذي يروقنا في شعره هو تلك النغمة اللينة الصادقة الصادرة عن رقة في انصد من غير ما غلو مزعج ، ولا التواء مشين ، وهذه الشاعرية القيّاسة تمتاز بسلامة شعرها وانسجامه وسهولته ، وموسيقاه المتعددة الأوتار ، تلك الموسيقى التي تسحر معها اشتدت وبها تنوعت أنغامها .

## ب - الأعرشي الأكبر (٥٣٠ - ٦٢٩م)

١ - تاريخه :

هو أبو بصير ميمون بن قيس البكري. لُقِّبَ بالأعرشي لضعف بصره ، وقد وُلِدَ نحو سنة ٥٣٠ بقرية منفوحة في البصرة ، ونشأ ماجناً يُدمن شرب الخمر ويتعاطى المقامرة ، وقد أدَّى به ذلك إلى الفقر والعوز ، وإلى الضرب في البلاد متكسباً بشعره ، فزار اليمن والحجاز والعراق وعبان ، وفارس ، وفلسطين ، ومدح الملوك والأمراء ، وكان له في كلِّ موقف صولة ودولة حتى قيل : « إنه ما مدح أحداً في الجاهلية إلا رفعه ، ولا هجا أحداً إلا وضعه » . وكان الناس يتنافسون في تقريبه والتودُّد إليه لعلَّهم ينالون من مدحه نصيباً ، ومما يروى في ذلك أنَّ الملقَّ الكلابي كان ذا بناتٍ عوانس ، فتعرَّض للأعرشي ونحر له ناقة ، فقال فيه قصيدة أطارت صيته وأزوَّجَتْ بناته وجعلته ثرياً بعد فقر ، وعزیزاً بعد ضعة . وتوفي الأعرشي سنة ٦٢٩م / ٨هـ .

٢ - أدبه :

للأعرشي ديوان كبير أكره في المدح . وقد ضمَّنه غزلاً ووصفاً وخمراً ، ومن أشهر ما فيه اللامية التي عدَّت من المعلقة ، وهي تقع في ٦٥ بيتاً منظومة على البحر البسيط ، ومطلعها :

وَدَعَّ هُرَيْرَةً إِنَّ الرُّكْبَ مُرْتَجِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ؟!

أما مضمونها فمقدمة غريبة فيها وصفٌ طويل ودائع لمريرة ، ثم وصف للهو ومجلس الخمر ، ثم كلام على السفر وما شاهد فيه الشاعر من برق ومطر ، ثم تهديد لابن عمه يزيد بن مسهر الشيباني وفيه كثير من الفخر وقدرات هذه القصيدة الأدباء على مرِّ العصور ، فقال أبو عبيدة : « لم تُقَلْ قصيدة في الجاهلية على رويها مثلاً » : وجعلها التبريزي وغيره من القصائد العشر ، واهتمَّ لها المستشرقون اهتماماً شديداً .

١ - هُرَيْرَة : عَلم فِتة كانت لرجُل من آل عمرو بن مرثد أهلها إلى قريب له

## ٣- الأعشى في معلقته ودبوانه :

في شعر الأعشى جاذبية لم نعهدها لغيره من شعراء الجاهلية ، ومن عوامل تلك الجاذبية ما هنالك من انسجام وقرّاق ، ومن النفاذ يجمع اللين الى الشلّة ، والسهولة الى المثانة ، ومن موسيقى استجّحت لصاحبها لقب «صنّاجة العرب» . ومن ألفاظ عذبة وأساليب في التعبير تجمع الصفاء والطبيعة الى تلاعبات لفظية كلّها عذوبة وأناقة :  
فَكَلُّنَا مُغْرَمٌ يَهْدِي بِصَاحِبِهِ نَاءٌ وَدَانٍ ، وَمَحْبُولٌ وَمُحْتَبَلٌ<sup>١</sup>

وترى الرجل سائراً في قصيدته كما يسير الماء بين الأعشاب الطريفة الناعمة ، وترى الأبيات تتابع كما تتابع مياه الينبوع . فلا كدّ ، ولا اضطراب ، ولا كلام نافل ، ولا حشو ، تقع اللفظة في محلها فهي متناغمة مع ما قبلها وما بعدها ، لها رنة خاصة بعيدة عن الشوز والقتل .

١- شاعر القزل : غزل الأعشى في معلقته هتّ ، ورسم ، وموسيقى ، وهو في موقفه الدواعي لمزيرة يجسنا نلمس أسباب شقائه عندما يجسم لنا الصورة ، ويرينا هزيرة في التّبهاها ، وروثو روثها ، وكأنني بالشعر نفسه يتنقل بها ويتنقل معها :  
عَرَاهُ ، قَرَاهُ ، مَصْفُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا ، كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الرَّجُلُ<sup>٢</sup>

فهي تمر كالسحابة : لا ريثٌ ولا عَجَل :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ يَتَرٍ جَارَتْهَا مَرُّ السَّحَابَةِ ، لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ<sup>٣</sup>

هزيرة جميلة ، رصينة ، خفيفة الظلّ ، تتصاعد منها موسيقى ناعمة هي وسواس لا يبحر الأذن ، وهي حبيّة الى الجيران ، ناعمة العيش ، وهي عصارّة ما في الأرض من ورد وريحان وأطياب ، والشاعر أمامها مُعَذَّبٌ بها يشرح حاله وحالها ، وإذا هنالك سلسلة غرام في غرام ،

١ الخليل : الذي أمد عقله الحبّ أو انداء أو غير ذلك .

٢ غراه : يفضّه . قرّاه . طويلة الشعر . العوارص : الأستار . الوجي : من حيي وركت قدماه فأنكته

٣ ريث : التّهلّ والالإطّاء

وشعر كتلك الحسنة في خفة الظل والموسيقى والنعومة واللين، وإذا هنالك طبعية وانسجام وسهولة، وإذا هنالك من أحاق الهدوء وأغوار السكينة والانسحاب الشعري والعاطفي، صوت يتعالى نغمة من نغمات تلك الموسيقى، هو صوت هريرة تخاطب الشاعر وتزيد بكلامها الموقف حياة وتأثيراً وتقول:

قَالَتْ هُرَيْرَةُ: لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهُ، وَبَلِي عَلَيْكَ، وَوَلِييْ مِنْكَ، يَا رَجُلُ!

٢ شاعر الحمرة: والحمرة في شعر الأعشى «هريرة»، الكاس، وعروس المجالس، يزجها الشاعر في قصائده أبهة كانت أغراضها، ويتوسل بها للمدح وغيره، ولا يألو جهداً في وصفها والتغني بما يرى فيها من محاسن وما لها من مفعول في النفس والجسد. وما هوذا في عصاية من عشاقها، طروب لعوب يتغنى معه شعره طروباً لعوباً.

وَقَدْ عَدَوْتُ إِلَى الْخَانُوتِ بَتْعَتِي شَاوٍ مِثْلُ شُلُولٍ شُلْشُلٍ شَوْلٍ<sup>١</sup>

وإذا أصحابه على مذهبه في الحياة، قد أيقنوا أن ما قلر الله لا يد منه، فراحوا يُصَلِّدُونَ لأهازيج وطربه، وإذا أمامنا مشهد من ربحان تُوزَعَت قُضْبُهُ، وحمرة مخضلة الرأووق، تمتد إليها الأيدي بعد الأيدي ولا يُسمع من الشرب، بين حفيف الأيدي والكاس، إلا كلمة «هات»، كل ذلك والصنح يجيب خفقات قلب صابغة العرب، الذي يهوى الحمرة ويصفها ويصف شاربيها وحالاتهم بلهفة وعطف وحنان. ولئن لم يجعل للحمرة قصائد مستقلة فقد بث في خمرياته من روحه الشيء الكثير.

هكذا كانت الحمرة موضوع قسم كبير من وصف الأعشى. ووصفها ووصف عاشق لمعشوق، وتيسر في الحديث عنها تبسطاً كادت الصورة الحميرية تكمل فيه، وكادت المعاني الحميرية القديمة تجتمع فيه على كل تأم الأجزاء والتفاصيل.

والأعشى يعالج موضوع خمرته معالجةً اندفاعيةً يصف لونها، وطبيها، وطعمها، وزقاقها، ومجالسها. ويعمل على تشبيهها وتشبيه كل ما يتعق بها بأروع ما يستخف ابن

١ الخانوت: دكان الخمار الشنوي - الذي شوي اللحم المشلول والشلول والشلول. الخفيف لزوج والسرّج في الخلفة

الجاهلية ؛ وهو يجري في تشبيهاته على سنن الجاهلية الحسية المادية ، ويهتمّ لشئين في التشبيه : الروعة ودقة الأداء ، بحيث تمثل الصورة وتتجسم ، وبحيث تؤثر وتُعجب . وقد تجدد في هذا النقل التصويري شخصية الأعشى نُظُلُّ من حين لآخر ، وإذا هي شخصية جريئة تنهم الحياة على أنها مرتع من مراتع الحسّ . وتحقر الناس وآراءهم ، وتريد أن تعيش على سعة الحس في مجالس النشوة ، وهكذا كان الأعشى مقلداً ، مردداً أصداء الماضي السحيق ، مفصلاً ومجزئاً ما استطاع التفصيل والتجزئ ، مصوراً في قصص وحوار أحياناً ، ومصوراً أبداً بريشة المادية المحسوسة ، وبجسماً بالتشبيه ، وما يشبه التشبيه ، وإلى هذا العمل الثقلي الآليّ يصيف من ذات نفسه عنصر الذات التي تؤمن بمذهبها الحمريّ .

٣ - شاعر الوصف : نرى أن الأعشى في أوصفه المختلفة يعتمد الصُورَ الحسية ويحاول أن يبتّ حركة وحياة في ما يصف وأن يتّبع الجزئيات . والأعشى صادق العاطفة في وصفه يحاول أن يمزج نفسه بموصوفاته ، ومن ثمّ كان كلامه مؤثراً .

وقد أكثر الأعشى من الوصف ولكنّ القسم الأكبر منه كان توطئة للمدح ووسيلة إليه . وقد حاول أن يحيد عن طريقة الأقدمين في الوقوف على الأطلال فاقضبها ، وأن يُخفّف من وطأة التشبيه الماديّ في شعره فاقصد فيه اقتصاداً معقولاً .

أضف الى ذلك أن أسفار الأعشى وسّعت مجال خياله وجمعت في شعره طائفة من أخبارها وأحداثها .

٤ - شاعر التهديد والفخر : في تهديد الأعشى وفخره نفّس عالي من الألفة والعفوان ، وانطلاق شديد تحسب معه أن الرجل في ساحة حرب . وأن ألفاظه قد أصبحت سيوفاً ورماحاً ، تشتدّ على غير صعوبة أو غرابة .

٥ - شاعر المدح : من مطالعة شعر الأعشى نلاحظ أنّه يحاول أن يجري على أسلوب النابغة في المدح ، إلا أن استطراده مقتضب ، ومدحه في العموم يتبع الأسلوب القديم من فاتحة غزلية ، ووصف لخمرة ومجالس اللهو . ووصف للناقة والسفر ، ثم ذكر المدح وما له من صمد الجود والقوة وما الى ذلك . والأعشى في

مسحه صريح التكسب وهو «أول من سأل بشعره». وشعره اندحجي يمتاز بما يمتاز به سائر شعره من رونق وسهولة ومثانة وموسيقى عذبة.

• • •

تلك نظرة وجيزة ألقيناها على ديوان الأعشى ولاسيما لاميته التي عُدَّت من المعلقَات وقد بدا لنا بوضوح أنَّ الأعشى الأكبر من أركان النهضة الجاهلية، وإن شعره ينمَّ عن عمق في التفكير، وصدق في الشعور، ومثانة في السبك، وسلاسة في التعبير، وموسيقى في الأداء. وهذا ما جعل عبد الملك بن مروان يقول لمؤدَّب أبنائه: «أَدَّبَهُمْ بِرِوَايَةِ شِعْرِ الْأَعْشَى، فَإِنَّهُ، قَاتِلُهُ اللَّهِ، مَا كَانَ أَغْدَبَ بِخَرِّهِ وَأَصْلَبَ صَخْرَهُ». ٤.

### مصادر ومراجع

- إبراهيم الأبياري وحسن المرصني وعبد الحفيظ شبي: دراسة الشعراء — القاهرة ١٩٤٤.  
 فؤاد البستاني: الأعشى الأكبر — الروائع ٣١ — بيروت.  
 رودولف غير R. Geyer الصُّبح المنير في شعر أبي بصير فينا ١٩٢٨.  
 الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية ٢ — بيروت — ١٨٩٠.



## التأبغة الذبياني

(توفي نحو سنة ٦٠٤م)

- ١ - مولده ونشأته . حياة التأبغة صمصة في قسمها الأول ، فلا تعرف مكان ولادته وزمانها ، كما أنها لا تعرف بالضبط زمان وفاته ، وقد نشأ نشأة بدوية وعاش في صباه فترة اسمها ماوية .
- ٢ - لسان القبيلة وصحافها . كان رحل حرب وسياسة ودعاء ، موثق بعلاقة بين ديبك وأحلافها ، وأشد مدلولات قومه ، وكان هادياً وشجعاناً
- ٣ - بين الحيرة وغانس .
  - ١ - كان على صلة وثيقة بابلاط الضناني .
  - ٢ - اتصل بملوك الحيرة وأصبح شاعر ملاطهم ولاسيما في عهد النعمان أبي قابوس .
  - ٣ - نشأت حقوة بينه وبين النعمان فهرب إلى قومه ثم إلى ملاط عباس ، وأحد يعتذر للنعمان حتى حظي برضاه وعاد إلى بلاطه
- ٤ - شخصية التأبغة . هو رجل الصلاة السياسية ، والعصبة لقبيلة ، والعقل ، والحكمة التي تهدي في سبيل الاستقامة
- ٥ - ديوانه :
  - ١ - جمعه . رواه الأعلام الشننري ، وأخرجه ولیم بن الورود ، ثم نشره ديربورخ . يتضمن إحدى وثلاثين قصيدة
  - ٢ - أقسامه .
    - ١ - شاعر القبليات
      - مدح النعمان من أجل إخراج للشكر والإقرار بالجميل ، مسحه لثامة عجل حشبة التلعل ، واستعلاء ، واقتصاد .
      - كلف عباس عن ديبك وحفاتها بي حتى يتظاهر بالغيرة على غسان وبي حتى في سبيل ذبيان . أسلوبه أسلوب لامستلاء والتصميم والتبوير الحسي التمثيلي .
      - كلف ديبك عن الحرس بنفسان : طريقته هي طريقة التبويل والترهيب وإثارة عاطفة العصبة لقبيلة والشرف الماهي .
      - الحفاط على الأحلاف ولاسيما بني أسد شعره في ذلك حشد للأحلاف ، ومهاجمة عبيقة . هو وصف مدحجي للأحلاف ، وتكثف للمادة الحلقية ، وتعداد تهديدية ، ومهادنة زجرية ، ومثانة شعرية صافية ، وألقاط شديدة الوقع .
    - ٢ - شاعر الغسانيات .
      - مدح ورناء

- المدح بصناعات القوة وصناعات الأخلاق قال تأن، وتصخم بصوري. وألفاظ موسيقية. وأساليب بيانية، وتضالول، وسباسة لبية، ومخالقة وسجدة.

٣ - شاعر اللخميات.

- اعتذار ومدح

أسلوب الاعتذار: تظاهر بالألم والفهم، في تصوير توبيلي حسي. وتبرير للمفسد بالقسم وتكذيب الوشاة، ومدح للتهان، وطلب للعفو واستسلام.

٦ - الوصف في شعر النابغة

وصف تصويري ناطق

- تأن وإيعان.

- صور واقعية.

صور تشبيهية عجيبة. استعزاد تشبيهي. قصص شعري. تمثيل

٦ - شاعرية النابغة. النابغة شاعر الامران والاسقام

## ٦ تاريخه:

١ - مولده ونشأته. التعموض بلفظ قسماً من حياة النابغة شأن سائر الشعراء الجاهليين لأن الحياة القبليّة بعيدة عن الاستقرار الذي تضبط معه التواريخ وتسجل فيه دقائق الأحداث. ولذلك سننحاً إلى المقارنة تارةً والتخمين طوراً، إلى الاستنتاج تارةً وإلى التقريب طوراً لتوضح بعض المعالم التي لا ندّ منها لشعهم شعر هذا الشاعر الذي يعدّ من ألمع الوجوه الجاهليّة إن لم يكن ألمعها على الإطلاق. فهو أبو أمامة ريان بن معاوية من ذبيان<sup>١</sup>، وأمه عاتكة بنت أنيس من أشجع. لُقّب بالنابغة لسبب اختلف فيه

١ - قال القلقشندي في «هاية الأرب» بضمّ الدال المعجمة وكسرها فيما حكاه الجوهري عن ابن السكيت. وقال ابن الأعرابي في «الأنساب» والسمعاني: رأيت القصة يخارون الكسر. وقال الجوهري في «المصباح» ج ٢، ص ٤٤٧: ديد (كسر الدال) وأكثر الصماء يقولون بالفتح ويؤن ديدان من عصاف بن سعد بن ميس عيلان من عرب الشمال. وكانت ديارهم مجاورة للمدينة «ثرب». في الجهة الشرقية الشمالية في الحجاز والأودية الواقعة فيما بين المدينة وفندق وحير تمتدّ إلى الشرق على صفاف وادي الرقة ومن هروغ عطفان بنو عذافة، بنو ذبيان بن بغيض بن ريث بن عطشان، بنو عيس بن يعين بن ريث بن عطشان إخوة بني ديدان ومن ديدان فرارة في نجد ووادي القرى، ومن فرارة بنو مدرن بن فرارة، ويو بنو بنو عدي بن فرارة، ولقي بنو رئاسة فرارة بن عطشان كلها. أما أشجع فمن ريث بن عطشان ومن أشجع حيّ عظيم في المغرب الأقصى وكانوا يقيمون مع عرب المثلج بمجعات سبيلامة

العلماء اختلافاً شديداً. وقد يكون تقديرًا عند الجاهليين لمن يتفوق عن صفات وقوى ذاتية لا وراثية<sup>١</sup>. أما مكان ولادته وتاريخها من المستحيل ضبطها. ولقد ولد ولا شك في ديار عطفان أي في إحدى ضواحي نجد بين الحرار والأودية، وفي قلب المجتمع البدوي، وامتدت له الأيام حتى أدرك المنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة (٥٠٥ — ٥٥٤ م) ومدح خلفاءه من بعده. ورث النعمان بن الحارث الغساني سنة ٦٠٠ م. وسبع بمقتل اسمعان بن المنذر اللخمي على يد كسرى أنوشروان سنة ٦٠٢ م<sup>٢</sup>. وهكذا قد تكون وفاة النابغة حوالي سنة ٦٠٤ م. أي قبل انتهاء حرب دحس والغبراء بأربع سنوات.

وكيف نشأ الشاعر؟ - نشأ كما ينشأ فتيان الحلي في القبيلة بين الإبل والنساء وبين الحل والترحال، لا يعرف من الوجود إلا أودية نجد وما يأتي به الركبان من أحديث وأخبار. أما تفاصيل ذلك فلا يعرف إلا بالحدس والتخمين. وكل ما رواه لنا الرواة من أحداث تلك الحقبة أن الفتى علق فتاة اسمها ملوثة كانت على جانب من الجبال، فزاحمه في حبها رجل من الثبيت<sup>٣</sup> وحاتم الطائي صاحب الكرم والجود، وكان النصر في خطبتها لهذه الأخير، مما أغر صدر الشاعر وحمله على نظم بعض الأبيات يزكي بها نفسه لدى الفتاة<sup>٤</sup>.

٢ - لسان القبيلة وصحافيها: ظهر النابغة في قبيلته شاعراً ذكياً اغواذ، وكان شأنه فيها شأن سائر شعراء القبائل، فعلا صوبه بقود ويرشد، ويدعو إلى الحرب ويهدد. ويشجع الأحلاف ويحض على السلم، وينحوض في شتى ميادين الاجتماع القبلي في حكمة وثاقب نظر. وكانت ديان وافرة الأحداث والاضطرابات. فهي من جهة على تخوم أرض الغساسنة وفي الأرض كلاً وماء، ورعي الماشية يحمل على اجتياز الحدود، وهي من جهة أخرى إلى جانب بني هوازن الذين قال فيهم صاحب الأغاني أنهم

١ - محمد عبد القاب: أطلق على عدد من شعراء الجاهلية منهم النابغة الجعدي، والنابغة الشيباني..

٢ - مطالع ديوان النابغة: مطبعة ديرسورج، ص ٢٤٤، وشعراء النصرانية: لأب شيخو، ص ٨٢٠.

٣ - ليست بن مالك بن عظم من الأوس، من الأزد، من القحطانية

٤ - ديرسورج ص ٢١١، شعراء النصرانية ص ١٠٩

« زاحموا قريشاً على منابرهم<sup>١</sup> ». ومن هوازن عامر بن صعصعة<sup>٢</sup>. وكان بين بني عامر وغطفان، وبين عيس وذيبيان، مساوشات وأحقاد حاول الشاعر أن يضيّق دائرتها ويطلعي أوازها. وكان عيس سيّد اسمه زهير بن جذيمة تسلّط على هوازن، فإذا كانت أيام عكاظ أنهاها، فتأتيه هوازن، بالإنوة التي له في أعناقهم، ثمّ إذا تفرّق الناس نزل بالثغروات وهي حرّة بديار غطفان. وما زال كذلك حتى غضبت هوازن وتدامرت عامر بن صعصعة، وكان يوم الثغروات الذي قتل فيه خالد بن جعفر العامري زهير ابن جذيمة العبيسي. وحدث بعد ذلك أن التقى الحارث بن ظالم المرّي الذبّي بخالد بن جعفر العامري في بلاط الحيرة فقتله وفرّ إلى قومه فقبّلوه ولم يدخلوه في حمايتهم، فلجأ إلى تميم فأجارته، وأت أن تسلّمه، فخرج إليها بنو عامر، والتقى الفريقان في رحرحان<sup>٣</sup> واقتلا قتالاً شديداً، فانهزم بنو تميم، وبجا الحارث بن ظالم المرّي بنفسه قبل المعركة وبني وتره لديه ولدى قومه بني ذيبيان.

وكان لغطفان في تلك الأثناء كفتيلان هما عامر بن ملك وزُرعة بن عمرو فتوحه إليها النابغة يدعوها إلى فرض الصلح فيما بين أبناء قيس عيلان تلافياً للشرور، ثمّ أنه بعد مقتل زهير ابن جذيمة سيّد عيس عمل زُرعة بن عمرو بن خويلد على أن يترك الذبيانيون حلف بني أسد، فأبى النابغة وراح يوجّه الكلام الشديد إلى زُرعة راداً تهديداته وأدعاءاته بلهجة حربية اندلقت فيها جموع بني ذيبيان وعيس وأسد وكلب اندفاق أهبة للقتال. واستعداد للقتال. وذلك أنّ الشاعر كان شديد الحرص على مخالفة بني أسد لقومه وقد أفتد أسراهم يوم اشتركوا مع المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في حرب الغساسنة وانصر هؤلاء على المنذر في يوم حليمة. وهكذا كان النابغة رجل الصلح والسّلام حين رأى فيها لقبيلته خيراً، ثمّ كان رجل التهديد واللهجة الحربية حين دعت إليها مصالح قومه

والحياة في البادية شديدة الثقل، وهناك المصالح القلبية المادية والنزوات الجاهلية

١ - الأغاني، ١٥ ص ١٣٨، (طبعة دار الكتب، مصرية)

٢ - عامر بن صعصعة بن زهير بن هوازن، من قيس بن عيلان، من العدنانية يُنسبون إلى أربعة أحقاد: تميم، وربيعة، وهلال، ودوالة. وصمهم دعبل الساسنة فقال: «دعاف طياء وأعجار سماء»

٣ - رحرحان اسم حل قريب من عكاظ، تخلف عرفات.

وندد بأعدائهم . وهكذا كان النابغة رجل الحرب والسياسة والدهاء في تلك الأحوال الشديدة ، ولكنه كان في الوقت نفسه ينظر الى بني عيس نظرة سياسي المحتك ويرى في تشبثهم ولجوتهم الى العامرين دعياً من دواعي الأسف ، وخسارة لذييان ، ويود لو يرجعون الى ديارهم آمنين . ويتم الصلح الكامل بينهم وبين أبناء عمهم ، على ألا يكون ذلك على حساب بني أسد وتقض حلفهم كما ارتأى عيسى بن حصن الفزاري . وهو في شعره لا يعرض لبني عيس بسوء ، وانك لتشعر أنه رجل ينظر الى البعيد من الأحداث ، ويعمل على تهيئ طريق العودة لأساء العم . وهكذا كان في نهاية الحرب اني كانت حلماً من أحلام النابغة وان لم يشاهدها إلا من وراء القبر .

أنصف الى ذلك كنه أن بني ذييان وحلفاءهم من بني أسد كانوا كثيري الغارات على أطراف بلاد الغساسنة للغزو أو لانتجاع الكلأ ، كما كان بنو أسد يشتركون مع المنداة في حرب الغساسنة ، وكثيراً ما كانت النائرة تدور على قوم الشاعر وحلفائهم ، فيتوجه الى غسان شافعاً في الأسرى ، ناهياً عن غزو ذييان . ويتوجه الى ذييان مبيناً مغبة العلوان ، في كلام حافل بالحكمة والسلطان ، ولئن تعرض له بعض أبناء قومه بالولم حسداً وافتئاتاً فإنه اكتفى بالثفانة العائب وتعداد الأيادي البيض . وهكذا كان رجل السلام الذي يناصر الحق ولا ينسى أنه لقييلته ومصالحها على سنة العصبية في غير شذوذ ولا تفريط .

٣ - بين الحيرة وغسان : مر بنا ما كانت عليه الحيرة وغسان في ذلك العهد من عز وسلطان ، وما كان من تنافس بين الدولتين العربيتين بشد الفرس أزر الواحدة ، والأروم أزر الأخرى ، وما كان بينهما من تمارع على القبائل العربية تأمناً لطرق القوافل ، وتنازع على الشعراء « صحافسي » تلك الأيام وممهدي السبيل إلى مد السلطان والفود في البوادي القاصية .

وكان النابغة على صلة وثيقة ببلاط عسان تمكنه من حلقة مصالح قومه وأحلافهم كما ذكرنا سابقاً ؛ وكان أيضاً على صلة ببلاط الحيرة يروى أنه اتصل أولاً بالمتنذر بن ماء السماء ( ٥٠٥ - ٥٥٤ م ) ويشير ديوانه الى أن أول اتصال له بملوك الحيرة كان في

عهد عمرو بن هند الذي هنأه النابغة بنسبته العرش ثم انصرف بعد هذه التهنئة الى شؤون قومه وأحلافهم عندما نشبت الحروب بينهم وبين غسان ثم بينهم وبين عبس .

ثم عاد فاقبل بالثمان بن المنذر ، أبي قابوس ، الذي تولى عرش الحيرة نحو سنة ٥٨٠ م . وجعل قصره مباهة للشعراء . وأجزل لهم العطاء ، وقد استقبل النابغة بحفاوة شديدة لصيته الضخم في عالمي الشعر والسياسة ، وانهالت عليه عطايا الثمان في غير حساب . وأصبح يديم الملك ومؤاكله وشريكه في أنسه ولهوه مما أوغر صدر سائر الشعراء حقداً وحسداً ، ومما حمل البطانة على التريُّس به ودمس الدسائس للإفساد ما بين الملك وشاعره . وقد تم لهم ما أرادوا بعد شتى المحاولات ، فغضب الثمان على النابغة وكاد يوقع به ، ولكن النابغة فرّ ملتجئاً الى قومه ، ثم توجه شطر الغساسنة بعد سنة ٥٨٧ م . فاقبل بعمرو الرابع ابن الحارث السادس الأصغر وملحه بياثيته المشهورة ، ثم اتصل بالثمان السادس أبي كرب وبخلائه من بعده ، ولكنه لم يلق عند حجر الثاني ما لقيه عند سالفه من الحظوة والإكرام . فحنّ الى بلاط الثمان بن المنذر كما حنّ إليه ذلك البلاط ، واتخذ من مريض ملك الحيرة فرصة ليعود إليه .

تعددت الروايات في شأن تلك العودة . ومهما يكن من أمر فلم يشأ النابغة أن يعود الى الحيرة إلا بعد أن برّر سحته بقصائده الاعتدالية التي وجهها الى الثمان والتي كسبت له الرضى التام . وما إن بلغ الحيرة حتى أرجعه الملك الى سابق عهده وثرائه . ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فما عثم كسرى ملك الفرس أن غضب على الثمان وقتله ، فالتحق النابغة بقومه حيث قضى أيامه الأخيرة ، وتوفي نحو سنة ٦٠٤ م . وهكذا كان الشاعر رجل السياسة والذهاء ، وتقلب في البلاطين المتعادين متكسباً ، وكان في كل حال نابغة بني ذبيان

١ - اختلف الرواة في سبب الخلاف بين الملك وشاعره ، فهم من قال ان عبد القيس بن حلفان القمي ومرة ابن سعد بن فريخ السعدي قد ظمرا هجاء الثمان فجاءه على لسان النابغة ، ومنهم من قال ان النابغة وصف الشعيرة امرأة الثمان وان سلوحيه دسوا في ذلك الوصف أساناً حاكمة بالمشعر ، ومنهم من ذهب الى أن السبب كان ترجع النابغة على مدح الثمان وتشجيعه للغساسنة . قال الدوقوي وولع هذه الأسباب بمحنة هي التي نوعرت صدر ادمعان عليه حتى همّ بالانطس به لولا أنّ حنجه عصاماً ، وكان صديقاً للامانة ، أسره قبل أن يتمكن منه ، هرب تاركاً كل ما وهه الثمان من منيع وعطايا .

التي تُهـبـ الأُخ في وجه أخيه ، والنَّسـيب في وجه نسيبه ، وهـنالك العـصـية القـبـيلة الـتي تحوّل الخلاف الفردي إلى خلاف جماعي . وقد جرى في تلك الأيام أن سار قيس بن زهير بن حذيفة العبسي إلى المدينة قاصداً أحيحة بن الجلاح<sup>١</sup> ليستأجر منه درعاً موصوفة ويعود إلى قتال بني عامر ويأخذ بثأر أبيه زهير بن جذيمة ، فاشترى درعاً كانت تُسَمَّى « ذات الخواشي » ورجع إلى قومه مازاً بالربيع بن زياد العبسي<sup>٢</sup> علّه يباصره للأخذ بثأر أبيه . ولد أبصر الربيع بن زياد « ذات الخواشي » طمع بها واغتصبها اغتصاباً ولجّ في منيها ، فامتلاً صدر قيس بن زهير غيظاً وهجم على لبل الربيع واستأقها إلى مكة حيث باعها واشترى بشمها خيلاً . وكان من جملة ما اشترى قرسان اسم أحدهما داحس واسم الآخر الغبراء . وهكذا نشأ الخلاف بين عيس وذبيان وهم أبناء رحم واحد . وراح الخلاف يتضخّم ويتفاقم إلى أن لجأ قيس بن زهير إلى حذيفة بن بدر من فزارة وأقام عنده مدّة من الزمن كانت خاتمتها رهناً على القرسين داحس والغبراء وأيهما أسبق . فقال قيس : داحس أسرع ؛ وقال حذيفة : الغبراء أسرع . وانفصلا على أن تكون الغاية من أبي<sup>٣</sup> إلى ذات الإصا<sup>٤</sup> وهي مقدار مئة غلوة<sup>٥</sup> ، وجعلوا لسابق الذي يرد ذات الإصا ويكرع من مائها أولاً . وأقام حذيفة رجلاً من بني أسد في الطريق ، وأمره أن يلقى داحساً وأن يردّ وجهه عن الغاية إن كان سابقاً وهكذا كان ، ولجّ الفريقان في أمر السبق ممّ أدّى إلى قتل ابن حذيفة وإلى نشوب حرب بين عيس وذبيان ، عُرفت بحرب السباق أو حرب داحس والغبراء . امتدت من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ م

شهد الباغية تلك الحرب وتبع أيامها فهدح بني أسد ليطلوا أحلاف ذبيان ، وحمل على بني عامر حملات عنيفة ، وأشاد ببطولات قومه . ورثى قتلاهم وشجع حلفاءهم ،

١ - أحيحة بن الجلاح سيد الأوس في الجاهلية ، وكان كثير المال شححاً عليه بيع بيع الرا للبلدية

٢ - هو أحد رعاء عيس وكان يدعى لسعان .

٣ - وقيل إن داحساً والغبراء كانا من قبل بني يربوع استأجرا قيس ، وقيل غير ذلك .

٤ - أبلى . جدل سود واقعة في الشمال الشرقي من معدن بني سميم .

٥ - ذات الإصا . قال ياقوت في معجم البلدان هي ردة (أي قبزة في الحبر يجمع فيها الماء) بين لجبل

في دار بني عيس

٦ - العوة الزمية بالشابة .

## ٢ - شخصية النابغة :

هكذا يتجلى النابغة الديباني من خلال شعره وأحداث عصره . فهو رجل الصلابة السياسية التي تتبع الأحداث في شدة ومرونة . والتي لا تغير خططها صغار الأمور وترهات الأعمان . وهو رجل العصبية القبلية التي تعمل في غير تهور ولا تفريط . والتي تستخدم مصالح القبيلة في حكمة ودراية لا في طيش ونزق ، والتي تحكم العقل المفكر وتوجه نحو طريق الاستقامة . إنه باصر قبيلته ويرى من مصالحها أن يبقى بسو أسد الى جانبها فيعمل على توثيق الروابط بين الفريقين ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وقد برهنت حرب داحس والغبراء حاجة ذبيان الى بني أسد .

وفي حرب الساق أبي أن يسمى القول ببني عيس حرصاً منه على استرجاعهم ومصالحتهم لأن أبناء العم أشد غيرة على دويهم من الغرياء .

ثم انه أخلص للعساسة كما أخلص للنعمان ، وما همُّه أن تكون الدولتان على نزاع وخصام ، فهو فوق العتات وفوق الخصومات . وقد استطاع بإخلاصه للفريقين أن يكون ذا منزلة رفيعة بينهما جميعاً ، كما استطاع أن يخدم قبيلته وأحلافها خدمة ذات منفعة عامة .

وهكذا وقف في عصره وقفة الحكم الذي يرى رأي الصواب ، والذي يهيم على قبيلته بظفر البعيد المدى . ويحضرها كما تحضر الأم طفلها ، ويبعد عنها أذى أعدائها والمتطرفين من أنائها وأنسائها ، ويقودها في طريق الصالح والأصلح . وشعر النابغة يعطينا صورة واضحة عن مهمة الشاعر الجاهلي وأثره في بيئته وأثر بيئته فيه ، فقد كان النابغة شاعر القبيلة يشعر بالثيمة الملقاة على عاتقه ، وتنتظر منه القبيلة القيام بواجبه لإزائها . ثم انه اتصل بالحضارات القريبة منه ، وتجلى أثر هذا الاتصال في شعره ، فانتسج أفقه ، وتوسع خياله ، وهو بهذا يعطينا فكرة صالحة عن العقلية الجاهلية في أعين صورها . زد على ذلك أن النابغة نهج في الشعر منهجاً تبعه فيه من أتى بعده من الشعراء حتى اليوم ، فهو ذو أثر قوي في الشعر العربي<sup>١</sup> .



## ٢- أدبه : الديوان :

١ جمعه . للنابغة الذبياني ديوان شعر انتقل إلينا في مجموعة شعرية قديمة ضمت شعر امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، وعلقمة ، وعنترة . وقد رواها أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعظم الششمري<sup>١</sup> (١٠١٩ م ١٠٨٤ م) . واعتمد فيها القصائد التي رواها الأصمعي . كما اعتمد في شعر النابغة ما رواه الطوسي عن ابن الأعرابي<sup>٢</sup> . ثم أخرج هذه المجموعة المستشرق الروسي ولیم بن الورد<sup>٣</sup> إخراجاً علمياً اعتمد فيه على عدّة مخطوطات ، وأضاف إليها أبياتاً ومقطوعات عثر عليها في كتب الأدب ولم يروها الأصمعي وفيها المحول وفيها الثابت النسبة إلى صاحبه . وفي سنة ١٨٦٩ نشر «ديوان النابغة» المستشرق الفرنسي هوثليك ديونيورغ Hartwig Derenbourg (١٨٤٤ — ١٩٠٨) وضمّ إلى مجموعة الششمري سبع قصائد رواها الطوسي عن ابن الأعرابي ؛ وفي سنة ١٨٩٩ أخرج هذا المستشرق نفسه ملحقاً لديوان النابغة يتضمن ما جاء في مخطوطة ساوة من بلاد فارس ، وقد حوت هذه المخطوطة إضافات لم يأت ذكرها في ما سبق عليه الكلام . وهكذا يكون شعر النابغة الثابت له إحدى وثلاثين قصيدة .

٢ أقسامه . ديوان النابغة ثلاثة أقسام كبرى هي القبليات ، واللخميات والغسانيات وهذه الأقسام الثلاثة يكاد ينحصر فيها شعره لولا بعض المقطوعات والقصائد هنا وهناك في أغراض مختلفة كالوصف والعزل وما إلى ذلك . وشعر النابغة شديد الصلة بحياته القلبية

١ هو من علماء الأساس المشتهر في الأدب واللغة ولد في ششمريه العرب ورحل إلى قرية . وكفّ بصره في آخر عمره ، ومات في أثينا . كان مشقوق اللغة العالماً واشتهر بالأعظم من مؤلفاته «شرح الشعراء الستة المذكورين في المجموعة» .

٢ الطوسي هو علي بن عبد الله بن سنان التيمي وقد تعلّم على ابن الأعرابي وتوفي سنة ٨٥٤ م . أما ابن الأعرابي فهو «عبد الله محمد بن رباد» كان من رواة الكوفة ، وقد توفي سنة ٨٤٥ م .

٣ هو منهم اهرت W Ahlwardt مستشرق ألماني كان يسمى نفسه بالعربية ولیم ابن الروسي . وقد قام برحلات متعددة ، وقضى حياته في دراسة الآثار الشرقية عامة والعربية خاصة أعظم آثاره «معرض مخطوطات المكتبة الملكية في برلين» . وما نشره بالعربية وعلق عليه «المقدّمين في دواوين الشعراء الستة المجلدين» ، و«مجموع أشعار العرب» في ثلاثة أجزاء . توفي سنة ١٩٠٩

والسياسية ، شديد النضوج بحياة العصر ، وكأني بالشاعر لا يهمل إلا أن يكون رجل القبيلة يسعى إليها بكل ما لديه من وسائل ، وينظر إلى الأحداث نظرة المستعطي الذي يقود كل شيء إلى صالح القبيلة ، ويقود القبيلة إلى ما هو الأفضل ، في حكمة ورزانة وحزم .

٣ المعلقة : دالية النابتة على البحر البسيط ، وهي أشهر اعتدالياته ، وقد تعلب بها على سخط النعمان وطر برضاه وصفحه ، وهي معدودة من المملقات ؛ وبها وقوف بالأطلال ، ووصف للناقة والثور الوحشي . ومدح للنعمان ، وتكذيب للوشاة ، وطلب للعفو . أما مطلعها فكما يلي :

يَا دَارُ مَيَّةَ بِالْعَبَاءِ فَالْسَّدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ

#### ٤ شاعر القبائل .

القبائل قصائد ومقطوعات نظمها النابتة في شتى السياسات القبلية والشؤون التي تركز على العصبية . والنابتة ، كما رأينا ، من أشد الشعراء شعوراً بالعاطفة القبلية ، والواجب القبلي ، وقد حمل عبء الجماعة بكل أمانة وإخلاص حتى صدقت به عاطفته هذه عن روح اللهو والعبث ، ونزعت به نزعة الجِدِّ والرصانة ، وهكذا رافق قبيلته في شتى محنها ، وكان لها عيناً ساهرة ، وساعداً قادرة ، ولساناً ذا مضاء ، وهداية غير ذات التواء . وإننا نستوقف عند بعض التماذج الشعرية التي توضح لما موقف الشاعر القبلي الذي جمع اللين إلى الحزم ، والدّهاء إلى الصراحة الجاهلية .

١ مدح النعمان بن وائل بن الجراح الكلي . وقف الشاعر وسيطاً بين قبيلته وغسان ، ولما أغار النعمان بن وائل بن الجراح ، قائد الحارث بن أبي شمر ملك غسان ، على بني ذبيان وأحلافهم رجع منهم ومن غطفان بعدد من الأسرى ، وأخذ عقرب بنت النابتة فسألها : « مَنْ أَنْتِ ؟ » فقالت . « أَنَا بِنْتُ النَّابِغَةِ » . فقال لها : « وَالله ما أحدٌ أكرم عينا

من أليك . وما أنفع لنا عند الخلك . ثم قال : « والله ما أرى النابتة يرضى بهذا مناء فأطلق له سبي غطفان وأسراهم . ولما تما الحتر الى الشاعر ، عظم في عينيه ، فأطلق لسانه في مدح القائد الغساني شاكراً له تلك البادرة التلقائية التي صدفت بالشاعر عن عاداته الأسطرطية في مدح الملوك والرؤساء دون سواهم . وحملته على مدح أحد « السوق » . والنابتة . والحالة هذه ، لا يسجأ في مدحه الى التعظيم والتبجيل . لأنه مدح أعلى لأدنى . وانما يجعله إقراراً بحميل ، ووصفاً لحال الأسيرات ، بعد مقدمة تقيدية صاعدت بينها وبين الوصف معاني ذلك المدح الذي يرمي به الشاعر إلانة عجب خشية التبدل ، والذي اقتصر فيه على أن ابن الجلاح سباق الى العلى . وعلى تشبيهه بأجداده وجعله أرفع منهم قدراً ، وهكذا قارن بين الممدوح وذويه دون سواهم . وجعل رفعة ضمن دائرة ضيقة بعيدة عن كل إطلاق وعن كل عظمة ضخمة .

٢ - كفف غسان عن ذبيان وحلفائها بني حن . عزم العمان بن الحارث الغساني أن يغزو بني حن بن حزام من عذرة . فنهاه النابتة وأحيره أنهم قوم أشداء مرهوبو الجانب في وادي القرى ، منتشرون في حرّة وبلاد شديدة يعرفون مسلكتها ومنعرجاتها . ويتحصنون بمجاهلها ومنازلها ، سبق لهم أن منعوا وادي القرى من كل عدو طامع ، فطردوا بلياً واستظهروا على قضاة<sup>٢</sup> ومضر الحمراء<sup>٣</sup> ، وقتلوا الطائي بالحجر<sup>٤</sup> . ولما أبى النعمان إلا الغزو ، بعث النابتة الى قومه يأمرهم بمناصرة بني حن ، ففعلوا ، وهرموا جيش غسان . وعند ذلك أطلق النابتة لسانه يصف الموقف ، ويتظاهر بالغيرة على غسان إذ يلوم النعمان لانصرافه عن النصيحة ، ثم يذهب — في تضخم شأن أبناء عذرة ونشر المحول في ديارهم — مذهباً يبطئ عزم غسان عن إعادة الكرة . وهكذا فلذبيان غايته ، وسياسة الغيرة على غسان وعذرة هي عنده في سبيل ذبيان قبيلته ، وأسلوب الاستعلاء

١ - بني : قبيلة عظيمة من قضاة من الصحابة تنسب الى بني عمرو بن الحارث بن قصاعة . كانت مساكنهم بين المدينة ووادي القرى

٢ - قصاعة . شعب عظيم من حمير . من الصحابة . كانت ديارهم في الشام ، ثم في نجران . ثم في الحجاز ، ثم في الشام

٣ - مضر الحمراء : سميت بذلك لأن به نزر التي أعطاهم به مصرأ ، أما هذه القبيلة . كانت من أدم أسمر

٤ - الحجر (مصحح الحاء) مدينة بالجماعة وابجير (بكسر الحاء) ديار نمود بوادي القرى بين المدينة والشام

والتضخم والتهويل الحسي التمثيلي أسلوبه ، وموقف الحكمة والذهاء موقفه البعيد أثراً  
وفعالية ، وما قال في الموضوع :

لَقَدْ قُلْتُ لِلتَّعَانِ يَوْمَ لَقَيْتُهُ يُرِيدُ بَنِي حُنٍّ بِرَقَّةٍ صَادِرٍ  
تَجَنَّبَ بَنِي حُنٍّ ، فَإِنَّ لِقَاءَهُمْ كَرِيهُ ، وَإِنْ لَمْ تَلَقَ إِلَّا بِضَايِرٍ  
عِظَامُ اللَّهِى ، أَوْلَادُ عُدْرَةٍ ، إِنَّهُمْ لَهَا مِيمٌ ، يَسْتَلْهَوْهَا بِالْحَاجِرِ  
وَهُمْ مَتَعُوا وَاذِي الْفَرَى مِنْ عَدُوِّهِمْ بِجَمْعٍ مُبِيرٍ لِلْعَدُوِّ الْمُكَائِرِ

٤ كعب ذييان عن التعرض بفساد . والناطقة شديد الحرص على مصالح غسان  
حفاظاً على الصداقة التي توثقت عراها بينه وبينهم منذ يوم حليلة (٥٥٤م) ، وهو لا  
يبغي من وراء ذلك إلا صالح قبيلته ، وإبعادها عن التهويل والتغريب بالنفس . وقد اتهمه  
بعض أبهاء قومه بالاعتماد على غسان خوفاً وحسناً ، ولا سيما عندما نهامهم عن اجتماع  
واذي أقر الذي حماه التعان الغساني . ولكن الشاعر لم يرجع عن رأيه ، وقد نظم في  
ذلك قصيدة نوح بها منهج التضخم والتهويل ، والتمثيل التشبيهي الحسي ، وإذا  
التعان كالأليث المقيبص على بوائمه ، المتحفز للموتوب ، ونساء ذييان في قضضته معرضات  
لكل لون من ألوان الحري والعار . ولئن أعرض بنو ذييان عن نصيحة شاعرهم  
فشاعرهم براء منهم . وهكذا فالقصيدة اعتباراً وتهديداً ، وامتداداً الى الهدف عن طريق  
الترهيب ، وإثارة لعاطفة الشرف الحاهلي والعصية القبلية ، وهذا كله من أشد الكلام  
وقعاً وبلاغة . قال النابغة :

١ - برقة صادر : من سازل بي عذرة . ولم يذكر ياقوت شيئاً عن مواقعها

٢ - يقول : تجت لقه بي حن لألك لى نأس شرهم وإن لم تلقهم إلا نكن صار على الشدائد .

٣ - عظام اللهى أي كثير للال اللهام . العظام الضحام يستلهمها . يتلهمها . — يقول : إن عظامناهم  
عسبة ولكنها نصرع عندهم لعظم معالهم حتى أنهم يرون ما يهونه عسلة ما يتلهمونه تحقيراً له وإن كان عظيماً

٤ - المبير المهلك . العدو لكأثر أي الكثير العدد

لَقَدْ نَهَيْتُ بَنِي ذِيانَ عَنْ أَقْرِ ، وَعَنْ تَرْبِعِهِمْ فِي كُلِّ أَصْفَارٍ  
وَقُلْتُ : يَا قَوْمُ إِنَّ اللَّيْثَ مُنْقَصٌ عَلَى بَرَائِثِهِ بِلَوْبَةِ الْفَصَارِ  
لَا أَعْرِفُ زَرْبًا حُورًا مَدَامِعُهَا . كَأَنَّ أَبْكَارَهَا نِعَاجُ دَوَارٍ  
يَنْظُرُونَ شُرُورًا إِلَى مَنْ جَاءَ عَنْ عَرَصٍ بِأَوْجِهِ مُسْكِرَاتِ الرُّقِّ أَحْزَارٍ  
خَفَ الْعَصَارِيطُ لَا يُوقِنَنَّ فَاجِئَتُهُ مُسْتَمْسِكَاتِ بِاقْتَابٍ وَتُكْوَارٍ

٤ - الحفاظ على الأحلاف ولا سيما بني أسد . اجتمع النابغة بزُرعة بن عمرو بن حُوَيْلِد في سوق عكاظ ، فأشار زُرعة بأن يترك الذبيانيون حلف بني أسد ، فأبى النابغة ، فابتعد زُرعة متوعداً ثالِباً ، وآب النابغة بقصيدة هي أقرب إلى أن تكون نشيداً حريباً منها شعراً عادياً ؛ بل قل هي جُمُوع الأحلاف والأنصار في الوحدة المنتصرة . وهي من ثم مهاجمة عنيفة حافلة باللهجة القادرة ، والرزانة الثائرة ، والقدرة المادرة ؛ وهي وصف مدحى للأحلاف يشجعهم على رص الصفوف . وتكثيف للأداة الجاهلية ، وتعداد تهديدي ، وهجاء زجرى ، وهي إلى ذلك متانة شعرية صافية ، وألفاظ شديدة الوقع حازمة في شدتها وعنفوانها :

١ - ذو أقر : وذ عصب جهاء الهجان بن الحارث الغساني ، وقد أحاز عليه سو دسك عشرين بكل ما دله الشاعر لمتهم عنه ، متهمين بياه بالخوف والجبن ، لما كذب من الهجان إلا أن أرسل إليهم من أوقع سم وبكل بهم أشد تكيل . تربعهم في كل أصفار . أي يقامتهم لرعي ما أنهت العشب في شهر صفر . وكان إذ ذلك في الربيع

٢ - البرائن : الأنظار . يقول . ان ملكك الغساني كاللث الضاري متأفك غوثوب

٣ - الأرب : القطيع من غر الوحش . واستعاره للتشاه . أي جمع عينها شدة البياض في شدة السواد الدُّرَّار : ما استند من الرمل والعرب تعني يعاج الرمل شقر . يقول لا تكونوا في مكان تسبي به حسنتكم

٤ - الشَّرَر : لنظر مؤزر العين العُرس الخائب والدمية — يقول ينظرون ظلمات حية لعلهن يحد من ينيث .

٥ - العصاريط : الأتباع والأحرار . والقوام : الاقتباح . قف وهو إكاد العير . الأكوارح كوز وهو الرُّوح

بُتُّ زُرْعَةً، وَالسَّمَاعَةُ كَأَسْمِهَا، يُهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الْأَشْعَارِ  
فَحَلَفْتُ، يَا زُرْعُ نَنْ عَمْرُو، أَنِّي مِمَّا يَشُقُّ عَلَى الْعَدُوِّ ضِرَارِي<sup>٢</sup>  
أَرَأَيْتَ، يَوْمَ عَكَاظٍ، حِينَ لَقِيتَنِي نَحْتَ الْعَجَاجِ، فَمَا شَقَقْتَ غُبَارِي<sup>٣</sup>  
إِنَّا نَقَسَمْنَا بَيْنَنَا، فَحَمَتُ بَرَّةً، وَأَحْتَمَلْتُ فَجَارِي<sup>٤</sup>  
فَتَنَاتِيكَ فَصَائِدُ، وَلَبَدَفَعَنْ حَيْشُ إِيْلِكَ قَوَادِمَ الْأَكْوَارِ<sup>٥</sup>...

وما قتلت هو عيس نضلة الأسدي، وقتلت بنو أسد منهم رجُلان أراد عيشة أن  
يتصر لبي عيس ويُخرج بني أسد من حلف ذبيان، فهاج هائج النابغة ونظم قصيدته  
النونية الشهيرة وهي أصدق مثال للسياسة القبلية عند الشاعر. وهي تتألف من أربعة  
أقسام: مقدمة تقيدية مصطنعة العاطفة، وهجاء لعيشة، وفخر بالأحلاف، وحاجة  
قائمة في بيت واحد ضمها تميحاً إلى النتيجة المشؤومة التي يؤدي إليها رأي عيشة قال  
فيها:

عُشَيْتُ مَنَازِلًا بِعُرِيَّاتٍ      فَأَعْلَى الْجَزَعِ لِلْحَيِّ الْمَيِّنِ<sup>٦</sup>  
إِذَا حَاوَلْتُ فِي أَسَدٍ فُجُورًا،      فَلَمَّي لَسْتُ مِنْكَ وَكَسْتُ مِنْي

١ - السماعة: الجهل وسوء الأخلاق - يقول: لقد بلغني أن زرعة ينطق على الشعر فيهدي إلي منة الشيء  
الغرب. ولأن حافة منة، والسماعة فيحه في اسمها وصلها.

٢ - شق عليه الأمر: صعب الصرار: إلحاق الضرر

٣ - المحاح: العار. ما شققت عماري: أي ما اقترت مني.

٤ - بره: اسم للبر، فعار اسم من الصبور - أي أن الشاعر بقي وياً للأحلاف فيما أن زرعة أراد لعذر

٥ - القوادم: ح. قادمة وهي مقدمة الرجل الأكوار ح. كدر وهو دخل النقة - في هنا البيت يهتد  
الشاعر خصمه بهجاء والبرو. وقد أراد تقوية كلامه بالتأكيد

٦ - عريئات ح تصغير عرمة وهو مات حزين شبه الموضع يسبح به، وهو وادٍ الجزع: منعطف  
الوادي، وهو هنا موضع المن المقيم في هذه المنازل.

فَهُمْ ذَرَعِي الَّتِي اسْتَلَامْتُ فِيهَا      إِلَى يَوْمِ الْتَسَارِ وَهُمْ مِجَنِّي<sup>١</sup>  
وَهُمْ وَرَدُّوا الْحِفَارَ عَلَى تَمِيمٍ      وَهُمْ أَصْحَابُ يَوْمِ عُكَاظٍ ، إِنِّي<sup>٢</sup>  
شَهِدْتُ لَهُمْ مَوَاطِنَ صَادِقَاتٍ      أَتَيْنَهُمْ بِوُدِّ الصَّدْرِ مِنِّي

ولما إذا أرسلنا في القصيدة رائد النظر وجدنا فيها مقدمة غزلية ، جرى فيها النابعة على أسلوب من سبقه ، واصطنع فيها العاطفة الغرامية الباكية اصطناعاً ، وضمنها تحت ذلك الاصطناع للمأخوذ في أعماق نفسه من جراء تصرف عَيْشَةٍ ، ووجدنا هجاء قائماً على تحليل نفس عَيْشَةٍ ، وإظهار مساوئها الذاتية ، في هجعة تحقيرية ، ووجدنا فخرأ قائماً على تعداد أحماد بني أسد وذكر أبائهم

ثم إننا إذا نوقضنا عدد أبيات القصيدة وجدنا أنها شديدة الإحكام ، عالية اللهجة (إليك عني ١) ، صاعدة الرأي في غير اضطراب (إني لست منك ولست مني) ، مستعجلة الموقف (وكانوا يوم ذلك عند ظني) ، صارمة التهديد (فإنك سوف تترك والتني) ، تسير في ثنائي التأليف الذي يحكم التركيب والتعير ، والذي يعتمد الأساليب الفنية التي تُقرّر المعنى كأن يستعمل «إني» في آخر البيت ويجعل خبرها في البيت التالي إشارة إلى أهمية ذلك الخبر وإلى الإسراع في لفت النظر إليه . وكان يجعل قافية القصيدة (كالسّلام) فيشدّد نون الروي بحيث يصح كل بيت ضربة حجر يصغي الماعنة إلى أنبيه في الهواء ، ويتأمل في هدوئه المسيطر كيف يصيب الهدف ولا يخطئه وهكذا كان الشاعر في هذه القصيدة رئيساً وحكيماً وذاهية ، وشاعر خيال وموسيقى وروعة .

#### ٥ الفسائيات في المدح والسياسة :

لا شك أن أهم ما في ديوان النابعة شعره القبلي الذي تكلمنا عنه في الصفحات السابقة ، أما الشعر الذي قاله في غسان فقسّم منه يرجع إلى معالجة القضايا التي قامت بين غسان وبني ذبيان وأحلافهم ، وقسم آخر نظمهم الشاعر تلبيةً لدعوي اصدافه أو التكسب أو عندما التحق بالغسان على أثر التنافر الذي حصل بينه وبين النعمان ملك

١ استلّمتُ فيها : لبستُ الأداة أي الدرع . يوم تسار : موقعة لصدّ وتميم على بني عامر

البحر : القيس . ٢ يوم عكاظ كان بينهم وبين غريش ، والجفار ماء لهم

الحيرة. وهذا القسم الأخير يدور حول المدح والثناء ، وإننا نتوقف منه عند الباقية المشهورة التي تُعدُّ من أروع الشعر العربي القديم . فاطا النابغة عندما هرب من النعمان ابن المذر والتحق بعمر بن الحارث الأصغر ، وضمتها كل ما في ذات نفسه من محبة عميقة لبني غسان ، ومن سياسة نفعية في الوقت نفسه . والقصيدة قسبان : مقلعة وجدانية حافلة باهموم ، ومدح للملك الغساني وقومه :

كَلْبَنِي يَهْمٌ ، يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٌ	وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءُ الْكَوَكِبِ <sup>١</sup>
عَلَيَّ لَعْمَرُو نِعْمَةً بَعْدَ نِعْمَةٍ	لِوَالِدِهِ . لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَّارِبِ <sup>٢</sup>
وَقِفْتُ لَهُ بِالنَّصْرِ ، إِذْ قِيلَ قَدْ عَزَّتْ	كَتَائِبُ مِنْ عَسَّانٍ ، غَيْرُ أَشَائِبِ <sup>٣</sup>
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُبُوقَهُمْ	بِهِنَّ قُلُوبُ ، مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ <sup>٤</sup>
مَجَلَّتْهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِينُهُمْ	قَوِيمٌ ، فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ <sup>٥</sup> ..

• معاني القصيدة وميزاتها :

١ . هذه القصيدة مدح بحث . والنابغة ذو نُرعة أرسطقراطية في مدحه ، وهو لم يمدح سوى الملوك والرؤساء ما عدا النعمان بن الجلاح . وقد أخضع الشعر للتكسب وفتح باباً ولجه أكثر من أتى بعده ، وكان بذلك من أكبر المسؤولين عن إخضاع الفن للدرهم . وهو في هذه القصيدة يثبت المعاني المدحية التي لم يكد يخرج عنها أحد . فهو يفتتحها بوقفة وجيزة عند الليل ، ذلك الليل الذي كان له في نفس النابغة أشد أثر ، ليل الهموم والآلام القلبية ، وفي هذه الوقفة الوجيزة معانٍ واسعة النطاق ، وذكريات . وصراع بين ما فات في بلاط النعمان وبين الحماوة التي لقبها الشاعر في بلاط غسان بعد ما تركه سع سنين طويلة .

١ - كَلْبَنِي : تركبني الناصب المتعب بطيء الكواكب . طويون .

٢ - عَقَّارِبُ المعمة . تكسرها بالن والادى

٣ - الْأَشَائِبُ : الأحلال والأزعاع

٤ - الْقِرَاعُ ج . قل وهو التلعة في حد السيف وهذا الاستثناء مدح بما يشبه الدم

٥ - عَالِمٌ يريد كائهم أي الإجميل . ذات الإله أي كلام الله



٢ ثم هو المدح بصفات القوة وصفات الأخلاق . فالنأسنة جماعة انتصار يقر لهم به الناس كما تقر به الجوارح التي تتبع زحف حيوشهم لعلهم أن ذلك الزحف مصدر رزق لها من أشلاء العدو ؛ وهذا النصر ثمرة شجاعتهم وصبر حيوشهم في الحرب ، ومضاء ميوفهم ورماحهم . والنأسنة الى ذلك جماعة دين قوم وجود واع مقيم ، وترتف ملكي مع عفة وحسن تبصر وأقران .

٣ وهذه المعاني يسكبها الشاعر في قالب التآني ، والتصخيم التصويري ، رامية من وراء ذلك الى قيل العطاء والخطوة . أما التآني فشيء شائع في شعر النابعة . وهو يظهر بنوع خاص في انتقائه الألفاظ الموسيقية التي تأتلف اتلافاً رائعاً بحيث تعبر عن المعاني بموسيقاها بقدر ما تعبر بحروفها (تقد السلوكي المضاعف سجعاً ..) ؛ ويظهر التآني أيضاً في اعتماد النابعة بعض الأساليب البيانية والبديعية كالكناية (رقاق العال) ، والاستعارة التشبيلية ، والاستطراد التخييلي والمدح بما يشبه الدم (ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ...) وأما التصخيم التصويري فهو من مقومات شعر النابعة ، الذي ينزع مترع المغالاة ولا سيما في المواقف الملحمية والوصفية ، وينطلق مع الخيال في تطلب الصور الصاعقة (يقد السلوكي المضاعف نسجه) . والنابعة في مخاطبة الملوك غيره في مخاطبة سائر الناس ، فهو أمام الملوك متضائل متصاغر ، سالك مسلك السياسة اللينة التي تتسلح بسلاح المبالغة . وذلك أن الشاعر يعرف نفوس البشر ويواجه كل إنسان بما يوافق نفسه وميوله . وهو في كل ذلك يطلب الخطوة والمال بأسلوب غير مباشر . إنه يذكر بالفضل السابق الذي يقتضي الأحق ، ويصف بالكرم الوعي الذي يمتد الى كل مستحق ، ويترك لصفات الممنوح نفسها أن تحملها على العطاء والبذل ، وهذا خير أسلوب في هذا الباب وأشد الأساليب لباقة ودهاء .

#### ٦ - شاعر اللخميات أو النعمانيات والاعتذار :

١ - جفوة وعدة : انقطع النابعة لملوك الحيرة ولا سيما النعمان بن المنذر أبي قابوس وإن من تصفح الديوان قلما يعثر على مدح لأولئك الملوك اللخميين ، وإنما يقف على عدة قصائد فاضت بها قريحة الشاعر بعد الجفوة التي حصلت بينه وبين النعمان . وهي قصائد

اعتذار حافلة بالتودُّد والتقرُّب والمدح وردَّ أقوال الوشاة : احتلت مكانة رفيعة في تقدير الأدباء على مرَّ العصور حتى كاد النابغة لا يُعرف إلا بشاعر الاعتذار .

وجد النابغة نفسه أمام وشايات كاذبة ، وتُهم باطلة ، وغضب وتهديد من قِبَل النعمان ، وكان باستطاعته أن يتجنَّب نتيجة الغضب والتهديد لو أراد الاعتصام بمحضر قومه وببي غسان ، ولكنه لم يشأ أن يلتصق اسمه بتلك التُّهم ، وأن يقبل بالملذَّة والهوان ، كما أنه لم يشأ أن يتنازل عن العزِّ الذي وصل إليه لدى النعمان وعن الثروة التي كانت تدفِّق عليه في ظلِّ بلاطه . وقد استولى عليه همٌّ دائم ، وغمٌّ مُحرق ، فراح ينظم القصائد ليبرِّز ساحته ، ويهجو خصومه ، ويطلِّع ما تطلَّع في نفس النعمان ، وراح رسل الحجير يتوسَّطون ولا سيما الفزاريازيان وزيان ومنظور بنَي سيار ، إلى أن غلب رضى النعمان على غضبه ، وعاد الشاعر إلى الحيرة منتصراً .

## ٢ طريقة النابغة في اعتذاره :

١ يعتمد النابغة الى نفسه أولاً ويحاول أن يظهرَ ما بها من ألمٍ وهمٍّ لا لشيء إلا لأنَّ النعمان غاضبٌ مهتدٍ . وغضب النعمان أقل ما في الوجود ، وتهديده أربب ما تحت السماء . ومن ثمَّ فالشاعر في نزاع المموم لا يذوق لذَّة لعيش ولا طعماً لنوم ، وهو يضخمُّ أثر الغضب والتهديد لتضخيم شأن الملك ، ويضخمُّ شأن الملك ليغذي فيه الكبرياء الملكية ، فتطفي عن البصيرة ، وتطفي أوار الغضب . وهو يلجأ في ذلك الى التصوير التَّهويلي الحسِّي ليصل بالحواس الى قوى النفس الداخلية ويفعل في عالم النفس فعل التقرب الذي يقود الى التصافي .

٢ ثم يخطو الشاعر خطوةً أخرى بعد التَّوطي والتهديد ، فيحاول تبرير ساحته مما ألصق به ، فيسبِّح توبةً لكلامه وطلباً لارتجح النعمان الى ذلك الكلام ، ثم ينعت الوشاة بالكذب ويخطِّ من شأنهم تخفيفاً لوطة حججهم ورداً لسهمهم على نحرهم ؛ ولئن تسلَّحوا بتصريف الشاعر ما بين الحيرة وغسان ، فهو وغسان في صداقة قديمة بعيدة عن كلِّ رقاء وتلَوْن ، يخلص لهم كما يخلص لبلاط الحيرة ، ويحكمُ في أمورهم ومالهم إلى حدٍّ يستوجب الشكر ويقضي الاعتراف بالفضل . والأمر محمود لا يُكره العقل الكبير وإن أنكرته العقول الصغيرة .

٣ - ثم يحطو الشاعر خطوةً ثالثة فيعود الى استشارة العاطفة بعد مخاطبة العقل ، ويعود الى توضيح حال الثَّعْنان ، وتوضيح آثاره وصفاته ، ورفع شأنه فوق الناس أجمعين ، ويعود الى التضاؤل أمامه تبييناً لما يكون فيه بعد من سورة وعناد .

٤ - ثم يعود الى العقل ويدعو الى العفو لأن العفو من شيم الكرام ، والناس غير خالين من العيوب ، والعفو للذنوب . والصداقة لا تقوم إلا مع التسامح . فكأن الملك أوسع من أن يضيق بنقص شاعره وذنوبه .

٥ . وبعد هذا كله يستسلم الشاعر ، يستسلم من أيقن بالانتصار ، ويتذلل تذلل من لا يجد إلا في التذلل حلاً لأمر لا بُدَّ من حله . فهو عبد سيده ، ورهس كل إشارة ، ولا بدَّ من الرضى وعودة المظلوم الى تقبيل يد من ظلمه :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ ، فِي عَيْرِ كُنْهٍ ، أَنَانِي ، وَدُونِي رَاكِسٌ قَالِضُوجِ  
فَبَتْ ، كَأَنِّي سَاوَرْتُنِي ضَبِيلَةً مِنَ الرُّفْشِ ، فِي أَيَّامِهَا السُّمُّ نَاقِعٌ<sup>١</sup>

وهكذا فاعتذار النابغة تضاؤل ذاتي ، ومدح وهجاء ، وهو سياسة حافلة بالدهاء قائمة على التهميم النفسي . والتسلح بجميع قوى العقل والعاطفة ، وبجميع أساليب القول والإقناع .

#### ٦ الوصف في شعر النابغة :

النابغة الذبياني من أشهر شعراء الوصف في الجاهلية ، ولا عجب في ذلك فهو جاهلي غارق في الطبيعة ، معرض لفعالياتها بلحساسه المرهف ، ونظيره المراقب في دؤوب وتبجح ، وعيقلته التي تلتقط الألوان والأشكال والأصوات وتسجلها تسجيلاً

١ في عير كنه - في غبروقه ووجهه ، أي عى غير استحقاق منه . راكس . واد الضواجع : الغصاب ، هو ها اسم موضع .

٢ - ساوره : واثه الضيئة : لحية الدقيقة اللحم الرفش ج . رقتاه وهي الحية بها نقط سود وبس النافع : الباع يقتل لساعته .

دقيقاً ثم تستعير من تلك المعطيات الجسدية ما تخلقه به خلقاً بنائياً أو تشبيهاً أو تمثيلاً . وقد عرض الشاعر في ديوانه للملك غسان والخيرة وغيرهم فوصفهم وصفاً مدحياً ، وعرض للمتجردة زوج العمان فوصفها وصفاً غزلياً ، وعرض للفرات فوصفه وصفاً تشبيهاً ، وعرض للحبة فوصفها وصفاً تمثيلاً . وعرض لأمور أخرى كثيرة كان فيها مُصَوِّراً بارعاً على ستة الجاهليين ، وإليك أهم ميرات ذلك الوصف :

١ - يتعمد النابتة طريقة الوصف التصويري الناطق . فهو يكثر من الوصف لأنه أسلوب تعبير عن الفكرة تُضَحِّح معه الغامضات ، وتقرب المتباعدات ، وتتجسم مع اللامحسوسات ، وتزداد المحسوسات محسوسة . والنابتة رجل تأن وإمعان ، وإمعانه اندفاق وراء الصورة ، يتبع بواتها المكبرة المضخمة التي تُطَقِّع العناصر التكوينية ، وتأتيه انضباط واع يوزع الأشكال والألوان في هدوء قوي ، يُفَجِّرُ القوَّة من أعماقه ، ويتصرف بها تصرف السيطرة التي تَقْلِبُ المعاني والصُّورَ تَقْلِيبَ إرادة واعية لا تقلب الفجاءة لأوعبي . والنابتة ، كسائر شعراء الجاهلية ، لا يكاد يُعَبِّرُ إلا بالصورة والصورة عنده إما واقعية تصريحية ، وإما تشبيعية تمثيلية ، فهو تارة يعبر عن الشيء برسم خطوطه وعناصره وجزئياته في ذاتها من غير لجوء إلى ركن آخر يُفَسِّرُ ويوضح ، كما في قوله يصف حبة :

صِلْ صَفَاً لَا تَنْطَوِي مِنْ الْقَصْرِ طَوِيلَةُ الْإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ خَفَرٍ

٢ وهو تارة أخرى يعبر عن الشيء بواسطة غيره عن طريق التشبيه والاستعارة ، وكثيراً ما يعمد الشاعر إلى التشبيه فيجعله عنصراً أساسياً من عناصر الإبانة ، كما أنه يتجاوز التشبيه إلى الاستعارة وهي أدق من التشبيه وألطف إشارة وإن كانت فرعاً منه وامتداداً من مختلف امتداداته ، كما في قوله يصف المتجردة :

نَظَرْتُ بِمُقَلَّةٍ شَدِيدٍ مُتَرَبِّبٍ أَحْوَى ، أَحَمَّ الْمُقَلَّتَيْنِ ، مُقَلَّدٍ

١ - اصل : الحبة البيضاء الحبيبة اصعاج صفاء وهي البحر . الأطراق . رخاء العين إلى الأرض في سكوت القمر . الحياء

٢ - الشاهد : الظلي المتربب . الدلع . المدرك . الأحرى . الأحمر إلى سواد أحمر القاتين . أسودهما . المقلد المرئ باهلي

وكثيراً ما يعتمد النابغة الى تقوية استعارته ويزيدها بالتشبيه ، أو الى تفصيل حال المشبه به ، تلك الحال التي تبرز صفة المشبه بهلاء وقوة ، كما في قوله :

صَفْرَاءُ كَالسَّيْرَاءِ أَكْمَلَ خَلْقَهَا كَالْعُصْنِ ، فِي غُلُوَائِهِ ، الْمَتَاوِدِ

٣ - وهذا التشبيه يمتد مع النابغة عن طريق تفصيل المشبه به وأحواله حتى يُصبح استطراداً تشبيهاً ، فعندما أراد في معلقته الدالية أن يصف كرم النعمان شبهه بالقرات ، وراح يصف النهر العظيم عندما تهب عليه الرياح وتعالى أمواجه هادرة مُزبدة ، وعندما يتدفق فياضاً ويقتلع الأشجار ويهدد الملاحين بالخطر ، وراح يقرب حال النعمان سخياً من حال ذلك النهر فياضاً ، في تضخيم وتعظيم ، وفي مبالغة تتصاعد تدريجياً حتى يتقلب الجو كله إلى جو من العظمة النابغية . وهذا الاستطراد يتحول أحياناً إلى قصص شعري كما في وصف الباقية وتشبيهاها بالنور الوحشي الذي انفرد عن حلاله ، وسفقته الريح بالحصى ، وهاجمته السماء بالبرد والمطر ، ثم أهوى له قانصٌ بكلايب جاثمة فنشبت بينه وبينها معركة دامية جعلت من قصيدة النابغة ملحمة رهيبة .

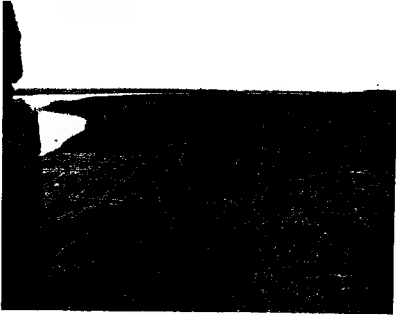
٤ - وهذا الاستطراد يتحول أحياناً الى تمثيل كما ورد ذلك في قصيدة قالها الشاعر بعاتب بني مُرة على مخالفتهم عليه وعن قومه ، ويضرب لهم مثل الحية التي غدر بها حليفها عندما أغتته ، والتي علمتها الأيام أن لا تثق باليهود . قال النابغة :

فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةَ قَاسِمِهِ ، وَلِلَّيْرِ عَيْنٌ لَا تُغْمَضُ نَاطِرُهُ  
فَقَالَ : تَعَالَيْ نَجْعَلِ اللَّهَ يَسّاً عَلَى مَالِنَا ، أَوْ تَنْجِزِي لِي آخِرَهُ  
فَقَاتُ ، يَمِينِ اللَّهِ أَفْعَلْ . إِنِّي رَأَيْتُكَ مَسْحُوراً بِمِثْلِكَ فَاجِرُهُ  
أَبَى لِي قَبْرٌ ، لَا يَزَالُ مُقَابِلِي وَضَرْبُهُ قَاسٍ ، فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرُهُ

١ السيراء . الثوب الحريري المخطط علواه العنق . امتداده وارتفاعه للتأود المتني لبأ .

٢ أفعل أي لا أمل ، وحلف ولاء بعد القسم كثير في شعر العرب

٣ فاقرة . كاسرة



لَمَّا الْفَرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ      تَرْمِي أَوْدِيَهُ الْعَبْرَيْنِ بِالْمَدَى  
بَرْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَبَبَ نَائِلَةٍ      وَلَا يَحُولُ عِطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ  
(المدفة)

#### أ شاعريّة النابغة :

وهكذا كان النابغة في وصفه وفي سائر شعره رجل الاتزان والسيطرة ، التي تضخم لتسيطر ، والتي تعالي من غير أن تفقد التوازن ، وكان رجل الانسجام الذي يستثير جمع قوى النفس العقلية والحسية ، وقيم التألف بين مختلف تلك القوى ، والذي يلحق شخصيته بكاملها في شعره فيستعلي . ويلتزم ما بين فعل العقل وفعل القوى الحسية ، ثم يقدم الصلة الوثيقة بين اللفظة والفكرة ، وإذا عدله اللفظة فكرة والفكرة لفظة ، وإذا الألفاظ والتعابير متناغمة والشخصية المستعيلة ، متناغمة وقوى العقل والإحساس ، معبرة برمزيها الحرفية وموسيقاها المختارة ، وحيويتها المتحركة في جمودها ، معبرة بما

تحمل وما تطوي عليه من لمعات العقل وأنوار الخيلة واختلاج العاطفة تحت سيطرة العقل الذي يكسبه توفد الذكاء مروءة عجيبة تستبد بالناس والأحوال. ولا عجب بعد ذلك كله أن يكون النابغة أعظم ممثل للحياة الأدبية في العصر الجاهلي.

هذا هو النابغة وهذا شعره ، ذلك الشعر العامر باللفظ المختار والكلام البعيد عن الركاقة ، والموسيقى اللفظية الرائعة. والنابغة أبو الشعر التكميلي الأرسقراطي ، الذي عاش في قفصه الذهبي بذيّب قريحته القياضة أشعة من نور على أبواب السلاطين وفي زوايا البلاط.

### مصادر ومراجع

- عمر الدسوقي : النابغة الذبياني القاهرة ١٩٤٩ .  
 فؤاد السستاني : الروائع ٣٠ مروت ١٩٣١ .  
 طه حسين : في الأدب الجاهلي — القاهرة ١٩٣٣ .  
 أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي — القاهرة ١٩٤٥  
 الأب اويس شبحو . شعراء النصرانية الجزء الأول بيروت ١٨٩٠  
 ايلى الحوي : النابغة الذبياني - بيروت ١٩٥٩ .



## الفصل الثالث

### مَا بَيْنَ النَّائِفِ وَالزَّائِفِ

### أبو دُوَادِ الإِيَادِيّ - المُرْقَشُ الأَكْبَرُ عَلَقَمَةُ الفَحْل - المُنَاصِبُ

أ أبو دُوَادِ الإِيَادِيّ (؟)

هو حَظَلَةُ بْنُ الشَّرْقِيّ أَحَدُ بَنِي بُرْدِ بْنِ دَعْمِيٍّ بْنِ إِيَادٍ ، وَهُوَ شَاعِرٌ قَدِيمٌ ، أَكْثَرُ شِعْرِهِ فِي وَصْفِ الْحَيْلِ وَفِي الْمَدْحِ مَدْحُ الْحَارِثِ بْنِ هَمَّامٍ بِنِ مَرَّةٍ فَأَعْطَاهُ عَطَايَا كَثِيرَةً . وَكَانَ لَهُ «بِنِ شَاعِرٍ يُقَالُ لَهُ دُوَادٌ . أَمَّا دِيَوَانُهُ فَقَدْ جُمِعَ مِنْ غُرُوبِهَا وَمُتَرَجَمٌ لَهُ فِي كِتَابِ «دِرَاسَاتٍ فِي الْآدَابِ الْعَرَبِيَّةِ» — بَيْرُوت ١٩٥٩ .

ب - المُرْقَشُ الأَكْبَرُ (تُوفِيَ سَنَةَ ٥٥٥ م) :

هُوَ عَوْفُ بْنُ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ مِنْ بَنِي كُرْ وَاللَّ . وَهُوَ مِنَ التَّيْمِينِ الشَّحْمَانِ . عَشَقَ ابْنَةَ عَمِّ لَهُ اسْمُهَا «أَسْمَاءُ» وَقَالَ فِيهَا شِعْرًا كَثِيرًا . وَكَانَ يُحَسِّنُ الْكِتَابَةَ . وَنَدَّ بِالْيَمَنِ وَنَشَأَ بِالْعِرَاقِ ، وَاتَّصَلَ مُدَّةً بِالْحَارِثِ أَلِيِّ شَعْرٍ الْعَسَاكِيِّ وَنَادَمَهُ وَمَدَحَهُ ، وَقَدْ اتَّخَذَهُ الْحَارِثُ

كَاتِبًا لَهُ . وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْمُنَقِيَّاتِ ، وَشِعْرُهُ مِنْ أَرْقَى الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُ ضَاعَ . وَفِي الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ يَسِيَرِهِ عَمَرُو بْنُ سَعْدٍ ، وَرَبِيعَةُ بْنُ سَعْدٍ .

ج - عَلَقَمَةُ الفَحْل (تُوفِيَ نَحْوَ سَنَةِ ٦٠٣ م) :

هُوَ عَلَقَمَةُ بْنُ عَبْدِةٍ مِنْ بَنِي تَيْمٍ ، عَاصِرُ امْرَأَةِ الْقَيْسِ وَكَانَ لَهُ مَعَهُ مَسَاجِلَاتٌ اتَّصَلَ بِالْحَارِثِ بْنِ جَلَّةٍ مِنْ أَلِيٍّ شَعْرَ الْعَسَاكِيِّ ، وَكَانَ هَذَا قَدْ أَسْرَ عِدَدًا مِنَ الْعَرَبِ الْهَوَالِينِ لِلْحَجِيصِ ، وَفِيهِمْ شَدَسُ أَحَدِ الشُّاعِرِ . فَأَقْبَلَ عَفْصَةً عَلَى الْمَلِكِ ، وَامْتَدَحَهَا بِقَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ ، فَأَطْلَقَ لَهُ أَخُوهُ وَجَمِيعُ أَسْرَى تَيْمٍ .

لَعَلَقَمَةُ دِيَوَانَ شِعْرِ صَغِيرٍ شَرَحَهُ الْأَعْلَمُ السُّنَمَرِيُّ ، وَطَبَعَهُ الْمُسْتَشْرِقُ أَلْبِرْت سُوْسِين



وحدث أن غضب عليه الملك وسيّره هو  
وطرقة إلى عامله بالبحرين وحملها كتائب فيها  
الأمر قتلها. وكان أن ارتأب المتلمس بنية  
الملك هزم بصحيفته في البر قرب الحيرة  
وهرب إلى الشام ولحق ملوك آل غسان. ولما  
توفي عمرو بن هند عاد المتلمس إلى الحيرة،  
وقد إنه لث في لشام إلى وفاته.

المتلمس ديوان صغير نشره الأب شبحر  
في كتابه «شعراء الصراية». وشعر المتلمس  
شعر العاطفة الصادقة، وشعر العزّة والإباء،  
والسلامة والرواء.

في ليسنج سنة ١٨٦٧، ثم طبع في مصر سنة  
١٨٧٦.

وشعر علقمة قليل ولكن فيه «فحولة»  
الشعر الجاهلي من مثنة، وقسوة أداء،  
وجرأة تصوير، وجيشان أنفاق وقد برع  
علقمة في وصف العرس، والفاقة، والعامّة.

د - المتلمس (توفي نحو سنة ٥٨٠ م)

هو جرير بن عبد المسيح الضبي من  
أهل البحرين وهو خال طرفة بن العبد.  
اتصل بعمرو بن هند ملك الحيرة، ومدحه.



## المُتَقَبُّ العَبْدِيُّ - الحُطَيْبَةُ

أ - المُقَبُّ العَبْدِيُّ :

١ - تاريخه . هو عائذ بن مِحصن من بني عبد القيس من ربيعة . اتصل بعمرو بن هند والنعمان بن المنذر ومدحهما توفي نحو سنة ٥٨٧ م .

٢ - أدبه : له ديوان من الشعر ، وشعره يمتاز بالحصافة والبرقة والدقة في الوصف والسلاسة والواقعية والانسجام .

ب - الحطِيبَةُ

١ - تاريخه . جبرول بن لؤس اللقيط بالحطِيبَةُ ابن أُمِّه وصحب السبب شاكراً لها للناس أجمعين ، وتطلَّب الرزق عن طريق المدح والمجده ، في تدقُّ شاعرية خصبة ، وفي انطلاق لسان أحد من السنان .

٢ - أدبه . للحطِيبَةُ ديوانٌ فيه مدحٌ وهجاء وفخرٌ وعزل

- مدح الحطِيبَةُ استجداه حامل بالترغف ووسائل الاستئالة . تقليد للدمعة ودهير

- هجاء الحطِيبَةُ طعن في مواطن البخل والكرم والممة ، وهو يصدر عن طبع أرعن قنعة .

٣ - شاعريته : من جماعة التآخي والتصوير الحسي والتطوُّف في التكبُّب والتطلُّب .

أ المُتَقَبُّ العَبْدِيُّ (توفي نحو سنة ٥٨٧)

١ - تاريخه :

عائذ بن مِحصن بن ثعلبة من بني عبد القيس من ربيعة شاعر جاهلي من أهل البَحْرَيْن .  
اتصل بعمرو بن هند ملك الحيرة ومدحه في غير نكسب ولا ذلة ، واتصل بالنعمان بن المنذر فمدحه  
وشفع للأسرى من قومه . توفي نحو سنة ٥٨٧ م .

٢ - أدبه :

للمُنقَّب العبدِي ديوان ورد بعضه في كتاب « شعراء النصرانية » للأب شيخو ، وفيه مدح ووصف ، وحكمة ، وغزل .

يمتاز شعر المنقَّب العبدِي بالرفقة ، والدقة في الوصف ، والصفاء الفكري ، وعمق النظرات الحية وسياسة الناس . كل ذلك في أسلوب رائع من السلاسة والسهولة ، والواقعية ، والانسجام . قال في عمرو بن هند :

إِلَى عَمْرٍو ، وَمِنْ عَمْرٍو أَتَيْتُ ، أَحِي السُّجْدَاتِ وَالْجِلْمِ الرُّصَيْنِ  
فَأَعْرِفَ مِنْكَ غُثِّي مِنْ مَسِينِي ، فَأَعْرِفَ مِنْكَ غُثِّي مِنْ مَسِينِي  
وَأَمَّا فَأَطْرِخُنِي وَأَتَّخِذُنِي ، عَدُوًّا أَثْقِيكَ وَتَثْقِي  
وَمَا أَذْرِي ، إِذَا يَمَمْتُ وَجْهًا ، أُرِيدُ الْخَيْرَ ، أَيُّهَا يَلِينِي  
هَلْ الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ ، أَمِ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي ؟!

ب - الحُطِيطَة (توفي سنة ٦٧٩ م / ٥٩ هـ)

١ - تاريخه :

جرول بن أوس المنقَّب بالحطِيطَة من بني عُبَيْس من مَضَرَ ، وَلَدَتْهُ أُمَّةٌ ، اسمُهَا الضَّرَاءُ فَنَشَأَ مَعْلُولُ النَّسَبِ ، وَضِيعَ الشَّرَفِ ، كَارَهَا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَسْتَتِي مِنْ ذَلِكَ أُمُّهُ وَأَقْرِبَاءُهُ ، وَرَاحَ يُعْمَلُ فِيهِمْ لِسَانًا أَمْضَى مِنَ السَّنَانِ ، مَتَقَلِّبًا مَعَ كُلِّ نَسَبٍ وَكُلِّ حَالٍ ، يَتَطَلَّبُ الرِّزْقَ عَنْ طَرِيقِ شِعْرِهِ بِالْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ وَكُلِّ أَسْلُوبٍ وَكُلِّ مَذْهَبٍ مِنَ مَذَاهِبِ الْكَلَامِ . وَذَلِكَ فِي تَدَقُّقِ شَاعِرِيَّةٍ خَصِيَّةٍ ، وَفِي انْطِلَاقِ لِسَانِ حَمَلِ الْخَلِيفَةِ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ عَلَى شِرَاءِ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ بِثَلَاثَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ قَدَّمَهَا إِلَى الْحَطِيطَةِ ، بَعْدَ أَنْ سَجَنَهُ وَأَطْلَقَ سِرَاحَهُ ؛ إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ مَا عَتَمَ أَنْ رَجَعَ إِلَى الْهَجَاءِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَ سَنَةَ ٦٧٩ م / ٥٩ هـ وَأَرَاخَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ .

٢ - أدبه :

للحطينة ديوان شعري طبع في القسطنطينية سنة ١٨٩٠ ، ثم في ليبسغ سنة ١٨٩٣ ، ثم في مصر سنة ١٩٠٥ ، وهو يتضمن مدحاً وهجاءً وفخرًا وغزلًا .

٣ - مدحُه :

إنَّ من استقرأ مدائح الحُطينة لم يخرج عن أسلوب عرفه عند سائر شعراء المدح والاسْتِجْداء ، وعرفه في سائر الشعر الجاهلي . وإنك لتشعر أنَّ الحُطينة في نَهْمِه واندفاعه وراء المال ، يحاول أن يُهذِّدَ شعورَ المملوح بموسيقى شعريَّة تتصاعد من الأوزان والقوافي والألفاظ وتخلق جوًّا يبعث على العطاء ، وهو يرسل خلال تلك الموسيقى أقوالَ الترفُّل ، ليُثَبِّتَ حيناً ، نافخةً بيق التَّجِيلِ والتعظيم حيناً آخر ، ويذكر من صفات المملوح ما يُفهمه أنَّ الشاعر بحاجةٍ إليه ، ويُصرِّح له أنَّ الشاعر فقير معدِّم ، ثم يحوِّط الطلب بصفاتٍ أخرى للممدوح مشقَّةٍ من معاني الشُّجاعة والبأس وكرم الأرومة وما إلى ذلك . وهو في شعره المدحي يتعكَّر على معاني الثَّابِتةِ وأساليب زهير في التَّشْجِيعِ وسلامة اللَّفْظِ والتَّركِيبِ .

٤ - هجاءُه :

الهجاء نوعان : هجاء مطبوع هو ثمرة لُؤْمٍ وخُبْثٍ . وهجاء مصنوع يقوله من لا يميل إليه بالطبع للردِّ على طعن وللدَّوْدِ عن كرامة . وهجاء الحطينة من النوع الأول لأنه يميل من طبيعته إلى الماقتضة ، زد على ذلك أن حاجة الحطينة إلى المال كانت تريد لؤمه لؤماً وطلبه إلحافاً . إلا أنَّ الحطينة قلَّما يفحش وإن أفحش ففي قصد واعتدال . وهو يطن في مواضع النبل والكرم والهمة وما إلى ذلك مما يؤلم ويصيب الهدف . وهكذا فقد هجا الزُّبَيْرَاقان تكسباً وتشقياً ، وهجا نفسه وأمه وأباه لإرضاء لُؤْمِيهِ . قال يَهْجُو الزُّبَيْرَاقان :

.. لا ذَنْبَ لي الْيَوْمَ إِنْ كَانَتْ نَفْسُكُمْ  
كَفَارِكِ كَرِهَتْ تَوْنِي وَإِلْبَاسِي<sup>١</sup>

١ - املوك . المرأة المعصاة لروحها .

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ ، لَا يَذْهَبُ الْغَرَفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ<sup>١</sup>  
دَعِ الْمَكَارِمَ ، لَا تَرْحَلْ لِبُعَيْثِهَا ، وَأَقْعُدْ فَلَنْتَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي<sup>٢</sup>

وقال بهجو أمه :

تَنَحَّى فَأَقْعُدِي مَبِيَّ بَعِيدٍ أَرَاخَ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَ  
أَلَمْ أَوْضِحْ لَكَ الْبَغْضَاءَ مَبِيَّ وَلَكِنْ لَا يَخَالُكَ تَعْقِلِينَ  
أَعْرِيَالاً إِذَا اسْتَوْدَعْتَ مِرّاً وَكَانُوا عَلَى الْمُنْجِدِينَ<sup>٣</sup> ؟  
جَزَاكَ اللَّهُ شَرّاً مِنْ عَجُوزٍ وَلَقَاكَ الْعُقُوقُ مِنْ نَبِيئَا  
حَيَاتِكَ مَا عَلِمْتُ حَبَاةَ سُوءٍ وَمَوْتِكَ قَدْ يَسُرُّ الصَّالِحِينَ

هـ - شاعريّة الخطبة :

الخطبة شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، فأسلم ولكن الإسلام لم يصل  
إلى قلبه ، وكان ومتين الشعر ، شروذ القافية ، وكان ذوقه النفس ، وما تشاء أن تطعن  
في شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعناً ، وما أقل ما نحد ذلك في شعره<sup>٤</sup> . . .

والخطبة ينتمي في شعره الى المدرسة الأوسية مدرسة الثاني ، والتبع العقلي  
والفني ، والتعمل في الصقل ورسم الصور الحسية بدقة وواقعية . إنه في خط زهير  
والنابغة مع كثير من التطرف في التكسب والتطلب .

١ - ايعرف : المروء .

٢ - الطاعم : الأكل . الكاسي : اللأس . قول . دع المكارم محسك من بل وعمل عظيم أن تكون أكساً  
مكبواً

٣ - ايكابود : الثقل الذي مجلس حتى ينفضي الأخبار والأحداث ليقفها

٤ - الأعابي ٢ : ١٣٧

## مصادر ومراجع

- طه حسين: حديث الأربعاء ١ القاهرة ١٩٢٥ .  
 عزاد البستاني: الخطبة — الروائع ٢٩ — بيروت ١٩٣٠  
 جميل سلطان: الخطبة — الحلقة ٢ من السلسلة الأدبية .  
 سليم عنجوري: الخطبة — مجلة المجمع العلمي العربي ١١ . ٤٢٧ .  
 مير البلبيكي: الخطبة — الأديب ٤ — العدد ٩ : ٤٠



## الباب الثامن شعر المذاهب الدينية والأدب الاجتماعي

لبيد بن ربيعة - السَّمَوَال بن عاديّاء  
عديّ بن زيد - أميّة بن أبي الصَّلْت

١ لبيد بن ربيعة

- ١ - وُلِدَ نحو سنة ٥٦٠ ونشأ فارساً شجاعاً. توفي وله من العمر أكثر من مئة سنة.
- ٢ - له ديوان شعر أشهر ما فيه المعلقة وهي ميمية تقع في ٨٨ بيتاً.
- ٣ - لبيد حكمة دينية ذات برعة كفية هي نتيجة نظرة جريئة صادقة إلى الحياة. وهي ملصقة بنفسه وكلامه فيها وفي سواها سهولة وسلاسة.

ب السَّمَوَال

- ١ - هو صاحب الحصن المعروف بالألق في بيماء أشهر بالوفاء.
- ٢ - له ديوان شعر أشهر ما فيه اللامية التي دبرت على ألسنة الناس.
- ٣ - شعره صورة لنفسه الرقيقة. وهو ممتاز بمثابة الأسلوب والتركيب.

ج - عديّ بن زيد العبادي:

- ١ - نشأ على طريقة سلاء القُرْس وعاش في بلاط الأكرسة، وسُقِلَ بين اللدائ والحيرة قتلته الحمان ابن المنذر نحو سنة ٥٩٠ م.
- ٢ - أشهر ما له حِكْمُهُ وروحانيته وشعره روحاني فيه وعظٌّ وتذكير، ودعوة إلى العمل بما بعد الموت. واعتراف بالحساب والحزن.

د - أميّة بن أبي الصَّلْت:

- ١ - كان معطوفاً على التلبيس، وقد رجع في الدنيا وتعب.
- ٢ - أكثر شعره في الشؤون الدينية والتاريخية.
- ٣ - أدخل على أدب العرب معاني وأساليب جديدة.

## أ - ليبد بن ربيعة (٥٦٠ - ٦٦١ م / ٤١ هـ)

## ١ - تاريخه :

هو أبو عقيل ليبد بن ربيعة العامري المصري. وُلِدَ نحو سنة ٥٦٠ ونشأ في قومه كريمة شريفاً ، وفارساً شجاعاً . دخل في الإسلام نحو سنة ٦٢٩ ، وقضى أيام شيخوخته في الكوفة . وقد توفي نحو سنة ٦٦١ للميلاد وله من العمر أكثر من مئة سنة . وكان له أخ اسمه أُرْبَدُ أصابته صاعقة في رجوعه من المدينة فحزن عليه ليبد أشدَّ الحزن ورثاه بشعر حافل بصدق العاطفة وعمق الحسرة .

## ٢ - أدبه :

لليبد ديوان شعر طبع في فيثا ثم في ليدن ، وأشهر ما فيه المعلقة ، وهي ميمية على البحر الكامل ، تقع في ٨٨ بيتاً ، وفيها وقوف بالطلول ، وغزل ، ووصف للباقة ، وفخر . أمّا مطلعها فهو :

عَفَتَ الدَّيَّارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا بِحِينِ تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرَجَائُهَا

## ٣ - ليبد شاعر الحكمة الدينية :

ليبد رجل الرصانة وقد آلى في الجاهلية ألا تنهب الضياء إلا أطعم الناس حتى يسكن ، وقد ألزم ذلك نفسه في إسلامه . فهو رجل إنساني ، وإنسانيته عن عقيدته وتدين . وحكمته قائمة على إيمان راسخ بالله وبالدار الآخرة ، والله عنده هو الخير الأسمى وموطن السعادة الحقة ، وهو الدنيان الذي يكشف أعمال عباده ويمجزي كلَّ عبد بحسب ما أتى من أعمال ، أما الدنيا فزوال وفناء ، وكلُّ ما فيها حطام باطل ، والموت قريب ، فعلى المرء إذن أن يعيش لأخراه ، وأن لا يتلهى بدنياه ، وأن يقيس دنياه بقسطاس أخراه ، فلا يحزع لعراق ، ولا يأسى للوى ، ولا يقتط بسوء معاملة .

١ - عفت : دُرِسَتْ وَاُفْتُت . المحل : الموضع يتزل به الأيام معلودة للتقام : الموضع تطول الإقامة به . مني : موضع ديار بني عامر . تأبد : تَوَحَّشَ ، الْغَوَلَ وَالرَّحَامَ : موصمان .



ومن ثم نرى أن حكمة ليد أرفع من حكمة زهير ، وأن مصدرها الدين والخبرة فيها أن حكمة زهير قائمة على خبرة الحياة وحدها ، ومما يلاحظ أن فكرة ليد قصيرة المدى ، فهي تدور حول موضوع واحد أو ما يقرب من الواحد ، وهي تتجلى لنا بصور مختلفة وأمثلة مختلفة قصد التقرير وتعبيراً عن العقيدة ، وهي ساذجة على سموها ، صادقة لأنها صادرة عن عاطفة عميقة لا تعرف التلون والتستر ، وهي من ثم مؤثرة .

وأكثر حكمة ليد في شعره الذي رثى به أخاه أريد . وهذه الحكمة هي حكمة القلب الذي اشتد عليه الحزن ، والنفس التي لم تجد ملجأ تتعزى فيه غير التأمل في حقيقة الحياة ، والعقل الذي لم يتجرد من العاطفة ولم يسلك مسلك الجمود النظري في ما ينثر من آراء

ومحمل آراء ليد أن حياة الإنسان صائرة إلى الزوال ، وأن كل ما يملكه الإنسان هو ودعية لا بد من ردها أجلاً أو عاجلاً ، وأن الناس اثنان : بائٍ وهادم ، وأن السعادة نصيب قسم من البشر والشقاء نصيب القسم الآخر ... لهذا كله وجب على الإنسان أن لا يمزج إذا ألت به مصيبة ، وأن يلزم جانب الصبر والحلد ، ولا سيما وأن القوارع نصيب كل كريم .

وحكمة ليد ذات نزعة كئيبة هي نتيجة نظرة جريئة صادقة إلى الحياة ، ونظرة إلى التقيد وقد ترك فراغاً في نفس أخيه . وإنك وأنت تقرأ أبيات ليد تشعر بجو من الوجوم ورهبة الموت ، وتشعر بأن الشاعر يستنحف بالحياة مهما طال ، فهو يزج بك في هوة الموت لترى وقتنع ، ويكرر فكرته التشاؤمية من غير مثل ، رغبة منه في التقرير ، وهكذا يسير بك الشاعر من قبر إلى قبر ، ومن خلد إلى رماد ، ومن رماد إلى لا شيء مادي وإلى نفس تغلد في رحمة الله . وهو لا يؤمن بخرافات الجاهليين من زجر الطير وما إلى ذلك اعتقاداً منه أن ما يصنع الله لا يعرفه بشر .

وحكمة ليد ملتصقة بنفسه وليست كحكمة زهير آراء عامة موجهة إلى الناس . فهو يجعل لنفسه نصيب غيره . وهو يشعر بكبات الحياة فنشعر بشعوره ثم إن في كلامه من السهولة والسهولة ما يزيده تأثيراً :

ألا كل شيء ، ما خلا الله ، باطل وكل نعيم ، لا محالة ، زائل

إذا العزم أسرى لينةً ظنَّ أنه قصي عملاً، والمزم ما عاش آمل  
 حباله ميثوثةً بسيله ويفنى إذا ما أخطأته الحبال  
 فقولا له، إن كان يقسم أمره: أَلَمَّا يَعْظُكُ الذَّهْرُ؟ أَمَكْ هَابِلُ  
 فإن أنت لم تصدقك نفسك فأتسبب، لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ الْقُرُونُ الْأَوَائِلُ  
 فإن م تجد من دون عدنان وإلداء ودون معد، فلتزعك العوادل  
 وكل أمرى يوماً سيعلم سعيه إذا كثفت عند الإله المحاصيل

٤ - شاعرية لبيد :

شعر لبيد شعر الطبيعة البدوية السليمة ، هو شعر التدفق الرصين الذي يجمع الصلابة الى السداجة ، والمتانة الى السهولة والسلاسة . واللفظة عند لبيد دقيقة المعنى حسنة الاختيار ، والتجسيم عنده معقول لا يتراكم كما في شعر زهير . وهو في تشابيه واستعاراته لطيف شفاف ، لا يُثقل سير القصيدة ولا يُعرقل بُنيان البيت ، وشعر لبيد مرآة صافية تنجلي فيها شخصيته البعيدة عن التعقيد والتصنع .

## ب . السَّمَوَال (توفي نحو سنة ٥٦٠م)

١ تاريخه :

هو السَّمَوَال بنُ غريض بن عادياء اليهودي صاحبُ الحصن المعروف بالأبثق تيماء، وبه يُصْرَب المثل في الوفاء لأنه أسلمَ أبنه ولم يخنْ أمانته في دروع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار الى القسطنطينية يطلب معونة القيصر . وقد تُوفي السَّمَوَال نحو سنة ٥٦٠ للميلاد .

٢ أدبه :

للسَّمَوَال ديوان شعر أشهر ما فيه قصيدته اللامية التي ضُمها من معاني الفخر ما دار على ألسنة الناس منذ الجاهلية الى اليوم :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْتَسِ مِنَ اللَّؤْمِ عَرَضُهُ      فُكُلٌ رِدَاءُ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ<sup>١</sup>  
وَلَنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمَهَا      فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّأَةِ سَبِيلٌ<sup>٢</sup>  
تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عِدَادُهَا      فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ<sup>٣</sup>  
وَمَا قَلٌّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ بِثَلَاثَا      شَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَى وَكُھُولٌ<sup>٤</sup>

## ٤ السَّمَوَّلُ من خلال قصيدته .

لامية السَّمَوَّلُ من أشهر قصائد العرب في الفخر . يبدو لنا الشاعر من خلالها عالمي النفس عزيزها ، ينظر الى كل شيء من عل ، لا عن كبرياء عمياء ، ولا عن غرور صبياني ، بل عن آتفة مَكُونَةٍ من عرض مصون ، وكرم أصل ، وتسام في صفوف شَبَانِ قومه وكهولهم ، وعزّة جاز ، ومنعة وشجاعة . وسحاء يد ، وتاريخ محد لا يغدله مَجْدٌ . وشعر السَّمَوَّلُ صورة لتلك النفس الرفيعة بما فيه من متانة في الأسلوب والتركيب ، وما فيه من رصانة وجلال .

## ج عَدِيَّ بن زَيْد (توفي نحو سنة ٥٩٠ م)

## ١ - تاريخه :

هو عَدِيَّ بن زَيْد بن حَمَاد بن أَيُّوب التميمي العبادي . وهو ينتمي الى بيت من

- ١ التَّمِيم اسم جامع للخصال المنعومة — ونسبى أب الانسان إذا لم ينتسب باكتساب اللؤم واعتاده إياه فأبى منس يهسه بعد ذلك كان حميلاً
- ٢ وإن هو لم يحمل أي يصير النفس على مكارهها فلا سبيل إلى اكتساب حسن الثاء والصميم هنا تحمّل الشدائد ليس معناه صبر الغير ثم لأهم يأفون من ذلك ويعلمونه ذلاً .
- ٣ يقال عيرته كذا وعيرته بكذا والأول المختار — المعنى أنها أنكرت مما قلته عدداً معدته عاراً فأجبتها إن الكرام يقولون ، وهذه القلة تحتمل معاني كثيرة وسبها وقوع الدهر بهم ، وقصد الموت لهم ، واستغنيتهم في اللطاع عن أحسابهم ، ولهايتهم كراهم نفوسهم عفاة لروم العار بهم . فكل ذلك يقلل العدد
- ٤ — الشاب جمع شاب كالشادن وقوله تسامى أراد تسامى فحلف إحدى التامين ، والكهول جمع كهل ضد الشباب .
- ٥ — العباد هم سكان البلاد الأصليون الذين وفدت عليهم قبائل الحبس وافهموا معهم ، وأغلب الظن أنهم كانوا

البيوتات القديمة في الحيرة ، وقد تأذّب أبوه في قصور ملوك فارس ، وحكّم الحيرة بضع سنين بعد موت النعمان الأول الى أن جسد ابنه المنذر على العرش. ولمّا كره أهل الحيرة المنذر ليُخلّيه وجشعه تولّى له تصريف الأمور المدنية. أما ابنه عدي فقد نشأ مع ابن أحد المرازبة على طريقة نبلاء فارس<sup>١</sup>، ثم عاش في بلاط الأكاسرة بالمداين ، وقربه الملك كسرى بن هرمز أي كسرى أبرويز ، وجعله ترجمانه وكتابه بالعربية ، وقيل إنّه بعثه في سفارة الى القسطنطينية ، وقد مرّ بدمشق وقال فيها أول شعره. ولمّا عاد الى الحيرة أخذ يتقلّب بينها وبين المداين.

ولما أشرف المنذر على الموت أوصى عدياً بابنه النعمان. ولمّا قتل عمرو بن هند أشار عديّ على ملك الفرس بتولية النعمان بن المنذر على العرب ففعل. ولكن الأمر لم يرقّ بني مربة الذين كانوا يُعاونون غير النعمان من أبناء المنذر. فراحوا يُوغرون صدر النعمان عليه ويزعمون له أنّ عدياً يدعي السيطرة عليه ويقول أنّه هو الذي أوصله الى العرش فأرسل إليه النعمان. وهو في بلاط كسرى ، يطلبُ زيارته له ، ففعل عديّ. وما إن وطئ بلاط النعمان حتى أمر هذا بحجسه. ولما بلغ كسرى خبر سجنه أرسل رسولاً الى الحيرة ليُطلقه فوجده مقتولاً. وكان ذلك نحو سنة ٥٩٠ م.

#### ٢ - أدبه :

١ - لعديّ بن زيد شعر قصريّ قاله في صباه. وأشهرها له حِكْمُهُ وزُهْدِيَّاتُهُ. وجاء في الأغاني أنه نظم قصائد كثيرة في مسجده وأرسلها الى النعمان معاتباً معتذراً<sup>٢</sup>.

عدياً كذلك وقد كان العاد نصارى على المذهب النسطوري ، وأغلبهم يحترف الصناعات المختلفة ، ومنهم عديّ بن زيد العبديّ ، وكانت ثقافتهم أعلى من ثقافة سكان الحيرة ، ومنهم من يعرف الفارسية والآرامية والعربية ، وكان عديّ بن زيد ووالده من قبله وابنه من بعده يعملون في بلاط الأكاسرة ، يترجمون الى العربية والفارسية . ( عمر الدسوقي للتاسعة الميلادية ، ص ٨١ ) وليس البعد أول من كتب الخط العربي . ( ماركيزان تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم السجّار ، ص ١٢٤ )

١ - حقه في الأغاني ( ٢ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ) أن عديّ بن زيد حين عا<sup>٣</sup> وأبلغ صرحه أبوه في « الكتاب » حتى حذق العربية ، وصار أفصح الناس وأكثم بالعربية والفارسية ، ثم انتقل الى بلاط فارس فأصبح كاتباً بالعربية وترجماً في ديوان كسرى . طالع أيضاً كتاب « الحيوان » للحافظ ٤ ، ص ١٩٧

٢ - الأغاني ٢ ، ص ١١٥ .

وكان الأصمعيّ وأبو عبيدة يقولان : « عديّ بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يُعارضها ولا يجري مجراها »<sup>١</sup>.

٢ - الحكيم . ممّا يُروى أنّ عديّاً كان يصحب النعمان في رحلات الصيد . وفي إحدى هذه الرحلات نزل النعمان ومعه عديّ بن زيد في ظلّ شجرة عظيمة ليلهو ، فقال عديّ : أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : لا ! قال : تقول :

رُبُّ شَرِبَ . قَدْ أَتَانَحُوا عِنْدَنَا بِشَرِبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ  
ثُمَّ أَضْحَوْا لَيْعَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالٍ

ومثل هذا الخبر كثير في كتب الأدب . وكلّه يشير الى مقبرة عديّ بن زيد في الوعظ والتزهيد بأمور الدنيا . ومن أشهر شعره في الوعظ والحكم قوله من قصيدة نظمها في السجن ووجهها الى النعمان أبي قابوس :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمَعِيرُ بِالْدَّهْرِ ، أَنْتَ الْمَبْرَأُ الْمَوْفُورُ<sup>٢</sup>  
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَلِيُّ مِنْ الْأَيَّامِ ، بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ  
مَنْ رَأَيْتَ الْمَثُونَ خُلِدْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ<sup>٣</sup>  
أَيُّنَ كِسْرَى ، كِسْرَى الْمُلُوكِ أَوْ سَامَانَ ، أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ<sup>٤</sup>

والقصيدة طويلة تدور حول التذكير بملك الماضي من فرس وروم ، وأصحاب القصور الفخمة التي عمروها ولم يدعهم ريب المنون آمنين فيها ، فذهبوا جميعاً . ولعلني شعر كثير كهذا في الوعظ والتذكير ، « وفيه من المعاني ما يعدّ صورا صادقة للحياة الروحية بين رهبان المسيحية في العصر الجاهلي ، وهي حياة قريبة الشبه من حياة زهاد المسلمين في أواخر القرن الأول وما بعده ».

وهكذا أثرت الروحانيّة المسيحيّة في شعر هذا الشاعر ، وصبغت بصيغتها ، فجاء على خلاف شعر الجاهليّة ، شعراً روحياً ، فيه وعظ وتذكير ، ودعوة الى العمل لما بعد

١ - طالع وشعره النصرانيّة « لأبى لويس شحور ، ص ١٣٩

٢ - المبرأ للوفور . أي الذي لا يئاه الدهر بأذى .

٣ - الخفير ، الحارس

الموت، واعتراف بالحساب والجزاء. ووجود إله قادر عالم يسرّاه خلقه، وفيه تناول لأحوال النفس الإنسانية وخصائصها، وبيان لطرق علاجها وكيفية التخلص من ربقتها وسلطانها. وفيه أيضاً حكمة تشتمل على نظرات في أمور الحياة والناس، تتسم بالدقة — بعض الشيء — أكثر مما تتسم بها حكمة الشعراء الآخرين<sup>١</sup>.

أسلوبه: أسلوب عديّ هو أسلوب السداجة، وكلامه سهل لئسّته الحاضرة وجعلت بعضه ناعم الجرس رائع التشبيه والتصوير، بعيداً عن كل تعقيد، وهذا اللين يتحدر أحياناً إلى الركاكة. وإنك لتشعر أن لمة ابن زيد تشاغل أحياناً، وأن الشاعر لا يملك ناصية القوافي فلا تنقاد له. ولا يُقلِّبها كما يشاء، ولهذا كله لم يعد العلماء الأقدمون حجّة في الشعر.

#### د. أمية بن أبي الصلت (توفي نحو سنة ٦٣٠ م).

##### ١ - تاريخه:

هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة من قبيلة عيلان، اطلع على كتب القدماء ولا سيما التوراة، وكان معطوفاً على التأمل، وقد لقي في تجارته إلى الشام بعض أهل الدين فزهد في الدنيا ولسن المسوخ وتعبّد. وذكر في شعره إبراهيم وإسماعيل والحنيفة، ووصف الجنة والبار، وحرّم الحمره وشكّ في الأوثان وطمع في النوة. وكان يخبر أن نبياً يبعث ويؤمن أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه طهره النبي محمد أسقط في يده وقال: «إنما كنت أرجو أن أكونه». إلا أنه ما انفكّ يختلف إلى الديورة والكنائس يجالس الرهبان إلى أن توفي نحو سنة ٦٣٠ م.

##### ٢ - أدبه:

لأمية بن أبي الصلت شعر أكثره في الشؤون الدينية والتاريخية وهو من ثمّ يختلف عن سائر الشعر العربي لما ضمته صاحبه من معاني وأساليب وألفاظ لم تكن للعرب. وقد

وصف الله تعالى وملائكته ، وله عدة قصائد في حوادث التوراة كخراب سدوم ، وقصة إسحق وإبراهيم ، ومن قوله :

لَكَ الْحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْمُلْكُ رَبَّنَا      فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ مَجْدًا وَأَمَجْدًا...  
مَلَائِكَةُ. أَقْدَامُهُمْ تَحْتَ عَرْشِهِ ،      كَفَّيْهِ. لَوْلَا اللَّهُ، كُلُّوْا وَأَبْلَدُوْا  
قِيَامٌ عَلَى الْأَقْدَامِ عَائِينَ تَحْتَهُ      فَرَايَصُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ تُرْعَدُ  
وَسَطُ صُفُوفٍ يَنْظُرُونَ قَضَاءَهُ      يُصِيحُونَ بِالْأَسْمَاعِ لِلْوَحْيِ رُكْدُ  
أَمِينُ الْوَحْيِ الْقُدْسُ جِبْرِيلُ فِيهِمْ      وَمِيكَالُ ذُو الرُّوحِ الْقَوِيِّ الْمُسَدَّدُ  
وَحُرَّاسُ أَبْوَابِ السَّمَوَاتِ دُونَهُمْ      قِيَامٌ عَلَيْهَا بِالْمَقَالِدِ رُصْدُ

#### ٣ - قيمة أدبه :

قيمة شعر أُمِّيَّةُ بَنِي الصَّلْتِ في ما أدخله على أدب العرب من معاني وأساليب جديدة لا في روث كتائنه ولا في جمال تصويره ولا في متانة سبكه وهذه المعاني والأساليب يتطلبها في الكتب المقدسة أو في الأساطير القديمة. والشاعر لا يملك لغته بشدة وهي لا تنقاد له بسهولة ، فهو مضطرب وكلامه معقد لا ينحو من غموض.



## مصادر ومراجع

- الأب لويس شيخو : شعراء النصرانية — بيروت ١٨٩٠ .  
 عبد الحكيم حسّان : التصوّف في الشّعْر العربي — القاهرة  
 الأغا لآبي الفرج الأصفهاني — طبعة دار الثقافة بيروت .  
 الشّعْر والشّعراء لابن قتيبة — طبعة دار الثقافة بيروت





## الباب التاسع شجرة البكاء والرثاء

الخنساء (٥٧٥ - ٦٦٤ / ٤٤٤ هـ)

١ - تاريخها هي ناضر بنت عمرو السُّلَمِيَّة قُتِلَ أحوالها صحر ومعاوية ففقت حياتها سكها وترتيبها  
وكان أكثر كلامها في صحر وقد أسلمت وكانت حسة الناس.

٢ - أديها لما ديوان شعر أكثره في رثاء صحر

٣ - قيمة رثائها -

١ - عاطلة صادقة، ونعمة ألم طويلة ومكرورة

٢ - بس في رثائها ترتيب ولا تحليل ولا تعمق، فهو تعداد للأعمال والصفات، ونكاه وصحر وتهديد  
في سلاسة وسهولة

٣ - تعتمد العمق وتكثر من استعمال صيغ المبالغة. — ديوان الخنساء صورة مكثرة لصحر، والخنساء  
فهم عنوان العطف ورسم الإحشاء والوداد

١ تاريخها:

هي ناضر بنت عمرو بن الشريد السُّلَمِيَّة الملقبة بالخنساء، حطها الشاعر ذريد بن  
الصمة فردته، فخطبها زواجه بن عبد العزى السُّلَمِي فوُلدت له عبد الله المعروف بأبي  
شجرة، ثم اقترنت للمرة الثانية بمزدكس بن أبي عامر السُّلَمِي فوُلدت له زيداً ومعاوية  
وعمرأ.

وكان أحوالها صحر شريفاً في بني سُلَيْم، وخرج في غزاة فقاتل فيها قتالاً شديداً،  
وأصابه جرحٌ واسع، ففرض في ذلك وطال مرضه، حتى مات. وكذلك قُتِلَ أخوها  
معاوية، فبكتها الخنساء بكاءً مرّاً وكان أكثر بكائها على صخر ذي اليد الكريمة  
والقلب المحب العطوف.

وقد أسلمت الخنساء في أواخر حياتها وأخلصت لدينها الجديد. ومما يروى من هذا القبيل أنها دخلت على أم المؤمنين عائشة وعليها صدار لها من شعر<sup>١</sup>، فقالت لها عائشة: يا خنساء إن هذا لقيح، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبست هذا، قالت: إن له قصة، قالت: فأخبريني، فقالت: روجي أبي رجلاً، وكان سيداً معطاءً، فذهب ماله، فقال لي: إلى من يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر، فأتيناه، فقسم ماله شطرين، فأعطانا خيرهما، فحمل زوجي أيضاً يعطي ويحمل، حتى نفذ ماله، فقل: إلى من؟ فقلت: إلى أخي صخر، فأتيناه، فقسم ماله شطرين، فأعطانا خيرهما، فقالت امرأته: أما ترصني أن تعطيني النصف حتى تعطيني أفضل النصيبين؟ فأنشأ يقول:

وَاللَّهِ لَا أَمْنَحُهَا شِرَارَهَا وَلَوْ هَلَكْتُ مَرَقْتُ خِمَارَهَا  
وَجَعَلْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارَهَا

فذلك الذي دعاني إلى أن لبست هذا حين هلك.

وكانت تقف بالموسم فتسوم<sup>٢</sup> هودجها بسومة<sup>٣</sup>، وتعاظم<sup>٤</sup> العرب بمصيبها بأبيها عمرو ابن الشريد وأخوتها صخر ومعاوية ابني عمرو، وتتشدهم فتسكي الناس. وكان أبوها يأخذ بيدي ابنته صخر ومعاوية ويقول: أنا أبو خيرتي مضر، فتعترف له العرب بذلك.

٢. أدبها:

للخنساء ديوان شعر في رثاء أخوتها صخر ومعاوية وأكثره في صخر. طبع في بيروت سنة ١٨٨٩.

١ - الصدر، بكسر الصاد: ثوب رأسه كالقنعة، وأسفله يغطي الصدر والمكس، تلبسه المرأة، وكانت المرأة الشكل إذا هدت جميعها فأحدثت عليه لبست صداراً من صوف.

٢ - سومة: العلامة، كالسومة والسيماء السيماء، وسوم الفرس: جعل عليه السيمة، وسه الخيل المسومة.

## ٢ - قيمة رثاء الحنساء .

١ - رثاء الحنساء هو عاطفة صادقة في حزنها ، أو هو نوع الأخت على أخيها ، أو هو نعمة الألم تتصاعد مكرورة في بداية بلا نهاية ، وتماشي نبرات العاطفة في اختلاف تموجاتها ، في اندفاعها وثورتها . وفي ركودها وانكسارها ، في تبويق عرتها وفي إرعاد تهديدها ، في حثها المضطرم وفي أسفها الملتئم .

٢ وتبدو الحنساء كإحدى النساء الثوابد اللواتي يقمن حول النعش في تموج جسمي وروحي ، ويصعدن مع كل حركة زفرة ، ومع كل زفرة نعمة من نغات الرثاء والراح في تكرار وترديد . وفي تسير العاطفة على جناح كل زفرة والتدامة ، وإذا في ديوانها قصائد ومقطوعات على محور مختلفة الوقع ، تقودها ذكرى الأعمال المخيدة وما في صخر احميدة ، وتستير بأصواء محبب الفقيده . فلا ترتيب ولا تسقيق ، ولا تحليل ولا تعمق . ولا وحدة تأليف ولا احصار في موضوع . إنما يكني خيال صحر وطنه . وإذا القصائد تنقلب كلها تقريباً بين رثاء وتعداد أعمال وصفات ، وبين بكاء وفخر وتهديد . وصخر نقطة الدائرة يدور كل شيء حوله ، ويقاد كل شيء لأحله . في انفجار قباض ، وفي سلاسة رائعة وسهولة قد تظهر أحياناً مألوفة .

٣ وهكذا ، نرى أفكار الحنساء لا تتبدل ، فهي هي في جميع اقصاد . تبرز في جو من الغلو . يجعله الألم مقبلاً مهما تجاوز الحدود . وكثيراً ما تفتش الحنساء فصائلها بمناجاة عبيها ، وكثيراً ما تستزف العينين وتستقطرهما دموعاً فرحتها ، وكثيراً ما نعد الحنساء الى صبيح ألبالغة للتشديد والتقرير ، وإلى تقطيع البيت لواحد تقطيعات موسيقية هذارة ، تخرج بنا عن جو الأنوثة وتلتحق ببررات البطولة فتقول مثلاً :

وإنَّ صَخْرًا لَوَالِيَا وَمَسِيدُنْ      وَإِنَّ صَخْرًا ، إِذَا نَشْتُو ، لَنَحَارُ  
وإنَّ صَخْرًا لِمَقْدَامْ ، إِذَا رَكَبُوا      وَإِنَّ صَخْرًا ، إِذَا جَاعُوا ، لَنَقَارُ<sup>٢</sup>

١ تصفه بالحدود ، أي يحر للضيوف إذا نزل بالباس غسق الشتاء .

٢ نقار : كثير المقر وهو الذبح اللينق ليعصم الحائمين .

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهَدَاةُ بِهِ      كَأَنَّهُ عِلْمٌ، فِي رَأْسِهِ نَارٌ<sup>١</sup>  
 جِلْدٌ جَمِيلُ الْمُحِبِّ، كَامِلٌ، وَرَعٌ      وَلِلْحُرُوبِ، غَدَاةَ الرُّوعِ، مِسْعَارٌ<sup>٢</sup>  
 حِمَالُ أَلْوِيَّةٍ، هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ      شَهَادُ أُنْدِيَةٍ، لِلْحَيْشِ جِرَّارٌ

وهكذا كان ديوان الحنساء صورةً مكثرةً لصخر، وكان صخر في ديوان الحنساء الصفات العربية كلها مكثرة، فهو حصصُ العشرة وخطيئها، وهو مؤثِّلُ الضعيف والضعيف، وهو عنوانُ الكرم والجود، وهو كلُّ ما هو كاملٌ ومحبوب.

وهكذا كان صخر دموع حياة وقطرات فؤاد، وكانت الحنساء عنوان العطف ورمز الإخاء والوداد.



١ - تأمُّ به . تبدي به الهداة ، واجدها هاد : المرشد . كأنه علم في رأسه نار ، مثل ضربه في شهرة أنبيا ، والعلم الجبل .

٢ - مسعار الخرب . موقعتها

## مصادر ومراجع

- الأب لويس شيخو: أنيس الجَنَساء في شرح ديوان الخنساء بيروت ١٨٩٦ .  
 قزّود البستاني: الروائع ، ٢٨ — بيروت ١٩٣٠  
 قسرة حسين: شهرات النساء في العالم الإسلامي ٢ : ٦٣ ٩٥ .  
 ملك طرري : الخنساء وشاعرة البكاء والأسى مجلة دمشق ١ (١٩٤٠) — العدد ٤ : ٢٣ .  
 مريم مكاربوس : الخنساء مجلة المقتطف ٩ : ٦٢٢  
 نذير العظمة . عديّ بن زيد العبادي — بيروت ١٩٦٠





# الأدب العجزي القديم

## أدب العهدين الإسلامي والأموي

(١ - ١٣٢ هـ)

(٦٢٢ - ٧٥٠ م)

بيئة الأدب في هذين العهدين  
الحياة الجديدة وأثرها في اللغة والأدب.

• النثر الإسلامي :

- ١ - القرآن والحديث.
- ٢ - الخطابة والتوقيعات.
- ٣ - الكتب والرسائل والتوصيات.
- ٤ - المغاورات والقصص والنقد الأدبي.

• الشعر الإسلامي :

- ١ - نظرة عامة
  - ٢ - شعراء الدين الجديد.
  - ٣ - شعراء البادية.
  - ٤ - شعراء اللهو والجنون.
  - ٥ - شعراء الأحزاب.
  - ٦ - شعراء البلاط والتكسب.
  - ٧ - شعراء الرجز وطائفة من الشعراء الآخرين.
- الفنون والعلوم.

الحرم الشريف مكة المكرمة





## الباب الأول

### بيئته الأولى في هذين العهدين

#### ١ فتح شبه الجزيرة

- ١ قام النبي محمد بدعوته فقاومته قريش ، فهاجر الى المدينة سنة ٦٢٢ حيث لقي أنصاراً . وس حيث قام بعزوات ووجهه عرباً وكشاً ، فقلبت له وعود القذائل استطاعة . وحصص له مكة
- ٢ لما توفي النبي قام خلاف في شأن الخلافة ، فاجل عن انتخاب أبي بكر ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب . في عهد أبي بكر تبست حروب الردة التي أحصع بها خالد بن الوليد قبائل العرب . فترجح الاسلام الى أن أصبح دولة كنان . لتصر فب القومية العربية

#### ٢ فتح الشام والعراق

- ١ هاجم خالد بن الوليد بلاد الشام وتعلب على جيوش الروم في معركة اليرموك .
- ٢ - وهاجم سعد بن أبي وقاص جيوش الفرس في العراق وتعلب عليها في معركة القادسية

#### ٣ فتح مصر

- رجعت اجيوش اميرية من فلسطين تريد الاسكندرية ، ففتحت حصن بابليون ، وهاضرت الاسكندرية أربع سنوات فاستسلمت للمدينة ، وتوغل العرب في شمالي أفريقيا .

#### ٤ محاربة عهد اقطاع الراشدين

- ١ قتل عثمان بن عفان لأنه أثار حفيظه عمر بن أمية
- ٢ لما يوقع علي بن ابي طالب في معركة الجمل . وأما معاوية فقد هار في انتحكم الذي تبع معركة صفين ، وقام الحوارج على علي حتى قتل اس ملخم .

#### ٥ الدولة الأموية

- ١ جعل معاوية الخلافة ملكاً وراثياً ، وقل عاصمته الى دمشق . وقد اسعان بأدعي الناس في سياسة امبراطورية من مثل وباد ابن أبة
- ٢ قتل ابو أمية الحسين في كربلاء وكان مقتله وبلاً عبيهم .
- ٣ - هاجم الحجاج بن يوسف مكة وقتل ابن الزبير الذي ثار في وجه بني أمية
- ٤ - وانص بنو أمية الفتح وردوا هجرات الروم

#### ٦ دين جديد وأمة جديدة

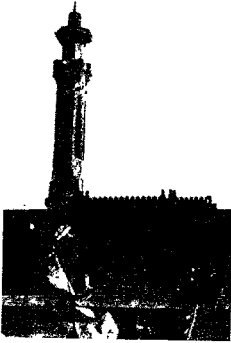
- ١ نظم القرآن المصحح العربي وث في روح القومية ووجهه شطر الحياة الروحية

مرَّ بها كيف كانت حالُ البلاد العربيَّة قبل الإسلام وكيف أثَّرت أحوالها الطبيعيَّة والاجتماعيَّة في توجيه الأدب ؛ ولَمَّا ظهر الإسلام في القرن السابع بشريعته وقُوَّته الحربيَّة وسلطانهِ السياسيِّ ، كان الشرق بين يَدَيْ دولَّتَيْنِ كبيرَتَيْنِ : دولة الرُّوم البيزنطيَّة ، ودولة الفُرس السَّاسانيِّين . فراح الإسلام يضمُّ صفوفَ العرب في شبه الجزيرة ، ثم اندفقت الجيوش العربيَّة كالسيلِّ الجارف فاطاحت بدولة الفرس ، وطردتْ الرُّوم من الشام ومصر وشمالِي أفريقيا . ثم امتدَّ سلطانها إلى المحيط الأطلنطي والقفقاز وهر جيون والسُّند . وما هي إلا سنوات حتى نشب الخلاف بين العرب الغالبين في شأن الخلافة ؛ وظلَّ ذلك الخلاف يُعزِّق الصُّفوف حتى تمَّ النَّصر لبيْنِي أُمَيَّة وهكذا كان معظم الأدب في هذه المرحلة أدبَ نضالٍ دينيٍّ وسياسيٍّ ، وكانت مواطنه شبه الجزيرة ، والشَّام والعراق ، ومصر .

#### ١ فتح شبه الجزيرة :

١ - دعوة الرسول وغزواته : وُلِدَ النَّبِيُّ العربيُّ في مكة حوالي سنة ٥٧٠ م . وتوفيَّ في المدينة ( يثرب ) سنة ٦٣٢ م ولَمَّا بلغ الأربعين من العمر راح يدعو قومه إلى ترك عبادة الأصنام والأضواء تحت لواء الإسلام ، وكان أوَّل من لُصِّي الدعوة زوجته خديجة وابن عمِّه عليُّ بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة مولاه . وراح الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً في مكة ، وطارَت أخباره إلى يثرب . فضاعت قريش ذُرْعاً بمحمَّد وأصحابه ، وراحت تناصبهم العداء وتضطهدهم اضطهاداً عنيفاً ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة حيث أمَّهم النَّجاشيُّ وأحسن إليهم . وواصل محمد دعوته إلى أن فوجئ بوفاة عمِّه أبي طالب ثم بوفاة خديجة ، ففقد فيها حيز عضدِّ وحيز ناصر . وخرج إلى الطائف علَّه يجد هناك من يسمع الدُّعاء فخاب أمله ، ثم عاد إلى مكة مبشراً ، وعرض نفسه على القبائل في المواسم مُقرّاً من عبادة الأوثان ، فاشتدَّ غيظ قريش وانسمرت يوماً في دار الندوة ، واتَّفَق رأي زعمائها على قتله ، فهاجر إلى المدينة مع مَنْ قبل الدعوة سنة ٦٢٢ ، ولقي في

١ - من مَوْلَاه عُمَان بن عُمَان وامرأته رَقِيَّة بنت الرسول . وأبو خديجة بن عنة وامرأته سُهَيْلَة بنتُ سُهَيْل ، والأخيرة من أمِّهم . ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف . وعامر بن ربيعة .



مشاهد من مكة المكرمة

المدينة أنصاراً لدعوته كانوا له  
في السراء والضراء ، وشرع في  
تنظيم أمور المسلمين وتأسيس  
إدارة المدينة<sup>١</sup> .

ولما أتمَّ محمدٌ تنظيمه توجهَ  
الى بلاد العرب يعمل على نشر  
لواء الإسلام فيها ، وقام بغزواتٍ  
مختلفة ، وأوفد البعث والكتّاب  
والرُسل الى الملوك والأمراء  
والرؤساء ، ومن أشهر غزواته  
غزوة بدر الكبرى<sup>٢</sup> في ١٧ أو  
١٩ رمضان من العام الذي  
للهجرة ، وقد انتصر فيها  
المسلمون على أهل مكة ، ومنذ  
ذلك الحين أخذ الاسلام يتشعّر

في أطراف شبه الجزيرة ، وأسلمت له مكة القياد في السنة الثامنة للهجرة ، وتوجهت  
وفود القبائل الى المدينة تقدّم الطاعة ل محمد وتعلن له الإسلام . وفي السنة العاشرة للهجرة  
دخل محمد على رأس موكب الحج السنوي الى مكة عاصمته الدينية الجديدة ،  
وكانت هذه آخر مرة يحجّ فيها فسميت «حجّة الوداع» .

٢ حروب أبي بكر : ولما توفي محمد سنة ٦٣٢ نشأت عدّة أحزاب للطالبة  
بالخلافة ، فمن مهاجرين يدعون أنّ الخلافة حق لقريش ، ومن أنصار يرون حق الخلافة

١ - في ذلك الحين عقد محمد حلقاً بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين وغيرهم عمل فيه على التوحيد بين  
جميع سكان المدينة يجعلهم أمّة واحدة قائمة على العدل والإنصاف والصلحة العامة . ذلك أمور يعيده عن ١٠١  
الحاجية

٢ - سر أو بدر حين خرجت قرية الى الجنوب الغربي من المدينة .

لهم لأنهم حُماة الإسلام . ومن صحابة اجتمع فيهم المهاجرون والأنصار ، ومن متمسكين بالنص والتعيين يرون أن رعاية الإسلام معقودة لمن يستحقها على أساس منصوص معين أي لعلي ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . ومن أمويين يمثلون أرستقراطية قريش ويدعون أن حق الخلافة لهم وعلى رأسهم أبو سفيان . وقد قرّ الرأي أخيراً على انتخاب أبي بكر الصديق خليفة (٦٣٢ — ٦٣٤ م) . وعقبه عمر بن الخطاب (٦٣٤ — ٦٤٤) . ثم عثمان بن عفان (٦٤٤ — ٦٥٦) . ثم علي بن أبي طالب (٦٥٦ — ٦٦١) . وعُرف هؤلاء الخلفاء الأربعة بالراشدين . وقد اتخذوا المدينة المنورة عاصمة لهم إلا علياً فإنه اختار الكوفة بالعراق وجعلها قاعدة خلافته .

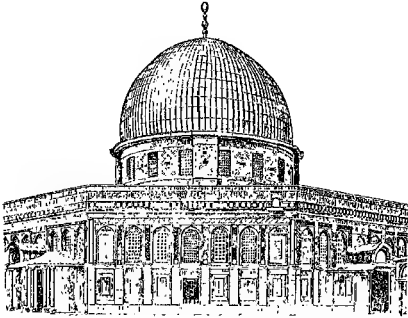
وفي عهد الخليفة أبي بكر كان شبه الجزيرة ميداناً لحروب الردّة التي أخضع فيها خالد بن الوليد قبائل العرب . وهكذا تدرّج الإسلام الى أن أصبح دولة كان النصر فيها للقومية العربية .

## ٢ - فتوح الشام والعراق :

١ - افتتاح الشام خالد بن الوليد . ما إن توطدت دعائم الوحدة العربية في شبه الجزيرة حتى أعدّ الخليفة جيوشاً كبيرة لمهاجمة الروم في الشام والفرس في العراق . وقد تألفت تلك الجيوش من ثلاث سرايا على رأس الأولى عُقْمَرُ بْنُ الْعَاصِ ، وعلى رأس الثانية يزيد بن أبي سفيان<sup>١</sup> ، وعلى رأس الثالثة شُرْحَبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ ، فالتجّهت نحو الشمال وتوغّل خالد بن الوليد في العراق فيما هاجم يزيد وشرحبيل أرض الشام ، ثم أنفذ الخليفة رسالة الى خالد بن الوليد ليضمّ الى العرب في الشام ، فراح يجتاز الوادي والقفار حتى اقترب من دمشق وتغلب على مؤخّرة جيش الروم في مرج راهط<sup>٢</sup> ، واتصل بالجيوش العربية التي اختارته قائداً لها . ثم سار بها الى دمشق واستولى عليها سنة ٦٣٥ . ثم دحر بعلبك وحمص وحماة ، ثم انحدر الى وادي اليرموك الذي يصب في الأردن قرب طرية . وهاجم جيوش الروم وتغلّب عليها ، وبهذه الغلبة فتحت له المدن

١ - كان حامل اللواء في سريره ريد أخوه معاوية

٢ - مرج راهط في الشمال الشرقي من دمشق . وبعده بالقوت من عوطة دمشق



مسجد عمر في القدس (حصارة العرب)

السورية أبوابها من أنطاكية الى حلب الى قنشرين الى غيرها. وفي سنة ٦٤٠ كانت البلاد الشامية كلها تحت ظلّ السيادة العربية.

٢ فتح العراق. سعد بن أبي وقاص. ثم رحفت الجيوش العربية تريد العراق وعلى رأسها سعد بن أبي وقاص، وهاجمت الجيش الفارسي في القادسية<sup>١</sup> وتغلّبت عليه<sup>٢</sup>، ثم هاجمت المدائن<sup>٣</sup> عاصمة الساسانيين وفتحها، وهكذا دانت بلاد العراق للعرب، وقد أنشأوا في البصرة والكوفة معسكرين للجند، ثم ما عتمت البصرة والكوفة أن صارتا مدينتين عظيمتين لها شأن في الحياة العربية السياسية والفكرية.

١- تقع القادسية قرب الحيرة، بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرساً أي نحو مئة وعشرين كيلومتراً.

٢- كان ذلك في آخر شهر أيار أو أول حزيران سنة ٦٣٧.

٣- تقع المدائن على نحو عشرين ميلاً الى الجنوب الشرقي من بغداد.

وفيا كانت الجيوش العربية تمتد في الشرق . كانت سرايا أخرى تتقدم غرباً بقيادة عمرو بن العاص . لتشر سلطان العرب على وادي النيل وشمال أفريقيا .

### ٣ فتح مصر .

تطلع العرب الى مصر . وهي باب شمالي أفريقية ، وزحفت جيوشهم من فلسطين تريد الاسكندرية . عاصمة البلاد لذلك العهد . وقاعدة العارة البحرية البيزنطية . فهزمت الروم في القرماء وهي مدخل مصر الشرقية . وهاجمت حصن بابليون وفتحته بعد لأي ، وهو بإزاء جزيرة الروضة في النيل . ثم توجهت نحو الاسكندرية فاستسلمت صلحاً بعد حصار دام أربع سوات . ثم راحت تتوغل في شمالي أفريقية حتى أحضعت الحرير والنوبة . وهكذا شملت الأمبراطورية العربية قسماً كبيراً من حوض البحر المتوسط ، وراح العرب ينظّمون تلك الأمبراطورية بما أفادوه من أساليب الفرس والروم . وبما علمتهم إياه خبرة الأيام والأحداث ، وهكذا أصبحت تلك الأمبراطورية الواسعة الأطراف موطناً عاماً للغة العربية ينطق بها القاصي والداني ، وموطناً عاماً للأدب العربي في شعره ونثره .

### ٤ — خاتمة عهد الخلفاء الراشدين :

تلك كانت الحد في عهد الخلفاء الراشدين ، وما تولى عثمان بن عفان أمر الخلافة بالغ في تعزيز شأن أسنائه من بني أمية مما أثار حفيظة الآخرين فأوقع به بعضهم وقتلوه في منزله وبيع علي بن أبي طالب من بعده ، فانتفض عليه طلحة والزبير زعما الحزب المكّي ومعاوية بن أبي سفيان الذي استقر في الشام منذ الفتح الأول وانضمت عائشة أم المؤمنين الى مناوئي عليّ بجوار البصرة ، مهاجمهم الإمام ، وكانت معركة الجمل سنة ٦٥٦ ، وقتل طلحة والزبير ، وأسيرت عائشة فعاملها علي أحسن معاملة وردّها الى المدينة في تكريم وتعزيز . ولبت معاوية في الشام بتهم عدياً بمقتل عثمان ، وبعث في الناس روح الغضاء والقمة . واشتدت المنافسة بين الكوفة ودمشق الى حد أن كلاً من الفريقين جيش الجيوش وسار يطلب الآخر ، وكانت معركة صفين شمالي الرقة على ضفة الفرات الغربية سنة ٦٥٧ ، وكاد المصريكون بجانب عليّ ، فأشار عمرو

ابن العاص على معاوية برفع المصاحف على الرماح ، فتوقف القتال ورصي علي بالتحكيم ، وناب أبو موسى الأشعري عن علي ، وعمرو بن العاص عن معاوية . وكان أن خسر علي ، وخرجت عنه فئة من أعوانه عرفوا بالخواارج وأنكروا قبوله للتحكيم ، وقد اعترضه أحدهم هو عبد الرحمن بن ملجم — في طريقه الى مسجد الكوفة ، وضربه بسيف مسموم فقتله سنة ٦٦١ . وهكذا انتهى العهد الراشدي ، وخلا الجو لمعاوية بن أبي سفيان مؤسس الخلافة الثانية .

### ٥ - الدولة الأموية :

كان معاوية بن أبي سفيان وائياً على الشام ، ولمّا تولّى منصب الخلافة جعلها مكاناً وراثياً ، وراح يسوس الناس بحكمة وحلم ودهاء<sup>١</sup> . واختار لمعاوية في الحكم أصعب الرّجال وأدهاهم من مثل عمرو بن العاص ووالي مصر ، والمغيرة بن شعبة أمير الكوفة مقرّ المعاوضة ، وزباد بن أبيه ووالي البصرة . وجعل دمشق عاصمة أمبراطوريته ، ثمّ راح معاوية وخلفاؤه يواجهون الفنّ الدّاخلية ويعملون على التوسّع الخارجيّ . فقد بايع أهل العراق الحسن بن علي خليفةً شرعياً لأبيه ثمّ بايعوا أخاه الحسين الذي قتله الأمويون في كربلاء (٦٨٠) والذي كان لمقتله أثر عميق في تنمية روح الشيعة وازدياد عدد أتباعها ، بل كان مقتله من أهمّ العوامل التي عملت على ذلك ركن الدولة الأموية . وابتعت الحجاز ابن الزبير الذي قويت شوكته وامتدّ سلطانه الى العراق وجنوبي الجزيرة ومصر وبعض أنحاء الشام ، فوجه إليه عبد الملك بن مروان حملة بقيادة الحجاج بن يوسف حاصرت مكة نحو ستة أشهر (ابتداء من ٢٥ اذار سنة ٦٩٢) وقتلت ابن الزبير ، وقضت على قوّة الأنصار . فخلا الجوّ للأمويين ، وعين عبد الملك الحجاج والياً على العراق لتوطيد الأمن والقضاء على فئة الخوارج .

والى جانب الفتن الدّاخلية راح الأمويون يردّون هجمات الروم ويواصلون حركة الفتح ، ففتحوا اسانية ، واستعادوا أرمينية ، وأخضعوا طبرستان ، وضمّوا الى

١ من أقوال معاوية الماثورة . ولا أضغ سبي حيث يكفي سوطي ، ولا أضغ سوطي حيث يكفي ساني .  
ولو أن بي وبين الناس شعرة ما ، قطعت ، إذا ملّوها خلت . وإذا غلّوها مدّتها .

أميراطوريّتهم ما وراء النهر وأفغانستان والسند. وما وافى منتصف القرن الثامن الميلادي حتى انتهى هذا العهد من الفتوح، وعدد الخلاف في الدخول إلى أوجه، فانتحارت الشيعة إلى بني العباس الذين كان لهم كلمة مسموعة في جيوش العراق وخراسان، وأسقطوا الخلافة الأموية سنة ٧٥٠م.

#### ٩- دينٌ جديد وأمةٌ جديدة :

وأينا في دراستنا السابقة ما كانت عليه الجاهلية من تشعب الدين. فلما ظهر الإسلام أتى العرب بكتابٍ دينيٍّ واحد، أوضحت فيه العقائد والنظم الدينية والاجتماعية. وفي القرآن تسمان : قسم مكّي وقسم مدنيّ، أما الأول فيقتصر على بيان أصول الدين والدعوة إليها. وأما القسم الثاني فيحتوي أصول الأحكام من عبادات ومعاملات، وهي تشمل التشريع الديني في الصوم والزكاة والحج وما إلى ذلك، والتشريع الاجتماعي في الزواج والميراث والطلاق، والتشريع السياسي في قتال من يناهض الدعوة. وهكذا نظم القرآن المجتمع العربي ونقله من الحياة القبلية إلى الحياة القومية، وأثر في حياته أعمق الأثر، فوجه فكره إلى الله، وجعل الحياة الدنيا أمامه طريقاً إلى الآخرة، وشجّع الخير وصانعيه، وحثّ على الفضيلة والتقوى، ودعا إلى التسامح في ظلّ العدل والمساواة، وجعل قيمة الإنسان في تقواه وصلاح سيرته وسريته، وهكذا قضى على العنجهية الجاهلية، وأقام للمجتمع رُبطاً إنسانية رفيعة.



من نقود معاوية بن أبي سفيان

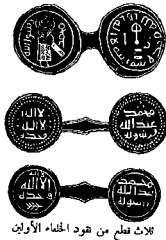


## مصادر ومراجع

- قريب حتي . تاريخ العرب مطبوع الجزء ١ و ٢ بيروت ١٩٥٨ .  
 جرجي زيدان . تاريخ المتمدن الإسلامي ، الجزء الأول — القاهرة ١٩٥٩ .  
 محمد حسين هيكل : حياة محمد — القاهرة ١٣٥٨ هـ .  
 عمر رضا كحالة . العالم الإسلامي ، الجزء الأول — دمشق ١٩٥٨ .  
 محمد عزة درود . عصر النبي دمشق ١٩٤٦ .

H. Lammens, Etudes sur le siècle des Omayyades, Beyrouth 1930.

C. Brockelman, Histoire des Peuples et des Etats islamiques, Paris 1949.



## الباب الثاني

### الحياة الجديدة وأثرها في اللغة والأدب

لا شك أنّ ما جرى من أحداث جِسَم كان له صحّة واسعة في جسم الأمة العربية . وكان له مفعولان رئيسيان : وعي جديد ، وانفتاح ملديد . أمّا الوعي فقد حصل في داخل الشخص العربيّ وقد دعتّه الهزّة العنيفة الى أن ينكفئ على ذاته ويتنبّه للشخصية الكامنة في أعماق كيانه وللقوى والطاقات التي بإمكانه التسلّح بها ، وأمّا الانفتاح فقد دعت الأحداث والفتوح الإنسان العربيّ الى أن يبدق الى الخارج ، ويخرج من حيّزه الضيق ، ويفتح عينيه على عالم الله الواسع ، وعلى ثقافات وخضارات الأمم والشعوب . ولا شك أنّ هذا كلّهُ كان ذا أثر عميق في اللغة والأدب والعلوم عند العرب .



## الفصل الأول الحياة الحديثة واللغة العربية

١ - أثر القرآن . عمل القرآن على توحيد الله وحضه ، وبشرها ، وهذب ألقاظها ولحن أساليبها .

٢ - أثر الفصح والاختلاط . كانت الفصح

- تتداخل مجتمع في مجتمعات ومدنات وثقافات . أهمها منسبات الفرس والروم  
جاءت على الاستمساك بالعرصة ومقاومة اللحن . وقد ظهرت حركة تنقية اللغة كما نلاحظها . أشهر  
سيويه

٣ - أثر نقل السواوين الى اللغة العربية . عمل على توسيع اللغة في مادتها وأساليبها .

١ - أثر القرآن :

كانت اللغة في الجاهلية ذات غنى ومرونة ، ولكنها كانت ذات صفة بدوية  
وهجات متعددة تعلت عليها لهجة قريش . ولما ظهر القرآن سحر الألفاظ ببيانه ،  
وأضفى على اللغة سبلاً من حسن السبك وعدوبة السجع . وموسيقى الألفاظ ،  
وأثافة التعبير . وقد عمل على توحيد اللغة العربية توحيداً كاملاً ، إذ كان المثال الأعلى في  
البلاغة . والكتاب الديني الذي يسيطر على القلوب والألسنة ؛ وعمل على حفظ  
العربية من الانقراض ، وعلى انتشارها في شتى البلاد والأصقاع حتى أصبحت لغة  
الدّين والسياسة والثقافة في امبراطورية واسعة الأطراف ؛ وساعد على تهذيب الألفاظ  
وقلبين الأساليب حتى حُفّت الكذبة العربية بالعذوبة والسّلامة والسّهولة والرقّة ،  
وعنى لعجم العربي بالفاظ اكتسبت به معاني جديدة لم يكن لها عهد بها من قبل .  
وكان أحراراً في أصل كثير من علوم اللغة التي نشأت حوله لتفسير معانيه وإظهار قيمته  
البلاغية .

## ٦ أثر الفتح والاختلاط :

وهالك عامل آخر ساعد على توسيع اللغة هو عامل الفتح واختلاط العرب  
بغيرهم من الشعوب. فالفتح وتأسيس دولة ذات نُظمٍ سياسية واجتماعية واقتصادية ،  
واحتكاك العرب بغيرها من اللغات ، كل ذلك كان في صاحبها إذ كانت لغة الدين  
والسيطرة السياسية وكان غيرها في خدمتها ، يُغنيا ويُضيف الى مُعْجَمها ما كانت  
بحاجة إليه لتعاشي المدنية والثقافة . فعندما خرج العرب من شبه الجزيرة واجهوا مدينتين  
عريقتين هما : مدينةُ الفُرس ومدينةُ الروم ، وقد انضمَّ الى هاتين المدينتين جميع  
المدينت القديمة التي عُرِفَت لمصر وبابل وأشور وغيرها ، والتي انصهرت كلها في  
العقَلين الفارسي واليوناني ، مع ما اجتاحت الشرق من ثقافة الإغريق والرومان ،  
وروحانية النُصرانية ولاهوتها ، وتعاليم الديانات المتعددة التي تعاقبت أو تصابقت في  
هذه البقعة من الأرض منذ فجر الخليقة الى هذا العهد .

والجدير بالذكر أن الفتح لم تكن حركةً فحسب ، بل كانت تداخل مُجتمع في  
مُجتمعات ، هؤلاء العرب الأفتح الذين وفدوا على المدن والأمصار وحدوا أنفسهم  
بين جماعات من العرب سبقتهم إليها وتعاقبت في أفواههم العربية بمروحة بما حولها من  
لغات ، وبين جماعات من التُّجَّار وأرباب الأعمال أتوا من كل حذب وصوب ، وراحوا  
بمزحون لغةً بلغة ولساناً بلسان ، وجماعات من سكان البلاد نطقوا بالقبليَّة والفارسيَّة  
والآراميَّة واليونانيَّة وغيرها ، وراحوا يعالجون العربيَّة في جهد ومشقة ، وقد تداخل  
العرب « شعور مزيج من الحرص على العربيَّة ومن كراهة اللحن أن يُصيحها أو يطفى  
عينا ، وأصبح هذا الشعور عاطفة دينية من نحو ، وعاطفة قومية من نحو آخر ...  
ولذلك استمسكوا بالعربية ما وسعهم الاسمساك ، وحافظوا عليها قدر ما وسعتهم  
المحافظة . وجنّدوا قدرًا من اهتمامهم فيما يُسميه الأستاذ فوك « مبدأ تنقية اللغة العربيَّة  
الذي حمل راية المحافظة على خلوص اللغة » .

أضف الى ذلك أن الأعاجم أنفسهم أخذوا ينشلون هذه العربيَّة الأصيلة

١ العربية - دراسات في اللغة والنهجات والأساليب الترجمة العربية للدكتور عبد الحليم السجار  
العدد ١٩٥١ شكري فيصل المصنوعات الإسلامية في القرن الأول - القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٣٠٠ ٣٠١

ويأحدون أنفسهم والناس بها . وكان مهم جماعة تَمَكَّت من العربية كَمَسِيوِيَّة<sup>١</sup> في القرن الثاني للهجرة ، والحسن البصري في القرن الأول .

### ٣ نقل الدواوين :

والجدير بالذكر أنَّ العرب عندما استولوا على الأمصار رحوا، يستعينون بالشعوب اراقية في تنظيم الدولة والدواوين ، قال فيليب حتي : « لم يكن للعالمين الأول القادمين من الحجاز علم بالإدارة المالية وضبط الدفاتر ، فاضطروا في بادئ الأمر الى استخدام الموظفين القدماء في الشام والعراق ودرس من ألموا بأصول الدواوين وشؤونها ، إلا أن هذه الوضعية اقلبت الآن (أي في أيام عبد الملك والوليد) . ولا شك في أن أولياء الأمر من العرب احتفظوا بالموظفين غير العرب الذين كانوا قد أتقوا اللغة العربية كما احتفظوا بالنظام القديم نفسه أيضاً . ومن هنا كان الانتقال بطيئاً بطبيعة الحال ، وقد شرع به في أيام عبد الملك واستمرَّ حتى عهد الوليد<sup>٢</sup> » وهكذا نُقِلَت لغة الدواوين من اليونانية الى العربية في الشام ، ومن الفهلوية الى العربية في العراق والأمصار الشرقية ، فأتيت للغة العربية أن تزداد اتساعاً في مادتها وأساليبها . نَصَف الى ذلك أن احتكاك العرب بالتيارات الفكرية المختلفة ، وأن نشوء حركة الجدَل في القضايا الدينية وما إليها زادا في اتساع تلك اللغة حتى أصبحت شيئاً فشيئاً أداة طيعة لمعالجة جميع الموضوعات الانسانية .

١ هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، إمام الشُّعة وثُل من سبط عم الحو . وُتد لي إحدى قرى شيراز سنة ٧٦٥ ، وقُدِّمَ النُصرة ، فلمز الخليل بن أحمد فُتاه . توفي في الأهِواز سنة ٧٩٦

٢ تاريخ العرب مطوَّل — ٢ ، ص ٢٨٣ .

## الفصلُ الثاني

### الحياةُ الحديثةُ وأثرُها في الأدب

١ - فترة هدوءٍ مئوسٍ : في الفترة الأولى شمل العرب بالفتوح مركبت حركة الشعر إلا أنها هـو من شعر الفتوح والصال الديني ، وانحصر الشعر في الخطب والرسائل .

٢ - استقرار في احتلال وتنافس :

استقرّ العرب في الأمصار واحتلّوا بالسكان والبلدات ثلاث مئات . فـة للحرب ، وفـة لمعالجة العلوم والصناعة ، وفـة موالٍ اصبروا الى العوم الشرعية والعمون الأدبية .

٣ - البيئة .

في المحازز ثراء وغناء : شعر عزن ونزعة موسيقية عاثية

- في عهد اتهمال وتنافس تنافس محطدية وعدامة ، وانزال ، وسخط عى الولاء ولساعة : أم وعزل غريب .

في العراق فضال خلاف بين العرب وقارمى وأهل الشام . ثورات وقت عصية قبلية وحصومه سياسية بين الأحزاب ولعرق . تيارات فكرية محلفة . شعر فضال سياسي وفيلفي .

في الشام تادل فكري بين العرب والبصارى واليونان نتاج أدبي فضيل . أشهر الولد بن يزيد الحياة الاجتماعية :

أ الدين والسياسة :

١ - أثر الدين في الأدب : معاني تقوى وعادة ورهد

٢ أثر السياسة

شأت لأحزاب حون الخلافة أهم الأحزاب الأمويون ، والشيعة ، والموارج ، والبربريون

- لكل حزب شعرائه الذين يشرون دعوته ويدودون عى حياضه أدب الأمويين

تعير لمفهم بالخلافة ، وأدب الشيعة مطلة للحقوق في ألم وحرن ، وأدب

اخوردج عفة وإيمان ، وأدب البربريين أدب مهجاء وحاسة .

ابول : أدبهم أدب تنافس في وجه الدولة

ب أثر الثقافة :

افترق الكلامية . رادت الأدب تفصيلاً وإبراراً للصورة ، وشئت عه روح الخنكل

عمّوت الكابه الى نمط جديد مع عبد الحميد الكاتب .

ج - أثر الاقتصاد :

انتشر الترف واتسعت ضرورات الحبة مهم ، اكتسب في الشعر

## ٩. هُلُوَّةٌ مُشَوَّرٌ:

كان الأدب العربي في الجاهلية منحصرًا ضمن نطاق الشعر لا يكاد يتعداه إلى غيره من الفنون النثرية إلا لمامًا وفي غير اتساق . وقد يكون النثر الجاهلي قد فقد لضعف عوامل التدوين . ومهما يكن من أمر فللحياة الجديدة أثرٌ عميق في توسيع نطاق الأدب وتنويع أساليبه . وذلك فعلى البيئة والنباتات الفكرية والفنية والدينية ، وبفعل عوامل السياسة والاجتماع والاقتصاد . والأمر الذي نلاحظه أولاً هو أنَّ الفترة التي عقيبت ظهور الإسلام كانت فترة هدوء أدبي . وذلك أنَّ العرب شغلوا بالدين الجديد كما شغلوا بالفتوح فركدت حركة الشعر إلا فيها هو من شعر الفتوح ، وشعر تمجيد الإسلام أو التهجين عليه<sup>١</sup> . وانحصر اثر في الخطب والرسائل وما أشبه ذلك . أضف إلى ذلك أنه نشأ بين الإسلام والشعر شبه عداوة مع أنَّ محمدًا كان يقدر الشعر حقَّ قدره<sup>٢</sup> ، وذلك أنَّ مُشَرَكِي قريش اتخذوا من الشعر سلاحاً حاداً لمقاومة الدعوة وتشويه حقيقتها . وكان فيها حورب به الرسول أنه رُمي بهذا الجباب السحري أو الخيالي من حياة الشعراء أو من مفهوم الشعر في الحياة الجاهلية . وقد سهَّل للجاعة الإسلامية أن تحف هذا الموقف العدائي من الشعر أنه كان يمور بكلِّ صور الحياة الماضية التي جاء الإسلام يحاول التغطية عليها<sup>٣</sup> . أما النثر فقد كان أوفر حظاً ولا سيما وأنه وجد في القرآن توجيهاً له ، كما أنَّ السياسة وجدت فيه أداةً صالحة للتعبير عن رغباتها والوصول إلى غاياتها .

## ١٠. استقرار في اختلاط وتنافس :

وما إن انقضت هذه الفترة الأولى حتى استقرَّ العرب في الأمصار . واختلطوا بالسكان والمدنيات ، واحتكوا بالثقافات المختلفة احتكاكاً شديداً ، وتسربت إليهم عادات الفرس والروم ، ونظمهم الاجتماعية والسياسية ، ودونوا الدواوين ، ونظموا

١ قال ابن سلام . وجاء الإسلام فساءلت العرب عن الشعر ، فشدوا له بالجهاد وعزوا فارس والروم ... (اللطيفات ، ص ١٠)

٢ من الثابت أنَّ محمدًا شجَّع شعراء الأنصار وحزباً وكف بين مائت وعدائه بن رواحة في الرد على عدائه بن الزبيري وضرار بن الحطاف وعمرو بن العاص وأبي سفيان من شعراء قريش وقد جاء في الحديث : «إن من أنبياء لسحرًا وإن من الشعر لحكمة»

٣ شكري فصل . بالمعتمعات الإسلامية في القرن الأول ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩

الجيوش، وأكثروا على العلوم والفنون يشيدون منها صروحاً ذات صبغة جديدة، ويستخدمون كل ذلك في توجيه الأدب توجيهاً مزيحاً من عناصر قديمة وعناصر جديدة. ولئن قامت في البلاد قن وحروب، فما كانت لتشمل الجماعات المهاجرة كلها، بل كان المجتمع فئات: فئة للحرب والفتوح، وفئة مُستقرّة تعالج العلم أو التجارة أو الزراعة أو ما إلى ذلك، وفئة مؤلفة من الموالي الذين أبيعوا من مناصب الدولة وأنصرفوا إلى العلوم الشرعية والفنون الأدبية. وكان منهم عدد كبير من رجال الفقه وكتبه الدواوين والعلماء والشعراء. قال شكري فيصل: «كان دخول جماعة غريبة عن الأدب العربي وتلقفهم له ليس مقصور الأثر على الأعاجم أنفسهم، ولكنه أثار مثل هذه العناية عند العرب كذلك، لأنه لغتهم إلى أن يظفروا في تراثهم هذا، وأن يذكروه ويتذكروه، وأن ينسجوا على غراره. كان تنبهاً لهم واستشارة لقواهم الفنية الراكدة... ونرى أن هذا الاختلاط الذي أتاحه الفتح، وهذا التنافس بين العرب والأعاجم على مقومات الحياة العربية، دفع هؤلاء الأعاجم إلى أقصى الغايات في تلمس هذه المقومات، وإصابة أوجر الحظوظ منها، فشدوا الشعر الذي كان ذروة النحر العربي قبل الإسلام، وحاولوا أن يقولوا مثله واشتد هذا التنافس. وانقلب ذات حين إلى نوع من التفاخر بالقديم، فكان ذلك كله حافظاً للعرب على أن يتمسكوا بهذا الشعر، وأن يعودوا إليه يجددون عهدهم به، فاستيقظ وتفتح<sup>١</sup>».

### ٣ البيئة :

ويجدر بنا والحالة هذه أن نلقي نظرة ولو وجيزة، على العوامل المختلفة التي كان لها تأثير في الأدب وتوجيهه ولاسيما في عهد بني أمية، وهي تنحصر في البيئة، ومقومات الحياة الجديدة. أما البيئة فهي تنحصر بنوع خاص في الحجاز، ومجد، والعراق، والشام، لأنها كانت مسرح الحياة الأدبية والعلمية.

أ - الحجاز : رأينا ما كان عليه الحجاز في الجاهلية، وما كان من شأن اتصاله بالأمم والشعوب عن طريق التجارة. ولما ظهر الإسلام اندفق على الحجاز سيل من الثراء ومن

١. المصنوعات الاسلامية في القرن الأول، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.



أبناء الأمم المختلفة الذين حملوا معهم حضارة بلادهم وعاداتها<sup>١</sup>. وراح الحجازيون، ولاسيما أهل مكة والمدينة، يبتون القصور<sup>٢</sup> وينعمون بحياة الترف والرخاء، وراح الأمويون يُغْدِقُونَ عليهم الأموال ليصرفوهم عن الخلافة<sup>٣</sup>. وقد أغرق الحجازيون في الترف، واتخذوا الذهب والفضة لأواني ماكلهم ومشربهم، ولبسوا الحرَّ والذبيج والإستبرق والجِلل الموشاة<sup>٤</sup>، فكان الشاعر العُرجي يلبس الحلتين بخمس مئة دينار<sup>٥</sup>، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداءً عَدَنِيّ<sup>٦</sup> بألف درهم، وكان النساء يلبسن الثياب الرقيقة ويألفن في التحلي بالجواهر الكريمة<sup>٧</sup>. قال ابن خلدون: «لما ملك العرب فارس والروم استقلعوا بناتهم وأبناءهم، واستعملوهم في مهتهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقرصة عليه، فأفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفتن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفتن في أحواله، فبلغوا الغاية من ذلك وتطوّروا بتطور الحضارة والترف في الأحوال، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرُمي<sup>٨</sup>، فأتوا من ذلك وراء الغاية».

ولا عجب بعد ذلك في انصراف فئة كبيرة من الحجازيين، عهد بني أمية، إلى اللهو والغناء، وفي اتساع الأندية الغنائية في مكة والمدينة بنوع خاص؛ قال ابن خلدون: «لما جاءهم الترف، وعلب عليهم الرفه، بما حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا إلى نضارة النعش، ورقّة الحاشية، واستحلاء الفراغ، واقترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الحجار وصاروا موالى للعرب، وغنّوا جميعاً بالعيدان

١ - حاء في «فتح البلدان» للدلازني أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من مبي تيسارية وحدها - طالع «الفتحة» لابن خلدون، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

٢ - كانوا يبتون تلك القصور «الأجر» والخص والساح، وقد اشتر منها قصور عثمان وسعد ابن أبي وقاص وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وبني معاوية في مكة دوراً عُرفت بالرقط لاختلاف ألوانها ٣٨٥ م على نائها جماعة من مَهْرَة افرس. (طالع «الأعالي» ٣ ص ٢٨١، و«الحجار مكة» للأزرق ص ٣٩٢...)

٣ - طالع «الأدب السلطانية» للمصري، ص ١٤٥.

٤ - الأعالي ١، ص ٢٢١، ٢٧٨، ٣١٠.

٥ - نفس المصدر، ص ٣٩٥.

٦ - نفس المصدر، ص ٤٠٤.

٧ - الخُرُمي. «المتاع الردي»، وما يحتاج بوجه عام.

والطنائير والمعازف والزمامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات، ولحّوا عليها أشعارهم. وظهر بالمدينة نشيطُ الفارسيّ، وطُوسيّ، وسائب. وحائر مولى عبّيد الله ابن جعفر، فسمعوا شعرَ العرب ولحّوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر؛ ثم أخذ عنهم معدّ وطبقته. وابن شريج وأنظاره<sup>(١)</sup>. ولهذا عكف الحجازيون على شعر الغزل، وقويت النّزعة الموسيقية في ذلك الشعر.

ب - مجد أما مجد فقد بقيت على عاداتها الجاهلية، وضرب أبنائها في القلوات، وتقلّبهم بين أحضان الفقر. وكان نصيب التجديين من الأدب في العهد الإسلامي أقلّ مما كان في العهد الجاهليّ، وذلك لتنافس القحطانيّة والعدنانيّة فيما بينهم، وانعزالهم عن حيرانهم المتحضّرين. ولأهمّ جُعبوا مادةً لتغذية الجيوش العربية الفاتحة، كما أنهم كانوا في سخط على الولاة والسعاة الذين كانوا يجمعون الصّدقات التي فرضها عليهم الإسلام. وهكذا كان شعرهم تنقّس نفوسهم المتألّمة، كما كان «غزلاً عقيفاً» عرف لبني عذرة في بواديهم وأودية جرّارهم.

ج - العراق: وأما العراق فقد كان منذ القديم موطناً للمدنيّات، كما كان على تنافر هو والشام. ففي الجاهلية كان حليف السّاسانيين فيما كانت السلطة في الشام إلى جنب الروم. ولما سيطر العرب شبّ خلاف شديد بين العراق وفارس من جهة وأهل الشام من جهة أخرى؛ وقد أدى هذا الخلاف إلى ثورات وفتن شتّى العراقيون في وجه بني أميّة الذين جعلوا دمشق قاعدةً لأباطوريّتهم، وانتشر في العراق حزبوا الخوارج والشيعّة بما لحا من أدب وتيارات فكرية كانت تعصف لذلك أركان الخلافة الأمويّة؛ وقد أدّت هذه الفتن إلى تأريث نار العصبيّة القبليّة وروح الجاهلية، وكانت البصرة والكوفة مسرحاً لتلك العصبيّة، وكان للعرب في هذا العهد، كما في الجاهلية، أسواق للتنافر والتفاخر كالكناسة قرب الكوفة، والمربد<sup>(٢)</sup> قرب البصرة. وهكذا اتخذ الأدب

١ قال ياقوت: مرّيد البصرة من أشهر محافها وكان يكون سوق الإبل فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مباحثت الشعراء ومحالّس الخطباء. وهو الآن بائن عن البصرة بينها نحو ثلاثة أميال، وكان ما بين ذلك كلّ عامراً وهو الآن حارب. فصار المرّيد كاللدة المقرّدة في وسط البرية. وقد ذاع صيت المرّيد في عهد بني أميّة، وكان هناك حلقات لكبار الشعراء من مثل جرير والعرزوق، وكان الناس يقصدون تلك المحلّقات من جميع الواسعي. (مطلع «الأعاني» ٨، ص ٢٩، ٧٧، و ٥ ص ١٢)



دمشق ويردى عن رسم قديم

في العراق صيفتين: صبة الخصومة السياسية نتيجة الخلاف القائم بين الشيعة والخوارج من جهة والأمويين من جهة أخرى، وصبة الخصومة القبلية نتيجة العصبية التي اشتعلت نيرانها بين العدنانية والقحطانية. وفضلاً عن ذلك فقد تأثر الأدب في العراق بما كان فيه من تيارات فكرية. كما تأثر بالحضارتين الفارسية واليونانية، وأكبر فيه على الآداب العربية جماعة من الموالى فكانوا من المبرزين.

د الشام: وأما الشام فقد ساعدت مساعدة فعالة في تكوين عقلية هذا العصر. ومن أهم الذين أثروا في هذا الجانب وأعظمهم يوحنا الدمشقي<sup>١</sup>... ولا شك أنه نقل إلى العرب كثيراً من النزعات النصرانية والأفكار الإغريقية<sup>٢</sup>. وكلّ الدلائل تدلّ على أنّ العرب في الشام كما أقبلوا على يوحنا أقبلوا على كلّ ما كان هناك من عناصر عقلية وخالد بن يزيد بن معاوية خير من يَصوِّر لنا ذلك، فقد تلمذ لراهب يسمّى مريانس، وأخذ عنه صنعة الطب والكيمياء... ولا شكّ في أنّ خالدًا إما هو رمزُ

١ يوحنا الدمشقي من أركان الفلسفة المسيحية. وهو واضع أول «حلاصة لأهوية»

٢ طالع وتاريخ العرب - مطول - لفيليب حتي ٢ ص ٣١٤

للحركة الكبيرة التي قامت في الشام وما شاع فيها من تبادل هذه السلع العقلية . يعطي العرب شعورهم وقراءتهم وحديث رسولهم ويأخذون الفلسفة اليونانية والأفكار المسيحية ، ويتأثرون أثناء ذلك بما كان شائعاً هناك من تشريع بيزنطي ومن نظم إدارية في الدولة ونظم حربية أيضاً<sup>١</sup> . وإذا انتقلنا إلى الأدب رأينا أن الشام دون العراق نتاجاً ، وإن سمعت هنالك شعراً فهو من عمار العراق ، وقد وافى دمشق لمذح الخلفاء ، أو هو من نظم الوليد بن يزيد ، الذي تأثر بحركة الحجاز الغنائية ، وضرب على آلات الموسيقى ، وقال الشعر للفتاء في موضوعات الحب والحمر وما إلى ذلك .

#### ٤ الحياة الاجتماعية :

تلك كانت البيئة التي نشأ وازدهر فيها الأدب الإسلامي ، وتلك هي النزعات المختلفة التي نزعها الأدب بفعل تلك البيئة . وأما الحياة فهي ذات مقومات متعددة ترجع إلى ما نسميه الاجتماع ؛ فالحياة الاجتماعية هي جميع المظاهر التي تكون فيها الجماعة متفاعلة مع الأفراد ، والأفراد متفاعلين مع الجماعة ، وهي ترجع إلى الدين ، والسياسة ، والثقافة ، والاقتصاد .

أ- الدين والسياسة . ومما لا شك فيه أن الحياة الدينية كانت ذات أثر فعال في الأدب إذ أكسبته معاني التقوى والعبادة والعمل الصالح وحملت عدداً من الناس على الزهد وعلى الوعظ والإرشاد ، وطبعت نفسية كثير من الشعراء بطابع الروحية التي تتجلى في دواوينهم ، وإن كانوا من ذوي المجون والاستهتار . والحياة الدينية شديدة الصلة بحياة السياسة التي جعلت الناس ، في شأن الخلافة ، فِرَقاً وأحزاباً أهمها الأمويون ، والشيعة ، والحوارج ، والزيريون .

١. الأمويون : أما الأمويون فهم أصحاب السلطة القائمة ، وإليهم ينتمي السواد الأعظم من الناس . وخلاصة آرائهم أن الخلافة حق لهم مقدس ، وهي مواصلة وتمة

لخلافة عثمان بن عفان<sup>١</sup> الأموي الذي قتل ظلماً ومن ثم معاوية وولاه خلفاء الله في الأرض<sup>٢</sup> وال خليفة إمام لا بد من طاعته . ولما كان الأمر كذلك راح الولاة والقادة والأنصار يدعون لبني أمية ويواجهون الناس بهذه الآراء وهذه الحجج ، وقام عدد كبير من الشعراء بساندون الولاة والقادة والأنصار ، من أمثال الأخطل ، والأحوص ، والقطامي ، وأعشى تغلب ، وعدي بن الرقاق العاملي ، وقد أحدث الشعراء ضجة كبرى في البلاد ، وهم ينادون بحق بني أمية بالخلافة ، ويصبغون القول بصبغة الدين ، فيقيمون الصلة بين سلطانهم وإرادة الله ، ويوقون بأن الله اختار بني أمية وفصلهم على غيرهم في إرث النبوة ، ويصفون عليهم جميع الصفات الروحية التي تضيفها الشيعة على الأئمة<sup>٣</sup>.

٢ الشيعة : وأما الشيعة فكانوا يطالبون بالخلافة لعلي وآله ، إذ إن علياً من بني هاشم أولى الناس بالخلافة . وقد انتشر هذا الحزب في العراق انتشاراً شديداً ونحطى الحدود إلى خراسان وغيرها من البلدان ، وقد قل أتباعه « ان السي أوصى لعلي بالخلافة من بعده ، فكان وصي رسول الله ، فعلي ليس الإمام بطريق الانتخاب ، بل بطريق النص من رسول الله ، وعلي أوصى لمن بعده ، وهكذا كل إمام وصي من قبله ... » وقد أثارهم هذا النظر إلى أمور منها القول بعصمة الأئمة علي ومن بعده ، فلا يجوز الخطأ عليهم ، ولا يصدر منهم إلا ما كان صواباً ، ومنها رفع مقام علي عن غيره من الصحابة حتى أبي بكر وعمر<sup>٤</sup> . ولما كان الأمر كذلك كان الاعتراف بالإمام والطاعة له من

١ - وهكذا جعل بنو أمية فكرة الزرارة في أساس الخلافة ، وغرخوا عن الفكرة الإسلامية الأولى . وذلك أن محمد نبي ولم يبين من خلفه ، ولم يبين كيف يكون خضاره . موقع المسلمون الأولون في حيرة واجتمعوا في سقعة بني ساعدة لينظروا في الأمر ، فشعبت الآراء . وقام الخلاف بين الأنصار ومهجرين وجماعة علي من أبي طالب ولم يكن هنالك على كل حال فكرة ورثة كما بعدها بنو أمية

٢ - قال زيد ابن أبيه في حطته « الفراء » . وأيا الناس ، إننا أصبحت لكم ساسة ، وعكم زادة لسوكم سلطان الله الذي أعطاكم ، وتودون عنكم بئى الله الذي حوينا<sup>٥</sup>.

٣ - لقد حصل هذه الآراء شرقى ضيف في كنده « التطوير والتجديد في شعر بني أمية » ص ٧٠ - ٧٤ .

٤ - أحمد أمين : فخر الإسلام ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨

واجبات المؤمنين وقد تعددت فرق الشيعة فكان منها الاثنا عشرية<sup>١</sup>، والإسماعيلية<sup>٢</sup>، والكيسانية<sup>٣</sup>، والزيدية<sup>٤</sup>، وغيرها. وهذا الحزب وقف في وجه بني أمية على أنهم معتصون ظالمون، وكان رهيب اجانب. فحدره الأمويون، وبثوا عليه العيون والأرصاء، واضطهدوه اضطهاداً شنيعاً، فدرسوا لحسن حتى طعن بخنجر في جنبه، ثم قتلوا الحسين في وقعة كربلاء، ثم تبعوا أهل البيت يستذلّونهم ويهينونهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم على الظنة، وكلّ من عرف بالشيعة لهم سجنوه، أو نهبوا ماله، أو هدموا داره، ولما جاء الحجاج قتلهم كلّ قتلته، وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال له شيعة علي<sup>٥</sup>. وكان للشيعة شعراء بسطون تعاليمها، ويدودون عن حياضها في ألم يحزّ في النفس، وحزن يحرّك القلب.

٣ الخوارج فكانوا فرّعين: فرعاً بالعراق اتخذ «البطائح» قرب البصرة مركزاً له. واستولى على كرمات وبلاد فارس، واشتهر من رجاله نافع بن الأزرق، وقطري بن الفحاة، وفرعاً بجزيرة العرب استولى على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف، واشتهر من أمرائه أبو طالوت، ومجدة بن عامر. وخلاصة آرائهم «أنّ الخلافة يجب أن تكون باختيار حرّ من المسلمين، وإذا اختير فليس يصحّ أن يتنازل أو يحكم، وليس ضروري أن يكون الخليفة قرشياً، بل يصحّ أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً، وإذا تمّ الاختيار كان رئيس المسلمين، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله وإلّا وجب عزله<sup>٦</sup>». وقد خرج الخوارج على بني أمية وناهضوهم

١ الاثنا عشرية فرقة تُسلسل الأئمة إلى اثني عشر إماماً (طالع «نيل والبحل» للشهرستاني ١، ص ٢٨٠).

٢ الإسماعيلية فرقة تقف «الأئمة» عند إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد عرفت أيضاً بالطائفة (الشهرستاني ١، ص ٣٣٠).

٣ الكيسانية. أصحاب كيسان «ولي عي بن أبي طالب» (الشهرستاني ١ ص ٢٣٥).

٤ الزيدية أتباع زيد بن الحسين بن علي، ساقوا الإمامة في أولاد وطمة، (الشهرستاني ١، ص ٢٤٩).

٥ - أحمد أمين عبر الإسلام. ص ٢٧٤.

٦ - أحمد أمين عبر الإسلام. ص ٢٥٨، ٢٥٩.

الى آخر عهدهم، واشتبكوا مع الحجاج في حروب كثيرة. والتوارج حزبٌ فدائيٌّ  
وشرعهم هو شعر العقيدة والإيمان.

٤. الزبيريون: وأما الزبيريون أتباع عبد الله بن الزبير فكانوا يرون أن تعود الخلافة  
الى الحجاز وأن يتولّاها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية. وقد استمر هذا  
الحزب نحو ثمانين سنوات ولذلك كان أضعف الأحزاب في هذا العصر من حيث تمثيل  
فكرته في الشعر، وأكثر ما تكون حوله من شعر نحده في حروب القيسية واليمانية في  
الثام... وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم، وإنما هو هجاء وحساسة على نحو ما كان  
الشعر في العصر الجاهلي<sup>١</sup>.

والى جنب هذه الأحزاب التي نشأت حول الخلافة نجد الموالي الذين استطاع عليهم  
العرب، وعدوهم دونهم دماً ولفةً وأدباً وخلقاً، واعتزوا بعروبهم التليدة بتخلقها  
وبيانها، والطريقة بالإسلام ودولته الغالبة. وقد تولد في نفس الموالي من جراء ذلك تيار  
عكسي، فأخذوا على العرب خروجهم على أصول الإسلام الداعي الى المساواة،  
وراحوا يفتخرون بمجدهم وحضارتهم، وينعون على العرب سوء حالهم. فهم بأنفوس من  
الدولة التي لم تف بوعدها في إقامة المساواة والعدل الاجتماعي، ويشملون بنقمتهن شيئاً  
فشيئاً الذين، واللغة، والجنس، والأدب، ويسعون في إرجاع الدولة الفارسية. ومن  
شعرائهم اسماعيل بن يسار، ويزيد بن ضبة.

ب. الثقافة: أضف الى ذلك كله أنه نشأ في ذلك العهد تيار ديني ثقافي يعنى  
بتفسير القرآن ورواية الحديث، كما يعنى بوضع قواعد الفقه الإسلامي، ونشأ عن ذلك  
فرقٌ كلامية كالمرجئة<sup>٢</sup>، والجبرية<sup>٣</sup>، والقدرية<sup>٤</sup>، وغيرها، كان فيها بينها مناظرات

١ شوقي صيف: التطوير والتجديد في الشعر الأموي، ص ٦٠.

٢ - المرجة: جماعة كانوا يؤخرون العمل عن الله والقصد، وكانوا يعمرون. لا يصح مع الإيمان معصية كما لا  
يصح مع الكفر طاعة. وقد سُموا والمرجة لأنهم يرجئون (أي يؤخرون) أمر هؤلاء المتهلكن الذين سلكوا الدماء الى  
يوم القيامة. فلا يحكمون على هؤلاء ولا هؤلاء.

٣ - الجبرية: فرقة تدعى الى أن الإنسان مسير في أعماله لا غير، فقد قدر الله عليه أعمالاً لا بد أن تصدر عنه  
وان الله يحسن فيه الأعمال كما يحسن في الخاد، وهي تنسب الى فاعلها محازاً

٤ - القدرية: فرقة تقول بحركة الإرادة في الإنسان فهو ذو قدرة على أعماله.

وجدلٌ وحوارٌ، وكان لتلك المناظرات أثرٌ في الشعر لذلك العهد، إذ زادته تفصيلاً وإبرازاً للصورة، وإذ أشاعت فيه روح الهجاء الجدلي الذي يتجلى لنا في النقائض. هذا وقد عملت الثقافة الفارسية وأساليبها في العقل العربي بفضل الاحتكاك والاختلاط. قال أحمد أمين: «يظهر لنا أنه في أواخر عهد الدولة الأموية حوّل الفرس الكتابة العربية إلى نخط آخر لم يكن يعرفه العرب، وهو نوع الكتابة التي اشتهر بها عبد الحميد الكاتب ومدرسته»<sup>١</sup>.

جـ - الاقتصاد: وإذا انتقلنا إلى العامل الاقتصادي وجدنا أنه لم يكن أقلّ من العوامل السابقة أثراً في أدب هذا العهد. فإن امتداد الدولة حسن أحوال العرب الاقتصادية. فعمّ الترف وانتشر معه اللّهو والغناء ولا سيما في الحجاز والشام، وقد اهتمّ خلفاء بني أمية، ولا سيما يزيد بن عبد الملك، للمغنين والمغنيات، وراحوا يذلّون الأولوف لاستخدامهم من الحجاز وأطراف البلاد، وراح الشعراء ينظمون الشعر في خدمة الغناء. ويضمنونه معاني الحب والغرام، ويوقعونه على أخفّ وزن وأسلس عبارة، وهكذا تحوّل الشعر العربي في الحجاز والشام، هذا العصر، من قصائد إلى مقطوعات تُقال في المرأة لتعبّر عن حركات ووقائع وجدانية حاضرة<sup>٢</sup>. وابتدأت الترف اتسعت ضرورات الحياة فراح الشعراء يقصدون الخلفاء والولاة للاستجداء والتكسب فشاع المديح والهجاء وراجت سوقها أيها رواج، فللمديح لأصحاب الكرم والجود، والهجاء لأصحاب البخل والاقتصاد. «ومن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأموية، واحتلّ جوانب غير قليلة منها، فقد كان أساسياً في حياة الناس، فطبيعاً أن يكون أساسياً في فنهم وشعرهم»<sup>٣</sup>.

١ - فخر الإسلام، ص ١٢٢ - ١٢٣

٢ - شوقي ضيف: التطور واتحدت في شعر الأموي، ص ٧٧.

٣ - المصدر نفسه، ص ٤٩



## مصادر ومراجع

- فيليب حني: تاريخ العرب — مطبوع — الحزآن الأول والثاني بيروت ١٩٥٨ .  
 أحمد أمين: فجر الإسلام القاهرة ١٩٥٩ .  
 شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، الحزآن الأول والثاني القاهرة ١٩٥٢  
 شوقي ضيف  
 التطور والتجديد في الشعر الأموي. — القاهرة ١٩٥٢ .  
 الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية — القاهرة .  
 جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي الجزء الأول القاهرة ١٩٥٩ .  
 محمد عد المنعم حناجي: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام — القاهرة ١٩٤٩  
 عبد الرزق حميدة: أدب الخلفاء الأمويين — القاهرة .

H. Lamrous: Etudes sur le siècle des Omayyades, Beyrouth 1930



# الباب الثالث النثر الإسلامي الفصل الأول نظرة عامة

- ١ أدب مطبوع . تلَوَّنَ النثر في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان حطاطاً ، وكتانه ، ورسائل وعهوداً ، وقصصاً ، ومناظرات ، وتوقيعات ، وكان على كلِّ حال أدباً مطبوعاً
- ٢ إيجاز : وانتار .نثر في هذا العهد بالإيجاز على سبيل الطبيعة العربية الأصلية .
- ٣ توجيه تفصيلي : ولكن الأحوال الاجتماعية والسياسية أحدثت تَعَمُّدَ وأصبح الناس بحاجة إلى شرح وتفصيل ، فأتى النثر نحو التفصيل والتطويل ، وأصبح شيئاً فشيئاً مهيناً للقصيف .

## ١ - أدب مطبع :

لم يكن للنثر في الجاهلية ما كان للشعر من شأن ومكانة ، ولما ظهر الإسلام واتسع نطاق الحُكْم العربي تعقدت مصالح الدولة ، وأصبح النثر وسيلة التعبير في العلاقات القائمة بين الحكام والمحكومين ، والرؤساء والمرؤوسين ، ولذلك تلَوَّن بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة ، وكان كتابة ، وكان رسائل وعهوداً كما كان أخيراً قصصاً ومناظرات وتوقيعات . والجدير بالذكر أنَّ هذا الأدب النثري كان ، في مرحلته الإسلامية الأولى ، ريبب الخلفاء والأمراء والولاة يستعملونه لإحكام ما بينهم وبين الناس من صلات ، وكان في أسلوبه التعبيري امتداداً للنثر الجاهلي واحتذاء للقرآن ، بنيت على أصالة عربية في نزعة إيجازية وتوجيه اجتماعي . فصل ذلك الدكتور شكري فيصل بطريقة قيمة ، قال : ه كان الأدب العربي في هذه الفترة أدباً مطبوعاً لا تصنع فيه ولا تكلف معه ... نحن ننفي عنه العفوية المطلقة ، ولكننا كذلك ننفي عنه التصنع المتكلف ... كان أدباً تصطنعه المواهب النفسية في حدود قدراتها ، لا تتكلف أن تشحذ هذه القدرات ولا أن تُصيف إليها ، وكانت تتعاون عليه طاقات الأدباء الداخلية ولكنهما

كانت لا تتوى أو تتعقد في سبيل إنتاجه... ولذلك قرأ هذا الأدب فُحَسَّ الانسياب والتدفق ونشهد كأنما تجري مع دفقة الماء في مجرى سهل... ليس هنالك هذه القسوة في التعبير، ولا هذه الجفوة في الصور، ولا هذا القصد القاصد الى نحو من أنحاء القصيدة أو الخطبة في صورها أو أساليبها أو ربيتها... وحتى في المعاني لم يكن الأدباء ليُكَلِّمُوا على المعنى فقد كان الإيجاز يسبقهم فيحول بينهم وبين هذا الإلحاح... لقد كان الأدب العربي في هذا الدور أدب أداء، وكان النثر أشدَّ حرصاً على التعبير، أعني على الإفهام... لم يكن في هذا الدور إذن أدب تطنى عليه فنية مصطنعة، وإنما كان هناك هذا التفنن الطبيعي الهادئ الذي لا نحسُّ معه جهد الأديب ولا اعتصار قواه، وكان هذا اهدوء والطبيعة والقصد الى الوضوح وحسن الأداء من كمال التفنن ومن مقاييسه الصحيحة الأولى. ومن هنا استطعنا أن نقول إنه أدب مطبوع.

#### ٤ إيجاز:

والطابع الثاني الذي يغيب على النتاج الأدبي ويسميه هو هذا الإيجاز... وفي التعرف الى مصادر هذا الإيجاز نستطيع أن نتبين أمرين اثنين: أما أحدهما فذلك أن الأدب العربي الجاهلي كان يعتمد على الإيجاز ويؤمن به ويلتزمه، ولذلك امتدَّت به هذه الصفة في حياته الجديدة في أعقاب الفنون الإسلامية. وأما الثاني فذلك أن الحياة الإسلامية نفسها، أول عهدها بالتفتح، كانت توحى به وتدعو إليه. ذلك أنها حياة كانت تقوم بالعرب، والعربي يؤمن باللمحة الحاطفة وتُمنعه الكلمة السريعة، ويعوّضه صمت الصحراء وامتداد الصدى فيها عن امتداد الصدى بالحديث. وكانت كذلك حياة منطلقة مُعَجَّلة، من أمامها وورائها هذه الأعباء الثقالة، أعباء الفتح وما يقتضي هذا الفتح من إدارة وصلات سياسية وحكم. وحياة كهذه الحياة لم تكن لتسمح قطّ بالإطالة أو التمهّل أو تشقيق الكلام، وإنما يبدو أنها كانت تدفع الى هذا الإيجاز دفْعاً، وتضطرّ إليه اضطراراً. ولم يمتدّ التطويل الى الحياة الأدبية لأن الحياة الاجتماعية لم تكن تساعد عليه، فلم يكن هنالك كثير من التعقيد، ولا كثير من الاتواء. ولم يكن هنالك ما يضطرّ منه المبدع أن يسرف في بيانه، والمتحدث أن يُسهب في حديثه... وكان الأدب الى ذلك غاية اجتماعية وغرضاً أصيلاً في حياة الجماعة، تتخذ منه

سبيلها الى تأييد دعوتها وتأكيد ذاتها وتأييد أغراضها الكبرى... ولقد كان الأدب الشعري والأدب النثري سواء في ذلك... ولسنا بحاجة الى أن نمثل للنثر فقد كان الخلفاء والقواد والولاة هم أعلام هذا النثر الجديد. ومن الواضح أن الموضوعات التي كان يلور عليها أدب هؤلاء الخلفاء كانت من صميم الحياة الاجتماعية والسياسية للجماعة الإسلامية الجديدة، وكان هذا الأدب تعبيراً عنها وتصويراً لمثلها، وحشاً على غايتها ودفعاً للناس في طريقها المستقيم. وليس أدل على ذلك من أن نقرأ في أي كتاب من المجموع الأدبية خطب أمراء المؤمنين هؤلاء، وكتبهم الى ولائهم ورسائل ولائهم إليهم لتذكر أي استجابة عميقة للتوجيه الإسلامي مضى فيها النثر العربي في هذه الفترة<sup>١</sup>.

### ٣ توجيه تفصيلي:

وكانت الفترة الثانية، وكان العهد الأموي، وأصبح الناس بحاجة الى شرح وتفصيل ولا سيما وانهم خالطوا الأعاجم، ولا سيما وان الأعاجم أنفسهم أخذوا بالدين الجديد كما أخذوا باللغة العربية. وهكذا من امتداد سلطان العرب، وامتزاجهم بغيرهم من الأمم الراقية في الحضارة، ومن أخذهم بقسط وافر من التحضر والثقافة، وتنظيم حكومتهم، وتعدد دواوينهم وصناعاتهم، وامتداد تفكيرهم، انهم تضافروا مع الموالي، مستعنين بما هؤلاء من أساليب في لغاتهم، فضموا الى أساليب العرب ووجه أدايمهم، ووجهوا النثر العربي توجيهاً جديداً هو التوجيه التفصيلي، يمحزهم في عملهم ما كان للنولة من حاجة الى تفصيل الرسائل وإيضاح العهود. فوسعوا نطاق النثر، وأخضعوه لكل الأفكار والمعاني في مختلف أجزائها، وترابط عناصرها، في اتحاد أصولها وتشعب فروعها، وهياؤه للتصنيف بجميع أنواعه. وقد يكون أول من ظهر تفوقه في الكتابة التفصيلية هذه أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك، وكان يجيد العربية واليونانية، ثم تلميذه عبد الحميد الكاتب (٧٥٠ م / ١٣٢ هـ) الذي يعد زعيم الكتابة لأنه قد يكون أول من وضع للكتابة الأصول والقواعد وأخذ الكتاباتب باتباعها. وهكذا

تدرّجت الكتابة في التائق وأساليب البيان والصنعة والإطناب ، فكانت الظاهرة الأولى هي التطويين وما يُطوى فيه من صعة في بسط التعبير ومدّه ، ثم العناية باختيار اللفظ اختياراً لا يخلو من مبالغة ، والعناية بالأسلوب للملاعة بين ألفاظه ملاعة تخرج به الى ضروب من الترادف الصوّني<sup>١</sup>.



١ طالع كدنا «تاريخ الأدب العربي» ، طبعه الثانية ، ص ٣٣٧ . ٣٣٨ .

## الفصل الثاني القرآن الكريم والحديث الشريف

1 القرآن الكريم:

١ مضمون القرآن معالم الإسلام .

١ المقاليد : الله إله كل شيء . وهو واحد أحد ، ومصدر الوحي ، ووراء هذه الحياة حياة أخرى ..

٢ الأهل : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، وحج البيت

٣ الأخلاق : تعليم آداب السلوك ، والوفاء ، والعدل ، والمعروف عند المقدرة .

٤ - أثر هذه المعالم في العرب : دعت مستواهم العقلي ، وغيّرت قيمة الأشياء في نظرهم .

٥ ملاحظته .

١ - أسلوبه : سجع خاص ، ومؤسقى حاشية

٢ - ملاحظته : روعة فنّ ومنهج بيان .

٣ أثره في عالم الأدب : وحد اللغة العربية وحفظها ووسّع نطاقها ، ولجّنها وهذب ، وكان أسس

العلوم الشرعية والسياسة . هو مثال أعنى في البلاغة والبصاحة

ب الحديث الشريف:

١ ما هو الحديث : الحديث أو السنة ما ورد عن النبي من قول أو فعل أو تقرير . وصُمم إلى

الحديث ما ورد عن الصحابة أيضاً

٢ - تدوينه : دُوّن منذ القرن الثاني للهجرة ونُسخي ممّا أُلّمّ به ، وميّز صحيحه من فاسده

٣ - أثره في العالم الإسلامي : أكبر الأثر في نشر الثقافة المتعددة الأنواع ، وكان الحديث أوسع مدّة

للعلم والثقافة في ذلك العصر .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ  
 وَمَنْ يَزَعِمْ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ  
 يَتَّبِعْ مِلَّةَ الْكَلْبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْفَالَسِ  
 وَمَنْ يَزَعِمْ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ  
 يَتَّبِعْ مِلَّةَ الْكَلْبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْفَالَسِ  
 وَمَنْ يَزَعِمْ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ  
 يَتَّبِعْ مِلَّةَ الْكَلْبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْفَالَسِ  
 وَمَنْ يَزَعِمْ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ  
 يَتَّبِعْ مِلَّةَ الْكَلْبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْفَالَسِ  
 وَمَنْ يَزَعِمْ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ  
 يَتَّبِعْ مِلَّةَ الْكَلْبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْفَالَسِ  
 وَمَنْ يَزَعِمْ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ  
 يَتَّبِعْ مِلَّةَ الْكَلْبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْفَالَسِ

صلحة من القرآن الكريم.

## أ - القرآن الكريم

١ مضمونه . تعاليم الإسلام :

في القرآن الكريم تعاليم عقائدية وأخلاقية تُلخصها عن كتاب « فجر الإسلام »  
 لأحمد أمين قال :

١ العقائد : « أهم أصل من أصول الإسلام الاعتقاد بالله ، والاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، فلا تكاد تخلو أمة متبدية أو متحضرة من اعتقاد بالله . ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الإله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، والإسلام يصف الله بأوصاف تلخصها عما ورد في القرآن ، فهو ليس إله قبيلة ، ولا إله أمة العرب وحدهم . ولا إله الناس وحدهم ، بل هو إله كل شيء « رب العالمين » . وكل شيء في الوجود مخلوق له ، وخاضع لأمره .

وكل شيء من مظاهر الكون فعه صدر . قد أحاط علمه بكل شيء ، وأحاطت قدرته بكل شيء .

وهو إله واحد ، فليس هناك إله للخير وإله للشر ، وليس هناك إله للجمال وإله للرياح ، وليس هناك من يشاركه في ألوهيته .

قد اختار أفراداً من خلقه واتصل بهم بما يُسمى «الوحي» ، ومن هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم . والغرض من هذا الوحي تعليم الرسول الناس ما يعلمه الله له لهدايتهم إلى الخير .

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى ، ويومها يوم القيامة ، واليوم الآخر ، ويوم الحساب ، ويوم الدين . وهذا اليوم هو يوم المثوبة على العمل الصالح ، والعقوبة على العمل السيئ ، وكل عمل أتاه الإنسان يُسجل عليه ، ثم يُقدّم له يوم القيامة . وقد جعل للمثوبة والعقوبة داران : دار المثوبة وهي الجنة ، ودار العقوبة وهي النار . وقد جعل في الجنة نوعان من الثواب : نوع من اللذائذ الجسمية . ونوع روحي وهو رضا الله والقرب منه ، وكذلك دار العقوبة نار حامية ، وسخط من الله وغضبه .

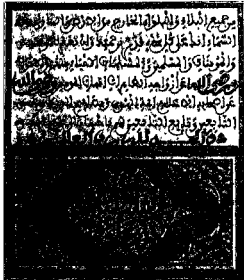
وراء هذا العالم المادي عالم آخر روحي وفيه نوعان من الأرواح : نوع خير يطيع الله ما أمره ، ويجذب نفوس الناس إلى الخير ويسمى الملائكة ، ونوع شرير يستغوي النفوس إلى الشر ويسمى الشياطين .

٢ الأعمال : هناك أعمال يجب على المسلم أدائها ، وهي أساسية كالعقائد . وهي : الصلاة ، ويقصد بها أن تكون مظهراً من مظاهر الإخلاص لله ، وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الإجلال له . والزكاة : وهي أن يؤخذ من مال الغني للفقير وللصالح العام ، ثم صوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

٣ الأخلاق : في القرآن من الأخلاق نوعان : نوع هو علم لأداب السلوك . ونوع آخر هو أسمى ما تدعو إليه الأخلاق : وفاء بالوعد ، وصبر في الشدائد . وعمل مع من أحببت أو كرهت ، وعفو عند المقدرة ، وعفة في غير توثت .

هدم الإسلام الوحدة القبيّة ، والوحدة الجسديّة ، وكره التفاضل بشرف القبيلة أو





صفحة من القرآن الكريم.

شرف الجسـ . وعلم أن معنـي الإسلام كـنهم كتلة واحدة . لا تفاضل بين أفرادهـ إلا بطاعة الله وتنفيذ أمره .

حتم الطاعة لله . والطاعة للرسول ، والطاعة لأولي الأمر في الأمة ما أطاع وبـي الأمر أوامر الله .

٤ . أثر هذه التعاليم في العرب : لا شك أن هذه التعاليم رفعت المستوى العقلي للعرب إلى درجة كبرى ، فهذه الصفات التي وصف الإسلام بها قلوبهم - من عبادة أصنام وأوثان ، وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر وإسفاف في الفكر - إلى عبادة إله وراء المادة « لا تُدرَكه الأبصار » وهو يُترك الأبصار . وكان الإله عد أكثرهم إله قبيلة وإن اتسع سلطانه فلاه قبائل أو إله العرب ، فأبانه الإسلام إنه العالمين ومدبر الكون ، وبيده كل شيء ، وعالمًا بكل شيء ، فاستطاع العربي بهذه التعاليم أن يرتقي إلى فهم إله لا مادة له ، واسع السلطان ، واسع العلم ...

كان للإسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء والأخلاق في نظر العرب . فارتفعت قيمة أشياء ، وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرهم بالأمس ...

وبعد ، فإلى أيّ حدّ تأثّر العرب بالإسلام ؟ وهل أمّحت تعاليم الجاهلية ونزعات الجاهلية بمجرّد دخولهم في الإسلام ؟ الحق أن ليس كذلك . وتاريخ الأديان والآراء يأبى ذلك كلّ الأبناء ، فالنزاع بين القديم والجديد ، والدّين الموروث والحديث ، يستمرّ طويلاً ، ويحلّ الجديد محلّ القديم تدريجاً ، وقل أن يتلاشى بتاتاً ، وهذا ما كان بين الجاهلية والإسلام . فقد كانت النزعات الجاهلية تظهر من حين إلى حين وتحارب نزعات الإسلام ، وظلّ الشّأن كذلك أمداً بعيداً .

جاء الإسلام يدعو إلى محو التعصّب للقبيلة ، والتعصّب للجنس ، ويدعو إلى أنّ الناس جميعاً سواء ... وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار بعدما كان بين المكّيّين والمدنّين من عدااء ...

ومع كلّ هذه التعاليم لم تمت نزعة العصبية ، وكانت تظهر بقوة إذا بدا ما يبيحها ...

ولما ولي الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى حياها كما كانت في الجاهلية ، وكان بينهم وبين بني هاشم في الإسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية ، افتخر الأمويون بالدهاء والحلم وكثرة الخطباء والشعراء ، وردّ عليهم بنو هاشم يكاثرهم في ذلك ، وكان جداهم ومفاخرهم صورة صادقة للمنافرة في الجاهلية ، وعاد النزاع في الإسلام بين القحطانية والعذنانية ، فكان في كلّ قطر عدااء وحروب بين النوعين ، واتخذوا في كلّ صقع أسامي مختلفة ، ففي خراسان كانت الحرب بين الأزديّين وتميم ، والأولون يميون والآخرون عذنانيون ، وفي الشام كانت الحرب بين كلب وقيس ، والأولون يميون والآخرون عذنانيون ، ومثل ذلك في الأندلس ، ومثل ذلك في العراق ...

وأنت إذا نظرت إلى الشعراء في بني أميّة ، وجدت فيهم هذا المعنى واضحاً حتّى قال الشعراء انحازوا إلى قبائل ، ثم أخذوا يشيرون بذكر قبائلهم ، ويبيجون غيرهم شأن شعراء الجاهلية . ولعلّ أصدق مثل لذلك ما ترى في هجاء جرير والفرزدق والأخطل .

ليست ناحية العصبية هي وحدها ما يظهر لنا في عهد الإسلام من نزعات جاهلية فهناك نزعات أخرى لا تقلّ عنها وضوحاً .

من ذلك حروب الردة . وذلك أن كثيراً من قبائل العرب عدوا دفع الزكاة للخليفة ضربة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا إليها نظراً إلى قبيلة تسلط على أخرى ، وتضرب عليها الإتاوة ، فانتزوا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبروا عن شعورهم الجاهلي برفض دفعها لأبي بكر .

أضف إلى ذلك ، أن بعض المسلمين - وخاصة من سكان البادية - كانوا يتزعون في معيشتهم الاجتماعية النزعة الجاهلية من مهاجرة وحمية وشراب ونحو ذلك ...

بل كثير من شبان بني أمية ، وبعض شباب بني هاشم كانوا يعيشون عيشة هي إلى الجاهلية أقرب منها إلى الإسلام ، شراب وصيد وغزل ، كيزيد بن معاوية وصحبه ، فقد حكى السعدي «أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب . وفي أيامه ظهر العناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وغلب على أصحاب يزيد وعاله ما كان يفعله» ...

بجانب هذا ترى قوماً صيغهم الإسلام صيغة جديدة ، حتى انقطعت الصلة بينهم جاهليين وبينهم مسلمين ، كالذي ترى في سيرة أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة ، وروح وزهد وتواضع ، والتزام شديد لأوامر الدين ، وحياة لا تستطيع أن ترى فيها مأخذاً جاهلياً ينفي الإسلام ، وتجد في خطبهم وكتبهم وأقوالهم أثر الإسلام بيتاً ، حتى كأنهم خلقوا في الإسلام خلقاً جديداً ...

إذن كان في العصور الأولى للإسلام نزعات جاهلية ، ونزعات إسلامية ، كانت تسير جنباً إلى جنب ، والذي يظهر لنا أن النزعة الجاهلية أثرت في الأدب الأموي وخاصة الشعر أكبر أثر ، فالملأى الجاهلية ، والهجاء الجاهلي ، والفخر الجاهلي ، والحمية الجاهلية . كلها واضحة أجلى وضوح في الشعر الأموي . فأما النزعة الإسلامية فظهرت في العلوم الشرعية ، فقد أقل المسنون على القرآن يتدارسونه ، والحديث يجمعونه ، ويستمتون منها الأحكام ، ويستخرجون المواعظ

٢ - بلاغته :

أسلوبه : قال محمد صبيح فيما يتعلق بأسلوب القرآن :

« لم يلزم القرآن أسلوباً واحداً من أساليب الأداء. »

فقد ذكرنا أن آيات القرآن المكي، قصيرة، وأنها عيفة للهجة، حادة الألفاظ، ذات تأثير خطائي يهز الأسماع والنفوس. وقد كان النبي في بدء دعوته، ومدة مقامه بين أعداء لا يهدأون ولا يبينون في حاجة إلى أن يترجم القرآن في أسلوبه عن حالته النفسية. »

وهناك رأيان حديثان تناولتا بحث أسلوب القرآن :

أحدهما للدكتور طه حسين يقول فيه أن الكلام يقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن. وهو بهذا يرى أسلوب القرآن ينحى نهجاً خاصاً به لا هو بالشعر ولا هو بالنثر، ولكنه قرآن، وذات أن القرآن عنده لا يوضع لقواعد النثر ولا لقواعد الشعر، ولكن به موسيقى خاصة به، تحسها في تركيب ألفاظه وفي تنافع آياته.

ويعارض هذا الرأي الدكتور زكي مارك، ويؤكد في كتاب النثر العربي أن القرآن نثر عربي. بل هو أثر أدبي يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التي حامت بعده، ويشتمل بالصفات الآتية :

أولاً - حلوه من الشعر الموزون تنوعاً تاماً، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر.

ثانياً - نظام الآيات الذي يسمح في الغالب بوقف كامل تستريح عنده نفس القارئ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام اسجع الذي أثر عن الحاهليين وشاع بعد الإسلام.

ثالثاً - ضرب الأمثال وسوق القصص، وتكرار القصّة الواحدة كلياً دعت مناسبة.

رابعاً - الانتداه بألفاظ غير معهومة مثل آلم. حتم. ص

خامساً - نظم القرآن الغدائي.

سادساً - لا يلزم القرآن السجع فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة، وقد نجد صحفاً مسجوعة من السور الكبار، ولكن ذلك لا يتّقد فيه، وكثيراً ما يتقل من السجع إلى الكلام المرسل.

بلاغته : هذا بعض ما قيل عن أسلوب القرآن، أما بلاغته فروعة فنّ ومتحف بيان، يهزك ما فيه من موسيقى ترافق الكلام وتتصل بأغوار النفس البشرية فتحرك أوتارها، وإذا هنالك نغمات تلو النغمات، تارة في فيض من الإشعاع والنور، وطوراً في انقضااض

صاعقيّ، تارةً في لين المناجاة، وطوراً في قسوة التهديد، وإذا هنالك جوٌّ من العظمة والجلال يفيض على الحياة ويوجِّهها شطر الروح والعالم الذي لا يزول.

#### ٢ أثره في علم الأدب :

كان للقرآن الكريم أثرٌ كبير في العالم الأدبي والعلمي، فقد وحد اللغة العربية وحفظها ووسّع نطاقها، وعمل على تليينها وتهذيبها، ثم إنه كان أساس العلوم اللغوية والبيانة عند العرب. وهو أبداً المثال الأعلى في البلاغة والفصاحة.

### ب - الحديث الشريف

#### ١ ما هو الحديث :

الحديث أو السنة ما ورد عن النبي من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير، وقد ضمَّ إلى الحديث ما ورد عن الصحابة أيضاً لأهم كانوا يعاشرهم الرسول ويحدثون بما رأوا وسمعوا. والحديث النبوي يجعل في الرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، وذلك أنه يبين كثيراً من الآيات القرآنية أو يقيدها أو يخصصها.

#### ٢ - تدوينه :

في الحديث مدة من الزمن غير مدوّنة تناقله الألسن، وقد كان ذلك مدعاة لبعض المزيّفين وأولي الغايات إلى أن يدسّوا فيه كثيراً من الأحاديث المنحولة لأسباب كثيرة منها الخصومة السياسية بين عتيّ ومعوية وبين الأمويين والعباسيين وغيرهم، ومنها الخلافات الكلامية والفقهية، ومنها تساهل البعض في داب الفضائل والترهيب والترغيب إلى غير ذلك من الأسباب التي أدّت إلى فوضى في الموضوع حملت بعض العماء على تقيّة الحديث مما أُلهم به وتمييز صحيحه من فاسده، وما إن كان القرن الثاني لهجرة (القرن

الثامن الميلادي) حتى راح العلماء يدوّنونه ، ومن أشهر هؤلاء الإمام مالك صاحب «الموطأ»

### ٣- أثر الحديث في العالم الإسلامي .

قال أحمد أمين في كتابه « فجر الإسلام » :

« كان للحديث . سواء منه ما كان صحيحاً أو موضوعاً - أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الإسلامي ، فقد أقبل الناس عليه يتدارسونه إقبالاً عظيماً ، وكانت حركة الأمصار العلمية تكاد تدور عليه ، وكلّ علماء الصحابة والتابعين كانت شهرتهم العلمية مؤسسة على التفسير والحديث - والحديث كان أوسع دائرة - وسبب حرص الناس على رواية الحديث رحلة العلماء إلى أفاصي المملكة وطوافهم في البلدان يأخذ بعضهم عن بعض ، فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية ، ووقوف علماء كلّ مصر على ما عند الآخرين حتى لتكاد الحركة العلمية تُوحّد... »

عن طريق الحديث هذا انتشرت في العالم الإسلامي أنواع من الثقافة عدّة ، فالتاريخ الإسلامي بدأ بشكل حديث كالذي ترى في كتب الحديث من معارف وفضائل أشخاص وفضائل أمم ، ثم تطور التاريخ إلى أن صار كتاباً قائمة بنفسها ، ودلّينا على ذلك أن كتب التاريخ الأولى كسيرة ابن هشام وما يروى ابن جرير عن ابن إسحاق ، والتأذري في فتوح البلدان ، يكاد يكون نخلها وأسودها نخل حديث وأسلوب حديث . وقصص الأنبياء وما إليهم جاءت في القرآن وتوسّع فيها الحديث ، ثم توسّع القصص فكان القصص ، والحكم وقواعد الأخلاق وشيء من فلسفة اليونان والهند والفرس وضعت في الحديث وضعا ، وانتشرت بين الناس على أنها دين ، فكان لها من الأثر في الناس ما ليس للتعاليم الدينية . وموق ذلك كان الحديث أوسع منبع للتشريع في العبادات والمسائل المدنية والجناية ، وغير ذلك مما يطول شرحه . وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة في ذلك العصر .

## الفصل الثالث الخطابة والنويعات

### الخطابة في عهد الرسول والمُخلفاء والرّاشدين

#### ١ عوامل الخطابة الإسلامية وموضوعها :

- ١ - دين جديد يعمل على تغيير الأوضاع والعادات وإزالة العقول بتعاليمه الجديدة
  - ٢ - خصوم وحساد يحاولون الحفاظ على عادات الجاهلية وتقاليدها
  - ٣ - شعب يطلب المعرفة عن طريق الخطابة ، وذلك لحلّوا المجتمع العربي لذلك العهد من أيّ وسيلة إعلامية أخرى .
  - ٤ - عهد النبي وخلفاؤه من بعده الى الخطابة لتوطيد أركان الإسلام وبسط سلطانه .
- ٢ أنواعها .

تعددت أنواع الخطابة في هذا العهد فكان منها :

خطابة المفاخرة والمناورة خطابة الوفود خطابة لاسمخلاف — خطابة المنعرج — خطابة المأطرة الخطابة الدينية .

٣ - ميزات الخطابة الإسلامية . قوة عارضة ، مناقشة سلك ، نصيحة ، ضرور من التحسين والتشجيع ، موسيقى صوتية ، نغمة الى التمهيل ، حرارة عقيدة ، عمق وسمو .

ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربي ، وكان ظهوره خاتمة العهد الجاهلي ، ولكنه توجه الى عقلية جاهلية يعالجها ويبيّن تحجّرها ، وتوجه الى عادات وتقاليد يعمل على تبديلها أو تقويمها . وهكذا كان ظهور الدين الجديد ثورة اجتماعية وفكرية .

#### ١ . عوامل الخطابة الإسلامية :

ازدهرت الخطابة في العصر الإسلامي ازدهاراً شديداً لتوافر عواملها وشدة الحاجة إليها ، فالعهد عهد صراع فكريّ ثم صراع سياسيّ ، والوفود الى النبي العربيّ تسع الوفود ، ومبشرين القتال تسع لمتوح أناساً كبيراً ، وما هنالك غير الخطابة للوصول

الى العقول ، وما هنالك غير اللسان في الجماهير يقرع الحجّة بالحجّة ، و يصدع الأسباع بالآراء والبراهين .

أجل كان الصراعُ فكرياً قبل أن يكون أي شيء آخر . فقد راح الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً في مكّة ، وطارت أخباره الى يثرب ، فصاقت قريش دُرعاً بالتعاليم الجديدة ، وعملت على إحباط المساعي . وراح النبي يبشّر في مكّة ، ويعرض نفسه عن القبائل في المواسم ويقرّ من عبادة الأوثان . ثم توجّه الى بلاد العرب . وقام بعزوات مختلفة ، وأوفد البعث والكُتب والرُسل . فتوجّهت القائل الى المدينة تقدّم الطاعة وتؤمن الإسلام . وفي السنة العاشرة للهجرة دخل النبي على رأس موكب الحجّ السنوي الى مكّة ، وكانت تلك حجة الوداع ، وكانت له فيها خطبة شهيرة حملت بالروح الإنسانية العالية ووجهت العرب شطر الأخلاق الرفيعة .

وعندما توفي النبي راح الخلفاء الراشدون يُواصلون العملَ الفكري الجديد ، ويخطبون في الجماهير لترسيخ حياة جديدة في الأذهان والقلوب ، وما الحياة الجديدة إلا انتظام في وحدة دينية . تبعد في فكرة الألوهة عن كلّ تمثيل مادي ، وتنصهر فيها الفردية والعصية أخوة ومساواة ، وتسمو فيها النفوس عن كلّ ضلالة أخلاقية . وبذلك انقلب الوضع الاجتماعي كما انقلب الوضع الفكري الديني .

وبانقلاب الأوضاع الفكرية والاجتماعية انقلبت فكرة السياسة ، وأصبح النظام العصبيّ شرائع ودساتير تتناول الجماعة الإسلامية كلّاً وأجزاء ، وتُخطّط مناهج السنوك في ظلّ السلطة القائمة . ومع ذلك كلّ قد ثبتت العصية الجاهلية متأصلة في نفوس القوم . تبرز كلّما أتيح لها البروز ، وتُنازع منازعة بقاء ، وتستعين بالخطابة مدّاً وجزراً ، في عنادٍ ظاهر ، وصلابة عيفة .

وكان الشرق لذلك العهد بين دولتين كبيرتين : دولة الروم البيزنطيين ، ودولة الفرس الساسانيين ، فراح الإسلام يضمّ صفوف العرب في شبه الجزيرة ، ثم اندفعت الجيوش العربية كالسيل الجارف فأطاحت بدولة الفرس ، وطرّدت الروم من الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ورفعت أعلامها في حمّاء الأمبراطورية الواسعة . وهكذا كانت الفتوح وكانت الخطابة التي تتوسّل بها .



## ٢- موضوعات الخطابة الإسلامية :

كانت الخطابة الإسلامية خطاباً دين جديده يتوجه الى العقل والقلب ويعمل على إيقاظ الوجدان البشري. إنها خطابة دينية في صميمها ، توضح الآيات وتأتي بالبينات وهي في الوقت نفسه خطابة دفاعية تلحظ آراء الخصوم ، وترد على كل معاند ومكابر. وهكذا كان النبي يفسر تعاليمه في المساجد ، ويسلط الآراء والشرائع ، ويهاجم التيارات الفكرية القائمة والعادات والتقاليد البالية . وهكذا كان الخلفاء يعملون من بعده ، ناهجين نهجه ، مهتدين بهديه .

وقد امتدعت الخطابة الدينية خطاباً أخرى تساندها وتكون امتداداً لها . فالعهد عهد اضطراب ، ولا بُدَّ فيه من خطابة سياسية تجمع شمل العرب في ظل النظام الجديد . وكم من مرة وقف النبي يعض النظم والشرائع ، ويحض المؤمنين على القتال ، وكم من مرة وقف الخلفاء يبعثون الحمية في الصدور ، والقواد يدعون الحماسة في القلوب ! وكم كان لهذه الخطابة الحربية من أثر فعال في النفوس ! ومن أشهر الخطب في هذا النوع خطبة عتبة بن غزوان بعد فتح الأبنية حيث قال : « أما بعد فإن الدنيا قد تولت حذاء مديرة ، وقد آذنت أهلها بصرم ، ولم يبق منها صباة كصباة الإذء يصطبها صاحبها . ألا وإنكم مفارقوها لا محالة ، ففارقوها بأحسن ما يحضركم... » وأقدم ما وصل إلينا من ذلك خطبة ابن قبيصة الشيباني في يوم ذي قار بين العرب والعجم حيث وقف في قومه معرضاً على القتال وقل فيما قد : « يا معشر بكر ، هاك معذور خير من ناج فرور . إن احذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الفخر . لا الدنيا ! استقبال الموت خير من استدباره . الطمن في ثغر المحور أكرم منه في الأعجاز والظهور . »

وإلى جنب هذا كله واصلت خطابة المفاخرة والمنافرة سيرها في صعب شديد وبق لنا منها في العهد الإسلامي شيء يسير . وواضت خطابة الوفود سيرها أيضاً ، وظهرت خطابة الاستخلاف والولاية عند مبايعة خليفة أو تولية وال أو عامل ، وهدفها تخطيط سياسة أو تسكين فتنة أو ما الى ذلك .

## ٤ - قيمة الخطابة الإسلامية :

الخطابة الإسلامية خطابة عقيدة والفتاح ، حفلت بالتقوى والزعة الإنسانية وقد تصمّنت روحاً تنظيمية تشريعية وأسست بسمه البلاغة الحقّة التي أضفاها عليها القرآن ، واكتسبت من الفلسفة الدينية الجديدة عمقاً وسموّاً . والأمر الذي ملمسه في الخطابة الإسلامية ، بعد النبي ، تضالّ الرّعة الدينية في وجه الروح الجدلية التي احتاج إليها الإسلام عندما احتكّ بوعي العقل ، وطلب المزيد من التفسير ، والقوي من الحجّة .

والأمر الآخر الذي ملمسه في هذه الخطابة هو السّحر القرآني الذي انسكب على المعاني والألفاظ ، فربط الأفكار بعضها بعض ، وسلسل المعاني سلسلة انسياب وتساقط ، وأحكم انباء إحكام تأثير وإقناع .

والأمر الثالث الذي ملمسه هو الرّعة الى التفصيل ، وإطالة العبارة ، والخروج عن سة الجاهليين في التقطيع والتوث . فقد أصبحت الخطابة مواقف نقاش ، أي أصبحت مواجهة عقلي لعقول ، وثقافة لثقافة . وهذا كلّ لا يكتفي بالأسجاع والظواهر التأثيرية التي تعالج الأعصاب ، بل يفنضي التحرّي الفكري ، والتّسع الذهني .

وكانوا يفتتحون الخطبة بالبسملة والحمدلة ، ويعنون شديد العناية بتضميمها بعض الآيات القرآنية . قال الجاحظ : « إن خطباء السّلف الطيب ، وأهل البيان من التابعين بإحسان ، ما زالوا يسمّون الخطبة التي لم تبدأ بالحمد وتُستفتح بالتمجيد « بتراء » ويسمّون التي لم توشّع بالقرآن وتزّين بالصلاة على النبي « شوهاء » . ويعمد الخطباء الى الآيات الشعرية أيضاً لتقوية كلامهم ، فيذكرون شرطاً ، أو بيتاً من قصيدة ، وقد يكون البيت أعمل في النفوس من الخطبة كلّها . ويعمدون أيضاً الى ضروب من التحسين والتّحجير ، والى ألوان من الترغيب والترهيب ، كما ينصرفون أحياناً الى الموسيقى الصوتية التي ترافق المعنى سواء أكان ذلك بالأسجاع أم بضروب من التقطيع .

وكانت تُختم الخطبة في العصور القديمة بعبارة يطيل الخطيب تكرارها ، كقول أبي بكر : « اللهم اجعل خير زماي آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك » .

وكقول عمر بن الخطاب : «اللهم لا تدعني في غمرة ، وتأخذني على غرة . ولا تجعلني من العافين» .

### مصادر ومراجع

- محمد عبد الغني حسن : الخطب والمواظع — سلسلة «موسم الأدب» — القاهرة ١٩٥٥ .  
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي — القاهرة ١٩٤٦ .  
 زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع — القاهرة ١٩٣٤ .  
 إيليا حوي . فن الخطابة — بيروت ١٩٦١



# علي بن أبي طالب

(٤٤٠ هـ / ٦٦١ م)

١ تاريخه : وُلد نحو سنة ٦٠٠ م وقام النبي على تشييده ورؤيته ابنه فاطمة رافع النبي في عرواته ما عدا عزرة نيوك

كان أحقّ الناس بالحلافة ولّا أنّه لم يُبايع بها إلّا بعد مقتل عثمان.  
جس في وجهه طليحة والرّيب فتغلّب عليها في واقعة الجمل ونهض في وجهه معاوية وكانت  
بينهما واقعة صفين التي انتهت بالتحكيم  
تأمر الحوارج على قتله وقتل معاوية وعمرو بن العاص ، فلم يُقتل منهم إلّا عليّ سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م

٢ شخصيته هي شخصيّة تواضع ورُهد ، وعقيدة وتقوى ، وعدل وإخلاص ، وفروسيّة وشجاعة .

٣ أدبه : أهمّ آثاره سبع لائحة وقد شمل العلماء على مرّ العصور . وفيه الدساتير والسياسات ،  
والعسكريّات ، والاحتجاجات ، والإداريّات

٤ عليّ الخطيب الدينيّ

١ - مؤهلات الإمام هو من أنبياء الله ، وريب الرسول ، وحرارة الحكمة والعلم .  
٢ - ناحيتا النظر والعمل : لمعرفة طريقه طريق الوحي وطريق العقل . والفلسفة اللاهوتية عند  
عليّ تقوم على فكرة التوحيد وبني الصفات . منطق سديد ، وعصب شديد ، ودقّة كلام .

٥ - عليّ الخطيب السياسي والعسكريّ :

١ . الخطابة السياسيّة تدور عند عليّ حول المطالبة بحقه . ويُصبح شرعيّة حلاته ، وتبرز ساحته  
٢ الخطابة الحزبية والعسكريّة : تلمس بها جوه الإمام الى الترهيب والترحيب ، كما تلمس إحصاه  
وصدق لمجته ، وحاسه وهيئته ، وحكمه الواسعة

٦ - عليّ رجل السياسة والاجتماع مذهب عليّ الاجتماعي والإداري

١ أساس مذهب الاجتماعيّ التقوى والواجب . والعدل والحق .

٢ حسن اختيار أهل المشورة والوزراء .

٣ التمييز بين الحسن والسيّء .

٤ حسن التصرف في الرعيّة . نظام الطغفوت .

## ٧ بلاغة الإمام

- ١ - فيص من طبيعة غيبه عقل نير، وثقافة دينية، ومطلق سديد، ولسان حبيب، وعطفة حذرة، وفكر ثاقب.
- ٢ - صراحة وبلاغة أدب وسلامة دوق.
- ٣ - تصرف عجيبة بروحه الكلام.
- ٤ - ثقيل من أسنوب الى أسنوب.
- ٥ - تدرج واستشارة للمواطن.

## ٨ علي رجل الحكمة

- ١ - مدار حكمة علي حول قضايا لاحتاج ومرجعها الى وحدانية الإنسان نحو نفسه ووحدانيته نحو غيره. - معرفته لنفسه أساس كل معرفته وشروطه "سامي" لحسن التعامل.
- ٢ - تحريض على التقوى والتواضع والقناعة والاعتصام بالعقل والمعرفة.
- ٣ - الحجة لا تحبو إلا بالصدقة ... دستور الصدقة

## ٩ تاريخه:

هو الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ولد نحو سنة ٦٠٠ م وكفله النبي وقام على تربيته، وكان حاد الذكاء، نافذ البصيرة، شهم النفس، فأحببه النبي حباً جماً وجعله رفيقه في حله وترحاله، وأخى بينه وبين نفسه وزوجه بنته فاطمة التي ولدت له الحسن والحسين. وقد رافق علي السبي في جهاده، وشهد معه جميع المشاهد، وصحبه في جميع الغزوات إلا غزوة تبوك.

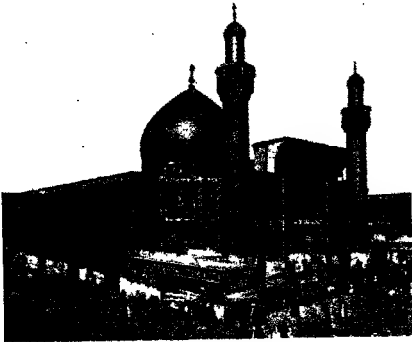
كان في نظر الكثيرين أحق الناس بالخلافة بعد موت النبي إلا أنه لم يُبايع بها إلا بعد مقتل عثمان بن عفان، ولكن هذه البيعة لم تُرضِ طلحة والزبير فنبهوا في وجهه تناصروهما عائشة، وقد تغلب عليها عي في واقعة الجمل فقتلوا وانسحبت عائشة الى المدينة وكان علي قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام، فلم يخضع للأمر واتهم الخليفة بالاشتراك في مقتل عثمان، وجَهَّز الجيوش لحربه وانضم إليه عمرو بن العاص

وكثير من قريش ، وكانت واقعة صفين التي انتهت بالتحكيم وخلع عليّ ومعاوية معاً ، وظهور الخوارج الذين تغلب عليهم الإمام بالقرب من دجلة .

بايع أهل الشام معاوية بالخلافة ، فاستولى على مصر ، ووجه بعوثاً للإغارة على الأنبار والمدائن والحجاز واليمن ووادئ البصرة وغيرها . وفي تلك الأثناء دبّ التخادل في جماعة عليّ ، وتآمر الخوارج على قتله وقتل معاوية وعمر بن العاص ، أمّا هذان فنجوا ، وأمّا عليّ فقتله ابن ملجم الخارجي في مسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م .

٢ - شخصيته :

١ - تواضع وزهد : كان الإمام من أحسن الناس خلقاً ، ومن أتمهم توكيئاً .



مشهد الإمام علي بن أبي طالب في النجف الأشرف .

زينة الله بأجمل صفات الخلق . فكان ينظر الى الموجودات نظرة استعلاء ، لا عن تكبر . بل عن زهدٍ وتعفف ، لما من شيء في الدنيا يستهويه ، وهو معها ارتفع سلطانه ، وانتشر صيته ، يلزم التواضع . ويؤثر الفقر على العنى ، حتى قال عمر بن عبد العزيز : « أرهد الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب » . وكان الإمام يرى أُلّ الخليفة يجب أن يشارك رعيته في مكاره الدنيا . وكانت هذه النزعة الإنسانية تسيطر على جميع كيانه ، وكان يقول . « أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم مكاره الدهر » .

٢ - عقيدة وتقوى : وكان زهد عليّ عن عقيدة راسخة ، ونظر عميق الى حقيقة الدنيا التي كان يراها طريقاً الى الآخرة ، حافلة بالشرور ، زائلة ، ويقول : « عباد الله ، أوصيكم بالفرض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تُحبوا تركها ، والمبلىة لأجسامكم ، وإن كنتم تحبون تجديددها . » وزهد الإمام قائم على إيمان حيّ بالله وتقوى صحيحة له ، فإنه من أشد الناس تعلقاً بالله . ومن أكثر الناس تأملاً بصفاته وعجائب مصوغاته .

٣ - عدل وإخلاص : وإذا كان الإمام نقياً زاهداً ، وإذا كان ردهه عن عقيدة راسخة ، نظر إلى الناس نظرة رحمة وعدلٍ وتسامح ، ونظرة إخلاصٍ وصرامة واستقامة . وكان يقول : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك » . ومن مواقف إنسانيته أنه صوّى في وقعة الجمل على القتل من أعدائه ، وأنه أبى على جنده أن يقتلوا عدوّاً تراجع وأن يتركوا عدوّاً جريحاً فلا يسعفوه .

وإنما عدل عليّ فهو مصرب العتل .

٤ - فروسية وشجاعة : وإلى جانب ذلك كله كان عليّ فارساً شجاعاً حتى كان « ينجح أشدّ امرسان صولةً وأرهم جانباً من صهواتهم ، فيرفعهم بيده في الهواء ويجلد بهم الأرض جلداً ، لا جاهداً ولا مُتعباً » . يلا أن شجاعته هذه لم تقهه الى التهور والظلم ، فكان دائماً رجل الرحمة والعفو عند المقدرة ، لا يحمل في قلبه ضغينة ، ولا يحمل للحقد منفذاً في نفسه . وهكذا كان دائماً سليماً الطوية ، شديد الاتكال على الله في محاربة كلّ إنسان على حسب أعماله .

## ٢ - أدبه :

نسب إلى علي بن أبي طالب نثر وشعر. ولكن أكثرها منقول. ومرجع أدبه إلى «نهج البلاغة» الذي جمعه الشريف الرضي وانتهى من جمعه سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م، وهو مجموعة من الخطب والرسائل والحكم والمواعظ.

١ - صحة نسبة «نهج البلاغة» إلى علي: اختلف العلماء في شأن هذا الكتاب أشد الاختلاف. فأنكر بعضهم أن يكون لعلي بن أبي طالب، وذهبوا إلى أنه من وضع الشريف الرضي، وحيثهم في ذلك أن في الكتاب فلسفة لم تُعرف إلا في العهد العباسي، وفيه أساليب تعبيرية عباسية، وتعرضاً بالصحة هو بعيد عن أخلاق الإمام. ولكن هذه البراهين غير كافية، وإن دلت على أن هنالك قسماً منقولاً لا تصح نسبته إلى الإمام.

٢ - أهمية الكتاب وأقسامه: كتاب «نهج البلاغة» من أشهر كتب العرب، حظي باهتمام الأدباء والعلماء عصرًا بعد عصر، فوجد فيه رجل الدين عقيدة وفضيلة، والفيلسوف حكمة وفلسفة، ورجل الاجتماع دستوراً اجتماعياً فاضلاً، ورجل الأدب أديباً رفيعاً، ورجل اللغة حجة لا تقهر... ولهذا اهتم الكثيرون لطبع الكتاب وشرحه والتعليق عليه، ومن أشهر شارحيه ابن أبي الحديد ١٢٥٧ م / ٦٥٥ هـ، والإمام محمد عبده. أما مادة «نهج البلاغة» فنستطيع أن نرجعها إلى الدينيات، والسياسيات، والعسكريات، والاجتماعيات، والإداريات.

## ٣ - علي الخطيب الديني :

١ - مؤهلات الإمام: عرض الإمام للقضايا الدينية في شتى خطبه ومواعظه. فكان له في كل موقف جولات إيمانية رائعة. خصّ الدين وما يتعلق به بعدد من تلك الخطب والمواعظ طواها على تأملات عميقة، ونظرات ماورائية واسعة الآفاق. ولم يكن بالغريب أن يتناول الإمام الموضوعات اللاهوتية والفلسفية تلك المقدرة العجيبة، وهو



من أولياء الله ومن أحب الناس إليه ، وهوريبُ الرسول ومستودعُ الحكمة . قال محمد : « عليٌّ بمنزلة رأسي من جسدي » . وروى أبو بكر أنه سمع الرسول يقول : « عليٌّ مني بمنزلة من ربي » . وقال له النبي . « بينك العلم يا أبا الحسن ، لقد شربت العلم شربة ، وهلمتُ نهلاً » وقال . « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها » . وقال ابن عباس : « أعطي علي تسعة أشهر العلم ، وشارك الناس بالعلم العاشر » . ومثل هذه الأقوال كثير في كتب التاريخ والدين ، وإياها . وإن لم تحلُ من محل في بعض منها . تدلُّ دلالة واضحة على ما كان لعليٍّ من تقدير في صدور القوم ، وعلى ما كان عليه من سعة المدارك وعمق المعرفة .

٢ . ناحيتنا النظر والعمل : يعالج عليٌّ في خطبه الدينية الناحية العقائدية والفلسفية اللاهوتية من الدين ، ثم الناحية الفقهية والأخلاقية ، وهكذا يتناول كلامه ناحيتي النظر والعمل . أما من الناحية النظرية فقد عرض لوجود الخالق وصفاته ، كما عرض لخلقته وما فيها من حكمة ، وأما من الناحية العملية فقد عرض للأخلاق ، وللفضائل المختلفة من زهد واستقامة وعدل وما إلى ذلك .

١ - وأول ما يتبادر إلينا من فلسفة الإمام أن للمعرفة طريقتين : طريق الوحي وطريق العقل . أما الوحي فواسع انطاق ، وخبره حق اليقين . وأما العقل فقوة الإدراك التي تعتمد في عملها الحواس والتجربة ، وهو من ثمَّ محدود النطاق وإذا تعدى حدوده خبط على غير هدى . ومع ذلك فللعقل المكان الأول في النطاق البشري ، قال الإمام : « العقول أئمة الأفكار ، والأفكار أئمة القلوب ، والقلوب أئمة الحواس ، والحواس أئمة الأعضاء » . وهكذا حدد نظام القوى في الكائن الإنساني وخطَّ الطريق واضحة للفراي صاحب « المدينة الصضلة » ، وهو يعترف بحقائق ثلاث : الله والعقل والمادة . وهو يجس فلسفته اللاهوتية نظرية وعملية لأن « الإيمان والعمل أخوان توأمان ، ورفيقان لا يفترقان ، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه » . وهكذا يتعد عليٌّ عن المثالية الوهية كما يتعد عن المادية التي تحصر كلَّ شيء في العمل والتجربة .

٢ - والفلسفة اللاهوتية عند الإمام تقوم على فكرة التوحيد وفي الصفات عن الله : « لشهادة كلِّ صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كلِّ موصوف أنه غير الصفة » .

٣ - والله في نظر علي «كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، » أي أنه كائن غير ذي بداية . وهو الذي «أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا رويّة أجالها ، ولا تحرة استفادها ، ولا حركة أحدثها» . وهو الذي نظم الخليفة وأوجد الملائكة «منهم سجد لا يركعون ، وركوع لا يتصنون ، وصافون لا يتزايلون ، ومسبحون لا يسأمون . لا يغشاهم نوم العين ، ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان» . ولكل فئة من هؤلاء الملائكة وظيفة فمنهم الأمناء على الوحي ، ومنهم الحفظة لعباده ، ومنهم السدنة لأبواب حنانه .

٤ - وهكذا يسير الإمام في هذه الفلسفة سير البصير ، ويحوم حول الجوهر الإلهي حوم العالم القدير ، يسانده الإيمان في انطلاقه الجناح ، وينهض به قلبٌ نير الجوانب يندفق مع اللسان اندفاعاً ، في منطقيّ شديد ، وعصفيّ شديد ، ودقة كلامٍ قلماً تستقيم لغير الإمام . فالله تعالى هو الكائن واجب الوجود بذاته ، وهو الخالق الذي ليس لقدرة حد ، وهو المظم الذي لا يفوته شيء في إدراكه وتنظيمه ؛ وهو ينوع الخير والصّلاح . يجازي كلاً حسب أعماله ، ويقود كلاً في طريق الحكمة الى دنيا الآخرة إنك لتلمس روح الإمام وهو يبسط الحقائق ، وتلمس قلبه وهو يفصلها . فليس كلامه الفلسفيّ اللاهوتيّ كلام العلم المجرد ، وإنما هو العلم النابض بالحياة ، هو العلم الذي يدوب فيه صاحبه شوقاً وتحانناً ، وجباً وإيماناً . وهذا ما يضفي على كلامه ذلك السحر الذي يستأثر بالنفوس ، ويكسبه تلك القوة المسيطرة الغالبة .

٥ - وإلى جانب هذه الخطبة اللاهوتية تجد في «سج البلاغة» عدداً كبيراً من المواعظ الزهديّة التي تبحث على نبد الدنيا والاعتصام بحبال الآخرة وهي عظات حافلة بالتقوى والصّوف ، مؤثرة بما فيها من صدق إيمان ، وسمو نفس .

#### ٥ - عليّ الخطيب السياسيّ والعسكريّ :

١ الخطابة السياسيّة . رأينا كيف كان عليّ بن أبي طالب أحقّ الناس بالخلافة ، وكيف حورب في سبيلها ثم كيف أتهم بدم عثمان بن عفّان . فكان لا بدّ له ، والحالة

هذه ، من المطالبة بحقه ، ومن إيضاح شرعية خلافته ، وتبرير سياسته في وجه المقاومين والمكابرين . وقد قبل ذلك في مواقف متعددة ، ولاسيما في خطبته المعروفة بـ « الشقشقية » :

فالحلقة حقّ له وإن هَمَصَهَا فلان « أي أبو بكر ، ومحلّها مها « محلّ القطب من الرّحى » ، ولئن صَبِرَ قَصِيرٌ مَنْ في عينه قذى ، ولئن تنازل عن حقوقه فدفعاً للشرّ وتلافياً للأذى . وعندما تفاقم الأمر بين المسلمين ، انثال الناس على الإمام « من كلّ جانب » وازدحموا حوله ازدحاماً ، يطلبون مبايعته ، ويحتجون عليه بالقبول والرّضى ، حتى إذا هض بالأمر « نكثت طائفة ، ومرتقّت أخرى ، وقسط آخرون » والثائكة أصحاب الحمل ، والمارقة أصحاب النهران ، والقاسطون أصحاب صفين .

ومن ثمّ فخلافته شرعية ، وقبوله لها عن ازدحام وإلحاح ؛ ومن ثمّ فقبوض طلحة والزبير نكث وخيانة ، و « كلّ واحد منها يرجو الأمر له . ويعطيه عليه دون صحبه : لا يمتنان الى الله بحبل ، ولا يمدّان إليه بسبب » . ومن ثمّ فقبوض الخوارج إما هو عناد وجهل لئبة الإمام والحقيقة والواقع .

أمّا مقتل عثمان فهو راء منه ، وإن « عثمان صنع ما رأيت فركب الناس ما قد علمت وأنا من ذلك بمعزل » . وهكذا فتورة معاوية إنما هي ثورة جورٍ وطمع .

هكذا عالج الإمام واقعه السياسي ، وكان في معالجته نه جريئاً حرّاً صاحب الحقّ ، وصريحاً صراحة المظلمين الذي لا يرهّب ولا يخون ، وحازماً حَزَمَ قُدْرَةَ وسطان .

٢ الخطابة الحزبية والعسكرية : اضطرّ الإمام « بسبب واقعه السياسي » أن يقوم بعدة حروب ذكرنا أهمّها في ما سبق ، وأن يكون قائداً لها ومحرضاً عليها . وقد عمد الى الخطابة لإلهاب القلوب وبعث الشجاعة والحفاصة في الصدور . وهكذا فعندما وردّه خبز غزو الأنبار بجيش معاوية ولم ينهض أهل الكوفة للقتال هبّ يستثير الناس ويستنهضُ الهَمَمَ ، ذاكرةً أنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة ، وأنّ الموت الشريف خير من حياة الذلّ والصغار .

والذي يتصفّح خطب الإمام في الحرب والاستنفار يلمس أموراً عدّة منها :

١ - أنّ الإمام يبدأ إلى أسلوبَي التّرهيب والتّشجيع لبلوغ الهدف المنشود ، وهو في ذلك رجل دين وزهد وشرف ، يقف على صعيد المبادئ العقائدية ، ويتكلّم بدافع الغيرة على الدين ، ويهوي على السّامعين هوي التهديدات القرآنية التي تهزّ الأعماق ، وتوقظ الوجدان .

٢ - أنّه يخاطب الجماهير والجوش بإخلاص وصدق شجّة ، في أسلوب أشبه بعجيج البحر ، واندياء السيل .

٣ - أنّه يخاطب السّامعين بحماسة وسلطان : حماسة الفارس المغوار الذي تعود أدّ يخوض غمار الحرب ، وسلطان القائد الذي ينتصر للحق ويتغلب في سبيله .

٤ - أنّه ينطق بلسان الحكمة والتجربة الحربية ، فهو يعرف أنّ الحرب شجاعة وفطنة ، وأنّ القتال إقدام في نظام .

٤ - عليّ رجل السياسة والاجتماع - مذهب عليّ الاجتماعي والإداري :

١ - تقوم فلسفة عليّ الاجتماعية والادارية على دعائم مكينة ، وهو يذهب فيها من فكرة دينية مرجعها التقوى والواجب ومحورها العدل والحق . حاول أن يسنّ دستوراً اجتماعياً مثالياً للمجتمع أمثل وذلك خصوصاً في رسالته الى الأشرار النخعي ، لما ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر .

٢ - فتشعار هذا المجتمع العدل والحق ، « لا يؤنسُك إلا الحق ، ولا يوحشُك إلا الباطل » . وهذا العدل يجب أن يوجد أولاً في الحكام : « إعلم أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هادي وهدي ، فأقام سُنّة معومة وأمات بدعة مجهولة ، وإنّ أسسَ لثبوتها أعلام ، وإنّ البدع لظاهرة ولها أعلام ، وإن شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ وضلّ به فأمات سُنّة مأخوذة وأحيا بدعة متروكة » .

٣ - والعدلُ يطلب أن يُحسنَ اختيارَ أهلِ المشورةِ والوزراءِ . فلا يُدخلُ في مشورته البخیلَ الذي یزین الشرَّهَ بالجرِّ ، ولا الوزيرَ الذي كان قبلاً وزيراً للأشرارِ ومن أعوان الأئمة ، بل يُدخلُ الصالحينَ ولاسيما « من كان منهم أقولهم نمر » الحقُّ لك .

٤ - والعدلُ يطلب أن لا يكونَ المُحسنُ والمُسيءُ عندَ الحاكمِ بمنزلةٍ واحدةٍ . فإنَّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة .

٥ - والعدلُ يطلب أن يحسنَ الراعي الظنَّ في رعيته فيحسر إليهم ويخفف المؤنات عليهم . ويترك استكراهه إياهم على ما ليس له قُلُوبُهم .

٦ - فالرعيَّة طَبَقَات لا يصلحُ بعضُها إلا ببعض ولا غنى بعضها عن بعض . وهما جنود الله ، ومنها كتابُ العامة والحاصَّة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمالُ الإنصاف والرِّفق ، ومنها أهلُ الجزية والخراج ، من أهل الذمَّة ومُسبِّمة الناس ، ومنها التجارُ وأهلُ المصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكة .

الجنود . أما الجنودُ فحِصنُ الرعيَّة وزینُ الولاية وعزُّ الدين وسبيلُ الأمن . ولا قوامُ للجنودِ إلَّا بما يخرجُ اللهُ لهم من الخراجِ فعلى الوالي أن يهتمَّ اهتماماً خاصاً للخراج ، وأن يكونَ نظره في عمارة الأرضِ أبلغَ من نظره باستجلاء الخراج ، لأنَّ « من طلب الخراج بغيرِ عمارة ، أخرج البلادَ وأهلك العبادَ ولم يستقم أمره إلَّا قليلاً » . ثم إن الجنودَ وأهل الخراج لا قوامَ لهم إلَّا بالصف الثالث من القضاة والعمال وكتاب .

القضاة : ويطلب الإمامُ صيانةَ للعدل ، أن يتحقَّى القضاةَ بالنزاهة وحبَّ الحقيقة ، والصبر على تطلُّبها . وهو يرى أن يُغْدِقَ الحاكمُ المالَ على القاضي حتى لا يحتاج إلى مال الدس ويقول : « ثم أكثر تعاهد قضاائه وافسحَ له في البذل ما يريل عنه وتقلُّ معه حاجته إلى الناس ، واعطيه من المزية لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيالَ الرجال له عندك » .

العمال . أما العمالُ فعلى الوالي أن يستعملهم اختاراً ، وأن لا يوَلِّي أحداً لمحببة

أو الأثرة. بل يتوَحَّى أهل التجربة والحياة والقدَم في الإسلام ، ويُسَبِّح عليهم الأرزاق ، وأن يتفَقَّد أعمالهم ، ويبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عنهم .

الكتاب : وأما الكتاب فعلى الوالي أن يولي على أموره خيهرهم ، وأن يخلص رسائله التي يدخل فيها مكابده وأسراره بأجمعهم لوحوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليه في خلاف بحضرة الناس ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالهم إليه وإصدار جواباتها على الصواب عنه .

التجار والصناعيون : وهؤلاء الناس جميعاً لا قوم لهم إلا بالتجار وذوي الصناعات فبما يجتمعون عليه من مراقبهم ويُقيمون من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم . فعلى الوالي أن يوصي بهم خيراً ويتفَقَّد أمورهم ويمنع الاحتكار ، ويعمل على أن يكون البيع بيعاً سَمَحاً موازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع .

الطبقة السفلى : وهناك أيضاً طبقة سفلى من أهل الحاجة والمسكنة فيوجه علي كلامه الى الوالي فيهم ويقول : « ثم الله الله في الطبقة السفلى ، من الذين لا حيلة لهم ، من المساكين والمحتاجين .. واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافي الإسلام (وهي أراضي الغنينة التي كانت للرسول وآله ثم صارت بعد موته للفقراء المسلمين) ... فلا يشغلئك عنهم بَطَر .. فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الإنصاف من غيرهم ... واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك وتجس لهم مجلساً عاماً ... » ومن ثم يرى علي أن الطريق المثل في الحكم هي اجتماع الشدة واللين . وهو يدعو الى عدم التنافر والتخاذل ، والى طاعة السلطان ، والى اهتمام كل أحد بما يعنيه . وهناك أمر هام يلفت عني أنظار الوالي إليه أعني رضى العامة ويقول : « وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فإن سخط العامة يحجف برضى الخاصة ، وإن سخط الخاصة يُغفَر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء ، وأقل معونة له في البلاء ، وأكبر للإصناف وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عنراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملات اللهر من أهل الخاصة ، وإما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وميلك معهم » .

وهكذا كانت اجتماعيات علي بن أبي طالب وسياسياته إنسانية قائمة على العدل والحق والرحمة والحزم والنظام. وهنالك توصيات كثيرة للراعي والرعية وحكم شتى كلها سمو ونور واتزان.

#### ٧ - بلاغة الإمام :

قيل في كلام علي بن أبي طالب إنه «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق» والحق يُقال أن الإمام من أبلغ الناس خطابة، وهذه البلاغة ترافقه في جميع مواقفه حتى الارتحالية منها. وهو سريع البديهة إلى حد لا تقف في وجهه شدة، ولا يعجزه مأزقٌ حرج.

١ وسائل الطبيعة الغيية. والإمام لا يتوسل إلى الإقناع بوسائل الصّاعة، بل بوسائل الطبيعة العينية، فبلاغته هي نتيجة عقل تفر بعد الأغوار، وثقافته دينية استقاها في صحته للبي، ومنطق سديد رافق الفطرة، ولسان ذوق تفرس بأساليب القرآن، وعاطفة حارة غذتها العقيدة الإيمانية، والاستقامة الفطرية، وفكر ثاقب غذه التأمل ونماه النظر الطويل إلى الله وعجائب مخلوقاته، وخيال هو خيال الأديب اللامع، الذي يخرج الأفكار، منها كانت عميقة، في روعة من الرونق والجمال.

وهكذا يفرو عني السّامع بتقواه واقتناعه لأنه شديد الاقتناع بما يقول، وبلمحه الشديد للحقيقة في قوتها وتسلسل أجزائها وسمو رفعتها، وبحجته التي لا تُقزع ولا تقبل رداً، وبشخصيته الحكيمة الآمرة، وببضاطه على انفعاليته وتفاعله مع الموضوع والسّامع، وبإحلاصه لموضوعه ولسامعه، وبتصوره الذي يجمع إلى الروعة واقعية ودقة، وبمرعاته مقتضى الحال إذ يشتد كلامه في مواضع الشدة فيجتمد، وينقادف جملًا قصيرة، محكمة السبك، حافة بالتشديد والتأكيد والحصر وما إلى ذلك، وبلين في مواضع البين فينسب انسياباً هادئاً وكان الإمام قد انطلق في أحواء الروح، وتعالى عن صخب العالم في اندفاق من العاطفة دائم الاتزان والاضباط، ثم بجرأة تطعمه إلى الموت وعالم القبور وحقيقة الدنيا وواقع ما فيها مما يكسب كلامه سيطرة غريبة قلما عرفت لغيره من خطباء العرب. وهكذا يحاطب الإمام علي سامعه فيحث فيه التطلع إلى الحقيقة بقوة والانقياد لها بلين، وبمكثها فيه بعاطفة نفسه، وبرهبة الواقع التي تنتشر في

حو الخطبة ، ثم بالحجج التي يدعمها بالشواهد والاستدارات الوصفية ، ثم بالإيجاز الصاعق . ذلك الإيجاز الإيحائي الحامل بالوصوح والدقة ، وأخيراً بالبيان الساحر الذي جمع صفاء احاطلية والإسلام . ومنانة التعبير ، وموسيقى اللفظة التي نطلّ طبيعة مها احتشد في العبارة من السجع والتوازن .

٢ صراحة وبلاغة أداء وسلامة ذوق . وهكذا امتارت خطابة علي بن أبي طالب بصراحة المعنى وبلاغة الأداء وسلامة الذوق . علّق انشريف الرضي على إحدى خطب علي الدينية فقال : « لو كان كلام يأخذ بالأعناق الى الزهد في الدنيا ، ويضطر الى عمل الآخرة ، لكان هذا الكلام ، وكفى به فاطعاً لعلائق الآمال ، وقادحاً زناد الاتعاط والاردجار ، ومن أعجبه قوله عليه السلام : « ألا وإن اليوم المضمار وعدا السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار » فإن فيه مع فحامة اللفظ ، وعظم قمر المعنى ، وصادق التمثيل . وواقع التشبيه سرّاً عجيباً ، ومعنى لطيفاً ، وهو قوله عليه السلام : « والسبقة الجنة ، والغاية النار » فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ، ولم يقل « السبقة النار » كما قال « والسبقة الحنة » لأن الاستباق إنما يكون الى أمر محبوب ، وغرض مطلوب ، وهذه صفة الجنة وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها ، فلم يجوز أن يقول « والسبقة النار » ، بل قال : « والغاية النار » ، لأن الغاية ينهي إليها من لا يسره الانتهاء ومن يسره ذلك ... فتأمل ذلك قاطنه عجيب وغوره بعيد . وكذلك أكثر كلامه عليه السلام . »

٣ - تصرف عجيب بوجه الكلام . والذي يروقك في خطابة علي هو تصرفه العجيب بوجه الكلام ، فترى الفكرة عنده تشنّ على اللفظة هجوماً ، وتلبسها تلبساً ، فتقاد اللفظة انقياداً ، تلك اللفظة الصحيحة التركيب ، الدقيقة الأداء للمعنى ، الرائعة الانطلاق . المتلوّية في لين وانسياب . والفكرة تتناول حروف الجرح ، فتعبر بها عن تلاوينها بأسلوب عجيب « اللهم إني قد ملّتهم وملّوني وسئمتم وسئمتني ، فأبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم في شرّ أمي » ، وكلم لعلّي من مثل هذه المقارنات والموارنات والطباقات التي تزيد كلامه قوة . قال : « اللّيل عندي عزيز حتى آخذ الحقّ له . والقوي عندي صعيّف حتّى آخذ الحقّ منه »



٤ - تنقل من أسلوب إلى أسلوب : والذي يُعجبك في خطابة عليّ هذا التقلُّب من أسلوب إلى أسلوب : من الإخبار إلى الاستفهام ، إلى التعجب ، إلى النداء إلى غير ذلك مما يعجب بالقلوب ويستولي على النفوس . وأما بعد يا أهل العراق ... لقد بلغني أنكم تقولون : يكذب ! قاتلكم الله ! فعلى من أكذب ؟ أعليّ الله ، وأنا أوّل من آمن به ! أم على نبيّه وأنا أوّل من صدّقه ! كلّاً والله ، وكنّهم هجّة غبم عنها ولم تكونوا من أهلها .

٥ - تلرّج في استارة العواطف : والذي يهزّك في خطابة عليّ ما هنالك من تلرّج في استارة العواطف ، فهو يطرّوّر الفكرة والعاطفة والصورة حتى يبلغ قسمة الانفجار ، وما هنالك من تصوير بالواقع المحسوس : « إنّ الدّنيا غرورٌ حائلٌ » ، وضوءٌ أفلٌ ، وظلٌّ زائلٌ ، وسنادٌ مائلٌ ، حتى إذا أنسَ نافرهما ، واطمأنّ ناكرها ، قمصت بأرجبها وقصّت بأحبيها ... » ولئن وجدت بعض التكرار في أقوال عليّ فما ذلك إلا من قبيل التقرير للمعنى .

وهكذا كانت خطب عليّ دينيّة وسياسيّة ، وكان عليّ من أوّل من جمع في الخطبة الواحدة بين الدين والسياسة ، وكان هدفه إقناع جوده بصحة عقائده ؛ وهكذا كانت خطبه تتركز على العقيدة الإسلاميّة ، فيورد فيها الآيات والأحاديث ، ويبيّن المعاني الدينيّة التي تساعد على إضرام نار الحماسة في الصدور للنود عن الدين ونشر لوائه ، وكانت تتركز أيضاً على العاطفة التي يبيّنها في نفوس جنوده إذ يوضح لهم أنهم جنود الحقّ وجنود معاوية جنود الباطل ، ومع ذلك فهو لا يموتون في سبيل قائدهم ، ومن ثمّ فضليم أن يواجهوا الموت بقلبيّ جريء غير هباب . وكانت خطابة عليّ تتركز أيضاً على التأثير بواسطة الأسلوب التعبيريّ أعني المتانة ، وإيقاع الفواصل المحكّمة ، واقتصاب العبارة ، وتداخُل الألفاظ .

وهكذا يبدو لنا عليّ في خطبه قائداً وخليفة معاً ، فهو فارس يقود الجيوش ويضرم نار الصدور وهو خليفة يتحنّى أبداً بالوقار والرزانة .

١ - حائل : متغير .

٢ - قمصت بأرجبها : رفعت يديها وطرحنها معاً ...

## ٨ عليّ رجل الحكمة :

١ - تدور حكم الإمام عليّ حول قضايا الاجتماع العامة ومرجعها إلى واجبات الإنسان نحو نفسه وواجباته نحو غيره . أما ما يتعلق بنفس الإنسان فيدور حول معرفة النفس أولاً . قال الإمام : « هلك امرؤ لا يعرف قدره » . ومعرفة النفس في نظره أصل كل إصلاح وأساس كل معرفة وطريق إلى كل خير . وهي الشرط الأساسي لحسن معاملة الغير . والابتعاد عن الشر ، فإن « من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره » ، « من كرمّت عليه نفسه هانت عليه شهوته » . ومعرفة النفس الحقيقية تكشف العيوب وتحمل على التأدّب : « من نصب نفسه للناس إماماً ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم » . ومعرفة النفس مجلبة لمرضاة الله . « من كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ » . تلك هي نظرية الإمام عليّ في معرفة النفس وهي نظرية فلسفية قديمة ردّدتها الأجيال وجعلها الحكماء وأرباب التصوّف في أساس كلّ علاقة اجتماعية كما جعلوها قسطاس كلّ رقيّ في عالم الروح . ولو كان كلّ إنسان عارفاً بنفسه تمام المعرفة ومطلعاً تمام الأطلاع على مساوئها ومحاسنها لسمى جهده في التريّذ من المحاسن واستئصال المساوئ ، وكان للغير رحيماً ، وعن مساوئ الغير معرضاً ، ولهانت المعاملات وقلّ الغصب والحقد ، وازدادت كمية الاحترام والرفقة .

٢ - وما إن ينتهي الإمام عليّ من وضع الأساس حتى يتوجّه إلى الإنسان حائفاً على رفع المداييك النفسية مديماً فوق مديماً ، فيحرّض على التقوى لأن التقوى سلاح النفوس والقلوب و« التقى رأس الأخلاق » . ويحرّض على التواضع لأنه نعمة معرفة النفس فمن عرف نفسه كره أن يتعالى على غيره ، وجعل نفسه في محلها ، ويحرّض على القناعة لأن « المال مادة الشهوات » وعلى الاعتصام بالعقل والمعرفة « فلا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالآدب ، ولا ظهور كالمشاورة » .

والعلم يعرض التزيّد منه ، والجهل يقود إلى الإفراط والتفريط . والعلم يجب أن يقترن بالعمل والإقدام : « لا تجعلوا علمكم جهلاً » . ويقيّنكم شكاً . إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقنتم فأنفذوا . وهكذا تظهر نزعة الإمام عليّ الاعتزالية في تقديمه العقل ، وتظهر

نزعته العملية التي تجعل العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ، وتظهر أيضاً شخصيته القوية في عقيدتها وإقدامها ، في انطلاقها وسيطرتها ، في زهدها ومهموها .

٣ - ويتنقل الإمام عليّ من العلم الى اللسان وإذا به يقول : « إذا تم العقل نقص الكلام » و « لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحق وراء لسانه » ، وإذا بعليّ ينحى على الثرثار باللوم ويجعل اللسان مصدر بلایا الإنسان لأنه « جموح بصاحبه » .

٤ - وهكذا يسر الإمام عليّ في دستورته الأخلاقي من حلة الى حلة ، حتى يصل الى علاقات الإنسان بغيره ، وإذا هو ذو نزعة إنسانية رائعة ، يريد أن يجعل الإنسان نفسه ميزاناً فيقول : « اجعل نفسك ميراناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ، وكره له ما تكره له » . وإن في هذا الكلام ما تجده في الإنجيل المقدس دستوراً للمحبة السامية التي بشر بها السيد المسيح . ثم يقول الإمام علي مواصلاً : « احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك » . وأي دستور أشد إنسانية وحقيقة من هذا الدستور ؟ وهو يريد أن يدفع الشر بالحير : « عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردد شره بالإنتعام عليه » . ويريد أن ينظر الإنسان الى الإنسان بعين الرضى فيرى فيه الخير وإن بدا منه الشر ، فيقول : « لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجدها في الخير محتملاً » ، وهذا منتهى ما وصل إليه السمو .

٥ - ثم يتقل الإمام عليّ الى قلب الإنسان ويرى أن الحياة لا تخلو إلا بالصدقة فيسنّ دستور الصداقة ؛ وإذا الأصدقاء ثلاثة والأعداء ثلاثة : « فأصدقاؤك صديقك ، وصديق صديقك ، وعدوك أعداؤك وعدوك صديقك ، وأعداؤك عدوك ، وعدوك صديقك ، وصديق عدوك » ؛ وإذا اكتساب الإخوان ضرورة : « أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم » ؛ وإذا الصداقة تطلب للملاينة : « من لأن عوده كثفت أعضانه » ؛ وإذا الصديق لا يكون صديقاً حتى يحفظ أخده في ثلاث : في نكته ، وغيبته ، ووفائه » ، وإذا الحسد آفة المودة « حسد الصديق من سقم المودة » . وعليّ يبيّن من يحب تحبب مصادقهم من الناس فيقول : « يا بني ! إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن يثقت فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يعدد عليك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ! وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب ! ... »

٦- ثم ينتقل الى الأخلاق الاجتماعية الأخرى من وفاء ، وعدل ، وصداقة ، وجود ، وما الى ذلك ومن أروع ما قال الإمام : « إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات للمعراء ، لها جاع فقير إلا عما متع به غني » ، والله تعالى سائلهم عن ذلك .

٧- تلك بعض آراء عليّ وهي منشورة في سجع البلاغة من غير ما ترتيب ولا تسقيق ، ولكنها كلّها من هذا السط العالي الذي لا ترتقي إليه إلا كبار النفوس . تتجلى لنا في حكم الإمام عليّ شخصية قوية تنصب في كل لحظة ، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية ، وعقل واسع يجمع خبرته الى ما يستقيه من أقوال الكتب السماوية ، ويذهب بقوة في العمق وفي الطول مقتنصاً الجواهر من مكانها ، محلّقاً في الأجواء ، ومنطق سديد يحلّول الانعاع بالحقيقة والإيجاز المرصوص واللغة التي تجمع المثانة والصمود الى اللين والسهولة ، والبساطة الى الروعة .

وعليّ في حكمه معتزليّ النزعة باتجاهه العقليّ ، صوفيّ المذهب باتجاهه الزهديّ ، وواقعيّ الميل باتجاهه العمليّ ، وهو على كل حال إنسانيّ بكلّ ما في اللفظة من اتّساع وسموّ وخلود .

• • •

تلك نظرة وجيزة الى الخطابة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين . فهي خطابة الدين والعقيدة والجهاد وتوطيد أركان الدولة الفتية . وقد لمسنا فيها من بلاغة ، وما وصل إليه معها النثر الفني من روعة أخاذة ، وما اكتسبته فيها المعاني من عمق وسموّ ، ومن قوّة وتسلسل وانسجام .

## مصادر ومراجع

- محمد عبد الغني حسن: الحُطَب والمواظف — سلسلة «فنون الأدب» القاهرة ١٩٥٥.
- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي — القاهرة ١٩٥٥.
- زكي مبارك: الشعر القفّي في القرن الرابع — القاهرة ١٩٣٤.
- إيليا حاوي: فن الخطابة — بيروت ١٩٦١.
- طه حسين: علي وبنوه — القاهرة ١٩٥٦.
- عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب — القاهرة ١٩٤٦.
- جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية — بيروت ١٩٥٦.
- محسن الأمين: علي بن أبي طالب مجلة العرفان ١٩ : ٥٧.
- أبيس الحوري المقدسي: علي بن أبي طالب — الكوفة ٨ : ٢٠٩.
- عبد حسن الزيات: الأغراض الاجتماعية في نهج البلاغة — الحديث ٢ : ٣٧٣ ، ٤٦٣.
- مبة الدين الحسيني: ما هو نهج البلاغة — العراق ٢٤.



## ٢

## الخطابة في عهد بني أمية

واصلت الخطابة سيرها في طريق الازدهار حتى كان العهد الأموي، عهد الأوج السياسي. وكان الخلاف قد وقع شديداً في شأن الخلافة وانقسم الناس فرقة وأحزاباً، فاضطربت الحال وتأزّرت نيران العِتن، وكانت الخطابة والشعر أمضى سلاح في ميادين الكفاح.

## أ - عوامل الخطابة الأموية :

١ - الخطابة الأموية امتداداً للخطابة التي ازدهرت في أواخر العهد الراشدي وهي نتيجة لأحوال البيئة وصورة صادقة عنها. والبيئة بيئة اضطراب سياسي واجتماعي ولا سيما بعد مقتل عثمان بن عفان، فقد اضطرع المسلمون صراعاً عنيفاً ولا سيما العلويون والأمويون منهم، وقامت التبريرية تطالب بالخلافة، كما قام الخوارج يكفرون علياً ومعاوية. ونهضت القبائل. في عصية متجددة. تتناحر وتتجادل، وكان العراق أشدّ البلاد اضطراباً واضطراباً. وفي هذا الصراع كلّ كانت الخطابة وسيلة وعدة، وكان الخطاب في أصل كلّ حركة وفي قمة كلّ فتنة.

٢ - وإلى جانب الحركات السياسية ظهرت في العالم العربي فرق فكرية ومذاهب دينية، ما لبثت أن عاثت التجربة السياسية العامة والخاصة. وكان لكلّ فرقة دعاة ومبشرون. يستعينون بالخطابة لنشر الدعوة والدفاع عنها

## ٢ - موضوعات الخطابة الأموية :

١ - كانت الخطابة الأموية سياسية في الدرجة الأولى، فكان لنحزب الأموي

خطباؤه يدعون الى طاعته ، ويعلمون حقّه في الخلافة ، ويناهضون مناوئيه ، ويهدّدون الخارجين والمارقين ، ومن أشهر هؤلاء معاوية بن أبي سفيان وزيايد ابن أبيه ، والنجاشي ابن يوسف .

وكان للشيعة خطباؤها وعلى رأسهم الإمام علي بن أبي طالب . ودعواهم أنّ الخلافة حقّ شرعيّ لهم ، وأنّ معاوية مُعْتَصِب . وكان للزبيرية خطباؤها وعلى رأسهم عبدالله ومصعب ابنا الزبير ، واعتادهم على الآيات لتكفير الأمويين وإظهار مروقهم ونفاقهم . وكان للخوارج خطباؤهم وفي مقدمتهم قطري بن الفجاءة ، ومنهجهم أن الإمامة غير محصورة في قريش ، وأنّ الخلفاء الراشدين أئمة إلّا عثمان في سنيه الأخيرة ، وعبثاً بعد التحكيم ، وأنّ معاوية كافر مارق .

٢ - وإلى جانب الخطابة السياسيّة ازدهرت الخطابة الدنيويّة بتعدّد فروعها واختلاف تشبّاتها ، فهناك خطب الجُمُع والمخاض الدنيويّة تفصل التعلّم ، وتدعو الى الذكر والتذكّر وتبحث على التقوى . وهناك الخطب الكلاميّة كخطب واصل بن عطاء وغيره ، تعتمد الفلسفة الكلاميّة والنقاش اللاهوتيّ عن طريق العقل . وهالك الخطب الصوفيّة تدعو الى الزهد والصدوف عن أباطيل الدنّيا ، والتصعيد في سلّم المقامات والكرامات . وأشهر خطيب ديني عرفه العصر هو عليّ بن أبي طالب .

٣ - وإلى ذلك فقد واصلت خطابة الفتوح سيرها ترافق الجيوش في شمالي أفريقية وبلاد السند والهند وغيرها ، وتبعث الحفاصة في صدور المقاتلين ، وخطابة الوفود . وقد توافد الناس والزعماء على الخلفاء والأمراء مهتئين أو منظمين ، وخطابة الاستخلاف والولاية عند مبايعة خليفة أو تولية والٍ أو عامل ، وهدفها تخطيط سياسة أو تسكين فتنة أو ما الى ذلك ، ومن أشهرها خطبة معاوية عندما وقف بالمدينة عام الجماعة (سنة ٤١ للهجرة) وأعلن سياسته بقوله : «والله ما وليتها بحجة علمتها منكم ، ولا مسرة بولائي ، ولكني جالدتكم بسني هذا مجالدة .. » .

٤ - وفي هذا العهد ظهرت خطابة المناظرة ولاسيما عند اشتداد الخلاف بين عيّ ومعاوية ، وبين أهل العراق والشام ، ومن أشهرها خطبة الإمام عليّ في الخوارج وقد خاصصوا عبدالله بن عباس رسوله إليهم ، وفيها من روعة القول وقوة الحجّة ما يعجب .

## ٣ قيمة الخطابة الأموية :

١ الخطابة الأموية خطابة تسيطر عليها روح الخصام والجلاد ، وقد وجدت في هذا الجو المحموم ما شحنها بالنقاش والجِدك ، وما وجهها توجه عمق واتساع وجدة ، وتوجه قوة وعنف لا يخلو أحياناً من لينٍ سياسي ورفقٍ هو أقرب إلى المداراة منه إلى الرفق الحقيقي .

٢ - والذي يروعك في هذه الخطابة روح المنطق الذي ينظم ويبي ، وروح البلاغة ولاسيما في خطب الخبز الأموي ه حتى يبدو الباطل على ألسنتهم حقاً والحق باطلاً ه وهكذا فقد شاعت في خطابة بني أمية السياسية نزعة المكيافيلية الأموية التي تستر ستار الدين والتقوى في سبيل الوصول الى الهدف ، وشاعت في الخطابة الدينية والكلامية روح الفلسفة والجِدك ، وفي خطابة الوفود نزعة البلاغة الأخاذة ..

٣ - وفصلاً عن ذلك فقد حفلت خطابة الحوارج بالعاطفة الدينية العميقة حتى قيل : « كلامهم كان أسرع الى اقلوب من النار الى المشيم » أما خطابة الشيعة فكانت خطابة تظلم وصدق وعاطفة وقد بلغت مع الإمام علي أعلى ذروة وأسمى سُمُو .





## زياد ابن أبيه - الحجاج بن يوسف

### التوقيعات

أ - زياد ابن أبيه :

١ - تاريخه : وُلد في الطائف استلحقه معاوية سنه وولاه البصرة والكوفة وما إليها ، فمات في الحِلاد بصرة وجرم وقد تولى نحو سنة ٦٧٣هـ / ٥٣هـ

٢ - أدبه : خطب مخرفة أشهرها البراء.

٣ - قيمة خطاته : خطاته سياسية عمة ، يقع فيها حجة على مسلم ديني وعلى التهديد والتحريف . في كلامه جرأة وصراحة وردة حاش ، وشخصية لفة تُذكر كيف تُدعج بصبة الجماهير ، ومقدرة عجيبة على التعبير الحارم والحارم

ب - الحجاج بن يوسف

١ - تاريخه : وُلد في الطائف واحترف مهنة التعليم ثم اتصل بروح بن رُشاع وزير عبد الملك من مروان ، ثم وُلّي على العرف فكان حراً على كلِّ عمره . توفّي نحو سنة ٧١٤م / ٩٥هـ .

٢ - أدبه : للحجاج خطب ورسائل ماثلة في كتب الأدب

٣ - قيمة خطاته : الخطبة عنه افعال صاحب وكلام لاهب وأقواله صادرة عن تجربة صادرة وطيفة تتدفق في ما تقول وفي ما تفعل . ولسانه من أغنى الألسنة بياناً ، وأشدّها إعراباً . وهو يطلب الإدعان والأغبياد أكثر ممّا يطلب الاختناع ، فيكثر من التهديد والترهب في عبارة صحابة

ج - أبو حمزة الخارجي :

١ - تاريخه : وُلد بالبصرة وأخذ مذهب الإمامة وكان خطيباً بليغاً . قُتل سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م

٢ - قيمة خطاته : كلامه شديد العنف تنوّك فيه العبارة توتراً ، وعاجته حية بياضة ، وهو يبرز موقف الحوارح بلهجة دسّة صادقة .

د - التوقيعات :

التوقيعات عبرات موجزة عاية في البلاغة ، والعمق ، والروعة

## ١ - زياد ابن أبيه (٥٥٣ / ٦٧٣ م)

١ تاريخه :

أبو المغيرة زياد بن سمية المعروف بزياد بن أبيه من أهل انطاكية ، ويُنسب إلى أبي سفيان . وُلد حوالي السنة الأولى للهجرة ، وكان منذ حداثة سنه يرى رأي ماضي الهمة . وقد ولي بعض الأعمال فأظهر صرامةً ولباقةً ، ولما تسلَّم معاوية زمام الخلافة استحقته بسببه بعد أن أشهد أناساً من المسلمين أنه ابن أبي سفيان ، وولاه البصرة والكوفة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمَّان فساس البلاد سياسة صارمة وظلَّت أركان الأمن وقضت على كلِّ شغبٍ وفساد . ولث على تلك الحال إلى أن توفاه الله سنة ٦٧٣ م / ٥٣ هـ .

٢ - أدبه .

لزياد ابن أبيه عدد من الخطب السياسية والإدارية أشهرها الخطبة البتراء التي ألَّفها سنة ٦٦٥ م / ٤٥ هـ . لما قدم البصرة والياً من قبل معاوية . وقد سُمِّيَتْ خطبته البتراء لعدم بدنها بحمد الله . وقيل غير ذلك .

١ - تولى زياد أعمال البصرة والكوفة وخراسان وسجستان بيد شديدة ، وقد أعان ساعده نلسانه ، فقام على المابر خطيباً ينشر الدَّعوة لبني أمية ، ويدعو إلى السكينة والانقياد ، فكانت خطبته سياسية بحجة . وكان إلى ذلك يتمتع بسلطان واسع على أبناء ولايته . كما كان شديد الاطلاع على أحوالهم النفسية ، وعلى انضمام الكثيرين منهم إلى صفوف الشيعة والشعرية . ورأى أنَّ السلام لا يُنال إلا بالقسوة الساهرة ، وكان إلى ذلك كله رابط الجلَّش ، حادَّ البصر ، نافذ البصيرة ، خبيراً بأحوال الشعوب ونفسياتها ، فأطلق لسانه يوم قدم البصرة والياً فكانت خطبته «البتراء» وهي أشهر خطبه على الإطلاق . ويروى أنه لما فاه بها «وجم لها الناس فهم من أذعن لها خائف» . ومنهم من أتى متملقاً ، ومنهم من حاول الإنكار . ولكن سياسة زياد العممية لم تلت أن يبيت للناس أنه جاد غير هازل في ما أعلن من نذيره . وقد عدَّت تلك الخطبة إعلاناً لأول حكم عوفي في الإسلام .

٢ - افتتح الخطيب خطبته بتوجيه الاتهام الى أهل البصرة وإيضاح تبعه الأعمال التي يقومون بها ، مبيّناً أنها خروج على الدين الإسلامي وأنها من ثمّ تسحق العقاب الصارم . وإدّكا هو والي الخليفة الشرعيّ كان عليه أن ينتصر للدين وينقم له من الصّالّين والمعتدين . وفي هذا كلام منطوق شديد لا يعرفه ضعف . وسياسة بعيدة الأفق متسترة تحت ستار الغيرة على الدين ، وإعلان لواقع الخلافة الأموية في غير مناظرة ولا نقاش .

٣ - والذي يبدو لك في هذا القسم من الخطبة أن عبارة الخطيب مطبولة ، مترابطة ، يفصل فيها التهم ببرودة وهذوء واسترسال . وكأنّي به يتلو بياناً في صراحة ، ووضوح ، ودقّة ، ويقدم الرهان الموجز تأييداً للقول ، وهذا كله بلهجة جازمة لا تقبل اعتراضاً ولا تأويلًا . وهو في بيانه الاتهاميّ يشدد على بعض الأمور فَيُطَبِّبُ في ذكرها ويخرج عن سَنَةِ الإيجاز التي أتبعها في كلامه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَرَأَى الْجَهْلَاءَ الْجَهْلَاءَ ، وَالضَّلَالَةَ الْعَمِيَاءَ ، وَانْفِي الْمَوْفِيَ بِأَهْلِهِ إِلَى النَّارِ ، مَا فِيهِ سَفَهَاؤُكُمْ ، وَبَشَمَلُ عَلَيْهِ حُلَاؤُكُمْ ...

وهو يتخير ألفاظه وتعبيراته تحييراً ، فيختار لفظتي «الجهالة الجاهلاء» ليتهّم بالرجوع إلى الجاهلية ، ويختار النعوت «الجهلاء» «العمياء» الموفي بأهله إلى النار ، تقوية فكرته ونقل المستمعين من الاسلام الى أهل النار ، ويختار الفعل «أحدثتم» للدلالة على أَنَّ فِعْلَتَهُمْ ليس لها مثيل في الإسلام . وانها حَدَثٌ جديد بعيد عن روح الدين ، ومروقٌ لا يشبه أي مروق . وفي ذلك كله براعة رائعة .

٤ - ثم ينتقل الخطيب الى الاستفهام الإنكاري . والى العبارة ذات التقطيع المتقفل بانفعال صاحبها . والمشدّد باشتداد المهجة . فتتأرجح أساليب الإيجاب بأساليب النفي ، وأساليب التحير بأساليب الإنشاء ، يُصَافُ الى ذلك ما هالك من تقديم وتأخير ، وتأكيّد وقسم مما يكسب الكلام قوّة وبلاغة نادرّتين :

أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَهَاءٌ يَمَسُّونَ الْفَوَاحِشَ عَنْ ذَلِجِ اللَّيْلِ وَغَارَةِ النَّهَارِ ! مَا أَنْتُمْ بِالْحُلَفَاءِ ، وَقَدْ اتَّعَظْتُمُ السَّفَهَاءَ .. حَرَامٌ عَلَيَّ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ حَتَّى أَسْوِيَهَا بِالْأَرْضِ هَذَا وَخِرَاقًا ... وَإِنِّي لَأَقْسِمُ بِاللّهِ لَأَتَّخِذَنَّ الْوَلِيَّ بِالْمَوْلَى ...

٥ - ويعمد زياد الى خطبة الإيهام . فيوهم الناس أنه يعود الى خطبة السلف الصالح ، أي الى خطبة عمر بن الخطاب المستقاة من روح الإسلام : « لين بغير ضعف وشدة في غير عنف » . فينطلق في التهديد والوعيد ، والترهيب والترغيب ، في انضباط حازم ، وهيمنة قهارة ، وينطلق في التشريع ، وإذا التشريع إرادة لا تقبل احتجاجاً ولا دفاعاً ، وإذا هي حكم عرفي ، وإذا هي أخذ بالشبهة والريبة . وإذا هي إشراف البريء في إساءة المسيء ... وكل ذلك تحت ستار الدين ودفاعاً عنه ! ... وستأن ما بين روح الدين وروح الميكانيكية الأموية !

فإيائي ودلج الليل ، فإني لا أوفى بمُدلج إلا سَفَكْتُ دمه ... وإيائي ودَعَوِي الجاهلية ، فإني لا أجِدُ أحداً دَعَا بها إلا قَطَعْتُ لِسَانَهُ !

٦ ويستقل الخطيب بعد ذلك في سلسلة أفكاره المحكمة الى قانون العقوبات وإذا هو ثلاثة الأثاني ، وإذا كلام الخطيب صربات في القلوب ، ترنّ فيه العبارات رنين المطرقة في الآذان ، في إيجاز حازم ، ولفظ حازم .

٧ وإنك وأنت تقرأ خطبة زياد تلمس فيها شخصية صاحبها القوية ، تلك الشخصية المكونة من جرأة وصراحة ورباطة جأش ، تلك الشخصية اللبقة في صرامتها ، المهيمنة في صراحتها ، التي تبرز في براعة عسكرية ، وتسند الدساتير في استبداد وسلطان . فهو ولا شك ، كما قال الأصمعي « لكل كبيرة وصغيرة » .

وعبارة زياد مختلفة بين الطول والقصّر ، ليس فيها من العصب ما في عبارة علي ، وليس فيها من التصرف بوجوه الكلام ما في عبارة الإمام وهي لا تحمل من صور شديدة الصلة بالواقع . إنها عبارة خطابية واضحة الهدف ، تحري الى هدفها جرياً في غير التواء ولا اعوجاج . إنها عبارة الصراحة والجرأة والسلطان الذي يسيطر ويقهر .

## ب - الحجاج بن يوسف (٤١ - ٩٥ هـ / ٦٦١ - ٧١٤ م)

١ - تاريخه :

نُوحى محمد الحجاج بن يوسف الشَّقْفِي وُلِدَ فِي الطَّائِفِ نَحْوَ سَنَةِ ٦٦١ م / ٤١ هـ، وَلَمَّا شَبَّ احْتَرَفَ مِهْنَةَ التَّعْمِيمِ، ثُمَّ انْقَضَى إِلَى جَيْشِ حُشَيْشِ بْنِ ذُبْلَةَ الْقَيْنِيِّ، ثُمَّ إِلَى شَرْطَةِ رَوْحِ بْنِ زَنْعِ الْجَذَامِيِّ وَرِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، ثُمَّ وُلِّيَ عَلَى جُنْدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي الْحِجَازِ وَقَتْلَهُ، ثُمَّ وُلِّيَ الْعِرَاقَ وَفِيهِ مِنَ الْأَحْزَابِ نَارٌ مَشْبُوءَةٌ. فَكَانَ حَرّاً هَائِلَةً عَلَى كُلِّ ثَوْرَةٍ وَفَتَنَةٍ. وَهَكَذَا كَانَ الْحِجَاجُ رَحِلَ إِدَارَةٍ وَشَجَاعَةٍ، كَمَا كَانَ حَاكِمًا مُسْتَبِدًّا، وَدَاهِيَةً مِمَّنْ أَهْلَى الدَّهَائِ وَأَعْتَقَهُمْ، وَقَدْ أَضَافَ إِلَى أَعْمَالِهِ أَنَّهُ بَنَى مَدِينَةً أَسَاطِ بَيْنَ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ. وَقَدْ تُوُفِّيَ نَحْوَ سَنَةِ ٧١٤ م / ٩٥ هـ.

٢ - أدبه :

لِلْحِجَاجِ خُطْبٌ وَرِسَالٌ مَبِثُوءَةٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ، وَقَدْ قَامَتْ شَهْرَتُهُ عَلَى خُطْبِهِ، وَفِيهَا صُورَةٌ صَادِقَةٌ لِنَفْسِيَّتِهِ وَمَذْهَبِهِ فِي السِّيَاسَةِ وَالْحُكْمِ، كَمَا فِيهَا مَقْدَرَةٌ عَجِيبَةٌ عَلَى تَفْهَمِ نَفْسِيَّةِ الْعَامَّةِ وَعَلَى التَّصَرُّفِ فِي وَجْهِ التَّعْمِيرِ وَالتَّهْوِيلِ.

٣ - قيمة خطابه :

١ - خُلِقَ الْحِجَاجُ أَدِيبًا وَخَطِيبًا، فَكَانَ مِنْ أَعْلَامِ الْعَصَةِ وَالْبَيَانِ. وَالْخُطْبَةُ عِنْدَهُ انْفِعَالٌ صَاحِبٌ وَكَلَامٌ لَاهِبٌ. إِنَّهُ ذُو نَفْسِيَّةٍ شَادَّةٍ تَرِيدُ تَكْوِينَ الذَّاتِ عَلَى جِثِّ الْقَتْلِ، وَتَسْتَطِيعُ سَقْلَ الدَّمَاءِ فِي سَبِيلِ عَايَةِ تَنْشِدِهَا؛ وَالْوَسِيلَةَ عِنْدَهَا صَالِحَةٌ أَبًا كَانَتْ، وَالنَّاسُ فِي نَظَرِهَا قَطِيعٌ غَتَمَ بِسَاقٍ بِالْعَصَا، وَيُجْزَى وَيُدَيَّحُ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَرَوْا رَأْيًا، وَلَا أَنْ يَعْترِضُوا اعْتِرَاضًا، وَلَا أَنْ يَحْكُوا فِي صَالِحٍ أَوْ بَاطِلٍ. لَقَدْ خَطَّ لَهُ زِيَادُ ابْنِ أَبِيهِ الطَّرِيقَ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَجَاوَزَ الْغَايَةَ، فَمَضَى فِي تَعَسُّفِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَمَصَى فِي طَغْيَانِهِ يَرْعُدُ وَيَزِيدُ وَيَهْدُدُ، فَكَانَ كَلَامُهُ صُورَةً لِفُلْيَانِهِ وَشَتَّى أَحْوَالِ نَفْسِهِ الْعَنِيفَةِ.

٢ - لم يكن الحجاج ليصطنع القوة اصطناعاً ، ولم يكن ليزيف الكلام تزييفاً . إن أعماله وأقواله صادرة عن تجربة ذاتية صادقة ، صادرة عن طبيعة تندفق في ما تفعل وفي ما تقول . إنها الذات التي اكتنفتها النقص في الجسم<sup>١</sup> وفي الحياة الاجتماعية ، وحملها على الانتقام من الوجود بثورة عارمة عن الوجود . ولهذا كله تلمس في خطابه عنفواناً حياً ، هو أعف ما يكون العفوان ، وأشدّه عصفاً ، وأقواه فاعليةً ، وأبعده أثراً في النفوس .

٣ - وهذه الحياة عند الحجاج يساندها لسان من أعنف الألسنة بياناً ، وأشدّها إغراباً ، وأوجزها تركيباً للعبارة ، وأبرعها اختياراً للفظ المبررة عن أعنف معنى أنتم ما يكون التعبير ، وأعنف ما يكون الأداء ، وأعنف ما تكون الموسيقى المرافقة لذلك الأداء المقررة لذلك المعنى . إن الألفاظ عند الحجاج هي صرخات نغمته ، ووخزات وحشيتة في قلوب الناس ، وطعاعات شذوذه في ضمير الوجود .

٤ - وهذا كله تحول في الذممة الحجاجية إلى هيمنة بلاغية ، ولاسيما وإن الكلام في خطبه لإيهائي تروهيي<sup>٢</sup> ، والترهيب عنده تمثيل للعنف بأقبح صور التهويل ، وأشدّها تعظماً بما يروع القلوب ويحطم الهمم . وخطب الحجاج صور تنويع ، ومشاهد تلو مشاهد ، تتخللها القصفات البدائية ، العاتية ، والانتفاضات العصبية الجاحقة .

٥ - والحجاج إلى ذلك من أقدر الناس على تمثيل الأدوار على مسرح الخطابة . عرفنا كيف دخل مسجد الكوفة ، عندما تولى أمر العراق ، وهو مثلم وإلى جنبه السيف ، وفي منكبه القوس ، وكيف اعتلى المنبر صامتاً وعلى فيه إبهامه ، وكيف مكث ساعة لا يتكلم والناس بين حائر وساخر ، ثم أخيراً كيف انفجر انفجار السيل الجارف ويروى عنه أنه كان أحياناً يبدأ خطبته بصوت منخفض ، ثم يأخذ في رفع الصوت شيئاً فشيئاً ، ويطلق يده من مطرفه مرافقة حركة الصوت واتماع العينين . وهكذا كان الحجاج يحبط بنفسه وقلبه ولسانه ووقفته وحركة اليدين والعيون . وكان كلامه دائماً كلام البلاغة التي لا تطلب الاقتناع بقدر ما تطلب الإذعان والانتقاد .

١ - وقد احتجج أشهر العبيد ، أمك الرجلين ، بمسوح الحائزين ، إلى رأس كبير مستطير كأنه مرس بين كفيه .

٦ تطوّرت الخطابة في عهد بني أمية تطوّراً ملموساً. فهي، فيها سبق، وسيلة الإقناع والموعظة والإرشاد. وهي الآن وسيلة السيطرة والتعسف والاستبداد، وقد بلغت مع الحجاج بن يوسف أوج العنف والقسوة، وأصبحت معه سوطاً في الظهر، وشفرة في الثّحور، وقضاً جباراً يصل إلى العظام والأخاخ، حتى لكانّ الناس قطع من السّائمة، والحكّام جزّارون جائرون، لا يعالجون الأمراض إلّا بالترّ والكبيّ، ولا يداوون النّفوس إلّا بتمزيق الأجسام وتحطيم العظام.

٧ يهدف الحجاج كزياد إلى فرض السّياسة الأموية وإلى الإصلاح الاجتماعيّ الذي تسيطر معه تلك السّياسة. والإصلاح، في نظر حجاج، هو تجريد الإنسان من إنسانيّته، هو أن يهون المستمع إلى حدّ انوث التّفاعليّ، فلا يتصلّب، ولا يمتنع، ولا ينظّم، بل يلزم جانب التّقبّل والانفعال. ومن ثمّ فالحجاج يشتمه، ويحقّره، ويعت في ذاته الاشتراز من ذاته، بحيث تقلّص شخصيته تقلّصاً تاماً<sup>١</sup>

ثمّ يعمل الحجاج على بعث الدّهول في نفس المستمع، فينهال عليه تهديداً وترهيباً، في غير لين ولا شفقة<sup>٢</sup>؛ وهو يعمد في ذلك إلى ضروب من العوامل الإرهائية، فيبثّ القوة في كلّ ما يقول وما يفعل، وإذا القوّة تمثّل على المنبر، وإغراباً بدويّ في اللفظ والعبارة<sup>٣</sup>، وتأكيد وقسم، وموسيقى لفظيّة شديدة، وأبيات شعريّة عنيفة في معناها وتلاطم ألفاظها، وتجسّم للحقائق على خطّة الجاهليّين، وحشد للصّور التّهويليّة التي يقذفها الخيال الجبارُ حمماً مشتعلة<sup>٤</sup>.

١ من ذلك قوله: «إنّ الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدمّ والنّصّب والمساع والأطراف والأعضاء والشعاف، ثمّ أقضى إلى الأخاخ والأصباح. ثمّ لرفع معشش، ثمّ ناص وفرح، فحشاكُم فاعاد وشقاقاً».

٢ من ذلك قوله: «والله لستقيمنّ على حريق الحقّ أو لأدعنّ لكلّ رجل منكم شغلًا في حسده...».

٣ من ذلك قوله: «هذا أولان النّسلو عانتني ريمّ قد لقيها الليل سوان حُلم».

٤ من ذلك قوله: «إيّا الله لألويكم لحو اعضا، ولأفرعنكم قرع المروة. ولأعصبيكم عصب السّلمة، ولأضرّبتكم ضرب غرائب الأمل...».

وكم في قوله التالي من حيويه والمعال وصعب: «ولياي وهله الزّوايات، والجماعات، وقالاً وقلاً، وما يقرّون، وفيه أنّم وذلك!...».

- ٨- والحجاج في ذلك أقدر من زياد، تمكن الزراعة البدوية فيه، وسلطانه الواسع على اللغة وأساليبها، وتواصل المهوية الفنية في قواه الذهنية واللسانية. والأمر الذي نلمسه في خطابة الحجاج هو تلك الصنعة البدوية التي تتسلح بالسجع على أنه تكرار لصوت القضاء المحتوم؛ والسجع في خطبه محكم الفواصل، شديد الروي. والغريب في الأمر أن الحجاج كزياد يعتمد إلى الآيات القرآنية، ويستتر بستار الدين لتقوية كلامه، والوصول به إلى النفوس. وهذا التدبير خطة مكيفيلية أموية لا تؤمن إلا بسياستها والضغط على الحريات والتحكم برقاب العباد.
- ٩- وإذا كان الحجاج رجل أفعال شديد فقد فقدت خطبه إحكام التسلسل الفكري، وبدت غير مترتبة في عنفها، غير متدرجة في تصاعد عمدها التأثيري، واكتفت بالجو الرهيب، والتجسيم الحسي الغريب.

### ج- أبو حمزة الخارجي (١٣١هـ / ٧٤٨م)

#### ١- تاريخه:

- ١- هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي السلمي البصري، ويُعرف بأبي حمزة الخارجي. وهو ثائر قتال ومن القادة الخطباء. وُلِدَ بالبصرة، وأخذ بمذهب الإباضية وهي فرقة إسلامية في عداد الخوارج.
- ٢- كان كل سنة يوافي مكة يدعو الناس إلى الخروج على مروان بن محمد، آخر ملوك بني أمية، ولم يزل على ذلك إلى أن التقى بطالب الحق (عبد الله بن يحيى)، فذهب معه إلى حضرموت وبايعه بالخلافة، ثم توجه إلى الشام لقتال مروان، فر بمكة واستولى عليها، ثم توجه إلى المدينة فقاتله أهلها في قُذَيْد، ولكنه تغلب عليهم ودخل المدينة عشوة وأقام فيها نحو ثلاثة أشهر.
- ٣- ثم واصل سيره إلى الشام، فوجه مروان لقتاله أربعة آلاف فارس بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي. فالتقى الجيشان في وادي القرى ودارت الدوائر على



أبي حمزة ورحاله ، فلاذ أبو حمزة بالفرار إلى مكة ولكن ابن عطية السعدي تعقبه وقتله سنة ٧٤٨.

## ٢ - قيمة خطابه :

١ - نقيم الحوارج على الإمام عي كما نقوموا على معاوية بن أبي سفيان وكثروها ، الأول لأنه قبل بالتحكيم في يوم صفين ، والثاني لأنه اغتصب الخلافة اغتصاباً وجعلها في سلالة. من حزب الحوارج الإباضية ، وهي فرقة منسوبة الى عبد الله بن إياض (٧٠٥ م) ، وكان داعيتها عبد الله بن يحيى طالب الحق . وللإباضية تقايد ونظم خاصة يتمشون عليها ، ولا يزال لها الى اليوم أتباع في بعض البلدان.

٢ - أبو حمزة الخارجي شديد التمسك بإسلامه ، شديد النعمة على من ابتعدوا عن روجه وتعاليمه ، وقد حملته عبرته على كلام شديد القسوة ، شديد العنف ، يحفل بالصرخة والحرقاة والاسهانة في سبيل الغاية المنشودة.

٣ - وأبو حمزة شديد الانفعال تتوَّج عباراته توقياً ، وتنطلق أفكاره انطلاقاً حافلاً بالعاطفة الحية النباضة . وهو صادق في عاطفته الى أقصى حدود الصدق ، يصدر كلامه عن عقيدة صحيحة وإيمان راسخ :

إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا أَشْرَأَ وَلَا بَطْرًا ، وَلَا نَهْوًا وَلَا لَعْنًا ، وَلَا لِدَوَلَةٍ مَلِكٍ نُرِيدُ أَنْ نَخُوضَ فِيهَا ، وَلَا لَأَرْ قَدْ بَيَّلَ بَيْنًا . وَلَكِنْ لَمَّا رَأَيْنَا الْأَرْضَ قَدْ أَطْمَنتْ ، وَمَعْلَمُ الْجَوْرِ قَدْ ظَهَرَ ، وَكَثُرَ الْأَدْعَاءُ فِي الدِّينِ ... سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي إِلَى الْحَقِّ ... فَأَجَبْتُ دَاعِيَ اللَّهِ ... !

٤ - إنه بفتح خطبته بالدعوة الى تقوى الله والنهوض في وجه من يستهيم الجبايرة ، وهو ولا شك يهاجم معاوية ، ويكفر علياً لأنه قبل بالتحكيم ، ويعد أن الخلافة أصبحت نهياً للناهيين . وأن الحكم ابتعد عن سنة القرآن والدين ، ولهذا يرى أن الواجب يقتضي إلمامة أحيا الظالمون ، وإحياء ما أماتوا . وهو بذلك كله يبرز موقف الحوارج ويضمن كلامه البرهان على صحة ما ذهبوا إليه :

أَوْصِيَكُمْ أَنْ يُطَاعَ اللَّهُ وَيُعَصَى الْعِبَادُ فِي طَاعَتِهِ ... وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مُعَصِيَةِ  
الْخَالِقِ. نَدْعُو إِلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَالْقِسْمِ بِالسُّوْيَةِ وَالْعَدْلِ فِي الرَّعْيَةِ

هذا الكلام نغمر ثورة خارجية تقضي على كل شيء مما عدّه الخوارج خروجاً على  
السنة والدين.

٥ - وبعد هذا الافتتاح يباشر أبو حمزة قضية الخوارج، ويعلن أن خروجهم  
انتصار للحقيقة، وتلبية لدعوة من الله، وانتفاضة في وجه الظالمين الطامعين، وحقته  
على استقامة دعواهم، وصلاح هدفهم، وصحة معتقداتهم، أنهم أقبلوا مستضعفين  
فأواهم الله وأيدهم بنصره.

فَأَقْبَبْنَا مِنْ قَبَائِلِ شَتَّى، قَلْبَيْنِ مُسْتَضْعِفَيْنِ فِي الْأَرْضِ، فَأَوَانَا اللَّهُ، وَأَيَّدَنَا  
بِنَصْرِهِ، فَأَصْبَحْنَا يَنْعَمُ بِهِ إِخْوَاناً وَعَلَى الدِّينِ أَعْوَاناً

٦ - ثم يتطرق الخطيب في زجر أهل المدينة، فيحذرهم من كل صلاح، ويبيّن  
أن آباءهم كانوا خير الآباء، وأنهم كانوا شرّ الأبناء. والسبب في ذلك أنهم انتعلوا عن  
الحق، وانجبروا في الأباطيل، فسيطر عليهم الهوى، وعميت أبصارهم عن تعاليم  
الدين، ولم يصغوا لأقوال الخوارج الثائرين.

وإناك لتلمس في كلام أبي حمزة شيئاً يشبه كلام الخطباء الذين انتصروا لنبي أمية،  
ولكنه يفرقهم جميعاً في هذه اللهجة الدينية التي ترافق أقواله، وفي هذا الموقف القائم  
على التقوى والعدالة الإنسانية

٧ - وحلاصة القول أن أبا حمزة الخارجي خطيب سياسي وحري من الدرجة  
الأولى وإن في كلامه نار عيرة ونور يقين.

## د - التوقيعات

ويلحق بالخطابة ما سماه العرب بالتوقيعات وهي من أبلغ الكلام ، ومن أوجزه لفظاً ، وأوسع معني ، وأقواه مغزى .

التوقيعات عبارات موجزة كان يكتبها الخليفة أو الوالي أو عمالها في أسفل الشكاوي والمظالم ، أو المطالب والحاجات التي كانت ترفع إليهم بما يتضمن الرأي فيها ، كأن يكتب إلى وزير في غرض ما ، فيكتب الرئيس عنه بما يفيد وجوب الفحص أو قضاء الدرب .

وقد ظهرت التوقيعات في عهد الخلفاء الراشدين ، وأزدهرت في عهد بني أمية ، وإليك بعضاً منها :

كُنْ لِرَعِيَّتِكَ كَمَا تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمِيرُكَ<sup>١</sup> .  
 قَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِمَا يُقِيمُكَ وَليْسَ فِي مَالِ اللَّهِ فَضْلٌ لِلْمُسْرِفِ<sup>٢</sup> .  
 قِيَمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ<sup>٣</sup> .  
 رِمَا كَانَ عَقُوقُ الْوَلَدِ مِنْ سُوءِ تَأْدِيبِ الْوَالِدِ<sup>٤</sup> .  
 نَحْنُ الزَّمَانُ مِنْ رَقَعْنَاهُ ارْتَفَعَ وَمِنْ وَضَعْنَاهُ انْقَضَعَ<sup>٥</sup> .

للتوقيعات قيمة أدبية عظيمة ، فهذا الإيجاز ، وهذه البلاغة ، وهذا السمو في المعنى ، والقوة المخططة في الالفاظ ، كل ذلك أثبت أثره في النفوس وأبعد صدق في القلوب من ألف خطاب وألف رسالة ، إنها قنابل متفجرة ، تنطلق شظاياها عصاره حكمة أو كنع عقول .

١ - توقيع لعمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص .

٢ - توقيع لعثمان بن عفان في قصة رجل شكاه علة

٣ - توقيع لعلي في كتاب صمصمه بن صوحان يسأله في شيء

٤ - توقيع لزيد في رجل شكاه إليه عقوق أمته

٥ - توقيع لمروية

## مصادر ومراجع

- شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - القاهرة ١٩٥٢ .
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ .
- محمد عبد المنعم حمادي : الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - القاهرة ١٩٤٩ .
- عبد الرزاق حميدة : أدب الخلفاء الأمويين - القاهرة .
- أبيس المقلبي : تطوّر الأساليب النثرية في الأدب العربي - بيروت ١٩٣٥ .
- طلح حسين : من حديث الشعر والنثر - القاهرة ١٩٣٦ .
- عبد الفتاح عبد المقصود : الإمام علي بن أبي طالب - القاهرة ١٩٤٦ .
- أبو النصر الياقي : الدُّعاة الثلاثة : ابن العاص وزياد ابن أبيه والمغيرة بن شعبة - القاهرة ١٩٤٦ .
- ابراهيم الكيلاني : الحجاج بن يوسف - دمشق ١٩٤٠ .
- عبد الرزاق حميدة : سيف بني مروان - الحجاج - مصر ١٩٤٧ .
- عمر أبو انصر : الحجاج بن يوسف - بيروت ١٩٣٨ .
- حسنون الكتاني : الحجاج بن يوسف - دمشق ١٩٤٠ .



## الفصل الرابع

### الكتب والرسائل والنصيات

أ الكتب في عهد الخلفاء الراشدين :

١ - دواعيا - امتداد الامبراطورية العربية وتعد اناسقات بين أولي الأمر وعُلمهم . - أنشأ معاوية ديوان الخاتم وديوان الرسائل . وكانت الرسائل أنواعاً مختلفة .

٢ - قيمتها : فيها حكمة ودراية وروح دسّة ، وحرم لثر القبي برداد معها لياً من غير تسبق ولا إظهار .

ب الرسائل في عهد بني أمية .

أشيت الدواوين وتُكَلَّت الكتابة فيها شيئاً فشيئاً إلى اللغة العربية . فالتحد لثر العربي مجاً حديداً فائماً على التفصيل والتطورين وافتح باب التصنيف ، وظهر التأتق

ج النصيات .

كانت ذات أسلوب حليل يثار بالرمزية والابجاز والوصوح

عيد الخعيد الكاتب .

١ - تاريخه . هو فارسي الأصل ، أصبح كاتب احلاقة في عهد مروان ، وقُتل في الثورة الخرسانية ، سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م .

٢ - أدبه : رسائل سياسية وأدبية ، وكُتِب إخوانية ، من أشهرها رسالة إلى الكتب . ورسالة في الشطرح .

٣ - أسلوبه : يتألف أسلوبه من عناصر مختلفة عصر الوضوح والتفصيل ، وعصر الإظهار وإطالة التحييدات ، وعصر المطلق والترتيب والتنسيق ، وعصر الموسيقى .

## أ - الكتب في عهد الرسول والخلفاء الراشدين

### ١ - دواعيها :

امتدت حدود الأمبراطورية العربية وفصلت المسافات بين أولي الأمر وعُماهم ، فكان لا بدّ لهم من إنفاذ الكتب إلى الأطراف في الشؤون الدينية والسياسية والإدارية .

كانت الكتابة في صدر الإسلام عبارة عن أداء المعنى في إيجازٍ وقضاب ، وأول من عُيِّنَ بالكتابة في أعمال الخلافة والدولة عمر بن الخطاب ، ولما كان العهد الأموي أنشأ معاوية ديوان الخاتم لتسجيل رسائل الخلافة حتى لا يطلع عليها إلا من أُرْسِنَتْ إليه ، كما أنشأ ديوان الرسائل لكتابة رسائل الخليفة . وهكذا علا شأنُ الرسل شيئاً فشيئاً ، واختلفت أغراضه ، وتوّعت فنونه ، فكان مه الرسائل السياسية التي تصدر عن ديوان الرسائل ، والرسائل الإخوانية في العتاب والشوق والشكر والتهنئة وما إلى ذلك ، والتوقيعات . وأشهر من اشتهر في كتابة الرسائل عبد الحميد بن يحيى الكاتب .

### ٢ - قيمة الكتب :

تجلى لنا في هذه الكتب عقيدة العرب السياسية والإدارية والحريّة . فإن فيها من الحكمة ، والدراية ، والروح الدينية ، وروح العدل والإنسانية ، كما فيها من الحزم ، وحسن الإدارة ما يشهد لحكّام ذلك العهد بالتفوق الحقيقي ، والحاسة التي لا تحُد من انطلاقها صعوبة ، ولا تنكسر من حدتها عقبة .

أما من الوجهة الأدبية فنلاحظ أن الشر الفني يزداد فيها لينا من غير ما تتميق ولا إطناب . فهي ترمي إلى غرض ديني أو سياسي لا ترمي إلى غيره . هي طريق إلى الإفهام والإصلاح ، هي رسول العقل إلى العقل ، وليست مركباً لإظهار المهارة والحدق فيها الإيجاز ، والسلاسة ، والوضوح ، وليس فيها الزخرف والتطويل .

## ب - الرسائل في عهد بني أمية

لما اتسعت الفتوحات ، وكثرت موارد الدولة ، وتعقدت المصالح ، كان لا بدّ للخلفاء من إنشاء العواوين لضبط الموارد والمصرف ، وضبط أعطيات المسمين ، وإقامة نظم واضحة يجري عليها الجميع ، وقواعد مفصلة تسير عليها الإدارة وأمور الجيش والحراج ، وقد عهد الخلفاء في كتابة الدواوين الى العرب والموالي ، وظلّت كتابة الحراج في الأقاليم بدغة أهل مصر ، ففي العراق وفارس بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية ، الى أن حذقها طائفة من العرب في عهد بني أمية ، فتولّوا شؤونها ، ونقلوا الكتابة فيها الى اللغة العربية ، ومنذ ذلك الحين ، تُخذ النثر العربيّ اتجاهًا جديدًا قائمًا على التفصيل والتطويل ، وامتدح باب الرسائل والتصنيف ، فكانت الرسائل أبحاثًا مختلفة في السياسة والكتابة وما الى ذلك ، وكان التصنيف كتبًا في موضوعات مختلفة كال تاريخ وغيره . وقد ظهر التأثّر في الرسائل ، وراح كُتّابها يتبنّسون في الترخفة وحسن الأداء ، والموسيقى الصوّيّة ، مقتبسين من أساليب الفرس والروم تفخيماً ومنطقاً ، وراحوا يضعون للكتابة أصولاً وقوانين تجري عليها ، وانقلبت الطبعية والقطرة الى صنعة . وكان زعيم هذا الأسلوب في ذلك العهد عبد الحميد بن يحيى ، الذي لقب « بالكاتب » تعظيماً لشأنه وإقراراً بفضله .

## ج - التوصيات في عهد الخلفاء الراشدين وعهد بني أمية

التوصيات هي عصارة حكمة وحياة ، وهي الخبرة مسكوكة سكّا في أسطر تخرح بالمعاني الجليلة ، والحكمة ، والدراية ، والهدوء الذي تسيطر عليه في أغلب الأحيان رهبة الموت وحقيقة الآخرة ، أو أعباء المسؤولية ، أو الروح الدنيّة العميقة ؛ ومن ثمّ فالأسلوب جليل يمتاز بالرصانة والايجاز كما يمتاز باللين والوضوح ، وفيه الى ذلك شدة اللهجة التي تخاطب وتأمّر وتهدي .

## عبد الحميد بن يحيى الكاتب (١٣٢هـ - ٧٥٠م)

### ١ - تاريخه .

أبو غالب عبد الحميد بن يحيى فارسي الأصل ، احترف مهنة التعليم في بدء أمره ثم كتب لمروان بن محمد عامل أرمينية ، ولما بويع مروان بالخلافة أصبح عبد الحميد كاتب الخلافة ، إلى أن كانت الثورة الخراسانية مع أبي مسلم فقتل مروان وقتل كاتبه معه ، وذلك سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م .

### ٢ - أدبه :

لعبد الحميد رسائل في موضوعات مختلفة من سياسية وأدبية ، وله كتب إخوانية . ومن آثاره رسالة طويلة كتبها على لسان مولاه مروان بن محمد ووجهها إلى ابنه عبد الله حين أرسله إلى محاربة الضحّاك بن قيس الشيباني رأس الخوارج بالجزيرة سنة ١٢٧هـ - ٧٤٥م ، وقد جعلها عبد الحميد دستوراً كاملاً في تنظيم الحشوش تنظيماً يشمل الناحيتين المادية والحريّة . ومن آثاره أيضاً رسالة وجهها إلى الكاتب ، وجعلها مجموعة نظم وقواعد لأدب الكتابة ، ثم ضمتها توجيهاً قيمة للكاتب في ما يتعلق بأخلاقهم ، وضرب أنفسهم من المعايير ، ثم بتضامّهم وتوحيد صفوفهم للتعاون . ومن آثاره أيضاً رسالة في الشطرنج يدعو فيها إلى الاقتصاد في هذه اللعبة والابتعاد عنها ، إذ أصبحت في بعض الأمصار شغلاً شاغلاً ومدعاة إلى إهمال الواجبات والقيام بالأعمال ، بل صرفت الناس عن أمور معاشهم .

### ٣ - أسلوب عبد الحميد الكاتب مدرسة جديدة في النثر :

١ - كان عبد الحميد الكاتب وأسس المدرسة الفنيّة في الكتابة العربيّة ، وقد أصبحت معه صناعة أعدّها لنفسه مستعينة بما لقومه من أساليب وفنون ، وبما للرب من ثراث وافر الثروة والغنى . وكان الكاتب قبله يعتمد على فطرته وسجيته وما اكتسبه



بالممارسة من أساليب البيان، فلما أتى هو جعل للكتابة قواعد معينة، وشرع لها رسوماً، وشقّ طريقاً جديدة استحسنها الناس، وتتبعها الكتاب حتى قيل: «تدبّت الكتابة بعبد الحميد». وقال طه حسين: «أما عبد الحميد فلا عُبار على لُغته، وربما لم يوجد كاتب يعدّل عبد الحميد فصاحةً لفظاً، وبلاغةً معنى، واستقامة أسلوب. فهو أحسن من كتبّ العربيّة ومرنها، وأقلّها على أن تتناول المعاني المختلفة وتودّها. وربما كان عبد الحميد الأستاذ المباشر للكتاب المترسّنين، وبنوع خاصّ للجاحظ».

٢ - عندما تقرأ رسالته الى الكتاب يتبادر إليك أن صاحبها أقام لها تصميماً دقيقاً درّس معانيه وأجزاءها، ووضع خطة التعبير عنها، وربط ما بين الأقسام، وجمع من البراهين أشدها إقناعاً وأبلغها أثراً، وأنه أكبّ بعد ذلك على معالجة الموضوع في هدوء وريانة، وفي تنبّع واتزان، وفي يقينه أنه كاتب للكتابة عليه حقوق، وأن صناعة الكتابة تطلب الإقناع على سنن العلم والفنّ، وأنه يتوجّه الى كتاب يريد أن يكون لهم مثلاً في الأدب الذي اختاروه لهم صناعة، وفي الأخلاق التي يقتضيه ذلك الأدب. ويتبادر إليك أيضاً أن عبد الحميد لا يعتمد القطرة والسجّية والإرتجال بل يضيف الى السجّية تفكيراً يناقشه في ذاته، ويبتزّه اجتراراً في معناه وفي لفظه، حتى يخرج واضحاً، لنا بعيداً عن كلّ شائبة.

٣ - وهنا يتّضح لنا هذا الفرق ما بين العقل الآري والعقل السامي. فمما ترى العقل السامي العربي، منذ الجاهلية الى عهد عبد الحميد، يعتمد في الكتابة طاقة الارتجال وهي لديه غنيّة فيّاضة —، ويسير على البديهة وهي لديه ومضات بعيدة الأجواء. —، ويعمل الكتابة قفزات في غير نطاق معين، وفي غير انضباط فكريّ وفنّي، ترى العقل الآري المستعرب يعتمد منهج التركيز في تحليل الموضوع، ويقيم بناءه في ذهنه، مسترسلاً في التأمل والتخطيط، متأنياً في استخراج الفكرة من الفكرة، وفي إلحاق المعنى بالمعنى، بحيث يتمّ له البناء الكامل الذي يروق بهندسته ونظامه. وإنك إذا قرأت هذه الرسالة بدقة، وأجست النظر في تصميمها، وقفت على هذا المنهج الجديد في الكتابة العربيّة.

٤ - أضف الى ذلك أن عبد الحميد ينطلق من مبدأ الإفهام، ويعمل اللفظة والعبارة، ويجعل الكتابة، وسيلة لإفهام السامع، وهو يتخيّر لذلك ما سهّل من

الألفاظ ، وما وضح معناه من العبارات ، ويربط ما بين الأجزاء ، ويقدم البراهين والشواهد والتفسيرات وذلك كله في جو صاف لا يعكره نزق ولا تسرع ، وهو يطيل العبارة ، ويمدّها بامتداد المعنى ، ويسهب إسهاباً يزول معه كلّ عموص أو التباس ، وهدفه أبداً أن يصل المعنى كاملاً تاماً ، وأن تكون الألفاظ والعبارات على مقادير المعاني . وفي هذا سرّ بلاغته ، وهو يخالف العرب في معنى البلاغة . ولا يخضع لنظام الإيجاز الذي اتبعوه وانطلقوا من مبدئه في كتابتهم ، فالإيجاز في نظره ليس هدفاً ، وليس بلاعة ، ولا أمراً يجب الاهتمام له ، إنما الهدف أن تكون العبارة قناةً للمعنى . تنقله نقلاً صادقاً أميناً ، في سهولة ووضوح :

وَلَيْكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ ، عَلَى مَنْ اضْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمٍ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ ، أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ ، فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشَّغْلِ مَحْصَدَةٌ فَلَا يَصْرِفُهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ ، وَإِنْ عَرَضَتْ مَدْمَةٌ فَلْيَحْبِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ ..

٥ - ولا يكفي عبد الحميد بإيصال المعنى إلى ذهن السامع ، بل يعمل على إيصاله بطريقة متعة . فهو يكبّ على معناه ويصقله ، ويكبّ على عباراته وألفاظه ويصقلها ، حتى يصبح الكلام مرناً ، ليناً ، ينساب إلى النفس انسياباً ، ويتغلغل في كيان السامع أو القارئ تغلغلاً رقيقاً وكأنه السحر الحلال ، أو كأنه التسميم الليل الذي لا يصدملك ، ولا يعصف بك ، بل يلامسك وكأنه لا يلامس ، ويعزو نفسك وجسمك فتشعر بهنائه وسعادته ولا تشعر به :

وَتَحَاتُوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فِي صِنَاعَتِكُمْ ، وَتَوَاصَوْا عَيْبَ بِالَّذِي هُوَ الْيَقُ لَأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالثَّبَلِ مِنْ سَفَاكِكُمْ . وَإِنْ جَاءَ الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْطُوا عَلَيْهِ وَوَأَسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ ، وَيَتَوَبَّ إِلَيْهِ أَمْرُهُ ...

٦ - وعبد الحميد يقصد إلى الإمتاع قصداً . فيصيف إلى السحر في كتابته ، عنصر الأنافة والبلاغة ، وعنصر التصوير والموسيقى . والكتانة عنده فنّ جمالي يسير على نظام الفنون والجمال . وهو يكبّ عليها بكلّ جوارحه وكلّ ما عنده من مواهب نفسية وجمالية ، فيتمدّد عن كلّ اضطراب ، وكلّ نزوة عصبية ، فيمسك القلم بأنامل الروق ، ويخطّ على القرباس في استقامة الحرف وجمال تصويره . ويسوق العبارات والفقر

متساقطة متناسقة، يسكب فيها الذوق كل ما في النوق من أناقة وسلاسة وعذوبة ، ويجعل كل ذلك في سمفونية موسيقية عجيبة . ومما لا شك فيه أن اللغة العربية موسيقية في طبيعتها ، وأن العرب الأقدمين استخدموا التصوير والموسيقى في أدبهم ، ولكن الفرق فيما بينهم وبين عبد الحميد ، أن الصورة عنده لا تنبأى بأنها صورة بل تتقدم إلى القارئ أو السامع كالغادة المهمة المزينة التي لا يكاد يشعر بزينها ودوي خلايلها ، تتقدم إليه سحراً في العين ، ووسوسة في الأذن ، ورونقاً في الكيان ، وحلاًلاً يستولي على الوجدان ، وأنّ الموسيقى عنده سمفونية متعددة المعزف والأوتار ، متناغمة في تعددها ، تزخر بالمعاني ، فيما أنها عند قدامى العرب وتر واحد ، أو صوت لآلة موسيقية واحدة .

وعبد الحميد يعمد إلى ضرب من الترادف والمزاوجة في سبيل ما يتوخاه من موسيقى وإيقاع :

إن الله عز وجلّ ، جعل الناس ... أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواها ، وصرفهم في صفوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم . وهو يعمد أحياناً إلى تعبيرات موصولية لا تُفيد من ناحية المعنى ، ولكن تفيد من ناحية التأثير المعنوي ، والتصوير الفني ، والموسيقى اللفظية :

فموقعكم من المولى موقع أسباعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وأنسيتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون .

وهو يعمد أحياناً أخرى إلى شيء من السجع يقف عنده موقف استراحة وإرتياح ، ثم يعود إلى انطلاقه في تنوع الأساليب وعذوبة الانسياب :

وآزقوا بأنفسكم عن المطامع ، سنيها وذنيها ، وسفساف الأمور ومخاقرها ، فإنها مثله للرقاب ، ومفسدة للكتاب ... وإن أفعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاه إخوانه ، فزوروه وعظموه ، وشاوروه ، واستظفروا بفضل تجربته ، وقديم معرفته ..

وهو يعمد كذلك إلى ألوان من التقسيم في العبارات ، حتى لكان الأقسام تتجاوب أو يُضدي بعضها لبعض ، كما نلمس ذلك في النموذج السابق .

٧ - وعبد الحميد الكاتب يضيف الى قدرته على الإمتاع مهارةً عجيبة في استعمال  
 الروابط الكلامية، كأحرف العطف والجر وغيرها، وهو شديد السيطرة عليها، شديد  
 الوقوف على أسرارها، وهي خير معاون له في تطويل عباراته، يستعملها للربط،  
 والتدقيق في المعنى، وحصر المفاهيم، كما يستعملها لتليين الكلام ومساعدته على  
 الانسياب الهادئ، فيتلوَّى تلوي الأفعوان فوق الزمال الناعمة، أو تلوي المَلّوي بين  
 العُشب ولِلاء. ولا عجب بعد ذلك كله أن يقال: «بُدِّتْ الكتابة بعد الحميد».



إبريق من سفوف ذي البريق المعدني وعليه نقوش فوق الدهان.

من نهاية القرن ٩هـ - ١٢م

(المتحف الإيراني)

## الفصل الخامس المحاورات والقصص والتقد الأدبي

أ المحاورات .

- ١ - حقيقتها - من أدبي كان في الجاهلية منافرات ومفاخرات ومساجلات ، وقد ازدهر الحوار في العهد الأموي لتعدد الأحزاب والفرق . وكان جدلاً أو أجوبة أو معاصرة  
٢ - قيمتها : إيجاز ومناة وصلابة عبارة في لين وعدوبة .

ب القصص .

- ١ - أنواعه - الإخباري ، والصخري ، والبطلاني ، والديني  
٢ - ميزاته . سلاجة عبارة ، وضعف في التحليل .  
ج - التقد الأدبي بدأ أحكاماً مصدرها الدوق القطري وأحد في العهد الأموي يزداد دقة وتحليلاً وعمقاً

### أ - المحاورات

١ - حقيقتها :

المحاورة فن أدبي كان في الجاهلية منافرات ومفاخرات ومساجلات ، وقد ازدهر الحوار في العهد الأموي لتعدد الأحزاب والفرق الدينية والمدارس اللغوية والنحوية ، وكان جدلاً ، أو أجوبة ، أو معاصرة أو ما الى ذلك . وقد انتشر انتشاراً عظيماً ، ولاسيما وقد أعددت الجوائز على الفائزين في الخصومات ، وكان له أثر عميق في النفوس كما كان في الناس إقبال شديد عليه .

٢ - قيمتها :

هذا أدب يحمل بين دفتيه الفطرة والبداهة وسرعة الحاطر وقوة المعنى ، والمقدرة الغريبة على الارتجال ، والصفات العربية العالية من استقامة وعدل وعزة نفس وكرم أصل أما البلاغة فمجبية : إيجاز ومناة ، وصلابة عبارة في لين وعدوبة .

وإنَّ في هذه المحاورات من القصص ، وقوة الحجة ، ما يستميل القلب ويدهش العقل ، أكثر مما تستميل وتدهش الصفحات الطويلة ، والقصائد الرنانة .

## ب - القصص

### ١ - أنواعه :

لقد انتشر القصص في ذلك العهد انتشاراً يذكّر ، وكان منه الإخباري ، والفجري ، والبطولي ، وما إلى ذلك . وانتشر القصص الدينيّ منوع خاص . ذلك القصص الذي يدور حول الدّين والرسل والأنبياء ويرمي الى غاية دينية ، أخلاقية ، اجتماعية ، وقد جاء في كتاب « الحطّط والآثار » للمقرّبي أنّ « أول من قصّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تحميم الدّاري » ، استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه ، حتى كان آخر ولابته فأذن له أن يذكر يومين في الجمعة فكان تحميم يجعل ذلك « وأسلوب ذلك القصص أن يجلس القاصّ في المسجد وحوله الناس فيذكرهم بالله ويقصّ عليهم حكايات وأخباراً في شتى الأغراض والموضوعات . وقد ارتفع شأن القصص حتى أصبح إذذاك عملاً رسمياً يعهد فيه الى رجال رسميين يعطون عليه أجراً . وقد أدخل القصص على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى ومن أخبار اليهود والصّابري ، كما اعتمد في كثير منه على الكتاب المقدس والقرآن الكريم ، فجاء فنّاً قائماً بذاته . تختلط فيه الحقيقة بالخيال ، ويمتزج فيه الدين بالأسطورة .

ولما كانت غاية القصص الدينيّ العبرة والعظة فقد حمل بما يدعو الى عمل الخير ، والإيمان القويّ بالله ، وعدم مقابلة الشرّ بالشرّ ، والإخلاص في الأعمال ، وما الى ذلك من المحامد .

### ٢ - ميزاته :

ويمتاز ذلك القصص بما فيه من سداجة عذبة ، ومن غرائب تدعو الى الدهش ، ومن ضعف في التحليل التفسيري والتحليل المنطقي ، فهو مقطّع الأجزاء ، غير مُنسجم

الأنكار ، وذلك أن أصحابه نظروا إليه نظر من يجمع من كلّ وادٍ زهرة ، ومن ينسج حول كلّ زهرة نسيجاً من الخيال الزاهي الألوان ، البعيد عن الواقع .

### ج - النقد الأدبي

#### ١ - في صدر الإسلام :

نشأ النقد في الجاهلية مرتجلاً لا يقوم إلا على التّوق العربيّ الفطري . ثم سار في صدر الإسلام سيرة ، وكان كثيرون من الخلفاء والصحابه نقّاداً بفطرتهم ودوقهم ، فأبو بكر مثلاً يقدّم النّاعة ويقول : « هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم غوراً » . وعمر يقدّم زهيراً لأنه « لا يعاقل في الكلام وكان يتجنّب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه » ، وعبي بن أبي طالب يقدم امرأ القيس على الشعراء « لأنه أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة » .

#### ٢ - في العهد الأموي :

كانت مجالس النقد متعدّدة في هذا العهد : في قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، في مرقد البصرة وكناسة الكوفة ، في مجالس الشعراء والرواة ... ولم يكن للنقد مناهج معروفة إلا أنه أخذ يزداد دقّة وتحليلاً وعمقاً ، وقد انتصب له أئمة اللغة وشيوخها يبحثون في الأدب عن صناعة ، ويحللون نصوصه من جميع نواحيها .

## مصادر ومراجع

- شكري ليصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول — القاهرة ١٩٥٢ .
- محمد عبد اسم حاجي : الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام — القاهرة ١٩٤٩ .
- موسى سليمان . الأدب القصصي عند العرب — بيروت ١٩٥٠ .
- بدوي طبانة : دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث — القاهرة ١٩٥٤ .
- أحمد حسن انزيات : في أصول الأدب — القاهرة ١٩٥٢ .
- محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب — القاهرة ١٩٤٨ .
- طه أحمد ابراهيم . تاريخ النقد الأدبي عند العرب — القاهرة ١٩٣٧ .
- أحمد أمين : فجر الاسلام — القاهرة ١٩٥٩ .





# الباب الرابع الشعر الإسلامي

## الفصل الأول

### نظرة عامة في الشعر الإسلامي وفنونه

٦ - ما تلقى منه :

- ١ - كان صدر الإسلام عهد فوح فشاغل اناس عن الأدب بالحهاد. ومع ذلك فقد ظهر بذلك عدد كبير من الشعراء.
- ٢ - في العهد الأموي نصحت حركة الأدب في الأصفاع وعم الشعر جميع طبقات اناس.
- ٣ - لا نستطيع الاحتشاح على جميع ما بلغنا من شعر ذلك العهد، فقد دخل معه الحل وانحرى.

٧ - الشاعر الإسلامي.

لشاعر الإسلامي منزلة مرموقة لأنه لسان السياسة.

٨ - وجوه الشعر الإسلامي وأغراضه :

- ١ - شعر النضال الديني : هو الذي رافق ظهور الإسلام وكان نصيراً أو تنقيحاً، اشتهر به كعب بن زهير، وحسان بن ثابت سلك فيه الشعراء ممالك الجاهليين في المدح والوصف بالحياة والشجاعة، ثم في الهجاء والتعاضد والتناظر.
- ٢ - شعر الفتح : هو شعر بطولية ومواجه ووصف للحروب وحين إلى الأوصاف اشتهر فيه نيس من الكندي والقصدي.
- ٣ - شعر النضال السياسي : هو شعر الأحرار : تأييد وتقرير لآراء الحزب، ورداً لأقوال الأعداء وقد امتاز شعر الخوارج بالمقيدة والحفاة والمثانة (الطرحاح بن حكيم)، وامتاز شعر الشيعة بأسخط والحزن (الكيت بن زيد الأسدي)؛ وامتاز شعر الأمويين بالترعة النغمة. وإلى جانب هذا كله شأ شعر الموالي في معانته العرب.
- ٤ - شعر الضال العصي : لم تزل العصية القبلية من النعوس وقد أوحى شعر شيب بالشعر الجاهلي (الأحطل، جرير، النمرود).
- ٥ - شعر اللهو : توافرت أسس اللهو والفساد. فاستغل الشعر الغزلي، وترغ في المدح نزعاً إباحة أما للشعر الحمري فلم يردده إلا في العراق لندح : تبتك واستجداء، وتأييد لرأي سياسي أو ديني. إطراف في العكرة والصورة تلوّن وفاق سياسي.

الحقاء في عهد بني أمية خصوصاً في: اختراق المعبد، مناظرات شعرية - القمر: حاسة ذببية أولاً، ثم حرية سياسية وطريق إلى الحقاء لكسب الرأي العام، معاليات صيبانية.

العرل: ذات مستقلة، معف وبأس في البوادي، وتباعت على المشه المذجة في قصص وحوار في الحواضر وهكذا كان للنزل ثلاث ظاهرات: ظهرة فيئة، وطارهرة إباحية، وطارهرة عميقة

### أ شيوخه وما وصل منه :

قلنا فيما سبق إن حركة الأدب ركزت بعض الركود في صدر الإسلام، ولكن هذا القول نسبي نسوقه بالنسبة إلى ما كان في العهد الجاهلي وإلى ما سيكون في العصور التالية. جاء في «طبقات الشعراء» لعمد ابن سلام الجهمي عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلو بالجهاد، وعزوا فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته».

وورد مثل هذا الكلام لابن خلدون وغيره من المؤرخين، ولكنه لا يعني أن معين الأدب جف، وأن ينبوع الشعر عاض ماؤه، فهناك عدد كبير من الشعراء شهدوا ظهور الإسلام ووقفوا منه مواقف متباينة، فمنهم من تبهم وتبهم، ومنهم من دافع ومدح، ومنهم من لم يكثر ولم يتأثر.

ولما كان العهد الأموي تضحمت حركة الأدب في الأصقاع، وعم الشعر جميع طبقات الناس حتى قال جرجي زيدان: «لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس ومزلة في الدولة، في عصر من أعصر العرب، مثل ما كان له في العصر الأموي»<sup>١</sup>. فقد عني به الخلفاء<sup>٢</sup> وشجعوه أعظم تشجيع، كما عني به القواد والولاة وكان منهم عدد من الأدياء كالحجاج بن يوسف وزباد ابن أبيه، وأكب عليه الفقهاء والأئمة وعامة

١ - طبقات الشعراء. طبعة لندن، ص ١٠

٢ - تاريخ آداب اللغة العربية. مطبعة المجلد ١٩١١، ص ٢٣٥.

٣ روى معاوية الشعر وكان يقول: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب. اجعلوا الشعر أكثر حكم وأكثر دأبكم. وكذلك يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما فقد كانوا من روة الشعر وأصناره.

الناس<sup>١</sup>، وانطلقت النساء في تلك الرحمة يعقدن المجالس للأدب والشعر، ويفاضن بين الشعراء، ويساجلهم<sup>٢</sup>. وهكذا كان الشعر حديث الناس وزينة العصر. يُقبل بسرعة من أقصى البلاد إلى أقصاها، تحمله نغبات الغناء إلى كل مجلس وكل مُتَنَدِي. قال نيكلسون: «إن النوق الشعري في هذا العصر لم ينحصر في رحال الأدب أو في الحلقات والأوساط الأدبية، بل تعداه إلى صفوف انعامه من الناس، فانتشر في الأمة وسرى فيها، فتداكروا الشعر حتى في حروبهم وأخطارها المخيفة»<sup>٣</sup>.

ولكن هذا الشعر الذي وصل إلينا ونقلته كتب الأدب لا نستطيع الاطمئنان إليه جملةً. فقد شت لدى المحققين أن بعضه غير صحيح السبب إلى أصحابه، وأن قسماً منه لعبت به يد التحريف أو الإللاف. ف شعر المكين الذي قيل في رثاء القتل من المشركين ومهاجمة الدعوة المحمدية زاد أكثره ولم يبق منه إلا نَفْ وُردت في «السيرة» لابن هشام، وفي بعض كتب المغازي والتاريخ. وقد دُسَّ على ديوان حسبان من ثابت كثير من الشعر المنحول، قام بهذا العمل أعداء الإسلام وبعضُ كتّاب السيرة من مثل ابن اسحاق، وقد ذكر ابن هشام كثيراً من ذلك الشعر المدسوس والمختلق. أضاف إلى ذلك أن بعض الرواة نسبوا إلى علي بن أبي طالب ديواناً في الشعر لا يثبت له في نظر العلم، وإن كان له بعض المقطوعات في الحامسة ووصف الحروب، ورد ذكرها في كتاب «العمدة» لابن رشيقي<sup>٤</sup> وفي بعض المصنّفات التاريخية<sup>٥</sup>. وكذلك نسب إلى العذريين شعر كثير لم يقولوه، وأخبار كثيرة متشابهة مختلطة. قال ابن قتيبة: «هو (مجنون ليلى) من أشعر الناس، على أنهم قد نخلوه شعراً كثيراً رقيقاً يشبه شعره»<sup>٦</sup>. وقال الجاحظ:

١ - روى الرواة أنه تصدى بالفتحاء لحرير نحو أربعين شاعراً، ونرحم جرحي ريدان (تاريخ آداب العرب، ص ٢٤٩ - ٣٠٨) لأكثر من مئة شاعر عاشوا في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة.  
٢ - اشتهرت بذلك سكينه بنت الحنيس، وليلي الأحميلية الشاعرة، وعائشة بنت طلحة وغيرهن.  
٣ - تاريخ آداب العرب، ص ٢٣٩ - ٢٤٠، عن كتاب «عمر بن أبي ربيعة» لحرث بن حور، ص ١٦٣.

٤ - العمدة، طبعة مصر ١٣٢٥، ص ١٤.

٥ - يقول إن الديوان المسوب إلى علي هو من نظم الشريف المرتضى (١٠٤٤م/٤٣٦هـ) أما القصيدة الزبئية في الحكم والمواظف فهي من نظم صالح بن عبد القدوس (١٦٧هـ).

٦ - لشعر والشعراء، طبعة بيدر، ص ٣٥٥.

« ما ترك الناس شعراً مجهول المقاتل قيل في لبي إلا نسوه الى المجنون . ولا شعراً هذه سبيله قيل في لبي إلا نسوه الى قيس بن ذريح » .

#### ٢ - الشاعر الإسلامي .

لما كان للشعر هذه الميزة بين الناس ، ولما كان الإقبال عليه شديداً ، مع سرعة الانتشار وامتداد نطاق التأثير ، كان للشاعر ، ولا شك ، مكانة مرموقة وسلطان قدير . إنه يهجو فيصبح المهجو ومغامزه على كل لسان ، فيسترضى بالمال والمودة أو يُشجَب دفعا لأذاه . وأنه يمدح فيصبح الممدوح ومحامده حديث الركبان ، فيكافأ ويحزل له العطاء ليزيد من مدحه ، ويُستعمل بث الدعوة سلاحاً في وجه العدو ؛ وأنه يتعزل فيتلقّف المضمون غرله ويرسلونه الى القلوب مع كل نغم . فتهاقت النساء متعصّرات للشاعر ليتغنى بجمالهن ، فيظم الشعر للغناء ، وينتشر الشعر مع العناء ؛ وأنه يُناضل في سبيل حزب سياسي ديني ، فيصبح للحزب مجتاً وسيفاً بتاراً ، فيقبل عليه الناس ومنهم المعاندين والمكابر ، ومهم المؤيد والمساند . وكثيراً ما يكون الشاعر في أصل الخصومات ، يوقد نيرانها ، ويبعث دفائن أحقادها وهكذا انقسم الناس مع الشعراء رغبة أو رهبة .

#### ٣ - وجوه الشعر الإسلامي وأغراضه :

تعددت وجوه الشعر الإسلامي كما تعددت أغراضه ، إلا أنه لم يخرج عن النطاق العام الذي لمسناه في الجاهلية ، وإن دخله بعض التجديد في المعاني والأساليب ، وإنما استتبعه في شطوطه الكبرى ميتين أقسامه والأعراس التي هدف إليها في كل قسم ، والخصائص التي امتاز بها فنياً .

أ - شعر النضال الديني : أول ما يعترضنا في الشعر الإسلامي هو ذلك الشعر الذي رافق ظهور الإسلام وكان نصيراً أو تعبيراً . فقد قام إذ ذاك عدد من الشعراء من أمثال كعب بن زهير ( ٦٤٥ م / ٢٦ هـ ) ، وحسان بن ثابت ( ٦٧٤ م / ٥٤ هـ ) وكعب بن مالك ( ٦٧٠ م / ٥٠ هـ ) وعبد الله بن رَوَاحَة ( ٦٣٠ م / ١٠ هـ ) وغيرهم ممن عملوا

على مناصرة الدعوة، ومدح الأنصار، وإعلاء شأن الرسول، واردة على شعراء المشركين الذين هَجَّجُوا محمداً والأنصار والمهاجرين، من أمثال عبد الله بن الزُّبَيْرِ، وضيوار بن الحطَّاب الفهري، والحارث بن هشام بن المغيرة، وأبي سفيان بن حرب. وقد سلت هؤلاء الشعراء جميعاً مسلِكَ الجاهليين في المدح والوصف بالحماسة والشجاعة، ثم في الهجاء والتفاخر والتنافر.

ب- شعر الفتح: لما انتشرت الجيوش العربية في الأمصار أخذ بعض المحاربين بقول الشعر، وكان شعريهم في البطولة أو في المواجه. تغنوا بإقدامهم وقوة كنيثهم ووصفوا المعارك ومواقف الانتصار، كما وصفوا ما قاسوا من متاعب وما اجتازوه من بلدان، وحنَّوا إلى مرابيحهم الأولى ذاكرين الأهل والحلَّان. ولا يفرج شعر البطولة هذا عن أن يكون لوناً من ألوان الفخر الذي عرفته الحياة الجاهلية، غير أنه اكتسب هذا الصبغ الإسلامي الخفيف أو القوي، فهو يتحدث عن الإسلام والدين. وهو يذكر الله والرسول، وهو يصدر عن روح الجماعة أكثر مما كان شعر الفخر الجاهلي يصدر عن روح الفرد أو القبيلة<sup>١</sup>.

وكذلك في عهد بني أمية، فقد واصل شعر الفتح سيره بسبب الحروب التي دارت وراء الحدود، وبسبب الفتن السياسية والدينية والعصية القبلية، ولا سيما بعد منتصف القرن الأول، حين تضحَّم النزاع بين القحطانية والعدنانية. وكان مدار هذا الشعر حول الحماسة، والفخر، وهجاء العدو، ورثاء القتلى ولوعة الاغتراب، والحنين إلى الأوطان. وقد اشتهر في هذا الباب القطامي (٧٢٨م / ١١٠هـ) وأعشى همدان (٧٠٢م / ٨٣هـ) كما اشتهر قبهما قيس بن المكشوح المرادي الذي قال مفتخراً بقتله دستم أمير جيوش الفرس في يوم القادسية (٦٣٧م / ١٦هـ):

حَلَبْتُ أَلْحَيْلَ مِنْ صَنْعَةِ تَرْدِي      بِكُلِّ مُدَجَّحٍ كَأَلَيْثِ سَامٍ  
إِلَى وَادِي الْقَرْيِ قَيْدِيَارِ كَلْبٍ      إِلَى الْيَرْمُوكِ سَلَسَرِ أَلْثَامِ  
وَجِئْتُ الْقَادِيسِيَّةَ بَعْدَ شَهْرٍ      مَسْؤَمَةً دَوَابِرَهَا دَوَامِ

فَنَاهَضْنَا هُنَالِكَ جَيْشَ كَسْرَى وَأَنَاءَ السَّمَرَاذِبَةِ الْكَرَامِ .  
وَقَدْ أَتَى إِلَالَهُ هَاكَ حَيْرًا وَفَعَلُ أَنْخِيرٍ عِنْدَ اللَّهِ تَامِ

ومن أشهر شعراء صدر الإسلام عمرو بن مَعْلُومُ يَكْرِبُ الزَّيْدِي الذي شهد وقعة القادسية ومات في آخر خلافة عمر ، وأكثر شعره في الحماسة وذكر الفتوح ، وقد نسجت الأساطير حوله وحول سيفه «الصمصامة»<sup>١</sup> . ومن اشتهروا بثناء القتلى أبو ذؤيب خُوَيْلِدُ بن خالد الهُلَلي (٦٤٦ م / ٢٦ هـ) صاحب القصيدة العينية المشهورة التي رثى فيها أباءه الحمسة الذين قُتلوا أو هلكوا بالطاعون في عام واحد ، ومنها :

وَلَقَدْ حَرَّصْتُ بَأْنَ أَدْفَعَ عَنْهُمْ وَإِذَا أَلَمِيَّةٌ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ  
وَإِذَا الْمَنَّةُ أَتَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تُنْفَعُ

ج - شعر اتصال السياسي : رأينا ما كان من خلاف بين الأحزاب والفرق الدينية بعد مقتل عثمان بن عفان في شأن الخلافة والترُّبُّع على سُدَّتِهَا ، ورأينا كيف كان لكلِّ فرقة شعراؤها . وقد تردَّد ذكر شعراء الخوارج وخطبائهم في كتب الأدب<sup>٢</sup> . وكان مدار كلامهم على ما أُنِحَ الإسلام من مساواة ، وما دعا إليه من اجتماع وإقلاع عن العصبية ، وإثبات للتقوى ، كما كان ردًّا على سائر الأحزاب ودحضًا لأرائها ومهاجمة لها بعنف وقسوة . قال كارلو نالينو : « وشعرهم شعرٌ خِلْنَاهُ في الغالب من نظم أهل البادية أسلوباً و لغة ، وهو فصيح العبارة ، دائر أكثره على الحماسة والحرب . فلو أردنا الحكم فيهم بناء على شعرهم لقننا انهم أقرب بكثير إلى أهل الوبر منهم إلى أهل المدر . ولكن إذا راجعنا النصوص التاريخية القديمة وجدنا جمًّا غفيراً من الأخبار عن تفاهم ونسكهم وشدة عنايتهم بقراءة القرآن ، وإقامة الصلاة ليلاً ونهاراً وغير ذلك مما يخالف أميال الأعراب وشعائرهم»<sup>٣</sup> . ومن شعراء الخوارج قُطْرِي بن الفُجاءة (٦٩٦ م /

١ - الأغاني ٢١ - ص ٥٤

٢ - راجع «الملك والسياسة» للحاج أحمد ، ص ١٦٥ - ١٦٦ . و«العقد الفريد» لأبي عبد الله ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١

٥٧٧هـ) وعمران بن حطّان السُدوسي (٧٠٠م / ٥٨١هـ)، والطَّرِمَاح بن حكيم (٧١٨م / ١٠٠هـ).

وأما الشيعة فأغلبهم قليلو الميل الى الحرب، مستنكفون من جعاء الحوارج، فشعرهم بعيد عن توحش الأزارقة كثير المدار على مدح أهل البيت وبيان الاختلافات الدينية<sup>١</sup>. ومن شعرائهم كثير عزة (٧٢٣م / ١٠٥هـ) والكُميت بن زيد الأسدي (٦٧٩ - ٧٤٣م / ٦٠ - ١٢٦هـ) صاحب «الهاشميات»<sup>٢</sup> التي عدّ فيها فضائل بني هاشم، ووجه الى بني أمية كلام القسوة والشدة. وإنّ من تتبّع هذه الفئة من الشعراء وجد أنّ شعرهم شعر السخط والحزن الذي يرمي الى الجهاد في سبيل الخلافة العلوية ويشيد بقرابة الرسول وتمجيده. وحقّ أهله الأدنين بالخلافة، ويدعم القول بشي الحجاج والبراهين العقلية والعاطفية، وهو يتقلب بين الهجاء والمدح والثناء والاحتجاج والابتهال في هدوء ثائر ورقة حزينة.

ولكنّ الشعراء داروا، في أكثرهم، في فلك بني أمية مدحين أو هاجين أو راثنين في سبيل منفعة يرمون إليها، وعطاء يرجون الحصول عليه. وهناك من تعصّبوا لهم في قضية الإمامة، ودافعوا عن حقوقهم وادعائهم. وهاجموا الخصوم مهاجمة عنيفة كما فعل كعب بن جُعيل (٦٧٥م / ٥٥هـ)، وأعشى ربيعة (٧١٨م / ١٠٠هـ) الذي حثّ عبد الملك على مقاتلة الزُّبيريين وقال:

قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَتَأَمَّرُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلْعُشَاةِ أَطْلَعْتُمْ إِنْهَاكَهَا  
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ مَا زَلْنِمُ أَرْكَاسَهَا وَبِمَاكَهَا  
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلاً مُغْلَقاً فَانْهَضْ يُمْنُكَ وَأَفْتِجْ أَقْفَالَهَا

والجدير بالذكر في هذا المجال أنه قام الى جانب هؤلاء الشعراء جميعاً قومٌ من الولي

١ - مصادر السابق، ص ٢١٤

٢ - الهاشميات ثماني قصائد قالها في الاحتجاج لبني هاشم، وقد طبع في مصر وفي لندن سنة ١٩٠٤

٣ - تمثالاً. أي عياناً الذي يقوم بأمرها.

راحوا يفاخرون العرب بأحاديث تاريخهم ومآثر أجدادهم ، فنشأ من ذلك شعر في مدح الأعاجم وتفصيلهم على العرب قال اسماعيل بن يسار<sup>١</sup> :

إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا غَوِي بِهِ خَوِي      عِنْدَ الْحِصَاطِ وَلَا حَوَاضِي بِمَهْدُومٍ  
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْلِي لَا يُقَاسُ بِهِ      وَلِي لِسَانٌ كَحَدِّ السِّيفِ مَسْمُومٍ  
أُحْيِي بِهِ مَجْدَ أَقْوَامٍ ذَوِي حَسَبٍ      مِنْ كُلِّ قَوْمٍ يَتَّحِ الْمُلُوكُ مَعْمُومٍ  
حَسَّاجٍ سَادَةٍ بُلُجٍ مَرَاوِجَةٍ      جَرْدٍ عِنَاقٍ مَسَامِيحٍ مَطَاعِمٍ<sup>٢</sup>

وقد يكون ابن يسار أول من هاجم العرب بلغتهم وشعرهم وفضل الفرس عليهم<sup>٣</sup>.

د - شعر النضال العصي . عمل الإسلام على إزالة العصبية من النفوس ، ولكنها كانت شديدة للتأصل . شديدة الأثر ، وإنما إذا التفتنا الى اشياء وأنعمنا النظر في حال الشعر بدمشق عند بني أمية الى آخر القرن الأول تعجبنا من وجود قريض الشعر هناك جارياً مجرى فنون الشعر الجاهلي . وكون أكثر الشعراء الوافدين على الخلفاء الأمويين النائلين منهم الجوائز البهية الجزيلة مقتندين في نظمهم الجيد بمن سبقهم قبل ظهور الاسلام . وحسبنا ذكر الأخطل وجرير والفرزدق وذو الرمة<sup>٤</sup> . والمستشرق نالينو يرد ذلك الى الأسباب التالية : « ١ - ان معظم الذين انتقلوا من جزيرة العرب الى بلاد الشام للإقامة بها في زمان الفتح وبعده كان من أهل القبائل لاسيما اليمنية أو المنسوب أصلها الى اليمن . ٢ - ان رجال قريش المرتحلين الى أنحاء الشام كانوا من أهل العقد والحل مشغولين بأمور السلطان والسياسة والحرب ، لا يتعاطون الشعر عني محبتهم له وتعظيمهم لقاتله . ٣ - ان سكان المدن الشامية الكبرى . وهم سريان وروم — لم يزلوا مدة طويلة بعد الفتح قليلي المعرفة باللغة العربية غير معتنين بشعرها ، وعلى مثل

١ - كان اسماعيل من يسار شعوبياً شديداً انتعص للمحم . وله شعر كثير يذم فيه بالأعاجم — طالع والأعالي ٤ ، ص ١٧١

٢ - القرم : السيد العظيم

٣ - لمصاحح : ج . جحجح وهو السيد الكريم ، الملقب ج . أنح وهو ذو الكرم والمعروف . خرد عاتق : أي ذوي حسب وسب .

٤ طالع : تاريخ الآداب العربية ، لكارلو مالو . ص ٢٤١

٥ طالع : تاريخ الآداب العربية ، لكارلو مالو . ص ١٢٣ .



ذلك في العراق. إلا أن سكانها الأصليين فرس وآراميون. <sup>٤</sup> ان الأعراب المهاجرين الى الشام والعراق سواء كانوا من الخواص أم من العوام لم يزلوا هائمين في بوادي أوطاسهم كارهين عيشة المدن والإقامة بها. — فإن كان الأمر كذلك لم نتعجب أن الشعراء الوافدين الى خلفاء بني أمية وأمرتهم في القرن الأول صاغوا نظمهم في قالب شعر من سلف من فحول شعراء الجاهلية، ونهجوا طرقهم في عمل القصائد على الأسلوب القديم في المديح، والافتخار، والحماسة، والنسب، والهجاء، وذكر الحمراء، وأشهر شعراء هذه الفئة الأخطل (٦٤٠ م/٧١٠ م/٢٠ هـ) وجريور (٦٥٣ - ٧٣٣ م/٣٣ - ١١٤ هـ) والفرزدق (٦٤١ - ٧٣٢ م/٢٠ - ١١٤ هـ).

ه شعر اللهو: رأيا كيف انتشر شعر الغزل واللهو في مدن الحجاز عهد بني أمية، وقد أصبح فتا مستقلا يُنظم لذاته ويُقصد قصداً بعدما كان مقطوعات وأبياتا تُتُرج في القصيدة بمثابة جزء من أحزائها التقيدية، أو عتبة تنفس يختاز من لاوعي الشاعر الى صميمه الوعي وينطلق شعراً ذا صبغة عامة فيها حنين اللاوعي والذكرى وفيها اصطفاية الوعي المقلد، وفيها بين هذا وذلك عاطفة مزيج من صديق وتكلف. وما إن كانت خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حتى أخذ الغزل في الاستقلال الذاتي، وراح أكابر الشعراء في مدن الحجاز يحصرون همهم في ناحية اللهو، وكان من رواد هذا الباب بمكة أبو دهبيل الجمحي الذي علّق عمرة وشبّب بها وطار له معها صيت طبق الآفاق. ثم تبعه في ذلك كثيرون من مثل عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي وغيرهم. وساعد الحركة كما سبق القول، ثروة تدفقت على الحجاز لا تساع الحركة التجارية وتوافد الناس الى الحج يؤذون فريضته. ثم فيض من القيان والمغنيات الأجنبية. ثم حركة غناء واسعة النطاق اشتهر فيها طويس وابن سريج وابن مخرز ومعد ومالك بن أبي السمح، والغريص صاحب عمر بن أبي ربيعة. قل كارلو نالينو. هوفي وادي العقيق الذي كان منتهز أهل المدينة في أيام الربيع والمطر، أو في منى وسائر نواحي مكة، كان المتطفون من الفتيان، لا سيما في موسم الحج، يتظفون ويلقون النساء

والبنات الحرائر، ويحذثنهن ويتغزلون بهن... فإن كان الأمر كذلك لا عجب في ابتداء نوع جديد من الشعر لم يسبق إليه فحول الجاهلية ولا أهل البادية، ثم لا عجب أن أكثر شعراء المدن الحجازية لم يتجاوزوا الغزل إلى المديح ولا الهجاء، وتركوا أسلوب القصيدة القديمة... ومن الحري بالاعتبار أن شعر عمر بن أبي ربيعة وأصحابه الحجازيين مع مداره على الغزل فقط ومع قربه غير مرة من الخلعة لم يسقط قط إلى الفحش والمجون المحض، الكثير وجوده في غزل شعراء عهد العباسيين، ثم من الجدير بالذكر أيضاً أن عمر بن أبي ربيعة وأكثر شعراء الحجاز، لا سيما مكة في زمن الأمويين إلى أوائل القرن الثاني، امتنعوا عن ناب الحمريات في شعرهم امتناعاً تاماً ولم يدكروا الخمر إلا في التشابيه... مع أن شرب الخمر غير مجهول في ذلك العصر في المدينة فكان مثلاً الوليد بن عثمان بن عفان، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعبد الرحمن بن أوطاة المعروف بابن سيحان وجُبَيْر بن أَيْمَن وغيرهم من الخواص معاقرين للخمر متنادمين على الشراب<sup>١</sup>. ولم يزدهر الشعر الحمري إلا في العراق حيث اتسع نطاقه وتوافرت أسبابه، وذهب فيه الشعراء مذاهب شتى. ومن أشهر شعراء الحمرة، إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق في هذا العهد، الأعطل شاعر بني أمية.

وهذا في بوادي نجد والحجاز جماعة من الشعراء انصرفوا عن التقاليد القديمة في الشعر إلى الغزل المشنجي ووصف النوعة النفسية في سذاجة وعذوبة. ومن أشهر هؤلاء قيس بن ذريح (٦٨٧ م / ٦٨ هـ) صاحب بُيْتَي<sup>٢</sup>، وعروة بن جزام العُدري صاحب عُقْرَاء، وجميل بن معمر (٧٠١ م / ٨٢ هـ) صاحب بُيْتَيَّة، وقيس بن الملوّح العامري الملقّب بالجنون صاحب ليلي<sup>٣</sup>.

• • •

وخلاصة القول إن الشعر درج في هذا العهد على ما كان عليه في الجاهلية من ناحية الأغراض العامة والموضوعات المختلفة. ولئن طرأ عليه بعض التجديد فلم يكن ذلك

١ - المصدر السابق، ص ١٠٥ - ١١٠.

٢ - الأغاني، ص ٥٥.

٣ - نفس المصدر، ص ١٧٠.

التحديد عميقاً بحيث ينقل الشعر من جوهر الى جوهر؛ وهكذا فالممدوح والمهجاء، والفخر والغزل، وما الى ذلك من الأغراض كانت المجال الذي انطلقت فيه القرائح الشعرية، وان كان الانطلاق أكثر امتداداً وأشدّ إيغالاً ممّا كان عليه فيها سبق.

١ الممدوح: أما الممدوح فلم يبق في نطاق المعروف يُشكر، ولا اقتصر فيه الشاعر على الاستجداء الشريف، وإنما تحطّى هذا وذلك الى التبدّل في الاستجداء، والإلحاح فيه، كما أصبح عند الكثيرين تأييداً لرأي سياسي أو ديني، ورفعاً لشأن فريق على فريق أو قبيلة على قبيلة. وكان الشاعر يحاول الإطراف في الفكرة والصورة حتى يروق السامعين، ولا سيما في عهد بني أمية حيث نزع الممدوح نزعة الاستجداء المعنوي والاستجداء المادي. وكان الشعراء يُغيرون على الجاهلية في غير تحفّظ، فيتلقطون المعاني المديحة والصّور التشبيحية، ويُضيفون إليها فتوناً من الألوان؛ وإليك إذا تبيّعت أقوالهم وجدت فيها اندفاعاً وراء الممدوح، ووصفاً لحروبه وانتصاراته على العدو المافس، وإعلاءً لشأن أسرته التي جمعت من الأخلاق والصفات ما أهلها لأن تسود الناس، والتي تحلّت بالعلم والأففة، واتمسك بالحق والاعتدال عن الباطل، وسداد الرأي وقوة الساعد بحيث تحمّ لها السيطرة — وإن حُرمت منها طُلماً. وكثيراً ما كان يلجأ الشاعر الأمويّ الى التلوّن والتفاق السياسي، ويصطنع الترفّي اصطناعاً. وهكذا نرى في قصيدة الممدوح ممطاً جديداً في القبول يضاف الى القديم، لأن الحياة قد تبدّلت والأحوال قد تحوّلت، «وانتقل العرب الى أقاليم جديدة وأسّسوا دولة دينية تعتنق مثالية جديدة... ويريد القائلون عليها أن يعمّ العدل ويستتبّ الأمن، وأن تجتمع الأمة على كلمة واحدة»<sup>١</sup>.

٢ المهجاء: وأما المهجاء فقد فشا في هذا العهد فشواً شديداً حتى ليوشك المؤرخ أن لا يرى بين الشعراء إلا شراً مستطيراً. وذلك أن عوامل المهجاء قد تعدّدت، فالعصر عصر أحزاب وفتر، عصر تطاحر ديني وسياسي، فاضطربت مذاهب الشعراء واختلقت طرائق القول في الدفاع عن النزعات، وتأزّنت نيران العصبية القبلية في عهد بني أمية، ووقف الناس متفرّجين حيناً، محرّصين أحياناً.

لما ظهر الإسلام ، وقام الخلاف بين مكة والمدينة ، وحاربت المدينة تحت لواء الرسول مكة ، فتقاذف حسبان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة مع عبد الله بن الزبير وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص قصائد هجاء . نظموا في ظلال الأيام والحروب التي نشبت بين الملتين مثل يوم بدر ويوم أحد وغزوة الخندق . وفي هذا كله ، سواء في العصر الجاهلي أو أيام الرسول ، كان الهجاء فناً غير معقد إذ كان يقف الشاعر عند أفكار عامة من الشجاعة والوفاء والكرم ونحو ذلك ، وقد أضاف شعراء الرسول ، وخاصة عبد الله بن رواحة ، الحديث عن الإيمان والكفر ، وكذلك صنع حسبان بن ثابت . ونحن نلاحظ في كل هذه الصور التي سبقت عصر بني أمية أنها كانت في أكثرها صوراً بسيطة ، فالشعراء لا يتقيدون دائماً بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألفاظ والبنيات التي صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم<sup>١</sup> ثم هم لا يقبلون على ذلك إقبال المحترف الذي يهب حياته لمهنة يمارسها ، إنما هم يقبلون على ذلك من حين إلى حين ، وفي الفترة بعد الفترة ، يعبرون عن رغبات قبلية أو دعات للحجاة . ولكنها رغبات مقيدة بحروب وأيام<sup>٢</sup> .

ولما كان عهد بني أمية اتسع نطاق الخصومات القبلية والحزبية والفردية ، ونشأت الخصومات الفنية ، وكان من الشعراء من لا يهتمهم أحزابهم بقدر ما يهتمهم فهم الشعري<sup>٣</sup> أو بالأحرى لم يهتمهم انتمائهم إلى أوطان أو أحزاب أو شيع خاصة ، أن يعرضوا لشعراء من الأوطان أو الأحزاب أو الشيع نفسها شيء من الهجو أو المعارضة الفنية ، بينما كانوا بالوقت نفسه ينصرون شاعراً من غير قبيلتهم أو حزبهم أو مذهبهم<sup>٤</sup> . وقد تحول اهحاء في هذه الفترة من فنٍ وقتيٍ متقطع إلى فنٍ دائم مستمر . واحتشد الناس في الميزد والكاسية يستمعون للمتنافسين ضاحكين لاهين ، وراح الشعراء يلون رغبة التسلية في الناس ، ورغبة التغلب عند الحكام والأحزاب ، ويعترفون الهجاء

١ - هذا ما أطلق عليه اسم «المتنافس»

٢ - العصر السابق ، ص ١٣١ - ١٣٢

٣ - جبرئيل جور عمر بن أبي . بيعة ١ ، ص ١٧٤

احترافاً، وينظّمونه تنظيمًا حتى أصبح نقائض تمتد امتداداً شديداً وتشمل المقدمات  
عامّة التليدة، والإشادة بالمفاخر والأيام، والإقذاع في القول الذي يمزق الأعراض،  
وتفصيل المخازي تفصيلاً يستطيع به الشاعر أن يتفوق على خصمه في نظر الجماهير. ومن  
الحدير بالذكر أن تلك النقائض مناظرات شعرية قامت على غرار المناظرات العقلية  
والدينية التي شاعت إذ ذاك. وكان الشاعر يُعدها إعداداً، ويعقدها تعقيداً، ويصنّها  
الآيات التي تصحّر الضحك أو تدعو إلى الإعجاب، كما يضمّنها بحثاً ودرساً في تاريخ  
القبائل، مستهمماً سياسة العصر، ومبول البلاط. «فهي تتألف من مفاخر قديمة وعلى  
رأسها الأيام، كما تتألف من مثالب قديمة وعلى رأسها الأيام أيضاً، وهي بجانب ذلك  
تتألف من مواد حديثة تنصّ بالطرّوف السياسية وبعناصر الإسلام. وهذا كله يُمرّج  
سخرية لاذعة بالقبيلة، وهي سخرية تمسّ أخلاقها وخصائصها. ومن هنا تنوّعت  
القبضة وتنوّعت معانيها. وكان الشاعر يُقبل على نقبضة خصمه وكأنه يقبل على  
مدبرة، فهو ينظر في كلّ أدلتها ويسوق أمامها ما ينتفضها نقضاً ويهدمها هدماً...  
ليست النقائض، إذًا، أهاجي بالمعنى القديم الذي كان يفهمه العرب في الجاهلية  
للهجاء، وإنما هي مناظرات أدبية أوجدتها ظروف عقلية وأخرى اجتماعية لعصر بني  
أُميّة»<sup>١</sup>.

٣ الفخر: وأما الفخر فقد اصطبغ في صدر الإسلام بصيغة الحماسة الدينية  
والخروج عن حدود الفردية والقبيلة إلى أحواء القومية العربية، وكان حافلاً بعزة النصر  
وحياة الإيمان. ولما كان عهد بني أُميّة سيطرت النزعة الحزبية والسياسية على معاني  
الفخر، فكان تظاولاً على الحصر، ومهاجمة له عنيفة، وخطاً من شأنه في ميادين  
البسالة والبأس، وتسلّحاً للأيام، ومحاكاة عقلية وعاطفية حافلة بالهجاء والتعيير. وهكذا  
كان الفخر في سبيل الهجاء لكسب الرأي العام، واستالة الجماهير، وبث الدعوة  
لحزب أو للسياسة، وأحياناً للقبيلة التي عادت عصبيتها إلى صدور عدد من الشعراء  
كأخطل وجبرير والفرزدق. ولما كان الأمر كذلك لجأ الشعراء في فخرهم إلى المغاليات  
الصينائية والأقوال الجارفة؛ وقد أصبح الفخر مع الخوارج استماتة في سبيل الغاية،

ومع الشيعة مزجاً من هدوء وثورة وغضبة وكآبة ، وأصبح مع الزيريين حساسة وفروسية وتبويقاً بإرادة العزة والسُّلطان ، ومع الأمويين اطمئناناً الى النصر والغلبة .

٤ - الغزل : وأما الغزل فقد تدرّج من الافتتاحية التقليدية الى أن أصبح في عهد بني أمية ذاتاً مستقلة ، بكيانٍ خاص ، فإن الاستقرار واللهو ، وشيوع عوامل الحياة العاطفية ، من فراغ وغناء ، وطرب ورخاء في مكة والمدينة ، أو طرب وفقر وحرمان في بوادي الحجاز ونجد ، كل ذلك دعا الشعراء الى الوقوف الطويل أمام أبواب القلب الذي تستثيره المغنيات واللاهيات ، وتستحثه القيان والمنظرفات ؛ وقد وقفوا طويلاً ، وصرفوا النظر عن سوى دواعي الغرام ، وراحوا يستلهمون الجمال ، ويتلوعون في البوادي يائسين متعطفين ، ويتغنّون في الحواضر منهافين على المتعة الماحجة في قصص وحوار ، وفي تظرف ودوار ، لا يهتّم من الحياة إلا ذوات الخلاخل والأطياب ، فيدققون على الخارج قاصّين غير محلّين ، واصفين الحسيّات غير متأمّلين ، ماضغين الأقوال والأحداث غير مُعلنين

وهكذا كان للغزل ثلاث ظاهرات : ظاهرة تقليدية ، أو قل عادة فنية لزمها الشعر العربي منذ فجره وحاول أبو نواس . في العهد العباسي أن يثور عليها ويزيلها من صفحة الوجود إلا أنه لم يستطع التغلب عليها ؛ وظاهرة إباحية كانت تعبيراً عن بأس الحجاجيين وانتقاماً من الحياة السياسية التي أفلتت من أيديهم ، وكانت ثمرة من ثمار الترف البعيد عن البادية في رقتّه ، ولغته ، وتعايره الموقنة ، وألغائه السهلة المصقولة . وإشراقه الذي يروق النفوس المتحضرة ؛ وظاهرة عفيفة كانت تعبيراً عن لدغة الألم وإغضاء الحياة ، عن النزوع العاطفي والقيّد الاجتماعي .

#### ٤ - أقسام الشعر الإسلامي :

١ - شعراء الدين الجديد : كعُب بن زهير ، حسّان بن ثابت ، أبو ذؤيب الهذلي ، النابغة الجعدي .

٢ - شعراء البادية .

١ - الشعراء القيصيون : جميل بن مَعمر ، ليلى الأنخيلية ، قيس بن الملوّح ، إجمون العامري ، قيس بن ذريح .

- ب - شعراء الطبيعة البدوية : منتم من بُوَيْرَة ، الرّاعي ، ذو الرّثّة
- ٣ - شعراء اللهو والمجون : عُمَر بن أبي ربيعة ، الأخوص ، الوليد بن يزيد .
- ٤ - شعراء الأحزاب : عمران بن حطان ، الكُمَيْت الأسديّ ، عُبيد الله بن قيس الرُّقَيْبات ، عديّ بن الرُّقاع .
- ٥ - شعراء البلاط والتكسّب : الأخطل ، المرزوق ، جرير .
- ٦ - شعراء الرجز : رُؤبة بن العجاج .



## مصادر ومراجع

- شوقي ضيف .  
 - التطور والتجديد في الشعر الأموي القاهرة ١٩٥٢ .  
 الشعر الغنائي في الأقطار الإسلامية القاهرة  
 عبد الرزاق حميدة . أدب الخلفاء الأمويين القاهرة .  
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي القاهرة ١٩٤٥  
 نجيب عماد البهسي . تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري القاهرة ١٩٥٠ .  
 أحمد الشايب .  
 - تاريخ الشعر السياسي القاهرة ١٩٤٥  
 . تاريخ النقائص في الشعر العربي — القاهرة ١٩٤٦ .  
 مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦  
 حبرائيل جبور . عمر بن أبي ربيعة بيروت ١٩٣٩ .  
 شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول — القاهرة ١٩٥٢  
 أحمد أمين : فجر الإسلام القاهرة ١٩٥٩ .





## الفصلُ الثَّالثُ شُعراءُ الدِّينِ الجَدِيدِ

كَعْبُ بْنُ رُهَيْرٍ (٢٤٤هـ / ٦٦٢م)

١ تاريخه: شأكَعْبُ بْنُ رُهَيْرٍ غَطَفَانٌ، وكان شاعرَ بكتنه من كلِّ جانب. أسلم أخوه نُجَيْرٌ فلم يرقَّ الأمرَ معها الإسلامَ، وسأهذه لرسول رجع إليه معتزلاً وأنشد به قصيدته، بانت سعادة حال الأذن. توفي سنة ٥٢٤هـ / ٦٦٢م

٢ أديبه: بكف ديوان أشهر ما فيه «الرَّردة»

أ شهره الرردة ومضمونها: اهتم الأدياء والطباء هذه القصيدة اهتماماً شديداً، وأكثروا من شرحها وطبعها وترجمتها إلى لغات مختلفة، وهي تنصُّ مقدِّمةً عزليَّةً، ووصفاً للفاقة، ثم انتقالاً إلى الرسول فيه مدح وعذار.

ب ملاح عامَّة في القصيدة سيطرة طرفة الدويَّة، ومشهد بدويٍّ جاهليٍّ ركَّبه الشاعر عذق هو مشهد سعد طاعة، ووصف لثأقه على أسلوب جاهليٍّ، ووصف للمهاجرين بالناس أديبه، وإغفال للباحة الحضارية في الدين الجديد

ج قيمة القصيدة

١ كعب في هذه القصيدة كلاسيكيٌّ جاهليٌّ، وشاعر تأنٍّ وتأنخل

٢ في القصيدة بعض الحفَّة الثَّابَّة من المعاني الإسلاميَّة

٣ لم يكن الشاعر صادقاً إلَّا في مدح هو من أمر الرردة.

٤ جمال القصيدة في وحي الخيال وبراعة الأداء، فكعب يدوم في الأجواء، تعابيه بقوده عقل متزن، ويسمو به جناح خياليٍّ، وينقاد له بيان رجع ولغة مختارة

١ تاريخه:

هو كَعْبُ بْنُ رُهَيْرٍ بنُ أَبِي سُلَيْمٍ المُرْزِي نَشَأَ فِي غَطَفَانَ قَوْمُ أُمِّ كَبْشَةَ، وَكَانَ الشُّعْرَ يَكْتَتِفُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَرَوَاهُ لِأَيِّهِ وَرَوَاهُ لِغَيْرِ أَيِّهِ. وَقَدْ عَيَّ بِهِ رُهَيْرٌ عَايَةً خَاصَّةً لِمَا لَمَسَ عِنْدَهُ مِنَ الْمَوَاهِبِ وَلَمْ يَنْدَعِ يَنْظُمِ الشُّعْرَ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ

ملكته . وكان في صباه يرعى ماشية أبيه . وقد روي أنه أسير وأنه اقتدى نفسه بفرس له يدعى الكُمَيْت كان من أشهر الخيول سرعةً وجبالاً .

أسلم أخوه بُجَيْر قُبَيْلَ السَّنة السابعة للهجرة وشهد فتح مكة . ويوم حُتَيْن ، وغزوة الطائف ، فرأى كعب في ذلك انحرافاً عما كان عليه آثؤه . وخروجاً عن شيم الجاهلية ، وراح بهجو الإسلام ونبيه مهاجاً مرأى حمن الرسول على هُتَر دمه .

وعندما قويت شوكة الإسلام وأنزل العقاب الصَّارم بالمُعاندين ، فرَّ كعب إلى مزينة فلم يُفدِه فراره ، فأعد قصيدة في مدح النبي . وأقبل عليه منخفياً ، وحمل الوسيط أبا بكر ، فلما مَنَّ بين يديه أعلن إسلامه ، وراح يُشده قصيدته « بآنت سعاد » فنال الأمان .

وقضى كعب ما تبقى من أيامه مشتركاً في الصراع الأدبي القائم بين الأوس والخزرج ، وهو صراع قديم انتصر فيه كعب للأوس وبقي منصرفاً لهم بعد إسلامه إلى أن توفي سنة ٦٦٢ م / ٢٤ هـ .

٢ أده :

لكعب بن زهير ديوان ينطوي على فخر ومدح وهجاء وغزل ورناء وما إلى ذلك من الأغراض التقليدية . وقد ذكر له الرواة شعراً كثيراً لم يصل إلينا منه إلا القليل

١ البُرْدَة - شهرتها ومضمونها : قامت شهرة كعب على قصيدته « بآنت سعاد » أو « البُرْدَة » التي مدح بها النبي في مسجد المدينة سنة ٩ هـ / ٦٣٠ م ، وهي لامية تقع في ٥٨ بيتاً من البحر السيط ، افتتحها بذكر سعاد ووصفها . ثم انتقل إلى وصف المأفة ، ومنه إلى ذكر النبي وما ألم به هو من القلق والاضطراب . ثم راح يمدح ويعتدر إلى أن انتهى بمدح المهاجرين من قُريش ، ومطلعها :

بَآنتُ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبِعُ ، مَتَّبِعُ إِثْرَهَا ، لَمْ يَفْعَدْ ، مَكْبُولُ<sup>١</sup>

١ - بآنت : حُرِّقَتْ ، ومنه اللَّيْن . وهو النُّعْد - مَتَّبِعُ : مريض من شدة الحب - مَتَّبِعُ : مُتَّبِعٌ ، مُتَّبِلٌ ، دُلَّةٌ الح . مَكْبُولٌ : مَعْدُ

يُروى أنه عندما وصل كعب في إنشاده الى البيت :  
 إِنَّ الرُّسُولَ لَنُورٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ ، مُهْتَدٍ مِنْ سُبُوفِ اللَّهِ مُسْتَوِلٍ  
 حَلَعَ عليه البي برُذته ، وألقاها على كتفيه . ومن ذلك إطلاق اسم « البردة » على  
 القصيدة ، وبردة النبي هي التي تداول الخلفاء لُسُنها .

وقد عرّض كعب بالأنصار في قصيدته هذه . فلما انتهى من إنشادها قال له  
 لرسول : « أَلَا ذَكَرْتَ الْأَنْصَارَ بِخَيْرٍ ؟ إِنَّ الْأَنْصَارَ لِلذَّكَاءِ أَهْلٌ . » وقال المهاجرون : « مَا  
 مَدَحًا مِنْ هَجَا الْأَنْصَارِ ! » لما كان من كعب إلا أن نظم قصيدة أخرى في مدح  
 لأنصار .

اهتم العلماء والأدباء هذه القصيدة اهتماماً فريداً ، وألّفوها شيئاً من التقديس  
 والتكريم ، وتبارى الشراح في التعليق عليها ، والشعراء في معارضتها وتشطيرها ،  
 ونحسبها ، ومن أشهر ما نظم في معارضتها قصيدة البوصيري « ذكر المعاد في معارضة  
 بانث سعاد » وقد أطلق عليها اسم « البردة » أيضاً ، ومن أشهر شارحيها ابن هشام  
 وابجوري . وقد طبعها المستشرق الهولندي ليته Lettè في لندن سنة ١٧٤٨ مع  
 شرح مستفيض بعد أن ترجمها الى اللاتينية ووضع ها مقدمة مبسطة ، وطبعها  
 مستشرقون آخرون ، ولكن أهم هذه الطباعات طبعة رينه باسيه R. Basset ، لأنها  
 أحوى الطباعات وأجمعها للروايات المختلفة . وقد قدّم عليها سحت مستفيض في حياة  
 كعب وبتريجة فرنسية للقصيدة .

#### ب ملامح عامة .

١ سيطرة النزعة البدوية : كان كعب بن زهير بدوي الأصل ، بزغ مزع الأعراب  
 في حياته الفردية والاجتماعية ، ويخضع لنظام الجاهلية في عصبيتها وسلسلة تقاليدها .  
 وقد حارب للإسلام لأنه لم ير فيه ما يتمشى وعقائد آباءه ، وعندما أسلم لم يكن إسلامه  
 عن اقتناع ورغبة ، بل عن اضطرار و رهبة ، وكان شأنه في ذلك شأن أكثر الأعراب  
 الذين لم يروا في النبي إلّا قائداً عظيماً ، وسيّداً ذا منعة وإقدار ، والذين فضحت  
 الآية نواباهم وقالت فيهم : « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَثَقَافًا ، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا

أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ<sup>١</sup>... ١٤٠ وقد تَرَدَّدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤَرِّثِينَ وَأَقْلَامِهِمْ أَنَّ الْأَعْرَابَ لَمْ يُسَلِّمُوا إِلَّا مُكْرَهِينَ أَوْ طَامِعِينَ . وَلَمْ يُسْتَشْرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ كَانَ دِينُهُمْ صَحِيحًا وَإِيمَانُهُمْ رَاسِحًا . وَلَسْنَا نَرَى فِي ذَلِكَ عَجَبًا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَارَبَ انْعِصِيَّةً ، وَدَعَا إِلَى الْمَسَاوَاةِ . وَأَمَرَ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ ، وَنَادَى بِالْعِفْوِ وَالْحِلْمِ . وَحَرَّمَ الْحَمْرَ وَالْمَيْسِرَ ، وَجَعَلَ التَّوَنَ شَاسِعًا بَيْنَ مَعْنَى الْمُرُوءَةِ الَّتِي تَقْيِدُ بِهَا الْأَعْرَابُ ، وَمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ .

وهكذا يتضح لـ السَّبَب الذي لأجله كان الإسلام ضعيف الأثر في شعر كعب بن زهير ، والقصيدة التي بين أيدينا لا تخرج عن أساليب الأعراب في مدح سادتهم إلا في عددٍ قليلٍ من الأبيات :

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي      وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ  
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً      حَقَرَانِ فِيهِ مُوَاعِظُ وَتَقْصِيلُ<sup>٢</sup>  
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ،      مُهْتَدٌ مِنْ سِيُوفِ اللهِ مَسْلُوكُ

وعندما أتى الشاعر على ذكر المهاجرين لم يَرَفِهِمْ إِلَّا الشَّجَاعَةَ وَالْأَنَفَةَ وَالْإِقْدَامَ ؛ وَكَذَلِكَ فِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْأَنْصَارَ لَمْ يُشِرْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ حَسَنَاتِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَمِنْهُ رِسَالَتُهُ .

٢ - مشهد جاهلي بدوي : في القسم الأول من القصيدة مشهدٌ جاهليٌ بدويٌّ رَكِبَهُ الشَّاعِرُ تَرْكِيبًا لَا يَخْلُو مِنْ حَذَقٍ وَفَنٍّ . إِنَّهُ مَشْهُدٌ سَعَادٍ وَقَدْ ظَلَعْتَ تَارِكَةً فِي قَلْبِ حَبِيبِهَا أَلْفَ مَرَّةٍ :

بَانتَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ ،      مُتَبِّمٌ إِرْهَاءَ ، لَمْ يُقَدْ ، مَكْبُولُ  
وإنَّ لِي لِلظَّنِّ ، وَتَقْيِيدِ الْقَلْبِ ، وَمَزْجِ الْحَمْرَةِ بِمَاءِ الْخَمِيَّةِ ، مَا يَنْقُلُنَا إِلَى الْمَاهِلِيَّةِ فِي مَادِبَتِهَا وَتَقَبُّبِ أَهْلِهَا بَيْنَ الْخَنْبَاتِ وَالْأَبَاطِخِ ، وَاتِّجَاعِهِمْ لِلْكَلْأِ وَالْمَاءِ ، وَتَعَاخُرِهِمْ بِشَرْبِ الرَّاحِ حَتَّى لَكَأَنَّ رُضَابَ سَعَادٍ يَبِيعُ مِنْ بَنَائِيعِ الْحَمْرَةِ ، وَحَتَّى لَكَأَنَّ نَشْوَةَ

١ - سورة التوبة ٩٧ - ٩٩ . - مائة القرآن عطية القرآن . ٢ - التمهيد . التبيين .

الشاعر فوق نشوة عمرو بن كلثوم وطرفة والأعشى وغيرهم ممن عرفوا ما للراح من شأن. وهكذا استطاع الشاعر أن يزج الحمرة في مطلع قصيدته على عادة الكثيرين من شعراء الجاهلية، وراح يجعلها في نعر سعاد، لا في الزقاق والدنان، انقاء لغضبة الرسول الذي حرم الحمرة وهكذا، كان جاهلياً في روحه، ومسلماً في ظاهر قوله:   
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي طَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ، كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِأَرَاخٍ مَعْلُولٍ<sup>١</sup>  
شَحَّتْ بِذِي شَبِيرٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحٍ أَضْحَى وَهُوَ مُسْمُولٌ<sup>٢</sup>  
وعندما عرض كعب لتقلب سعاد في أحوالها بالنسبة الى حبيبها تمثلت له صورتان: صورة عرقوب مخفف الوعود، وصورة الغول مضطرب، الأعراب في بطون الفياض، صورة من تاريخ الجاهلية أصبحت مثلاً يضرب في الإخلاف، وصورة من خرافات الجاهلية كان لها الأثر القوي في مخيلة أبنائها:

فَ تَلْدُمُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلْدُونُ فِي أَثَوِيهَا الْغُولُ  
كَأَنَّ مَوَاعِيدَ عَرْقُوبٍ لَهَا مِثْلًا وَمَا مَوَاعِيدُهُ إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

٣ وصف للناقة على أسلوب الجاهليين: وفي القسم الثاني من القصيدة وصف للناقة أقرب ما يكون من كلام طرفة لغة وانطلاقاً، ومن كلام النابغة تشبيهاً وتمثيلاً، ومن كلام زهير تصويراً وتحسيماً. إنها الجاهلية في حيوانها وصحاريها، في جزائها ومفوزها، في حرها وجفافها، في تقاليد أهلها وعاداتهم. إنه الجو الجاهلي في لوحة حسية تلمس فيها الروح والحياة، وتلمس فيها اندفاع الشاعر في ما يروق أسياد القبائل، وفي ما يهيج عاطفة الجاهلي إعجاباً وإكباراً.

وهذه الناقة التي جعلها الشاعر في طريق سعاد تنتهي به الى المدينة، وتلقي به بين يدي الرسول، فيحاول أن يعدل عن لغة الجاهليين الى لغة المسمين، واذا به مستسلم لما «قَدَّرَ الرَّحْمَنُ»، خاضع لسنة الموت، متلفع بثوب الحكمة والزناة، مُشْبِدٌ بَعْفُو

١ - حملو نكتشف: العوارض. الأسان الطلم ماء الأسان كأنه الصمير للظلم من. مسقي للمرة الأولى. معلول مسقي للمرة الثانية.

٢ شحَّت: أي مُرحت بالاء. بذى شيم: أي ماء ذي برودة الحصة معطف الوادي لأن مائه يكثر أصفى وأرق الأبطح. مسين فيه دقاق الحصى. المشمول الذي صرته ربيع الشمال

الرسول ، ذاكراً القرآن وما فيه من مواظ وتفصيل ، ولكن ذلك كله انحاء قناة  
بعو الرسول ، ذاكراً القرآن وما فيه من مواظ وتفصيل . ولكن ذلك كله انحاء قناة  
في وجه العاصفة ، وملاية في سبيل النجاة ، يعود في عقبها الجاهلي إلى جاهليته ، وإذا  
هو كالتابعة السياني معتذراً بأساليب التحويل والتجسيم ، وإذا هو براث مما يقال ومما  
قيل . وإذا هو في حال وفي موقف يعتان الرعب في قلب القليل على ضحاوته وشراسته ،  
فكيف به وقد ضافت به السبل وراح يقتطع البلاء مدرعاً جنح الظلام ! ... إنها  
« اللولية » النابغية في اللهجة البدوية . وقد احتل القليل محل الأفاعي اعترافاً من الشاعر  
هبة الرسول وسطوته على أشد الرجال شجاعة وبطولة ، وشبه الرسول بالأسد الذي  
ينعل على كل شيء .

قُلْتُ: حَلُّوا سَلِي . لَا أَبَا لَكُمْ ، فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَقْعُولُ  
نُسْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَلْتِي وَالْعَقُوْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ  
لَقَدْ أَقُوْمُ مُقَامًا لَوْ تَقُوْمُ بِهِ ، أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْقَلِيلُ  
لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ لَهُ مِنْ الرَّسُوْلِ . بِإِذْنِ اللَّهِ ، تَنْوِيلُ<sup>١</sup>

٤ - وصف للمهاجرين بلسان البداة : وفي القسم الثالث من القصيدة وصف  
للمهاجرين من قريش ولم يرَ فهم الشاعر إلا الشدة وانعقوان ، ولم يرَ عليهم إلا سوايغ  
من سجع داود ، ولم يجد في أيديهم إلا الرماح ، ولم يتكلم إلا على الطعن والضرب في  
القتال ، ولم يلق أروع من الجبال البيض يشبههم بها لما لتلك الجبال من مهابة في  
السَّير ، ولما لها من خلل في الموقف . إنها النظرة البدوية في سداجة تلقائيتها ، وفي  
قياسها الناس والأشياء بمقياس البداة :

شَمَّ الْعَرَانِي ، أَبْطَالُ ، كَبُوسُهُمْ مِنْ سَجِّ دَاوُدَ . فِي الْهَيْجَا مَرَايِلُ<sup>٢</sup>

١ - التحويل النطاف ، أراد به هنا : الأمن والمعو

٢ - شَمَّ العرب . مرتعو الأوف ، وهو كناية عن الأفة وكثر للنس السرايل ح سِرْدَال ، وهو القزع  
من سجع داود : كان العرب يسبون مرد الدروع إلى الهي داود .

يَشُونَ مَسَى الْجَمَالِ الزُّهْرُ ، يَعْصِمُهُمْ ضَرْبُ . إِذَا عَرَدَ السُّودُ الشَّنَابِيلُ<sup>١</sup>  
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ ، وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ<sup>٢</sup>

٥ إغفال للناحية الحضارية في الدين الجديد : وهكذا لم ينتبه كعب للناحية الحضارية في الدين الجديد وفي أصحابه ، ولم يتكلم إلا بالذهنية الجاهلية التي لا ترى في الحياة إلا ميداناً من ميادين القوة والنزاع في سبيل البقاء . وقد استعان بكل ما في الجاهلية من أساليب ، وبكل ما في الحياة القبلية من مثل ، وبكل ما في النادية من مهيب جليل ، لكي يمدح النبي والمهاجرين وينل بذلك رضًى وأماناً . ومما لا شك فيه أن الرسول أدرك ما في القصيدة من زلفى ، وما فيها من روح بعيدة عن روح الإسلام ، ولكنه أعجب بالأدب الرفيع ، وأعجب باللهجة البدوية التي تخضع ولو عن غير عقيدة . وأراد أن يكون مثلاً للرحمة والاسابية ، فعفا وتول .

#### ج . قيمة القصيدة :

١ - نهج كعب بن زهير منهج الجاهليين في نظم الشعر ، ولاسيما منهج أبيه زهير حكيم الشعراء ، وخطة النابغة الذبياني شاعر المدح والاعتذار . فكان كلاسيكياً جاهلياً في أدق ما يكون التعبير ، وكان شاعر التآني والتخيل ، وشاعر العقل الذي يوجهه العاطفة والخيال توجيه سلطان ومقدرة . وإنه ، وإن جرى من سبقه في الاستطراد التشبيهي ، وتفصيل أوصاف الناقة ، والافتتاح بذكرى الحبيب وذكر الحفرة ، فقد نزع منزع الاقتضاب البليغ مما أكسب شعره انطلاقة مع الموضوع ، واقترباً إلى ما نسميه التسلسل الفكري . وهكذا تراه يفتح قصيدته بذكرى سعد وتوقف عند قبح الإخلاف للعهد وكأني به يشير بذلك إلى ما يهدف في قصيدته من الحصول على الوعد الثابت والأمان الصادق ، ولا عجب في أن يفكر أعراي هذا التفكير وهو لا يرى في الرسول إلا سلطان سيّد قدير . ثم ينتقل إلى الناقة للحاق بسعد . فيختار ناقة من أشد

١ - الزُّهْرَجُ أزهر ورهراء . لأبيض . لمشرق . يعصمهم يحمهم . عَرَدَ : خَرَّ . مَرُّ الشَّنَابِيلِ ج . نَيْل . وهو القصير . يرى بعض الشُّرَح في هذا البيت تعريضاً بالأنصار ، إذ كان من محاملهم عليه حال وعوده على النبي .  
٢ - التَّهْلِيلُ : النجس والقرار .

الباق سرعةً وكالاً ولكنه لا يُريد في الحقيقة سعاداً ، وإنما يريد سعاداً وسعادة في نيل رضى الرسول والنجاة من غصبه ، ولهذا تتحول الثقة السريعة الى المدينة بعد تعب كثير ، وتخف لم يبق له فيه مُجبر ، وهالك يضع يديه في كف من « قيله القيل » ويعتذر ما استطاع الاعتذار ويمدح ما استطاع المدح ، ثم يمدح المهاجرين من قريش لأنهم لم يبقوا منه موقف الأنصار في حضرة النبي بل كانوا له نعم الوسطاء . وهكذا يتبين لنا ما في القصيدة من تلاحق لفكري قلياً مجده عند الجاهليين .

٢ ونحن نلمس في القصيدة بعض الجودة الفكرية وإن غلبت عليها النزعة التقليدية . وهكذا لم نجد أن لا نجبر القبائل كعباً وقد ترمى عليها مستجراً :  
تَسْعَى الرُّشْدَةُ جَنَاحَيْهَا وَقَوْلُهُمْ : «إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَيْمٍ لَمَقْتُولٌ»  
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمَلُهُ : «لَا أَتَيْتُكَ ، إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ»

ومن الجديد على لسان أعرابي أن يقول « وكل ما قدر الرحمنُ مفعول » ، وكأنه يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ... ما لي في يوم الدين ... اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ ... غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ومن الجديد أن نسبح من الأعرابي المتأوى للإسلام أن محمداً « رسول الله » وأن العفو عنده مأمول ولا سباً وقد جاء في الآية ٩٥ من سورة المؤمنون : « إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِّحَةِ » :

بَيَّنْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي ، وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

ومن الجديد أن يفوه الأعرابي بالهذلي وانتزيع نافلة القرآن ، وهذا كله من كلام المشعشين :

مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أُعْطَاكَ نَافِلَةَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ

ومن الجديد أن يكون الرسول نُورَ هداية وسبباً يسلكه الله على أعدائه :  
إِنَّ الرَّسُولَ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ، مُهَيَّئٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكُ

١ جانيها : أي حولي الثقة لا ألتئمتك : أي لا أشمك عما أتت به من الجوع .



٣ - وإذا انتقلنا الى عاطفة الشاعر لم نجد صادقا إلا في ما هو من أمر الرّبة ، وقد بلغه ما حلّ بالمناوين من الشّعراء وكتب إليه أخوه بجير يقول : « إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أهدرك دمك ، وانه قتل رجلاً بمكة ممن كان يهجوّه ويؤذيه . وإن من بقي من شعراء قريش كابن الزّبيري وهشيرة بن أبي وهيب قد هربوا في كل وجه . وما أحسك ناجياً . فإن كان في نفسك حجة فصور إليه فإنه يقبل من أمّاه تائباً ولا يطالبه بما تقدّم الإسلام . وإن أنت لم تفعل فأنج الى نجاتك من الأرض » . وهكذا سيطرت عاطفة الرّبة على كعب ، وانقاد لها في أقواله وأعماله : وهو فيما سوى ذلك يصطنع العاطفة اصطناعاً ؛ ففي المقدمة الغزلية يجري على التقليد القديم في افتتاح القصائد ، ولا يعاني تجربة حقيقة ، وفي وصف الناقة يقلّد طريقة بن العبد ويعمل على إظهار البراعة في القول والدقة في الوصف ؛ وفي مدح النبيّ والمهاجرين يقلّد النابعة الديباني فيمزج المدح بالاعتذار لبلوغ الهدف ، ويجمع من صفات الملوك والأسباد ما يلقبه على ممدوحه في غير نظرة موضوعية الى حقيقة الرسالة الإسلامية التي قام به النبيّ .

٤ - وجمال القصيدة في وشي الحياك وبراعة الأداء ، وقد استطاع كعب بن زهير أن يدمج في الأجواء العالية يقوده عقل متزن ، ويسمو به جناح خفّاق ، وينقاد له بيان رفيع ولغة مختارة :

في مشهد سعاد غداة الرحيل نغمة شجية وصُور شفاقة على ما فيها من مادية جاهلية واستطراد تشبيهيّ . وكأنني بالشاعر قد أراد أن يكون صنّاعة العرب كالأعشى ، فأنطق موسيقى ألفاظه عما أنشأ خياله من صور الجمال في العين والثغر ، ومن نشوة الراح في القلب والروح ، ومن برّد الهناءة في الجوارح :

وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ النَّيْنِ ، إِذْ رَحَلُوا ، إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ  
تَجْوَعُ عَوَارِضُ ذِي طَلَمٍ ، إِذَا اسْتَمَتَ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

وهكذا يصوّر الشاعر بالألفاظ كما يصوّر بالتشبيه والاستعارة ، ويمدّد الصورة بالاستطراد التشبيهيّ :

شُجَّتْ بِذِي شَتِيمٍ مِنْ ماءٍ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بَاطِعَ، أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ  
تَنِي الرِّيحُ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صُوبٍ سَارِيٍّ بِيضٍ يَعَالِي¹

وإنَّ في بعض آياته من تحيّر الألفاظ وتتابع وقعها، ومن تموج التعبيرات، ما يزعجك في جو حافل بموسيقى التبدل والتلون والإخلاف:

لَكِنَّهَا حُلَّةٌ قَدْ سَبِطَ مِنْ دَمْعِهَا فَجَحُّ وَوَلَعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلٌ²  
فَمَا تَدُومُ عَلَى خَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوْنُ³ فِي أَثَوِبِهَا⁴ أَلْقَوْلُ⁵  
وَلَا تَمْسُكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ إِلَّا كَمَا تُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ⁶

وفي مدح النبي والاعتذار إليه صور تنيف بالحياة. هنالك صورة القيل في رعدته واضطرابه ثمرد الموقف والمشهد، وفيها تضخيم وتجسيم؛ وهنالك صورة الشاعر على ظهر ناقته يقطع اليبداء مدرعاً جنح الظلام، وفيها لوحة واسعة الأبعاد في حسن التصور وغنى الإيجاء، وهنالك صورة الأسد الحادر وقد جعلها الشاعر استدارة تمثيلية، وفيها منتهى ما يتوصل إليه البدوي من معاني الشجاعة والبطولة:

مَا زِلْتُ أَقْتَطِعُ الْيَبْدَاءَ، مُدْرِعاً جَنَحَ الظُّلَامِ، وَتَوْبُ اللَّيْلِ مَسْبُولٌ  
حَتَّى وَصَعْتُ يَمِينِي، لَا أَنَا زَعُهَا، فِي كَفِّ ذِي نَقَاتٍ قِيلُهُ الْقَيْلُ  
لَذَلِكَ أَهْيَبُ عِنْدِي — إِذْ أَكَلَمُهُ وَقِيلَ: إِنَّكَ مَسْجُوبٌ وَمَسْئُولٌ⁷  
مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُبُوثِ الْأَرْضِ مَسْكُونُهُ، مِنْ بَطْنٍ عَثَرَ، غِيلٌ دَوْنَهُ غِيلٌ⁸

وفي هذه الغمرة التصويرية يتألق البيت الشهير الذي جمع الشاعر في صورته الرائعة نور الهداية وصولجان السلطة:

إِنَّ الرِّسُولَ لَوَرُ يُسْتَضَاءُ بِهِ، مُهْتَدٌ⁹ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ

١ - القذى: كل ما يسقط في الماء فيكدره. أفرطه: ملأه، زاده حتى فاض الصوب: لظفر السارية السحابة تأتي ليلاً. يعاليل: الجبال.

٢ - سبط: حلق، القفع: الإصابة عما يكره الولع - الكلب الإخلاف: عدم القيام بالوعد.

٣ - من حرافات العرب يزعمون أن العرب تراهي لهم في العلوات وتلَوْنُ لهم ويشبههم عن الطريق.

٤ - من حادير: متعلق بأعيب، والحادر: الأسد. عثر: مكان مكث فيه الأسود. الغيل: الغلج الأجمة

فقد بين الشاعر أنَّ الرسول صاحبُ رسالة حملها الى الناس ليهديهم الصراط المستقيم ، وأنه نبيُّ يكتنفه نور الحقيقة ، والحقيقة أفعل في النفوس من السيف في الأحساد . والصورة رائعة في إيجازها وفي حسن تمثيلها للحقيقة النبوية التي تنطق بسلطان وقوة .

وهكذا يواصل الشاعرُ تصويره وتعبيره في غير عتٍ ولا ضعف ، وهو يستطرد ولكنه لا يطيل الاستطرد كالنابغة ، ويُسبِّه ولكنه لا يُكثِّف التشبيهات كطرفة وامرئ القيس ، ويدقق في التصوير ولكنه لا يتوقف عند الجزئيات كأبيه زهير ، ويُطلق موسيقى الألفاظ ولكنه لا يُغالي في ذلك كالأعشى . وهو في ذلك كله شاعر الاتزان والثبات ، وشاعر الروعة الأدبية النادرة .

\*

### مصادر ومراجع

جمال الدين عبدالله بن هشام : شرح قصيدة باتت سعاد — بولاق ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م  
 فؤاد افرام البستاني : كعب بن زهير — الروبع — بيروت ١٩٣٣ .  
 ميّث نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي القاهرة .  
 طه حسين : ساعة مع كعب بن زهير — حديث الأربعاء ، الجزء الثاني ، القاهرة .

R. Basset, La Banat Soad de Ka'b ben Zohair Alger 1910.

\*

## حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ - أَبُو دُوَيْبٍ الْهَدَلِيُّ الْمُتَابِعَةُ الْجَعْدِيُّ

أ - حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ .

١ - تاريخه - وَلَدَ بِالْمَدِينَةِ أَتَّصَلَ بِالْقَبَسَةِ وَمَدَحَهُمْ كَمَا اتَّصَلَ بِبِلَادِ الْحِجْرَةِ . انْتَقَلَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَدَبَّرَهُ بِمَلَانِهِ فَغَنَّى « شَاعِرُ الْبَيْتِ » تَوَفَّى سَنَةَ ٦٧٤ هـ / ٥٤ هـ .

٢ - أَذِنَهُ . لَهُ دِيْوَانٌ شَعْرُ أَهَمِّ مَا فِيهِ مَدَحُ الرَّسُولِ وَمَدَحُ الْقَبَسَةِ .

٣ - شَاعِرُ الْفَخْرِ . يَفْخَرُ حَسَّانُ بِأَسْلُوبِ قَدَمٍ وَصِلَانَةٍ جَاهِلِيَّةٍ .

٤ - شَاعِرُ التَّوَكُّلِ . وَفَى حَسَّانُ إِلَى جَانِبِ التَّوَكُّلِ مَوْقِفَ مَدَحٍ وَمَوْقِفَ دِفَاعٍ ، وَكَانَ فِي الْمَوْقِفَيْنِ رَاحِلَ الْعَمِيدَةِ الرَّاسِخَةِ ، وَالْكَلِمَةِ الْمَصَادِقَةِ ، وَالْعَاطِفَةِ الْمُنْتَهَى

٥ - شَاعِرُ الْمَدْحِ وَالْوَصْفِ : كَانَ مَدَحُ حَسَّانِ جَاهِلِيًّا حَافِلًا بِالْمَغْطَمِ وَالْتَصَخِيمِ ، كَمَا كَانَ شَدِيدَ الْأَسْرِ ، شَدِيدَ اللَّفَةِ ، يَهْدَفُ إِلَى التَّكْسِبِ . وَوَصَفَ الْحَمْرَةَ عِنْدَهُ بِتَغْنَقٍ حَيَوِيَّةٍ .

ب - أَبُو ذُرَيْبٍ الْهَدَلِيُّ : شَاعِرُ جَاهِلِيٍّ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ . اشْتَرَكَ فِي غُرُوهِ أَفْرِيقِيَّةٍ مَاتَ أَسَدُهُ الْحَمْسَةَ بِالدَّعَاوِينَ فَرَتَاهُمْ تَوَفَّى فِي شَرْحِ شَبَابِهِ سَنَةَ ٦٢٨ هـ / ٦٤٨ م .

أَشْهَرُ شَعْرِهِ قَصِيدَتُهُ الْعَبِيدَةُ الَّتِي رَأَى بِهَا أَيْتَاهُ ، وَهُوَ فِيهَا رَاقٍ بِالْعَاطِفَةِ ، عَمِيقِ الْمُنْظَرَةِ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَشَعْرُهُ سَهْلٌ لُغِيَّةٌ بِالْعَاطِفَةِ ، وَيَسُوهُ بِهِ الْخَيَالُ فِي غَيْرِ إِحَالَةٍ وَلَا شُكُّوْهُ

ج - الْمُتَابِعَةُ الْجَعْدِيُّ : عَاشَرَ رَمَتًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ أَسْلَمَ . شَهِدَ مَعَ عَلِيِّ مَوْقِفَةَ صُفَيْنَ . شَافَعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ فَأَجْرَلَ لَهُ الْعَطَاءَ . مَاتَ بِأَصْبَهَانَ سَنَةَ ٨٠ هـ / ٦٩٩ م

أَشْهَرُ شَعْرِهِ رَاقِيَتُهُ الَّتِي قَدَّمَ فِي مَدَحِ الرَّسُولِ .

## أ - حسان بن ثابت (١٥٤هـ / ٦٧٤م)

## ١ - تاريخه :

أبو الوليد حسان بن ثابت ولد بالمدينة ونشأ في بيت شرف وجاه ، ثم اتصل بالنساسة ومدحهم ، كما اتصل ببلاط الحيرة ، وحلّ فيه محلّ النابغة إذ كان النابغة في خلاف مع النعمان ، ثم انتقل الى الاسلام وناصره بلسانه وردّ على خصومه . فكان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النسي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام . وقد عاش نحو مئة وعشرين سنة ، ستين منها في الجاهلية وستين في الإسلام .

## ٢ - أدبه :

لحسان بن ثابت ديوان شعر رواه أبو سعيد السكري عن ابن حبيب ، وأكثره في الهجاء ، وقد وُزّع باقيه ما بين مدح ، ترسل ، والفخر بالأنصار ، ومدح النساسة والنعمان بن المنذر ، ووصف بمجالس اللهو والتمر .

## ٣ - شاعر الفخر :

حسان شاعر جاهليّ تطغى عليه النزعة القبليّة ، فبنهض في وجه قبيلة الأوس وهي من أعداء قومه ، ويفخرها بأسلوب قديم وصلابة جاهليّة . وإذا هو مردّد لما قاله شعراء الفخر من معان ، ولما فاه به شعراء الهجاء من أفكار ، وإذا هو لسان وسيف ، وإذا اللسان والسيف صارمان ، واللسان أشدّ من السنان . وإذا هو كُفٌّ بلدى وسحابة جود ، وهو الشخص الكرم على سنة الجاهلية . أما قومه فشحاعة وعزة ، وأما العدو فذلٌّ وخسَفٌ :

لِسَانِي وَسَيْفِي صَارِمَانِ كِلَاهُمَا وَيَسْلُغُ مَا لَا يَلُغُ السَّيْفُ مَذُودِيْ

صارمان . قاطعان المذود : اللسان لأنه يُدّده عن العرص يقول : إن لساني يال من أعناني ما لا ياله السيف منهم .

وانك وأنت تقرأ فخره تشعُر بالاعتزاز الذي ينبفخ في صدره ، والقوة التي تهت بها نبرات صوته ، وتمثل الشاعر ناظراً الى أعدائه من عل ، نظرة الاستكبار والمزء ، متمعداً الكلام الضخم الذي يضح في الأذن ويحدث دويّاً ، متمعداً الفافية التي تتعد عن الرقة والتعومة .

#### ٤ - شاعر النبوة :

يقف حسّان الى جانب النبوة موقفين : موقف المادح وموقف المدافع . فهو يمدح النبي ، كما يمدح خلفاءه وكبار الصحابة ومن دافع عن الإسلام ، بإخلاص وشجاعة . ومدحه هذا أناشيد عقيدة ، وألحان إكبار للرسالة الجديدة ، وإعجاب بمناقب من قام بها . هو صوت القلب في فرح من لقي النور بعد الظلام ، وفي نشوة من انتصر على الوثنية الجاهلية . هو نبضات في غير تطويل ولا تفصيل ، وفي لغة لا تخلو من رقة وسهولة ووضوح .

وإلى جنب المدح نرى الشاعر ينتصب للنضال في سبيل النبوة ، وقد وجه هجائه الى القرشيين الذين هزئوا بالسوة وصاحبها ورموها بالكلام القبيح . وكان بين أولئك القرشيين والرسول صلة السب ، فحاول الشاعر أن يسله من بينهم « كما تسل الشعرة من العجين » وكان هجاءه طعناً بالفروع دون الأصل ، وفصلاً للأعداء عن دوحه قریش ، ورمياً لهم باللؤم والحزبي في إقذاع شنيع .

#### ٥ - شاعر المدح والوصف :

اتصل حسّان بملوك غسان و بملوك الحيرة ومدّحهم ، وكان مدّحه لهم على الطراز القديم يحمل بالتضخيم والتعظيم كما يحفل بالكلام العالي اللهجة ، الصعب الألفاظ . وحسّان في شعره هذا متكسب ، ينظم طلباً لرفد والعطاء .

أما وصف حسّان ، وقد عينا به وصفه للخمرة ولخالس أسه ، فهو وصف يتدفق حيوية ، وإن أتى عرساً ، هو وصف من أحبّ الحمرة وعرف نشوتها ، وهو وصف فخري على عادة الجاهليين ، أكثر مما هو تفصيلي وتحليلي .

تلك بعض النواحي من شعر حسن بن ثابت. وقد قال الأصمعي: «هذا حسن فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره» وقال أيضاً: «شعر حسن في الجاهلية من أجود الشعر، ففُطِعَ منه في الإسلام» والسبب في ذلك تقدم الشاعر في السن، وتسرع في نظم الشعر. وعلى كل حال فشعر حسن لا يخو من اضطراب ومن تقلب سريع بين الموضوعات، ومن فودان وثاب يحول دون التعقق ونجيب الضعف.

## ب - أبو ذؤيب الهذلي (٢٨هـ / ٦٤٨م)

١ - تاريخه:

أبو ذؤيب حوئلد بن خالد الهذلي شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، وقد خرج مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح لغزو أفريقية عام ٢٦هـ. ثم عاد مع ابن الزبير الى مصر، فأصيب بأبواه الخمسة فيها بالطاعون فأتوا، ورثهم بمرثيته المشهورة. وتوفي هو في شرح شانه نحو سنة ٢٨هـ / ٦٤٨م.

٢ - أدبه:

لأبي ذؤيب قصائد كثيرة مشورة في مجاميع الأدب، أشهرها عينته التي رثى بها أولاده الخمسة. وهي تقع في ٦٨ بيتاً. نقلها كتب الأدب كاسمة أو غير كاملة، وكان لها شهرة واسعة فتناقلت أبياتها الألسنة واستشهد بها الأدباء، ومطلعوها:

أَمِينَ السَّمَوَاتِ وَرَأْسَهَا تَتَوَجَّعُ      وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ  
قَالَتْ أُمَيْمَةُ: مَا لِحِجَّتُكَ شَاحِيًا      مِنْذُ ابْتَدَلْتُ، وَمِثْلُ مَا لَكَ يَنْفَعُ  
أَمْ مَا لِحِجَّتِكَ لَا يُلَاقِيكُمْ مَصْبِغًا      إِلَّا أَقْصَى عَلَيْهِ ذَاكَ الْمَصْبِغُ

١ - الموت يذكر ويؤث. ومثني الموت مؤناً لأنه بمن المرء أي ينقصه ريب الموت. ما يأتي به من القوامع الانتخاب فعل ما يرحي انتخاب

٢ - ابتدل الرجل. عمل عمله بغيره. وقوله. ومثل ما لك نفع. أي في شراء العبد وقبائهم بالعمل بذلك.

٣ - أقصى عنه المصعب. أي ابتلا مصبغاً أي حصي. ومراد أنه أرق ولم يبدأ

فَأَجَبْتُهَا أَنْ مَا لِيَجْسِمِي أَنَّهُ أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا  
أَوْدَى بَنِيَّ فَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً بَعْدَ الرُّقَادِ، وَغَبْرَةً مَا تُقْلَعُ...

١ مضمون القصيدة: تنطوي القصيدة على قسمين كبيرين: في الأول منها  
حكاية حال الشاعر وما ألَمَّ به حسماً وروحاً من شدة الأسى واللوعة، وفي الثاني وقفة  
تأملية يرى فيها الشاعر الموت محتوماً على كل ذي حياة.

٢ أبو ذؤيب من خلال قصيدته وفيها. يتجلى لنا أبو ذؤيب في قصيدته هذه رجلاً  
رقيق العاطفة، للألم في نفسه صدى بعيد، وقد هدته المصيبة هذا، وهي شديدة من  
شأنها أن تحطم الإنسان تحطيماً، فيكسح وحاول لإخماء الدموع، وحاول أن يتظاهر  
بالتجلد ورباطة الجأش، وإذا هو مغلوب على أمره، يتقلب على سرير الأسى واللوعة  
والسهاد، وإذا الألم على لسانه حكمة يرسلها في أذن الأجيال نعيًا للحياة والأحياء.

وشعر أبي ذؤيب مهلٌ ثلثته العاطفة، وتوسوس بين أنفاس خيالٍ حسني لا  
يجمع ولا يبتعد عن الواقع. والغريب الذي نجمده في شعره لا بغض من سلاسته ولا  
يحد من تأثيره. قال ابن سلام: «كان (أبو ذؤيب) شاعراً فحلاً، لا غميرة فيه ولا  
وهن».

### جـ - النابغة الجعدي (٨٠هـ - ٦٩٩م)

١ - تاريخه:

أبو ليلى عبدالله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة، عاش زمناً في الجاهلية ثم  
أسلم. وقد عاش طويلاً في الإسلام، وأقام زمناً مهاجراً حتى أيام عثمان، فأحسن  
بضعف في نفسه، فاستأذن عثمان في الرجوع إلى البادية فأذن له، ثم لما كانت خلافة

١ - أن هنا محضة من التثنية، أي أجبتها أن الذي حصل حسني ن ولادي هلكوا وتركوا.



عليّ شهد معه وقائع صفيّين وظاهره بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبني أمية . ثمّ كان في شيعة عبد الله بن الزبير حين خروجه على يزيد ومروان وعبد الملك . وقد أجزل ابن الزبير له العطاء . وبعد سكون الفتن خرج مهاجراً الى الأمصار المُفتّحة ، ومات بأصبهان نحو سنة ٦٩٩ م . وقد عمّر طويلاً .

٢ - أدبه .

للناطقة الجعديّ شعر مختلف الموضوعات ، ومن أشهره رائيته التي قالها في مدح الرسول ، ومطلعها :

خَبِيرِيَّ عَوْجًا سَاعَةً وَتَهَجَّرًا ،      وَنُوحًا عَلَى مَا أَحْدَثَ الذَّهْرُ أَوْ ذَرَا  
وَلَا تَجْزَعَا إِنَّ الْحَيَاةَ دَمِيمَةٌ ،      فَخِيفًا لِرُؤُوعَاتِ الْحَوَادِثِ أَوْ قَرَا  
وَأَنْتِ رَسُولُ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى      فَلَا تَجْزَعَا بِمَا قَضَى اللَّهُ وَأَصْبَحَا...  
أَقِيمِ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفِعْلِهَا      وَتَسْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَبْرَا  
وَكُنْتِ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَحْذَرَا

الناطقة الجعديّ في شعره . في شعر النابغة الجعديّ تفاوتٌ شديد ، فبعضه جيّد مبرز ، وبعضه رديء ساقط . وهو يرسله لإرسالاً في رَقَّةٍ ولينٍ وانسجام ، وقد صُرب به المثلُ في وصف الحيل .



## مصادر ومراجع

- محمد عبد المعصم حامي: الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام القاهرة.  
 خلدون الكنتاني: حسان بن ثابت دمشق ١٩٢٣.  
 فؤاد البستاني: حسان بن ثابت — الروائع ٣٣ — بيروت ١٩٣٤.  
 أسعد طلس وإبراهيم كيلاني: الأدباء العشر.  
 محمد خلف الله: شاعر الرسول — مجلة الثقافة — الأعداد ٢١١، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٦.  
 جرجي زيدان: حسان بن ثابت — اهلل ٦: ٤٨٢.  
 أحمد عبد اللطيف بدر: الشعر والشعراء في الاسلام — حسان بن ثابت — مجلة الأزهر ١٩٦٩.



## الفصل الثالث

### شعراء البادية : الشعراء المتيمنون

### جميل بن مَعمر - ليلى الأخيلية - قيس بن الملقح قيس بن ذريح

١. جميل بن مَعمر :

أ - تاريخه : وُلِدَ في وادي الفري بالحجاز وأُحِبَّ مَمةَ عَمِّه بَشَّةَ ، ولم يُرَوجَ منها لآله شَبَّ بها ، فقصى حياته متنهماً إلى أن مات في مصر نحو سنة ٧٠١م

ب - أدبه : شعر جميل هو شعر لأمانة والإخلاص ، والحس في سطوة نفسيّة وإسمانة في سيل المحبوب ، وهو حبّ الروح للروح بدوم ما دامت الروح ، ونسبته جميل في شعره شفاقة ، والمرأة فيه مثال أعلى من المثل التي تتوجّه إليها الحياة ، وأسلوب جميل هو أسلوب الشعر العرائي الوجداني ، أسلوب الصديق والنفس الخيالي الذي يطلق من الأحقاد ولا يظهر منه إلا السّعة والهمة .

ب - ليلى الأخيلية : كانت شديدة الحياء وقد أحسّت ثوبه ولكنّ ذوّبها حالوا دون رواجها منه ، مكثت حياتها حياة لوعة وعذاب ، ولمّا ماتت توبه وثقّه بشعر حافظ المرأة والإخلاص ؛ وهكذا كانت ليلى شعرة لحبّ ، وكان أسلوبها أسلوب لسلامة والعسوة ونشأة .

ج - قيس بن الملقح : هو من بني جعدة بن كعب بن عامر ، أحبّ فتاة اسمها ليلى ، وهام في حبّها حتى لُقّب بالجنون ، ولكنها منعت عنه فاضطرت حاله ، وظل يصرب في القياتي إلى أن مات ، تاركاً شعراً مليّئاً بعاطفته الحائرة ، وتذكراً اسم ليلى أشدوداً على ألسنة لأحياء .

د - قيس بن ذريح : هو أحد الشعراء المشتهرين بشعر حبّ كُتِبَ من الحُبّ الكميّة ، وقد تزوّجها ثم حبر على عطيقتها ، فكان ذلك حرقاً في نفسه ، وكان ذلك ينبوعاً من ينابيع الشعر لمرعي الصباني والمؤنّر .

## أ - جميل بن معمر أو جميل بثينة (٨٨٢هـ / ٧٠١م)

### ١ تاريخه :

وُلد جميل بن عبد الله بن معمر في وادي القرى بالحجاز ، ونشأ في أسرة ذات سعة وقدر ، ونشأت إلى حنينة ابنة عم له اسمها بُثينة فأحبها ، وترعرع معه ذلك الحب ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال ، طلب الزواج من بُثينة ، فلم يوفق لدعوى أنه شبيب بها . وأظفر بها أهلها رجلاً آخر ، فحزَّ الألم في نفس جميل ، وفجرَ فيها أعمقَ انشاعر ، وراح يتغنى بأمله الضائع ، ونُصِبَ عينيه صورة الحياة التي فقدها ، والروح التي خُفيت لتعانق روحه .

وقام العدال يعللون ، والسَّوام يلومون فتوجَّه إليهم جميل يرثي العدل واليوم ، ومحاولاً إقناعهم بمنطق عاطفته وحجته ولَّه وغرامه . ثم يروي الرواة أن بُثينة عفت رجلاً اسمه حُجنة الهلالي ، فزادت بذلك آلام جميل الآلام ، وأصافت إلى تعلُّقه بها ولعاً بلغ حدَّ الحنون ، فراح يدبُّ خطئه ، ويُعاتب حبيبته في لهجة القلب المنكسر ، ولوعة النفس التي حطمتها الأيام . وراح في هيامه يتردَّد إلى ديارها ، ويُعدِّد السبل إليها ، علَّه يراها ويظفي برؤيتها بعض ما فيه من جوى . فغضب أهلها للأمر ، واستعدوا عليه مروان بن الحكم والي المدينة من قِبل معاوية ، فأهدر دمه . وكان من جرَّاء ذلك أن تضاعف القلق والاضطراب في حياته ، فراح يصرب في البلاد بين الشام واليمن . إلى أن استقرَّ في مصر حيث توفي نحو سنة ٧٠١ .

### ٢ أدبه :

لجميل بن معمر شعر مبثوث هنا وهناك في كتب الأدب ، وقد اختلط فيه الصَّحيح بالمنحول ، وكلُّه ، صحيحاً ومحولاً ، يتفسَّر فيه روح جميل ، وتتراى فيه صورة بُثينة .

## ٣- الشاعر العُدريّ :

١ «الهوى العُدريّ استمرار للروح العريّة بعد قيام الإسلام ، ومظهر من مظاهر الأصالة العربية في خضمّ الانقلابات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أحدثها الإسلام في حياة العرب . وليس له من تفسير ينطبق على حقيقته غير هذا التفسير .. وهذا الهوى العُدريّ الذي برز في إطار الحضارة العربية ، كان علاقة بين كائنين انسانيّين توجههما على نحو من الإجماع صوب حياة نفسية تتسم بالصفاء والإخلاص والعفة والوفاء المتبادل أية كانت الظروف ، وتحملها على التضاني والتضحية ، فينتقلان منها إلى قوة روحية عجيبة ، وخور في الأعصاب ، ينهي أخيراً بالموت أو العقاب . فقد أحبّ حميل بثينة حبّاً حافلاً بالأمانة والإخلاص ، وتحوّل عنده الحبّ إلى بطولة تغلبت على كلّ عقبة ، ولم تستطع الصعوبات أن تنهيه عن موضوع آمانه ، ولا أن تردّه عن موطن أحلامه ، بل كانت كلما ازدادت ازداد تعلّقه ، وراح في تدريجه الصّاعد يتحوّل إلى فلسفة حيائية خاصة ، تضع فيها معالم الأشياء وحقائقها الظاهرة في خضمّ العواطف الدخلية ، فلا يرى الظاهر إلا من خلال الباطن ، ولا تقيم القيم الموضوعية إلا بتقويم المقاييس الداخلية في هذه الغمرة من الاختلاجات والتقديرات . فالحبيب هو الوجود ، ووجوده في نفس المُحبّ يُصبح انعكاساً على كلّ موجود وكلّ حقيقة . فلذا دُعي جميل إلى الجهاد في عهد رأى الناس في الجهاد سبيلاً إلى خير الدّنيا وخير الآخرة ، قال :

يَقُولُونَ جَاهِدْ . يَا جَمِيلُ ، بِغَزْوَةٍ ، وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أُرِيدُ ؟  
لِكُلِّ حَدِيثٍ عِنْدَهُنَّ بَشَائِئُهُ . وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

وهكذا فعنى الجهاد عنده غير ما عند الناس . وشهادة الحبّ هي شهادة تصبو إليها نفسه . ولأنّ يُقتل في سبيل من يُحبّ خير له من أن يعيش في سعادة والحبيب بعيد عن قلبه وعن نفسه .

٢. والحبّ عند جميل هو بطولة نفسية واستماتة في سبيل المحبوب ، هو بطولة تتحدّى العذال والحكام ، وتمنّى لقاءهم لكسر شوكتهم وتحطيم عفوانهم ، وهو في الوقت نفسه فناء في المحبوب ونضحية كاملة على هيكله . وتلك ظاهرة نفسية غريبة لا يفسرها إلا ذلك الالتزام الذاتي بالحبّ من جهة ، وبالوفاء والأمانة من جهة أخرى ، فهو بنية قضية ينافح عنها جميل ، ويضحّي في سبيلها ، ولا يتردّد في بدل كلّ نفيس لأجلها .

٣. وحبّ جميل الى ذلك يتجاوز حدود المكان والزمان . فكانه أبديّ ، وكأنه كائن وجد قبل أن يوجد هو وبشيئة . وما ينموها . وهو باق بعد موتها يزورها في قبريها الى آخر الدهر . فليس ذلك الحبّ عارضاً ، وليس في سلطان الشر أن يحدّوا من حدّته ، أو أن يقضوا عليه :

تَمَلَّقَ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا      وَبَيْنَ بَعْدِ مَا كُنَّا نَظَافًا وَفِي الْمَهْدِ  
فَزَادَ كَمَا زِدْنَا ، فَاصْبَحَ نَائِيًا      وَلَيْسَ إِذَا مَتْنَا بِمَنْتَقِصِ الْعَهْدِ  
وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ      وَرَأَيْنَا فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ وَاللَّحْدِ

انها انقلابة أفلاطونية جبارة . فالروحان متحدان في «عالم المثل» قبل أن يهبطا الأرض . واتحادهما اتحاد عنصرين متكاملين تكاملاً جوهرياً ، فلا يقوم الواحد بدون الآخر ، ولا يجوز للواحد أن يفصل عن الآخر . لأن الانفصال هلاك و بوار .

٤. وحبّ جميل غير الحبّ الشهواني ، هو حبّ الروح للروح ، ومن ثمّ فهو يقع بالانفائاة ، والوعد وإن كاذباً ، والكلمة وإن وجيزة . إنه الإخلاص يطلب الإخلاص وكفى :

وَإِنِّي لَأَرْضَى مِنْ بَشِيَّةٍ بِالَّذِي      لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَأَشْيِي لَفَرْتُ تَلَايِلُهُ :  
بَلَا ، وَبِأَلَّا أَسْتَطِيعَ ، وَبِأَلْمُنَى      وَبِأَلْوَعْدِ حَتَّى يَسَامَ الْوَعْدُ أَمَلُهُ  
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَمَلَى ، وَبِالْحَوْلِ تَنْقُضِي      أَوَاخِرُهُ — لَا سَلْتَنِي — وَأَوَائِلُهُ  
ولهذا تراه يجرع شديد الجزع إذا لاح له ما من شأنه أن يبعد عنه الحبيب ، أو ما من شأنه

أن يُفسد الإخلاص عنده. وها هوذا يخاطب بثينة وقد لحت في رأسه بعض الشعر الأحمر ينذر بقرب المشيب:

تَقُولُ بُثَيْنَةُ لَمَّا رَأَتْ      فَنُونًا مِنْ الشَّعْرِ الْأَخْمَرِ  
«كَيْتَ جَمِيلٍ وَأَوْدَى الشَّبَابِ»<sup>١</sup>      فَقُلْتُ: «بُثَيْنُ أَلَا فَأَقْصِرِي!»<sup>٢</sup>  
أَتَسِينِ أَيْمَانًا بِالْأَلْوَى      وَأَيْمَانًا بِذَوِي الْأَجْفَرِ؟<sup>٣</sup>  
أَمَّا كُنْتُ أَبْصُرْتَنِي مَرَّةً      لَيْلَالِي أَنْتُمْ لَنَا جَبَرَةٌ  
لَيْلَالِي أَنْتُمْ لَنَا جَبَرَةٌ      وَإِذْ أَنَا أَغْيَدُ غَضُّ الشَّبَابِ  
وَإِذْ لِمَنِي كَجَنَاحِ الْغُرَابِ      فَغَبِرَ ذَلِكَ مَا تَعْلَمِينَ  
وَأَنْتِ كُلُّوْلُوهُ الْمَرْزُبَانِ      وَأَنْتِ كُلُّوْلُوهُ الْمَرْزُبَانِ  
فَرِبَانِ مَرْبَعْنَا وَاحِدُ      فَكَيْفَ كَبُرَتْ وَلَمْ تَكْثِرِي؟<sup>٤</sup>

تعيب عليه بُثينة التقدّم في السنّ. وهذا شأن المرأة التي تحبّ أن تسيطر أبدأً على من يحبّها، وتوقظ فيه ذلك النوح العاطفيّ. وخشية أن يكون كلام بثينة حقيقة تركز إليها هي، وينهار هو سببها في نظر نفسه، راح يوضح لها أن شبيهه ليس شبيب هرم وإنما هو شبيب هموم. فهو لا يخرج به عن دائرة الحبّ: إنه منه وبسببه وهو إلى ذلك يخشى أن يتسرّب ظلّ الشكّ إلى نفس بثينة، فيذهب معها عبر الأيام والليالي، ويوقظ في نفسها الذكريات، في أعذب ما يكون القول، وأطرفه، وأصدقّه، وأسهله. وكم في كلامه من طبعيّة ولين، وكم فيه من انسياب عاطفيّ ولغظيّ تضفي عليه الرقة المتألّمة من الرّوعة الفتيّة ما لا حدّ له.

١ - ماقصري: فكّفي.

٢ - أعيد فصح الشبيب: لين الأعطاف، في تصارة الشبيب.

٣ - رجل الشعر: سرّحه

٤ - امرؤ بان: الرئيس عبد الغرس

٥ - والحبُّ العُدريُّ دَمْعٌ مِنْهُمْ بِسَبَبِ الصُّعَابِ الَّتِي تَوَاجَهه وَالتَّقَالِيدِ الَّتِي تَقْدِسُه ، والحرمانُ الَّذِي يَضْطَرُّ نَاراً فِي ضُلُوعِ أَصْحَابِهِ . وَهِيَ هِيَ ذِي شَيْئَةٍ تَبْكِي وَتَفْرُقُ عَيْنِيَا الْكَحِيلَتَيْنِ فِي بَحْرِ مِنَ الدَّمُوعِ ، فَهِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى إِخْلَاصِهَا ، وَإِنْ أُجْبِرَتْ عَلَى الْإِقْتِرَانِ بِغَيْرِ جَمِيلٍ ، وَهِيَ تَذُوبُ تَحْنَاناً وَإِنْ عَمَتْ عَلَى إِخْفَاءِ الْأَيْنِ .

إِذَا مَا تَرَا جَعْنَا الَّذِي كَانَ يَنْتَنَا جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بَيْتَةً بِالْكَحْلِ كِلَانًا بَكَى ، أَوْ كَادَ يَكِي صَبَابَةً إِلَى الْفِيهِ ، وَأَسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِي

٦ - وَالحبُّ العُدريُّ عَقْلٌ ذَاهِلٌ ، وَانْهِيَارٌ كَيَانِيٌّ كَامِلٌ ، وَفَلَقٌ شَامِلٌ . وَهُوَ سَخَاءٌ لَا حَدَّ لَهُ . يَجُودُ بِالرُّوحِ وَيَكِي حَبًّا لِقَاتِلَهُ ، وَيَقْبِلُ الذَّلَّ إِذَا كَانَ فِي سَبِيلِ الْمَحْيُوبِ :

وَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِي مَا طَلَيْتُهَا ، وَلَكِنْ طَلَيْتُهَا لَمَّا فَاتَ مِنْ عَقْلِي قِيَا رَيْحَ نَفْسِي ! حَسْبُ نَفْسِي الَّذِي بَهَا وَيَا رَيْحَ أَهْلِي ! مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي خَلِيلِي ، فِيمَا عِشْتُمَا ، هَلْ رَأَيْتُمَا قَبِيلًا بَكَى ، مِنْ حُبِّ قَائِلَتِهِ ، قَبْلِي

٧ - وَالحبُّ العُدريُّ رُوحِي أَكْثَرُ مِمَّا هُوَ جَسَدِي ، وَلِهَذَا يَزْدَادُ اضْطِرَاماً بِازْدِيَادِ الصَّدُودِ ؛ وَهُوَ يَرَى فِي الْحَيِّبِ جَمْلَةً مَا فِي الْوُجُودِ ، وَلَا يَلْقَى لِلْوُجُودِ مَعْنَى بِعَزَلِ عَنْهُ .

### ٤ العاشق والمعشوق في شعر جميل :

١ - نَفْسِيَّةٌ جَمِيلٌ فِي شِعْرِهِ شَفَافَةٌ ، وَهِيَ تَتَكَوَّنُ مِنْ عَقَّةٍ وَإِبَاءٍ ، وَعَاطِفَةٍ حَيَّةٍ مَشْبُوبَةٍ ، وَانْقِبَادٍ لَتِلْكَ الْعَاطِفَةِ فِي غَيْرِ التَّوَاءِ أَوْ تَرَاجُعٍ ، وَصِدْقٍ فِي الْعَاطِفَةِ وَفِي الْإِقْبَادِ لَهَا ، وَإِيمَانٍ بِالْهَبَّةِ يَكَادُ يَكُونُ أَعْمَى ، وَتَحَسُّكٍ بِالْمَحْيُوبِ إِلَى حَدِّ الْمَوْتِ ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَهْدِيَ الْإِنْسَانَ هَذَا ، وَيَجْعَلُهُ فِي تَوَرُّرٍ دَائِمٍ يُغَيِّرُ مَقَاسِيِسَ الْأَشْيَاءِ .

٢ - وَالْمَرْأَةُ فِي شِعْرِ جَمِيلٍ مِثَالُ أَهْلٍ مِنَ الْمَثَلِ الَّتِي تَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا الْحَيَاةُ وَتَذُوبُ فِيهَا ، وَهِيَ مُخْلِصَةٌ وَفِيَّةٌ تَفْقَادُ فِي وَمَائِهَا لِتَقَالِيدِ مَجْتَمَعِهَا فِي غَيْرِ عُنَادٍ ، وَتَمُوتُ قَلْبًا وَنَفْسًا لِتَحْيِي لِرَادَةِ غَيْرِهَا وَتَقِيمُ نِظَامَ الْمَجْتَمَعِ الدَّائِي الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ :



كلانا بكى، أو كاذ يكي صباة إلى إلفه، وأستعجنت عبرة قلبي وهي، وإن قلها الحب، تخضع لظام الشرف فيها فتصد وتبخل وتتي أقوال الواشين:

وَكُسْتُ عَلَى بَذْلِ الصَّفَاءِ هَوْنَهَا وَلَكِنْ سَبَّخْتُ بِاللَّيْلِ وَبِالْبُحْلِ

٣ المرأة في شعر جميل موصوفة بالجمال، ولكنه جمال روح وجسم، جمال صفاء ودلال، جمال عين دامعة ونفس تنوب صباة. إنها الأنوثة الحية الطبيعية التي تعرف أنها خلقت أنوثة وأنها طبيعة جميلة بعيدة عن كل صنعة وزخرفة وتنسيق.

#### ٥ - أسلوب جميل:

وأسلوب جميل هو أسلوب الشعر الغنائي الوجداني، في قلبه مع مد العاطفة وجزرها، وفي انسيابه وسهولة الفاظه وتعبيراته. وفي تلقائيه البعيدة عن كل تصنع وعن كل بناء فكري.

وهكذا يتضح لنا أن غزل ابن معمر هو غزل العاطفة الناعمة الصادقة، غزل الإخلاص والوفاء، ويتضح لنا أن الهوى العذري «يؤمن بوحداية الحب»، ويتركز عندها لا يحول عنها ولا يزول... والعذري الحقيقي يأبى إباء عفواً أن يداحل قلبه هوى آخر أو طيف هوى يعكر على نفسه صفة حبه، ووحداية عاطفته<sup>١</sup>. «وإننا لنلمس في شعر جميل صفاء النفس وإشراقها مندققين على الأسلوب صفاء شفافاً يوسوس في النفس قبل الأذن. والقصيدة عنده تجربة شعرية كل يسر من الشعر ناحية من نواحيها واختلاجة من اختلاجاتها، فليس هنالك مقدمات ولا استطرادات وإنما هدو تهيؤ إليه الأيات هويّاً في نمو وتدرج، وليس هنالك تمويه أو التواء. بل صدق نفسي في صلق تعبيرى.

## ب - ليلي الأَخْيَلِيَّة (٨٧٥ - ٦٩٥ م)

## ١ تاريخها :

هي ليلي بنت الأَخْيَل من عَقِيل بن كعب ، وكانت شديدةَ الجمالَ فَهَوَّيَها تَوْبَةُ بن الحُمَيْر وقال فيها اشعر ، ثم خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه بها لما قال فيها من شعر ولما اشتهر من حبِّه لها ، بل رُوِّجها رجلاً من بني الأَدْلَع . وكان تَوْبَةُ كثير الغارات فقتل في إحدى غاراته ، فشَقَّ الأمر على ليلي ، وراحت تلدرف الدموع رثاءً جميلاً لمن أُحِبَّت ، وهكذا بقيت إلى آخر حياتها لا تفلح عن البكاء والرثاء . وقد توفيت نحو سنة ٦٩٥ م

## ٢ - أديها :

لِللَّيْلِ الْأَخْيَلِيَّةِ شِعْرٌ مَثُوثٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ ، وَكَانَ يَبْهَرُ وَيُبِينُ النَّابِغَةُ الْجَعْدِيَّ مَهَاجَةً ، وَلَكِنْ أُرْوِعَ شِعْرُهَا مَا قَالَتْهُ فِي تَوْبَةٍ وَمَا عَبَّرَتْ بِهِ عَنْ ثَوْرَاتِ عَاطِفَتِهَا الْمُنْتَهَبَةِ ، وَعَنْ اصْطِرَامِ هَوَاهَا الْمَكْبُوتِ

وشعرها شعر الأنوثة الحافلة بالعاطفة والإخلاص ، هو شعر السلاسة والعذوبة والسهولة . وهو على رِقَّةٍ وسلاسةٍ جَزَلٍ في أسلوبه ، متينٌ في تعبيره .

## ج - قيس بن المُلُوح (مجنون ليلي) (القرن السابع)

## ١ تاريخه :

هو قيس بن معاذ ، ويقال قيس بن المُلُوح ، أحد بني جَعْدَةَ بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صَعَصَعَةَ ، شاعر غَزَلٍ من الْمُشَمِّعِينَ ، من أهل نجد ، لُقِّبَ بالمجنون لِهَيْامِهِ حُبَّ لَيْلَى بنت سعد . أَحَبَّ لَيْلَى منذ الطفولة وشَبَّبَ بها في شعره ثم طلبها من أهلها فمنعوا عنه ، فآزداً حَتّاً وهياماً وأخذ يتردد إلى حَبِيبِهَا فبالغ أهلها في ردِّه ، فما زاده ذلك إِلَّا غراماً بلغ به إلى حد الجنون ، فراح يضرب في البداء في طلب لَيْلَى مُتَعَبِياً باسمها ، شاكِياً إلى كل إنسان ما في نفسه من ألم وحزن . ولما خاف أهلها الفضيحة رفقوا أمره إلى

السلطان فأهدر دمه . وما زال المجنون يتقلّب من ناحية الى ناحية حتى مات ودُفِن في رمال الصحراء . وقد تناول الأدياء قصّته وشعره فضخّموها ، ونسجوا منها رواية خياليّة ، قريبة من الأسطورة . وكان الأصمعيّ يُنكر وجوده ، ويراه اسماً بلا مُسمّى . والجاحظ يقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر لى إلا نسبوه الى المجنون .

#### موت المجنون .

إن شيخاً من بني مرّة حدثني أنه خرج الى أرض بني عامر ليلقي المجنون ، قال : فدُلّيتُ على محلّته فأتيتهُ ، فإذا أواه شيخٌ كبيرٌ وخبوةٌ له رجال ، وإذا بهم كثيرٌ وخيرٌ طاهرٌ ، فسألهم عنه فاستمعوا جميعاً ، وقال الشيخُ . والله لو كان أثرٌ في نفسي من هؤلاء وأحبّهم إليّ ! وإنه هويّ امرأةً من قومه ، والله ما كانت تطلعُ في مثله ، فما أن فشا أمرُها وأمّرها كره أباها أن يزوّجها منه بعد ظهور الحبر فزوّجها من غيره ، فذهب عقلُ أبي ولحقه غيلٌ وهام في الغياليّ وجداً عليها ، فحبسناه وقيدناه ، فجلّ بعصّ لسانه وشفتيه ، حتى خشنا أن يقطعها فخلبنا سبيه ، فهو بهم في الغياليّ مع ابوحوش يُذهبُ إليه كلّ يومٍ بطعامه فيوضّعُ له حيث يراه . فلذا تسخّرنا عنه حاء فأكل منه . قال : فسألتهُم أن يدلّوني عليه . فدُلّوني على فتى من الحليّ كان صديقاً له وقالوا : إنه لا يأنسُ إلا به ولا يأخذ أشعره عنه غيره .

فأتيته فسألته أن يدلّني عليه .

فقال : إن كنتَ تريد شعره فكلّ شعر قاله الى أمس عندي . وأنا ذاهبٌ إليه غداً فإن كان قال شيئاً أتيتك به .

فقلت : بل أريد أن تدلّني عليه لأتّيه .

فقال لي : إنه إن نفر منك نفر مني فيذهب شعره .

فأبيتُ إلا أن يسألني عيه .

فقال : اعطيه في هذه الصحاريّ فإذا رأيته فادنُ منه مستأنساً ولا تُروْ أنك نهايه . فإنه يتهدّدك ويتوعّدك أن يرميك بشيء ، فلا يروعنّت واجلسْ صارقاً بصركَ عنه والحظّه أحياناً ، فإذا رأيته قد سكن من نفاره فأنشده شعراً غزلاً ، وإن كنتَ تروي من شعر قيس بن ذريح شيئاً فأنشده إياه فإنه معجبٌ به .

مخرجتُ فطلتُ يومي الى العصر فوجدته جالساً على رمل قد حطَّ فيه بأصبعه خطوطاً ، قد نوتُ منه عبر منقضى ، هفر مي ففور الوحش من الإبرس ، وإلى حانته أحجاراً ، فتناول حجراً فأعرضتُ عنه . فكثت ساعة كأنه باقر يريد القيام ، فلما طال جلوسي سكت وأقبل يحطُّ بأصبعه ، فأقمتُ عليه وقلت : أحسن والله قيسُ بن ذريح حيث يقول :

ألا يا غُرَابَ البَيْنِ ، وبِحَلِّ بَيْي      يعلمك في لُبِّي ، وأنت خيرُ  
فلن أنت لم تُحِرْ شيءَ عِلْمته      فلا طُيَرْتُ إِلَّا وألجأحُ كَسِيرُ  
ودرتُ بأعداء ، حبيبك فيهمُ      كما قد تُراني سالحيب أدورُ

فأقبل عليّ وهو يكي فقال . أحسنَ والله ، وأنا أحسنُ منه قولاً حيث أقولُ :  
كانَ القلبَ ليلةً قَيْنَ يُعدى      بسيل العاصرية ، أو يُراحُ  
قطاةً عرما شَرَكُ مبات      تُجاذبه وقد عَلِقَ أَلجأحُ  
فأمسكتُ عه هبةً ، ثم أقلتُ عليه فقلتُ : وأحسنَ والله قيس بن ذريح حيث يقول :  
وإني لَمُسْنٍ ذَمَعُ عَيْنِي بِالْكَأ      حذاراً ليا قدْ كانَ ، أو هو كائنُ  
وقالوا غداً ، أو بعد ذاكْ بلبلة      فراقُ حبيب لم يَبِّنْ ، وهو بائن  
وما كُأُ أحسَى أن تكونَ مَيَّي      بِكُفْلِكُ ، إِلَّا أنْ مَنْ حانَ حَزِينُ

قال : فبكي ، والله . حتى ظننتُ أن نَحْسَهُ قد فاضتْ ، وقد رأيتُ دموعه قد بَلَّتَ الرملَ الذي بين يديه ، ثم قال أحسنَ لعمري الله ، وأنا والله أشعرُ منه حيث أقول :

وَدَنِّي بِي ، حتى إذا ما سَبَّيْتِي      بقولٍ يُحلُّ أَلُصَمَّ سَهْلَ الْأَطاحِ  
تَنَابَتِ عَيْنِي ، حين لا لي حيلةً ،      وخالفتُ ما خلُفتَ بين أخوانِ

ثم سَنَحَتْ لَهُ طِيَةً فَوَلَّيْتُ بِعَدُوِّ خَلْمِهَا حَتَّى غَابَ عَنِّي وَابْصُرْتُ .

وعُدْتُ مِنْ عَدِ طَلْتُهُ فَلَمْ أَعُدْهُ فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ غَدَوْتُ وَجَاءَ أَهْلُهُ مَعِي فَطَلَبَهُ يَوْمًا فَلَمْ يَحْذِهِ ، وَعَدُونَا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ بِسُتْرِي أَثَرَهُ حَتَّى وَجَدْنَاهُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْحِجَارَةِ حَشَرٍ ، وَهُوَ مَيَّتٌ بَيْنَ تِلْكَ الْحِجَارَةِ ، فَاحْتَمَاهُ أَهْلُهُ فَسَلَوْهُ وَكَتَبُوهُ وَدَفَنُوهُ .

١ - من حان حازن من قرب أجدله فهو هذق

٢ - عوامح الأضلاع تحت الترتيب مما بي الصدر ، سميت كذلك لانحنائها وميلها ، واحتملها جاحضة

## ٢ - أدبه :

لَقَيْسُ بْنُ الْمُلُوحِ شعرٌ مَثُوثٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ ، وَقَدْ أُضِيفَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِمَّا نَظَّمَهُ  
الشُّعْرَاءُ فِي الْغَزَلِ وَفِي ذِكْرِ لَيْلَى . وَمِنْ هَذَا الشَّعْرِ كُنْهٌ نَرَى أَنَّ مَحْنُونَ بَنِي عَامِرٍ قَلْبُ  
هَاتِمٍ ، وَعَقْلُ شَارِدٍ ، وَضُلُوعُ خُفَّاقَةٍ ، وَرُوحُ أَرْقُ مِنْ النَّسِيمِ ، وَجِسْمٌ ذَائِبٌ ، وَعَيْنٌ  
ذَاهِلَةٌ . وَهُوَ إِلَى ذَلِكَ حَيَاءٌ فِيهِ رَقَّةٌ وَسَدَاجَةٌ . هُوَ مَرِيضُ الْغَرَامِ ، بَلْ هُوَ شَلُوُ طَرِيحٍ لَا  
يَشْفِيهِ غَيْرُ لَيْلَى ، يَهْمُ عَلَى وَجْهِهِ فِي الْبَوَادِي وَالْقَفَارِ ، يَنْسَمُ أَنْسَامُ لَيْلَى ، وَيَصْفِي  
لَأَنْغَامِ الرِّيحِ الَّتِي تَهْبُ مِنْ جَانِبِ لَيْلَى ، وَيُحْمَلُ كُلُّ طَيْرٍ سَلَامًا ، وَيَلْقَى عَلَى كُلِّ أَكْمَةٍ  
قِلْدَةً مِنْ رُوحِهِ ، وَفِي كُلِّ وَادٍ قَطْرَاتٌ مِنْ دُمُوعِهِ وَجُرُوحِهِ ، لَا يَصْفِي لِصَبِيحَةٍ نَاصِحٍ ،  
وَلَا يَفْقَهُ أَنَّ الْحَيَاةَ عِبَرُ الْجُنُونِ الْغَرَامِيِّ . وَغَيْرُ النُّظَرَاتِ الذَاهِلَةِ ، فَهِيَ لَا يَمْلِكُ شَعُورُهُ ،  
وَلَا يَقْوَى عَلَى تَسْيِيرِ الْقَلْبِ عَلَى طَرِيقِ السَّوَاءِ وَالرَّصَانَةِ . وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْهِيَامُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ ،  
فَكَانَ يُعْمَى عَلَيْهِ وَلَا يَقْبِضُ إِلَّا عَلَى ذِكْرِ لَيْلَى ، وَكَانَ يَنْفَرُ مِنَ النَّاسِ كَالْوَحْشِ الضَّارِي  
لَا يُلَاقِيهِ إِلَّا ذِكْرُ لَيْلَى ، وَأَخِيرًا قَضَى عَلَيْهِ الْأَلَمُ وَالْوَجْدُ ، فَأَلْفَنِي طَرِيحًا عَلَى الرَّمَالِ صَرِيحٍ  
حَبِّهِ وَهِيَامِهِ .

الْمَحْنُونُ مَصُورٌ بَارِعٌ لِحَالِ الْمُحِبِّ وَمَا يَعْانِي مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ ، وَفِي شِعْرِهِ نَحَاتٌ حَافِظَةٌ  
فِي التَّحْلِيلِ النَّفْسِي تَخْلُو مِنَ الْعَمَقِ وَإِنْ لَمْ تَخْلُ مِنَ الْعَذُوبَةِ وَالسَّدَاجَةِ ، وَفِي شِعْرِهِ رَقَّةٌ  
مَا بَعْدَهَا رَقَّةٌ ، وَسَهُولَةٌ فِيهَا مِنَ الرُّوعَةِ شَيْءٌ كَثِيرٌ .

## د - قيس بن ذريح

## ١ - تاريخه

هُوَ قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ بْنِ سَنَةَ بْنِ حُدَافَةَ الْكِنَانِيِّ ، شَاعِرٌ مِنَ الْعَشَاقِ الْمَتَمِّينَ ، اشتهر  
بِحُبِّ لَيْلَى بِنْتِ الْحَبَابِ الْكَعْبِيَّةِ ، وَقَدْ رَأَاهَا فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَأَحْبَبَهَا وَطَلَبَهَا زَوْجَةً لَهُ ،  
فَمَنَعَهُ أَبُوهُ ثُمَّ لَانَ فَتَمَّ الزَّوْاجُ ، ثُمَّ سَعَى وَالِدَاهُ فِي تَطْلِيلِ لَيْلَى ، فَحَارَ قَيْسُ بَيْنَ مَنْ يَحِبُّ  
وَمَا يَطْلُبُ أَبُوهَا ، وَأَخِيرًا نَزَلَ عَدُوُّ رَغْبَةِ أَبُويهِ فَطَلَّقَ لَيْلَى ، وَطَلَّقَ مَعَهَا سَعَادَتَهُ وَهَنَاءَهُ  
عَبْسَهُ ، وَرَاحَ يَبْكِي وَيَتَحَسَّرُ حَتَّى مَرَضَ ، وَزَادَ مِنْ مَرَضِهِ ثَقَلًا أَلَّا تَزَوَّجَتْ لَيْلَى

غيره . ففقد بذلك عَقْلَهُ وصِرَهُ ، ونحل جسمه ونهَيتْ شكواه الى أن قضى صريع الغرام . نحو سنة ٦٨ هـ / ٦٨٨ م

٦ - أدبه :

لقد جرى لأدب ابن ذريح ما جرى لأدب ابن الملوّح . وشعر هذا كشعر ذاك ، بل كشعر جميع أتباع هذه المدرسة البدوية في العزل . وإِسا عندما نقرأه نقف على مأساة أخرى من مآسي الهوى . وهذه هي المعاني الرقيقة والعواطف الناعمة ، وهذه هي الآهات والزفرات تتصاعد من صُدْر حراة أَلْهِيَةِ الوُجد والجوى ، وهذه المدرسة الغزلية تواصل سيرها فتملأ البادية ألحاناً وأشجاناً ، في لغة لينة ، وعبارات رقيقة ، وموسيقى سحرية .

وكان مثل هؤلاء الشعراء شعراء كثيرون يتقبلون في البوادي وهم هم في أساليبهم الغزلية وفي رواياتهم الغرامية . وقد نسج الرواة والأدباء حولهم أقاصيص تتشابه وتقارب ، حتى لتظن الواحد منهم الآخر ، وحتى لتحسب كلام الواحد كلام الآخر . ومهما يكن من أمر فقي ما أوردنا كفاية لمن أراد أن يقف على تطوّر الحركة الغزلية في ذلك العصر ، وعلى مصادرها ومصابرها . وقد قامت الى جانب هذه المدرسة الغزلية مدرسة أخرى امتازت بالإباحة والفسق ، وزعيمها عُمر بن أبي ربيعة .



## مصادر ومراجع

- شوقي ضيف: الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية القاهرة.
- شكري فيصل: تطور الغزل بين الحاهلية والإسلام — دمشق ١٩٥٩.
- عد الطيف شرارة: فلسفة الحب عند العرب — بيروت ١٩٦٠.
- موسى سليمان: الحب العذري — بيروت ١٩٣٩.
- عس محمود العقاد: جميل بُنية — سلسلة «أقرأ» ١٣.
- سعد عارف أبو شقرا: الشاعرة الملعونة — مجلة الكتاب، يونيو ١٩٤٩.
- زكي مبارك: العشاق الثلاثة القاهرة.
- حرجي وبدان: جميل بُنية — اهلل (١٨٩٧): ٢٤٢.



## الفصل الرابع

### شعرُ النفس الأعرابية والطبيعة البدوية

#### مُتَمِّم بن نُؤَيْرَة - الرامي - ذو الرمة

- أ - مُتَمِّم بن نُؤَيْرَة ، عاش في عهد عمر بن الخطَّاب . قُتِلَ أخوه مرثد شعر شديد اللوعة . وقد توفِّي نحو سنة ١٣٠ هـ / ٦٥٠ م . كان شعره من صمم الجاهلية معنى وصورة ولغة وعبرة
- ب - الرامي . عاصر جريراً والمزدق وأشهر شعره في تصوير حياة الرعاة ووصف الإبل . هو في شعره روح الصَّحرَاء والبياني أفكاره مجسَّمة وملوكة بالحركة والحياة
- ج - ذو الرُّمَّة . وُلِدَ في الدَّعَاء ، وأكثَرَ من التَّرحُّل إلى العراق . أحسَّ مَيَّةَ المَقْرِبَةِ واشتهر بها له ديوان صمم فيه غزل وفه أوصاف بدويَّة صحرأويَّة .
- كان شعره العربيَّ وجُداً وحوى ، وكان حاضراً بالرَّقَّة والعلوَّة واللَّيْلِ ، وكان شعره الصَّحرأويُّ لوحاتٍ حَبَّة فيها مقدرة عجيبة في التخطيط والنوَّين والجمع بين الأصواء والمُطَّلَال . ثم في التحميم والتركيز .

أ - مُتَمِّم بن نُؤَيْرَة ( ١٣٠ هـ / ٦٥٠ م )

١ تاريخه :

هو هاشم بن مُتَمِّم بن نُؤَيْرَة بن جَمْرَة بن شدَّاد اليربوعي ومن شعراء الصحابة . عاش مخضرمًا بين الجاهلية والإسلام ، وسكن المدينة في أيام عمر بن الخطَّاب ، ونزَّج بها امرأة لم تَرْضَ أخلاقه لشدة حزنه على أخيه . وكان من أشراف قومه كما كان أغرَّ قصير القامة . وكان له أخ اسمه مالك ، وكان سريًّا نبيلًا ، وفارساً شجاعاً . وكان مُتَمِّم كثير الانقطاع في بيته ، قبل التصرُّف في أمر نفسه اكتفاء بأخيه مالك . وكان أن قدم مالك على الرَّسُولِ وأسلم ، ولما توفِّي النبي كان ممن منع الزكاة . وعندما خرج خالد



ابن الوليد لقتال أهل الردّة جاءته الحيل بمالك بن نُويرة وكان مُصرّاً على الردّة ، فأمر ضرار بن الأزور الأسديّ بقتله ، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة من الهجرة ، ثم أقبل المُنْهَال بن عصمة الرياحيّ في جماعة من بني رباح يدفون القتلى فكنّوا مالكا ودفنوه . فلما بلغ الخبر متنم بن نُويرة جزع أشدّ الجزع وراح يرثي أخاه بشعر يثير الأشجان حتى قال له عمر بن الخطّاب في أحد الأيام : « هذا والله الثأين ، ولوددتُ أني أحسِنُ الشّعْر فأرثي أخي زيداً بمثل ما دَثِبتَ به أخاك ! ... »

ومما يروى أن عمر بن الخطّاب قال للحطّية : « هل رأيتَ أو سمِعتَ بأبكي من هذا ؟ » فقال : « لا والله ، ما بكى بكاءه عرني قط ولا يبكيه . »

توفي متنم نحو سنة ٦٥٠ تاركاً لنا عدداً من المراثي التي كان لها صدّى شديد التأثير في مجتمعه

#### ٢ - رثاء متنم بن نويرة :

١ - رثاء ابن نُويرة من نوع الثأين ، فهو قريب من رثاء الخنساء فيما هو من تعداد الصفات وذكر البطولات ، والاختصار على معاني المروءة الجاهليّة ، ولكنّه يمتاز عن رثاء الخنساء في أنّه أشدّ أسراً وأبعد مدًى ، وأكثر انضباطاً ، وأغنى عاطفةً ، وأكثر تركيزاً لمعنى البيت وتركيبه .

٢ - وهذا الرثاء لشاعر أعرابيّ دخل الإسلام ولم يتأثر به في شعره تأثراً عميقاً . ولهذا فإنك تقرّاه من أَوّنه إلى آخره فلا تجد فيه لقطة من ألقاظ الإسلام . ولا معنى من معانيه ، وكأنّك به من صمم الجاهليّة معنى وصورة ولقطة وعبارة . أما المعنى لمرجه إلى المروءة والفروسية كما فهمها الأعراب ، أي إلى الكرم والضيعة والشجاعة والإقدام وما إلى ذلك ممّا يردده الشاعر في غير اقتصار . قال يرثي أخاه مالكا :

لَقَدْ كَفَّنَ الْمُنْهَالُ ، تَحْتَ رِدَائِهِ قَتِيَّ غَيْرَ مِيطَانِ الْعَشِيَّاتِ ، أَوْعَا

١ - المبال : هو ابن عصمة الريسي ، كس مالكا في ثوبه . وكذلك كانوا يفعلون ، يمر الرجل بالقتيل فيلبس عليه ثوبه بسنّره به . -- غير ميطان العشيّات . لا يجعل بالعيشاء ، ينتظر الصبح . الأروع : الذي إذا رأته راعك بماله وحسه .

لَيْبٌ، أَعَانَ اللَّبُّ مِنْهُ سَمَاحَةً، خَصِيبٌ إِذَا مَا رَاكَ الْجَذْبُ أَوْصَعًا  
وَأَمَّا الصُّورَةُ فَبِهِي مِنْ عَالَمِ الْأَعْرَابِ مَادَّةً وَالْوَانَا. فَإِذَا مَا أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ  
جُودِ أَخِيهِ جَعَلَهُ «غَيْرَ مِطَّانِ الْعَشِيَّاتِ»، أَوْ جَعَلَهُ «كَصَلْرِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى»؛ وَإِذَا  
أَرَادَ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ شَجَاعَةِ أَخِيهِ قَالَ:

وَلَنْ ضَرَسَ الْغَزْوُ الرِّجَالَ رَأَيْتُهُ أَخَا الْحَرْبِ، صَدَقًا لِلْقَاءِ، سَمَّيْدَعًا  
وَلَا يَكْهَمُ بَزْءُهُ عَنْ عَدُوِّهِ إِذَا هُوَ لَاقَى حَاسِرًا أَوْ مُقَمَّعًا<sup>١</sup>

وهكذا يَزَجُّ الشَّاعِرُ فِي صُورِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَعْرَابِيَّةِ فِي غَيْرِ اقْتِصَادٍ. وَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدَّ  
لِصُوقًا بِالْبَيْتَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَعْرَابِيَّةِ مِنْ لُجْوِ الشَّاعِرِ مَثَلًا إِلَى الْأَطَارِ الرَّوَانِمِ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ  
لُوعَتِهِ. وَإِنْ لَنِي هَذَا الْاسْتِطْرَادُ مَا يَثِيرُ الْأَشْجَانَ وَيَقْلُنَا إِلَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ نَسْمَعُ سَمْعَ  
تِلْكَ الْأَطَارِ وَنَشْجِي لَحْنِيهِنَّ الْخَزِينِ الَّذِي يَمْتَدُّ عَلَى صَفْحَةِ الْأَفَاقِ نَعْبًا بِمَرْقِ الْأَكْبَادِ:

وَمَا وَجَدْتُ أَطَارَ ثَلَاثَ، رَوَائِمِ، أَصْبَنَ بَجْرًا مِنْ حَوَارٍ وَمَصْرَعًا<sup>٢</sup>  
يُذَكِّرُنَّ دَا بَثَّ الْخَزِينِ بِبَيْتِهِ، إِذَا حَنَّتِ الْأُولَى مَسْجَعُنَ لَهَا مَعَا  
إِذَا شَارِفٌ مِنْهُنَّ قَامَتْ، فَرَجَعَتْ حَيًّا، فَأَنْكِي شَجْوَهَا الْبَرْكَ أَحْمَعًا<sup>٣</sup>  
— بِأَوْجَدَ مَنِي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكٍ مُنَادٍ بَصِيرٌ بِالْفِرَاقِ فَاسْتَمَعَا<sup>٤</sup>

وَأَمَّا اللَّفْظَةُ وَالْعِبَارَةُ فَهِيَ مِنَ الْغَرَابَةِ أحياناً بحيثُ تَقْلُنَاكَ إِلَى جَفَاءِ الْأَعْرَابِ  
وِخْشَوَةِ الْبَادِيَةِ، وَهِيَ لَا تَتَيْنَانِ إِلَّا فِي الْمَوَاقِفِ الْوُجْدَانِيَّةِ الصَّرْفَةِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَصْغُو

<sup>١</sup> الخَصِيبُ: الرِّيحُ الْعَادِيَةُ السَّهْلَ السَّحْبِي — أَوْصَعٌ: أَسْرَعَ، يَقُولُ: إِذَا مَا أَتَاهُ عَدْلِبُ مَرْحٍ وَحَدَهَ حَصِيًّا مَرِيحًا

<sup>٢</sup> — الْبَزْءُ: السَّلَاحُ. — الْكَلِيلُ: أَيُّ لَيْسَ سَلَاحُهُ بِكُلِّلٍ مِنْ عَدُوِّهِ — الْحَاسِرُ: الَّذِي لَا سَلَاحَ عَلَيْهِ. — الْمَسْجَعُ: لَابِسُ السَّلَاحِ وَالْأَمْنَةِ

<sup>٣</sup> — الْأَحَارُ: جَمْعُ ظَلَمٍ، وَهِيَ الْعَاطِلَةُ عَلَى غَيْرِ وَلِلْهَذَا الْمُرْصَعَةُ لَهُ، مِنَ الْبَاسِ وَالْإِبِلِ وَالرَّوَانِمِ: جَمْعُ رَوَانِمٍ، وَهِيَ الْأَهْدُ الثَّلَاثِيَّةُ يُعْطَفُ عَلَى الرُّضْعِ. — الْحَوَارُ: وَلَدُ الْهَاقَةِ، وَجَمْعُ حَوَارٍ. — الْبَرْكَ: الْبَرْقُ وَنَصْرُهُ

<sup>٤</sup> — انْتَشَرَفَ: انْتَشَرَفَ مِنَ الْإِبِلِ، وَإِنَّمَا خَصَّصَهَا لِأَهْلِ أَرْقٍ مِنَ الْعَتَبَةِ، لِيُعَدَّ انْتَشَارُفٌ مِنَ الْوَدَدِ. — الرُّوكُ: الْأَلَبُ مِنَ الْإِبِلِ.

<sup>٥</sup> — بِأَوْجَدَ: مَا وَجَدَ

اجبوا، ويتضح المعنى، وترقّ الموسيقى، وتنساب العاطفة انسياباً رقيقاً حافلاً بالشجور:  
فَمَسَا تَفَرُّقًا، كَأَنِّي وَمَالِكًا، لِيُطَوِّلَ اجْتِنَاعَ، لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعًا  
فَلَا فَرَحًا إِنْ كُنْتُ يَوْمًا بِغَيْطَةٍ، وَلَا جَزَعًا مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعًا

٣- شعر متمم من النوع الغنائي الوجداني، عبر فيه عن عاطفة إعجابه بمحمد  
أخيه، فعُدّد تلك المحامد، وكرّر التعداد بصُور مختلفة، وعبر عن عاطفة حزنه وأسفه،  
وراح يتأسك ويتجلّد فيغلب الوجد فيه على التجلّد، وراح يرى الدنيا موحشة بعد  
موت أخيه، ويرى نفسه في عمرة الأحزان تُذكّنها الذكريات، وإذا الحياة في نظره  
ومضة من ومضات الوجود:

فَلَمَّا تَفَرَّقْتُ، كَأَنِّي وَمَالِكًا، لِيُطَوِّلَ اجْتِنَاعَ، لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعًا  
وفي هذه المواقف الوجدانية شعر مع انشاعر بزوال الوجود، وثقف معه موقف  
التأمل، وتدارك معه أن الحقيقة الحياتية غير الآمال والأحلام التي يعيش البشر في  
ضبابها:

وَكُنْتُ كَنَدَمَانِي جَدِيَمَةَ حَقِيَمَةَ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: «أَنْ يَتَصَدَّعَ»<sup>١</sup>

والذي يروقك في شعر ابن نويرة أيضاً روح التحليل والتعليل نلمسها هنا  
وهناك، ونلمس معها روح الصمود في شاعر أعرابي يواجه حقيقة المصير في عفوان  
وصلاية:

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمَرِيِّ: مَا لَكَ بَعْدَمَا أَرَاكَ حَلْبًا نَدِمَ الْبَالُو أَفْرَعًا؟<sup>٢</sup>  
فَقُلْتُ لَهَا: طُولُ الْأَسَى، إِذْ سَأَلْتَنِي، وَلَوْعَةُ حُزْنٍ يَتْرُكُ الْوَجْهَ أَسْفَعًا  
وَلَكِنِّي أَتَمَّصِي عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمًا إِذَا بَعْضُ مَنْ يَلْقَى الْحُرُوبَ تَكْعَكَعًا<sup>٣</sup>

١ انشعاب: التذمير. أراد مالكا وعقيلاً أي فارح ابن كعب من بني القيس بن حنظل بن فصحة، نادماً حذبة  
الأول حين ردّها عليه من أخيه عمرو بن عدي، فحكّمها ماحتاراً منادماً، فكانت تليق به دهرًا، ثم قتلها.

٢ ابنة العمري هي زوجته أي تقول له: ما لك شاحساً متعيراً بعد أن كنتَ مد قريب ناعم الحال مُرغ.

٣ تَكْعَكَعٌ: راجع ونكص.

٤ - وهكذا نستطيع القول بأنَّ الرِّثاءَ عند متممٍّ من نورية هو شعور عميق بقداحة الخطأ ، واجترارٌ للألم تُسَعِّفه الدَّموعُ ، وتعدادٌ للمناقب في كِبَرٍ وعنفوان ، وتأمُّلٌ وجوديٌّ يواجه الحقائق في تصلُّب ، وعاطفة صادقة يخلِّق بها خيال خصب التصوير ، ومادِيَّة جاهليَّة تحيِّم على كلِّ شيء .

### ب - الرَّاعي (١٩٠ هـ / ٧٠٩ م)

#### ١ - تاريخه :

هو عُبيد بن حُصَيْن بن معاوية بن جَنْدَل التَّمِيمِيّ اختلف في سبب تسميته والرَّاعي ، فذهب بعضهم الى أنه لُقِّبَ به لوصفه راعي الإبل في شعره . وقال غيرهم : بل لأنه هكذا وصف نفسه في أحد أبياته . وقد عاصر جريراً والفرزدق وهجاء جرير لأنه فضَّل عليه الفرزدق . توفِّي سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م .

#### ٢ - أديبه :

أشهر شعر الرَّاعي في تصوير حياة الرِّعَاة ووصف الإبل وما الى ذلك من حيوان الصحراء .

#### ٣ - قيمة شعره :

الرَّاعي في شعره رجل الصَّحراء والفيافي ، وقبْطارة الإبل في البوادي ، ولسان حائِ التَّعَام وحيوان القفار . تطرَّبه الحياة البدويَّة بما فيها من مظاهر ، وتوحى إليه بالفكرة المحسَّنة المملوءة بالحركة والحياة ، فيقذف بها حافلةً بعبادات البادية وأحوالها وأخلاقها ، حافلةً بشغفه الشديد ، وبحيويته الملائقة ، وإذا بالحيوان الذي يصفه قريبٌ من الإنسان في شعوره وتقلُّبات أحواله ، وإذا باللغة البدويَّة تنطلق على لسان الشاعر في جوٍّ من اللون المحلِّي يرمي بث في صميم الحياة الشظيفة القاسية ، وإذا هنالك تناغمٌ بين نفس الشاعر وحال القسوة ، ودويٌّ عميق يُعْجِب ويُدهِّش ، بل يبعث الرُّهبة والإناس معاً .

## جـ - ذو الرمة (٧٧ - ١١٧ هـ / ٦٩٦ - ٧٣٥ م)

## ١ - تاريخه :

أبو الحارث غيلان بن عَفْيةَ العَمَويِّ المَعُصَريِّ المعروف ببني الرِّمَّة ، وُلد سنة ٧٧ هـ / ٦٩٦ م في فِياثي البَحرَاء ببادية البَحرَاء ونشأ فيها وكان شديد القصر دميماً يضرب لونه الى السَّواد . أَكثَرَ من التَّرحال الى العراق ولاسيما البصرة والكوفة . وقد علق مِئةً بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقرِيّ التميميِّ ، وظلَّ طولَ حياته هالماً بِحَبِيبِها ، وكان يسميها في شعره تارة مِئةً وتارة خرقاء ، وقد كانت جزءاً من حياته ، وينبوعاً دافقاً لشعره . ولما نشب الهجاء بين جرير والفرزدق دخل ذو الرِّمَّة بينها وناصر الفرزدق على جرير . وقد توفِّي حوالي سنة ١١٧ هـ / ٧٣٥ م .

## ٢ - أدبه .

لذي الرِّمَّة ديوان شعر ينقسم قسمين كبيرين : شعر الغزل ، وشعر الصَّحرَاء ، أما الأوَّل فأنشيد حبٍّ وولَّه يوجِّهها إلى مِئةً معبراً عن خوالج نفسه . وأما الثاني فلوحات صحراوية تتجلى فيها حياة البادية في روعة فريدة .

## ٣ - ذو الرِّمَّة شاعر الغزل :

هذا شاعر شغل حبَّ مِئةٍ قلبه وتغلغلَ الى أعماق نفسه ، لا يفارقه اسمها نهائياً ولا خيالها بلاءً ، والظاهر أنها تزوّجت من ابن عمِّها عاصم ، وإذا الشاعر يائس يقول :  
بِدا أليَّاسُ مِن مِئَةٍ عَلَى أَنَّ نَفْسَهُ طَوِيلٌ عَلَى آثَارِ مِئَةٍ نَحِيبُها  
هو يائس لا ينسى ، والذكرى تزيد به بأساً واحترافاً ، وإذا عيناه دَوَّبٌ من التَّمَويع المُنْهَمِرَةِ بلا انقطاع ، من التَّمَويع الحانقة ، وإذا اسم مِئةٍ يتردَّد على لسانه في كلِّ بيت من أبياته تقريباً بل عدَّة مرَّات في البيت أحياناً . وذو الرِّمَّة «دائم الإعلان لحبِّ مِئةٍ وما يتغلغل منه في روحه وعظايمه وأحشائه ، وإن زفراته لتنسأب في صدره فتكاد تحطمه تحطيماً .. وإنَّ الإنسان ليُحْيِلُ إليه في كثير من الأحوال أنه لم تعد فيه بقيَّة ، فقد

أصبح زفراء خالصة يُلَبِّسُها هذا الحبُّ الذي لا يرحمُ». وهكذا كانت مِية مصدر وحيه. وسبب عذابه، وهكذا كان شعره الغزليَّ وَجْدًا وجوى، بل روحاً معذبة، ترتعش ارتعاشة الطائر الذئبيح، وتعبر عن جواها بكلام رقيق حافل بالعذوبة واللين.

#### ٤ - ذو الرمة شاعر الوصف البدوي:

والى حنب مِية أحبُّ الشاعر الصحراء وكَلَّفَ بها وبما فيها أشدَّ الكَلَف، ولئن وصف قدامى الشعراء الصحراء فإنَّ ذا الرمة انفردَ منهم بعشقه لها، فهو يمتزج فيها، ويصفها، وهو متغلغل في داحلها وهي متمزجة بروحه. ومن ثمَّ كان وصفه لها لوحات حيَّة يترعها من صدره ومن قلبه، وإذا همالك «فيلم» سينمائي غرامي وصفي، تتابع فيه مشهد الصحراء في رمالها وأعشابها وحيوانها، في أرضها وسائنها، في ليلها ونهارها، في اضطرابها وصفائها. وقد كانت الصحراء في شعر ذي الرمة غايةً يتوجَّه إليها، وهدفاً يرمي إليه، ومحطَّ رحال وآمال. وهو في هذا الوصف الحسيَّ يبرهن عن مقدرة عجيبة في التخطيط والتلوين والجمع بين الأضواء والظلال، ثمَّ في التجسيم والتركيب، كما يبرهن عن مقدرة عجيبة في بثِّ العواطف والحركات النفسية في الحيوان:

قال في قصيدة وصف فيها الظبية وولدها:

إِذَا اسْتَوْدَعْتُهُ صَفْصَفًا أَوْ صَرِيمَةً نَسَحَتْ وَنَصَتْ جِيْدَهَا لِلْمَاطِرِ  
جِدَارًا عَلَى وَسَانٍ يَصْرَعُهُ أَنْكَرَى بِكُلِّ مَقْبِلٍ مِنْ ضِعَافِ قَوَاتِرِ  
وَتَهْجُرُهُ إِلَّا أَخْتِلَاسًا بِطَرَفِهَا وَكَمْ مِنْ مُحِبٍّ رَهْبَةً أَلْعَيْنِ هَاجِرٍ!

الشاعر يصوِّر الظبية تتبعد قليلاً عن ابنها مخافة أن تدلُّ عليه السباع إذا لبثت بالقرب منه، وهي مع ذلك تنظر إليه خلسةً، وتُجِلُّ النظر في كلِّ ناحية خوفاً وحذراً. وهكذا كان في لوحات ذي الرمة «مشاركة وجدانية بينه وبين الحيوان، كما نجد بنأ لعواطف بل لحركات عواطف لا تنتهي في ديوانه»، وهكذا كانت الحركة تملأ شعر ذي الرمة، وهكذا كان شعره متواصل الروعة، على ما فيه من صعوبة. وإنَّ فيه من

الرَّعْشَةُ في وصف الليل وأصواته ما يثير الإعجاب. فاسمع ذا الرِّمَّةَ يَجْسَمُ لنا صوت الجَلِّ في الغلالة ويقول :

لِسَجْنٍ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلٌ    كَمَا تَحَاوِبَ يَوْمَ الرِّيحِ عَيْشُومٌ<sup>١</sup>  
هَئِنَا وَهَئِنَا وَمِنْ هَئِنَا لَهُنَّ بِهَا    ذَاتَ الشَّمَائِلِ وَالْأَبْنَانِ هَيْنُومٌ<sup>٢</sup>  
دَوْبَسَةٌ وَدُحَى لَيْلٍ كَأَنَّهَا    بِمِ قَرَاظِنَ فِي حَامَتَيْهِ أَلُومٌ<sup>٣</sup>

فهو مشهد حياة واضطراب ورعشة وتجسيم . وهو لوحة حيّة حافلة بالروعة ، زد على ذلك أن شاعرنا يمتاز في شعره بمخيلة تحسن الربط بين الصور المتساعدة ، لما كان في نفسه من إحساس عميق بالكون ، تقاربت فيه الصور وزالت المسافات . ومن ثمّ فشعر ذي الرِّمَّةَ من أروع الشعر العربيّ البدويّ ، وإن كان في ديوانه كثير من السَّاقِط الذي لا يؤبه له .

\*

## مصادر ومراجع

سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي    القاهرة ١٩٤٥ .  
عبد المم حفاجي : الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام — القاهرة ١٩٤٩ .

١ — الزجل . الصوت . العيشوم : مات

٢ — العيشوم والمبسمة : الصوت لا يفهم

٣ — الدوبّة . المفازة أي الغلالة لا ما فيها .

# الفصل الخامس شعراء اللهو والمجون عمر بن أبي ربيعة - الأخوص - الوليد بن يزيد

عمر بن أبي ربيعة

١ - تلوّحه هو شاعر قرشي، وُلد في مكة ونشأ على اللبن، والذكّال وله من دهره شباب وجمال ووراع، وانقطع للهو انقطاعاً تاماً، وكان شديد الانصراف إلى سناء الطليقة لرائية، فأصبح شغل النساء لشاغله، ولست على هذه الحال إلى أن توفي سنة ٧١١ م / ٩٣ هـ

٢ - أدبه: له ديوان شعر في العزل

٣ - عُمر من غزله: يظهر لنا من شعره أنه رجل المرأة وقد جعل نفسه معشوقاً وجميع النساء له عاشقات وهو في نطله للمرأة يبدو لعروباً طروباً، حيف الروح، طرب الحديث.

٤ - قبة غزله:

١ - نظم ديواناً كاملاً في العزل، وحصل من المرأة المحصورة امره موصوعاً حديثه.

٢ - الحب عنده هو كل شيء في الحياة، وهو عنده يجرّد إحساس

٣ - والحُب عنده حبّ صادق

٤ - وحبه أيّ، شديد التحدّد.

٥ - وهذا أحدَ يتوجّه إلى الحضارة، تتأقّد لأنّ أحوال فيها شديد اسجد.

٦ - أسلوب عمر هو عمر صبه في ليه وطلعتّه وسهولته وسلاسه. وفي أسلوبه حطة قصصنة وسواريّة طريفة وممتعة.

ب - الأخوص:

هو عبدالله بن محمد الأوسيّ عاش في اللهو، وقد عاد عمر بن عبد العزيز لتهنّكه توفي سنة ٧٢٣ م / ١٠٥ هـ.

دُه شعر عزليّ كان فيه ذا عاطفة حاضرة ودا أسلوب رقيق يذوب بسهولة وطراوة. وشعره لا غنى من مبحث.

ج - الوليد بن يزيد:

هو ابن يزيد بن عبد الملك بن مروان وُلد بمصر ونشأ طامساً خبيعاً. توجع بالخلافة سنة ٧٣٣ م فكان قصير مائة اللقيح والمميّز وأصحاب الخلافة والمجون. توفي سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م.

يق من شعره شيء قليل، ومعظم هذا القليل في العزل والتمر وهو حافل بالركة والحياة والموسيقى



## توطئة تطور الغزل القديم

### ١ - الغزل في العهد الجاهلي:

الغزل في الشعر الجاهلي أنواع ، مرجعها الى الوقوف بالديار وكاء الطلول ، ومشاهد التحمل والارتحال ، ووصف المحاسن الجسدية . والذي يسترعي نظرنا في هذا كله أن هذا الشعر ، أبأ كان لونه ، صادر عن نفوس رقيقة تملك قسطاً كبيراً من الشفافية ، وجمال الطبع ورهافة الإحساس .

### ٢ - الغزل في العهد الأموي:

أ - عوامل الغزل وتياراته : ذكرنا كيف تضاعف الغزل في صدر الإسلام لانشغال الناس بالفتوح والحروب ، ولانصراف الشعراء الى مناصرة الدين الجديد أو الى مقاومته ، ولأن هذا الدين الجديد منع التحرّش بالمخصّصات . وما إن كان العهد الأموي حتى انحصرت أعمال الخلافة في دمشق ، وحتى جمع معاوية القرشيين من أطراف البلاد العربية وحصرهم في الحجاز ، وأغلق عليهم الرزق ليصرفهم عن أمور الخلافة ، فالتوا الى الترف يساعدهم على ذلك فراغ وغنى ، وعكفوا على أطيب الحياة ، وعقدوا في الحواضر مجالس اللهو ولديهم السبايا والمغنيات ، ولديهم الغلمان والغلاميات .

وكان هنالك تياران غزليّان : تيار الإيابة ، وتيار العفاف والجدير بالذكر أن الغزل في هذا العصر أصبح باباً مستقلاً تنظم فيه القصائد كما تنظم في غيره من الأغراض .

ب - الغزل البدويّ العفيف : أما الغزل العفيف ويقال له العلويّ لشبوعه في بني عذرة - فهو المظهر الفني للعواطف المتحفّفة والملتهبة في آن معاً ، والتي وجدت أن هذا



الجنون على قبر ليلي. مدرسة شيواز سنة ٨١٣هـ - ١٤١٠هـ  
من مخطوط في مجموعة غلبنكيان  
(الفنون الإيرانية).

التعويض الفني هو خير ما تطفئ به لهبها وتسامى به غرائرها<sup>١</sup>. وهو من النوع الذي يتقاد فيه العقل للقلب، وتلدوب فيه النفس، ويصبح فيه الحب ناراً محرقة. لقد أطلق الحب العذري من إसार الغريزة ليعيش في آفاق العفة. وأقلت من تقلب الأهواء وتوقيتها ليتقلب في خلود العواطف وديمومتها... وهزئ ببرودة العقل ليعمره غيلين المشاعر... انه اعتاض عن مكان بمكان، وعن صفة بصفة... وآثر الحرمان الذي يرهفه على اللذة التي تشينه، والسغب الذي يطربه على الكظة التي تبطره، والنار التي تصقله على الدفء الذي يعسده<sup>٢</sup>.

وهكذا فالغزل العفيف غزل الروح المنصهرة، وهو لذلك تجربة الوجدان يجري في داخل النفس أكثر مما يظهر في خارجها. ولهذا السبب تكاد تراه واحداً عند جميع شعرائه، يلتقون فيه وفي ما يتناهم من جزائه، حتى لتكاد تحسبهم واحداً على تعددهم، وحتى لتكاد تحسب أقوالهم قولاً واحداً لصفاء نفوسهم وانحصارها في قيد التجربة الواحدة.

أضف الى ذلك أن الحب العذري وحدة لا تتجزأ، فهو يمتد كاملاً الى شخص كامل، لا يعرف غيره، ولا يستهويه سواه، فينصب فيه انصباباً. وهذا الشخص يتحول الى فكرة شديدة الفعالية، أو الى صورة جذابة، تستبد بكيان الشاعر وجميع قواه فيعطق وراءها متصائباً، ويدوب جسمه المأ وضعفاً في التطلع إليها، وإذا هو إغماءة تو إغماءة وذهول بعد ذهول.

وزيد في ألم الشاعر ما يقف أمام حبه من عقبات، إذ ينشغل به الناس، وتجري به أنستهم ويومون ويعذلون، ويرمون الشاعر بالجنون؛ وقد يهددون ويتوعدون، والشاعر في عالم غير عالمهم، يعيش في صورة المحبوب، وتعيش فيه تلك الصورة. وتلور الأيام بالمحجوب، ويصير في حيرة آخر، فيشتد الألم بالشاعر ويصبح في الوجود أشبه بصدى في الآفاق، ثم يتلاشى الجسد، وإذا الشاعر روح في روح حبيه وإذا حبيه شعنة في خلوده.

١ - تطور القول بين الحامليه والاسلام، لشكري فيصل، ص ٢٣٧.

٢ - نفس المصدر، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

جـ. الغزل الحضري الإباحي : وأما الغزل الإباحي فهو التعبير عن العاطفة التي تكالبت على اللذة في غير حرمان ، فأصبح حكاية حال ، ووصف ألوان وأشكال ، وذكريات في غير حنين ، وتشكيات في غير أنين ، وتصريحاً في غير اقتصاد ، وتلبية لكل هوى في غير تردد ولا عناد. ومن ثم فهو التجربة التي لا يوصلها الألم ، ولا يحرق أنفاسها الوجد والجوى. وهذا النوع من الشعر يحفل بمظاهر الحضارة والأناقة ، وأساليب الإغراء والتحايل ، ولكنه بعيد عن أغوار النفس ، يمتد في العرض والطول ، ضاحكاً في آماله وأعماله ، حياً في حركاته وحواره ، حذاباً في لينه وغنائته ، إلا أنه قلما ينقل التجربة المؤثرة التي تهز الكيان وتبعث الأشجان. ومن أشهر شعراء هذا النوع الأخوص وابن أبي ربيعة.



صحن من خزف ذي بريق معدني، من القرن ٣ هـ - ٩ م  
(الفسون الإيرانية).

## شُعراء اللهو والمجون

أ - عمر بن أبي ربيعة (٢٣ - ٩٣ هـ / ٦٤٤ - ٧١١ م)

١ - تاريخه :

أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة الخزومي ، شاعر قرشي يُعد إمام شعراء الغزل عند العرب لأنه في نظر النقاد أكثر الشعراء غزلاً ، وأوفرهم تطلباً لحاسن المرأة ، وأشدّهم تعلّقاً بالجمال ، حتى أصبحت حياته كلّها في غزله وطره ، وحتى أصبح اللهو والغزل حياته كلّها ، وحتى أصبح التاريخ لا يعرف ابن أبي ربيعة إلا مع الغزل وفيه ، ولا يذكر الغزل إلا ويقرنه باسمه .

روي أن ولادة عمر بن أبي ربيعة كانت يوم مات الخليفة عمر بن الخطاب أي سنة ٢٣ للهجرة ، وكان مولده في مكة<sup>١</sup> من أب قرشي وأم بمنية ، وفي سنة ذات ثراء وجاه . وما إن بلغ الثانية عشرة من عمره حتى توفي والده ، فنشأ نشأة الدلال واللين في مجتمع عمّ فيه الترف والاهتمام بالموسيقى ، وضجّ بالحلان الغناء . معهد وأسائذته ومدرسته في المدينة ، وابن سريج والغريب وأسائذتها ومدرستها في مكة ؛ ونهض الموالي من المغنين والمغنيات بهذا الغناء نهضة شديدة ؛ واقرنت النهضة البغائية بنهضة في الشعر الذي يغنى ويصحب بالضرب والعزف والرقص . وقد تعصّب أهل الحجاز للغناء تعصّبهم للرأي ، قال جرير عندما رحل الى مكة ليسمع ابن سريج : « يا أهل مكة ، ماذا أعطيتكم ؟ والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقيم بين أظهركم فسمع هذا صباح مساء ، لكان أعظم الناس حظاً ونصيباً . فكيف مع هذا بيت الله الحرام ، ووجوهكم الحسان ، ورقة ألسنتكم وحسن شاربتكم !؟ »

١ - ذكر بعض المؤرخين أنه ولد في المدينة ثم انتقل الى مكة (طالع كتاب «عمر بن أبي ربيعة» لحرابيل حور ، الجزء ٧ ، ص ٢٤ - ٢٥)

نشأ عمر إذن على اللبن والدلال في حوٍّ من رخاء العيش والتخثُّث. يكثر فيه من الظهور بمظاهر الأنوثة. من عناية كبرى بالتحمُّل والتطبيب وما إلى ذلك، وقد نبي كذلك حياته كلها.

تخلَّب عمر في ذلك الخنع وله من دهره شباب وجمال وفراغ<sup>١</sup>، وانقطع للهو انقطاعاً تاماً، لا عمل به إلا التصابي، ولا هم له إلا أن يلتقي فتيات الهوى وربَّات الجمال والدلال، ولا سباً في أوال الحج، إذ كان يقدم فيعتمر في ذي القعدة ويحلُّ، ويلبس تلك الخلل والوشى، ويركب التجائب الخضوبة بالحناء عليها القطوع<sup>٢</sup> والندياج، ويسلِّم لمتِّه، ويلقي العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق، ويتلقَّى المديَّات إلى مرٍّ، ويتلقَّى الشاميات إلى الكديد<sup>٣</sup>. وكان شديد الانصراف إلى نساء الطبقة الراقية، وقد ورد في شعره أسماء عدد منهنَّ كفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، ولبابة امرأة الوليد بن عبة بن أبي سميان، وعائشة بنت طلحة، وهند بنت الحارث المري، والثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر... ومن ثم نرى أن المرأة التي تغزل بها عمر هي المرأة المتحضرة ذات الألفة والحسب، ولم يعدل عنهنَّ إلا في التدرى والذي يتتبع أخبار الرجل يقف على ظاهرة غريبة وهي أن ابن أبي ربيعة أصبح شغل النساء الشاغل، يستقطن أخباره، ويتناقلن أحاديثه، ويتدارسن شعره. ويتبعن آثاره ليتعرَّضنَّ له علَّه يقول فيهنَّ شعراً، متنافساتٍ في ذلك أشدَّ التنافس. وهو في ذلك كنه مطمئنٍّ أشدَّ الاطمئنان، يتناسى رحولته ليكون موضوع الأمل، ومحطَّ التنافس. وليكون معشوقاً ومموقاً له في كلِّ متندى وفي كلِّ مجتمع ذكرى وأشواق.

لبث ابن أبي ربيعة على هذه الحال إلى أن تقدَّمت به السن، فمال عن الطيش لعمود في نفسه وجسمه، ولم يعد اللهو عنده إلا لحاحٍ وحنيناً. وقيل بل تاب في شيخوخته وانقطع إلى التسك حتى توفي سنة ٧١١ م / ٩٣ هـ.

١ - جاد في الأغاني (الجزء ١، ص ١٦٠) أنه قد مرع فتيان بني عزم طولاً، وجهرهم جمالاً، وسهرهم شارة وعارسة وبناً.

٢ أي الطامس عليها الراكب نحه

٣ - الأغاني، ص ٢٦١

## ٢ أدبه :

لعمر بن أبي ربيعة ديوان كبير يشتمل على بضعة آلاف بيت من الشعر كلها في الغزل إلا أبياتاً متفرقة في الفخر والوصف. وقد طبع الديوان في ليبسيك سنة ١٨٩٣ ، وفي مصر سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) ، ثم شرحه وطبعه طبعة أنيقة محمد محيي الدين عبد الحميد سنة ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م) .

## ٣ عمر من غزله :

يبدو لما عمر بن أبي ربيعة في ديوانه ذلك الرجل المهالك على المرأة ، الذي يتبعها بكل جوارحه ، والذي يقضي الحياة بالقرب منها ، يصغي إلى أحاديثها وإلى رنات خلخالها ، أو يتتبع ظلها في كل طريق وتحت كل سماء . هو الرجل الذي عاش في الثرف والتخشن ، والذي نشأ على الغنج والدلال وعلى العاطفة الأنثوية ، فكان معجباً بنفسه ، متعشفاً لجلاله ، ومن ثم فقد جعل نفسه شمساً تدور حولها الأنهار ، جعل نفسه معشوقاً لجميع النساء له عاشقات ، جعل النساء مهالكات في تطلبه ، وإذا هو الصّدد ، وإذا هو المهاجر ، وإذا هو بطل الغرام وكاوي القلوب ومتميم النفوس . وهو بين تطلبه للنساء عن طريق إغرامهنّ به يبدو لعوباً طروباً ، خفيف الروح ، ظريف الحديث ، على ثغره ابتسام وفي عينيه نهم متطلع إلى كل جمال ، وإذا له مع كل نجم سرى ، ومع كل صبح إضحاء ، ومع كل ظل أنسياب ، وعلى كل طريق حجب ، وفي كل وادٍ مرتجع ، وعلى كل كلمة متجعج .

## ٤ - قيمة غزله :

١ يمتاز غزل عمر من غزل مَنْ سبقه بأنه جعل نفسه المعشوق ، وبأنه ينظم ديواناً كاملاً في الغزل . وامتاز غزله كذلك بأنه جعل من المرأة المتحضرة المترفة موضوعاً دار عليها حديثه . فتلك المرأة هي ابنة مجتمع مترف ، مغرم بعقد المجالس الضائفة والأدبية ، هي ابنة الأطباء والرياحين ، هي أخت الورد وزنايق الحقل ، هي ربيبة اللين والتؤمومة ، هي المرأة التي تمسّس الحديث في غيرة حبّهم ، وفي موسيقى خلخال ، وحفيف ملابس ، وأنعام عيدان ومزاهر .

وإن للتجسّر أثرًا في غزل عمر فقد لَبَّنه وسَهَّله إلى حدٍّ بعيد ، وجعله حافلاً بالحياة والطرافة ، حافلاً بالإحساسات العُمرية والسَّويَّة ، حافلاً بالحوار والقصص ومن ثم بالحياة والحركة ، كما جعله حافلاً بالسَّطحية إذ إنه شعر الطُّرقات وشعر المجالس وتنهَّدات الأوتار وإبتسامات الأقدار ، ومن ثم فهو مقطَّع لا يطول فيه النفس .

ثم إنَّ للموسيقى أثرًا في غزل عمر فقد نظم ذلك الشعر في أكثره ليغنى ، ونظم ليغنى على الألحان الجديدة ، ونظم ليفهم ، ولتداول ، ولتردِّد الفتيات الأعجميات المستعربات ، وإذا هو سهل ، ناعم ، فيه تكرارٌ وفي ميوعة ، وفيه موسيقى شائعة ، وإذا هو منظوم على بحور كثر منها المجزوء ، وإذا هو مجلس طرب ، وصدى أوتار ونفوس

٢ - لم يكن عمر بن أبي ربيعة من شعراء المنحَب العدريِّ ، بل كان إيجابياً يؤثِّر التَّيَمُّمُ بِاللَّذَّةِ الحاضرة لا يقيِّده في ذلك إلَّا قيد مكانته الاجتماعيَّة . فالجُبُّ في نظره هو فردوس الحياة ، والحبُّ هو التَّطَلُّع إلى الجمال ، والتَّشَبُّعُ له ، والإقبال عليه بكلِّ ما يملك الإنسان من قوى . وهذا الإقبال الكلبي الذي يستبدُّ بجميع القوى لم يكن عمل عقل أو قلب ، بل كان عمل إحساس لا غير . فعمر - على حدِّ قومه - « موكل بالجمال يتبعه » ، والجمال هو السحر الذي يذئب كيانه حملة ، فيتهاфт عليه تهافتاً ، ويهال عليه انهياراً ، لا شيء إلا لأنه جمال ، وموطن فتنة . والجمال عنده قدَّ وشكل ولون وخلجل وأطياب . أي كل ما يدغدغ الحواس ، أما الجمال المعنويِّ فقلماً يحمل به . ولذلك قصر همه على وصف الماديَّة من جمال المرأة كما وصف ميولها وأهواءها ولكن ضمن نطاق الجمال . والجمال في المرأة هو كمال نفس الرجل ، ومن ثم لم يتصوَّر عُمر المرأة إلَّا على أنَّها مكتملة للرجل ، وهكذا كانت الصلة الجنسيَّة أساس العمل الأدبي عنده .

٣ - والحبُّ عند عمر صدق عاطفيٍّ ، أو قل هو حسن صادق . ولئن نقلَ الشاعر من امرأة إلى امرأة ، ولئن تغزَّل بيده وتغزَّل تلك ، فما ذلك تصنعاً ورثاء ؟ إنه أحبُّهم جميعاً ، وأحبُّ كلَّاً منهم مفضلاً لها على كلِّ من عداها . وليس ذلك بدعاً في رجلي لا يرى إلا الجمال ، ولا يعيش إلا الجمال . فالجمال واحد وإن تعدَّد الأشخاص ، يراه فيميل



إليه بكلّ جوارحه ، فيتلاشى ظلّ التعدّد السائي في وحدة الجمال المعشوق وهكذا نستطيع القول بأن التجربة الشعورية صادقة كلّ الصّدق في شعر عمر.

٤ - وشعرٌ كهذا شأنه الثقيل وراء الجمال المادّي لا يمكن أن يصدر عن تجربة عميقة وإن صادقة . فحبُّ عمر آني ، شديد التجدّد . لا يلبث أن يعلّق هذا الشخص حتى ينتقل الى غيره . نعم ان الجمال واحد في تطلّب عمر ، ولكن هذه الوحدة لا يتملأها الشاعر حتى تستبدّ بكيانه وتفجّر أعماق نفسه . وهو لا يقف موقف المتأمل الذي ينتقل تأمله الى طبيعته . انه يتفاعل والجمال الخارجي . ولكنه قلّما يتفاعل والجمال الذي يمتزج بالطبيعة الداخلية ، ولهذا تراه سطحيّ الانفجار ، يتلّقى بالأحاديث والذكريات أكثر ممّا يعبر عن اللواعج الباطنة ، ويحسب أنه انتصر كلّ الانتصار إذا توصل الى أن يصحح محور الكلام ، وإلى أن يصبح الجمال متهاقاً عليه كلّ انتهاق . وهذا فرق شاسع بين الحبّ العلويّ الذي يعلّق الشخص على أنه موطن جمال ، والحبّ العمريّ الذي يعلّق الجمال أبداً كان حامله . في الأول إخلاص وألم تقانٍ وانصهار كيانيّ ، وفي الثاني تنقل وتؤبّ وفرحة تذهب في الكمية دون العمق .

٥ - وحبّ عمر يتوجّه الى الحضارة المتأقّنة التي تُبرز الجمال في تلّون الأشكال ، هذه الحضارة أقرب الى نفسه لأنّ الجمال فيها شديد التجدّد والتلّون ، ولأنّ الأنافة الحضريّة تصخّم خطوط السحر الجماليّ . وهكذا فالمرأة في شعره مترفة ، ذات ميل الى القراءة والكتابة ، تتحدّث وفي حديثها ألف لون من ألوان الضج والذلّال ، وتظنّ وفي نظرتها ألف همسة وألف غمزة ، وتمشي وفي مشيتها ألف معنى من معاني الرّحاء الجمالي والتأثير الحسيّ ، وتدّهن بالأطياب وفي أطيابها ألف رسالة الى القلب من وراء الشمّ . وإنك وأنت تقرأ الديوان تجد نفسك في عالم عجيب من القرّض والمسلك والعنبر والرّند ، وفي بلاد الجواهر التي تتألّق شموساً وألواناً :

ويعجِبُ أَغْبَدَ زَيْنَهُ خَالِصُ الدَّرِّ وَيَا قُوتُ بَيْي

٦ - ممّا لا شكّ فيه أن أسلوب عمر كان عمر نفسه في لونه وطبيعته ، في سهولته وسلاسته ، في تناغمه مع الواقع وابتعاده عن الصنعة الكاذبة . أسلوب عمر هو عمر المتحدث الذي يروي الأحاديث . ويكرّر الأقوال ويُعيدّها ، وهو عمر الطّروب الذي

بكلّف بالفناء والمغنين ويجعل كلامه على أوزان سهلة وقصيرة بسهل التغمّي بها ؛ وهو عمر في أنوثته التي تحسن تمثيل المواقف النسائية في حركاتها وإشاراتها وترفعها اللفظي ، على غير صعوبة ولا غموض ، وهو عمر الذي يُصارع في غير تخيل بعيد ولا تصوير خيالي عميق ، والذي ينقل الواقع في غير مداورات ولا كتابات وتوريات . إنه أسلوب الحياة الذي يقرب أحياناً إلى أسلوب الحديث الثري ، كما في قوله :

فَسَمَى نَحْوَهَا بِعَقْلٍ وَحَزَمٍ      وَاحْتِبَالٍ وَنُصْحٍ جَيِّبٍ ، فَلَمَّا  
جَلَّاهَا قَالَ مَا الَّذِي كَانَ بَعْدِي ؟      حَدَّثْتَنِي فَقَدْ تَحَمَّلْتِ إِثْمًا  
أَصْرَمْتِ الَّذِي دَعَاهُ هَوَاكُمُ      وَبَرَى لَحْمَهُ قَلَمٌ يَبْقَى لَحْمًا ؟  
فَأَسْتَمِرْتُ لِقَوْلِهِ ثُمَّ قَالَتْ :      لَا وَرَبِّي يَا بَكْرُ مَا كُنْ مِمَّا  
قِيلَ حَرْفٌ ، فَلَا تُرَاعَنَ مِنْهُ      بَلْ نَرَى وَصْلَهُ ، وَرَبِّي ، حَتْمًا

والذي يروك في أسلوب عمر تلك الحظلة القصصية التي انتهجها في كلامه .  
وذلك الحوار التمثيلي الذي نقل به صوابه على المسرح أمامنا في شتى زعاتهن  
وحركاتهن . ليس هنالك قصص تحليلي وإنما هنالك حديث قصصي يتناول سطح  
الأشياء ومظهرها الخارجي ، ولا يعالج المعاناة النفسية معالجة حذرية ؛ هو الحديث  
الطريف الذي يتمتع وبفكه ولكنه لا يزعج النفس في غمرة الصراع العنيف . وأما الحوار  
فهو سلسلة مشاهد تمثيلية وجيزة في شعر عمر تنقل الواقع العمري في دقة عجيبة :

بَيْسًا يَنْعَشَنِي أَبْصَرْتَنِي      دُونَ قَيْدِ الْمَيْلِ يَدْعُو بِي الْأَعْرُ  
قَالَتْ الْكُبْرَى : « أَتَعْرِفُنِ الْفَتَى ؟ »      قَالَتْ الرُّسْطَى : نَعَمْ هَذَا عُمَرُ !  
قَالَتْ الصُّغْرَى ، وَقَدْ تَيَمَّمْتُهَا :      « قَدْ عَرَفْتَاهُ ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ ! » ١٤

١ - يقال : فلان ناصح الجيب ، أي سليم الصدر أمين القلب .

٢ - أَصْرَمْتِ : تَطَلَّعْتَ وَهَمَرْتِ ، الذي دَعَاهُ هَوَاكُمُ : في الكلام جملة مخلوعة ، أي . دَعَاهُ هَوَاكُمُ فَلَبَّاهُ .

٣ - فَاسْتَمِرْتُ : دَعَمْتُ وَطَارَ قَوَادِمُهَا وَاسْتَمَدَّهَا الْحَرْفُ .

٤ - قِيلَ هُوَ صِلَةٌ مَا لِيُوصَلُ الْوَاقِعَةُ فِي آخِرِ الْيَسِّ السَّابِقِ . حَرْفٌ : اسم كان

٥ - يَحْتَشِي : يَحْفَظُنِي بِمَا فِي مَنْ حُسْنٍ . قَيْدُ الْمَيْلِ : مقداره . الْأَعْرُ : من الخيل ما كان له غُرَّةٌ أي يبيض في

جبهته

٦ - تَيَمَّمْتُهَا : أَيِ جَعَلْتُ لِلْوَيْ بَسْتَوِي عَلَيْهَا .

وهذا الحوار ينهضُ حياةً. فالحياة ماثلة في الحركة، وفي إيضاح تأثيرات الحديث في النفوس، بجُمْل اعتراضية وثابة، وعبارات تفسيرية لطيفة:

قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ: بَعْضُ مَنْ فَتَنَ اللَّهُ بِكُمْ فِيمَنْ قَتَنُ<sup>١</sup>  
قُلْتُ: حَقًّا ذَا؟ فَقَالَتْ قَوْلُهُ أَوْرَثَتْ فِي الْقَلْبِ هَمًّا وَشَجَنًا<sup>٢</sup>  
يَنْشُدُ اللَّهَ عَلَى حُبِّي لَكُمْ وَدُمُوعِي شَاهِدٌ لِي وَالْحَزَنُ  
قُلْتُ: يَا سَيِّدَتِي، عَذَّبَنِي قَالَتْ: اللَّهُمَّ عَذِّبْنِي إِذْنًا!

\* \* \*

هنا هو عمر بن أبي ربيعة في طبيعته وبيئته وشعره. إنه ولا شك قصيدة غزل في ذاته، قصيدة مطمحها الترف والدلال، وقوامها تنبُّع الجبال، وحاتمتها رنة الخلخال. وقد قضى حياته يُنشد قصيدته، في ترديد معاني وتكرير ألحان، ولا يملَّ عرض الصور الأنثوية، عرضاً ناطقاً بنفسية المرأة. ومبوهها، وغرائزها، وغيرها، ناطقاً بلسانها وحركتها. ناطقاً بالوعورة اللينة التي يحفل بها جوارها، وباللين الحذر المغناج الذي يطبق على ذلك الجوّ.

عمر بن أبي ربيعة قصيدة حسّ يتحمّس ويتحمّص في ما يتحمّسه، وقد يظنّ عليه الجمال المحسوس فيذوب فيه. والمرأة في شعر عمر قصيدة تحرّش متستّر، واسترسال مغناج، وأنوثة مطمئنة في إغرائها. وقصيدة عمر أغنية يوقعها على أوتار حياته وحياة المرأة في عصره، إنها أغنية الحب السّادر، واللحن الخفيف الذي يحيا ويمثل الحياة.

قال نجيب محمد البهيتي: «عمر خيرٌ مَنْ وَصَفَ المرأةَ وَصَفَ من عرفها، وأدرك مواضع الفتنة منها... فهو يصف حركاتها وسكناتها، وتلك التزعزعات التي تجري نفسها، وتدفعها إلى فعل ما تفعل. وهو قادر في هذا قدرة تجعل المرأة التي يصفها تحيا بين عيني قارئه، وتتحرّك. وهو قادر على اختيار تلك التفاصيل المميّنة من حياتها، التي تكاد تكون سمات عامة مشتركة بين الأنوثة، موزعة بين جميع النساء. فهو كالمتراسم

١. فتنة: أذهب عقله

٢. الشجن: الحزن والحزن.

الصدق والذي يجد كل إنسان في فنه المعنى المحبب إلى نفسه ، فيما يقابل هذه الصورة عنده .

وهو في هذا أقرب إلى مخاطبة الجسد منه إلى مخاطبة المشاعر ، ولكنه الخطاب المثني عن كل شيء... وهو مجدّد في أساليب وصفه ، ينتقل فيها بين قصص لا تكاد تجد في ظاهره ما يجرح ، ولكنك تفهم بين سطوره ما لا يكاد يصل إليه أرق الشعراء في الجحون والاستهتار المكتنوف ، وبين صور من الصبر تتجدّد في يده تجدداً يكشف عن قدرة خارقة ، وتصرف رائع... ثم انه رقيق ، لبق ، دقيق العبارة ، واضحها ، سهل اللفظ ...

«ولكنه... سطحي إلى حد بعيد . يعجب بالجمال ذلك الإعجاب المتنقل ، ويرشف من زهراته بقدر ما ترشف النحلة من الورد ، لا تكاد تنال منها حتى تطير عنها إلى غيرها . فهو لا يصف من المرأة إلا ذلك الإهاب الجميل ، وإلا تلك التزعجات العاجلة التي تنور بقلها لشهوة عاجلة فهي تحاول إطفاءها العاجل .

لذلك كله أعجب الناس في المدين شعر ابن أبي ربيعة . وتغنوا به . كان يقال : «إذا أردت أن تفتن أحجازي فغنّه غناء ابن سريج في شعر ابن أبي ربيعة .» وقال أبو نافع الأسود : «إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنّه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة ، فإنك تُرقصه» .

## ب - الأحوص (١٠٥هـ — ٧٢٣م)

### ٩ تاريخه :

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري من بني ضبيعة ، كان معاصراً لجرير والفرزدق . عاش في المدينة ، وقد وفد على الوليد بن عبد الملك في الشام فأكرمه ، ثم بلغت الوليد أخبار تهتكه فودّه إلى المدينة وأمر بجلبه ، ثم نفاه إلى

ذهلك ، وهي جزيرة بين اليمن والحيشة ، كان بنو أمية ينفون إليها من يسخطون عليه ، فبقي فيها الى ما بعد وفاة عمر بن عبد العزيز . وأطلقه يزيد بن عبد الملك ، فقدم دمشق ومات فيها نحو سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م . وقد لقّب بالأحوص لضيق في مؤخر عينيه

٤ أدبه :

للأحوص شعر مبثوث في كتب الأدب ، وكان حماد الراوية يقدمه في النسب على شعراء زمانه . وهو شاعر غزل وشاعر هجاء ، وغزبه لا يخلو من فحش ، وهو على كل حال شاعر الرقة والصفاء ، وشاعر الطرافة والسهولة ، تساب الألفاظ في شعره انسياب النسيم اللطيف ، وتراكم المعاني فيه على مرايا صافية في غير اضطراب ولا تعمّل ولا جهد . إنه شاعر الأنفاس المتسكبة في غير توهج ولا إزباد .

قال في صاحبته أم جعفر :

أَبْنُكَ مَا أَتَى ، وَفِي النَّفْسِ حَاجَةٌ  
لَدَيْكَ اللَّهُ إِنِّي وَاصِلٌ مَا وَصَلْتَنِي  
وَأَتَّخِذُ مَا أَعْطَيْتَ عَفْوَاً وَلِئَنِّي  
فَلَا تَتْرُكُنِي نَفْسِي شِعَاعاً فَإِنَّهَا  
لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيْبٌ  
وَمُسْنٍ بِمَا أَوْلَيْتَنِي وَشَيْبٌ  
لَأَزُورُ عَمَّا تَكْرَهَيْنَ هَيْبٌ  
مِنْ الْحَزَنِ قَدْ كَادَتْ عَلَيْكَ تَلُوبٌ

ج - الوليد بن يزيد ( ٨٨ — ١٢٦ هـ / ٧٠٧ — ٧٤٤ م )

١ تاريخه :

أبو العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة مروانية بالشام . وُلِدَ بدمشق سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م . وكان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم . نشأ فاسقاً خليعاً متهماً في دينه . ولي الخلافة سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، بعد وفاة عمّه هشام بن عبد الملك وتقم عليه الناس حبه للهو ، فبايعوا سرّاً ليزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فتأدى مطلع الوليد ، وكان غائباً في الأغدف من نواحي عمّان

بشرقي الأردن ، فلما جاءه النبا أنصرف الى الخراء ، فقصده جمع من أصحاب يزيد فقتلوه في قصر النعمان بن بشير ، وذلك سنة ١٢٦هـ / ٧٤٤م .

٢ - أدبه :

كان الوليد بن يزيد ذا مواهب فيّة في الموسيقى والشعر ، قال أبو الفرج الأصفهاني : « له أصوات صنعها مشهورة ، وكان يضرب بالعود ويوقع بالطليل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز . »

وله شعر في العزل والخمر مطبوع بطابعه الشخصي ، تنجّى فيه نفسه اللاهية ، وعواطفه المشبوبة ، ومرحه المفتن ؛ ويتجلى فيه فنه الموسيقي ، فكانه موقع على الأوتار ، تنبث فيه المعاني مُغنّية ، سلسة ، صافية ، فيها نزوة العس ، ولمسة الذوق ، ورقة الحضارة الملكية . وقد برز الوليد في الخمر حتى قال أبو الفرج : « وهو ما برز فيه وتبعه الناس جميعاً فيه وأخذوه منه ... وللوليد في ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم . سلخوا معانيها . وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلّها ، وجعلها في شعره ، فكرّرها في عدّة مواضع . »



## مصادر ومراجع

- عزّ الدين اسباعين : الأسُس الجمالية في النقد العربي — القاهرة ١٩٥٥ .  
 أحمد الشايب : أبحاث ومقالات القاهرة .  
 شوقي ضيف :  
 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي بيروت ١٩٦٠ .  
 الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية القاهرة .  
 شكري فيصل : تطوّر الغزل بين الحاهلية والإسلام دمشق ١٩٥٩  
 عبد اللطيف شرارة : فلسفة الحب عند العرب — بيروت ١٩٦٠ .  
 سامي الدّعان : الغزل — سلسلة دفن الأدب — القاهرة .  
 طه حسين :  
 - مقلّعة ديوان عمر بن أبي ربيعة القاهرة ١٩٥٢ .  
 - حديث الأربعاء ١ - ص ٢١٤ - ٤٠٠  
 موسى سليمان : الحبّ العذري — بيروت ١٩٥٤ .  
 جبرائيل سليمان جبّور : عمر بن أبي ربيعة بيروت ١٩٣٩  
 غامس محمود العقّاد : شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة . القاهرة .  
 مارون عود . الرؤوس — بيروت ١٩٤٦  
 زكي مبارك : حبّ ابن أبي ربيعة وشعره — القاهرة



## الفصل السادس شُعراء الأحزاب

عِمْران بن حِطَّان - الكُمَيْت بن زَيْد الأَسَدِي  
عُبَيْدالله بن قيس الرُّقَيَات - عَدِيّ بن الرِّقَاع

أ - عِمْران بن حِطَّان :

هو شاعر الحوارج ، نشأ بالبصرة وطلعه الحِمْيَاح وعبد لذلك بن مروان فنُفِّلَ من مكان إلى مكان وتوفي بالكوفة سنة ٨٨٩ هـ / ٧٠٧ م .

شعره شعر المعقبة يجمع اللين إلى المروءة ويهري في أسلوب خطافي وفي نفس عالٍ وتركيب منبج .

ب - الكُمَيْت بن زَيْد الأَسَدِي .

وُلِدَ في الكوفة وكان شيعياً رديفاً ينزع نزعة الاعتزال في الجدال والحوار والاستدلال وأشهر شعره المفاشيات ، وأملأه خطافي ، وقد أصبح الشعر معه صورة صادقة لتطور العقل العربي نحو الصياغة الفكرية .

ج - عُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَات .

هو شاعر قريش في العهد الأموي . ناصر ابن الزبير وطس في بني أمية . وشعره شعر العاطفة الحريئة على قومه ، والمناظرة السخطة على الأمويين . وقفاً نجد شعراً أصدق عاطفة ، وأشدَّ صلاةً ومرونة . وقفاً نجد مكرأً شعرياً أكثر حماساً . وأكثر جمعاً للحزم والروث ، والنفث والجمال الفني . عُبَيْد الله شاعر بليغ ، ومفكر ذو عقل ناصح وفكرة واضحة على عمق في النظر ، وتسلسل في المعنى . هو أبداً شاعر العاطفة الحية ، والصلابة الحازمة . والسلامة التي تزوق وتُجِيب .

د - عَدِيّ بن الرِّقَاع .

هو شاعر بني أمية نوفي في دمشق سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م . أمّا شعره فمشر التكسب والرفق .



## أ - عمران بن حطّان (٨٩هـ / ٧٠٧م)

١ - تاريخه :

هو عمران بن حطّان السُدوسيّ الشَّيبانيّ. نشأ بالبصرة في رجال العلم والحديث ، وأدرك جماعة من الصحابة فروى عنهم ، وروى أصحاب الحديث عنه . نَصَر الخوارج فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، فطلبه عبد الملك بن مروان . فرحل إلى عُمان ، فكتب الحجاج إلى أهلها بالقبض عليه ، فلبأ إلى قوم من الأزد ، وتوفي أخيراً في الكوفة سنة ٨٩هـ / ٧٠٧م .

٢ - أدبه :

لعمران بن حطّان شعر عقيدة ميثوث في كتب الأدب ، وهو شعر كسائر شعر الخوارج ممثلي بالعقيدة ، تنفخ فيه قوّة الثورة ، ويضجّ فيه العنفوان ، ويقوم على دعائم الحجج القويّة التي تتخذ أصولها من المبادئ الدينية والآيات القرآنية ، فليس هنالك لين إلّا في الأسلوب الذي يجمع اللين إلى الجزالة . وليس هنالك ضعف سوى ضعف التراخي والتدلل . فالصلابة بادية في كلّ حال ، وهي لا تتراجع ولا تردّد وإن اتّخذت مركب التلّون . ومن ثمّ فشعر الخوارج هو شعر الثبات ، هو شعر الحجج والثورة ، يجري في أسلوب خطائيّ وفي نفس عالٍ وتركيب متين .

## ب - الكُميت بن زيد الأسديّ (١٢٦هـ - ٧٤٣م)

١ - تاريخه :

وُلد الكُميت بن زيد الأسديّ في الكوفة ، وقضى حياته فيها متصلاً بضروب المعرفة والضافة . وكان شيعياً زليّاً على مذهب زيد بن عليّ ، يترع نزعة الاعتزان في الحدل والحوار والاستدلال . تعصّب لمضر على اليمينة فلاقى من جرأ تشيعه وتعصّب للعدنانة أذى كثيراً . وقد توفي سنة ١٢٦هـ / ٧٤٣م .

٢ أدبه :

أشهر شعر الكبت هاشميّاته التي قالها في بني هاشم وآل عليّ . فهو يريد إثبات حقّ آل البيت الهاشميّ في الخلافة ، ومن ثمّ شعره أقرب إلى الأسلوب احتطائي منه إلى الأسلوب الشعريّ ، فهو جدالٌ يركب مركب العقل والتفكير ، ويتخذ العاطفة الصادقة وسيلة لتقوية تفكيره وجدله . وهو في مناظراته هذه يسير على نظام النّظر العقليّ والاستشهاد بآي القرآن الكريم . فحاثم الخلافة هو لبني هاشم اغتصبه الأمويّون اغتصاباً ، والخلافة ليست وراثيّة لهم بل إنّ بني هاشم أولى منهم بها لأنهم آل النبيّ الأقرّبون . ومن ثمّ فحجج بني أميّة باطله لا تقوم على منطق صحيح وتفكير سليم . وهكذا أصبح الشعر مع الكبت صورةً صادقة لتطوّر العقل العربيّ نحو الصّياغة الفكرية .

### عبيد الله بن قيس الرقيّات (٨٥هـ / ٧٠٤م)

٩ - تاريخه :

هو عبيد الله بن قيس من بني عامر بن لؤي ، شاعر قريش في العهد الأمويّ . وقد لقّبَ بابن قيس الرقيّات لأنّه كان يتغزل بثلاث نسوة ، اسم كل واحدة مهنّ وقبة . أقام في المدينة ، وخرج مع مُصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان ومدحه ، وطعن في بني أميّة . ثمّ انصرف إلى الكوفة بعد مقتل أبي الزبير مُصعب وعبد الله . فأقام فيها سنة .

قصّد الشام فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فسأل عبد الملك في أمره ، فأمنّه ، فأقام إلى أن توفّي نحو سنة ٧٠٤م / ٨٥هـ .

كان قرشياً خالصاً في آماله وآلامه يذهب إلى وجوب حصر الخلافة في قريش . وكان حريصاً على وحدة قريش يريد أن تبتعد عن الأحزاب التي تمزّقها ، فيفخر بتلك القبيلة ويدعوها إلى جمع شتاتها .

لم يسلك في شعره مسلك البرهان والاحتجاج ، بل ترك المجال واسعاً لمأطقته :  
عاطفة حزينة على قومه ، وعاطفة سخخط على الأمويين الذين خذلوا الحجار موطن  
قريش ، واعتملوا على اليمينية دون قريش

## ٢ - أدبه .

ديوان الشعر ينطوي على مديح للزبيريين والشيعية والأمويين ، وعلى فخر بقريش  
وبأسرته وبأمية ، كما ينطوي على غزل ونسيب ورتاء ووعيد وما الى ذلك . ومن أشهر  
شعره قصيدته الحمزية التي مدح فيها مصعب بن الزبير والتي سنحللها بعض التحليل فيما  
يلي .

١ كان عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي فارس فارس قريش في زمنه ، وخطيبها  
الجريء . شهد فتح أفريقية في عهد عثمان بن عفان ، وبُوع بالخلافة عقب موت يزيد  
ابن معاوية ، وجعل المدينة قاعدة له ، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة الى أن سبر  
إليه عبد الملك بن مروان طاعيته الحجاج بن يوسف الثقفي فقتله سنة ٦٩٢ م .

أما مصعب بن الزبير فأخو عبد الله ، وكان أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام .  
نشأ بين يلي أخيه ، فكان عضده الأقوى في تثبيت ملكه بالحجاز والعراق ، وولاه  
عبد الله البصرة فقصدتها وضطت أمورها ، وقتل المختار الثقفي ، فسبر إليه عبد الملك بن  
مروان الجيوش لقتاله فقلها جميعاً حتى خرج إليه عبد الملك بنفسه . فلما دخل العراق  
خذل مصعباً قواد جيشه وأصحابه فقتل ، وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى ملوك  
الشام . وكان ذلك سنة ٦٩٠ م .

٢ - وصل إلينا القليل من الشعر الذي قيل في الزبيريين ، وما وصل كان  
مدحاً ، وإطراءً للشجاعة والجرود ، لا إشادة بالخلافة التي ادعواها . وقد اضطر عبيد الله  
ابن قيس الرقيات الى مملأة الأمويين في آخر الأمر ، وذلك بعد انتصاره للزبيرية  
ومهاجمته لبني أمية ، قال :

مَا نَقَمُوا مِنْ نَبِيٍّ أُمِيَّةٍ إِلَّا      أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا  
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ الْمُلُوكِ فَلَا      تَضْلَعُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

٣- كان رأي الزبيرية أن تعود الخلافة الى الحجاز ، وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية . وكان هذا الحزب أضعف الأحزاب ، وكان الشعر الزبيرى أقل الشعر اصطفاً بالصيغة السياسية الحزبية ، ولهذا نزع نزعة الحماسة والهجاء والمدح بالصفات العامة .

٤- والقصيدة التي قالها الشاعر في مصعب بن الزبير من النوع الغنائي الوجداني ، فيها من الغنائية إعجاب بالممدوح ، وإخلاص له ولقبيلته قريش ، وفخر بالرجال العظام والمآتي الجسم ، ونقمة على بني أمية معتصبي عرش الخلافة ، وفيها من الوجدان أشجان وأحزان تنفجر في المطلع أسفاً ولوعة ، وفي ذكرى قريش دموع وصدعة ، وفي ذكرى أمية غصبة وصفعة . وإنك لتقف أمام مطلع القصيدة وقفة الرائي التألم . إنه الإقمار الذي يتكرر لفظه ، ويمتد أساه بامتداد الأمكنة وتعاقب الأسماء والشاعر شديد الشعور بالموقف ، شديد الانفعال والتأثر ، يسيل الفعالة في سيلان نظمه وانسكاب ألفاظه ، وكأنه به يذوب نفساً وقلباً في انضباط الألفة التي تريد أن تضبط الأحداث وإن لم تقوَ على تغييرها :

أَفْغَرْتُ بَعْدَ عَبْدٍ شَمْسٍ كَدَاءُ ، فَكُدَيْ ، فَالرَّكْنُ ، فَالْبَطْحَاءُ  
فَوَيْ ، فَالْجِمَارُ ، مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ مُقْفِرَاتُ ، فَبِلْدَحُ ، فَحِرَاءُ

وإنه ليروغك في هذا المطلع أن يقف الشاعر وقفة السيد الحكيم الذي يؤلمه تفرق قومه ، ويرى في تفرقهم تحريصاً للقبائل عليهم وشجاعة للأعداء بهم ، فالتفرقة في الشعب الواحد ، والبلد الواحد ، أصل كلّ بلاء . إنها نظرة إنسانية عميقة ، وفلسفة اجتماعية قام عليها نبيا المجتمعات :

حَبِلْنَا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ  
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُلْكِ قُرَيْشٍ ، وَتَشْتَمِبَ الْأَعْدَاءُ

١- عبد شمس بن عبد مناف، طعن من قريش ، كانوا متغافلين مع بني هاشم رئاسة عبد مناف . — كدواء : جبل بمكة ، وهو عرفة . كدي : جبل قريب منه . الركن : هو الركن الجمالي ، ركن البيت الحرام . — والبعضاء : طحاء مكة .

٥ - ثم يقف الشاعر عند قریش ومُصعب، فيثورُ ثائره، ويمتلئ صدره عزةً واستعلاءً، وقلها تَجِدُ شعراً أصدقَ عاطفةً، وأشدَّ صلالةً ومرونةً من هذا الشعر، وقلها تَجِدُ فكراً شعرياً أكثرَ تماسكاً، وأكثرَ جمعاً للجزم والرواق، والعنف والجمال الفني من هذا الفكر الشعري. فالشاعر يهاجم المتطاولين عن قریش، المشتبهين لها أن تزول، ويبين لهم أن حياة الناس منوطة بحياة قریش، وأن النظام الاجتماعي يصدر عن قریش، فإن زالت سيطرت شريعة الغاب وشاعت الفوضى في المجتمع. وهكذا فنظرة عبيد الله بن قيس هي أبداً نظرة العمق والأبعاد الواسعة. ولئن حال التَّبَعُ الفكري دون الانطلاق الخيالي، فلا يخلو الكلام من بعض التصوير الذي يكسبه رونقاً:

لَوْ تَفَقَّيْ وَتَتَرَكُ النَّاسَ كَانُوا عَتَمَ الذُّنْبِ عَابَ عَنْهَا الرَّعَاءُ  
وما أروع الثَّبرَةَ الأمرة المهيمنة التي تتحدَّرُ من علٍّ، وتُخاطبُ الخصم في استعلاءٍ وإلهامٍ:

فَرَضِييَا، فَمَتَ بِدَائِكَ عَمَّا، لَا تُجِيسُ غَيْرَكَ الْأَذْوَاءُ  
وبخفة جناح ينتقل الشاعر إلى القمم العالية التي تشرف عليها قریش، وإذا قرش أكرمُ ما تُكرمه السماء وأسمى من تبكي عليه الأعالي:

لَوْ بَكَتْ هَذِهِ السَّمَاءُ عَلَى قَوْمٍ كَرَامٍ، بَكَتْ عَيْنَا السَّمَاءِ  
ويأخذ في تقديم البراهين بعقل نير، ومنطقٍ سديد، وفجة عالية مُعجبة، وكلام يجمع المثالة إلى السهولة إلى الانسياب الشعري الذي لا تُعْرِقُ سِيرَهُ صَنْعَةٌ وَلَا تَعْقِيدٌ، ويعتدُّ بالأعلام والمآل، وينتهي إلى مُصعب فيُرسِلُهُ في السماء شهاباً من الله يجمع السمو إلى التواضع، والقوة إلى الحلم، ويشفع كلُّ رأيٍ بدليله في إيجازٍ وروعة بيان:

إِنَّا مُصْعَبُ شِهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَةُ  
مُنْكَهُ مُلْكُ قُوَّةٍ، لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ، وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ  
٦ - وبعد ذلك يتفجَّرُ الشاعر وقد استبَدَّتْ به التجربة، وبلغت أزمة الانفعال ذروتها، فيستنجد بالذم، وما أشدَّ الذمعة المنسكبة من عين الأثغة والعزة والسيادة... إنه نظر إلى قریش فرأى أن «حتفهم سيوف بني العلات»، وأنهم جماعة

مرضهم في داخلهم وأن الأطلاع مرّقت صفوفهم ، وأنهم بتمزّقهم هدموا صرح تاريخهم  
النجيد ، وأن بني أمية في أصل البلاء الأكبر ، فيتملّل ويرشق أمية بالكلام القاسي ،  
ويعنّ ازوراره عنهم ، ويتمنى لهم الزوال علّ الحال تكون غير الحال :

عَبْرَ فَنَابِكِي عَلَى قُرَيْشٍ ، وَهَلْ يُرْجَعُ مَا فَاتَ ، إِنْ بَنَيْتِ الْبُكَاءَ  
كَيْفَ تَوَمِّي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا يَسْمَلِ الشَّامَ غَارَةُ شَعَوَاءَ  
أَنَا عَنْكُمْ - بَنِي أُمِيَّةَ ، مُزَوَّرَ ، وَأَنْتُمْ فِي عَيْنِي الْأَعْدَاءَ

٧ - وهكذا يتضح لنا أن عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر بليغ ، ومفكّر ذو عقل  
ناضج وفكرة واضحة على عمق في النظر ، وتسلسل في المعنى ، وخطيب في شعره  
يعمل على الانقاع بمجّة الواقع ، ورجل إخلاص للقضيته يريد الخير لقومه ويحاول أن  
يجمع الكلمة ، وهو أبداً شاعر العاطفة الحية ، والصلابة الحازمة ، والسلاسة التي تروق  
وتعجب . وأنه شديد البعد عن رثاء الشعراء المتزلفين ، وسياسة أكثر الشعراء الحزبيين .  
إنه صديق وأئمة وإخلاص .

### عديّ بن الرّفاع (٩٥هـ - ٧١٤م)

١ - تاريخه :

هو عديّ بن زيد بن مالك بن الرّفاع من عاملة من قُضاعة . كان شاعر بني أمية  
يُناضل دُونهم ، وقد تعرّض لحرير وناقضه في مجلس الوليد بن عبد الملك ولم يحسر جريـر  
على هجاء خوفاً من الوليد لأنه هدّده بالأذى إذا فعل . توفّي في دمشق سنة ٩٥ /  
٧١٤م .

٢ - أدبه .

لعديّ بن الرّفاع شعر مبنوث في كتب الأدب ، وشعره هو شعر فغمي أكثر مما هو  
شعر عقيدة ، وقد حفل بالصفات العامة التي يحفل بها كلّ شعر مدحّي غايته التكمسب  
والاستجداء ، من نعت المملوح بالكرم والجود والحلم والفضيلة والمجد وما إلى ذلك ،  
ومن تزلف وتودّد يُثّران على أقدام الملوك والعظماء .

## مصادر ومراجع

- محمد يوسف نجم : ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - بيروت  
كارلو مالينو : تاريخ الآداب العربية - القاهرة.  
سامي النّحّان : المديح سلسلة فنون الأدب العربي القاهرة.  
أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٥٣.  
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الأول - القاهرة.



## الفصل السابع شعراء البلاط والتكشُّب

الأخطل (٢٠ - ٩٩٢ هـ / ٦٤٠ - ٧١٠ م)

٩ تاريخه

- ١ - مَكُولَة مَعْقَدَة وشاب نالِم : رُكِدَ الأخطل في الحيرة بحرسه ٦٤٠ م. وتعرَّص لقسوة زوج أبيه وقد عرَّض لَكَمِ بْنِ حُمَيْلٍ وأُحْمَسَه
- ٢ - صحافي السياسة الأموية - أصبح الأخطل مد هجاء الأندلس لسبب الدفع عن الدولة الأموية، وصحافي السياسة القائمة كما أصبح رسول قومه لدى الدولة؛ وكانت مصالح نصف تنقذ ومصباح الدولة الأموية. وقد قرَّبه عبد الملك ولقبه وشاعر بني أمية.
- ٣ - غروب ألم. تصدَّ طَلَّ الأخطل في عهد الوليد بن عبد الملك واستبدل به الخليفة الجديد عدي بن الرُّقَاع. وقد توفي سنة ٧١٠ م / ٩٢ هـ.

٢ أدبه.

للأخطل ديوان شعر فيه ثلاثة أقسام كبرى. شعر سياسة أموية، وشعر عصبيَّة عليَّة، وشعر خمر ووصف.

٣ شعر السياسة الأموية.

- ١ - هجاء الأندلس: في هذه القصيدة مدح صميمي لبني أمية، ويزداد للأندلس عن فريش وفيها أسلوب جاهلي، موزون ومعالن عممة مرجعها إلى المدح والمقهر والمجاهد.
- ٢ - مدح بني أمية ولاسيما عبد الملك بن مروان القصيدة مدحمة مجموعة من الأعراس في عطف السياسة العليا الوحيدة. وشعر الأخطل أصبح الصحيفة السيكارة يعمل فيها على شعر التقبلة الأموية وعمول الإقناع بقوَّة القول والبرهان.
- ٣ - نقائض الأخطل وحير: كان هجاء الأخطل فيها دعاءً أكثر ممَّا كان هجويًا، ومؤلفًا من غير محش، يطمح بالقبيلة أكثر ممَّا يطمح بالفرد.

٤ شعر الخمر والوصف:

كان همُّ الأخطل في حمرياته أن يقلَّ بطريقة محسوسة. وأن يُكثِّر من القول والتشبيه والتصوير والقصص.



## ٩ تاريخه :

١ - طفولة معدية وشباب ناظم : الأخطل أشد شعراء هذا العصر اتصالاً بالسياسة العلبي لبني أمية ، وهو من ثم أعظم ممثل للحياة الاجتماعية السياسية ، فهو أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت من جشم بن بكر ثم من تغلب<sup>١</sup> . لقب بالأخطل لسلطة لسانه ، وقد وُلد في الحيرة نحو سنة ٦٤٠ م<sup>٢</sup> . وكان أبوه غوث من وجوه قومه ؛ وأمه ليل تُعرف بأم كعب . توفيت وهو حدث ؛ فتعرض لقسوة زوج أبيه وكانت تفرض سيطرتها عليه وتستريحه أعزها وتبخل عليه حتى بالكافي من القوت . فنشأ وفي نفسه صراع عنيف بين العنوان التغلبي وذلّ الرعي والجوع ، قاده الى هجاء زوج أبيه . في هذه الفترة عرض الأخطل لكعب بن جعيل شاعر تغلب وأخمله . وقد روي أن ابن جعيل هو الذي أطلق عليه لقب «الأخطل» لما رأى فيه من شرٍّ إذ كان كثير الوقوع في أعراض الناس<sup>٣</sup>

٢ - صحافي السياسة الأموية : بعدما دعا يزيد بن معاوية الأخطل الى هجاء الأنصار اتحدت حياته اتجاهاً جديداً ، وأصبحت صيته بلسان السياسة الأموية ذات معنى جديد . وليست الصلة جديدة ، فإن تغلب بأسرها واقفة الى جانب الأمويين منذ يوم صفين . ولكن هذا الشاعر أصبح منذ هجاء الأنصار لسان الدفاع عن الدولة ، وصحافي السياسة القائمة ، كما أصبح رسول قومه لدى الدولة يعامل العصية القبيلة التي عادت الى عفاها في ذلك العهد . وكان يعيش في البلاط ناعماً بالحظوة والإكرام ، متادماً ليزيد بن معاوية في شرب الخمر ، ملازماً له حتى في الحج الى البيت الحرام<sup>٤</sup> . وما إن

١ - تغلب قبيلة عظمى تنسب الى تغلب بن وائل من ذرية بن نذر بن معد بن عدنان . مسكنها في الجزيرة الفراتية بمحافظات سمسار ونصيب . كانت على دين النصرانية . وكانت تعدّ من القبائل الحرة التي لا يهاها مال إلا بالقتال والمعارات والعراوات . اشبهت بالقتال مع كثير من القبائل خاضت مع مكر عدة حروب على أثر قس حساس لكبي ، وتغلبت على يربوع في عدة مواقع ، ولها أيام عزّ من بني شيان وغيرهم . وكان لها في صدر الإسلام شأن عظيم ، وقد وقعت في صفين الى جنب معاوية وظلت بعد ذلك موالية لبني أمية .

٢ - ويحيى بن الوليد في الحيرة أي ما بين الهيرين حيث كانت منازل تغلب في جهات الرقة والرصافة .

٣ - الألفاني ٨ ، ص ٢٨٠ .

٤ - الألفاني ٨ ، ص ٣٠١ .

توفّي معاوية حتى اضطربت أحوال البلاد ولم يتمكن أبناؤه من السيطرة حيال ابن الزبير الذي دعا لنفسه بالخلافة وأجلى بني أمية من المدينة إلى الشام ، وقام كثيرون من مثل زُفر بن الحرث والنعمان بن بشير وغيرهما يدعون لابن الزبير وخلق بني أمية . وإذا ذلك نهض مروان بن الحكم يدعو لنفسه ، فقتل الضحّاك بن قيس إلى مرج راهط<sup>١</sup> ثمّده القيسية ، وجاء مروان بن الحكم بمن يابيه ، وكانت معركة شديدة قتل فيها الضحّاك واهزمت القيسية ، واستتب الأمر لمروان (٦٨٣ - ٦٨٥ م) . وهكذا كانت المعركة انتصاراً لليمن على قيس عيلان وللأمويين على الزبيريين . وفي كلّ ذلك كانت مصلحة تغلب تنفق ومصلحة الدولة الأموية ، وكانت حروب تغلب تساعد مساعدة فعالة على إقرار سلطان بني أمية ، وكان الأخطل في تلك الغمرة مناصراً لقومه ولبنّي أمية . وقد نشبت عدّة حروب بعد موقعة المرج بين القيسيين بقيادة الحجاج بن حكيم وزفر بن الحرث ، والتغليين قوم الأخطل وأحلاف السلطة القائمة<sup>٢</sup> ، وكان بذلك أفضال لتغلب على العرش الأموي ، وكان الأخطل مسجلاً للأحداث ، مدافعاً عن بني أمية ، مادحاً رؤساءهم وولائهم ، مؤيداً حقهم بالخلافة ، قائماً بعمل السفارة لقومه لدى عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥ م) ، وقد قرّبه عبد الملك ولقبه «شاعر بني أمية» و«شاعر أمير المؤمنين» ، وكان له في خلافته أعظم الأثر .

٣ غروب ألم . وما إن تولّى الخلافة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥ م) حتى تضاعف ظلّ الشاعر في البلاط وأصبح هدفاً لخصومة يهاجمه كلّ حاسدٍ وطامع ، وقد استبدل به الخليفة الجديد عدي بن الرقاع شاعراً رسمياً ، وذلك استجابة لدعوة المتنافسين والمتزمتين ، فنزل الأخطل عن عرش الإمامة الشعرية ، وهجرت لسانه لهجة الإدلال ، وقلّت قصائده في الخليفة ، وتغيّر أسلوب القول عنده فأصبح يشكر الأفضال ويشكو ألم التمس في غير عفون ولا سلطان . ثمّ التحق بقومه حيث وافته المنية نحو سنة ٧١٠ م / ٩٢ هـ .

١ - هو موضع في القنطرة شرقي دمشق .

٢ - من تلك المواقع يوم ماكسين على شاطئ الحايير لسم على تغلب ، ويوم الثرثار الأول لتغلب على قيس ، ويوم الثرثار الثاني لقيس على تغلب ، ويوم الحشد لتغلب على قيس قتل فيه عُمير بن العبّاد وزُفر بن الحرث ، ويوم الكحيل ويوم الشر لقيس على تغلب .

## ٢ - أدبه :

للأخطل ديوان شعر انتقل على السنة الزوارة عصوراً متوالية، ومن أشهر من رواه ابن الأعرابي (القرن التاسع) ثم محمد بن حبيب، ثم ضبطه ونظمه أبو سعيد الحسن المعروف بالسكري<sup>١</sup>، ثم أكب عليه الألب أنطون صالحاني اليسوعي درساً وتنقيحاً، وقد عثر على مخطوطة لذلك الديوان في بطرسبورج فنشرها سنة ١٨٩١، ثم عثر سنة ١٩٠٥ على مخطوطة أخرى فطبعتها مصورة على الحجر وأضاف إليها تعليقات وفهارس متينة، ثم عثر على نسخة ثالثة في اليمن أطلعها عليها المستشرق أوجينيو غريفي فنشرها متمماً بها النسختين السابقتين ومضيفاً إليها المقدمات والتعليقات والفهارس العلمية الدقيقة. ثم انه وجد في الآستانة نسخة قديمة جداً من نقائص جرير والأخطل فعمل على نشرها سنة ١٩٢٢. وأخيراً وجد في طهران نسخة من الديوان ترقى الى سنة ١١٠٥ م، فنشر منها سنة ١٩٣٨ «التكلمة لشعر الأخطل». وهكذا اجتمع لدينا شعر الأخطل في ديوان منظم على أسس علمية توحى بالثقة والاطمئنان.

وشعر الأخطل من موحيات البيئة والأحوال التي تقلب فيها، أنه شعر أزد فيه صاحبه أن يجري على سنة الجاهليين ولا سيما الناعمة الذبياني. وهو أخيراً شعر رجل أحب الخمرة وعاقرها رماً طويلاً، وأحب أن يدخلها في بعض شعاب الكلام ومناحي النظم. وهكذا كان ديوان الأخطل ذا ثلاثة أقسام كبرى: شعر سياسة أموية، وشعر عصبية قبلية، وشعر خمر ووصف. والسياسة هي النقطة الدائرة في هذا الديوان تنطق بالمدح والزلاء، والهجاء والفخر، وأما ما سوى ذلك من خمر ووصف وغزل فمعرض يأتي في انفلتات واستطرادات تطول أحياناً في غير استقلال.

## ٣ شعر السياسة الأموية :

انساق الأخطل الى الدخول في تيار الحياة السياسية بفعل الأحوال التي اكتفتها والجلو الذي عاش فيه، فقد صار العرب في أعقاب صفين أحزاباً متصارعة، وراح

١ طالع «الفهرست» لابن الدم، ص ٧٨، ١٥٧. وقد روى ابن الأعرابي أن أبا سعيد الحسن المعروف بالسكري «عمل شعر الأخطل وحده» أي ضبطه ونظمه.

٢ ليس في ديوان الأخطل إلا مراثية وحيدة تهاد في صديقه يزيد بن معاوية وهي غير ذات قيمة.

معاوية يسعى في توطيد ملكه وإقراره في بيته ، والحيلولة بين الهاشميين وبينه ، « وقد جُدَّ في ذلك وسلت له سبُلَ الترغيب والترهيب حتى ظفر بذلك ، وتوجَّه بالبيعة لابنه يزيد ، وبهذا استقرَّت الحكومة أموية ، وأخذت في التاريخ الإسلامي السياسي لوناً جديداً ، هو هذه الهرقولة ... وإنا نرى أنَّ الخدال أيام البيعة كان قائماً حول دين أو نظام يبيِّغ ويوضع ، ولكنه هنا حول دين ونظام يُفسَّر ويُطبَّق . كان هناك بين الجاهلية والإسلام ، وكان هنا بين الأحزاب الإسلامية كيف تكون الحكومة ، وأين تكون ، ومن هذا الحاكم ؟ وكان الخلاف يبدو إما خالصاً للمذهب والرأي ، وإما متصلاً بالمصالح المادية والعصبيات القبلية ، وكان انشعر صفحة ذلك وأداته ، وكان الأمويون أحرص الناس على الملك ، فَرَرُوا في سبيله كلَّ وسيلة ، وكان منهم دهاقين السياسة وأساطينها ... »

١ . هجاء الأنصار : عمل معاوية على إقرار الملك في بيته وعمد الى الترغيب والترهيب ، فقسما على الحوارج ، ولان مع آل هاشم ، وترضى الأنصار وأغلق عليهم المال لإبعاد فكرة الخلافة عنهم ، إلا أنهم ما انفكوا ينظرون الى بني أمية نظرة عداوة ، وما انفك شعراؤهم يهاجمون أولئك الذين عدوهم مُغتصبين مزيفين ، وقد اتخذ بعض شعراء الأحزاب النسب وسيلة سياسية يفتخون بها الأمويين فشَبَّ عبد الرحمن بن حسان الأنصاري بِرَمْلَةِ بنت معاوية ، وشَبَّ العرجي بِجِداة أُمِّ محمد بن هشام وجيرة زوجة ليخطه ، وتَعَلَّ عبيد الله بن قيس الرُّقَيَات بِأُمِّ النِّين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان ؛ فأغاظ عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز . وهكذا كانت لحظة تحقيرة . وممَّا يذكر أن المدينة شهدت صراعاً شعرياً عنيفاً بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم أخيه مروان بن الحكم ، وقد تاحيا هجاء مُرَّاً . ولكنَّ الأضطل هو وحده نجحاً على هجاء الأنصار عامة وشاعرهم خاصة . وكان هجاؤه السبيل في دحوله البلاط واتصال حياته الشعرية بالسياسة الأموية .

١ - أحمد الشاذلي : تاريخ الشعر السياسي - الطبعة الثانية ١٩٥٣ - ص ١٦٣ - ١٦٤ .

٢ - الأعرابي ١٣ ، ص ١٥٠ وما بعدها

والقصيدة عنيفة الى حد بعيد ، جريئة بقدر الأمان الذي ضمنه يزيد للشاعر والصلة الوثيقة لقبيلة تغلب بالسُلطان الأمويّ ، افتتحها الأخطل بَلْعَنَة صَبَّها على رؤوس الأنصار لأنهم في نظره من أصل يهوديّ وقد ورثوا من ثمّ لعنة الله لليهود . ثمّ راح يُعَدّد مخازيهم وإذا هم جماعة سُكْر وعريضة وهذا أمر يُعدهم عن روح الإسلام ؛ وقد جدّ الأخطل في أن يفصل فيما بينهم وبين الإسلام الحقيقي مراعاة للخلافة الإسلامية ، وجدّ في أن يُعدهم كلّ الإبعاد عن قُريش — والنَبوة في قريش وبنو أُمَيّة من قريش — وإذا المكارم والعُلَى في قريش دون سواها ، وإذا اللؤم كلّ اللؤم تحت عمام الأنصار . وهنا تتغلّب النزعة البدوية على الأخطل ، وهو ربيب البادية ، فيستمدّ من تلك النزعة معنى كان الأعراب آخذين فيه ، وهو أنّ الصناعات اليدوية ترافقها الحفارة . وكان سكان المدن والقرى يعالجون الأرض وما الى ذلك من الحِرَف التي تبعد العربي — في نظر الأعراب . عن حياة الحرية وبجالات البطولة والشجاعة . فالأنصار من المدينة وهم من ثمّ ذوو مَسَاح ومُحَارِث ، وهُمُّهم من ثمّ بعيدٌ عن المثاليّة البدوية . فيقطعهم الأخطل في ذلك ، ويثير الخلاف القائم بين أهل المَدَن وأهل الحَضَر ، ويُرضي بذلك البدو الذين كانوا الى جانب بني أُمَيّة . ثمّ انه يهاجم الأنصار مهاجمة تحقيرية فيجعل ظهورهم مطيّة للفوارس ويقوده ذلك الى جعل شاعر الأنصار جحشاً أبوه حمار وأُمّه حجارة ؛ ومثل هذه المعاني الغليظة من مألوفات هذا العهد الخافل بالشنائم والبداءات .

وهكذا فالقصيدة مدح ضمنيّ لني أُمَيّة يرفعهم فوق الأنصار ويجعلهم أملاً للخلافة والسُلطان دون الأنصار الذين عمل الشاعر على إلصاق العار بهم وحَثّ الأعراب عليهم . وهكذا ظهرت نزعة الأخطل في شعره السياسي إذ يجعل القصيدة ميداناً واسعاً للمدح والفخر والهجاء ؛ إنها حطّ لُشأن الخصم وإعلاء لُشأن السُلطة الأمويّة وأحلافها ، وتقليد بدويّ ، وأسلوب جاهليّ أمويّ . وقد بني الشاعر في هذه القصيدة على باب السياسة الأموية ولم يبلجها ولوجاً كاملاً ، فاكتمت بالمعاني العامة ، وأوجز ولم يُسهب ، وأشار ولم يفصّل حجج الأمويّين وبراهينهم ، ولم يعدل الى أسلوب الأحزاب في الجدّل والنقاش وما الى ذلك مما سنجده في سائر قصائده ، وممّا قال :

لَعَنَ الْإِلَٰهَ بَنِي الْيَهُودِ عَصَابَةً      بِالْجَزَعِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وَصِرَارٍ  
قَوْمٌ إِذَا هَدَرَ الْعَصِيرُ رَأَيْتَهُمْ      حُمُرًا عَيُونُهُمْ كَجَمْرِ النَّارِ  
ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَى      وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ  
قَدَرُوا الْعَمَالِي لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا      وَخُذُوا مَسَاحِكُمْ بَنِي النَّجَارِ...  
وَإِذَا نَسَبَتْ ابْنُ الْفَرِيعَةِ خِلَّتَهُ      كَالْجَحْشِ بَيْنَ حِمَارَةٍ وَحِمَارٍ...

٢ مدح بني أمية: شغل الأخطل بقومه شغلاً اضطره الى مملأة الأمويين، ومباهضة القيسيين، وقد انضم الى بني أمية وهم بحاجة الى شعراء ينشرون آراءهم ويردّون هجاء أعدائهم، وانضمامه إليهم يعني، في نظر الجميع، انحيازاً الى سياسة معينة، وشعره من ثم هو شعر تلك السياسة، هو شعر التأييد التام في إطار المدح على سمة التقاليد العربية القديمة، والمدح يوجّه الى الخليفة وأنسابه وولائه وعماله وقواده، والقصيدة المدحية والحالة هذه هي مجموعة من الأغراض في خط السياسة العليا الواحدة هي إطراء للأعمال، وإشادة بالناقب، وتعالٍ بالفخر على الخصوم وهجاء لهم، وهي بين هذا كله افتتاح غزليّ تقليديّ، واستطراد وصفيّ أو خمرّيّ في سبيل الهدف السياسي. ولما كانت العصبية من أهم عناصر السياسة الداخلية كان الشاعر الأموي يخدم السياسة العليا بقدر ما يخدم صالح قومه، ويقدر ما تدّر عليه من مال وتجوّر إليه من نفع. وهكذا يبدو لنا أنّ هذا الشعر خاضع للزعمات الجاهلية لما لأصحابه من ميل الى الحرية البدوية وتقليدها، ولما في أنفسهم من كره للنظام الحكوميّ وقلة الإطمئنان إليه

مدح عبد الملك بن مروان حاصّة والأمويين عامّة: وتسير الأيام وينساق الأخطل مع السياسة الأموية انسياقاً يشتدّ باشتداد علاقة قومه بتلك السياسة، وباشتداد صلته بالبلاط، وقد أصبح الشاعر الرسميّ، ولسان الدولة الحاكمة، وأصبح شعره صحيفة

١ النجّز: مسطوف الوادي. جُلَاجِل: أحد جبال النّعاء. صِرَار: وادٍ بالحجاز، وفق جل — والشاعر يسبب الأنصار الى اليهود سكان يثرب الأصليين.

٢ — للمسيح ج مسحة وهي آلة تمسح بها الأرض. بنو الحار. قوم حسان بن ثابت

٣ ابن الفريعة: حسان بن ثابت

بني أمية السيرة. فدخل باب العقيدة الأموية، وإن لم تكن في نفسه، وبجعل على نشرها والدود عنها، في روح حزبية تحاول الإقناع بقوّتي القول والبرهان. وقد رأينا كيف أن معاوية جدّ في إقرار المُلْك في بيته، وصيّر الحكم ملكاً وراثياً، وكيف استعمل الترغيب والترهيب في سبيل هدفه، وكيف تكوّنت العقيدة شيئاً فشيئاً لدى الأمويين وفاقاً للأحوال ولما دعت إليه المشادات الحزبية. وخلاصة تلك العقيدة وإن هنالك خليفة أموياً هو عثمان الذي قُتل مظلوماً، وأهل بيته هم أولياء دمه يمثلهم معاوية، وأن الأمويين أصلح للحكم، وأقوم الناس بأعبائه، ومعهم كثرة تزيدهم، وأنهم أصحاب مجد قديم يناصي مجد الهاشميين، وأن نتيجة التحكيم في أعقاب صفين كانت في جانبهم؛ ثم زعموا للناس أنهم وارثو النبي<sup>١</sup> فصاروا بذلك أحقّ الناس بهذا الملك الإسلامي<sup>٢</sup>.

وجدّ الأخطل في نشر هذه الآراء سواء أمدح يزيد أم معاوية أم الحجاج أم الأمويين عامّة، وأكثر ما اجتمعت له بلاغة السياسة الأموية في قصيدته الشهيرة وخفف القطن<sup>٣</sup> التي قالها في مدح عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير في العراق، والتي تعدّ خلاصة لموقف الشاعر مع الخليفة على أعدائه ولاسيما قيس عيلان. والقصيدة تربو على الثمانين بيتاً، وفيها أربعة أقسام: غزل تقليديّ، ثم مدح لعبد الملك وقومه، ثم ذكر لما قدّمه الأخطل وقومه من خدمات لعرش بني أمية، ثم أخيراً هجاء لأعداء أمية من قيس عيلان وحلفائهم ولاسيما كليب بن يربوع قوم جرير. ومن روائع قوله فيها يمدح بني أمية:

حُسِّدُ عَلَى الْحَقِّ، عَيِّفُوا الْخَنَّا، أَنْفُ إِذَا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةً، صَبَرُوا<sup>٤</sup>  
أَعْظَاهُمْ اللَّهُ جَدًّا، يُنْصَرُونَ بِهِ، لَا جَدَّ إِلَّا صَغِيرٌ، بَعْدَ مُحَقَّرٍ  
لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ، إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشِيرُوا<sup>٥</sup>

١ - المسعودي، مروج الذهب ٢، ص ٢٢٩ - ٣٣٤.

٢ - تاريخ الشعر السياسي، ص ٢٤٣.

٣ - حُسِّدُ عَلَى الْحَقِّ. مجتمعون عليه ومتعاونون على نصرته وعمله الخنّا. الفحش، عياض الحقا. أي شديد الانحدار والكراهة له. الأنف ج. أنوف وهو الشديّد الألفة والإيابة.

٤ - أشر. طرد. فيه. أي في الحقد. مواليه. أي أصحابه وأهله.

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ، حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ، وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَّرُوا<sup>١</sup>  
 لَا يَسْتَقِلُّ ذَوُو الْأَضْغَانِ حَرْبَهُمْ، وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَوَرُ<sup>٢</sup>  
 هُمْ الَّذِينَ يَبَارُونَ الرِّيَّاحَ، إِذَا قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَامِينَ، أَوْ قَتَرُوا<sup>٣</sup>  
 بَنِي أُمِّيَّةَ، نَعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ، تَمَّتْ فَلَا مَبِيتٌ فِيهَا وَلَا كَدَرُ<sup>٤</sup>

إن القصيدة التي أوردنا قسماً منها هي من أروع قصائد المدح القديم، ومن أكثر الشعراء صلة بنفس العصر وروح البيئة، وهي اختباراً أجمع قصائد الأخطل لشتى أغراضه وفنونه. نظمها الشاعر وهو في أوج عزه وعنفوانه، يوم اشتد النشاط السياسي واجتلاء الأحزاب، ويوم اشتدت ثورة العصبيات ووقف الأخطل وقومه في وجه المعارضين وقفة صمود حازم مما حمل عبد الملك بن مروان على النداء بأنه «شاعر أمير المؤمنين».

الافتتاح: افتتح الشاعر قصيدته بالقرن التقليدي، واحتفل بهذا الافتتاح احتفالاً شديداً، فأطال غزله، وتأنى فيه تأني إغراق واستعلاء، متخيراً فيه المعاني والصور، مكثرًا من الأوصاف، متقلِّبًا في الأدب القديم ليستعين بأفخم الأقوال وأروع الأساليب، وإذا به يدخل في افتتاحه ذكر الحمرة المعلقة على سنة الأعشى، ويتبع الراحلات وأماكن سيرهن على سنة زهير، ويصف إعراض الفواني عن المشيب على سنة عبيد بن الأبرص، ويلجأ إلى التشبيه الاستداري على سنة النابغة، ويلج عالم نفسه ليوضح ذهولها، ويدفع وراء المشية به متنوعاً ما استطاع التنوع، مجسماً ما استطاع التجسيم؛ وهو يؤكد فكرته تأكيداً، ويحكم عبارته الشعرية إحكاماً فريداً؛ ويضيئي على كل ذلك لباس الفخامة والجلال، وكأنه به يريد أن يشعرنا بالمقام الذي يحتله، ويريد أن يكون كلامه الكلام الفصل الذي تنهي عنده كل مساجلة، ويقف بجانبه كل إعجاب.

للمدح وعلافة تغلب بقومه: ثم تختص الشاعر إلى الممدوح، وتناول جوهر الموضوع

- ١ شمس العدواة - أي عسرون في عدائهم. حتى يستفاد لهم - حتى يُخضع لهم. الحلم: الصبر والأتانة
- ٢ - لا يستقل لا طلق. الحور: العنبر والصف.
- ٣ الصافون: طالبو القوت قترا. اغفروا فضيحتوا عن عوسهم الثقة.
- ٤ محلة: عامة



وعالجه بصفته أولاً شاعر الحكومة الرسمي ، وبصفته ثانياً حليف بني أمية . وقد هدف أولاً الى تحقيق ما تقتضيه العصية القبلية من شاعر بدوي في مشرته وميله ، أي الى تثبيت السلطان الأموي في ولائه لتغلب وانحيازه إليها دون خصومها من القيسية وأحلافها ؛ ثم هدف ثانياً الى الإشادة بسجاياء الخليفة وخلال الدوحة الأموية وإعلان حقها بالخلافة وشرعية سلطتها في روح جدلية تتمشى مع روح العصر وتُسفِّد ادعاءات المدَّعين ، وتُظهر بطلان أقوال المعارضين ؛ وهدف أولاً وثانياً الى الظهور بمظهر الشاعر الشاعر الذي جمع في ذاته مقدرة الجاهليين والإسلاميين ، وروعة الفن التي تسيطر على القلوب والعقول . وقد ضَمَّن مدحه هذا فخرًا وهجاء ، ولفَّ كلَّ ذلك بالوصف الذي جال فيه جولات واسعة لإرضاء المذهب الفني ، وإرضاء لثزعة الاستعلاء فيه .

للح ودعوى بني أمية : أما المدح فقد راح الأخطل يصوغه بكلِّ ما لديه من وسائل الإقناع ، وراح يضمِّنه كلَّ ما قيل في هذا الفن قديماً ، وكلَّ ما يمكن قوله في عصر كعصر بني أمية . أما ما قيل قديماً فصعالي الكرم والشجاعة والحزم وما الى ذلك ، وأما ما يوحى به العصر والموقف والسياسة فقفية الخلافة التي تجالدت الأحزاب في شأنها فالخلافة حق لبني أمية في نظر الأخطل ، والله أظهر الخليفة الأموي . لأنه خليفة شرعي ، وهو من ثم خليفة الله وإمام المسلمين ، وإذا كان إماماً حقَّ للمؤمن أن يستسقي به انظر . وهذا الخليفة أجمع خلق الله لصفات الخلافة ولا سيما الجود والعظمة والقدرة . وهنا يندفق الأخطل اندفاعاً نابغة . ويعمد كالنابغة الى الفرات في جيشان أمواجه ، ويُشبه به عبد الملك بن مروان ، ويتوقف عند المشبه به واصفاً في جلال وإحكام ، ثم يعود الى المشبه ويعدّد أعاليه الحميدة ، ومناقب سيطرته الفريدة ، ثم ينتقل الى اللوحة الأموية وإذا هي من أصفى ما في قریش ، وإذا هي أجداد إثر أجداد ، واحتشاد على الحق ، وترفع عن الدنيايا ، وصبر على الملمات ، وتواضع في موكب العظمة ، وجود يباري جود الرياح ، وقسوة على العناد ، وجلم عند المقدرة ...

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا<sup>١</sup>

١ - «قيل لأبي العباس السداح أن رجلاً شاعراً قد مدحك فتسبح شعره؟ قال : وما عسى أن يقول في بعد قول ابن النصرانية في بني أمية شمس العدواة .» (الأغاني ٧ ، ص ١٧٩).

وإذ كان الأمر كذلك كان بنو أمية أحقّ النَّاس بالخلافة ، بعد أن شرّفهم الله ، وأعلن حقّهم في يوم صفّين ، ونصرهم على جميع أعدائهم . قال شوقي ضيف : « إن الأخطل في مديحه لعبد الملك كان يُحاول جاهداً أن يحدّد المديح في الشعر العربيّ تجديداً يتلاءم مع عصره ، وقد لمسنا هذا التجديد في الصورة التي اقتبسها من النابغة . وليست المسألة في رأينا مسألة صورة مفردة ، فإنّ مَنْ يتأمّل هذا المديح يلاحظ أنه اختلف في صورته العامة عن مديح الشعراء في الجاهلية ، لسبب بسيط ، هو أنّنا أصبحنا بإزاء موقف في الحياة يختلف عما كان عليه الشأن قديماً ، فقد أصبح للعرب دولة ، أو بعبارة أدقّ ، خلافة ، وأصبح لهم جيش منظم . ومن هنا اختلف موقف الشاعر الأموي عن زميله الشاعر الجاهليّ ، حتى ولو كان مسيحياً كالأخطل ، فإننا نراه يمدح عبد الملك الخليفة ، ثم يمدح عبد الملك نفسه في خلقه وشخصيته ، ثم يمدح عبد الملك القائد ، ثم يمدح عبد الملك سليل الأسرة الأموية<sup>١</sup> .

الفخر : وأما الفخر فهو لامتنان الشاعر على الأمويين بموقفه معهم من الأنصار ، وهو نصيح للخليفة في سبيل تغلب ، وتحذير من القيسية ورعيها زفر بن الحرث ، فالقيسية عدو أزرق للخلافة ولتغلب ، وتغلب أحقّ بأن تغرب وبأن يرأى جانبها وهي التي ناصرت الأمويين يوم المرج ، وهي التي قتلت عمير بن الحباب يوم الحشاك ، وهي التي عملت على إقرار سلطان بني أمية ؛ فلترحل قيس عيلان إذن عن الجزيرة<sup>٢</sup> ! وبهذا يتقل الشاعر الى هجاء قيس عيلان عامّةً ومُلكٍ خاصّةً . والهجاء كذلك سياسيّ موجّه الى عدو مشترك يرميه الأخطل بالضلالة وخلق الضجر والتقلب والتلون ، ثم بكفر النعمة حتى أبعد من الجزيرة وأصبحت سنجار والبلاد المجاورة لها خالية منه ومن لؤمه ، ويرمي الأخطل بني كليب بن يربوع قوم جرير بالتمول والفاحشة والبخل والمكّ حتى أقسم المجد أن لا يحالفهم .

١ - التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص ١١٠ - ١١١

٢ - قال شوقي ضيف . « الأخطل يبي قيس عيلان عن بلاد الجزيرة بجمل المناسبة الاقتصادية بين قيس وتغلب . وكان الحدوث مصحّباً على بني سلمة خاصةً رجعاً عمير بن الحذب .. فأثّر حرير (في قبضة) فحس صاحبه في بلاد آخره مقيطاً محظاً ، ونفاه عن بلاد مصرّ أنجاده وأعواره ، إذ كان الأخطل تغليباً من ربيعة » (ص ٣٩٢ - ٣٩٣)

شاعر أمير المؤمنين: تلك قصيدة الأخطل وهي، ولا شك، من أروع المدح السياسي، وليس بالمستغرب أن يقول عبد الملك لصاحبها بعدما أنشدتها: «ويحك يا أخطل، أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب». فقال الأخطل: أكتفي بقول أمير المؤمنين. فأمر عبد الملك له بحفنة كانت بين يديه، فمكثت دراهم. وألقى عليه خلعاً، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول: هذا شاعر أمير المؤمنين، هذا أشعر العرب<sup>١</sup>. والأخطل في هذه القصيدة ذو إدلال على البلاط يتجلى باللهجة العالية، والهجوم الصاعق على الأعداء وإن سعى عبد الملك في تزيينهم واستمالتهم، ويتجلى أيضاً بيسط الشاعر ما له ولقومه من أفضال على الدولة، وبالمطالبة الصريحة. وبالموقف العنيد، وبالجرأة في إدخال الحمرة كعنصر أساسي من عناصر الشعر الرسمي في بلاط إسلامي. أضف إلى ذلك أن القصيدة من أروع القصائد القديمة حيكاً وبناءً على تعدد الفنون فيها، ومن أشد الشعر إحكاماً وإكمالاً لسمعي وتحديد له بكثرة الصفات والمصور. وهكذا استطاع الشاعر أن يكون فيها شاعر السياسة القاطنة، وشاعر العvisية القاسية، وشاعر التقليد الشخصي، والنبوغ الفريد.

٣- نقائض الأخطل وجوي: يُروى أن الأخطل لما بلغه نهاجي جرير والفرزدق أرسل ابنه مالكا إلى العراق ليأتيه بخبرهما، وقال له: انحدري إلى العراق حتى تسمع منهما وتأتي بخبرهما. فانحدرت مالكا حتى لقيتهما وسمع منهما، ثم أتى أباه. فقال له كيف وجدتهما؟ قال: وجدت جريراً يغرف من بحر ووجدت الفرزدق ينحت من صخر. فقال الأخطل: الذي يعرف من بحر أشعرهما. وفضل جريراً على الفرزدق. فلما قدم الأخطل على بشر بن مروان أخيه الخليفة في الكوفة سنة ٦٩١ م. بعث إليه قوم الفرزدق بهدايا وقالوا له: لا تُعِنَّ على شاعرنا واهج هذا الكلب الذي يهجو بني دارم، فإلّا قد قضيت على صاحبنا، فقل أبياتاً واقضي لصاحبنا عليه ففعل، وقال:

أجريرُ إنكُ والذي تسمو له كاسيفه فخرت بحيدج حصان<sup>٢</sup>

١ - الأغاني ٨، ص ٢٨٧ وما بعده.

٢ - مطلع الأغاني ١١، ص ٦١، ٨، ص ٦٢، ٣١٥...

٣ - الأسيفة: الأمة. الحيدج: مركب للسوء. الحصان: المرأة المصونة، الحرة.

فرد عليه جرير ، ومنذ ذلك الحين اشتعلت نار العداوة بين الشعارين . وصادف أن بني كليب بن ربوع قوم جرير كانوا من أحلاف الثُبَيْرِيِّين مع قيس عيلان على بني أمية ، فاصطبغ هجاء الأخطل لحصمه بصبغة السياسة الفردية ، والسياسة القبلية ، والسياسة الأموية .

وهجاء الأخطل يأتي عادة بعد المدح أو بعد مقدمات غزلية وفخرية ، ويدور حول التعبير بالبخل وهتك الجيرة . ووصف المزمنة وما لحق الخصم من مذلة وصغار ، وتنفيد الأقوال . وكان هجاءه دفاعياً أكثر مما كان هجومياً ، ومؤثراً من غير فحش ، يطعن بالقبيلة أكثر مما يطعن بالفرد .

#### ٢ - شعرُ الحمر والوصف :

١ - الوصف عموماً : لا شك أن شعراء العهد الأموي كانوا مقلّدين لشعراء الجاهلية على ما طهر في عصرهم من ( قبيّ اجتماعي ) ، وتجلّى تقليدهم بوع خاص في الوصف ، فوصفوا البيئة الصحراوية الجاهلية ، وتحدّثوا عن الأطلال ، وتوقّفوا عند الإبل ووحوش القفار ، واستعاروا لتلك الأوصاف معاني الجاهليين وصورهم ، وتوغّلوا في مادية الجاهلية ، واستدارتها التشبيّهية ، واستطراداتها القصصية ، وذهلوا عن ذاتيّتهم الأموية . فعبروا عن معاني ذهنيّة لم يقتبسوها من تجاربهم ، ولم يتفاعلوا معها ، ولذلك كان وصفهم شكلياً ، أو قلّ أسلوبياً كلامياً ، ولم يكن شيئاً من ذاتهم ينضّ بحياتهم ، ويندفع من عوالم نفوسهم المنفعلة . وقد عرض الأخطل للوصف ، شأن سائر الشعراء في عصره ، بل أكثر منه في تضاعيف قصائده ، فوصف حيوان الوحش تمثيلاً مع سعة التقليد ، وبسط بعض مشاهد الفرات محاكاةً للمذهب البائغة الديباني ، وجرى على أسلوب التصوير الخبيّ الدقيق والاستدارات القصصية ، وكان الوصف عنده مجالاً للمحاكاة الاستعلائية . ولوناً من ألوان المفاخرة بالمقدرة الشعرية على سعة الفحول :

٢ الحمرة : وأشهر ما اشتهر به الأخطل في هذا الباب وصف الحمرة ، وقد حفل ديوانه بالشعر الحمريّ ، إلا أنه لم يأت مستقلاً بل دُسّ في قصائد المدح والهجاء ،

والأخطل من عشاق الحمرة يجعلها رفيقة حياته ، وطاردة همومه وأشجاناه ومثيرة خواطره ونجبة روحه ، وهو يشربها في كل حال ، يشربها على انفراد ويشربها في عصابة من الإخوان وهو يشرب الحمرة في غير قصد ولا اعتدال ويصفها أيضاً في غير إيجاز ، وإذا هي يسانية سليبة أصل شريف ، يُعلّق بها الساقى ليجود بها في سخاء ، ويقدمها في فراة ومرح ، والساقى يستخرج شاصياتها من مكانها وهي قديمة العهد ، قد اسودّت لقدمها وملازمتها التراب حتى أصبحت أشبه برجال من السودان عُراة . وانه ليجرها جراً لعظمها وضخامتها . ويصبّ الساقى الحمرة في الإباء وإذا هي سحر يُصبّ في إناء ، أو هي بالحري ، لاضطرامها واحتدامها ، جذوة تتأكل ، فتمتدّ الأيدي إليها من هنا وهناك ، من بين وشال ، وتمتدّ نقوة والدفاع ، وإذا الأيدي ترفع كأساً وتضع كأساً والأفواه تردّد : « اللهم حيّ ! » ولئن كانت فترة هدوء ما ذلك إلا للإصغاء الى غناء ، أو لتناول شيء من شواء مرعبل ، وما هي إلا فترة من زمان حتى تتصل الحمرة بالنفوس ، وإذا هناك ارتياح وطيب وشاطئ وكبرياء ، وحمرة تدبّ في العظام ديب نمل في تقا تبيل ، فيطلب الشاعر والحالة هذه أن تمزج الحمرة بالماء وقد تكون إذ ذاك أطيب وألذّ وقد تكون أقلّ عملاً في النفوس ، ولا سيما وقد سكر من سكر . ولا سيما وقد سقط على الأرض صريع مدام وراح الندامى يرفعون رأسه في حنان وعطف ، وقد ماتت عظامه ومعاصله .

وعني الأخطل في شعره الحمريّ بالإكثار من الصفات ، كما عني بتتبع معاني من سبقه والأخذ بها ، وتوسيعها في غير جذّة ، وهمّة الأكبر أن ينقل بطريقة محسوسة لا أن يعالج الخواص النفسية ، همّة أن يتكلّم على الحمرة ، وأن يقول كل ما يعرف عنها ، لا أن يقيم الصلة العميقة بينها وبين نفسه ، همّة أن يكثر من القول والتشبيه والتصوير والقصص والمغالطات الساذجة بحيث يتفوّق على غيره في مادة التفصيل والتجزئ ، في كمية ما يقال ، فأضاف الى ما قيل ما أوحى به تجرّيته ، وما أوحى به الإجمال الذي سبقه إليه من سبقه ، وهذا كله قلماً يتخطى حدود الكمّ الى عالم الذات حيث المضغلات الإنسانية والعقد النفسية التي هرب منها الشاعر القديم أو لم يستطيع التغلغل إليها لقصر إمكانات القوى الإدراكية والتحليلية عنده . قال من قصيدة مدح فيها خالد ابن عبدالله بن أسيد الأموي :

أَنَاحُوا، فَجَرُّوا شَاصِيَاتٍ كَأَنَّهَا رَجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَرَّبُوا<sup>١</sup>  
وَجَاوُوا بَيْسَانِيَّةً، هِيَ، بَعْدَمَا يَعْلُ بِهَا السَّاقِي، أَلَدُ وَأَسْهَلُ<sup>٢</sup>  
فَصَبُّوا عُقَاراً فِي إِيَّاهُ كَأَنَّهَا، إِذَا لَمَحُوهَا، جُدُوءٌ تَنَاقُلُ<sup>٣</sup>  
تَدْبُ دَبِيّاً فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ دَبِيبُ نِمَالٍ فِي نَقَا يَتَهَيَّلُ<sup>٤</sup>

\*

### مصادر ومراجع

- شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي - القاهرة ١٩٥٢.  
أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٥٣.  
أحمد الشايب: تاريخ الفناض في الشعر العربي - القاهرة ١٩٥٤.  
قواد السستاني: الأخطل - الروائع ٣٤، ٣٥، ٣٦ - بيروت ١٩٥٢.  
الأب انطون صالحاني: ملحق وشعر الأخطل - بيروت ١٨٩١.

١ - الشاصيات. الزقاق.

٢ - بيسانية: حمرة منسوبة الى بيسان وهي ناحية الأردن يعْلُ بطني.

٣ - انفقار: الحمرة. الجدوة: الجفرة.

٤ - القد: ما ارتفع من الرمل يَتَهَيَّلُ يتحدر.

## الفَرَزْدَق

(٢٠ - ١١٤ هـ / ٦٤١ - ٧٣٢ م)

١ تاريخه :

- ١ مولده ونشأته : وُلد بالبصرة في أسرة ذات جاه وكرم ، ونشأ مزهراً بأعداد تلك الأسرة ولكن أخلاقه كانت سيئة .
- ٢ اضطراب وتقلب : عَلى ثقة ذوي الأمر به لحث لسانه وتقلب عائلته مكثت حياته حافلة بالاضطراب والتقلب .
- ٣ حرب لسانية - ولاته : وقع خلاف شديد بينه وبين جرير فكان سبب تهاجر دام نحو خمسين سنة ، تولى الفرزدق بالبصرة سنة ٧٣٢ م / ١١٤ هـ .
- ٤ شخصيته : كان الفرزدق رجل شهوة ، وكان مريئاً العقيدة ، متعلِّقاً في نزعة المياسية ، محوراً حتى الله ، جباناً ، متبجحاً ، شديد التعصب لقومه .
- ٥ - أوجه : للفرزدق ديوان شعر فيه مدح ، ورثاء ، وفخر ، وهجاء ، ووصف ، وعرن .
- ٦ - الفرزدق شاعر النضال السياسي : كانت نزعة نزعة قومية ، ثم نزعة مصرية . وفي سياسة بني أمية كان منكسراً . ومدحه صورة لنزعة الجاهلية ويثبته الأموية ونفسه الخاصة .
- ٧ - الفرزدق شاعر النضال الأدبي :
- ٨ - الفخر : الفرزدق في فخره وسبق الآفاق ، شديد اللهجة ، طويل المناس ، قوي العبارة ، يضطرب في ميدان قلأ يتبدل .
- ٩ الفجاء : الفجاء عنده تعبير وتحقير .
- ١٠ الفرزدق شاعر الوصف والفول : هو من أربع الموصافين في العهد الأموي ، ووصفه يصطح بمسمة القصص ، ويمتاز بالدقة . وحسن التصوير ، والبرة البتكرة . أما غزله مشهوراً في قبح

١ تاريخه :

- ١ - مولده ونشأته : أبو هراس هَمَّام بن غالب ، بن صعصعة ، الملقَّب بالفرزدق ، ولد بالبصرة نحو ٦٤١ م / ٢٠ هـ . من أب ذي وجاهة وكرم يتبعي الى مجاشع بن دارم من تميم . وكان أجداده من أشرف بيوت تميم ، ومن ذوي المآثر الحميدة بين العرب

فشأ الفرزدق في ذلك البيت مرهواً بأبحاده ، وكانت نشأته بدوية كما كانت أخلاقه بعيدة عن أخلاق أشرف العرب ، فاندفع وراء الفسق والفجور ، مزواجاً مطلقاً ، لا يثبت على حال . ومن النساء اللاتي يذكرهن في شعره النوار ، التي تزوجها مرغمة ، وكان له منها عشرة بنين وبنات ، ثم طلقها مرغماً لاستغاثتها عليه بجرير خصمه .

٢ - اضطراب وقلق : لم يكن للفرزدق ، على شهرته وكرم أصله ، كبير حظ عند أكثر ولاة العراق لقبه وخيث لسانه . وكان بنو أمية وعمائمهم قليلي الثقة به والاطمئنان الى ولائه . ففي عهد معاوية احتك الشاعر يزيد ابن أبيه ، عامل معاوية على البصرة ، قهذه زياد ، فتشرد من البصرة الى المدينة فلكه فالحسين فالحسين ففلسطين فدمشق فالزباجة ، ومدح وهجا ، ولما مات زياد هجاه الفرزدق وهجا من رثاه . ثم مدح آل الزبير ، وسمى عبدالله « خليفة » ، وما إن غلبوا على أمرهم حتى انقلب عليهم وهجاهم . وهجا الحجاج ثم استولى عليه الخوف فعاد الى الاعتذار معترفاً بحق بني أمية . ولما مات الحجاج رثاه ثم هجاه في قبره ليؤيد حق سليمان بن عبد الملك الذي كان الحجاج يأبى مبايعته . وفي عهد الوليد حج الشاعر وأنشد قصيدته في زين العابدين حنيد علي ، وأظهر عدم إخلاصه لأمية ، فحبس . ثم اتصل بسليمان بن عبد الملك ومدحه وسماه « المهدي » . ثم هجا آل المهلب — وكانوا قواداً في الدولة — ثم مدحهم . ثم عاد فهجاهم . ولما بويع هشام بن عبد الملك بالخلافة أتاه الشاعر مدحاً بعد أن هجاه أميراً . وهكذا كان متقلباً في البدأ ، متقلباً في العاطفة ، لا يطلب غير المنفعة ، وكانت حياته لذلك في اضطراب وقلق .

٣ - حرب لسانية - وفاته لم ينحصر الاضطراب في حياة الفرزدق الاجتماعية والسياسية ، بل نال أيضاً حياته الأدبية ، إذ شتت بينه وبين جرير حرب لسانية دامت نحواً من خمسين سنة كان الباعث عليها تهاجر بين جرير والبعيث المجاشعي . وقد فحش جرير القول في نساء مجاشع فاستنفض عليه الفرزدق . وكان لتلك الحرب صدى واسع في البلاد وضح بها المرید ، وانقسم الناس فرزدقياً وجريرياً ، ولم يشهد تاريخ الأدب شاعرين تهاجيا يمثل ذلك ، وقد تدفق عليه سيل من الشعر الهجائي ومن النقائص .



وتُوفي الفرزدق بالبصرة نحو سنة ٧٣٢م / ١١٤هـ. وقد بُف على السبعين.

## ٢ شخصيته :

الفرزدق رجل شهوة فاجرة صارخة استولت على قلبه فأفقدته الإخلاص في المودة حتى لأدنى الناس إليه كأولاده ، وكان هزيل العقيدة الدينية ، وإن أظهر التقوى وهجا إبليس ، متقلباً ، في نزعتة السياسية ، يتظاهر مع الأميين إذا قضت الحال ، وبضمر الولاء للعلويين ، ويتبع في كل حال ما فيه مصلحته . وكان إلى ذلك فخوراً حتى أتته والخروج عن الرصانة وجباناً متيجحاً ، كما كان شديد التعصب لقومه حربياً على إعلاء مآثرهم ، لا يرضى عن هضم حقوقهم ، دائماً متاهباً للدفاع عنهم حتى لدى ذوي السلطان ، وسلاحه في ذلك مدح لمن جازاه وهجاء لمن خالفه .

## ٣ أدبه :

للفرزدق ديوان طُبع قسم منه في باريس سنة ١٨٧٠ ، وطُبع القسم الآخر في موبخ سنة ١٩٠٠ . ثم تعددت طبعاته في مصر ولسان . ونشرت نقائض جرير والفرزدق في لندن سنة ١٩٠٥ — ١٩١٢ في مجلدين كبيرين ، ومجلد ثالث تضمن الفهارس . وأما أغراض شعر الفرزدق فهي جميع أغراض الشعر الجاهلي من مدح ورثاء ، وفخر وهجاء ، ووصف وغزل .

## ٤ — الفرزدق شاعر النضال السياسي :

كانت حياة الفرزدق مصطبغةً بصبغة انضال السياسي والأدبي ، ولهذا اصططب شعره بهذه الصبغة نفسها فكان شعر نضال سياسي ، وشعر نضال أدبي .

كانت نزعة الفرزدق في سياسته نزعة قومية ، ولم يتقبل بالسياسة العليا إلا عن طريق السياسة القومية ، ففي أول أمره كان اعتصامه بقومه اعتصاماً كلياً ، وابتعد عن البلاط الملكي في عهد معاوية وابنه يريد ومن بعدهما ممن سبق عبد الملك بن مروان . ولأن اتصل بمعاوية لما كان ذلك إلا للاحتجاج على الخليفة الذي أدخل ميراث الحثات المجاشعي ، عم الشاعر ، في بيت المال .

ولما كان عهد عبد الملك وابنه الوليد لم تتبدل سيااسة الفرزدق القومية. فهو يتصل بالبلاط في سبيل قومه، ويتكلم بلسانهم، ويسأل الوليد أن يخفف عنهم ما هم فيه من فاقة وصنك:

أَغِيثُ مُضَرٍّ، إِنَّ السَّنِينَ تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا بِحَزٍّ يَكْثِيرُ الْعَظْمَ كَاسِرَةً<sup>١</sup>  
 ويزيد على ذلك المدح لآل مروان. راجياً بقاء دولتهم، ودوام عزهم ونصرهم، ملحاً في طلب العون لقومه، مصوراً بطش الحجاج، مظهرأ خوفه منه:  
 أَخَافُ مِنَ الْحَجَّاجِ سَوْرَةَ مُخْبِرٍ ضَوَارِبَ بِالْأَعَاظِ مِنْهُ خَوَادِرَةٌ<sup>٢</sup>  
 ويجمع الى المدح الشكوى من معاملة بعض العمال.

وفي ولاية سليمان بن عبد الملك ازداد الفرزدق نشاطاً، ولاسيما وإن الحجاج قد مات، فهجاه بعد أن وثاه، مؤيداً هجائه له حق سليمان.

وفي عهد هشام بن عبد الملك شغل الفرزدق بالسياسة الاقليمية الشرقية في العراق وخراسان. وذلك في ولاية حاند القسري العيني الذي انتقم من مضر لقتل يزيد بن المهلب، وكان من ضحاياه عمرو بن يزيد الأسدي فيثور الفرزدق في سبيل مضر كلها بالعراق والشام، ويسأل الخليفة أن يتقدمهم من هذه العصية الجمانية<sup>٣</sup> ويقول:

فَقُلْ لِيْنِي مَرْوَانَ مَا بَالُ ذِمَّةٍ وَحُرْمَةٍ حِلٍّ لَيْسَ يُرْعَى دِمَائُهَا<sup>٤</sup>  
 أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَفَكُ دِمَائِنَا بِلَا جُرْمَةٍ مِنَّا بَيِّنُ أَجْتِرَائُهَا<sup>٥</sup>

١ - الفاء: ما ارتفع من الرمل. يتبدل يحل.

٢ - الحز: القطع، يريد به الضك الشديد الوطأة.

٣ - السورة السطوة والبطش المحدث: ارباص في خيروه كالأسد الخوادر ج. حادثة: استعارها الشاعر بطش الحجاج

٤ - كان آل المهلب من مشاهير الولاة افراد في الدولة الأموية. وقد عين سليمان يزيد بن المهلب والياً على البصرة والكوفة سنة ٧١٥. وبعد وفاة سليمان شغل يزيد طاعة الخليفة الجديد، فقتل سنة ٧٢٠.

٥ - انحل: بمعنى العهد واليمين ليس يرعى دمهها. أي ليس يحفظ حقها، يقول: كف بنضي هو مروان عن نكت اليهود وعدم دعي اللعة والحق

٥ - الجرمة - الذنب المحترم المنسب: أنه

أَرَى مُصْرَ الْمِصْرَيْنِ قَدْ ذَلَّ نَصْرُهَا وَلَكِنَّ قَيْسًا لَا يَذَلُّ شَأْمَهَا  
فَخَيْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَلْبُهَا بَبَائِيَّةُ حَمَقَاهُ أَنْتَ هِشَامُهَا  
أما السياسة العامة ، فقد أُلِّمَ بمذهب الأمويين السيامي ، وأعلن حقهم بالخلافة ،  
وأنها ستدوم لهم :

أُمَّا الْوَلِيدُ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْرَثَهُ بَعْمِيهِ فِيهِ مُلْكًا ثَابِتَ الدَّعْمِ  
خِلَافَةً لَمْ تَكُنْ غَضَبًا مَشُورَتُهَا أَرْسَى قَوَاعِدَهَا الرَّحْمَانُ ذُو النِّعَمِ  
كَأَنْتَ لِعُمَّانَ لَمْ يَظْلِمْ خِلَافَتَهَا فَأَنْتَ هَكَ النَّاسُ مِنْهُ أَعْظَمُ الْحَرَمِ  
وهكذا نراه يُنكر تشييعه ، على الأقل ظاهرياً .

تلك سياسة الفرزدق ، فهي متقلبة تراعي الأحوال وتسعى في الاستفادة من كل  
حال . كان رائده المصلحة الشخصية أو القومية ، كما كان التكسب مرماه في أكثر  
الأحوال . فمدح ورثى وهجا . وما نحن نتوقف عند مدحه ، تاركين الهجاء لما سيأتي  
من كلام . أما الولاء فهو قليل عند «شاعر» ، قاله في بعض ذويه ، وبعض أرباب  
السلطان كالخجاج وسليمان ؛ وهو قليل الماء والرواء لأنه لا يأتي عن عاطفة صادقة .

المدح : مدح الفرزدق خلفاء أمية ، وإذا هم أولى الناس بتراث عثمان أي بالخلافة ،  
وأحق الناس بالملك ، وإذا هم كالقصر الذي يُهتدى به ، وسيوفهم هي سيوف الله التي  
يضرب بها الأعداء ، وإذا النصر حليفهم لأنهم أصلقاء الله والله معهم ، وإذا المهلدي  
مشرق من وجوههم فهم الهادون والمهلهيون . ومدح زين العابدين علي بن الحسين بن  
علي بن أبي طالب<sup>٢</sup> بقصيدته الشهيرة التي مطلعها :

١ الدَّعْمُ ج دَعَمَةٌ وهي ما يُسَدُّ به البيت .

٢ حج هشام بن عبد الملك ، على عهد أبيه ، وطاف بالبيت ، وحاول أن يصل إلى الحجر الأسود فلم يستطع  
لشدَّة الرِّحَامِ ، فمُصَّبَ له كرسيٌّ وجلس عليه ينظر إلى الناس وحوله جماعة من أهل الشام . ومما هو كذلك أقبل زهير  
العابدي ، فطاف بالبيت ، ولمَّا انتهى إلى الحجر انشقت له الميقات ومكثته من استلامه ، فقال رجل من أشام  
لهشام : « من هذا الذي هانه الناس هذه الحية ؟ » فقال هشام : « لا أعرفه » وخاف أن يذكر اسمه فيريهم فيه . وكان  
الفرزدق حاضراً فقال : « أما أعرفه » . قال الشامي : « ومن هو يا أبا فراس ؟ » فقال بقصيدته الشهيرة في مدح زين  
العابدين ، فغضب هشام وحسبه . فهجاه الفرزدق

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءَ وَطَنَانَهُ وَالَّتِي يُعْرِفُهُ، وَالْحِلْءُ وَالْحَرَمُ  
هَذَا آيْنُ خَيْرِ عِيَادِ اللَّهِ كُلُّهُمْ، هَذَا التَّقِي، التَّقِي، الْطَاهِرُ، الْعَلَمُ

وإذا زين العابدين ابن خير عباد الله كلهم، يزيه حسن الخلق والخلق، ويجمع إلى سمو الأصل سمو الشئائل... ومدح الفرزدق أمراء أمية وعالمهم، وإذا هم جبال الأرض وبهم ثباتها، وسيوف الله سلها على أعدائه.

مدح الفرزدق صورة لنزعه الجاهلية، وبينته الأموية. ونفسيته الخاصة. أما النزعة الجاهلية فظاهرة في أسلوب القصيدة وغلاظة الألفاظ، وفي بعض المعاني والأوصاف المتقبسة من سبق من شعراء التقليد. وأما البيئة الأموية فظاهرة في الأشخاص المختلي النزعات الذين يمدحهم الشاعر، وظاهرة أيضاً في الصبغة الإسلامية التي تصطبغ بها معاني مدحه، فقد أكثر، على فساد سيرته، من المعاني والألفاظ القرآنية الدينية وفن القصص القرآني. وأما نفسية الشاعر الخاصة فهي ظاهرة في تناقضها، وهذا التناقض ظاهر في آميالك الشاعر السياسية وأمياله المعوية والأخلاقية. فهو متقلب في عاطفته وإخلاصه، وهو قدير على التلون، يساعده الخوف أو حب التكسب الذي يرافقه في أكثر الأحيان؛ وهذا التكسب، الذي يتزل إلى درجة السؤال والتذلل، يجمع إلى تغني الرجل بالكرم والإيلاء ورقة النفس. وإنما لا نكاد نلمس صدق العاطفة إلا في مدح آل البيت، أما في سواهم فيعتمد الشاعر إلى الغلو والمداهنة ليغطي ضعف العاطفة.

#### ٥ - الفرزدق شاعر النضال الأدبي :

ونعني بالنضال الأدبي ما دار خصوصاً بين الفرزدق وجريز من تهاجر ومشاتمة.

١ - الفخر: وميزة الهجاء عند الفرزدق هي الفخر أولاً. فهو يجعل قصائده الهجوي جو وسيع من الفخر والتبجح، وقد يفتتحها أحياناً بالفخر. فيأتي خصمه دائماً من عل، ولهذا قيل: «الفرزدق إذا هجا ارتفع». يرتفع على جريز خصوصاً، وكان جريز

١ البطحاء: الأرض للسطة التي في وسطها مكة. الوطأة: موضع القدم البيت. الكلمة الجلي: ما جاور الحرم من الأرض. سحر: مكة وما أحاط بها من الأرض.

من أحقر بيوت نجيم، والفرزدق من أشرفها؛ فكلما أقبل الفرزدق على هجائه، تعالى عليه، ووازن بين الشرف والحقارة، وأخذ بتعداد آياته وأجداده، مفصلاً مآثرهم في الجاهلية والإسلام، معيّراً جريراً بأصله وخلوّ قومه من رجال يشبهون دارم وبجاشع.

وأما موضوع **فخرو قومه ونفسه**، وفخره بقومه أشد منه بنفسه. فقومه في نظره أعز العرب بيتاً، وأرفعهم شرفاً، وأوسعهم خيراً وكرماً؛ هم ذوو العقول التي توارى الجبال، والثبات الذي لا يززع...

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّهْلَ سَيِّ لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ  
بَيْتًا بَاهُ لَنَا الْعَلِيكَ؛ وَمَا بَيَّ حَكَمُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُقَلُّ ..  
حُلُّ الْحُلُوكِ لِيَأْسُنَا فِي أَهْبَاءِ وَالسَّيَافَاتِ إِلَى الْوَعَى تَنْسَرِكُ  
أَحْلَامُنَا تَزِنُ الْجِبَالَ زَزَاةً، وَتَخَالِفُنَا جَنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ<sup>١</sup>

وهو في نظر نفسه كريم كالبحر، شجاع كالأسد. رفيع كالبدر، يؤتم كالحية، ورث الشعر من امرئ القيس والمهلهل وطرفة والأعشى وغيرهم من كبار الشعراء:  
وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِيَ التَّوْبِخِ إِذْ مَضَوْا وَأَبُو يَزِيدَ، وَذُو الْقُرُوحِ، وَجَرُولُ<sup>٢</sup>

وإذا فخر الفرزدق اتسعت آفاقه، واشتدّت هجته، وطال نفسه، وقويت عبارته، ولكنه يضطرب في ميدان قلماً يتبدّل، ويأتي بمعاني قليلة التنوع.

٢ - الهجاء: وبعد الاعتماد على الفخر، والتقوي به، يقضّ الشاعر على حصمه بالهجاء فيوسعه تعبيراً؛ ويرمي بالدلّة، فيصوره حقيراً، سارقاً للشعر، وبصور أهله موطيناً لطمخازي، فينشر مثالبهم، ويُمحش في التّيل من أعراسهم بألفاظ الأواماش ومعائبهم. متهمكاً، مُختلقاً، كاذباً، عارضاً صوراً شتى تمثل خسارة المهجّو في نفسه

١ - سَمَكَ السَّمَاءَ: دمعها. أعز وأطول أي أعز وأطول من بيتك يا جرير.

٢ - السَّيَافَاتُ: الفروع الطويلة تُسرى نفس

٣ - أحلاماً: عقولنا. الرّاه: الوقار والثبات. بهج: أي نخرج عن الحلم والفضل.

٤ - التَّوْبِخُ: الباعة الذّلياني والباية الجعدي والباعة الثّيباني أبو يزيد المحلّ دبة بن مالك ذو

اصروح. امرؤ القيس جرول. الخطبة

وأهله وعشيرته ، لا يزرعه في قوله وازرع . ولا يحدُّ من بذاته ديس . ورمّا نال من عشيرة جرير أكثر ممّا نال من جرير نفسه . وهو في هجائه لغير جرير أقلُّ إقداً وفحشاً . وهو يُضيف الى المفاخرة والهجاء الدفاع عن تغلب قبيلة حليفه الأخطل ، فيشيد بأنّارهم ويعدّد أجدادهم في الجاهليّة والإسلام . كما يهجو قيس عيلان التي يهجوها الأخطل ويدافع عنها جرير .

وامتدّ هجاء الفرزدق الى إبليس وذلك أن الشاعر دخل يوماً المرند ، فلقى رجلاً من موالي بأهله يُقال له حُمام . ومعه زق فيه سم . فسأله الشاعر به . فقال له : « أدفعه إليك وثب لي أعراض قومي » . فقال قصيدة يهب له أعراض قومه ويهجو إبليس ، ومطلع القصيدة :

إِذَا شِئْتُ هَاجَتْنِي دِيَارُ مُحِيلَةٍ . وَمَرَبِطُ أَفْلَاءِ أَسَامَ خِيَامٍ<sup>١</sup>

وتكاد تكون هذه القصيدة مع بعض أبيات أخرى غيرها للشاعر من باب التّهدد الذي لم ينظم فيه أحد غيره في هذا العهد . ولكن توبة الفرزدق هذه لم تدم طويلاً لما كان عليه من فحش وفجور .

#### ٩ الفرزدق شاعر الوصف والغزل .

١ الوصف : كان الفرزدق واسع الخيال . دقيق الملاحظة جيد القصص ، فساعده ذلك على الوصف وجعله من أبرع الوصّافين في العهد الأموي . أمّا موصوفاته فكثيرة منها ما هو متزع من البادية كالذئب ، والأسد ، وحمار الوحش ، ومنها ما هو من حياة الحاضرة كالسبعية ، والجيش ، والفؤوس في طلب الدرّة ، وما الى ذلك . ويصطبغ وصفه أحياناً بصبغة القصص الذي يُحسن الشاعر سرّده ، كما يمتاز بالتقرّب من الحيوان الممرّس والعطف عليه . ففي وصفه للذئب يظهر استعداداً لأن يُلبس ذلك الوحش من ثيابه ، وأن يقاسمه زاده :

فَلَمَّا دَنَا قُلْتُ أَذُنُ دُونَكَ إِنِّي وَإِيَّاكَ ، فِي زَادِي ، لَمُشْتَرِكَانِ

١ الدار المحيلة : التي أتى عليها أحوال أي سوت خُصرت الأفعلام . بلو وهو الشّهر إذا بلغ السّنة ونظم

فَبِتْ أَسْوَى الزَّادَ بَيْتِي وَبَيْتُهُ عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدُخَانٍ  
ووصف الشاعر يتناول المراثيات أكثر من المعنويات ، ويمتاز بالدقة ، وحسن  
التصوير ، كما يمتاز بنبرة شخصية مبتكرة ، أوجدها ما يتخلله من قصص .

٢ - الغزل . أمّا الغزل عند الفرزدق فهو غزل ماديّ حسيّ فيه غلاظة ومجون .  
وهذا المجون ظاهر في الألفاظ والمعاني . والعاطفة في هذا الغزل خشنة ، كما أنّ القصص  
الغرامي ، الذي يحاول الشاعر أن يقلّد فيه امرأ القيس وابن أبي ربيعة ، غليظ المعنى  
والمبنى ، بعيد عن فنّ الشعارين السابقين ، ولا سيما الثاني منها ، ولا عجب لطبيعة  
الفرزدق غليظة . ونفسه خشنة ، ولغته صلبة<sup>١</sup> .

\* \* \*

هذا هو الفرزدق في مدحه وهجائه وفخره ووصفه ، وهو يبدو لنا في مظهرين  
اثنين : مظهر الرجل المتكالب في تطلّب المتعة السمجية وفي نهش الأعراض ، ومظهر  
الرجل القريب الى القلب الذي يندم في سداجة ولطف ، ويظهر العطف على الحيوان  
من غير ما كلفة ولا تصنع . وإنه على كلّ حال شاعر أقرب الى البداوة منه الى  
الحضارة ، ينزع في شعره نزعة الصلاة وشدة الحرس والإيقاع ، ولم يخطئ من قال فيه  
إنه « ينحت من صخر » .

\*

## مصادر ومراجع

- خليل مردم : الفرزدق — دمشق ١٩٣١ .  
 أحمد الاسكندري : الفرزدق شاعر الفخر والهجاء — الهلال ٤٢ .  
 أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي — القاهرة ١٩٤٥ .  
 فؤاد السستاني : الفرزدق — الروائع ٣٧ بيروت ١٩٤١ .  
 جرجي زيدان : الفرزدق الهلال ١٠ . ١٦٥  
 أحمد الاسكندري : الفرزدق شاعر الفخر والهجاء — الهلال ٤٢ : ٧٢٩ .  
 شعراء الشيعة في القرن الثاني : الفرزدق — العرفان ٧ : ٢٣٣

Coussin de Perceval: Notice sur les trois poètes arabes Akhtal, Farazdak et Djérr in Journal Asiat. XIII et XIV, 1834.





## جَرِير

(٣٣ - ١١٤ هـ / ٦٥٣ - ٧٣٣ م)

٦ تاريخه .

- ١ - مولده ونشأته . وُلد بإجماعة من أب فقير ونشأ نشأة مدوية خشنة
- ٢ - في طريق المجد والشهرة : صرب في الأرض طلباً للشهرة ولذل ، وتقرب من ذوي السلطة مال حظوة ، وعندما مات الحجاج فقد جرير موته ركناً كان يعتمد عليه
- ٣ - وفاته . توفي نحو سنة ١١٤ هـ / ٧٣٣ م .

٧ أذبه : لجرير ديوان شعر فيه مدح وثناء وفخر وهجاء وغزل

٨ جرير شاعر اتصال السياسي .

تقرب من الأمويين وكان الحجاج طريقه إليهم ، وكان يحاول أن يردّ الهجاء إلى المروانية . وقد حارب آل الهيثم .

١ - للمدح . يمدح جرير للتكسب ، وهو يشمل في مدحه حتى النبيذ والذئب . ليس في مدحه نفس علي ولا مدفع شديد .

٢ - الرثاء . كان جرير في رثائه عاطفياً ، وقيفاً ، وكان صادقاً في لمعته

٩ - جرير شاعر الاتصال الأدبي .

١ - الهجاء : كان جرير ذا مقدرة عجيبة على التهكم والسخر ، وإذا صرنا نأدي نتبع العورات واحتلالها وكلامه شديد الذع والإيلام

٢ - الفخر . لم يستلغ أن يعمل فخره بآبائه موازياً لفخر المرواني لصعة أمه .

٥ جرير والفيل .

مرج في غرله أسلوب ، لجاهلن بأسلوب التمس العديين . وفي غرله رقة وموسقى لفظية

## ١ - تاريخه :

١ - مولده ونشأته : أبو حَزْرَةَ جرير بن عَطِيَّة بن حَذِيفَةَ الْمُقَبِّبَ بِالْمَخَطِيِّ ، ابن كليب اليربوعي التميمي ، وُلِدَ بِالْجَمَاةِ نَحْوَ سَنَةِ ٦٥٣ م / ٣٣ هـ مِنْ أَبٍ وَضِعَ خَامِلٌ بِخَيْلٍ ، وَنَشَأَ فِي عَشِيرَتِهِ نَشَأَةَ الْبُدُويِّ الْفَقِيرِ الْحَشَنَ الْعِيشِ ، يَرْعَى لِأَيِّهِ غَنَائِمَاتٍ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعْزَى ؛ وَكَانَ فَصِيحَ اللِّسَانِ مِنْ صَغَرِهِ ، مَطْبُوعاً عَلَى الشَّعْرِ ، فَقَالَ صَبِيّاً ، وَأَظْهَرَ حَذَّةً وَشِدَّةً عَلَى خُصُومِهِ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَمِنَ الْقَبَائِلِ الَّتِي كَانَتْ تَخَاصِمُ قَبِيلَتَهُ حَتَّى عَظُمَ أَمْرُهُ .

٢ - في طريق المجد والشهرة : وَلَمْ تَشَبَّ نِيرَانُ التَّهَاجِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفِرْزَدَقِ ، تَرَكَ الْجَمَاةَ قَاصِداً بِالصُّرَّةِ بِالْعِرَاقِ لَعَلَّهُ أَنْ يَمْكُنَهَا أَنْ تَوْصِلَهُ إِلَى مَا كَانَ يُحِبُّ مِنْ شَهْرَةٍ وَمَالٍ . وَمِنَ الْعِرَاقِ رَاحَ يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ إِلَى الْحِجَازِ فَالْعِرَاقِ فَالْبَحْرَيْنِ فَالْجَمَاةَ فَدِمَشْقَ فَالرِّصَافَةَ ، مُتَجَعِّماً ذَوِي السُّلْطَانِ ، وَاعْدَأً عَلَى الْأُمَرَاءِ ، وَقَدْ يَكُونُ أَوَّلُهُمْ يَزِيدُ ابْنَ مَعَاوِيَةَ ثُمَّ الْحِجَاجُ ثُمَّ بَشَرُ بْنُ مَرْوَانَ . وَلَقِيَ لَدَى الْحِجَاجِ حَظْوَةً كَبِيرَةً ، وَطَارَتْ مَدَامِحُهُ فِيهِ . وَقَدْ تَزَوَّجَ الشَّاعِرُ بَعْدَهُ نِسَاءً يَذْكُرُ مِنْهُنَّ ثَلَاثًا فِي شِعْرِهِ وَكَانَ لَهُ عِدَّةُ أَوْلَادٍ أَكْبَرُهُمْ « حَزْرَةُ » .

اتصل الشاعر بعبد الملك بن مروان ، وذلك أنه رأى الشعراء ينهالكون على أبواب الخليفة ، وعلم من أمر الأخطل ما هاج فيه الرغبة بمديح عبد الملك ، علّه ينال منه ما يبال غيره من المال الوفير . فأقدم يساعده الحجاج ، إلا أنه لم يستطع الدخول على عبد الملك إلا بعد جهد ، وذلك لأن الخليفة كان يرى في كل شاعر مُضْري حليفاً للزُّبَيْرِ . ولما مثل بين يدي عبد الملك أنشد قصيدته التي يقول فيها :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ<sup>١</sup>

وعرضَ بَابِنَ الزُّبَيْرِ ، فَأَجَازَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ . وَفِي مَجْلَسِ هَذَا الْخَلِيفَةِ اجْتَمَعَ بِالْأَخْطَلِ وَقَدْ انْتَصَرَ عَلَيْهِ الْأَخْطَلُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا « خَفَّ الْقَطِينُ » ... .

١ المطايا : مطبة وهي ما يركب من الدواب الرُحاح ح . راحة : وهي باطن الكف ؛ أُنْدَى العالين . : أي أكثر الناس عطاءً وجوداً .

واتصل بالوليد بن عبد الملك ولقي لديه الخطوة التي كان يلقاها عند أبيه . وفي ذلك العهد احتدم التهجي بين جرير وعدي بن الرقاع شاعر الوليد الخاص ، وسبب ذلك تقدم عدي بن الرقاع عند الوليد ثم ما كان من مضرية جرير وقحطانية عدي . وفي آخر عهد الوليد مات الحجاج ففقد جرير بموته ركنًا كان يعتمد عليه في العراق .

وعندما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة مدحه جرير فلم يصله ، وذلك أن ابن عبد العزيز كان رجلاً — على حد قول جرير — يقرب الفقراء ويباعد الشعراء ولما ترك الخلافة يزيد بن عبد الملك مدحه الشاعر كما قصد هشاماً أخاه إلى الرصافة ومدحه .

٣ وفاته : اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاة جرير ، على أنه في الأغلب توفي سنة ٧٣٣ م / ١١٤ هـ ، وذلك بعد وفاة الفرزدق بنحو أربعين يوماً ، وبعد وفاة الأخطل بنحو ثلاث وعشرين سنة .

#### ٤ أدبه :

لجرير ديوان طبعه محمد اسماعيل الصاوي سنة ١٩٣٥ بالقاهرة ، وقد اعتمد فيه على نسخة الإمام محمد بن حبيب الذي رواها عن محمد بن زياد الأعرابي عن عمارة بن ملال بن جرير ، كما اعتمد على كتاب النقاص وعلى ما ورد في كتب الأدب . أما أغراض شعر جرير فمرجعها إلى المدح والثناء ، والفخر والمجاء ، والغزل .

#### ٥ - جرير شاعر النضال السياسي :

كان جرير ذا عصبية مضرية ، وكان شعراء مضر يماثلون ابن الزبير على عبد الملك ابن مروان . ولكن هذه العصبية ما كانت تتوفر لجرير ما كان بحاجة إليه من مال . فلم يجد بُدّاً من التقرب إلى الأمويين . وكان اتصاله بالحجاج الخطوة الأولى في سبيل السياسة إذ جعله الحجاج شاعره الخاص ، ومن ثم شاعر قيس ؛ فمدح الحجاج وأشاد بسلامته في خدمة عبد الملك .

ثم اتصل بالباطل ومدح بني أمية والولاة والعالم وراثهم ، ولم يتورع عن التعريض بالأموات استرضاء لهم ، كما فعل بابن الزبير بعد موته ، عندما مدح عبد الملك ، ومدح

القيسية أعداء تغلب ، كما أنه كان يميل الى المساواة بين العرب والموالي ، ولم يحجم عن إعطاف على الموالي والفرس ، وقد مدحهم وسأهم بالعرب في الشرف .

وهو يحاول أن يرد الخلفاء الى التوازية دون اليأس ، كما يسعى في التقريب بين الخليفة وقيس ، وبين تميم والحكومة ، فيقول مخاطباً عبد العزيز بن مروان :

فَلِنْ تَمِيمًا ، فَاعْلَمَنَّ ، أَنْحُرُكُمْ      وَمِنْ خَيْرٍ مَنْ أَبْلَيْتَ عَاقِبَةً شُكْرًا  
إِذَا شِئْتُمْ هِجْتُمْ تَمِيمًا فَهَجْتُمْ      لُبُوثَ الْوَعَى يَهْصِرُونَ أَعْدَاءَكُمْ هَضْرًا<sup>١</sup>

وكان على آل المهلب مع الأمويين حين ثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك . وقد لحص أحمد الشايب سياسة جرير بقوله : « كان جرير في عصيته تميمياً قيسياً ، وكان مع الفرزدق يروعيها ، وكانت صلته بالخلفاء ترتد الى هذا الأصل القبلي ، والى أصل آخر نقعي خاص . وقد اضطر الى ذلك لحاجته ، ولاحتواء قيس عليه منذ أقبل بالحجاج ، فكان أقل منزلة من الأخطل في السياسة العليا ، وكان دون الفرزدق في زعامة تميم » .

١ المدح جرير في مدائحه لبني أمية وولاتهم وعما لم يستجد ، وتكسبه صريح . قال في مدح عبد الملك :

أَعِشْنِي ، يَا فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ،      بِسَبِّهِ مِنْكَ ، إِنَّكَ ذُو أَرْبَاحٍ<sup>٢</sup>

ونكسبه بملي عليه أساليب المدح ومعانيه . فهو يعظم شأن مدوحيه ، ويثبت لهم الحق بالخلافة ، معتدراً عن قومه لميهم الى آل الزبير ، وهو يشمل في مدحه حقلي الدنيا والدين . فيصف قوة الخلفاء ومن يعملون في ظلمهم ، ويصف سطوتهم كما يصف أعمالهم العمرانية من مثل أعمال هشام في شق الأنهر وغرس الأشجار المثمرة . وإذا انتقل الى حقلي الدين أطال القول حتى ليُحْيِلَ للقارئ أن المدح ديني أكثر مما هو مدني ،

١ . أَبْلَيْتَ : أعطيت العافية . الطالعة المعروف . يقول تميم من خير من تصنع إليهم المعروف في معرفة الجميل وشكره .

٢ . هَضْرَهُ : كسره .

٣ . السَّبِّ : المطاء : الأرباح . سهوة البذل والانشاء إليه

وحتى كأن للخلافة شأنًا دينيًا لا شأنًا مدنيًا. فنتشر في مدائحه ألقاظ الخلافة، والقرآن، والأحكام، والأمانة، والورع، والمهدي، والبركة وما الى ذلك مما يصدر عن نزعة حرير الدينية التي تتمثل في جميع أغراض شعره. فالخلفاء في شعره هم الذين اختارهم الله، وهم الذين يُنسبون الى الفرع النبيل من قريش، وهم الذين أثبتت الأيام والأحوال أهمهم أهل للخلافة والسلطان؛ وسيف الحجاج هو سيف المهدي والحق، كما أن هشام بن عبد الملك هو المهدي:

تَعَرَّضَ الْهُمُومُ لَنَا، فَقَالَتْ جَعَادَةٌ: أَيُّ مُرْتَحِلٍ تُرِيدُ؟  
فَقُلْتُ لَهَا: الْخَلِيفَةُ، غَيْرَ شَكٍّ هُوَ الْمَهْدِيُّ، وَالْحَكَمُ الرَّشِيدُ...

والمدح يطول عند جرير، مُفَصَّلًا صفات المدح، جاعلاً الكرم من أجل الصفات؛ وفي هذا المدح يتضاءل ظلُّ الشاعر فلا يفخر ولا يهجو، إنما يقف موقف المتسؤل الذي لا يتفخ في شعره المدحي نفْسَ عالٍ، ولا يعصف به اندفاع شديد.

٢. الرثاء: رثاء جرير قسبان: قسم حصص به أهل بيته كأمرائه وابنه سودة؛ وقسم حصص به بعض رجال الدولة وغيرهم كالوليد، وابنه عبد العزيز. ولما كان جرير رجلاً العاطفة الشديدة التأثر كان رثاؤه بمجمله عاطفياً، رقيقاً، يؤثر في القلب

وقد رثى الفرزدق نفسه وحاول أن يقول فيه كلمة حلوة بعدما قال فيه كلمات المرة مسين طويلة، ومما قال:

لَيْلِكَ عَنِّي الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، إِذْ تَوَى فَنَى مُصَرٍّ، فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ  
فَنَى عَاشَ بَيْنِي الْمَجْدُ يَسْعَيْنَ حِجَّةً وَكَانَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمَجْدِ يَرْتَقِي

وجرير كان صادقاً في لفظه، فكانت مرثيته شعر العاطفة المثالية، تهيمن عليه النفحة الدينية، وتتدفق فيه الذكريات التي تبعث الأسف والأسى.

#### ٤. جرير شاعر النضال الأدبي:

تألب على جرير رهط من الشعراء ذكر أسماء كثيرين منهم في حديث دار بيته وبين

الحجّاج ، وذكر أنهم هم المعتدون عليه وأنه إنما انتصر لنفسه . والسبب في ذلك طمع الشعراء ولا سيما الحاملين منهم في أن يشتروا في شعر جرير . وكان الناس ، ولا سيما الحجّاج وهشام ، يعملون على التحريش بين الشعراء المتناجين للتلهي . وقد أحزى جرير جميع من تصدّى له ما عدا اثنين هما الأخطل والفرزدق وستنقصر كلامنا على هجاء جرير لهذين الشاعرين ، ومفاعيرته لهما .

١ - الهجاء : كان لجرير مقدرة عظيمة على الهجاء . فقد اجتمع له الشعور الحاد الذي اذا احتدم يكون كالركان الحاجج ، الذي يقذف الحُمم ولا يدرك ما يقول . والى هذا الشعور ، وشدة التأثير ، وسرعة الاندفاع ، كان جرير ذا مقدرة غريبة على التهكم والسخر ، وذا بصيرة نافذة في تتبع العورات واختلاقها ، « فهو على حد قول مارون عبود — أدرى الناس بمحص الدُمن ، وتحليلها واكتشاف مضامينها ، ووصف ما بها » . وكان فياض القرعحة لا يستعصي عليه جواب ، وإذا ضرب كانت ضربته خاطفة .

أما طريقته في هجائه عموماً فهي طريقة جمعت الى أساليب خصوصه أسلوبه الخاص القائم على شدة اللدع والإيلام ، مما لم يجتمع لأحد منهم بقدر ما اجتمع له . فهو يعمد الى طريقة الفرزدق في الإفحاش والإفداع ، واستعمال كلمات الفجور والبذاءة بصراحة شنيعة ، وهو يعمد الى طريقة الفرزدق والأخطل بالتعير بالانكسارات واللذّة .

إلا أن حريراً لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه الى أسلوب خاص في اللدع يقوم بتتبع حياة المهجور وحياة ذويه ، وتعداد نقائصه والكشف عن عوراته واحدة فواحدة ، ذاكراً نقائصها ، مبيّناً كل ما من شأنه أن يجعل المهجور موضوع استحقار الناس ؛ وهو يكثر من تعداد النقائص القومية والشخصية ، الماضية والحاضرة ، ويخلق الحوادث والقصص ، ويكثر من التكرار ليثبت ما يقول في الأذهان ، ويبالغ في الزاينة والتحقيق والتشبيه بالحقير القادر من الحيوانات ، زائداً في القباحة ما تفيض به قريحته ، بمنزلة أعراض الأمهات والأخوات أشنع تمزيق مما يلذع أشد اللدع ؛ وهو يزيد على ذلك كله التهكم والسخرية ، فيجعل المهجور من المضحكات ، ويصوره تصويراً « كاريكاتورياً » يبعث على الضحك ، وهذا مما يزيد كلامه لذعاً وإليك إيضاح ذلك في هجو الفرزدق والأخطل .

هجو الفرزدق . يتشع جرير حياة الفرزدق وحياة قومه ، فليقبه بابن الفَيْن ، وذلك لأنَّ جدَّ الفرزدق كان حدَّاداً ، والعرب تُعَيِّر بالصناعات ، فيحدثه عن القُدوم والعلَّة والكير ، ويذكر له الأيام والحوادث التي لا تُشَرِّف قوم الفرزدق كخيانة بني مجاشع للزُّبير يوم الحمل ؛ ويرمي المُحصنات بما يشين . حتى إذا انتهى إلى حياة الفرزدق الشخصية شبهه بالقرء ؛ ونعى عليه خبثه وفجوره وعَبْره فسقه ودعارته ، وحذَّر الناس أن يَحِلَّ فيهم ذلك الفاسق الذي يلحقه الخزي والعار أبنا حل :

هُوَ الْرُخْسُ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، فَاحْذَرُوا      مُدَاخِلَ رِجْسٍ بِالْخَيْثَاتِ عَالِمٍ  
وَاتَّهَمَهُ بَدِيهِ فَجَعَلَهُ يَوْمَ السَّبْتِ يَهُودِيًّا وَيَوْمَ الْأَحَدِ نَصْرَانِيًّا . وَصَوَّرَهُ تَصَوُّرًا  
مُضْحَكًا كَمَا فِي قَوْلِهِ :

أَلَا إِنَّمَا كَانَ الْفَرَزْدَقُ نَعْلَبًا      صَفَا وَهُوَ فِي أَشْدَاقٍ لَيْثٍ صُبَارِمٍ<sup>١</sup>  
لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ قَامِيْقًا      وَجَاءَتْ بِوَزْوَارٍ قَصِيرٍ الْقَوَائِمِ<sup>٢</sup>

هجو الأخطل : ويتشع جرير حياة الأخطل وتاريخ قومه ، ويتشع له المجال فيه أكثر مما يتشع في الفرزدق لأنه من أصل غير أصله وعلى دين غير دينه ؛ فعيَّره بما على تغلب من أيام لقيس عيلان ، ويجعل اتعاليَّ عبداً في كلِّ مكان ، تعمد همته عن رفيع الأعمال ومكارم الأمور ، ويدح بكرة لقتلها كُلياً ، ويُعَيِّر الأخطل وقومه بالصراينة والدَّلة ، ويطعن بالصلب والقديسين ورجال الدِّين بمفضض واحتقار والأخطل في ذلك لا يستطيع أن يُجيبه بالمثل لوجوده في البلاط الإسلامي ولا للخلفاء من صلة بنبي الإسلام . ثم يعيِّر الأخطل وقومه بأكل الخنزير وشرب الخمر والسكر ، وما يتبع ذلك من عريضة وفجور ؛ ويطلق جرير في ذلك قريحته ومخيلته فيخلف ويكذب ما اتسع له المجال ويرمي الأخطل بسهام التَّهْكُم فيصُرُّ اسمه ، ويلقبه «بدويل» وهو الحمار الصغير لا يكبر ، ويقول :

أَلَيْسَ أَبُو الْأَخْطَلِ تَغْلِبًا      فَيَسِّنَ السَّغْلِبِيُّ أَبَا وَحَالًا

١ - ضحا ، صاح الصدر . لأسد الشديد الغليظ .

٢ - الوزوار : الميَّاش المجرب الذي يتلوى إذا مشى .

وَمِثْلُهُ دَاعِيًا مَارَ سَرْجِسَ (وهو قديس تنذب تكرمه وتجعله شفيعاً لها) لكي يبعد عنه الحرب :

قَالَ الْأَخْبِطُ إِذْ رَأَى رَايَاتِهِمْ : يَا مَارَ سَرْجِسَ لَا نُرِيدُ قِتَالًا

• • •

هذا هجاء جرير . وقد كان موجعاً ، مُرّاً ، كثيراً ما يشمل عدّة خصوم ويجعلهم في قَرَنٍ واحد . وكان جرير كثير الاقتراء على الأبرياء ، لا يبالي أن يقذف المَهْصَنَاتِ العفيفات ؛ وكان الى ذلك دُبْنًا ، كثيراً ما يستغفر الله من قَذْفِ المَهْصَنَاتِ ويُقَرُّ أمام الناس ببراءتهنّ ، ويعتذر ، ويدّعي أَنَّ أوليائهنّ ظلموه فجازاهم بما ظلموا . ومن أشهر قصائده الهجائية بآتيته المعروفة « بالدامغة » لأنها دمغت خصمه وقضت عليه قضاء سريعاً ، هجا بها جرير راعي الإبل وقومه وبني تميم على أثر مشاحنة بينه وبين الراعي وابنه جدل ؛ ومطلعها :

أَقْلِي اللُّؤْمَ ، عَاذِلَ ، وَالْعِتَابَا وَقُولِي ، إِنْ أَصَبْتُ : لَقَدْ أَصَابَا !

٢ الصخر : الهجاء عند جرير شديد الصلة بالفخر . فهو إذا هجا افتخر ، وجعل من الفخر وسيلة لتذليل خصمه . أما موضوع فخره فتنفسه وشاعريته ، ثم قومه ، وإسلامه . فإذا هجا الفرزدق اصطلم بأصل الفرزدق الذي هو أصله ، فكلاهما من تميم ، وهو أصل شريف . ولكن الفرع الذي كان ينتمي إليه الفرزدق كان أشرف من فرع جرير ، وهذا لم يستطع أن يجعل فخره بآبائه مولزياً لفخر الفرزدق . إلا أنه فخر ببعض أيام كانت لبني يربوع قومه ، كما أعين على الفرزدق بأيام حُدَل فيها بنو دارم قوم الفرزدق وبنو ضَبَّة أخواله

وإذا هجا الأحمق فخر بإسلامه ومُضَرَّتِهِ — وفي مُضَرِّ النُّبُوَّةِ والخلافة — :  
إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِيًّا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنُّبُوَّةَ فِينَا  
وجرير يفخر على جميع الشعراء بقوة شاعريته ، ويتغلب عليهم :

أَعَدَّ اللَّهُ لِلشُّعْرَاءِ مِنِّي صَوَاعِقَ يُخَضِّعُونَ لَهَا الرُّقَابَا

كما يفخر بقومه ، وانه في ذلك البيت الشهير :



إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو نَعِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابًا

٥ - جريير شاعر الغزل :

لم يكن عزل جريير فنّاً مستقلاً في شعره ، ولم يخرج فيه عن الأسلوب وبنعاني  
القديمة ولكنه مزج في غزله بين أسلوب الجاهليين وأسلوب المتيمين العذريين فهو  
يصف المرأة بما سبق إليه الشعراء من أوصاف ، ثم ينتقل من تلك الأوصاف الى داخل  
نفسه ليحدثنا عن لوعته وألمه وحرمانه ، وعن نزعات الفؤاد وخلقجته . وإذا هالك عالم  
من الشكوى الى الأرض والسماء .

لَوْ تَعْلَمِينَ الَّذِي نَلْقَى أَوَيْتَ لَنَا أَوْ تَسْمَعِينَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ شَكْوَانًا  
وَيُقِصُّ مِنَ الْحَزَنِ لَا يَلْقَى مِنْ يُخَفِّمُهُ :

يَا لَيْتَ ذَا الْقَلْبِ لَاقَى مَنْ يُعَلِّلُهُ أَوْ سَاقِبًا فَسَقَاهُ الْيَوْمَ سُؤْلَانًا  
مَا كُنْتُ أَوَّلَ مُشْتَاكِ أَخَا طَرْبٍ هَاحَتْ لَهُ عَدَوَاتُ النَّيْرِ أَحْزَانًا  
وسهر في ليل نومه حيران ، وبكاء . وعراك بين الموت والحياة الى غير ذلك .

وجريير رجل فني في العزل ، وفنه قائم بنوع خاص على الموسيقى اللفظية ، فهو يجمع  
الى الرقة والعذوبة أنغاماً مطربة تتصاعد من تآلف ألفاظه ، ومن حسن اختيار بحوره  
وقوافيه ، ومن تكرار الألفاظ للمقارنة أو الطباق ، أو غير ذلك :

يَلْقَى غَرِيمَكُمْ ، مِنْ غَيْرِ غُسْرَتِكُمْ ، بِالْكَدْلِ بَحْلًا ، وَبِالْإِحْسَانِ حِرْمَانًا  
رَاحُوا الْكَشْبِيَّةَ رَوْحَةً مَذْكُورَةً إِنَّ حِرْنَ حِرْنَا ، أَوْ هُدَيْنَ هُدَيْنَا  
وَرَمَوْا بَيْنَ سَوَاهِمَا عَرْضَ الْقَلَا ، إِنَّ مَثْنٍ مَثْنًا ، أَوْ حَيِّنٍ حَيِّنًا

١ - أوى له : رحمه ورق له .

٢ - علله شغله السلود المعراء .

٣ - الطرب : الحزن . ايئ . انراق

٤ - العرم : الشاش ، يريد به حب الذي يوعد باللقاء فلا مثاله . من غير عسر حكم أي من غير أن تكونوا في

عسر وعدم مقدرة على القيام بالوعد

٥ - السوهم ج سهمة وهي الصمرة . المهزولة من لياق . عرس القلا : مخلصه .

وكثيراً ما يسحر جرير، في غزله، بمتابيه أكثر مما يسحر بمعانيه:  
 يَا حَـدَا جَلُّ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ وَحَدَا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَا<sup>١</sup>  
 وَحَدَا نَفْسَاتُ مِنْ يَمَانِيَةٍ نَأْتِيكَ مِنْ قِلَى الرِّيَّانِ أَحْيَانَا<sup>٢</sup>

وهكذا كان عزل جرير غزل العاطفة الصادقة التي تتألم وتنفس في تعبير رقيق  
 لئِنْ، يزخر بالألفاظ الموسيقية العذبة. وهو غزل يخلو من البذاءة والقصاص الغرامي  
 الفاحش، نُلَمَسُ فيه نزعة الشاعر الدينية<sup>٣</sup>.

هذا هو جرير فريضة، وسيل جارف، وعاطفة دافقة، ومقدرة عظمى على  
 العبارة والوزن والقافية واللفظة. هو بحر «يعرف من بحر».



١ - الريان: جبل في بني عامر.

٢ - النفسات: نفحة وهي هبة الريح والدفعة منها. إيتانية. أي الريح التي تأتي من اليمن.

٣ - عن كتابنا «تاريخ الأدب العربي».

## مصادر ومراجع

- جميل سلطان . جرير — دمشق  
 فؤاد افرايم البستاني : جرير الزوائج ٣٩ ، ٤٠ بيروت ١٩٤٢ .  
 مارون عبود : الرؤوس بيروت ١٩٤٦ ص ٣٧ — ٥٠ .  
 ' محمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي — القاهرة ١٩٤٥ ص ٢٦١ ٢٦٤  
 أحمد الشاذلي . تاريخ النقائض في الشعر العربي — القاهرة ١٩٤٦ ص ٣٧٩ ٣٨٢ .  
 الأب انطوان صالحاني . نقائض جرير والفردق المشرق ١٠ (١٩٠٧) ص ٦٣٥ ٦٤١ —  
 والمشرق ١٣ (١٩١٠) ص ٩٦ — ١٠٠ .

A. Schaad: Djanr, in Encycl de l'Islam, t. 1, 1054

A. Schaade: Al-Farazdak in Encycl de l'Islam, t II, 64, 65.

R. Boucher: Dinvan de Farazdak, Paris, 1870

H. Lammens, Le Chantre des Omïades, Paris 1895.



## الفصلُ الثامنُ

### شُعراءُ الرَّجَزِ وَطائفةٌ مِنَ الشُّعراءِ الآخَرِينَ

١ - تطوُّرُ الرَّجَزِ: تطوُّرُ الرَّجَزِ في العهدِ الأمويِّ قُطِّعت به قصائدُ المديح والوصفِ والمجاءِ في إسهابٍ وتطويلٍ وفي عنايةٍ وصناعةٍ. وقد امتارَ بتعلُّقه باللفظِ التادرُ وجرَّبه على سَنَنِ الحَوْشِيَّةِ والإعرابِ.

٢ أشهرُ الرُّجَّازِينَ المَجَّاجُ واسمه رُوَّة

نشأ رُوَّةً مع أبيه في البادية. وصحبَ الجيوشَ العارِنةَ وبلغَ الحدَّ، وقد توفِّي سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٧ م له ديوانٌ في الرَّجَزِ أكثرُه في المديح. كان رُوَّةً إماماً في اللغةِ وأراسيره حافلةٌ بالعربِ والحوشيِّ.

#### ١ تطوُّرُ الرَّجَزِ:

لقد نشأ في هذا العصر تحديدُ وزنيِّ في الشعرِ وذلك أن بعضَ أربابه عمدوا إلى الرَّجَزِ، ونظَّموا فيه اقصاصاً بطوَّالٍ بعد أن كان الشعراءُ - قبلَ هذا العهدِ - يعدُّون إليه أرنحالاً، في مناسباتٍ عارِضةٍ. وأحداثٍ طارئةٍ، ننظمُ أبياتٍ قليلةً، وكانت المناسباتُ حداثةً أو مُسرىً أو تدليجاً أو ما إلى ذلك، مما يساعدُ على عملٍ أو بناءٍ أو حربٍ أو غارةٍ. وقد تطوُّرَ الرَّجَزُ في العهدِ الأمويِّ فقام من قَظَمَ فيه قصائدَ المديح والوصفِ والهجاءِ وما إلى ذلك من مختلفِ أغراضِ الشعرِ، في إسهابٍ وتطويلٍ، وفي عنايةٍ وصناعةٍ. وقد امتارَ على كلِّ حالٍ بتعلُّقه باللفظِ التادرُ، وجرَّبه على سَنَنِ الحَوْشِيَّةِ والإعرابِ. وما زالَ يتقلَّبُ من حالٍ إلى حالٍ، وهو عاجزٌ عن النهوضِ بالحياةِ الفنيَّةِ، وبمِجازةِ ركبِ الحضارةِ، والتَّعبيرِ عن مظاهرِ المدينيَّةِ المتطوِّرةِ، حتَّى انحصَرَ أخيراً «في هذه القصاصاتِ الوضيئةِ الطويلةِ التي يعرضُ فيها الشعراءُ لما كان من خُروجِهِم لِلصَّيْدِ ويكودهم فيه، ولإعدادِهِم أنفُسَهُم له، وضريحِهِم في الأرضِ، ومطارِدَتِهِم لِلصَّيْدِ الَّذِي يلقونه، أعني أنه ظلَّ يعيشُ في شعرِ الطرديَّاتِ».

## ٢ أشهر الرجّازين :

اشتهر من الرجّاز في هذا العهد العجّاج وأبنته رُوْبَة.

أما عبدالله بن رُوْبَة بن لييد السعديّ التميميّ المعروف بالعجّاج ، فهو راجز مُجيد من الشعراء ، وُلد في الجاهليّة ثمّ أَسَم ، وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك ، ففُلج وأُقبِد وهو أوّل من رفع الرّجز ، وشبّهه بالقصيد.



## رُؤْبَة بن العجّاج

(١٤٥هـ / ٧٦٧م)

١ - تاريخه :

هو رؤبة بن العجّاج التميمي ، نشأ مع أبيه بالبادية ، ثم انتقل الى البصرة وهناك أرسله الحجاج إلى دمشق . ومن دمشق صَحِبَ الجيوش الغازية وبلغ الهند . وقد أقام في العراق مدةً من الزمن . وتُوفِّي في البادية سنة ١٤٥هـ / ٧٦٧م ، ولما مات قال الخليل : « دفننا الشعرَ واللغةَ والفصاحةَ » ، ولا عجب في ذلك إذا عرفنا ما لرؤبة من المقدرة اللغوية العجيبة التي جعلت أعيان أهل اللغة يأخذون عنه ، ويحتجّون بشعره ، ويقولون بإمامته في اللغة .

٢ - أدبه .

لرؤبة ديوان رَجَزٍ في أغراض مختلفة كالمدح والمجاء وغيرهما . وقد مدح مُسلمة بن عبد الملك ، وخالدًا القسريّ والي هشام بن عبد الملك على العراق ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومروان بن محمد آخر حلفاء بني أمية ، ومدح كذلك بعض بني العباس كالمنصور وغيره . وهجا رؤبة المهلب الأردني وغيره .

٣ - قيمة أراجيزه :

بلغ الرَّجَزُ مع رؤبة صورته المثالية فهو النمو الأخير لهذا العمل التعليمي الذي أرادته المدرسة اللغوية من جهة ، والذي استجاب له الشعراء وخاصة الرجاز من جهة أخرى . ولعل ذلك ما جعل اللغويين يوقرونه أعظم التوقير . وهو في أراجيزه دائم الفخر بمعرفته اللغوية الفريدة ، ولا سيما في ما هو من كلّ غريب . وقد حاول أبدأ أن يرضي

اللفظين فجاءهم بكلّ لفظ حوشيّ وكلّ أسلوب غير مألوف. ومن ثم فقد كانت أراجيزه متونة لتعليم اللغة وشواردها، وبجاهل نسحت من كلّ عويص مستغلق.



١ أبو العباس الأعمى (١٤٠هـ / ٧٥٧م):

هو السائب بن فروخ المكيّ. شاعر أعمى هجاء. تاصر سي أمية وهجاء آل الربير، غير مُصنّف، لأنه كان يُحسِنُ إليه. وشعره بعيد عن الإغراب تغلب فيه نزعة التكبُّس

٢ أعشى ربيعة (٨٥هـ / ٧٠٤م):

هو عبدالله بن خارجة من شيبان، كان شاعيد العصب لبي أمية، ولا مئبها المروائين مهم. وشعره فيهم صادق العاطفة. سهل الأسلوب، تصف فيه الغيرة على سلطانهم والثورة على خصومهم

٣ نايقة بني شيبان (١٢٥هـ / ٧٤٣م):

هو عبدالله بن المخارق من بني شيبان شاعر بدويّ كان يفيد إلى الشام فيمدح الخلفاء من بني أمية وينال عطاهم، وله في الوليد مدائح كثيرة.

٤ اسماعيل بن يسار (١١٠هـ / ٧٢٨م):

هو مولى بني نعيم انقطع لآل الربير. وكان شعوبياً يفرح على العرب بالعمم

٥ الفرخيّ (١٢٠هـ / ٧٣٨م):

هو عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، شاعر غزل مطبوع ينحو نحو عمر بن أبي ربيعة، وكان ماعماً باللهو والصيد. مات في السجن

٦ كثير عزة (١٠٥هـ / ٧٢٣م):

هو كثير بن عبد الرحمن الحرامعي من شعراء الحاجر العزير، أكثر في شعره من التشبيب بامرأة اسمها عزة ففرع بها. كانت آراؤه شيعية رافضية متطرقة، ومع ذلك فقد مدح بني أمية. سار في شعره على الأسلوب التقليدي.

٧ القطامي (١٣٠هـ / ٧٤٧م):

هو عُمَيْر بن شَيْثَم بن عمرو بن عبّاد. شاعر بصريّ تغلبي، اشتهر بالعز، وهو أول من لُقّب «صريع العواني» وشعره يجمع إحالة إلى السلامة والروء

٨ - معن بن أوس (٣٠هـ / ٦٥٠م):

هو معن بن أوس بن نصر العُزنيّ. له مدائح في حاجة من الصحابة. رحل إلى الشام والصرة، وكُفّ بصره في أواخر أيامه. تتحلّى في شعره شخصيّة الرفيعة المكونة من إنسانيّة وألفة هو صاحب القصيدة المعروفة بلامية العجم.

٩ أبو ميحجن الثقفيّ (٣٠هـ / ٦٥٠م):

هو عبدالله بن حبيب الثقفيّ. أسلم مع قومه بني ثيف وعد من الصحابة. كان يعاقر الحمره ويصمها في شعر حافل بالطراقة والطبيعة والشخصية.

## الباب الخامس العلوم والفنون في العهد الأموي

- ١ - العلوم الفينية احتكك العرب بالحضارات وادّانات دعاهم الى موقف جديدة في عالم الثقافة والتفكير العلمي. وقد جعلهم التدقيق في شرح القرآن الى التوسع في فهم اللغة وعلم المفردات، وكان لتبهم علما التصير واللغة الى جانب علم الحديث. اشتهر في ذلك الحسن المصري.
- ٢ - علوم اللغة : وشعر العرب بحاجة الى ضبط الاعراب والشكل والاعظام في اللغة ووضع أبو الأسود الدؤلي علم النحو. والشكل. ووضع الخليل كتاب العين
- ٣ - التاريخ : في هذا العهد عالج العرب التاريخ على نحو رواية الحديث. اشتهر في ذلك عبيد وهب بن سبه
- ٤ - التربية والتعليم : كان الأمويون يرسون أولادهم الى الدابة لأحد اللغة الأصلية عن الأعراب. وكان القرء يفقدون حقائق التدريس في اسناد
- ٥ - الطب والكيمياء : أحد العرب عن اليونان علوم الطبيعة اشتهر في الطب ابن أثال طبيب معاوية. وابن ماسرحويه الذي نقل الى العربية كتاب أهرود في الطب. وشهر العرب بعلم الكيمياء. وقد عمل على نقله من الاسكتندرية خالد بن يزيد بن معاوية.
- ٦ - الفكر الفلسفي والمذهبي : نشأ في هذا العصر الصراع الفكري وطهر عدا من امروق المذاهب.
- ٧ - الموسيقى : شاع من الموسيقى والمناش واشهر فيها محمد وبن سريج
- ٨ - التصوير والمهندسة والبناء : كثيراً ما اعتمد العرب في فهم الرحلي المخطوط الهندسية. وقد درعوا في هندسة البناء

عندما فتح العرب الأمصار احتكوا بالثقافات والحضارات المختلفة. ولم يصطحبوا من الجزيرة شيئاً من العلم أو الفن أو التقليد الفكري أو التراث الثقافي، وإنما حملوا البلاد بلغة جديدة ودين جديد، ولهذا رأوا أنفسهم مضطرين الى الاعتماد على الشعوب التي سيطروا عليها، والإفادة من معطيات مدنياتهم : على أن الحياة الفكرية في عهد بني أمية لم تبلغ مبلغاً مرموقاً لقرب هذا العهد من عهد الجاهلية ولتوالي الفتن والاضطرابات



السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أنها كانت انفتاحاً، وكانت محاولة احتواء وانطلاق، وكان التعطش عند الفاتحين الى الاستيعاب والاستقطاب تعطشاً شديداً وقد وجدوا في مدارس الاسكندرية، ونصيبين، والرها، وحنديسابور ينابيع ثرة نهلوا منها فلسفة اليونان، وحكمة الهنود، وفنون الفرس. وقد عمل الحلفاء الأمويون على استفاد العلماء والفلاسفة والأطباء الى بلاطهم، وشجعوا حركة الترجمة التي بدأت في عهدهم وازدهرت في عهد بني العباس. وإليك نظرة وجيزة على ما وصلت إليه العلوم في هذه الفترة.

### أ - العلوم الدينية :

أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيه ويُفسرون آياته، ويستخرجون الشرائع منه ومن الحديث. وقد بدأت تلك الحركة في حياة الرسول وراحت تتسع وتشعب على مرّ العصور، حتى أصبح التفسير والفقه علمين من أوسع العلوم الإسلامية مادةً وأكثرها شعاباً.

وقد أفضى بالمسلمين التدقيق في شرح القرآن وتفسير آياته الى التوسع في فقه اللغة وعلم المفردات، والى جانب هذا كله نشأ علم آخر عُرف بعلم الحديث فكان القرآن والحديث بمثابة الأساس الذي قام عليه علم الفقه وأصول الدين. « وقد اشتهر في ذلك العصر من الفقهاء واخذئين الحسن البصري (١١٠هـ / ٧٢٨م) وابن شهاب الزهري (١٢٥هـ / ٧٤٢م، وعمرو بن شراحيل الشعبي (١١٠هـ / ٧٢٨م). قال فيليب حتي : «ان القانون الروماني قد أثر ولا شك، إنما بصورة مباشرة، وإما عن طريق التلمود وسواه، في بعض وحوه التشريع الإسلامي، في سورية ومصر، إنان الخلافة الأموية؛ وذلك في المعاملات ودواوين الدولة، نظير السكّة والحاتم والقراطيس المستخدمة لكتابة الوثائق وغير هذه من المافع العامة؛ وقد جرى العرب على غرار الروم في اعتبار هذه الشؤون والمنافع من المهام الخاصة بالدولة، وفي اعتبار الدولة مسؤولة عن حماية الرعية من التزوير والتزييف والتهريب، وكلّ ما يتصل بها من المخالفات. واعتبروا من واجبا كذلك إزال العقوبات الشديدة بمرتكيها. أمّا التنفيذ فقد جرى عن

طريق الوظائف الإدارية التي ورثها العرب والمستجدون في الإسلام من الشعوب التي كانت خاصة، في ما سبق، للدولة البيزنطية<sup>١</sup>.

#### ٢- علوم اللغة:

لما اختلط العرب بالعجم والموالي ظهرت في الألسنة مظاهر اللحن وضعف المندكة والطبع. فشر العرب بحاجة إلى ضبط الإعراب والشكل والإعجام. أضف إلى ذلك أن المستجدين في الإسلام أكبوا على اللغة العربية يتعلموها رغبة منهم في تقلد الوظائف الحكومية وفي مجارة الفاتحين. وقد بدأت في البصرة المحاولة الأولى لدرس اللغة العربية درساً علمياً. وقد اختلف العلماء اختلافاً شديداً في زمن وضع النحو وفي من وضعه. وذهب الكثيرون إلى أن أبا الأسود الدؤلي (٦٨٨ م / ٦٩ هـ) هو واضع علم النحو، أو هو بالحري مبدؤه. وقد انتشر في هذا العهد مذهب البصريين النحويين. ومن المرجح أيضاً أن أبا الأسود هو الذي وضع الشكل فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف، وعلامة الكسر نقطة تحت الحرف، وعلامة الضمة نقطة بين يدي الحرف، أما السكون فهو إهمال الشكل. وانتشرت تلك الطريقة. وأضاف إليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى، وزاد أهل المدينة علامة التشديد فجعلوها قوسين يُجعلان فوق المشدّد المفتوح، وتحت المكسور، وإلى يسار المضموم، وجعلوا نقطة الفتحة داخل القوس، والكسرة تحت حذيتيه، والضمة إلى شماله، ثم استغنوا عن النقطة، وقلبو القوس مع الضمة والكسرة، وأبقوه على أصله مع الفتحة، وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرّة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه هكذا ( ). ولبثت تلك الطريقة إلى العهد العباسي حيث لجئ، في ذلك كله إلى طريقة الاختزال، وكُتبت الضمة وأواصغيرة، والفتحة ألفاً والكسرة ياء، والشدة رأس شين<sup>٢</sup>، والسكون رأس خاء<sup>٣</sup>، وهززة القطع رأس عين<sup>٤</sup>، وهززة الوصل رأس صاد<sup>٥</sup>.

١ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢. ص ١٠٦ - ١٠٧. والعلادي ص ٢٦٢

٢ - مخزلة من لفظه وتشديده.

٣ - مخزلة من لفظه وتخفيفه.

٤ - مخزلة من لفظه وقطعه.

٥ - مخزلة من لفظه ووصل. طالع الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، محمد عبد المم حفافي، ص

وهالك عالم آخر من علماء البصرة تولى جمع أول مُعْجَم في اللغة العربية هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) وقد عرف معجمه بكتاب العين. «والذي يبدو أن الخليل قد اعتمد في تنسيق معجمه النظام الأبجدي السسكربتّي الذي يبدأ بالحرف الحلقّي «ع»<sup>١</sup>.

#### ٢- التاريخ :

لم يبدأ التدوين العلميّ للتاريخ إلّا في العهد العبّاسيّ، أما في العهد الأمويّ فقد عالج العرب هذا التدوين على نحو رواية الحديث، وكان الداعي إلى ذلك رغبة المسلمين في جمع أخبار النبيّ والصحابة. وحرص ذوي الأمر على قصّي أخبار من سبّهم من الملوك والحكّام. من ذلك أن معاوية استدعى عبيداً إلى دمشق ليحدثه عن موكب العرب القدماء فيضع له وكتاب للملوك وأخبار الماضين<sup>٢</sup>. وقد اشتهر إلى جانب عبيد وهب بن منبه (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) صاحب كتاب «التيجان».

#### ٣- التربية والتعليم :

ظهر فنّ التربية والتعليم منذ هذا العهد، ولم يكن قائماً على مبادئ وأصول، وإنما كان استجابة لحاجة اجتماعيّة، فكان الأمويّون يرسلون أولادهم إلى البادية للسكن من اللغة العربيّة الأصيلة ولممارسة ركوب الخيل؛ وكان الناس يطلبون من الناشئ أن يتأدّب بتأديب المروءة العربيّة، وأن ينضمّ إلى الحلقات المسجديّة إذا أرادوا له معرفة القراءة والكتابة. «وكان عمر بن الخطّاب، منذ سنة ٦٣٨، قد أرسل نفراً من هؤلاء الملمّعين (القراء) إلى جميع الأنحاء، وأمر الناس أن يجتمعوا إليهم في المساجد أيام الجمعة. وكان أول معلّم برزت شهرته في مصر قاضياً أرسله إليه عمر بن عبد العزيز سنة ٧٤٦ م؛ وكان للصحفك أن مزاحم (٧٢٣)، وهو أحد مؤدّي أولاد عبد الملك، كتب في الكوفة يعلم فيه الصبيان دون أن يستوفي منهم رسوماً»<sup>٣</sup>.

١ مليب حتي ٢ ص ١٠٥.

٢ نفس المرجع، ص ١٠٧.

٣ نفس المرجع، ص ١١٢ - ١١٣. والبيان والتبيين للجاحظ ١٧٥ : ١.

## ٥ - الطب والكيمياء :

المعالجات الطبيّة من أقدم المحاولات التي لحا إليها الإنسان لمحاربة الأمراض التي تعتريه ، وقد عمد العرب أولاً الى الأعشاب لاستخراج العقاقير منها كما عملوا الى ضروب من التأميم والعزائم ، وعندما احتكوا بالحضارات المختلفة راحوا يعبون من التراث اليوناني علوم الطبيعة ولاسيما الطب الذي كانوا يأمنون الحاجة إليه ، معتمدين في ذلك على السريان أبناء البلاد الأصليين ، ودوي الثقافات المختلفة ، وهكذا كان أطباء البلاط الأموي من هؤلاء ، فكان الطبيب النصراني ابن أقال طبيب معاوية<sup>١</sup> ، والطبيب اليوناني ليثادوق طبيب الحجاج<sup>٢</sup> ، وكان ابن ماصرجويه اليهودي العارسي من أول المترجمين لكتب الطب ، فقد نقل من السريانية الى العربية كتاب الراهب النصراني أهرن . وفي عهد عمر بن عبد العزيز نقلت معاهد الطب من الاسكندرية الى أنطاكية وحران<sup>٣</sup>.

واشتهر العرب بعلم الكيمياء وكان لهم فيه نظريات خطيرة وابتكارات جليلة ، إلا أنه كان في العهد الإسلامي بداياتاً ، وكان أول من اشتغل بقله عن مدرسة الاسكندرية خالد بن يزيد بن معاوية (٧٠٤م) الذي استدعى هيرانس الكاهن النصراني وطلب إليه أن يعلمه الطب وصناعة الكيمياء ، ثم أمر بنقل كتب تلك الصناعة من اليونانية والقبطية الى العربية . ومن الجدير بالذكر في هذا الباب أن الوليد ابن عبد الملك بنى «الماورستان» وعدداً من الدور لمرضى وجعل فيها الأطباء ، وأجرى عليهم النفقات والأرزاق وشجّع بذلك حركة العلم والبحث . وفضلاً عن ذلك فقد كان خالد بن يزيد مؤمراً بعلم النجوم أيضاً ، فأنفق المال الجليل في طلب هذا العلم واستحضار آلاته . وكان ذلك كله مقدّمة صالحة لتلك الحركة العلميّة المباركة التي بلغت أوج ازدهارها في العصور العبّاسية .

١ - عيون الأبداء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١ ، ١١٦ .

٢ - نفس المرجع ، ص ١٢١ .

٣ - نفس المرجع ، ص ١١٦ .

## ٦ - الفكر الفلسفي والمذهبي :

عندما احتكَّ العرب بغيرهم من الأمم والشعوب ذات التراث والفلسفة والأديان المختلفة نشأ لديهم الصراع التفكيرِي فظهر فيهم عددٌ من الفرق المذهبية منها فرقة المعتزلة مع واصل بن عطاء (٧٤٨م) ، ومنه القدرية والجبرية والمرجئة والخواارج ... « وكان من أبرز من تسرَّب على يدهم الأثر المسيحي والفكر اليوناني . إلى الجُرَّ الإسلاميِّ القديس يوحنا الدمشقيَّ (٦٧٥ - ٧٤٩م) . ويوحنا الدمشقيُّ هنا كان يُؤلِّف باللغة اليونانية ، مع أنه كان سوريًّا . وقد تكلم في حياته اليومية اللغة الآرامية ولا شك ، وكان إلى ذلك يحسن العربية . وقد كانت المناقشات التي نشبت بينه وبين علماء المسلمين ، حول حرية الإرادة وعقيدة القضاء والقدر ، البادرة التي استهلت عهد الحركة العقلانية في الإسلام ... ومن أطرف ما كتب محاورتان ساقها بين مسيحيٍّ ومسلم ، شدَّد فيها على ألوهية المسيح وحرية الإرادة الإنسانية<sup>١</sup> . »

## ٧ الموسيقي .

شاع في البلاد الإسلامية ، لذلك العهد ، فن الموسيقى والغناء فلما صار العرب إلى نصارة العيش ورقَّة الخاشية ، وقدم المغنون من الفرس والروم ووقعوا إلى الحجاز وصاروا موالِي للعرب عَنُوا جميعاً بالعبدان والطَّنابير والمعارف والمزامير . وسمع العرب تلحينهم للأصوات ، فدنَّحُوا عِندَها أشعارهم ، وظهر بالمدينة نشيْطُ الفارسيِّ . وطُوبِس ، وسائب ، وحاثر مولى عبد الله بن جعفر . فسمِعُوا شعر العرب ، ولحنُوهُ وأجادوا فيه . ثم أخذ عنهم مَعْبِدُ المغني وطبقته ، وابن سُرَيْج وأمثله ، وما زالت صناعة العناء تتدرَّج إلى أن اكتملت في أيام بني العبَّاس مع ابراهيم الموصلي وإسحق . وفي العصر الأمويِّ أصبحت المدينة «مدرسة لغناء ومعهداً للموسيقى»<sup>٢</sup> . وأصبحت مكَّة مركزاً موسيقياً ذا أهمية ، وأصبح الموهوبون وأصحاب الفن يتوافدون

١ - فليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ ص ١١٥ - ١١٦

٢ - راجع العقد الجديد ٣ - ٢٣٧



الجامع الأموي بدمشق - مشهد الأعمدة الرخامية

بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان الاندلاء معارته في سنة ٨٧ هـ . وقيل ٨٨ هـ . يُقال إن الوليد أتفق على عمارته خروج مسكة سبع سنين .

منها وإليها ، وأصبح البلاط في دمشق قبلة المعتن والموسيقين ، يشجعهم إقبال الخليفة يزيد الأول على الفن ، وقد أدخل الفناء والعرف الى البلاط ، ويشجعهم عطف عبد الملك على سعيد بن مسروق (٧٠٤م) خريج المدرسة الحجازية وأعظم موسيقي أنجبه العهد الأموي ، ورعاية الوليد الأول للفنون والعمارة ، وقد استدعى الى عاصمته ابن سُرَيْج (٧٢٤م) ومعبد (٧٤٣م) . وكان الوليد الثاني يُحسن العرف على العود وينظم الأغاني .

#### ٨- التصوير والهندسة والبناء :

وعالج العرب التصوير ، ومن أقدم ما بقي من ذلك رسوم مختلفة على جدران قُصَيْر

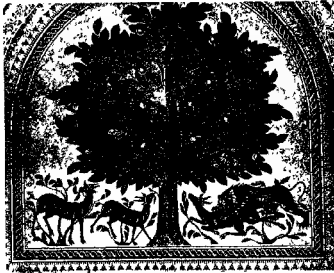


محبة قصر هشام في أريحا.

عَمْرَة ، وهو قصر في شرقي الأردن بناه الوليد الأول ، وكشفت الحفريات الحديثة في خربة المفجر قرب أريحا عن قصر شتويٍّ للأمويين على جدرانهِ رسوم إنسانية وحيوانية . وكثيراً ما اعتمد العرب في فهم الزخرفي الحطوط الهندسية التي ابتكروا منها علماً من الزخارف الرائعة التي لا تزال إلى اليوم مثار الإعجاب العالمي ، وعالجوا هندسة البناء وامتاز بناؤهم بالأعمدة والمخينات والقباب وما إلى ذلك ، وقد تركوا في جميع نواحي امبراطوريتهم مساجد وقصوراً حافلة بالروعة الفنية وناطقة بالمقدرة الهندسية منها الجامع الأقصى في مدينة القدس بناه عمر بن الخطاب ، والجامع الأموي بدمشق بناه الوليد

١ هو من أعظم أمية العرب ، يبع طوبه خمس منه وحسين قداماً ، وعرضه مئة وحسين قداماً ، وهو مبني على أعمدة عظيمة من الحجر البياضي والرخام المختلف الألوان ، وفي قبة ست مئة قسبل عميقة مسلاسل من الذهب والفضة ، وأما في شهر رمضان فكان يشعل فيه اثنا عشر ألف قنديل . وفيه نوبة محارب لأصحاب المذابح الأربعة . وفيه خمسة وسبعون مؤذناً يؤذنون في مساوئه الثلاث قيل إنه صرف عليه ثلاثة آلاف ألف دينار

ابن عبد الملك بن مروان ، وقصر الحَيْر قرب تدمر لهُشام بن عبد الملك ، وقصر المشَقَّى بناء الوليد الثاني للهوهِ . قال فيليب حَتَّى : « لقد تحَقَّق ، في ما حَفَظهُ الأمويُّون من قصور ومساجد ، انسِجام العناصر الفنِّية العربيَّة والفارسيَّة والسُوريَّة واليونانيَّة ، وتألَّف من ذلك جميعه البادرة الأولى في الفنِّ الإسلامي »<sup>١</sup> .



شجرة وحيوانات — لسيِّداه في حَمَّام أحد قصور الأمويِّين في الأردن .

١ - تاريخ سورة ولستان ولسطس . ٢ - ص ١٣٤



## مصادر ومراجع

- فيلب حنّي : تاريخ العرب — مطّول — بيروت ١٩٥٨  
 تاريخ سورية ولبنان وفلسطين — بيروت ١٩٥٨  
 أحمد أمين : فجر الإسلام — لقاهرة ١٩٥٩  
 حرجي ريدان : تاريخ التمدّن الإسلامي ١ القاهرة ١٩٥٩ .  
 عمر أبو النصر : الحضارة الأموية العربية في دمشق بيروت ١٩٤٨ .

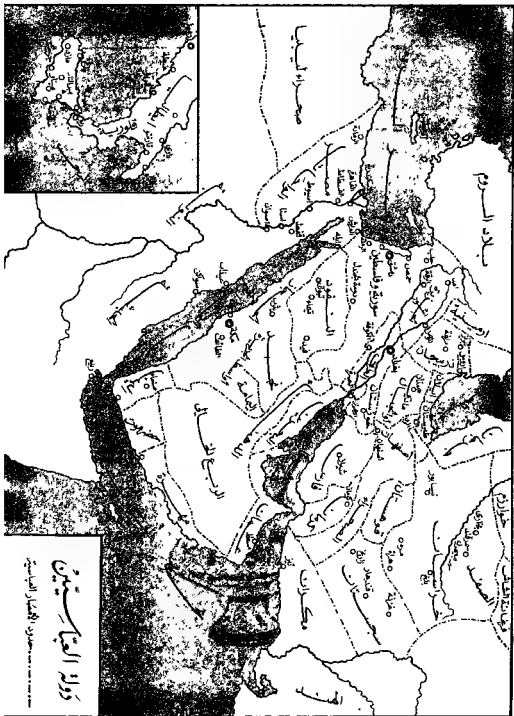
M. Hamidulah: Influence of Roman on Moslem Law Hyderabad Acedemy  
 Studies - N 6 , 1943

Julius Ruska: Arab.che Alchemisten - Heidelberg, 1924,

H. Farmer: A History of Arabian Music to the Thirteenth Century - London 1929

G. Marçais: L'Art de l'Islam, Paris 1946





# الأدب العربي المولّد

## الأدب العباسي

(١٣٢ - ١٦٥٦ هـ)

(٧٥٠ - ١٢٥٨ م)

### ١ - بيئة الأدب العباسي:

- ١ - البيئة السامية والاجتماعية.
- ٢ - البيئة الجديدة وأثرها في الأدب.

### ٢ - النثر العباسي:

- ١ - نظرة عامة.
- ٢ - الأدب - القصة.
- ٣ - المقامة - الترسّل.
- ٤ - النقد الأدبي.
- ٥ - التاريخ والجغرافية والرحلات.

### ٣ - الشعر العباسي:

- ١ - شعر الثورة التجديدية.
- ٢ - النيوكلاسيكية الشعرية.
- ٣ - الشعر في ظلّ الإمارات.
- ٤ - الحركة الفكرية والعلمية والفنية.



مشهد من بغداد (حضارة العرب)

# البَابُ الأوَّلُ بَيْتُ الْأَوْصِيَاءِ الْعَبَّاسِيِّ الفَصْلُ الأوَّلُ الْبَيْتُ السِّيَاسِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ

## أ - دولة جديدة :

- ١ - استعان العباسيون بالشيعية وانفردوا بركاب الدولة الأموية ، ونفاهوا دولة جديدة تعظم أمر الدين وتعتمد على الولي .
- ٢ - كانت الدولة العباسية دولة جميع الشعوب الإسلامية ، وقد شلت فيها كلمة العرب ور جح كلمة الأعاجم .

## ب - أمجاد جديدة :

- ١ - حكومة عظماء حادو الأكاسرة .
  - ٢ - حكم مطلق على الطريقة الفارسية .
  - ٣ - نقلت أنظمة القوس
  - ٤ - عهد جديد تميز بازدهار العمران والمعارف
- ## ج - أدوار العهد العباسي :
- ١ - دور القوة المركزية ، الخلافة ذات هيبة ومناعة ازدهار في بغداد وبلج مهبة علمية واسعة
  - ٢ - دور الحدية ، استيلاء الأتراك على زمام الأمور وتعسفهم وتجاوزهم كل حد انتشار القوي والفساد ، ثورة القرامطة .
  - ٣ - دور الإمارات المستقلة السامانية ، والحمدانية ، والميرية ، والانشيسية ، والفاطمية .

## أ - دولة جديدة :

- ١ - انهيار العرش الأموي . تضاعفت جميع القوى على ذلك عرش بني أمية ، فالخلافة في آخر عهدهم دمية غير ذات سلطان ، يقوم بأعبائها رجال قاصرون أو عاجزون أو

ماجنون، والبلاد تتمخض بشرة عنيفة يقوم بها النافقون والخانقون، والشيعية بالمرصاد تحذوهم الآمال المفقودة، والآلام التي جرّها عليهم الضغط والإرهاق، والندماء التي أريقت من قلوبهم غزيرة، والموالي بالمرصاد تحذوهم الأحقاد التي ألهمها في قلوبهم تحقير الدولة لهم، وابتزازها لأموالهم، ومخالفتها للمهود التي عقدت لهم منذ عهد النبوة، إذ لم تسوهم بالمسلمين وإن أسلموا ولم تحترم كيانتهم وتقدّر قيمتهم وإن كانوا من ذوي الحصار والعلم والمقدرة، وكان الفرس أشدّ الموالي نفعة وانتفاعاً، وقد أخذت النزعة القومية الإيرانية تتحرك تحت قناع الشيعة وسرت فكرة الثورة العلوية من العراق الى فارس وانتشرت بنوع خاص في خراسان<sup>١</sup>، فرأى بنو العباس أن الساعة أُرقت للاستيلاء على الخلافة وهم أبناء عمّ الرسول.

ب- الثورة العباسية: ونهض محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يُقيم الدعاة وبيث الثورة لقلب النظام، وقد وجد في اتفاق أهل خراسان والشيعة خير وسيلة لبلوغ مأربه، وفي التاسع من حزيران سنة ٧٤٧م اندلعت نيران الثورة، وظهر على المسرح أبو مسلم الخراساني<sup>٢</sup>، يقود الكتائب، فدخل مرو قاعدة خراسان، وتوجّه الى الكوفة ففتحت له الأبواب، وفي ٣٠ تشرين الأول سنة ٧٤٩ بويج أبو العباس ونودي به خليفة للمسلمين، وفي كانون الثاني ٧٥٠ اندحر الأمويون في موقعة الزاب<sup>٣</sup>، اندحارهم الأخير، واستسلمت البلاد لبني العباس، وراح هؤلاء يمعنون في الانتقام من الأمويين ومحو أثرهم، ولم ينبج منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي استطاع أن يؤسس في الأندلس دولة أموية ذات حضارة وازدهار، وهكذا استتب الأمر لأبي العباس الملقب بالسفاح، وأعلن للناس أن نغمته على بني أمية قائمة على إهمالهم للدين وجعلهم الخلافة سلطاناً دنيوياً.

ج- دولة جمع الشعوب الإسلامية. وهكذا قامت الدولة على ركنين جوهريين: تعظيم أمر الدين والاعتماد على الموالي، وهكذا كانت الدولة العباسية دولة جميع

١- الدكتور فليح حنّي: تاريخ العرب: ٢، ص ٣٥٤.

٢- أبو مسلم الخراساني مولد هروزي من أصل مجهول.

٣- الزاب فرع من دجلة

الشعوب الإسلامية ، ولم يكن العرب فيها سوى عنصر من العناصر الكثيرة التي احتوتها الامبراطورية ، بل كان المحل الأول لفُرس ، حتى ان بعض العباسيين قد أقصوا العرب من مراكزهم واضطروا الكثيرين الى العودة الى جزيرتهم لئلا يُفسدوا عليهم أمرهم .

## ٢ - أدوار العهد العباسي :

تطوّرت هذه الدولة تطوّراً عجبياً لكثرة ما تجمّع فيها من أمم وشعوب ، ولشدّة ما اضطرب فيها من أحداث وما عصفت فيها من تيارات فكرية ومن نزعات مذهبية وعنصرية ، وقد درج المؤرخون على تقسيم العهد العباسي الى ثلاثة أدوار وذلك بالنظر الى النفوذ المسيطر والقوة التي تهيمن وتوجّه .

أ - دور القوة المركزية : أما الدّور الأول ( ٧٥٠ - ٨٤٧ م / ١٣٢ - ٢٣٣ هـ ) فهو دور القوة المركزية التي بلغت معها الخلافة أوج عزّها وعظمتها ، وكانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتدّ ما يقرب من الهند الى تونس . وفي هذا الدّور استطاعت الخلافة أن تفرض هيبتها على الرعية ، وتقمع جميع العنّ الداخلية ، وتواجه الرّوم البيزنطيين بمجزم ومناعة ، وازدهرت بغداد أيّما ازدهار ، ولا سيما في عهد الرشيد والمأمون ، وتدفقت عليها ثروة الامبراطورية ، فعمّ الرخاء وساد البذخ في جميع مرافق الحياة .

والى ذلك فقد نشأت ، بفضل احتكاك العرب بالمديّنات العالمية ، نهضة فكرية من أوسع النهضات ، وكان الخلفاء والوزراء يمدّونها بمناهم وجاههم ، وبشجّعون أرباب العلم والأدب ، ويتناسون في إنشاء الدور لنشر الثقافة<sup>١</sup> ونقل الآثار الفارسية والهندية واليونانية الى اللغة العربية<sup>٢</sup> . وما هي إلا سنوات حتى تداولت أيدي العرب كتب أرسطو وأفلاطون وجاعة الأفلاطونية الحديثة ، وكتب جالينوس وإبقراط في الطب<sup>٣</sup> ، وكتب بطليموس وإقليدس في الفلك والرياضيات .

١ - من أشهر تلك الدور : بيت الحكمة ، الذي أنشأه المأمون في بغداد سنة ٨٣٠ ، وجعله خزّانة كتب ، ودار نقل وترجمة وعلم .

٢ - من أشهر الفلّاة حنين بن اسحاق ( ٨٠٩ - ٨٧٣ ) وابن مسويه ( ٨٥٧ ) ، وثبت بن قرة ( ٨٣٩ - ٩٠١ ) .

ب - دور الجندية . وأما الدور الثاني (٨٤٧ - ٩٤٥ م / ٢٣٣ - ٣٣٤ هـ) فهو دور الجندية الذي سيطر فيه الجند الأتراك على مقدّرات الأمة ، وذلك أن المعتصم استقدم عدداً كبيراً من الأتراك ونظمهم في جيشه<sup>١</sup>، ولما ضاقت بهم بغداد وساءت معاملاتهم للعرب والفُرس أتى المعتصم سامراً<sup>٢</sup> وبني بها داراً وأمر عسكره بمثل ذلك ، فأصبحت حاضرة عظيمة وظلّت مقرّ الخلافة حتى سنة ٩٠١ م. وبذلك انتقلت سياسة الدولة من أيدي الفُرس الى أيدي الأتراك ، وعلا شأن هؤلاء حتى كان لهم النفوذ والسيطرة .

وقد حاول المتوكّل أن يكبح جماحهم وعزم على قتل وصيف وبُغا وغيرهما من القوّاد ، وكان أن قتلوه في قصره الجعفريّ وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان . وراح من ثمّ نفوذهم يشتدّ ، فعمّت القوضى وساد الفساد .

وفي خلال هذه القوضى عظم أمر القرامطة<sup>٣</sup> الذين بعثوا القلق والاضطراب في العراق والحجاز واستولوا على هجر والأحساء والقُطيف وسائر بلاد البحرين ، وكانت لهم غزوات متتابعة الى جهة البصرة يريدون الاستيلاء عليها . وفضلاً عن ذلك فقد تعدّدت في هذه الفترة ثورات العلويّين الذين عمل بعض الخنفاء على اضطهادهم وتشريدهم وتشديد النكير عليهم .

جـ - دور الإمالات . وأما الدور الثالث (٩٤٦ - ١٢٥٨ م / ٣٣٥ - ٦٥٦ هـ) فهو دور الإمالات المستقلّة ومن أشهرها السامانية . والحمدانية ، والبويهية ، والاحشيدية ، والفاطمية .

تلك أحوار الدولة العباسية التي تعاقبت في زحمة من الأمم والشعوب ، وفي زحمة الأحداث والمذنبات ، حتى كان أخيراً دور السلاجقة (١٠٥٥ - ١٢٥٨) الى أن

١ - يروي أنه كان في جيش المعتصم ثمانية عشر ألف جندي من الأتراك

٢ - هي «سرس رأى» تقع على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد . (طالع الطبري ٣ ، ص ١١٧٩ ولتتصّل ١٩٣٩ ، ص ١٨١ وما تبعها .

٣ - انقراضه حجة من شذاذ العرب والأباجيد تنظّموا على أساس شيوعي منسحق في بلاد « بين النهرين » أسفل بعد حرب التّرج (مد ٨٧٧) .



هاجم هؤلاء حفيد جنكيز خان أسوار بغداد واحتلها سنة ١٢٥٨ م ، ورفع فوقها العلم المغولي ، وبذلك انتهت دولة بني العباس .

إلا أن هذه الأدوار المختلفة لا تمثل أطوار الأدب . قال بلاشير : « إنه لمن الشطط أن نطلق لقب العباسيين على دور مؤلف من خمسة قرون حيث ظهرت فيها آثار أدبية من صفاتها البارزة الدلالة منذ القرن الرابع الهجري على وجود لامركزية واضحة في الثقافة العربية ، وأقول نجم بغداد عاصمة الخلافة العباسية . » فنيا كانت السياسة تغلب في أطوارها المتباينة كان الأدب يسير سيراً مُطَرِّداً ، تغلوه الحضارة والثقافة ، وتوجه الأحوال الاجتماعية والتقاليد العربية ، والآفاق الجديدة التي انفتحت أمامه من كل صوب .



## الفصل الثاني

### الحياة الجديدة وأثرها في الأدب

١ - ازدهرت الحضارة في العهد العباسي لتعطش العرب الى الرقي، وبسبب الاندفاع الثقافي، والمدارس، والمخارج المصري، والثروة، وتشجيع أولي الأمر، وحركة النقل والترجمة. وكان لهذه الحضارة أثر في اللغة والأدب والعلوم والفنون

٢ - الأدب العربي:

١ انصراف بين القديم والحديث: صرّح عفيف بسبب طغيان الأعاصم، وقد نحلى في البصرة والكوفة، كما تجل مع ابن القفّع والجاحظ وأبي تمام والبحري والمسي

٢ - حركة النقل وأثرها: كان لهذه الحركة أثر واضح في الأدب، إلا أنها لم تتمكن من تدويل مجرى الشعر الذي حافظ على شخصيته القديمة.

٣ اليتيم وأثرها. أوحدت الأدب الإقليمي والفرقة الشعبية، كما شجعت على التفتيد والتكسب أحياناً.

أ. عوامل الازدهار:

كان العهد العباسي أزهى عصور الحضارة العربية، وإننا لما عرضنا للعهد الأموي لمسنا في أواخره مقدمات فعلية لتلك الحضارة إذ جرى احتكاك العقل العربي بمذنيات البلاد التي امتد إليها سلطانه، وإذ بدأت حركة الترجمة تحمل الى العرب تراث الأمم والشعوب، وبدأ العربي، في وعي انتعج الجديد، بتطلع الى العلوم تطلع المشتوق الى المعرفة، الظلمان الى اكتنازه حقائقها. ولا عجب في أن تزدهر الحضارة في العهد العباسي، إذ لقيت من جهة قلوباً متعطشة الى الرقي، ومن جهة أخرى اندفاعاً ثقافياً جارفاً يحمله الى مختلف أنحاء البلاد أقبية سخية من مدارس كبيرة تنتصب في

الاسكندرية<sup>١</sup>، وجُنْدِسَابُور<sup>٢</sup>، وحرّان<sup>٣</sup>، ونصيبين<sup>٤</sup>، والرّها<sup>٥</sup>، وغيرها، منارات إشعاع تنقل مع رُسُلها مديّات الشرق القديم والفكر اليونانيّ الذي أنقلته حقائق المعرفة والحياة؛ ومن تمازج عنصري كان منه جيل جديد ذو أخلاق وعادات جديدة، وكان منه تلقيح للعقول والأقلام والأذواق؛ ومن ثروة طائلة تجلّت في القصود والملابس والأثاث؛ كما تجلّت في حياة اللهو والبذخ، وغدّتها التجارة الواسعة، والصناعة الراحرة والزراعة الغنيّة؛ ومن تشجيع بذله الخلفاء والأمراء والولاة لرجال الفكر والعلم والفنّ في غير حساب ولا اقتصاد؛ ومن حوكمة للنقل والترجمة امتدّت على أوسع نطاق وتولى أمرها جماعة من العلماء أعقد عليهم الأمراء أموالاً طائلة. وهذه الحضارة، في موكب الحياة الجديدة والأنظمة والأخلاق الجديدة، تركت أثراً عميقاً في اللغة والأدب والعلوم والفنون.

#### ٢. الصراع بين القديم والحديث:

لا غرو أن الانقلاب العباسي مع ما رافقه من طغيان العنصر الأعجمي وانتفاض الشعوبية، قد أحدث هزّة عنيفة في الكيان العربي، ولم يكن من السهل انصهار العقليّات في وقت سريع، فنشأ صراع شديد شبيه بالصراع العصبيّ الذي كان قائماً بين القبائل، وكان لهذا الصراع دويّ بعيد في المجتمعات، وقد انتقل الى صفوف العلماء والأدباء، وراح قوم منهم يكابرون العرب ويغاضونهم بمدنيّاتهم الراقية، ويهاجمون التقاليد العربيّة، والأساليب العربيّة في ثورة ونقمة، وكان على رأس هذه الحركة بشّار

١ - كانت الاسكندرية ملتقى الفلسفة الفرية والشرقية شاعت بها ومبا فلسفة الأفلاطونية الحديثة نزعها الصورية. واشتهر فيها المتحف الاسكندري الذي أسس في القرن الثالث قبل الميلاد.

٢ - حنْدِسَابُور: مدينة في خورستان أسسها الملك سابور الأول الساساني، وأُسكن فيها الشعوب اليونانية التي أسمرها. اشتهرت بمعهداتها الطبيّة وكانت لغة التعليم فيه الآرامية.

٣ - حرّان: مدينة قديمة في ما بين النهرين - قاعدة ديار مصر. اشتهرت بالعلامة والعلماء وأعقدتهم ثابت بن قرة وأولاده وبناتاي. وهي مدينة السريان الوثنيين الذين عرفوا بالصاعدة.

٤ - نصيبين: مدينة في ما بين النهرين اشتهرت قديماً بمدرستها السريانية.

٥ - الرّها أو أروقة: مدينة في ما بين النهرين اشتهرت بين القرنين الثالث والخامس للميلاد بمعاهدها العلمية حتى أصبحت عاصمة الثقافة والأدب. وهي نموذج لذلك المعهد أهم مقرّ للسريان النصارى.

ابن يرد وأبونواس واستحرج الخلاف، وتجاوز الشعر إلى النثر وإلى علوم اللغة وعلوم البلاغة والنقد، وإذا هنالك تياران جارفان يعصفان بين البصرة والكوفة، «فالكوفة العربية أكثر شغلاً بالشعر العربي وإن لم تُحرم من آثار الفكر الأجني، والبصرة التي تختلط فيها الأجناس أقلّ نصيباً من الشعر وأكثر حظاً من التراث الأجني... كان علم أهل الكوفة يمثل الاتجاه العربي، والدُّوق العربي، والمزاج العربي، وعلم أهل البصرة يغلب عليه توجيه الأجني... رفض البصريون الأصل وقبلوا القاعدة، وقل الكوفيون الأصل ورفضوا القاعدة التي لا تقبل الأصل الذي صَحَّ لديهم. فبدت هذا أول ثورة للبصرة على القديم، وهي ثورة لم تلبث أن أخذت تتطوّر بعد ذلك شيئاً فشيئاً؛ ولكنها لم تُحقّق كثيراً في ميدان الشعر. وإن أثرت كثيراً في توجيه الفكر، وفتح ميادين الجدل، وتوسيع آفاق الكلام».

ونجحت حركة التجديد في النثر مع ابن المقفع الذي تنعّ أسلوب عبد الحميد الكاتب، وأعرض عن الإبحاز العربي القديم فكراً وأسلوباً، وراح يُعالج الحقائق الاجتماعية والسياسية، وينقل إلى العرب حضارة الفكر الهندي واليوناني والفارسي. وشأ كذلك التصنيع المزخرف والتميق المضخم، إلّا أنّ العرب، وهم أحرص الناس على أساليبهم، راحوا يناهضون التيار ويحيون القديم. فقام الجاحظ وأبو تمام والبحري والمنتبي وغيرهم يجرون في الكتابة والشعر على خطّة العرب الأصيلة مع الاستفادة من عمق المدنية الجديدة وتميق الحياة العباسية.

### ٣- حركة النقل وأثرها:

لعت حركة النقل دوراً كبيراً في توجيه الأدب العباسي؛ كيف لا وقد حملت إلى العرب قوانين المنطق والعقل، وحقائق العلوم والقسمة والفنون، فشاعت في الأدب نزعة الجدل والترابط الفكري، والابتكار، وتعليل الظواهر واستنتاج الدروس الحياتية؛ ولكن هذا التأثير الذي قلب وجه النثر الفني لم يتمكّن من تبديل مجرى الشعر الذي حافظ على شخصيته القديمة ومقومات الجنسية الغالبة في أصحابه. فالفنون

الشعرية هي هي، مع وجود ترجمة كتاب «الشعر» لأرسطو بين أيدي العرب، ومع وقوف العرب على وجود فنون أخرى في الأدب اليوناني، ومع معرفة العرب لهوميروس أبي الملحمة العالمية<sup>١</sup>.

قال البيهقي: «انه وإن لم تكن من الشعر اليوناني أو كتاب «الشعر اليوناني» عناصر محققة الأثر في الشعر العربي، أو عناصر ذات أثر فيه، وجد بها بدءاً، فإن الحركة الفكرية الكبرى والنشاط الذهني البالغ اللذين انبثقا على وجود آثار الفكر اليوناني بين العرب، قد تركا آثارهما في دفع الناس إلى النظر في الشعر، واستخلاص عناصر الحسن فيه، ومقومات الجمال منه، ثم قياس شعرهم عليه. ولم تكن التقاليد الشعرية العربية في يوم من الأيام أمراً تمر به العصور مروراً سهلاً هيباً رفيعاً، وإنما كانت أبداً أسساً دواسخ، ودعائم ثابتة يراعها الشاعر ويأخذ بها. ولكنها لم يُنظر فيها في عصر من العصور السابقة مثل هذا النظر الطويل، ولم تُلمحخص هذا القحص الدقيق، ولم تُفلسف هذه الفلسفة التي فلسفتها في عصر تجدد الشعر. فقد كانت فيما قبل هذا العصر نظماً، تُستقى وشوّازت، وتجري في طبائع الشعراء، وتنتقل في أعالمهم وآثارهم، يُهدى إليها النظر في القديم نظراً معتدلاً، ويلزمها ذلك القدر من الصنعة المعتدلة التي تلزم الأمور في عهود البساطة النسبية، المشبهة للطبع، المُجارية للقطرة، أما هذا العصر فقد كان عصر تحضّر عميق، ونظر وفكر، عهد مدنية تضعف معها قوة القطرة الشعرية، وتضيق فيها آفاق الخيال، ممّا يوشك أن تُصبح معه مدنية علمية، بالقياس إلى حالة العصرين السابقين لهذا العصر. فخضع الشعر في ظلّها لما تخضع له كل فروع الحياة من نظر وفكر وقياس. وكان حظّ العقل فيه أرجح من حظّ العاطفة، وكان نصيب الصنعة فيه أكثر من نصيب الطبع... والشعر العربي قد أصاب النظر فيه كثير من الاتجاهات الفلسفية الغالبة، ولكن أثرها فيه لم يكن أثراً مباشراً، ولا أصيلاً في جوهر الشعر وقوامه ومادته، ولم يكن أثراً خالقاً، ولكنه كان منشطاً».

١ - ذكر يوسف الطيب أنه كان يوماً عند إسحاق بن الحسين، فصر بإسنان له شعره من شعره وجهه عنه، وهو يمشي ويشد شعره لهوميروس الشاعر، قال يوسف الطيب: فشهدت نعمته بنقمة صبي كنت أعرفه. فصحت به، فأجاب: وكان هذا الفتى حينئذ بن إسحاق. (أخبار الحكماء، ص ١٢٠ - نجيب الجبتي، ص ٢٤٧ - ٢٤٨).

## ٤ - البيئة وأثرها :

أ - أدب الإلحامية : الأدب العباسي ، كما لا يخفى ، قد نُسب إلى العباسيين على وجه التغليب لأنه نشأ وترعرع في ظلهم ؛ وهو في الحقيقة أدب العباسيين في بغداد ، واليوبيين في فارس ، والحمدانيين في الشام ، والفاطميين في مصر والمغرب . وإنه لمن أوضح الواضح أن الأدب كائن حي يتأثر بالعوامل السياسية والاجتماعية والطبيعية ويستجيب لها ويتلون بلونها . وإذا كانت بيئة الأدب العباسي مختلفة المظاهر ، متباينة النزعات ، فلا يخلو أن يختلف ذلك الأدب في مظاهره ونزعاته بين إقليم وآخر ، وإن لم يكن الاختلاف جوهرياً . وهكذا ظهر في العهد العباسي ما نسميه « أدب القوميات » أو قل « أدب الإلحامية » الذي تجلّت فيه آثار الشخصية الإقليمية بوضوح . ففي حلب ظهرت الخطب النبوية لكثرة الغزوات والحروب التي كان يشهدها سيف الدولة على الروم . وتحلّى الشعر الشاميّ بالجزالة والفصاحة والصفاء لقرب أهل الشام من خطط العرب واختلاطهم بأهل الحجاز واتعادهم عن عمق الثقافة الجديدة ، واجتمع في أدب أهل العراق اثر الفلسفة والاجتماع مع بعض الضعف والفساد بخبرتهم الأعاجم والمداخلة معهم . وظهرت الموشحات في الأندلس لشيوع الرخاء والثناء ولين العيش ، وظهرت المقامات وشعر التسوّك والأدب المكشوف والأسلوب المحلّى بالسجع والبديع في فارس والعراق .

ب - نزعة شعبية : والجدير بالذكر أن الأدب في هذا العهد نزع ، في قسم كبير منه ، نزعة شعبية ، فعالج العواطف العامة التي تتصل بالنفوس جميعاً ، ولم يجعل وفقاً على الخاصة وعلى الأهواء السياسية ؛ وذلك أن الصراع الشديد الذي نشأ بين الفرس والعرب ، والفرس والأتراك ، ثم استبداد هؤلاء ، ثم الانحلال الاجتماعي والتحرر الفكري ، والشراب والتوسيع على النفس في الاستمتاع به ، والموسيقى بالآلاتها وفنانيها ، وذلك اللون من الحياة المرحّة اللاهية ، ثم الفترات الطويلة التي بلغ فيها التفاوت بين الناس حدّ التناقض فكان منهم المحروم والمنعم ، والجاد والآلهي ، والمتدين والمُكجِد ، والمتفائل والمتشائم ، والحاضع والناثر . كل ذلك نقل قسماً كبيراً من الأدب إلى صفوف الشعب ، إلى الحياة الواقعية ، فكان منه الأدب الشعبي الذي نجده عند الجاحظ ، وأبي نواس وغيرهما .

جـ - نزعة تقليدية : أضف الى ذلك أن اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في قسم كبير من العهد العباسي قد حدّ من نشاط التجديد ، وذلك أن الخلفاء والقواد والنواة الذين شغلهم الحروب الداخلية والحارحية كانوا في حاجة ملحة الى الشعر البطولي الذي يشبع رغبتهم والذي يقوى على أداء المعاني الضخمة ، ولهذا فتحو أبوابهم أمام الشعراء الذين كانوا بدوياً أو ذوي نزعة بدوية كأبي تمام والبحرّي وغيرهما . وهكذا شجعوا التقليد كما شجعوا التكسب بالأدب وإخضاعه للعادة .

\*

### مصادر ومراجع

- نجيب محمد الهبيتي : تاريخ الشعر العربي القاهرة ١٩٥٠ .  
 محمود عتاوي الزهريري : الأدب في ظلّ بني بويه - القاهرة ١٩٤٩  
 فيليب حتي : تاريخ العرب مطول — الجزء الثاني — بيروت ١٩٥٣ .  
 جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي القاهرة ١٩٠٢ .  
 أحمد فريد دقاعي : عصر المأمون المجلد الأول القاهرة ١٩٢٧  
 أحمد أمين : فصحى الإسلام — القاهرة ١٩٣٨ .  
 محمد عبد المنعم خضاعي : الحياة الأدبية في العصر العباسي القاهرة ١٩٥٤ .  
 محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية — القاهرة .

## الباب الثاني النثر العباسي

### الفصل الأول نظرة عامة

واصل النثر العباسي ما استنائه من فنون وأساليب في آخر العهد الأموي، وراح ينمو في ظل الحضارة الجديدة، متخطياً الحدود التي وقف عندها الشعر؛ فظهرت فيه آثار المدنية العباسية والتفكير العباسي أكثر مما ظهرت في الشعر؛ وإذا استعرضنا أغراضه وأساليبه وقفنا على مدى ما وصل إليه من هذا القليل.

١ لقد ضعفت الخطابة في هذا العهد شيئاً فشيئاً. وذلك لضعف الدواعي إليها ولضعف القدرة عليها. ومن أكبر دواعي الخطابة روح العصية والحزبية. ففي صدر العهد العباسي ظلت أسباب الخطابة قوية لما جرى من انقلابات خطيرة وما ظهر من دعوات مذهبية حادة، وثورات اجتماعية عنيفة، ولم يكن احتلاط العرب بالأجانب بعد شديد الأثر على الألسنة؛ فكان للخطابة بسبب كل ذلك شأن يذكر، فتعددت موضوعاتها وتشعبت مناحيها. ثم أخذ ظلها يتقلص عندما استحكم الأمر لبي العباس وأصبح الفضل لل سيف والسلطان لا للسان، وعندما خبت نار الأحزاب والثورات وضعفت الفصاحة العربية، وانصرف الناس إلى الثقافة والكتابة للإقناع، واستعاضوا عن الألسنة تخطب بالأقلام تكتب وحلت محل الخطابة الرسائل الإدارية، والمنشورات الدوية، والمناظرات العلمية والأدبية؛ ولم يبق لها إلا بعض الأصداء في المساجد والجموع تبسط الموضوعات الدينية في الجمع والأعياد.



٢ - أما الكتابة فلم تعد مقصورة على الدواوين ، بل تعدتها الى وصف الحضارة الجديدة بما فيها من لهو وترف وقصور ورياض ، والى وصف النفس البشرية بما لها من نزعات وأهواء ، ونقد الكتب الأدبية وشرحها ، وبسط المسائل العلمية والدينية ، ورواية القصص والأخبار الخيالية والتاريخية ، والمفاخرات وما الى ذلك .

٣ - وتعددت فنون الكتابة في العهد العباسي فكان منها الرسائل الاخوانية في الشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف وغير ذلك ؛ ومنها التصانيف العلمية والأدبية ، ومنها المقالات ، والمناظرات ، والمهود ، والروايات القصصية ، والمقامات ...

٤ - ظهر أثر الفلسفة والعلوم في النثر العباسي فاتسع مجال التفكير ، وعُي الكتاب بربط الأسباب بالمسببات ؛ وامتدت العقول ، بتأثير النقل والترجمة ، الى وضع الكتب واتباع الأساليب التصنيفية فيها . وظهر الأثر الفارسي<sup>١</sup> والآداب الفارسية والتurf العباسي في الكتابة ، فالت الى السهولة في العبارة ، والتأنق في اللفظ ، والجلودة في الرصف . وإطالة المقدمات ، وتنويع البدء وانتهاء ، ومالت الى الغلر والإكثار من الألقاب والدعاء ، كما مالت قبل كل شيء وبعد كل شيء الى التفصيل والإطناب . — وظهر الأثر العربي أيضاً في الكتابة فكانت جزلة متينة لا تخلو من إيجاز أحياناً ، وظهر الإيجاز بنوع خاص في التوقيعات .

تلك كانت أهم ميزات النثر العباسي . أوردناها على وجه التعميم والتغليب ؛ وسنرى أن ذلك النثر سينحدر شيئاً فشيئاً في سبيل التنميق والزخرفة حتى يصبح مع الأيام مجرد صنعة .

١ - من الآثار الفارسية التي بلغت العهد العباسي كتب في صناعة المرسلات وما قد يحس في بلدنا وما قد يحسن في نهائنا

## الفصلُ الثَّانِي

### الأدب

أصبح الأدب في هذا العهد شاملاً لجميع المعارف التي يتحلّى بها الإنسان ، وأصبح الأديب خزانة للعلم والثقافة ، ولهذا اتّجه التأليف شطر الجماهير الشعرية والثريّة ، والنظريّات في الفنون والعلوم ، والأبحاث في الكتابة والنقد والتاريخ وما الى ذلك . وقد اصطبغت تلك المؤلّفات بصبغة الشمول والتنوّع في الموضوع .

### إِبْنُ الْمُقَفَّعِ

(١٠٦ - ١٤٢ هـ / ٧٢٤ - ٧٥٩ م)

١ - تاريخه :

١ - ولد ابن المقفع في جور ، وشأ فارسيّاً رزادشتيّاً .

٢ - اتّفق العربية وطار صيته في الكتابة فاستدعي الى كرمك يكتب لابن هبيرة . ثم كتب لمبى ابن علي الى أن قُتل سنة ٧٥٩ .

٢ - أدبه .

١ - كان من ذوي العقل . أشهر كتبه «كليلة ودمنة» ، «الأدب الكبير» ، «الأدب الصغير» ، «رسالة الصّحابه» .

٢ - عاش في طور انتهاز وكان فارسي انترعة ، علوي السياسة ، يدين بالإسلام ظاهراً ، ويأخذ بالنعية .

٣ - كان في رسالة الصّحابة مُصلحاً ، وقد عالّج السلطة والطائفة والقضاء والجندية وغيرها ، وكان شيعي التّزعة .

٤ - كتاب كلیلة ودمنة :

أ - حكمة في ثوب عرافة :

- ١ - حکایات وأقاصيص على أسنة البهائم والطيور تدور حول الحياة البشرية في شتى نواحيها.
- ٢ - يسود فيها العقل كما تسود الاستقامة والعدالة.

ب -

- أصل الكتاب ونقله إلى العربية.
- ١ - جمعه الفرس من الهندية ونقله ابن المقفع إلى العربية
- ٢ - هدف ابن المقفع من وراء نقله إصلاح المجتمع البشري.

ج -

مضمونه :

أدب الملوك :

- ١ - ضبط النفس ومعرفة ما، وحسن السيرة، والعهد والوعد، والحلم ولئلي والتحمل.
- ٢ - سياسة داخلية : سهر وقطنة.
- ٣ - السياسة الخارجية : ملاية وسلام.

أدب الرعية :

- ١ - طاعة وإحسان.
- ٢ - التصامن لإزاء ملك الظلم
- ٣ - الاعتصام بالصبر ولأناة.

أدب النفس :

- تقديم العقل، وضبط النفس، والصدق، والرفق والملاية، والحلم، وعدم الاسترسال إلى السماء.

أدب الصداقة :

- ١ - نوعا الصداقة تتبادل دت النفس، وتتبادل ذات اليد
- ٢ - اختيار الصديق بعناية كبيرة.

د - قيمة كلیلة ودمنة من الناحية الفكرية :

- ١ - في كلیلة ودمنة فلسفة اجتماعية أخلاقية، ودروس تشريعية، وظروب ما وراثية وعصر وعمل.
- ٢ - فلسفة حياة عملية شريفة، وفلسفة موضوعية مثالية، ونزعة تشاؤمية، ونزعة عقلية.
- ٣ - صوفية هندية، ونزعة أفلاطونية، ونزعة أرسطوطالية، ونزعة هندية شرقية.
- ٤ - فوائد تاريخية قيمة.

هـ -

الملل في كلیلة ودمنة :

- ١ - يأتي الملل في كلیلة ودمنة إطاراً أو برهاناً، أو شاهداً
- ٢ - الأمثال مسرحيات تعالج قصصاً، تبشر على أسنة البهائم والطيور.

٤ - الأدب الكبير والأدب الصغير :

- ١ - كتابا حكمة وموعظة في أدب السلطان وأدب النفس وأدب الصداقة

٢ لها قيمة فكرية وأسلوب خطائي جاف، صريح، صارم.

#### ٥ ملبوسة جديدة في الكتابة

١ - عبد ابن المقفع رأس التجديد الأسلوب في النثر.

٢ - انتقلت الكتابة معه من الرسائل الوعظية إلى الأدب الحسل

٣ - تمتاز كتابته بالسهولة، والدقة، والصلابة، واللفظ، والإمالة والمندوء في غير إسهاب

#### ٦ - تاريخه:

هو أبو محمد عبد الله روزبه<sup>١</sup> بن داؤديه المعروف بابن المقفع. وُلد بقرية حور من بلاد فارس سنة ٧٢٤ م / ١٠٦ هـ، ونشأ فارسيًا يسمى في تحصيل ثقافة الفرس، كما نشأ زرادشتيًا<sup>٢</sup> يتبع مراسم ذلك المذهب في إيمان وأمانة، وما إن شبَّ حتى انتقل إلى البصرة وحلَّ فيها بالعرب والثقافة العربية وإذا هو فارسي صميم، كما هو عربي مقيم، وإذا هنالك مزيج غريب من عقلية فارسية وعقلية عربية، ولغة فارسية ولغة عربية، وثقافة فارسية وثقافة عربية، وإذا هنالك شباب من أناقة ورفعة وإبهاء، وعقل ولا كالعقول، يجول في جميع الميادين، ويتنقل على أكتاف الأيام والسنين من القديم القديم إلى الجديد الجديد، وقلم سيال يرافق العقل الكبير، ويكتب بأسلوب عربي فارسي، في لغة سلسة، وتفكير عميق، وإذا هنالك صيت يتعالى وينشر فيستميل الأنظار والقلوب. وما هي إلا مدة وجيزة حتى استدعي ابن المقفع إلى كرمان يكتب لعمر بن هبيرة، ثم ليزيد بن عمر بن هبيرة وإلى العراق من قبل مروان الأموي.

ولما كان العهد العباسي اتصل ابن المقفع بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور، وهو وإلى على الأهواز، فأسم على يده وكتب له. وقد قُتل في عهد أبي جعفر المنصور سنة ٧٥٩ وله من العمر خمس وثلاثون سنة.

١ - معنى هذا الاسم بالفارسية «دارك».

٢ - الزرادشتية نسبة إلى زردشت (حوالي ٦٦٠ - ٥٨٣ ق.م) وهو مصلح الديانة القديمة في إيران وسُمي بالطلاقة الخوسية.

٢ - أدبه :

أ - أهم آثاره :

لاين المقفع آثارٌ عدّة عُرف منها :

١ - كَلِيلَة ودَمَة . صعاته كثيرة أشهره طبعات الألب شيخو، وخليخ البيزحي ، ودار المعروف بمصر ، ودار الأندلس ببيروت . وقد أخرجت دار المعارف الكتاب إخراجاً علمياً وفنياً ذا قيمة كبيرة ، وحاولت دار الأندلس أن تخرجه إخراجاً علمياً أيضاً فكانت المحاولة حسنة .

٢ - الأدب الصغير

٣ - الدرّة الثيمّة أو الأدب الكبير .

٤ - كتاب التاج

٥ - رسائل ابن المقفع وأشهره رسالة الصحابة .

ب نزعات عامّة رسالة الصحابة

١ - أدب إصلاح . أطلّ ابن المقفع على عصره إطلالة الحكيم الذي لا يهتم إلا للعقل وأموره . إنه أحبّ الحياة على أنها حياة ، ومال الى اللهو على أنه هو ، ولكن عى خطة العقل . قال في «الأدب الصغير» : «على العاقل أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع حاجته الى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يعضي فيها الى إخوانه وثقاته ... وساعة يحلّي فيها بين نفسه وبين لئنه مما يحلّ ويحلم ، فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخرى ، وإن استجمام القلوب وتوديعها زبدة قوة لها وفضل بلغة» . وهكذا أراد أن يكون حكيماً وأن يجعل التوازن بين النفس والحسم وسيلة من وسائل البلوغ الى الكمال الإنساني الذي نشده بكلّ جوارحه ، والذي ساء على أساس طبيعي . وهذا الكمال الذي أقام عليه شخصيته ، أراد أن يقيم عليه مجتمعه ، فوضع له كتباً شتى كان أشهرها «كَلِيلَة ودَمَة» ، و«الأدب الكبير» ، و«الأدب الصغير» ، و«رسالة الصحابة» .

٢- تشيع فارسي: والجدير بالذكر أن ابن المقفع عاش في طور انتقال من عهد بني أمية إلى عهد بني العباس، وكان فارسي التزعة. والذي نعلمه أن نعمة المسلمين الأعاجم على العنصر العربي كانت لذلك العهد شديدة كل الشدة، وأن جماعات متباينة نشأت لا يجمع فيها بينها إلا نعمتها على السلطة الحاكمة، وأن تلك الجماعات التفّت حول الشيعة المضطهدة، فاعتنق التشيع أقوام لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، وأنشروا في مختلف أنحاء الدولة، وقد أدى ذلك إلى تطور في المعتقد، وانضم إلى هذه الحركة عناصر مسيحية ويهودية، وانتقلت إدارتها من العرب إلى الموالي، فحلّ التنافر الطائفي محلّ التنافر العنصري، وأصبح التشيع مذهب المظلومين والمحرومين الثأرين على السلطة<sup>١</sup>.

٣- ثورة عقلاية: ومن ثم يتضح لنا أن شعوية ابن المقفع اتخذت طريق التشيع، فأظهر مع الموالي ميله إلى بني العباس وإن لم يكن قلبه معهم، وكان علوي السياسة، فارسي التزعة، يدين بالإسلام ظاهراً لا باطناً، ويأخذ بالثقية في ما يعمل وفي ما يقول، ويسعى لقلب وجه الحكم عن طريق العقل والفلسفة القديمة بطريقة أكليسيكية أي غيرية. وهذا كله من طلائع الحركة الشيعية التي أخذت منذ ذلك الحين وبعده بقليل تنقسم فرقاً، وتُميّز بين الباطن والظاهر، وتكبّ على الفلسفة والعلوم لتنتشي أمة جديدة ذات نظم اجتماعية وسياسية جديدة. وهكذا نفهم السبب الذي لأجله انتشرت آراء ابن المقفع في كتب رجال التشيع والإسماعيلية من مثل المنتبي، وأبي العلاء المعري، وإخوان الصفاء وغيرهم، وهكذا نفهم أيضاً السبب الخفي الذي لأجله اضطهد ابن المقفع وقُتل شر قتلة سنة ٢٧٥٩<sup>٢</sup>.

٤- رسالة الصحابة: وإن من طالع «رسالة الصحابة» وقرأ ما بين سطورها لمس

١- طالع كتابنا «تاريخ الفلسفة العربية» ١، ص ١٩٧

٢- روي عن مقتل ابن المقفع أخبار كثيرة منها أنه خرج على الخليفة للنصور عمه عبدالله بن علي مدعياً أنه أحق بالخلافة من ابن أخيه موسى إليه أبا مسلم الحارثي فكسره وشرّد جماعته وفرّ عبدالله إلى أشبه سليمان وهو إذ ذاك بالبحرة مع أخيه عيسى بن علي، فكانت الشقيقان ابن أخيهما النصور في أن يؤمّنها على عمه عبدالله، فرضي الخليفة. وكان ابن المقفع يكذب إذ ذاك لعيسى بن علي، ويقال أن عيسى أمره بكتابة الأمان لعبدالله وأنه كتبه

الروح الفارسية الشيعية مسيطرة عليها . وقد وقف فيها الكاتب موقف المصلح الذي لا تفوته شاردة ولا واردة ، المصلح الذي يُعلل أسباب الداء ويقدم الدواء ، وذلك كله في تقيّةٍ ولينٍ تحفظ ، فالسلطة مريضة ولا بُد لها من انتفاضة ، وهذه الانتفاضة لا يصرح بها ، وهي في نظر وعيه الباطن دولة جديدة قائمة على العقل الثير العادل ، يسير بها إمام عادل إلى الغاية المثلى .

ويعتانة الخليفة مريضة ، والدواء حسن الاختيار على أساس الدرس والنظر والاختبار من جهة الخليفة ، وعلى أساس الكفاية من جهة رجل البطانة . والقضاة مرضى النفوس والبصائر ، يحكمون بما لا يعلمون ، فيخلقون جوراً من القوضى ؛ والدواء أن يجمع الخليفة العلماء من فقهاءه ويضع قانوناً عاماً يجمع جميع الأحكام ، فيتمشى عليه القضاة في غير التواء . والجند مرضى القلوب والخيوب ؛ إنهم ميالون إلى اللين والزهو ، وميالون إلى قبول الرشوة ؛ والدواء تعليم الجند وتهذيبهم وإبعادهم عن لين العيش وعن الحراج ، وإعطاؤهم الرواتب والأعطيات في حينها . والجباة وعمال الحراج مرضى ؛ إنهم يظلمون وينهبون ؛ والدواء تحديد الأملاك ونشر قانون الضرائب على الناس أجمعين حتى يعرف كل إنسان ما له وما عليه ، فلا يكون عرضة لأطباع الطامعين وظلم الظالمين ...

وأخيراً يصل ابن المقفع إلى موضوع يستقيه من فكرة الشيعة ، ويقدمه في لباقة عجيبة . فالناس في حاجة إلى من يهديهم سوي السبيل ، إلى إمام يُبَيّر ، قال ابن المقفع : « وقد علمنا علماً لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ، وأنها

وأفرط في الاحتياط حتى لا يجد المصور مقدماً لإحلال بهده ، وإنه كتب في جملة فصوله « متى غدر أمير المؤمنين بعنه عبد الله من على نساؤه طواقي ، ودوابه حُسُ . وعبيده أحرار ، والمسلمون في حلٍّ من بعنه » مما غاظ المصور فقال : « وأما أحد يكينيه » هذا إلى جانب ما كان عليه ابن المقفع من قلة الإخلاص للبيعة الحليدية والدين الحليدي ، وما كان عليه من التزعة الفارسية التي تسخر من العرب في تدبير شيئا من أخبار القرمس وديانتهم ، وما ذهب إليه من كذابة « رسالة الصحابة » التي هي أشبه شيء ببرنامج ثورة موجهة إلى المصور ، ومن ترجمة كتاب « كيلة ودمته » وفيه حملة عنيفة على الطغاة ، هذا إلى جانب نوع عند ابن المقفع أوغر صدور الحاسدين ، إلى جانب أمور كثيرة أقت إلى قتل الرجل قتلاً شنيعاً .

لم يأتيها الإصلاح إلا من قبل إمامها ، وذلك لأن عدد الناس في ضَعْفَتِهِمْ وَجُهْلِهِمْ الذين لا يستغنون برأي أنفسهم ، ولا يحملون العلم ، ولا يتقدمون في الأمور . فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ، ينظرون إليهم ويسمعون منهم ؛ واعتنت خواصهم بأمر عوامهم وأقبلوا عليها بجد ونصح ومثابة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لأهل الإصلاح من خواصهم ...

وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك . فبالإمام يصلح الله أمرهم ، ويكتب أهل الطعن عليهم ، ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويبين لهم عند العامة منزلتهم ، ويجعل لهم الحجة والأيد في المقال على من تكب عن سبيل حقهم .

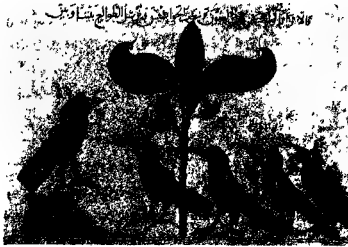
وان في هذه الآراء لنواة صالحة لما سيفصله الفارابي بطريقته الخاصة ، وان فيها ولا شك أثراً للتيارات الفكرية الإغريقية التي ستجتاح البلاد العربية في عهد المأمون وما بعده ، والتي كانت منتشرة في الشرق منذ عصور .

والذي نلاحظه من نظرتنا الوجيزة إلى أدب ابن المقفع أنه أعجمي الفكر ، أعجمي اللغة ، يكتب في العربية وهو يتجاهل ما فيها من آثار ، ويعتمد العقل دون الدين في ما يكتب فيجمع من التاريخ وأقوال الحكمة ما هو بعيد عن الدين من غير أن يناقض الدين .

#### ٢ - كلیلة ودمنة :

أ - حكمة في ثوب خرافة : كتاب « كلیلة ودمنة » ينطوي على حكايات وأقاصيص خرافية على ألسنة البهائم والطير . وهذه البهائم والطير تمثل الحياة البشرية في نواحيها المختلفة ؛ وفيها من الزعاعات والأهواء والتيارات العكسية ما نجده بين البشر في مختلف تلاوته ومنعرجاته ، وفيها أبواب الجدل والفقه والمطلق وعلم الاجتماع والسياسة ، وفيها الأخيار والأشرار والحسنون والمسيئون . ومن ثم فالكتاب هو حياة مصغرة ، هو الميدان الواسع في صفحات . وهذه الحياة المثلثة المصورة بطريقة خرافية ، تجري موزونة بميزان الحكمة ، وشرع الطبيعة المستقيمة ، وحكم العقل الذي يميز بين





ملك الغريان يعقد مؤتمراً... عن مخطوطة مزينة بالرسم الملوّنة من القرن ١٣.  
(الكتبة الأملية بديرس)

الحبر والشر، وبين الاستقامة والاعوجاج، ويسنّ الدساتير في هدوء علمي، وفي صرامة القضاء المسيطر على كل موجود.

فالكتاب إذن مبني على المثل الخرافي، وهو مصدرٌ ببعض أبواب تنطوي على مقدمات عامة في أصل وضع الكتاب وشرح أحوال برزويه الطيب وما إلى ذلك مما له علاقة بترجمة كلية ودمنة وموضوعه. وهو يسير على طريقة أساسها السؤال والجواب. أما السؤال فمن ملك هندي اسمه دبشليم لا يعرف زمن وجوده، وأما الجواب فمن فيلسوف حكيم اسمه يديا. أما دبشليم فرجل متعطش إلى معرفة الحكمة وسياسة البشر، وهو رمز لكل ملك في كل مكان وزمان، وهو يوجه الأسئلة عن طريق الاستجواب والاستعلام في كل ما يريد المؤلف أن يسطر البحث فيه. وأما يديا فرجل الاطلاع الواسع الهادئ الذي لا يخشى سلطاناً ولا يعرف الهذابة، رجل الحقيقة التي يعرفها ويريد نشرها في لين وسياسة، وهو يجيب أبدأ في رصانة وبعد نظر ومعرفة عميقة لطبائع الناس وطباع الحيوانات، ويجعل جوابه مثلاً يُفصله في باب كامل من أبواب الكتاب، ثم يُدخل في هذا المثل الأكبر أمثالا صغرى يستشهد بها أبطال القصص على

صدق ما يُقدّمون من آراء ؛ وهكذا تأتي الأمثال مركبة تركيباً وثيقاً متداخلة تداخلاً يُجبر القارئ على تتبّع الباب من أوله الى آخره بحيث لا تفوته حكمة . وقد تتبّع يبدأ هذه الطريق تمثيلاً على عادات الهنود خصوصاً والشرقيين عموماً ، ورآها الطريقة المثلّي التي تصل الى غايتها في سياسة ولين وتفكيك ، والتي لا تخرج العبد إذا قُبِحت له عناده ، ولا تسوء الظالم إذا كشفت له عن سوء ظلمه ... قال ابن المقفع : « إذا جُعِلَ الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق ، وأيسر في المعنى ، وأتق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث » .

وهكذا كان كتاب كلیلة ودمنة أبواباً أبواباً ، وفي كلّ باب أمثال ضمن أمثال . وهكذا كان كلّ باب يبتدئ بسؤال من دشبليم ملك الهند يتبعه جواب يبدأ الفيلسوف وهكذا كان في كلّ باب موضوع مطروح للبحث ، منظور إليه من مختلف نواحيه عن طريق التمثيل ، يُبين حسناته وسيئاته وشخص حيوائیة المظهر بشریة الحقيقة ، يُحقّق بعضها حكمة الموضوع فيُحسِنون ويُكافأون ، ويتهاون بعضها الآخر في التحقيق فيسيئون وينالون جزاء أفعالهم . فباب الأسد والثور يُمثّل السلطة العليا ، ويصوّر الحياة في البلاط وما يضطرب فيها من مكاييد وسعایات ، ثمّ يصوّر الملوك في سياستهم الداخلية وما يتورّها من نقص في اختيار الأعوان وفي توزيع الأعمال وتصديق الأقوال وما الى ذلك ممّا يقود السلك الى الانهيار والبلاد الى الهلاك والدمار ، وهو يُعالج كلّ داء بأقوال الحكماء كما يعالج بالتمثيل وتقديم الحجج والشواهد . وباب الحمامة المطوقة يُعالج قضية الصداقة ويبرهن أنها ممكنة بين المتبايعين في الطبيعة كالجرّذ والحمامة بشرط أن يكون هنالك إخلاص وتضحية . وهكذا سائر الأبواب .

أما اسم الكتاب فهو مستقى من البابين الأول والثاني من أبوابه حيث يدور القصص حول اثنين من بنات آوى اسم الواحد كلیلة واسم الآخر دمنة ، والبايان هما باب الأسد والثور وباب الفحص عن أمر دمنة .

ب أصل الكتاب ونقله الى العربية : اختلف المؤرّخون والقاد مدّة من الزمن في شأن واضع كتاب كلیلة ودمنة . فذهب البعض من أمثال محمد كرد علي صاحب «أمراء البیان» الى أن الكتاب من وضع ابن المقفع نفسه ، وتعه في هذا الرأي



الريان تضرب بأجنحتها لتهرب النار في موطن اليوم - عن الطولونية فسها

طائفة من المؤرخين والنقاد معتمدين ، في ما ذهبوا إليه ، على أنَّ ابن المقفع قادر أن يقوم بمثل هذا العمل ، وعلى أن في الكتاب روحاً إسلامية يَبْئَن ، وعلى أنه لا يوجد في الهندية كتاب باسم كيلة ودمنة ... وذهب البعض الآخر إلى أنَّ الكتاب مترجم بشهادة مترجمه نفسه ، ثم بشهادة التاريخ نفسه منذ عهد ابن المقفع الى يومنا هذا ، ثم بشهادة ما في النسخ القديمة للكتاب من آثار واضحة للترجمة من مثل التعقيد أحياناً ، والتركيب الأعجمي أحياناً أخرى ، ثم بشهادة الأصول الهندية التي عثر عليها العلماء وردوا إليها أكثر أبواب الكتاب . وهذا الرأي الأخير أصبح اليوم لا يقلل الرَّد . فيكون ابن المقفع مترجماً عن الفارسية مع بعض التصرف أحياناً مراعاة لمقتضى الحال .

وقد ثبت اليوم أنه من أصل هندي تُرجم إلى الفارسية ونقله ابن المقفع لما رأى فيه من قيمة اجتماعية وسياسية ، ولاسيما في مطلع العهد العباسي يوم كان السلاطين ذوي شدة وبطش ، وأراد بذلك — على ما زعم البعض — أن يقف من أي جعفر المنصور

موقف يديا من ديشليم ملك الهند. وهكذا نقله ابن المقفع من الفارسية كما نقل منها أيضاً عدداً من كتب أرسطو ومن تواريخ العرس.

والكتاب ينطوي على عالم من المعاني حتى عدّ من كنوز الحكمة المشرقية. وقد تناول موضوعات شتى لا يمكن حصرها في مجال صيغ كهذا، ولذلك لزمنا جانب التخيّر فاقصرنا على أدب الملوك، وأدب الرعية، وأدب النفس، وأدب الصداقة.

### جـ مضمونه :

١ أدب الملوك : لا يخفى أن النظام الملوكي كان شائعاً في العصور القديمة ، وأن الملك كان محور البلاد وقاعدة الأمور ، ويده السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية . وكان صلاح العباد بصلاح الملك ؛ ولهذا اهتمت الفلسفات القديمة ولاسيما الشرقية منها ، لتوجيه الناس في اختياره ، كما اهتمت لتوجيه الملك توجيهاً يضمن سلامة البلاد ، وهناءة العباد ، ولا عجب من ثمّ في أن نرى كتاب كلية ودمنة — وهو خلاصة حكمة المشرق . يخصّ الملوك بقسم وافر من تعاليمه .

ورأس صفات الملك أن يكون حسن السيرة ، ولكي يكون حسن السيرة عليه أن يملك نفسه أولاً ، ومتى ملك نفسه استطاع أن يملك العالم . ولكي يملك نفسه عليه أن يعرفها حق المعرفة ، ومن ثمّ فالعلم هو الأساس ، والعلم من عمل العقل ، والعقل أشرف ما في الانسان . ولهذا ترى في الكتاب محلاً رفيعاً للعقل ، بل ترى كلّ شيء قائماً على التزعة العقلية . حاء في كلية ودمنة : « لا يفرح عاقل بكثرة ماله ، ولا يحزن لقلة ، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله وما قدم من صالح عمله » . فعلى الملك أن يكون « العالم بالأمور وفرص الأعمال ، ومواضع الشدة واللين ، والغضب والرضى » ، والعجلة والأناة ، والنظر في يومه وغده وعواقب أفعاله » . وهكذا يستطيع أن يكون حسن السيرة وحسن السياسة ، فلا تكون سيرته « سيرة بظر وأشر وفخر وخيلاء وعُجب وضعف رأي » .

١ باب الحرد والنور .

٢ .. قال المسّي :

وموضع التلى في موضع السيف المألّى مُصيرٌ كوضع السيف في موضع الشىء .

٣ باب اليوم والفرقان . ٤ باب اليوم والعريان .

ومتى ملك العاهل نفسه كان ذا عهد ووفاء. «قبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء، وويل لمن اتكى بصحبته، فلتهم لا حميم لهم ولا حريم، ولا يحبون أحداً ولا يكرّم عليهم، إلا أن يطمعوا عنده في غناه فيقربوه عند ذلك ويكرمونه. فإذا قضوا منه حاجتهم فلا ود ولا حفاظ، ولا الاحسان يميزون به، ولا الذنب يعفون عنه، الذين إنما أمرهم الفخر والرثاء والسمعة، الذين كلّ عظيم من الذنوب يركبونه، وهو عدوهم صغيرٌ حقيرٌ هيّنٌ»<sup>١</sup>.

ومتى ملك العاهل نفسه كان حليماً عاقلاً، متأنياً عند الغضب<sup>٢</sup>، وابتعد عن التجبر والظلم<sup>٣</sup> واتّصف بجميع الصفات التي تجعله أهلاً للحكم، وتجعل الحكم في يده طريقاً الى إسعاد الرعية. وهكذا يمكنه أن يسوس الناس ويعني بشؤونهم. وعليه عند ذلك أن يعمل عنايته شطرين: شطراً للداخل، وشطراً للخارج. فتكون سياسته الداخلية سياسة سهر وفطنة، وذلك في اختيار الأعوان، وتحصين المملكة بالجند، وتحكيم الاستقامة، ورفع لواء العدل وما الى ذلك. «إنّ أعظم الأشياء ضرراً على الناس عدوّة، وعلى الولاة خاصّة، أمران: أن يحرموا صالح الأعوان والوزراء والإخوان، وأن يكون وزراءهم وإخوانهم غير ذوي مروءة ولا غناء»<sup>٤</sup>. ومن واجبات الملك أن لا يكره أحداً على عمل «لأنّ المكره لا يستطيع المبالغة في العمل»، وأن يراعي في إسناد الأعمال الكفاية والميل في من يُسندها إليهم. وأن يتفقد العمال والأعمال بنفسه حتى لا يكون العوة في أيدي الوشاة والمفسدين، وأن يستشير لأنّ الملك شورى في نظر ابن المقفع: «الملك المشاور المؤامر يُصيب في مؤامره ذوي العقول من نصحاؤه، من الظفر، ما لا يُصيبه بالجنود والزحف وكثرة المدد. فالملك يحازم يزداد بالمؤامرة والمشاورة ورأي الوزراء الحزمة، كما يزداد البحر بمواذه من الأسرار»<sup>٥</sup>. ومن واجبات الملك في سياسته الداخلية أن يُحصّن أسراره: «بصيب الملوك الظفر بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأي بتحصيل الأسرار»<sup>٦</sup>.

١ - باب الملك والظائر غرة

٢ - باب البلاد والبرحت

٣ - مثل لقمة والقييل.

٤ - باب الأسد واس آوى

٥ - باب اليوم والغرام

٦ - باب اليوم والغرام

وأما السياسة الخارجية فهي سياسة اللين والسلام : « ذو العقل يجعل القتال آخر حيله ، ويبدأ بما استطاع من رفق أو تحل ولا يجعل » ، وإذا كان وزير السلطان يأمره بالتحاربة في ما يقدر على بُغيته فيه بالمسألة فهو أشد من عدوه له ضرراً . أما السفراء بين الدول فيجب اختيارهم بكل اعتناء ، وعلى الرسول أن يكون ذا لين ومؤاناة « فإن الرسول يلين القلب إذا رفق ، ويخشن المصدر إذا خرق »<sup>١</sup>.

وإنه ليضيق بنا المجال لو أردنا تتبع كتاب « كيلة ودمنة » في موضوع السلطان الذي يستغرق القسم الأكبر من فصوله . وفي ما ذكرنا إشارة الى ما لم نذكر . وإن من يقرأ الكتاب ويتلمس فيه روح ابن المقفع يخرج بفكرة واضحة عن نزعة التشيع المتغلغلة فيه ، وعن الصلة الوثيقة ما بين العقل الهندي الإغريقي والعقل العربي التشيع .

٢ - أدب الرعية : تواجه الرعية في الملوك إحدى حالتين : إما حالة عدل واستقامة ، وإما حالة ظلم واستبداد . فعليها في الحالة الأولى أن تعيش في طاعة وإخلاص ، وعليها في الثانية أن تضم صفوفها ولا تتخاذل حتى ترد الملك عن غبه أو تحطم نير عبوديته . وعليها في كل حال أن تعصم بالصبر والأناة ، وأن لا تطعم في صحبة الملوك ، والتقرب منهم ، لأن في ذلك تعباً وعبثاً ثقيلاً .

٣ - أدب النفس : على الإنسان العاقل في هذه الحياة أن يقدم العقل في كل الأمور ، فهو فوق المال والقوة ، وعليه أن يضبط نفسه ولا يؤخر عمله ، ويكون صادقاً في قوله وفي عمله ، ويصانع ويعتمد الرفق والملاينة في أحواله كثيرة ، ويلزم جانب الحكمة ، ولا يستمرسلى الى النساء لأن المرأة في نظر واضع الكتاب ، لا تحفظ سراً ولا ودّاً ، ولا يحقد لأن « من كان له عقل كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته » .

٤ - أدب الصداقة : الصداقة من ضرورات الحياة ، وهي نوعان : صداقة قائمة على تبادل ذات النفس ، وهي المصافاة ، وصداقة قائمة على تبادل ذات اليد أي على المساعدة ، وهذه دون الأولى قيمة . وعلى العاقل أن يحسن اختيار الصديق المخلص

١ باب الأمد والثور .

٢ باب اليوم والغربان .

الذي لا يخل بالمشورة ، وليعلم أن « رأس المودة الاسترسال » . وليعلم أيضاً أن ثلاثة أشياء تزداد بها الصلة بين الأصدقاء : « المؤاكلة ، والزيارة في البيت ، ومعرفة أهل والحشَم » ، وأن « ثلاثة لا يلبث ودّهم أن يتصرّم : الخليل الذي لا يلاقي خليله ولا يكتابه ولا يرأسه » .

د - قيمة كلیلة ودمنة من الناحية الفكرية : « لكلیلة ودمنة قيمة كبيرة في عالم الفكر والتاريخ والأدب . فالكتاب كنز من كنوز الحكمة البشرية ، وفيه فلسفة اجتماعية أخلاقية واسعة النطاق ، وفيه دروس تشریعية ذات قيمة ، وفيه نظرات ماورائية جليلة وإن موجزة ، وفيه على كل حال عِلْم وعَمَل ، وعلم موجه إلى العمل ومن ثم يتضح لنا أن فلسفة الكتاب هي فلسفة الحياة العملية الشريفة ، هي فلسفة موضوعية مثالية ، ذات نزعة تشاؤمية يحوم عيها قدر غلاب لا يقهر . وفلسفة كلیلة ودمنة موسومة بسمه المذهب العقلي الذي يعمل العقل مديراً وموجهاً لكل حركة . وهكذا كانت تلك الفلسفة مزيجاً من أفلاطونية وأرسطوطالية وهندية شرقية . ونحن نمس في الكتاب انفلاتات صوفية زهدية وهي من نزعات الفلسفة الهندية .

أما النزعة الأفلاطونية في كلیلة ودمنة فظاهرة في المثالية ، وظاهرة خصوصاً في التنظيم الاجتماعي حيث يسود العدل ، وحيث يسوس الناس جماعة من أهل العقل والحكمة والمعرفة . والفضيلة عند أفلاطون وفي كلیلة ودمنة ذات صلة وثيقة بالعلم . وأما النزعة الأرسطوطالية فظاهرة في إخضاع كل شيء للعقل ، وفي تسيير الكلام على سنة التقسيم المنطقي ، والعقل عند أرسطو أشرف ما في الإنسان ، والميزة الخاصة التي تجعل الإنسان إنساناً وترفعه فوق جميع الموجودات الحسية ، وهو من ثم قائد جميع القرى ، وجميع أعمال الجسد خاضعة له . وأما النزعة الهندية الشرقية فظاهرة في التشاؤم الذي يحوم فوق كل كلام . وذلك أن الحياة ، في نظر الفلسفة الهندية ، عبودية ، وكل شيء في هذا الوجود ترهات وأباطيل ، ومن ثم دعت الفلسفة الهندية إلى الصلوف عن خيرات العالم وراحت تبحث عن طريق الإقناذ والخلاص ، فقالت بالسيطرة على النفس التي تنتهي بالسيطرة على العالم ، ودعت من ثم إلى التقشف والزهد ، بل جعلت التقشف من مبادئها الأولى ، ورمت به إلى السيطرة على مجموع مظاهر النشاط الحيوي

كما رمت الى إطلاق العقل العارف الذي يتغلب على كثافة المادة بالتقشّف فيمتدّ إدراكه الى خارج الجسم بعيداً في المسافة وبعيداً في الزمن الحاضر والمستقبل .

وفي هذه النزعة الهندية أثر صينيّ أيضاً ، وقد أثبتت الكتب الصينية بطريقة شائقة العلاقة الوثيقة بين معرفة أنفسنا ومعرفة الأشياء ، فقالت — وكف في هذا القول من صلة مع ما نعرفه من كلفة ودمّة — : « كان الملوك القدماء إذا أرادوا إظهار فضائلهم الباهرة تحت السماء حكوا أولاً بلادهم وساسوما ، وإذا أرادوا حكم بلادهم اهتموا أولاً بمنازهم ، وإذا أرادوا الاهتمام بمنازهم بدأوا بتنظيم شؤون أنفسهم ، وإذا أرادوا تنظيم شؤون أنفسهم بدأوا بتقويم قلوبهم ، وإذا أرادوا تقويم قلوبهم بدأوا بجعل تفكيرهم خالصاً . وإذا أرادوا جعل تفكيرهم خالصاً بدأوا برفع مستوى معلوماتهم الى القمة ورفع هذا المستوى الى القمة هو إدراك الأشياء ، وعندما أدركوا الأشياء بلغت معلوماتهم القمة . ولما بلغت معارفهم القمة أصبح تفكيرهم خالصاً . ولما أصبح تفكيرهم خالصاً ستقامت قلوبهم . ولما استقامت قلوبهم استطاعوا أن يُنظّموا أنفسهم ، ولما أصبحوا هم أنفسهم مطابقين للنظام استطاعوا تدير شؤون منازهم ، ولما أحسنوا تدير منازهم تمكّنوا من حكم بلادهم ، ولما استقام الحكم في بلادهم وحلوا ما تحت السماء في سلام » . والملك في الفلسفة الصينية هو نقطة الدائرة في الأمة ، ونقطة الارتكاز في قيام النظام ، فإذا كان كمالاً سارت الأمور على هينها وساد السلام ، فعليه إذن أن يعرف بني الإنسان ليعرف نفسه ويقومها ، ومن ثمّ نرى في هذه الفلسفة القديمة أن قاعدة الإنسانية هي الإنسانية نفسها ، وأن الرجل الفاضل هو قانون الأخلاق . ومن ثمّ نرى أن في الفلسفة الشرقية القديمة محلاً واسعاً للملك ، وأن فيها اهتماماً خاصاً به لأنه قاعدة النظام وركن المجتمع ، وهكذا كان كتاب كلفة ودمّة صورة صادقة لتلك النزعة الشرقية وتلك الفلسفة القديمة .

وإذا نظرنا الى الكتاب من الناحية التاريخية وحدا فيه أيضاً ثروة وغنى ؛ فهو يطلعنا على أحوال الهنود ونظرتهم الى الدنّيا والآخرة ، فيكشف لنا عن الكثير من عاداتهم ونزعاتهم ، وأحوالهم الاجتماعية كالعداوة بين البراهمة والبوذية ، وليس البراهمة للمسوح والتكفير والسجود وما الى ذلك . ويحرم اللحم والاقتيات بالفكحة ، والظرة السيئة الى المرأة ، وهو يطلعنا على عقليّة الفرس ونظرتهم الزهدية ومثلهم العليا ، كما يطلعنا على



فتوح الإسكندر وما خلقت من أساطير في الشرق ، وعلى بلاطات الملوك في العصور القديمة وما كان يجري فيها من سعايات ومكايد ، وعلى سياسة الدول الحارحية والحرب بين الملوك والأمم . وهو يطلعنا ، بطريق غير مباشرة ، على بعض أحوال الدولة العباسية وما كانت بحاجة إليه من إصلاح ، كما يطلعنا على أمور أخرى كثيرة جعلت له قيمة حقة في عالم التاريخ البشري .<sup>١</sup>

هـ - المثل في كلیلة ودمنة : وإذا رجعنا الى المثل في كلیلة ودمنة وجدناه متعدد الأنواع ، متشعب الفروع . والمثل كما لا يخفى قديم في تاريخ الشعوب ، وهو شديد الانتشار في الشرق ، وقد أصبحت الأمثال الشرقية أساس الأمثال التي وضعها إيزوب عند اليونان ، وفيدر عند الرومان ولافونتين عند الفرنسيين . والمثل قصة ذات معزى أخلاقي ، وهذا المعزى موضح عادة في بدء المثل أو في ختامه .

والمثل في كلیلة ودمنة يأتي إما كإطار لطائفة من الأمثال ، وإما كبرهان على قضية من القضايا ، وإما كشاهد على برهان . والأمثال متفاوتة في الطول ، فمنها الطويل الذي يستغرق الباب كله ، ومنها القصير الذي يقع أحياناً في بضعة أسطر ، ومنها المتوسط الطول .

وتبدو لنا أمثال كلیلة ودمنة مسرحيات صغيرة ذات مسرح طبيعي ، وذات عمل يقوم على عرض وعقدة وحل . والأشخاص حيوانات ذات صراع نفسي تعمل بحسب غرائها الحيوانية ممثلة أدوار البشر في مختلف نزعاتهم الشخصية والاجتماعية .

إلا أن العمل في الأمثال متباطئ غالباً ، تنقله الحكمة التي هي الغاية وهي الجوهر . تلك قيمة كتاب كلیلة ودمنة ، وقد كان له أثر واسع في الأدب العربي والفلسفة العربية . وعمد الشعراء الى نظمهم جملة أو في بعض أقسامه .

#### ٤ - الأدب الكبير والأدب الصغير :

الأدب الكبير والأدب الصغير كُتيبان ضمنهما ابن المقفع طائفة من الحكيم والمواعظ

١ - عن كتابها «ابن المقفع في سلسله نوابغ الفكر العربي» .

في أسلوب خطابيٍّ موجهٍ الى العاقل الذي يريد أن يحصل على مساعدة الدنيا والآخرة. وأكثر ما تدور تلك الحكم على أدب السلطان، وأدب النفس، وأدب الصداقة. وكثيراً ما ترجع الحكم الى ما عرفناه في كتاب كلیلة ودمنة.

للكتابين قيمة فكرية حقة لما احتواها من جليل الآراء في فلسفة الحياة الفردية والاجتماعية. وأما أسلوبها الكتابي فهو الأسلوب الخطابي الجاف الذي يواجه الحقيقة بصراحة، ويُعبّر عنها في صرامة وسلطان، وفي لهجة لاطعة لا تعرف التردد ولا تميل الى الشك. وقد خلا الكتابان من الأمثال التي شُحنَ بها كتاب كلیلة ودمنة، وكانا أشبه شيء بمجموعتين من الأقوال المأثورة والحكم المثورة. والعبارة فيها لا تخلو من تعقيد، وهي مثقلة بالفكرة العميقة والفلسفة التي تهدف الى إصلاح النفس عن طريق المراقبة الذاتية والعقيدة العقلية، والتي تهدف الى إصلاح الغير عن طريق الإقناع العقلي. والقاعدة في كل ذلك هي التوازن الاجتماعي الذي يقوم على العدل والاحترام والانضباط.

ولأنّ من تبع تاريخ الفكر العربي وجد أن لكتب ابن المقفع أثراً عميقاً في كتابة الفلاسفة ولاسيما في ما هو من شأن علمي السياسة والأخلاق.

#### ٥ - ملزمة جلييلة في الكتابة:

إنّه لمن الصعب أن نُبدّي رأينا في أسلوب ابن المقفع بالاستناد الى ما وصل إلينا من نصّ كتاب «كلیلة ودمنة». وذلك أنّ المخطوطات التي بلغتنا من الكتاب ليست من القِدَم بحيث يستطيع الباحث أن يطمئن إليها كلّ الاطمئنان. أضف الى ذلك ما هنالك من اختلاف في الأبواب والعبارات. وإنّ ما اقتبسناه الكتاب من «كلیلة ودمنة» منذ القرن الثالث للهجرة يدلّ على أنّ النصّ لحقه تحريف بالغ. وليس باستطاعة الباحث أن يُلجأ الى الأدبين الكبير والصغير ليستخرج منها ميزات ابن المقفع في الكتابة، لأنّ الأدبين مجموعتان من الآراء والحكم والدروس الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، في جمل موجزة، مقطعة الأوصال، خالية من التأليف والبناء.

وسيلُ الباحث أن يعمد الى «كلیلة ودمنة» في أقدم مخطوطاتها، والى النصوص التي وردت في مختلف المخطوطات، ويعالجها معالجة استنتاجية، مستنداً بعض الاستناد

الى نصرّ الأديين الكبير والصغير ، وإن قام بهذا العمل تجلّت له الميزات الرئيسية التي اتّسمت بها كتابة ابن المقفع .

١ - وأوّل ما نقوله في هذا الباب أن المجتمع لذلك العهد أخذ يبحث عن موادّ جديدة وصور للتعبير جديدة تكون أكثر ملاءمة لأحواله الجديدة ، ولاسيما وقد امتزجت العناصر الفارسية والآرامية وغيرها بالحياة العربية الاجتماعية والأديّة . ومما لا شكّ فيه أن عبد الحميد بن يحيى الكاتب كان رائد الأسلوب الجديد في النثر العربي ، إلا أن ابن المقفع هو الذي أتّمه وأوصله الى أوجه حتى عدّ رأس التجديد الأسلوبي في النثر ، وحتى نسيب إليه الإنشاء الأدبي في اللغة العربية<sup>١</sup> . قال المستشرق جب : «ولو



ملك القبيلة ورسول الأرقب أمام العين وصورة القمر عن انعطوفة نفسها.

١ - طالع المجتمعات الاسلامية في القرن الأول لشكري فيصل ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، وحواطري الأدب العربي للمستشرق جب ، في مجلة «الأدب والفن» السنة الثالثة .. الجزء الأول ، ص ٩ .

أنه اقتصر فيما كتب على «الأدب الكبير»<sup>١</sup> كما كان في كتابته شيء كثير يُعَيِّره عن سابقه من كتاب المواعظ والوصايا المتعلقة بالآداب وحسن السلوك، أما ما كان جديداً في مؤلفاته فهو أن كتبه المترجمة قد أعرّبت عن هذه المواعظ والوصايا بطريق غير مباشر في صورة تاريخ<sup>٢</sup> أو خرافة على ألسنة الحيوانات<sup>٣</sup>. وهكذا فقد انتقلت الكتابة مع ابن المقفع من الرسائل الوعظية إلى الأدب الجميل أو الكتابة الرفيعة التي ترقى وتثيد وتمتع في آن واحد، ودخل النثر إلى حقل الترجمة بعد دخوله ديوان الرسائل، فواجه جميع الموضوعات.

٢ - وتجاه هذه المادة الفكرية الجديدة سلك ابن المقفع طريق التحرر من خصائص الكتابة الهندية قدر المستطاع، وتحرى الإفصاح عن الفكرة بأسهل ما يكون التعبير وأدقّه<sup>٤</sup>، وهكذا تحرى السهولة في اللغة والتركيب، وباشر المعاني مباشرة قليلة التلميح والإشارة، وقبها التجأ إلى القوة التخيلية والمقدرة اللغوية عند القارئ، وعدل عن أسلوب التعميق والتصوير اللفظي إلى العبارات المصقولة الجلية التي تسير بهدوء متأسكة الأجزاء.

٣ - واحتماء ابن المقفع بالمعنى يدفعه إلى استخدام الأسلوب المنطقي فيقسم موضوعه إلى فقرات، تقسم إلى جمل ذات فواصل يمكن الوقوف عندها، فأفكاره متسلسلة، لا يلجأ فيها إلى الغلو بل يواجه الحقيقة بهدوء، ويرهن عنها بقوة. وكذلك يحمله احتفاؤه بالمعنى على إطالة الجملة بهدوء ورصانة، فهي تمتد امتداداً أرسطوالياً من غير ما توتّب ولا تقلّب ولا تلوّن، متدرّعة بالروابط المختلفة من حروف الجر، والأسماء الموصولة، وما إلى ذلك.

٤ - إلّا أن إطالته هذه ليست من قبيل الإسهاب. فابن المقفع زاهد في كثرة الألفاظ وإن كان لا يكتفي بالإشارة ولا يعمد إلى الحذف والتقدير، فهو يميل إلى

١ - يشير إلى كتاب «خداينامه» أي سير ملوك العجم، الذي لم يكن في عصره القارسي كتاباً تاريخياً قدر ما كان رسالة لملاعية في آداب الملوك قائمة على مزيج من أقاصيص والتاريخ.

٢ - حب: خواطر في الأدب العربي، ص ٩.

٣ - كان يقول: «ربك والجنح لوحشي الكلام طمعاً في بل اللافعة، فإن ذلك هو عالمي الأكرم». ويمكن أنه كثيراً ما كان يفت إذا كتب، فقل له في ذلك، فقال: «إن الكلام يردحم في صدري فأنت لتخبره».

الإيجاز ، ذلك الإيجاز الخاص الذي تكون فيه الألفاظ على مقدار المعاني . وهو لا يتعدى هذه الحطة إلا عندما يشعر أن معنى من معانيه قد يستغل على فهم الرجل البعادي ، فتراه إذ ذاك فقط يردد ذلك المعنى في تراكيب متشابهة ، وأحياناً يضرب مثلاً أو مثلين أو يقصُّ حكايةً أو أكثر زيادة في تبيان الفكرة الواحدة ، كما يبدو ذلك في ديب عرض كتاب كليلة ودمنة .

٥ - إلا أن توخي السهولة في موضوع حافل بالصعوبة حمل ابن المقفع على شيء من العنت في الترجمة وتأدية المعاني ، فوقع في بعض الغموض أحياناً ، ووقع في حمله بعض التداخل إلى حدٍّ يستحيل معه تقسيمها إلى عبارات كما في قوله : « أما البطتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك فإنيك يأتيك من قبلك ملك بلخ من يقوم بين يديك بفرسين ليس في الأرض مثلهما »<sup>١</sup> .



## مصادر ومراجع

- عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع — القاهرة ١٩٤١ .
- محمد سليم الجندى : عبدالله بن المقفع — دمشق ١٣٥٥ هـ .
- محمد كرد علي : أمراء البيان — القاهرة ١٩٣٧ . الجزء الأول ص ٩٩ — ١٥٨ .
- رسائل البلغاء — مصر ١٩٠٨ .
- عبد الرحمن لدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية — القاهرة ١٩٤٦ ص ١٠١ — ١٢٠ .
- طه حسين : من حديث الشعر والنثر — القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٤ — ٧٩ .
- حنا الفاخوري : ابن المقفع في سلسلة «نوايغ الفكر العربي» القاهرة ١٩٥٧ .
- خليل مردم : ابن المقفع — دمشق ١٩٣٠ .
- أحمد الاسكندري : محاضرات الأدب العربي في العصر العباسي — مصر ١٩٣١ .
- الشيخ طاهر الكيالي : رسائل في الأدب العربي — حلب ١٩٣٨ .
- منير كريدية : ابن المقفع رمز لحريّة الرأي — المكشوف ١١٢ : ١١ .
- طه حسين وعبد الوهاب عزّام : مقدّمتا كلية ودعنة — طبعة محمّلة الكتاب — دار المعارف — مصر ١٩٤١ .
- عمود تيمور : كلية ودعنة — نظرة وتقدير — الثقافة ١٤٢ (الجلدين) : ١٢٢٠ .
- الدكتور محمد صبري : بلاغة العرب : كلية ودعنة — الرسالة ٨ : ٣٧٣ .
- عبدالله عمود اسباعيل : كلية ودعنة — الرسالة ٥ : ١٦١٦ .

## المحافظ

(١٥٩ - ٢٥٥ / ٧٧٥ - ٨٦٨ م)

٩ تلويحه :

- ١ - أولًا الجاحظ في العصر . أكبَّ على طلب العلم في الكتّيب ودور الورّاقين ومجالس العلماء ، وترفّد على البريد
- ٢ - قصد بغداد واحتكَّ بأئمة العلم والأدب من مثل الأصمعيّ والأخفش وغيرهما ، وقد اعتنق مذهب المعتزلة .
- ٣ - وضع كتبه الأولى باسم بن المقفّع وسهل بن هارون نرواج أسلوبها . وقد حمله المأمون على ديوان رسائله إلا أنه لم يلبث فيه إلا ثلاثة أيام

٦ - شخصيته :

- ١ - كان المحافظ رجل علم وثقافة واسعة كما كان رحلًا عمس واغتنام وطموح .
- ٢ - وكان إلى ذلك رجل طرف وفكاهة وسخرية كما كان رجل اعتماد على النفس .

٤ أدبه :

- ١ - كتب المحافظ في كل موضوع : فلسفة ، اجتماع ، علم ، تاريخ ، جغرافية ، دين .
- ٢ - كانت مؤلفاته موسوعة جمعت الثقافات القديمة وثقافات العهد العباسي
- ٣ - من أشهر كتبه : الحيوان والبيلا والبيان والتبيين .

أ - الحيوان :

- ١ - هو كتاب علم وتاريخ وأدب كال الأول من نوعه عند العرب
- ٢ - مصادره - كتاب «الحيوان» لأرسطو ، وأشعار العرب ، وكتب علماء العرب في الحيوان ، ثم حيرة الجاحظ وتجربته العلمية .
- ٣ - هو موسوعة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي في تشبّع أغراضها
- ٤ - قيمته

- هو علم في لباس أدب ، أو هو أدب موضوع العلم .

أسلوبه أسلوب علمي أدبي . فيه من العلم تحررًا ، واختيار ، وشلك ، ومقارنة ، وتحكيم العقل وفيه من الأدب قصص ، واستطراد ، وجدّ وهزل ، وتشويق ، وفيه نزعة جاحظية . خفة روح ، والقيمة ، دقة ، تغير ألفاظ ، علوة حجة ، متونة ، قصيرة ...

## ب. الجلاء.

- ١ - وضعه الجاحظ طلباً لل منفعة العامة.
- ٢ - كان الكتاب خلاصة خبرة صاحبه، وعموعة معلوماته، وصورة لتأجيه البحر والاقتصاد في مجتمعه.
- ٣ - اتبع فيه سبيل القصص والفكاهة والنكّم
- ٤ - قيمته :
  - دراسة عميقة لتعسية الجلاء
  - أقوال للجلاء حافلة بالمعارف الطيبة والاجتماعية والسيكولوجية والاقتصادية.
  - مقدرة عجيبة : تغفل بين طوفا النفس البشرية، جمع بين النظر والتطبيق
  - روح مرحة، فكهة، حوار مسرحي..

## جـ. البيان والتبيين.

- ١ - هو كتاب أدب وضعه الجاحظ في أواخر أيامه لتنشئة الكتاب على الأساليب القويمة.
- ٢ - عالج فيه الجاحظ موضوع الخطاة وعيوب الخطيب، ثم عالج أنواع الدلالات، ثم ردّ على الشعوية، وأسهب في الكلام على البلاغة..
- ٣ - قيمته
  - يعدّ أولى المحاولات للتصنيف في علوم البلاغة.
  - وهو مصدر من مصادر تاريخ الأدب العربي
  - فيه نظرات قيّمة في النقد
- د - رسالة التريخ والتدوير.

الجاحظ فيها رجل نقاش كلامي، ومقدّم على تصريف اللغة في ما يريد نصرفاً عجباً

## ٤ - منزلة الجاحظ وخصائصه العامة

هو دائرة واسعة للمعارف، وأديب حمل العلم مادة لأدبه، يمسى بالفائده ومعانيه، ويتطلّب الحقيقة بكل قواه، ويراعي أبدأ مقتضى الحال، ويمزج الجدّ بالهزل، ويمسّد الأصط.

## ١ - تاريخه :

١ - مولده وتحصيله الثقافي : وُلد الجاحظ سنة ٧٧٥م، وقد اختلف المؤرخون في أصله. واسمه عمرو بن بحر، وكنيته أبو عثمان؛ أمّا لقبه الجاحظ فقد غلب عليه لجُحوظ عينيه.

طلب مبادئ العلم في أحد كتابات البصرة مع أولاد القصابين وأبناء الضعة والمسكنة. ورؤي يبيع الخبز والسّمك بسيحان، وهو نهر بالبصرة. ثم أخذ يتردّد على



المسجد والبريد، وفي المسجد حلقات العلماء يُوزعون كلمة العلم على طلابه، وفي البريد، وهو محلة عظيمة من محال البصرة، كانت فيها مفاخر الشعراء ومجالس الخطباء. وكان الجاحظ فني الرغبة العليسية الملية، يستقي المعرفة من شتى ينابيعها، ويضيف إلى ذلك كله كثرة لحنائيت الوراقين يسجن فيها نفسه للمطالعة والتحصيل، وجمعاً للكتب والأوراق في غير حساب، معتمداً في ثقته على أم تزلت وصاقت بها سبل العيش، وقد ألها انصراف ابنها الى العلم دون العمل.

٢ - في عالم الأئمة: وقصد بغداد للترديد من العلم، وكانت بغداد في عهدي الرشيد وابنه المأمون في أوج الازدهار الاقتصادي والثقافي، وقد احتشد فيها العلماء كما احتشدوا في البصرة والكوفة، واشتد فيها النزاع بين الليل والنحل، ولا سيما في عهد المأمون الذي انحرف الى المعتزلة وأطلق حرية النقاش الفلسفي والعلمي والديني. والجدير بالذكر أن الجاحظ احتك بعدد كبير من العلماء وأخذ عنهم وناقشهم، كالأصمعي شيخ اللغة والأخبار والثوار، وأبي ريد الأنصاري إمام الأدب واللغة، والأخضر سيّد أهل المحو.

وكان الجاحظ ميلاً، منذ حدثه، الى تحكيم العقل، فعندما بلغ اعتنق مذهب المعتزلة أصحاب الرأي، وكان لأبي إسحق ابراهيم بن سيار النظام شيخ المعتزلة أثر كبير في هذا التوجيه، تتلمذ له الجاحظ وترك لنا فيه أجمل الأقوال.

والجدير بالذكر أن للنظام مذهباً عقلياً في التفسير، وقد نبّه على خلط المفسرين والرأوة وهاجمهم في عنف لأنهم يُفسدون المعاني والأقوال، ورأى في الشك طريقاً الى اليقين، وآثر البحث والتحري على الانقياد والتقليد. وهكذا فعن الجاحظ، فكان رجل العلم والفلسفة والفقه والأدب، كما كان الرجل الموسوعي الذي جمع في صدره ثقافة العرب واليونان والفرس وغيرهم

٣ - أمير الكتابة: وعندما ذاع صيت الجاحظ بين الخاصّ والعام، وأنشأ فرقة معتزلية باسم الجاحظية، استدعاه المأمون وصدّره في ديوان الرسائل، ولكنه استعفى

عقب ثلاثة أيام. وكان سهل بن هارون يقول: «إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقلَّ نجم الكتاب».

وكان الجاحظ قد أخذ في الكتابة والتصنيف، ونسب كتبه الأولى إلى ابن المقفع وسهل بن هارون تحفظاً، ولما رأى رواجها وتلقف الناس لها راح يعلن اسمه ويصدر به مؤلفاته. وقد أصبح الجاحظ في عهد المعتصم رجلاً السَّاعة، وأمير الكتابة. وكان صديقاً للوزير ابن الزيات ينحاز له وينال جوائزَه، وقد اتسعت حاله ولها ما استطاع اللهو.

في هذه المرحلة قام الجاحظ بعبث أسفار زار خلالها دمشق وأنطاكية ومصر. ولما كانت سنة ٨٤٧ فلك المتوكل بآبن الزيات، وأحلَّ محله أحمد بن أبي دؤاد، وكان بين الرجلين منافسة، وكان الجاحظ من حزب ابن الزيات، فهرب، ثم لم يلبث أن قُبِضَ عليه.

٤. الأهل الحزين: وفي هذه المرحلة أصيب الجاحظ بفالج، وكان قد بلغ ما يقارب الخامسة والسبعين من العمر. وكان سلطان الأتراك قد بلغ أقصاه فاستبدوا بأموال الخلافة وإدارتها وجيشها، ولم يستطع المتوكل أن يضعف شوكتهم. وفي تلك الأثناء استدعى الخليفة الفتح بن خاقان، وهو من أصل تركي، واستوزره، وكانت له مع الجاحظ مراسلات ذكر في إحداها أن أبا عثمان كان يتقاضى من الخليفة مشاهرات. ولهذا الوزير قدَّم الجاحظ كتاب «منقب الترك وعامة جند الخلافة». وقد رُوي في سُر من رأى وهو في الثمانين من العمر، وفي سنة ٨٦١ كان في البصرة، وكان قد أصيب أيضاً بداء القُرس<sup>١</sup>. وكان أبو عثمان، في هذه المرحلة كلها، مُتَشَبِّهاً بالأمه، وكان الناس مشغولين به. وظلَّ كذلك إلى أن وقعت عليه مجلدة المصفوفة، وهو عليل، فقتله. وكان موته بالبصرة سنة ٨٦٨ م / ٢٥٥ هـ.

وهكذا كانت حياة الجاحظ من كتاب إلى كتاب إلى أن دُفِنَ تحت الكتب.

١ - القُرس: دُم ووجع في مفاصل الكمين وأصابع الرجلين ولا سيما الإبهام منها.

## ٢ - شخصيته :

١ - قال أبو القاسم البلخي : « كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف » .<sup>١</sup>

٢ « كان رجل العلم والعمل . حدث أبو هفان قال : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع يده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبعث فيها للنظر » .<sup>٢</sup> وقال للروزياني : « كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبخر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا » .<sup>٣</sup> وقال ثابت بن قرة : « جمع ( الجاحظ ) بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ... لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب » .<sup>٤</sup>

وكانت ثقافته موسوعية تتناول كل فن وكل مطلب ، وقلاً نجد فرعاً من فروع المعرفة لم يمر فيه لسانه وقلمه . وهكذا فقد جمع ما بين علم الأقدمين وعلم المحدثين .  
وكان الجاحظ رجل انفتاح ، « نزعاً إلى التجديد فهو لا يرى بأساً بأن يتدخل العربية عنصر من عناصر آداب الأمم المعروفة في عصره ، المشهورة بالعلم والحكم والأخلاق والآداب » .<sup>٥</sup>

٣ - وكان رجل الطموح الذي أراد أن ينافس أكابر الكتاب والمفكرين ، وأن يعالج كل موضوع وضده ، وأن ينشئ في الاعتزال فرقة عرفت بالجاحظية ، وعندما استعفى من رئاسة الديوان عند المأمون أعلن للملا أنه أراد أن يكون أميراً لا مأموراً ، وحرّاً غير مقيد ، وقد قال في كتاب الحيوان : « وليس شيء أذل ولا أسوأ من عز الأمر » .

١ - ياقوت : معجم الأدياء ١٦ ص ٧٤ .

٢ - ياقوت : معجم الأدياء ١٦ ص ٧٥ .

٣ - ياقوت : معجم الأدياء ١٦ ص ٧٥ - ٧٦ .

٤ - ياقوت : معجم الأدياء ١٦ ص ٩٧ - ٩٨ .

٥ - شفيق حيري : الجاحظ معلم العقل والأدب ، ص ٧٣ .

والنهي ، ومن الظَّفَر بالأعداء ، ومن عَقَدَ البِنَن في أعناق الرِّجال ، والسُّرور بالرئاسة وثمره السيادة<sup>١</sup> .

٤ - وهو رجلٌ جَدُّ وهزل وسخوية ينظر الى الحياة نظرة واقع ، فيعالجها بالجدِّ طويراً ، وبالهزل أخرى . قال ثابت بن قُرَّة : « الجاحظ شيخ المتكلمين ... إن تكلمَ حكى سَحْبَانَ في البلاغة ، وإن ناظَرَ ضارَعَ النِّظام في الجدال ، وإن جدَّ خرجَ في مسلِكِ عامر ابن عبد قَيْس ، وإن هرَلَّ زادَ على مَزِيدٍ حَبِيبَ القلوبِ ومِزاجِ الأرواح ... الخُلُقَاء تعرفه ، والأمرء تُصافيه وتُنادِمُه<sup>٢</sup> . »

٥ - وهو رجلٌ اعتمد على النفس بصدف عن كلِّ عمل فيه مَلَقٌ وتَرْفٌ ومذلة ، ويميل الى كلِّ عمل فيه تحوُّر واعتماد على العقل . قال الجاحظ : « إذا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يقول : ما تَرَكَ الأوَّلُ للأخِيرِ شيئاً . فاعْلَمْ أَنَّهُ ما يُريدُ أن يُفْلِحَ<sup>٣</sup> . »

٤ - أدبه :

أراد الجاحظ أن يُناقِصَ رجال العلم والتصنيف في عصره ولاسيَّما أبو عُبَيْدة مَعْمَر ابن المُنْثَنَّى البصري الذي وضع نحو مِثَيِّ مُصَنَّف ، والذي قال فيه الجاحظ : « لم يكن في الأرض خارجي ولا جَمَاعِي أعلم بجميع العلم منه » ؛ وأبو الحسن علي بن محمد الملائني الذي وضع أكثر من مِثَيِّ مُصَنَّف ؛ وهشام بن محمد الكلبي الكوفي الذي وضع نحو مئة وتسعة وثلاثين مؤلفاً .

وقد ذُكِرَ للجاحظ نحو ثلاث مئة وستين مصنفًا في شتَّى فروع المعرفة حتى قال فيه المسعودي : « ولا يُعْلَمُ أَحَدٌ من الرواة وأهل العلم أكثرَ كُتُباً منه » . وقد لا يخلو هذا من مغالاة ، وقد تكون مؤلفات الجاحظ نحو مئة وسبعين كتاباً . ومهما يكن من أمر فأبو عثمان بَحْرٌ لا يوقف على ساحله ، ولكن الأيام قد عبثت بتلك الآثار فلم يصل إلينا منها إلا القليل ككتاب الحيوان ، وكتاب البيان والتبيين ، وكتاب البخلاء ، ورسالة الترييع والدوير .

١ - كتاب الحيوان ٢ ص ٩٨ .

٢ - ياقوت : معجم الأديباء ١٦ ص ٩٨ .

٣ - ياقوت . معجم لأديباء ١٦ ص ٧٨ .

إنه لمن الصعب جمع مؤلفات الجاحظ في فئات مرتبة على حسب مادتها لأن الكثير منها يختلف الموضوعات، متعدد المعاني. ومن ثم كان تقسيمنا التالي لأثار الجاحظ على وجه التقريب.

#### ١ في الفلسفة والاعتزال والدين :

« كتاب الاستنطاعة وخلق الأفعال » (وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال) ، « كتاب الاعتزال وفضه » (ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضاً « فضيلة المعتزلة ») والذي رد عليه ابن الرنودي بكتابه الذي سماه « فضيحة المعتزلة » ، « كتاب خلق القرآن » ، « كتاب أي القرآن » ، « كتاب الاحتجاج لنظم القرآن » ، « كتاب وجوب الإمامة » ، « كتاب الرد على اليهود » ، « كتاب الرد على المشبهة ... » « كتاب الدلائل والاعتار على الخلق والديرة » (يبحث في تحليل الأشياء الطبيعية وما في الكائنات من الدلائل على وجود الصانع).

#### ٢. في السياسة والاقتصاد :

- « كتاب الاستعداد والمشاورة في الحرب » ، « رسالة في مناقب الترك وعمامة جند الخلافة » .  
- « رسالة في الحراج » ، « كتاب أقسام فضول الصاعات ومراتب التجارات » . « كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناق » .

#### ٣- في الإجماع والأخلاق : من آثار الجاحظ في ذلك :

- « رسالة في إثم السكر » ، « كتاب أخلاق الشطار » ، « كتاب أخلاق القتيان وفضائل أهل العظالة » ، « كتاب خصومة الخول والمور » .

#### « كتاب البخل ... »

#### ٤- في التاريخ والجغرافية والطبيعات والرياضيات :

« كتاب الأخبار وكيف تصح » ، « كتاب الملوك والأئم السالفة والباقية ... »  
- « كتاب الأمصار » ، « رسالة في الكيمياء » ، « كتاب المعادن » ، « كتاب نقص الطب » ، « رسالة في القيان » ، « كتاب في طبقات المنين » .

- « كتاب الحيوان » ، « كتاب الكلاب » ، « كتاب الأسد والدب » ...

#### ٥- في العصبة وتأثير البيئة :

- « كتاب القحطانية والمدنية » ، « كتاب العرب والعجم » ، « كتاب العرب ولوالي » .  
- « رسالة في فخر السودان على البيضاء » ، « كتاب مغفرة السودان والحمران ... »

#### ٦ في الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية :

« كتاب البيان والبيان » ، « كتاب المحاسن والأضداد والمعجاف والغرائب » ، « كتاب عناصر الآداب ... »

كان الجاحظ غزير المادّة ، غنيّ الطّبيعة ، واسع المعرفة ، بل كان صدره موسوعة علمية . ويكني أن يطّلع الإنسان على لائحة مؤلفاته حتى يأخذ العجب وتستولي عليه الدهشة . فهناك كلّ موضوع وكل باب من دين وفلسفة وتاريخ واجتماع وجغرافية وطبيعات وما الى ذلك ، وهناك أدب وفنّ ، وهناك كلّ مطلب لكلّ طالب علم وطالب فكاكة ، بل هناك عالم مصفّر للثقافات القديمة والثقافات الحديثة . وكأنّ الجاحظ قد أراد أن يكون حكيم العصر وأدبيه ؛ ولهذا كان له في كلّ موضوع جولة . وفي كلّ ميدان دولة . وهكذا كان إماماً لأبناء زمانه وأستاذاً لأبناء كلّ زمان .

قال المسعودي : « وكتب الجاحظ ، مع انحرافه المشهور ، تجلّو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنّه نظمها أحسن نظم ، ورصّها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تحوّل ملك القارئ ، وسامة السامع ، خرج من جدّ الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة ... » .

## أ - كتاب الحيوان

### ١ - ما هو كتاب الحيوان ؟

كانت الحكمة في العصور القديمة تنظر الى الكائنات في مجملها ، وكان العقل البشري يحاول ، عندما تفتح على ظاهرات الوجود ، أن يفهم الكون بأسره ، ولهذا كانت نزعة الفلسفة في بدء أمرها نزعة شموليّة ، تشمل جميع العلوم وجميع المعارف ، وتنطلق من المحسوس الى اللاحسوس ، فتدرس علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة . ولهذا كتب كبار الفلاسفة عند اليونان في مادّة الطبيعة وتناولوا فيها العناصر الجوهرية ، كما تناولوا عالم الحيوان وعالم الإنسان . وهكذا وضع أرسطو وغيره كتاباً في الحيوان . قال صاحب « الظنون » متكلماً على علم الحيوان : « وفيه كتب قديمة وإسلامية ، منها كتاب الحيوان لديمقراطيس ، ذكر فيه طبائعه ومناقصه ، وكتاب الحيوان لأرسطوطاليس ، تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق من اليوناني الى العربي ، وقد

١ يعني ما كان عليه الجاحظ من الاعتزال وعداوة الشيعة ، وكان للمسعودي شيعياً .

يوجد سريانياً نقلاً قديماً، أجود من العربي. ولأرسطو أيضاً كتاب في نعت الحيوان الغير الناطق، وما فيه من المنافع والمضار.

ولما كان الجاحظ من أصحاب الثقافة اليونانية، فضلاً عن ثقافته العربية، راح يكتب في ما كتب اليونان بطريقة شمولية، فوضع كتاباً في الحيوان، وكان أول واضح لكتاب عربي جامع في هذا العلم. إلا أنه أتبع فيه طريقته الاستطردية نظراً الى عقلية أبناء عصره، والى قلة جلدتهم على تتبع الموضوع الواحد والمادة الطويلة في معنى واحد، وذلك على حد ما صرح به هو نفسه في مقدمة كتابه إذ قال: «إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مرّ الحق وصعوبة الجدّ، وثقل المؤونة، وحلية القوار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من غزوه، ونال سروره على حسن ما يورث الطول من الكدّ، والكثرة من السآمة، وما أكثر من يقاد الى حظه بالسواجير»، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

#### ٢- مصادر كتاب الحيوان:

مصادر كتاب الحيوان للجاحظ كثيرة منها ما هو أجنبي ومنها ما هو عربي. أمّا المصادر الأجنبية فأهمها كتاب أرسطو في نفس الموضوع. وقد اطلع عليه الجاحظ، وأكثر من ذكره في كتابه، وردّ بعض أقواله.

وأما المصادر العربية فمنها الشعر العربي الذي سجّل فيه الشعراء أخبار الحيوان الوحشي والأليف، وأطالوا في كلامهم على الإبل والحيل والأسد وغيرها، وقد قال الجاحظ: «وقلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرآنه في كتب الأطباء والمتكلمين إلّا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب». ومن تلك المصادر العربية ما حاوله جماعة من العلماء قبل الجاحظ وفي عصره إذ وضعوا كتباً في الإبل والحيل والوحوش والحمام والحيت والعقارب وغيرها. ولم تكن تلك الكتب إلا بمثابة أبحاث لغوية، ومع ذلك فقد اطلع عليها الجاحظ وأفاد منها الشيء الكثير.



كتاب «الحيوان» للجاحظ — نعمة ترسم على بيضاها

عن مخطوطة مصورة من القرن ١٤

(المكتبة الأمرونية ببلاتو)

تلك بعض المصادر ، وقد أضاف إليها الجاحظ خبرته الشخصية ، وتجاربه العلمية . وكان أبداً يتطلب أهل المعرفة ليسألهم ويأخذ عنهم ما يعرفونه ، فيتحدث مع صائد العصافير ليأخذ أخبار العصافير ، ومع الخواثين ليأخذ أخبار الحيات ... وهكذا كان رجلاً مراقباً وخبيراً ونحو.

وقد لقي الجاحظ في وضع كتابه صعوبات شتى ، وهو يقول : «صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعيان ، والثالثة طول الكتاب ، والرابعة أنني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتاب العرض ، واجوهر ، والصفرة والتوليد والمداخلة ، والغرائز والشحاس ، لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغاً ، لأنني كنت لا أفزع فيه إلى تلقيب الأشعار وتتبع الأمثال واستخراج الآي من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور في الكتب» .

١ النحس هنا بمعنى الطبيعة يراد الجاحظ أنه كان أسير عليه أن يضع كتاباً في المنطق أو الطب أو الطبيعة أو ما إلى ذلك .



## ٤ أجزاء الكتاب :

يقع كتاب الحيوان في سبعة أجزاء ذكرها الجاحظ نفسه إذ قال : « قد كتبتنا من كتاب الحيوان ستة أجزاء . وهذا الكتاب السابع هو الذي ذكرنا فيه الفيل بما حَضَرْنَا ... » وأما مضمون هذه الأجزاء فقد فصله عبد السلام محمد هارون ، إذ قال في المقدمة التي صدر بها طبعة كتاب الحيوان لمصطفى البابي الحلبي بمصر : « وقد يوهم اسمه أنه قد خُصص بالحيوان وما يمت إليه بسبب . ولكن الحق أن الكتاب معلمة واسعة ، وصورة ظاهرة لتفافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف . فقد حوى الكتاب طائفةً صالحة من المعارف الطبيعية ، والمسائل الفلسفية ، كما تحدث في سياسة الأقوام والأفراد ، وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية . تحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية ، وفي خصائص كثير من البلدان ، وفي تأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر ، كما تناول الحديث في الأجناس البشرية وتباينها ، وكما عرض لبعض قضايا التاريخ . وفيه كذلك حديث عن الطب والأمراض : أمراض الحيوان والإنسان وبيان لكثير من المفردات الطبية ، نباتها وحيوانها ومعدنيها . تحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب ، وأحوالهم وعاداتهم ، ومزاعمهم ، كما أفاض القول في آي الكتاب العربي ، وحديث الرسول العربي ، وكما فصل بعض مسائل الفقه والدين . هذا كله فضلاً عن الحيوان الذي تكلم عنه الجاحظ وعن القصص والفكاهات والآيات الشعرية التي نثرها في جميع أطراف الكتاب . ومن ثم ترى أن للكتاب قيمة كبرى في عالم العلم والتاريخ والأدب ، فضلاً عن أن الجاحظ أراد أن يظهر به حكمة الله في خلقه .

## ٥ قيمة الكتاب من ناحيتي العلم والأدب :

كتاب الجاحظ علم في لباس أدب ، وأدب موضوعه العلم .

١ - كتاب علم : الكتاب علم في موضوعه وفي طريقته . أما موضوعه فقد أتينا على تفصيله ، وأما طريقته فهي طريقة التحري ، والاختبار ، والشك في سبيل اليقين ، والمقارنة وتحكيم العقل .

أ - فقد تناول الجاحظ موضوعه وراح يُعالجه متوخياً **التقصي**، فقادته الرغبة في **التقصي** الى تتبع المصادر من مؤلفات قديمة، ومن شعر عربي، ومن آيات قرآنية وأحاديث نبوية، ومن تنقل الى كل مكان يكون الحيوان فيه سلطاناً، وقادته الرغبة في **التقصي** الى تلفظ الأخبار. وراح الجاحظ في نزعة المعتزلية، يقارن بين الأخبار والأخبار، والأقوال والأقوال، مناقشاً تارة، هازئاً أخرى، مستغرباً تارة حائراً أخرى. وقد أراد أن يدعم ما يسمع بالتجربة العلمية، فأقام التجارب، و**حكّم العقل** في كل ما عمل، لأن العقل في نظر كل رجل اعتزال هو الحكم والمرجع الأخير، إذ إن الحواس تخطئ، والشهادات يشوبها **التقصير** كما يعتورها **النقص**، وقد استعمل الجاحظ أساليب **البطلان** التي شاعت في ذلك العصر شيوعاً شديداً، وتجرى روح **البطلان** عندما عرض الجاحظ لكتاب أرسطو وراح يخطئه في أمور كثيرة، ويبين مواطن خطاه ووجوه الصواب، مقدماً البراهين والحجج، ذاكراً أقوال العرب وأشعارهم، أنه تارة يلوم أرسطو على **تقصيره** في التحقيق ويقول: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل. وما يليق بمثل أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يثبتها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء». وهو تارة يعذره ويلوم المترجمين الذين لم يحسنوا نقل فكرته نقلاً صحيحاً.

والجاحظ من أشد الناس نقمة على **المحدثين** والرواة والمفسرين لأنهم طاموا أفسدوا **الحقائق**، وجروا الناس إلى **الغلال العلمي** والمذهبي. وهو كثيراً ما يهاجمهم في كتابه وينهج في ذلك منهج أستاذ النظام الذي قال: «لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين... فلأن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس». (الحيوان ١ : ٣٤٣). وإنك لتراه أمام الأخبار قليل الثقة، كثير الشك، لعلمه بطبيعة البشر وميلهم الى التحريف والتزييف. في غمرة هذه الفوضى، وفي زحمة المعارف والتحقيقات لم ينبج الجاحظ من أوهام كثيرة ساقه إليها ضعف الوسائل الاختبارية ووفرة الصعاب التي حدثت من انطلاقه. ولكنه أدرك أن العلم «معاناة وتجربة وفرض ومقابلة وتصنيف». فهو يستعين بالحواس، ويعلم أن الحواس تخطئ، وأن كلمة **الفصل للعقل**، وهو يجعل الشك طريقاً الى اليقين ويقول: «ولا يُعجِبُنِي الإقرار بهذا الخبر... وَبَعْدَ فَأَعْرِفُ مَوَاضِعَ الشك... لِتَعْرِفَ بِهَا مَوَاضِعَ اليقين».

ب- ومن أساليب الجاحظ في بحثه العلمي أن يقيم مقاييسات بين حيوان وحيوان ، وأن يخلق جواً من المنافسات والمنازعات الكلامية بين صاحب هذا الحيوان وصاحب ذلك ، إلى غير ذلك من ضروب الجدال التي تمشي عليها علماء الاعتزال في عصر الجاحظ .

ج- وإنا إذا ألقينا النظر على مجمل كتاب الجاحظ نرى أن الرجل مُحيط بعلوم عصره وعلوم العصور السالفة ؛ وهو يسعى في أن يكون كلامه شاملاً ، دقيقاً وأقرب شيء ممكن إلى الحقيقة . وقد استطاع الجاحظ ، على ضعف وسائله ، أن يبلغ شأواً جليلاً في التحقيق العلمي ، فبين لنا مثلاً كيف تُخطئ الحواس ، كما بين غائبة الوجود وكيف وقّرت الطبيعة للحيوان وسائل الحصول على ما يحتاج إليه للحفاظ على حياته ، ومفعول البيئة في الألوان والأمزجة والطبائع ، وغير ذلك ممّا لا حصر له . ومهما يكن من أمر الجاحظ فضل كبير إن لم يكن على تقدّم العلم ، فعلى الأدب الذي قدّم له علم الحيوان موضوعاً عاجله الجاحظ وكان في معالجته له إماماً من أئمة الكتابة عند العرب .

٢- كتاب أدب ولين : اتخذ الجاحظ من علم الحيوان موضوعاً وتبع في كلامه عنه طريقته التي تتبعها في جميع كتبه . فقد اعتمد القصص ، وعخلط الحُجّة بالهزل لسوء ظنه بمن يلمس العلم في زمانه ؛ وهكذا اعتمد خطة التشويق منتقلاً من موضوع الى موضوع ، ناثراً هنا وهناك النوادر والأبيات الشعرية ، قصد ترويق النفوس وتشجيع القلوب .

## ب - كتاب البهلاء

### ١- الكتاب والباعث على تأليفه :

امتدّت حياة الجاحظ امتداداً واسعاً وحظلت بالأحداث الاجتماعية ، والثقافية . وقد شهد الجاحظ التقلّبات المختلفة التي جرت في الدولة العباسية وشهد تفكّك عرى السلطة وانسداد الأعاجم والأثرالك والخدم في الأحكام ، والخطاط الأخلاق ، وانتشار الفقر والبصوبة ، وشيوع الفِرَق المختلفة والمذاهب الدينية والفلسفية المتنازعة ،

وتأمل أحوال أبناء عصره، وتتبع طرائق عيشهم، وألوان نفسياتهم، فكبت في كل ذلك كتباً، وقد قال في مقدمة كتاب الخلاء: «ذكرت، حفظك الله، أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل حيل سرّاق الليل، وأنك سددت به كل خلل، وحصنت به كل عورة، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع، ونبهك عليه من الحيل فيما عسى أن لا يبلغه كيد، ولا يجوزه مكر. وذكرت أن موقع نفعه عظيم، وأن التقدّم في درسه واجب، وقلت: أذكر لي نوادر البخل واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد، لأجعل الهزل مستراحاً والمراحة جأماً...» بهذا القول صدر الجاحظ كتابه. ويين لنا أنه ألّفه نزولاً عند رغبة أحد الأصدقاء، وطلباً للمنفعة العامة إذ فيه جدّ وهزل، والهزل للجام والجد للاستفادة.

وه كانت أحاديث البخل وأخبار البخل تسير في طريقين، وتتجه إلى غايتين، وفي أحد الطريقين يقوم دُعاة الشعبيّة يردّون على العرب فخرهم التقليدي بالكرم، ويقولون إن أكثر هذا الفخر كلام لا يفي به الفعل، ونوع من النفع لا حقيقة له في الواقع... وفي الطريق الأخرى يقوم دُعاة الدولة القائمة... وليست الدعوة للدولة بعيدة عن الدعوة للشعبيّة، فبينها وشائج واصله، وإن كانت قد اتخذت لوناً خاصاً بها... وحسبنا ما تدلّ عليه هذه الحركة الفلمية التي كانت مظهرها من مظاهر الخصومة بين العباسيين والأمويين، والتي استخدم لها العلماء والكتاب من هؤلاء وأولئك يتبادلون الشّنع ويقادفون بالمثالب. ونعلّ من أقرب الشّنع تأثيراً في نفوس الجماهير ما يتعلق منها بالمطاعم، بين الشره الذي تتفوّز منه الخسارة، والبخل الذي تنفر منه الإنسانية<sup>١</sup>.

وهكذا كان الحديث عن البخل والبخل شائعاً في ذلك العهد، فأراد الجاحظ، بدعوة من طبيعته الفنية، أن يُجبل قلمه في الموضوع.

ولكي يبلغ الجاحظ هدفه عمل على اتباع طريقين: طريق المطالعة لكل ما كُتب في البخل، وطريق التحري لكل ما يعمل البخل في عصره. وقد صاغ النتيجة في قالب من النقص المفكّه، ومنزج الجدّ والهزل تمشياً على خطته المعهودة. وهكذا راح الجاحظ

يَتَّبِعُ مَا كُتِبَ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَيَقْصُصُ الْأَخْبَارَ ، وَيَقْتَصِرُ بِوَادِرِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِمَوْضُوعِهِ ، وَيَجْمَعُ الْمَلَحَّ وَالنُّوَادِرَ ، وَيَقْلِبُ النَّظَرَ فِي مَا تَرَكَ الْخَزَائِمِيُّ وَالْكَنْدِيُّ وَسَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَغَيْرِهِمْ فِي تَحْلِيلِ نَفْسِيَةِ الْبِخْلَاءِ ، وَفِي الْاِحْتِجَاجِ لِلْبُخْلِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ؛ وَهَكَذَا كَانَ كِتَابُ «الْبِخْلَاءِ» خُلَاصَةً خَبِرَ صَاحِبِهِ ، وَمَجْمُوعَةً مَعْلُومَاتِهِ ، وَصُورَةً لِنَاحِيَةِ الْبِخْلِ وَالْاِقْتِصَادِ فِي مَجْتَمَعِهِ ؛ وَقَدْ اِتَّبَعَ فِيهِ ، كَمَا قُلْنَا ، سَبِيلَ الْقَصَصِ وَالْفِكَاهَةِ وَالتَّهَكُّمِ ، نَاقِذُ الْإِسْرَافِ فِي حُبِّ الدَّرْهَمِ ، مَطْرُئاً حِكْمَةَ الْبِخْلَاءِ فِي أَسَالِيبِ اِقْتِصَادِهِمْ ، مَقْدَمًا دُرُوسًا حَيَّةً ، وَعِظَاتٍ فِكَاهِيَّةً ، وَمُظْهِرًا ثِقَافَةً وَاسِعَةً فِي التَّلَطُّعِ إِلَى آفَاقٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَقَدْ قَالَ : «وَلَوْ أَنَّ فِي هَذَا الْكِتَابِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ تَبَيَّنَ حِكْمَةُ طَرِيقَةِ أَوْ تَعْرِفَ حِيلَةَ لَطِيفَةٍ ، أَوْ اسْتَفَادَةَ نَادِرَةٍ عَجِيبَةٍ» .

١ - الموضوع : يتضمن كتاب البخلاء مقدمة طواها الجاحظ على دراسة نفسية البخلاء واحتجاجهم للبخل في تصرفاتهم ، وشلوذهم في تفكيرهم ، وطرائق تمويههم ، وفطنتهم لعيوب غيرهم ؛ وقد أُنْعِمَ بِوَسَائِلَ لِسَهْلِ بْنِ هَارُونَ فِي الدِّفَاعِ عَنْ مَذْهَبِهِ فِي الْبِخْلِ ؛ ثُمَّ عَرَضَ الْجَاحِظُ لِأَهْلِ خُرَاسَانَ وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِيهِمْ ، وَتَحَدَّثُوا بِعِظَمِهِمْ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ مَرُوٍّ مِنْهُمْ ، فَأُظْهِرَ أَنَّهُمْ مَطْبُوعُونَ عَلَى الْبِخْلِ ، حَتَّى إِنْ دِيكَةً مَرُوٍّ تَسْلُبُ الْحُبَّ مِنْ مَنَاقِبِ الدَّجَاجِ ، وَحَتَّى إِنْ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ «يَقُولُ لِلزَّائِرِ إِذَا أَتَاهُ ، وَلِلْجَلِيسِ إِذَا طَالَ جُلُوسُهُ : تَغْدِيْتُ الْيَوْمَ؟ فَإِنْ قَالَ : نَعَمْ ! قَالَ : لَوْلَا أَنَّكَ تَغْدِيْتُ لَغْدِيْتُكَ بَعْدَافَ طَبِّبٍ ! وَإِنْ قَالَ : لَا ! قَالَ : لَوْ كُنْتُ تَغْدِيْتُ لَسَقَيْتُكَ خَمْسَةَ أَقْدَاحٍ ! فَلَا يَصْبِرُ فِي يَدِهِ عَلَى الْوَجْهِينِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ» . وَأَهْلُ خُرَاسَانَ إِذَا اغْتَرَبُوا يُوَثِّرُونَ الْأَكْلَ مِنْغَرِدِينَ ، وَإِذَا مَلَحَهُمْ شَاعِرٌ جَزَوْا كَلَامَهُ بِكَلَامٍ ؛ وَأَهْلُ مَرُوٍّ مِنْهُمْ «إِذَا لَبِسُوا الْخِفَافَ فِي السَّنَةِ الْأَشْهُرِ الَّتِي لَا يَتَزَعُونَ فِيهَا خِفَافَهُمْ ، يَمْشُونَ عَلَى صُلُورِ أَقْدَامِهِمْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَعَلَى أَعْقَابِ أَرْجُلِهِمْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، حَتَّى يَكُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَسُوا خِفَافَهُمْ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ مُخَافَةَ أَنْ تَنْجَرِدَ نَعَالُ خِفَافِهِمْ أَوْ تَنْقَبَ» .

وبعد هذه النوادر الخُرَاسَانِيَّةَ يَنْتَقِلُ الْجَاحِظُ إِلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَسْجُودِينَ فَيُجِدُ أَنَّ الْبِخْلَ عَنْدهُمْ كَالنَّسَبِ يَجْمَعُ عَلَى التَّحَابِّ ، وَيَرَى أَنَّ الْبِخْلَ عَنْدهُمْ اِقْتِصَادٌ فِيهِمْ وَأَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ يَحْرُصُونَ عَلَى اِلسْتِفَادَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَحْرُصُونَ شَدِيدَ الْحَرَصِ

على أن لا يضيع شيء مما يأكلون أو يشربون أو يملكون، ولم في ذلك آراء قلما تخطر ببال إنسان.

ثم يطلق الجاحظ من شخص إلى آخر ممن اشتهروا بالبخل والاقتصاد، ويروي أخبارهم ويسوق أقاصيصهم؛ ثم يورد رسالة أبي العاصم الثقفي في ذم البخل ومدح الكرم، وجواب ابن التوأم على رسالة الثقفي. وينهي كتابه بذكر أعلام العرب.

٢ - القيمة: وما يستخلص من مطالعة كتاب البخلاء في حقل الاقتصاد والاجتماع أن للبخل نفسية خاصة استطاع الجاحظ أن يرسمها ببراعة عجيبة، وأن لكل شيء في الوجود منفعة لا يكشفها إلا بعيد النظر في الأمور؛ وأن التساهل في الأمور الصغيرة يقود إلى التساهل في الكبيرة، وأن «الغنى سكرًا وأن المال نزوة، فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى، فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله وأنه إذا أراد الله ذهاب مال رجل جعله يرجو الخلف ويوهم بأنه كلما أنفق أخلف الله عليه وعرضه مما أنفق؛ وأن بيوت الأموال درهم إلى درهم، والكثير من القليل كثير...».

وفي الكتاب كذلك أقوال كثيرة ضمنها البخلاء حكمة وطبًا ومعرفة عميقة بأحوال الناس وعظمايتهم، وإدراكًا دقيقًا لأمر لا يفتن لها إلا كل دقيق النظر. فأبو عبد الرحمن الذي يقدمه لنا الجاحظ يظهر من أحكام الناس ومن أعجبهم فطنة. فهو رجل اقتصاد يقول لابنه «أي بني إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوابق وإنفاق الدوابق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين، والمئون تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك على الفروع والأصل، ويطمس على العين والأثر، ويحتمل القليل والكثير». وما أشد ملاحظته وأخف روحه حين يقول: «يا بني، إنما صار تأويل الدرهم «دار الهم»، وتأويل الدينار «يدني إلى النار». وهذا النوع من التأويل فيه تلميح إلى التحت الذي ركبت به بعض الألفاظ. وقد روى الجاحظ أن عبد الأعلى القاص كان ماهرًا في هذا النوع من التأويل، فإذا قيل له: لِمَ سُمِّيَ الكلبُ سلوقيًا؟ قال: لأنه يستل ويُلقي. وإذا قيل له: لِمَ سُمِّيَ العصفور عصفورًا؟ قال: لأنه عصى وفرّ.

وللبخلاء عند الجاحظ أقوال كثيرة في وضع كل شيء موضعه ، وفي إظهار منافع المأكولات وأضرارها من الناحية الصحية ، فنرى الترميد قد الشحم في البطن ، وقشور الباقلاء تحتوي الغذاء « إن الباقلاء يقول : من أكلني بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله » . والإدمان على أكل اللحم مضر ، « مُدمن اللحم كمدمن الخمر » . وقد قيل أهلك الرجال الأحمران : « اللحم والخمر » . وقال أبو ذر : « إن الشيع داعية البشَم ، وإن البشَم داعية السقم ، وإن السقم داعية الموت ... ولو سألت حذائق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما أتوا بالتمخ ... وإن الذاء هو إدخال الطعام في إثر الطعام » ...

ومعكذا نجد أن الكتاب حافل بالفوائد الاقتصادية والاجتماعية ، وإن البخل قد أنطق أصحابه بالحكمة والطب وفلسفة الاقتصاد والاجتماع ، وقادهم الى عمق النظر في الأمور ، وإلى اكتشاف أسرار الموجودات ، وكشف القناع عن منافع المأكولات والمشروبات ومضارها ، وذلك كله بين جد وهزل ممتزجين أحسن امتزاج ، وفي حيوية وخفة ظلٍ وواقعية ولفظٍ تكون منها أدب جاحظي مليء بالروعة .

كل ذلك دليل على مقدرة الجاحظ العجيبة على التغلغل بين طواري النفس البشرية ، وتفهم نزعاتها وتحليل أعمالها وبواعثها وأغراضها ، وعلى مهارته في الجمع بين النظر والتطبيق . وتصيبك من الجاحظ براعته في إظهار « تمويه البخيل وتدليسه على نفسه ، ومراتب البخلاء في البخل وتعدد نواحيهم ، ووجهة نظرهم ، ومواقع خطئهم ، وبواعث بخلهم وجنونهم وعقلهم » ...

والجاحظ في أحاديثه رجل الحر الذي يرويه في إيجاز من اللفظ ينطوي على جميع التفاصيل التي تُخرج الصورة كاملة ذات إجماع وأبعاد ، ورجل القصص الذي يملك العمل حبكاً حافلاً بالتشويق والحياة وخفة الروح ، ورجل التصوير الذي يصور الواقع في غير تشبيه ولا تلوين ، فيبرزه كما هو بالفاظ تدلّ على جميع عناصره وتوضح جميع خفاياه ، وهذا الواقع يتناولهُ الجاحظ في الحياة والأعمال كما يتناولهُ في الطغوس ، وإذا في كلامه صورة حقيقية ، كاملة الأجزاء ، بعيدة عن التمويه والتزيين ، تنطق بحقيقتها في غير مدلورة ولا تعقيد ، والجاحظ رجل السخر الأنيق البعيد عن المرعي الفاقع والفظاظة

القيحية، إنه السخر الفُني الذي يتطلبه الجاحظ بدعوة من طبيعته، والذي يتقد ويضحك ليضحك ويُمكّه.

وهكذا يبدو الجاحظ في كتابه، كما يبدو في سائر كتبه، ذا روح مرحة ونفس فكّية، مهر يضحك الى حد الاستغراق في الضحك، ويعمل ذلك «بعد أن يطلعك على نظرية، فيخرج جلدًا بهز، وعلمًا بلهو، وفلسفة بفنّ، وتفكيراً بحسن اطلاع، وإفادة بمؤانسة وامتناع».

هذا هو كتاب البهلاء، وهذا هو الجاحظ في فنه الرائع. قال أحمد أمين: «لقد كان أكثر الأدب قبل الجاحظ أدباً لا موضوع له، فاستطاع الجاحظ أن يجعل للأدب موضوعاً، وجعل موضوعه كل شيء في الحياة حتى اللصّ والحارية والتاجر والتيّذ والمعلم، وقد كتب في كل ذلك وكتب في البهيل وكانت كتابته فيه أكثر مرحاً وأكثر نقشاً وأكثر إبداعاً».

### ج - كتاب البيان والتبيين

#### ١ - حقيقته:

هو كتاب أدب وضعه الجاحظ للتعليم، وجعله في ثلاثة أجزاء، وسماه «البيان» بمعنى الإفصاح، و«التبيين» بمعنى التفهيم، وللكتاب، على ما ذكر ياقوت، نسختان والثانية أجمد من الأولى، ونحن لا ندرى أيّ النسختين بين أيدينا.

وقد وضع الجاحظ كتاب «البيان والتبيين» في أواخر حياته، وأراد أن يكون وصيته الأخيرة للكتاب. واندليل على ذلك أنه لم يُشر إليه في مقدّمة كتاب «الحيوان» حيث ذكر عدداً كبيراً من كتبه ودافع عنها، وأنه يذكر فيه كتاب «الحيوان» ويقول: «كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب في نوادر الأسفار، فأحييت أن يكون هذا حظّ الكتاب في ذلك



إن شاء الله تعالى». وهو يقول : «وهذا الدب يقع في كتاب الإنسان من كتاب الحيوان». ونحن نعلم أن الجاحظ وضع كتاب «الحيوان» في القسم الأخير من حياته.

## ٢ مضمونه :

بدأ الجاحظ كتابه بالتعوذ من فتنة القول والعمل ، ثم أتى على ذكر الحَصَر والعِي ، وأورد شيئاً من الشعر القديم في ذمها ، كما أورد كلاماً لبزرجهر قال فيه : «إن أسر شيء للعبي عقل يجمله ، فإل يستره ، فإخوان يعصرون عه . فصمت أو موت مريح . ثم انتقل الجاحظ الى فصاحة اللسان ، وعاب التشديق والتقصير والتعقيب عند الخطباء ولكنه وجد هذا كله حيراً من العي المتكلف . وخلص المؤلف من ذلك الى الحديث عن واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ولغته بالراء ، وكيف أنه عمل على إسقاط الراء من كلامه ، وعقب على ذلك بالكلام على اللثغة ، ثم عاد إلى واصل وذكر ما جرى بينه وبين بشر من مشادة ، كما ذكر أنه كان يستعمل لفظة القمح مع أنها لغة كوفية ، ولفظة الخلطة مع أنها لغة شامية ، موضع البر ، مع علمه أن البر أفصح ؛ وهذا يدلون الجاحظ بعض ملاحظاته في الناس وكيف أنهم يستعملون بعض الألفاظ لحقها غير ناظرين الى الأصلح والأفصح فيها . ثم انتقل إلى عيوب اللسان عموماً وما يعرض للخطيب من نَحْثَةٍ وسعلة ، وهذا جره الى الكلام على الخطابة والخطباء ، وعلى الأسنان وعلقتها بالخطابة ثم على تناثر الألفاظ والحروف ، ثم على اللكنة واللكناء من البقاء والشعراء والرؤساء والعامّة .

وبعد هذا كله رجع الجاحظ الى البيان فذكر أنواع الدلالات كالإشارة باليد والرأس والعين والحاءب والمنكب والتوب والسيف ... ثم أورد نصوصاً على البلاغة ثم عاد الى الإشارة والكلام على البلاغة ، ثم ذكر أبواباً في البلاغة واللسان والصمت والشعر والخطب ، والأسجاع من الكلام ...

وفي الجزء الثاني أراد الجاحظ أن يرد على الشعبيّة . قال : «أردنا ، أبقاك الله ، أن

١ - التشدين : هو أن يلوي الخطيب شدةً بالنصح .

٢ - التصير : هو أن يجرح الخطيب كلامه من حلقه .

٣ - التعقب : هو أن يفرح الخطيب كلامه من فم حلقه .

تبتدئ صدرَ هذا الجزء من البيان والتبيين بالرد على الشعوية في طعنهم على خطباء العرب إذا وصلوا أيمانهم بالخاص... ولكننا أحياناً أن نصدرَ هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين والسلف المتقدمين والجملة التابعين... وقد اختار طائفة من الحديث والخطب والحكم والألفاظ، وتكلم على اللحن والحمق والمجانين.

وفي الجزء الثالث رد على الشعوية، وجعل عنوان هذا الرد «كتاب العصا» وقال: «هذا، أبقاك الله، الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والثقف المستفيدة، ولقطعات المستخرجة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المتخفة، ونبدأ على اسم الله تعالى بذكر مذهب الشعوية ومن يتحلّى باسم التسوية».

تلك خلاصة ما تضمنته الكتاب وقد ظهر لنا فيها أن الجاحظ لم يتقيد بموضوع بل كان ينتقل من فكرة الى فكرة، وكانت الفكرة تجرّ الفكرة عن سبيل التذكار والإيماء.

### ٣ - قيمته:

لكتاب الجاحظ قيمة كبيرة في عالم الأدب. قال المسعودي: «وله (أي الجاحظ) كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع بين المنشور والمنظوم وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبلغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به». وقال ابن خلدون: سمعنا من شيوخنا في مجالس العلم أن أصول علم الأدب أربعة عدّ منها كتاب «البيان والتبيين».

١ - كتاب بلاغة: والجدير بالذكر أن كتاب «البيان والتبيين» يعدّ أولى المعاولات لتصنيف في علوم البلاغة، وقد عالج فيه الجاحظ البيان، والبلاغة، واللفظ، والمعنى والكلام المحذوف، كما عالج المبسوط في موضعه والمحذوف في موضعه أي الإطناب والمساواة، والموجز، والكناية والوحي باللفظ، ودلالة الإشارة وما الى ذلك. قال الأستاذ عبد الله اسماعيل الصاوي: «كان كلام الجاحظ (في هذه الأمور) صريحاً، وبحثاً لا يراد منه تلوين علم البلاغة، ولا تبيين أقسامها وقواعدها. فلم يعدّ تفسير آية، أو شرح حديث، أو رواية شعر، أو خطبة، أو رسالة، أو كلمة بليغة، أو شرح كلمة

لغوية. ومن أجل ذلك يُعتبر كتاب أدب ومحاضرات ، وهي في الحق طريقة أجدى من دراسة البلاغة في عصرنا هذا ؛ فقد نخرج عليها أساتذة كثيرون ، وكتاب مفلقون وشعراء مبرزون ؛ لأنها طريقة عملية مفيدة ، تعتمد على محاكاة البلاغة وحفظ كلام الفصحاء لتنتطبع في العقول وتجري اللغة على الأسلات ... فكتاب «البيان والتبيين» يمثل الطريقة التي ينبغي أن يسير عليها طالب البلاغة في عصر الجاحظ والمصور التي تلت عصره ...».

٢- كتاب أدب: وكتاب «البيان والتبيين» من مصادر تاريخ الأدب العربي لما انطوى عليه من أخبار الشعراء والخطباء والكتاب.

قد حفل بالكلام على مقامات الشعراء في الجاهلية والإسلام ، وحوى خطباً للرؤساء وللخلفاء الراشدين ولعامة ، كما حوى وصايا ورسائل وتغزيات ومراني وأوصافاً وأدعية للأعراب وغير ذلك حتى عُدَّ من المراجع المأمنة للأدب الجاهلي والإسلامي والأموي ولأدب صدر الدولة العباسية.

٣- كتاب نقد: أصف الى ذلك أن في الكتاب نظرات قيمة في النقد ، ونقداً عملياً للآثار الكتابية تظهر فيه المحاسن والمساوئ. قال الجاحظ : «كان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامها وألسنتها ، لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يُذكر مثله ، وقبل لابن المقفع في ذلك ، فقال : «الذي أَرْضاه لا يَجِبُني والذي يَجِبُني لا أَرْضاه». وقال متعرّضاً للفرزدق : هذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زير غوان ، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسب مذکور ؛ ومع حسده لجرير ، وجرير غفيف لم يشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً...»

وهكذا يتضح لنا أن الجاحظ كان مؤرخاً وأديباً وناقداً ، وكان في كل ذلك معلماً. وقد عالج النقد في دراسة اللفظة مفردة ومركبة ؛ كما عالجها في أدائها للمعنى ، وفي دقة ذلك الأداء ووضوحه وسهولته ، وأقام الصلة بين اللفظة والمعنى ، كما أقام التناغم بين اللفظة واللفظة ، والحرف والحرف ؛ ونظر في البلاغة وطرائقها ، والفصاحة وأساليبها ، وذلك عن طريق دراسة النصوص وإظهار جيلها وردبها. وفي كلام الجاحظ واقعية مطلقة ونزعة شديدة الى الأدب الجوّاد في غير قناع أو قيد.

وهو يدعو من ثم إلى الحرية في الأدب واللغة وإلى أن يُجعل لكل مقام مقال، «فلكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسَّخِيفُ للسَّخِيفِ، والحقِيفُ للحَقِيفِ والحَزْلُ للحَزْلِ، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال...».

وهو يدعو إلى أن تكون الألفاظ في خدمة المعاني، على أنها أقتنى لإيصال تلك المعاني إلى ذهن القارئ أو السامع في غير اعوجاج ولا عموض: «وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه.»

وقد عرض للأدباء وقارن فيما بينهم وأبدى في شأنهم ملاحظات قيمة، إلى غير ذلك مما كان أساساً في علم النقد وتطوُّر مذاهبه.

٤ - مزيج من ثقافات: ويعرض أحمد أمين لكتاب «البيان والتبيين» في «ضحى الإسلام» ويظهر أنه مزيج من ثقافات. قال: «كتاب البيان والتبيين والحيوان خير كتبه التي يظهر فيها الامتزاج واضحاً قوياً» والذي يهمننا هنا مظهر امتزاج الثقافات في الكتاب، والحق أن للثقافة العربية فيه المظهر الأكبر، والسبب في ذلك أن الكتاب كتاب أدب، وقد أبنا قبل أثر تلك الثقافات في الأدب وأنه أقل منها في العلوم، ومع هذا فحظ الثقافات الأخرى في هذا الكتاب غير قليل — انظر إليه وهو يقارن بين آراء الأمم في تعريف البلاغة فيقول: قيل لنفارسي ما البلاغة؟ قال معرفة الفصل والوصل، وقيل لليوناني ما البلاغة؟ قال تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وقيل للرومي ما البلاغة؟ قال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال وضوح الدلالة وابتهاز الفرصة وحسن الإشارة. وينقل صحيفة عن الهنود في البلاغة وشروطها وينقل عن فني من النصارى الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يجتاز جاثليقاً.

وينقل عن بزرجمهر، وعن المسح ويحكى أسطورة الخطباء الذين تكلموا عند الاسكندر لما مات، ويقارن بين مقدرة العرب على الخطابة ومقدرة الفرس والزنج، ويحكى أن للفرس كتاباً في صناعة البلاغة وأن لليونان منطقاً يعرف به السقم من الصحة والخطأ من الصواب؛ وأن للهنود كتاباً في الحكم والأسرار من قرأها عرف غور

تلك العقول وغرائب تلك الحكم ، ويرى أن كلام الفرس يصدر عن فكرة وطول روية واجتهاد وخلوة — ومشاورة ومعاونة ، وكلام العرب صادر عن بديهة وارتجال حتى كأنه إلهام .

ويذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا وعادة الجاثليق في اتخاذ القناع والمظلة والعكازة ، ويحكى مذهب التناسخ الذي أبتأ من قبل أنه للهند ، وينقل في باب الزهد كلاماً طويلاً لعيسى عليه السلام ويحكى مواعظ لداود عليه السلام ، ويحكى عن أردشير أنه قال : احذروا صولة الكرم إذا جاع ، ولثيم إذا شبع .

هذا مثل من أمثلة المزج بين الثقافات ، فقد رأيت أنه عرض أدب العرب وأدب الفرس وحكم الهند ونصائح اليهودية والمسيحية ، هذا إلى أنه ينقل عن فرس تعربوا ويذكر حكمهم ، كسهل بن هارون وابن المقفع والأسواري ، وهي لا شك وليدة فرس وعرب ، ولكن بالمقارنة نرى كما أشرنا أن للأدب العربي في هذا الكتاب الحظ الأكبر والنصيب الأوفر لأنه موضوعه .

هذا هو كتاب «البيان والتبيين» ، وقد كان تأثيره واسعاً في عالم التأليف إذ نحا نحوه المبرد في كتابه «الكامل» ، وقدامة بن جعفر في «نقد الثر» ، وابن قتيبة في «عيون الأخبار» وغيرهم ممن عالجوا الأدب وكتبوا فيه . وهكذا كان الجاحظ عالماً ومعلماً ، وأديباً ومؤدباً .

## د - رسالة الترييع والتدوير

١ - ما هي .

هي رسالة هجاء وجهها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهّاب الذي كان يخافه ويظايله ، فتندر عليه ، ونعته بالعرض والضخامة دون الطول ، وجمع فيه الترييع والتدوير ، وبين جهله في عالم ادعائه ، وعاباه بمئة مسألة علمية طلب عنها جواباً . وتعد هذه الرسالة شاهداً على ما وصل إليه العلم في ذلك العصر ، كما تعد آية من آيات التهكم والسخرية أطلق فيها الجاحظ قلمه ولسانه ، وجعل من ابن عبد الوهّاب صورة

حسبة مضحكة، وصورة ذهنية فارغة، وجعله موضوعاً كلامياً جمع فيه المقارقات والتناقضات بفروب من الجدَل والاحتجاج والحوار.

## ٢ - قيمتها :

١ - هنا هزة فني يركب فيه الجاحظ خصمه تركيباً هندياً يجمع فيه المتناقضات والمتباينات؛ وهو يقلبه تقليباً، ويجعله في مواقف مختلفة، يمدّه تارةً ويضسه أخرى، يوسع جفرتُه ويضيض خاصيرته ... وهو في هذا كله يعالج رأيه في نفسه ورأي الناس فيه، وكأنه قضية من القضايا التي تهم الناس أجمعين.

٢ - والجاحظ في هذه الرسالة رجل نقاش كلامي من الدرجة الأولى، يُسخر كل ما لديه من طاقة لسانية وسفسطة هائلة لإخراج ابن عبد الوهاب محرّجاً فريداً من نوعه. فهو يجعله رجل حجّاج وجدل يري في عين الله ما لا يراه الناس، ويجعل الناس مختلفين في أمور، متفقين في غيرها، وكل ذلك لإبراز القبح وإنطاق الصورة.

٣ - والجاحظ رجل فصاحٍ وبلاغة قلباً اجتمعتا لغيره، وله مقدرة على تصريف اللغة في ما يريد، تصريفاً عجبياً، فهي تتلوى، وتتلون مع كل معنى، وكل جزء من أجزاء المعنى، في غير صعوبة، ولا تمقّد، ولا اضطراب، ولا غموض.

## ٤ - منزلة الجاحظ وخصائصه العامة :

١ - عصف في عصر الجاحظ تيارات العلم والمعرفة، وتشتعت فروعاً ومذاهب، بعد أن نُقلت إلى العربية ثقافة اليونان والهند وفارس، وبعد أن ضجّت الآفاق بمناطق أرسطو ونقحات أفلاطون، وطب جالينوس، وهندسة اقليدس، ورياضيات أرخميدس. واضطربت الفروق اصطراعاً شديداً تعالى فيه صوت الاعتزال منادياً بالعقل إماماً وهادياً، كما اضطرت المدارس الأدبية بين قديم وحديث، وعربي وأعجمي، ومُرسل ومُصنّع. وسارت الآراء في كل متدى ونحت كل فضاء، تعالج قضايا الاجتماع أو تبحث في مقتضيات الحياة، في تزمت تارة، وفي تراخ طوراً، في انقباض حيناً وفي تحرر حيناً، والناس منهم اللاهون والمريدون، ومنهم الزاهدون والمتصوفون، منهم السائحون والأغبياء، ومنهم المجادون والعقلاء، وقد تشتت القلوب في تطلب

الجديد ، والالام بكلّ طريف ، وانتشرت التزعة الانتقائية التي تريد أن تأخذ شيئاً من كلّ شيء ، وطرفاً من كلّ علم . وكان ابن المقفع وأتباعه قد نقلوا الكتابة من حقل الغناء والحطابة الى حقل البحث والتقيب ، وبحال الفكر التفصيلي . وقد تمخّص العصر بكلّ ذلك تمخّصاً شديداً ، كان منه رجل اتسع صدره لكل علم وأدب ، ولكل ثقافة وكلّ فنّ ، وتقلّب مع الأيام وفي ظلّ الخلافات والوزارات ، وخبر من الشعب مختلف الطبقات ، ولمس شتى التزعات والعقليات ، وجمع في نفسه ما للعرب وما للأعاجم ، وشهد اصطراع العرب والشعوبية ، وتزاعات المذاهب والعصبية ، دائناً بدين العقل الاعترائي ، مناضلاً في سبيل العقيدة الخاصة ، متصرفاً في طرائق العيش تصرف الجد والمزول ، وقد أراد أن يكون رجل الساعة ، وموسوعة العصر ، فذهب في الكتابة كلّ مذهب ، ناشراً علم العصور في أدب فياض ، وأسلوب نظم طائفة جليلة من الكتب في سلك مآثر الخالدين ؛ وذلك الرجل هو الجاحظ معلّم العقل والأدب . ولا عجب في أن يصبح الجاحظ شغل الأجيال ، ولا عجب في أن تُعنى به الألسنة والأقلام . وكتب الجاحظ ، وإن لم تبق الأيام إلا على التيزر القليل منها ، فاقرة واسعة للمعارف ، ومدرسة رجة بمبادئها وأسلوبها ، وهي علم وأدب ممتزجان أحسن امتزاج ؛ وهي في رأي ابن العميد علمٌ أولاً وأدب ثانياً ؛ وهي أخيراً أدب خالد ، وبمجموعة معارف إن فقدت صبغتها الأدبية الجاحظية فقدت أروع شيء فيها .

٢ - ولئن ظهر الجاحظ بمظهر الفيلسوف والعالم المحقّق فهو في كتبه عامّة وفي «الحيران» خاصة ، رجل الجمع أكثر ممّا هو رجل التحوي العلمي الواسع النطاق . فقد لبث في تحقيقاته ضمن نطاق الجزئيات ، ولم تساعد موضوعات موادّ المتعدّدة ، وفوضويّة قوله وعمله ، وأحوال حياته وبيئته ، وضعف وسائله الاختباريّة ، على الغوص الى الأعماق ، وتعذّي السطحيّات — عنى ما عنده من نحات ونظرات عميقة ، والتحقاشي عن جَمّ الأضاليل والأوهام . إنه رجل علم عرف موادّ العلم وأسابيله . ولم يفته الذكاء النافذ ، وإنما فاتته الأحوال المؤاتية ، والجلّد المنطقيّ الصارم ، والوسائل الاختباريّة الفعّالة ، فكان معلّماً للعقل وكان ، على كلّ حال وقبل كل شيء ، معلّم الأدب لأنّ المادة الغزيرة لم تخلد إلا بالأسلوب الأدبي .

٣ - كان الجاحظ أدبياً في كلّ ما كتب وسطر ، أدبياً في طبيعته وحياته ونزعاته ،

أديباً جعل من العلم مادةً لأدبه ، ونقطة انطلاق لاستطراداته وانفلاتاته . فكان راوية لأخبار الأدب والأدباء ، وكان أستاذاً للأدب في شتى أساليبه ومبادئه ، وكان قبل كل شيء وبعد كل شيء ، كاتباً من أبرع كتاب العربية وأروعهم تعبيراً .

قبل أن كتب الجاحظ «رياض زاهرة ورسائل مشمرة» ، وقال ابن العميد : «إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة والسنن والعارضة .» وقصّ الرواة أنه قيل لأبي هذيل : «لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك؟» فقال : أمثلي يُخدّع عن عقله ، والله لو وضع رسالة في أرنبه أني لما أُمست إلا بالصين شهرة . ولو قلت فيه ألف بيت لما طُرّ منها بيت في ألف سنة . وكان الجاحظ يُعنى بالفاظه ومعانيه جميعاً دون أن يحور أحد الفريقين على الآخر أو يحيف عليه . قال شوقي ضيف : «إن الجاحظ حطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في حلالة وبيان عذب . وكأني به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معاني تنسق في موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان ... وعناية الجاحظ بكتبه ورسائله وأسلوبه لم تكن تجمعه يخرج إلى التماس الألفاظ من حيث هي ألفاظ ، فقد كان يرى أن «شَرّ البلغاء من هيا رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى . عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجرّ إليه المعنى جرّاً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره .» فالجاحظ كان يكره العناية البالغة باللفظ ، تلك العناية التي تسوق صاحبها إلى حفظ أساليب محفوظة بذاتها يبنى عليها معانيه ويصوغ عليها أفكاره . فهو رجل الاعترال ، أي رجل العقل والحدل ، يتطلب الحقيقة بكلّ قواه ، ويسعى جهده للتعبير عنها تعبيراً بيّناً يظهر جميع دقائقها قريبة إلى الألفهام . ولأجل ذلك فهو يعدل عن أساليب المجاز ما استطاع ، وإن عمد إلى شيء من الاستعارة والتشبيه فما ذلك للزخرفة وتطلّب الصنعة ، بل لوضوح الإبانة بطريقة واقعية محسوسة ، ومن ثمّ فاستعارته وتشبيهاته بعيدة كلّ البعد عن التعقيد والإغراب ، قريبة كلّ القرب إلى الألفهام .

٤ الجاحظ يراعي أبداً مقتضى الحال في كتابته . فهو خير بفسية الإنسان ، ومفتنّ ماهر في إرضائها ، يراعي أحوال القارئ في عصره ، ويتحدث إليه بأسلوب



طبيعي ، هو أسلوب الحياة في غير تقييد ولا ضغط ولا تمويه ، ولذلك تراه واقعياً في ما يكتب ، يحكي الواقع في غير تحفظ ولا مداورة ، فيذكر السوءات والعورات . كما يذكر الفضائل والخسرات في جرأة وصراحة لا تشعر معها بغربة أو بجهد ، ومذهبه في ذلك أن الأدب صورة الواقع ، ولسان الحياة في شتى حركاتها وزيغاتها . وقد قاده واقعته الى التدقيق في الألفاظ واختيارها بحيث تتلاءم مع المعنى « حتى انه ليحكي كلام المولدين والعوام » فيه من لحن وخطل ليقبل إليك الواقع بكل ما فيه » .

٥ . ونزعة الواقعية ومراعاة مقتضى الحال قادت الجاحظ الى ضروب من الاستطراد والاستشهاد ومنح الجهد بالهزل . وذلك على حد قوله : « إن الأسباع تملّ الأصوات المطرية ، والأعاني أحسنه ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها » . فهو يعمد الى هذه الطريقة دفعاً للملل القارئ ، قال : « قد عذبت ، والله الموفق ، أن أوشح هذا الكتاب ، وأفضل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل ... » . والغاية نفسها تقوده أيضاً الى اتخاذ الأسلوب القصصي في معظم استطراداته وأحاديثه ؛ وقصصه حافل بالعدوية والحقفة والحياة . وكانت نفس الجاحظ أميل ما تكون الى هذه الأساليب التي تبعد عن الوحدة الرتيبة ، وعن المنح المرسوم . فاندفعت في كتبها اندفاعاً طبعياً وسم تلك الكتب بسمة التنوع ، وسرعة الانتقال من حال الى حال ، وليل الى اللعابة والمرح مما لئن جفاف البحث العلمي ، وأشاع في الكتابة موجة سرور تبعها نادرة غريبة ، أو فكرة لطيفة ، أو ترجمٌ هازئ ، أو ما الى ذلك من ضروب الهزل أو التهمك .

٦ وهكذا ذهب الجاحظ في كتابته مذهب الدقة ، والوضوح ، والانطلاق الحياثي ، والواقعية الصريحة ، وابتعد عن العراة والحشونة ، وقد أحسن تصيد الألفاظ ، فقدر اللفظة بجرسها ، ورتبها ، وما ينتظر من تأثير توضعها وتلحينها إذا قرئت الى أختها ، وميز الثقبية والخفيفة ، والمأنوسة والوحشية ، فاختر ما يؤدي معاه حق الأداء ، وأنزله في منزله ، لا تعصيه كلمة مها دق موضوعه ، ولا يطوي لسانه على معنى في قلبه لا يتسنى له إبرازه بالنطق أو تمثيله باللفظ . وهكذا كان نصّاً وبناً في آن واحد ، ينظر الى شئين في ألفاظه . الدقة والموسيقى . ومن ثم شاعت العدوية في كلامه ، والروعة في كتابته . وفوق ذلك كله نجد عند الجاحظ روعة إيجازية عجيبة في

تركيب العبارة ، وإن لم يتحاش عن التكرير والإطناب . فهو عندما يني عبارته يتحدث بها متحدثاً ، فيحذف منها ما تنوب عنه الإشارة في الحديث ، أو ما تنوب عنه رتبة الصوت المحي ، أو غمزة العين ، أو ما الى ذلك مما هو للجاحظ وليس لأحد سواه .

• • •

ولئن كان لنا قول نقوله في ختام هذا البحث فهو أن ميزات الجاحظ أكثر من أن نحصى . فهو ولا شك معلم العقل بما جمع من معارف وثقافات ، و بما صمّن كتابته من جدال ونقاش ، وهو معلم الأدب بما روى من أخبار الأدياء وآثارهم ، وبآرائه في الكتابة والبلاغة ثم بأسلوبه الرائع الذي ضمن له الخلود والبقاء فيما اندثرت آثار غيره من أرباب العلم الذين كاد الدهر يمحو حتى أسماءهم من لوح الوجود .



## مصادر ومراجع

- شفيق جبري : الجاحظ معلم الطفل والأدب — القاهرة ١٩٤٨ .
- حما الفناخوري : الجاحظ (سلسلة بوابع الفكر العربي) — القاهرة ١٩٥٣ .
- حسن المستوفي : أدب الجاحظ — القاهرة ١٩٣١ .
- طه حسين : من حديث الشعر والنثر — القاهرة ١٩٦٣ — ص ٨٠ — ١٢٣ .
- جميل جبر : الجاحظ بيروت ١٩٦٠ .
- فؤاد البستاني : الجاحظ (سلسلة الروائع) — بيروت .
- محمد المبارك : فن القصص في كتاب البهلاء للجاحظ — دمشق ١٩٤٠ .
- محمد طه الحاجري : كتاب البهلاء للجاحظ القاهرة ١٩٤٧ .
- محمد كرد علي : أمراء البيان ٢ — القاهرة ١٩٣٧ .
- ماجد شيخ الأرض : أسلوب الجاحظ الحديث ٤ : ٦٥٣ .
- محمد فهمي عبد النظيف : دعابة الجاحظ — الرسالة (١٩٣٧) : ٢٢٠ ، ٢٥٥ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٨٥ ، ٥٠٨ .
- أحمد أمين : ثقافة الجاحظ — في كتابه وفيض الخاطر ٤ : ٢٨٨ .
- عبد الملك عبد اللطيف نوري : مع الجاحظ في حياته وأدبه — الأدب ٥ العدد ١٢ : ٨ .
- إحسان النص : بين فولتير والجاحظ — الثقافة ١ : ٢٠ .

# أبو الفرج الأصفهاني - ابن قتيبة - المبرد الصولي - الثعالبي

أ - أبو الفرج الأصفهاني :

١ - تلميذه . وُلد بأصبهان سنة ٢٨٤ هـ ونشأ بفنداء مكيناً على العلم حتى أصبح خزائن معارف .  
اتصل بالخلفاء والأمراء والوزراء ، وقدم كتابه «الأعني» لسيف الدولة . توفي سنة ٥٣٦ هـ /  
٩٦٧ م .

٢ - له : للأصبهاني كتاب «الأعني» وهو موسوعة أدبية وتاريخية ، ومصدر هام من مصادر  
الأدب والتاريخ ، وهو أجمع كتاب للأدب العربي ، وأسلوبه شديد الروعة يطلق إطلاق  
حياة واقعية .

ب - ابن قتيبة :

وُلد في بغداد سنة ٢٦٣ هـ وسكن الكوفة وكان إماماً من أئمة الأدب . من آثاره «أدب الكاتب»  
و«الشعر والشعراء» .

ج - المبرد :

وُلد في بصرة سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م وتوفي في بغداد . أشهر آثاره كتاب «الكامل» .

د - الصولي :

تقدم ثلاثة من خلفاء بني العباس وكان من أكابر علماء الأدب توفي في البصرة سنة ٣٣٥ هـ /  
٩٤٦ م من آثاره «أدب الكاتب» و«أنبار أبي تمام» .

هـ - الثعالبي :

وُلد في بساطة سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م . كان في عصره من أئمة اللغة والأدب والتاريخ أشهر  
مؤلفاته «بيتة الشعر في شعراء أهل العصر» .

## أ - أبو الفرج الأصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧ م)

## ١ - تاريخه :

وُلد أبو الفرج بأصفهان ونشأ بيفداد في عصر النُصُوج العلميّ، فحقد العربية وحصل العلوم الواسعة وحفظ الكثير من فنون الأدب واللغة، ووعى من الأشعار والأغاني والآثار ما لا حدّ له، وأكبّ على العلوم بمختلف فروعها ينهل من ينابيعها، حتى أصبح خزانة علم ودائرة معارف. قال القاضي التنوخيّ وهو أحد معاصري الأصفهانيّ: «ومن الرواة المتشيعين الذين شهدناهم أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانيّ، فإنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المُستندة والنسب ما لم أر قطُّ من يحفظ مثله، وكان شديد الاختصاص بهذه الأشياء، ويحفظ دون ما يحفظ منها علوماً أخرى، منها: اللغة، والنحو، والخرافات، والسير، والمغازي، ومن آله المنادمة شيئاً كثيراً، مثل علم الجوارح والميَّطرة، ونُسَف من الطبِّ والأثرية وغير ذلك». ولما نَبّه ذكره اتصل بالخلفاء والأمراء والوزراء، فكان نديماً لمعز الدولة، كما انقطع إلى الوزير المنهليّ.

وكان شأن أبي الفرج الأصفهانيّ، على علوّ مرتبته العلميّة، شأن أكثر الشعراء والأدباء في معايرة الحمر والعبث ووصف النساء. وقد توفّي نحو سنة ٣٥٦ هـ بعد حياة مليحة بجبيل الآثار.

## ٢ - أدبه :

لأبي الفرج الأصفهاني مؤلفات كثيرة ذكر منها المؤرخون نحو ثمانية عشر مؤلفاً أشهرها كتاب «الأغاني».

١. طبعات كتاب الأغاني : هو أشهر الكتب الموضوعة في أخبار الشعراء والمغنين والأدباء. طبع في مصر في عشرين مجلداً وقام المستشرق رودولف برونو طبع المجلد

الحادي والعشرين منه في ليدن عام ١٣٠٥ هـ. وفي سنة ١٨٩٥ وضع له المستشرق الإيطالي غويدي فهرساً أبجدياً عاماً. وفي السنوات الأخيرة اهتمت دار الكتب المصرية للكتاب فطبعت طبعه أئيقه، وأكبت عدة دور نشر في لبنان على طبعه. منها: دار الثقافة التي أخرجته في ٢٥ مجلداً وضمت المجلدين الأخيرين منه (٢٤ و ٢٥) فهارس في شتى محتوياته.

٢- مضمونه: صدر المؤلف كتابه بمئة صوت كان هارون الرشيد قد أمر مقنيه ابراهيم الموصلي وبعض مشاهير المفتين أن يختاروها له، فعول الأصبهاني عليها وعلى ما اختاره إسحاق بن إبراهيم اللواتي، وما اختاره غيره من أهل العلم بصناعة القضاء. وأهمية الكتاب قائمة على ما حواه من أخبار وأشعار «لأن المؤلف — على حد قول جرجي زيدان — إذا ذكر أبياتاً على لحن وعين نعمها ومن غناها، استطرد الى ذكر ناظمها وترجمته، والأحوال التي قيلت فيها من حرب أو حب في الجاهلية أو الإسلام، ومن غناها ومن شهد ذلك وأسبابه وأحواله، فوردت تفاصيل ذلك بالدقة والإستاد. فاحتوى الكتاب على أخبار مئآت من الشعراء والأدباء والمفتين والعشاق والخلفاء والقواد، وأكثر أيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابهم ووقائعهم وغزواتهم وميامهم، وفيه خير أشعار الجاهلية والإسلام ولا سيما ما كانوا يغنون به، وآداب القوم في طعامهم وشرابهم واجتماعهم وحروبهم وزواجهم وطلاقهم وسائر أحوالهم». وهكذا فالكتاب موسوعة أدبية وتاريخية ومصدر هام من مصادر الأدب والتاريخ.

والذي يروى أن الأصبهاني جمع كتابه في خمسين سنة، وحمله الى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار وأعتذر إليه، وحكي عن صاحب بن عباد أنه كان في أسفاره وتقلاته يستصحب ثلاثين رجلاً يحمل له الكتب، فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى به عنها. وما يروى أيضاً أن صاحب بن عباد قال عندما عرف بالمكافأة التي قابل بها سيف الدولة كتاب الأغاني: «لقد قصر سيف الدولة وإنه ليس شحيحاً أضاعها إذ كان مشحوناً بالخاصة المنتخبة، والفقير الغريب، فهو للزاهد فكاهة، وللعالِم مادة وزيادة، وللكتاب والمؤدب بضاعة وتجارة، وللبطل رحلة وشجاعة، وللمنظر رياضة وصناعة، وللملك طيبة وللدابة».

## ٢- قيمة كتاب الأغاني :

١- قيمة التاريخية : لقد كان كتاب الأغاني ولا يزال مرجعاً هاماً من مراجع التاريخ. فقد صُوِّرَ وتَتَبَّعَ حركة الغناء والموسيقى في صدر الإسلام وفي المهدلين الأموي والعباسي ، وترجم لأكثر المغنين المعروفين في تلك المدة ، وجمع الأغاني العربية قديمها وحديثها ، «وانفرد بذكر الغناء العربي وقواعده وآلات الطرب والموسيقى التي كانت مستعملة وشائعة في أزهى العصور الإسلامية». ومما ذُكِرَ من هذا القليل صفات المغني قال — والكلام على لسان ابن سريج — «المصنِّبُ المحسنُ من المغنين هو الذي يُشَبِّعُ الألحانَ ، ويملأُ الأنفاسَ ، ويعتلكُ الأوزانَ ، ويُفَحِّمُ الألفاظَ ، ويعرفُ الصوابَ ، ويُقيِّمُ الإعرابَ ، ويستوفي النغمَ الطولَ ، ويحسنُ مقاطعَ النغمِ القصارَ ، ويصيبُ أجناسَ الارتفاعِ ، ويختلسُ مواقعَ النبراتِ ، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات».

وصوِّرَ لنا كتاب الأغاني ميل بعض خلفاء بني أمية وبني العباس إلى الترف والغناء حتى كان مثلاً الوليد بن يزيد «يلبس منه — أي من الجوهر — العقود ويغيرها في اليوم مراراً كما تُغَيَّرُ الثياب شغفاً ، فكان يجمعه من كلِّ وجه ويغالي به» ؛ وحتى كان مثلاً يزيد بن عبد الملك شديد التأثر بالغناء ؛ ومما جاء عنه في الأغاني أنه سمع معبداً يُغَنِّي فصاح : «أحسنْتَ والله يا مولاي ! أعدْ فداك أبي وأمي ، فردَّ مثلَ قوله الأول ، فأعاد ، ثم قال : أعدْ فداك أبي وأمي ، فاستخفَّ الطَّربُ حتى وثب وقال لبجواربه : افعلْ كما أفعلُ ، وجعلَ يدور في الدَّارِ ويدورن معه وهو يقول :

يَا دَارُ دَوْرِي ، يَا قَرَقَرُ امْسِكِي  
أَلَيْتُ مِنْذُ حِينِ حَقًّا لَتَصْرِي  
وَلَا تُوَاصِلِي بِإِلَهِ قَارِحِي  
لَمْ تَذْكُرِي يَمِينِي !

قال : فلم يزل يدور كما يدور الصبيانُ ويدورن معه حتى نحرَ مفضياً عليه ووقعَ فوقه

ما يعقل ولا يعقلن، فابتدعه الخدم فأقاموه وأقاموا مَنْ كان على ظهره من جواريه وحملوه وقد جاءت نفسه أو كادت<sup>١</sup>.

ووصف كتاب الأغاني القصور وما فيها من رياش وحلى، ومن ملابس فاخرة، وتلوان زاهية، ومن حوار وقيان، ووصف البساتين وبجالت الشرب ومسايد الطير والسمك وما إلى ذلك.

ووصف المواكب والاحتفالات ومن ذلك ما جاء في وصف موكب المتوكل بسر من رأى قال: «لما عَقِدَ المتوكلُ لولاءَ المَهود من ولده ركب يسر من رأى ركبته لم يرَ أحسنَ منها، وركب لولاءَ المَهود بين يديه، والأترك بين أيديهم أولادهم يمشون بين يدي المتوكل بمناطق الذهب، في أيديهم الطَّبْرِيزِيَّاتُ<sup>٢</sup> المُحَلَّةُ بالذهب، ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجَوَانِحِيَّاتِ<sup>٣</sup> وسائر السفن، وجاء حتى نزل في القصر الذي يُقال له «المَروس»، وأذنَ للناس فدخلوا إليه، فلما تكاملوا بين يديه، مثَلُ إبراهيم بن العباس بين الصَّفَيْنِ، فاستأذن له، فقال:

وَلَمَّا بَدَأَ جَعْفَرُ فِي الْحَمِيهِ	سِرَّ بَيْنَ الْمُطَّلِ <sup>٤</sup> وَبَيْنَ المَروسِ
بَدَأَ لَا يَسُوءُ بِهَا حُلَّةً	أَزِيلَتْ بِهَا طَالِعَاتُ النُّحُوسِ
وَلَمَّا بَدَأَ بَيْنَ أَحْبَابِهِ	وَلَوَا المَهود وَعَزَّ الشُّوسِ
عَدَا قَمَرًا بَيْنَ أَفْسَارِهِ	وَشَمْسًا مُكَلَّلَةً بِالشُّمُوسِ
لَا يَفْقِدُ نَارَ وَأَطْفَائِهَا	وَيَوْمَ أَنْبَقَ وَيَوْمَ عَبُوسِ

ثم أقبل على ولادة المَهود فقال:

أَضَحَّتْ عَرَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُنَوَّطَةٌ	بِالسَّعْصِ وَالْإِعْزَازِ وَالنَّشَاطِيدِ
يَخْلِفُهُ مِنْ هَائِمٍ وَثَلَاثَةٌ	كَتَمُوا الْخِلَافَةَ مِنْ وَلَاةِ عَهودِ

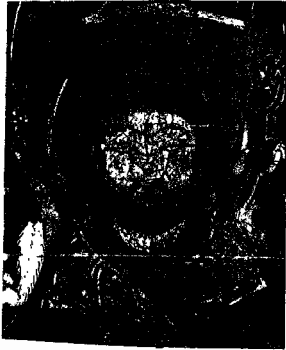
١ - الأغاني [ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ (مطبعة دار الكتب المصرية).

٢ - الطبريزي: آلة من السلاح تشبه الطلح (الفأس).

٣ - الجوانحيات. نوع من السفن.

٤ - المثلل سم مكان أو قصر، كما هو ظاهر من السياق.





كتاب الأغاني للأصفهاني - الجزء ١٥  
ملك على عرشه تحيط به حاشيته —  
عن مخطوطة من القرن ١٣ مرسومة  
بالرسوم الملونة

✱

قَسِرَ ثَوَانَتْ حَوْلَهُ أَقْمَارُهُ      فَسَحَقْنَ مَطْلَعَ سَعْدِهِ بِسَعْدِهِ  
رَفَعَتْهُمْ الْأَيَّامُ وَارْتَفَعُوا بِهِ      فَسَعَوْا بِأَكْرَمِ أَنْفُسِ وَجْدِهِ  
فَأَمَرَ لَهُ التَّوَكُّلُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَأَمَرَ لَهُ وَلَاةُ الْيَهُودِ بِمِثْلِهَا<sup>١</sup> .

وهكذا كان الكتاب من الوجهة التاريخية مهلاً قرأ وينوعاً قيّماً وإن كاد صاحبه يقتصر في وصفه على ناحية اللهو والعبث من الحياة . والذي يزيد في قيمة الكتاب من هذه الناحية أن صاحبه كان شديد التدقيق في التحقيق وتحري الصواب .

٢ - قيمة القديمة والأدبية : وبما لا ريب فيه أن كتاب الأغاني من أهم مراجع تاريخ الأدب وقد ترجم مؤلفه لأكثر الشعراء الأقدمين ، وهو أجمع كتاب للأدب العربي ، ولولاه لضاع معظم الشعر العربي . وقد اهتم أبو الفرج للنقد الأدبي التاريخي اهتماماً خاصاً . فتراه يحاول التبع والتحرّي في عناية وإخلاص ، فلا يكتفي بالإسناد إلى الرواة ، بل يتقد ويبيّن أوجه الخطأ أو التناقض بين الروايات ، ومن ذلك أنه أورد الأبيات التالية لداود بن سلم ، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ثم علّق عليها على الأسلوب التالي :

قُلْ لِأَسْمَاءَ أَنْجِزِي السَّيْعَادَا      وَأَنْظُرِي أَنْ تُزَوِّدِي مَيْلِكَ زَادَا  
إِنْ تُكُونِي حَلَلَتْ رَبْعاً مِنَ الشَّأ      مِ وَجَاوَزَتْ جَمِيراً أَوْ مُرَادَا  
أَوْ تَنَافَتْ بِكَ النُّوَى فَلَقَدْ قُدَّ      تِ مُوَادِي لِحَبِيبِهِ فَانْقَادَا  
ذَلِكَ أَتَى عَلِقَتْ مَيْلُكَ جَوَى الْحَدِّ      سَبُّ وَلِيدَا فِدَتْ سَيِّئَا فِدَادَا

ثم قال : « وقد كنّا وجدنا هذا الشعر في رواية علي بن يحيى عن إسحق منسوباً إلى المرقش ، وطلبناه في أشعار المرقشين<sup>٢</sup> جميعاً فلم نجده ، وكنا نظنّه من شاذّ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داود بن سلم ، وفي خبر أنا ذاكره في أخبار داود . وإنما نذكر ما

١ - الأغاني ج ١٠ ص ٦٤ (طبعة دار الكتب المصرية) .

٢ - يعني بالمرقشين ، المرقش الأكبر والأصغر . الأكبر هو عمرو بن سعد بن مالك بن صبيبة بن قيس بن نعلبة بن بكر بن الوائل والرقش الأصغر هو ربيعة بن حرملة ، وهو ابن أخي المرقش الأكبر ، وهو أيضاً عم طريق بن العبد .

وقع إلينا عن رواته ، فما وقع من غلط فوجدناه أو وقفا على صحته أثبتناه ، وأبطلنا ما فوط منا غيره ، وما لم يجز هذا الجري فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يلزمنا لومَ خطئ لم نعلمه ولا اخترعناه ، وإنما حكينا عن رواته ، واجتهدنا في الإصابة ، وإن عرف صواباً مخالفاً لما ذكرناه وأصلحه ، فإن ذلك لا يضره ، ولا يخلو به من فضل وذكر جميل إن شاء الله<sup>١</sup> .

٣ - قيمته الفنية : لكتاب الأغاني قيمة فنية كبرى وقد حفل بالنوادر والفكاهات والأفاصيص التاريخية المليئة بالحياة ، في أسلوب شديد الروعة ، يعوّب انطلاقاً ، ويتقلب مع نبضات الحياة ، خفيفاً ، سريعاً ، شديد الطون ، شديد الواقعية ، شديد المراجعة للمقتضى الحال ، يتطق بلسان كل إنسان ، في نزعاته المختلفة ، وعقليته الخاصة ، ولهجة الخاصة .

ولأبي الفرج مقدرة عجيبة في خلق اللون المحلى وفي تمثيل الأحداث ، وإظهار نفسية الأشخاص . وفي إيراد الأحاديث نابضة بالحياة ، والحوار خافقاً بالحركة ، وله مقدرة عجيبة في إقحام الجمل المعترضة في الكلام ، وإذا هي ظرف وتنويع وإحياء للمشاهد ، وله مقدرة عجيبة في تركيب الكلام الوجيز ، وفي الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، وما إلى ذلك مما يجعل عباراته أشخاصاً طروباً لعبوبة ، تيزخر بالمعاني والأحداث والتمثيل .

هذا شيء وجيز عن كتاب الأغاني الذي يعد بحق موسوعة في الأدب والتاريخ ، وكتراً ضخماً من كنوز المعرفة وبستاناً رائعاً من بساتين الظرف والحياة المشرقة .

## ب - ابن قتيبة ( ٢١٣ - ٢٧٦ هـ / ٨٢٨ - ٨٨٩ م )

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الملقب بالدينوري نسبة إلى دينور التي ولي قضاءها . وُلِدَ في بغداد وسكن الكوفة وكان إماماً من أئمة الأدب ، وفقهاً ومحدثاً

١ - راجع الأغاني ج ٦ ص ٩ (طبعة دار الكتب المصرية) وج ٦ ص ١٠ من طبعة دار الفكاك .

ومؤرخاً. قصد البصرة واتصل بالجاحظ ثم انتقل الى بغداد وتوفي فيها سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م. كان «صادقاً في ما يرويه، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف».

لاين قتيبة آثار كثيرة قبل إنها ثلاث مئة كتاب في شتى الموضوعات، منها: كتاب «معاني الشعر الكبير»، وكتاب «عبون الشعر»، وكتاب «عيون الأخبار»، وكتاب «المعارف»، وكتاب «أدب الكاتب»، وكتاب «الشعر والشعراء»، وكتاب «الحلil» وكتاب «خلق الإنسان»، وكتاب «الأشربة»، الخ.

أما «أدب الكاتب» فقبل ان ابن قتيبة صنّعه لأبي الحسن عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المعتد على الله بن المتوكل. وقد شرحه أبو محمد بن السيد الطليوسي شرحاً مستوفى، وثبّه على مواضع الغلط منه، وفيه دلالة على كثرة اطلاع الرجل.

وأما كتاب الشعر والشعراء فهو كتاب تناول فيه ابن قتيبة المشهورين من الشعراء فأورد أخبارهم وما يستجد من شعرهم وما أخذته عليهم العلماء من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم... وقد نشر الكتاب المستشرق دي غويه سنة ١٩٠٢ معتمداً في طبعته هذه على خمس مخطوطات قديمة. وفي سنة ١٩٦٤ أعادت دار الثقافة بيروت طبع هذا الكتاب معتمدة طبعة دي غويه أساساً لعملها، ومستعينة بعدة علماء للتدقيق والتعليق والتحقيق.

### جـ - أبو العباس المبرّد (٢١٠ — ٢٨٥هـ / ٨٢٦ — ٨٩٨م)

هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، ولد في البصرة وتوفي في بغداد، وتلمذ للمازنيّ والسجستاني، وكان من أعلام رجال العلم والأدب، وإمام العربية ببغداد في زمنه وكان ممثلاً لمذهب البصرة في السحو فيما كان خصمه «ثعلب» ممثلاً لمذهب الكوفة.

أشهر آثاره كتاب «الكامل» وقد حدّد منهجه فيه بقوله: «هذا كتاب ألفناه بجمع صروباً من الآداب ما بين كلام مشور وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واحتيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والية فيه أن نفس كل ما وقع في هذا الكتاب

من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكثفاً ، وعن أن يرجع الى أحد في تفسيره مستغنياً .  
ويبدو المبرّد في كتابه من الذين « يحاولون أن يصلوا جديد الأدب بقديمه ، وينظرون الى هذا القديم على أنه الأصل الذي يحتذى ، والصورة الجديرة بالحاكاة والتقليد ، مع وجوب المحافظة على هذا الأصل والإشادة به ، وصرف العناية الى حفظه وفهمه وصيانه . ولولا ذلك الولوع بالقديم والشغف به لرأينا من مثله في ثقافته الواسعة وعلمه الفصاض آراء في النقد وتذوق الأدب ترفعه الى المتلة الأولى بين القادة »<sup>١</sup>.

#### د - أبو بكر الصولي (٣٣٥هـ / ٩٤٦م)

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي ، ويعرف أيضاً بالشطرنجي لمهارته بلعبة الشطرنج . نادم ثلاثة من خلفاء بني العباس هم الراضي والمكثي والمقتدر ، وكان من أكابر علماء الأدب ، وقد توفي في البصرة سنة ٩٤٦م ، وله تصانيف كثيرة منها « أدب الكتاب » ، « أخبار أبي تمام » ، « الأوراق » ، في أخبار آل عباس وأشعارهم ، كما له عدّة دواوين شعرية .

#### هـ - أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)

هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل المعروف بالثعالبي . وُلد في نيسابور ونشأ ميالاً الى الأدب حتى برع فيه . وكان غزاه يخطط جلود الثعالب فُتسبب الى صناعته . وكان في عصره من أئمة اللغة والأدب والتاريخ ، وله في كل ذلك تصانيف كثيرة من أشهرها : كتاب « بئمة الدهر في شعراء أهل العصر » جمع فيه أخبار شعراء المائة الرابعة للهجرة في إيجاز بعيد عن التحليل ، وكتاب « لطائف المعارف » و« فقه اللغة » ، وكتاب « الأمثال » .

## مصادر ومراجع

- شفيع جبيري: أبو الفرج الأصبهاني — سلسلة ووايغ الفكر العربي — القاهرة ١٩٥٥.  
 دراسة الأغاني القاهرة ١٩٥٢.  
 محمد عبد الجواد الأصمعي: أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني — القاهرة ١٩٥١.  
 عبد الحميد سالم: كتاب الأغاني — المقتطف ٨٢: ٤٤٠، ٦٠١.  
 سعيد الشرتوني: الأغاني ووفيات الأعيان — المقتطف ٢٩: ٣٤١.  
 مجلة الكتاب ٥: ٨٠٥.  
 الزركلي: الأعلام.  
 مجلة التجمع العلمي العربي ٦: ١٠٥.



## الفصل الثالث

### القصة

#### ١ - شيرع القصة :

القصة فنٌ شديد الانتشار في الآداب العالمية والتراث القصصي العربي دليل على ميل العرب القبطي إلى هذا النوع من الكتابة .  
من عناصر القصة : وحدة الموضوع ، والتناغم بين الموضوع والواقع ، والتشويق .

#### ٢ أنواعها :

الأفسوسية ، والحكاية ، والرواية

#### ٣ - القصة في الأدب العربي :

##### ١ في الجاهلية :

نشأت القصة نشوءاً طبيعياً وكانت أمهلاً وأجباراً تدور حول المآثر والأيام  
وصلت نظماً وأجاء وكانت مرآة لأحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم

##### ٢ في العهد الإسلامي .

- اشتهر القصص النبوي للوعظ والارشاد .
- مصادره النبوة والإنجيل والقرآن والروايات التي نقلت أخبار الأولين وأساطير الأممين .
- امتزجت فيه الحقيقة بالخيال ، وهدفت إلى الإظالة والمبرة

##### ٣ في العهد العباسي .

- واصل القصص سيره في تصغم واستعدانة وكان منه الفلسفي والفنوي . والأخلاقي والخرافي ، والشعبي ؛ ومنه المنقول والموضوع ؛ ومنه البولي والإجباري .
- أشهر القصص العباسي : سيرة عترة ، وألف ليلة وليلة .

##### أ . سيرة عترة :

- هي رواية طويلة ثرية شعرية ، تقوم على أساس تاريخي أسطوري ، وظلها عترة بن شداد لميسي .
- جمعها القصص من مثل الأصمعي ويوسف بن اسحاق المصري وضخموها .
- رواياتها ثلاث : الحجازية ، والشامية ، والعراقية . والحجازية أصل وما سواها فرع .
- هي سجل أحداث وعادات وتقاليد عربية .

- الفن القصصي فيها صيف السياق يقوم على المفاجآت والمعالجات أكثر مما يقوم على العمل الفني والسيرة حالية من الوحدة التأليفية
- لأحلاق: الظواهر أكثر من البواطن تناقصات غرمة
- الأسلوب: هزيل يقوم على السجع والصور والإيثار والتكرار
- السيرة لإياد العرب لا تحور السيرة من مواقف شبيهة بمواقف الإلياذة ، ومع ذلك فلنا لا نستطيع أن نسبها ملحمة بكل ما في الكلمة من معنى .
- ب - ألف ليلة وليلة :
- أ - ما هو كتاب ألف ليلة وليلة ؟
- خلاصة قرينة الشرق وعصارة حقيقته ومظهر مجتمعه .
- مجموعة قصص من أصل هندي فارسي تفضّلت على أيدي الرواة والقصاص
- ٢ - أسلوبه .
- يختلف باختلاف الزمان والمكان والأفلام :
- الطريقة الهندية : إدماج حكاية في حكاية .
- الطريقة الفارسية : القصة موزعة على عدة أبواب .
- الطريقة العربية : كل حكاية قائمة بذاتها .
- ٣ - الشرق من خلال كتاب ألف ليلة وليلة .
- ١ - الناحية الأسطورية .
- ملأ حاتم ، وبساطه ، وقدمه ، وعفاريته
- الحفتر وكراماته .
- عنّ والعفاريت والسحر واللكور .
- ٢ - الناحية الدينية :
- شيوخ المعرفة الإسلامية السنية
- تعذب الناحية الإيمانية اسداجة من الدين .
- ٣ - الناحية الاجتماعية والسياسية :
- في القسم الفارسي الهندي : تغلب الحيال على الحقيقة .
- في القسم العربي بغدادي الرشيد وعظمة بغداد والعصرة .
- في القسم العربي المصري : عدل الحكام التجارة والصناعة والزرف مجتمعات الأعياد والوادم الأخلاق .

## ١ - شيوخ الفن القصصي :

القصة من أدقّ الفنون الأدبية بناً وأصعبها تركيباً ، وهي الى ذلك من أكثرها شيوعاً وانتشاراً ، لما انطوت عليه ممّا يستميل القلوب ويُمَتِّع النفوس . حفلت بها



الآداب العالمية منذ أقدم العصور ، وانصرف إليها العرب منذ جاهليتهم فتركوا لنا فيها محملات ضخمة لفتت نظر النقاد والباحثين الذين انشطروا في شأنها شطرين متباينين ، يرافق أحدهما الإعجاب الكبير ، ويميل بالآخر التنكّر والتقص ، وما ذلك إلا لاعتماد كل فئة على ناحية من النواحي .

وكان المستشرقون في أصل دراسات القصص العربي ، فن قاتل مع كارا دي فو « انه لم يسبق الأدب العربي أي أدب آخر في نوع الأقاصيص » ، ومع مكائيل « إن أوريا مدينة بقصصها للعرب » ، ومن قاتل آخر : إن العرب في عهد حضارتهم نقلوا إلى لغتهم فلسفة الشعوب وعلومهم وتجاهلوا الأدب تجاهلاً يكاد يكون مطلقاً ، وانهم من ثم جهلوا أصول الفن القصصي فكانت رواياتهم غير ذات قيمة ، حتى قال عبد العزيز البشري في كتابه « المختار » : « أما القصة . بمعنى اختراع الأشخاص ، وتمهيد المكان ، وابتكار الحوادث ، وخلق الوقائع ، ونفض الصفات على مُمثلها ، عن أن يتجه كل ذلك إلى غاية واحدة ويدرج إلى غرض معين ، فذلك ما لم يُعن به العرب ولم يتوجهوا إليه . » ومها يكن من أمر فإن التراث القصصي الضخم الذي تركه العرب في أدبهم دليل واضح على ميلهم القطري إلى هذا النوع من الكتابة .

#### ٢ أنواع القصة :

والقصة ، كما لا يخفى ، أنواع منها الأقصوصة التي لا تهدف إلا إلى الظرف والإمتاع ، ولا تقوم إلا على إشارة أو نكتة وليس على التركيب والتحليل ، وهما الأوجدان تظهر الناحية الممتعة كما نجد ذلك في نوادر جحا ، ومنها الحكاية التي تُفصل وتفسر أجزاء الأقصوصة فتجعل لها مقدمة وعقدة وحل في غير إطالة كما هي الحال في ما حواه كتاب « ألف ليلة وليلة » وكتاب « المستطرف من كل فن مستظرف » ، ومنها الرواية التي تستوفي شروط القصة من مقدمة وعقدة وتآزم وحل ، في تطويل وتفصيل وتركيب بحيث تتعدد الأشخاص ، وتشترك مصالح الأبطال ، ويتفرع الحادث الواحد إلى أحداث مترابطة متساقطة ، ويسير الأبطال في عملهم على مسرح الحياة الفسيح ، كاشفين عن نفسياتهم ، معالجين قضايا الحياة والناس ، كما هي الحال في روايات نجيب محفوظ .

## ٣- القصة في الأدب العربي :

١- في الجاهلية : وإن من استقرأ الأدب العربي منذ فجره الى اليوم وجد أن القصة نشأت فيه نشوءاً طبعياً ، وكانت في بدء أمرها أسبواً وأخباراً يرويها الخلف للسلف في حلقهم وتحت قباب خيامهم ، ويضمنونها مآثر الآباء والأجداد في حقول الشجاعة والفروسية والغرام ، كما ينسجونها حول الأساطير التي نبتت في ربوع الخيال وعبرت عن آمال النفوس وتنفسات القلوب .

فهناك الأيام التي اهتم لها كل عربي منذ حداثة سنه وراح يروي أخبارها على الراحل وفي منطقات الأودية ، ويردّد فيها ذكرى المغاوير الذين كانوا مثال البأس والإقدام . وهناك الى جنب الأيام مثل أخبار عنترة وعيلة اللذين ردّد أحاديثها الركبان ، وأخبار الجنّ يوم كانوا « يبنون المنازل ويشيدون الدور والقصور ، ويثرون المرضى ، ويخاطبون الناس ، ويهتفون بهم بأصوات مفهومة تتكلم الجُمُيرَةُ والعربية ، ويخمدون الملوك إذ كانوا يأتونهم بفواكه الهند طرية . »

ولئن وصلتنا أقاصيص الجاهلية نثفاً وأجزاء ، فقد كانت في أسلوبها وبيانها مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم ، وكانت نقطة انطلاق لكثير من القصص الإسلامية والعباسية التي وجدت فيها موضوعات وأبطالاً حاول الخيال أن ينسج حولها ما استطاع النسيج ويبي ما استطاع البناء .

٢ في العهد الإسلامي : وكان العهد الإسلامي فواصلت القصة سيرها في اتساع نطاق وتشعب فروع ، وقد اشتهر منها القصص الديني الذي دار حول الدين والرسول والأنبياء «روايات وحكايات وأحاديث ووقائع ينشرها بين الناس جماعة من الناس وهبوا مقدرة على الكلام وزلافة في اللسان ، فراحوا يثون هذه الأحاديث تارة في سبيل الوعظ والإرشاد ، وطوراً للتهديد والترغيب » . وقد اشتهر من القصص قصص تميم الدلري ، وهو — على ما قيل — أول قاص في الإسلام ، والقاضي سليم بن عثر التميمي .

أما مصادر القصص الديني فالتوراة والإنجيل والقرآن ثم ما جاء على ألسنة الرواة والمحدثين من أخبار الأولين وأساطير الأقدمين، تناولها القصصاء بيد التركيب والتخييل، ومزجوا الحقيقة بالخيال، والتاريخ بالأسطورة، لا يهتم من ذلك إلا الإطالة والعبث.

وهكذا يتجلى لنا أن القصص الديني لذلك العهد هو قصص تاريخي أسطوري يهدف إلى غاية إرشادية وعظمية، بعيد عن التحليل النفسي والتساوق المنطقي، لا ينظر صاحبه فيه إلى كلِّ بعالمه. بل إلى أجزاء مبثورة يضم بعضها إلى بعض وإن تباعدت عناصرها، ويفرق كل ذلك في بحر من الحجارة الكريمة، ويطبب كل ذلك بمختلف الأطياف في غير تنوع ولا انطلاق خيالي حقيقي.

٣ - في العهد العباسي : ولم تبدل الحال في العهد العباسي تبدلاً جذرياً على ما ازدهر فيه من ثقافة وانتشر فيه من فنون. فقد واصل القصص سيره في تصخم واستطالة، وذلك لشيوخ الترف والرخاء، وانصراف الناس إلى هذا اللون من التسلية. ولستنا نعرض هنا للقصص الفلسفي كقصة حي بن يقظان لابن طفيل، ولا للقصص اللغوي كمقامات الهمذاني والحريري، ولا لحكايات كليله ودمنة الأخلاقية وأمثالها، وإنما نتوجه إلى الروايات الشعبية ولا سيما سيرة عنترة بن شداد، وألف ليلة وليلة. ومن الجدير بالذكر أن القصص لذلك العهد نوعان : موضوع ومثقول، والمثقول هو ما أخذه العرب عن الفرس أو الهنود وأضافوا إليه من عندهم ما جادت به القرائح وما أوحى به البيئة. والروايات الشعبية قسماً : قسم بطولي وقسم آخر إخباري. أما البطولي فهو ما دار حول الأبطال الذين خلدوا اسمهم في ميادين القتال، وما نفى بالشجاعة والفروسية، وعظم من شأن الرجولة العربية كسيرة عنترة، وقصة بكر وتغلب، وقصة البراق لعمر بن شبة، وقصة الملك سيف بن ذي يزن، وسيرة بني هلال وغيرها. وأما الإخباري فهو ما دار حول الحب والفناء ومجالس الطرب والزهو، وحول عجائب الأسفار وغرائب الأخبار وما إلى ذلك كحكايات ألف ليلة وليلة وغيرها. وإن من أجال النظر في كتب القصص العباسي شهد ظهور الروايات الطويلة، ووجد أن القصص القصيرة تنوعت، وأنها نزع، طويلة وقصيرة، نزع شعبية لصُدوف ذوي السُلطان عن أصحابها إلى الرواة والكتّاب. ولما كان الأمر كذلك تناول القصص عملهم عن

أقرب سبيل ، وراحوا يرضون الذوق الشعبي بالمغاليات والمفاجآت والمستحيلات ، وبالأسلوب الرقيق البعيد عن المثانة التعبيرية وعن الوحدة التأليفية ، فأرضوه ولكنهم لم يرضوا الفن ولم يراعوا قوانين الكتابة القصصية .

والى جنب القصص الشعبي نجد في الأدب العباسي وفي مؤلفات كبار الأدباء من مثل الخاطم والأصفهاني وغيرهما كمية ضخمة من الحكايات والأقاصيص التي جمع بعضها حسن السرد الى جبال الأسلوب .

٤ - كمية وكيفية . وهكذا يتجلى لنا بوضوح أن القصص في الأدب العربي كمية أكثر مما هو كيفية . كمية تتجلى في تراثنا القصصي الضخم الذي زخرت به المراجع والمجلدات الكبرى من مثل « العقد الفريد » ، « الأغاني » ، « عرائس المجالس » ، « المستطرف من كل فن مستظرف » ، وغيرها ، كمية تدل بوضوح على أن العربي ميال الى هذا اللون من الكتابة ، وأنه ينجح في الأقصوصة لأنها قائمة على مجرد السرد الخفيف الفكه ، وفي الحكاية لأنها أقصوصة مكتملة وخالية من التعقيد والتركيب لا تقتضي من كاتبها التأمل .

## أ - سيرة عنزة

### أ - موضوعها :

هي رواية طويلة ، نثرية شعرية ، تقوم على أساس تاريخي أسطوري يرجعه الى أن عنزة بن شداد كان ابن أمة حبشية سوداء ، وكان من ثم عبداً في قبيلته يرمي الابل والحيل . وقد أحب ابنة عم له تدعى عبلة ، فلم يتح له أن يقترن بها لكونه عبداً أسود . فثار ثأره وسعى في سبيل التحرر والاقتران بحبيبتة ، وراح يخوض حرب داحس والغراء الناشبة بين قبيلة عبس وقبيلة ذبيان ، وناضل نضال الأبطال المغاوير ، وراح يواجه الصعوبات فيتعلب عليها ، حتى تم له ما أراد واقترب ابنة عمه ، وبذلك يحتم القسم الأول من السيرة .

ثم راح عترة يسعى سعياً حثيثاً لنيل قصبة السبق في ميدان الشعر ، كما نال قصبه سبق في ميدان البطولة ، وإذا به يحول ويصول ، وإذا هو فصيح بليغ ، وإذا معلقته

تُعلق ، بعد مغامرات شديدة ، على أستار الكعبة ، وبذلك يُختم القسم الثاني من السيرة .

ثم راح عنترة من نصر إلى نصر ، ينجول خارج الحزيرة العربية ، يقود الغزوات ، ويظهر كل عيّد جبار إلى أن كانت وفاته .

وهكذا كانت سيرة عنترة من مادة التاريخ والخيال ، وكانت تلور حول البطولة والأخلاق العربية الوفيّة ، ولذلك شاعت شيوعاً لم يكده يعرفه كتاب آخر ، حتى أصبحت حديث المشاهير ، وملوة المشاهرين ، وحتى كان لها المجل الأول في كل نادٍ ، والمرجع الرئيسي لكل من أراد التطلع إلى نموذج البطولة والأخلاق العالية .

#### ٢ . واضعها :

لم تكن سيرة عنترة من وضع كاتب واحد ، وإنما نبتت نباتاً طبيعياً على ألسنة الناس منذ أقدم العصور ، أي منذ العصر الجاهلي ، وراحت تتوسّع وتتصّحّ على ألسنة الرواة حتى كان العصر العبّاسي عصر الترف والرّقاء ، فتناولوا القصّاص ، من مثل الأصمعي ٧٣٩ - ٨٣١ ، وضخّموا ما تلقّفوه من أخبار ، وضخّموا أخلاق عنترة حتى ألحقوه بعالم الأساطير ، ونسجوا حواريه من صور البطولة وخوارق الأعمال ما كان موضوع مجلّدات ضخمة عُرِفَت بسيرة عنترة .

وفي القرن العاشر للميلاد تناولها الشيخ يوسف بن اسماعيل المصري — وهو معن<sup>١</sup> كان لهم اتصال بباب الخليفة الفاطمي العزيز بالله — فدوّنها ، ويوّنها على النحو المعروف إلى اليوم ، ونسبها إلى الأصمعي .

وسبب كل ما تقدّم اختلف المؤرّخون في من يكون واضع السيرة ، وتضاربت أقوالهم في ذلك تضارباً شديداً ، فذهبوا في أبحاثهم مذاهب تعود في نتيجتها إلى ما أثبتنا على ذكره .

#### ٣ - رواياتها :

اختلفت روايات السيرة باختلاف البلاد التي كان لها فيها شأن ، فكان منها الرواية

الحجازية، والرواية الشامية، والرواية العراقية. أما الحجازية فأطولها، وهي أصل وكل ما سواها فروع. وأما الشامية فهي مختصرة ولا تختلف اختلافاً كبيراً عن الرواية العراقية. وقد طُبعت السيرة طبعات مختلفة، وترجمت بكاملها أو جزئياً إلى عدة لغات، وكانت مثار إعجاب عدد كبير من المستشرقين الذين رأوا فيها سجلاً للتاريخ العربي القديم ومظهراً من مظاهر العادات العربية، ومجلى من مجالي البطولة.

### ٤ - قيمتها:

لسيرة عترة قيمة حقّة في عالم الأدب والتاريخ والفن. وإننا سنتبعها في مختلف نواحيها مظهرين مواطني القوة والضعف فيها، مستخلصين ما لا يُدّ من استخلاصه للدارسي الأدب وهواة القصّة.

١ - القيمة التاريخية: لا شك في أنّ سيرة عترة مجموعة غريبة من مجاميع الحقيقة والخيال، ولا شك أنّ فيها للأسطورة مجالاً كبيراً، ولكن تحت ستار الأسطورة ديواناً واسعاً من دواوين التاريخ، وهي من ثم صورة من صور البيئة الجاهلية والنفس العربية.

تظهر لنا البيئة العربية الجاهلية في السيرة ظهوراً جلياً؛ فهناك البيئة الطبيعية بصحاريها ورمالها، برياحها وسيلها، بحواناتها ونباتها، كما أوضحنا ذلك في المقدمة التاريخية لهذا الكتاب؛ وهناك البيئة الاجتماعية القائمة على القبيلة، والعصبيّة القبليّة، والسياسة القبليّة، والعادات الجاهلية من غزو، وردّ غارات، ومقاتلات، ومنافرات، واستبعاد، وحرمان ابن الأُمّة من صلة النسب القبلي، وتقديم الشعراء في المجتمع، وتجارة وأسواق وما إلى ذلك. وهناك النفس العربية في شجاعتها وإبانتها، في عزّها وانتفاضتها لكلّ كريم شريف. وهناك تفصيل للعادات القديمة في كامل مظاهرها.

### ٢ - القيمة الأدبية الفنيّة:

• العمل القصصي: عرفنا أنّ القصّة سباقة وقائع بطريقة فنيّة، وعرفنا أنها تحتوي على عناصر مختلفة تكوّن ما سمّناه الحكبة. والحكمة في سيرة عترة ضعيفة السياق،

فليس هنالك عمل قصصي مركّب تركيباً فنياً بحيث يخلق المتعة عن طريق العقدة والحلّ، وإنما غاية واضع السيرة أن يؤثر عن طريق المفاجآت والمعالجات قبل حسن السبّك وصحة السياق الفني. ومن ثمّ ترى أن السيرة خالية من الوحدة التأليفية أي من وحدة الموضوع ووحدة العمل، وليس فيها إلا تلك الوحدة التي نعنها أرسطو بالرافعة، والتي تقوم على شخص بطل من الأبطال — هو هنا عترة — تدور حوالبه الأعمال أيّاً كانت، وتتقبّ حوالبه الأحوال في كلّ جوّ وكلّ ميدان. ومن ثمّ فالرابط الوحيد بين أجزاء هذه القصة هو أنها تجري حول عترة، وأنّ شخصيّة عترة تملأ الصفحات بقوّةها وعلوّتها ويطوّتها. ولما كان الأمر كذلك راح واضع السيرة يفتنّ اقتنائاً شديداً في تركيب المفاجآت، وتضخيم المآلي، وتجسيم الطفيف من الأفعال، بأسلوب ساذج لا يخلو من عدوية. وانتكح في السيرة مشاهد قصصية حسنة السياق ولكنها جزئية في كلّ غير مستوفي الشروط الفنية.

وهذا النوع من القصص هو مما يروق العامة دون خاصة المتأدّبين، وهو مما يسمح بتطويل القصة الى ما لا حدّ له. وهكذا راقت السيرة عامّة الناس وانتشرت في صفوفهم، وارتاحوا الى قراءتها مقطّعة بجزأة، وهكذا طالّت وامتدّت امتداداً شديداً وكانت سلسلة حكايات عن ابن شدّاد.

• الأخلاق : وإننا إذا نظرنا الى أبطال السيرة ألفينا أنّ نفسيّاتهم تسير مع سير القصة، في سفاحتها وفطرتها وعنفوانها، هي نفسيّات الأطفال والحيّين والمغامرين في نزواتها وتقلّباتها واضطراباتهما؛ هي نفسيّات أظهرها واضع السيرة ولم يعملوا على تحليلها تحليلاً عميقاً، ولا على استخراج كلّ ما فيها من قوى.

أما عترة بن شدّاد فيظهر لنا بمظهرين اثنين رئيسيين رجل البطولة ورجل الغرام، وذلك إلى حدّ أسطوريّ. وبطولة عترة خاضعة لحبّه، موجّهة إليه، وصادرة عنه في قسم كبير منها. وهذه البطولة ظاهرة بمظهرين : بأعمال جبارة وبذعر يدبّ في قلوب الألسن والجنّ لجرد ذكر عترة أو ظهوره؛ فعنّرة حامي القبيلة، ومبدّد جيوش الأعداء، حتى قال : «أنا فارس العرب وقد أرسلتني النار على رؤوسكم جمره الغضب»، وقد تصدّى لكلّ عنيد جبّار من مثل صخر بن عمرو ابن ملك كندة،

وزياد بن أكل الأكباد، والطياح آكل الأكباد وآفة العباد، وعلقمة بن سيف، وعمرو بن معدني كرب وغيرهم، فتغلب عليهم جميعاً، وحذلقهم بسهولة عجيبة. وقد نثر الرؤوس في كل ساحر وطير الحاجم عن الاكتاف تطيراً، حتى أصبح الموت الأسود تخافه الجن ويخشاه الغول». وإنك تلمس في هذه البطولة العنصرية عنصريين: عنصر التوحش والقسوة وإلى جنبه عنصر الرقة العنصرية والإنسانية الشريفة التي تعذب على المسكين وتلين أحياناً إلى حد بعيد.

وعنزة بحارب ويصاول في سبيل هدف معين هو إرضاء عيلة. فهو يحب عيلة حتى الجنون، وهو يغار عليها حتى الموت، وحنه من تسم عفيف، صادق في عفه، وهو مسخي يضحي بكل شيء في سبيل المحبوب ويتحمل كل شيء لأجل اكتساب رصاه. وهذا الحب رقيق، معذب، لأنه حب المحروم؛ فهو مصحوب بالدموع، وما أشد تأثير هذه الدموع المنحدرة من عين تهاجها السباع! وحب عنزة شريف، هو حب لروسي وإن قصر واضعوا السيرة في إلباته على صفاته فزوجوا عنزة من غير عيلة وجعلوا نساءه كثيرات.

تلك صورة مصغرة لعنزة السيرة فهو كامل الصفات، أبي النفس، سهل المخالفة. هو الفارس القدير الذي جمع القوة إلى العطف والرحمة، وجمع البطش إلى كرم الأخلاق وكرم اليد، وجمع الحب إلى الشرف والإباء.

وأما عيلة فهي المرأة التي تحب الاستبداد بقلب الرجل ولو كان عنزة بن شداد، هي المرأة التي تحب لتذليل من يُحبها والتي أمرت عنزة بتقيل قدميها؛ هي التي كانت السبب في تشرد جيبها، وغرورها هو السبب في اقتران عنزة بعدة ساء آخر.

وأما شيوب فهو الصديق الصدوق لعنزة، الذي يظهر عند كل شدة عينا ترى وأذناً تسمع، وحكمة تنطق بكل طريقة مستقيمة.

وأما سائر أشخاص الرواية فعدد لا يُحصى بسبب تعدد الوقائع والأحداث، وهم أشخاص حُشروا في الرواية حشراً في أحيان كثيرة وليس لهم من الأهمية ما للأشخاص الذين ذكروا، ولهذا نضرب صفحاً عنهم.



• الأسلوب ظهر لنا أنَّ سيرة عنترة هزيلة الفن القصصي في مجملها تخلوها من الوحدة التأليفية ومن وحدة العمل ، وهي الى ذلك هزيلة الأسلوب لركاسة عبارتها وضعف ترابط أجزائها ، واعتمادها السجع السخيف ، وتكرار العبارات المبتذلة ، وتوخيها التأثير عن طريق المغالاة ، إلا أنها لا تخلو من مشاهد أخاذة كمشهد موت عنترة ، ومن وثبات خيالية ساحرة .

#### ٥ - سيرة عنترة إلبادة العرب :

ذهب بعض المستشرقين الى أنَّ سيرة عنترة إلبادة العرب ، وفي هذا القول ما فيه من صحة وضلال ، إذ إنَّ السيرة لا تخلو من بعض ميزات الملاحم كما أنها بعيدة كلَّ البعد عن الملحمة الكاملة .

أما موضوع السيرة فموضوع ملحمي ولا شك ، لأنه سرِّد أخبار بطويَّة ووصف مواقع حربية وما الى ذلك مما تلور عيه الملاحم . وأما الأسلوب فيختلف عن أسلوب الملاحم من حيث أنه نثر يتخلله شعر ، وإن كان النثر شعرياً ؛ ثم إنَّ الوحدة القصصية مفقودة في السيرة ، والمثانة التركيبية بعيدة كلَّ البعد عن المثانة التي نجدها في الملاحم العالية ، وقد رأينا ما في السيرة من ضعف في التركيب ومن ضعف في السياق والتحليل وتركيب الأعمال تركيباً فنياً .

وأما الخوارق فالسيرة حافلة بها : خوارق الأعمال ، وخوارق التضخيم الخيالي ، وذكر الجنِّ والغول وما الى ذلك .

وأما النزعة الإنسانية فالسيرة حافلة بها أيضاً وقد تجلَّى لنا ذلك عندما عرضنا لدرس أخلاق أبطالها .

والذي نلاحظه في السيرة وفي الإلبادة أنَّ البطولة والحروب تنشأ بسبب امرأة هي هيلانة في الإلبادة وعبله في السيرة ، وإن اختلفت النظرة الى كلِّ من هاتين المرأتين ، فهيلانة امرأة تستمر حرب طروادة لإرجاعها الى زوجها ، وعبله امرأة يغامر عنترة في سبيل إرضائها ، ومثل هذا السعي في الإرضاء لا نجده عند اليونان .

وفي السيرة مشاهد وأساليب كثيرة تشبه بعض مشاهد وأساليب الإلياذة أو غيرها من الملحمة العالمية كوصف الجثث ووقوع الطير والكلاب بجثث الموتى، وتشبيه الأبطال بالحصون، وحنين الأبطال إلى القتال، وتشبيه سرايا الجيش بعصائب الطير ووصف تصادم الجيوش، وتشبيه الفرس بالريح وغير ذلك مما يطول ذكره.

ومها يكن من أمر فالسيرة أثر جليل له قيمته في تاريخ الآداب العالمية، وهو من أغنى الآثار الأدبية تاريخاً وإمحاءً.

## ب - ألف ليلة وليلة

### أ - ما هو كتاب «ألف ليلة وليلة»؟

هو كتاب حكايات متتابعة مُجَزَّاة بحيث يُقرأ كل جزء منها في ليلة، أو قل في سهرة<sup>١</sup> أو بعض السهرة. والمشهور عند العرب عن تسمية الكتاب بهذا الاسم أن الملك الفارسي شهريار كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد، إلى أن تزوج فتاة ذات عقل ودراية اسمها شهرزاد، فلما حصلت معه ابتدأت تقص عليه الحرافات وتصل الحديث إلى انقضاء الليل بما يحمل الملك على استيقاظها، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة رُزقت في أثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حبها عليه، فاستعقلها ومال إليها واستبقاها.

والكتاب في أصل وضعه لا يتجاوز مئتي سمر، وهو يقع الآن في مئتين وأربع وستين حكاية قُسمت على ألف ليلة وليلة لا تتجاوز الليلة أحياناً بضعة أسطر. وهو لم يؤلف على نحو ما تفهم من تأليف الكتب، فكان مجموعة من القصص المتفرقة غايتها تسلية العامة، وقد ظل القاص قرونًا يعمل نسخته الخاصة من هذا الكتاب يحور فيها ويحذف ويضيف كيف شاء حتى جاء العصر الذي نظر فيه إلى هذه القصص بعين التقدير فقيدت إما بالطبع وإما بحفظ هذه النسخ في دور الكتب<sup>١</sup>.

## ٢ - أصله :

الكتاب من أصل فارسيّ ، وهو يدعى عند الفرس «هزار آهسانه» أي ألف خرافة . ولنا لا نعرف شيئاً عن مبادئ ظهوره ، وجُل ما نعرفه أن للفرس كتاباً اسمه هزار آهسانه ، ذكره المسعودي في تاريخه «مروج الذهب» ، وذكره ابن التديم في «الفهرست» ، وقد تناوله العرب ونقلوا حكاياته وضخموها ، وأضافوا إليها الشيء الكثير ، وصيغوها بصيغتهم الخاصة . ويذهب بعض المحققين الى أن للكتاب أصلاً هندياً ، وأصلاً آخر يونانياً يزنهلياً ، فيكون بعض الحكايات من هذا الأصل ، وبعضها من الأصل الآخر .

وهكذا في الكتاب جزء قديم جداً نقل إما عن الهند أو فارس ، وهذا نوعان : نوع فيه الخيال والمبالغات والقصد منه التسلية ليس غير مثل «قصة ملكة النعابين» ... والنوع الثاني الذي سيق للموعظة والعبرة وهذا كثير وأصله الهندي أوضح من أن يحتاج الى بحث . أما القسم الثاني فهو القسم العربي الذي يرجع زمنه الى الخلفاء وأولهم هارون الرشيد ، ثم قسم ثالث وهو الأحدث يرجع الى أصل مصري يصور الحياة الاجتماعية في مصر<sup>١</sup> .

## ٣ - قيمته :

١ - فليساه غريبة : الكتاب ، كما رأينا ، مجموعة أقاصيص مختلفة المنشأ ، متناوذة المولد ، جمعها العرب عن ألسنة الشعب ، «ولم يكن الباب فيه مفتوحاً على مصراعيه يقبل كل قصص شعبي ، وإنما اشترط في هذا القصص أن يكون قد خضع لدرجة من الإبداع الفنية من جهة ، واشترط فيه من جهة أخرى ألا يعلم الشعور الدلني خاصة لهذه الجاعة من المتزمتة ، ولو في ظاهر الأمر على الأقل»<sup>٢</sup> . أضف الى ذلك أن الكتاب غرض لكثير من الاضطراب في الجمع والنمو ، فهناك نواة هندية ذات روح هندية في المعنى والأسلوب ؛ وهناك إضافات شتى تلقنها القصص من مصادر مختلفة وأقمحوها

١ - نفس المرجع ، ص ١٥ .

٢ - نفس المرجع ، ص ٧٣ .

في الكتاب إقحاماً ، وهنالك تأليف جديد لقصص حاول القصاص أن يقلدوا فيها أسلوب الكتاب تقليداً ، وقد اقتبسوها وجمعوا أجزائها من الليالي ، فخلقوا بذلك في الكتاب عالماً من التكرار والاضطراب . ولم يُنحَ لليالي من يتناولها بيد المقدرة والفن الحقيقي ، ويخرجها إخراجاً متلائماً الأجزاء موحد الأسلوب ، خاضعاً لأثر واحد وروح فنية واحدة فكانت فيفساه غريبة ، في ألوانها ، شديدة التنوع في صورها وخطوطها ، فيها القصة الطويلة والقصة القصيرة ، وفيها المتألقة والباهتة ، والقديمة والحديثة ، والأنيقة والريكة ...

٢ - شعبة واقية . والجدير بالذكر أيضاً أن هذا القصص الشعبي الذي يتضمنه كتاب ألف ليلة وليلة ليس مجرد الشعبي ، فقد خضع لعاملين قوّسَيْن ميزاه عن القصص الشعبي عادةً وهما عامل التدوين ، وعامل رُقي الطبقة المستمعة إليه ، ولكنه فيما عدا ذلك ظلّ محفوظاً بكلّ ميزات القصص الشعبي من حيث أسلوب القصة وموضوعاتها<sup>١</sup> . وكذلك خضع لتأثير الحضارة الإسلامية وروح الدين الإسلامي ، فجرى على سنة الإذعان للقضاء وتفويض الأمر الى الواحد القهار ثم «العفو عند المقدرة وإطلاق سراح الجاني حتى لا تكون نهاية القصة محزنة» . والأدب الشعبي يزع دائماً إلى إسحاق الحق ، ومجازاة الخير بالخير ، ومعاقبة الأشرار . وجاء الروح الإسلامي فقوّى تلك النزعة في قصص الليالي حتى لقد أصبحت القاعدة التي لا يشذ عنها . بهذا الروح يبدأ القاص قصته ويسير في حوادثها ثم ينتهيها ، بل لقد تملكك تلك النزعة القاص على ألا يعوته أحد حتى ولو أدى ذلك الى الإفصاح ، وحتى ولو أدى ذلك الى أن يكون في آخر القصة مفاجآت لم يمهّد لها أي تمهيد<sup>٢</sup> .

قال الدكتور فؤاد حسين علي : كتاب ألف ليلة وليلة «سفرٌ لم يضعه شعب بل شعوب ، ولم يؤلف في عصر بل عصور ، ولم يدون في عاصمة بل في عواصم ... ألم يكن ملكاً لساير الشعوب التي استطلّت براية الإسلام ؟ لذلك اتسع صدر ألف ليلة

١ - نفس المرح ، ص ٨٤

٢ - المرح السابق ، ص ٨٥ .



مشهد من ألف ليلة وليلة.

وليلة، تختلف الطبقات التي كان يتكوّن منها المجتمع الإسلامي. ففيه نقرأ عن التاجر والصيد، الوزير والمملك، الحكيم والحمال، الخياط والحلاق، الخشاش واللسن، الجندي والصيرفي... كما نقرأ عن القضاء والجهاد، وحياة الأسواق وتجارة الرقيق، والحياة في الحرم والبيوت العامة، وشيئا عن القوافل واختراقها الصحاري، والأسفار في البحار والأهوال التي قد يتعرض لها المسافرون؛ وحتى الأديان وجدت طريقها الى هذا السقر العظيم إذ نجد فيه حديثاً عن اليهودي والمسيحي والمسلم والمجوسي... طبعي إذن أن نجد في هذا الكتاب عناصر فارسية وهندية ومصرية وعربية، وعناصر أخرى قد يكشف عنها البحث».

٣ طبقات ونزعات. وهكذا فكتاب «ألف ليلة وليلة» مجموعة قصص تقع في أو بعة مجلدات ضخمة هي ثمرة أحيال وقرون، منها طبقة بغدادية وأخرى مصرية، ومنها ما هو أصيل فارسي أو هندي أو صيني، ومنها ما هو عربي دخیل؛ ومن العربي ما هو بغدادي أو بصري، ومنه ما هو قاهري؛ ومن القاهري ما هو إسلامي ومنه ما هو يهودي. ومن الحكايات الأصلية حكايات «المملك شهریار مع أخيه شاه زمان»، و«امر الزمان ابن المملك شهریار» و«السدياد»؛ ومن العربية البغدادية حكايات «الرشيد مع محمد بن علي الجوهري»، و«ابراهيم بن المهدي مع المأمون»، و«علي بن بكر مع

شمس النهار» ؛ ومن القاهرية الإسلامية حكايات «الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين» ، و«الملك التاجر مع الولاة الثلاثة» ، و«علي المصري» ؛ ومن القاهرية اليهودية حكايات «الجنّ المسجونين في القاقم» ، و«مدينة النحاس» ، و«أبي قير وأبي صير» . وهكذا تمازجت العناصر الدخيلة والعناصر الأصيلة ، كما تمازجت عقليات المؤلفين ونزعاتهم ، وكان الأصل الفارسي ، بما فيه من عناصر هندية وصينية ، يتسم بسمة الخيال الواسع الذي يكثر من ذكر عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات من مثل الأميالك الأسطورية الحجم ، والأودية المليئة بالأفاعي الضخمة والحجارة الكريمة ؛ وكان القسم البغدادى مؤلفاً من أقاصيص غرامية انتزعت من حياة العرب واصطبغت بصبغة الإسلام ودارت حول الطبقة الوسطى من الناس ، وصورت حفصة بغداد في عهد الرشيد بخيال حصص وكلام عذب ، كما أتت على ذكر أبطال العرب في ميادين الشجاعة وشتى الفضائل العربية ؛ وكان القسم القاهري يدور حول حياة القاهرة ويصور نزعات الشعب المصري ومزاجه الفكاهي ، كما يدور من ناحية أخرى حول بعض الموضوعات اليهودية كأحوال الجنّ والطير مع سليمان ، وكسحر هاروت وماروت وما إلى ذلك .

٤ - فسيء الأسلوب : ولما كان الكتاب على هذه الصورة كان لا بدّ أن يختلف فيه الأسلوب باختلاف الأصول والزوايا والقصص ، وأن يختلف باختلاف المكان والزمان . وهكذا نجد فيه الطريقة الهندية القائمة على إدماج حكاية في حكاية وتفرع قصة من قصة على سبيل الاستطراد والاستشهاد ، كما هي الحال في حكاية «الملك شهريار وأخيه شاه زمان» . ونجد فيه الطريقة الفارسية التي تروي القصة في الكتاب موزعة على عدة أبواب كما هي الحال في حكاية «قر الزمان ابن الملك شهريار» ؛ ونجد فيه الطريقة العربية التي تسرد القصص على نمط يجعل كلّ حكاية قائمة بذاتها ، لا يربطها بما يسبقها أو يلحقها أيّ رابط ، كما هي الحال في حكاية «علي بن بكار مع شمس النهار» . وأسلوب الكتاب بمجملة سهل المأخذ ، سوقي اللفظ ، مبسوط العبارة ، كثير الفضول ، كثير التضمين ، جريء الإشارة ، لا يعرف الكناية ولا يصطنع التحفظ ، لأنّ سبيله سبيل العامة يسايرهم في ثلوثهم وفضولهم ، وسداجتهم وصراحتهم ؛ وهو مع ذلك كلّ أسلوب الجاذبية والإغراء .

٥ - موسوعة تاريخية اجتماعية : وإن كتاباً هذه صفاته لموسوعة تاريخية اجتماعية يصور الحياة الدنيا كما هي . وليس فيه فكرة عامة وجهة نظر واحدة تنظم سلوكه . فالذهاب فيه في تناقض واختلاف ، كما تبدو عليه صورة المجتمع . فهو ليس نتيجة خطة مرسومة ، ولا نتيجة قرينة معلومة ينتظم معها عقده في سلوك تنظيم رتيب . فليست أفاصيصه وحكاياته سوى صدى خافت لعقائد الشرق القديم وعقلياته المتباينة وعاداته المختلفة ... أما تصويره لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسطى ، من العادات والأخلاق والمراسم ، في السوامر والولائم ، والأعراس والمآتم ، والأسواق والمحاكم ، فقد بلغ الغاية من هذا كله . ولا سيما في الطبقة المصرية<sup>١</sup> منه التي تتميز بكونها أصدق وأجمع ، لأن القصص نكلموا عن علم ، ووصفوا عن رؤية ، وتقلوا عن رؤية . وإنا سنتتبع الحكايات المختلفة جامعين من خلالها عناصر المجتمع الشرقي وتاريخه في الناحية الأسطورية . والناحية الدينية ، والناحية الاجتماعية والسياسية .

عالم الأساطير : أما الأسطورة الشرقية فهي منتشرة في شتى حكايات ألف ليلة وليلة وقد دار بعضها حول سليمان وبساطه وقائه وعفاريته ، ودار بعضها حول الخضر وكراماته ، وحوّل الجن والعفاريت والسحر ، كما دار بعضها أيضاً حول الكنوز وطرائق الوصول إليها . فخاتم سليمان منطوق على قدرة لا تحد ، وقد أضاعه صاحبه وفقد بسبب ذلك سلطانه على رعيته ، وراح كل ذي طمع وطموح يطوي البلاد ويحتاز اببحار في طلب ذلك الخاتم علّه يظفر به ، كما فعل بلوقيا ، وعله ينال به كل ما تطمح إليه النفس . وبساط سليمان هو « الطائرة النافورية » التي تسبق لمح البصر . وللجن والعفاريت عالم في أعماق البحر أو فوق متن السحاب ، ومنهم الأخيار والأشرار ، كما نجد ذلك في قصة « بدر باسم وجوهر السمندلية » ، وكان سليمان يحبس الأشرار في قاعهم من نحاس ويأمر باللقاهم في قاع البحر . والسحر من عمل عفاريت سليمان أو من

١ قالت سهر القلاري : « لقد صور الكتاب اللدنية الإسلامية كما يستطيع كتاب قصص أن يصورها ولرب ما لكون المصري البارز وخاصة في القصص الذي تحفل فيه من قيود الأصل وكان القاص ينشئ فيه إنشاءً جديداً ولكننا نحاط به تقرير هذه الحقيقة بأن هذا التصوير تصوير قاص عبقري بالحوادث والأبطال ولم يكن ما يوصف إلا عناية غشيلة جداً . وهو إذا وصف وصف صفة أو حدث فصفته ، أما المدينة عسها فلم تكن تمنية في كثير ولا قبل ، ولم يكن من دقة الملاحظة بحث يستعري إنشاءه كل ما كان في هذه البيئة من مميزات بارزة . » ( ص ٩٣ ) .

فعل هاروت وماروت ساحري بابل ، يستطيع به الإنسان أن يُسخر العفاريت فيما يريد ، أو يشفي الأمراض المستعصية ، كما يستطيع أن يحصل به على الذَّهن الذي يحول دون الغرق إذا دهن به الرجل قدميه ومشى على سطح الماء كما فعل عبد الله البحري ... وهكذا نجد في الكتاب عالماً من الأساطير والحرفات التي انتشرت في صفوف الشعب وضخمها خيال القصَّاص وجعل منها موضوع لإطراف ومادة إمتاع.

- عالم الدين : وإلى جنب الأسطورة نجد في الكتاب شتى العناصر الدينية وقد سيطر الإسلام على جملتها ، ولم تأت اليهودية والنصرانية إلا عرضاً مع شيء من الكراهية للنصرانية بسبب الحروب الصليبية التي عاصرت تأليف قسم من الكتاب ، كما لم تذكر المجوسية إلا في صورة قبيحة لما كان عليه أصحابها من رندقة وإلحاد . وليس في الكتاب بسط للناحية الفلسفية اللاهوتية من الأديان ، وليس فيه إلا تلميحات إلى الفرق الإسلامية ، ولا سيما فرق الشيعة ، التي كان لها الأثر القوي في توجيه التفكير لتلك العصور ، وإنما جُلِّ ما فيه تصوير للناحية الإيمانية الساذجة من الدين ، وبعض التحقير لغير الإسلام . وإنك تلمس في هذه الناحية الدينية شيئاً كثيراً من مخلفات الفرس والهنود من مثل ما نَجده في ترجمات ابن المقفع من الفضائل الطبيعية والانقياد **قندر محترم** ، والتشاؤم الذي يسود صحيفة بعض خلائق الله كالمرأة ؛ وإنك تلمس أيضاً هذا التناقض الشائع في صفوف الشعوب الشرقية بين الإيمان المطلق والعمل ، وبين التعبد العميق في ظاهره والاندفاع الصارخ وراء الشهوات ومتع الحياة ، بين اللسان المصلي والقلب المافق ، بين الروح الإلهية والتعصب الذميمة ...

- عالم الاجتماع : وإذا انتقلنا إلى **حقل الاجتماع** وجدنا أن الكتاب في قسمه الهندي الفارسي قليل الدلالة على بيئة أصحابه ، شديد الولوج بسرد الغرائب من الأحداث والأحوال ، لا يُعنى بتصوير طرائق العيش ، وأساليب العلاقات في الشرق الأقصى ، ولا يهدف إلا إلى الخلق الخيالي ، وإلى السياحة في عالم واق الواق وفي أعماق البحر بين الجن والشياطين ، فهو من هذه الناحية صورة للنفسية الهندية الصينية التي تميل من طبيعتها إلى التأمل الخيالي ، وإلى العيش المثالي . وأما القسم العربي من الكتاب فهو شديد اللصوق بالحياة والواقع . نلّم من خلاله ببعض الأحداث التاريخية كفتح الأندلس ، وحصار القسطنطينية ، والحروب الصليبية وغيرها ، كما نواجه فيه عدداً من



الشخصيات البارزة والمناذج التاريخية كالحشيد وغيره ، وتعرف الى عدد من المدن والأقطار كالقاهرة والقنس وبعداد ودمشق وغيرها . وفي هذا القسم تصوير للحياة البغدادية والمصرية في شتى نواحيها .

أما بغداد فهي عاصمة الخلافة ومحط آمال الشعوب الشرقية ، يؤمها القاصي والداني ، وتتوارد إليها ثروة العالم العربي . على عرشها الرشيد في عظمته وجلاله ، وحوله الوزراء والجواري ، والقيان والشعراء ، وكلهم في جو حافل بالترف والرّخاء ، والموسيقى والغناء ، والخليفة في رفعة الشأن وبسطة السطون ، يفرض هيئته على الكبير والصغير ، ويجعل العسس في الليل والنهار رسلاً بينه وبين الرعية ، فلا تقوته شاردة ولا واردة . والبصرة الى جنب بغداد تنافسها في القصور والقباب ، والثروة والسعة في العيش . وهكذا ينور معظم الكلام في القسم البغدادى من «ألف ليلة وليلة» حول عظمة الرشيد وما يحيط بها من هالة الترف ، وما تفرق فيه من الألحان والأنغام ، واللهو والمجون ، وهو لا يعرض لتاحية الرصانة والحياة الجديدة إلا لماماً . ولم يكن الأمر كذلك في القسم المصري من الكتاب ، حيث اتسع النطاق لألوان من الكلام ، ولأنواع مختلفة من الموضوعات .

ولا يسعنا هنا إلا أن نورد في شيء من التصرف صفحة للسباعي يومي لخص فيها ما نحن بصدده أبلغ تلخيص ، قال : «طال بمصر المهد أيام الزيادة في هذا الكتاب ، وحكتها فيه دول مختلفة الأجناس والمذاهب والمشارب ، فمن فواطم عرب شيعيين ، ومن أبويين أكراد سنين ، الى ممالك أترك وشراكسة سنين أيضاً ، فكان من المحتم على مصر وفيها غير هؤلاء جميعاً أهلها الأصليون والطارئون ، أن تتنوع فيها أمور الاجتماع وتنشعب نواحيه ، وكان من المحتم على القاص أن يعكس صور ذلك الاجتماع في قصصه ... ثم أنت ترى في أقاصيص الكتاب فلاحاً وموجاً بين الأصول من عرب ، وبربر ، وكرد ، وتورك ، وشراكسة ، ثم قبض وإسرائيليين ... ولكن الأهم في الاجتماعات التي مثتها يرجع الى الأمور التالية أعني تلك الأحكام ، والحالة التجارية والصناعية ، ومجمعات الأعياد والمواسم ، والحالة الأخلاقية ...

أما عدل الحكام من خلفاء وسلاطين ، أو جورهم عن طريق العسف أو الشلود ،

فشدوذ الحاكم وعدلُ صلاح الدّين وإصلاح قلاوون وعجارة قابيتاي ، كلّها وأمثالها مما تناوله القاصّ على اختلاف العصور ، كما تناول بعض ذوي النفوذ الآخرين من الحكّام والقضاة بالحمدة إذا عدلوا ، وباللوم والتّشهير إذا مالوا مع الطوى أو الرّشوة ، فكانوا من القاسطين ، كما في قصة «زمرّد الجارية» .

وأما التجارة فكانت حياة الشعب في تراثه والدولة في خزانها تقوم أكثر ما تقوم عليها ، ومن ثمّ كان للتجار شأن في أنفسهم وعند الحكّام حتى الخلفاء والسلاطين . وقد اكتسبت السوق التجارية مركزاً ممتازاً تحدّثت عنه القصة في طول ، فهي مجتمع العظماء والسّراة الثّراء وفي مقدّمتهم مندوبو الحكّام ، وفيها يلتقي طلاب السلع من شتى الأجناس ؛ وفيها تقوم تجارة الرّقيق ويُعرض ما يعرض من جبال ودلال ، يُكسب القصة قوّة ويفسح فيها للقاصّ المجال كما ترى في قصة «زمرّد الجارية» . وكما أفاضت القصة في صلة الحكّامين بالتحكّمين عن طريق تجارة الرقيق ، أفاضت في وصف الحياة الخاصّة الناعمة اللاهية للتّجار ، بفضل ما تضعه عليهم التجارة ، كما ترى ذلك واضحاً في قصة «علاء الدين أبي الشامات» .

وأما الصّناعة فقد أفاض القاصّ في طبقات أصحابها ، وكيف التفت صنّاع كلّ طبقة بعضهم ببعض التقافاً هو أقرب ما يكون الى ما نسميه الآن بالتقايبات . فالصّابغون مثلاً يُحدّد عددهم وتذكر معاملاتهم ، ولا يقبلون في صناعتهم غير أولادهم ، وهكذا غيرهم من سائر الطبقات . ولم يترقّع القاصّ عن أن يذكر لنا طرفاً من حياة أتفه الصّناع كالصيّادين والخطّابين مع العناية بإكرامهم ، وكثيراً ما اتّخذهم أداةً للسّخرية من العظماء وذوي السلطان ، بل كثيراً ما أفاء إليهم الثّراء عن طريق الكنوز حتى يعزّوا كالسلاطين ، كما ترى ذلك في «جودر الصّيّاد» و«حاسب الخطّاب» .

وأما مجتمعات الأعياد وسائر المواسم وحفلات الأفراح لمختلف الأسباب ، فقد عني بها القاصّ ما شاء ، فسوّ لنا كيف يخرجون في الأعياد والمواسم الى البساتين والحقول ، يشربون ويفتون ، ويركبون النّهر والخيول ، وصوّ لنا كيف كانوا في أفراح السلاطين يزيّنون الدكاكين ، وينهجون لما يكون فيها من إطلاق المساجين وإبطال المكوس . وقد أرانا في حفلات عقد الزّواج أنهم كانوا يطلقون البخور ويشربون السكر في الأمكواب ،

وينضحون الوجوه بماء الورد ، وأنهم في ليلة الزفاف كانوا يقطنون المواشط والقيان المغنيات والراقصات بلقاء النقود في الطار ، وإذا حان وقت الجلوة أجلسوا العروس بين صفيين من كرام السيدات وصغار الفتيات في أيديهن الشموع موقدات ، كما كانت العروس تبدّل في تلك الليلة حللها الى سبع وتقلدها في ذلك السيدات والفتيات ، وترى هذا كله في قصة « بور الدين » و « شمس الدين » . ولم يتوّج القاصّ عن أن يذكر لنا في حكاية « علاء الدين أبي الشامات » أن الرجال كانوا يتعاطون الحشيش كما أرانا في حكاية « معروف الإسكافي » كيف كان أبو الحسن المغفل أمام زوجته فاطمة لا يغار عليها من أي عار .

ولم يفت القاصّ أن يرينا في هذا المجتمع المتلاطم الأمواج ، بعض ما كان يعجّ به من نواحي الفساد ، فذكر بيوت اللهو العامة التي ترخر بالجواري الجميلات ، وما يتعرض له الغريب فيها من ضياع ، ترى هذا في قصة « طاهر ابن العلاء » ، كما ذكر بيته الشطار الذين ألهمهم أدواراً هامة في قصص شتى منها قصة « علاء الدين أبي الشامات » ، وقد احتفى بهم فيها حتى نقلهم من القاهرة الى بغداد يتضاحكون بالناس ويستغلون مهارتهم في سلب ما معهم من مال ، وقد كان القاصّ يرفق بهؤلاء الشطار ويتحمّس في نقي العار عنهم حتى ليقول فيهم إنهم كانوا يردّون ما يسلبون الى المسلوبين ، لأنهم كانوا يريدون إظهار المهارة والتسلية لا جمع المال .

وأخيراً وليس آخراً أرانا ألواناً اجتماعية أخرى كالتي نحن فيها الآن ، منها اعتناق الزوج أو الزوجة غير المسلمين الإسلام تخلصاً من الزواج لا رغبة في ذلك الاعتناق ، كما فعلت زين الموصف مع زوجها النصراني .

ومنها الأخذ بعبادة التشاؤم حين إزمار رحلة بل حين الخروج من البيت الى السوق ، كالتشاؤم من زرقعة العين في قصة « زمرد الجارية » ، وكتشاؤم أم علاء الدين حين مرّت وهي في طريقها معه الى بغداد بوادي الكلاب الذي مرّ به الحسين بن علي وهو ذاهب الى العراق .

ومنها الشغف بألوان من اللعب أخصّها لعبة الشطرنج . وقد شغف القاصّ حيث يُجري اللعب بين جارية ورجل ، أن يُغلّب الجارية ، عطفاً عليها أو إرضاء للرجل الذي

لا ينجيه أن يُغَنَّى لها ، إذ ينسب غلبه الى انشغاله عن اللعب معها بجمالها أو غير ذلك وهو كثير .

تلك جولة حاطقة في كتاب «ألف ليلة وليلة» ، وهو كتاب غنيّ عمادته ، جذاب بأسلوبه ، يُطلعنا على نواحي شتى من حياة الشرق في العهد القديم والوسيط ، ويكشف لنا عن بعض نزعات النفس الشرقية . ولكن المعرفة التي نحصل عليها من خلاله ليست شاملة ولا كاملة وليست خالية من الأوهام التي بنّها الخيال في انقصاعيف الحكايات . ومهما يكن من أمر فالكتاب كثير ثمين من كنوز الإنسانية ، ولهذا تُرجم الى كلّ لسان ، وانتشرت أفاصيصه بين الحاضر والعام ، وكانت مادة خصبة لأهل الفن والقلم في كل مكان وكل زمان .



## مصادر ومراجع

محمد يوسف نجم .

فن القصّة — بيروت ١٩٥٥ .

القصّة في الأدب العربي الحديث — القاهرة ١٩٥٢ .

عمود تيمور : فن القصص — مصر ١٩٤٨

موسى سليمان : الأدب القصصي عند العرب — بيروت ١٩٥٥ .

أحمد أبو سعد : فن القصّة — بيروت ١٩٥٩ .

فخري أبو السعود . القصص في الأدبين العربي والإنكليزي — مجلة الرسالة ١٩٣٧ (العدد ١٩٨) .

حسن عبدالله القرشي : فارس بي عبس القاهرة ١٩٥٧ .

سهر انقلابي : ألف ليلة وليلة — القاهرة ١٩٥٩ .

Nikita Elisséeff, Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits- Beyrouth 1959.

## الفصل الرابع المقامة

### بديع الزمان الهمداني - الحريري

١ - حقيقة المقامة هي كلام الكذبة والاستجداء لغة عتارة.

٢ - شأفة فن المقامة ثمرة تيارين . تيار أدب الحرمان واستئول ، وتيار أدب الصحة

٣ - هدف المقامة هدفان تبييني . ولتقصص فيها وسيلة . والمعلومات فيها مختلفة : منها ما هو لغوي ، ومنها ما هو علمي ، ومنها ما هو تاريخي . ومنها ما هو محوري وعرضي وبياني .

• • •

#### بديع الزمان الهمداني

١ - تاريخه . ولد في همدان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م . وتقل من مكان الى مكان ، وكان له مع الخوارزمي

مناظرة حامية . توفي سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م

٢ - أدبه . له رسائل ومعامات وديوان شعر .

أ - عدد مقاماته إحدى وخمسون مقامة

ب - موضوعها : أكثر ما فيها كذبة وأخبار العيش . وفيها قريض ونقد ووعظ ديني . وادبها عيسى ابن هشام . . . وطلبها أبو الفتح الاسكندري

ج - أسلوبها وقصتها . هو أسلوب النثر المنسق الذي يعتمد السجع والمفردات من الألفاظ . كما يعتمد الخور والتقصص . والسجع عند الهمداني حبيب ، وشيق . قريب الى الطبع

• • •

#### الحريري

١ - تاريخه . ولد في ضوسبي لبصرة سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م . تقلب في وظائف الدولة . توفي سنة

٥١٦ هـ / ١٢٢٢ م .

- ٤ - أذهب . نه ذرة العوام في أوهام الخواص ، وله مقامات  
 ٥ - أغراض مقاماته . الأعيب لغوية وسبغية عجيبة  
 ٦ - أسلوبه . نُشدَ حِكْماً من مقامات الممداني ، وأشدَّ عروبة وإعراباً وتعقيداً

## ٦ - حقيقة المقامة :

المقامة في اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان ، استُعِيلَتْ في المجلس<sup>١</sup> ثم في الجماعة الجالسين<sup>٢</sup> ، ثم سَمِيَتْ الأحذوتة من الكلام مقامة كأنها تذكر في مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة لسماعها . قال الشريشي : « والمقامات المحالّس ، واحدها مقامة ، والحديث يُجْتَمَعُ له ويجلس لاسماعه يُسَمَّى مقامة ومجلساً ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى . » قال الأعلام : « المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحضّ على فعل الخير<sup>٣</sup> . » والمقامة في الجاهلية مجتمع القبيلة ، وهي في العهد الأموي أحاديث زهدية تُروى في مجالس الخلفاء . جاء في « الرسالة العذراء » لابن المدبر أنّ أهل القرن الثالث الهجري كانوا يعرفون نوعاً من المحاورات الأدبية يُسَمَّى المقامات ، وهو يوصي المتأدّب ويقول : « وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب<sup>٤</sup> » ويريد بالمقامات الخطب أو المواعظ التي كانت

١ - قال المتن س علس

وكلمة من تروى مقاماتهم وتُروى قُصُوبهم أطيب

٢ - قال ليد العامري

ومقامته غلب الرقاب كقائهم جنّ ندى دابة الحصر قيام

وقال دهر بن أبي ملى :

وفيهم مقامات حساك وحرفهم وأندبة يشأنها انقول واقفن

٣ - شرح المقامات الحزبية ١ ، ص ١٠

٤ - الرسالة العذراء ، طبع دار الكتب المصرية ، ص ٧ .

تلقى في حضرة الخليفة<sup>١</sup>. ثم انتقل بعد ذلك معنى المقامة الى **كلام الكدية والاستجداء** بلغة مختارة، وتناول بديع الزمان الهمداني اللفظة مع ما التصق بها من معنى التسوّل الأنيق، وأنشأ مقاماته التي سترجع إليها في الصفحات التالية.

#### ٢ نشأتها:

**المقامة ثمرة تيارين في الأدب العربي:** تيار أدب الحرمان والتسوّل الذي انتشر في القرن الرابع للهجرة، وتيار أدب الصنعة الذي بلغ به المترسلون مبلغاً بعيداً من التأنيق والتعقيد. أما الحرمان فقد كان نصيب الكثرة الكثيرة من الناس في القرن الرابع، تلك الكثرة التي كانت تعيش عيشة فقر وبؤس وإملاق تحت ظلّ الحزن والخطوب، وبين براثن الجوع والمرض والموت. قال بديع الزمان الهمداني يصف ما أصاب إحدى المدن: «ولكنني أخبره بما عرض لها (أي المدينة) ولهم... فيهم قشت الأمراض أحادة فخبطت عشواء وأفنت رجلاً، ثم جدّ الغلاء، وفقد الطعام، ووقع الموت العام، فمن الناس من لم يطعم أسبوعاً حتى هلك جوعاً، ومنهم من تبع بالميته الى يومنا هذا وهو ينتظر محيه، ليلحق صحبه، ومنهم من لا يجد القوت والذرههم على كفه حتى يموت والياقون أحياء كأنهم أموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق، وإن هول السلطان أعظم وأعلم، وأمر المطالبات أكبر وأهم»<sup>٢</sup>.

وحياة كهذه كان لا بد أن تتمثل في الأدب، فتمثلت من جهة بالتسوّل والكدية، ومن جهة أخرى بالشكوى والتألم. وكان أدب التسوّل صورة لطائفة كبيرة من الناس تنكّرت لها الأيام فلجأت الى ألوان من الحيل لكسب العيش. والكدية قديمة عند العرب، عرض لها الجاحظ ثم بسط موضوعها اليبتي في أوائل القرن الرابع ووصف للكّتين، وذكر طبقاتهم وأعمالهم ونواديرهم<sup>٣</sup> وشاع التكدّي في القرن الرابع شيوخاً شديداً، واشتهر فيه جماعة عرفوا بالساسانية<sup>٤</sup>، فكانوا يضربون في الآفاق من بلد الى

١ - في أدب الكاتب لاس قية فصل سماء ومقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك.

٢ - رسائل الهمداني، ص ١٢٧.

٣ - الخامن والساوي، ص ٦٢٤.

٤ - نسبة الى رجل اسمه سامان كان داعية استطاع. بقي النعقد مستملاً في الشحاظين وهم أدنى طبقة في الناس. (مطلعاً أيضاً ما قال محمد عبده في تفسير هذه الملقبة. شرح مقامات الهمداني، ص ٩٧). وقد ورد ذكر بني ساسان في مقامات البديع والحريري.



بلد، مبدأهم «الغاية تبرر الوسيلة»، يندرون باليالي كما تدور، لأن الزمان مشغوم غشوم و«الحق في ملبح والعقل عيب ولؤم». وكان في الساسانية طائفة من رجال الشعر والقصاص، ورجال النظر في الحياة وما آكل إليه المجتمع من سوء<sup>١</sup>، فكانوا يتصرفون تصرفهم عن عقيدة، ويأولون مهنتهم في طمأنينة، وفي رأيهم أن البيئة تطلب هذا التصرف وهذه المزاولة، فالفساد متفش، والحكم في فوضى، والدهر في ادلهام، والعيش في ضيقة تنخر العظام.

أما أدب الصنعة والتنميق فقد بلغ أوجه في هذا العصر مع ابن العميد (٩٧٠م/ ٣٦٠هـ) وأبي بكر الخوارزمي (٩٩٣م/ ٣٨٣هـ) وأبي إسحاق الصائبي (٩٩٤م/ ٣٨٤هـ) والصاحب بن عباد (٩٩٥م/ ٣٨٥هـ)، حتى إن التزيق أصبح غاية، وحتى إن الكتابة أصبحت مزيجاً من زخرف أنيق وموسيقى نظمية غنية، وحتى أصبحت تطوراً تصويرياً موسيقياً. وشاعت صناعة التضمين، كما نزع الأدباء إلى تضمين الأدب ألواناً من المعارف، وإلى جعل الأدب مطبوعاً لتلك المعارف، كما نزع الأدب إلى اللفظية والحرفية التي أعربت المعنى الضئيل في بحر زاخر من الأسجاع والاستعارات وشئى ضروب البديع.

ألا ترى في هذين التيارين مصدراً طبيعياً لظهور من المقامة، أي القصة القصيرة التي يودعها صاحبها ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية، أو خطرة وجدائية، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون<sup>٢</sup>، في أسلوب الزخرفة والتأنق والتصنيع؟

#### ٤. واضعها:

نستطيع أن نقول إن المقامات بمعناها الاصطلاحي أو بشكلها الفني المعروف لم

١ - جاء في إحدى قصائد أبي دلف أن جماعة من الشعراء والأشرف والكتاب كانوا من المكئين لشدة ما عانوا من الفقر والبؤس. وذكر يدعي الزمان الجملاني في إحدى رسائله أنه اصطنع الكدية، قال: «أنا... أذل الله مقام الشيخ العميد... مع أحرار نيسابور في صبة لأبيها أعان، ولا عنها أعتد، وشيعة ليست لي تناط، ولا عني نطاط، وحرقة لا فيها أدال، ولا عني ذال، وهي الكدية التي عليّ بعثها، وليست لي مضغتها». وسأله أراد بذلك أن يشير إلى ما وصل إليه الناس من البؤس والضيقة. (الرسائل، ص ١٦٤).

٢ - طالع «النثر العربي» لركي مبارك، الجزء ١، ص ١٩٧.

تحقيق إلا على يد بديع الزمان الهمذاني، كما نستطيع أن نقول إن البديع هذا لم يكن متأثراً حين أنشأ هذه المقامات بأحد من الكتاب الذين سبقوه، وإنما كان متأثراً بواقع الحياة العامة: بالوُس والحِرام والإملاق، تلك الظواهر الاجتماعية التي حملت كثيراً من الناس على التكدي والتسول بمختلف الوسائل والحيل فكان منهم الغزاة المتصنعون والأعراب المتجشعون، والزهاد وأبناء السبيل، والحواة والقردة والسحرة والمشعوذة والقصاص، والتأخون، وغير ذلك ممن تألفت منهم تلك الطائفة الكبيرة التي كانوا يُسمون بالساسانية أو بني ساسان.<sup>٥</sup>

#### ٤ - هدفها:

١ هدف تعليمي: وجدت المقامة، أول ما وجدت، لهدف تعليمي، وعندما وضعها الهمذاني كان معلماً في نيسابور يلقي دروس اللغة والبيان على الطلاب ويدربهم على الأسلوب الجميل في الكتابة. والهمذاني من أشد الناس حدة ذكاء، ومن أسدقهم فهماً لطابع الناس ولتطور العقل البشري، وقد قادته رسالته التعليمية إلى تقديم المعارف بأسلوب يعلق في الأذهان، فكان الأسلوب أسلوب العلم في إطار القصة وجو الفكاهة، وكانت الطريقة طريقة النثر في موسيقى الشعر وتضمن الأبيات الشعرية. ثم امتد نطاق التعليم، وامتد نظر المؤلف إلى الناس أجمعين، فراح يُعالج هذا الفن معالجة الأديب، وراح من بعده المؤلفون والعلماء، يحولون جولاتهم الواسعة، وقد خطت الطريق، ويذهبون بالمقامة كل مذهب. وهكذا كانت المقامة في النثر أشبه شيء بتلك المنظومات الشعرية التي نظمت قديماً وحديثاً في موضوعات العلوم الإنسانية والمنطقية وغيرها، تسهلاً للحفظ، وتيسيراً للمعرفة. وهكذا كانت، شيئاً فشيئاً، ميداناً للتدليل بالقُدرة، ومضماراً واسعاً لإظهار البراعة والمباهاة باغصول العلمي عامة، واللفظي منه خاصة.

٢ - موسوعة علمية: مجموعة المقامات في الأدب العربي موسوعة علمية كبيرة. وقد انحصر التعليم فيها، بدء ذي بدء، في علوم اللغة والبيان، ثم تناول شتى المعارف الشائعة، ولاسيما الشكلية منها، فكان هنالك القاموس اللغوي في شتى فروعه

وامتداداته ، منطوياً على الألفاظ الغريبة ، والتعبيرات القديمة<sup>١</sup> ، والألفاظ النحوية ، والأحاجي اللغوية ، والأمثال والحكم<sup>٢</sup> وما إلى ذلك مما يدعو إلى الإعجاب والإقرار بالمقدرة ، والثناء على قوة الحافظة .

وهناك القاموس التاريخي وفيه أيام العرب وعاداتهم وأحوالهم<sup>٣</sup> الاجتماعية ؛ وفيه للمامة بأحوال الشعب التي تقلبت في أحوالها المقامة . وهذه للعلوم التاريخية إشارات وتلميحات ترد في سياق الأحاديث ، في غير سرود ولا تفصيل ، وهي من ثم أقرب إلى المعجمة اللفظية منها إلى أي شيء آخر ؛ وكثيراً ما يدخلها المؤلف في تركيب الأحاجي والألفاظ . وهكذا فهي أسماء أكثر مما هي أحداث ، وهي تدليل أكثر مما هي تحليل .

وهناك القاموس النحوي والياني والعروضي ، تناول فيه المؤلف كليات العلوم اللسانية<sup>٤</sup> ، فعالج ما استغلق منها ، ولخص ما كان مفصلاً ، وجمع ما كان مشتتاً ، وكان عمله عمل المقدرة العلمية أكثر مما كان عمل التبسيط والتحليل . وهكذا كان هذا القاموس خلاصة الخلاصة ، كما كان ألفاظاً تحمل بحملها المغضلات ، وتشرق من غياها معيبتها الحقائق الثابتة ، والآراء الناصعة .

١ - من هذا القاموس المنوي ما ورد في المقامة الحمدانية لهملاني ، وهي من أروع مقامات دقة وصف ، ودقة تصوير . قال يصف فرساً : « هو طويل الأذنين ، قليل الأنثين ، واسع المروث ، لين الثلاث ، غلط الأكمخ ، غامض الأربع ، شديد النفس ، لطيف الحس . خفيق القوت ، رقيق الست . حديد السمع ، عليل السج . دقيق السنان ، عريض الثمار . منيد الضلع ، قصير التسع .. »

وفي هذا الوصف ، كما لا يخفى مميزات كثيرة ، وجزيئات لا يحصى إلا بطول ابهاج ، واسع المعرفة .  
٢ - في المقامات طائفة واسعة جداً من الأمثال والحكم . جاء في المقامة انصيرية لهملاني ، « كنت عندهم أظن من عبدالله بن عباس ، وأطرف من أبي نواس ، وأسخى من ساتم ، وأشجع من عمرو ، وأبلغ من سحبان وائل .. » ويلازجي مقامات الحكمة المشهورة وفيها مقصودته التي أوحى إليه بها مقصودة اس دريد .

٣ - من ذلك ما جاء في المقامة الطالانية والمقامة المدنية للبارجي من ذكر مآثر الطالين وأهل اليمن ، وفي المقامة التغلبية من تلميد مشاهير العرب وحيولها وذكر آياتها وآبئها وأزلام اليسر

٤ - من ذلك المقامة المشفقية للبارجي وفيها خلاصة الخلاصة وهي أوجزة مختصرة في علم النحو ، والمقامة الكومية وفيها محاور في مسائل نموية كالفرق بين التمييز والحال ، وبين عطف البيان والإندال ، ... والمقامة السودانية وفيها مسائل في دقائق النحو والصرف

ومن ذلك المقامة العراقية للبارجي وفيها ذكر أبحر الشعر وأجزائها وأنواع القوافي وما يتعلق بها .

وهناك القاموس الأدبي تدرج فيه الأسماء والأبيات ، وتجري فيه المناظرات والمساجلات ، وتبسط فيه المواعظ والوصايا ، وتعارض فيه الأقوال بالأقوال ، وتثر على جوانبه الأحكام النقدية في مقدرة وسلطان<sup>١</sup> ، وكأنني بالمؤلف العالم بطنين إلى الأدب كل الاطمئنان - وهو الأديب في قرارة ذاته - فما إن تُتاح الساحة حتى نقشعر فيه جارحة الأدب ، فينطلق في عالمه انطلاقاً من وجال .

وهناك أمور أخرى كثيرة تناولها واصعو المقامات ، وجالوا معها في كل ميدان ، ولا هدف لهم إلا إظهار المقدرة ، ومد السلطان ، في طريق البراعة التعليمية ، ومظهر العلماء الذين لهم في كل باب موقف ، وعلى كل قمة انتصاب وهيمنة .

٣ - إطار قصصي : هدف المقامة تعليمي ، وقد جرت ، في سبيل ذلك الهدف على أسلوب القصص ، إطاراً ترغيبياً ، وعلى خطة الحوار ، يعتمد في بعض الأحوال ، إطاراً تمثيلاً . ومن ثم فالقصص محدد إطار يستعان به لبلوغ الغاية ؛ ولئن طغى على بعض المقامات فما ذلك إلا شذوذ لا يعود عليه في دراسة عامة كهذه ، ومن ثم فقد أخطأ من عمل على حشر المقامات في باب القصص ، وضل من عد المقامة حكاية أو أقصوصة ، وأوغل في الضلالة من وجد في المقامات أصلاً من أصول التمثيلية الحديثة . فما كان الإطار ليعد أصلاً ؛ وما كانت الوسيلة لتحسب هدفاً ؛ وما كان العرض ليقوم مقام الجوهر .

• الحادثة : رأينا أن الحادثة في القصص هي مجموعة الوقائع الجزئية متساقطة في نظام خاص وسائرة نحو هدف معين وعلى خط خاص . وليس في المقامة حادثة بالمعنى الدقيق للفظ ، لأنها تخلو من الحركة الممثلة في فكرة عامة تتطور نحو ما تهدف إليه القصة ؛ وكل ما هنالك فكاهة أو حيلة يقود إليها المؤلف مقامته ليحسن بها الخروج من مادة علمية غزيرة عمل على معالجتها معالجة ماهرة تدعو إلى الإعجاب وتعلق عليه كل باب .

• السرد : السرد هو نقل جزئيات الوقائع بواسطة ألفاظ تعبر عنها . وفي المقامة

١ - من ذلك المقامة القرصية للهمداني وفيها آراء أدبية وعقدية في شأن بعض الشعراء ، ومقارنة بين جرير والفرزدق .

سرد، ولكنه سرود جزلي يأتي عرضاً، وليس له في السير تأثير تطوري، وذلك أن جملة الحركة الكلامية في المقامة إنما هي مركب للمعلومات، تنقل ظهره إقبال غزارة واتساع وعمق، وإقبال حذقة لا تدع محالاً للتبجح الفكري، ولا للتمتع الفسي.

• البناء: البناء في القصة هو الطريق التي تسير عليه لبلوغ هدفها. ويكون البناء فنياً إذا اعتمد طرائق التشويق وكان متلاحم الأجزاء بحيث يتكوّن منه ما نسميه «الوحدة الفنية». ومما لا شك فيه أن البناء في المقامة غير البناء في القصة، وذلك أن التشويق في المقامة شبه مفقود، والتوجيه كلّ التوجيه إلى المادة العلمية، سواء أكان هنالك تلاحم أم تفكك. فبمس في المقامة «وحدة فنية» تُرجى، وليس فيها تلاحم يُقصد، وإنما هنالك تعليم قد يطول به الكلام مخالفاً لمبدأ القصص، وقد يبعد به التفصيل عن كلّ إمتاع، وقد يبعد به الإغراب عن كلّ خفة، وقد تيسر عليه الألفاظ والأحاجي هيمّة تربط الذهن بكلّ لفظة وكلّ عبارة وتجعل معناه في الاكتشاف وإزالة الستار.

وليس في المقامة تلك الوحدة السردية التي تقوم على شخصية البطل، لأنّ البطل في المقامة بطل علم، وما حيلته أو فكاهته إلا معنّاح الانصراف من دهاليز علمه.

والجدير بالذكر أنّ المقدمة البنائية مفقودة في المقامة، وليس هنالك إلا مقدمة تقليدية وضعت لذكر الراوية، (حدثنا عيسى بن هشام قال...) يليها ذكر السفر أو ما شابه، والسفر طريق الوصول إلى بطل العلم وبطل الحيلة أو الفكاهة. وما أبعد هذه المقدمة المصطنعة عن المقدمة القصصية التي تنطوي على التعريف بما لا بُدّ من معرفته لفهم السياق!

وهكذا القول في المقدمة، فهي متقلصة الظلّ في المقامات، متضائلة الأثر نضالاً يكاد يكون تاماً. وما ذلك إلا نتيجة فقدان الوحدة الفنية، وهذان البناء القصصيّ، ولهذا كان الحلّ في المقامات إحدى المفاجآت التي تُشعر بالحنانة في غير إمتاع شديد، وكان في أكثر الأحيان نجاح حيلة، أو غرور جأ من مازق، أو اكتشافاً للبطل، أو ما إلى ذلك مما لا يخلو من طرافة أو فكاهة.

• الشخصية: الأشخاص في القصة من أهم عناصر الحبكة، فهم الأبطال، وهم مصدر الأعمال، يخلقهم الكاتب على مسرح قصته ويُنيط بهم سير العمل القصصي، فيجرون على متن الحياة جري ثابت أو جري متحو وتكشف. وفي المقامة راوية وبطل رواية، والراوية شخص نكرة، عمله الوحيد أن يروي وأن يصطنع الانفعال، والمقامة تُفتتح بإسناد الرواية إليه (حدثنا عيسى بن هشام قال)، وكثيراً ما تحتم بذكر اكتشافه حقيقة البطل، وبطل الانفعال الذي يجري فيه لدى ذلك الاكتشاف، وهكذا فعمله في المقامة ظلّ عمل.

والبطل خزانة علم المؤلف، وأعجوبة الأعاجيب في اللغة والبيان والشعر وشتى المعارف. إنه فاكهة الدماء، ومجمع البحرين. لا تستصي عليه مُعْضِلَةٌ مها تعقدت، ولا يفوته حلّ للغز أو أحجية. جوابه عند كلّ سؤال، وكلامه فصل في كلّ مجال. إنه خطيب المناير، ولسان الحقيقة والكذب، ورجل الحيلة التي لا تقف عند حدّ. وهو في الأخلاق والاجتماع كلّ شيء وضده. وهو من ثمّ كلّ شيء في المقامة فعلاً وقولاً، وهو في محلّ البناء القصصي، والوحدة الفنية، والسرد والحركة وهكذا فالمقامة مقامة بطل يدعو الى الإعجاب بما يقول ويعمل.

• الأسلوب: الأسلوب هو نهج الكلام. وأسلوب القصة استرسال وطبيعة جري على سنن ما تقتضيه الحال. أما أسلوب المقامة فهو الأسلوب العالي في الكتابة، أسلوب الخاصّة دون سواها. تنقض فيه العبارة انقباض إيجاز، وتسرسل استرسال ترادف، وتراص في التركيب تراص إمعان، وتنقض فيه الجملة بعد الجملة انتفاض تعجيز، وتتعاقب فيه الألفاظ تعاقب اختيار دقيق، وأداء وثيق، وتحتشد فيه الحوشيات والإشارات والتلميحات احتشاد استعلاء وتضييق، وتمور فيه الألفاظ والأحاجي، على موسيقى الجناس والطباق والسجع، مَورَانْ أرسطقراطية ترف وتنميق. وهكذا فالأسلوب في القصة أسلوب، والأسلوب في المقامة غاية تصنيعية يقصد إليها المؤلف قصداً، ويعمل على تجويدها ما استطاع، فيكبّ على العبارة يركبها تركيب جزالة وأناقة، ويوشّيهما بوجوه البيان والبدیع، حتى لكان الحرف فيها ينافس الحرف في الأداء، واللفظة تساجل اللفظة في الزخرفة، وحتى لكان هنالك علماً من القسيساء العجيبة.

وهكذا يتضح أَنَّ القَصَصَ في المقامة وسيلة لا يعبره الكاتب اهتمامه إِلَّا بقدر ما هو وسيلة . وهكذا كانت القصة ضئيلة الفن ، مفككة العرى ، لا يشدُّ أوصالها سياقٌ محكمٌ ، ولا تسير بها عقدةٌ تطوّر ثم تحلّ في سبيل الإمتاع . وهكذا كان جوهر المقامة بسط معارف ، ووصف معلومات ، وجمع ألفاظ ، وتنميق أسلوب ، وكان ما سوى ذلك ذلك أعراضاً ووسائل .

### ٥ - أهم كاتبيها :

كتب في فنّ المقامة عددٌ كبير من الأدباء اشتهر منهم بديع الزمان الهمداني وأبو قاسم الحريري ، والسرقسطي .

## أ بديع الزمان الهمداني

### ١ - تاريخه :

١ طالب العلم والمال : هو أبو الفضل أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمداني . وُلِدَ في همدان سنة ٩٦٩ ، وكان معلّمه الأول أبا الحسين أحمد بن فارس اللغوي المشهور . وعندما أدرك الثانية والعشرين من عمره ترك بدته وراح يضرب في البلاد حتى بلغ الري فأتصل بالصاحب ابن عباد<sup>١</sup> ، ولزم داركتبه ، وتدرّب على أسلوبه في التسجيع والتنميق ؛ ثم قصد جرجان حيث اتّصل بعلماء الإسماعيلية<sup>٢</sup> ووقف على مذهب الباطنية ، ثم انتقل إلى نيسابور حيث كانت له سنة ٩٩٢ معركة أدبية شديدة مع أبي بكر الخوارزمي شيخ الكتاب في ذلك العصر . وقد استطاع ببديع الزمان بدهائه ومكره أن يتغلب على خصمه تغلباً أطار صيته وشرّ أخباره في المنتديات ومحافل الثقافة

١ - كان صاحب بن عباد (٩٣٨ - ٩٩٥) من أصحاب التمسك ومن أشدّ الناس عناية بلوني التصوير والحاس . وقد بلغ من طبعه التنميق مبلغاً عظيماً وكان شديد الولع بالسجع حتى في الكلام فضلاً عن الكتابة ، وقد قيل فيه : «إله لوردي سحمة تسجج بموقعه عروة الملك ويضطرب بها حيل الدولة له هان عليه التخلع عها»

٢ - يقوم المذهب الباطني على أساسين أولهما تأويل القرآن والشرعة تأويلاً يتفق وأهداف الإسماعيلية ، والثاني معرفة الحقائق وهي جملة المذهب الفلسفي والعلمي للإسماعيلية

٢- في الأوج. وفي نيسابور أملى أكثر مقاماته ، ولما غادرها عاد الى الضرب في البلاد يتقدمه نجم لامع وصيبت ذائع ، فكان له في خراسان وسجستان وكرمان مبادين تكسب ، وموارد كسب . ثم قصد هراة ، وهي من أجل مدن خراسان وأعظمها ، وصاهر فيها أبا علي الحسين بن محمد الحشمتي ، واقتنى بمعونه ضياعاً ، واتسعت حاله فعاش في رغد وهناة الى أن توفاه الله سنة ١٠٠٧ وهو لم يبلغ الأربعين من العمر<sup>٢</sup>.

٣- الشخص الممداني . كان امداني في حياته «طلق البلدية ، سمح القرية ، شديد العارضة ، زلال الكلام عذبه ، فصيح اللسان غضبه ، إن دعا الكتابة أجاهته عفواً ، وأعطته قيادها صمواً ، أو القوافي أتته ملء الصدور على التوافي . ثم كانت له طرق في الفروع هو افترعها ، وسن في المعاني هو احترعها»<sup>٣</sup> .

وكان رجل طمع وأثرة ، يتوسل بجميع الوسائل لبلوغ أهدافه ، ويدور باليالي كما تدور ليرضي قلباً شرساً وكبداً غليظة ؛ ولهذا كان شديد الحسد ، شديد الاستعلاء ، حديد اللسان سليطه ، يكشف العورات ويشن الغارات ، في غير هودة ولا اعتدال ؛ وهو يتباهى بما هو عليه من سلاطة ، ويتعالى بمقدرته على السخر والتهكم ؛ ويتناول ، إذا غضب ، بكل ما في نفسه من لؤم وعفوان وبذاءة .

وهذا كله لا يحيط من شأن البديع ، فهو ، ولا شك ، من أقطاب عصره ، ومن أقدر من عالج اللفظة العربية ، ومن أشد من تصوف بعبارة .

٢- مقاماته :

اشتهر البديع بالمقامات التي اخترع فيها اختراعاً ، وانساق في تيارها انسياق مقدرة واستعلاء ، وراح يتناول بها على كل ذي عزم ومعركة ، ويتصدى لكل سابق

١- قال باقوت : «هراة مدينة عظيمة مشهورة من مدن خراسان . ثم أو خراسان عند كوفي بها في سنة ٦٠٧ هـ مدينة أجل ولا أعظم ، ولا أوفر ولا أحسن ، ولا أكثر أهلاً منها ، وفيها بساتين كثيرة ، وماء حذيرة ، وحيرات كثيرة ، عشوة بالماء ، ومخلوة بأهل الفصل والثراد .»

٢- قيل له مات مسجوراً ، وقيل بل مات بدهاء السكة ودفن حياً .

٣- مقدمة رسائل الممداني ، لعبد الرحمن بن دوست .



ولاحق ، وفي نفسه أنه بـ المتقنين وعلى رأسهم الجاحظ ، وأنه بلغ القمة التي يستحيل على غيره أن يبلغها .

١ عدد المقامات : قال الهمذاني في رسالة طواها على نقد لإحدى قصائد الخوارزمي : « ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات ، ثم عرضها على الأسباع والضمائر ، وأهداها إلى الأمصار والبصائر ، فإذا كانت تقبلها ولا ترجها ، أو تأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملأنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ويتذكره وهنه فيعلم أن من أملى من مقامات الكسبية أو بمقالة لا مناسبة بين المقامين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه والسلام . » وقد تناول الحصري والثعالبي هذا الكلام ، وأثبتا العدد في غير تردد ، وفاتهما أن البديع رجل تبيح ومغالة ، ورجل كبرياء تضخم الأمور في سبيل أهدافها ، وتحرف الحقائق في سبيل التباهي والاستعلاء .

والأمر الذي لا شك فيه أن للبديع اثنتين وخمسين مقامة ، وضع منها أربعين إذ كان معلماً في نيسابور ، ثم وضع ستاً في مديح خلف بن أحمد صاحب سجستان وهو نازل عنده ، ثم أضاف إلى ذلك كله ست مقامات أخرى كانت خاتمة الباب وقضلة ما في الجراب .

٢ - موضوعها : ليست المقامات ذات موضوع واحد يعنى الكاتب بمعالجته ، أو يهتم لتفصيله ، وإنما هي شتيت من الموضوعات يجري في إطاره القصصي العام حول الكدبة والاحتيال للنعيش ، ويجري في إطاره الجغرافي حول ما يشبه الرحلات من بلد إلى بلد ، ويجري في إطاره الإنشائي حول رواية اسمه عيسى بن هشام ، وبطل اسمه أبو الفتح الاسكندري . أما الكدبة والاحتيال للنعيش فأمر كان شائعاً لذلك العهد حتى في طبقات العلماء وأرباب الثقافة ، وأمر عرض له الجاحظ في أقاصيصه ، وعالج بعضه هنا وهناك على لسان بخلاله ، وإننا قد أتينا على ذكره وتفصيله في

١ - هذا ما يظهر في عدوين الكثير من المقامات .

٢ - طالع كتاب « الأدب في ظل بني بويه » للرجيري ، وفيه تفصيل للحالة الاجتماعية عهد الهمذاني ، وذكر لبعض أسماء الكذابين من ذوي العلم والثقافة

صفحات سبقت، كما أتينا على ذكر الحالة الاجتماعية في عصر البديع، ذلك العصر الذي وكان المال هو الغرض الأول فيه... وكان عصر ترفٍ في القصور والدور، وهذا الترف جرّ إلى الفتن والحروب والمصادرات وكبس البيوت حتى صارت الثروة خطراً على صاحبها. فما قولك بوزير عنده من العبيد والماليك أربعة آلاف غلام! أيدعُ هذا كبيرة أو صغيرة لا يرتكبها في سبيل ابتزاز الأموال؟!... إن الثروة التي كانت في بيوت (الكبار) تكاد أخبارها لا تُصدّق. أما الشعب المسكين فكان في كل قطر طريد الفقر والبؤس، تأكل رغيته الحياة المتكفّون يجمع المكوس والضرائب وليس من يسألهم عما يفعلون. لا يهتمهم إلا جمع المال ليدفعوا ما تكلفوا به للدولة...».

وأما الإطار الجغرافي، أو مسرح المقامات البديعية، فهو في المقامة القرية جرجان الأقصى حيث استظهر عيسى بن هشام على الأيام بضياغ أجال فيها يد العمارة، وأموال وقفا على التجارة، وحانوت جعلها مثابة، وهو في المقامة الازدائية مدينة بغداد، وفي البديعية بلخ، وفي السجستانية سجستان. وهكذا إلى نهاية المقامات. والجدير بالذكر أن البديع لا يهتم من المدن والبلدان إلا ذكر اسمها، فهو لا يكاد يطلعنا على شيء من أحوال ذلك المسرح الذي يختاره لرواية راويته ونعال بطله. وكل ما هنالك أننا نستشف بعض الحقائق البيئية من خلال الأقوال والأعمال، فنعلم مثلاً أن جرجان بلد تجارة وزراعة، وأن في بغداد فئة من الناس تنعم برغد العيش وأخرى بنهشها الفقر والضيق، وأن الكوفة من أهم مراكز التصوف، وأن بلاد فزارة بلاد صحراوية بقطنها السباع والضباع، إلى غير ذلك مما لا يعني غناء كبيراً.

وأما الإطار الإنساني فيكاد يتحصر في الرواية عيسى بن هشام والبطل أبي الفتح الإسكندري. وأما من سواهما على مسرح المقامات فرقة يتخذون صحابة في المقامة القرية، وفاكهاني حريص على التصنيف والتصنيف في المقامة الازدائية، وأصحاب كنجوم الليل يلازمون ظهور الخيل في المقامة الأسدية، وإمام يتقدم إلى المحراب ويقرأ فاتحة الكتاب ويرتلها في المقامة الأصفهانية... وغير هؤلاء كثيرون يأتي ذكرهم على سبيل الإطار في غير تحليل ولا كبير اهتمام، والأهمية للإسكندري أولاً ولابن هشام

ثانياً. وهذا الراوية راوية ، وهو أشبه بأولئك القصاص الذين حفل بهم العصر ، والذين كانوا في الدور والقصور يحترفون الرواية احترافاً ، ويملاون فراغ المترفين والملاهي بالاحاديث العنترية أو الأفاصيص المخبوئية. وهو في عمله عامل تشويق وتزويق ، وعامل سرور وربط للأحداث في غير حبكة حقيقية. جاء في مطلع المقامة الأسدية : «حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يلغني من مقامات الإسكندري ومقالاته ما يصغى إليه الثور ، ويتنقص له العصفور ؛ ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجاء النفس رقة ، ويقسم عن أوهام الكهنة دقة ... وفي هذا تشويق شديد ، كما فيه ثناء عاطر يهديه الهمداني الى نفسه ويرضي به اعتداده وكبريائه.

وأبو الفتح الإسكندري رجل العقل والعلم والسفر ، وقد اضطر هذا البطل العالم أن يسلك طريق الاحتيال والتسول لأن الدهر قسا عليه ، والأيام حطت به ، فراح يتلون ، ولبس لكل حال لباساً ، وراح في المقامة الدنيارية يكندس الشنائم ، وفي المقامة السامانية يتزعم جماعة بني ساسان أهل التسول والاحتيال ، وفي المقامة المضيرية يظهر براعة عجيبة في القصص الفني وتحليل النفسات ، وفي المقامة البشرية يخلق شاعراً وينظم أروع شعر ، وفي المقامة القروية يصب نفسه مجاهداً بحث الناس على الروم ، وفي المقامة القردية يبدو قراًداً مضحكاً هازلاً ، وفي المقامات الناجمية ، والنيسابورية ، والحفنية ، والتيممية ، والسارية ، يقف موقف الشعراء المتكسبين ، فيمدح خلف بن أحمر ويستدر كفه . وهكذا يتجول أبو الفتح في كل بلد يطلب المال ، فمن العراف الى فارس الى قزوین الى أرمينية الى سجستان وخراسان وغيرها من البلدان ، وهو يطرق كل باب ويلج كل موضوع بمهارة وثقافة وخمعة روح.

وأما الغرض الذي لأجله وضعت المقامات فهو ، كما قلنا ، شتيت من الموضوعات والأغراض في رأسها جمع الألفاظ والتعابير ، وإبداع التشبيهات والاستعارات والكليات ، وتنميق الكلام بأنوار الطباقات والجناسات وشتى البديعيات . وإلى جنب ذلك فقد عرض البديع للقرىض والأدب والنقد ، كما في المقامات القرىضية والغيلانية والعراقية والجاحظية ؛ فتناول في الأولى امرأ القيس وأثنى على ابتكاراته . وتناول النابغة وبين عوامل إجادته ، وتناول زهيراً وطرفة ورفع شأن شاعريتها ؛ وعالج الأدب المقارن

فقدان بين الأخطى وجريه والفرزدق؛ ثم عرض لمشكلة القديم والحديث وللصراع القائم بين أربابها؛ وذلك كله بكلام موجز، وأحكام عامة جازمة فيها كثير من الصحة والدقة. وفي المقامة العراقية تحليل قلدي لعدد من الأبيات الشعرية؛ وفي المقامة الجاحظية يحاول الدبيع أن يحط من شأن الجاحظ، وأن ينصب نفسه جاحظ زمانه، وهو يأخذ عليه ما نعهه آية البلاغة عنده. ويقول: «إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطع<sup>١</sup>، وفي الآخر يقف، والبلغ من لم يقصر نظمته عن ثمره، ولم ينز كلامه بشعره<sup>٢</sup>. فهل تروون لجاحظ شعراً رائعاً؟ قلنا لا. قال: فهلّموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات<sup>٣</sup>، قليل الاستعارات، قريب العبارات<sup>٤</sup>، متقاد لمرئان الكلام يستعمنه، نفور من معانيه بهله. فهل سمعتم له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة...؟ قال الشيخ محمد عبده معلّقاً على كلام الهمداني: «إن المفردات في كلام الجاحظ والأساليب ليس منها شيء يستغربه السمع ويستطرفه، بل كله مما لم تنطقه الصنعة ولم يأت منه على النفس ما تعجب به. وهذه الأوصاف التي يعدّها كأنها من مناقص كلام الجاحظ هي أعلى مزايا الكلام عند أهله، وهي التي ترفع مقامه على غيره. وهذا المذهب الذي سلكه الجاحظ هو مذهب رجال البلاغة الأولين وبجال فرسانها السابقين؛ أما المصنوعات فهي من أحداث الموضوعات لا ينظر إليها إلا صبيبة هذه الصناعة<sup>٥</sup>.

وعرض البديع في مقاماته للوعظ الديني كما فعل في المقامة الوعظية عندما وقف في الداس يعظهم ويحضّمهم على التطلع إلى الآخرة وبذ القابية، في نزعة عقلية صوفية وفي أسلوب جاهلي إسلامي. وعرض للممدوح التكمسي على ستة الشعراء، كما فعل في المقامة الخلفية عندما توجّه إلى خلف بن أحمر يصفه بالعقل والكرم في نزعة عشقوان،

١ - يقطع: ينهي صيق الخطى يريد أن الجاحظ غير ذي شهره في الشعر، فكأنه لم يقن فيه شيئاً

٢ - يشترط السمع في البلغ أن تكون مجيذاً في النثر والنظم معاً. وهذا غير صحيح.

٣ - بعيد الإشارات أي أنه يوجد في القول ويرمي به إلى معان بعيدة، أو يسوق الكلام إلى معان بعيدة ثم يرمي في سابقه إلى أخرى بعيدة، ومع ذلك يسلك مسالك الحقيقة على بعد من الاستعارة وسوى التشبيه

٤ - قريب العبارات أي أنها ذاتية صمد من المعارف في الحاطب لا ترقى على المؤلفات بحرة عالية.

٥ - عريان الكلام ما كان نادياً لسانه بموجره في غير صيغة ولا محين

ويقول : « والحرّ لا يعلقه شركٌ كالعطاء<sup>١</sup> ، ولا يطرده سوطٌ كالخفاء . وعلى كلّ حال ننظرُ من عالي على الكريم نَظْرَ إِذْلال<sup>٢</sup> ، وعلى اللّثيم نَظْرَ إِذْلال<sup>٣</sup> ، فنَ قَيْنَا بأنفٍ طويل لقيناه بخروطم فيل ، ومن لحظنا بنظرٍ شرز بعناه بشمن نذر . »

وعرض البديع لأُمُور أخرى كثيرة . أشرنا الى معظمها في الصّفحات السّابقة . وهكذا تكون مقاماته مجموعة لموضوعات شتى وأغراض متباينة أُجريت في شُعابها لسان العلم ، وجال في محالاتها بما احتقبه من ثروة لفظيّة وتعبيريّة ، وأساليب تميّقيّة وتصنيعيّة .

٣ - أسلوبها وقيمها الفنيّة . أما أسلوب مقامات الهمداني فهو أسلوب النثر المتميّق الذي يعتمد السجع والغريب من الألفاظ ، كما يعتمد الجوار والقصص . أما التّمنيق فقد التزمه البديع كما التزمه غيره من مترسلي ذلك العصر ، وهو يقوم عنده بإرسال العبارة موجزة ، سريعة ، مقطّعة تقطّيعاً موسيقيّاً ، فيها ضروب من التشبيهات والاستعارات والكتابات والجناسات وما إلى ذلك ، بل فيها كلام يكاد لا يعرف إلا طرائق المحاز ، كما في قوله : « نهضت بي إلى بلخ<sup>٤</sup> التجارة البرّ » ، فوردتها ، وأنا بعُدرة الشباب<sup>٥</sup> ، وبال الفراغ<sup>٦</sup> ، وجليّة الثروة ... « فالتجارة هي التي تهض به ، وهو يرد مدينة بلخ كورود العطشان لعماء ؛ وهو بعُدرة الشباب أي ناصية ، كناية عن سواد الشّعور وربعمان الفتوة . وهكذا تتكلم المحازات في المقامة ، ويمدّل الكلام فيها عن مذهب التصريح إلى مذهب المداورة . وإنك ترى فيها العبارات قصيرة ، تحمّل دُلَعاً من الأنعام الموسيقية التي تختلف بين المدّ والقطع والطول والقصّر ، والشّدّة واللين ... »

١ - في هذا الكلام تصمين لمعى للشئ القائل : « إذ أنت أكرمت الكريم منك »

٢ - ذلك أن الكريم يقدر الكريم قدره

٣ - أي نظر الاحتقار والإهانة له .

٤ - بلخ . مدينة من مدد خراسان .

٥ - البرّ : الثياب . وغلب « الي » على « سجع » من القطع خاصه

٦ - بادرة الشباب : أي عمواله

٧ - بان الفراغ : حاله ، أي حال الخطو من هوم الحياة .

والتمنيق يقوم بنوع خاصّ على السَّجع ، والبديع يلتزمه إلا نادراً ، وهو عنده خفيف ، رشيق ، قريب إلى الطبع ، بعيد عن التكلف ، وفواصله شديدة الحيرية ، تتوالى في سرعة وانطلاق. والبديع يتصرّف بالسَّجع تصرّف الحاذق الماهر ، فيُقلِّبه ، ويَنوعه ، ويَهصّل ما بين أجزائه بفواصل السَّؤل والجواب وما إلى ذلك ، وهكذا ترى البديع يقول : « دخل عليّ شاب في زي ملء العين<sup>١</sup> ولحية تشوك الأُخدعين<sup>٢</sup> ، وطُرف قد شرب ماء الرافدين<sup>٣</sup> ولقيبي من البر في السَّناء<sup>٤</sup> بما زدته في السَّناء » وتراه يقول : « فأين تريد؟ قلت : الوطن . فقال : بلغت الوطن ، وقضيت الوطن . فمتى العود . قلت : القابل . فقال : طويت الرُّبُط وثنيت الحُطُط ، فأين أنت من الكرم ... » وهكذا ترى السَّجع ، ومهارة البديع في استعماله. والتمنيق يقوم أيضاً بتضمين الكلام ألواناً من الأمثال والآيات القرآنية والآيات الشعرية والألغاز اللغوية والبيانبة .

أما القصص فقد عالجناه ورأينا أنه ليس غاية المقامة عند البديع ، وإن عُنيَ به أحياناً ، وساقه بأسلوب لا يخلو من فنٍّ وروعة كما في المقامات المصيرية والبشرية والأسدية ، فهو عادة حافل بالنعانة والتفكك ، وهو إطارٌ خارجيٌّ لمجموعة لغوية غنية ، والبديع من أغنى الناس ألفاظاً مهما كانت غريبة ، فتراها تنهل من قلمه انبثالاً ، في دقة عجيبة ، ولباقة فريدة .

٤ - اجمع في مقامات الهذلي : إن مَنْ طالع مقامات الهذلي ، وقلب صفحاتها بتأنٍ استشفَّ من خلال سطورها حقائق شتى في شأن الحالة الاجتماعية لذلك العهد ، وذلك أن الرجل ، وإن كان همُّه الأوَّل في حشد المادَّة اللفظية واللغوية ، لم يستطع التخلُّص من قيود البيئة التي عاش فيها فتأثَّر بها ، وظهر ذلك الأثر في ما كتبه .

وأكثر ما يُطالعُنَا في مقامات الهذلي تلك الطبقة الاجتماعية التي تبرز واضحة القسما . طبقة بورجوازية حشدت المال ، وامتنعت أكباد الناس ، وعاشت في

١ - زي ملء العين : أي يأخذها هبة وحسناً .

٢ - تشوك الأُخدعين : أي تصل أطراف شعرها إليها فكاد تغدسهما لمعظمها ، والأُخدعان عرقان في صفحة العنق .

٣ - الرافدان . دجلة والفرات .

٤ - السَّناء : بالنَّانة والمرأسة .

أوسع الدّور ، وأغنى القصور ، وليست البزّ والأرجوان ، وانصرفوا إلى أطياب العيش  
مأكلاً ومشرباً ولهوياً . قال في المقامة الجاحظية : فأفضى بنا السير إلى دارٍ

تُركت والحسن تأخذه      تَنسَى منه وتَنسَجِبُ  
فَانْتَقَتْ مِنْهُ طَرَائِفُهُ      وَاسْتَزَادَتْ بَعْضَ مَا تَهَبُ

قد هُوشَ يساطها ، وُسِطت أَمَاطها<sup>١</sup> ، ومُدَّ سِاطها<sup>٢</sup> ، وقوم قد أخذوا الوقتَ بينَ  
أسرٍ مَحْصُودٍ<sup>٣</sup> ووردٍ مَضُودٍ<sup>٤</sup> ، ودَنُّ مَقْصُودٍ<sup>٥</sup> ، ونأي وعودٍ فَصِيرًا إليهم وصاروا إليها .  
ثم عكفنا على خِوانٍ قد مُلِئَتْ حِياضُهُ<sup>٦</sup> ، ونُورَتْ رِياضُهُ ، واصطفَتْ جفانُهُ<sup>٧</sup> ،  
واختلَفَتْ ألوانُهُ<sup>٨</sup> ... »

والى جانب هذه الطبقة طبقة عامّة الناس ، التي تعيش في فقرٍ مُدْمِقٍ ، وذُلٍّ  
مُوجِعٍ . تهشها المجاعات نهشاً<sup>٩</sup> ، ويمزّق أحشاءها الجوع تمزيقاً<sup>١٠</sup> ، وقد كثر فيها  
الاستعطاء والتكدي<sup>١١</sup> ، وزال من نفسها الشرف ، فانقلبت تندب سوء الحال ، وتحفد  
على الدّهر ورجاله ، وتطلق أنين الشكوى ، وتلبس لكلّ حال لبوساً ، وتتوسّل بكلّ  
وسيلة تُلْعَلُ الغاية<sup>١٢</sup> . وهكذا أطيّق التشاؤم على هذه الفئة من الناس ، ورأت في الكذب  
والحيلّة أنجع دواء ، فانحطّت الأخلاق ، وشاعت اللصوصيّة<sup>١٣</sup> ، وأصبح التلّون زيّ

١ - الأَمَاطُ ج. محط وهو ظاهرة العرش أيًا كان . وهو بسط الأعمام ، نقشية كل مرائش بفشائه اللاتق به .

٢ - مَدَّ سِاطها : صفت مواد الرية في حوانها .

٣ - الأسر المحْصُود : أي الرمحان الذي عطف بعض عبيده على الآخر لاديه .

٤ - المَصُود . المصوف .

٥ - الدن المَقْصُود . وعاء الحمر الذي فُضّ حتامه .

٦ - حِياض : أوعية الطعام .

٧ - الجفان . القصع الكبار .

٨ - طالع أيضاً المقامات : المضيرة ، والصرية ، والخارية ...

٩ - طالع المقامة الجاحظية ، والمقامة البصرية .

١٠ - تحدّ ذلك في أكثر المقامات ولاسيما عند الأطفال .

١١ - طالع المقامة الأراذية

١٢ - كثيراً ما عبر أبو الفصح الاسكندر عن هذه الحالة في حائمة المقامات بأيات شعرية نصحت بحكمة العصر .

١٣ - طالع المقامة الأسدية . - ومن علامات انحطاط الأخلاق ما تحدّه في المقامة الديبازية من الشاتم التي

يندب لها الحيين .

العصر وميزة المجتمع ، وأصبح وصف المآكل والمشارب شهوة من الشهوات . وكم في المقامات من مشاهد تقشعر لها الأبدان : أطفال عليهم الأسال ، حول آباء وأمّهات يصيحون بالمرّة مستنجدين ، ويرفعون الأكف إلى الله عليه يرقق القلوب ويبين الصلور ! جاء في المقامة البصريّة : « وهذه الصرة ماؤها هضوم ، وفقيرها مهضوم<sup>١</sup> . وادّره من ضيرسه في شغل<sup>٢</sup> ، ومن نفسه في كل<sup>٣</sup> فكيف بمن<sup>٤</sup> »

يُطَوِّفُ مَا يُطَوِّفُ ثُمَّ يَأْوِي إِلَى رُغْبٍ<sup>٥</sup> مُسَحَّدَةٍ الْعُسُورِ  
كَسَاهُنُ الْبَلَى<sup>٦</sup> شَعْنًا<sup>٧</sup> فَتَمْسِي جِياعَ النَّابِ ضَامِرَةَ الْبُطُونِ  
ولقد أصبحن اليوم وسرحن الطّرف في حيّ كميّ<sup>٨</sup> ، ويّيتن كلا يّيتن<sup>٩</sup> ، وقلبن  
الأكف على ليت<sup>١٠</sup> ، فمقصّضن<sup>١١</sup> عقد الضلوع ، وأقضن ماء الدموع ، وتذاعن<sup>١٢</sup> باسم  
الحوّج :

وَالْفَقْرُ فِي زَمَنِ الثَّامِ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ عِلَامَةٌ  
رَغِبَ الْكَرَامُ إِلَى الثَّامِ وَتِلْكَ أَشْرَاطُ الْقِيَامَةِ<sup>١٣</sup> !

ومن طريف ما جمعه الهمذاني في هذا الباب أنواع اللصوص والطلّصص ، وذلك في مقامته الرّصافيّة ، وإنك عندما تقف على تلك الطرائق ، وتكتشف لك تلك

١ - مهضوم : أي مقلوم غير مرجعي الحقن .

٢ - أي أن كل إنسان مشغول بما يعمله ضربه ، أي ما يبي حاجة قوته .

٣ - في كل . أي في تعب من حاجت نفسه وحسها فكيف إذا كانت له عيال لا كاسب لهم إلا هو كما سيذكره في آياتيه .

٤ - الرغب : يريد الأطفال الصغار

٥ - البلى : أي السحول ، وقد شبه بالثوب يكسو لاسه

٦ - شعثاً أي بحر عناية .

٧ - يريد بالحي المشابه للبيت نفسه

٨ - قض الشيء : بذّده . قال محمد عيده . « ومشهد الصغار على الحال التي وصف ، مع العجز عن إغاثتهن ، مما يحدث في النفس همّاً ويسلط عليها حزنّاً يقضم الظفر ويثر الضلوع من عقدها »

٩ - تلك أشراط القيامة أي من علامات انتهاء الدنّيا وقرّب يوم البعث .



الأساليب ، تحسب نفسك في عالم كلِّ ما فيه وسيلة حيلة ، وأقدس ما فيه طريق ابتزاز .

ولم يفت البديع ما في بيته من مظاهر اللهو ؛ فهناك مجالس الخمر والشراب في «حان الخمار» ، واللبلُ أخضر الديباج . مُتعلِّم الأمواج<sup>١</sup> ، وهناك المتنبِّهات بغمرها الجمال وتضطرب فيها الأقداح ؛ وهناك مجالس الغناء فضجَّ بالألحان والأنغام ؛ وهناك مجالس الطعام وفيها مآكلُ العرب والفرس ، من كلِّ لون ومن كلِّ صنف<sup>٢</sup> ؛ وهناك أخيراً بعض الملاهي الشعبيَّة التي ترقص فيها القروء والناس مزدهمون ويلوي الطرب أعناقهم ، ويشقُّ الضحك أشداقهم<sup>٣</sup> .

ومن حسنات البديع أنه تسرَّب في مقاماته الى بيوت بعض الناس ، وعمل على تصوير حياتهم البيتيَّة ، وهندسة مساكنهم ، وطرائق معيشتهم ، وكيف يلجأون الى الحمامات العامة ، وكيف يستعملون الحبز والملح والجريش والبقل والحلَّ والماء المُثلَّج ، والنعل الكثيف للمحام ، والمنشط والموسى ، والسُّطَل والليف ، وما الى ذلك ممَّا لا يُحصى عدده<sup>٤</sup> .

وأطلعنا البديع أيضاً على عادات القوم في نذب الأموال والتنجُّع عليهم<sup>٥</sup> ، وفي التقزُّز من الحجامة والحجامين<sup>٦</sup> ، وفي استعمال القنديل والمُنْبِيَّة<sup>٧</sup> وغير ذلك . وقد عرض في المقامة التيمية لنظام الحكم وأعمال النولة ، قال : «حدَّثنا عيسى بن هشام قال : ولَيْتُ بعضُ الولاياتِ من بلاد الشَّام ، ووردها سعدُ بنُ بدر أخو فزارة<sup>٨</sup> . وقد وُكِّي الوزارة ، وأحمدُ بنُ الوليد على عمَلِ البريد ، وخلفُ بنُ سالم على عمَلِ المظالم ،

١ أي واللبل شديد الظلمة هائج الأمواج ، تراكم فيه الظلمات وتتضافر أطوارها ، مكانه البحر في لونه وهوله .

٢ طالع المقامات النجدية والصبيرية .

٣ المقامة القردية .

٤ طالع المقامة الساسانية ، والمقامة الحلونية .

٥ - المقامة الموصلية .

٦ - المقامة الأرمنية .

٧ - المقامة الإلبسية .

٨ أخو فزارة : أسيد رجال فرارة وهي قبيلة من قبائل العرب المشهورة .

وبعض بني ثوبان وقد ولي الكتابة، وجعل عمل الزمام إلى رجل من أهل الشام... أما الوزارة فكانت لذلك العهد جامعة لخطتي السيف والقلم وسائر معاني المؤازرة والمعاونة في السلطان، غير أن صاحبها كان في شؤون، فتارة يستبد على الخليفة والسلطان ولبس للسلطان إلا أن تصدر الأمور باسمه فوزارته كانت تُسمى وزارة تفويض؛ وتارة يكون السلطان قائماً على نفسه والوزير عامل على تنفيذ أوامره مؤتمن على إمضاء أحكامه فوزارته تُسمى وزارة تنفيذ. وأما عمل البريد فكان من كبار الأعمال وكان صاحبه يتولى تفقد أحوال الثغور والقاصية من البلاد، ويُنهي السلطان عن كل ما يحدث فيها، ويشير عليه فيما يجب لتدبيرها؛ والرسل الذين يحملون الرسائل إلى الخليفة أو السلطان هم البريد؛ ولصاحب البريد عمال كثيرون يستخدمهم في الأطراف والتواحي في فروع عمله. وأما عمل المظالم فهو ولاية ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، كأنه يُفضي ما عجز القضاء وغيرهم عن إمضائه، ويكون نظر صاحبه في الشكايات، والتقارير، واعتماد القرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح... وأما الكتابة فهي رئاسة ديوان الرسائل. وأما عمل الزمام فهو ولاية ديوان الأعمال والحيايات<sup>١</sup>.

وهكذا ترى أن البيئة تسربت إلى مقامات المهذبي، وكان لها في كل مقام أثر. وهكذا ترى أن مقامات البديع خزانة واسعة لطالبي اللغة والبيان والاجتماع.

\* \* \*

قال مارون عبود: «إذا ابهر بديع الزمان وأدعى فهو على حق، بل هو سيد الموقف وأمير الكلام في هذه الحقبة من تاريخ الأدب، ولم يبقه الحريري في العبارة التي لا غبار عليها إلا لأنه نحوي لغوي وشاعر أيضاً. أما الفن في المقامات فبقي وظل وسوف يبقى للبديع.

البديع أديب طريف، قصصي ملهم يريك بعيدات الشخصيات كما هي. أما الحريري فبهارته صلبة منحوتة، وفي مقاماته جفاف أسلوب العلماء والنحاة. فالعبقريّة

الفنية البعيدة عن التحكيك والتعمّل إنما نجدّها في رسائل بديع الزمان ومقاماته . إنّ حلو الكلام وموّه لهذا الرجل ، وإذا كان الجاحظ أحلّ النثر محلّ الشعر ، فأهدى «الكتاب» الى الخلفاء والوزراء ، فما هوذا البديع ينجح نهجاً فتحلّ المقامة والرسالة محلّ القصيدة ويجازى عليها ويعطى ، وإن كان بينها مسافات شاسعة ...

ثمّ أليس سواء لدى الفنّ ، أرمعانة مقامة أملى الهمذاني أم خمسين؟ فالمقامة المصيرية وبضع أخوات لها تُغني عن ألف ، وهي كافية لتحلّ صاحبها حيث حلّ . كان البديع واقعياً أكثر منه خيالياً ، وإنّ توكّأ على عصا الاستعارات والتشايه والكنائيات ، وزيّين كلامه بالمجانسة والتلميحات والإشارات . إنّهُ مادّي لا يفسف ولا يفكر بما وراء الطليعة ، بتشيع للإثراء والوجاهة الأدبية ، كما يتّضح من مناظرته لأبي بكر ...

والبديع يتكرّر في الألفاظ أكثر من ابتكاره في المعاني ، ويعوّل على الكلام المستعمل لعلمه أنّه أشدّ تأثيراً في النفوس . وقتلاً ذكر آية أو حديثاً أو كلمة مأثورة بحروفها ، بل يكتفي بالإيماء إليها ثمّ يمضي ، ولذلك يصعب على القارئ العاديّ أن يدرك كلّ ما يعني . وهو ليس ذلك القابض على خناق اللفظة ، فإذا جاءت على هبتها كان ، وإلا فهو يضع محلّها غيرها ، وإذا لم يجد عربّ وأخذ من الشارع ولا بأس في ذلك عنده . ولعلّ هذا من أثر اللسان الفارسيّ فيه . فكّم من ألفاظ ساسانية نجدّها عنده قاعدة مطمئنة لا تشكو فراقاً ولا غربة ، بل كأنّها بين قومها وأهليها .

والبديع يدرك أنّ الجملة الطويلة ضعيفة الوقع . ولذلك ترى جملة خفيفة وخصوصاً عندما ينزري للهجاء ، بل قلّ للسبّ لأنّ هجاء صاحبنا سبّ وشتانم .

فهو عندي لم تفرد في مقاماته أكثر من تفردّه في رسائله التي بلغ فيها ما لم يبلغه أكابر الشعراء الهجائيّين العرب . فهو يمجّن ويمزج ، ويتهكّم ويكشف العورات ليكون له في كلّ عرس قرص ، ويرينا أنّه ذلك القادر على القول في كلّ غرض ومطلب . إنّهُ في مجوّه وهجائه مرّ موجه ، وهو فيها أقرب الى بشّار منه الى أبي نواس الخفيف الظلّ .»



مقامات الحريري : أبو زيد أمام والي رجة (القائمة ١٠) - عن مخطوطة من القرن ١٣  
(المكتبة الأممية بباريس)

ب - الحويري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ - ١٢٢٢ م)

١ تلويحه :

هو أبو القاسم بن علي الحريري. ولد في قرية مشان من ضواحي البصرة، ثم انتقل إلى البصرة وأقبل على علوم اللغة والنحو يتعمق فيها، ثم تقلب في وظائف الدولة. وقد أشار عليه الخليفة المستظهر أن يضع مقاماته، فوضعها وكافأه الخليفة عليها شديد المكافأة. ولما توفي للمستظهر ترك الحريري بغداد ورجع إلى البصرة فعين فيها صاحب الخبر، أي ما يشبه صاحب مصلحة الاستعلامات، إلى أن توفي سنة ٥١٦ هـ.

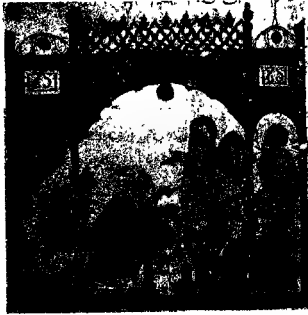
٤ - أدبه :

للحريري آثار مختلفة منها «درة الفواص في أوهام الخواص» وهو كتاب يُن فيه أوهام الكتاب وأخطاءهم في استعمال الألفاظ والأساليب ، ومنها «المقامات» التي يدور عليها كلامنا هنا .

١ - أغراض مقاماته : تدور مقامات الحريري بمجملها حول الكدية وابتزاز المال عن طريق الحيلة ، وقد رمى فيها صاحبها إلى أغراض شتى كالوعظ الديني والألاعيب اللغوية والبدعية التي أكثر منها وأتى فيها بالأعاجيب ، من مثل ما لا يستحيل بالانعكاس ، ومن مثل الافتنان بالإعجام والإهمال ، كأن يستعمل ألفاظاً معجمة الحروف أو غير



مقامات الحريري : نقاش وجدل إلى جانب إحدى القرى (المقامة ٤٣)  
عن المخطوطة نفسها .



مقامات الحريري : أبو زيد أعلام والي مرو (المقامة ٣٨).  
عن المخطوطة نفسها

معجزة ، أو مرقطة أي بعضها معجم والآخر غير معجم ، وقد أكثر من الإغراب والألغاز والأحاجي والمعميات وما الى ذلك مما شاع في أيامه ، وعدّ من البلاغة الرقيقة .

٢ - أسلوب الحريري فيها : أسلوب الحريري هو أسلوب الهمداني في ما هو من جهة الحوار بين الراوي والبطل ، والقصص الذي يجعل مركباً للكندية وإظهار المهارة والبراعة اللغوية والبيانية . ومقامات الحريري أشدّ رصاً من مقامات البديع ، وهي أشدّ حيكاً وأكثر غرابة ، وأشدّ اعتماداً للسجع والتمنيق ، والحريري أكثر مهارة في اختيار الألفاظ وتركيب الجمل ، وقد أصبح في ذلك الإمام الذي لا يُجارى ، والمعلم الذي يُنظر إليه . ثم إن مقامات الحريري شديدة التصرف بأنواع البديع وضروب الكلام مما كان شائعاً في أيامه كلّ الشيع ، وهي حافلة بالعقد . وإنك لتشعر وأنت تقرأها ، أن

الأسلوب فيها هو كل شيء ، وأن ما سوى ذلك وسائل وذرائع . ومقامات الحريري حافلة ، إلى ذلك ، بضرور من الفكاهة وروح الهزل . وهكذا كان الحريري مثلاً لتلك التذعة التي سارت بالأدب نحو الصياغة اللفظية والتي جعلت منه شيئاً فشيئاً أدب انحطاط لا أدب فكر وفن .



مقامات الحريري : الحارث مخاضاً أباً زيد - للقائمة ٢٦ --- من مخطوطة مصورة من القرن ١٨

(مباً - المكتبة الوطنية).

## مصادر ومراجع

- أبس المدمي: تطوّر الأساليب النثرية - بيروت.
- زكي مبارك: النثر الفتي في القرن الرابع - الجزء ١ - القاهرة ١٩٥٧.
- شوقي ضيف.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٥٥.
- المقامة، من سلسلة فنون الأدب - دار المعارف - القاهرة ١٩٥٥.
- مارون عبود: بديع الزمان الهمداني، من سلسلة نوايع الفكر العربي - دار المعارف - القاهرة.
- عمود البهيري: الأدب في ظلّ بني بويه - القاهرة ١٩٤٩، ص ٢٢٢ - ٢٣٩.
- محمد جميل سلطان: فن القصة والمقامة - دمشق ١٩٤٢.
- عبد حسن الريات: موازنة بين مقامات البديع ومقامات الحريري - مجلة الحديث ٢ - ص ١٣٤ - ١٦٢.
- علي الحدي: بين الخوازمي والهمداني الرسالة ٨: ١٣٥، ١٧٥.
- مصطفى صادق الرافعي: حول نشأة فن المقامات المقطع ٧٧: ٢١١.





## الفصل الخامس

### الترسل

راحت الرسالة في هذا العهد تتطوّر أيضاً، وقد خرجت شيئاً فشيئاً عن كونها حديثاً يهدف إلى التفريج عن القلوب أو التوصية أو ما إلى ذلك، وانتقلت في تيار الزخرفة والتصنع حتى أصبحت ميداناً لإظهار البراعة، ومصنعاً من مصانع التطريز والتوشية، وبستاناً زاهي الألوان يسحر الناظر ويأخذ بمجامع القلوب. وقد اشتهر في هذا الباب ابن العميد. والقاضي الفاضل، فكانا زعيمَي مدرستين كبيرتين انضمَّ إليهما عدد من الكتاب من أمثال أبي بكر الخوارزمي (٣٨٣هـ - ٩٩٣م) وأبي اسحاق الصائفي (٣٨٤هـ - ٩٩٤م)، والصاحب بن عباد (٣٨٥هـ - ٩٩٥م)، وبديع الزمان المهلدي وغيرهم ممن اقتفوا أثر ابن العميد. وكانوا أئمة البلاغة العربية في ذلك العهد.



## ابن العميد - القاضي الفاضل

أ - ابن العميد :

وُلد ونشأ بمدينة قم بفارس . وَرَدَ لآل بويه ، وكان واسع الثقافة ، وقد أتقن اللغة العربية إتقاناً شديداً . توفي سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م .

لأبن العميد رسائل كان أسلوبه فيها أسلوباً أرسطوياً إطنائياً حافلاً بالصنعة والتنسيق .

ب - القاضي الفاضل :

وُلد بمسقلان ثم انتقل إلى القاهرة وكان وزيراً لصلاح الدين الأيوبي ولايته الملك العزيز . توفي سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م .

لقاضي الفاضل رسائل ذهب فيها لمذهب الإبغال في الصنعة ، وقد أصبحت الكتابة معه مجرد تنسيق وزخرفة .

## أ - ابن العميد (٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م)

١ - تاريخه :

هو أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد . وُلد ونشأ في مدينة قم بفارس ، وأكسب على العلوم محصل منها ثقافة واسعة شملت الفلسفة وعلوم الطبيعة والهندسة وما إلى ذلك ، وأتقن العربية إتقاناً شديداً ، وراح يدبج فيها رسائله ويضعها ذوقه الفارسي . وقد وَرَدَ لآل بويه ، ولما وافته المنية سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م كان وزيراً لعهد الدولة البويهية .

٢ - أدبه :

لأبن العميد مجموعة رسائل في شتى الأغراض ، وأسلوبه فيها أسلوب أرسطوياً إطنائياً يقال فيه كل شيء بميزان ، ويقاسُ فيه كل لفظ وكل صورة بمقياس ، يسر في

هلهو وبطء وجلال، ويتنقل على أنغام موسيقى تشد أوتارها حروف الجر المستعملة في لباقة، وتتجاوب أصداؤها في الأسجاع الملتزمة التزاماً يقوم عليه نظام الكلام، وإن لم يكن التزاماً مطلقاً. وإن لني ألوان هذا الأسلوب، وزخارفه البيانية، وتنميقاته البديعة، وإشاراته اللغوية والتاريخية، وإن لني هذا المزيج من عناصر الأناقة والتوشية والموسيقى، ما يستثير الإعجاب. قال محمود غناوي الزهيري: «ونستطيع أن نقول إن ابن العميد كان أستاذ الجليل، وكاتب العصر، وصاحب طريقة في الكتابة تفرد بها وعرفت باسمه، وتأثره فيها كتاب زمانه وما بعد زمانه... ثم إنه كان ذا شخصية قوية، قد غلبت حتى على شخصية سيده ومولاه ركن الدولة. كل ذلك جعل منه عاملاً من عوامل النهضة الأدبية والعلمية أيام بني بويه، ممدوحاً، وكاتباً، ومعلماً، ومقارصاً، ومكاتباً»<sup>١</sup>.

## ب — القاضي الفاضل (٥٥٨ — ٦٣٧ هـ / ١١٦٣ — ١٢٣٩ م)

### ١ — تاريخه:

هو الوزير مجير الدين عبد الرحيم البيسافي المعروف بالقاضي الفاضل. وُلد بعسقلان من أعمال فلسطين ثم انتقل إلى القاهرة ووُزِّرَ لصلاح الدين الأيوبي ولابنه الملك العزيز. وقد توفي سنة ٥٩٦ هـ.

### ٢ — أدبه:

للقاضي الفاضل مجموعة رسائل، وأسلوبه فيها تضخيم لما بدأ به ابن العميد، أي هو الإفعال في التزام السجع والأطناب والتشخيص، والاكثار من ضروب البيان والبديع والتوشية والتعنيق، والإفعال في التضمن والإشارات التاريخية واللغوية وما إلى ذلك. وإنك لتشعر أن الأسلوب يصبح غايةً ويُقصد قصداً، وهذا الخراف وحيم العاقبة في الأدب.

## الفصل السادس

### النقد الأدبي

١ - معنى النقد الأدبي: هو فن تحليل الآثار الأدبية وتقويمها.

٢ - العرب والنقد:

١ - في الجاهلية: قد فُطِرَ يعتمد على الإحساس والدوق البسيط ، أي أحكام قائمة على ذوق ساذج.

٢ - في العهد الإسلامي: قد قُرب من النقد الجاهلي، لا يبدو ملاحظات جدية ، ولا يقوم على مبادئ ومقاييس جارية فيئة

٣ - في العهد العباسي: ثلاث مدارس نقدية . مدرسة اللغويين التي جعلت القِدم قاعدة الحكم ، ومدرسة المتكلمين التي جعلت همها الأول في علمي البيان والبالغة . ومدرسة الفلاسفة التي أعضمت النقد لقواعد اليونانية

• • •

ابن الأثير

١ - تاريخه. وُلِدَ سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م وكانت حياته شديدة الحركة ، شديدة التقلب الى أن توفي سنة ٦٣٧هـ.

٢ - أديبه: أشهر ما له كتاب ونظائر السائر في أدب الكاتب والشاعر . وفيه مقنة ومقالان تضمنت معالجة نظرية وتطبيقية للنقد وذلك بروح علمية ، ورياسة تعبية حافلة بالوضوح والذقة والمناهة

١ - معنى النقد الأدبي:

النقد فن من فنون الأدب يتناول الآثار الأدبية ويحللها ، ثم يقوّمها ، ويحكم عليها بالقيح أو بالجوودة . والنقد بمعناه العام هو كلّ أدب كتب عن الأدب سواء أكان تحليلاً أو تفسيراً أو تقويماً ، أو كلّ هذه الأشياء مجتمعة . وإذا كان كلّ أدب موضوعاً للنقد وإذا

كان النقد نفسه أدباً ، كان النقد أيضاً من موضوع النقد . وإذا كان الأدب تفسيراً للحياة في صور أدبية مختلفة ، كان النقد تفسيراً للتفسير ، وإيضاحاً للصُّور الفنيّة التي خرج بها الأدب .

## ٢ العرب والنقد :

١ في الجاهلية التقّد قديم عند العرب يقدّم الأدب ، وكان في الجاهليّة فطريّاً يعتمد على الإحساس والذوق البسيط . أما ظهوره في صفوف الشعراء يعمد الواحد منهم إلى شعره فيراعي فيه أذواق أبناء زمانه ، وينظم القصيدة على مألوف العادة ، ويحمل أقسامها ومضمونها موافقة للقواعد المرميّة ، ويغرب في وصف الوحوش وسائر الحيوانات حسب متطلبات المكان والزمان ، وقد يكبّ على قصيدته حولاً ينقّحها ويهذبها كما فعل زهير نجياً لنقد الشعراء ولوم اللاتمين . وكانت الأسواق وميادين المنافرات مجالاً للنقد يقوم فيها الحكم مقوماً ، وكم كان لأحكامه من أصداء بين القبائل وفي مجالس القوم ، وكم كان لكلّ ذلك من أثر في ترقيق الألفاظ ، وتدقيق المعاني ، وترقية التقّد .

روى أن بعض شعراء تميم اجتمعوا في مجلس شراب ، وكان بينهم الزّيرقان بن بدر والخمّل السّعديّ وعبد بن الطيب وعمر بن الأهدم ، وتذكروا في الشعر والشعراء ، فادّعى كلّ منهم الأسبقية في الشعر ، وتحاكموا فقال الحكم : «أما عمرو فشعره برودٌ يحية تطلو وتشتّر ، وأما الزّيرقان فكانه رجلٌ أتى حَزوراً قد نُجرت فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره ، وأما الخمّل فشعره شُهْبٌ من الله يلقبها على من يشاء من عباده ، وأما عبدة فشعره كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء...»

وهكذا ترى أن النقد في الجاهلية أحكام قائمة على ذوق ساذج ، «ولم يكن مبنياً على قواعد فنية ، ولا على ذوق منظم ناضج ، إنما هو لغة المحاضر والبلدية المحاضرة»

ب - في العهد الإسلامي : وفي الفترة التي تمتد بين صدر الإسلام والعهد العباسي ، ولاسيما في العهد الأموي ، ازدهر النقد في الحجاز والعراق والشام . أما في الحجاز فقد زخرت الحياة بالثرف والصناء واللّهو ، وانتشر الأدب الرقيق يرافقه النقد في نزعة تجديدية

قائمة على ذوق رقيقته الحضارة الجديدة. وقد اشتهر في تلك البيئة المثقفة عدد كبير من القاد كاهن عتيق الذي تعقب الشعراء وتقدهم قدماً ظريفاً، ومن ذلك أنه كان يُفضل ابن أبي ربيعة على معاصريه ويقول: «لشعر عمر نوبة بالقلب، وعلوق بالنفس، ودرك للحاجة ليست لشعر غيره. وما عصي الله عز وجل بشعر أكثر مما عصي شعر ابن أبي ربيعة، فخذني ما أصف لك، أشعر قرين من دقّ معناه، ولطف مدخله، وسهل مخرجه، ومتنّ حشوه، وتعطفت حواشيه، وأثارت معانيه، وأعرب عن حاجته». وأما في العراق والشام فقد سادت النزعة القديمة في الشعر، وانبعثت العصبية القليلة بين الشعراء فعادوا إلى المفاحرات والمنافرات، وكان المريد قرب البصرة كسوق عكاظ في الجاهلية، وسمّج الشعر معنى ومبنى، وكان النقد تفضيلاً بين الشعراء وأحكاماً أشبه ما تكون الحطرات السريعة، وأقوالاً بعيدة عن التحليل والتعليل. وهكذا بقي النقد في هذه الفترة شديد الصلة بالنقد الجاهلي، لا يبدو ملاحظات جزئية، ولا يقوم على مبادئ ومقاييس جمالية فنية. ولأن ظهرت فكرة الموازنة بين شاعر وشاعر، فما ذلك إلا إجابة لميول شخصية وعصبية قليلة.

جـ في العهد العباسي: ارتقت الحياة في العهد العباسي وامتزج العرب بشقّي الشعوب، واحتك العقل العربي بثقافة فارس والهند واليونان، وارتقت حاسة النقد بانتقال الحياة من صعيد القطرة إلى صعيد المعرفة والفلسفة، وراح العلماء يضعون قواعد اللغة والنحو والعروض، كما راحوا يعالجون قضايا البيان والبلاغة والأسلوب؛ وانتشرت عادة الجدل والنقاش في شتى الموضوعات تُدَكِّبُها المناقشة بين الفرق والمذاهب، وقام العقل إماماً يرتك على مبادئ المنطق، وحفل العصر بالباحثين والمُتَنَقِّين، فانتقل النقد بطبيعة الحال من أحكام فطرية إلى علم بقواعد وأصول، وراح يعالج الأدب، ويحلل ويعمل، ويقس العناصر الجمالية بمقاييسها، وكان هنالك ثلاث مدارس رئيسية نزعَت في النقد منازع متباينة: مدرسة اللغويين، ومدرسة المتكلمين، ومدرسة الفلاسفة.

١ - أما اللغويون، وقد تعلقوا في كل عصر بالحرف دون الروح، فجمعوا القديم قاعدة حكمهم، وفضلوا القديم على الجديد، وتصدّوا لكلّ مجدّد، وعدّوه مجترأ على

تقاليد العرب ومفهومهم للألفاظ والأساليب ، وراحوا من ثم يتعمقون الشعراء والكتاب آخذين عليهم سقطاتهم اللغوية ، وتعبيراتهم المستحدثة ، وكان همهم في اللفظة أو البيت أو العبارة يعتمدون عليها في ترتيب الشعراء والموازنة فيما بينهم . وهكذا كان تقدمهم جزئياً حافظاً بالجمود والادعاء والتحيز . قال عمرو بن العلاء في الشعراء المحدثين : « إن قالوا حسناً فقد سبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فن عندهم » . وقد اشتهر من هذه الفئة أحمد بن سلام (٨٤٦) صاحب « طبقات الشعراء » الذي رتب الشعراء طبقات بعضها فوق بعض ، مراعباً في ذلك عوامل البيئة المكانية والزمانية ، ومعتمداً في ترتيبه وتقديم هذا على ذلك ، كثرة الشعر ، ووفرة الفنون ، والجودة الفنية . وما يذكر له أنه نبه على التحول من الشعر الجاهلي ، وتحري الدقة والصحة في النقل ، وسبق النقاد الجاهليين في بحثه عن صحة نسبة الآثار الى أصحابها .

٢ - أما المتكلمون فكانوا أوسع آفاقاً ، وأعمق ثقافة ، تفرسوا على النقاش المذهبي والفلسفي ، فخرجوا من الجمود العقلي الذي سيطر على فئة اللغويين ، وانطلقوا في ميادين الحياة يخطبون ويعلمون ، وكان همهم الأول في علمي البيان والبلاغة فذهبوا فيها مذهب ، ووضعوا لها القواعد والأصول ، متأثرين بما وصل إليهم من آراء اليونان ، كما يتضح لنا ذلك من قراءة كتب الحافظ ، ولا سيما « البيان والتبيين » . وهكذا كان نشاط المتكلمين واسعاً ، تحدثوا في الشعر كما تحدثوا في النثر ، وعنونوا باللفظ وتحيره كما عنوا بالمعنى ، واختلطت عندهم مسائل النقد بمسائل البلاغة ، ولهم كانوا السبب في أن النقد العربي لم يتميز من البلاغة تميزاً تاماً ، بل ظل دائماً ممتزجاً بها ، وحتى في النقد المقارن عند الأعمدي (٩٨١) وأمثاله كان الشكاف يناقشون الشعراء ويوازنون بينهم على أسس بلاغية . وبذلك استمر العرب على مر العصور لا يفرقون بين النقد والبلاغة ، حتى طلع عليهم العصر الحديث .

٣ - وأما الفلاسفة فقد عملوا على إخضاع النقد للقواعد اليونانية التي أخذوها من كتب أرسطو وغيرها . ولأن نجحوا في التقنين ، ووضع المقاييس والمعايير فقد أخفقوا عندما أرادوا أن يخضعوا الشعر والنثر العربيين لتلك القواعد التي وضعت لبيئة غير ينهم ولنفسية غير نفسيتهم . ومن أعلام هذه الفئة قدامة بن جعفر (٩٨٤) صاحب « نقد

الشعراء الذي امتاز بالدقة العجيبة ، والمنطق السديد ، واللمحات المفيدة ، والآراء التي ألفت أضواء كثيرة على عملية النقد العميق والرصين.

٤ - وإلى جيب هؤلاء حميماً قام عدد من النقاد في عهد بني العباس يعالجون النقد المقارن لما رأوه من انقسام الناس في شأن بعض الشعراء ومن ذلك أنه نشبت خصومة عنيفة بين الأدباء حول أبي تمام ممثلاً للمجددين والبحثري ممثلاً للمحافظين في الشعر ، وقامت مدرسة تفضّل أبا تمام لغزارة معانيه ، ومدرسة تفضّل البحثري لصفاء شعره وسيره على خطة امرئ القيس وغيره من قنأى الشعراء ، وانتصر الصولي (٩٤٦) للأول ؛ فوضع «أخبار أبي تمام» ، وانتصر الأمدى للثاني ، فوضع كتابه «الموازنة» الذي ضمّته نظرات نقدية فيها اعتدال ، وذوق أدبي رفيع ، ومعرفة بالنفس البشرية. ولما ظهر المتبني وشغل الناس وانقسموا له وعليه وضع عبد العزيز الجرجاني (١٠٧٨) كتابه «الوساطة بين المتبني وخصومه» ومما أوضحه في كتابه نظرية تأثير البيئة على الأدب التي قال بها «بين» في العصور الحديثة.

وهكذا تشعبت المدارس النقدية تشعباً غريباً إلى أن كان ابن الأثير (١٢٣٩) صاحب «المثل السائر» فكان خاتمة المطاف في العهد العباسي ، وخاتمة التفكير النقدي البلاغي الرصين.





## ضياء الدين بن الاثير

(٥٥٨ - ٦٣٧ هـ / ١١٦٣ - ١٢٣٩ م)

١ - تاريخه :

هو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير. وُلد سنة ١١٦٣ في جزيرة ابن عمر<sup>١</sup> ونشأ فيها ثم انتقل مع والده الى الموصل حيث سعى في تحصيل العلم. ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي في مصر، فوصله القاضي الفاضل رئيس ديوانه بالعمل عنده. ثم طبعه الملك الأفضل نور الدين بن صلاح الدين وولي عهده بدمشق، فخيرَه صلاح الدين، بين البقاء والذهاب، فاخترَ الذهاب، فاستوزره نور الدين وحسنت حاله عنده. ولما توفي صلاح الدين انتقل ابنه الأفضل الى صرخد ف تبعه ضياء الدين هرباً من أهل دمشق الذين أساء معاملتهم وهموا بقتله. واستدعي الملك الأفضل الى مصر للنيابة عن ابن أخيه الملك منصور فصحبه ابن الأثير. ولما اضطربت أحوال الملك وخرج من مصر خرج ابن الأثير أيضاً مستتراً، ثم عاد فالتحق به في سُمبساط عى الفرات ومكث عنده مدة من الزمن. ثم ألجأته الأحوال الى الضرب في البلاد حتى بلغ الموصل وكتب لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهرة عز الدين مسعود بن نور الدين.

وتوفي ابن الأثير سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م في بغداد. وكان قد توجه إليها رسولاً من قبل صاحب الموصل.

٢ - أدبه :

لابن الأثير من التصانيف :

١ - جزيرة ابن عمر : بلد شالي الموصل يحيط بها دجلة من الملال.

- ١ - «المَثَلُ السَّائِرُ فِي أدب الكاتب والشاعر». طبع في مصر سنة ١٩٣٩ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ثم سنة ١٩٥٩ تحقيق الدكتورين أحمد الحوفي وبدوي طبانة.
- ٢ - «الوُضْئُ المَرْقُومُ فِي حل المنظوم». طبع في بيروت سنة ١٢٨٩ هـ.
- ٣ - «المَرْصُعُ فِي الأدبيَّات». طبع في الآستانة عام ١٣٠٤، وفي ألمانيا عام ١٨٩٦.

#### ٤ - المَثَلُ السَّائِرُ

١ مضمونه. يحصر نقد ابن الأثير في كتابه المشهور والمَثَلُ السَّائِرُ فِي أدب الكاتب والشاعر، وهو كتاب نظر فيه صاحبه أولاً إلى من سبقه من رجال النقد فلم يعجبه إلا الأمدى في «الموازنة» وابن سنان الحفاجي في «سر الفصاحة»، وقد رأى أنها أصحلاً أبواباً كما أصحلاً التعمق في موضوعات تعد في النقد جوهراً. وبعد ذلك انتقل إلى موضوع الكتاب فجعله في مقدمة ومقالتين. والمقدمة عشرة فصول: علم البيان. آلائه وأحواله. الحكم على المعاني - الترجيح بين المعاني - جوامع الكلم - الحكمة التي هي ضالة المؤمن - الحقيقة وإحراز - الفصاحة والبلاغة - أركان الكتابة - الطريق إلى تعلم الكتابة. وتدرج المقالتان حول علم البيان. المقالة الأولى حول الصناعة اللفظية (اللفظة المفردة والألفاظ المركبة) من مثل السجع والتجنيس أو الجناس ولزوم ما لا يلزم والمتافرة بين الألفاظ وما إلى ذلك؛ والمقالة الثانية حول الصناعة المعنوية من مثل الاستعارة والتشبيه والتجريد والإيجاز والإطناب وما إلى ذلك.

وفوق ذلك كله أورد ابن الأثير طائفة من الآثار الأدبية وأبدى رأيه فيها، كما أقام موازنات بين بعض الكتاب والشعراء من مثل أبي تمام والبحتري والمتنبي، وكان بذلك رجل نظر وتطبيق.

٢ قيمته. كتاب ابن الأثير خاتمة الدراسات العباسية في موضوع البلاغة العربية، أراد فيه صاحبه أن يقول الكلام الفصل، وأن يكون فيه إمام الأقدمين وأستاذ المحمدين؛ نهض فيه ههنا عصفوان يريد مطاولة السابقين واللاحقين، ومد السلطان العلمي على كل باحث وناقد. فاثارت لهجته حفيظة قوم، وأوقد علمه حماسة قوم آخرين. فقام الخصوم ينكرون اللهجة، ويتنكرون للتبجح، ويتدنون بالتطاول

والإزراء على الفضلاء من أرباب الصناعة ، وهم يحمّلون فيه الإنشاء والمنعاج ، ويردّون النظر والخلد والاحتجاج والاعتراض ، ويذهبون الى أنّ الكتاب زوبعة في فنجان ، أو حذقة لسان في روضة بيان ، وليس هالك جديد أو تجديد . ولا هنالك ما يُغني أو يُعتمد عليه . ولا شك أنّ موقف هؤلاء الخصوم موقف عناد نشأ عن كبرياء الرجل ودعائه شيئاً من العصمة في ما يقول وما يُعالج .

أما المؤيّدون فقد رأوا الصيد كلّ الصيد في جوف القر ، وأنّ الكتاب خير ما أنتجته العبقريّة في الميدان ، وراحوا يتخفّون من كلّ عبارة حجة ، ومن كل كلام ميزاناً للحقّ وقسطاً للمعرفة . ولم لا شكّ فيه أنّ ابن الأثير طوى كتابه على كثير من المباهاة ، فهو لا يرى فوقه عالماً ، ولا نكاته مثلاً : « هداني الله لأبتدع أشياء لم تكن من قبلي مُبتدعة ، ومنّحتي درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تامة وتمام هي مُتبعة » . فكانه وحيد الدهر ، وربدة الأيام ، وكأنّ كتابه عصارة كلّ علم ، ومنتهى ما يمكن الوصول إليه في باب التقييد والتحصيص . ولهذا كان الرجل كثير السوق لفنثات قلمه ، كثير الاستشهاد بما خطّه يراعه ، كثير التوقّف عند تلك السداج ، كثير الإعجاب بها ، شديد الحرص على لفت نظر القارئ الى وجوه الحسن فيها ، شديد الاهتمام لأن يشاركه القارئ في إعجابه وصرخات استحسانه ؛ وهو في كل ذلك يحول بين من سبقه في عالم البحث والكتابة مخطئاً هذا ، مستصغراً ذاك ، مغلفاً القول لهذا ، ناسباً الجهل الى ذاك ، وكأنّهم جميعاً أقزام أمام عملاق ، يسلكون الطرق الوعرة التي لم يُخلقوا لها ، ويضربون في مجالات لم يملكوا من القوى ما يمكنهم من الضرب فيها ، ولذلك فهم يخطّون خبط عشواء : يستحسن أحدهم شيئاً فيُخالف فيه ، وكذلك يستريح الآخر شيئاً فيُنقضّ فيه ، « ولو حقّقوا النظر ووقفوا على السر ... لما كان بينهم خلاف » . إنهم جماعة لا يفحصون على اللآلئ الكسنة في الأعماق ، فيتلهون بالأصداف . أما هو فقد وقف من الشعر على كلّ ديوان وعموم ، وأنفذ شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع .. ولا يقول ما يقول إلا بعد رويّة ونظر ، ولا يُلبّي بما يلبي إلا بعد تقييد وحذر . وهكذا قاده التبحّر وحسب المباهاة الى إنكار فضل السابقين ، ولم يجد من الكتب ما يستفاد منه بعض الاستفادة إلا كتاب « الموازنة » للأمدّي ، وكتاب « سرّ الفصاحة » للحفاجي . ولمن في طبع الرجل ما يُفسّر هذه النزعة . إنه رجل ميّال من فطرته الى حبّ

الذات ، يعمل على تصيّد القرض لتحقيق أهدافه وإن كان في ذلك دلة عروش وتقويض بنيان . وهو رجل وزارة وسلطان يحسب أن قول «السلطان سلطان» ، وأن كلام الوزير وزير الكلام» . أضف الى ذلك أنه عاش في عهد غروب الحضارة العباسية وانهيار البنيان العربي ، وقد تعددت حوالبه مشاهد الجَمَسَجَمَة ، وحفل الجو بنقير صفادع الأدب ، فقام في ذلك الجو الوبيء معتدًا بعلم زخره ، مُعْجِبًا بثقافة عميقة استطاع أن يحصل عليها . وأراد أن يكون أستاذ الجيل في جيل كان همه أن يلهو بالظلام دون الدسم من كل مأكل ومشرب . ولهذا اشتدَّت لهجته ، وقسَّت أحكامه على من سبقه ، حتى تخطى حدود الحقيقة أحياناً ، وتجاوز في غلوه نطاق المقول أحياناً أخرى ، فكان في تهجمه انزلاق ، وكان في تطاوله تفرط واختراق .

إلا أن هذا كله لا يحطّ من قيمة علم ابن الأثير . فهو ، والحق يقال ، رجل العلم الذي يضرب به المثل ، ورجل الثقافة التي لا ينتهى إليها إلا بالجدّ الذي لا يعرفه مكلّ ، فهو يجول في الأدب جولة من حوى الأدب في صدره ، ويتقلب بين الكتاب والشعراء تقلّب من وقف على قريب وبعيد ، ومن فقه كلّ قديم وجديد ، ويستشهد بالأقوال استشهاد من لا تفوته شاردة ولا واردة ، أياً كان موضوع القول ، وأياً كان مجال البحث والتحريّ ، وهو في ذلك كله يرسل نظر الناقد البصير الذي يوضح مواطن القبح والجمال الفني . وهو رجل منطقي وجدل يسوق كلامه سوق الواثق بنفسه ، المطلّ على ما يعالج إطلالة اليقين ، المسلسل للحجج سلسلة تفرع وربط ، في تماسك عجيب ، ويأنو يحوي من السيئات ما يسيطر على لبّ القارئ ويستهو به . اسمعه مثلاً يتكلّم في موضوع تنافر الحروف :

«ومما يدخل في هذا الباب أن تجنب الألفاظ المؤلفة من حروف يشغل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة ، ومثال ذلك قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي هي من جملة القصائد السبع الطوال :

غداثُره مُسْتَشْزَراتُ إلى العلا      تفيل المدارى في مَشَى ومرسل

قفظة «مستشزرات» مما يصح استعمالها ، لأنها ، تنقل على اللسان ويشقّ النطق

بها ، وإن لم تكن طويلة ؛ لأننا لو قلنا «مستنكرات» أو «مستنفرات» على وزن «مستنزرات» لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة .

ولربما اعترض بعض الجهال في هذا الموضع ، وقال «إن كراهة هذه اللفظة إنما هو لظوها . وليس الأمر كذلك ؛ فإننا لو حذفنا منها الألف والثاء وقلنا «مستنزر» لكان ذلك ثقيلاً أيضاً ، وسببه أن «الشين» قبلها «تاء» ، وبعدها «زاي» فنقل النطق بها ، وإلا فلو جعلنا عوضاً من الزاي راء ، ومن الراء فاء ، فقلنا «مستشرف» لزال ذلك الثقل .

لقد رأي بعض الناس وأنا أعيب على امرئ القيس هذه اللفظة المشار إليها ، فأكبر ذلك ، نوقفه مع شهرة التقليد في أن أراء القيس أشعر الشعراء ؛ فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة ، وقلت له : لا ينع إحسان امرئ القيس من استنباح ما له من القبح .

إنك إذا أنعمت النظر في هذه المقطوعة تلمس الروح العلمية عند ابن الأثير . فالقضية قضية الإيقاع الموسيقي في الأنفاظ وتجنب الناشز من الأصوات وما يثقل النطق به من الحروف . فهو يقدم مثلاً من شعر امرئ القيس ويبين موطن التشويز والثقل فيه ، ويوضح طريقة التجنب بتقديم عدة ألفاظ بنفس المعنى والوزن . ثم يعمد الى طريقة الجدل فيفترض أمامه خصماً يعترض عليه في ما يقول ، فيفصل اعتراضه ووجهته ، ثم يقض الحجة بحجة أقوى منها ، فيعمد الى مخارج الحروف ويبين أن «الشين» قبلها «تاء» وبعدها «زاي» مما يثقل النطق به . وبعد رد الاعتراض يعلن طريقته التي يناهض فيها أرباب القديم الذين يقدسون ذلك القديم ويكبرون كل انتقاد يوجه الى شاعر أو كاتب عاش في الجاهلية ، أو في العصور الأولى للإسلام . فالتقد لا يميز بين القديم والمحدث ، ولا يتفاضل عن قبح القديم لمجرد أنه قديم ، ولا يخضع للتقليد لمجرد أنه تقليد . ولا شك أن في هذه الجرأة والصراحة ما يدعو الى الإعجاب . فالطريقة علمية بحتة وإن انحصر القول في الشكل والصورة الأولى من صورتَي العمل الأدبي .

والى ذلك تلمس في كتابة ابن الأثير روح الأستاذ الذي يهدف الى التعليم وإيصال

الفكرة كاملة في غير غموض ولا التواء. فهو يستعمل في كتابته الأسلوب الموسل الذي يكاد يخلو من كلّ تعميق وتصنع؛ وهو يعرض قضيته في أسهل ما يكون العرض وأوضحه. ويحرص على تفسير المعاني وتبيين مواطن الجمال أو القبح. ويقدم لذلك النماذج والشواهد ويسلسل الأفكار في طي ونشر، وتقسيم وتبويب، ويربط الأقسام بما يوضح مرجعها وسيرها؛ وهو يكرر إذا وجد في التكرار فائدة أو خشي أن تفوت القارئ حجة أو أن يغلط عليه معنى.

هذا الأستاذ يهدف بأسلوبه إلى تعليم طريقة الكتابة النثرية والشعرية وتمييز الجيد والردئ منها. وهو يعرض لموضوعه عرض نظر وتطبيق على سته الجاحظ وغيره من المتفهمين. أما من الناحية النظرية فيوضح المبادئ ويفسرها ويعللها؛ وأما من الناحية التطبيقية فيورد النماذج الجيدة والردئية، ويدعو إلى تذوق الجيد واتباعه ونبذ الردئ وتجنبه. وهو لم يحد عن «عمود النقد» العربي القديم ولم يتغلغل إلى أحاق العمل الأدبي، بل صرف همه إلى معالجة الناحية الشكلية ولم يحد عنها إلا في بعض التلميحات والإشارات التي تنفي والنقد الحديث على صعيد واحد. هو يعلن قبل كل شيء أن صناعة الكتابة طبع وكسب، وأن الكسب لا يُجدي إذا لم يرق على الطبع والذوق الفطري: «إنه إذا لم يكن ثم طبع فإنه لا تُغني الآلات شيئاً». إلا أن الطبع لا يُغني عن الكسب، فللكاتب أصول على الكاتب أن يعرفها تمام المعرفة وإلا زلت به القدم وكبها به القلم. من ذلك أن الألفاظ في خدمة المعاني، عليها أن توصها إلى الغير في أمانة. ولكي تقوم بوظيفتها عليها أن تتصف بالسهولة في غير ركاكة، أي «أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلوقة بكثرة الاستعمال. ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة، فإن ذلك عيب فاحش، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسوكة سبكاً غريباً يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس».

وهو لذلك يدرس اللغة، وطرق التعبير، وأصاليب التعميق والتقوية، ويدرس الفكرة ويقم الصلة بين اللغة والفكرة، ويعرض لفن استخراج المعاني من الألفاظ، ويهتم لما للألفاظ من ظلال وما تُشحن به من معاني كثيرة، وهو كيف دارت الحال لا يريد الفصل بين المعاني والألفاظ، لأن المعنى واللفظ شيء واحد وإن تناول الدرس النظري كلا على حدة. وفي هذا سبق ابن الأثير أصحاب النظرية الحديثة التي ترى في

اللفظة والفكرة كلاً ، كما أنه لمَح الى « الكلَّ الشعوري » في العمل الأدبي عندما طلب أن يكون خروج الكاتب من معنى الى معنى ترابطة . أضف الى ذلك أنه تكلم بوضوح على الارتفاع الموسيقي في الكتابة ، وعرض للنقد المقارن . وهذا كله ذو أهمية كبيرة في النقد الحديث .

• • •

وهكذا كان ابن الأثير من أركان النقد العربي ، امتاز كلامه بالسهولة والوضوح ، والتفصيل الطويل ، والمنطق والبلاغة . وقد كان على كلِّ حال عنيقاً في نقده ، كثير التحدث عن نفسه متى جرَّ عليه كره الناس ونقمته .



## مصادر ومراجع

- شوقي ضيف: النقد في سلسلة دفتون الأدب العربي، - القاهرة ١٩٥٥ .  
 طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب - القاهرة ١٩٣٧ .  
 محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب - القاهرة ١٩٤٨ .  
 طه إبراهيم: تاريخ النقد عند العرب - القاهرة ١٩٣٧ .  
 زكي مبارك: الشعر الفني في القرن الرابع - القاهرة ١٩٥٧ .  
 محمود فرج العقيدة: المثل السائر لخصاء الدين ابن الأثير - مجلة الأزهر ١٣ : ١٢٠ ، ١٨١ ، ٢٦٧ .



## الفصل السابع

### التاريخ والجغرافية والرحلات

١ حقيقة التاريخ : التاريخ علم بأصول تُعرف به أحوال الماضين من الشعوب.

٢ - العرب والتاريخ :

- ١ بدأ التاريخ عند العرب بكتابة الترحيم . والسيرة النبوية أوسع التراجيم العربية وأقدمها .
- ٢ منذ العهد العباسي اعتمد العرب لتكوين التاريخ خاصاً وعمماً . واشتهر منهم الطبري ، والمسعودي ، وأبو الفداء ، وابن خلدون ، ولقريزي ، والثوري ، وحاجي خليفة ..
- ٣ عبت على مؤرخي العرب نزعة الجمع وأحضر بعضهم الحقيقة التاريخية للسياسة والفزوية والمذهبية .

٣ الجغرافية والرحلات : انتشرت حركة الرحلات في البلاد العربية من يوم اتسع نطاقها وتمعدت مصطلحها . ودون الرحالة مشاهداتهم وأخبار مغامراتهم ، فكان لنا من ذلك أدب جغرافي شديد القيمة والعائدة العلمية . واشتهر من الرحالة ابن حوقل ، وابن جبير ، والأدريسي ، وابن بطوطة .

\* \* \*

الطبري والمسعودي

١ الطبري : وُلد في طبرستان ونشأ في بغداد . وحال في العراق ومصر والشام . وتوفي في بغداد سنة ٢٢٣هـ / ٨٣١م . له كتاب أخبار الرُّسُل والملوك وهو من أروع كتب التاريخ عند العرب .

٢ المسعودي : وُلد في بغداد وحال في مصر وفارس والمند والصين . ثم توغل إلى ما وراء أفريجيان وخرج إلى الشام ولسطين وتوفي سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م . له أخبار الزمان ومن أباداه الخلفاء ، ومروج الذهب ومعادن الجوهر . وه التسيه والإشراف .. كتب التاريخ بأسلوب أدبي ومنزعة موسوعية . ومرح التاريخ بالأسطورة .

## ١- حقيقة التاريخ:

التاريخ علم بأصول تُعرف به أحوال الماضين من الشعوب والأمم، وذلك عن طريق القصص الإخباري ومن ثم ترى أن التاريخ علم وأنه قصص. وهو قصص من حيث أنه يروي الأخبار، وهو علم من حيث أنه يروي تلك الأخبار كما وقعت من غير زيادة ولا نقصان، وهذا الأمر يتطلب التحري الدقيق، والنظر الناقب، والتجسس الجهد من كل هوى، والثقافة الواسعة الشاملة، ومعرفة الأسباب والعلل، لربط كل معلول بعلة، وهو يتطلب معرفة علمي العمران والاجتماع لما فيها من تحليل لأسباب حضارات الشعوب ورفقها أو تهاوها.

## ٢- العرب والتاريخ:

اهتم العرب للتاريخ اهتماماً خاصاً وقد نهجوا في كتابته عدة مناهج، ففكروا أول ما فكروا، في كتابة التراجم<sup>١</sup>. والترجمة، كما لا يخفى، تعريف بحياة شخص أو أكثر؛ وقد اهتم لما العرب اهتماماً شديداً، فنشأت في بدء أمرها ديبية تدور حول الرسول<sup>٢</sup>، ثم تشعبت وتناولت عظماء الرجال والنساء. والترجمة (إذا طالت تسمى سيرة، والسيرة النبوية<sup>٣</sup> أوسع التراجم العربية وأقدمها ظهوراً).

ومن التراجم ما سموه طبقات. والطبقات مجموعات من التراجم لفئات من الناس اشتهروا في ناحية من نواحي المعرفة أو ما إلى ذلك، فكان منها طبقات الشعراء، وطبقات النحاة، وطبقات الأطباء...

١ - ظهر علم التاريخ عند العرب في صدر الإسلام. ولم يبق مما قبل ذلك المهد إلا نعوش وكتابات تشير إلى المالك الحظيفة التي ظهرت في جاهلية العرب، وقد امتزج فيها التاريخ بالأسطورة، وكان لدى المشافرة وكتبه محوي أخبار عرب الحيرة وأنسابهم وسير أئمتهم، وكانت لدى عرب الشمال روايات شفهية عن أئمتهم وشؤونهم الاجتماعية وأيامهم. وكانت قصص «الأيام» مجموعة روايات شفهية قبلية جماعية، وهي ملك مشترك لقبيلة، ونشأت كذلك حتى القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) حين جمعت هذه الروايات وسُفِّت، وهي تحوي بعض الحقائق التاريخية (طالع بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، لمد العريز الدوري، ص ١٣ - ١٨).

٢ - اسميت الدراسات الأولى لحياة الرسول باسم «المعاري» -

٣ - وصلنا من ابن اسحق (٧٦١م / ١٥١هـ) أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكاملها. وقد تطورت الدراسات التاريخية مع محمد بن عمر الواقفي (٧٤٨ - ٨٢٣م)، وإن كتابه «المعاري» يوفق كتاب ابن اسحق دقةً وتنظيماً.

ولم يكتفِ العرب بذلك بل راحوا يعالجون التاريخ بمعماته الواسع . ولما كانت النهضة العربية في العهد العباسي أخذ العرب في تدوين التاريخ خاصاً وعمماً ، ثم راحوا في كل عصر يعالجون هذا الفن بما لديهم من وسائل ، وقد ذكر حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» ألفاً ومئتي مؤرّح عربي عاشوا قبله أي قبل القرن السابع عشر . واشتهر من مؤرخي العرب الطبري (القرن التاسع) صاحب التاريخ العام الذي امتدّ مند فجر الخليفة الى سنة ٩١٤ م ، والمسعودي (القرن العاشر) صاحب «أخبار الزمان» و«مروج الذهب» . وأبو الفداء (القرن الثالث عشر) صاحب أخبار البشر ، وابن خلدون (القرن الرابع عشر) صاحب تاريخ البربر ، والمقريزي (القرن الرابع عشر) صاحب تاريخ مصر ، والنويري (القرن الرابع عشر) ، وحاجي خليفة (القرن السابع عشر) صاحب «كشف الظنون» الذي يعدّ من أعظم كتّاب التراجم عند العرب وفيه نحو ١٨٥٠٠ كتاب شرقيّ ألحق فيه المؤلف اسم كل كتاب باسم مؤلفه مع ترجمة حاله .

والذي يُجيب النظر في تواريخ العرب ، ولاسيما الأقدمين منهم ، يجد أن عدداً كبيراً من المؤرخين لم يعنوا عناية كافية بالتقدّ التاريخي وقد غلبت على آثارهم نزعة الجمع من غير ثاقب نظر في صحّة ما يُنقل . وتلك النزعة كانت سائدة في مختلف آثار المؤرخين الذين ظهروا في العصور الوسطى ، ولهذا حقلت بالأخطاء واختلط فيها التاريخ بالأسطورة . وإن من نتيج تلك التواريخ وجد أن العرب قد تفوّقوا على من سواهم ، وأنه ظهر فيهم من درج على خطّة التحري والمقارنة ونقد المصادر كالبلاذري واليعقوبي وغيرهما ، قال عبد العزيز الدوري : «ملاحظ أن اليعقوبي مُتّزن في أخباره ، وأنه بصورة عامّة دقيق في ما أورد من معلومات ، وقد جاء أحياناً بمعلومات فريدة» . وقد عيب على العرب أنهم أخضعوا الحقيقة التاريخية في أحيان كثيرة للسياسة والحزبية والمذهبية ، فأنحرفوا بذلك عن التجرّد العلمي . ومهما يكن من أمر فالكثافة التاريخية عند العرب هي بحر زاخر حافل بالفوائد والجواهر .

#### ٤ - الجغرافية والرحلات :

لم يفصل التاريخ عن علم الجغرافية تمام الانفصال إلا في العصور المتأخّرة . فقد كانا في الزمن القديم مترجّبين في أكثر الأحيان ؛ وكانت الجغرافية تُدعى علم الأقاليم ،



خريطة الشريف الإدريسي

وكانت ، في أكثرها ، رحلات في الأمصار وعلى سطح البحار . ونحن نعلم أن العرب كانوا منذ القديم جوّائي أقطار وخانقي صحاري وقفار ، يتنقلون من بلد الى بلد للتجارة ، ويسلكون الطرق القصبة للسياحة . وكان لهم منذ القديم علاقات تجارية مع الصين والهند وفارس وغيرها من البلاد ، وانتشرت حركة الرحلات في البلاد العربية من يوم اتسع نطاقها وتشعبت سلطتها ، وتعقدت مصالحها ، فكان لا بُدَّ للحكام من تنظيم شؤون البلاد ، ومعرفة مسالكها ، والوقوف على تضاريس أرضها ومناخ سماءها ، ومُستجات برّها وبحرها ، وكان لا بُدَّ من تنظيم حركة البريد وما الى ذلك ممّا حمل على السّفر والتنقل من مكان الى مكان ، ومما لفت الأنظار الى الرحلات والمعامرات ، فقام

لها كلَّ صاحب حاجة وتجارة ، وكل صاحب طموح وفضول علمي ؛ وإذا التاجر مسلمان يزور ، في القرن التاسع للميلاد ، بلاد الصين على ظهر مركب اجتاز به المحيط الهندي ، وإذا ابن خُرداذبة ، واليعقوبي ، وقدامة ، والبُخاري ، وابن حوقل في القرن العاشر يجوبون الآفاق في خدمة الحكام ؛ ويقاوت الرومي في القرن الثالث عشر يضرب في الأفطار لأجل التجارة ، والمسعودي في القرن العاشر يواجه الأخطار في سبيل العلم والكشف ، وأبو الريحان مُحَمَّد البُيروني في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر يتجول في الهند ، وأبو عُبَيْد البكري الأندلسي في القرن الحادي عشر يتقلب بين الشرق والغرب ، وابن جُبَيْر في القرن الثاني عشر يقوم برحلتين واسعتين ، والشريف الإدريسي في القرن الثاني عشر يطوف في الشرق والغرب ، وابن صَعيه في القرن الثالث عشر تستهويه الأسفار فينطلق ويجول جولات واسعة ، وابن بطوطة في القرون الرابع عشر يقوم برحلات ثلاث هي من أوسع الرحلات وأخطرها شأنًا.

دُونَ أولئك الرّحالة ما شاهدوا في رحلاتهم من أحوال البلاد والعباد ، وأتوا بالطرائف من المعلومات وإن أعوزهم التأمل العلمي والتقد الصحيح . وهكذا كان لنا مجموعة ضخمة من أخبار الرّحلات نذكر منها كتاب رحلة سليمان التاجر الذي تُرجم أخيراً إلى الفرنسية وكان أول كتاب عرفه الغرب عن بلاد الصين ، وكتاب «الممالك والممالك والمفاوز والممالك» لابن حوقل ، وفيه جغرافية طبيعية ، وجغرافية بشرية ، وجغرافية اقتصادية ، وجغرافية سياسية .

ونذكر «معجم البلدان» لياقوت الرومي ، و«تاريخ الهند» للبُيروني ، و«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي ، و«نخبة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لابن بطوطة .

## الطَّبْرِيّ - المسعودي

أ - الطبري (٢٢٥ - ٣١٠ هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣ م)

١ - تلويحه :

هو أبو جعفر محمد بن جرير. وُلِدَ في أَمَلٍ من طبرستان ودُعي لذلك الطَّبْرِيّ. توفّي في بغداد بعد رحلات طويلة قام بها في ربوع العراق والشام ومصر سعيًا وراء العلم وتحصيل المعارف، وكان شديد التّهم إلى العلم، شديد الإقبال والصبر عليه، لا يجد للحياة معنى بمعزلٍ عنه؛ فكان موسوعيّ النظرة، شموليّ المعالجة، وكان إلى جانب معارفه التاريخيّة مفسرًا ومقرئًا ومحدثًا؛ ولئن اتّهم بالإلحاد فما ذلك إلّا تحاملاً وتشددًا في التقدير والتفسير، ومع ذلك فقد اضطرّه التحاملُ والاتّهام إلى لزوم الخطوة يعيش فيها عيشة انفراد وتقيّر إلى أن توفّي سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م.

٢ - أدبه :

للطبري مؤلّفات كثيرة في الفقه وشئى علوم الدين ضاع أكثرها، وأشهر ما بقي له :  
١ كتاب «أخبار الرّسل والملوك» ويُعرف بتاريخ الطَّبْرِيّ، وهو يقع في ثلاثة عشر مجلّدًا، وينطوي على أخبار البشر منذ فجر الخليقة، وهو أفضل نموذج من نماذج الطريق القديمة التي درج عليها المؤرّخون العرب، أي طريقة الجمع والإسناد في غير ترابط، وفي غير اعتراض أو نقض أو تصحيح.

والأمر الذي يمتاز به عمل الطبري هو غنى المادّة وتدفّق المعلومات والاعتماد الشديد على رواية من شاعده أو سمع. والكتاب من أشهر تواريخ العرب وأكثرها ضبطًا وقد تُرجم إلى الفارسيّة والتركيّة والأينيّة والفرنسيّة.

٢ - جمع البيان في تأويل القرآن.

## ب - المسعودي (٣٤٦هـ / ٩٥٧م)

## ١- تلويحه :

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الشافعي. وُلد في بغداد ونشأ مُكبّاً على العلم، ساعياً في تحصيل ثقافة واسعة. وما إن بلغ العشرين من عمره حتى استهوته الأسفار والضرب في الأمصار، فجاء مصر وانتقل منها إلى فارس وكِرمَان سنة ٩٢١م. حتى استقر في اصطخر. ثم قصد الهند وعطف إلى كِتَابَةِ قَصِيمُور فسَرَنَدِيب (سِيلان). ثم ركب البحر إلى بلاد الصين، واجتار البحر الهندي إلى مَدَغَشْقَر وعاد إلى عَمَّان. وفي سنة ٩٢٩ قام برحلة أخرى إلى ما وراء أذربيجان وجرّجان ثم إلى الشام وفلسطين. وكان يسكن مصر تارةً والشام أخرى. ومن سنة ٩٤٧ إلى سنة ٩٥٥ أقام بالقسّاط، وقد حصلت إذذاك — على ما أخبر في مؤلفاته — زلزلة عظيمة في بلاد مصر والشام. وتوفي المسعودي سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م.

## ٢- أده :

للمسعودي آثار كثيرة ذهب الزمان يقسم كثير منها، ومن ذلك كتاب «أخبار الزمان ومن أهاقه الحفّان» في ثلاثين مجلداً ليس منه الآن إلا جزء واحد في حِزَانَةِ فَيَافَا، ومن آثاره أيضاً كتاب «دخائل العلوم وما كان في مآلف النهور»، وكتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وقد ذكر فيه المسعودي أنه ألّف كتاباً كبيراً في أخبار الزمان ثم اختصره وسماه «الأوسط» ثم أجمل ما بسّطه واختار ما وسطه في هذا الكتاب. ومن آثاره أيضاً كتاب «الفقيه والإشراف» وهو أشبه بدليل على ما جاء في كنهه الأخرى كما أنه حوى تقسيماً للكائنات متسلسل الأجزاء، مترابط العاصر توابطاً شديداً. أما كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» فكتاب تاريخ وجغرافية جملة في جزءين يتضمّن الأول منها كلاماً في الأنبياء وفي البحار والبلدان وغرائبها، وفي تاريخ الأمم السالفة وفي أديانهم وعاداتهم، وفي تاريخ العرب حتى مقتل عثمان بن عفّان. ويتضمّن الجزء الثاني قصيلاً لتاريخ الإسلام من عهد عليٍّ إلى خلافة المطيع لله العباسي.

## ٤ - رجل التاريخ والجغرافية :

تقلب المسعودي في البلاد واجتاز البحار ، وراح يدون ما سمع وما رأى وله من ثقافته الواسعة خير معين . إلا أنه أراد التفصيل والتطويل ، فكتب ولم يضع حداً لكتابه ، وقد أراد أن يصوغ التاريخ بأسلوب أدبي كما أراد أن يكون مفكهاً لقومه ، فجال جولات واسعة ، مزجاً التاريخ بالمعرفة والجغرافية بالأساطير ، وسالكاً طريق الاستعارات القصصية والوصفية والشعرية ؛ وقد حاول أحياناً التحري والتدقيق والتقدم ولكنه لم يمتدحها اعتياداً ولم يستطع التخلص من قيود الخرافات والروايات . وحاول في نظرياته الجغرافية أن يسبر أغوار الناس ويكشف طبائعهم وعاداتهم ، ويعمل أشكال الكون وما على الأرض من مظاهر ، ولكنه في كل ذلك وفي تاريخه فاقته النظرات العميقة ، والسمحات الشمولية ، وظن وتوهم وتحيل ، وملأ كتاباته أوهاماً . إلا أن كل ذلك لا يضع قيمة الرجل ولا ينسبنا أن الوسائل العلمية كانت جد ضعيفة لذلك العهد .

ومها يكن من أمر فالمسعودي من أصحاب الآثار الضخمة ، ومن الذين عالجوا الموسوعات الواسعة النطاق في جلد فريد وصبر عجيب . ثم إن لكتابات الرجل قيمة أدبية حقيقية ، فعبارة شديدة السلاسة ، واضحة المعاني ، موسومة بسمه الجمال والروعة الفنية ، تسير في جلال غير جامد ، وفي إشراق غير لماع .

هذا هو المسعودي رجل التاريخ والعلم والأدب ، وإنه ، وإن كثرت أوهامه ، لا يزال ينبوعاً من أغزر ينابيع التاريخ والجغرافية ومرجعاً من أهم المراجع وأضخمها .



## مصادر ومراجع

دائرة المعارف الإسلامية.

الزركلي : الأعلام.

عيسى إسكندر المaulوف : تاريخ أخبار الزمان — المعة ١ : ٧٦ ، ١٠٩ .

المسعودي وكتابه أخبار الزمان : المشرق ١٢ : ٦٣٧ .

J. Sauvaget: Historiens Arabes Paris 1946



## الباب الثالث الشعر العباسي

### الفصل الأول نظرة عامة

- تحول الشعر في هذا العهد الى رنة احتجاجية ، أو وسيلة كسب ، أو تعبير عن واقع الحياة وآمال الشعب وآلامه .

١ - منزلة الشعر والشاعر :

١ - الشاعر ملأ القصور وتندم الملوك وروح الفناء .

٢ - وهو لسان الحياة في شتى مظاهرها .

٢ - أقسام الشعر العباسي وأنواعه :

أ - الشعر الرسمي :

١ - هو مدح للمظلمة واستنوار لأفئدتهم .

٢ - هدفه الكسب وأسلوبه دغدغة الأثرة الملكية .

٣ - مبالغة في المائي ، وتزييف في المواطنف .

٤ - جلال التذم ، وتآل وتسيق .

ب - الشعر الشعبي :

هو الذي يردّد أسداه الحياة ويميل الى إرضاء الناس عامة .

١ - الظهور والنزل .

تمتعت النزل حدود التقليد العربي وأعرق في التحش الى حد الشذوذه الصغيت .

- سهولة وإبتعاد عن المومض .

- خصوص لغة الماء .

٢ - الشعر

إكثار من وصف الخمر والثناء ووصف مجالسها وآلاتها .

مبغرة بالدعوة الى ممارسة الخمرة والثناء .

- مبالغة جوت الكثيرين الى الإللاد والزندقة والاستهتار بالدين .

٣ - الزهد والتصوف :

- شيوخ التزهّد والتزجّد في قسم من الشعر .

- تطوّر شعر الزهد عن شعر الدين (أبو الطاهرية)

٤ - تطوّر الشعر الرهدي إلى شعر صوفيّ (الحلاج).

ملحكة .

لما الشعر الحكيم عمراً حليداً في العمق .

عالم مذاهب حياتية مستقاة من الفلسفة والتحرية (أو تمام، المشي).

- أصبح علماً مع أبي العلاء المرّبي

٥ - صياغة الشعر العباسي .

هي ولادة الفناء والرحمة وبسم الحياة ، وقد اردادت تألقاً وثروة بيانية وبديعية .

كان الشعر في الجاهلية انطلاقة النفس في شتى أسواقها المكانية والزمانية ، يُرافق النفس في زرعها البطرية وتطلعاتها القبلية ، ولما كان العهد الأموي انتقل الشعر من عالم النفس الفردية والقبلية إلى عالم السياسة العامة والسياسة الحزبية ، يتلون بألوانها ويُخضع كلّ شيء لها إلا ما انفلت منه في البوادي القاصية . والخواصير المبعدة عن سلطان السياسة . وما إن أطلّ العهد العباسي بحضارته الجديدة ، ودكتاتوريته الكسروية ، واعتماده على النظم الفارسية في الحكم ، وانتعاده عن التقاليد العربية ، وانصرفه عن العصية القبلية ، حتى أغضى عن سياسة الشعر والشعراء . وعندما خرج الشعر عن دولة العصية والسياسة تحول إلى رينة اجتماعية ، أو وسيلة كسب ، أو تعبير عن واقع الحياة وآمال الشعب وآلامه . وبهذا انقلب الشعر في العهد العباسي انقلاباً شديداً من حيث العامل والغاية وإن كانت له منزلة رهيعة وتذوق شديد .

#### ١ - منزلة الشعر والشاعر في العهد العباسي :

إن من طالع كتاب الأغاني وسائر الموسوعات الأدبية والتاريخية تعزيره اللوحة لما يحمد من امتزاج الشعر بجميع مظاهر الحياة العباسية . فالشاعر بلبل القصور ، ونديم الملوك ، وروح الأهلان على أوتار البرابيط وألسنة القيان ، والشاعر وسام الحياة مد فيها من مآتي جِسَام ، وهو لسان اللهو والمجون وبجالس الحمرة ، كما هو لسان الفلسفة والزهد والصوف . إنه ينظم الحياة انتظاماً ، ويغمرها بكل ما فيها ، والناس إليه آذان تُصغي وأيدي تنبسط ونجوم . وقد اهتم الخلفاء والأمراء للشعر والشعراء ، فتناشدوا مائز الكلام ، وعقدوا المجالس للمباريات ، وفرضوا لأرباب الشعر الأعطية في بيت المال ،

ووهبوا أحياناً على كلِّ بيتٍ ألفَ دينار، وإنَّ منهم من تعاظم القريضُ أو أنشده. وهكذا في المئة الأولى من عمر الدولة العباسية أكبَّ أولو الأمر على الشعراء يُعظِّمون شأنهم، ويَطْرِبون لأقوالهم، ويُعَدِّقون عليهم الأموال، ويَخْلَعون عليهم الخُلَع، ويُقَطِّعونهم الصِّياع، ويهبونهم الجوارى، حتى ساموا الملوك في المنزلة، وساووهم في نعيم العيش، وبعد المئة الأولى بخل الخلفاء وأتباعهم على الشعراء بعض البخل. وانقبضت أكتفهم بعض الانقباض، فتملئل الشعراء شاكين عاتبين، وهددوا مُعْرِضين، وتجمعت أقوالهم في قول ابن الرومي:

لِنْ كُنْتُ مِنْ جَهْلٍ حَقِّي غَيْرَ مُعْتَذِرٍ      وَكُنْتُ مِنْ رَدِّ مَنْحِي غَيْرَ مُنْتَبِئٍ  
فَأَعْطَيْتِي ثَمَنَ الطَّرْسِ الَّذِي كُنْتُ      فِيهِ الْقَصِيدَةُ أَوْ كَفَّارَةُ الْكَذِبِ

ولما كان عهد الإمارات عاد الأمراء إلى التنافس في تكريم الشعراء، فارتفع صوت الشعر في كلِّ صقع وكلِّ متدى، وتداخل الشعراء زهو كثير، حتى تناول بعضهم على أولياء نعمتهم، وحتى عدوا ما يتألون من جزيل المطاء ديناً لهم في عَقِّ كلِّ ممدوح.

#### ٤ - أقسام الشعر العباسي وأغراضه :

الشعر العباسي مجموعة ضخمة عصفت بها المؤثرات المختلفة، وتقلَّبت حولها العوامل المتباينة، وكان من المنتظر من هذه المؤثرات والعوامل أن تخلق شعراً جديداً في جوهره جديداً في فنونه، ولاسيا وقد اطلع العرب على كتاب والشعر لأرسطو، ولاسيا ولأنهم وقفوا على فحوى الإلياذة وأسلوبها، ولاسيا وأنهم امتزجوا بغيرهم من الشعوب امتزاجاً عُنصرياً وثقافياً، والمكتبات منتشرة في طول البلاد وعرضها تضم كلَّ نفيس، وحركة النقل تجمل في يد أبناء العرية كلَّ وسيلة من وسائل الابتكار والتجديد؛ ومع ذلك فشيء من ذلك لم يكن، لأنَّ العرب أصحابُ بليَّةٍ واورتجال، ولأنَّ الأمة العربية كانت قوية الشخصية التقليدية، شديدة الصلة بالواقع بحيث يصعب عليها الانقلاط في عالم التخيل الواسع، ولهذا لبث الشعر يجري في تياراته واتجاهاته،

وفنونه التي وُجدت في جزيرة العرب ، ويسير على تقاليده الثابتة التي لم ترتعزها العواصف والاضطرابات التي طرأت على حياة الأمة نفسها في عصور تاريخها المختلفة

وإن الباحث ليأخذ العجب ، ويتأمله الدهش من هذه الظاهرة العجيبة : ظاهرة الحيوية القويّة التي أتاحَت لهذا الشعر أن يستقي في هذه البيئة — المتغيرة تغيراً كبيراً عن بيئته الأصليّة — خصائصه ، وعناصره الجوهرية وأنماطه ، وأن يحتفظ بشخصيته ، وأن يفرضها في قوّة ظاهرة على أصحابه الجدد ، على حالٍ لا تتيّأ إلا للكائن الأصلح بين كائنات أقلّ منه صلاحيةً وأضعف منه شخصية ...<sup>١</sup> ويعلّل بعض الباحثين ظاهرة بقاء هذه التقاليد الشعرية بكون الكثرة الكاثرة من أبناء البيئة العباسية من أصل عربيّ<sup>٢</sup> ولأنّ السريان من الشعوب السامية ، ولساميون في نظر بعض العلماء المحذرون من شبه جزيرة العرب . ولكنّ هذا التعليل لا يقع الباحث للدق . وبقاء التقاليد العربية في الشعر عائد إلى نفسية العرب وحكامهم ، وإلى ترسخ طبيعة التقليد فيهم ، ثم إلى الجوائر المالية التي كانت تُبدل لهذا الشعر التقليدي ، ثم إلى أنّ العرب ، وإن سمعوا بهوميروس والإلياذة وترجموا كتاب الشعر لأرسطو . لم يعرفوا الأدب الإغريقي معرفة حقيقية إذ كانوا طلاب علوم وفلسفة لا طلاب أدبٍ وشعر .

ولأنّ هذا الشعر ، ضمن دائرته التقليدية العامة ، لم ينبثق من تأثيرات البيئة في بعض توجيهااته الخاصّة ، وفي بعض معانيه وأصنافه وأساليب تنميته وزخرفته . ولأننا نستعرض أقسام ذلك الشعر العباسي مبينين ما طرأ عليه من تبدل في ناحية الخزّيات ، وما أُدخل عليه من حديد في شتى أغراضه ومناحيه ، وموضحين خطوات سيره في طريق الفنّ بين شتى تيارات التقليد والتجديد .

١ الشعر الرسمي : إنه لمن الجدير بنا أن نسَمّي الشعر الذي قيل في مدح المُظفَّماء شعراً رسمياً ، فهو يدور في فلك هؤلاء العظماء ، ويتجاوب وميوههم ونزعاتهم . ويُدغدغُ كبريائهم ، وإن لم يهتمّ بشديد الاهتمام لسياستهم . وقد أكثر الشعراء من شعر المديح إكثاراً ليس بعده إكثار . واحتشموا حول الملوك والأمراء احتشاداً شديداً ،

١ - مجيب السبيعي . تاريخ الشعر العربي . ص ٢٧٤ ٢٧٥

٢ - نفس المصدر . ص ٢٧٧ وما يشعها

يستندرون أكفهم ، ويستميحون ميلهم الى الظهور بمظهر العظمة والجلال . والمال عصب الحياة العباسية ، لا نستقيم بدون حال . لأن الترف شائع في المساكن والمآكل والملابس ، وقد عاش الشعراء في بذخ ونعم ، وتألقوا في كل شيء . قال الجاحظ : « كانت الشعراء تلبس الوشي والمقطعات وكل ثوب مشهر<sup>١</sup> . أضف الى ذلك أن العهد العباسي اجتاز مراحل شاقة من الفقر وفساد الأحوال الاقتصادية ولا سيما بعد المئة الأولى من عمره ؛ فالحياة التي عاشها البلاط ، والألق الذي انغمس فيه ، والقصور التي أنفق الثروات الضخمة في إقامتها ، كل ذلك جرّه شيئاً فشيئاً الى زيادة الضرائب وانتهاب أموال الرعية بشتى الوسائل بحيث أضعف القوى الإنتاجية في البلاد ، ورمى العباد في هوة عميقة من البؤس والانهيار<sup>٢</sup> ، وبحيث جعل للدرهم قيمة كبيرة في صدور الناس فتعلقوا به تعلقاً شديداً وتطلبوه تطلباً حثيثاً ، وراحوا يفلسفون الحياة بالنظر إليه ، فكانت الحياة لا تصلح إلا به ، وكان المجد لا يمتشي إلا في ركابه . ولا عجب بعد ذلك كله في أن يعمل أرسطراطيون ذلك المجتمع على تمويه الحقائق وتضليل العقول ، وفي أن يحشدوا الشعراء والأدباء حول ظلم سياستهم المخرفاء يطرئونها ويملأون فراغها بقاويل الكذب والتدجيل ، وعبارات التعظيم والتبجيل ، وذلك كله مقابل درهم يُنزل وديار يُحمل .

وهكذا أقبل الشعراء على المعظماء رغبة في التزيد حيناً ، وخشية من الفقر والبؤس حيناً آخر ، يحفزهم الإغراق في ترف العيش حيناً ، ويدفعهم طلب المجد والجاه حيناً آخر . وقد تقلبوا مع الحياة العباسية في شتى ملابسها ، فتقلبوا بين العواصم والحواضر ، وتحلقوا حول الموائد والعروش ، وابعأوا الشعر في أسواق المديح ، فإن كان له رواج زادوا منه وأكثروا ، وإن كهد وانحط شأنه تراجع منهم الطبع وقل الإنتاج<sup>٣</sup> .

وفيما كان الإطراء ، وما كان منهجه ؟ إنه ، شأن كل كائن ، خاضع ، في معانيه

١ - بيان والبيان ٣ ، ص ٦٦ .

٢ - لقد عني المرح إبن الأثير برواية الكثير من تلك الأخبار التي تصود ما آلت إليه أحوال الناس في ذلك العهد . ومن تلك الأخبار أنه اشتد الغلاء بعد سنة ٣٣٤ هـ . حتى أكل الناس الميتة والكلاب والسمانير ، وأخذ بعضهم ومنه صبي قد شوله لأكله . ( ٦ ، ص ٣٢١ )

٣ - طالع الأدب في ظل بني بويه ، عمود الزميري ، ١٤٣ .

وأُسلوبه ، للغاية التي يهدف إليها . أمّا الهَدَفُ فَالْكسْبُ سواء كان مادياً أو معنوياً ؛ وأمّا الأسلوب فلدخلة الأثر المملوكية بحيث يقع صاحبها في نشوة الكبرياء ، فيستمر إلى المادح عطاءً في حساب أو في غير حساب . ومن المعلوم أنّ الخليفة العباسي في بغداد نقطة الدائرة وحوله هالة من التقديس تُحوطه بها المعاصر الفارسية الغالبة التي ادّعت له الرُبوبية ؛ كما يشهد بذلك ما فعل الرأونديّة مع المنصور حين خرج جباةهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر : « أَنْتَ أَنْتَ ! » يعنون أَنْتَ أَنْتَ الله . وتلك بقية من تقاليد غير عربية كانت تُبذل فيها العبادة للملوك ' ... فكان أن استكبروا ، ورأوا في نفوسهم ظلَّ الله على الأرض ، وحسبوا إرادتهم امتداداً لإرادة القدير العليم ' . فهم من طينة غير طينة عامة الناس ، وهم في منزلة فوق مستوى البشر . وفهم الشعراء منهم ذلك ، ولسوا ميلهم إلى هذا الادّعاء الباطل وتمسّكهم به ، فراحوا يجارونهم في نزعاتهم الغالبة ، ويسكبون لهم كأس المديح دهاقاً ، مُغالين في الماعاني ، مُسرفين في ذلك الغلو ، مُزيّفين في عواطفهم ما شاء لهم التزييف والتخريف . وبذلك خرج شعرهم عن حقيقة الواقع وواقع الحقيقة ، فكانت اللدائخ ذات نغمة واحدة تقريباً ، قلما يتميَّز فيها ممدوحٌ عن آخر إلا في جهازة صوت الشاعر ، وشدة انطلاق قريحته ، ومقدرة خياله على تصوير الماعاني وتضخيمها . وهكذا كان كلُّ ممدوحٍ فريد العصر وإمام الشعر ، وكان عطاؤه انهباءً المطر وموج البحر . وسارت القصيدة المدسجة على خطة الرسميات ، في جلال القديم ، وبطئه ، وحُلَجَلَة أوزانه وقوافيه ؛ فكانت وقوفاً على طلل ، أو غزلاً وهماً بحبيب ، وإن خرجت عن مثل هذا الافتتاح فإلى حكمة تُرسل كمقدمة من مقدّمات الأقيسة المنطقية ؛ وكانت بعد ذلك وصفا لئاقة توصيل إلى الممدوح ، وإذا الممدوح بطل الحروب ، وبراس العقول والقنوب ، وسيد الكرم والجود ، ويد الله في صفوف العبيد ، وكانت أخيراً إشارة إلى طلب وطلباً في إشارة ؛ وكانت على كلّ حال ثباتاً وتعميقاً ، ومثاقبة عبارية وأفلاط ، وإغراقاً للقديم في جو من الرُخوة الحليّة ، وتكراراً لمعاني موروثة في ابتكار الألوان والصور المستحدثة . وهكذا فالشاعر ، وإن كان من الجدد الذين التأثروا ، خاضع في الشعر الرمحي لهذه الحطة لا يبعد عنها ، لإرضاء لمادة

١ - طالع كتاب السيادة العربية ، لبنان فلوت ، ص ٧٥ - ١٠٦

٢ - طالع الأدب في ظلّ بني بويه ، ص ٣٧ - ٣٨

البروتوكول الرسمي ، بل إرضاء لرغبته في التوال من وراء خضوعه لهذه الشكيلة المتحجرة .

٢- الشعر الشعبي : فيها كان الشعر الرسمي يلزم البلاطات ويسير مع شتى السلطات كان الشعر الشعبي الذي نما في الحجاز عهد بني أمية ينتشر في الديار العباسية ويتطور وفقاً للأحوال . ويشعب الى فروع مختلفة في ازدياد الوعي وتعدد الدواعي التي هيأت تطوره واشعابه . لم يكن الشعر الرسمي يمثل النفسيات وهو البعيد عن الحقيقة والواقع ، والبعيد عن شعور الجماعة ، فقام النوع الآخر يسد الفراغ ويُعالج المعوطف العامة التي تتصل بالنفوس جميعاً ، ويصور المجتمع في شتى مظاهره ونزعاته . والمجتمع العباسي . كما لا يخفى ، من أكثر المجتمعات ألواناً . فهناك الحياة الاقتصادية التي تكيف الوعي وتوجه التفكير العقلي ، وقد تقلبت قلباً غريباً كما سبق القول . وجعلت الناس طبقات متناحرة ؛ وهنالك الحياة العقلية التي انفتحت على الثقافات العالمية تحدوها الترجمة وتغذوها المدارس والمعاهد العلمية ، وقد تمثلت في شتى التيارات المذهبية والفلسفية ، وجعلت للعقل محلاً رفيعاً ، ونظرت الى الوجود نظرات متباينة تبعاً لكل نرعة ولكل رأي ؛ وهنالك الانحلال الديني والأخلاقي الى جنب التدين والتزمت ؛ وهنالك كل شيء وضده ، بحيث أصبح العهد العباسي ميداناً بلغ فيه التباين والاختلاف بين الناس حد التناقض ، وبحيث نشب الصراع الشامل بين الطبقات ، والعنصريات والمذاهب ، وأرباب القديم والحديث ..

وكان الشعر في جميع المواقف والمجالس يُردّد أصداء الحياة وينحوي نحواً ديمقراطياً بحثاً في غير ستر ولا اقتصاد . وكان بشّار بن بُرد ( ٧١٤ - ٧٨٤ ) أول من رزّل بالشعر الرفيع من موضوعاته الرقيقة الى كل موضوع مهما بلغت قضاوته ، يُعالجه شعراً يُرضي به طائفة من الناس ... وهو عى حد تعبيره في ذلك : « بما يُخاطبُ كلاً بما يفهم ... هو رأي إذن في وحب أن يصل الشعر الى كل إنسان . وأن يُعالج كل موضوع . وهي ثورة على فكرة وجوب التزام موضوعات بعينها في الشعر مما جرى التقليد على التزامه . وهذا الرأي تحقيق واسع لشعبية الشعر واتجاه طبيعي يذهب الى إرضاء



أكبر عدد ممكن من الناس. وتمكينهم من تذوق شعره. وضمهم الى أنصاره<sup>١</sup>.  
والجدير بالذكر أن هذه الشعبية الشعرية قديمة عند العرب. تجلت بنوع خاص في شعر  
الوليد بن يزيد وشعر عمر بن أبي ربيعة، إلا أنها ازدادت امتداداً مع بشار وأبي  
نواس... وهكذا مال الشعر إلى إرضاء الناس عامة. ولكنه لأسباب اقتصادية لم  
يستطع أن يتخلص من الناحية الرسمية، فسار القديم إلى جنب الجديد.

• **اللهو والغزل:** تعددت، في هذا العهد، دواعي اللهو والغزل كما رأينا، وقد  
ضعف أثر الدين في النفوس، وانهك الناس على متع الحياة في غير اقتصاد، وشاع  
اليسس والفجور بين العامة والخاصة، وكان بسبب ذلك أن تعدى الغزل حدود التقليد  
العربي، وأغرق في الفحش إلى حد الشذوذ المقيت، وما دلك إلا لانحراف الناحية  
الجنسية في المجتمع، وقدان معنى الحب الحقيقي في قلوب الناس. وإنك، وأنت تقرأ  
الشعر العباسي، تحسب نفسك في زحمة من الجواني والعلمان. وفيما كان الغزل  
التقليدي سائراً على منهجه الخاص يتصدر كثيراً من القصائد الرسمية، كان الغزل العاطفي  
يردد نغمات ابن أبي ربيعة ويصيف إليها ما لم يجز عليه شاعر العصور السالفة من  
الإغراق في الفحش والتصريح به وذكر التفاصيل التي تأباه النفس الكريمة.

وامتاز الغزل العاطفي في هذا العهد بالسهولة والابتعاد عن العريص الغامض. قال  
أبو عبيدة: «بشار يُقاربُ النساء حتى لا يخفى عيبنَّ ما يقول وما يريد». والشاعر في  
هذا العصر خاضع في شعره لسنة الغناء، وقد انتشر الغناء والشراب انتشاراً لا حد له  
حتى حفلت كتب الأدب والتاريخ بأخبار الشاربين والمغنين. فلا تعجب بعد ذلك في  
أن يؤثر شعراء الغزل طريق السهولة، وفي أن يختاروا لشعرهم أشد الأوزان ليئلاً.  
وأقرب الألفاظ إلى إدراك الجواني والغناء، فهم «عما يخاطبون كلَّ بما يفهم». قال  
بشار:

قَدْ لَامَنِي فِي حَلِيقَتِي عُمَرُ.      وَاللَّيْلُ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ ضَجَرُ  
قَالَ أَقْبَى! قُلْتُ: لَا، قَالَ: بَلَى!      قَدْ شَاعَ لِلنَّاسِ مِنْكَمُ الْخَبَرُ

قُلْتُ: وَإِذْ شَاعَ مَا اعْتَدَرُكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ عِشْدُهُمْ عُدْرُ  
مَاذَا عَلَيْهِمْ، وَمَا لَهُمْ حَرَسُوا لَوْ أَنَّهُمْ فِي عُيُوبِهِمْ نَظَرُوا؟

• الحمر: حفل الأدب العباسي بالحمرة وصفاتها لانتشار الشراب فيما بين العامة والخاصة. وكان ذلك استجابة لدعوة الحياة الاجتماعية، كما كان امتداداً لطقوس دينية فارسية تجعل الحمر مقدسة، وتجعل شرب بين أيدي آلهتهم نوعاً من العبادة ووسيلة من وسائل التقرب والتزلف إليهم<sup>١</sup>. وهذا ما يفسر لنا تقديس أبي نواس وأضرابه للحمرة ونعتهم لها بالأسماء الحسنى. قال الزهيري: «يُتَضَحُّ لَنَا مِمَّا تَقْدُمُ أَنَّ الشُّرَابَ وَالْغِنَاءَ فِي هَذَا الْعَصْرِ كَانَا يُرْصِيَانِ مِثْلَ رُوحِيَّةٍ تَصِلُ بِالْمَاضِي، وَحَاجَاتِ نَفْسِيَّةٍ تَصِلُ بِالْحَاضِرِ، فَلَا عَجَبَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا مَا تَقَبَّلَهَا الْمُجْتَمَعُ قَبُولاً حَسَباً، فَاتَهَمَكَ النَّاسُ فِيهَا إِنِّهَا كَأَنَّ شِدِيداً، وَلَا عَجَبَ أَيْضاً إِذَا مَا ادْفَعَ الْأَدْبَاءُ تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا الْتَّارِ الْجَارِفِ وَاسْتَجَابُوا لِرَغْبَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ، وَلِرَغْبَاتِ مَدْلُوحِيهِمْ وَأَهْلِ عَصْرِهِمْ عَمُوماً، فَأَكْثَرُوا مِنْ وَصْفِ الْحَمْرِ وَالْغِنَاءِ وَوَصْفِ مَجَالِسِهَا وَالْآتِهَاتِ، وَجَاهَرُوا بِاللَّدْعَةِ إِلَى مَارَسَتِهَا فِي شَيْءٍ كَثِيرٍ جَدّاً مِنْ الْخَاسَةِ، وَبَالَغُوا فِي هَذَا كُلِّهِ حَتَّى حَرَّمَهُ إِلَى الْإِلْحَادِ وَالزُّنْدَقَةِ وَالْإِسْتِهْنَارِ بِالذِّينِ... لَا نُرِيدُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنْ نَرْمِي أَهْلَ الْعَصْرِ بِالْكَفْرِ وَالْإِلْحَادِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الدِّينِ عَامِلِينَ مُتَعَمِّدِينَ، قَدَّ كَانُوا يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ مُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ مَهْجُومَ الدِّينِ عِنْدَهُمْ قَدْ اسْتَحَالَ وَتَدَلَّ، بِمَا شَابَ حَيَاتِهِمُ الرُّوحِيَّةَ مِنْ نَزَعَاتٍ وَأَهْوَاءٍ هِيَ وَلِيدَةُ التَّرَاثِ الْفَارِسِيِّ الَّذِي حَبِيَّ مِنْ حَدِيدٍ، وَصَدَى لِنَجَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي خَضَعُوا لَهَا حِينَئِذٍ، الْأَمْرَ الَّذِي جَعَلَ مِثْلَهُمْ الْأَعْلَى فِي الْحَيَاةِ: حِمراً وَلَحْناً وَسَاقِياً وَقَصِفاً وَهُوّاً وَخِلَاعاً»<sup>٢</sup>.

• الزُّهْدُ وَالتَّصَوُّفُ: فيما كان الانحلال الأخلاقي يهدد كيان الدولة العباسية كانت جماعة من أصحاب المذاهب الدينية والفكرية تُحاول الإصلاح وتنشد الصِّلَاحَ عن طريق الزُّهْدِ والتَّصَوُّفِ، وقد ظهر أثر ذلك في الأدب، فشاعت في قسمٍ منه نَزْعَةٌ

١ - طالع قصة الحضارة الفارسية، ص ٣٩ - ٤٩.

٢ - الأدب في ظل بني بويه، ص ٢٦١ - ٢٦٥.

الزُّهْد والتَّوَجُّد. ولا شك أنَّ الموضوع قديم في الشعر العربي، فقد بدت النزعات الروحية عند الجاهليين في الحكمة المتصلة بما وراء الطبيعة، ثم في شعر التدين والتحنف، وبدت عند الإسلاميين في شعر التدين، ولما كان العهد العباسي تطوّر شعر الزُّهْد عن شعر التدين وتعاونت طوائف مختلفة من العوامل والمؤثرات على النهوض به وتنوع القول فيه حتى انتهى هذا الفن إلى أبي العاتية (٧٤٨ - ٨٢٥) فاستجمع مادته، وخاض في جميع معانيه «وجعل منه فتناً يرضي نزعة اجتماعية لدى جمهور معين في المجتمعات الإسلامية، وإرضاء لهذه النزعة تولّى الإنشاء في هذا الفن شعراء لم يحقّقوا ما كانوا يُنشئون عملاً ولم يعرفوا بالزُّهْد في حياتهم»<sup>١</sup>. ثم تطوّر الشعر الزُّهْدِي إلى شعر صوفي تناول جانباً من الحياة النفسية للزُّهَّاد، وعالج محاولتهم الاتصال بالله ومعرفة ومشاهدة جماله وجلاله، «وكانت هذه المحاولة تصطبغ منها ذوقاً صرفاً لا دخل للنظر العقليّ فيه... وتناول الأخلاق والمناجاة التي كانت راحة الحيين ويقين العارفين، كما تناول موضوع الحبّ الإلهي الذي أنشأ للصوفية غزلاً إلهياً فيه كثير من مظاهر الغزل الإنساني»<sup>٢</sup>. وكان الحلاج (٨٥٨ - ٩٢٢) شاعر التصوف الذي بلغ معه هذا الفن أوجه.

• الحكمة: ويتصل بشعر الزهد ما أطلق عليه «شعر الحكمة». والحكمة، كما رأينا، من أشدّ الموضوعات اتصالاً بالنفسية الشرقية، عالجها العرب من أقدم عصورهم. ولما كان العهد العباسي، بما فيه من تيارات عقلية ومذهبية، ومن محاللات كلامية، ومن ميّز وشذائد اقتصادية وسياسية واجتماعية، محا الشعر الحكيم نحواً جليداً في العمق، فعالج مذاهب حياتية مستقاة من الآراء الفلسفية ومن التجربة العملية كما يبدو ذلك عند أبي تمام (٧٩٦ - ٨٤٣) وأبي الطيّب المتنبّي (٩١٥ - ٩٦٥). ثم تطوّر هذا الفن حتى أصبح مع أبي العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٨) فلسفة اجتماعية تعصف فيها الثورة على الأوضاع والتقاليد والعقائد الموروثة.

\* \* \*

١ - عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

٢ - نفس المصدر، ص ٣٩٩.

تلك نظرة وجيزة في حال الشعر العباسي وأطواره. وإنما إذا تصفّحناه في صبر ودقة لمسّا أثر الحضارة الحديدية في مقوماته. فالصياغة الشعرية أصبحت وليدة الغناء والزخرفة ونعيم الحياة، تنقبس من مجاس الأنس سهولتها ولينها، ومن التألق في الأثاث والمبیس والمأكّل أناتها. ومن النظرف الاجتماعي تعقيد أساليبها البيانية والبديعية. إنها ليست مبتكرة كلّ ما في الكلمة من معنى فهي قائمة على عناصر قديمة، ولكنها ازدادت ثاقفاً وازدادت ثروة بيانية وبديعية، ومال التشبيه عن نزعته الواقعية التي تسعى في أن يكون المشبه به ممثلاً لحقيقة المشبه تمثيلاً حسياً، إلى النزعة الإيhamية التي تجعل من المشبه به موطن رونق لا وسيلة تعريف وتدقيق، وموطن غموص وتعقيد لا وسيلة إيضاح وسهولة.

وحفل الشعر بالبديع الذي استحدث عيمه في ذلك العهد، وراح الشعراء يتعمّدونه تعمّداً ويطرزون به الكلام تطريزاً تمثيلاً مع تيار الحياة المصططعة، ويجعلونه من مجالات المقدرة والنظرف، ويُرْكُونَهُ تركيباً بحيث تنجلي الصورة من خلال صُور، وبحيث تبدو المعاني من وراء الظلال. وهكذا تطوّرت الزخرفة من دفق طبيعي إلى تركيب صناعي. أضف إلى ذلك أن الشاعر أصبح يلائم بين الموضوعات والأوزان والقوافي، ويؤثر الوزن الخفيف واللفظ السهل الحافل بالعذوبة استجابة لداعي الحياة الاجتماعية. وهكذا سار الشعر العباسي على مادّة القديم وفي روح الجديد، وكان تطوّره شكلياً أكثر ممّا كان جوهرياً وصناعياً أكثر ممّا كان فنياً.

## مصادر ومراجع

- محب محمد بيبي . تاريخ الشعر العربي — القاهرة ١٩٥٠  
 شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي — القاهرة ١٩٤٥  
 محمد كامل حسن: في أدب مصر الفاطمية — القاهرة  
 محمود غناوي الزهري . الأدب في ظلّ بني بويه — القاهرة ١٩٤٩



## الفصل الثّاني شِعْرُ الثَّوْرَةِ التَّجْدِيدِيَّةِ

حياة جديدة واسعة الآفاق ، وعناصر أُجيبِيَّة تضمّر للعرب شراً ، وشعويَّة غاضبة على السلطان القائم ، وتدخلُ الفرس في صُلب التَّوَلَّة ، وتحرُّر بعض الشعراء الإسلاميين والأمويين من بعض القيود القديمة كما فعلوا مثلاً عندما جعلوا الغزل مستقلاً ، كلَّ ذلك دعا الى التجديد في مطبع العهد العباسي ، بل دعا الى صراع بين أرباب القديم وأرباب الجديد . ولكنَّ هذه الثورة التجديدية بقيت ضيقة النطاق ، وكادت تنحصر في محاولة إنزال الشعر الى الواقع الشعبي والحياة العامة . وفي إقحام الروح الفلسفية والجدلية في الشَّعر ، والإغراق في تطلُّب العنصر الموسيقي في الأوزان والتناعل والقوافي ، وتطلُّب السهولة واللين والملاينة ، كما كادت تنحصر في بعض أقوال نهكُمِيَّة وُجَّهت الى العرب وتقاليدهم الشعرية من مثل الوقوف على الأطلال ، ووصف الثَّاقَة وما إلى ذلك ، وقد اضطرَّ مع ذلك شعراء التجديد أن يتهجوا أحياناً منهج الأقدمين في القصيدة إظهاراً لبراعتهم وإرضاء لأرباب السلطان وأولي الأمر .

اشتهر من شعراء التجديد بشَّار بن برد ، وأبو نواس ، وأبو العتاهية ، وابن المعتز .

## بشار بن بُرْد

(٩٦ - ١٦٨ هـ / ٧١٤ - ٧٨٤ م)

١ - تاريخه :

- ١ - طفولة معذبة ونبوغ مبكر وُلد بشار في البصرة أعمى وقهراً ونشأ بين الأعراب فصح اللسان ، ونظم الشعر وهو طفل وجس شعره سلاحاً بين يدي حرمانه .
- ٢ - إقطاع وهجاء : اتصل بشار بملاء الكلام ثم بسليمان بن هشام وغيرهم من ذوي المكنة والقنود فلم يزل مهمم ما يطمح إليه ، فلجأ إلى الهجاء وبكى به ما أريد . ولكن الهجاء والنفاق كانا ميب قتله سنة ١٦٧ هـ

٢ - شخصته وشخصيته :

- ١ - كان بشار قبيح الصورة ، سيئ الخلق ، يعتنق مذهب الإباحة و الأنانية ، وكان الى ذلك شجاع القلب ، ذكياً ، كما كان شعوبياً ومُتُهماً في دينه .
- ٢ - أدبه : به ديوان يصنّف قسماً من شعره وسور حول الهجاء والفرد والمذبح .

٣ - الشاعر المخلص :

- ١ - بشار أول الموالدين وتخر المتقدمين حمل شعره بالمعاني الخمدلة والاندادات الحضرية ، ونزع مرعاً ابرقة واللين والحنّة والطلاوة وإسجال العتي .

٤ - بشار شاعر الهجاء :

- ١ - كان بشار ميالاً من طبعه الى الهجاء ، وكان الهجاء أحياناً وسيلة كسب ، وهو في هجائه رجل عفوان وطموح ، حاقط على الخط ، كاره للناس ولا ميباً العرب ، وهجاؤه بقمه وسخر وشعورية وإقناع مفرط

٥ - بشار شاعر الفزل :

- ١ - الفزل معظم شعر بشار ، والعشاق عنده حقيقة غير ادعاء ، وهو سبب العشق كيان سهار وسهر مُضِن واحترق وموت ، وعزله مادني وعباراته لينة رقيقة موسيقية عذبة .

٦ - بشار شاعر المديح :

- ١ - المديح عند بشار مركب ثليل العطاء ، وكان فيه مقلد لأفنديين في المعاني والأسلوب :

٧ - هزلة بشار :

- ١ - هو صلة بين القديم والحديث ، بل حائمة الشعراء الأقدمين وقائمة الشعراء الحديثين ، وأول من حاول أن يتزل انشعر الى الواقع الشعبي والحياة العامة .

## ٩ - تاريخه :

١ - طفولة معدّية ونبوغ مبكّر: وُلد بشار بن بُرد في البصرة من أصل وضيع ، وكان أعمى منذ مولده فاجتمع له ذلّ المنبت ، وظلمة العين ، وسواد الحظّ ، وراح يضرب في فيافي الحياة محروماً وسائل الكفاح ، وإذا به يستعص عن بصر العين بنور الذكاء المتلهّب ، وإذا بأبيه يعطف عليه ، وإذا بمواليه بني عقيل يحوّلونه بالعناية ويتركونه ينشأ فيما بينهم كواحدٍ منهم . وراح بشار يُنشِدُ الثقافة التي تفتّحت أبوابها منذ أقوال العهد الأمويّ وظهور العهد العباسي ، وراح يتلقّف فصاحة من يعيش بينهم من الأعراب ، وقد روى أبو عبيدة أنه قال الشعر وهو ابن عشر سنين ، وأتجه في شعره نحو الهجاء لأنه شأ والبلاذ كلها تضحّ بهجاء جرير والفرزدق الأخطل ، ولأنه شعر بحرمان الحظّ ، ولؤم الناس ، وحقد المجتمع ، ولأنه أخيراً شعر في نفسه مقدرة عظيمة على نظم الشعر واعتماده سلاحاً بين يدي حرمانه وثقته .

٢ - إخطاق وهجاء : واتصل بشار في البصرة بأصحاب الكلام ولاسيما واصل بن عطاء ، وأنشأ معهم ندوة علم وتقاش كان مصيرها التنافر والخصام : وكان من ذلك أن جرّد بشار لسانه للهجاء فهجا واصل بن عطاء ، وراح متوسّعاً في أساليب العيش ، مُفرّقاً في الفحش ، فحرّض واصل الناس عليه ، وشهر المعتزلة عليه الحرب ، فعاد إلى البصرة وقصد سليمان بن هشام بن عبد الملك بخرّان ومدحه فلم يُحسن مجازاته ، فتركه ثم عاد إلى البصرة بعد وفاة واصل بن عطاء ، وما هو إلّا زمن يسير حتى سقطت دولة بني أميّة وقامت دولة بني العبّاس فلم يؤيّد الشاعر في بدء الأمر بل هجا أحد خلفائها هجاء مرّاً - أعني به أبا جعفر المنصور - ، ثم عاد ، وقد قويت شوكة بني العبّاس ، يسعى في الانضمام إليهم ما استطاع ، فلم ينل لديهم الحظوة التي كان طامعاً فيها ، فاتصل بعلمهم من مثل عقبة بن سلّم بن قتيبة ، وكان له عند عقبة مواقف مشهودة ، واتصل بخنّلد البرمكي فأجزل له العطاء بعد لأي وتردّد .

٣ - حظوة ورقمة : ثم اتصل بشار بالخليفة المهديّ فوجد عنده حظوة كبرى كانت عليه مبعث حقد وحسد ، فراح مقرّبو البلاط يُؤغرون صدر الخليفة ، فأنكر عليه المهديّ تشييبه بالنساء ، وحرّمه العطاء . وكان من أشدّ الناقين عليه يعقوب بن داود



وزير المهديّ. فكان من كلّ ذلك أن ترك الشاعر بغداد وعاد الى البصرة حيث نشبت المهاجاة بينه وبين حمّاد بن عجرد ، وحيث نظم في ابن داود الهجاء اللاذع وأخيراً اتّهم بالزندقة وقتل سنة ١٦٧ هـ.

## ٢ - شَخْصُهُ وَشَخْصِيَّتُهُ .

١ - كان بشّار ضَخْماً عَظِيماً الحَلْق ، مُقَرِّطاً طَوِيلاً ، عَظِيماً الوَجه ، أَعْمى جاحظ العينين ، قبيح المنظر . وكان في وجهه المجدور وسماجة تكوينه ما يبعث على القُور والاشمئزاز .

٢ - وكان الى ذلك سَيِّئَ العُلُق يجمع في ذاته من قُبْح النَفْس ما يبعث على المَقْت والبُغْض ؛ فكان نَزَقاً ، سَريعَ الغَضَب ، سَريعَ اللُّجْو الى المَحاء والكلام المَقْدُح ، وكان يُحاولُ أَنْ يُلْقِيَ على عَماه وقبحه ستاراً من الصِّفَات الحميدة ، ومن النُفُوق المصويّ ، ويقول في ما يقول :

عَمِيتُ جَنِيناً وَالذِّكَاةَ مِنْ أَلْعَمَى فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْثِقاً  
وَعَاضُ ضِيَاءِ أَلْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِداً بِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَمَلاً

٣ - وكان متجاهراً بالسُّكْر ، مفتخراً بالفِسْق ، يعتنق مذهب الإباحت في غير حدّ ولا اقتصاد ، ويندفع وراء مُتَع الحياة في غير وازع ولا رادع ، لا يحدّ من جشعه دينٌ ولا ضميرٌ ، ولا يفتّ في عضده قيدٌ اجتماعيٌّ ، أو ناموس أخلاقيٌّ . هُمّه أَنْ يَرْضَى فيه قُوَى حَسِيّةٌ تضطّرُّ نهماً الى اللَذّة ، وتهالكاً على المتعة .

٤ - وكان أثانياً ذاتياً سَخَر شعره كلّهُ لاقتناص المال أو اقتناص المتعة ، ووقف بالمرصاد لكلّ مَنْ يحاول الانتقاص من تبحُّه أو من تجشُّعه ، فكان قُوَى الرِّدة على من يُخالِفه ، كثير فئات اللسان ، بلذيتاً ، شديد الأذى .

٥ - وكان مع ذلك كلّهُ شجاع القلب ، قليل الاكتراث باخاطر ، قوياً في الثّبات على رأيه ، نزاعاً الى العصيان والثورة ؛ ولكن الثّبات على الرّأي لم يكن عنده إلا في نطاق مصلحته ، وفيما سوى ذلك كان ميّلاً مع كلّ هوى ومذهب يمدح واصل ،

عطاء ثم يهجو، ويمدح الأمويين ثم يعرض بهم، ويمدح العباسيين، ويهجو المنصور ثم يقلب ذلك الهجاء الى مدح... وهكذا كان مصطبب النزعة، ذاهباً وراء ظلال الدول والمناهب

٦ - وكان شعوبياً يفخر بأصله الفارسي ويؤسد موالي العرب عليهم، ويرغبهم في الرجوع الى أصولهم وترك الولاء. وقد أثهم في دينه فرمى بالإنحاد والزندقة.

٧ - هذه الأخلاق البغضة التي جمعها بشار في ذاته رافقها عنده ذكاء حاد، وذهن وقاد، فكان من أوسع أهل زمانه علماً، ومن أعمقهم تضعضاً من اللغة العربية، ومن أسلمهم فطرة بلاغية وشعرية، ومن أشدهم اعتداداً بمواهبه العقلية ومفاخرة بها، ومن أسرعهم بديهة، وأصفاهم خاطراً.

٣. أده :

لبشار شعر ضاع معظمه، وما بقي منه ينور حول الهجاء، والغزل، والمدح، وما الى ذلك. وقد حاول محمد رفعت فتح الله الأستاذ في كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر ومحمد شوقي أمين المحرر في مجمع فؤاد الأول للغة العربية أن يراجعا قسماً من ديوان بشار، تولّى تحقيقه وشرحه الأستاذ محمد طاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة بتونس، فكانت المحاولة محمودة، وقد خرج هذا الجزء من الديوان مشقلاً بالتحقيق والتدقيق والشرح والتعليق، ولكنه لا يجمع بين دفتيه إلا القليل مما ادعى بشار نظمه ومما نسب إليه، وقد طبع سنة ١٩٥٠ بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة.

٤. الشاعر المجدد :

رأينا في نظراتنا العامة على العصر العوامل التي دعت الأدباء والشعراء الى مجازاة الحياة الجديدة، والتأثر بتياراتها المختلفة، وبشار بن برد كان أول المولدين وآخر المقتنعين من الإسلاميين، وقد لقب عن جدارة بأبي المحدثين. إنه آخر المقتنعين بمجازاة لفظه وأسلوبه، وغنى اللغة العربية في شعره، ونهجه منح الأقدمين في تركيب بعض قصائده، ومعانيها، وتضمنها مفاخر القبائل وأيامها، وذلك في شعره المدحي

ينوع خاص حيث استهلّ بالفَرْل، ووصفَ الراجل، وتوجّه إلى الممدوح بأسلوب الرّصانة والأرسطراطية، وبالأوزان الطويلة والجزالة اللفظية، وأطرّ ما استطاع الإطراء في كثير من المألأة والاستحدا. وقد حذا حذوه في ذلك البحريّ شاعر المتوكّل.

وبشّار أوّل المؤلّدين لأن امتلاء شعره بالمعاني الجديدة والعادات الحضريّة، ونزوعه فيه منزع الرقة والخفة، والانسياب، والطلاوة، واعتاده المحسنات اللفظية والبيانية، وعنايته بالمعاني العلمية والحضارية، ومعالجته الحمريّة والزّهريّة، والنسيب الذي ينوب رقةً وسلاسة، ولجوءه إلى الهجاء المُقذع الذيء والجريء في بلاءته... كلّ ذلك جعله في طليعة المُجدّدين لأنه خالف به السّنة القديمة في الشعر، وفتح الباب واسعاً أمام مقتني أثره من مثل سلّم الحاسير، وأبي نواس، ومُسيم بن الوليد...

ومجدد بنا هنا أن نُفصّل بعض معطيات الحياة الجديدة في شعر بشّار، وفي الإشارة إليها ما يجعلنا نلمس الحركة الانتقالية في الأدب العربي عهد بني العبّاس :

١ - تظهر في شعر بشّار حالة الناس في عصره، حضاريّاً، وطبقيّاً، وعقائديّاً، وجدليّاً، واندفاقاً في الإباحة، والانفتاح الفكريّ والمذهبيّ والأخلاقيّ. فهو يقول مثلاً :

فِي جَنَانٍ خُضِرَ وَقَصُرَ مَشِيدُ      فَبِصْرِيْ حَفَّتْ بِهِ الْأَعْدَابُ  
فَوْقَهَا مَلْعَبُ الْحَمَامِ، وَيَسُ      سَنُ خَلِيْجٍ مِنْ دُونِهَا صَعَابُ

٢ - تشيع في شعر بشّار العاطفي الألفاظ والتعبيرات ذات اللدلول الجديدة، كلفظ «السّت» بمعنى السيّدة، و«نور عيني»، و«الحمام» وما إلى ذلك.

٣ - يُعالج بشّار أحياناً في شعره المراسلة الشعريّة وهكذا فقد راسل عبّدة مراسلة حافلة بالطلاوة والطّرفة، وممّا قاله في الرسالة :

مِنْ أَلْمَشْهُورِ بِالْحُبِّ      إِلَى قَامِسَةِ الْقَلْبِ  
سَلَامُ اللَّهِ ذِي الْعَرْشِ      عَلَى وَجْهِهِ، يَا حَيِّي

فَمَا بَعْدُ، يَا قُرَّةَ عَيْنِي، وَمُنَى قَلْبِي  
لَقَدْ أَنْكَرْتُ يَا «عَبْدُ» جَفَاءَ مِثْلِكَ فِي الْكُتُبِ...

٤ - نجد في شعره علماً من المعارف والحكمة، وابتكارات معنوية جمّة، وكثيراً ما أغار الشعراء من بعده على تلك المبتكرات وغزوها غزواً. ونجد في شعره تفتناً في الأعراس حتى ليفتح الهجاء بالنسب أحياناً وليس ذلك من عادة الشعراء الذين كانوا يفتتحون المدح بالنسب دون الهجاء. ومن جميل قوله:

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَا يَظْمَرُ بِحَاجَتِهِ وَقَارَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَائِكُ اللَّهُجُ  
٥ يظهر بشار مقدرة عجيبة في معالجة الوجوه اليبانية، وذلك في غير تكلف ولا قتل، وقد يجمع في الصراع الواحد عدّة استعارات، فينسب كلامه انسياب روعة، وطلاوة، وطرافة. وأناقة حضريّة، فيقول مثلاً:

غَابَ الْقَدَى فَشَرِبْنَا صَفَرًا لَلَّيْنَا حَيِّينَ نَلْهُو وَنُخْشَى الْوَاحِدَ الصَّسَدَا  
٦ ويظهر مقدرة عجيبة في تلين الكلام وترقيقه ولا سيما في ما هو من شأن القرام، وفي اختيار الأوزان والقوافي المعبرة موسيقياً وعاطفياً، وفي التعبير الواضح الخالي من كل زيادة أو حذف. قال في إحدى غزلياته:

بُورَ عَيْنِي، أَصْصَتِ عَيْنِي بِسَكَبِ يَوْمَ فَارَقْتَنِي عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ  
كَيْفَ لَمْ تَذْكُرِي الْمَوَائِقَ وَالْمَعَهْ بَدَ، وَمَا قُلْتَ لِي وَقُلْتَ لِصَحْبِي؟  
مَا تَصَبَّرْتُ عَنْ لِقَائِكَ إِلَّا قَلَّ صَبْرِي، وَبَاشَرَ الْمَوْتُ قَلْبِي  
لَيْسَنِي مِثُّ قَبْلَ حَبْلِكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي، أَوْ عِشْتُ فِي غَيْرِ حُبٍّ  
لَيْسَ شَيْءٌ أَحْلَ مِنْ قُرَّةِ النَّفْسِ، فَحَسْبِي فُجِعْتُ بِالنَّفْسِ، حَسْبِي!

هـ بشار شاعر الهجاء:

مهجّو بشار: كان بشار ميّالاً من طبعه الى الهجاء، كما كان الهجاء عنده أحياناً

١ - الْقَدَى. أي الرقيب صَمُ لَيْسَا: شبه تلدد تلك البيلة شرب الخمر

كثيرة وسيلةً من وسائل التّشفيّ أو التّكسّب، وقد هجا جماعةً من علية القوم من مثل أبي مسلم الحُرّاساني، ويعقوب بن داود، وواصل بن عطاء شيخ المعتزلة، وسيبويه إمام نخاعة البصرة... قيل لم يُفَلت أحد من أشراف البصرة إلّا مُنيّ بشيء من هجاء بشّار.

٢- بشّار من هجائه: يتجلّى لنا بشّار من هجائه شاعراً في قرارة نفسه بضعةً أصيلة، شاعرٌ أن الدّهر حرّبٌ عليه منذ الطفولة، وأنه حرّمهُ البصرَ ليزجّه في ظلمةٍ كالحة لا يجد معها من سلاحٍ يقاوم به الحدّثان إلّا لساناً محدّداً، وشاعريةً قيّاسةً تُلبّي حين الطلب، وتُنصّر حين الدّعاء. ويتجلّى لنا بشّار رجلٌ عفّوانٌ وطموح، تحمله طبيعته على التّسامي، وعلى سدّ نقص الطبيعة بذلك التّسامي نفسه، وهو من ثمّ هَيَال إلى المفارقة، حاقداً على الخطّ، كارهةً للنّاس، ولا سيّما العرب منهم الذين يجد من بعضهم استصغاراً، قال:

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْضِرٍ	عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
بِأَنِّي ذُو حَسَبٍ	عَالٍ عَلَى ذِي الْحَسَبِ
جَدْنِي الَّذِي أَسْمُو بِهِ	كِسْرَى وَسَاسَانُ أَبِي...

وهذا الشعور بالنقص عند بشّار، وهذا الحقد، وهذا التّسامي، كلّ ذلك يدفعه إلى السّخرية الصّفراء، إلى الاستهزاء الناقم. وهكذا كان هجاء بشّار تنفّساً لنفسه، ورسولاً بين يدي طبيعته التي وجّهتها لأحوال وكيّمتها الأيام هذا التّكليف الخاصّ، فكان رجلٌ المهجاء منذ كان، وكان رجلٌ الحذر منذ وُجد، وكان أبداً متاهباً لظنّفع، متحفزاً للوثوب، لا يثق بإنسان ولا يطمئن إلى مكان أو زمان.

٣ قيمة هجاء بشّار: كان بشّار يرى أنّ الهجاء أمضي وسيلة لمعاملة النّاس، ومواجهة الدّهر، وقد قال: ه الهجاء المؤلم آخذٌ بضيق الشّاعر من المديح الرّابع، ومن نواد من الشعراء أن يُكرّم في دهر النّام عن المديح فليستعدّ لفقر وإلا فليبالغ بالهجاء ليخاف فيعطى. ه. وكان بشّار يجد في الهجاء طريقاً لإرضاء نزعة العبث والسّخرية فيه. وهكذا كان هجاؤه نقمةً، وكان سخريةً. كان نقمةً لاذعةً فيه من نفسه كلّ ما فيها من حقد وكره، وكلّ ما فيها من استعلاء واستكبار أمام أناس دونه

مواعب وفوقه ثراء وجاهاً. وكان سخرته جعلته يفخر بأصله الفارسي على العرب ، وينحى عنهم باللوم ويرميهم بالصغار والضعة ويعدد كل ما يحسبه حقيراً في عاداتهم وتقاليدهم. وهكذا اصطفى الهجاء مع بشّار بالصيغة الشعبية ، وكان تعبيراً بالأصل ، وكان ثورة نفس وسهماً في نحر الأيام ، وصرخة في وجه اللؤم واللثام .

ويكثر بشّار في هجائه من الإقذاع . نعم ظهر الإقذاع في مهاجمات المثلث الأموي حرير والفرزدق والأخطل ، وكان في بعضها شيء من فحش ، ولكن الفحش لم يستفحل في الهجاء إلا في صدر الدولة العباسية ، ولا سيما عند بشّار وأبي السَّمْعَمَقْ وحَمَاد عَجْرَد وأبي هشام الباهلي

#### ٩ بشّار شاعر الغزل :

١ غرام بشّار : وصف الغرام وأفانيه هو معظم شعر بشّار ، وإنه لمن العجب أن يستطيع رجل أعشى مثوّه الوجه قبيح الصورة والسريرة وضعيف الثروة ، من مغازلة النساء حتى يقبّلن عليه هذا الإقبال ، ويخادنه ويغاضبه عَشْرَةَ الْحَيَيْن ! وزنا لتساؤل هل كان هذا الغزل كله أو قسم كبير منه تصنعاً وتخيلاً وجرياً في مضمار الشعراء أم كان حِكَايَةً حَالِيَةً وواقع . والذي يبدو لنا أن بشّاراً كان شديد النهم إلى مُسَخِّع الجسد ، وأنه كان شديد التحرُّق إلى معاشرته النساء ، وأنه لم يحب حباً يبلغ به حدّ ابوليه ، بل كان يُفِغْ أُنُوثَةً يسعى إليها بكلّ جوارحه وبكلّ ما لديه من وسائل ، وكان الشعر أشدّ وسائله ، بل وسيله الوحيدة ، فراح يجعله مَصِيدَةً لنساء ذلك العصر ، وقد أفلنت الكثيرات من قيود الكرامة العربية الأصبلة ، وَحَنَ يَتَعَقَبْنَ مواطن اللّهُو ، ومراتب الحسّ ، كما رَحَنَ يَطْلُبْنَ التزوّج بالخُلَى وأقوال الشعراء . وكان بشّار شديد المصارحة ، كثير الجرأة ، يرضيهن ويحبّنهن بالمالية ، ومطارحة الهوى ، وبكلّ ما يرضي ميولهنّ الحضريّة والجنسيّة الصارخة ، وراح يستعيض عن النظر ، بالسَّمْع والصُّوْت ، وصرّوب من الأساليب العنيفة والعاطفيّة ، وكان من جرّاء ذلك كلّهُ وافر الصِّيد ، وافر الغَزَل . ومن أشهر من تغزّل بين عبّدة ، وسعدى المالكيّة ، وسَلَمَى ، وحَبّابة العامريّة ، وطيبة ، وحشّابة... قال ابن عاشور : « كان بشّار ذا نفس خليعة تحبّ الجون ، فكان قد راضَ نفسه على العشق إيفاء لها بشعائر الجون ، وجعلَ طريقة عشقه حَسَنَ التَّعَمُّع ، ورقة

المَرْج ، ولينَ للملّس ، وحلاوة الحديد . وذَرَبَ نفسه ذلك الارتياض حتى صار له  
مَلَكَةٌ وَسَجِيَّةٌ ، فكان عشقه حقيقة غير ادّعاء ، وهو يتوسّل بذلك الى أن يُجيد  
النسب . . وممّا يُنبئك بذلك أنك تجده يُكثّر في نسيبه وصف حسن مطلق النساء  
كقوله :

وَكأَنَّ رَجَعَ حَدِيثَهَا      قَطَعُ الرِّياضِ كَسِينُ زَهْرًا

وقد اعتاض عن الرؤية بالوصف :

بُلُغْتُ عِنَّا شَكْلًا فَأَعَجَّتِي      وَالسَّمْعُ بِكَفِّكَ غَيْبَةَ الْبَصَرِ .

جاء في كتاب الأغاني أن النساء كنَّ يحضرنَ مجلسَ بشّار ، فيبينا هو ذات يومٍ في  
مجسده إذ سمعَ كلامَ امرأةٍ في المحسّ ، يُقال لها عُبْدَةُ ، فدعا غُلامَهُ فقال . إني قد  
عَلِمْتُ امرأةً ، فلماذا تَكَلَّمْتُ فأنظُرُ مَنْ هِيَ وأَعْرِفُها ، فلماذا اتقضى المحسّ وانصرفَ أهلُه  
فأتبعُها وكَلَمَها وأَعَلِمَها بَنِيها مُجِبٌّ ، وأنشيدُها هذه الأبيات وعَرَفَها أَنِّي قَلَبْتُها فِيها ،  
وذكر الأبيات التي أولُها .

قَالُوا بِمَنْ لَا تَرَى تَهْدِي؟ فَقُلْتُ لَهُمْ :      أَلَا أَدُنُّ كَالْعَيْرِ تُوفِي الْقَنْبَ مَا كَانَا  
فَأَبْعَثُهَا الْغُلَامُ الأبيات ، فهبَّتْ لها ، وكانت تزوره مع نِسْوَةٍ يَصْحَبْنَهَا فَيُكَلِّنُ  
عنده ويَسْرِينَ وَيَصْرِفْنَ . بعد أن يُحْدِثُها وَيُنشِدُها . ولا تُطْعِمُهُ في نفسها

٢      بِشّار من غزله . ييلو لنا بِشّار من خلال غزله شديد الحيوة ، شديد الاندفاع  
وراء الحسن اللطيف ، يعالي في نفسه وفي قلبه من الميل ما لا يُطاق ؛ وهو يتعشّق النساء  
من غير أن يَراهُنَّ ، وله في أذنه أوتار عشق حسّاسة ، وله في فؤاده نزواتٌ شديدة  
التوقُّب ، فهو يحبُّ المرأةَ بجرّد نبرة صوت تبلغه . أو بجرّد خيالٍ عَمَرٍ في مُحَلِّته ، أو بجرّد  
هفّةٍ يشعر بها في نفسه ، ثم يندفع مُصَارِحًا ، شديد الإلحاح ، مُتَمَلِّقًا ، جاعلاً في صوته  
كلُّ ما في قلبه من رَقّةٍ ومن حوى ، ومقبياً على جسمه كلُّ ما في نفسه من نحول  
ودوبان ، وهو بسبب العشق كيّانٌ منهار ، وانهدامٌ ودمار ، وسهرٌ مُضِنٌّ ، ودموعٌ  
منهمرة ، واحتراقٌ وموت :

أَلَا يَا قَلْبُ هَلْ لَكَ فِي التَّعَرِّي؟      فَقَدْ عَدَبْتَنِي وَلَقِيتَ حَسْبًا ؟!

مَا تَأْمُرِينَ بِعَاشِقٍ عَيْيَ الطَّبِيبُ بِهِ وَطِبَّةٌ  
قَدْ مَاتَ أَوْ هُوَ مَيِّتٌ إِنْ لَمْ يُعَافِ اللَّهُ رَبَّةً

٣ قبلة غزل بشار :

غزل بشار فلذة نفسه ، وخلاصة كيانه . وهو في أكثره مادي يطلب المتعة ويصور  
جاذبيات الحسد والترعات الدنيا في الإنسان ، إلا أنه لا يقف عند هذا الحد بل يصور  
الوعدة النفسية ، وحرقة الغرام ، ويحفل أحياناً بالشكوى والحزن في عبارات قلوب  
رقة ، وتنطلق في أوزان موسيقية تعبر تمام التعبير عن لفظة الشاعر وتحرقه . فهي والحق  
يقال أنغام تتكون منها مأس غنائية صرعاها النفوس والقلوب ، ومسارحها الصدور  
والأحشاء .

٧ بشار شاعر المديح :

بشار سؤل ملحاف ، يحمل المدح مركباً لنيل العطاء ، ولم يقه إعجاباً بالناس أو  
مبلاً إليهم ، ولكنه قاله لحاجته الى المال الذي يتوسل به لنيل ما ينبغي من متعة ولإجابة  
طبيعة تندفع بكل قواها الى الملذات الجسدية . وكانت مدائح بشار تزدد انطلافاً  
واتساعاً بقدر ما يحصل عليه من العطاء . وهكذا نستطيع القول إن بشاراً كان كاذباً في  
مدحه بالنظر الى المملوح ، صادقاً بالنظر الى رغبات نفسه . وقد درج في مدائحه على  
أساليب الأقدمين وكانت معانيه فيها خلاصة ما قالوه ولاسيا في الكرم والسخاء وما الى  
ذلك .

٨ - منزلة بشار :

ذاك هو بشار وتلك نظره وجيزة على شعره ، وهو يعد صلة بين الشعر القديم  
والشعر الحديث ، إذ إنه جرى تارة على أساليب الأقدمين في البناء والصياغة واعتماد  
الغريب ، واستعمال الصور البدوية ، والمعاني الصحراوية ، وهو يجري تارة أخرى على  
أساليب المحدثين في التحرر من قيود التبدم ، واعتماد السهل اللين ، واستعمال الأوزان  
الخفيفة وما الى ذلك . وقد عد بشار بحق خاتمة الشعراء الأقدمين وفاتحة الشعراء  
المحدثين .



قال المازني: «سألت الأصمعي عن بشار فقال: غَوَّاصٌ ظَّارٌ، يَصِفُ الشَّيْءَ لِمَ يَرَهُ وَكَيْفَهُ رَأَاهُ، وَيَجْمَعُ فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ مَا فُرِّقَتْهُ الشُّعْرَاءُ فِي عِدَّةٍ. فَقُلْتُ لَهُ: مِثْلُ أَيْشٍ؟ فَقَالَ: مِثْلُ قَوْلِهِ:

كَسَانَهَا رَوْضَةٌ مُنَوَّرَةٌ نَجْمَعُ طَيِّباً وَمَنْظَراً حَسَناً

وقوله:

أَنَا وَاللَّهِ أَشْتَهِي سِحْرَ عَيْنَيْكَ وَأَحْشَى مَصَارِعَ الْعُشَاقِ.»

وقال الجاحظ في كتاب البيان والشيئين: «لم يكن في المولدين أصوبُ بديعاً من بشار... والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار والسيد الجعفي وأبو العتاهية... وبشار أطيعهم كلهم، فهو من أصحاب الإبداع والاختراع المتقنين للشعر القائلين أكثر أجتناسه وضروبه.»

وبشار أول من حاول إنزال الشعر من قفصه الذهبي إلى حياة عامة الشعب. من ذلك ما روي عنه من أن خلاد بن مهرويه قال له يوماً: إنك تنجيء بالشيء المهجين المتفاوت، بينا تقول شعراً يُبْرِئُ النَّفْسَ ويخلع القلوب مثل قولك:

إِذَا مَا غَضَبْنَا غَضَبَةً مُضْرِبَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ نُعْطِرَ الدَّمَ

إذا بك تقول:

رَبَابَةٌ رَبَّةٌ أَلْبَيْتُ نَصْبُ الْخَلِّ فِي الرِّبْرِ  
لَهَا عَشْرُ دَحَاحَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصُّوتِ

فقال له بشار: لكل وجه موضع، فالقول الأول جِدٌّ، وهذا قلته في جاري ربابة. وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة تجمع لي البيض، فإذا أنشدتها هذا حرّصت على جمع البيض، فهذا عندها أجبن من «قفا نيك»، ولو أنشدتها من التَّمَطِ الأول ما فهمته. «وهكذا كان بشار إطلاقة على الجديد، وفاتحة لمهد التجديد ولو كان ذلك في غمرة من التقليد.

## مصادر ومراجع

- طه الحاجري: بشّار بن برد - سلسلة نوايح الفكر العربي - القاهرة.
- مارون عبود: الرؤوس بيروت ١٩٤٦ ص ٨٧ - ١٠٠.
- محمد الطاهر بن عاشور: مقدّمة ديوان بشّار بن برد - القاهرة ١٩٥٠.
- عبد القادر المغربي:
- بشّار بن بُرد - القاهرة ١٩٤٤.
  - بشّار بن برد مجلة التّجمع العلمي ٩ ص ٧٠٥ - ٧٢٢.
- عناص محمود المقدّاد: بشّار: شخصيّته، غزله - في كتابه «مراجعات في الأدب والفنّ» ص ١١٩ - ١٥٨.
- إسماعيل مظهر: بشّار بن برد ودلالة شعره على نفسه - المصور ١: ٣٠١، ٤٩٢.
- كمال اليازجي: بشّار بن برد: كلمة في شعره وشاعريته الأمازي (العدد ١٩): ٢٠.



# أبو نواس

(١٤٥ - ١٩٨ هـ / ٧٦٢ - ٨١٣ م)

- ١- تاريخه: وُلد أبو نواس في الأحرار سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م. ثم انتقل إلى الصرة للدرس والعمل والتهور، واتصل بوابية بن الحباب ورافقه إلى البصرة، ثم انتقل إلى بغداد واتصل بالبرامكة وآل الربيع وملحهم، ثم اتصل بالرشيد والأمن. وقد توفي في بغداد سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م.
- ٢- أدبه: له ديوان كبير طبع في مصر وبيروت وفيه خمر، وعزل، ومديح، وهجاء، وروثاء، وعتاب، وزهد، وطرد.
- ٣- نفسيته: كان أبو نواس الصوري في يد الأندلس، مبالاً إلى الدعابة والفكاهة، وقد نكثت عقده النفسية، فانصرف إلى التهور واعتزل يرى فيها دواءً لحياة وآلامها، وطلب الحمرة بالخمر يرى فيها حلاً لمشاكله وتفرجاً لأزماته العاطفية؛ فقادته هذه كله إلى فسقة الإيسة والفقران.
- ٤- شاعر الخمر: ثار أبو نواس على التقليد العربي والدينية، ورأى في الحمرة شخصاً حياً يعيش، وإلاهة تُعبد وتُكرم، فانقطع لها، وجعل حياته خمرية وسكرية في «كوب من الندى والألحان» وكان شعره فيها استيعاباً، واستيفاءً، وسهولة وعدوبة، ودقة تصويرية، وتخصباً وحواراً، وهكذا كان أبو نواس ربيب الشعر القمري عند العرب.
- ٥- شاعر الغزل: كان في عمله نزاعاً إلى المفاخرة بالفسق، ولأن ثلاث الروعة أكثر عمله النسائي فنهى لم تفت غزله المدكر، وقد بيع القصة في لطف الأداء. وعدوبة الانسجام.
- ٦- شاعر الطرد: أصبح هذا النوع مع أبي نواس مستقلاً، وكان معه حافلاً بالدقة والإبداع.
- ٧- شاعر المدح: مدحه تقليديّ من السكت رافع الأسلوب.
- ٨- شاعر الزهد: في شعره الزهدي صدى ودفعة وعدوبة مؤثرة.

...

شعر أبي نواس صورة لنفسه، وليسته في ناحيتها المتحررة، فكان أبو نواس شعر الثورة والتجديد، والتصوير لفتي الرائع، وكان على كل حال شاعر الخمر غير متنازع.

## ١ - تاريخه :

١ - وُلِدَ الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس سنة ٧٦٢ في الأهوار بخوزستان ، من أبوين فارسيتين ، وتوفي أبوه ، وهو لا يزال طفلاً ، فانتقلت به أمه الى البصرة وعمره ستان ، فشأ يتيماً في كف أم شغلتها عنه مطالب العيش ، واضطرتها الحاجة الى أن تجعل من بينها ملقياً لرواد المتعة ، ثم اقترنت برجل من أهل البصرة ، فأصبح أبو نواس يتيم الأب والأم ، وكان يعمل في حانوت عطار يبري له اعواد البخور ، ثم ينتقل بعد عمله الى المسجد الجامع حيث حلقات العلم وحيث احتك بأعظم علماء العصر وأدبائه وأخذ عنهم الشيء الكثير .

٢ - أتبع له أن يلتقي بوالبة بن الحباب الأسدي ، وكان شاعراً ماجناً أعجب بأبي نواس ومواهبه فاصطحبه الى الكوفة حيث حضر مجالس الشعراء والمجان ، ثم انتقل الى البادية مع وفد من بني أسد ، وأقام فيها سنة قوية خلالها ملكة اللغة العربية عنده ، وامتلاً عقله وروحه من أحبار البادية وشعرائها .

٣ - عاد الى البصرة واتصل بخلف الأحمر الذي أمره أن يحتفظ كثيراً من القصائد والأراجيز لكبار الشعراء . ومنذ ذلك الحين بررت شخصيته ونضجت عبقريته فراح ينظم الشعر . وحدث إذ ذاك أن أحب حارية لآل عبد الوهّاب الثقفي تدعى «جنان» ، وكتب فيها شعراً دقيقاً ، ولكنه لم يلق منها إلا صدوداً . فكان لهذا الإخفاق أشد الأثر في حياته .

٤ - وفي ٧٩٥ انتقل الى بغداد يائساً قلقاً فأكب على شرب الخمرة ، واتصل بالرامكة ومدحهم . ثم انقطع الى آل الربيع وأكثر من مدحهم . وظل يقب حول قصر الخلافة لا يجرؤ على الاقتراب منه ، لما كان عليه من سيرة الخلاعة والمجون ، حتى سئحت له فرصة اتصل فيها بهارون الرشيد ومدحه ونال من عطاياه ما حسنت به حاله ، فانصرف الى اللهو والمجون والإسراف في التنفقات حتى عجزت نيم الرشيد عن سد حاجاته فتركه وقصد مصر . واتصل بأمرها الحصيب ومدحه ونال من عطاياه ما لم يكنه ليواصل حياة لإسرافه ، وعاوده الحنين الى بغداد ، فرجع إليها واتصل بالأمين رفيق شبابه

وقد أصبح على سدة الخلافة ، ولزمه مدة خلافته مدحه ويندم بجوائزه ، واضطر الأمين أحياناً الى حبسه دفعاً لثبهم وتطاهراً بإنكار سلوك الشاعر وشره للخمر .

٥ - وهكذا عاش أبو نواس عيشة طوي الى أن انحَلَّ جسمه أخيراً وتاب . وقد توفي في بغداد سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م .

#### ٤ شخصيته :

أ - جمال وظرف وسرعة خاطر : أبو نواس من أولئك الأشخاص الذين جى عليهم المذهب فأحسن إليهم من حيث جنى إذ فجّر عبقرتهم ، وأرسل شعرهم عصارة من فؤاد ، وحلاصة حياة ، وموكب آراء ونظرات . فقد نشأ يتيماً حرم عطف الأبوّة كما حرم الساعد التي يستند إليها في الملمات . نشأ في كنف أم تركت طفنها ألوبة في يد الأقدار ، يتجاذبه الأتراب الى طو أو شراب ، وكان الطفل جميل الطلعة ميالاً الى الدعابة والفكاهة ، وكان سريع البديهة . حادّ الذكاء ، سريع الحاطر ، وكان له بسبب ذلك أثر عميق فيمن يعاشره .

ب - عقد نفسية وحزن في الأعماق : والذي عقدَ نفسية أبي نواس ، أو زادها تعقيداً ، ما لقيه من جنان ، وما عاناه بسبب ذلك الجفاء . ولهذا كان في قرارة نفسه دائم الحزن والهم ، وقد أكثر من التلميح الى همّه في وصفه الخمر التي تبلّد الحميم وتكشف الغيوم . وهكذا عانى تجربة قاسية علمته أن الحياة صراع دائم بين الرغبة والحياة ، وأنها ميدان شقاء لا فرار منه إلا بتخييل قوى الوعي .

ج - شذوذ جنسي وفلسفة خاصة : وصادف ذلك من نفس أبي نواس ميلاً خفياً الى الغلمان ، فانظمت كل صلة تربطه بالمرأة ، ولم يعد يحسّ بهذا العطف الغريزي الذي يكون بين الرجل وبينها ، وراح يتحوّل من المرأة ويتجنّبها ، وقد بقي الحسن على حدّ

١ - قال أبو هفان : وكان أبو نواس مع كثرة أدبه وعلمه حليماً منجماً وفني شاطر . وهو في جميع ذلك حلو ظريف . وكان يسحر الناس لطرفه وحلاوته وكثرة ملحه ، وكان أسمى الناس لا يحفظ ماله ولا يحسكه ، وكان شديد التمسك لقطعان على عدنان وبه فيهم أشعار كثيرة يمدحهم ويهجو أعمامهم ، وكان شهم مرأى الخوارح .

قول أحمد الغزالي — طيبة حياته وهذه العقدة النفسية تصرف مشاعره ، وتحدد علاقاته بالناس ، وتعمل له في المرأة والحياة فلسفة خاصة .

د - مؤمن عاصي : يتضح لنا ممّا سبق أن أبا واس كان في حالة نفسية غريبة وان تلك الحالة زجته في حياة المعصية ، وقادته الى فلسفة خاصة في الدين والحياة . فقد كان مرهف الحس الى حد بعيد ، فتغلبت عليه نزعاته وميوله . وهذا أمر لا بدّ من التنبيه له لمهم آرائه ، كما أنه لا بدّ من التنبيه لأمر آخر هو أن أبا واس قان القسم الكبير من شعره الذي نثر فيه آراءه في الدين والحياة حين كان في سكرة الخمرة والطرب أو في حالة تقرب من ذلك ، وكتب الأدب مبدئة بأخبار سكراته ونشوانه الشاعرات .

وبما لا شك فيه أن الشاعر كان مؤمناً في قرارة نفسه ، أي ذلك المؤمن الذي لا يقبّده قيد ديني ، ولا يضطه ضابط أخلاقي ، فهو المؤمن العاصي ، وما تصرّحه بالكفر في بعض شعره ولا نظرف وامتداد للمعصية والانفعالات الجنسية وما الى ذلك .

أَلَمْ تَرَنِي أُنَبِّئُ اللَّهَ نَفْسِي وَدِينِي ، وَأَعْتَكَفْتُ عَلَى الْعَمَاصِي  
كَأَنِّي لَا أَعُودُ إِلَى مَعَادٍ وَلَا أُخْشَى هُنَالِكَ مِنْ قِصَاصٍ

\* \* \*

بَا نَاطِرًا فِي الدِّينِ مَا الْأَمْرُ ، لَا قَلْدَرُ صَحٍّ وَلَا جَبَرُ  
مَا صَحَّ عِنْدِي ، مِنْ جَمِيعِ الَّذِي تَذَكَّرُ ، إِلَّا أَلَمْتُ وَالْقَبَرُ

وهو في حقيقة على غير ما يظهر ، وإنما أسرته أعصابه وعقده النفسية والبلاء الذي حلّ به ، — فهو على حدّ قول الدكتور التويهي «سَلِمَ تسليماً كاملاً بإثم ما يفعل ، ولكنه يعلّيت السبب الذي يسوقه الى إتيان الحرام ، وهو أن اللذة التي يجدها فيه أقوى من أن يقاوم إغرامها ، وقد بلغ من قوّتها أن دفعته الى هذا العناد الثائر . وقد يحزن على حاله ، ويأسى لعصيانه ، ويتحسّر على ما فاتته من الصّلاح ، ولكنه يظلّ برغم هذا مدفوعاً الى الخمر دفعا لا طاقة له برده . لا هو يصده عنها تحريم الدين ، ولا هو يزهده فيها خوف العقاب الديني... هو إذن ليس كافراً وليس متشككاً ، ولكنه في المرتبة

التي سموها « منزل المؤمن العاصي » ، والذي يسوقه الى هذا العصيان صعب نفسياني لا ضعف إيماني . » وشعره الزهدي أقوى برهان على عقيدته الدينية وإيمانه الحقيقي .

ولكن هذه العقيدة كانت فيه غير فعالة إلا في فترات قصيرة . فهو في الحياة رجل أراد الحياة للحياة لطبب آلام الحياة . ولهذا دعا الى الإباحية . وتطرف في هذه الدعوة . وتحدث الى أقصى حد من التهلكة ، ونظم أبياتاً « من أشد ما يحثوه الشعر العربي حصاً على الإباحية . وتريناً للمجون ، ودعوة الى المجاهرة بالفسوق ..

أَطِيبُ اللَّذَاتِ مَا كَانَ جِهَاراً بِافْتِضَاحِ  
إِشْرَبْ ، فَلَيْتَ . عَلَانِيَةً ، أُمُّ الْكَسَّاسِ زَانِيَةً  
وَدَعِ كَسَّاسَ وَالرُّكَا : فَمَا هُمَا مِنْ شَانِيَةٍ

• • •

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ      وَلَا تُسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمَكَّنَ أَنْجَهْرُ  
فَعِيشُ الْفَقَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ ،      فَلَنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصْرُ الْعُمُرِ  
وَمَا الْغَبْنُ إِلَّا أَنْ تَرَانِي صَاحِبًا ،      وَمَا الْغَنَمُ إِلَّا أَنْ يُبْعِثَنِي السُّكْرُ  
فَبِحْ بِأَسْمٍ مِنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى ،      فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ  
وَلَا خَيْرَ فِي قَتْلِي بِغَيْرِ مَجَانَةٍ ،      وَلَا فِي مُجُونِي لَيْسَ يَسْمَعُهُ كَفْرُ

وهذه الأبيات المتطرفة في التحدثي والمجاهرة تشرح لنا سبب اللئيم الحار الذي رأيناه في أشعاره الأخرى . ما كان ندمه عفيفاً إلا لأن عصيانه كان عفيفاً .

هـ . سخط على النفس : هكذا أراد أبو نواس أن يهرب من حقيقة الحياة ، وهكذا وجد في الحمرة لذّة جنسية . « وهذا التثوير بالنفس من أبي نواس هو في حقيقته إعلان عن كل سخطه على عقيدته الدينية ، وبرمه بالتوائه الذي لم يستطع له إصلاحاً ، فهو يحول سخطه الى نفسه ، ويتلذذ بالانتقام منها بأقصى انتقام يستطيعه . » وإن في هذه المجاهرة بالفسوق دليلاً على إصابته « بهذا الداء الويل الذي يدفعه في حمية انفعاله

العصبي أن يجد لذة عنيفة في فصيح نفسه والتشهير بها . ولحاق العار بها وهتك السر عن علته ، وعرضها على أنظار الناس أجمعين .

تلك نظرة وجيزة في نفسية هذا الشاعر الذي قست عليه الحياة فأراد أن يستخلص منها فلسفة حياته . كانت فلسفة التهلك الفاجر والصارخ ، وكانت فلسفة النشوة التي تقلل صاحبها الى غير الواقع وتقدم له متعة الواقع في غير تضيق ولا اقتصاد . ولكنها متعة مبطنة بالألم وناجمة عن نظرة عميقة في تماهة الحياة .

٣ أدبه :

لأبي نواس ديوان شعر كبير عني بجمعه كثير من الأدباء ، وطُبع عدة مرات في فيه مصر وبيروت ، ومن طبعاته الأخيرة طبعة دار الكتاب العربي ببيروت . قدم لها أحمد عبد المجيد العزالي بدراسة لعصر أبي نواس وبشته وشعره ، وقام بتحقيق الديوان وضبطه وشرحه وتنبيله بفهرس هجائي للقصاصد والمقطوعات التي انطوى عليها . وهذا الديوان ينقسم الى ثمانية أقسام : الحمريات . والغزل ، والمديح ، والهجاء ، والثناء ، والعتاب ، والزهد ، والطرد .

٤ - الشعر الحمري عند العرب وعمل أبي نواس منه :

أ - في الجاهلية : توقّف الجاهليون في وصف الحمرة عند مطاهاها الحارجية وأشاروا الى مفعولها في النفس ، وراحوا في تكثيف المادّة التصويرية ، يقلّد بعضهم بعضاً ، ويكرّر بعضهم أقوال البعض الآخر ، حتى كان لدينا تراكم أصابع وأشكال ، في غير تحليل صحيح للمعنى النسبية التي تنشأ عن نشوة الحمرة .

وهكذا فانشعر الحمري عندهم للمامة سريعة . ولكنّ فيها نواة الشعر الذي قيل بعدهم في الموضوع ، وكأني بشعراء المهديين الأموي والعباسي قد اكتفوا بتفصيل ما أجمل الجاهليون إلا أنا نواس الذي كان صاحب مدرسة خاصة في الشعر الحمري عند العرب .

ب في العهد الأموي . حرّم الإسلام الحمرة فتقلّص طللها في الشعر الإسلامي



الأول . ثم كان عهد بني أمية ، وقد انتشر الترف والعمى في بعض الأصقاع ، فتهاقت الناس على متع الحياة ، وكان للخمرة في مجالس الحجاز والشام والعراق مكان مرموق . ولا عجب ، والحالة هذه ، في أن يزدهر الشعر الحمري ، عهد بني أمية وفي أن يكون للخمرة أنصار وأعداء .

والجدير بالذكر أن شعراء هذا العهد لم يضيفوا إلى معاني الجاهليين شيئاً جديداً ، بل اكتفوا بالترديد والتكرير ، كما اكتفوا بالتفصيل والتجزئ ، والإكثار من الصفات التي لا تتعدى نطاق الظاهرة .

ومن أشهر من عالج الشعر الحمري في العهد الأموي الوليد بن يزيد الذي نشأ مستتراً يميل إلى اللهو والخمر والصيد ويحب معاشرَةَ الظرفاء ومتاعمة الأدياء والخلفاء والمجان وسماع العناء ومجاردة أهواء النفس . ومعاني شعره تعبير عن تجربة نفسه ، في رقة عذبة وصدق مؤثر وسهولة شفاقة .

وأشهر شعراء الخمر على الإطلاق ، في هذا العهد ، الأخطل شاعر بني أمية .

جـ في العهد العباسي وما بعد : عكف الناس على الخمر في العهد العباسي لاتساع الحرية الفردية والجماعية في ناحية الأخلاق ، ولاندفاع الأعاجم على العنصر العربي اندفاعاً عم السياسة وشتى نواحي الحياة . إلا أن الخجون والشرب بقيا في مطلع العهد محصورين ضمن نطاق ضيق وفي بيئات محدودة ، فكانا مقصورين على طائفة الخلفاء والمستترين ، يمارسونها في مجالسهم الخاصة أو في بعض المحلات العامة في شيء كثير من التستر والاستخفاء ، ذلك لأن الرأي العام في المجتمع الإسلامي حينذاك كان يستنكر الخجون ويأباه ، ولأن السلطان كان يطارد المايجين وينزل بهم العقاب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فالأحوص والعرجي والوليد وأبو نواس وأصراهم كانوا يلقون من الحكومة أذى واضطهاداً ونقياً وسحاً كما كانوا يبقون من الناس نبذاً وإعراضاً واستنكاراً . ولم يكن الأمر كذلك في العصور التابعة . إذ أصبح الخجون شيئاً مألوفاً لا ينكره العرف ولا يآباه الذوق الاجتماعي ، واطلق الناس في تطب متع الحياة انطلاقاً شنيعاً ، وأصبحت الخمر على موائد العامة والخاصة وعلى لسان الشعراء يتغنون بها في

كلّ مجلس. وأكبر ممثل للشعر الحمريّ في العهد العباسيّ هو أبو نواس زعيم هذا الباب عند العرب.

والجدير بالذكر أنّ الحمرة كانت ذات شأن عند الفرس، وأنّ النسيبة الفارسية غزت العالم العربيّ في العهد العباسيّ الأوّل، فأقبل الناس على عادات الفرس في مرافق العيش، وانتحلوا نظمهم الاجتماعيّة والسياسيّة، وأكبوا على الحمرة يعبّون منها ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً، وقد انتشرت حوانيتها في الدساكر والأرباض ومعارق الطرق، وتنوّعت آنيّتها، وحذق تجارها طرائق تعتيقها، وفرشوا لها البساتين بين الماء والرياحين، وجمعوا لها الجوّاري والقيان، فكان طلابها كثيرين، وكانت في نظرهم جوهر الحياة، وتسرّب الى النفوس ما كان لها من تجلّة وتكريم عند الأعاجم. وكان لذلك كلّ أثر شديد في الشعر وقد نزع في مطلع العهد نزعة شعبية، وأراد أن يكون صورة للحياة في مطلق معناها.

وقد نشب الصّراع في هذا العهد بين أهل القديم وأهل الجديد، وبين العرب والشعوبية كما اختلف الناس في شأن الحمرة تحلّوها فئة وتحرمها أخرى. أما الشعوبية فراحت تنامس العرب في دينهم وتقاليدهم وأديبهم، وراحت تعزّز شأن الحمرة على أنها عنصر من عناصر الحياة الجديدة، وراح شعراؤها يتعصّبون على العرب، ويقيمون الحمرة مقام الديار والطلّول.

والذي لا بدّ من إثباته هنا أنّ شعراء كثيرين مهّدوا الطريق لأبي نواس في الشعر الحمري، كالوليد بن يزيد، والحسين بن الضحّاك الذي عاصر أبا نواس وصاحبه، فضلاً عن القدامى الذين كانوا رواد الحركة الحمريّة من أمثال عديّ بن زيد العباديّ والأعشى وعبد بن الطيّب الذي بلغ الأوج في وصف الحمرة. وعندما ثبتت دعائم الملك في عهد بني أميّة «وظلم الناس في الأراضي المفتوحة على ألوان أخرى من الحياة، تقع منها الحمر موقعاً أصيلاً، وجدنا الشاعر يقف شعره كلّ على وصفها، ووصف ما يتصل بها من ألوان اللّهو... فنجد أبا الهنديّ، غالب بن عبد القدوس، يستفرغ شعره بصفة الحمر... وهو خفيف الروح، رائع الوصف، قصّاص من الطراز

الأول... وكذلك سبق أبو نواس وعاصره، وعُرف قبله بوصف الخمر عكاشة العممي من أهل البصرة وهو ممن يشبه نهجه في وصفها وطريقته - نهج أبي نواس وطريقته<sup>١</sup>.

#### ٥ - أبو نواس شاعر الحمرة:

١ الحمرة شخص حيّ: شاعت الحمرة في عصر أبي نواس، وكثر شاربوها، واشتدّ الخذل بين الفقهاء في أمر تحريمها وتحليلها. وقد مال إليها أبو نواس في اندفاع وثورة، وشملت ثورته التقاليد العربية والدينية، واصطبغت بالصبغة الشعرية التي تريد الحطّ من شأن العرب في عقبيهم وعاداتهم وأخلاقهم وثقافتهم ودينهم.

ولم يحب أبو نواس الحمرة كما أحبها الأعشى والأخطل وغيرهما، أي لم يعتبرها وسيلة إلى الفرحه والنشوة فحسب، بل زاد على ذلك أنه أحبها، ورأى فيها شخصاً حياً، لا على سبيل المجاز، بل على سبيل الحقيقة، فإنه رأى فيها حياةً عندما رآها تنطلي، وتفور، وتضطرم، وتأتلق اثلاقاً، وتسري في الجسم سرياناً، وتبعث فيه الحرارة والنشاط، كما تصبغ العينين والحدين بمحمة الدم. فهي ذات روح يحاول أبو نواس أن يستلها من اللذّن ليجعل في جسمه روحين؛ وهي كائن أشبه بكائنات عالم الأفلاك الذي جملة الفلاسفة فوق عالم المادة وتحت عالم الروح، إذ هي مادة روحانية تتصف بالطاقة فيكاد الماء لا يمازحها، وهي نورٌ متألّئ، بل هي معنى من المعاني المفارقة، أي التي تغاير المادة، حتى أصبحت من المعقولات بالفعل، تُحسّ بها الروح، وتُنابجها، وتتشفّقها لأنها جمال من الجمالات الأفلاطونية. قال أبو نواس:

لَكَيْسَ بِمَائِكَ حِدَّةَ الصَّهْبَاءِ، فَلَمَّا رَأَيْتَ خَضُوعُهَا لِلسَّمَاءِ  
فَأَحْسَسُ يَدَيْكَ عَنِ الَّتِي نَقَيْتَ بِهَا نَفْسُ تَشَاكِيلِ أَنْفَسِ الْأَحْيَاءِ

ولما كان الأمر كذلك كانت الحمرة لأبي نواس شقيقة روح، فأحبها حبّ العاشق للمعشوق، حبّ الزوج للزوجة، ووجه إليها جماعه الجنسي، ووصفها بجميع صفات الأنوثة، وراح إلى بانعها يخطبها، ويدفع المهر، ويخطبها فتخطبه، ويقم لها حفلات الزفاف بكل ما أوتي من اندفاع وفن، وراح يسكب فيها نفسه ليجد راحة نفسه،

١ نجيب محمد البهي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص ٤١٥ - ٤٢٦.

فأصبحت روحه، وأصبح والخمرة شخصاً واحداً لا يستطيع الانفصال عنها، وصب فيها كل فكره وكل قلبه، وأراد الحياة كأساً وسكرة، وثار في وجه العذال والملائين:

لَوْ كَانَ لِي سَكَنٌ بِالرَّاحِ يُسَعِّنِي      لَمَّا أَنْتَظَرْتُ بِشَهْرِ الصَّوْمِ إِفْطَارًا  
الرَّاحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهُ،      فَأَشْرَبْتُ وَإِنْ حَمَمْتُكَ الرَّاحُ أَوْزَارًا  
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى صَهْبَاءٍ صَافِيَةٍ،      صَبْرٌ فِي الْجَنَانِ، وَدَعْنِي أَسْكُنِ الْكُثْرَا

وراح أبو نواس يتكلم بمن يلوم، ويمتدُّ تكلمه الى العرب الذين تغنوا بالأطال وبعبلة وهند وغيرهما، ويقابل بين محبوباتهم ومحبوته، ومخالسهم ومخالسه، وتقاليدهم البالية وفلسفته الجليدية، وذلك في نزعة شعورية صارخة.

٢- الخمرة إلهة ذات قدر: ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد، بل رأى في الخمرة شيئاً من ألوهة<sup>١</sup>، ورأها فوق النار التي كان الفرس يعبدها، ورأها فوق معبودات الناس أجمعين، حتى كادت تُنسب له تعالى. وصفاها بصفات الذات الإلهية، وجعل لها آلاء وأسماء حسنى، وصفات تجلُّ عن الشبه والمثل، وهنا يبدو تأثر أبي نواس بحركة الجدل والنزاع القائم في عصره بين علماء الكلام؛ قال:

أَثَرٌ عَلَى السَّخْمِ بِالْأَلِهَةِ      وَسَمُّهَا أَحْسَنُ أَسْمَائِهَا

ولما كانت الخمرة كذلك راح الشاعر يجلِّها، ويبدل كل شيء في سبيلها، ونصب

١ عادة اشرباء عند الفرس قديمة جداً ترجع الى طقوسهم الدينية، فقد كانوا قديماً يتناولون من أجل أقتهم عصيراً مسكراً يستخرجونه من عشب والحوما، وبالرغم من استياء نبيهم ورادفت من هذه الوثنية بقيت عادة تقديم شراب والحوما، ولسكر الى الآلهة متبعة في الديانة الزردشتية. وهكذا كانت الخمرة عند قدماء الفرس مقدسة. وفي هذا ما يفسر لنا تقديس أبي نواس للخمر، وولعته زبانا بالأسماء الحسنى، وذلك أن أبي نواس وأضرابه من شعراء الفرس يصعدون في شعرهم الخمرى عن مزاج روحي قاصي، فقدم أبعداً من الماصي السحيق وردته نفوسهم في ظل الاسلام. وإنما نجد عند عدة شعراء نفس الموقف اللبني الذي تجلده عبد أبي نواس، فالاسلامي من بعده كان شديد الإقبال على الخمرة والبقاء، وكان يحس في قرارة نفسه، وهو في جوفها، سكون الذي ينتاب العابد في عمره، فيدعه هذا الحشوع الى الصلاة، ولكن على أذان الطائير. ويدعه أيضاً الى الركوع والسجود.. أليس هذا تقديساً للخمرة يدكرها بطقوس الفرس الوثنية؟ (طالع والأدب في ظل بني بويه)، ص ٢٥٧ - ٢٦٢ )

نفسه داعياً من دعائها ، وأقام لها طقوساً لعبادتها وتكريمها ، ومضى في إبعاده عن كل  
من لا يستحقها ، لأنَّ التقرب منها . عن غير استحقاق ، إنَّه فطيع ؛ قال :  
وَوَقَّرَ الْكَأْسَ عَنْ سَفِيهِ      فَإِنَّ حَقَّهَا لَهَا الْوَقَارُ

وقال على لسانها :

لَا تُسَكِّنِي مِنْ الْغُرْبِ يَشْرِبِي ،      وَلَا الْكَيْسَ الَّذِي إِنَّ شَمْعِي قَطْبَا

ولأجل ذلك كله لم يصطحب في شربها إلا عصابة الكرم والجود ، وقد نعت نداماه  
بأجمل النعوت ، ووصف أماكن الشرب أجمل الوصف ، وبين في تلك المواقف  
«الدينية» حركات العبادة من سجود ، وأقوال إكبار وإجلال .



٣- اللاهوت المؤيّد: أكبّ أبو نواس على الحياة يداوي بها آلام الحياة، وكان ذا ثقافة واسعة فراح يُعيلُ الفكر في الوجود وليس له من ثقافته مبادئ قويّة تقف دون تيار القلق والخبرة، فراح يُحلّلُ بفكره وعاطفته مظاهر الموجودات، وإذا به يخرج من كلّ ذلك بفلسفة خاصّة هي فلسفة الحياة للحياة مع إيمان غامض بالله وحقيقته، وإذا به تقوده العاطفة والخبرة الى نزعة تحرّرية مطلقة تريد تحطيم التقاليد، والأخذ بكلّ ما يستميل، وإذا به قوة اندفاعيّة جبّارة تثور على تقاليد العرب وتناصر الشعوبية، وتثور على التقاليد الدينية التي تضيق على ناحية الشذوذ، وتثور على علماء كلّ مذهب فكريّ لأنّ المذهب الوحيد في نظرها هو مذهب الحياة والتّليّ منها وإشباع جميع القوى، ولما كانت الحمرة هي طريق المرحّة والسكّرة، فقد أراد الحياة حمرة بعد سكّرة، وسكّرة بعد سكّرة، وأراد ذلك في جرأة وصراحة، لأنّ الحياء، والتستّر، ينقصان من اللّمة التي يريدّها كاملة، وإذا كان الله موجوداً وهو يحظر الإثم والشذوذ، فقد لجأ الى فلسفة الطغران الذي خلّق للإثم، فأصبح الإثم في نظر الشاعر مبعثاً للفرحان وموضوعاً لحلول رحمة الرّحمان، وهكذا كانت عنده الحياة الحمرة والحمرة الحياة. وهكذا نصب نفسه رسولاً للمذهب الفلسفي الجديد، ودافع عن الحمرة، ودعا إليها، لأنها طريق اللذة الكبرى، ودواء الأوصاب. وهكذا امتاز أبو نواس من سبقه من شعراء الحمرة كالأعشى والأخطل وغيرهما بأنّه فلسّف الحمرة والحياة الحمريّة.

٤- بنت الحانفي موكب الأغان: وهكذا ترى أبا نواس على كلّ طريق وتحت كلّ سماء، في جماعة من الشدّاذ، قاصداً بيوت الخمارين والخمارات، في الدّساكر، والحانات، يقرع الباب وإذا الخمار في اضطراب ثم في يشر وفرحة، ويفتح الباب وإذا الدّار رجة تمتدّ على كفف ساقية أو غدير، تحفّ بها الراحين وتظللها الأشجار، فُتسحب الرّفاق سحباً، وعليها من العناكب نسج على نسج، ومن قلم الدّهر لباس على لباس، والسّقاء في حميّة ونشاط وعلى الأيدي كؤوس، والحمرة تطلّ من الرّقّ الجريح كأنها في طلعة الليل مصابيح. وهي متوتّبة تصطبغ بكلّ لونٍ وتظير بكلّ شذاً وعير، وانميون مسمرة، والقلوب مأسورة، والنفوس حائمة على كلّ كاس، وإذا الأيدي تمتدّ بروجاً تحمل شموساً، والشموس

مادة غير مادية، قد درس الشعر ما نجسم منها ولم يترك منها غير اللباب. وترتفع الكؤوس وتمتص الشفاء وإذا في كل جسم نفسان، وفي العيون احمرار ودعول، وعلى الوجنات ورود وزهار، وتنصب القيان الغلاميات في قدود جساد، وتهز القنود هيفاء، وتحرك الأنامل على الأوتار وانعازف، وتنصاعد الأندام مع الأشده عواطف تلتقي بالثنويات، وإذا الساعات تلي الساعات والأيام تلي الليالي والأيام، والجماعة في قصف وعريدة، والحمرة في «هيكل باحوس» مشروية موصوفة بكل الأوصاف، كل واحد يقول فيها ما يقول وترنم أناشيدها «الدينية» الخاصة، وأبو نواس يتشعب في شغف وهفة، ويصف أصلها وكرمها وعصيرها وذنائبها وقدمها ولونها وطعمها ورائحتها وساقها وخمارها والندامى المتجمعين عليها، وكل ما يمت إليها بصلة قريبة أو بعيدة، وإنك تشعر وأنت تقرأ قصائده فيها أن تلك القصائد أشبه شيء بالأناشيد الدينية، التي ترتل وترافقها المعزوفات المختلفة، فهي في موسيقاها وتقطيعها أناشيد يقولها الواحد فيرددها الآخرون من بعده مقاطع مقاطع وبيوتاً بيوتاً:

إسقي وألّيل داج	قَبْلَ أَصَوَاتِ النَّسَاجِ
إسقي صُهْبَاءَ صِرْفًا	لَمْ تُدْنَسْ بِسِرَاجِ
مَا رَأَتْ مُذْ عَصْرُوهَا	كَارَ صَوْنُ لِسْرَاجِ
نَجَتْ مِنْ كَرَمِ كِسْرَى	قَبْلَ لِبَابِ النَّسَاجِ
هِيَ لِدَفْعِ أَلْهَمٍ وَالْأَحَدِ	زَانٍ مِنْ حَرِّ عِلَاجِ
حَبْلًا ذَاكَ لِقَاحًا	فِي أُبَارِيْقِ الرَّجَاجِ

#### ٤ - قيمة شعر أبي نواس الحمري:

١ أسباب رواج شعره: كان لشعر أبي نواس «بريق أخاذ، وأريج غلابة، تأتيه من قوة طبع. وكان شعره يشبه العصر الذي عاش فيه، أو على الأصح يشبه جانباً كبيراً من حياة عصره، وينطق عنه بأسلوب محكم، لا يُفقد عتانه من بد صاحبه إلا في القليل. ثم إن شخصية أبي نواس نفسه كانت محبة الى النفس، غير منغمرة بأية صورة... وكانت له صداقته المعتودة مع كبار رجال عصره، فكان ذلك يقوم الى

جانب شعره في نفوسهم ، فبقع منها موقعاً حسناً ، ويحلّ منها محلاً لطيفاً سهلاً . وقد عاصر أبو نواس الأصمعي ، وأبا عبيدة ، والنظام ، والجاحظ ، والشافعي ، ووقع شعره من نفوس أكثر من عاشر وعاصر موقعاً حميلاً ، وانهم ليحيونه جميعاً على تخرج بعضهم من بعض شعره<sup>١</sup> . وهذا كله زاد الشاعر جرأة ، وجعله في نظر الناس رأس المدرسة التجديدية في الشعر الحمري .

٢ - خلقية فنية جديدة . والجدير بالذكر أن الحركة الفكرية والتحررية التي شهدتها البلاد قادت الشعب العربي إلى خلقية فنية جديدة . فذهب الكثيرون مذهب الفن للفن ، وإن كانوا يتأبون نواحي الحطّة الخلقية في الشعر . فكانوا يرون أن الشعر فن ، وأن له من ثم أن يقول ما شاء بشرط أن يقوله في صيغة الجلال ، وكانوا في الوقت نفسه ينكرون الشذوذ والتصرّح بالعش . وهذا قول ضمنيّ لنظرية الفن للفن التي شاعت في العصور الحديثة . روى أبو العباس المبرد عن الجاحظ أنه قال : « سمعت إبراهيم النظام يقول ، وقد أنشد شعر أبي نواس في الحمر : هذا الذي جُمع له الكلام واختار أحسنه » .

٣ - شعبية وواقعية . وكان أبو نواس يرى هذه النظرة . ويعتبر أن الشعر لغة الحياة في شتى معانيها ، والحياة بحر واسع ينطوي على الغث والسمين ، والكريم والمهين ، فليس للشعر أن يشوّه وجه الحياة ويختار من نواحيها ما يشاء ؛ وقد سبقه إلى هذه الطريقة كثيرون ، فأراد أن يمسي في ركبهم ، ويوجّه إلى النظرية الجديدة جميع طاقاته الفكرية والفنية ، وأن يدعمها بما له من رواج عند الخاصّ والعام ، فيجسّم الحركة في ذاته ، ويتزعمها تزعماً ، فيكون كالباعث لها ، والهادي إلى طريقها . تلك هي نظرية الشعبية في الشعر وقد أنزلته إلى معترك الحياة . ولم تتركه وقفاً على القصور والزعامات .

٤ - مذهب الحمرة أضف إلى ذلك كله أن العصر عصر علم وفلسفة ، وعصر انفتاح على أسرار الوجود ، وقد اندلقت على عاصمة الخلافة وشتى الخواضر العربية ، وفود العلماء من شتى الأنحاء ، وأخذت حركة النقل تزيّن ثمارها ، ونهضت الفرق المذهبية في كل مكان ، وراحت تنافس على الفلسفة وتسلّح بها للدفاع عن آرائها وردّ



المحوم الذي يشته عليها الخصوم ، فزخر البحر بروح الجدل والقاش ؛ فأراد أبو نواس أن يكون للخمرة مذهبا . وأراد أن ينصب نفسه داعيا لها ، وأن يجعل الندمان أتباعاً ، ومجلس الشراب طقوساً قائمة على نظم وقوانين كما أراد أن ينظم للخمرة الأئشيد الدينية التي يرافقها صوت المازف في غمرة الشراب وزحمة الطقوس . وراح يستخدم الفلسفة في سبيل الدفاع ونشر الدعوة ، وإذا لديه مذهب ذو أصول وفروع تقوم فيه الخمرة بمقام المعبودة التي تنزهت عن المادة والتي حق لها أن تُسمى بالأسماء الحسى ؛ وبمقام الزوجة التي تعمل في الأرواح والأجساد عملاً سحرياً ينقلها من عالم التحول والزوال الى عالم الدهول الذي يغيب فيه المكان والزمان . واطلاقاً من هذه النظرية بهض أبو نواس في وجه النظام ، علامة عصره ، نهضة استعلاء وقوة . وقال له في شيء من الأزدراء :

قُلْ لِمَنْ يَدْعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ عَرَفَتْ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْتْ أَشْيَاءُ  
لَا تَحْظُرُ الْعَقْلَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا فَمَنْ حَظَرَكَ فِي الدُّبُرِ لَزَرَاءُ

قال أحمد عبد المجيد الغزالي . « والخمر التي يشربها أبو نواس خمر حسية ما في ذلك ريب ، ولكنه من فرط شغفه بها ، وتقديسه لها ، قد انتقل بها من « الحسية » الى « المعنوية » ، فجعلها « فكرة » شائعة تحس بها الروح ، ولا تدرك لها كنهها ، وجعلها معنى دقيقاً أشبه ما يكون برجم الظنون ، وشيئاً لا يحس إلا بالفريزة . وروحاً لا يقوم بها جوهر من اللطافة ، ولا يشف عنها نور من الصفاء . وترقى به العشق درحات في معراج الفتنه ، فأخذ شعوره بها يقرب من شعور المتصوفين بالآلهه ، فلها آلاء وأسماء حسنى . ولها صفات تجل عن الشبه والمثل » .

٥ - فلسفة الغفران : وفي هذا التمهيد الصاخب ، عن أبي نواس أن يقف من الفقهاء ورجال الدين موقف فقيه الخمرة ، ورجل الدين الحموي . وراح يناقش في موضوع المعصية ، وموضوع الغفران الذي يقول به الدين ويُقره علماءه ، ويرى أن في موقف هؤلاء العلماء تناقضاً واضحاً . فهم يقولون بالغفران ثم يقولون بالتخليد في النار

لأصحاب الكباثر، وكان الجدير بهم أن يقولوا في رأيه — أن الغفران للمعاصي، وأن وجود المعاصي من مقتضيات عمل الغفران، وإن للإنسان أن ينطلق في هذه الحياة انطلاقاً بعيداً عن كلٍّ تخرج، وأن يجعل القرآن من هنا، والكأس من هنا، فيشرب خمراً ويتو من القرآن أحرفاً، والله غفور رحيم يمحو بغير القرآن شرَّ الحمرة!

٦ شعوبية صارخة: وإلى جانب هذا كله فقد عمدت شعوبية أبي نواس، ما عملته الشعوبية العامة في المجتمع العباسي الأول، فأهضمت على تقاليد العرب في الشعر، وحرصته على التهجيم التحقيري السآخر، وعلى التنديد بما يراه حموداً في الدهنية العربية، وبدأوة قبيحة في عصر الحضارة والتقدمية وقد عمد إلى كثير من الألفاظ الأعجمية للحط من شأن اللغة العربية، وعمد، أكثر ما عمد، إلى لغة التخاطب وأساليبه للحط من كلاسيكية الأساليب العربية القديمة، وأخيراً عمد إلى النقد المباشر فهزأ بالوقوف على الطلول وبكاء الأحبة، ورأى أن الحمر الحية أندر بالبكاء من البيوت البالية، وإن مجالس الشرب أنجد بأن توصف من الرسوم الدارسة التي تنسج الرياح رمالها:

يُنَلِّكُ أَبْكِي، وَلَا أَبْكِي لِمَزَلَةٍ كَانَتْ تُحِلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ  
حَاشَا لِدُرَّةٍ أَنْ تُبْسَى الْخِيَامُ لَهَا وَأَنْ تُرَوَّحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ

٧ رجل تفكير وجدل وصراحة وجراءة: وهكذا يتجلى لنا أن أبا نواس رجل تفكير يبدى بآرائه في صراحة وجراءة، ورجل نقاش وجلد يتسلح بسلح الأئمة لكي يبرر موقفه الشاذ من الحياة، ويقع الحجة بالحجة، في لباقة ومهارة، لكي يبدو للجاهل الشعب أنه لا يسير في طريق الضلال، فيخي، تحت ستار الجدال، تلك الميول الجائعة التي تخضع العقل لمنطقها، وإن كان العقل يؤمن بالله ويتنكر في أعماقه لأعمال الشذوذ الإنساني التي يفرق في عابها الإنسان العاقل.

٨ — انقياد للحسن المسيطر: والمعاطفة في هذا الشعر الحميري انقياد للحسن المسيطر، وخضوع للعقد النفسية التي جعلت من الشاعر مجموعة متناقضات، وبمجموعة طاقات شعوبية تندفع وراء كل ما يدغدغ الحسن ويوفر له متعة آتية تمرله عن الوجود العام،

وتحصره في وجود خاص<sup>١٠</sup> تخضع له المبادئ العامة والنظم الأخلاقية والاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع الشرقي.

٩- صورة غنية الإيحاء والحياة : والصورة في شعر أبي نواس غنية الإيحاء ، تتكامل بين يديه تكامل صنعة وزخرفة . وذلك أن الشاعر شديد الميل الى التصوير ، يُسحّ على الصورة إلحاحاً ولّح ، وبلوّنها تلوين حذق ، ويجمع من الطبيعة فيها ما يزيد في ألونها ؛ والصورة عنده حية يتعاون التشبيه والطباق على إبراز خطوطها وظلالها وطاقة التأثير فيها ؛ وأبو نواس يستفيد من معطيات العلم والفلسفة ليركب صورته ويكسبها أبعاداً قلماً تجدها عند غيره من شعراء الحمرة :

فَأَرَسِلْتُ مِنْ قَمَرِ الْأَيْرِقِ صَافِيَةً      كَأَنَّا أَخَذْنَاهَا بِالْعَيْنِ إِعْفَاءً  
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَائِمُهَا      لَطَافَةً ، وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ  
فَلَوْ مَرَّجَتْ بِهَا نُورًا لَأَزَجَهَا      حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

١٠ - عناية باختيار اللفظة وتجويد الصورة : وأبو نواس شديد العناية باختيار اللفظة وتجويد الصورة ، واللفظة عنده كالفتاة الحساء ، شديدة الألق ، سريعة الأداء ، واضحة المعنى ؛ وهي كالجواري البعداديات لذلك العصر . فلها العريّة ومنها الأعجميّة ومنها المتشدّدة ، ومنها العائبة المأجدة . والألفاظ في شعر النواصي موكب الحان لبنت الحان ، في مرج ظاهر ، وفي سهولة متأنّقة . وفي طبيعة تُسيطر على الموقف ، وتلقي على الصنعة نفسها عذوبة ورونقاً .

١١ شطحات غيالية رائعة : ولأبي نواس في شعره الحمري شطحات غيالية رائعة يتنقل فيها الى عالم الفلسفة والتصوّف ، ويفتح أمامك آفاقاً واسعة . وإنك تقرأ مثلاً العبارة التالية في وصف الحمرة «صفراء تفرق بين الروح والجسده» فلا تكاد تشعر أن وراء هذه الألفاظ القليلة البسيطة ، علماً من تصوّر العقلي ، وعلماً من التصوير الخيالي . فالحمرة ها معتقة صفراء ، أي ذمت مفعول لا حدّ له ؛ وهي من ثمّ قادرة على أن تعمل في النفوس والأجساد ما يعملها الحبّ الإلهي في نفوس المتصوّفة وأنجسادهم ، فتسقطو على الوحدة الإنسانية في الكائن الإنساني ، وتتزعج الروح من حبس الجسد ،

وتُطلقها الى عالمها الروحاني حيث النشوة التي لا نشوة بعدها . وفي هذا منتهى ما يصل اليه الخيال الخلاق .

١٢ عناية برسم اللوحة الجميلة : ولأبي نواس عناية برسم اللوحة الجميلة التي تجتمع فيها الأضواء والظلال اجتماع فن ودوق وحياة . فأنت مثلاً أمام مشهد للربيع يث على معافرة الحمرة . أما وجوه الأرض فناصرة تفيض ماء ورواء ، وقد ألبسها المطر ألواناً من الزهر ، وقام الربيع نفسه يوشىها ويحللها بكل يانع فتان من الأزهار المنشورة هنا وهناك أزواجاً متعاققة ، وأفراداً متطولة الأعناق تصير إلى العناق . إنه مهرجان الطبيعة في عرس الحمرة ، وقد استوفت الحمرة شبابها ، واكتملت أنوثتها ، وانفتحت للعيش الهنيء أبواب منع جديدة بعيدة جد البعد عما كان للعرب الأقدمين ، وبعيدة كل البعد عن مفهوم الحياة عند المتشددین :

أَمَا رَأَيْتَ وَجُوهَ الْأَرْضِ قَدْ بَصُرَتْ      وَالْبَيْسَتَهَا الزَّرَابِي نَشْرَةُ الْأَسَدِ  
حَالَكِ الرَّبِيعُ بِهَا وَشَيْئاً ، وَجَلَّلَهَا      يَبْنَعُ الزَّهْرُ مِنْ مَنَى وَمِنْ وَحْدِ  
وَأَسْتَوْفَتْ الْحَمْرُ أَحْوَالَ مُجْرَمَةٍ ،      وَأَفْتَرُ عَيْشُكَ عَنْ لَذَائِكَ الْجَدِيدِ

١٣ - سلامة وسهولة وموسيقى : لشعر أبي نواس في الحمرة ميزات كثيرة من ناحية الفن والأسلوب . نعم حفل بالضعف التركيبي لأن كثيراً منه قيل ارجحاً وفي حالات النشوة والطرب ، وحفل بالألفاظ الفارسية ، ولكنه مع ذلك حفل بالمرونة والسلاسة والسهولة ، وكان للموسيقى والغناء فيه أثر واسع ، فقد رقت الموسيقى حواشيه ، ولئت ملامسه ، وأبعدت عنه الحوشي والمستثقل . وأرسلته قطعاً غنائية موقعة على أوتار النفس وضربات الدفوف وتفسات المعازف . واتخذ أبو نواس أسلوب القصص والحوار أسلوب حياة وإحياء حافل بالروح النواسية .

زد على ذلك أن الكثير من شعر أبي نواس في الحمرة لوحات فنية ناطقة يستطيع

١ الزراني : ما اصغر لو احمر من النبات وجه حمرة نَشْرَةُ الأسد . كوكباك بهما قدر شر وفيها لعل يفيض كأنه قطعة سحاب ، وهي من منازل القمر

الرَّسَامُ أَنْ يَرَسِمَهَا ، وَبِاسْتِطَاعَةِ الْمِثْلِ أَنْ يُمَثِّلَهَا ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَحَقُّ بِالرَّسْمِ وَالْمِثَالِ مِنْ قَوْلِهِ :

رَقُّ الزَّجَاجِ وَرَاقَتِ الْخَمْرِ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلُ الْأَمْرُ ،  
فَكَأَنَّمَا خَسِرُ وَلَا قَدَحُ ، وَكَأَنَّمَا قَدَحُ وَلَا خَسِرُ

أو من قوله :

مَا زِلْتُ أَسْتَلُّ رُوحَ الدُّنَى فِي لُطْفِ وَأَسْتَبِي دَمَهُ مِنْ جَنْبِ مَجْرُوحِ  
حَتَّى انْتَشَبْتُ وَلِي رُوحَانِ فِي نَدَى وَالِدُنْ مُنْطَرِحُ جِسْمًا بِلَا رُوحِ

\* \* \*

وهكذا كان أبو نواس في شعره الحمري من أعمق شعراء زمانه حساً وأبرعهم فنّاً ، وأعصمهم قرعة ؛ وكان فيه إمام المجددين فغير مجرى الشعر ووجهه توجيهاً يلتصق بروح العصر وينزل إلى أعماق النفس البشرية ، وإن اقتصر على تصوير ناحية العبث واللهو من حياته وحياة مجتمعه.

#### ٦ - أبو نواس شاعر الغزل :

١ - نزعته في غزله : حياة أبي نواس وشعره الغزلي متلاصقان متمازجان ، وما غزله إلا عبارة عن اندفاعه وراء الحياة ، وقد أراد أن يحيا الحياة مليئة ، كامئة ، أعني حياة المتعة والسعة ، أعني تلك الحياة الحرة في تنوعها وخصبها ، فنادم العظام ، ورافق الشطائر والشذاذ ، وعاشر الحمّارين ، وتقلب مع كل حال مقتصاً القصر للهو والمجون والمرح . وقد تتبع الجمال حيثما رآه ، تتبعه بنهم ، معرضاً عن كل جمود أو تقليد ، وتتبعه بذاتية مرهفة ، وأراد أن يكون ذلك جهراً في غير ما تستر ولا اقتصاد ، بل أحبب الانفصاح والتبكت ، وكان أبو نواس معروفاً باستيفاء اللذة واستقصاء المتعة ، وقد نظر إلى تعدد أبوابها ، وإذا به يمجدها في الخمر والساء ، والعبان ، يمجدها في تائق

الغلايات ، وعلى أوتار القينات ، وإذا شعره العزلي يدور حول النساء كما يدور حول الغلمان .

٢ - قُبعة غزله : أحبُّ أبو نواس عدداً لا يُذكرُ عن النساءِ منهنَّ جنانَ جاريةِ آلِ عبد الوهَّابِ الثَّقَفِي ، المحدث ، وعنانَ جاريةِ الناطِظِي وكانت قينةً وأديبةً ، ودنانيرَ مولاةِ يحيى بن خالدِ اليرمُكي وكانت من أجملِ النساءِ وأرواهنَّ للشعرِ والغناء . أما جِيانُ فكانت أولَ امرأةٍ أحبَّها الشاعرُ في شبابه فأخصَّصَ لها الحبَّ وتوغَّلَ فيه ، وقال فيها نحوَ خمسينَ مقطوعةً شعريةً . ويقال إن أبا نواس لم يصدق في حبِّ امرأةٍ غيرها .

ويتفاوت غزلُ أبي نواسِ النسائي بين اعتدالِ العاطفةِ وجموحها ، وتراه أحياناً يعتمدُ الى اللعبِ المضحكِ فيقول مثلاً :

حَسَبُ حَصَلْتُ قُبِي ،	فَمَا إِنَّ فِيهِ مِنْ نَاقِ
لَهَا الثَّلَاثُ مِنْ قَلْبِي ،	وَتَلَسَّاتُ ثُلَيْثِ الْبَيَّاقِ
وَتَلَسَّاتُ ثُلْثَ مَا بَقِيَ ،	وَتَلَسَّاتُ الثُّلْثَ لِلْسَّاقِ
فَتَبَقِيَ أَسْهُمُهُمْ سِتْ	تَجْزَأُ بَيْسَ عُشَّاقِ

ولئن فاقَتِ الروعةُ شعرَ أبي نواسِ في أكثرِ غزلهِ النسائي ، فهو لا يخلو من مقطوعاتٍ تحفلُ بالجمالِ الفني ، وبالصُّورِ المبتكرة ، والاسجَامِ والانساقِ في عرضِ الصُّور . وترى الشاعرَ في وصفه الغلاياتِ أروعَ منه في وصفه غيرهنَّ ، وذلك أنه كان يعشقُ الجمالَ المذكورَ أكثرَ مما يعشقُ الجمالَ الأنثوي . من طريفِ غزلهِ هذهِ المساجلة :

كُنْتُ عَلَى فَصٍّ لِحَاثِيهَا :	مَنْ مَلَّ مَحْبُوبًا فَلَا رَقْدًا !
فَكُنْتُ فِي فَصٍّ يَبْلُغُهَا :	مَنْ نَامَ لَمْ يَعْقِلْ كَمَنْ سَهَدَا
فَمَحَّتْهُ وَأَكْتَبْتُ لِيْلُفَتِي :	لَا نَامَ مَنْ يَهْوَى وَلَا هَجَدَا
فَمَحَّوْهُ ثُمَّ أَكْتَبْتُ : أَنَا	وَاللَّهِ... أَوَّلُ مَيِّتٍ كَمَدَا
فَمَحَّتْهُ وَأَكْتَبْتُ تُعَارِضِي :	وَاللَّهِ... لَا كَمَسْتُهُ أَدَا

والى جنبِ النساءِ تعشَّقُ أبو نواسِ عدداً من الغلمانِ لانحرافِ شاذِّ في طبيعته ، وهو

يكثر في غزله هذا من التحرقق والشكوى، وكلامه فيه متلهب العاطفة، يبلغ القمة في لطف الأداء، وعذوبة الانسجام على ما هنالك من شذوذ وتطرف وإفراط.

وهكذا كان الغزل من أهم الأبواب التي عالجها شاعرنا، وكان صورة لنفسه المتعبدة للجمال، وميداناً يحول فيه متذرعاً بكل ما رقّ وعذب من الأساليب، وبما جرى على ألسنة المتكلمين وأصحاب الجدل والفلسفة من أقوال، وإن فيه لأثراً واضحاً للصناعة البديعية التي شاعت في ذلك العصر، وفيه سجلاً قيماً لما انتشر من عادات وأخلاق وتمازج عقليات وثقافات.

#### ٨ أبو نواس شاعر الطرد:

أصبح الطرد مع أبي نواس فناً مستقلاً يودعه أوصاف ما يُتوسل به للصيد من حيوان وأدوات، وأوصاف مطاردات الوحوش البرية وما إلى ذلك، وقد اعتمد فيه الشاعر بحر الرجز، وواكب المعنى باللفظ، وكان أسلوبه مليئاً بالحيوية والتوثب، حافلاً بالدقة والإبداع، زاهياً بألوان البديع وأصباغ الخيال.

#### ٩ أبو نواس شاعر المدح:

لقد نظم أبو نواس في المدح على عادة الأقدمين وقد اصطر إلى مجاراتهم في اختيار البحور الخليلية، ولزوم جانب الترضن، وافتتاح بالغزل. ووصف الأبل وما إلى ذلك، وما ذلك إلا لإرضاء لذوي السلطان وللتقرب منهم. وقد برع أبو نواس في هذا الشعر التقليدي براعة كبرى وإن تكلفه تكلفاً، فجارى كبار شعراء المدح في مئانة السبك وزواعة الأسلوب، ولكنه لم يأت فيه بمجديد.

#### ١٠ أبو نواس شاعر الزهد:

نهك أبو نواس وبالغ في تهكمه فانهك جسمه وشعر أن الحياة تنتقم منه وأن الأجل المحتوم يقترب يومه، فصدت عنه التفاتات إلى العالم الآخر وإلى حقيقة الدهر، وإذا الالتفاتات صرخات إلى عرش الله وغفرانه، وزفرات يصعدها من قلبه ولسانه. في رقعة

وعذوبة وصدق ، وإذا اشعر ثقيل النبرات مثلهب العبارات ، يسير في هدوء السفينة التي تقل ما فيها ، ويتقدم تقدم النفس التي قيدها الأوصاب وعظمت عندها الذنوب ، فحطت في رحاب الله آمالها ، وقلعت على نار اللوعة بخور نوبها وقربان آلامها :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلاً وَعُلُوًّا      وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضُّوًّا  
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى كَيْالٍ وَأَيَّامٍ      تَجَاوَزْتُهُنَّ لُمْبَاءً وَلَهْوًَّا  
قَدْ أَسَانَنَا كُلَّ الإِسَاعَةِ      فَاللَّهُمَّ صَفِّحْنَا عَنَّا ، وَغَمِّرْنَا ، وَعَفِّوْنَا

• • •

ثلث صورة مصعرة لأبي نواس زعيم التجديد بعد بشَّار ، لأبي نواس الذي أراد أن يخرج بالشعر عن أعتاب الملوكة ويزججه في لجة الحياة والمواقع . وقد عرفناه رجل ثورة تحررية كبرى ، ورجل ثقافة واسعة ، ورجل شدوذ جريء ، ينكر الحياء ويتنكر لكل اقتصاد في تطلُّب متع الحياة ، وعرفناه في لموه شاعراً خلاقاً رحب الألفاق بعيد الأجواء ، ورساماً ماهراً يَصُور اللوحات الفنية أروع تصوير في خفة روح ونضات تشخيصية مؤثرة . وهو على كلِّ حال رجل الملاحظة الدقيقة ، والإحساس العنيف ، وهو شاعر المهجران الذي يكثر من الشكوى ، وشاعر الغناء الذي يرافق الوجدان . وهو أبداً شاعر الحمر وزعيم كلِّ من رفع كأساً وتعبَّد لجمال .





## مصادر ومراجع

- زكي المحاسني : النواصي - دمشق ١٩٣٩ .  
 عبد الرحمن صدقي : أبو نؤاس - القاهرة ١٩٤٤ .  
 ألحان ألحان : القاهرة ١٩٤٧ .  
 عبد الحليم عباس . أبو نؤاس سلسلة إقرأ - القاهرة .  
 علي شلق : غزل أبي نؤاس بيروت ١٩٥٤ .  
 أبو نؤاس - بيروت ١٩٦٤ .  
 مرون عبود . الرؤوس بيروت ١٩٤٦ ص ١٠٨ - ١٢٦ .  
 محمد البويهي : نفسيّة أبي نؤاس - القاهرة ١٩٥٣ .  
 أحمد عبد الحميد النزالي : مقدمة ديوان أبي نؤاس القاهرة ١٩٥٣ .  
 أبو هفان عبد الله بن أحمد بن حرب ، بهرمي : أخبار أبي نؤاس - تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج - القاهرة .  
 مجلة الهلال : السنة ٤٤ ، الجزء ١٠ (عدد خاص بأبي نؤاس) .  
 أنيس الحوري المقدسي : أمراء الشعر العربي - بيروت ١٩٣٦ .  
 طه حسين : حديث الأربعاء ٢ - القاهرة .  
 عبد العزيز البشري : المفقون أبو نؤاس في كتابه « المختار » ٢ : ٧٦ - ٨٥ .  
 كمال اليازمي : أبو نؤاس والحجرة - الأملاني - العدد ٣٥ : ٧ .

## أبو العتاهية

(١٣٠ - ٢١٨ هـ / ٧٤٨ - ٨٢٥ م)

١- تلوّجته وُلِدَ أبو العتاهية في عين الشَّعر، ونشأ في الكوفة، واشتَرِ صِبته في الشَّعر فقصِدَ بعدد وانصل بالمهديّ ولقي لديه حظوة، إلّا أنه علقَ بِجارية عتية ولقي من حرّاء ديث سوءاً فتزهد ولبث كذلك إلى أن توفّي سنة ٢١٨ هـ / ٨٢٥ م

٢- نفسيته. كان أبو العتاهية سوداويّ المزاج، كثير التردّد في أمر الدُّنْيَا، ما دام إلى الزَّهد بعد اضطراب وخيرة، وأنهم بالحلّ والرَّثاء

٣- أدبه. دُوِّن شعر جمعه الألب نوبس شيخو وطمعه في بيروت سنة ١٨٨٧.

٤- شاعر الزَّهد: الموعظة عنده تقوم بتصوير الدُّنْيَا في حقيقة باظها، والتصدّي لمراسي الشائع في حرّاة وعمق نظر وحذل وصديق لهجة، والأحلاق والحكمة يعرضها في معرض دينيٍّ وبماوَل الكشف عن ميول النفس الشرّية في بعض التحليل والنظر الثاقف، وقد عبّر أبو العتاهية عن كلّ ذلك صدق وإخلاص وكان شعره حاملاً بالسَّلامة والعمدة والتَّجسيم والواقعية

٥- شاعر الغزل. عرّفه مزيج من دُشاقة وسلاسة وعدونة

٦- شاعر المدح: مدح تقليديّ مع سهولة وعسوبة قول.

١- تلوّجته:

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العتريّ بالولاء، وقد عرّفَ بأبي العتاهية. وُلِدَ بعين الشَّعر سنة ١٣٠ هـ، ونشأ بالكوفة حيث أُولِعَ باللَّهو والعبث، ثم قال الشعر وإذا شعره من أرفع الشَّعر، فطار له في البلاد صيتٌ، وردّد أقواله الرّائع والمغادي، فقصِدَ بغداد، وانصل بالخليفة المهديّ فلقنيّ لديه حظوة كبيرة، فمدحه ونال برّه، وتعرّف في قصره بحاربة اسمها عتية، وأخذ يُشَبِّب بها في شعره، فعُضِبَ المهديّ لذلك وأمر بسجنه ثم أطلق مراحه. واتصل بالمهديّ ثم بهرون الرّشيد. وأخيراً لبس الصوف وتزهد، وقد يكون صدوقه عن الدُّنْيَا لحيّة لقيها في حبّه لعنة.

عاش أبو العتاهية الى زمن المأمون وامتدحه ثم عاد الى زهده وانقطع عن أصحابه الى أن مرض مرضه الذي توفي فيه ، وكان ذلك نحو سنة ٢١٨هـ / ٨٢٥م

#### ٤ - نفسيته :

نشأ أبو العتاهية في عصر امتاز بالأزمات النفسية والعقلية وظهور موجة من الشك والحيرة كانت نتيجة اختلاط الأجناس والثقافات . وكان الشاعر رفيع المكانة عند الخلفاء ، وفي عهد الرشيد أفلح عن الغزل وانصرف الى الزهد ، فحبسه الرشيد حتى يعود الى الغزل ، ولكن اتجاهه النفسي كان أقوى من أن يقاوم . وإذا كانت له هذه المكانة الاجتماعية راح الكثيرون من الشعراء والأدباء يعملون بعامل الحسد على الخطأ من شأنه . فاتهموه بالبخل والزندقة وسوء العقيدة ، وكتبوا في ذلك الروايات الكثيرة . ويبدو أن أبا العتاهية كان «سوداوي المزاج» ، كثير التردد في أمر الدين ، فتقلب على أطوار شتى — شأن الذين يحلون أنفسهم من قيود الدين ، وينظرون فيه نظر الناقد فاسقتر رأي أبي العتاهية أخيراً على التسلسل بالإسلام والزهد عن الدنيا<sup>١</sup> . وهذا التردد الذي سيطر عليه فترة من الزمن كان ثغرة نفذ منها أعداؤه الى رمية والظعن عليه<sup>٢</sup> . وهكذا ترى الناس مختلفين في زهده ، منهم المنكير ومنهم المصدق .

ومها يكن من أمر فقد مال أبو العتاهية الى الزهد بعد اضطراب وحيرة . قال عبد الحكيم حسبان : «كان حياة أبي العتاهية يمكن أن ترسم على هيئة ذبذبات تتسع وتضيق . وهي في اتساعها تقترب من حدود اليقين أو تجاوزها ، ولكنها تعود سيرتها الأولى من التذبذب والاضطراب حتى انتهى بها الأمر أخيراً الى اجتياز الحد الى منطقة اليقين بصفة نهائية بعد ذبذبات متسعة متلاحقة . وحين اجتاز الاضطراب والحيرة الى اليقين ثبت على يقينه مخلصاً فيه ، وسخر فنه في خدمة حياته الجديدة ، حياته الروحية الموقنة المطمئنة ، فلقى ترحيباً وإعجاباً من العامة والخاصة على السواء وبلغت مواعظه حيث أراد من نفوسهم ، واستنزل بها الدمع من مجاهرهم»<sup>٣</sup> .

١ - جرجي زيدان : تاريخ أدب اللغة العربية - الجزء ٢ ، ص ٦٨ .

٢ - طالع «الصوف في الشعر العربي» ، لعبد الحكيم حسبان ، ص ٢٠٣ .

٣ - نفس المصدر ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

## ٤ أدبه :

لأبي العنانية ديوان في الزهد جمعه في القرن الحادي عشر للميلاد أبو عمر يوسف ابن عبد الله الخري القرطبي ، وله ديوان آخر جمعه الأب لويس شيخو وأضافه إلى الأول وطبعه كاملاً في بيروت سنة ١٨٨٧ . وهكذا في شعر أبي العنانية قسبان : القسم الأكبر يدور على الزهد ، والقسم الآخر منظومات مختلفة في كل فنون المعاني من مدح ، وثناء ، وهجو ، وأوصاف ، وحكم ، وأمثال . وكان أبو العنانية في شعره الرهدي إمام من نظم في هذا الباب وشعره هذا يقوم أساساً على الموعظة وما يتبعها من ذكر الدنيا ، وتقليها ، وسرعة زوالها ، والموت وغصصه ، والآخرة وأحوالها ، وهو يقوم من ناحية ثانية على الأخلاق والحكمة ، وما يتبع ذلك من نظرات في الحياة والناس .

## ٥ شاعر الزهد :

١ - الموعظة عند أبي العنانية تقوم بتصوير الدنيا ووصفها ، وإليك خلاصة آرائه في الموضوع : الدنيا «جمع أماطيل خداعة ، زائلة حافلة بالمكر والخداع ، والألم والحياة والتقلب ، وقد تنفسح أحياناً لشيء من المسرة والمتعة ، إلا أنها لا تَعْمُ أن تهوي بذلك إلى القبر حيث يبلي الفناء والموت بلاءً مُريعاً ، ويكون تشيعها ذريعاً بقدر ما يكون الإنسان محظوظاً في الحياة . ومن أعظم ما يمضى به الإنسان في موته التسيان الذي لا يلبث أن يمحو ذكره من قلوب أقرب الناس إليه حالما يواريه التراب . لها بال الناس يلهون عن هذه الحقائق القاسية ، ويغوصون غمار العيش والمنكرات ، ويسرفون في طلب المال وفي البخل ، ذاهلين عن بطل ما يفعلون ، كأن القبر ليس خاتمة الحياة في نظرهم ، وكأن ليس وراء القبر من حياة . فليرجع الناس لذن إلى نفوسهم ، وليبدوا منها الأوهام والمطامع والرغبات الباطلة ، وليسلکوا سبيل الخير كما جئى معالها الذين ، مزدرين الحياة بما فيها من متعة ومال ، قانعين بما قسم لهم من خير ، مكفئين منه بالضروري اليسير ، متزكّين بما زاد ليشترؤا به أجوراً للأخرة ، فالآخرة وحدها جدرة بالاعتبار ، وخير ما يتزوّد به المرء في سبيلها الزهد والتقوى» .

هذه الآراء كما ترى ردة فعل شديدة لما كان شائعاً في ذلك العصر من تراخي ، ولما كان يدعو الناس إليه أبو نواس من فلسفة المتعة ، وهي مقتبسة من كتب الدين ، ومن

خبرة الحياة ، ومن التأمل في حقائق الموت والزوال . وهي نظرة جريئة صريحة الى الوجود ، ونظرة عميقة لا تخلو من شمول على تقطعها ، ولا تخلو من فلسفة على تناثرها . وقد امتاز فيها أبو العتاهية عن سبقة من شعراء الزهد بأنه أكثر وأطال ، وبأنه فلسفَ الزهد ودعا إليه مبرهنأ ، محاجأ ، محاولاً الإقناع ، في هدوء ، وصدق لهجة وإلحاح . ومن أقواله الماثورة في الموضوع :

دُنْيَاكَ عَرَّازَةٌ فَلَرَهَا      فَلِئِذَا مَرَكَبُ جَمُوحٍ  
دُونَ بُلُوغِ الْجَهُولِ مِنْهَا      مُنَبِّتُهُ نَفْسُهُ تَطِجُ

\* \* \*

رَعِيفٌ خَصِيْرٌ يَأْسُ      تَسْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ  
وَكُورٌ مَاءٌ نَسَارِدُ      تَشْرِبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ  
وَعُرْقَةٌ ضَيِّقَةٌ      بَفْسِكَ فِيهَا خَالِيَةٌ  
أَوْ مَسْجِدٌ يَسْمَعُ زِلْ      عَنِ الْوَرَى فِي نَاحِيَةٍ  
خَيْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ فِي      فِيهِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ

٢ والأخلاق والحكمة يعرضها أبو العتاهية في معرض ديني ، فيوصي بطاعة الله وتقواه ، ويحث على الصبر والصدق والرفق والقناعة . وقد تكرر له خطرات يدخل فيها الى أعماق النفس البشرية ويحاول الكشف عن ميولها في بعض التحليل والنظر الثاقب ، قال :

أَرَى عَمِييَ لِلشَّرِّ مِنِّي بِشَهْوَةٍ      وَلَسْتُ أَرُومُ الْخَيْرَ إِلَّا تَكْرَهًُا

\* \* \*

لِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ : نَفْسٌ كَرِيمَةٌ      وَأُخْرَى بُعَاصِيهَا الْفَتَى وَيُطْعِمُهَا

وهكذا فقد عبر أبو العتاهية عن تجربة روحية صادقة .

وإنَّ من أجال النظر في شعره وجدده مؤثراً ، على ما فيه من إغراق في التشاؤم ، وعلى ما فيه من أكمداد آفاق وآر يبداد أجواء . وقد استطاع الشاعر أن يخوض موضوعه

الجاف في سلاسة وعدوبة ، وفي سهولة كلام راتمة ، وفي توشية لأقواله بألوان وصور هي عصارة الفن والجمال . واستطاع أن يجسم الفكرة ويرسلها مدموسة في واقعية قاسية ، تخاطب العقل والقلب وتهزها هزاً عنيفاً .

وهكذا كان أبو العتاهية زعيم الشعر الزهدي عند العرب .

٣ أبو العتاهية من زهده : يتجلى لنا أبو العتاهية من زهدياته رجلاً ميالاً الى الزهد ، عاكفاً عليه بكل جوارحه . لقد عرف من الحياة حلوها ومرها ، ورأى أن طيباتها لا تلوم . وقد خبر القلوب فوجدتها قلوباً تنقلب مع كل حال ، وتدور مع كل هوى ، وخبر الناس فوجدتهم أتباع منافعهم ورغباتهم ، فصدف عن الدنيا وترهاتها ، وراح في صفوف الشر رسول حير ولسان موعظة وعبرة ، بل راح فيلسوف زاهد يعمل ويقول . وربما كان في قوله بعض الأثرة ، ذلك أنه في عصر الفسق . وزمان الانحطاط الأخلاقي . أراد أن يكون صوتاً ناثراً يلفت أنظار رجال الدين وأصحاب التزمت ويبي من وراء قوله قسراً من الشهرة وحسن النظر . ثم إن أبا العتاهية قد تردد أحياناً بين الغزل والزهد ، وكان ذا شخصية ضعيفة متذبذبة لضعف في إرادته وخوف في همته . وعلى كل حال فقد نصب نفسه للهداية وكان عمله جليلاً .

٤ - قيمة زهده . أظهر أبو العتاهية في زهدياته ازدياداً للحياة جساماً ، وقد لفتها بغشاء كالح السواد من شأنه أن يبعث على اليأس والقنوط ، إلا أنه على تشاؤمه ، قد أسدى الى الناس نصيحاً ذا قيمة حقيقية ، ووجه كلامه الى عقولهم مقدماً لها البراهين والحجج ، غير مكثف بأساليب الأتلمين الاختبارية ، فهو في عصر فلسفة وتفكير ، وهو في عصر علم وجدك ، وهو في عصر نصب فيه للعقل عرش رفيع . وقد استقى أفكاره من الكتب الدينية ونظريات الفلاسفة كما استقاها من عالم التجربة والاختبار . وراح يدعو الى القناعة لأن الدنيا دار فناء ، والآخرة حير منها ، فما يبني يبني للمخراب ، ومن يولد يولد لموت ، وما يجمع يجمع للتفريق ، وما يعتنى به من أمر الجسد آخرته الفناء ، وما يضحك لا يضحك إلا ليبيكي ، فعلى الإنسان أن يعيش كمن سيموت ، يكتفي بالضروري ، ويتسلح بالقوى ، وهكذا يتأهب للآخرة ، ويذخر لنفسه أجراً عند الله .

وأسلوب أبي العتاهية في زهدياته هو أسلوبه في أكثر شعره ، هو سهولة وسلاسة وانسجام ، وهو عذوبة وموسيقى ساحرة ، وهو تَجَرُّ وطبيعة ، وهو تدفق شاعرية . وانطلاق خيال ، وليس هنالك من غثائفة أو برودة أو جفاف كما نجد ذلك في الشعر التعليلي عامة ، وكما كان يُنظر من شاعر كتب الكثير في هذا الباب . وقد مزج أبو العتاهية زهده بشيء من العاطفة العميقة التي تُدغدغ أوتار النفس وتترك في علمها صدى بعيداً ، وهكذا كان أبو العتاهية مُجَلِّداً في باب الزهد إذ فلسفه وصاغه بـ **قالب سهل ممتع** .

#### ٥ - شاعر الغزل :

في غزل أبي العتاهية عاطفة عميقة متألة ، ولهجة يظهر فيها الضعف الإنساني بجلاء ، وكأنني بتلك النفس قد فقدت مناعتها وأصبحت أسيرة حب لا تجد منه إلا المأ وحرماناً .

أَحْمَدُ قَالِ لِي ، وَلَمْ يَذَرْ مَا لِي      أَتَجِبُ ، الْفِدَاةَ ، عَتَبَةَ حَقًّا ؟  
فَتَنَفَّسْتُ ، ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ حُ      بَيَّا جَرَى فِي الرَّوْقِ عِرْقًا قَيْرَقَا  
لَوْ تَجَسَّسِينَ بِأَعْتَبَةِ قَلْبِي      لَوَجَدْتِ الْفُؤَادَ قَرَحًا تَقَفًّا  
قَدْ لَعَمَرِي مَلَّ الطَّيِّبُ وَمَنْ أَل      أَهْلُ مِثْنِي مِمَّا أَقَاسِي وَالْقَى  
لَيْسَنِي مَتُّ فَمَا سَتَرَحْتُ فَلَنِي      أَبَدًا مَا حَيْثُ مِنْهَا مَلْفَى

وغزل أبي العتاهية هو مزيج من وشاقة وسلاسة وعذوبة ، هو النفس الضعيفة الحساسة التي تُصعدُ الزفرات والآهات في لوحة ، وكأنني بشعرها يسيل سيلان الماء الصافي على حصباء نقية فيسمع له خمر هو أقرب إلى المناغاة والمناجاة منه إلى أي صوت مادي ، وهو حفيف الضلوع مرددة نبضات قلب ناعمة ، ووسوسات نفس أرق من النسيم .

#### ٦ - شاعر المدح :

كان مدح أبي العتاهية للتكسب أكثر مما كان إرضاء للعاطفة ، وكان تظليلياً أكثر

مما كان تجديدياً ، ولكن الشاعر أخرج في أسلوبه السهل وعذوبته المهدودة وخرج في هذه الناحية عن عادة من سبقه ، وكان مجدداً حيث درج على أساليب التقليد . وشأنه في رثائه شأنه في مدحه ، وليس الرثاء إلا ملحقاً لميت واعتبارات عامة تدخل في باب الزهد .

وقد عالج أبو العتاهية غير الأبواب المذكورة كالعتاب والهجاء وما الى ذلك ، وكان ابداً شاعر الحكمة التي لا تنضب ، وشاعر السلاسة التي لا يحدها حد ، وشاعر العذوبة التي لا يجف لها معين .

• • •

## مصادر ومراجع

- محمد أحمد برائق : أبو العتاهية القاهرة ١٩٤٧ .  
 عد التتاع الصميدى . شاعرا العالمى أبو العتاهية ، الرسالة ٣ (١٩٣٥) ص ٦٦٥ ، ٧٤٤ ، ٩٠٢ ، ٩٨٦ ، ١٠٦٤ ، ١١٤٣ ، ١٣١٠ ، ١٣٨٨ ، ١٤٢٢ ، ١٥٠٥ ، ١٦٦٣ ، ١٧٤٥ .  
 عبد اللطيف شرارة : أبو العتاهية — بيروت ١٩٦٢ .  
 عبد الحكيم حسن : التصوف في الشعر العربى ١٩٥٤ .  
 عبد الحليم عباس : أبو العتاهية - الرسالة ٥٧ : ١٣٠٦  
 جرحى زيدى : أبو العتاهية — اعلان ١٣ : ١٣٢ .



## ابن المعتز

(٢٤٧ هـ / ٢٩٦ م - ٨٦١ هـ / ٩٠٨ م)

١ - تاريخه: وُلد في سامراء سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م، وشأ في صحة العلماء والأدباء، تولى الخلافة يوماً ليلة، وقتل سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م

٢ - ألقبه: له ديوان فيه وصف وحمر ومطرّد وعزل، كما له كتاب «النج»

٣ - قيمة شعره

١ - شعره مزيج من قديم وجديد.

٢ - له أُرجوزان، إحداهما طويلة تشبه الملاحم تناول فيه تاريخ المعتضد.

٣ - شعره شعر التصحرّ الطليحي والطفائيّة الحياتيّة في غير تكسّب ولا ترلّف

٤ - وشعره شعر الرثية المصوّرة، وأحيان المرنّ الحلق، والدوق المروّق.

٥ - وشعره صيغة فلسفائيّة دقيقة تبرز فيه تشبيه مبتكرة. إنّه من أروع الشعر العربي قُماً، وطبيعة، وسلاسة، وعدولة. انه شعر الطبيعة والحب واحمال

١ - تاريخه.

هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل. وُلد في بيت الخلافة بسامراء سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م، ونشأ مكبّاً على علوم الدين واللغة والأدب يأخذها عن الأئمة من مثل أبي العباس المبرّد وأبي العباس ثعلب، ونظم الشعر منذ أوّل عهد شبابه. وقد عاصر بعد مقتل أبيه أربعة من الخلفاء العباسيّين هم: المهتدي والمعتضد والمعتضد والمكثني. ولما مات المكثني (٢٩٥ هـ - ٩٠٨ م) ولّى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده، وكان طفلاً، فنشبت ثورة في بغداد انتهت بخلع المقتدر وتولية ابن المعتز الخلافة سنة ٩٠٨ م. فلم يمكث فيها إلا ليلة واحدة قُتل على أثرها. قتله أنصار المقتدر، وذلك سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م بعد حياة مليئة بالتؤف والمجون والإباحة وشرب الخمر

## ٤ أدبه :

لابن المعتز ديوان شعر طبع في مصر سنة ١٨٩١ ، ثم في بيروت سنة ١٩١٣ ثم سنة ١٩٦١ وفيه وصف وخمر وطرد وغزل ومديح وتهاني وهجاء وذم وما الى ذلك . وفي سنة ١٩٣٦ نشر المستشرق ج. هيورث دان J. Heyworth Dunne في لندن كتاب « أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم » وفيه طائفة كبيرة من شعر ابن المعتز وله أيضاً كتاب « البديع » الذي عدّد فيه شتى أساليب البديع ومحاسن الشعر وكان فيه من أركان التقدير عند العرب ، وقد طبع في مصر سنة ١٩٤٥ ، وكتاب « طبقات الشعراء » الذي طبع في أوربة سنة ١٩٤٢ .

## ٣ قيمة شعره :

١ - شعر ابن المعتز هو شعر النفس الملكية التي امتلأت عياها وقلها بالأبجد ، كما امتلأت بالمظاهر الحضارية المترفّة ، والزخارف البلاطية البراقة ، وراحت تجمع ما بين الثقافة العربية التي استقنتها من بتاييعها الصّافية ، والتيارات الجديدة التي عصمت بالحياة العباسية ، وإذا لدينا شعر فيه أثر امرئ القيس شاعر الديار الحالية والفرس ، وأثر الأخطل شاعر الكرمة والزقاق ، وأثر أبي نواس شاعر الحمرة والطرّد ، وفيه موق ذلك كله أثر الحياة المترفّة تلتقي على اللفظة والعبارة بريقها وألقها ، وإذا أمامك مزيج غريب طريف من قديم قديم في لباس أجده من الحليد .

٢ - وفي ديوان ابن المعتز أروع زقان ضمن الأولى منها - وهي من نحو ٤٢٠ بيتاً - تاريخ الخليفة المعتضد ، وضمت الثانية ذمّاً للصّبح وكثيراً من الدّعابة والمرل . وقد درج في الأولى على الأسلوب الذي اعتمده الفردوسي من بعده بقليل في الشّاهامة ملحمة الفرس .

٣ - وشعر ابن المعتز هو شعر التفجّر الطّبيعي الذي لا يبتعثه تكسّب ولا ترلّف ولا طمع ؛ هو شعر الثقافية الحيّاتية التي نجلت فيها شخصيّة الشاعر وطبيعته فكان بعيداً عن التّويه والمداورة .

٤ . وشعر ابن المعتز شعر الرِّيشة المصوّرة ، والخيال الملّون الخلاق . والذوق الموزّق ، في أناقة ملكيّة ، تتألّق فيها مصابيح الأنوار ، ويعبّق فيها أريج الأطباء والأزهار ، تترقق فيها الخمور المعتّقة على نغمتي المغنّين والمغنّيات وبين تأوهات الأوتار والنايات .

٥ . وشعر ابن المعتز إلى ذلك صنعة فسيّساية دقيقة تبرز فيها تشابهه المبكرة الجميلة ، في تعبيرات حافلة بالرشاقة ، وفي تأني يعدها عن الروح بقدر ما يزعجها في المادّة ، ويروّعك بدقّة الملاحظة فيه بقدر ما يصمّتك بالصورة الخلابة . من قوله في الضّاح :

كأنّنا الشّفاخُ لَمّا بدا      يرْقُلُ في آتوابِ الحُمرِ  
شهُدُ بِماءِ الوَرْدِ مُسَوِّدُ      في أَكْرِ مِنْ جَامِدِ الحَمْرِ

وقال وفي قوله كثير من التشخيص وعمق التخيّل :

وَبِرَكَمِهِ تَزْهُو بِسَيْلُوفَرٍ      ألوانُهُ بِأَلْحُسْنِ مَسْعُوتَةٍ  
نَهَارُهُ يَنْظُرُ مِنْ مُقَلَّةٍ      شاخِصَةِ الْأَحْمَانِ مَبْهُوتَةٍ  
كَأَنَّهَا كُلُّ قَضِيبٍ لَهُ      يَحْصِلُ فِي أَعْلَاهُ بِاقُوتَةٍ

\* \* \*

ابن المعتز من جماعة التجديد وإن تأخّر زمانه عن زمان بشار وأبي العتاهية وغيرهم ، وشعره من أروع الشعر العربي فنّاً ، وطبيّة ، وملاسةً ، وعذوبة . وقد تتبّع أسلوب أبي نواس في خمره وعزّله . وجعل للطبيعة محلاً واسعاً في مجل شعره ، فكان شاعر الطبيعة وشاعر الحبّ والجمال ، وكان شاعر الوصف على كل حال . وقد خلع على وصفه رداء رائعاً من التشبيهات والصور المبكرة والخرق الزاهي الألوان ، وكان في وصفه واقعياً ، شديد التشخيص ، دقيق الملاحظة

## مصادر ومراجع

- محمد عبد المنعم خلفاوي :  
 - ابن المعتز وتراثه في الأدب والفقه والبيان القاهرة ١٩٤٩ .  
 - التشبيه في شعر ابن المعتز وابن الرومي — القاهرة .  
 عبد العزيز سيّد الأهل : عبدالله بن المعتز — بيروت ١٩٥١ .  
 طه حسين : من حديث الشعر والنثر — بيروت — طبعة دار الكتاب اللبناني .  
 شوقي صيف : الفن ومفاهيمه في الشعر العربي - القاهرة  
 عبد الوهّاب عزّام . بين ابن المعتز وابن المَعزّ — محلّة الثقافة ١٣٨ : ١٠٨٣ .  
 محمّد الرسالة ابن المعتز الخليفة العبّاسي ٤ : ٨٣٦ .



## الفصل الثالث النُيوكلاسيكية الشعرية أو الاتباعية الجديدة

١. عودة الى الرسميات والتقليد :

شهدنا في أواخر العهد الأمويّ خروج شعراء الغزل عن عمود الشعر الجاهليّ عندما تناولوا المقدّمة الغزليّة التي كانت في افتتاح القصائد ، وعالجوها تطويراً وتمصيلاً حتى أصبحت قصيدة مستقلة ، وقد شجّع ذلك شعراء العهد العباسيّ الأوّل على القيام بثورتهم التجديديّة ، وإن بقيت تلك الثورة محدودة كما رأينا ، وأيقظ الفتنه التي سترافق الأدب العربي على مرّ العصور أعني بها الصّراع بين القديم والجديد . وبعد العاصفة التي هبّت في مطلع حكم بني العباس والتي لم تستطع أن تقطع الذهنيّة القديمة ولا أن تصل الى مقومات القصيدة والوزن والقافية ، والتي اكتفت بمعالجة بعض الموضوعات التي جعلها الأقدمون أو التي عالجوها عرضاً وفي غير توقّف كموضوعات الغزل والحمر والطرد والفلسفة والزهد ، بعد تلك العاصفة أخذت افراخ بالتوجه الى عمود الشعر القديم ، والصبو الى الأساليب الكلاسيكية ، ولكنّها لم تنسّ أنها في عهد الانقلاب العباسيّ ، وأنها في غمرة الحضارة الجديدة ، وفي اطلاق الحياة الجديدة ، وهكذا كانت النيوكلاسيكية الشعرية التي عادت معها القصيدة الى رسميتها مع شيء من التلين وكثير من التزيين ؛ وهكذا منذ أواسط القرن التاسع تمت السيطرة لمدسة القديمة المتجددة ، وعاد التقليد الى الواحة ، وكاد وهج الشعورية يجمد ، وقام التزويق البلاغيّ مقام الحركة الثورية ، وعاد الشعر العربيّ الى قفصيه الذهبيّ ، وإلى أرسطراطيته الثليدة . وغاضت مياه الشخصيّة في القصيدة ولم تعد الى التفجر إلا في عهد النهضة الحديثة ، بعدما احتكّ العرب بالحضارات والآداب العالميّة الحديثة ممّا لم

يُتَح لهم في عهد بني العباس عندما أُغرموا بترجمة الفلسفة والعلوم والفنون دون الآداب اليونانية وهكذا تطور النثر العربي تطوراً شديداً بخلاف الشعر الذي حتى عليه الصولجان والدرهم ودهنية التقليد.

## ٢ - سيطرة المدح :

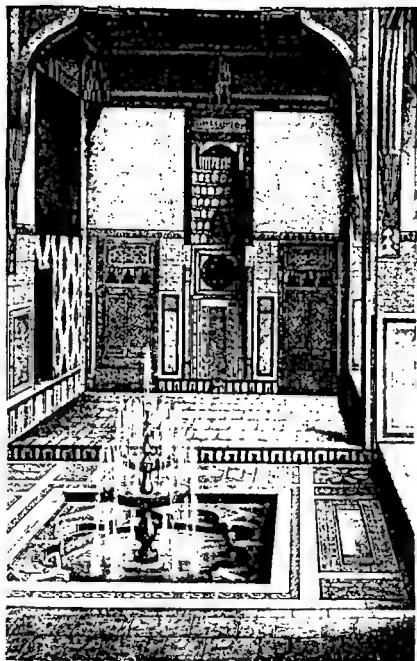
إنه لمن الجدير بنا أن نسمي الشعر الذي قيل في مدح العظماء شعراً رسمياً ، فهو يندرج في فلك هؤلاء العظماء ، ويتحارب ويمولهم ونزعاتهم ، ويدغدغ كبرياءهم ، وإن لم يهتم بشديد الاهتمام لسياساتهم .

وقد أكثر الشعراء العباسيون من شعر المديح لكثراً ليس بعده لكثارة ، واحتشدوا حول الملوك والأمراء احتشاداً شديداً ، يستندون أكتفهم ، ويستميحون ميلهم الى الظهور بمظهر العظمة والجلال وذلك رغبة في التزيد حيناً ، وخشية الفقر والبؤس حيناً آخر ، يحفزهم الإنفاق في ترف العيش حيناً ، ويدفعهم طلب المجد والجاه حيناً آخر . وقد تقلبوا مع الحياة العباسية في شتى ملامساتها ، فتقلقوا بين العواصم والحواسر وتحلقوا حول اللواتد والعروش ، وباعوا الشعر في أسواق المديح ، فإن كان له رواج زادوا منه وأكثروا ، وإن كسد وانحط شأنه تراجع منهم الطبع وقل الإنتاج<sup>١</sup> ، وقد عرضنا لذلك كله فيما سبق .

واشتهر في العهد العباسي عدد كبير من شعراء المدح على رأسهم أبو تمام والبحري والمتنبي . أما أبو تمام فقد صرف أكثر همته الى التكسب ، فمدح المأمون والمعتصم والواقع والحسن بن سهل وأحمد بن أبي دؤاد وغيرهم . وكان في مدحه جليل التعبير والتصوير . شديد الميل الى الصناعة البيعية وإلى ابتكار الصور ، شديد التسلسل المنطقي في بناء قصائده والجدير بالذكر أن أبا تمام عمل على تطوير الأسلوب المدحي ، فمالح الاستهلال وكثيراً ما جعله معرضاً من معارض الحكمة ، وعالج المعاني فغاص عليها في الأغوار حتى اشتد غموضها وصعب الوصول الى دقاتها

وأما أبو الطيّب المتنبي فكان سيّله في المدح سبيل أي تمام ، وأما البحتري فقد نهج في شعره منهج الأقدمين ، وسار على خطّهم في الملح ، واكتفى بالمعاني العادية المكرورة ؛ وروعة مدائمه في جمال تصويره ، وصفاء ديباجته ، وموسيقى ألفاظه وقوافيه . ولهذا كلّ في الصفحات التالية إيضاح وتفصيل .







## أبو تمام

(١٨٠ - ٢٢٨ هـ / ٧٩٦ - ٨٤٣ م)

- ١ تاريخه : وُلد حبيب بن أوس المعروف بأبي تمام في حاسم سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ونشأ في دمشق انتفى الشاعر ذلك الفن في حمص . ثم انتقل إلى مصر فعدد حيث اتصل بالخصم وأصبح شاعر بلاطه ورفقه في عروته توفي في ٢٢٨ هـ / ٨٤٣ م .
- ٢ - شخصيته : أبو تمام رجل الإعلاات الشسنة ، والمعموان للطنوح ، ولاعتداد بالنفس وهو ( حل العقل المتقف ، والخيال الغني الخمار ، والتفكير العميق ، والافتراة المفكرة ، ورحن التقايد الكلاسيكي العاقل ، ورجل التدبیر غير المترنم .
- ٣ أدبه . له ديوان فيه شتى الأعراض الشعرية ، وكتاب والماسة وهو مختارات من أشعار العرب العرباء .
- ٤ شاعر المدح مدحه شديد المعاني والأسلوب يخلط بالصنف المخار ، والزخارف البائية والديمية ولاسيا بلباس والصباق ، كما يخلط بالاغراب والتقليد والصموصا ولهجة أبي تمام فيه منكية راسعقرية ، وبرعته في وصف القتال منحمية ؛ ولكن أسف أعباءا فإنه قد امتنع أن يكون شاعر الحب العميق ، والصورة المنهشة ، والسحر لصاعق .
- ٥ شاعر الرثاء : لأبي تمام رثاء عاطفي صادق في ذويه وأصدقائه ، ورثاء محاسة في غيرهم من الناس .
- ٦ سائر فنون أبي تمام مقطوعات عربية صادقة وعذبة ، ورجوزات رفيعة والمطامير ووصف دقيق الملاحظة عميق التحليل
- ٧ أبو تمام الشاعر : عبقريته شعرية فريدة ، وثقافته واسعة وعقل غواص ، وصحة عقلية وعموية

### ١. تاريخه :

هو حبيب بن أوس الطائي . المعروف بأبي تمام . وُلد في قرية حاسم بحوران سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م . ونشأ في دمشق يعمل عند حائك ، ثم انتقل إلى حمص حيث نظم قصائده الأولى وحيث صادف الشاعر ذلك ابن ( ٧٧٧ - ٨٤٩ م ) ، وأخذ عنه بعض أساليبه . ولاسيما في ما هو من الصناعة اللفظية ، ثم انتقل إلى مصر حيث تردد

الى حلقات الأدب والعلم ينهل منها ما شاء له الحظ أن ينهل ، ثم ضاقت به الحال في مصر فانتقل الى الحجاز فأزمينية وفارس وجال فيها من غير ما كبير جدوى ومن غير أن يتال بشعره ما كان يصبو إليه من سعة العيش . وأخيراً سمع به المعتصم فاستقدمه وجعله شاعر بلاطه واصطحبه في حملته الموفقة على عمورية . وبعد ذلك عاد الشاعر الى الضرب في البلاد والاتصال بأرباب السلطان ، تنتقل من مكان الى مكان حتى بلغ الموصل ولقي إكراماً خاصاً لدى الحسن بن وهب كاتب ابن الزيات ، الذي أقر له مقاماً في الموصل وولاه على بريدها ، وقد لبث أبو تمام على ذلك سنتين توفي على أثرهما سنة ٢٢٨هـ / ٨٤٣م .

#### ٢ — شخصيته :

يدو لنا أبو تمام رجل الانفعالات الشديدة الذي تعصف به العاطفة فنخرجه عن نطاق الاتزان الفكري والتعبري فيطلق في أجواء عبقريته تدفعه طبيعته القياضة ، فيجوس آفاقاً واسعة وريعية ، ثم يهبط في انحدار شيع ، وهو في سورة صَحْفِهِ يَنْتَرَى تَنْزِيَاتِ عَفْوَانٍ ، وَتَنْزِيَاتِ اعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ وَطُمُوح . إنه الرجل الذي يريد من الحياة أكثر مما تريد له ، والذي يطمع في العظمة والجاه أكثر مما قَدَّرَ له ، ويرى في نفسه من المقدرة والطاقة ما يبعث فيه الثقة بالنفس والتطاول على الغير .

وهو الى ذلك رجل العقل الذي جمع من ثقافة العصر ، وحكمة اليونان والفرس ، ما لم يصل إليه أكثر شعراء عصره ؛ ورجل الخيال العنيف والجبار الذي يستطيع بشطحة قلم أن يرفع أمامك عوالم قَلْبًا بطمح إليها غيره ؛ ورجل التفكير العميق الذي تصادم عنده الأفكار في قوقعة مؤثرة ؛ ورجل الانفرادية الفكرية الذي تبلغ به الانفرادية حد الشذوذ ؛ ورجل التقليد العربي الذي لا يحول تقليده دون الافتتاحات الفلسفية أو دون مباشرة الموضوع في بعض قصائده بغير مقدمات .

وهو رجل الدين ورجل القومية ، ولكن عصبية الدين لا تحول دون تكالبه على من الحياة والإغراق في تطلُّب لهُوْها ، وعصبية القومية لا تقف عند حد التماخر والتناهي بل تتجاوزها الى حد التشفي القبيح البعيد عن كل إنسانية .

### ٣ أدبه :

١ الديوان . لأبي تمام ديوان طُبع في مصر وفي بيروت ، وفي بيروت طُبع مرة بإشراف شاهين عطية ، ومرة بإشراف عبيد الدين الحياط ، وهو مقسم سبعة أقسام : المديح — الهجاء — المعانيات — الأوصاف — الفخر — الغزل — المراثي .

٢ ديوان الحماسة أو حماسة أبي تمام . هو مختارات جمعها أبو تمام من أشعار العرب العرباء ورتبها على عشرة أبواب أهمها . الحماسة — المراثي — الأدب — النسيب — الهجاء — الصفات — المُلح — مدمة النساء . وقد طبع الكتاب مراراً في الهند ومصر . وللحماسة شرح مشهور وضعه الشيخ أبو زكريا التبريزي ، طبع مراراً مع الديوان وتُرجم إلى الألمانية .

### ٤ — أبو تمام شاعر المدح :

١ معظم شعر أبي تمام في المدح لأنه كان من الشعراء المتكسبين ، مدح في مصر عيَّاش بن لهيعة وإذ لم يظفر منه بكبير طائل هجاء ، ومدح في الشام أبا المغيث موسى الرافعي فلم يجد لديه الخطوة التي كان يبتغيها ، وراح يضرب في البلاد ويمدح كلَّ عظيم وكنَّ ذي نفوذ ، ولم تقبل عليه الدنيا إلا عندما اتصل بالمعتصم وأصبح شاعر بلاطه ورفيقه في غزواته . وهكذا فقد مدح أبو تمام أكثر من ستين شخصاً لطمعه في المال والشهرة ، وقد تحققت آماله بعد صبر طويل وسعي عنيد .

٢ معاني مدح أبي تمام هي المعاني التقليدية مضخمة ، هي تلك التي تعود الشعراء أن ينعثوا بها المملوحين ، والتي كان المندوحون يرتاحون إليها وتطيب نفوسهم بها ، وهي التي كانت تنفذ إلى النفوس والجيوب . وتعمد للشاعر طريق الثروة والحبوكة . أعني بها معاني الشجاعة والإقدام ، وحسن البصيرة والقفطة ، وبعد النظر في الناس وفي الأمور ، والسيطرة على العدو والفتك بكلَّ عنيد جبار ، والإخلاص لدين وأبائه ، والإتيان بالجليل من الأعمال ، والسمو إلى كلِّ رفيع ومُعالي ، وخصوصاً معاني الكرم والجود :

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيْ النَّوَاحِي أُثْبِتَتْ فَلَسَجَتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاجِلُهُ  
تَعَوَّدَ نَسَطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ تَنَاهَا لِقَبْضِي لَمْ تُطْعَمَ أَنَامِلُهُ

٣ - كثيراً ما يجري أبو تمام في مدحه على أسلوب الأقدمين، وقد يعدل عنه فيفتتح القصيدة بحكمة عميقة، أو يقول يتصل بعلوم عصره كما فعل في بائته التي نكلم فيها على فتح عمورية ورأى في افتتاحها أن السيف أصدق أنباء من كتب المنجمين. وقد يباشر موضوعه مباشرة أحياناً في غير مقدمات ولا مبهّدات. قال عندما قتل المعتصم الأسفين وأحرقه لظهور خيانه وبجوسيته بعد أن أظهر الإسلام:

أَلْحَقْ أَتَبَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ

٤ - مدح أي تمام صحاب، هذا ركب البحور الطويلة التي تيسر للمعاني الجليلة والمواقف الملحمية، فتدفع الأبيات في زخم حياش، وتدفع الصور بخلفها خيال جبار تستهويه الصور القوية التي تسيّر بسمة الإغراب، فيركبها بعضها في بعض، ويلونها بألوان متصافية، متباينة، متفارقة، ويزج فيها من الزخارف البائية والبدعية كل ما يزيد لها قوة وبروز خطوط، ويختار لها من القوافي ما هو كالسهم طعناً ووقفاً، حتى لكأنه يكتب بنفسه وعُفوانه وجيشان عواطفه.

٥ - وأبو تمام مُسْرِفٌ في تعمّد الحساس والبطاق يجد فيها رياضته الفلسفية والشعرية، ويجد فيها صدى لما في خلقه من تطلّب للغريب، وما فيه من ميل إلى التّعقيد والتأثير عن طريق الأصداء المتوافقة أو المتفارقة، قال:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

٦ - وأبو تمام مفرغ كذلك بالإغراب الفكرية والتعبيرية، وسواء عنده فهم القارئ أم لم يفهم. يهّمه أن يلبي حاجة نفسه إلى الصنعة العقلية التي تسم شعره بسمة الغموض والتعقيد.

٧ - وفي مدح أبي تمام لهجة ملكية أوسطقراطية تسير في حلال ورواق، كما فيه نوعة ملحمة من جرأ وصف المعارك ومواقف القتال، والتعظيم والتضخيم، والتشخيص. وبث الحياة في كل شيء.

٨ - وأتينا إذا ألقينا نظرة على بائية أبي تمام في مدح المعتصم وفتح عمورية وجدنا أن القصيدة مزيج من فن غنائي وفن ملحمي. أما الغنائية في التعبير عن شئ عواطف الشاعر من حاسة نجيش في كل سطر وكل عبارة ، الى إيمان بقوة السلاح ، الى نشوة الانتصار في عمورية ، الى إعجاب بال خليفة ، الى غير ذلك مما يتسم بسمة العصف الشديد ، والحيوية التي لا تخلو من عنف. وأما الملحمية في ذكر الأسلحة ووصفها ، وفي وصف القتال وإحراق عمورية ، وفي سرد أخبار المعتصم الحربية ، وفي المغالاة الأسطورية ، والموسيقى الشديدة الوقع التي تتصاعد من وزن القصيدة وقاقيتها ، وأخيراً في الروح القومية التي تعلي شأن العرب وتحط من قدر الروم البيزنطيين.

وفي القصيدة توابط فكري هو ثمرة الحياة العباسية التي زخر جوها بالعلم والفلسفة ، فالشاعر يفتح قصيدته بمقارنة بين السلاح والتنجيم ، ويجعل السلاح طريق الانتصار ، ثم يجعل فتح عمورية برهاناً على صحة نظريته فيصف ذلك الفتح ، ثم ينتقل الى الخليفة الذي قام بذلك الفتح وبطرائ شجاعته وبطولته وهكذا تلمس في القصيدة بناءً منلاحم الأجزاء.

وفي القصيدة خيال عجيب المقدرة على خلق الصورة ، وتركيبها تركيباً حافلاً بالتصديق ، وأبو تمام شديد الاعتداد على الصور للتعبير عن معانيه ، يسكب عليها من انفعاله النفسي حياة وحركة ، وهو لا يرضى بالطبع معيماً وحيداً لقنّه وشعره ، بل يعمد الى التهذيب والتخفيف ويؤمن في ذلك إيماناً حتى لتحسب أن أيدته مصوغة صياغة صنعة فيها كثير من التعمّل ، وطلب الغريب في التصوّر والتخيّل. ولئن أسف أبو تمام أحياناً في تعمته فهو ولا شك شاعر التحليق والتلويم ، ولشعره قوة وشدة أسر مريدان.

#### ٥ أبو تمام شاعر الرثاء :

لأبي تمام نوعان من الرثاء : رثاء تفجع وألم يقوله في دويه وأصدقائه المتوفين ؛ ورثاء بمعاملة يقوله في غيرهم من الناس. أما الأول فيكشف لنا عن عاطفة صادقة وعبيقة ، وعن قلب رقيق ، عند رجل عانى القوة ، وتسلح بالعنفوان ، ودوى صوته عالياً في البلاط يطرب الشجاعة والصلابة ومواقف العنف. وأما الثاني فيكشف عن

روح التلقّي والمالأة أو التكسّب ، وهي روح بعيدة عن الصّفاء وشعرها بعيد عن الفنّ الحقيقيّ والغنائية النابعة من العمق الحيّاتيّ. وفيما نرى الشاعر في هذا النوع الثاني يتخذ الصناعة اللفظيّة أسلوباً ، والتضخيم والمغالاة مذهباً ، معتمداً الآراء العامّة والاعتبارات التي تنوب عن المشاركة الحقيقيّة في اللوعة ، نراه في النوع الأول يلدوب أسي ويتحوّل عنفه فيه الى بأس من الحياة والى المحطام مريع ، ويتحوّل تعقيد الشعرى وتصنعه الى انسكاب حافل بالسّلاسة وشديد التأثير :

بُسَيّ ، يَا وَاحِدَ السَّيِّئَاتِ	عَادَرْتَنِي مُفْرَداً حَزِينَا
هَوْنٌ رُذِي بِكَ الرِّزَايَا ،	عَلَيّ ، فِي النَّاسِ أَجْمَعِينَا ...
تَصَرَّفَ الدَّهْرُ بِي صُرُوفاً	وَعَادَ لِي شَأْنُهُ شُؤُونَا
أَصَابَ مِنِّي صَمِيمٌ قَلْبِي	وَحِفْتُ أَنْ يَقْطَعَ الزَّيْتَانَا

٦ - سائر فنون أبي تمام :

لأبي تمام ، فضلاً عن المدح والثناء ، مقطوعات غزليّة تختلف شديد الاختلاف عن الانتاحيات التقليديّة ، وتتماز برقّة العاطفة ، وصدق الانفعال ، وعذوبة الكلام ؛ وله إخوانيّات عبّر فيها عن أهميّة الصّدّاقة وعن الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها الصّدّيق ، وعن أثر الحبّ الأوّل في نفس الإنسان ، وذلك في كلام لا تكاد تصدّق أنه لأبي تمام .

نَقْلُ قُودَاكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

وله أيضاً وصف يمتاز بدقّة الملاحظة ، وبعمق التحليل ، ويتجلّى فيه نزعة الشاعر الى التنسيق واعتماد المحسنات البيانيّة والبديعيّة .

٧- أبو تمام الشاعر :

١ - أوتي أبو تمام عبقرية شعرية فريدة ، يرفدها خيال واسع الآفاق عجيب الشطحات ، يسمو سموً بعيد المدى ، ويأتي بالعجيب من الصور والألوان .

٢ - وأبو تمام رجل ثقافة وعقل ومعرفة توفر على المعاني ، وراح يقتنصها من أعماق أعماقها ، ويرسها بعيدة النور . جليلة القدر ، كما يرسلها أحياناً حكماً للهداية ضمنها نظرات قيمة في النفس والحياة فعرف بشاعر المعاني ،

٣ - وهو شاعر صناعة لفظية ومعنوية بنغ به التصنيع حد الإسراف في الزخرفة والتعقيد والإغراب ، بل حد التسف والسماجة أحياناً .

٤ - وهكذا كان أبو تمام رجل العبقرية الشعرية الخصبة ، ورجل الشعر العالي والأدب الرفيع .



## مصادر ومراجع

- محيب البهيتي : أبو تمام الطائي ، حياته وحياة شعره — القاهرة ١٩٤٥ .  
 أدبية فارس الرثاء بين أبي تمام والبحري والمتنبي دمشق ١٩٣٣ .  
 محمد صبيح : ديوان أبي تمام مع مقدمة لعبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى - مصر ١٩٤٢ .  
 الآمدي . موازنة بين أبي تمام والبحري — بيروت ١٩١٣  
 محمد طاهر الجبلاوي : الكلام في شعر البحري وأبي تمام - مصر ١٩٤٨  
 أبو بكر الصوفي : أخبار أبي تمام — القاهرة ١٩٣٧ .  
 طه حسين : من حديث الشعر والنثر طبعة دار الكتاب اللبناني — بيروت .  
 مارون عبود الرؤوس . بيروت ١٩٤٦ .  
 أنيس الحوري المقدسي : أبو تمام المقتطف ٨٠ .  
 برهان الدين الأناسي . أبو تمام ، كلمة عن نفسه وشعره مجلة الكتاب (بيروت) ٤ : ٤٢٠ .  
 عبد الرحمن شكري : أبو تمام شيخ البيان — الرسالة (مصر) ٧ (١٩٣٩) .  
 مجلة الطريق : ميزة أبي تمام — المجلد ٢ : العدد ٩ .





## دُعْبِلُ الْخَزَاعِي

(١٤٨ - ٢٤٦هـ / ٧٦٥ - ٨٦٠م)

١- تاريخه: وُلِدَ دُعْبِلُ فِي الْكُوفَةِ سَنَةَ ١٤٨هـ / ٧٦٥م صَاحِبَ الشُّطْرَانِ وَالصَّمَالِيكِ مِمَّنْ نَشَأَ مِنْهُ قَصْدُ بَغْدَادِ مَالِ عَبْدِ الرَّشِيدِ حَظْوَةً وَتَشْجِيعاً. كَانَ عَلَوِيًّا مُتَعَصِّباً لِأَنَّ الْبَيْتَ فَهَجَا الْعَبَّاسِيِّينَ؛ وَقَدْ أَكْثَرَ مِنَ التَّجَوُّلِ، وَفِي مَعْرُوفِي عَلَى أَسْوَانَ وَفِي سَنَةِ ٢٤٦هـ / ٨٦٠م قُتِلَ بِسَبَبِ مَلَاةٍ لِسَانِهِ

٢- أدبه: لَهُ شِعْرٌ مَبْنُوعٌ فِي كَيْسِ الْأَدَبِ وَأَكْثَرُهُ فِي الْمَهْجَاءِ وَفِي مَدْحِ آلِ الْبَيْتِ وَرِثَائِهِمْ.

٣- شاعر المهجاء: كَانَ دُعْبِلُ مِهْجَعاً لِلنَّاسِ فَأَكْثَرَ مِنَ الْمَهْجَاءِ وَكَانَ مَحَاوَةً لِنَشْئِهِ، أَوْ لِإِضْهَاءِ طَعْمِهِ الْبَقِيقِ، أَوْ لِلتَّكْسِبِ وَهَجَاؤُهُ مُقْلُوعٌ مُخْتَرٌ

٤- شاعر الملاح والرواة: أَجْمَلَ شِعْرَهُ لِلدَّيْ وَلِثِقَاتِي فِي آلِ الْبَيْتِ، وَهُوَ يَدُوبُ رَقَّةً وَسَلَاسَةً وَصَدَقَ عَامِلُهُ

٥- قيمة شعره: دُعْبِلُ نَزَّاعٌ إِلَى الْبَادِيَةِ وَأَسَالِيهَا، وَشِعْرُهُ حَاطِلٌ بِالسَّلَاسَةِ وَالِاتِّسَاعِ وَالسَّهْوَةِ. وَهُوَ لَا يَخْلُو مِنَ التَّصْنِيعِ وَالتَّسْيِيقِ

١- تاريخه:

هُوَ دُعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ رَزِّينَ الْخَزَاعِيُّ الْأَزْدِيُّ، وَكَتَبَتْهُ أَبُو عَلِيٍّ. وَوُلِدَ فِي الْكُوفَةِ سَنَةَ ١٤٨هـ / ٧٦٥م، وَتَخَرَّجَ فِي الشَّعْرِ عَلَى مُسْلِمَ بْنِ الْوَلِيدِ؛ وَقَدْ صَاحَبَ الشُّطْرَانَ وَالصَّمَالِيكِ فَنَشَأَ مِنْهُ صَرْبٌ لِأَجْلِهَا وَجِسَ. وَنَحَا نَاحِيَةَ بَغْدَادِ وَأَقْبَلَ بِالرَّشِيدِ فَلَفِّيَ لَدَيْهِ حَظْوَةً وَتَشْجِيعاً عَلَى قَوْلِ الشَّعْرِ. وَبَعْدَ مَوْتِ الرَّشِيدِ لَمْ يَتَّصِلْ دُعْبِلُ بِأَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ، بَلْ عَادَاهُمْ وَهَجَاهُمْ لِأَنَّهُ كَانَ عَلَوِيًّا يُرِيدُ الْإِمَامَةَ لِلْعَلَوِيِّينَ، وَقَضَى حَيَاتَهُ قَلْقاً نَاقِماً يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَفِي نَحْوِ سَنَةِ ٨١٥م ذَهَبَ إِلَى الْحِجْزِ ثُمَّ إِلَى مِصْرَ حَيْثُ آوَاهُ أَمِيرُهَا الْمُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكِ الْخَزَاعِيُّ وَوَلَّاهُ عَلَى مَدِينَةِ أَسْوَانَ ثُمَّ طَرَدَهُ بَعْدَمَا بَلَغَهُ أَنَّهُ هَجَا، وَمِمَّا جَاءَ فِي ذَلِكَ الْمَهْجَاءِ:

أَمْطَلِبُ أَنْتَ مُسْتَعْلِبُ سِمَامَ الْأَفَاعِي وَمُسْتَقْبِلُ  
سَتَائِكَ إِنَّمَا وَرَدَتْ الْعِرَاقُ صَحَائِفُ يَسَائِرُهَا دُعِيلُ  
مُسْتَقْفَةٌ بَيْنَ أَثْنَائِهَا مَحَازٍ تُحْطُ فَلَا تَرَحُلُ

وظلَّ دُعِيلُ على هذه الحال خبيث اللسان لا يسلم أحد من هجائه سواء أحسن إليه أم لم يُحسن إلى أن قُتِلَ سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م.

#### ٤ أدبه :

حاء في معجم الأدباء لياقوت أن لدُعِيلَ كتاب «طبقات الشعراء» وديوان شعر. ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا منه إلا بعض المحاء والرائاء والمدح وبعض المقطوعات المختلفة الموضوعات.

#### ٥ - شاعر المهجاء :

كان دُعِيلُ مطبوعاً على المهجاء. وقد قال له مرة أبو خالد الخزازي: «ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً، فأنت دَهْرَكَ شريد طريد هارب خائف، فلو كفت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك. فقال: ويحك ! إني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يتفجع بهم إلا على الربهة، ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره، ولَمَنْ يَتَّقِكَ على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه، وعبوب الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرفته شرف، ولا كل من وصفته بالجوذ والجبر والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك، فإذا رأك أوجعت عريض عيره وفصحتته أثقالك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أبا خالد ! إن المهجاء المقلد أخذ بضيع الشاعر من المديح المضرع. فضحك أبو خالد وقال: هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه».

قال ياقوت في معجم الأدباء: «دُعِيلُ شاعر مطبوع مُفْلِقٌ... وكان هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من الوزراء ولا من أولادهم، ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يُحسن، وكان بينه وبين الكميت بن زيد وأبي سعد الغزومي

منافضات<sup>١</sup> . أما الحلفاء الذين هجاهم فهم الرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمتعصم ، والواثق ، والمتوكل .

وقد وُلِدَ دِغْبِلُ مُبْغِضاً لِلنَّاسِ ، لِحِمَاً ، لا يرى الناس إلا من زاوية كُرْهِهِ وَتَكْسِبِهِ . وكان الناس يرهونه ويسترضونه ليكف عنهم لسانه . وهكذا كان هجاءه للتشفي ، أو لارضاء طبعه البغيض ، أو لمجرد الكسب ، أو كان لكل ذلك معاً . وهكذا رأى أن الهجاء أجدى من المدح في طريق التكسب ، فتكسب به كما تكسب بالمدح .

وهجاء دِغْبِلُ مُقْلَعٌ مُعْزٍ ، وهو يُفَحِّشُ فِيهِ مَا اسْتَطَاعَ الْإِفْحَاشُ ، وَيُجَرِّحُ مَا اسْتَطَاعَ التَّجْرِيحُ ، وَيَسْأُ وَيَطْعُنُ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ وَقَبَاحَةٍ . قال في المتعصم :

مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ      وَنَسَمُ تَأْتِيْنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمْ كُتُبُ  
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ      خِيَارُ إِذَا عُدُّوا وَثَامِيَهُمْ كُتُبُ  
وَأَنِّي لِأَعْلِي كَلِمَتَهُمْ عَنْكَ رُتْبَةٌ      لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ  
لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُدْكُهُمْ      وَصِيفُ وَاشْتَنَاسُ ، وَقَدْ عَظُمَ الْخَطْبُ<sup>٢</sup> ...

#### ٤ شاعر المدح والزناء :

أكثر مدح دِغْبِلِ فِي آلِ الْبَيْتِ مِنَ الْعُلُوِّينَ ، وكان مدحه وراثؤه لهم حافلين بالعاطفة الصادقة ، حافلين بالتوجع ، تنصاعد من أوزانها وقوافيها موسيقى ليثة تفيض حناناً . ومن أشهر شعره فيهم قصيدته التأثية ، وهي من أشهر الشعر وأحسنه ، قال فيها راثياً ومادحاً :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ ،      وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفَرُ الْعَرَصَاتِ ...  
فَمَا نَسَّالُوا الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا ،      مَتَى عَهْدُهَا بِالصُّومِ وَالصَّلَاةِ ؟ ..  
وَأَيْنَ أَلَاكِي شَطَطَ بِهِمْ غُرْبَةُ الْوَيِّ      أَفَانَيْسَ فِي الْأَفَاقِ مُفْتَرِقَاتِ  
هُمْ أَهْلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا اعْتَزَّوْا      وَهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ وَخَيْرُ حُسَاوِ ...

١ معجم الأدباء ١١ ص ١٠١ . ١٠٢ .

٢ وصيف وشتناس : تركبان كاد . من القادة في جيش المتعصم

بَاتُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ مَصُونَةٌ وَأَلُّ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفَلَاحِ  
 إِذَا وَثَرُوا مَدُّوا إِلَى أَهْلِهِ وَتَرَجُّمُ أَكْثَفًا عَنِ الْأَوْتَارِ مُنْقِصَاتِ  
 حَاءٍ فِي مَعْجَمِ الْأَدْبَاءِ: «قصيدته الثَّانِيَّةُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ أَحْسَنِ الشَّعْرِ وَأَسْنَى  
 الْمَدَائِحِ، قَصَدَ بِهَا أَبَا عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى الرُّضَا بِخُرَاسَانَ فَأَعْطَاهُ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَخَلَعَ  
 عَلَيْهِ بَرْدَةً مِنْ ثِيَابِهِ... وَيَقَالُ إِنَّهُ كَتَبَ الْقَصِيدَةَ فِي ثَوْبٍ وَأَحْرَمَ فِيهِ وَأَوْصَى بِأَنْ يَكُونَ  
 فِي أَكْفَانِهِ.»

#### ٥- قيمة شعره:

دُعِلَ نَزَّاعٌ أَبْدَأَ إِلَى الْبَادِيَةِ بِأَسْلُوبِهِ، وَكَلَامُهُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْبَحْثِيِّ «أَدْخَلَ فِي  
 كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ كَلَامِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَمَدَّهْهُ أَشْبَهُ بِمَذَاهِبِهِمْ.»  
 ودُعِلَ ذُو قَرِيحَةٍ فَيَاضَةٍ، تَوَسَّلَ الشَّعْرَ مِمَّا تَلَأَتْ بِالسَّلَاسَةِ وَالِاتِّسَاجَامِ وَالسَّهْوَةِ، وَهُوَ  
 ذُو حَيَوِيَّةٍ نَاضِجَةٍ تَعْمُ فِي شَعْرِهِ حَيَاةٌ وَحَرَكَةٌ. وَهُوَ، عَلَى تَدْبِيهِ، لَا يَهْمِلُ فِي شَعْرِهِ  
 حَانِبَ الصَّنِيعِ، فَيَعْمِدُ إِلَى الْبَدِيعِ وَيُوشِي بِهِ أَقْوَالَهُ فِي اقْتِصَادٍ وَاتِّزَانٍ.

\* \* \*

#### مصادر ومراجع

مارون عبود: الرؤوس — طبعة دار الثقافة بيروت  
 عبد العظيم قناوي. دُعِلَ الشَّاعِرُ الشُّجَاعُ الْوَلِيُّ — الرسالة ١٤ (١٩٤٦).

## البَحْثِيّ

(٢٠٦ - ٢٨٤ هـ / ٨٢١ - ٨٩٧ م)

١ تاريخه : وُلِدَ البَحْثِيّ في منبج سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، وشأ شأه بدويّة ، وقد اتّصل في حمص بذي تيمّام ، وأحد عه طريقته في التصحيح ، وذكّرت البيه في أُرمة سياسية واقتصادية مال البَحْثِيّ مع سائر الشعراء إلى الكسب والاستجداء . وفي بغداد احتكّ رجال الدّولة وعظماء الأُمّة ولاسيّما الوزير الفتح بن حاقان والحليفة المتوكّل وأصبح شاعر البلاط . وعندما قُبِلَ المتوكّل عاش البَحْثِيّ عيشة نقّلت حتى توفّي في منبج سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م .

٢ - أدبه : للبَحْثِيّ كتاب الحماسة ، ودِيوان شعر كبير فيه مدح وثناء وفخر وعتاب ، وبحر ما فيه الوصف .

٣ - شاعر المدح والرفاء : كان مدحه وسيلة تكسب ، وأسلوبه فيه تقليديّاً ، وقد امتاز بالصفاة واللقائيّة والمدوديّة والاتّلاف بين الطّبيعة والصّفة .

٤ - شاعر الوصف : كان البَحْثِيّ في وصفه شاعر الخيال الحبيب ، والصّفاة والجلاء . والأصغر والأضواء ، والرخمة الجملة ، والموسقى السّقطيّة وتنسق .

أمّا موضوعات وصفه فمرجعها إلى الطّبيعة وال عمران ، وأمّا أسلوبه في وصفه فيختلف بين السّاوة والحضارة ، وقد استمدّ البَحْثِيّ من احضارة بعض لُزائط الفكرية ، والتصويرية ، وحسن التّأليف بين أركان التشبيه ، واستمدّ من البداوة مادّتها المسيطرة ، وشغها الصّادق ، وتحببها التصحيحي ، ولم يفرّق في التّفنيد والرخمة البديعيّة .

وصف البَحْثِيّ من مشاهد الطّبيعة الرّبيع ، والخمر ، والأرهار ، والذّنب ، والأسد ، والفرس أمّا الرّبيع فقد جمعه مبهرجان الوجود ، ونحّص كلّ ما فيه ، وأبرز فيه بقطة الطّبيعة ، ومسا الذّنب فحسب وصفه له نقلاً نسخاً ، والشّهد تخبّلاً تصويريّاً صوباً ، ووهب عنه وحه تأمّليّة وحديّة ، فيها تأنّ تكميريّ وتصنّعيّ في غير اطلاق حياليّ مسبح .

ووصف البَحْثِيّ من عمران بركة التّوكّل وديوان كسرى ، فجعل وصفه للبركة عبة من أعالي البيان الرّبيع ، وأكثر فيه من التشبيه ، والصّور الرّائعة ، وكان فيه عالماً من الحمد في عالم من الحركة ، وجعل وصفه للاروان وقفة تأمّليّة فيه عبق ، ومها امتداد أفق ، وفيها نزع شجويّة ، ونظرة إنسيّة حضاريّة .

٥ - البَحْثِيّ الشاعر : البَحْثِيّ شاعر الدّواة والحضارة ، ورجل الفنّ والتأمّل ، ورجل ابناء الوصعيّ الفنّي ، والصّاعقة البديعيّة الجميلة ، وشاعر الفحة الساحرة الذي أراد أن شعر فنّيّاً .

## ١ - تاريخه:

١ نشأة بداوة وحضارة: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري. وُلد سنة ٨٢١ هـ على مقربة من حُب، من أبي طائي وأم شيبانية، وكان في عروبه الأصبلة مِعْمًا مُحَوَّلًا. وقد نشأ نشأته الأولى في منبج وباديتها، فتأصلت فيه ملكة الأعراب، وحرث على لسانه أساليبهم، وصفا خياله صفاء سنانهم، ثم حدث له أن أقبل في حمص بأبي تمام شيخ الصناعة الشعرية، وأخذ عنه طريقته في الدبع والزخرفة، واحتك بالحضارة العباسية وعمرانها، فكان له من جرأ ذلك شخصية عجيبة التكوين: شخصية بداوة في شخصية حضارة. وصفاء بدوي في تعقيد حضاري.

٢ في غمرة الأزمة السياسية والاقتصادية: كان ظهور البحتري في عهد اضطربت فيه الدولة العباسية، وأخذت تتحلل التحلل ضعف، وشحب فيه وجه الخلافة. وأخذت سلطته في التضائل لاشتداد النفوذ التركي في صفوف الجندية، ولانصراف البلاطيين إلى حَوْلِ المؤامرات، ودرس الدسائس. أضف إلى ذلك أن البلاد كانت في أزمة اقتصادية شديدة، لحاجة الرؤساء إلى مال يُعَدِّي ترفهم ويُساعد على مقاومة الفتن، ولاشتداد أمر الضرائب على العباد، وقد فشت الأمراض الخادة فحطت عشواء وأفنت رحالاً. ثم جدَّ الغلاء. فمن الناس من لا يجد القوت والدرهم على كفه حتى يموت... وأن هول السلطان أعظم وأطم. وأمر المطالبات أكبر وأهم. ومن شأن حالة كهذه أن تشجّع التسوّل بشتى أساليبه. وتشجّع الكذب والرتاء، وتحفز الشعراء على التكبس في غير حياء. وهكذا كان قال البحتري إلى الاستجداء في تكاليف شديد، وإلى المدح يذل له ماء العبقريّة في غير حساب.

٣ في بغداد وسامراء - شاعر البلاط: استهوت بغداد الشعراء فيتمها البحتري في من يتمها يحمل في قلبه عطشاً إلى المال، وفي نفسه شغفاً بالعمران وزهوة الألوان. وقد تردّد على بغداد مدينة الرؤساء، وعى سامراء مدينة القصور، ولزم في بغداد أستاذه أبا تمام ورافق النحداش شيخوخته وغروب حياته، واحتك برجال الدولة وكبار الأمة، ولا سيما آل طاهر، وآل حميد بن عبد الحميد الطوسي، وآل سهل وعبرهم،

ومدحهم ونال جوائزهم ؛ وقد اتصل بوزير المتوكل الفتح بن خاقان ونال لديه حظوة كبيرة ، فقرّبه الوزير الى الخليفة ، وما عثم أن أصبح شاعر القصر ومسجلاً للمآلئ الخلافة .

٤ - عهد محاملة ومالاة : قضى الشاعر نحواً من اثني عشرة سنة قرب المتوكل في هناة وثورة وترف ، ولما قُبل الخليفة ووزيره الفتح بن خاقان حزن البحترى أشد الحزن ، وأخذ منذ الحين يعيش عيشة محاملة ، وتقلب مع كل حال ومدح الخلفاء الخمسة الذين عرفهم بعد المتوكل على ما كان بينهم من خصومة ، وماشى كل سلطة وكل سياسة في خوف وحذر . ونحو سنة ٨٩٢م . عاد الى سبج ولست فيها الى أن وافته المنية سنة ٨٩٧م / ٢٨٤هـ .

#### ٢ أدبه :

للبحترى كتاب الحماسة ، و كتاب معاني الشعر كما له ديوان ضخم في الشعر جمعه أبو بكر الصولي ، وطُبع في الآستانة سنة ١٨٨٢ ، ثم في مصر وببيروت سنة ١٩١١ ، وقد طوى أكثره على المدح وضمنه بعض الرثاء والهجاء ، والفخر والعتاب . وما الى ذلك .

والوصف خير ما في هذا الديوان وهو مثبور في شئ القصائد ولا سيما قصائد المدح .

#### ٣ البحترى شاعر المدح والرثاء .

١ البحترى من مدحه ورثائه : ليس البحترى ذلك الجبار الذي تهيجه الذكرى ، أو تحركه المشاهد الملكية بعنف ، فينطلق صخباً هداراً ، ويرسل الأقوال مدوية وثابة ، وإنما هو تلك الطبيعة التي تُدغِغها الآمال فتجود ، وتمس أوتارها الأطياف فتندفج ، هو تلك الزهرة التي تحمل كل نسيم عطراً فلا يشعر بالنسيم ، وتطيب كل جو من غير أن يزعج الجو .

إلا أن هذه النفس الفوّاحة ، كانت شديدة الشغف بالندى ، فكانت أبداً عامعة فيه ، متطلعة إليه ، تجعل من كلامها سحراً يستدر الأكف ، وتجعل من أوزانها مركباً

الى الجيوب ، واثاراً يثترُّ على أنعامها الدَّهرم والدَّيَّار . ولا عجبَ في ذلك لما كان شائعاً إذ ذاك من أنَّ الأدب سوق تجارة ، وطريقُ كسب . « حدَّث البحري قال : قال أبو تمام : بلعني أن بني حميد أعطوك مالا جليلاً فيها مدحُهم به ، فأشدُّته بعض ما قلته فيهم ، فقال لي كم أعطوك؟ فقلت : كذا وكذا . فقال : ظلُّموك ، والله ما وفوك حقك ، فلم أستاذك ما دفعوه إليك ، والله ليبتُّ منها خير مما أخذت . ثم قال : لعمرى لقد استكثرتُ وأستكثرُ لك لما مات الناس وذهب الكرامُ وغاضت المكارم ، فكسدتُ سوقُ الأدب ، أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدي ، فعمتُ قفْلَتُ رأسه ويدُّيه ورجليه وقلت له : والله لهذا القولُ أسرٌ قلبي وأقوى لنفسي مما وصل إلي من القوم » .

وكان البحري شديد الإعجاب بشعره شديد الاحتفال به الى حدِّ الشذوذ حتى قيل عنه إنه أبغض الناس إتشاداً ، يتشادق ويتراور في مثيه : مرة جاباً ومرة القهقري ، ويهرُّ براسه مرةً ومنكيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يُقبلُ على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت؟ ! هذا والله ما لا يحسُّ أحدٌ أن يقول مثله !

## ٢ - قيمة مدح البحري وراثته .

- صفاء وعذوبة وثقافية . ليست قيمة شعر البحري في عمق معانيه ، وروعة ابتكاره ، وليست في تسلسل أفكاره وترابط أجزائها ، وليست في قوَّة الانطلاق وعنف التدفع أو في عمق التحليل ونفاذ البصيرة ، وليست في تكديس الزخارف وتركيبها بعضها في بعض ، وإنما هي في صفاء لا تحدُّ له أجواء ، في صفاء لا يشوبه كدرٌ إغراب أو تعقيد ، ولا تحرُّ في سمائه غمامة ناشزة ، تحمل رعداً أو برقاً ، ولا تتقب على سطحه موجة مزيدة ثائرة ، وفي عذوبة بدوابة ممسوحة ممسحة الحضارة ، وفي ثقافية فطرية تنساب انسياباً ، وهي بليغة كالقطر ، ناعمة كالنسيم ، معطرة الأردن ما يسحر البيان ، يُقي عليها الذوق السلم من زخارف الصَّعة ألوان البديع ما يزيدها جمالاً . والبحري يكتب ألفاظه تغني ، ويخطُ الحروف وكأنها بمداد من نور وإشراق ، وإذا هنالك التلاقي بين الطيبة والصنعة ، وبين الفطرة والحضارة ، وبين البادية والمدنية ، وإذا هنالك تناغم بين الصحراء الجردية والبساتين المونقة ، وبين القفار الموحشة والقصور



الآلهة ، وإذا هنالك تمزج بين الشظف والرقة ، وبين الحذاء واقترار الأوتار ، وإذا لكل حرف في اللفظة مناخاة ، ولكل لفظ في العبارة مناخاة ، ولكل عبارة في البيت آيات بينات ، ولكل بيت في القصيدة أنغام ونبرات ، ولكل قصيدة في الديوان حلقت مذهبات ، وإذا أنت في جنة من جنة الفن والروعة .

– أسلوب قديم : والبحري في قصائده المدحبة ذو أسلوب قديم يبدأ بالعزل التقليدي أو يستعير عنه بالوصف ، ثم ينتقل الى المدح معطماً . وقد يعاتب في لطف ومهارة ، ويلوم في رقة ، ويؤخذ في حلاوة ، ويؤنب في طراوة . وقد يهجو ولكن طبيعته لا تساعد على مثل هذا القول ؛ فيسبّ ويضعف .

– قلب ذميم وفن صحيح . وقد تقلّب البحري في مدارحه بتقلّب الأحوال السياسية وبدافع همه الى المال ، إلا أنه لم يزل يتقلّب في فن لا يغيص له معين ، وفي فيض قريحة لا يزل متدفقاً . ولئن تردّد في بدء أمره بين أسوبي أبي تمام ومسلم بن الوليد لما عتّم أن يخط لنفسه طريقاً سويّاً من سهولة وسلاسة وفطوة وصنعة تخرج من غير ما تناثر أما رثاء البحريّ فعاطفة فنية أكثر مما هو عاطفة حقيقية ، ومدح أكثر مما هو تفعّج ، وأسف أكثر مما هو اشتراك في الألم .

#### ٤ – البحري شاعر الوصف :

١ – البقرة الوصفية عند البحريّ . خلق البحري ليكون شاعرٌ ، فقد أوتيَ خيالاً حصيلاً غلته البادية والحاضرة ، فكان له من البادية صفاء وجلالة ، وكان له من الحاضرة أصباغ وأصواء . وكان له من مدرسة أبي تمام زخارف بدعية ، وأوتيَ نفساً رقيقة الحواشي شديدة الانطباعية ، فكان له منها مرآة مجلّوة يؤثر فيها أرق نسّم ، وتمعّك أدق شعاع ، وأوتيَ شعوراً بالجمال عميقاً ، تهتز أوتاره لكل لحنة من لمحات لروق والحسن ، وأوتيَ أذناً مرهفة هي أذن الموسيقى والتناسق ، يدخله الصوت ويخرج منها فتاً من أروع الفنون ؛ وأوتيَ إلى ذلك قلماً ميبلاً هو أداة طيعة في يد الجلال والموسيقى ؛ وأوتيَ أخيراً ذوقاً سليماً نبت في طبيعته نبأ ، فتناول الخيال وحككه ، وأزال كلّ شذوذ فيه ، وتناول الأصباغ والألوان فأحسن مزجه ومدّها على البوحات

وإذا هي تأسق وترواج وموسيقى ألوان ، وتناول الزخارف البديعة التي شاعت في أدب ذلك العهد شيوعاً ضخماً ، وأخذ منها في اقتصاد فكانت عنده وسيلة لا غاية ؛ تناول ذوق البحرّي نفسه فجعلها تترك الجزليات في لمحات عامة ، وتشعر وتنفل من غير أن تُضيق توازنها ، وتناول الأذن الموسيقية وأخرج منها على شبة القلم ألحاناً وأنغاماً متصاعدة من سلامة الألفاظ ، واتلاف الحروف ، وحسن وصف العبارات ، وحسن التقطيع ، وموافقة البحور والقوافي للمعاني ، حتى قيل : «أراد البحرّي أن يشعر ففنى» . وتناول ذوقه المعاني فجعلها خاضعة للشعر والفنّ ولم يكثر منها ، ولم يتعمّق فيها ، ولم يهتمّ للتوليد وإنما اهتمّ لأمر هو أن «الشعر تَمَحَّح» وكفى .

٢ - نوعة البحرّي في وصفه : ثم إنك إذا انتقلت الى طريقة البحرّي في وصفه وجدته يختلف بين البداوة والحضارة ، على ما ذاع في عصره من مظاهر البيئة الجديدة ، وعلى ما انصرف إليه الشعراء من طريقة التتبع الفلسفيّ للمعاني ، وطريقة النقل التفسيريّ . فالبحرّي بدويّ في عصر الحضارة ، استمدّ منها موضوعات ، وبعض الترابط في الصور والمعاني والتطور في معالجتها ، وحسن التأليف بين أركان التشبيه ولكنه لبث بدويّ النزعة ، يباشر المشاهد فيقلها في مادّة مسيطرة ، ويعني بنقلها نقلاً صادقاً في غير تأويل إلا نادراً ، ويحاول تجسيد المعاني تجسيداً تضخيمياً على سنة الجاهليين . وإن عرص له ما يعرض لشعراء الوجدان من مواقف وجدانية عاجلها في ازدواجية نفسيته معالجة عبّاسية في غير إغراق في التعقيد والزخرفة البديعية .

٤ - أوصاف البحرّي : كان البحرّي في وصفه شاعر طبيعة وشاعر عمران . أما الطبيعة فله فيها لوحات كثيرة جمع فيها ألواناً من المباحج الفاتنة التي استأثرت بفؤاده واستولت على حسّه طول حياته ، كما له جملة من الأوصاف في موضوعات مفردة من الطبيعة كوصف الربيع . ووصف المطر عما فيه من سحب وبرق ، ووصف النسيم وشقائق النعمان والرياح المزهرة العابقة بذكّيّ الأطياب . والى جانب هذا كله نجد عند البحرّي أوصافاً بدويّة تناول فيها بعض الحيوانات كالذئب والأسد والفرس .

وأما العمران فله فيه مشاهد خلّابة ، وقد أولع بوصف القصور من مثل ما شاهده المتوكل ، والمعشوق والمشوق قصرَي المعتمد ؛ ووصف الزّاو وهو السفينة التي كان

الخليفة يركبها لزهته، والعيون التي أقامها أم المعتر لسقاية الحجيج. وأشهر ما ترك البحري في هذا الباب وصف إيوان كسرى، ووصف دؤس المعتر المعروف بالكامل، ووصف بركة الموكل.

أ أوصاف الطبيعة مال البحري إلى الطبيعة بحسبه وفله. والتفت إليها بعين تدغدغ الجبال في الظاهرات دون الحواهر، وتترلق على جمال تلك الظاهرات انزلاقاً. ملا تتوقف توقف تحليل، ولا تتعمق تعمق استيعاب، والبحري مع ذلك عباسي التزعة على بدايته الجاهلية البدوية، يرى من الجمال أدق مما يراه الجاهلي، ويعني بالرصف بحيث تتناغم الأجزاء في الصورة تناغماً قتيماً، ويعد إلى التوشية المستقاة من واقع العصر في غير إسراف.

لقد وصف الربيع في قصيدة مدح بها الهيثم الغنوي. وقصر وصفه له على بقطة الطبيعة في الورد، والشجر، والنسيم.

ووصف البحري الذهب في قصيدة فخرية عمل فيها على نقل انشده نقلاً نسخياً تاماً، متوسلاً لهذا النقل بكل ما أوتي من براعة التصوير وروعة التعبير. فقد تسربل الليل بشير القطا عن جثاته والتقى ذنباً «ملء العين»

لَهُ دَنْبٌ مِثْلُ الرِّشَاءِ يَجْرُهُ وَمَنْ كَمَثَرِ الْقَوْسِ أَعْوَجُ مَدَدًا

ذنباً طواه الجوع فزاد ضروة وشراسة، وليس فيه من الوجود سوى عظم وروح

وجلد،

يُقَصِّصُ عُصْلًا فِي أُسْرَتِهَا لَرْدَى كَقَضْفَةِ الْقُرُورِ أَرْعَدَهُ الْبَرْدُ<sup>١</sup>

ذنباً يصك أنياه بعضها على بعض لشدة هياجه، ويسمع لها صوت العظام تتكسر، وفي تلك الأبواب موت وبار. والمشهد، كما نرى، تمثيل تصويري صوتي ينقل الحقيقة الواقعية أنم ما يكون القتل وأروعه.

١ ارشاه. الجبل. المثل الطهر. مأد محس.

٢ يقصص. يكسر العظام. المص. الأبواب الجوع في أسرها. في حطوطها. القُرور الذي أصابه

البرد وأرعده

سَمَّاهُ، وَبِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ مَا بِهِ      بَيْدَاءَ لَمْ تُعْرِفْ بِهَا عِشَّةَ رَعْدُ  
كَأَنَّهَا بِهَا ذَنْبٌ، يُحَدِّثُ نَفْسَهُ      بِصَاحِبِهِ، وَالْجَدُّ يَتَّبِعُهُ السَّجْدُ

وقفه تأملية وجدانية يقفها الشاعر أمام ذاته، وكأنني به يمثل حقيقة الوجود، وأن  
الإنسان ذنب لأخيه الإنسان، والشاعر يزجنا يمثل هذين البيتين في صميم البداوة،  
وكانني به شاعر جاهلي لولا ما هنالك من وصف وقأن في الترتيب كما في قوله:  
عَوَى ثُمَّ أَقْبَى، فَأَرْتَحَزْتُ، فَهَجَّتْهُ      فَاقْبَلْ مِثْلَ الْبَرْقِ يَتَّبِعُهُ الرَّعْدُ<sup>١</sup>

تتابع أفعال في تتابع حركة بقل الواقع نقلاً حياً تصويرياً. والشاعر، في لغة  
والإجازة، لا يغفل العناصر التي تربط الأجزاء بعضها ببعض، ولا يكتفي، كما فعل امرؤ  
القيس في وصف صيده، بذكر بعض العناصر وإغفال بعضها الآخر رغبة منه في بلوغ  
الهدف. وإنما يُفَرِّجُ الحدث من الحدث والصورة من الصورة ليكون نقل الواقع نسخياً  
كاملاً؛ وهكذا أتبع البيت السابق بقوله:

فَأَوَجَّرْتُهُ خَرْقَاهُ تَحَسَّبُ رِيَشَهَا.      عَلَى كَوَكَبٍ يَنْقُضُ وَاللَّيْلُ مُسَوَّدُ<sup>٢</sup>  
فَمَا أَزْدَادُ إِلَّا جُرْأَةً وَصَرَامَةً      وَأَيَقَنْتُ أَنَّ الْأَمْرَ مِنْهُ هُوَ الْجَدُّ  
فَاتَّبَعْتُهَا أُخْرَى، فَأَضَلَّتْ صُلْهَا      بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرَّعْبُ وَالْحِقْدُ<sup>٣</sup>

وفي هذه الأبيات لهجة البداوة في تعقيد الحضارة، فالتشبيه في البيت الأول  
«تَحَسَّبُ رِيَشَهَا عَلَى كَوَكَبٍ يَنْقُضُ وَاللَّيْلُ مُسَوَّدُ» هو تشبيه مركب عباسي والكناية  
«بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرَّعْبُ وَالْحِقْدُ» هي كناية مستقاة من آراء الفلاسفة لذلك  
العهد، والتدرج الذي تدلّ عليه أحرف العطف هو تدرج حضاري.

والبحتري في وصف الذئب شاعرٌ وصف قصصي، تغلب على وصفه وقصصه

١ - أقبى: قعد على مؤخره ارتحزت: قلت الزحزح على عادة الدو عند مباشرة الحرب.

٢ - أوجرته: طعته. خرقاه: أي بلة طائشه لم يصبه. ريشها: على حاشي السهم ريش يساعد على  
سلاطه مستقيماً.

٣ - أي أضللت صُلها في قله.

النزعة الوجدانية التصويرية التي تجعل الممّ كلّ الممّ في الظاهرة وتمنّ بأهدابها بعض التأملات في غير ذهول ولا انطلاق خيالي فسيح.

ب - أوصاف العمران : ومال البحري الى العمران ، ولعله أول من انطلق في هذا الميدان انطلاقاً سعة وروعة . ومما لا شك فيه أنّ البحري لم يكن من أصحاب الخيال الجبار الذي يجلي الواقع بما يبني عليه من تصوّرات رجة مدهشة ، ولكنّه مع ذلك قد بلغ من الرّوعة في هذا الباب درجة عالية ، إذ سلك فيه الطريقة التي انتهجها في وصف الطبيعة على العموم ، وقوامها البراعة في تحيّر التفاصيل الناتجة التي تمتاز عن المجموع بهاء خاص ، والدقّة في رسم هذه التفاصيل رسماً حسياً ، يجعلها تلمس باليد وتؤثر في العين ، والانفعال النفسي الذي يتسرّب الى الموصوفات إعجاباً قوياً يشيع فيه الحياة والحركة .

لقد وصف البحري بركة الموكّل في قصيدة مدحه بها . وقد افتتح قصيدته بلهجة بلوية جاهلية وقف فيها بدار ليلي وقفة شجيّة ، ثم انتقل الى البركة وراح يرصف المشاهد رصف حذق ومهارة ، وكأني بالأبيات وقوافيها أغنية من أغاني الموسيقى الحاملة توافق المعاني والصور ، وكأني بالبحري «يشعر وهو يغني» .

ووصف البحري إيوان كسرى في المدائن وكانت المدائن عاصمة الأكاسرة قرب بغداد قصداً الشاعر في بأسر وكأية شديدة ، ووقف في طولها متأملاً ، وراح يبثها أشجانه معبراً عما آلت إليه بعد عزّ طلق الآفاق ، ومجد حسنها عليه الدهور فعمت على هدمه وجعلته عبرة لمن اعتبر .

١ - المدائن جمع مدينة ، اسم لمجموعة من المدن أنشأها الغزاة والملوك عصر بعد عصر ، في بقعة جميلة قريبة من دجلة . قيل ان الاسكندر بنى هالك مدينة وسورها ، ثم بنى أنوشروان بن قباد المدائن وأقام بها هو ومن بعده من ملوك بني ساسان الى أيام عمر بن الخطّاب ، وكان كلّ واحد منهم إذا ملث بنى لنفسه مدينة الى جنب التي قبلها وسماها باسم ، وكان فتح المدائن كلّها على يد سعد بن أبي وقاص . وقيل إنها كانت سبعاً بين كلّ مدينة الى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة ، فلما ملك العرب ديار الفرس واختطّت الكوفة والبصرة انتقل إليها الناس عن المدائن وسائر مدن العراق ، ثم اختطّت

الحجاج واسطاً فصارت دار الإمارة . فلما زال ملك بني أمية اختط المنصور بغداد فانتقل إليها الناس ، ثم اختط المعتصم سامراً فأقام الخلفاء بها مدة . ثم رجعوا إلى بغداد . والمدائن اليوم بلدة صغيرة بينها وبين بغداد نحو أربعين كيلومتراً ، وفيها بقايا الإيوان المشهور

٢ الإيوان في المدائن من بناء كسرى أبرويز ولم يبق منه إلا الطاق ، وهو مبنى بآجرٍ طول كل آجر نحو ذراع في عرض أقل من شبر ، قيل إن أبا جعفر المنصور هو الذي أمر بتخريبه عندما أراد بناء بغداد . والطاق عظيم في ضخامته ، لا يزال إلى اليوم مشمخراً في عزله وانفراده ، بروي للأجيال المتعاقبة خبر الممالك والدول ، وحكاية الحياة التي تكشفها عوامل الزوال . وكثيراً ما تردّد الناس إليه ، وكثيراً ما وقف الشعراء عنده متأملين . وخطّوا على حدرانه آيات التأمل والاعتبار كما فعل الملك العزيز جلال الدولة الوهبي عندما اجتاح على الإيوان وكتب عليه بخطه :

يَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ بِالدُّنْيَا اغْتَبِرْ  
بِدِيَارِ كِسْرَى ، فَهِيَ مُعْتَبَرُ الْوَدَى  
غَيِّتَ زَمَاناً بِالسُّلُوكِ وَأَصْبَحْتَ  
مِنْ بَعْدِ حَادِثَةِ الزَّمَانِ كَمَا تَرَى



وهذا ما حمل البحري ، في غمرة همومه ، على زيارة تلك الطُّول ، وعلى أن يقول في كثير من الانفعال :

حَضَرْتُ رَحْبَى الْهَمِّ ، فَوَجَّهْتُ      سَتُّ إِلَى أَبْيَصِ الْمَدَائِرِ عَشِيٍّ<sup>١</sup>  
تَسْلَى عَنِ الْخَطُوبِ ، وَأَمْسَى      لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ  
عُمِرْتُ بِسُرُورٍ دَهْرًا ، فَصَارَتْ      لِلتَّعْزِي ، رِاعَهُمْ ، وَالنَّاسِي

٣ - والأمر الذي يطالعن في افتتاح القصيدة هو أن البحري ابن العهد العباسي وأنه تحت وطأة الانفعال والتأثر. فقد اشتد عليه الهم ، وملكته هية المكان ، وتراكت في نفسه الذكريات ، فانفجر كلامه تأملًا واعتبارًا ، وابتعد عن عمود الشعر القديم ، وعن حطة امرئ القيس التي انتهجها في شعره ، وراح يرسل رائد النظر في الحياة وملاساتها بترعة فسفية تمشى وروح العصر الذي عاش فيه :

وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْحَحَ مَحْمُولًا      هَوَاهُ مَسَحَ الْأَخْسَّ الْأَخْسَ  
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخَطُوبُ التَّوَلِي ،      وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخَطُوبُ وَتُنْسِي

٤ - والبحري ، وإن نزع في قصيدته نزعة جديدة ، وإن نقل البكاء للطلول إلى بكاء للمالك البائدة لا يستطيع التخلُّت من قيود البادية التي نشأ فيها ، فتبادر إلى ذهنه معاني السموئل وصوره ، ويقف أمام قصور الأكاسرة موقف السموئل أمام الأبلق ، فيجعلها عالية مشرفة ترذ الطرف كلبلاً .

وَهُمْ خَافِضُونَ فِي حِلٍّ عَلِيٍّ      مُشْرِفٍ يُحْسِرُ الْعِيُونَ وَيُخْشِي<sup>٢</sup>

٥ - والبحري عربي أصيل ، ولكن عظمة الفرس سيطرت على عقله وخياله ، فاندفع في تيار الشعوبية يقارن ما بينهم وبين العرب ، وإذا جِلَّ الفرس أعظم من أطلال العرب ، وإذا انحاد أولئك لا يصل إليها انحاد هؤلاء :

١ النسخ الناقصة الأصلية

٢ وهم . أي آل ساسان يحسرون العيون يصنعونها . يخشي . يحسرون ويذلون

جَلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالٍ سُمِعْدَى      فِي قِفَارٍ مِّنَ الْبَسَاسِ مُلْسَرٌ<sup>١</sup>  
وَمَسَاعٍ ، لَوْلَا الْمُحَابَاةُ مِثْنِي ،      لَمْ تُطِيقْهَا مَسْعَاةٌ عَنَسِي وَعَبَسِي

٦ - من ظاهرات الحياة الفارسية الرسوم والصور على جدران القصور وعلى الأواني والماعون . وهذه التزعة الى الرخفة والتميق لزمت الحياة الفارسية عبر العصور ، وتجلت في إيوان كسرى بكل روعة وبهاء ، فقد عني هذا الملك العظيم بأن يرسم له أرباب الفن مواقع انتصاراته على جدران الإيوان فعملوا ، وقد شهد البحري صورة الموقعة التي دارت بين الروم والفرس قرب مدينة أنطاكية ، وكان النصر فيها لأنوشروان ، فوصفها وصف دقة وروعة :

فَلِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا      كَيْفَ ارْتَعَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفَرَسٍ  
وَالْمَتَانِيَا مَوَائِلُ ، وَأَنُوشِرو      وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ التَّرْقِيسِ<sup>٢</sup>

٧ - ومن طاهرات الحياة العلمية في العهد العباسي ، أن انشغل الناس بالكواكب والنجوم ، ووقفوا على كتب اليونان والأعاجم في التنجيم ، واندفع الشعراء في التيار العام يعلقون المصابير والحظوظ بحركة الأفلاك ، وقد ظهر أثر ذلك في هذه القصيدة عندما قال البحري :

عَكَسَتْ حَظُّهُ الْبَيْلَى وَبَاتَ الْ      سُمُشْتَرِي فِيهِ ، وَهُوَ كَوَكَبٌ نَحَسٌ

٨ - وقد أشار الشاعر في البيت ٢٩ الى ما كان شائعاً بين الناس من أن سليمان سحر الجني في بناء الصروح الضخمة في بعلبك وتدمر وغيرها ، فقد البحري هذا الأثر الى الإيوان وقال :

لَيْسَ يُدْرَى : أَصْنَعُ إِنْسَرٍ لِيَجُنْ      سَكْنُوهُ ، أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لِّلْإِنْسِ

٩ - وهكذا ترى أن هذه القصيدة حافلة بالأحداث التاريخية ، والأساطير الشعبية ، حافلة بروح العصر العباسي وتياراته الفكرية ، هذا فضلاً عما انطوت عليه من قيمة أدبية كبيرة . لأنها صفحة جديدة من صفحات الشعر العربي .

١ - البساس : القفار

٢ - يزجي . يسوق المرؤس : العلم الكبير



١٠ - من روائع هذه القصيدة أن البحري استطاع أن يجمع فيها غناءً، ووجداناً، وتاريخاً، وأسطورة، ووصفاً، وملحمة، وتأملًا إنسانياً بعيد الأفاق. ومن روائعها أيضاً أنه جمع فيها معطيات الحضارة العباسية والزخرفة الحديدة، في أسلوب الصفاء البدوي، والموسيقى القائمة التي ترفق مأتم الإيوان مرفقة رفيقة حاملة.

أ - أما الغنائية فهي الميزة الغالبة على الوصف كله، فقد وقف الشاعر، وكى، وراح يتتبع المشاهد متفعلاً متأثلاً، وراح يصف الأجزاء وصفاً يصب فيه انفعاله، ويُبدل فيه بآرائه ونظرياته الكونية.

ب - وأما الوجدانية فهي تطلّ علينا من خلال بعض الأيات، ناقلّة إلينا هموم الشاعر وآلامه النفسية من جرّاء معاكسة الدهر له ومخالفته للأحساء، ومن جرّاء الأحداث التي تليّم بأعظم الرجال وعظائم الأعمال، فتجعل العمران خراباً، والأبجاء هباءً منثوراً:

وَتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعَزَعَنِي الدَّهْرُ	التَّامِسُ مِنْهُ لَتُعْصِي وَنُكْصِي
وَكَاثُ الزَّمَانِ أَصْبَحَ مَحْمُولاً	هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسِ الْأَخْسِ
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي	وَلَقَدْ تُدَكِّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْصِي
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ الْيَابِي	جَعَلَتْ فِيهِ مَمَماً بَعْدَ عُرْسِي

ج - وأما التاريخ فقد عالج البحريّ بطريقته الشعرية، فعرض للملوك إنسانيّين وطرائق عيشهم وامتداد سلطاهم، وشدة منعمهم في الحروب، وعظمة قصورهم، كما عرض للمساعدة التي قدموها للعرب في إنشاء السولة العباسية، والتي قدموها لهم قديماً في حرمهم مع الأحباش

د - وأما الأسطورة فقد عالجها البحريّ عندما عرض للجنّ وتسخيرهم في البناء، وعندما عرض للنجيم وأثر الكواكب في توزيع الحظوظ

هـ - وأما الوصف فهو الفن العام في هذه القصيدة، وقد تناول به البحريّ شتى

المشاهد التي ذكرها بعضها ، وكان في وصفه لها دقيق الملاحظة تفسيري النزعة والاستعارة ، كما يستعين بالبحسوس ، ويجري في حو من الصفاء والسلاسة واللغة الموسيقية العذبة :

وَكَأَنَّ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْعَةِ      جُوبٌ فِي جَنْبِ أَرْعَنَ جُسُورٍ  
فَهُوَ يُبْدِي تَجَلُّدًا ، وَعَلَيْهِ      كَلْكَلٌ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسَرٍ

و - وأما الملحمة فقد عرض لها الشاعر في وصف وقعة أنطاكية عندما عمد إلى القصص الوصفي ، وعالج موضوع القتال وآلاته ، والتحام الأبطال في شجاعة واستبسال . وما لا شك فيه أن الشاعر لم يندفع في هذا الوصف اندفاع حاسة ، لأنه أمام رسم جامد أراد أن يحركه ويُنطقه ، فاكتفى بالنقل الحسي ، وسث فيه من الحياة ما استطاع إليه سبيلاً .

ز - وأما التأمل فهو ملء القصيدة وروحها ، وقد أراد الشاعر أن يبسط أمامنا مشهد الزوال ، وأن يبكى المالك البائسة وقد استخلص في تأمله أن الدهر عدو الأحرار والأشراف ، وأن الحياة سلسلة خطوط ، وأن الزمان عامل بئى وفناء ، وأن الإنسان الكريم يعترف بعظمة الرجال وإن كانوا من غير جسده ومنهجه . والجدير بالذكر أن البحراني شاعر أصباغ وألوان لا شاعر معاني ، وأنه قلما يحفل بالتأمل والتفسير ، ولكنه في هذه القصيدة التحق بركب الشعراء العالمين ، وارتفع فوق المستوى الذي كان فيه ، ونزع نزعة إنسانية واسعة الأجواء ، وكان شعره ذا قيمة خالدة لأن المعاناة كانت عميقة صادقة

١١ - والقصيدة سلسلة مشاهد مناسبة الأجزاء ، درج فيها الشاعر على خطّة الصنع وخطّة التعليق على معطيات الحواس ، بأسلوب خيالي جميل ، تنبض فيه العاطفة حبة مؤثرة . فهو في مشهد المدائن شديد الانفعال ، شديد التفاعل وحقيقة الروال ، وكأنني به بمنزج حظاً وحالاً في تلك الطلول الحزينة ، ويندب حياته وحياة من كانوا فيها بصوت واحد حافلي بالشجو والأكين .

١ الجُوب . الثُرس الأرمع . الجبل ذو الرُعن وهو أنف يتقدم الجبل . الجُسُور : الطويل

٢ الكلكل . الصلر . وكلاكِل الدهر : دواحه . مُرْسَر : شت

وهو في مشهد الجرماز يعدل عن الوصف المقلبي إلى الوصف التفسيري ويتخذ من المحسوس سُلماً إلى المعاني الوجودية، فيكفي مصير الإنسان وما يؤول إليه المجد والسلطان:

فَكَانَ الْجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الْأَسَى وَالْإِخْلَالِ بَيْنَهُ رَمْسٌ  
لَزَّ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي حَعَلَتْ فِيهِ مَاتَمًا بَعْدَ عَرْسِ

وهو في مشهد الإيوان يُحيي الجهاد حياةً شديداً، في نزعة تجريدية لا يتفكك فيها من قيود الواقع تفتناً كاملاً؛ وهو فيه جاهلي الواقعية، عباسي التجريد، يجمع بين التزمتين جمعاً بحترياً خاصاً.

١٢ - والذي يروق في هذه القصيدة ما هنالك من صناعة بديعية ساحرة، تساب في كلام البحري انسياً، وتكسبه قوةً ورونقاً وجمال صورة، وتواكه أحياناً بنغمة توسوس في النفس وتعمل فيها ما تعمله نعمة الأوتار المتلوية. فهو في البيت الأول يتابع الأحرف الصافرة وكأنها رفرات الأعاق، وأنفاس الحوارح:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنَسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ

وهو في البيت الثالث يكرر لفظة «الأخس» للمجانسة فتعبر بصوتها عن اشمزاز لا حد له. وهو في البيت الرابع يستعير الفعل «حضرت» والاسم «رحلي» للهموم، فيُشخص، ويقوي المعنى، ويصبع الكلام صفة بدوية عذبة. وهو في البيت السادس يكرر لفظة «الخطوب» ويستعمل من الألفاظ ما يجعل النفس والحسد في أرجوحة الأسمى والتذكر الأليم. وهو في البيتين التاسع والعاشر يجعل الأحرف الصافرة في مقام الاستخفاف... وهكذا فالقصيدة سلسلة من الوثبي الأيق الذي يلذّب النفس انفعالاً وذهولاً.

هكذا كان البحري شاعر البداوة والحضارة في عهد بني العباس، فكان رجل النقل والتأمل، ورجل البناء الوصي الفني. ورجل الصناعة البديعية الجميلة؛ وكان أخيراً شاعر الغنة الساحرة الذي «أراد أن يشعر فغنى».

## مصادر ومراجع

- محمد صبري . أبو عبادة البحرّي . في مجموعة «الشوامخ» القاهرة ١٩٤٦
- عبد السلام رستم . طيف الوليد أو حياة البحرّي . القاهرة ١٩٤٨
- محمد طاهر الجبلاوي . الكلام في شعر البحرّي وأبي تمام مصر ١٩٤٧
- جرحي كتمان : البحرّي — حماة ١٩٤٧ .
- عبد الرحمن شكري : البحرّي أمير الصناعة الرسالة ٧ (١٩٣٩) ص ٧١٧ ، ٧٥٥ .
- رجمة إلى البحرّي الرسالة ٧ : ١٠٣
- مارون عود : الرؤوس . بيروت — ١٩٤٦ ص ١٥٧ — ١٦١ .
- طلح حسين . من حديث الشعر والنثر القاهرة ١٩٥٢ .
- سيد نوفل . شعر الطبيعة في الأدب العربي — القاهرة ١٩٤٩ .
- عبد العظيم علي قناوي : الوصف في الشعر العربي — القاهرة ١٩٤٩ .
- أحمد أحمد بدوي : البحرّي . در المعارف — بيروت .
- نعيم أمين الخلد . البحرّي - الصياء ٦ ، ٧ ، ٤١ ، ٧٢ ، ١٣٦ ، ١٦٨ ، ٢٠٦ ، ٢٣٩ .
- ٣٧٨ ، ٤٢١ ، ٤٥٣ .
- ماري عجيبي البحرّي الطليعة ٣ : ٢٦٩
- خليل مردم . شعراء الشام في القرن الثالث البحري مجة ٥ ، ٤١٢ ، ٤٢٦ .

# ابن الرومي

(٢٢١ - ٢٨٣ هـ / ٨٣٥ - ٨٩٦ م)

١ - تاريخه: وُلد ابن الرومي في بغداد وتوفي بوه هشتا تيماً، وكتب على طلب العلم ثم مَرَّح ورزقي عذّة  
سجن متوا في حدائقهم، ثم ماتت روحه ومات أخوه ولم يبق له في الحياة عون على التشاكك. عاش  
عيشة حزن وألم وطرّ

لم يلب حظوة لدى العظماء فقم على الناس أنعمس وكان من ثم صرّ الصدر. سقط  
اللسان. شديد الإلحاف

ألحّت عليه الرقة في الأسراف ولحج فكان التشكّي ديدنه.

٢ - أدبه: لابن الرومي ديوان صخم حيمه أو بكر الصولي وهو يدور حول الموضوعات التقليدية،  
وكانت تلك الموضوعات إطارات لتنفس عقربة الشاعر

٣ - شاعر المدح والعتاب: مدح ابن الرومي عدداً كبيراً من العظماء ولاسيما آل وهب وآل طاهر  
القصيدة المدحبة عنده سلسلة من الموضوعات والأغراض المتناخلة. أعجب تداول. وهي تصد  
عن أنهم همسي وتهدف إلى المال الذي يوصل إلى منة الحياة، وذلك في جدب وقاش وتعليل  
والتطويل يجعل القصيدة المدحبة عند ابن الرومي فصلاً من فصول النثر.

ومدح ابن الرومي مبادئ تقليدية لا ترتعش ارتعاشة الحياة إلا عندما تشتد عاطفة الطمع في المال  
والخبرة

ومدحه ملاحم قسبة حافلة بالصراع والمساجعة.

وهو حشد لمحمسات انكلامته تعطب عليه لئلا يندافقه.

٤ - شاعر الزلل:

١ - يتذلق ابن الرومي في زلته اندفاعاً لأنه يري في من يحب ويرقي في حالة انفعال شديد

٢ - عاطفة صادقة عميقة متقلة بجميع نواب الحياة

٥ - شاعر الهجاء والسحر:

١ ابن الرومي من أقدر الناس على الهجاء لأنه من شذهم شعور بالقيح وانفعلاً به وعوراً منه،  
ومن أهدهم تخیلاً له

٢ - يتزع هجاءه زعيتين: رعة فردية ونزعة اجتماعية. أما الهجاء الفردي فتصوير وتشويه واشتمار  
وسحر. وأما الاجتماعي فهو نعمة على المجتمع حافلة بالنشأوم واللوعة

## ٦ - شاعر الوصف

- ١ - عوامل وصفه: اشتر الوصف في شعر ابن الرومي ، وكان من عوامله إحساس الشاعر المزهف ورواسه تطريزي وخياله البليغ
- ٢ - موضوعات وصفه: تناول في وصفه الماديات والعمريات فوصف مظاهر الطبيعة والآكل وموضوعات وصفه: تناول في وصفه إما ماعلاً بقللاً تقليدياً ، وإما مذهباً على الخارج اندهاقاً رومسطقياً
- ٣ - وصف الطبيعة
  - ١ - الوصف السخفي: يرسم ابن الرومي بعض المشاهد دسماً دقيقاً لا يهيم به إلا أن يعبر ويكبر ويوضح . وهو بعيد من تم إلى التصريح ، والتشبيه ، وتعداد العُور ، وملاحقة الحزبات والتدصيل
  - ٢ - الوصف التفسيري: يعل ابن الرومي بعض المشاهد الأخرى من خلال كيانه الذاتي . ويفسر الوجود انظاها بالوجود الماطل إلا أنه لا يستطيع التلصص التام من قيود الواقع
- ٤ - وصف الآكل:
  - ١ - هذا الوصف عادة منتشرة في عصره
  - ٢ - وصف الآكل عند ابن الرومي إشراك حواسه كلها ، وريح من نفس وو حذاك ، في مهارة ودقة وزبحار

- ٥ - وصف المرأة والفرزل تدو في هذا الوصف الزعة المتبدلة التي لا تتفقد بالتخصيص . وشعر ابن الرومي هذا يكاد يكون حالياً من تفسير الحرية للشخصية

## ٧ - شاعر الحياة

- ١ - ابن الرومي عقل مذكر وإحساس مُسَيَّر . ومن ثم هذا رأى في الحياة ساحة من سوانح الوجود العاطفي . ورأى أنه بحيا يقدر ما تمنع . وقد آله المنعة في واقع الحياة وليت الذين في عقله دون قلبه
- ٢ - اصطدم بألم الحياة فأسرف في التطير ، وأكثر من تشاؤم في شعره ورأى أن العظم شمع بين الناس ، وإن النمر شامس وإن اللوم ملازم للصح البشري ..

## ٨ - خصائص ابن الرومي العامة:

- شعر ابن الرومي تصوير ونعت وموسيقى وجاة وهو إلى ذلك حامل بالترابط المعكري . ووجدة المألوف ، ومعنى اللادة المعكزية ، ونحسب المنعويات والإحساسات ، ومعاداة بين المقطع واسمى

## ٩ - تاريخه:

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي . وُلد في بغداد سنة ٨٣٥ م / ٢٢١ هـ . وكان رومي الأصل من ناحية أبيه وفارسيّاً من ناحية أمّه . نشأ في

ولاء عبد الملك بن عيسى بن جعفر بن المنصور ، وتردد على الراوية ابن حبيب<sup>١</sup> وأخذ عنه اللغة والأنساب ، وتوفي أبوه وهو على حدثه في السن . ولم يبق له بعد تلك الوفاة إلا أخ<sup>٢</sup> أكبر منه وأم فاضلة يعول عيها في زحمة الحياة . ثم تزوج فرزق ثلاثة بنين : هبة الله ، ومحمداً ، وثالثاً لم يصل إلينا اسمه ، وقد ماتوا جميعهم في عمر الطفولة وراثهم الوالد المفجوع بأرق ما يكون من الرثاء . ثم ماتت زوجته وهي في مقبل العمر فرثها ، ثم مات أخوه ففرغ ميدان الحياة حوله . وراح يعالج الوجود في تناقض مرير واستسلام قال ، صارفاً معظم أيامه في بغداد لا يبارحها قليلاً حتى يرجع إليها متشوقاً . وبما يذكر أنه قصد مرة سامراء ، انتجاعاً بדרך . وطالت فيها إقامته بعض الطول . ولكن الحظ لبث له خائناً . فحنّ إلى بغداد وما لث أن عاد إليها

هنا جلّ ما نعرفه من أخبار ابن الرومي المتعلقة بحياته . إنها صئيلة بالنسبة إلى ما نعرفه عن سائر الشعراء والأدباء . وذلك أن الحظ الذي حاربه في حياته حاربه بعد مماته . فاكشف المؤرخون بحشد الأخبار المتعلقة بأطوار الرجل وشدوده النفساني ، وطيرته الشديدة التي لم تفارقه إلا عندما فارق الحياة<sup>٣</sup> .

## ٢ - أدبه :

لأن الرومي ديوان ضخّم جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم ، طبع

١ - طالع «معجم الأدباء» لياقوت ٦ ، ص ٤٧٤ . وما يذكر أن من الرومي كان عن مسط وافر من ثقافة عصره في شئ مروعها

٢ - هو أبو جعفر محمد . وكان أدب وعمل كاتباً في ظل بعض العظماء ، وتوفي في نحو الحادية والثلاثين من العمر

٣ - مما يروى في ذلك أن بعض إخوانه من الأمراء اعتقدوا أنهم يحال من الطيرة ، فبعث إليه أحداً اسمه «إقبال» ليصاقل به . فلما أخذ أهله للركوب قد للخادم . انصرف إلى مولاك ، فأنت ناقص . وميكوس اسحك ولا بها . « وروى علي بن عبد الرحمن العباسي صاحب مجاهد التصديق أن ابن الرومي كان كثير التطرّح جداً وأنه فيه أخبار غريبة ، وكان أصحابه يمشون به فيربلون إليه من يتطرّح من اسمه فلا يخرج من به أصلاً ، ويتبع من التصرف سائر يومه . فأرسل إليه بعض أصحابه يوماً يعلم حسن الصورة اسمه حسن . فطرق الباب عليه . فقال : من ؟ فقال : حسن فضائل به وحرص ، وإذا حلّ باب داره حاوت حياط قد صلب عنها درفتين كهيت للام ألف ، ورأى تحتها نوى تمر . ففتقر وقال . هذا يشير بأن لا تمر ، ورجع ولم يذهب معه . وكان الأحفش علي بن سليمان قد نزل به . فكان يقرع عليه الباب إذا أصبح ، فلما قال من القارح ؟ قال . مرة بن حفظة ! وبحر ذلك من الأسماء التي يتطرّح بذكرها . فبحس نغسه في بيته ولا يخرج يومه أجمع ، وكتب إليه بهاء ويتوعدده بالهجاب

الخزء الأول منه في القاهرة سنة ١٩١٧. ثم نُشر كامل كيلاني مختارات منه جعلها ثلاثة أجزاء في مجلد واحد يقع في نحو ٥٠٠ صفحة، وصدرها عباس محمود العقاد بمقدمة قيّمة في عبقرية الرجل.

والديون صفحة واسعة من صفحات الحياة في القرن الثالث للهجرة، كما هو صفحة واسعة انطبعت عليها نفس صاحبها في مختلف تأثراتها وانفعالاتها. وفي مختلف آرائها وألوانها. إنه في عمله يدور حول المدح، والهجاء، والرقاء، والغزل، والوصف، والفخر، والعتاب، والطرد وما إلى ذلك. ولكن هذه الموضوعات إطارات لتنفّس عبقرية الشاعر، وطبيعته الغنية السخية. إذ إن شعره شديد اللصوق بشخصيته. شديد التمسّك مع حياته الداعجية المتأثرة بالخارج. اندفاعة عيه اندفاعاً تفاعلياً قِاصاً. وهذا نحن أولاء نعد إلى الإطارات والأغراض العامة، محلّين، ومعلّين، مستخرحين الميزات المختلفة مع علاقتها بنفسية الشاعر ونفسية بيئته.

#### ٤ شاعر المدح والعتاب

١ ممدوحوه انساق ابن الرومي مع تيار عصره الجارف، فعاج الأدب الرسمي على طريفته الخاصة. ومدح نحواً من أربعين شخصاً كآل طاهر<sup>١</sup> وآل وهب<sup>٢</sup>. ومن آل وهب عبيد الله بن سفيان وزير عصّد الدولة البويهية، وابنه القاسم. قال صاحب الفجري: «كان القاسم بن عبيد الله من ذُهاء العالم ومن أفاضل الوزراء. وكان شهماً فاضلاً ليلاً محضاً كريماً مهيباً جباراً<sup>٣</sup>». وكان شديد الذكاء والعذر. وقد سبب إليه المؤرخون قتل ابن الرومي تحلياً من فلتات لسانه.

٢ - قيمة مدحه.

١ مدح ابن الرومي سلسلة من الموضوعات والأغراض المتداخلة أعجب

١ - أميرة فارسية شريفة كان لها مع ولاية حراسان ولاية الشرطة في بغداد.

٢ - كانوا من قرية من أعمال واسط عملوا في الكتابة في عهد أبي أسامة وألوا حظوة لدى بني العباس. اشتهر منهم الحسن بن وهب وأخوه سليمان.

٣ - طالع ابن الرومي، للعقد، ص ٢٥٧ - ٢٥٨



قد اخل، والمتبانية أشد تبأين، وذلك أن الشاعر ينظم متأثراً منفصلاً، وينظم متشائماً متطلباً، وينظم عتشیاً متكابراً ومتدلاً ثائراً، كل ذلك في آن واحد، وكل ذلك في طاقة إجماء. أما المدح فطلاء خارجي، ووسيلة من وسائل الوصول إلى الهدف، والعامل الأول هو فهم النفس، والعامل الثاني هو المال الذي يبلغ إلى الهدف، وما سوى ذلك من القوى العاطفية المتبانية فهو موكب العاميين العميقين المنبئيين من أعماق النفس. وهكذا يصبح المدح ضئيل القيمة وإن طال. ضعيف الأثر وإن قصحت معانيه وأمتدت صورته. وقد يستح ابن الرومي قصيدته بالتظلم، والشعر نفسه هو المتظلم، والتظلم المجرد هو حاجة نفس الشاعر، حاجة يخلقها التطير، وينتج عنها الإشفاق وخشية الإخفاق، ويرافقها القلق وضعف الثقة في النفس. والشاعر يحاول أن يخفي القلق وضعف الثقة، وأن يخفي الجبن والاضطراب بأقوال الفخر والتمدح تارة، وبأقوال العتاب والتهديد طوراً، بالألاعيب البيانية حيناً والمحااجة حيناً آخر. ولكن عبثاً يعمل، ففي هذه الأساليب نفسها التي يعتمد إليها لإقرار بالحقيقة الكامنة تحت ستار اللفظ، وهذه الحقيقة السافرة المتخفية هي التي تقود إلى الإخفاق الاجتماعي والاقتصادي، والإخفاق يؤرث نيران العواطف المتضاربة ويريدها اضطراباً، وإنا القصيدة المدحية عند ابن الرومي هي كل هذا الذي يمتد أحياناً كثيرة في أبيات لا حد لها، وفي تفصيل جزئيات لا داعي إلى تفصيلها، وفي مناقشات ومحااجات تكاد تكون فصولاً من النثر السائر على مناهج المنطق وأساليب الجدك.

٢ - ومدح ابن الرومي إلهاف يحاول تليينه بأساليب التعبير. والإلهاف في التوقف الطويل عند المطلوب، والتوقف تكراراً لمعاني الجود والكرم، وإشارة واضحة إلى بذل العطاء، وذكر للعطاء المذلول وإن لم يندك عد، وتوهم لحصول الثروة قبل الحصول، وذلك بعمل التهم المسيطر الذي تتصل مع الصورة الفسادية بالحقيقة الواقعية، ويمتزج معه الأمل بالمأمول:

كَرِيمٌ أَسْرَ إِلَيَّ الْخَيْرُ وَمَا أَنَا لِلْعُرْفِ مِنْ كَاتِمٍ

٣ - ومدح ابن الرومي هو المعالي التقليدية متتورة في غير روح ولا صدق حياتي، إلا ما هنالك ممّا يتعلق بالجود ويحفز على العطاء. وإن كان في القصيدة

تسرُّب حياة فن الطَّمْع في المال ، وهذا التسرُّب يُرافق الأبيات جميعاً ، فيرافق المعاني التقليدية على أنها محطّات قول ، وتليينٌ للحاف ، ودغدغةٌ أثرة ، ويرافق معاني الخود على أنها الأمل المشدود ، والإله المعبود .

٤ - ومدح ابن الرومي ملاحِمَ نفسية حافلة بالصِّراع والمُساجلة : صراع في نفس الشاعر بين التَّهم اللائِب والتَّأني الصَّاحِب ؛ وصراع في نفس الشاعر بين نفسه ونفس ممنوحه ، وكأنَّني به يُهاجِمها مهاجمةً عنيفة ، ويريدُ أن يقبض عليها بكلتا يديه ويجرِّها إليه جرّاً ؛ وصراعٌ بين صفاتِ الممدوح في صالح الشاعر ، وصراع بين الأساليب البيانية والتعبيرية لمُحرِّد الصِّراع الحافِز والدافع :

عَجِبْتُ لِمَنْ حَرَمَهُ حَزْمُهُ      تَكُونُ يَدَاهُ يَدَيَّ حَاسِمٍ  
عَجِبْتُ لِمَنْ جُودُهُ جُودُهُ      تَكُونُ لَهُ عُقْدَةُ الْحَاظِمِ

وليس في المعاني التي يوردها ما يثير الإعجاب ، وإنما هو الأسلوب الاستجدائي الذي يتمسك بظل الحقيقة ويعده الحقيقة نفسها .

٥ - ومدح ابن الرومي حشد للمحسنات الكلامية . ولكنه دون حشد أي تمام كمية وقوة ، ودون حشد الحثري فناً وذوقاً ، وهو على كل حال حشد حقيقي وإن غلبت النزعة الاندفاعية على هذا الشعر

وهكذا يرى أن مدح ابن الرومي مزيجٌ من مدح ، وطلب ، والحاف ، وعجاب ، وشكوى ، وفخر وما إلى ذلك . هو صورة لنفسه المتكاملة ، المضطربة ، التي تتألم من الحرمان ، وتبسط في القول ، وتناقش ، وتُسلب البراهين والحجج ، يدفعها نهجها ، ويشدُّ أزرها ما فيها من طمع ، هو صورة لنفسه التي تتزى ، فتلين وتفسو في سرعة ، وتوشوش وتضج في تدفع ، وتنهب مناهب متشعبة في التطير والتشاؤم .

وقد مدح ابن الرومي أجاساً من الناس منهم الوزراء والكتّاب والقواد والتجار ، وقلاً مدح الخلفاء ، وكان يمدح طامعاً ويطريّ آملاً ، وكان يمدح سائحاً على الإقلاق ومن ثم على الناس أجمعين ، فيعائب ، ويظلم ويشكو ويشور ، ويهدد ، وكان يسير عقله ومنطقه . وقوة تحليله ، وبُعد نظره إلى الأمور ، وعمق تأثره وانفعاله ، في سبيل

الإقناع ؛ وإذا هو ر جل جدل وقياس ، واستنتاج ، وإذا هو عقل وعاطفة يندققان سبلاً هداراً على عقل المدوح وقلبه ؛ وإذا هو مدافع عن نفسه ، محتج على كل من يُنكر قدره ، ويتجاهل فضله ؛ محتج على من ينصرف الى غيره من الشعراء والبلغاء دونه .

وقصائد ابن الرومي المدحبة فصول طويلة في القول ، كثيراً ما تتجاوز المئة بيتاً ، وهي مناقشات منظومة ، في ترابط الأجزاء ، ودقة الإشارة ، وبعد التحليل ، وسهولة التعبير . على ما هالك من ألفاظ غريبة ، يقود الشاعر إليها طول تلك القصائد

## ٢ - شاعر الرثاء :

إن رثى ابن الرومي النديم في رثائه اندفاعاً لأنه يرثي من يحب ، ويرثي في حالة من الانفعال شديدة ، وفي حالة من الحزن المتجمع التراكم شديدة أيضاً . فهو يرثي أبنائه ، ويرثي شبابه المُهاوي ، ويرثي بُسْتان المغنية التي طواها الردى بعد أن كانت فنية للقلوب والأسماع . ويرثي أمثال هؤلاء أو يرثي مدينة البصرة بعد أن دخلها الزنج وعاثوا فيها فساداً .

وكان ابن الرومي يُحبُّ بنيه ، ويحذ فيهم امتداد ذاته في الحياة التي كان يحبها أيضاً ؛ وكان كلما فقد واحداً منهم فقد جزءاً من ذاته ، وجزءاً من امتداده الحياتي ، بل جزءاً من الحياة .

وكان ابن الرومي يحبُّ الحياة ، والحياة في نظره مُتَحَف من متاحف الحلال ، وموضع متعة ، بل هي تفاعل حسي بينه وبين الوجود . وكان كما شعر بقواه الحياتية تضعف فيه ، وكلما شعر بعلامة من علامات الشيخوخة تظهر في جسده . وكلما لمح للشيب ديباً ، جَزَع شديدة الجزع وبكى مرَّ البكاء .

وكان ابن الرومي يحبُّ المرأة أياً كانت ، لأنها امرأة . ولأنها موطن أنوثة . ومحط آمال الشَّهَم والشهوة الحسية ، وكان يزداد حبه لها إذا جمعت الى أنوثتها جمالاً يسبي النظر . وصوتاً جميلاً يُطرب الأذن ، أي إذا أضيفت إلى أنوثتها ما يقوي نهم الشهوة ،

وكان إذا ماتت امرأة يحبها يحزن ، وإذا ماتت قَيْتَةُ كُسْتَان التي ملأت نفسه وقلبه بصمتها وروعة صوتها وغنائها يشنّدُ حزنه الى حدٍّ بعيد .

وكان الفقدان في نفس شاعرنا إيقاظاً للآلام المختلفة التي رافقت حياته ، أي كان تراكم آلام وأحزن . وانهار كيانه . وهكذا كان رثاء ابن الرومي مُعبِراً أبداً عن عاطفة صادقة ، عميقة في صدقها ، مُثْقَلَةٌ بجميع نواكب الحياة التي عرفها ، مثقنة فوق ذلك بجميع انكفاءات الشاعر على آلامه ، وبجميع نظراته المتتالية المتواصلة الى شقاء الوجود .

وابن الرومي في رثائه هو ذلك الطفل الكبير الذي لا يملك أعصاباً ولا يعرف الوقوف عند حد . وهو ذلك القرينة الفياضة التي تجود وتُطيل ، ولا تمنّ الإطالة ولا تقف الإطالة عنده حائلاً دون المتعة والسلاسة والسهولة . وإطالته في الرثاء تختلف عن إطالته في المديح . فصائده الرثائية انفجارٌ طبيعي لا يجري على سنن العقل والتفكير ، ولا يتبع خطة معلومة ، ولا يهدف الى إقناع . هي انطلاقات عاطفية عن تأثر عميق ، وتعبير طبيعي عن ذلك التأثر .

\* \* \*

وهكذا كان رثاء ابن الرومي تمثيلاً للموت والماتت ، وتصويراً لناطق التأثير ، وتفجعاً مديد الأصداء . ودموعاً سخينة تُقَرِّحُ الجفون ، وآهات محرقة ، في سلاسة قول وسهولة لفظ ودفقة معنى .

٥ - شاعر الهجاء والسخرية :

١ - قال المستشرق روفون جست Rhuvon Guest : « يُعتبر الهجاء ميدان ابن الرومي ، الميدان الذي برّز فيه . ويوجد بين قصائده عدّة قطع في الهجاء ، تشتمل على مئات الأبيات ، فلا يفوقها في العدد إلا المديح . ويمكن أن نقسم أهجاء ابن الرومي الى الأهاجي المعتدلة والمُقدِّعة . ويحد المرء في القسم الأول قطعاً ، قصيرة عادةً ، تسخر من أفراد بسبب بعض النقص أو الخطأ ، مثل العيون الجاحظة ، أو اللحية الطويلة ، أو

الحقارة ، أو النخل ، أو الحُبْن . والسخرية فيه لاذعة ، ولكنها لا تفقد روح الفكاهة ...

« ونضم الأهاجي المقعدة عدّة قصائد طويلة تشتمل على أفحش وأعنف ما يمكن من سب . وهي عادة تُهاجم مُهاجمي ابن الرومي ، أي أولئك الذين سبّوه . أو نقدوه في ملسه . أو مسلكه أو شعره ، أو أولئك الذين أثروا كراهيته بأمر ما ، ومُعظمهم شعراء مافسوس ، وهو سريعاً ما يُلقى في الوحل ، يريد أن يُلصقه بهم . فيُسبب الشخص المهاجم إلى أمور شائنة ، ويتهمه بما يحقره ، ويشهر بأمره أو أسرته أو زوجته أو سائله . ويمتخر بعنف هجاءه العاصفة التي تُؤذي إلى دمار لا أمل في إصلاحه ، أي تُؤذي إلى فقد الاسم والسمعة الطيّبين . ولا يحتف في إقذاعه عن غيره من الشعراء العرب في عصره إلا في الدّرجة ... وغالباً ما يُقدّم ابن الرومي بين يدي أهاجيه الطويلة بمقدمة . يرمي منها إلى جعل القصيدة مُعربة للقراءة . ويقول إنه يمنع من هجاء ذوي المناصب العالية حتى بعد عزلهم منها ، خوفاً من العقاب . لأنهم قد يستعيدون سلطتهم . أو لأن من الحقارة هجاءهم إذا ما كان عزلهم نهائياً ، ولكنه لم يُراع هذه القاعدة التي يقول إنه يتبعها . فأهاجيه في صاعد وابن بلبل بعد عزلها مريرة وغير كريمة » .

٢ - وابن الرومي من أقدر الناس على الهجاء لأنه من أشدهم شعوراً بالقيح ، وانفعالاً به ، وتطيراً منه ومن أقدرهم تمثيلاً له . إنه كان شديد التأثير كما كان شديد الانكفاء على ذات نفسه لمضع لموضوع تأثره ومدّة انفعاله ، وكان إلى ذلك موطناً من مواطن الألم ، صبّ عليه الدهر أعظم المنصائب . وحرره الحظّ والبأس أقيح المحاربة . فراح يتتبع النقائص ويتحرى المساوئ ، انتقاماً للجهل من القبيح . وانتقاماً لنفسه من لؤم المجتمع ، وهكذا نزع هجاؤه نزعتين كبيرتين : نزعة فردية ذاتية . ونزعة اجتماعية .

أما الهجاء الفردي الذاتي فهو صورة مشوهة كاريكاتورية لا تنفر منه نفس الشاعر المتطيرة ، هو تضخيم للعناصر التي تتجلى قبحاً في المهجور ونفوراً عند الهاجي . وقد تنحصر تلك العناصر في عنصر واحد كالنجم عند الأحديب :

قَصُرْتُ أَخَادِعُهُ، وَغَارَ قَدَالُهُ، فَكَأَنَّهُ مُرْصُصٌ أَنْ يُصَفَّعَا  
وَكَأَنَّهَا صُفِّعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسُ ثَانِيَةً لَهَا فَتَنَجَّعَا<sup>١</sup>

فابن الرومي يصف القبح وصفاً، ويصوره تصويراً، ويظهر بذلك لمراً يرضي حاسة  
التصور عنده، وحالة التطير في نفسه؛ وهذا الوصف الشمراري وسخري في آن  
واحد، وهو مليء بالحياة التي تمثل فيه أروع تمثيل، في أوجز لفظ، وأشد حركة،  
وأقوى فاعلية. وإنه ليسير في بدء أمره سيراً وتبدأ ثم يطالعك فجأة بما يفجر الضحك  
تصغيراً، ويطلقه إطلاقاً. قال ابن الرومي يهجو رجلاً بخيلاً اسمه عيسى:

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ، وَلَيْسَ يَبَاقِي وَلَا خَالِدٍ،  
فَلَوْ بَسْطَطِيحُ لِيَقْتِيرَهُ تَنْفَسَ مِنْ مِشْخَرٍ وَاحِدٍ

وابن الرومي لا يهاجم المهجو مهاجمة عنيفة إلا إذا غاظه وألحق به سوءاً، فهو  
إذ ذاك هاج وتورة، وكلامه إذ ذاك سهام متطايرة توخى المقاتل ولا تخطأ، وتنفض  
على الجسم والمرض تمرقاً فاحشاً لا تترك معه للمهجو سيلاً إلى القيامة.

وأما الهجاء الاجتماعي فنجدته خلال بعض القصائد الطويلة، وهو ثمرة نقمة الشاعر  
على المجتمع، وثمره تشاؤمه الذي ينظر إلى الوجود من وراء ظلمة النفس، فلا يرى إلا  
شراً مستطيراً ولا يرى إلا ظلماً مستبدّاً، وإلا حظاً يمشى مع الخسة والاحتياال،  
ويناصر الجهل والذليلة. ونحن نجد هذا النوع من الهجاء في عدة قصائد ولا سيما  
القصيدة التي وجهها ابن الرومي إلى أبي سهل بن نوبخت. وهي تربو على المئة والثلاثين  
بيتاً، وتتضمن عتاباً لصديقه ابن بويخت الذي عامله بالتضييق وعامل غيره معاملة جود  
وكرم مع أن هذا الغير لا يستحق إلا الامتهان والازدراء. والشاعر يهاجم هؤلاء الناس  
الذين خفت عقولهم فارتفعوا في تقدير الزمان، وهم كالحيث المنتنة التي تطفو على

١ - الأحادع مفردتها أنسخ وهو عرق في صممة العنق، وهما أحداعان. القدال: جاع مؤخر الرأس.  
مرصص: منظر

٢ - القفا: مؤخر العنق.

سطح الماء فيما انحدرت العقول الكبيرة الى أعماق اللجة كما تنحدر اللآلئ الكريمة والجواهر الثمينة .

يتنفس ابن الرومي في هذه القصيدة عن كل ما في قلبه من حقد على الدهر ، وحسد لذوي النعمة ، ولا سيما أولئك الذين توفرت لديهم وسائل المنفعة الحسية ، ونحن نعلم أنه كان مفلوراً على غرور كبير يقتن بالهوى والجبن . وكان شديد القلب ينقاد لتزوات طبيعته الجامحة ، شديد التشاؤم والتطير لا يرى الأشياء والناس إلا بالنسبة الى ذاته المريضة . وكان شديد الوله بالنساء . شديد التطلب لمن ، مغرماً بالاستماع الى عناء القيان مهن . كما كان شديد التهم الى المآكل يمدح السمك ، واللحاج المجر ، والقطائف ، واللوزينج ، وغيرها ، وكثيراً ما كان يجزى على شعره بشيء من الخمر أو المصمح أو القطن أو السمك أو ما الى ذلك . وكان ، في القسم الأول من حياته ، ذا أملاك أخذت في التضاؤل شيئاً فشيئاً ، وكان يكثر أبداً من شكوى الفقر والعوز لأنه كان كثير الإللاف . فلا عجب ، بعد هذا كله ، أن ينقم على ذوي النعمة ، يساعده في نقمته ما ملأ زمانه من فساد الخاصة والعامة .

ومما لا شك فيه أن في العاصفة التي أثارها ابن الرومي كثيراً من القضايا الاجتماعية التي شغلت الناس عصره بعد عصر ، كقضايا الطبقة ، وحداثة النعمة ، وحمل الوظيفة وسيلة بين يدي الطمع والرذيلة ، وإقصاء ذوي العقل عن المراتب ، ومخالفة الحظ للسفلة من الناس ، وغير ذلك مما يشير إليه الشاعر في ألم كبير ومرارة شديدة .

وابن الرومي شديد الأفعال في قصيدته ، يندفق كلامه كالسيل الجارف ، فلا يقي ولا يذر . وهو يطلق لسانه إطلاقاً حافلاً بالإفداع ، يتناول الناس قطعهم طعن شراسة ، ويجردهم من كل حسنة ، ويغرقهم في القاذورات إغراقاً شائناً .

#### ٤ - شاعر الوصف :

١ - عوامل وصفه : ابن الرومي من أشهر شعراء الوصف عند العرب ، ولوصفه عوامل مختلفة منها إحساسه الموهب ووصواسه التطيري الذي جعله دقيق الملاحظة ، دقيق التمييز ، شديد الالتصاق بالأشياء ، شديد الانكفاء على نواحي الجمال أو القبح

فيها : ومنها خياله المتيقظ ، الشديد الانطلاق ، الذي يتناول الشيء بقوة إحساسه ، ويصمغه تصخيماً تخيلياً تصويرياً ، ويعينه إحياءً إيحائياً ، ويرسم لوحاته رسماً واضح الخُطوط بين الظلال .

٢ - موضوعات وصفه : وأكثر ابن الرومي من الوصف ، فكان في مدحه وراثته وصافاً ، وكان في غزله وهجائه وصافاً . وكان في كلِّ ساحة من سوانح المكان والزمان وصافاً . وقد تناول في وصفه الماديات والمعنويات أو ما يقرب من المعنويات مما تألفه كثيراً في أدب شعرنا . وكان وصف ابن الرومي لما يحب ويكره ، وذلك لأنَّ الشاعر لا يستطيع أن يقول إلا في ما يحب أو يكره ، لشدة انفعاله ، ولأنَّ الشَّعر لسان انفعاله . وترجمان تأثيراته المختلفة . أما ما يحب ابن الرومي فهو الحياة وكل ما يغذي تلك الحياة ، وكل ما يدور في فلكها ونوعي بالحياة تلك القوى الطبيعية التي تميل بشدة إلى معطيات الحواس . وتلك المظاهر المختلفة لكلِّ موضوع من موضوعات الحواس ، أعني الألوان ، والطعوم ، والأصوات وما إلى ذلك . ثم تلك المباهج الحياتية من شباب وجماس طرب وما إلى ذلك . وأما ما يكره ابن الرومي فهو كل ما يهدد الحياة أو يضعفها أو يمثل صورة مشوهة لها . وهكذا وصف ابن الرومي بعض مظاهر الطبيعة الخارجية الجميلة كقوس قزح والرياح والأزهار ، ووصف المأكَل والمشارب كالزلاية ، والقطائف ، والعنب الرازي ، والموز ، والخمر وما إلى ذلك ، ووصف اللعامة في مختلف أشكالها : في الطول المقرون بالبلاهة . في الادعاء الفارغ ، في تجمع الأحذب ، في اللحية الطويلة ... ووصف الصوت الحسن ، والأخلاق ، كما وصف أموراً أخرى كثيرة يصعب حصرها في مثل هذا المجال الضيق . وكان في وصفه إما ناقلاً نقلاً آلياً تقليدياً ، وإما مُندمجاً على الخارج اندماجاً ورومظيقاً . وقد قلب الوصف عنده ما بين النقل والاندفاع بحيث كان صلة بين القديم الآلي والحديث الإنساني الذي يخلد بخلود الإنسان .

### ٣ - وصف الطبيعة :

أ الوصف النسخي : الطبيعة متحف من متاحف الجمال ، نظر إليها ابن الرومي فوجد فيها مرتعاً لعبه ، ومرتباً لنفسه . أما مرتع العين فشاهد شتى ذات أشكال وألوان مختلفة . حدق بها الشاعر تحديقاً و مراقبة ، فانطبعت في عينه انطباعاً ثم انتقلت إلى



عالمه الباطني حيث تكن قوى الفن تتلقفها الخيال ، وحاول أن يُخْرِجَهَا إلى حَيَرِ الحارج بمرور الألفاظ ، وأن يرسمها رسماً حقيقياً واقعياً ، مُكَبِّراً عناصرها كثيراً بعيداً عن كلِّ تشويه ومسخ وتغيير ، وهمَّ الشاعر في مثل هذا الموقف أن يلتقط العناصر التقاطاً دقيقاً ، وأن يعرِّف عنها تعبيراً دقيقاً ، بحيث تكون في عالم الألفاظ كما هي في عالم الحقيقة ، وأن يطمئن إلى أنه أحسن النقل وكان فيه أميناً . وهو لذلك المهمل يعمد إلى المشهد الذي التقطه ، فيُصْرِّح به تصريحاً ، ثم يشبهه تشبيهاً أو يحال له بضروب من الأساليب البيانية قصد إظهار انطالات والأشكال والألوان ؛ وقد يُعدّد صور الحقيقة الواحدة ويُدْرِجها تدرجاً ، ويكرِّر المعنى تكريراً ويلاحق التفاصيل والجوئيات ، حتى يطمئن — بعد هذا الصراع بين الحقيقة الخارجية ومحاولة التعبير عنها — إلى أنه أدى رسالته النسجية على أتم وجوها . وهو في ذلك لا يختلف عن شعراء الجاهلية إلّا في بعض الموضوعات وفي بعض الصور والتلوينات . وشعره من ثمَّ شعر تقليدي ليس للفنِّ الرافي فيه كبير نصيب . فاسمعه مثلاً يصف العنب الرازقي بأسلوب النقل التقليدي إذ يقول :

وَرَّازِقِيَّ مُحَطَّفَ الْخُصُورِ	كَأَنَّهُ مَحْخَازِنُ السُّبُورِ <sup>١</sup>
لَمْ يَبْقَ مِنْهُ وَهَجُ الْحُرُورِ	إِلَّا ضِيَاءٌ فِي ظُرُوفِ نُورِ <sup>٢</sup>
لَوْ أَنَّهُ يَسْقَى عَلَى الدُّهُورِ	قَرَطَ آذَانَ الْجَسَانِ ابْجُورِ
لَهُ مَلَأَقُ الْعَسَلِ الْمَشُورِ	وَنَكْهَةُ الْمِسْلُوعِ الْكَافُورِ <sup>٣</sup>

وَبُرْدُ مَسِّ الْحَصَرِ الْمَقْرُورِ<sup>٤</sup>

ب . الوصف الضميري . وأما الطبيعة مرتبج الشمس فهي التي ينظر إليها الشاعر من خلال نفسه ، فيتتبع جزئياتها على أنها جزئيات ذاته في شتى أحوالها الحياتية . فهو في قلبه واضطرابه ، وفي اشمئزازه من مُعاملة الناس له ، وفي ألمه اليأس وغروره الجامح ؛

١ . العنب الرازقي هو العنب الملاحى محصف . الحصور . ضميرها

٢ . الحُرور : حرَّ الشمس

٣ . شارب العسل وأشتهاه . جناه .

٤ . الحصر . البارء المقرور . الذي أصابه البرد

وهو في ثورة شهوانته وتدفع إحساسه ، وفي تنه كيانه وتيقظ شعوره ، يريد القرار من عالمه الى عالمٍ قلبٍ يُخلص ويعطف ، الى عالم قلبٍ ينوب فيه ويفنى فناءً كلياً ؛ وإذا لا يجد عند الناس ما يصبو إليه وما يطمع فيه ، يلتفت الى الطبيعة بكلِّ دقةٍ الطبيعي والكياني ، فتتحول الطبيعة إذ ذك ، بفعل الجراح في شعوره وبقوة الحاسة الإيهامية ، إلى عالمٍ هو عالم نفس الشاعر ، وإذا هنالك تفاعلٌ وتفاعلٌ . وإذا الطبيعة امرأةً يشتبهها ، ورائحة ذكية يستشيقها ، وألوان يترغ فيها ، وحياة يدهل بها عن حرمانه وتنظيه . وهكذا ، في هذا النوع من الوصف الذي يجده في الديوان أبياتاً ومقطوعات ، يصف ابن الرومي فاقلاً الموجودات الخارجية من خلال كيانه الذاتي ، مصبوغةً بصيفته ، مسبوكةً في بوقته فيفسر الوجود الظاهر بالوجود الباطن ، ويندق في الموصوف بحيث يصبح الموصوف فيه ، وهو في الموصوف . وهذا ، كما لا يخفى ، منتهى ما يصبو إليه الفن الوصفي ، ومنتهى ما يصل إليه الأسلوب الروماني ، ألا أن ابن الرومي في هذا التشخيص الجريء لا يستطيع التخصص تماماً من قيود الواقع ، تلك القيود المسيطرة على الأدب العربي القديم ، فهو يريد الانفلات انتام ، ويبسط الجناحين ليظهر ، فيظهر ولكنه لا يستطيع التوهم الطويل والبقاء الكامل في أجواء الخيال ، فيشغل بالواقع حيناً بعد حين ، ويجعل غيوبته عن طريق التشبيه والمقارنة ، لا على أسلوب الإطلاق والذهول التام عن الواقع . قال يصف قوس السحاب :

وَسَاقٍ صَبِيحٍ لِلصُّبُوحِ دَعْوَتُهُ      قَفَامٌ وَفِي أَحْفَانِهِ سِنَّةُ الْقَمَرِ  
يَطْلُوفُ بِكَاسَاتِ الْعُقَارِ كَأَنَّهُمْ      قَعِينَ بَيْنَ مُنْقَضٍ عَلَيْنَا وَمُنْقَضٍ  
وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الْخُوبِ مَطَارِفًا عَلَى      الْجَوِّ دُكْنًا . وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ  
يُطَرِّضُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ      عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَضْفَرٍ ، لَأَمْرٍ مُبْتَضٍ  
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَاظِلِ      مُصْبَغَةٍ ، وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضٍ

١ - أصبح : الحميل . السنة : أول انتماس القمر الضمض الدور

٢ . المطار : الحمر المنفض الساقط المنفض . المشرق .

٣ . المصروف ج . مطرف : وهو رداء من حر الدكن ج . أدكن . وهو الأسود اسواشي ج . حاشية : وهي طرف النوب .

٤ . الخود : الصبية الحساء . الغلاظ : الثياب التي تجمل على الجسم مباشرة .

ألا ترى في هذا الوصف صورة للمرأة التي يصبو إليها ابن الرومي ، وصورة لعداوت  
اليدخ عند فتيات ذلك العصر ، وأخيراً صورة لنفس الشاعر المتناقضة على الطبيعة بكل  
ما فيها من صبوة الى الجمال والحياة والحب ؟ وإنك لتلمس في مختلف قصائد الشاعر أنه  
يحاول أن يتملى جبال الطبيعة بكل جارحة من جوارحه ، ويشارك في تمتعها باللمس  
والشمّ والدّوق ، إلا أن الحظّ الأوفر للسمع والنظر ، فالسمع استطاع أن يميز بين  
الأصوات أدقّ تمييز ، وأن يأتي في تصويرها بأوصاف عجيبة ، متبّعاً خطايا النعم ، فازلاً  
الى أعماق أسرارها ، حتى كأنه يلمس تموجاته ، ويراهها صوراً تتحرك . وعاطف تهاوج  
وتتراحم . وبالعين استطاع ابن الرومي أن يستقري الجمال بشغف ، ويتبين أدقّ الخطوط  
والألوان ، ليؤلف من كلّ ذلك لوحاتٍ كاملة . تخرج بروحه ، وتطلق بلسان حالاته  
النفسية المختلفة . واسمعه يصف غروب الشمس في كثير من الشخصيات والإحياء  
والانساق الذاني :

وَقَدْ رَفَعْتُ شَمْسُ الْأَصْبَلِ وَفَقَصْتُ عَلَى الْأَقْرِ النَّرْبِيَّ وَرَأَى مُرْعَعًا  
وَوَدَعْتُ الدَّنْيَا ، لِتَقْضِيَ نَحْبَهَا ، وَشَوَّلَ بَاقِي عُمْرَهَا فَتَشَعَّشَعَا  
وَلَا حَظَّ الشَّوَارِ . وَهِيَ مَرِيضَةٌ ، وَقَدْ وَصَعَتْ خَذًا إِلَى الْأَرْضِ أَضْرَعًا  
كَمَا لَحَظْتُ عَوَادَهُ عَيْنٌ مُدْنِفٌ تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعًا  
وَطَلَّتْ عَيْنُ النُّورِ تَخْضُلُ بِالنَّدَى كَمَا اغْرُورَقَتْ عَيْنُ الشَّمْعِي لَتَلَمَعًا  
يُرَاعِيْنَهَا صُورًا إِلَيْهَا ، زَوَانِيًا ، وَلَحَظْنَ الْحَاظَا مِنْ الشَّجْوِ خُشْعًا  
وَبَيْنَ أَغْصَانِ الْفِرَاقِ عَيْنَهُمَا ، كَأَنَّهَا خِلَا صَفَاؤِ تَوَدَّعَا . .

١ - رقت : داسقطها . الورس : بات كالسهم يصح به ، ولوه أحمز زعره - حركة شدة ، وروي  
ومعدعاً أي مرقعاً

٢ - شول . نقص تشعشع تفرق .

٣ - الور : زهر الأنثى . الأضرع . الدليل

٤ - اللدغ . الشرط على الموت . الأوصاب : الأوجاع

٥ - صوراً أيها : مائلات إليه روائياً : مددمات النظر إليها

٦ - أغصنه افراق : أي ما يرافقه من صمت وتطبيق عين والم .

ولنحزن نرى أن الشاعر في هذه الأبيات ينقل الطبيعة الجامدة الى طبيعة إنسانية منفعلة، متأثرة، حافلة باللوعة والألم. إنا أمام مشهد وداع يودع فيه الحبيب حبيباً، بل نحن أمام مشهد احتضار ونزاع: شمس الأصيل في انكسارها وإشراقها على الهلاك، والأزهار دامعة العيون تنظر إليها في لهفة وأسى، وقد تراكمت في نفس ابن الرومي عوامل الحزن، وذكر الحياة وآلامها. وذكر سرعة انقضاء العمر والشباب، فجزع أشد الجزع، ونقل ما في نفسه من أسف وجزع ويأس الى مشهد الشمس عند الغروب، وإذا نحن أمام جنازة النهار في موكب الأنوار والأزهار الذابلة. وهكذا ترى أن شعور ابن الرومي بالطبيعة شعور عميق، وهو يقتضي الموصولات الى أبعد غاياتها، ويتخطى فيها الظواهر المحسوسة الى البواطن الخفية، وهو في حالة التبيح العاطفي بأبى القبول بأن مثل هذا الشعور الشديد تحدته فيه أشياء جامدة، خالية من العاطفة والقوة والإرادة، بل يمثل تلك الأشياء في شكل أشخاص حية تشعر بشعور الأحياء، فتألم وتسعد، وتحب وتريد. وهذه الأشخاص التي يخلقها ليست غريبة عن نفسه، بل هي مرآة لها، تعكس كل ما فيها من آلام وأفراح وصبوة وشهوة وذكريات، إنه يعبرها عواطفه، ويسكب عليها من فيض حياته، ثم يكب على تلمس خفقاتها حيث يسمع أصداها خفقات قلبه، فلا يرى من فرق بين ربيعها وشبابه، وجالاتها ومتعه... ومن هنا تلك اللهمة التي تجعل من أكثر أوصافه للطبيعة غزلاً بها.

٤ وصف المأكّل: شاع في عصر ابن الرومي التأثّر في الطّعام، والتفنّن في إعداد الموائد، وفي آداب المأكّل والمشرب، وقد تأثّر الأديباء والشعراء بهذا الجانب المتشرف من الحياة فوصفوا الأطعمة وأكثروا من ذلك. وكان بعضهم يحاضرون بالأوصاف والتشبيهات ولا يحضر شيء من الطّعام والشراب وآلاتها إلا أنشدوا فيه لنفسهم أو لغيرهم شعراً حافلاً بالتصوير والرواق. وإنك لتجد لهم أوصافاً في الهريسة، والبقلاء، والفطائف، وخبز الأرز، وورقوس الحملان ونحوها... وكما تأثّر المترون بطعامهم، تأثروا في مجامس شرايهم وطريهم، فاختاروا لها أطيب الأمكنة والأزمنة، وزانوا أرضها بالأزهار والورود، وعنوا بالآلات وأطبائها، واختاروا لها أطرف الثّماء ومن كانت «عشرته أظف من نسيم الشمال على أديم الماء الزّلال» كما اختاروا أجمل السّقا والساقيات وأبرع المقيّنين والمقيّيات.

إنساق ابن الرومي في هذا التيار، وله من تهنئه حافر شديد، ومن اندفاعه على الحياة وأطاييها دافع لا يُدْفَع، فوصف ألواناً من الأظلمة، وأشرك في ذلك الوصف حواسه كلها، وكان وصفه مزيجاً من نقل ووجدان، في مهارة عجيبة، ودقة يجتمع فيها الإيجاز إلى اتساع الأفق. فهو في عبارة وحيزة يرسم لك مشهداً بكامله في حياته وأشكاله وألوانه وحركاته، حتى لندھشك المعادلة بين اللفظ وما يؤدبه من معنى. قال يصف زلايةً يقلبها رجلٌ باهتمام وعناية:

وَمُسْتَقَرٌّ عَلَى كُرْسِيِّ تَعَبٍ،      رُوحِي الْفِدَاءَ لَهُ مِنْ مُنْصَبٍ تَعَبٍ  
رَأَيْتُهُ سَحَرًا يَقْلِي زَلَايَةً      فِي رِقَّةِ الْقِشْرِ وَالْتَجْوِيفِ كَالْمَقْصَبِ  
كَأَنَّا زَيْنَتُهُ الْمُغْلِي، حِينَ بَدَأَ،      كَالْكِييَاءِ الَّتِي قَالُوا وَلَمْ تُجِيبْ  
يُلْقِي الْعَجِينَ لُجَيْنًا مِنْ أَنَامِلِهِ      فَيَسْتَحِيلُ شَبَابًا مِنَ الذَّهَبِ

٥ - وصف المرأة أو الغزل - مال ابن الرومي إلى المرأة شديد الميل ووصفها بشهوة مادية، فكان جاهلياً في حسنه، قد بدأ في تشبهاته، وهو عندما ينظر إلى المرأة لا يكاد يرى فيها إلا أنها امرأة، أي لا يكاد يرى إلا شهوته تجاهها، وهو من ثم عندما يصفها لا يصف شخصاً معيناً ذا ملامح خاصة وإنما يصف عموم ما يستحسن عند المرأة من قد ولون وما إلى ذلك، وهكذا يخرج عن الذاتية ليقع في ما كان عليه الأقدمون، ويردّد تشبهاتهم وصورهم، ويصبح شعره عالياً تقريباً من تفسير التجربة الشخصية. وقد بأسف، ويشكو، ويتلوع، وما ذلك إلا صدى لشهوة التي تعتنج في داخله ولا نجد ما يرضيها ويُسّع نهمها. وقد نجد له بعض الفلنات الوجدانية الحقة التي تخرج عن نطاق المادية الجاهلية، ولكن ذلك قليل يفرق في جوّ التقيد. أضف إلى ذلك أننا نلمس في شعر ابن الرومي ذوق المتحضر وتفكيره كما يتجلى لنا الأمر في وصف وحيد المغنية، وفي وصف الفناء وأساليبه الفنية التي تدلّ على تفهم حقيقي للحضارة الجديدة،

١ - المنصب. ثعب

٢ - الكيمياء في عرف الأقدمين. علم أرادوه به تحويل بعض المعادن إلى ذهب  
٣ - اللجين: الفضه الشائبة أعواد معارضة من حديد تصب في البعده ويطبق عليها شاك لأنها

متشابهة ما حديد

فوحيد في هذه القصيدة هي الجبال المَغْنَى الذي يُدركه الشاعر بأعصابه قبل أن يُدركه بصره ؛ وصورة وحيد ترسم في نظره كما يُدركها حسُّه ، وبقدر ما تشتدُّ رغبته فيها ، وإذا هي مرآة تنصَّخِم فيها الصورة الجبالية بقدر ما يحدِّق فيها الشاعر ، فتقلب فيها الصورة الى صُور يترأى بعضها في بعض ، ويمتد بعضها في إثر بعض الى حدِّ تضطرب فيه أعصاب الشاعر ، ويتوارى معه كلُّ انضباط وتوازن ، فينهار عالم نفسه ، وتختلط فيه المعالم ، وإذا السعادة والشقاء متجاوران ، والعاوية والمرضى متآزجان ، والأمل واليأس متداخلان . والشاعر في كلِّ ذلك مُبْعَثُ المأساة ومُسَرَّحُها ، وميدان الصِّراع بين القوى المتصارعة فيها .

في المقطع الأول من القصيدة ينظر ابن الرومي الى وحيد على أنها عادة حسنة فيذوب قلبه تأملًا ، وينبعه لسانه بأوصاف تقليدية تحوم حول المشهد الداخلي ، وتُؤَكِّبُ انعجار الوجدان . وهكذا فالمُصنِّع ، والظلي ، والقَدَّ ، والحيد ... كلُّ ذلك إطار عام للنفسِ الشُّرود التي تتصاعد من القلب للثِّيم المَغْنَى ، الذي يعاني الرُّدِّ والسَّلام والجهد الجهد في آنٍ واحد وفي تجربة واحدة :

بَا خَلِيلِي تِسْمَنِي وَحِيدٌ ، فَفُؤَادِي بِهَا مُعَى عَمِيدٌ  
فَهِيَ بَرْدٌ يَخْلُدُهَا وَسَلَامٌ ، وَهِيَ لِلْعَاشِقِينَ جَهْدٌ جَهِيدٌ

وفي المقطع الثاني يتبع الشاعر غناء وحيد ، وإذا قلبه معلق بخيوط ذلك الصوت الجميل يمتد بامتداده وينقبض بانقباضه ؛ ويصمه في شتى تلوياته متدوِّقًا ، مستمتًا ، وأصلًا الصوت دالِّعس ، والنفس بالجسد ؛ ووحيد ترعى بصوتها قلبه ، وتنهش جلده وعظامه :

طَبِيَّةٌ تَسْكُنُ الْقُلُوبَ وَتَرَعَاهَا ، وَقَسْمِيرَةٌ لَهَا تَسْفِرُهُ

وهي تتلاعب به كيفما شاءت ، أو هو بالحرى يجعل من نفسه هُدُوًّا وسُجُوًّا . وموتًا وحياة ... فتتدبَّرُفُهُها ، وتفجير هناك ؛ وتموت هنا ، ونحيب هناك ؛ والعبارة

الشعرية في تجاوب وتناغم ، والبيت الشعري في تقطع هنا ، وتطاول هناك ؛ يزدان بالوشى إذا ازدان النغم ، ويرق دلالاً وغنجاً مع الفنج والدلال ، الى أن تتأزم المساء النفسية ، وإذا كل شيء أمام الفم المغني ، وإذا هنالك الطيب السّاحر الذي يستخف بالعقل المفكر ، وهنالك الوتر الراجف يرافق الوتر العازف ، ويفرق سهمه بين الحنايا ، فيصحي ويقتل :

مِنْ هُدُوٍّ وَلَيْسَ فِيهِ انْقِطَاعٌ ،      وَسُجُورٌ وَمَا بِهِ تَبْلِيدٌ  
مَدٌّ فِي شَأْنٍ صَوْنَهَا نَفْسٌ كَأَنَّهَا ،      كَأَنَّهَا عَاشِقُهَا مَدِيدٌ  
طَابَ قَوْهَا ، وَمَا تَرَجَّعَ فِيهِ ،      كُلُّ شَيْءٍ لَهَا بِذَلِكَ شَهِيدٌ  
وَتَرَّ الْعُزْفُ فِي يَدَيْهَا مُضَاهٍ      وَتَرَّ الرَّجْفُ ، فِيهِ سَهْمٌ شَدِيدٌ

وخلال هذا كله تلمس عبقرية الشاعر الفنان الذي يُسخر كل ما لديه من طاقات تحليلية وتصويرية وتعبيرية لإبراز الصوت على أتم ما يكون قسماً ودقةً وتشخيصاً ، وإخراجه مخرج السحر في مصدره وتعرجاته ، وفي سيطرته ويُعد أثره .

وفي المقطع الثالث يعود الشاعر الى وحيد الفاتنة فيجانب ما بين اسمها والتوحيد ، ويُفرداها عن الحسن جميعاً ، ويطلق في سلم تحيله فيرى فيها احسن المتجدد الذي يستدعي الحب الجديد . وهنا يبلغ الشاعر ذروة التحسس والتصور ، والإبداع في الخلق ، لأن الإحساس يتقلب عنياً مكبرة تلمح في وحيد مجدداً جالياً يتغير مع كل تبصيرة قلب ويزيد اضطرام الحب ، والحب يوقد العين للكبرة الخلاقة فيزيد التجدد الجمالي ، وهكذا في مدار لا حد له :

وَحَسْبَانِ عَرْضَنِي ، قُتُّ مَهْلًا      عَنْ وَحِيدٍ ، فَحَقَّقَهَا التَّوْحِيدُ  
حُسْنُهَا فِي الْعُيُونِ حُسْنٌ جَدِيدٌ ،      فَلَهَا فِي الْقُلُوبِ حُبٌّ جَدِيدٌ

والشاعر أبداً في خضم من المد والجزر ، والاسترسال والانقباض تنضم فيه الطيرة والتشاؤم والاعتقاد بالسحر الى النهم المتكالب ، حتى وكأنه يتنثر في قصص نسجه وحيد بأضلاعه وشرائينه ، وحتى وكأن طيف وحيد قرينة من الجن تابعة له :

عَنْ بَمَنْبِي، وَعَنْ شِهَالِي، وَقَلْدَا  
سَدَّ شَيْطَانُ حُبَّهَا كُلَّ فَعَجٍّ،      مِي. وَخَلْفِي، فَاقِنَ عَنْهُ أَحِيدُ  
لَا يَلِدَبُ اللَّالُ فِيهَا، وَلَا يَدُ      إِنَّ شَيْطَانُ حُبِّهَا لَمَرِيدُ  
خَصُصُ مِنْ عَقْدٍ سِجْرَهَا تَوَكَّدُ

وفي المقطع الرابع أنشودة الوجدان المتألم، والأمل المضاع، والشوق الذي يحاول أن يحيي ميت الأمل؛ وفيه انطلاقة الرغبة التي نخشى مواجهة الواقع ولا نستطيع التملص منه؛ وفيه أخيراً اندفاق القلب المهشم الذي يعشه الوعد ويُميته الوعيد. وإنك لتجد في هذه الأبيات صراعاً عتيقاً بين الألفاظ والعبارات والمعاني والمواطف. وإنك لتحسب أن ابن الرومي مُعَرِّمٌ بالبدیع ولا سيما الطباق منه. والحقيقة أن ابن الرومي عالم تصطبغ فيه المعاني والمواطف فيعمد إلى شتى الأساليب، لا رغبة منه في الزخرفة والتسميق. بل طلباً للتعبير عن بعض ما يضح في نفسه ويفجر كبانه:

مَا تَرَالَيْنَ، نَظْرَةً مِنْكَ مَوْتُ      لِي مُعِيَتْ، وَنَظْرَةً تَخْلِيدُ...  
عَجَبًا لِي. إِنَّ الْقَرِيبَ مُقِيمٌ      بَيْنَ جَنْبِي، وَالنَّسِيبُ شَرِيدُ...  
هُوَ فِي الْقَلْبِ، وَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ نَجْمِ الشَّرِيبِ،      فَهُوَ الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ

وهكذا يصف الشاعر وحيد المغنية من خلال نفسه المعقدة، وأعصابه المريضة، ومآسي حياته كلها؛ إنه يصفها بدقة العقل المحلل، والخيال المصور، والعاطفة المشبوبة. والذاتة التي تعرف الفن، والبيان الرائع الذي يتدفق في سلاسة وسهولة وجمال.

#### ٧ شاعر الحياة:

١ - قضى ابن الرومي حياته في صراع مع الوجود، وكان ذا عقل مصكّر وإحساس مرهف، يسير على سمة إحساسه ويسير العقل المحلل والمحلل في خدمة ذلك الإحساس، لا يجد إلى التفكّل منه سبيلاً، وقد وقف أمام الحياة معتبراً، وحاول التغلغل إلى بواطن حقائقها من خلال نزوات إحساسه وضباب تشاؤمه وتطيره فلم يجد فيها إلا



سائحة من موانع الوجود العاطفي. الحياة إحساس وشعور. وفي الوجود مُتَعٌ تندفع نحوها قوى الإحساس، وليس لابن الرومي رادع لإرادة، وقد قُيِّتَ لإرادته في إحساسه، قهافت على المُتَعِ، وأقبل على الحياة إقبالاً شديداً لإشباع الحس في إشغاله، وتوسيع نطاقه، وتقضى في تطلب المرأة والحمرة والطعام والربيع والرياض وغيرها على أنها أدوات سرور، ووسائل متعة.

٢ - وإذا كان الأمر كذلك رأى أنه يحيا بقدر ما يتمتع، وتمسك بالحياة لأجل المتعة. وتمسك بالمتعة لأجل الحياة، وأحب أن يحيا بقوة ليتمتع بقوة. وإذا كان الشباب عهد الحياة في عفتها فقد رأى فيه كل معاني الحياة، واضطرب أشد الاضطراب عندما رأى الشباب يتسرب إليه، وراح يرى الشباب بأسبار وتفجع بلغا منه أقصى الحدود. كيف لا والشباب أغنى أطوار الحياة والحيوية، وهو للشاعر بمعنى التمكن من الاستفادة الكاملة، بمعنى المتعة الحاصلة التي لا يشوبها نقص

٣ - أجل إن ابن الرومي لم ينكر الدين، ولم يتحل عن نزعة الشيعية والمعتزلية، إلا أن الدين لبث في عقله دون قلبه. فخضعت عاطفته الدينية لفلسفة الحياة، وكانت عنده طوع الإحساس الطارئ. فالحياة هي المتعة. وقد نصب «للحياة المتعة» هيكلًا تُعبد فيه، وبذلك التحق بعباد الزهرة. وكان عنده «للحياة المتعة» شيء من عبادة. وتحجيج وتحريم، وصدوف شديد عن العقيدة الدينية في حيتها العملية.

٤ - ولابن الرومي إلى جنب ذلك كله آراء مشورة ها وهناك، حملها ما في نفسه وعقده من حكمة عرضت له أحياناً وكانت لمعات خاطفة لا تخلو من عمق وامتناد، ومن ذلك أن الجهل لا يطيب، وإن توفى الداء خير من كل دواء، وأن المال يزيد البخل صلابة ويسا، وأن كثرة الأصحاب وبال على الإنسان، وأن الصبر والجزع في يد الإنسان يتصرف فيها اختياراً. وهو يعرض لقضية الخير والشر ويذهب فيها مذهب بعض الفلاسفة فيقول إن الإنسان مركب من نفس وجسد، وإذا كان الجسد من الأرض كان شرّاً لأن الشر كامن في الأرض كموثلاً ضرورياً؛ أما النفس فعنوية وهي من ثم عنصر خير، فعلى الإنسان أن يميل إلى النفس ويعرض عن الجسد.

تلك فلسفة ابن الرومي وهي لا تخلو من اضطراب وتناقض كما لا تخلو من عمق .  
إنها ولا شك «فلسفة الحياة للحياة» وإليك بعض أقواله :

وَيْتَا وَفَيْكَ طَبِيعَةً أَرْضِيَّةً ،      تَهْوِي بِنَا أَبَدًا لِشَرِّ قَرَارِ  
الْأَرْضُ فِي أَعْمَالِهَا مُضْطَرَّةٌ ،      وَالنَّحْيُ فِيهِ تَصَرُّفُ الْمُخْتَارِ<sup>١</sup>  
النَّفْسُ خَيْرُكَ ، إِنَّهَا عُلُوبَةٌ      وَالْجِسْمُ شَرُّكَ ، لَيْسَ فِيهِ نَارِ<sup>٢</sup>  
فَأَتَمِّدْ لِخَيْرِكَ ، لَا لِشَرِّكَ .      وَاتَّبِعْ أَوْلَاهَا بِالْقَادِرِ الْغَفَّارِ<sup>٣</sup>

#### ٨ خصائص ابن الرومي العامة :

١ عالج ابن الرومي شتى الفنون الشعرية . أمّا مدحه فكان للتكسب وكانت القصيدة المدحية طويلة تبلغ أحياناً ثلاث مائة بيت ، يفتحها الشاعر بالنسب ، أو يكاء الشباب أو بما يشبه ذلك ، وهو يطيل المقدمة فيها ثم ينتقل الى الممدوح فيبالغ في مدحه ، ثم يختم كلامه بالسؤال والشكوى . وفي هذا المدح نقاش وجلل ، واحتجاج ، ومبالغة في التقصي ، وترباط فكري ، حتى لكان القصيدة فصل من فصول الثر . وأمّا هجاء ابن الرومي فيختلف بين الطول والقصر ، وهو تصوير مضحك ، أو تخرّيج قتال . وأمّا غزله فليس فيه ما يلفت نظر الناقد . وأمّا وصفه فمشهور ، ولكن قصائده الوصفية الخالصة قليلة ، وأكثر ما تجد روائحه الوصفية في مقدّمات قصائده

وإن من طالع شعر ابن الرومي ، رأى الكثير من أوصافه لوحات فنية تتمثل فيها الألوان والأشكال والحركة أشد تمثلاً وأدقّه وأنقّه ، وهي من ثمّ تصوير ونحت وموسيقى وحياة . أمّا التصوير فتتسق ألوان وتزأج أصباغ ، وأمّا النحت فتأثيل ناطقة تتجاوب فيها الظلال والنوتى ، وأمّا الموسيقى فالفاظ وأوزان وقوافٍ تصل بين عاطفة الشاعر

١ يقول : إن الأرض موطن شرّ لا تسطيع التخلص منه . والإنسان حرّ في الاختيار .

٢ تمار شك يقول في لإنسان طبيعتان - طبيعة حري في النفس لأنها مياوية ، وطبيعة شرّ في الجسم لأنه أرضي .

٣ - ماعد : فاقص

وموصوفاته، وتنبع نفسية الشاعر والنفس التي يجعلها في ما يصف، وإذا هنالك تحاوب نبضي وترديد لأصدا، وتمازج لهفة زافرة من الشاعر الى ما يصف، وبما يصف إليه. وأما الحياة فهي كل ما ذكرنا في انطلاقه وحركته. وابن الرومي من أقدر الناس على تمثيل الحركة، وتشخيصها، وإبرازها كاملة في أوجز قول؛ فهو رسام حركة وهو نحّات حركة، وهو موسيقي يوقع الحركة على أوتار أنفاسه ونبضات شهواته.

وابن الرومي قلما ينجح في الرثاء، وهو في شعره اللاهي كثير الجحون والبذاءة والفحش.

٢ - ويروك في شعر ابن الرومي عامة ذلك الترابط الفكري الذي يسوق الأفكار سوفاً محكماً بحيث تتولد الواحدة عن الأخرى، وتتم الواحدة الأخرى، في سير متلقي يقود إلى الغاية، بحيث تصبح القصيدة في معناها ومبناها ذات وحدة تأليافية قلما نجدها في الشعر القديم، فليس هناك تفكك، وليس هنالك استطرادات تخرج بالتنبيه الى وصف قصصي يكاد يكون مستقلاً عن سائر أجزاء القصيدة. وتروك في شعر ابن الرومي تلك المادّة الفكرية الغنية التي تقدّم لك المعاني وجزئياتها، وتفسرها تفسيراً جدلياً تحليلياً، في افتراض وقياس، وبرهان وبينة، حتى ليقارب الشعر أن يكون ثراً؛ وقد يعمد الخيال الى المعنويات والإحساسات فيجسمها ويصورها ويخرجها في جسم محسوس يرى ويسمع. وهنالك تلك المعادلة بين اللفظ والمعنى بحيث لا يفارق اللفظ معناه، فهو في حروفه وموسيقاه ووزنه وقافيته وأصاليه البيانية والبدعية في خدمة المعنى أداً وتفسيراً وتقريراً وتصويراً.

٣ - ولابن الرومي مقدرة عجيبة على «التصوير الكاريكاتوري» الساخر الذي يرسم لك في بيتين أو ثلاثة صورة الأحذب أو غيره، ويقدم من خلال الخطوط القليلة مشهداً حياً مجسماً، حافلاً بالإحياء، آية في الروعة، ويحملك على الانفجار في الضحك.

٤ - والذي يغلب على شعر ابن الرومي هو طابع الارتجال، والاندفاع الذاتي الذي يرافق الانفعال والإحساس فيسير به العقل، تحت سيطرة الحس، الى أقصى حدود التحليل والتعليل، فتتولد المعاني، بعضها من بعض، وتندرج الأفكار، تعالياً

أو تدنياً . وتتداخل الأغراض في وحدة الإحساس والهدف ، وتتشخص المتجردات والمعنويات وتتدخل في حركة الجدل والقاس . وهكذا فشعر ابن الرومي مرآة تتجلى فيها نفسه وشئى نزاعاته .

٥ ولغة ابن الرومي غنية ، وأسلوبه سهل في أكثر الأحيان ، وهو كثيراً ما يعتمد التشبيه للتفسير ، والاستعارة للتشخيص . وإنك لتجد في شعره كثيراً من الوجوه اليازية والبدئية ولكنها تصطبغ بصبغة الجري مع الطبيعة .

٦ - قال المرباني عن ابن الرومي انه «أشعر أهل زمانه بعد البحري وأكثرهم شعراً ، وأحسنهم أوصافاً ، وأبلغهم هجاءً ، وأوسعهم افتناناً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه ، يركب من ذلك ما هو صعب متناوله علي غيره ، ويلزم نفسه ما لا يلزمه ، ويغلط كلامه بألفاظ منطقية يحمل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ . وهو في الهجاء مقدّم ، لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره عزارة قول وغيره منطوق . ولا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس ومرؤوس إلا وعاد عليه فهجاءه ... فلذلك قلت فائدته من قول الشعر . ونحاماه الرؤساء . وكان سبباً لوفاة . وكانت به علة سوداوية ، ربما تحركت عليه فغير منه .»

٧ وقال ابن رشيق : «أما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه وحسن افتنائه ، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهّر به فصار يقال : أهجى من ابن الرومي» .

٨ وقال روفون جست : «ومن خصائص شعره الالفة للنظر اتصال الجدل فيه وتماسكه في مقابل جدل بعض الشعراء العرب الآخرين في عصره الذين يقدمون أشياء واضحة ولكنها غير متصلة بعضها ببعض إلا اتصالاً طبعياً . والخاصة الأخرى التي نلاحظها جرأته في صوغ تجاربه في صورة موضوعات وألوان من الحوار يدخلها في داخل قصائده وفي تقليد الشخصية الموحود في واحدة أو اثنتين منها ، وفي طرق التعبير التي قلما ترد في شعر غيره من شعراء العربية في عصره ، حتى يمكن اعتبار ابن الرومي مبتكرها أو مكشفها ، إذ لا يمكن أن يكون أخذها من غيره . وقد اختلف نجاحه في

هذه التجديدات التي أدخلها في قصده واعتدال. ولو كانت تطوّرت على أيدي غيره لأضافت العنصر القصصي (الدرامي) إلى الشعر العربي، ولكن من بعده أهملوها<sup>٩١</sup>.

#### ٩ شاعرية ابن الرومي.

كان ابن الرومي شاعراً فذاً، ذا عبقرية من أغنى العبقريات وأعمقها. وقد استطاع أن يكون رجل الحضارة الجديدة من غير أن يستطيع التخلّص من التقيد الشعري عند العرب، واستطاع فضل أصله الإغريقي والمصائب التي حلت به، ثم التطير والتشاؤم اللذين استوليا على نفسه، استطاع أن ينحو في الشعر منحى خاصاً امتاز به عن سائر شعراء عصره إذ جعل من القصيدة فصلاً طويلاً من فصول النقاش والجدل، وجعل من البيت الشعري حلقة وثيقة الاتصال بما قبلها وما بعدها، وجعل الفكرة مقدّمة لما بعدها ونتيجة لما قبلها، في ترابط فكري ولفظي محكم البناء، وفي تقصّ شديد لكل معنى من المعاني، وهو إذ يعالج المعنى يعمل على تأديته اللفظية في دقة عجيبة، ويعمد إلى الوسائل المختلفة ليوضحه ويبعد عنه كلّ النباس، فيشبهه، ويكرّزه في صور مختلفة الإيالة، ويدرجه تدريجاً إلى أن يطمئنّ أطمئناناً تاماً إلى أنه بلغ ذهن السامع كاملاً، لا نقص فيه ولا غموض. وقد تأثر ابن الرومي في شعره بتيار الصناعة الطبيعية التي شاعت في عصره، إلّا أنه لم يعتمد تلك الصناعة اعتماداً كما فعل أبو تمام، ولم يخضع الفكرة للمبى كما فعل بعض من عاصره من أرباب الألفاظ.



## مصادر ومراجع

- عباس محمود العمّاد: ابن الرومي حياته من شعره — القاهرة ١٩٣٨.
- ملحت عكاش. ابن الرومي — القاهرة ١٩٤٨.
- عبد الرحمن شكري:
- ابن الرومي الشاعر المصور — الرسالة ٧ (١٩٣٩) ص ٢٤٣ ، ٢٩٥.
- بين شكسبير وابن الرومي الرسالة ٤ (١٩٣٦): ٤٩٨.
- طه حسين: من حديث الشعر والنثر القاهرة ١٩٥٢.
- محمد عبد المعى حسن: ابن الرومي سلسلة فواغ الفكر العربي — القاهرة ١٩٥٥.
- كمال حريري: الألوان والصور في شعر ابن الرومي الرسالة (١٩٣٤) ص ٦١٥ — ٦١٧.
- مارون عبود: الرؤوس — بيروت ١٩٤٦ ص ١٤٠ — ١٥٦.
- سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي القاهرة ١٩٤٥ ص ١٧٤ — ١٧.
- ابن حاي: ابن الرومي بيروت ١٩٥٩.
- أنيس المقدسي: أمراء الشعر في العصر العباسي — بيروت.
- أبراهيم المارني.
- حصاد الحشم القاهرة، ص ٣١٣ — ٤٤٢.
- ابن الرومي: مجلة البيان (مصر) المجلد ٢ (١٩١٢): ٧٣، ١٥٩، ٣٦١.
- حافظ جميل: ابن الرومي: بحث في شعره وشاعريته — الكوفة ١٤: ٤٢٣.



## الفصل الثالث الشعر في ظلّ الإمارات

ازدهرت الأمبراطورية العباسية ازدهاراً شديداً في امتداد أطرافها وسعة رقعتها وخصب أرضها وسماها وعظمة سلطانها ، وقد بلغت أوجها في عهد المأمون . وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزق هيكل تلك الأمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية ، وحتى أصبحت نهياً لكلّ ذي طموح وطمع ، وإذا الدولة نصبح دويلات ، أشهرها دولة بني العباس في بغداد ، ودولة البويهيين في فارس ، ودولة الحمدانيين في الشام ، ودولة الفاطميين في مصر والمغرب . وقد تنافست تلك الدويلات في تشجيع العلم والأدب ، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتاب . وقد اشتهر من الشعراء في هذه الحقبة أبو الطيّب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وأبو العلاء المعري ، وابن الفارض ، والبهاء زهير .



# أبو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي

(٣٠٣ — ٣٥٤هـ / ٩١٥ — ٩٦٥م)

١ تاريخه

١ - أصله ونشأته .

ولد المتنبي في الكوفة من أصل وضع ونشأ شاذ علوية ، وكان اسماعيلياً المدعب ، قروطياً الزعّة .

٢ في بلاد الشام :

١ نصب عنه -اية من دعاة الاسماعيليّة ونبأ من أنبيائها ، وراح يقود ثورة على الحكام .

٢ قصص - بربر من حمص وسجده مستبر .

٣ في شعر هذه الفترة أثر اسماعيليّ طاهر

٤ تقلّب في البلاد حتى اتصل بسيف الدولة ولبث عنده تسع سنوات

٣ في مصر :

١ اتصل بكافور وملكه فاستقى به كافور وأسرّ له العطاء ووعده بولاية

٢ - لم يبق كافور بوعده فسخط انشاعر وخرج من مصر وهجا سيدها

٤ في العراق .

١ تقلّب ما بين الكوفة وبعداد . ترعب عن مدح الوزير فأنشأ به جماعة من شعراء بعداد نالوا من عرشه وهجوه

٢ - التفت حوله جماعة من العلماء فشرح لهم ديوانه واستسخم زياه .

٣ - طلبه سيف الدولة الحمداني فلم يلبّ الطلب .

٥ . في فارس - مقلته :

١ توجه الى أرحان لزيارة ابن العميد ، ثم الى شيراز لزولاً عد رغبة عصب الدولة .

٢ - ثم قصد بعداد فالكوفة فعرض له فأتاك الأسيدي وقتله

٢ أدب أبي الطيب .

١ المتنبي ديوان شعر كان هو أول من جمعه . غني العلماء على مرّ العصور بشرحه والتعليق عليه .

٢ أقسامه . شعر نغمه والمظماة ، شعر للملاحم ، شعر الحكمة .



#### ٣ شاعر العظمة والعظمة

- ١ - قصي التي حياته في طلب المعصية ، وكانت تمثل له في اساطان ، والقوّة ، والمال ، والثروة ، والعقوبة الشعرية
- ٢ - كان مدحه للعظمة في خدمة العظمة الأدبية
- ٣ - تسلح سلاح الداعة الاسماعيلي وسلاح الشعر وسحر المغربة

#### ١ المدح

- ١ - أكثر للتبّي من المدح للوصول الى هدفه ، ولكنه لم يحد الى الدرء فكانت شخصته القوية مهينة
- ٢ - عمد الى المعاني القديمة وتناولها على - نفسه وكامل روحه ، وامتزج بها امتزاجاً وتكون من مجموعها كياناً متيناً هو خير ما تصوّره ويطمح اليه ، وراح يمجّر هذا الكيان من باطله ، ولقّبه على المدح
- ٣ - أسبوه في المدح هو الأسلوب الرمزي القديم - لا يصرف عنه إلا إذا اشتد هباحه انقيس ، أو تجلبت عليه فكرة عامة أو حكمة
- ٤ - قبل اتصال الشاعر بسيف الدولة كان مدحه محبباً لنفسه أكثر مما كان تحبباً للغير ، وبعد اتصاله بسيف الدولة حمل شخصية المدح أكثر بروزاً . ولما غادر بلاط سيف الدولة غابت على شعره رعة الألم
- ٥ - في مدح المتنبّي رعة عاطية اسماعيلة ، وشغف ، وعلم لغة وبيان ، ودرس اجتماعية وسياسية وأخلاقية ، وصحبر للشراء واللاسقة ، والتي رفع في تفكيره ، مؤثر قوّة شخصته وعمق نظره ، جعل في يابه .

#### ب - الرثاء :

- ١ - في الرثاء يعف المتنبّي من الموت موقف الحكيم ، ومن لثات موقف المتعظيم ، ومن آله موقف المادح ، ومن نفسه موقف الذكرى والألم العصافي .
- ٢ - رثاؤه بعيد عن الصيغ والضعف العاطفي

#### ج - الهجاء والعتاب :

- ١ - الهجاء عند المتنبّي أنقام لكرامة ، وأثار من زمان حاشي ، والتمتاز من ذمات ، واحتقار للزّم ، واستصغار لعدد كبير من الناس .
- ٢ - أنساب الأداة في هجاء المتنبّي كالهجاء نفسه حدة وجشاعة .
- ٣ - عتاب للتبّي لكانفور عتاب مدالسة ، وعتابه لسيف الدولة عتاب إعصاف وعمة .

#### ٤ شاعر اللامع والوصف اللصحي :

- ١ - لمتنبّي عرام خاص بالحرب وأدواتها . يؤس بالقوّة ، ويرع رعة قرمطية ، وقد رافق الجيش الى ساحات الحرب

- ٢ - أكثر من وصف الجوارك (حرشة ، الطيور ، الحنث ، الدرب)  
 ٣ - كان في شعره الخريف مباءاً ، ملحمياً ، رائع التصوير والنفس الخاسي ، شديد النصف والافتجار والاطلاق ، شديد الإخبار والتهويل والتصميم.

## ٤ - شاعر الحكمة

- ١ - حكمة المهيمنة تجربة وتفكير عميق  
 ٢ - وهي قائمة على القوة وتقديم العقل ، واحصد الناس والزمان .  
 ٣ - النبي في حكمته شديد التأثير بالأراء الفلسفية ، شديد التهم لعية الشعر

## أ - تاريخه :

المتنبي من أعجب الشخصيات التي عرفها تاريخ الأدب العربي ، لأنها شخصية كثيرة الحسنة وكثيرة السيئات ، كثيرة حسنات العبقريّة والششم ، وكثيرة سيئات لأخلاق المستعصية القاسية التي لا ترى غير طريق الكبرياء منطلقاً للآمال والأعمال وهي في عتقوانها الجارف وعنجهيتها الصارخة بغيضة بقدر ما هي محبة ، وهي في حياتها ومماتها حديث الدنيا وشغل الناس .



- ١ - أصله ونشأته : كان أبو الطيّب المتنبي من أصلٍ وضعيع . وهو أحمد بن الحسين بن عبد الجبار الجعفي<sup>١</sup> . ولد في حملة كندة بالكوفة<sup>٢</sup> سنة ٩١٥ م / ٣٠٣ هـ . وكان والده يعرف بعدان السقاء ، يسقي الماء لأهل

١ - قيل هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي . وجميع من سجدوا له من بني جندج من كهلاء من قحطان

٢ - ان كندة التي سبب إسمها المتنبي هي تلك الحقبة لا القبيلة العرسية المشهورة

الحلّة ، وقد ترفع الشاعر عن ذكر نسب وقبيلة<sup>١</sup> واستعاض منها بخلال نفسه وجليل أعماله :

لَا يَقُومِي شَرَفْتُ بَلْ شَرُّفُوا بِي ، وَبَسَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُلُودِي

وإن ذكر أحدنا من ذويه فَجَدَّتْهُ لَأَمَّةُ التي أَحْبَبَهَا حُماً جَمّاً وكانت له في ظلمة الشدائد قبساً من نور وقطرة من ندى.

نشأ المتنبّي في الكوفة نشأة علوية يختلف إلى الكتائب ودور الوراقين كما يختلف إلى العلماء ومحاسن العلم والأدب<sup>٢</sup>. وفي سنة ٩٢٥ استولى القرامطة على الكوفة ففر المتنبّي مع ذويه إلى بادية السماوة — وهي أرض مجال الكوفة ممّا يلي الشام — فصحب الأعراب ثم عاد إلى الكوفة عريباً صريحاً ، واتصل بأبي الفضل الكوفي أحد أتباع المذهب القرمطي<sup>٣</sup> ، فأشربه مبادئ القرمطية ؛ وهكذا كان المتنبّي علويّ النشأة ، اسماعيليّ المذهب ، قُرْمُطِيّ الزعة<sup>٤</sup>.

٢ - في بلاد الشام : كان المتنبّي في الثامنة عشرة من عمره عندما غادر العراق إلى الشام يطلب الجند والرّمة ويحقّق بعض أهداف الإسماعيلية والقرامطة في قلب نظام الحكم<sup>٥</sup> ، وفي إزالة ملك الفاسدين والمصلدين . وكانت بلاد الشام إذ ذاك موضوع منازعات جديدة استقرّ فيها سلطان الإخشيد إلى أن ظهر سيف الدولة الحمداني واستولى على حلب سنة ٩٤٤ وبقي الإخشيدون في دمشق . وشجّع أبا الطيّب في

١ - روى الخطيب عن علي بن الحسن عن أبيه قال : « سألت المتنبّي عن سبه فما اعترف لي به ، وقال : أنا رجل أحبط الفرائض وأهوى اليهودي وحدي . وسمي انشئت لم أفس أن يأخذني بعض العرب بظلالته يبه ودين القبيلة التي أنشئت إليها وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسم على جميعهم زيمامون لبني . »

٢ - روى المؤرّحون أن المتنبّي درس على السكري ، وفطويه . وأبي دسويه ، وقرأ على أبي بكر محمد بن دريد وأبي قحاصم عمر بن يوسف البغدادي وأبي عمران موسى قال بعض الرّواة « طلب الأدب وعلم العربية ، وعطّر في أيام الناس ، وتعلّى قول الشعر من حديثه حتى بلغ الغاية التي فاق فيها أهل عصره ، وطول شعراء وقته . »

٣ - الإسماعيلية من غلاة الشيعة انتشرت شهرتها الديني . وزرعها العقليّة ، ولجأت إلى العقل لتفويض أسس الأديان . واعتقادها بالإمام المصنوع ، ونظريتها الخاصة بن الحير والشر وأن العالم الروحاني حير عجز . والعالم البدني حير وشر ، والعالم الجسديّ شرّ عجز ... وللإسماعيلية دعوة وكلّ داعية بنيّ وس الإسماعيلية فرقة القرامطة التي انتشرت بزعمها لاشراكية ، ووحشية فتكها ، وغروها على كلّ سلطان ، ولم يكن للقرمطة دين أو شعار دينة تُذكر . وعقول الأنبياء والأئمّة وأنواعهم ، عند القرامطة ، شعارات من الدور الشعثاني الصادر عن الدور العلويّ ذي داب هرة . وقد انتشرت عن الأعلام الماعظ الإسماعيلية والقرامطة من مثل عوراني ، نصساني ، حسيني ، شعثاني ، وحديلي . ناموس ، لاهوت ، ناسوت ، حبروت

مغامراته ضعفُ السلطان المركزي ببغداد، وتفكُّكُ أوصال الإمبراطورية العباسية، وافتتاح الأبواب الواسعة في وجه رجالِ الطَّمعِ والطُّموح، فنصب نفسه داعيةً من **دعاة الإسماعيلية** وكان من ثمَّ نبيًّا من أنبيائها، وراح يبيِّث الدَّعوةَ بين أعراب السَّهْوة، فكان له ما أراد، وسار الأعراب وراءه جيشاً رهيب الجانب. قال الخطيب البغدادي: «لأنَّ أبا الطَّيِّب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادَّعى أنه عَلَوِيٌّ حَسَنِيٌّ<sup>٢</sup>، ثم ادَّعى بعد ذلك الثَّوَرَةَ، ثم عاد يدَّعي أنه علويٌّ<sup>٣</sup> إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدَّعْوَتَيْنِ، وحُبِّسَ دهرًا طويلاً، وأشرف على القتل، ثم استُتِيبَ وأشهد عليه بالثَّوَرَةَ وأُطلق». وجاء في الصَّيْحِ النَّسَبِي أن أبا الطَّيِّب قدم اللاذقية بعد نيِّفٍ وعشرين وثلاث مئة، فأكرمه معاذ ثم قال له: والله إنَّكَ لشابٌ خطيرٌ تصلح لمندامة ملك كبير. فقال: ويحك! أتدري ما تقول؟ أنا نبيٌّ مرسلٌ. ثم تلا عليه جملة من قرآنِهِ وهو مئة وأربع عَشْرَةَ عيرة، فبأيَّمة معاذ وانتشرت يَمَعَتُهُ في بلاد الشام. ثم إنه لما شاع ذكره، وخرج بأرض سَكَمِيَّة من عمل حمص قبض عليه ابن عليّ الهاشمي، وأمر بأن يُجْعَلَ في عنقه ورجليه خشبَتانِ على الصَّفَصِ... ومهما كان شأن هذه الرواية فقد ثبت لدينا أن أبا الطَّيِّب عدَّ نفسه داعياً إسماعيلياً، أي نبيًّا وأنه اعترف بتزعمه القرمطيَّة، وأنه مرَّ بالسلمية مقرَّ الإسماعيلية إلى يومنا هذا، واحتكَّ فيها برجال المذهب احتكاكاً وثيقاً، وأنه نشب هنالك خلافاً بين الشاعر وابن عليّ الهاشمي لسبب لا نعرفه على حقيقته، وقد يكون لتطرُّف في آراء أبي الطَّيِّب. أضف إلى ذلك أن لؤلؤاً أمير حمص من قِبَل

١ - يرى الإسماعيليون وأنصارهم أن حلافة بني العباس هي حلافة إبليس لأهم معتصرون، وهم يرون ولا شك أن الإمارات الخفائية التي تعرَّعت من الدولة العباسية هي في أكثرها «سدة مسعدة»، ويرون أن الدول كالأحاديث لها نشأتها، ولها اكتمالها، ولها زوالها، وأن الحكم تداول من أمة إلى أمة. ومن أهل بيت إلى أهل بيت.

٢ - كان الطاطميون عند تأسيس الدولة العباسية منقسمين إلى حسيين، (أتباع الحسن) وحُسَيْنِيين (أتباع الحسين). وكان إمام الحسين محمد بن عبد الله بن الحسن (١٠٠ - ١٤٥ هـ) المعروف بالنفس الزكية، وقد شكّل خطراً على الدولة العباسية فحاربه أبو جعفر المنصور وقتله مع أخيه إبراهيم، فاضمَّ أكثر أتباعه إلى الحسيني (طالع كتابنا «تاريخ الفلسفة العربية» ١، ص ١٩٩). وقد ذكر مسبيون في مقاله عن القرامطة في «دائرة المعارف الإسلامية المتخصصة» أن السلالة الطاطمية عند قيامها في المغرب وفي مصر تبَّنت المذهب القرمطي (طالع تاريخ الفلسفة العربية ١، ص ٢١٩).

٣ - لس هنالك دَّعاة بَرَّةٌ ثم عودة إلى المذهب العلوي، وإنما هنالك مذهب خاص من مذهب غلاة الشيعة

الإخشيديّة خرج الى الشاعر، فقاتله وأسرّه، وشردّ من اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب، وحبسه في السجن سنتين، ثم استتابه وأطلقه.

وإنّ من تبع شعر المتنبي في هذه الفترة من حياته لمس الأثر الإسماعيليّ في عنفوانه. وهذا الأثر ندّمسه كذلك في مختلف أطوار ذلك الشعر وإن تضاعف فيه العنفوان القرمطي<sup>١</sup>. قال يمدح رجلاً ويستكثفه عن مذهبه:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُصَفَّى جَوْهَرًا، مِنْ ذَاتِ ذِي الْمَلَكُوتِ أُسْمَى مِنْ سَمَاءِ،  
نُورٌ تَنْظَاهِرَ فِيكَ لَاهُوتِيهِ فَتَكَادُ تَعْنَمُ عِلْمَ مَنْ لَنْ يُعْلَمَا...  
كَبَرُ الْجَيَّانِ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْيَانِ قَوْهَا

فتصفية الجوهر هي التصوف العقليّ عند الإسماعيليّة، ومن التصفية هذه اتخذ «يخوان الصفاء» الإسماعيليّون اسمهم. وإنك عندما تقرأ هذه العبارة لتصير الدين الطوسي في الإمام: «وضع الله وحدته عليه، وخلق عليه الوهية، الى الأبد. كلمته كلمة الله وأعماله أعمال الله، وكذلك أوامره ونواهيه ورغباته ومعرفته وقدرته ووجهه وسمعه وبصره» عندما تقرأ هذه العبارة وتقرأ أبيات المتنبي في القصيدة التي ذكرناها وفي شتى قصائده تجد روحاً واحدة، وألفاظاً متقاربة، وأسلوبين متشابهين شديد التشابه. ثم إن «النور اللاهوتي» تعبير قرمطيّ، وللنور في مذهب القرامطة عملٌ فريد، فالذات الإلهيّة عندهم هي النور العلويّ الذي يصدر عنه النور الشعشعائيّ والنور القاهر<sup>٢</sup>.

وقال أبو الطيب أيضاً في صباه:

يَبْرَثَمَنْ مِنْ قَيْمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ حَلَاوَةُ الشَّوْجِيلِ...  
كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَ الدَّمَاءِ حَرَامٌ شُرْبُهُ إِلَّا دَمَ الْمُنْقُودِ...  
مَا مُقَامِي بِأَرْضٍ نَخْلَةً إِلَّا كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ<sup>٣</sup>.

١ روى الخطيب عن التنوخي قوله: «أما أنا فسأله بالأهواز سنة ٣٥٤ هـ عدد اجباريه بها الى فارس في حديث طويل جرى بيننا عن معنى النبي، الذي أردت أن أصنع منه هل نبياً أم لا؟ فأجابني بجواب معالط وهو أن قال: هذا شيء كان في الدنيا... والذي يراه أن المبي جرى في تلك الحال على الأحد بالثقة شأن سائر الإسماعيليين ٢ طالع كتابا «تاريخ الفلسفة العربية» ١، ص ٢٠٥ - ٢٢١

٣ أرض نخلة قرية لبى كلب عند ملبك

إن هذا إلا كلام إسماعيلي قَوْمُطَيّ، فحلاوة التوحيد هي تأويل المعنى غسل الجنة الذي يرمز في نظرهم إلى المعرفة التعليمية، ودم العقود أو الخمر يرمز إلى المعرفة التأيدية، والمتنبّي يشبه نفسه بالمسيح في النبوة، ويثور ثورة قَوْمُطَيّ عِيفَة؛ وهو كثير ما يرفع ممدوحه إلى درجة الأنبياء تمثيلاً وروح الإسماعيلية. ونحن نعتقد أن شعر المتنبّي لا يفهم فهماً تاماً إلا من خلال هذه النزعة الإسماعيلية المسيطرة على جميع كيانه وتصرّفه وتفكيره، والمثّلثة بحسب الأحوال المكانية والزمانية والاجتماعية.

ولما قُتِلَ المتنبّي من أسر لؤلؤ راح يضرب في البلاد الشامية، واجتاز الجزيرة ماراً برأس عين، وابتهى إلى منبج حيث مَدَحَ جماعة من رؤساء العرب في روح عربية ودعوة إلى القومية العربية:

وَأَنَا النَّاسُ بِالسُّلُوكِ، وَمَا تُفْطِحُ عُرْبٌ مُلُوكَهَا عَجَمٌ

ثم عادر منبج إلى غيرها مواصلاً مذهب المدح والإطراء، وهو لا يجد إلا خيبة الأمل، ولا يعمل إلا ثورة في النفس تُذكّرها الكبرياء<sup>١</sup>. ويبلغ عدد الذين تقرب إليهم في تلك الأثناء اثنين وثلاثين رجلاً مَدَحَهُمَ بأربع وأربعين قصيدة. وهكذا كان المتنبّي يسعى لآماله سعي المشيخ المجدد، فلقد هم بالثورة وترقّب لها الفرص، ثم سكّت عن أشباه ذلك بعد أن بارح عتبة الصبا، وأوغل في سني الرجولة الحكيمة، فتركّت آماله في عقله الباطن، وراح يعمل على تحقيقها في هدوء ويقين وثقة بالنجاح، وقد استمرّ يعني النفس، ويبسط أمامها سبيل الأمل الباسم الخلاب حتى قَتَلَ الزمان هذا الأمل في رأسه وخياله، فأب صامتاً محتملاً يشكو لنفسه مَظَلَّ الزمان، ولا يشكو لبني الإنسان، فهو يراهم دونه بكثير<sup>٢</sup>. «وكان المتنبّي في سعيه متعاليًا على

١ - روى باقر في «معجم الأدباء» أن المتنبّي لما مدح محمد بن زريق الطرسوسي قصيدته:

هذي برزت لنا مهجتي رسيما  
ثمّ انشبت وما شفتي سيبا

وصّله عليه عشرة دراهم، قيل له إن شعره حس، فقال: ما أدري أحسن هو أم قبيح، ولكن أريد أن تقولك هذا عشرة دراهم، فكانت صلته عليها عشرين درهماً.

٢ - ذكرهم التوحيّج بالملادية، وندر من عتار الأسدي نائب بن رائق بطرية، ومساو بن محمد الرومي والي حلب.

٣ البرقوقي: مقدمة شرح ديوان المتنبّي.

الناس ، شديد الاعتداد بنفسه والإيمان بحقه على أهل زمانه<sup>١</sup> ، كثير المغالاة في ما يقول من مدح وفخر وثورة على سنّة الإسماعيلية التي قامت على أساس من القلوة الشديد.

وما أن طار صيتُ الشّاعر حتى رعب في مدائحهُ الأُمراءَ والحكّامَ ، وتنافسوا في دعوته إليهم ، فقلّب ما بين الرّملة وأنطاكية ، وفيما كان يوماً بطرابلس أرادَهُ إسحاق ابن كيخلف على مدحه فأبى ، فحاول ابن كيخلف أن يُدخِل به السوء فهجاء هجاءً مرّاً وفرّ إلى أنطاكية حيث مدح أبا العنّاثيّ الحمدانيّ وحيث التقى بسيف الدولة أمير حلب .

أعجب سيف الدولة بشعر أبي الطيّب فأرادَهُ على الانضمام إلى بلاطه . فقبل على الآيُنبُشد الأمير وهو واقف وآلا يُقبل الأرض بين يديه . فدخِل الأمير تحت هذه الشروط ، ومنذ ذلك الحين أصبح المتنبي شاعر سيف الدولة ، وأقام عنده تسع سنوات (٩٤٨ -

٩٥٧) نظم في أثناثها ثمانياً وثلاثين قصيدة<sup>٢</sup> وإحدى وثلاثين مقطوعة . وحسن موقع الشاعر عند الأمير وأحبّه وقرّبه ، وأجازهُ الجوائز السنّية ، وأجرى عليه كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار ما عدا الإقطاعات والخُصَع والمُهدايا المُتفرقة ، واستصحبهُ إلى الحروب والغزوات المختلفة ممّا أوغر صدور سائر الشعراء والعلماء حقداً عليه وغيرةً منه ، ولا سيما وأنّ المتنبي رجلٌ كبيراء وتعالى ، وصاحب مذهب إسماعيليّ وآراء متطرّقة ، فراحوا يتنقّسون عليه تلك المكانة ، ويُفسلون ما بينه وبين وليّ نعمته<sup>٣</sup> ، إلى أن تمّ لهم ما أرادوا ، وخرج الشاعر من بلاط حلب مُغضباً ، ويَمُسمُ دمشق فاستقبله واليها بالإكرام والإعزاز ، ثم سار إلى الرّملة وفي ثيّه الشخصوس إلى كافور الإخشيديّ بمصر .

٣ في مصر: كان كافور من أقدر رجال عصره سياسةً ودهاءً ، وكان إلى ذلك محباً للعلم والعلماء ، ومبسط اليد في المِيات والصّدقات . فقصده أبو الطيّب سنة ٩٥٧ ، ولقي لديه كلّ حفاوةٍ وذُخلى له أبو المسك داراً وكفّله وأضافه وخنّ عليه ،

١ - طالع نفس المرجع السابق .

٢ - من تلك القصائد أربع عشرة في وصف مواقع الأمير مع الروم ، وأربع في مواقفه مع العرب ، وخمس عشرة في المدح عُدد عن وصف المواقع ، وخمس في الرّمّة .

٣ - جاء في الصحاح المبني أن أبا عراس الحمداني قال للأمير : « إن هذا التشدّد كثير الإدلال عليك ، وُست تلعبه كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تصدّق مثني دينار على عشرين شاعراً يأتون بم هو خير من شعراء » .

وقد خصّه بأن يدخل عليه وفي وسطه سيف ومنطقة ، ويركب بحاجين من ممالئكه وهما بالسيوف والمناطق . وكان هدف أبي الطيّب أن يبال من كافور ضيعة أو إمارة ، فلم ينل إلا وعداً لم يتم ، وأمثلاً لم يكمل بالنجاح ، وعُوب كافور في ذلك فقال : « يا قوم من ادعى البهوة بعد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أما يدعي المملكة مع كافور ؟ » . ولما طال انتظار الشاعر في غير جدوى راح يشكو ذاكراً عهد سيف الدولة في لوعة وحين وراح يث قصائده ذات نفسه وذات قلبه . ولا سيما عندما أصابته حمى خبيثة والجلّى الى لزوم الفراش والى نظم قصيدته الشهيرة :

مَلُومُكُمْ مَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ      وَوَقَعَ فَمَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ

مُعْرِضاً يخل كافور ، يالساً من إخلاص البشر ، متشائماً في ثورة نفسه الجامعة :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسُ خِيَاً      جَزَيْتُ عَلَى آيِسَامٍ بِآيِسَامٍ<sup>١</sup>  
وَصَهَرْتُ أَشْتُكَ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ      لِعِلْسِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

وأصل المتنبي في تلك الأثناء بأبي شجاع فأنك الملقب بالهخون<sup>٢</sup> ، ومدحه بعد استئذان كافور . قال البرقوقي : « وليس بعيداً أن يكون كافور كره من الشاعر إلحاحه في طلبه ، ومدامته على التذكير بالوعد ، في لغة يصح أن تسمى توبيخاً وتأنياً ، فصح في عزمه ألا ينيله طلبته . ثم إن تمادي الشاعر في أشباه ذلك ... وتعرضه بكافور في قصيدة الحمى ، ومدحه لفاتك — كل أولئك كان سبباً في أن يجيب أمل الشاعر في بغيته ، وأن يحمل بينه وبينها سداً . وكانت صراحة المتنبي وعلو نفسه بإتيان له إلا أن يقول ما يحول بخاطره ، فلم يشأ إلا أن يقول ما قال ، داخل في نطاق التوبيخ لا الاستعطاف والطلب الذليل . »

وسعى أبو الطيّب في الرحيل عن مصر ، وكان كافور يُسمّكه عن ذلك الرحيل ويث حوله العيون . ولما توفي أبو شجاع فأنك راح الشاعر يدبر لخروجه من مصر . جاء

١ النجاء : الحجاج .

٢ كان أبو شجاع رومياً أمروني في فلسطين . اعصبه كافور من سيده بالزلمة وأعتقه ، وكان كريم الأخلاق عالي المنة .



في شرح أبي العلاء المعري: «وقد أعدّ كل ما يحتاج إليه على مرّ الأيام في اطفاف ورفق ولا يعم به أحد من غلمانه، وهو يظهر الرغبة في المقام. وطال عليهم التحفظ فخرج ودفن الرماح في الرمل، وحمل الماء على الأمل في الليل من النيل لعشر ليالٍ، وتزود لعشرين». وفي ليلة عيد الأضحى قال الشاعر قصيدته:

عِيدُ بَابَةِ حَالٍ عُدْتُ يَا عِيدُ، بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرِ فَيْكَ تَحْدِيدُ

وانتهز غفلة كافور، وانشغاله بالعيد، وانسلّ في ظلمة الليل يريد الكوفة. ولما نعى الى كافور خبر رحيله غضب وأرسل في إثره من يقتله خشية لسانه. ولكن شهرة المتنبي وشجاعته أنجاه من غدر الغادرين، فوصل الى الكوفة في شهر ربيع الثاني سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م وقد عدّد مراحل رحلته تلك في قصيدته:

أَلَا كُلُّ مَا شِئْنَا السَّخِيرُ كُلُّ مَا شِئْنَا السَّخِيرُ

٤ - في العراق. كان العراق عندما وصل إليه المتنبي تحت سلطان بني بويه، فتقلب ما بين الكوفة وبغداد، واشترك في ردّ غزوة بني كلاب عن الكوفة، إلا أنه ترفع عن مدح المهلب بن زهير بن بويه فأغرى به جماعة من شعراء بغداد نالوا من جده وتباروا في هجائه، ومنهم ابن الحجاج، وابن سكرة الهاشمي، والحاتمي، فلم يحسم المتنبي ولا خفل بهم. وقد التفّ حوله جماعة من علماء اللغة والنحو كعلي البصري. «بني، وابن جني»، فشرح لهم ديوانه واستنسخهم إياه.

ولما سمع سيف الدولة بخروج أبي الطيّب من مصر أرادته على الرجوع الى حلب، وأرسل إليه الهدايا. وفي تلك الأثناء توفيت خولة أخت سيف الدولة الكبرى فقال الشاعر فيها قصيدته:

يَا أُنْتُ خَيْرُ أَمْرٍ، يَا بِنْتُ خَيْرِ أَبٍ، كِتَابَةٌ بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ التَّسَبُّبِ  
وكان لهذا الرثاء أبلغ الأثر في نفس سيف الدولة، فأرسل الى «...» رهدية ومالاً وأماناً بخطه، وكتاباً يستدعيه، فكتب المتنبي قصيدته:

١ - الخَزَلُ: مشية اللسان فيها تآكل وتككك الغردي: ضرب من مشي الخيل في حده يعني أنه من أشهر السمر تتجه الخيل القوية على السير، وليس ممن يشقون لسانه ويتفزلون بحسن السير.

فَهَمْتُ الْكِتَابَ أَرُّ الْكُتُبِ فَسَمِعْتُ لِأَمِيرِ الْعَرَبِ  
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَوَجَّهْ إِلَى حَلْبٍ عَنَادًا وَتَكْبَرًا ، لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ أَخْبَارِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَمرضِهِ  
وَتَوَالِي النِّكَاتِ عَلَيْهِ وَعَلَى سُلْطَانِهِ .

٥ في فارس - مقلته : وعن أبي الطيب أن يزور أبا الفضل بن العميد<sup>١</sup> في  
أرجان ، فانهى إليه في شباط من سنة ٩٦٥ ومدحه ، ولبت عنده نحو ثلاثة أشهر ، ثم  
انطلق إلى شيراز نزولاً عند طلب عضد الدولة . ومدح الملك البويهى<sup>٢</sup> بعدة قصائد ،  
وفي شهر آب من سنة ٩٦٥ عادره متشرقاً إلى بلاده ، وودَّعه بقصيدة كانت آخر ما  
نظم ، مطلعها :

فَدَى لَكَ مَنْ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاكَ ، فَلَا مَسِيكَ إِذَنْ إِلَّا فِدَاكَ<sup>٣</sup>

وترك المتنبى شيراز قاصداً بغداد فالكوفة ، فعرض له فائق بن أبي جهل الأسدي<sup>٤</sup>  
في عِدَّةٍ من أصحابه ، وكان مع المتنبى أيضاً جماعة من أصحابه ، فقاتلهم ، وقتل  
المتنبى وابنه محمد وغلّاهم مفلجاً بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية<sup>٥</sup> ، وذلك  
يوم الأربعاء لست بقين من شهر رمضان سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م .

## ٢ - أدبه :

للمتنبى ديوان شعر كان هو أول من جمعه ورتبه وقرأه على الناس وفسر غامضه ،  
وقد نقله عنه أبو الفتح بن جني<sup>١</sup> (١٠٠١) وعلي بن حمزة البصري<sup>٢</sup> (٩٨٥) وغيرهما ،  
كما عني العلماء على مر العصور بشرحه والتعليق عليه ، ومن أشهر شراحه الواحدي<sup>٣</sup>  
(١٠٥٧) وأبو الملاء المعري<sup>٤</sup> (١٠٥٨) والمكبري<sup>٥</sup> (١٢١٩) والشيعاني<sup>٦</sup> اليازجاني<sup>٧</sup>  
ناصيف وإبراهيم .

١ - كان ابن العميد وزير عضد الدولة الواسطي ، وكان أدبياً كبيراً .

٢ - يقول : يمدحك للقصور عنك وجميع الملوك منهم .

٣ - فائق بن أبي جهل هو حال صبيّة بن يزيد الذي هجاء المتنبى عقب رجوعه من مصر إلى العراق .

٤ - الصافية : وقيل جبال الصافية - موضع في الحلاب العربي من سواد بغداد عند دير النعاقول .

وهو يحتوي مدحاً وثناءً وفخراً وهجاءً وغزلاً وحكماً وما الى ذلك من الأغراض الممهودة عند شعراء العرب. ونسبيلاً لدراستنا نستطيع أن نقسم شعر أبي الطيّب الى أربعة أقسام : شعر العظمة والعظمة ، شعر الملاحم ، شعر الوجدان ، شعر الحكمة .

### ٣ - شاعر العظمة والعظمة :

١ - قضى المتنبي حياته في ظل العظمة يطلبها لنفسه ، وبأوي إليها عند غيره . فكانت شغله الشاغل حتى الوفاة ، وكانت تتمثل له في السلطان يستبدّ معه برقاب العباد ، وفي القوّة يُسيطر معها على نؤم البشر ، وفي المال يجمعه في طريق التعالي ، وفي الثروة الكبرى التي كانت الشيعة الباطنية تُدبّرُها لقلب العروش<sup>١</sup> ، وفي العبقرية الشعرية التي ترفعه الى عالم الوحي وتنصبُّ له عرشاً على منصّة الخلود . وشخصية المتنبي هذه هي كلّ شعره . لأنها طبيعته العاملة والناطقة ؛ ولهذا ملأ الشاعر ديوانه حديثاً عن آماله العظام ، وآلامه الجسام ، ولم يستطع في كلامه الخروج عن روح الدائبة أبداً كان مظهرها ؛ ولئن فتر مدحه للغير أحياناً فإنّ حديثه عن نفسه لم يعرف القصور ، وهكذا كان مدحه للعظمة في خدمة العظمة الذاتية التي يراها من حقّ نفسه في عصر فسدت فيه الأخلاق والسياسات وقام فيه دُعاة الاسماعيلية يشرون الدُّعوة وينادون بالعقل النبيّ والقوّة المُسيّرة لأعمال البشر في طريق قيامه حديدة شاملة .

نجد للمتنبي حياة الخمول . وفرض على ذاته فلسفةً فيثاغورية رواقية ، مصهورة في بوتقة شيعة إسماعيلية وتصفّ عن غير زهد ولا تدنٍ ، وأثر الضرب في الفلوات على حياة النهو والغزل ، وحياة الجهاد المستمر على حياة الراحة والطمأنينة ؛ وراح يخذو حدو بابك الخرمي وزعماء القرامطة في قوّد الجيوش ، متسلحاً بسلاح الداعية الاسماعيلي ؛ ولما أخفق أوى الى العظمة بسلاح الشعر وسحر العبقرية . وهكذا مدح وأكثر من المديح ؛ وإن لم يقدر الممدوح شعره حقّ قدره ، وإن لم يَفِ الممدوح بالوعد والمهد ، سلقه بلسانٍ حاد ، وهجاء قتال . وكان مدحه يتحوّل الى رثاء إذا هدف الرثاء

١ - كان الاسماعيليون يعصرون دولة بني القمّاس ويمولون على قلب الظلام لسبيح المسيطر على لعالم الاسلامي يوند ويتوسلون الى ذلك بقلب الظلام العقلي المسيطر على حياة المسلمين أيضاً .

الى ما يهدف إليه المدح المجرد. ولهذا أدرجنا في هذا الباب ما كان في ديوان أبي الطيّب مدحاً ورتاءً وهجاءً.

### أ. المدح :

١ - أكثر المتنبي من المدح لأن هدفه كان يقتضي الإكثار . وقد مدح العربي والفارسي والأفريقي لا إعجاباً بهم على أنهم من هذا الأصل أو ذاك ، ومدحهم جميعاً بصفات وحسنات لا إعجاباً بتلك الصفات والحسنات ، وإن كانت في بعض الأحيان ذات صلة بالحقيقة الشخصية في الممدوح ، وعدّد أمجاداً وأفعالاً ، لا استغراباً منه لمثل تلك الأمجاد والأفعال . إنه مدح ليتال أولاً ، وليرسل إلى هدفه ثانياً ، ومدح أخيراً تضيخاً للممدوح ، وبنأً للثقة فيه على أنه عظيم من العظماء ، ومشهور مع المشهورين ، وعالم مع الخالدين ، وإن كان أحياناً في نظر المتنبي من أخط الناس شأنًا ومن أدناهم قيمةً وقدرًا.

٢ وترى المتنبي يجول تحت كل سماء ويصرب في كل فضاء متقلباً بين مختلف البلاطات لا يهدأ له بال ، ولا تستقر به حال ، كأنه يريد القبض على زمام الأرض ، والاستيلاء على نواصي العظماء والسلاطين . ولم تكن مدائحه ذات لين ومداراة . ولم تكن وسيلة القول فيها مما يستميل ساسة الناس وحكام البلاد ، ولكنها شخصية قوية مهيمنة ، وعبرية فيأضة مدوية ، وسيرورة شعر مشرقة ومغربة حتى لا مشرق ولا مغرب ؛ ولولا ذلك كنه لأقيم المتنبي حمرًا ، ولأخجل مع المهملين .

٣ - إنه لم يتكرر من المعاني إلا النادر النادر ، واكتفى بما ورد عند الأقلمين ، فعمد إليه وتناول به بجملة نفسه وكامل روحه ، وقد امتزج به امتزاجاً وصهره في ذاته صهرًا . وتكون من مجموعته كياناً متنبئاً هو خير ما يتصوره ويطمح إليه ، أو قل هو ذات المتنبي في شتى نواحي نفسه وشخصيته ، وراح يفجر هذا الكيان الخاص ، من باطنه الذي لا يجد له انفعال وطموح ، إلى الخارج الذي يتصور فيه متنبئاً ملموحاً في شتى نواحي نفسه وشخصيته . وسواء أكان الممدوح ممن يحب الشاعر أو لا يحب ، وسواء أكان في حقيقته ذا صفات عالية أو باهتة . إنه على كل حال يمدح ما يحب . ويصف ما

يتصور ، وينتفيق من ذاته على ذاته . وهكذا يتناول المعاني القديمة من كرم وعقل وحزم وشجاعة وما الى ذلك ... ثم يُبرِّها في شخصه بقوة وعنف ، وفي مرورها تلمس قلبه فتحتدم ، وتلمس أعصابه فتتوتر ، وتمسُّ خياله فتتضخم ، وتعصف بها ثورته فتأزم ، وينطق بها لسانه فتتعلق شُهْباً من نار تترك وراءها ألف دوي ، ويخطفها قلمه وإذا هنالك صرير شديد الوقع في أذن الأيام والليالي

٤ - وأسلوب المتنبي في مدحه هو الأسلوب الرسمي القديم ، لا ينصرف عنه إلا إذا اشتدَّ هياجه النفسي أو تغلبت فكرة عامة تستلعي الجزئيات الخاصة ، أو حكمة تُضغَط فيها حقائق الحياة والوجود . ومدح المتنبي في صباه أكثر توكُّواً على أسلوب من تقدُّمه ، ونشدُّ تأثراً بالروح الإسماعيلية ، وأشدُّ تصريحاً بالأراء القرمطية والفلسفة الباطنية . وكان الشاعر قبل اتصاله بالحمدانيين ، يبدأ مدائحُه عادة بنفسه فيمجدها ، ويرى في ذلك رفعاً ل شأن المملوح الذي يمدحه مثل شخص المتنبي ، ثم ينتقل الى بسط آرائه في الحياة . والكشف عما يكنُّه صدره من عوامل الثورة فينذر ويتوعَّد ، ثم ينتقل الى المملوح وكأنه ظلٌّ من ظلال نفسه . وعندما اتصل بسيف الدولة أطلع عن هذا المنهج ، وترصَّن بعض الترصُّن ، وجعل شخصيَّة مملوحيه أكثر بروزاً ، بل توارى وراءها بعض التوازي . ولما غادر بلاط بني حمدان غلبت على شعره نزعة الألم ، وتراءت له حقائق الوجود من وراء خيبة الأمل ، فمدح مشمئزاً وكان مدحه واقعاً في ناحيته الوجدانية ، مُضطَّعاً في ناحيته المديحية . ومما قاله في مدح سيف الدولة :

يَكُلُّ أَمْرِي مِنْ دَهْرِ مَا تَعَوَّدَا	وَعَادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّنُّ فِي الْعَيْدِي
هُوَ الْبَحْرُ غُصَّ فِيهِ ، إِذَا كَانَ سَاكِناً	عَلَى الدَّرِّ وَأَحْزَرُهُ إِذَا كَانَ مُزْبِداً
هَيْباً لَكَ الْعَيْدُ الَّذِي أَنْتَ عَيْدُهُ	وَعَيْدٌ لِمَنْ مَسَى وَضَحَى وَعَيْدُهَا
وَلَا زَالَتْ الْأَعْيَادُ لَيْسَكَ بَعْدَهُ	تُسَلِّمُ مَخْرُوقاً وَتُعْطِي مُجْدِداً <sup>٢</sup>
فَلَا الْيَوْمُ فِي الْأَيَّامِ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى	كَمَا كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحِداً كَانَ أَوْحِداً...

١ - سُمِّيَ : ذكر اسم الله .

٢ - ليس ما يُكَلِّس ، استعاره للأعياد ، أي لا زل تناسل لعيد القدم فتستقر الحليج

رَأَيْتُكَ مَحْضُ الْجُلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ  
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ  
وَوَضَعَ الْوَدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَى  
أَزَلَّ حَسَدَ الْحُسَادِ عَنِّي بِكِبَتِهِمْ  
وَمَا أَنَا إِلَّا سَمَّهَرِي حَمَلْتُهُ  
وَمَا الْدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رَوَاقٍ قَصَائِدِي ،

وَلَوْ شِئْتَ كَانَ الْجُلْمُ مِنْكَ الْمَهْنَدَا  
وَأَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَلِيمَ تَمَرَدَا  
مُضِرٌ ، كَوَضَعَ السَّيْفُ فِي مَوْضِعِ الْوَدَى  
فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدَا  
فَزَيْنَ مَعْرُوضًا ، وَرَاعَ مُسَدَّدَا  
إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الْدَّهْرُ مَشْنَدَا

## قيمة مدح المتنبي :

١ - أنشد المتنبي هذه القصيدة في السنة السادسة لاتصاله بسيف الدولة ، يوم عيد الأضحى من عام ٣٤٣ هـ . وكان الأمير وشاعره في ميدان حلب على فرسين مطهَّمين ، والفرسان حولهما كتائب كتائب ، والناس يحفون بهما من كلِّ جانب ، وعى الوجوه أمارات السرور والاعتزاز . وكان الشاعر في حدود الأربعين من العمر وله من ماضيه ذكريات حافلة بالآلم ، وأخرى مليئة بالكبرياء والآمال الجليلة ، وله من حاضره عزَّة ملكيَّة ، وثروة ماديَّة ومعنويَّة ، وحسَدُ نفخ صدور المنافسين ، وعذالةُ تصخُّم في قلوب السَّاخطين ، وله من قواه الإدراكيَّة أوج ما تصل إليه العقريَّة من سمو وروعة بيان ، وله من حوله جماعة من العلماء والأدباء : سيف الدولة أمير وشاعر وأديب ، وأبو فراس شاعر أمير ، وأبو ذرُّ أستاذ قدير ، وأبو نصر الفارابي سيّد الفكر والمنطق ، وآخرون كثيرون من أئمة اللغة والأدب والفلسفة والبيان .

٢ والقصيدة تتألف من اثنين وأربعين بيتاً طوَّها الشاعر على قسمين كبيرين : قسم لسيف الدولة رجل حرب ، وقسم آخر لسيف الدولة في علاقته مع الشاعر وعلاقة

١ - اعصب الخالص

٢ - الودى . الحود

٣ - يكتمهم : يذلّاهم

٤ - السمهري : الرمح معروصاً . محمولاً بالعرض لا يقصد به النفس راع . خوف مسدداً موجهاً الى

الشاعر معه. أمّا القسم الأول فيدور حول حرب الثُغُور وانتصار سيف الدولة على المُستق. إنها لذكرى مجيدة في مثل هذا اليوم ومثل هذا الموقف؛ وإنها لمقدمة فخمة للهيئة بالعيد التي جعلها الشاعر قلب قصيدته تتوسط قسميها توسطاً يربط الواحد بالآخر ربطاً محكماً، ويجعل الثاني منها نتيجة طبيعية للأول، وأنه بحال رجب لحيال الشاعر الذي يهوى المواقف الحرة ويدع في تصويرها لأنه خيال تصغيهي ملحمي. والمتنبّي يعرض لهذه الحرب عرضاً موجزاً لأنه فصل مواقمها في قصيدة لامية قال فيها:

رَمَى الدَّرَبَ بِالْحُرِّ الْجَيَادِ إِلَى الْعِدَى      وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ حِيُولُ  
فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ ذُلُوكِ وَصَسَجَةٍ      عَلَتْ كُلُّ طَوْدٍ رَابَةً وَزَعِيلُ  
فَمَا شَعَرُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُخِرَةً      قَبَاحاً وَأَمَّا خُلُصُهَا فَمَحِيلُ

فهو هنا يعرض لحرب الثُغُور على أنها من ناحية الشاعر مجال لإظهار البراعة والفضامة، ومن ناحية الممدوح شاهد على أنه وصول إلى المستصعبات، وأنه من ثم أهل للهيئة والتعظيم. ومن ناحية الموقف مجموعة من الأغراض التي تروق كبار العقول.

٣ - وأمّا القسم الثاني فيدور حول المتنبي نفسه في مديح سيف الدولة وتحريضه على الحساد. فقد قويت شوكة أولئك الحساد، وأخذوا يتغصنون العيش على الشاعر، وأخذ سيف الدولة يُصغي إلى أقوالهم، ويكرم بعضاً منهم فيؤتي أبا فراس على منبج وحران وأعمالها جميعاً، ويحسن الالتفات إلى هذا وذاك اسمعزراً من عنفوان المتنبّي

١ سُمِّيَتْ هذه المعركة معركة الثُغُور لما وقع فيها من سلسلة معارك في أعصار الثُغُور، وكان ذلك بعد أن أطلق الحمدانيون أسرى الروم واتخذت المدة، إذ كان سيف الدولة في ديار بني مُصر يُخمد ثورة بني عقيل وقتير وعجلان وقد نفي إليه ن العدي في بلاد العرب فيجيش جيوشه وعامل الروم في دلو، وصحة، وعرق، ومطية، وغيرها، وصدمهم صلوات عمه حتى انهزموا وكان على رأس الجيوش البيزنطية القائد برداس فوكاس هز برداس وترك منه قطعاً أسيراً في يد الحمدانيين وقد ذكر شعمرجه أن قسطنطين فوكاس بن قسطنطين برداس قائد أمبراطورية بيزنطية مات في حلب لأن سيف الدولة رفض تسليمه. ومن المعلوم أن أبناء المستق قسطنطين برداس فوكاس هم يسعور فوكاس، وليو فوكاس، وقسطنطين الشاب الذي أمير، وكان لقب المستق. أي الحادم الأعظم جيش الشرق، يُدعى على أمبراطور القسطنطينية كما كان يُطلق على يسعور فوكاس وذكر النسي في قصيدته هذه أن الجيش البيزنطي وقع كله في أسر الحمدانيين، وأن برداس الحارثي نوى إلى الدهر وسس لمسوح منزلاً راحة القتال بعد هذه المظلة الكبرى

وتطاوله اللذين لا يقفان عند حد. إنه يبدى مخوفاً والشاعر يتأفف مستعيناً بالنظرة التي تسر الأغوار ، والحكمة التي تنزل الى الأعماق ، وتذكر أن إكرام اللئيم خطأ جسيم ، وأن الانصراف الى الظاهر دون الباطن مزلة وخيمة العاقبة ، والأخذ بالفرع دون الأصل وهم والتعاضى عن الشعر السمين في سبيل الغث والأعجف أمر مهين...

- والمتني في هذه القصيدة باطني النزعة ، إسماعيلي المذهب ، شأنه في سائر فقه يرى في سيف الدولة شيئاً من إمام تسبق معرفة القلب عده رؤية العين ، بالآيات قبل وقوعها اتصالاً ذهنياً يلتحق بعالم النبوة ؛ وهو يرى عنده من الرأي ثمة (يعني الإدراك العقلي المجرد) ما لا يستطيع أن يصل إليه إنسان ؛ ثم إنه يجعل ال أمير وأقواله معنى باطناً ومعنى ظاهراً ، فيقول :

يَدُقُّ عَلَى الْأَفْكَارِ مَا أَنْتَ قَاعِلٌ      فَيُتْرَكُ مَا يَخْفَى وَيُؤْخَذُ مَا يَدَا

والمعنى الباطن للحكماء والفلاسفة ، والمعنى الظاهر لعامة الناس . أضف الى ذلك أن في بعض الأبيات خطأ من شأن الخلافة العباسية وتحريضاً على الخليفة :

فَيَا عَجَباً مِنْ دَائِلِ أَنْتَ سَيِّفُهُ      أَمَا يَتَوَقَّى شَفَرَتِي مَا تَقْلُدُنَا<sup>١</sup>  
وَمَنْ يَحْمِلُ الصَّرْعَامَ لِلصَّيْدِ بَازُهُ      تَصْصِيْدُهُ الصَّرْعَامُ فِيمَا تَصْصِيْدُ

١- أبيات الحرب نفساً قرمطياً يعجّ عجيج البحر لبان العاصفة ، وفي استعمال الألفاظ (محض الحلم في محض قدر) ما ينقلك الى مجالس الإسماعيليين الذين تنضموا الفلسفة اليونانية في سبيل أهدافهم الخاصة...

٢- والمتنبي في القصيدة متطلسف تظهر نزعته الفلسفية في استعمال القياس مطفي ، وربط الأفكار بعضها ببعض ، وإقامة الحجج العقلية ، واستعمال الألفاظ والتعبيرات التي استعملها الفلاسفة . إنه افتتح قصيدته على غير عادة الشعراء السابقين ، أراد تهجير الحكماء ومدعي الحكمة في لاط الأمير ، فكان كلامه مقدمة كبرى لقياس



منطقيّ على سنّة رجال المطق، وجعل من قول الملاسفة بأنّ «العادة طبيعة ثانية» مبدأً أساسياً ترتكز عليه آراؤه التي سيُنبئ بها. والعادة كالطبيعة مبدأ عمليّ، ومصدر أفعال. وهكذا فكلّ إنسانٍ وما تعود، والحال أنّ سيف الدولة دائم الطعن في الأعداء ودائم القتلك بهم، ومن ثمّ فقد هان عليه كلّ شيء، ودلّت له الملوك والسلاطين، ومن جملة أولئك السلاطين ملك الروم الذي شهد حطمة كبرى في معركة الثغور.. وهكذا ترى الأفكار متلاحقة متأسكة الى آخر القصيدة، وتري سيف الدولة من أهل الرأي والحكمة، بل «يفوق فيها الناس أجمعين»، وتري الحجاج متراصّة في إيجاز ودقّة وعمق... وتري أنّ الشاعر يتعمّد التفلسف تعمّداً ويقصد إليه قصداً.

٦ - والمتنبي في هذه القصيدة عالم من علماء اللغة والبيان، يسيطر على اللغة والعبارة سيطرة شديدة، فنقاد له اللفظة مها كانت عويصة، وتصبح أداة أداء بحرفها وموسيقاها النغمية وموقعها من غيرها؛ لأنها تُفيد المعنى قبل أن يُوصل إليه، وهي أبداً قوية مدوّية يرسلها الشاعر صواعق في أذن السامعين والقارئ، وكأني بمجمل الألفاظ جيوش فرسان متراصّة الجوانب، منقضة انقضاضاً رهيباً تساندها المهارة في استعمال وجوه البيان والبدیع مساندة تزيدها قوة والتحاماً. اقرأ هذا البيت مثلاً:

وَوَضَعَ النَّدى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَى      مُضِرَّ كَوْضَعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدى

إنه من نماذج الحكمة، ومن مبادئ الاحتجاج والسياسة، وهو من موحيات اسم «سيف الدولة» وحاجة الشاعر الى «النّدى» بل هو سيف الدولة والمتنبي في تفاعلها وعلاقة الواحد منها بالآخر؛ وهو الى ذلك مجموعة من الدالات والمضادات وكأنّ تتابعها قرع طبول ووقع سنابك، وهو مجموعة استعارات وطباقات تتجسّم فيها الصورة تجسّماً بعيد المدى، عميق الامتداد...

٧ - والمتنبي في القصيدة حكيم ينثر الحكم دروساً أخلاقية واجتماعية وسياسية. وحكمه ثمرة قياس تفكيريّ، ونتيجة نظر دقيق في أحوال الناس وحقيقة طبائعهم، وفي أحوال الوجود الأرضي وما يكتنفه من ملاسبات. وهو ان أرسل الحكم لا يرسلها عن عبث، وإنما يستخلصها من مقدّماته التفكيرية ومن تجاربه الحياتية، ويرصّها في ذهن

سيف الدولة لتكون عنده مبدأ عملي، أي مقدمة لقياس تكون نتيجته العمل وهكذا فالحكمة عند الشاعر شديدة الفاعلية، بعيدة الأثر، وهي في ترأص ألفاظها، وانضغاط تعابرها، وروعة بيانها، من أشد عوامل التأثير وتدعيم المعاني.

٨ - وانه ليضيق بما المجال لو أردنا استيعاب كل ما في هذه القصيدة من المعاني والأساليب. ولو أردنا تقويمها تقويماً كاملاً، وإن في القليل الذي ذكرناه إشارة إلى الكثير الذي لم نذكره، ونحن نرى أن الشاعر جال في جميع الميادين تعجباً للفلاسفة والعلماء والشعراء الذين كانوا في زحمة البلاط الحمداني، والذين أخذ بعضهم يضايقه بالحسد والحقد، ويفسد ما بينه وبين الأمير. وقد كان واقعاً في تهكيره، مؤثراً بقوة شخصيته وعمق نظره، مجلياً في بيانه، وإن نزع به الخيال المكبر متزع العلو الاسماعيلي الذي يبلغ الشمس فيجعلها مورداً لحبل الأمير الحمداني.

ب - الرثاء :

كان لا بد للشاعر في حياته الرسمية أن يربّي طائفة من الناس ذات صلة بمن يمدح، واننا إذا استثنينا جدته لأمه التي رثاها قبل اتصاله بسيف الدولة، نرى الرثاء عنده يكاد ينحصر في أم الأمير الحمداني وأخته الصغرى والكبرى، وأبي شجاع فاتك. والمتنبّي في رثائه يقف من الموت موقف الحكيم، ويقف من المائت موقف التعظيم والتبجيل، ويقف من آل الفقيه موقف المادح، ويقف من نفسه موقف الذكرى والألم النفسي.

وهكذا نجد المتنبّي بعيداً عن الضعف العاطفي. إنه ينظر إلى الموت نظرة المتألم المتأمل، وقد يدور في تألمه لا على الموت الذي لا بد منه، ولكن على الدهر الذي يحارب الأحرار، وعلى الحساد الذين يعكرون صفو الحياة. وانه في رثاء جدته يطلق الصان لسخطه على الناس والوجود، ويندفع في ثورته الاسماعيلية القرمطية موعداً مهّداً، ويعلن أن الحظ والعقل لا يجتمعان، وأن العقل مظلوم في عالم الكون والفساد، وإن الحق من ثم للقوة.

ج - الهجاء والعتاب :

١ - قد يُصدّ المتنبّي ويُطعن في أمه فيهجو. ولم يكن هو من المولعين بالهجاء أو

المالين إليه طبعاً وسليقة، ولم يكن ليعبره اهتماماً حقّاً، ولم يكن الناس عنده، مها عظموا، أهلاً لأن يخصّهم ولو بشيء من هجاء. ولذلك ندر هذا الفن في ديوانه، فأثّر غضبة عارضة يثور فيها الشاعر على كاذب، مثل كافور، لا يصدق له وعد، أو يثور فيها على رجل كابن كيغلق أبى الشاعر أن يمدحه فحاول إنزاله. وأمّا هجاءه لضبة فقد أكره نفسه عليه إكراهاً نزولاً عند رغبة بعض الرفاق من الكوفيين. وهكذا فاهجاء عند المتنبّي انتقام لكرامة، والثار من زمان خائن. واشتمئز من دناءات، واحقار للزوم، واستصغار لمجموعة من البشر على وجه الأرض. ومن أشهر شعره الهجائي دالّيته في كافور، ومما جاء فيها:

عِدْ بِأَبِيّ خَالِي عُدْتَ يَا عِدْ      بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرِ فَيْكَ تَجْدِيدُ  
أَمَّا الْأَجْبَةُ فَالْبَيْدَاءُ دُونَهُمْ      فَلَيْتَ دُونَكَ بَيْدَاءُ دُونِي يَدُ ..  
إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ضَيَّفَهُمْ      عَنِ الْقَرَى وَعَنِ الرَّحَالِ مَحْدُودُ  
جُودُ الرِّجَالِ بَيْنَ الْأَيْدِي وَجُودُهُمْ      مِنَ اللَّسَانِ فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ  
نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِيهَا      فَقَدْ بَشِعْصَ وَمَا تَمْنَى الْعُنَاقِدُ  
أَلْعَبِدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٌ بَآخِرُ      نَوَّاهُ فِي نَيْسَرِ الْحَرِّ مَوْلُودُ  
لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ      إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَتَاكِدُ

### المتنبّي في هجائه :

١ - في القصيدة بيان : مقدّمة وجدانية . وهجاء . أما المقدّمة فذكرى الألم في يوم الهجة : بعد عن الأحبة ، وضرب في الفياق خالٍ من كلّ تعزية ، وحفاف في القلب والكبد ، وحسد وخيبة . وإن في هذه المقدّمة لجوّاً قليلاً من الشجن والبأس ، جوّاً من الإرهاق العصبي والمعنوي . وقد استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته بما يبعث القلق في النفوس ، وبما يطبق على الصّدر من اللوعة والكآبة . وأي شيء أشدّ على النفس من أن تتحوّل دواعي الفرح الى دواعي حزن ! وأي شيء أشدّ من أن تجد

١ - علود : مجموع .

٢ - متاكيد . جمع منكود . وهو القليل الخير .

الحياة فراغاً والقلب قاعاً صفيصاً ! وأي شيء أشد من أن تنعصر النفس حتى يضيق بها الوجود ! ... وأي شيء أفعل من الجبروت المخطم على أبواب الأشياء ! ...

٢ وأساليب الأداء في هذا الموقف الوجداني شبه ما في الوجدان من حرقلة وأنين وإرتان . ثم هذا الاستفهام في البيت الأول وبعد الحملة التي حذفت فيها المبتدأ وبقي الحرف وحده « عيد » في أول البيت . إنه استفهام المشتم والمستنكر ، واستفهام الكبرياء الجريئة ، واستفهام الأمل الخائب والحياة التي أظلت رمامها من قبضة صاحبها ... وما هذا الاستفهام في البيت السادس والحمرة في الكؤوس طافحة ؟ — إنه استفهام المقارنة بين حالة السعادة وحالة الهم والتسديد ، واستفهام الحزن الذي يتضمن حكاية الحال والإقرار بالمصير ... وما هذا التعجب الاستفهامي ، والاستغراب التعجبي في مطلع البيت السابع ؟ أو هل جمّد الألم نفس الشاعر حتى تحولت إلى صخرة صماء ليس بها إحساس ولا شعور ؟ .. إنك تجد في أساليب الشاعر وألفاظه واستعاراته احتياج العظمة الضخمة والحطّة البائسة ، وتكاد تلمس فيها جميعاً شيئاً من أسف على عمر انقضى في الأشياء . وعلى أيام اكتشفها السراب من كلّ جانب ... وإنك لتجد في لألفاظ والقوافي موسيقى القضاء ترفق جنازة العظمة المتهاة ... وإنك ، والحق يقال ، أمام مشهد الفناء الذي يشعر بالفناء ويريد البقاء والانتصار على تلاشي البقاء ...

٣ — وأما الهجاء فقد انتقل إليه الشاعر انتقالاً عقلياً متوسلاً إليه بغنى المواعيد « أنا الغني وأموالي المواعيد » . تلخص رائع يتزلق إلى موضوع الهجاء انزلاقاً . وهجاء المتنبي لكاهن أشمئزاز واستصغار وتقييح . إنه يشتمز لكونه وصل إلى زمن يسوء فيه عبد سيّد الأحرار ، ولكونه وهو ما هو وقع في أحط مجتمع لأجل أنبل هدف ، فضاء المهدف ولم تمنح القذارة التي تنازل إليها في سبيل المهدف ، ومن ثم فقد « لدّ طعم الموت شارب » ، إن المنيّة عند الدلّ قنيداً<sup>١</sup> . والمتنبي يستصغر شأن كاهن لأنه خالٍ من كلّ أصل ونسب ، وخالٍ من كلّ شرف وحسب . وهو من ثمّ يحقره ويضخم قبائح تفصيلاً ، ويتعاون في ذلك التضخم قلب متالم هائج ، ونفس مشتمّة شديدة الانفعال ، وتشاؤم لا يرى في أرفع الناس إلا شراً وصاداً فكيف بأحط الناس وأداهم

مبذلةً وشأنًا، وكبرياء تغلبت عليها الحقدارة، ونبوة غشّها الكذب والنفاق، وعقيرة كان الدهر من رواء أشعارها وكان بلاط سيف النبوة من أروع منابرها، وعنفوان أصبح موضوع شائعة في أعين الحساد الذين ناصبوه العدا من المشارق إلى المغارب... إن الموت نفسه يستقيح نفس كافور ولا يتأولها إلا يعود لتنتها وقبح رائحتها... وإنّ هذا الأسود لأقبح الناس حقاً وخلفاً: خصاء ومشفر مقحوب، وأذن في يد النخاس دامية... وغدر وخيانة، ونجاسة وكيد...

٤ - وأساليب الأداء في هذا الهياج الضجائي شبه ما في الهياج من حدة وجيشان. فالألفاظ والعبارات والقوالب تردحم مادة اشتمزاز واستصغار وتقيح إنه السخط والاشتمزاز في الانتفاضات التعبيرية «فلا كانوا ولا أجود!». «ويلمها خطة...»، «أولى اللثام كؤيبر بمعذرة...» وأنه الاستصغار في الألفاظ والتعبيرات والصّور «ثعلبها» «لا تشتر العبد إلا والعصا معه»، «أنحاس متاكيد»، «الأسود المتقوب مشفرة». «كؤيبر»... ألا ترى في ذلك كله القبح مضحماً تضخماً تحقيراً؟ ألا تجد الألفاظ نفسها تستصغر المهجو بحروفها وحركاتها وسكناتها؟... أضف إلى ذلك أن تملل الشاعر في أساليبه التعبيرية هو امتداد لشعوره الشديد بالصغاراة والقبح والاستنكار، وإن انتقاله المتواتر من المهجو إلى ذاته ومن ذاته إلى المهجو هو مقارنة ضمنية حافلة بالاشتمزاز والاستنكار...

٥ - ونتمتذ الذكرى بالشاعر إلى «الفحول البيض» من مثل سيف النبوة وغيره، ويقارن ما فعلوا به وما فعل كافور فيعذر العبد، ويهجو بذلك الناس أجمعين.

٦ - ويلحق بالهجاء الهتاب وهو اللوم اللين، والثائب اللطيف، وقد عالجهُ المتنبي معالجة الطامع الذي خاب أمله أو الذي لم يتحقق أمله بقدر ما كان يطمح إليه، ووجهه بنوع خاص إلى سيف النبوة بعدما اضطربت حاله معه، وبعدها أفسد الحسد والحساد تلك الحان، ووجهه إلى كافور الذي وعد ولم يَفِ، ولجأ إلى المأطلة والتسويق، والمراوغة والكذب. أمّا عتابه لكافور فكان عتاب المُداسّة والزّناء؛ وأمّا عتابه لسيف النبوة فكان عتاب الإعجاب المُستنكر، والهجبة المحروجة، والدّالة المتألّمة، كان الكلمة الصّادرة من الأعناق، حافلة بالصدق، حافلة بالتأثر، شديدة الروعة في اندفاعها، وسلاستها، وعدوبتها، وتبّس عاطفتها:

بَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي ، فَيْكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ  
 إِنْ كَانَ سَرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ، فَمِمَّا لِيُجْرَحَ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ  
 وَلَا يَجْلُو عَنَابَ التَّنَبِّي مِنَ الْفَخْرِ الشَّدِيدِ ، وَمَنْ التَّهْدِيدِ الْمُبْطِنِ .

الفخر :

١ . عوامل فخره . كانت حياة المتنبي نسيج آلام مُيَّضَة ، فهو أبداً بين آمالٍ و  
 رغبة ، وخيبة قاتمة ، تجسم له مخائله الجبَّارة رغائيه ، فتعظم بحكم الحال فشله ؛  
 ويتناهى به طموحه وطمعه الى حدود لا تنال ، فتتكرر له الأحوال ويبقى من دونها  
 كاسفاً ، مُقْبِداً ، سائحاً ، عاجزاً عن تحقيق المآرب ، وقد يتوق الى بعض الحظ ،  
 فيحسب نفسه قد أضحي سيد الكون ، وإن بين يديه قوة قهَّارة ، فريدة ، لا يستطيعها  
 غيره ، ويحسب أنه فوق الجميع ، وقادر على كل شيء ، وأن كل ما يريد طوع  
 مشيئة ، ويغضى على هذا النحو من المغالاة ، مبرهاً في الاعتداد بنفسه . الى ما لا  
 يتصوره عقل ، لا يرحع عن غويته وأوهامه ، حتى يصطدم بالحقيقة المفجعة وسرعان  
 ما يصطدم بها ، فيعود الى حاله من الألم والمفجعة ، ولكنه لا يرتدع بذلك ، بل يصير  
 على غروره ، ويعود الى الاعتداد بنفسه وإذا هو فرد الزمان ، وعنوان الحزم والعزم ،  
 ليس له في الوجود مثيل ؛ وهو وحده رجل الفهم والعقل ، وكل ما خلق الله وما لم  
 يخلق ، محقر في همته كشعرة في مفرقه ، وهو في قومه كصالح في ثمود ، يسير ولا  
 مستعظماً غير نفسه ؛ وهو أيضاً في نظر نفسه مفرد في الشعر ، هو وحده الشاعر  
 والآخرون الصدى ، بل هو رب القوافي ؛ وإلى جنب هذا كله يرى أن ملموحه يزجونه  
 أحياناً مع رعيلى سائر الشعراء ، من غير ما تميز ، وفي كثير من الإهمال وقلة المبالاة ،  
 وقد يصنون الى الشعراء ويعرضون عنه ... وهو يزدري الناس لأنهم يراؤون ويتناقون ،  
 ومن أفبح ما فيهم أنهم ينهون عن أمر ويأتون بمثله ، ومن الثابت الواضح أن المعاكسة  
 اللازمة لرغائيه ، والخيبة المُقيمة في آماله ، وذلك الاستخفاف من قبل بعض الناس  
 بقدره ، كل ذلك مضافاً الى نشأته القروية الاسماعيلية ، وإلى نفسيته المعقدة ،  
 وعنجهيته التي رُكِّبت في طبيعته ، كل ذلك كان سبباً مهماً من أسباب الآلام التي  
 رافقت سحابة حياته ، والانفجار الفخري الذي تردّد دويّه في شتى مواضع الشعرية .

٢ أطوار فخره : كان فخر المتنبي في صباه فخر العنقوان والثورة لأنه كان من إفرافات الروح الإسماعيلية والقرمطية ، ومن تأثيرات الحياة البدوية التي اكتشف في أرجائها عبقرية الشعرية وتفوقه الفكري ، وهمة التي تستطيع أن تطاول الناس أجمعين :

لَا يَقْوِي شَرَفْتُ . بَلْ شَرُّفُوا بِي ، وَبَسَفَسِي فَمَحَرْتُ لَا يَجْدُودِي  
إِنْ لَمْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَمُعْجَبٌ عَجِيبٌ لَمْ يَجِدْ قَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ  
أَنَا تَرِبُ التَّدَى ، وَرَبُّ الْقَوَايِ ، وَسِمَامُ الْعِدَى وَغَيْظُ الْحَسُودِ

ولما بلغ المتنبي مبلغ الرجال ، وتقلب في البلاد من حال إلى حال ، ينثر مدائح على هذا وذلك من غير أن يجد ما تطمح إليه نفسه ، ويطرد من الأمراء هذا وذلك من غير أن تكون له عندهم المنزلة التي يرتاح إليها عزمه ، تحول مدحهم من العنقوان الصبياني إلى انفجار بركاني . فيه تهديد ووعيد ، وفيه طمع بمستقبل مجيد ، قال في رثائه لجده :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخَمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا  
لَيْسَ لَدَى يَوْمِ الشَّامِتِينَ يَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِإِنَائِهِمْ رَغْمًا  
تَقَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِي ، وَلَا قَائِلًا إِلَّا لِخَالِفِهِ حُكْمًا...  
فَلَا عَبَّرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعْزِي ، وَلَا صَحِيتِي مُهْجَةً تَقْسِلُ الظُّلَمَا...

وعندما استقر المتنبي عند سيف الدولة ، وعندما توهم أنه وجد ضالته المنشودة أصبح فخره كلمة العزة القائمة ، وأنشودة السيطرة العارمة :

سَمِعْتُمْ الْجَمْعَ مِنْ صَمٍّ مَجْلِسًا بِأَنِّي خَيْرٌ مَنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ  
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْنَى ، وَأَسَمِعْتَ كَلَامِي مَنْ يَمْ صَمَمُ  
الْحَبِيلُ وَاللَّيْلُ وَالْيَدَاءُ تَعْرِفِي ، وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

وبعدما فارق المتنبي سيف الدولة وتكشفت له حقائق الحياة بكلّ جلاء ، تحول الفخر عنده إلى فخريالس فيه نقمة ، وفيه سخط ، وفيه انكفاء على الجروح الدامية في أعماق ذاته :

إِنِّي أَصَادِقُ حُلْمِي وَهَوِّي كَرُّهُ      وَلَا أُصَاحِبُ حُلْمِي وَهَوِّي جَبْنُ  
وَلَا أَقْسِمُ عَلَى مَسِيرِ أَذْيِهِ      وَلَا أَلْدُّ بِسَا عِرْضِي بِهِ ذَبْنُ

### ٢ شاعر الملاحم والوصف الملحمي:

كان لأبي لطيب غرام خاص بالغرب وآلاتها، تميل إليها نفسه ميلاً تلقائياً، لأنها من النفوس القوية التي تؤمن بأن القسوة سنة الحياة على وجه الأرض، ولأن الفلسفة القرطبية كانت غذاءها مد عهد الطفولة. ثم أخيراً لأن صاحبها انضم إلى قواد وأمراء كان لهم في ميادين القتال جولات واسعة، ورافق الجيوش إلى ساحات الحرب وواجه الأهوال حتى كان لقبه منها درع من القولاذ. وحسبنا أن نتوقف عند عهد صيف النبوة، وهو أزهى اليهود بالنسبة إلى هذا النوع من شعر المتنبي. فقد رافق شاعرنا أمير حنبه في سورية الشمالية وداكرها، وفي رحلاته البدوية وغزواته للروم والأعراب، وكان يستحل في قصائده الكثيرة التي اختصه بها كل حوادثه؛ فيتبع بالذکر حروبه، وسفره وقفوله، وارتدله ونزوله. ويصف ظفره الصاقي والتخال الروم وفرار ملكهم وفوادهم وتشتت جيوشهم واندهارها... ولم يكن شيء في شعر المتنبي أعذب نفعاً ولا أهدأ أثراً من سيببائه الخاسية التي نسجها على هفوف الصحراء، ومزجها بمحمات



حشد من العرب

تحيل صافقة سديكها على درب الروم  
تسم عيبها صدور البزاة بتقدوح الشرر  
وصيل لسلح في ضجيج الفرسان  
وعجيج القبار. وفي هامة الجيش الذي  
يسد هريمته وجوه الجوّ كان يترنح أمير  
حمدان على جواده المظلم كأنه فارس  
الأساطير يهب في عالم الحروب قبعلاً  
قلقبلاً والباطلوق والقينوق والأيسيق  
وسائر أقاليم بزنبلة برهة حربه وسطونه  
وبأسه. حتى نجى أخباره القسطنطينية



فبراع من فيها ويهبّ البيزنطيون الى خيولهم بأثقال الحديد لردّ هجمة العرب وسدّ الثغور وإغلاق الحصون<sup>١</sup>.

١ معركة خرسنة : ومن أشهر المعارك التي سجّل المتنبي وقائمه معركة خرسنة ، ومعركة الثغور ، ومعركة الحُدث الحمراء ، ومعركة الدُرب . أما معركة خرسنة فهي غزوة لسيف الدولة كان أولها انتصاراً وآخرها ذلاً وانكساراً إذ ارتدّ الروم على جيوش العرب بقيادة قسطنطين برداس ، وأصلوهم غارة شعواء وشتوا شملهم ، وجعل الأمير الحمداني يستنفر جنده فلا ينفرون فقررّ الى حلب هارباً ، فقال الشاعر قصيدته :  
غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَسْخَرُ  
إِنْ قَاتُوا جَبُّوا أَوْ حُدُّوا شَجُّوا  
وتحوّل بأكثر الوصف الى بطولة سيف الدولة وتقرّده في الشجاعة تخفيفاً لأحزان الانكسار :

بِالْجَيْشِ تَمْتَنِعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمْ ، وَالْجَيْشُ بِأَبْنِ أَبِي الْهَيْجَاءِ يَمْتَنِعُ

فقد قاد جماعات الحيل وسار على بلدان العدو كالموت الذي لا يروى ولا يشيع ، وكأنّ خيله تتلقى الروم لتدخل في أجسادهم وتسلّكها فإنّ الطعن يفتح في أجوافهم جراحات واسعة حتى تسع الفرس أن يدخل منها ، وإذا أظلمت الحرب بالغيار تهتدي عيون خيله بضوء أسنة الرماح ، فكانّ الأسنة نار والقنا شمع ، وكان إذا استغاث العليج صاحبه اعترض بينها ربح أسمر يفرق بين الضلع وأختها... وهكذا يمضي الشاعر مغالياً ما استطاع الغلو ، متخيلاً ما استطاع التخيل ، تمنّياً في ذلك كلّ ختى لتخال نفسك في عالم الملاحم والأماطير . وإنه لمن أقدر الناس على تحويل الانكسار الى نصر رائع لسيف الدولة لأنه :

مَنْ كَانَ قَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ...

١ ركي الخامس . شعر الحرب في أدب العرب . ص ٢٣١

٢ عخرشة مدينة ذات قلعة حصينة حلّية في جهات ملطية من بلاد الروم .

إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِيلُهُ، وَلَيْسَ كُلُّ دَوَاتِ المِخْلَبِ السَّيْبُ

٢- معركة الحدث الحمراء: وأما معركة الثغور فقد أتينا على ذكرها فيما سبق ٤. وأما معركة الحدث الحمراء فسيبها أن الروم هاجموا قلعة الحدث وهدموها، فتوجه أمير حلب يريد إعادة بنائها بنحو خمس مئة من حرسه الخاص. وفيها هو كذلك هاجمه الروم وعلى رأسهم برداس فوكاس فلم يستطيعوا التغلب عليه حتى أتم بناء سور القلعة في ١٢ تشرين الثاني سنة ٩٥٤. وكان المنتبى إلى جانب الأمير في تلك المعركة، فتنظم فيها قصيدتين أنشد الأولى منها في راحة من تلك المعركة عند المساء، وأنشد الثانية بعدها بعام عندما عاد الروم إلى شن الغارة على القلعة بعد بنائها. والقصيدة الأولى من أشهر شعر المنتبى، وهي تتألف من ستة وأربعين بيتاً، ضممتها وصفاً رائعاً لرحف جيش الروم:

أَتَوَكُّ يَسْجُرُونَ الحَدِيدَ كَمَا نَهَا سَرَّوَا بِحِجَابٍ مَنَا لَهُنَّ قَوَائِمُ  
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تَعْرِفِ البَيْضُ مِنْهُمْ، يُسَابِقُهُمْ مِنْ مِثْلَيْهَا وَالْمَحَائِمُ  
خَمِيسُ بَشْرِقِ الأَرْضِ وَالْغَرْبِ رَحْفُهُ، وَفِي أُذُنِ السَّجَّوَرَاءِ مِنْهُ زَمَائِمُ ٢

وصور فيها سيف الدولة وقد وقف يستعرض جيشه المنتصر، ويشهد انهزام

١- الحدث قلعة في بلاد الروم أقامها سيف الدولة على تل يسمى «الأحمر» سميت لذلك «احمر» وكان يلقب شوكة في جب الروم لأنها باب الطريق إلى القسطنطينية.

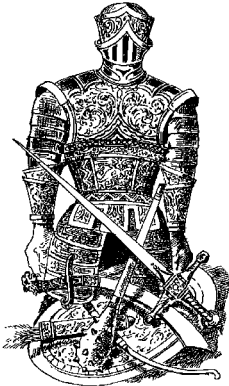
٢- الخمس: الجيش العظيم. المرامح: رمزية وهي صوت الرعد أراد بها الأصوات الشديدة المتداخلة. وكانت جيوش البيزنطيين يهتف بأصوات أنشيدها بمدادات أشبه بهير البحر. وتستنين بالليل الكبر والقرون الباعقة وكان على رؤوس الحمود منها حوزة تلال من الخنيد، وعلى أطرافهم وحشومهم الرعد المضاعف. وكانت يسمون تروس كدرة. وكانوا في نعتهم يؤلفون صفاً واحداً كثفاً إلى كثف مترافاً كالجدار. وكان سلاح الجندى قوس وبن ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة.

أما جند سيف الدولة فكانوا يعلدون على ظهور أفراسهم في المعركة وليس عليهم لباس السلاح الثام، فهم لا يكتنون لبوس الحلييات، ولكنهم يضعون على وجوههم معار من لمدن الصفيح، ملاحهم الرماح الطلوال والتروس الكبيرة التي تعطي الجند كله. وأفراسهم من خشب ليس واسع ما بين السنتين يمس على الرجل القصير أن يرمي به الشاب. وكانوا يستحبون بطول صغيرة يفرعها فرعاً عرجلاً متتابعاً. (الحامسي).

الرّومَ ، فكان واقفاً في حَفْنِ الرّدى والرّدى عنه نائم ، والأبطالُ البيزنطيّون يَمْرُون به مُجرّحين مُنهزمين ، وهو مُشرِقُ الوجه باسم الثغر :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِرَوَاقِفِ ، كَأَنَّكَ فِي حَفْنِ الرّدى وَهُوَ نَائِمٌ  
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلُّهُمْ هَزِيمَةٌ ، وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ ، وَتُفْرَكُ بِاسِمٍ  
تَجَاوَزَتْ مِقْدَارَ الشُّجَاعَةِ وَالنَّهْيِ إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْقَيْبِ عَالِمٌ

وقد جعل سيف الدولة إماماً من الأئمة ونبيّاً من الأنبياء على سُنَّةِ الإسماعيليّة ،  
إذ جعله مُتَّصِلاً بِأَسْمَى العقول  
عقلاً ، وجعله عالماً بِالْقَيْبِ وواقفاً  
على أسرار المستقبل .



مجموعة من الأسلحة التي كانت شائعة في ذلك العهد  
ولاسيما عند الروم

ولما انتهى الشاعر الى وصف  
الحَيْلِ — وهو شديد الولع بها  
انطلق يَصَوِّرُها وقد تَبَعَتْ الرّومَ في  
رؤوس الجبال حتى ظَنَّتْ فَرَاخُ  
العقaban أَنَّهَا أَمَاتَهَا لشدّتها وسرعتها ،  
وهي إِذَا زَلِقَتْ في مهابط تلك  
الجبال ، لشدّة انصبابها ، مشت  
زحفاً على بطونها كما ترحفُ الحَيَاتُ  
في الصَّعِيدِ . ويجري الشاعر على  
خطّته هذه واصفاً بقلبه ومُخَيِّلته  
ولسانه ، ومُعَسّاً أَنَّ هذه الحروب  
مع البيزنطيّين ليست حروباً خاصّة ،  
ولأنّها هي ملحمة كبرى بين العرب  
والروم .

٣ معركة الدرب: وأما معركة الدرب فهي آخر المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم، وهي آخر معركة وصفها المتنبي، وكانت قصيدته فيها آخر قصيدة في سيف الدولة قبل رحيله عن حلب، «فقد وفر الدهر على أبي الطيب كبرى حوادثه وأفدح خطوبه إذ نجى عيبه — وكانتا تujian سيف الدولة — أن تشهدا انكساره الأكبر ودوران الدثرة عليه وعلى جيوشه في وقعة مغارة الكحل التي سحق فيها يقيفور فوكاس الجيش الحمداني وكتب على سيف الدولة القهر الأخير، وأقول النجم الحمداني من سمى حلب، إذ فتحت أمام جيوش الروم الحرارة أبواب حلب، فدخلوها وأحرقوها، وجن فيها جنوئهم في النهب والسلب والقتل والاستعباد». كان أبو الطيب إذ ذاك في مصر عند كافور، وقد بلغه الخبر، وترامت إليه تفاصيل النكبة الكبرى، ولا شك أنه حزن شديد الحزن، ولا شك أن أخبار هذه الحطمة كانت من الأسباب الكبرى التي حالت دون عودة الشاعر إلى بلاط حمدان

كانت إذن معركة الدرب انتصاراً عظيماً لأمر حلب، وكانت قصيدة المتنبي من أعلى الشعر، وآخر نشيد من أناشيد الملحمة الكبرى التي نظمها قصائد في حروب سيف الدولة لتكون «أنشودة الدهر» في فروسية آل حمدان وطولة أبي الهيثم سيف الدولة<sup>٢</sup>. وقد ضمها المتنبي وصفاً لهبوب الجيش العربي إلى المعركة، وتفصيلاً للأماكن والأحداث، ولأطوار المعركة وملابساتها مما صيغ القصيدة بصيغة الشعر الملحمي الحق، وبما جعلها نشيداً أشبه بأناشيد الإلياذة الهوميرية. قال المتنبي وقد تحدثت بحضرة سيف الدولة أن البطريق أقسم عند ملكه أنه يعارض سيف الدولة في الدرب. وسأله يسجده بطارقه وعدده وعدوه ففعل، فخاب طنه:

عَفَى الْيَمِينَ عَلَى عَفَى الْوَعَى نَدَمٌ،      مَاذَا يَرِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسِيمِ...  
كُلُّ السُّيُوفِ إِذَا طَالَ الضَّرَابُ بِهَا،      يَمَسُّهَا، غَيْرَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ، السَّامِ...

ثم راح الشاعر يتتبع حركة الزحف ومسللة المواقع، فمن «تل البطريق»، ودخول

١ دكي الحاشي: شعر الحرب في أدب العرب، ٢٤٨.

٢ عسر ترجع ١ ص ٢٥٠ ٢٥١

الجيوش العربيّة الى «سروج» عند الصباح، وإلزامها «بحرّان» تحت يوم ناضر فيه غمام يستر الشمس ثمّ ينحسر، الى اجتياز الجيش بقلع «أرسناس» بعد الاستيلاء عليها، ومحاصرته لحصن «الزان»، الى الوقعة الكبرى في اللّرب...

جَيْشٌ كَأَنَّكَ فِي أَرْضٍ تُطَاوِلُهُ، فَأَلْأَرْضُ لَا أَمَمٌ، وَالْجَيْشُ لَا أَمَمٌ<sup>١</sup>  
إِذَا مَضَى عِلْمٌ مِنْهَا بَدَأَ عِلْمٌ، وَإِنْ مَضَى عِلْمٌ مِنْهُ بَدَأَ عِلْمٌ<sup>٢</sup>

وفي هذا كلّ غاية ما يصل إليه الوصف الملحمي، وغاية ما تصل إليه العبقرية في تصوير المعاني. وإنك إن قرأت الإلياذة من أولها الى خاتمتها فلن تجد أروع من هذا الوصف الحربيّ، بل لن تجد ما يقاربه في روعة التصوير، والنّفس الحماسي، «والزّخم» الذي يُرْعِزُ، والقوّة الجبّارة التي تعصف بالألفاظ والمعاني عصفاً قلّ مثيلُهُ.

وهكذا فالمتنبي شاعر حرب من الطراز الأول، يتلبّس موضوعه تلبّساً، ويفجر فيه انفجاراً، ويقوده في إيجاز يحبك فيه المعاني حبكاً، ويصوّرها تصويراً نوبلياً، ويضخّمها مستعيناً بقوة نفسه ونزعة القرمطيّة الاسماعيليّة فيرفعها الى مستوى الخواريق، ويواكبها بشدّة لفظيّة وعروهيّة حتى تتخيّل المعنى في موسيقى اللفظة. والصّور في شعر أبي الطيّب هذا حافلة بالمفاجآت الابتكاريّة المدهشة، والمفاجآت الابتكاريّة هذه تكاد تحصر في نطاق التّضخيم والتّوهيل حتى ليصبح الجو كلّهُ جَوْاً ملحمياً حقيقياً.

##### ٥- شاعر الحكمة :

١ مصادر حكمته وعواملها : أكثر أبو الطيّب المتنبي من لإرسال الحكمم وضرب الأمثال في شعره. وإنك كيفما قلبت ديوانه وقفت على كنوز من الحكمة التي كانت من أقوى عوامل شهرته وانتشار شعره بين العامة والخاصّة. والحكمة عنده ثمرة تجربة حيائيّة

١ - أرسناس : هو حصن في الفرات بين بامورين وقرم سامور.

٢ - يقول : تَعَدَّتْ الْأَرْضُ مَطَالَتَ كَتَابٍ عَظَاوَنَ جَيْشِكَ فِي أَمْدَادِهِ . فكلامها بعيد الأثر لا قرب فيه .

٣ - العلم من الأرض : الحق . والعلم من الجيوش : اربيه . أي لا الأرض تضي ولا الجيش تفرع .

وتفكير عميق. فهو رجلُ الآلامِ وأطاع؛ وهو رجلُ إسماعيليةٍ مُتفلسفةٍ وقرمطيةٍ ثائرة؛ وهو رجلُ تأملٍ في ما انتابه من معاكسات الأيام، ومنافسات الحساد ومناوآت الزمان وأهليه، وهو أخيراً رجلُ ثقافةٍ وإطلاع، أفاد من فلسفة الإغريق وفلسفة الشيعة علماً واسع الطاق، وكان له من مجتمعه وما آلت إليه الأحوال من الفوضى والاضطراب دروس وعبر، كما كان له من عالمه الدآني، وعنى نفسيته، وقوة شخصيته، ينبوع دافق تجمعت فيه شتى العوامل وانفجرت حيكماً وآيات في وجيزٍ من القول مرصوص الجوانب، مضبوط الألفاظ، مُحكم الباء أروع إحكام، مصقول الجواشي أحسن صقل، بحيث يسبب إلى النفوس انسياً، ويعلق في الأذهان علوقاً شديداً.

٢ - موضوع حكمته: والحكمة في شعر أبي الطيب مشورة في الدبوان وفي شتى القصائد، وهي تأتي في مقطوعة من القصيدة، أو في بيت واحد أو في شطر من البيت، وهي تارة مبدأ عام أشبه بمقدمة كبرى لقياس منطقي. وطوراً نتيجة لتجربة ذاتية؛ تارة تفسير لقول أو حالة. وطوراً تقرير لرأي... ومعظم حكم المنبهي في الآم الحياة، وخبيثتها، وما يتقلب عليها من أحداث. وما يدور في فلكها من لومٍ وتبانة. فإن الشاعر بعيد عن أن يقف موقف الزاهد المتصوف، وإن غلبت على نفسه نزعة الشطلف، فهو يواجه الحياة بما فيها من مُنع:

إِسْمَ وَلَدٌ فَلِلْأُمُورِ أَوَاخِرُ أَبْدَأُ إِذَا كُنْتُ لَسُهُنْ أَوَائِلُ

• سيطرة القوة: إلا أنه لا يرى الحياة «مُتعة» على سة ابن الرومي، ولكن اللذة عنده خاضعة للعقل الذي لا يسمح بها إلا إذا كان الشرف مصوناً، وهي خاضعة لفلسفة القوة التي تجدد البطولة وتؤثرها على كل مُتعة. فالحياة للمجد أولاً، ولما كانت مسرحاً من مساح تنازع البقاء، وجب أن تسود القوة، لأن العيش للأفضل أي للأقوى، والأقوى هو الأجد:

إِنَّمَا أَنَسَمُ الْأَنْسِيسُ سَبَاعُ      يَسْفَارُ مَنْ جَهْرَةً وَأَغْيَابَالاً  
مَنْ أَطَاقَ النَّهْسَ شَيْءٌ غَلَاباً      وَأَغْتَصَبَا ، لَمْ يَلْتَمِسْهُ سَوْالاً

ومن ثمّ فلا بُدّ من مواجهة الحياة بقوة ، لأنها زائلة ، ولأنّ الموت لا بُدّ منه ؛ ومن ثمّ فلا ينجس الإنسان موتاً سواء أكان قتلاً أو حتف الأنف . وهكذا فالشجاعة من خير ما يتعلّى به الإنسان ولا سيما إذا رافقتها الحكمة :

وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تُنْجِي ، وَلَا يَمْلُ الشُّجَاعُ فِي الْحَكِيمِ

وهذه الشجاعة من الأمور التي لا بُدّ منها ، لأنّ الحياة في المجد ، ودون المجد عقبات بَلَّة الموت الزُّوَام :

أَعْلَى الْمَالِكِ مَا يَنْسَى عَلَى الْأَسَلِ وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّهِنَّ كَالْقَبْلِ

ومن مظاهر الشجاعة الصبر على العظام :

..... إِنَّ الْعَظِيمَ عَلَى الْعَظِيمِ صَبُورُ

• الزمان عدوّ الأحرار : والحياة فوق ما هي عليه من توافر الشدائد ، تميل مع الأخسّ الأخسّ ، لأنّ الزمان عدوّ الأحرار ، ودائم المخاصمة للعقل . والعقل ، كما لا يخفى ، أشرف ما في الإنسان :

وَأَشْرَفُ مَا لِمَسْنَى لَهُ وَذُو اللَّبِّ يَكْرَهُ إِنْفَاقَهُ

والعقل قبل الشجاعة والقوة ، وإن كان المجد في هذه الحياة للسيف لا للقلم .  
والزمان يابى أن يتأخّر ذا العقل ، فأفاضل الناس أغراض لديه ، وانه لأسهل أن تجمع بين الماء والنار من أن تجمع بين الحظ والعقل :

وَمَا جَمَعَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدَيِ بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْقَهْأ

• الناس وشرهم . والناس أشرار من طيهم ، وهم كدنيا الفساد فاسدون مافقون ، وهي خسيّة تميل الى السقطة منهم :

وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا أَلطَّخَامُ

ولما كان الناس كذلك وجب التحفظ ، وعدم الثقة :

خَلِيلُكَ أَنْتَ ، لَا مَنْ قُلْتَ خَيْلِي ، وَإِنْ كَثُرَ التَّسَجُّلُ وَالْكَلامُ  
وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تَوَمَّلَ عِنْدَهُ حَيَاةً ، وَإِنْ يُشْتَاقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ

ولهذا وجب وضع الحلم في موضعه والسيف في موضعه لأنَّ حلم الفتى في غير موضعه جهل ، ولأنَّ إكرام اللئيم يحمله على التمرد .

٣ - ميزات حكمة : وهكذا يذهب المتنبي في حكمته مذاهب شتى ، وهو شاعيد التأثير بالآراء الفلسفية ، يجول فيها جولات واسعة في عمق وسعة إدراك ، وإنك لتلمس هذا التأثير حتى في الألفاظ والتعبيرات :

وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا أَلطَّخَامُ  
أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الطَّعْمُ وَعِنْدَ السَّمَاسِ الرِّزْلُ  
إِنْ سَمَّ وَلَدٌ فَلِلْأُمُورِ أَوَاخِرُ أَبَدًا إِذَا كَانَتْ لَهُنَّ أَوَائِلُ  
يَفْسَى الْكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ أَيُّحِيطُ مَا يَفْسَى بِمَا لَا يَنْعَدُ

والمتنبي في حكمه شديد التغلغل في طوايا النفس البشرية . شديد التفهم لأحوال الزمان والمكان . فهو يعالج العادة وأثرها في الحياة ، والنقص وأثره في أحكام الإنسان وتلون مظاهره ، وميل الطبيعة البشرية الى الظلم ، وتأثير الباطن على الظاهر ، وما الى ذلك مما هو من صميم علم النفس . قال :

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا ، وَعَادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطُّعْنُ فِي أَلْيَدِي  
مَنْ يَهِنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ، مَا لِسَجْرٍ بِسَمِيَّتِ إِبْلَامُ  
وَكُلُّ رِيٍّ طَرَفُ الشُّجَاعَةِ وَاللَّدَى ، وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسَ لِلنَّفْسِ قَائِدُ  
وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَمَلَبِهِ لِكُلِّ عَيْنٍ ذَلِيلُ

أضف الى ذلك أنَّ المتنبي في حكمته ، اساعيلي النزعة ، ولاسيا في تقديمه للعقل ، وفي نظره التشائم الى الناس ، وفي مذهب القوة الذي سار عليه . وقد بلغ في نظم آرائه



أدقّ غاية في التعبير، ففاق شعراء الحكم جميعاً في الجمع بين القوة والابحاز والإحكام، فجاءت أبياته عذبة بليغة. والأمر الذي نلاحظه أن هنالك تطوراً في آراء الشاعر، فقد كان لبّان شيا به منهوراً في حبّ الثورة والدّمار، وطلب الآمال الخياليّة التي لا قرار لها ولا سبيل الى تحقيقها؛ ولما اكتمل ضعف عصف الثورة في أبياته. إلّا أنّ بعض آرائه اتسم إذ ذاك بنونٍ من التّشاؤم كيف

• • •

هذا هو المتنبي شاعر القوّة والعبقريّة، وهذا هو عقله اللّامع. وقلبه النّباض، وخياله الخلاق، ولسانه البليغ. هذا هو الرجل الذي شغل الناس في حياته وبعد مماته، وكان يوقاً في أذن الأجيال يستحثّ الهمم ويدعو الى القيم.



## مصادر ومراجع

- طه حسين: مع المتنبي (جزآن) — القاهرة ١٩٣٦.
- شفیق حبري: المتنبي — دمشق ١٩٣٠.
- عبد الرحمن شكري: المتنبي وصرّ عظمته — الرسالة ٧ (١٩٣٩) ص ١٥٣ — ١٩٥.
- أمين الريحاني: المتنبي شاعر العروبة — المكشوف. الأعداد ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠.
- عبد الوهاب عزام.
- ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام — بغداد ١٩٣٦.
- اليداعة طباع أبي الطيب — الرسالة ١٦٣، ١٣٣١.
- جامعة من الأدباء: أبو الطيب المتنبي — عدد خاص من مجلة الهلال أغسطس سنة ١٩٣٥.
- أحمد أمين: فيض المخاطر — المتنبي وسيف الدولة وفلسفة القوة في شعره.
- مارون عبود: الرؤوس — بيروت.
- دكي الحاسبي: شعر الحروب في أدب العرب — القاهرة ١٩٤٧.
- محمد كمال حسي: أبو الطيب المتنبي — مصر ١٩٢٣.
- قزاد البستاني: أبو الطيب المتنبي — الروائع ١١ — بيروت.
- علي أدهم: أبو الطيب المتنبي بين الغرور والطموح والحزن — انكبت المصري ١: ٤٧٩.
- وديع تلحوق: أبو الطيب المتنبي ونسبه العلوي — المقتطف ٨٩.
- عمود محمد شاكر: أبو الطيب المتنبي — المقتطف عدد يناير ١٩٣٦ (عدد خاص بالمتنبي).

R. Blachère: Abou-t Tayyib al-Motanabbi - Paris 1935

## أبو فراس الحمداني

(٣٢٠ - ٣٥٧ هـ / ٩٣٢ - ٩٦٨ م)

١. تاريخه. وُلِدَ أبو فراس في الموصل سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م قُتِلَ في رعاية ابن عمِّه سيف الدولة بِمَرْجٍ بِالْإِكْرَامِ مِنْ سَائِرِ قَوْمِهِ ، وَبِصُلْطَنِهِ فِي غُرَوَاتِهِ وَبِسُخْفِهِ عَنْ أَعْمَالِهِ ، وَقَدْ وَلَّاهُ شُؤْنُ مَسِيحٍ .  
أُسِرَ أَبُو فَرَسٍ مَرَّتَيْنِ ، وَقَدْ تَنَاطَلَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ فِي قِتَالِهِ ، وَظَنَّ فِي أَسْرِهِ إِلَى سَنَةِ ٩٦٦ م . وَفِي سَنَةِ ٩٦٧ مَاتَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ مُحَاوِلَ أَبُو فَرَسَ أَنْ يَتَعَلَّبَ عَلَى حِمَى فَرَسِلَ أَبُو الْعَالِي مَنْ قَتَلَهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ ٩٦٨ م / ٣٥٧ هـ

٢. أدبه. لأبي فراس ديوان شعر أشهر ما فيه الروميات.

٣. شاعر الروميات: كَانَ الْأَسْرُ وَالْأَمَةُ سَبَبَ نَظْمِ الرُّومَاتِ ؛ وَبَعْدَ طَوَاخَا عَلَى ذِكْرِيَانِهِ ، وَنَظْمَاتِهِ إِلَى الْحَيَّةِ ، وَمَا قَامَ فِي نَفْسِهِ مِنْ حُرَابٍ ، كَمَا طَوَاخَا عَلَى تَزْوِجِهِ لِأُمِّهِ وَأَمْسَدَانِهِ ، وَعَنِ أَشْوَاكِ لِأَحَدِهَا رُومَاتٍ أَلْفِي فَرَسٍ مُؤَثَّرَةٌ ، حَافِلَةٌ بِالْمَدْبُوبَةِ ، وَالرَّقَّةِ

٤. شاعر الحروب والفخر: تُسَيِّطِرُ الْمُرَّةُ الْحَرِيَّةُ عَلَى قَسْرِ كَبِيرٍ مِنْ شِعْرِ أَلْفِي فَرَسٍ كَمَا تَسَيِّطِرُ تَزْعَةُ الْعَصْرِ وَالْمَدْحِ

يَعْبُرُ أَبُو فَرَسٍ بِأَجْنَادِهِ وَنَفْسِهِ ، وَصُلُوبِهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ قَدِيمٌ يَقُومُ بِتَمْدَادِ الْمَدْحِ . وَهُوَ فِي حَرَسَانِهِ قَصِيرُ النَّفْسِ الْمَلْحَمِيِّ

٥. شاعر الغزل والاحاديث

غَزَلَ أَلْفِي فَرَسٍ مَقْطُوعَاتٍ وَأَبَاتَ رَقِيقَةً وَلَكِنَّهَا خَالِيَةٌ مِنْ انْتِدَاعِ الْعَاطِي الصَّبِيِّ . وَإِخْوَانِيَّتُهُ حَافِلَةٌ بِالْفَرَفْرِ وَالْإِحْلَاصِ وَاللَّيْنِ .

١ - تاريخه :

١ في عهد سيف الدولة : كان سعيد بن حمدان أحد أمراء الموصل ، وبطلان يعتمد الخليفة المقتدر على ساعده لرد هجمات التاتارين ولغزو الروم في عقر دارهم . وعندما تمرد

ناصر الدولة الحمداني على الخليفة واستقلّ بولاية الموصل استدعى الخليفة الراضي سعيد ابن حمدان، عمّ ناصر الدولة، وولاه إمارة الموصل على أن يطرد منها ابن أخيه، إلا أن ناصر الدولة كان أخفّ الى الدفاع عن نفسه، ففتك بعمه وأوقف الخليفة عند حده.

قُتِلَ أبو العلاء سعيد بن حمدان، وترك بعده طفلاً في نحو الثالثة من العمر هو الحارث المعروف بأبي فراس. وكانت ولادته في الموصل سنة ٩٣٢ م. ٣٢٠ هـ. وكان ابن عمه سيف الدولة أميراً ينتقل في خدمة الخليفة بين بغداد والموصل وديار ربيعة، ثم اقتطع لنفسه حمص وحلب واستقلّ فيها بالإمارة؛ فعطف على الطفل اليتيم وتعهده بالعناية والرعاية، وحمله معه الى بلاط حلب، ونشأه على الفروسية وأنمي مواهبه الأدبية والحريّة، حتى كان — على حدّ قول الثعالبي — «فرد دهره مجدداً وبلاغته وفروسية وشجاعة»<sup>١</sup> وكان سيف الدولة يميّزه بالإكرام من سائر قومه، ويصطنعه في غزواته، ويستخلفه على أقاليمه<sup>٢</sup>. قال أبو فراس: «غزونا مع سيف الدولة، وفتحنا حصن العين سنة ٣٣٩ وسبّي إذ ذاك تسع عشرة سنة»<sup>٣</sup>.

وهكذا كان الفتى الحمداني يسير في طريق السيف والقلم، شأن سائر أبناء قومه، ويسمى الى المجد بكلّ جوارحه، لأن المجد هدف الحياة عندهم، وقد قال:

فَلَمْ يُخْلَقْ بُوَ حَمْدَانٍ إِلَّا لِمَجْدٍ أَوْ لِبَاسٍ أَوْ لِيُجُودِ

وكان إذا فرغ الى البلاط ونقض غبار الحرب يقول الشعر. ويصرف الى مناظرة الشعراء والعلماء حتى صار محطّ الآمال وقبلة الأنظار.

٢- أمير منج كانت مبيح من أهمّ الثغور بين إمارة سيف الدولة والروم البيزنطيين، وحصناً منيعاً لحلب، أراد الأمير الحمداني أن يولي أبا فراس عليها وهو في مقتبل الشباب وزهرة الصفوان. فتولّى شؤونها بشجاعة ونشاط، وراح من جهة يدفع

١ - نتيجة الشعر ١، ص ٢٧

٢ - نفس المصدر ص ٢٧

٣ - طالع كتاب Abou Firas بالأندلس في ردلف دفران، طبع لندن ١٨٩٥، ص ٣٤٢.

عنها هجرات الروم ، ومن جهة أخرى يُدَلّ القبايل العربية الثائرة بآبن عمه<sup>١</sup> . وهكذا قضى عدة سنوات في مقارعة الكتائب لا تكلّ له ساعد ، ولا يهي له عزم .

٣ الأمير الأمير: تضاربت آراء العلماء في شأن أسر الأمير الشاعر ، والأرجح أنه أُسر مرتين ، مرة وهو عائد من الصيد ، ومرة أخرى في إحدى المواقع . وقد حُمِلَ في أسره الأول الى خرشنة<sup>٢</sup> ، ولكنه ما لبث أن نجى من سجنه<sup>٣</sup> ، وحُمِلَ في أسره الثاني الى القسطنطينية حيث أكرمه الروم لإكراماً جزيلاً .

وكانت مدة الأسر سبع سنوات وأشهرًا<sup>٤</sup> . وإنه لمن المستغرب أن يطول الأسر كل هذه المدة مع ما نعلم من مكانة أبي فراس عند سيف الدولة ، ومع ما كان إذ ذاك من عادة القداء . لقد تاباً سيف الدولة في القداء لخصوة نشأت في قلبه . قال الشاعر :

فَلَمَّا بَعْدْتُ نَدْتُ جَفْوَةً ، وَلَاحَ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُجِبُ

وهذه الحفوة حاول بعض الباحثين أن يتفحصوا عنها ، فقال بعضهم إن القداء بذل للشاعر مفرداً فأبى إلا أن يكون ذلك مع سائر الأسرى . والحقيقة أن شيئاً من ذلك لم يكن ، وإنه كان بين أمير حلب والشاعر خلاف حقيقي<sup>٥</sup> . فأبو فراس كان في أصل الخلاف الذي أدّى الى ابتعاد المتسي عن بلاط حلب ، وهو رجل طمع يطمع الى تسلم العرش بعد سيف الدولة ، وقد ظهر طموحه بعد موت الأمير ظهوراً لا يقبل الشك<sup>٦</sup> . وهكذا فقد طال الأسر ، وطالت رسائل أبي فراس الى ابن عمه ، حتى إنه هدّد بالالتجاء الى خراسان وإلى مصر في سبيل النجاة :

بَنُو حَمْدَانَ حُسَادِي جَعِبَا قَمَا لِي لَا أُرَوُّ بَنِي طُفْعٍ

١ - بث القرامطة ندوة في صفوف الدو المنتشرين في أنحاء الشام ، ومنهم كلب وغير ، وكانوا يعملون على دؤ أركان الإمارة الحمدانية والاستيلاء على الملاد .

٢ - خرشنة . حصن على الفرات قرب ملطية .

٣ - وقيل بل ان سيف الدولة قتله .

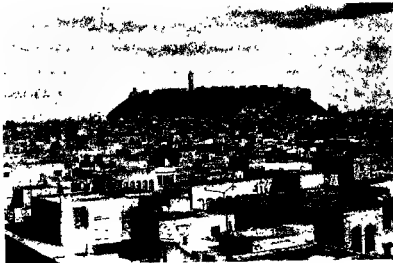
٤ - الشيخ للكين : تاريخ المسلمين ، ص ٤٧١ . والدهبي . تاريخ لإسلام ، ص ٤٧٨

٥ - وأسقط أنحاء أبي فراس هذه المقطوعة من نسخ عديده إذ شاذوا أن يعمدوا عه تهمة تصكير بغريبي

حمدان (الدبوان ، ص ٥٧) .

وفي سنة ٩٦٦ م / ٣٥٥ هـ تمّ فداء الشاعر فغاد الى وطنه بعد مرارة شرب كأسها حتى الثالثة ، وبعد طعنة أصابته في فخذه ، وبعد انكفاء على جروحه الجسدية والنفسية علمه أن يشرح قلبه ويستكشف أسراره ، كما علمه أن يبكي وأن يجد في الدمع عزاءً ، وأن يقول شعراً هو عصارة تلك النفس الشريفة المثالة .

٤ . نهاية المسافة . لا ريب في أن الفداء الذي بذله أخيراً سيف الدولة قد أبهظه وكلفه ما بقي معه من المؤونة بعد أن تضعض ملكه . وفي سنة ٩٦٧ مات سيف الدولة في فراشه فلم يقل أبو فراس في رثائه شعراً ، بل فكر في التغلب على حمص واقتطاعها . قال ابن خالويه : « لما مات سيف الدولة ، رحمه الله ، عزم أبو فراس على التغلب على حمص . فاقبل خبره بأبي المعالي بن سيف الدولة ، وغلّام أبيه قرعغويه ، وكان صاحب حلب ، فأرسل إليه من قاتله ، فأجيد ، وقد ضرب ضربات ، همت في الطريق » . وكان ذلك سنة ٩٦٨ م / ٣٥٧ هـ .



مدينة حلب وقفتها

## ٢ - أدبه :

لأبي فراس ديوان شعر لم يطبعه أحد طبعة علمية قبل الدكتور سامي الدّهان. فقد طبع ثلاث طبعات، واعتُمدَ فيها مخطوطة واحدة من غير تنقيب حُدِّي. وظهرت الطبعة الأولى في بيروت سنة ١٨٧٣. وفي سنة ١٩٠٠ أظهر نخلة قفّاط الطبعة الثانية. أما الطبعة الثالثة فقد ظهرت سنة ١٩١٠. وفي هذه الطبعات أخطاء ونحرفات كثيرة مما أهّاب بالدكتور الدّهان إلى جوب الآفاق في طلب المخطوطات، ومقابلة بعضها ببعض، وإثبات الأصحّ منها في طبعة أنيقة أدرجت في سلسلة منشورات المعهد الفرنسي بدمشق لدراسات العربية سنة ١٩٥١. وأشهر ما في هذا الديوان «الروميات» التي نظمها الشاعر في أسرهِ، وهي من أصفى الشعر الوجداني عند العرب.

## ٣ شاعر الروميات :

١ أثر الألم في نفس أبي فراس وفي شعره: تنكّر كلّ شيء لأبي فراس، وكان في خلقه شيء من الضعف جعله قليل الجلد، دائم الحيرة. وكان هذا الشعور في صراع مع شعور آخر بعثه في نفسه كرم المتمدن، وهكذا نرى أبا فراس يتألم لأدنى معاملة جافية، وينطلق إثر الذكريات، فيضيق صدره، وتعرّوق عيناه كما تمثّل عيشه الماضي، ويرسل زفراته قصائد يتمثّل فيها الصرع الناشب بين عاطفتي القوة واللين. وكانت نفس أبي فراس أبسط من نفس المتنبي، وخالية من الأميال الحادة الجبّارة، فلم يحدّد الألم فيها شيئاً بل جلاها وصقلها، وأوضح عناصر جمالها. وقد ظل أبو فراس مقيماً على إبانته وسط الآمهِ، وأكره نفسه على الصبر، وإذا لم يجد إلى كتم الألم سبيلاً أخذ التفتي بالألم ذريعة لتفريج الكربة. وهو يسلك في أنه طرّقاً متنوّعة، فيلجأ تارة إلى رحمة الله التي تسارع إلى إسعاف البائسين، ويفزع طوراً إلى اعتبارات عامّة في نكبات الدهر ومصائبه وفي سنة العذاب التي ترهق كاهل كلّ إنسان، وفي زوال الدنيا وحقيقة الحياة والموت. وتراه أحياناً يعمد إلى الذكريات، فيستحضر أيامه اسالفة، ومآتيه الحليّة، فيعصرها، ويتلو آياتها على نفسه علّه ينسى بعض ما به. إلا أنه يأبى الصبر الطويل، ويشفق أن يذهب إلى تجلّد تام أشبه بتجلّد الرواقين، أو أن يتحوّل إلى جمود في

الشعور ، وجفاف في القلب . إنَّ ما يطلبه هو أن يحول صبره دون بأسه ، وأن يكون له من التمتع معوان على الصبر ، من غير أن يؤدي به التمتع الى الضعف .

وقد رَفَّقَ الألم عاطفة أبي فراس ، ووسع نطاقها ، ووجهها شطر الطبيعة حتى أصبح يُحِسُّ لكل شيء نفساً نحو عليه وتريد الاشتراك في أحزانه ، فينبجي الحمام إذا هذل ، ويحمل السيم رسائل محبته وإحلاصه ، ويُفَضِّي الى الليل بخوالج قواده .

والألم أوضح في نفس أبي فراس عواطف التضحية التي كان يبذلها قبل سجنه . وهو لا يرى في موته حرجاً ، بل يجد فيه راحة وأمنية عذبة ، ولكنه يتنهد وبأبه لأنه سيكون شديد الوطأة على المعجوز الوحيدة الوالدة ؛ والشاعر يكثر من أبيات التجوُّد وكأنَّه به لا يطلب فداءه إلا تعزية لوالدته ، أو سعياً وراء خير الوطن . ولئن هذا الشعر متعة خاصة لما فيه من تصوير خالص لنفس الشاعر ولنفوس الكثيرين من الناس . إننا نشك في صحة تجرُّد أبي فراس ، ولعله كان هو نفسه يشك في ذلك ، فهو في سرِّ ضميره لا يطلب إلا الإخلاص والعودة الى ما مضى له من عز وسلطان . ولكنه وفَّق ، فيها كان يحاول الاحتجاج لنفسه ، الى حجة جميلة الأريحية ، فعلقها ، وحاول أن يُقنِعَ ذاته بأنه لم يكن يطلب خلاصه لنفسه ، بل لمنفعة غيره . وهو لا يألو جهداً في الإلحاح على نفسه حتى تحسب ذلك حقيقة ، فيرتاح إليها . ثم يحاول أن يُقنِعَنَا نحن أيضاً بتجرُّده ، ونحن لا نجعل أهدافه ومع ذلك بلذنا أن نشاركه وهمه الكريم السخي وأن نتصور أبا فراس أريحياً ممحاً .

وهكذا أفاد الألم أبا فراس إدِّهاده إلى معين شعري بلائم طبعه ، وأوحى إليه بأروع شعره . فلولوا الروميات لضاع اسم أبي فراس بين أسماء الشعراء الكثيرين الذين تحالفوا عبثاً على المنتبى في حضرة سيف الدولة . وهكذا صقل الألم نفس شاعرنا ، ووسَّعها ونخلع عليها وشاحاً من البُلب والجمال ، وبالتالي فقد نبهنا أنه ينطلق حراً مع سجيته ، ولا يكف شيئاً لا يطيقه ، وأن يترك عاطفته تنسكب على ما تهوى ، فأرسلت آلامه الأثبات المتوجعة الحريجة ، وتجلت نفسه على ما هي ، وإذا بشعره ينوب رقعة وعذوبة وشجواً ، وينساب في طريقه الى القلب من غير ما عائق يعترض سيره .



٢ - نزعنا أبي فراس في روميّاته : يتَمَلَّكُ أبو فراس في روميّاته تَمَلُّكاً شديداً ، ويرسلها تأوهاً وشكوى ، ومناجاةً وفخراً ، وإذا هي مزيج غريب تدوب فيه العواطف المختلفة فتَمَلُّكاً كَأَسْبَغٍ مِنْهَا ما شاء ويُقْرِبُهَا لَأُمِّهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَلابْنِ عَمِّهِ الْأَمِيرِ ، وإذا فيها لنفسه ذِكْرٌ وَحِرْقَةٌ وَهَبْ ، وَلَأُمِّهِ تَعَزُّيَةٌ وَعَبْرَةٌ ، وَلَأَصْدِقَائِهِ وَأَنْسَابِهِ شَوْقٌ وَتَحَنُّنٌ .

وهكذا ترى أن الرجل يتألم ، وأن الألم ينطقه بما ينظم ، وأن ذلك الألم لا يندفق في انفجار شديد ، بل تُلَيِّنُ حدة انفجاره عواطف الاستسلام ، والذي يزيدُه لِيناً ما يلجأ إليه الشاعر من ألوان الاعتبارات في حقيقة الوجود . وفي القضاء المُسَيِّطِرِ وَاللَّهْرِ الْخَائِنِ . وهذه الاعتبارات نفسها لا تَهْزِلُ الْقَارِيءَ هَزْلاً عَنِيفاً لِأَنَّهَا مِنْ الْحَبِجِّ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ لِلتَّخْفِيفِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلِتَغْطِيَةَ مَا أَصِيبَ بِهِ مِنْ مَذَلَّةٍ .

وتتابع الأيام ، وتعاقت الأحداث وأبو فراس الأسير لا يزال أسيراً ، وقد تباطأ سيف الدولة في أمر الفداء وكأنه غير مُكْتَرِثٍ . وشمّت الشامتون ، وهزئ الحساد ، وتشتّت شمل الأصدقاء ، فقال أبو فراس فيما قال :

لِمَنْ حَاوَدَ الْحُسَادُ أَجْرَ الْمُحَادِدِ ، وَأَعْجَزَ مَا حَاوَلْتُ لِرِضَاءِ حَاسِدٍ  
وَلَمْ أَرْ يَمْلِكُ الْيَوْمَ أَكْثَرَ حَاسِدًا ، كَانَ قُلُوبَ النَّاسِ لِي قَلْبُ وَاجِدٍ  
أَلَمْ يَرْ هَذَا النَّاسُ غَيْرِي فَاضِلًا ، وَلَمْ يَظْفَرْ الْحُسَادُ قَبْلِي بِمَاجِدٍ ؟ !

التفت أبو فراس حوالبه فوجد جُوه خالياً من الأهل والأصدقاء . تحوّل عنه كلّ مَنْ كان به لاصقاً في حال نعمائه . لقد أبصروه مهملًا في ذلّ الأسر فشمّتوا به وأنهموه بالكبرياء ، وحب المغامرة والادعاء الفارغ وما إلى ذلك ... تلك حال الناس على هذه الفانية « يميلون مع النعماء حيث تميل » . فينتفض الشاعر انتفاضة السخط والاشمئزاز ، ويشكو ما زجأ شكواه بأقوال الفخر والاعتزاز ، وتصطبغ هجته بصبغة الحكمة التي علّمتها إياها الحياة . وهو في مفاخرته يبدأ إلى الغلو وإذا هو الأعداء ابن الأماجد ، والباس كلّهم له حاسدون ، وإذا هو في مقالاته يشتد اشتداد لين ، وإذا اللين في اشتداد المغالاة يحطّ من شأن القول ويصبغه بصبغة بعيدة جدّ البعد عن عفوانية المتنبّي .

ومها يكن من أمر فقد أدرك الشاعر حقيقة الطبيعة البشرية . إنها شديدة التقلب شديدة التلون ، ومن ثم يصعب أن تلقى صديقاً مخلصاً وفيماً يديم على وفائه في السراء والضراء . وهو في هذه الاعتبارات يسمو الى المواطن الانسانية ، ويتنقل من الذاتية الخاصة الى النفس البشرية العامة ، ويحاول التغلغل في عالمها في بساطة حلوة ، ولهجة صادقة . وهو في تجربته هذه يزداد ألماً حتى قال في مكان آخر :

مُصَابِي جَلِيلٌ . وَالْعَزَاءُ جَمِيلٌ      وَظَنِّي أَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ<sup>١</sup>  
جِرَاحٌ تَعَامَاها الْأَسَاءُ ، مَخُوفَةٌ      وَسَقَانُ: بَادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ<sup>٢</sup> ...  
تَنَاسَانِي الْأَصْحَابُ إِلَّا عُصْبِيَّةً      سَتَلْحَقُ بِالْآخَرَى غَدًا وَتَحُولُ  
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْقِي عَنِ الْعَهْدِ؟ لَنْهُمْ      وَإِنْ كَثُرَتْ دَعْوَاهُمْ لَقَطِيلُ  
أَقْلَبُ طَرَفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبٍ      يَسْمِيلُ مَعَ النِّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ

ولئن لاح له أن هنالك قريباً أو صديقاً باقياً على بعض المودة وجه إليه رسائل التعزية والإخلاص بأقوال أرق من جلد النسيم ، وأبيات أحر من النار الى المهيم .

وفي هذا الجو المضطرب يبصر وجه أمه الحنون فيرتعش . إنها الأمومة الساهرة التي لا تخون وإن خان الجميع ، ولا تنسى وإن نسي الناس أحمعون ، ولا تهابون وإن تهاون النسب والقريب . يبصر الشاعر وجهها فيرتعش ؛ إنها حضته منذ الطفولة ، وبذلت صباها وشيفوخها في سبيله ، وظلت له أمينة وإن توفي زوجها وهي لا تزال في ميعة الشباب . إنها ترسل الأتة تلو الأتة ، وكأن قلبها مقيد وأسير ، وكأن روحها في أشد السعير . وإنها ترسل الطرف في كل جهة عنه يقع على ظل الحبيب . ثم تتوجه الى سيف الدولة تستحطه على المضي في أمر الفداء . ثم تعود في خيبتها تنحو على كاتبها والدموع تتساقط على الحدين أحر من نار الغضا . يبصر أبو فراس وجهها فضيف بذلك الى آلامه الآلام ، والى أحزانه أخزاناً . ويكتب إليها معزياً في لهجة الطفولة وعذوبة الحنان ، وكيف يعزبها ، وأي كلمة يدخل معها الصبر إلى قلبها ؟! فهو يتطامن ، ويتظاهر بالصبر ،

١ - يُدِيلُ : يُبَيِّرُ (هذه احدى)

٢ - الْأَسَاءَةُ : الْأَطْيَاءُ .

ويذكر لها مجيد أفعاله الماضية ، ويذكرها بأجر الآخرة ، وبالقضاء المسيطر ، وبضرب لها الأمثال ... ويقول :

وإنَّ وراءَ السَّخَرِ أُمًّا بُكَاءُهَا      عَلَيَّ ، وإنَّ طَالَ الزَّمانُ ، طَوِيلُ  
فِي أُمَّتَا ، لَا تَعْنِي الصَّبْرُ إِنَّهُ      إِلَى الْخَيْرِ وَالنَّجْعِ الْقَرِيبِ رَسُولُ  
وَيَا أُمَّتَا ، لَا تُخْطِئِي الْأَجْرُ إِنَّهُ      عَلَى قَدَرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَزِيلُ

وهو يوضح لها أن الفرج قريب ، وأن الحياة سراب ، وأنه إن انجذب الى الدنية وطلب الفداء فما ذلك إلا لإرضاء لها ونزولاً عند رغبتها .

لَوْلَا الصَّجُورُ بِمَنْبَجٍ      مَا خِفْتُ أَسْبَابَ الْمُنَةِ  
وَلَكِنَّا لِي عَمَّا سَأَلْتُ      مِنْ الْفِدَا نَفْسُ أَبِيهِ  
لَسَكُنْ أَرَدْتُ مُرَادَهَا      وَلَوْ أَجْدَبْتُ إِلَى الدَّيْنَةِ...

كلّ هذا ، وسيف الدولة لا يكثر ، والشاعر يرسل إليه الرسالة تلو الرسالة محاولاً إقناعه ببذل الفداء في غير تردد ولا إبطاء . وهو في هذا الشعر يتقلب بين عاطفتين حادتين : عاطفة السخط والثورة وعاطفة التدلّل والملاينة . لقد رفع لواء بني حمدان عالياً ، وكان البطل الذي يُفدى بكلّ غالٍ وثمين ، وكان القائد الذي ناضل في سبيل الأمير نضال الميامين ، وكان الحرّ الشريف الذي تطاول عليه المتزلفون المنافقون . وليس لتباطؤ في الفداء مبرر ، وليس إبقاؤه في ذلّ العذاب والأسر إلا مدلّة لعرش بني حمدان ... ومن ثم فهو يهدّد تارة ويماتب أخرى ، وكلامه بين تارة ويقسو أخرى في جوٍّ من العواطف والأساليب المتصارعة .

وتموت أخت سيف الدولة وهو في الأسر فيجزع عليها أشدّ الحزج ، ويكتب الى الأمير معزباً ، ممدّياً بالنفس واحسب ، مشيراً الى ضرورة الفداء :

أَبْهَكِي بِمَنْعٍ لَهُ مِنْ حَسَرَّتِي مَدَدُ ،      وَأَسْتَرْجِعُ إِلَى صَبْرِي بِلَا مَدَدِ  
وَلَا أَسُوخَ نَفْسِي فَرَحَةً أَبَدًا ،      وَقَدْ عَرَفْتُ الَّذِي تَلْقَاهُ مِنْ كَمَدِ

وَأَمْسَحَ الْتَوَمَ عَيْنِي أَنْ يَلِمَ بِهَا ،      عَلِمًا بِأَنَّكَ مَوْقُوفٌ عَلَى السُّهْدِ  
يَا مُفْرَدًا بَاتَ يَيْكُمِي لَا مُعِينَ لَهُ ،      أَعَانَكَ اللَّهُ بِالتَّسْلِيمِ وَالْجَلْدِ  
هَذَا الْأَسِيرُ السُّبْقَى ، لَا فِدَاءَ لَهُ ،      يَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ وَالْوَلَدِ

ونمت أمه العجور فذوب لوعة وحسرة ، وينهار كيانه دموعاً وتأوهات ورتاؤه لها بعيد عن تلك القوة العاطفية التي نهز الأعماق. هو رثاء الضمف أكثر ممّا هو رثاء القوة ، وهو رثاء الذين أكثر ممّا هو رثاء الشدة ، وهو رثاء الترديد والتكرير والمناداة أكثر ممّا هو رثاء الفيض الوجداني ، ورثاء السطحية أكثر ممّا هو رثاء العمق. وهكذا يتضح لنا أن أبو فراس غير غنيّ الشاعرية ، غير قياض القرحة. إن الانفعال الشديد عنده غير مصحوب بقوة التضرع وأنفاق الفيض.

#### ٤ - أبو فراس شاعر الحويّات والفخر :

نشأ أبو فراس في ظلّ القصر الحمدانيّ تملأ قلبه وعينه أيام الأمير الحمداني الذي طالما تغنى المنتجب ببطولته وأحماده في ميادين القتال. ورافق سيف الدولة الى الحرب ، كما تولى أعمال منيج ، وكان أبداً في الطليعة يصدّ الهجوم ويقارع الأبطال. ولا عجب من ثم في أن تسيطر النزعة الحورية على قسم كبير من شعره. وهو من أصل كريم يحفل تاريخه بالجد والبطولة ، فلا عجب في أن يكثر من أقوال الفخر والتمدح.

تطلّع أبو فراس الى ابن عمه وتطلّع من وراثته الى سلسلة الآباء والأجداد ، وإذا كلهم في الذروة ، فامتلاً صدره فخراً ، وراح يمتدح قبيلته تغلب ، ويشيد بأيامها قبل الإسلام وبعده ، وراح يمتدح آل حمدان ويصفهم بالكرم والشجاعة ، ويخص بالذكر سيف الدولة صاحب حلب الذي دوّخ الروم وأدلّ القبائل النائرة. ولأبي فراس في قبيلته وذويه قصيدة طويلة تلغ مشين وخمسة عشر بيتاً ، وكلها تعداد لماخر تغلب فيها الصبغة الإخبارية على الصبغة الشعرية ، ويتضاءل فيها الفن ، ولكنها على كلّ حال صورة لنفس صاحبها في مكابرتها وترفعها ، أما مظهرها فهو :

لَمَلَّ خَبَالُ الْعَامِرِيَّةِ زَائِرُ      فَيَسْمَدُ مَهْجُورٌ وَيَسْمَدُ هَاجِرُ

وفيما ترى الشاعر يفخر بأجداده تراه ينتقل الى نفسه فيصفها بالصَّرامة وبكلِّ ما هو من مناقب البطل المخواب الذي يُقدِّم ويَتَك، كما يصفها بكلِّ ما هو من مناقب الملوك أغني الكرم والجود والترفع عن الدنيا وما الى ذلك.

وأبو فراس في فحره قديم الأسلوب ، يركز على تعدادِ المفاخر وذكر الأيام والتعالي المفرط . وهو لا يُحسِّن تفصيلَ مواقع القتال ، ولا يُحسِّنُ بناء الملاحم الحربية ، لأنه قصير النفس الشعري وإن طالَّت أحياناً قصائده ، وجيشانه لا ينطلق من أعماقٍ عنيفة الاهتزاز ، ووبائهُ الخياليَّة تضطرب في نطاقٍ ضيق .

ومن أروع شعره الحربي تلك القصيدة التي قالها عندما « سار بجيش كُجَب ، جيش الصناديد ، وعليه الرايات الحمر تحفُّق بها الرياح ، وكان صاحب هذا الجيش سيف الدولة الذي يفرغ ثباته على قلب الجيش وجناحه . وقد وصف هذا المسير بعد أن أتى رسولُ ملك الروم يطلب الهدنة من سيف الدولة — بعد حربٍ من حروبه — فأمر سيف الدولة الجند أن تركب بسلاتها لاستقبال الرسول ، وركب هو من داره المسماة بـ « الدارين » في ألف حندي (من حرسه الخاص) المالك ... على ألف « فرس عتيق » وألف « خفاف » ، وركب الناس والقواد على طبقاتهم في الجيش ... فوصف أبو فراس هذا المظهر الحاسي بقوله<sup>١</sup> :

عَلَوْنَا جَوْشَنَا بِأَشَدِّ مِنْهُ ،	وَأَثْنَتْ عِنْدَ مُسْتَحْجِرِ الرِّمَاحِ <sup>٢</sup>
بِجَيْشٍ جَاشٍ بِالْفِرْسَانِ حَتَّى	ظَلَنْتُ الْبَرَّ بَحْرًا مِنْ سِلَاحٍ
وَأَلْسِنَةٍ مِنَ الْعَدَابَاتِ حُمِرَ ،	تُضَاطِبُنَا بِأَفْوَاهِ الرِّمَاحِ <sup>٣</sup>
وَأُرْوَعَ ، جَيْشُهُ لَيْلٌ بِحَيْمٍ ،	وَعَرَّتْهُ عَمُودٌ مِنْ صَبَاحٍ
صَفُوحٌ عِنْدَ قُدْرَتِهِ ، كَرِيمٌ ،	قَلِيلُ الصَّفْحِ مَا بَيْنَ الصَّفَاحِ
فَكَانَ ثَبَاتُهُ لِلْقَلْبِ قَلْبًا ،	وَهَيْبَتُهُ جَنَاحًا لِلْجَنَاحِ

١ - ركي الحاسي شعر الحرب في أدب العرب ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

٢ - جوشن : جل .

٣ - العِدَابَات ح : عذبة وهي ما سلك بين الكتفين من العامة

ومها يكن من أمر فأبو فراس دون المتنبي نفساً حريياً، ودونه غضفاً واندياقاً. وذلك أن القوى التفاعلية عنده تصطدم بنفسه لا تخلو من ضعف ولين، والقوى الوجدانية عنده غير صلبة، فتور سرعة ولا تجد لديها من الجلد ما يسايرها «ومن العمق ما يساعدها على الامتداد، ومن الهياج العاطفي والفكري والشعري ما يدعمها ويصل حلقاب سلسلتها وصلاتاً تصاعدياً يقوم معه بناء القصيدة في غير اضطراب ولا اعتزاز».

#### ٥- أبو فراس شاعر الغزل والإخوانيات:

لأبي فراس في الغزل مقطوعات وأبيات رقيقة ولكنها خالية من التدفع العاطفي العميق؛ هي أبيات غنجر تجري على أسلوب ابن أبي ربيعة في الحوار، وتداول المحب والمحبوب في تفاعلها وفي ما يعانين من ألم الغرام. وإنما نجد الشاعر صفوحاً، لين الجانب، ناعم الحديث، إنه بعيد عن الانفجارات الشديدة، بعيد عن التغلغل إلى أعماق النفوس، وهو في حديثه يروق ولكنه لا يهز ولا يثير الانفعالات القوية.

من أقواله العزلية:

وَدَّعُوا، خَشْيَةَ الرَّقِيبِ، بِإِمَامَا      ءَ، فَوَدَّعْتُ، خَشْيَةَ الدُّوَامِ  
لَمْ أَبْعَ بِالْوَدَاعِ جَهْرًا وَلَكِنْ      كَانَ جَنِّي مَعِي، وَدَمَعِي كَلَامِي!

• • •

قَدِيسِي يَسْجِنُ إِلَيْهِ،      نَعَمَ وَيَحْسِنُو عَلَيَّ  
وَمَا جِي، أَوْ تَجِي،      إِلَّا أَعْسَنْتُ إِلَيْهِ  
فَكَيْفَ أَمْلِكُ قَلْبِي،      وَالْقَلْبُ رَهْنٌ لَدَيْهِ؟  
وَكَيْفَ أَدْعُوهُ عَيْدِي،      وَعُهْدَتِي فِي يَدَيْهِ؟

ولأبي فراس شعر وجهه إلى أصدقائه وهو من أرق شعره، وقد أطلقوا عليه اسم «الإخوانيات». وإنه يمتاز بالظرف والإخلاص واللين. وأبو فراس في إخوانياته صديق بكل ما في الكلمة من معنى، يخلص الود، ويصدق في قوله وفي عمله، ويصبر على

عيوب الأصدقاء، ويسامح ولا يحقد؛ وهو يشكو ويعاتب ولكنه لا يقاطع، وهو يجعل في قلبه أصدقاء لما في قلب كل صديق من أصدقائه، وذلك في حقّ الفرح والحزن. ويمتاز كلامُ أي فراس في هذا الباب بالرقّة المؤثرة، والعُلوّبة المنقطرة. هو كلام رافع يترك في النفس أثراً عميقاً.

وهكذا كان أبو فراس الحمداني شاعر الوجدان، وكان للألم في حياته أعظم الأثر في إثارة العاطفة، وبناء القصيدة وسكب المعاني الرقيقة في أعذب لفظ وأسهل عبارة.

\*

### مصادر ومراجع

- محسن الأمين: أبو فراس الحمداني — دمشق.  
 قزّاد البستاني: أبو فراس الحمداني الروائع ١٦ بيروت  
 زكي المحاسني. شعر الحرب في أدب العرب — القاهرة ١٩٤٧.  
 أحمد أبو حنيفة أبو فراس الحمداني بيروت ١٩٦٠.  
 نعمان ماهر الكنعاني: شاعريّة أي فراس بغداد ١٩٤٧  
 علي الحارم: فراس بن حمدان القاهرة ١٩٤٥.  
 سامي الدخّان: مقمّعة ديوان أي فراس الحمداني — دمشق ١٩٥١

## الشَّريفُ الرُّضِيُّ

(٣٥٩ هـ / ٩٧٠ - ١٠١٦ م)

١. تاليفه. وُلد الشريف الرضي في بغداد سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م من أصل يرتقي إلى الحسين بن عليّ، اعتُقِل والده سنة ٩٧٩ هـ وصودرت أملاكه ولم يُطلق سراحه إلا سنة ٩٨٦ هـ. وكان الشريف يطمح إلى الخلافة، وقد تولى نقابة الأشراف العلويين ورمارة حلب والمطر في أمور الطالبين في جميع البلاد. وقد توفّي سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م.

٢. أدبه. ديوان شعر أشهر ما فيه «أحاديث» و«نهج اللاعبة» الذي جمعه للإمام علي بن أبي طالب.

٣. شاعر الفخر. يصدر فخره عن أصل رفيع، وعسكرة أئمة، وقلب وثاب إلى المعالي. وفي صفه سمعة ملحمة، وترفع عن كل حقير ودي، وتنسجيس، وشكوى وعتاب، وسخط وتهديد، وشعره البخري رائع الإِسْهام، عميق العكرة، بعيد النوى، حسن الوقع، جميل الألفاظ.

٤. شاعر الغزل: المرن عند الشريف أناني، ونحيبات، وأشواق، وإتياع، وحفقات فؤاد بروعه اللبس ويُقطع حشرات.

وهو لفظ ناعم، وتعبير دقيق، وسبج مالح، ولحمة مريح من مداوة وحسارة، وتميق بعد عن التعتيق والاسفاف، ومن رفيع.

٥. شاعر الرثاء. رثاء لشريف لدويه رثاء لوعة وألم، ورثاء للملوك والمعلماء تأبين ومواقف عيرة، ورثاء للحسين كلمة المرحم والتهيد بالانقمام.

٦. شاعر المدح. مدح الشريف تكريم وإجلال الشريف شاعر العاطفة الحية، والوحدان الصحيح، والأناقة العائبة.

١. تاريخه:

هو أبو الحسن محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي. ولد في بغداد سنة ٩٧٠ من أصل شريف يرتقي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. وكان والده يتولى نقابة



الأشراف الطالبيين وإمارة الحج بالناس والنظر في المظالم. وفي سنة ٩٧٩ اعتقل ذلك الوالد، وحُبس في قلعة فارس، وصُوِّرت أملاكه، وكان الشريف لا يزال صبيًا، فحَزَّ ذلك الأمر في نفسه بشدة، وفَجَّرَ من قلبه ينابيع الشعر الوجداني الرقيق. وفي سنة ٩٨٦ أطلق شرف الدولة البُيْهَيَّ سراح والده، فعادت إلى الشاعر غبطته، وحسنت علاقته بَنُوِي السلطان فراح يمدحهم ويرسل إليهم مديحة مكتوبة، غير منكسب ولا متذلل. وكان الشريف يطمح إلى الخلافة ويطمعه فيها الكاتب المشهور أبو إسحاق الصَّابِي، إلَّا أَنَّهُ لم ينلها، ولكنه نال من الأعمال ما كان لوالده، وأضاف إليها بهاء الدولة النظر في أمور الطالبيين بجميع البلاد. وبما كان متوليًا إمارة الحج شهد مواسم العيد وفيها النساء الوافدات من جميع البلدان، فحرك المشهد أوتار قلبه، فنظم تلك القصائد الشهيرة في الغزل العفيف وقد عُرِفَتْ بالحجازيات.

وتوفي الشريف الرضي سنة ٤٠٦هـ، ودفن في داره مخفيًا مسجد الأنباريين بالكرخ.

## ٢ أدبه :

للشريف الرضي مؤلفات عدة ضاع أكثرها، وأهمها :

- ١ - «كتاب مجلذات الآثار النبوية» : طُبِعَ أولاً في بغداد طبعاً مسموحاً، ثم طبع في القاهرة بعناية الأستاذ محمود مصطفى.
- ٢ - «كتاب حقائق التأويل في مشابه التتزيل» : طُبِعَ بالحف.
- ٣ - «كتاب تلخيص البيان عن مجازات القرآن».
- ٤ - «كتاب الخصائص».
- ٥ - «كتاب أخبار قضاة بغداد».
- ٦ - «موج البلاغة» : جمعه الشريف، وقد أثينا على ذكره في دراستنا لعي بن أبي طالب.
- ٧ - ديوان كبير في الشعر جمعه عدة أدباء منهم أبو حكيم الحيري. وصبع في بيروت سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م).

كان شعر الشريف الرضي تفتيحاً بحبه وآلامه، ونشيداً من أناشيد الفخر والعزة،

توحي إليه مواسم الحج بموضوعات «حجازياته»، ويوحي إليه العلويون والظالبيون المحرومون بموضوعات «شبهياته»، ويحلّ القضاء بالأصدقاء والأقرباء فيدرف الدموع الصادقة في «رثائياته»، ويذكر أنجاده فتوحي إليه بموضوعات «فخرياته»، وهكذا كان شعره أبداً عبارة قلبه ونفسه.

#### ٢ - شاعر الفخر:

١ عوامل فخره. يتجلى لنا الشريف الرضي من شعره رجل عزة وإباء وعزم، ينظر إلى أصله وإذا هو في دوحة العلياء من أكرم فرع، وإذا هو مدعو إلى كل كبير عظيم، وإذا نفسه أهل لذلك العظيم؛ وينظر إلى حاله وإذا هو غير ما دعي إليه ويخلق لأجله، وإذا في نفسه حرب جبارة، وثورة سحق ضخمة في وجه الزمان الذي يمادي الأحرار، وفي وجه الناس الذين يقومون في وجه كل عزيز طموح. ويتجلى لنا الشريف حزناً في قرارة نفسه، متأثراً في أعماق قلبه، وذلك أنه لا يستطيع القبول بالظلم، والاستكانة للذل، فهو ينتفض انتفاضة النسر الجريح، وينظر إلى خصومه بعين حادة يلتصع فيها الشرر، وبقبب جريء لا يخاف سيئاً ولا مسوداً؛ هكذا يتجلى لنا الشريف من خلال شعره، فهو نفس كبيرة أبية، وقلب رقيق شديد الانفعال، وثأب إلى المعالي، ثأص في وجه الظلم، جريء على رفته، بطاش على شدة انفعاله، لا يحلو من زهو وكبرياء، ولكن تلك الكبرياء هي أقرب إلى الأنفة منها إلى الكبرياء.

#### ٢ قيمة فخره:

١ - أراد الشريف أن يقلد النبي في فخره، فجاراه في نفحته الملحمية، ونبضاته التورثية، وترفعه عن كل حقير دنيء، وإنه وإن لم يبلغه في قوة انطلاق شعره، وفي سكة للأبيات سكا شديداً الوقع، فقد وجد في شرف أصله وسمو نفسه، ومواهبه العالية وسجايه النادرة، ومقامه الاجتماعي، ما لم يتوفر لأبي الطيب، ولهذا فقد أوسع نطاق فخره، ولزدهمت معانيه، وتوعدت أفكاره، ولم يلجأ إلى الإحالة ليخفي ضعفاً أو أصلاً حقيراً أو مقاماً اجتماعياً غير لائق به. ومن ثم فقد كان فخر الشريف أقرب إلى النفس، وأدخل في العقل، وآنس للأذن.

٢ - فخر الشريف بقومه وفخر بنفسه ، أما فخره بقومه فهو فخر العزة والإعجاب واللوعة ، فخر من ينظر إلى اللوحة الكريمة فيتعالى في سماءها ، ويفرق بين أوراقها في شغف وولّه ، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن قتل من آل البيت فتذوب نمسه أسي وينطلق لسانه شاكياً ، مهتداً ، وإذا شعره شدة ولين ، ومزيج من قسوة ورقة . وأما فخره بنفسه فهو تطلع إلى العلياء ، وتحديد بالجد والرياء ، وإعجاب بشجاعة القلب ، وفضى الشاعرية ، وانطلاق الآمال .

٣ - وإنك لتشعر ، في كلام الشاعر ، برفعة ترمك إلى أجوانها ، ونحو ملحمي يحاول الشاعر أن يضحّم عناصر القوة فيه بالتشخيص والتثليل وتشديد اللفظ والقافية ؛ وإنك لتشعر أيضاً أن في نفس الرجل انصهاراً مؤلماً يرسل بين سطور الفخر آهات الشكوى والعتاب كما يرسل زجرات السخط والتهديد ، وإنك تشعر على كل حال بانسجام رائع ، وعذوبة أخاذة ، وعمق في التفكير ، وبعد في اللمح ، وتعبك من الشريف صراحته وجرائته كما يعجبك إيجازه وابتعاده عن التفصيل والإسهاب . ويردك اختيار الشؤيف لألفاظه وحسن تركيبه لأياته ، فهي بلوغة حضريّة ، مركبة تركيباً حسن الوقع ، رائع الارتفاع . قال معانيراً بعلويته :

مَا مُقَامِي عَلَى الْهَوَانِ ، وَعِنْدِي	مِقْسُولٌ صَبَاحٌ ، وَأَنْفٌ حَيِّ !
وَأَيَّامٌ مُحَلَّقٌ بِي عَنِ الضُّمَمِ ،	كَسَمَا رَاغٌ طَائِرٌ وَحْشِي !
أَيُّ عُنْدٍ لَهُ إِلَى الْمَجْدِ ، إِنَّ ذَلِكَ	غَلَامٌ فِي غَسَمِهِ السَّمِشْرِ فِي ؟
أَلَسْتُ الذَّلَّةُ فِي دِيَارِ الْأَعَادِي	وَبِوَضْرِ الْخَلِيفَةِ الْكَلْبَوِي
مَنْ أَبَوْهُ أَبِي ، وَمَوْلَاهُ مَوْلَايَ	إِذَا ضَامَنِي السَّعِيدُ الْقَصِي
لَفَّ عِزِّي بِعِرْقِهِ سَيِّدُ النَّاسِ	جَمِيعاً مُخَضَّدٌ ، وَعَسِي

٤ - شاعر الغزل :

يطالعك الشريف الرضيّ في عزّله رجل إحساس مرهف يثر على طريق الحج فلذ

١ - ربح . مصر .

٢ - أبوه . أي حله الرسول . مولاه أي الإمام عي

قلبه وكبدته . لقد فتحت مواسم الحج عيني نفسه وإذا هي خلجات وجدان ، ورفرفة  
أجنحة ، وإذا هي حبّ عميق يهيجه النظرة ، وتلهيه الذكرى ، وتذهب به الآفاق  
الواسعة حداءً مع القوافل ، وأصداء في المحافل ، وإذا الحبّ عنده ذوبان على جمر  
ونار ، ونظرات مبسوطة على كل طريق ، وقلب دفاق الجراح ، وعفاف يرافق النظرات  
ويدلمح العبرات ، وإذا الهجوبة عنده بان وظباء ، وإذا هي رام وسفك ، وهي على  
رمبها وسفكها ، نعيم في نعيم ، والعذاب منها عذوبة ، والمرارة حلوة .

حَكَتْ لِحَاظِكُ مَا فِي الرِّيمِ مِنْ مَلَحٍ      يَوْمَ اللَّقَاءِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْحَاكِي  
كَأَنَّ طَوْفَكَ يَوْمَ الْجَزَعِ يُخْبِرُنَا      بِنَا طَوَى عَنْكَ مِنْ أَسْمَاءِ قَتْلَاكِ  
أَنْتِ النَّعِيمُ لِقَائِي وَالْعَذَابُ لَهُ .      فَمَا أَمْرُكَ فِي قَلْبِي وَأَسْلَاكِ !  
عِنْدِي رَسَائِلُ شَوْقٍ لَسْتُ أَذْكُرُهَا      لَوْلَا الرَّقِيبُ لَقَدْ بَلَّغْتُنَا قَالِكُ

والغزل عند الشريف أماني ونحيات ، والنياع وأشواق ، وإرسال العبرات  
والنظرات ، وخفقات فؤاد يروعه الين ويقطعه حشرات ، وأسئلة ومناداة ، وكل شيء  
ما عدا القفاظة والقباحة والقاذورات . والغزل عنده لفظ ناعم ، وتعبير رقيق ،  
والسجاء ساحر . ولهجة يدوية متقلبة على أكتاف الحضارة ، في روعة خلاصة ، ولين  
بطأ الأتدة ويستلب الألباب . وقد دُعيت غزليات الشريف « بالحجازيات » لأن  
أكثرها قيل في مواسم الحج أو في ذكرها .

من أشهر حجازياته قصيدته الميمية التي روى فيها قصته مع حبيبته في ليلة غرامية  
صيفة ، وفي أسلوب حافل بالسلاسة والعذوبة والموسيقى ، جمع فيه أروع ما في  
البادية وأطيب ما في الحضارة من أصباغ ، وصور ، وألحان ، قال في مطلعها :

يَا لَيْلَةَ السَّفْحِ ، هَلَا عُدْتُ ثَائِيَةً ،      سَقَى زَمَانُكَ هَطَالًا مِنْ الدِّيمِ ١  
مَاضٍ مِنَ الْعَيْشِ ، لَوْ يُفَدَى ، بِذَلِكَ لَهُ      كَرَاهِمُ الْمَالِ مِنْ خَيْلٍ وَمِنْ نَعَمِ ٢

١ - الترع . موضع بالحجاز قرب الطائف .

٢ - الديم . اسم للخل ، واسم موضع . الديم ج ديمة ، وهي هه عسى لطر حلة .

٣ - الم : الإبل والنم

رُدُّوا عَلَيَّ لِيَالِيَّ الَّتِي سَلَفَتْ ، لَمْ أُنْسَهُنَّ ، وَلَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمِ  
أَقُولُ لِلْأَيْمِ السَّهْدِيِّ مَلَامَتُهُ : ذُقِ الْهَوَىٰ وَإِنْ اسْطَغَتْ الْمَلَامَ لَمْ  
وَطَبِيبَةٍ مِنْ ظِلَاءِ الْإِنْسِ عَاطِلَةٍ تَسْتَوْقِفُ الْعَيْنَ بَيْنَ الْحَمَصِ وَالْهَضَمِ  
لَوْ أَنَّهَا بِفَنَاءِ الْبَيْتِ سَدِجَةٌ لَصِيدَتْهَا وَابْتَدَعْتُ الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ<sup>١</sup>

١ . في القصيدة ثلاثة أقسام : قسم جمعه الشاعر زلفرة وحسرة على زمان انقضى  
وحاجة سحت لها الفرصة فلم تقضَ ، وقسم جعله ضمة على السفح طاهرها مُرب ،  
وباطنها عفاف عجيب ، وقسم طواه الشاعر على لطفه واشتياق وإعلان للإخلاص  
والوفاء .

والشريف الرضي في هذا التقسيم وهذا الترابط الفكري والعاطفي شاعر عباسي  
النزعة ، يُخضع انطلاقه الشعري لعمل العقل المنظم من غير أن يكون هناك قيد  
عقلي . أصف إلى ذلك أن المطلع ، وإن اصططح بالصبغة القديمة ، وأن البيت اشعري  
التناغم الأجزاء ، وأن التأني في اختيار اللفظة الشعرية الموسيقية ، والقافية المتهافة إلى  
قرارها ، كل ذلك من عمل الفن العباسي الراقي .

أصِف إلى ذلك أن النغم الحالم في الأبيات ، وعشق اللفظة للفظ ، والعبارة  
للعبارة ، وإن تعمَد الأسلوب الجاهلي في التصوير ، وتزيينه بزينة الصنعة البيعية ،  
كل ذلك رُقي حضاري ، وحال مدروس وموجه .

ومما لا شك فيه أن الشاعر قد نجح في خنق الجو المجازي البدوي ، وفي اصطناع  
النهجة الجاهلية التي كَتَبها الروح العباسية وسهلتها ، وقد تنمى في شعره هذا إلى مدرسة  
عترة وجميل ، فكان عندي العاطفة ، أبي الموقف ، يعلن أن الحب إخلاص ووفاء ،  
وأن الحياة حب ينوب في المحبوب ويجعله محور الوجود .

٢ - وهذه القصيدة من النوع الوجداني الصافي ، فالشاعر هو الشاعر وموضوع

١ . عاتلة - حاية من الخل - حمص اسطن مسوده . حمص لطف الحصر . وصمود بطن

٢ . ماء البيت . أي ساحة البيت الحرم .

الشعر ، وهو المعبر والمعبر عنه . إنه الحسرة التي تُسْفَح على رمال السَّفَح ، والآه  
الجريحة التي تنقل على غوارب الزمان ، والدُّمعة الحمرى التي تُدرف في مأساة الزوال ،  
والقبة الواهمة التي تنوب على نار الحبيب ، واللحن الدامي الذي يردّد أنشودة الحب  
حذاء يصل حاضر الزمان بماضيه .

مَا سَاعَفْتَنِي اللَّيَالِي بَعْدَ بَيْتِهِمْ إِلَّا بَكَيتُ لَيْلَايَا يَذِي سَلَمٍ  
وَلَا اسْتَجِدُّ فَوَادِي فِي الزَّمَانِ هَوَى إِلَّا ذَكَرْتُ هَوَى أَيَّامِنَا الْقَدَمِ

٣ والجدير بالذكر أن لنفسية الشاعر الأبيّة العزيرة ، ولطموحه الذي لا يعرف  
الحدود ، أثراً شديداً في شعره ، كما أن لبيئة التي عاش فيها يداً في توجيه تلك العبقريّة  
العظيمة :

كَانَ الْبَشِيرُ الرُّضِي مَتَوَلِّاً إِمَارَةَ الْحَجِّ ، فَأَتَاكَ لَهْ أَعْمَالُهُ أَنْ يَتَصَدَّى لِلْجَمَالِ وَأَنْ  
يَتَصَدَّى لَهُ الْجَمَالُ ، وَرَاقَهُ الْجَمَالُ الْعَرَبِيُّ الْأَصِيلُ ، عَاطِلاً مِنْ كُلِّ حِيلَةٍ ، يَسْرَحُ عَلَى  
الرَّمَالِ كَالطَّيَّاءِ ، وَيَلْفُ بِذِرَاعِهِ عَلَى السَّفْحِ فِي شَوْهٍ رَوْحِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ كُلِّ تَبَدُّلٍ . وَقَدْ  
حَمَلْتَهُ إِمَارَةُ الْحَجِّ عَلَى تَتَبِّعِ أَسْرَابِ الطَّيَّاءِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَعَلَى التَّفَكُّرِ فِي إِبَاحَةِ فَنَاءِ الْبَيْتِ  
الْحَرَامِ لَصِيدِهِ :

وَطَبَّيْتُهُ مِنْ ظِيَاءِ الْأَنْسِ عَاطِلاً تَسْتَوْفُّ الْعَيْنَ بَيْنَ الْخَمَصِ وَالْهَضَمِ  
لَوْ أَنَّهَا بِفُنَاءِ السَّيِّئِ سَاجِدَةٌ لَصِدْتَهَا ، وَابْتَدَعْتُ الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ

وكان الشريف من أسرة عريقة في المجد والشهامة . وكان إلى ذلك ذا نفسية  
مفتورة على الرِّفعة والإباء فلم يستطع في حبه إلا أن يكون عندياً :

بَيْتًا ضَجِيعِينَ فِي نَوْبِي هَوَى وَتَمَى يُلْقِنَا الشَّوْقُ مِنْ قَرَعٍ إِلَى قَدَمٍ  
وَبَيْتَنَا عِمَّةً بَايَعَتْهَا بِيَدِي عَلَى الْوَفَاءِ بِهَا ، وَالرَّعِي لِلنَّمَمِ

وكانت البيئة الصحراوية تُضفي على خيال الشاعر من الصفاء ، وتبته من الحلم ما  
يُسَفِّحُ عَلَى الرَّبْعِ أَلْقَاً بَهَا ، وَطَبَّاءَ ذِكْياً ، وَرَوْتَقاً رَضِيّاً :

يَشِي بِنَا الطَّيْبُ أَحْيَانًا، وَآوَنَةُ يُضِيئُنَا الْبَرْقُ مُجَنَّازًا عَنِ لِصَمٍ<sup>١</sup>  
يُولَعُ الطَّلُّ بَرْدَيْنَا، وَقَدْ نَسَمَتْ رُوحَهُ الْقَمَرُ بَيْنَ الضَّالِّ وَالسَّلَمِ<sup>٢</sup>

وكانت البيئة البدوية ، وموحيات الشعر العربي القديم ، نهب في أبيات الشريف هوباً حجازياً حافلاً بالذكريات الندية ، وريحاً طيبة تنثر على الكتيب ٥ فضول الربط واللمم ٥ ، وانفاساً حرى يعمرها الحب والجوى :

يَا حَبِيبَ لَمَسْتُ بِالرَّمْلِ ثَانِيَةً، وَوَقَفْتُ بِبُيُوتِ الْحَيِّ مِنْ أَمَمٍ<sup>٣</sup>  
وَحَبِيبًا نَهَلْتُ مِنْ فَيْكٍ بَارِدَةٍ، يُعْدِي عَلَى حَرِّ قَلْبِي بَرْدَهَا بَغَمِي

٤ - والشريف الرضيّ صناع حاذق يخلق الإطار الحجازي حلقاً ، ويتدع الصور البدوية ابتداءً ، ويُليقك في حلم جميل تُهديك فيه ألفاظ وعبارات تحبها الدوق نحتاً ، وصقلتها الصناعة صقلاً ، فبانت كالسحر إحلال ، يغزو الأذن غزواً رقيقاً ويجري إلى القلب جرياناً ، وينساب في الشرايين نسياب الحمرة في العظام ، وإذا أنت في هذه الغمرة الجمالية فاقد زمام أمرك ، سارج في البوادي بين الضالّ والسلم ، تقضي آثار الطيب على الرمال ، وتتلوى مع الريح بين الكيبان ، وكأنّ العالم غير العالم ، وكأنّ الحياة حلم من حياة .

ألا تلمس الفن الرفيع في صوغ البيت التالي صياغة يزنق معها العجز انزلاقاً ، وكأني بالكلمات تنوب الواحدة منها في الأخرى ، في سهولة وعذوبة وروعة :

أَقُولُ لِإِلَاحِي الْمُهْدِي مَلَامَتُهُ : ذُقِ الْهَوَى ، وَإِنْ اسْطَعْتَ الْمَلَامَ لَمْ<sup>٤</sup>

ألا تلمس فنية الابتداء في فنية الصياغة ، في فنية الموسيقى اللفظية في البيت التالي :

لَوْ أَنَّهُا بِفَيْضَاءِ الْيَتْرِ سَانِحَةٌ لَصِيدَتْهَا وَأَبْتَدَعْتُ الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ

١ - إسم : وادٍ في المدينة المنورة .

٢ - وَلَمْ يُولَعْ : حس فيه لم يياص - اطلن . المطر الخفيف - رُوحة : تصغير ريح ، دلالة على رقتها -

أَسْجَالُ وَالسَّلَم : نوعان من الشجر

٣ - الممة : اللقاء - من أمم . من قرب

ألا تلمس فنية التضمين، وفنية اختيار الوزن للفظ في قوله:  
 قَابِرَتْ مِنْهَا بِلا رُقْبَى وَلَا حَذَرٍ عَلَى الدِّي نَامَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَسْمَرْ  
 ألا تلمس فنية التشخيص والمطابقة والاستعارة، وبلاغة التصوير في قوله:  
 بِسْمَا ضَجِيعَيْنِ فِي تَوْبِي هَوَى وَنَقَى بَيْنَنَا الشُّوقُ مِنْ قَرَعٍ إِلَى قَدَمٍ  
 وَأَمْسَرَ الرِّيحُ كَالْفَيْرَى تُجَاذِبُنَا عَلَى الْكَيْبِ فَضُولَ الرِّيطِ وَاللَّمَمِ  
 يَشِي بِسْمَا الطَّيْبِ أحياناً، وآوَنَةُ يَضِيئُ الْبَرْقُ مُجْتَازاً عَلَى لُحْظِ

٥ وفي هذه النمرة من الجلال والاندفاع عليه تروعك كلاسيكية الشريف  
 الرضي التي تُلَبِّ الشرف على الهوى، والعقل على العاطفة:  
 فَمَسْتُ أَنْفُسَ بُرْدَا مَا تَمَلَّكُهُ غَيْرُ الْعَفَافِ وَرَاءَ الْغَيْبِ وَالْكَرَمِ  
 وتروعك هذه العلوية السخية التي تجود بالدم في سبيل المحبوب، والتي تتلقى  
 الحبيب بكل ما في النفس من قوى، وتجمل من ذكرها أنشودة حياة:

مَا سَاعَفَنِي اللَّيَالِي بَعْدَ بَيْتِهِمْ إِلَّا بِكَيْتُ لَيْلَيْنَا بِذِي سَكَمٍ  
 وَلَا اسْتَجَدُّ قُودِي فِي الزَّمانِ هَوَى إِلَّا ذَكَرْتُ هَوَى آيَاتِنَا الْقُدَمِ  
 لَا تَطْلُبُنَّ لِي الْأَبْدَالَ بَعْدَهُمْ فَإِنَّ قَلْبِي لَا يَرْضَى بِغَيْرِهِمْ

٥ - شاعر الرثاء:

١ - رثى الشريف وأكثر من الرثاء، وقد وجد في طبيعته الغنية بالعاطفة صدئ  
 لكل ألم من آلام البشر، وترجيحاً لكل زفرة من زفراتهم، ووجد في نفسه الحزينة ينبوعاً  
 فائضاً يغترف منه اللوعة ويرسلها اشتراكاً في كل لوعة وفي كل تفجع، ويغترف منه  
 النظرة العميقة في حقيقة الحياة ويرسلها عبرة وعظة، ووجد في عينه الجنوة الملتبة التي  
 قبض عليها وأرسلها فلذاً من نار تذيب القلوب وتفتح عالم النفوس.



٢ رثى الشريف والدته وأصدقائه ، ورثى الحسين بن عليّ ، ورثى عدداً من الملوك والعظماء .

رثاء الشريف للمتوفين من ذويه وأصدقائه حافل باللوعة ، والألم والشاؤم . إنه كلمة الوجدان الجريح ، والعاطفة الحية ، وترجيع الذكرى والأسف الموجه . ورثاؤه الرسمي للملوك والعظماء تأيين ، وتذكير بالمآتي ، ومواقف عمرة وموعظة ، ورثاؤه للحسين كلمة الحزن العميق ، واللؤي البعيد الصدى ، والتهديد بالانتقام ، والتلويح بحق آل البيت في الخلافة . ولم يكن الشريف في جملة رثائه إلا رجلاً العاطفة النبيلة الصادقة ، ورجلاً النظرة العميقة والحريئة الى حقيقة الحياة ، ورجلاً الحكمة التي غذاها العقل المتقّف والمفكر ، ورجلاً الصّلاح الذي تحطّ آماله في رحمة الله وحكمته .

#### ٩ - شاعر المدح :

مدح الشريف بعض الملوك كالطائع والقادر ، ومدح أباه ، وكان مدحه إجلالاً وتكريماً لا وسيلة من وسائل الكسب . وقد حاول أن يقلّد المتنبي في هذا الباب كما حاول أن يستهلّ قصائده فيه بالحكم أو الفخر أو ما إلى ذلك .

• • •

وهكذا كان شعر الشريف الرضي شعر العاطفة الحية ، وكلمة الوجدان ، كما كان على كلّ حال شعر النفس الكبيرة التي لم تعرف إلا الأجواء الرفيعة محطاً للأنظار ومرتباً للأمال . وكان أسلوب الشريف في شعره مزجاً من بداعة وحضارة ، أراد فيه أن يصبغ الحياة العباسية بطلاء الصفاء البدوي ، وأن يقول كلمة الحضارة المعقّدة في حلم البوادي الحجازية ، وأن يوشّح شعره بالتنميق المركّب في غير إسفاف ولا ركافة ، ولا إفعال ، وأن يبعث في كل شيء روح الوجدان البعيد الآفاق ، وهكذا كان الشاعر الفدّ الذي يستهويك شعره ، ويعذب في نفسك ذكره .

## مصادر ومراجع

- الشيخ محمد رضا آل كاشف الغطاء: الشريف الرضي بغداد ١٣٦٠ هـ.  
 ع. محموظ: الشريف الرضي - بيروت ١٩٤٥.  
 مارون عبود: الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ ص ٢٧٨ - ٢٩٠.  
 عبد الرحمن شكري: الشريف الرضي وخصائص شعره - الرسالة ٧ ص ٥٠ ، ٥١.  
 ركي مبارك: عبقرية الشريف الرضي بغداد ١٩٣٨.  
 محمد مجيب الدين عبد الحميد: شرح ديوان الشريف الرضي وفي المقدمة حياة الشريف الرضي  
 نقلاً عن أنهار الكتب القديمة القاهرة ١٩٤٩.  
 خليل يعقوب الحوري: شعر الشريف الرضي - المقتطف ٣٤ : ١٢٨.



## أبو العلاء المَعْرِيّ

(٣٦٣ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٨ م)

١ - تاريخه : وُلد أبو العلاء المَعْرِيّ في مَعْرَةَ النعمان سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م. وتقدّم بصره في طفولته ، ومع ذلك سعى في طلب العلم وطاف في البلاد من مدينة إلى مدينة . وفي سنة ١٠٠٧ توجّه إلى بغداد واختلف في دور العلم ، ولكنه لم يحظ بحفاوة ، فرجع إلى مَعْرَةَ واعتزل الناس وظلّ كذلك إلى أن توفي سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م.

٢ - شخصه وشخصيته : كان أبو العلاء بادرة رحمة ذكاء ، وحافظة - وروحاً ساخرة ، وثقافة . وكان مثقفاً لا يرى في الوجود إلّا شراً

٣ - أدبه : شهر ما به «سقط الزبد» ، و«الزوميات» ، و«رسالة الغفران»

٤ - المَعْرِيّ في رسالة الغفران :

١ رسالة الغفران ومضمونها . فب سببان : رواية الغفران ، والرّد على ابن المقارح . أما الرواية لفصّة خياليّة في عالمي الجنّة والنار يتخلّلها حوارات أدبيّة ولغويّة ، وقد لا يخلو من سخر وتكلم . وأمّا الرّد فيتضمّن تحليلاً لبدع العصر ومداهيه . رسالة الغفران مريجة من قصص ، ووصف ، واعد ، وعلم ، وفلسفة ، وتاريخ ودين . وقد تناول المَعْرِيّ في مقدمته للمعلومات العلميّة والأدبيّة المتحقّقة بأخبار من سبقه من الشعراء .

٢ - أبو العلاء الشاعر : أبو العلاء في ديوانه «سقط الزبد» رجل تفكير ، وتقليد وتركيب

٣ أبو العلاء الفيلسوف : أبو العلاء في لزومياته رحل الثورة الفكرية والاحتجاجيّة ، يرى أنّ السلطة البدنيّة فاسدة لأنّها قائمة على المكر والرشوة ، وأنّ السلطة الدنيويّة مرفوعة عن الرأى والطمع ، وأنّ الدين مجموعة أصابيل ، وأنّ النفس والحسد تشبهان من حيث المصدر والمصير ، وأنّ الحق إمام ونبيّ ، وإن الله موجد الكون وحالقه .

يُسيطر التشاؤم على آراء المَعْرِيّ . ود في تفكيره حيرة وثائقاً واصطراباً

## ١ تاريخه :

١ - طقولة معقبة وسعي وراء العلم : أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي المعروف بأبي العلاء ولد سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م في معرة النعمان ، بين حمص وحلب ، ونسب إليها . أصيب في طفولته بداء الجدري وقد به بصره . ولكن ذلك لم يحل دون تحصيله للثقافة الواسعة ، فأخذ عن أبيه مبادئ العلوم ، ثم راح يطوف في البلاد من معرة النعمان الى حلب الى أنطاكية الى اللاذقية الى طرابلس الشام ، باحثاً منقّباً ، مختلفاً الى المكتبات ودور العلم ، متردداً على العلماء والرهبان ، جاثلاً في كل فن وفي كل فرع من فروع المعرفة ، حتى كانت له ثقافة ذات شأن . نظم الشعر منذ حداثة ، وانقادت له الفواقي كما انقادت له اللغة وعلومها .

٢ - في بغداد : توفي والد أبي العلاء نحو سنة ١٠٠٥ ، وفي سنة ١٠٠٧ توجه أبو العلاء الى بغداد طلباً للشهرة والمال ، وسكن حياً قديماً يدعى « سوق ابن غالب » واختلف الى دور العلم ، ومجالس « اخوان الصفاء » ، وعاشر كبار الرجال وأرباب الثقافة ، وكان له في عاصمة الخلافة أثر ضخم أثار إعجاب المعجبين وحسد الحاسدين . ومن ذلك ما جرى له في مجلس الشريف المرتضى حين هوجم المتنبي فهب أبو العلاء للدفاع عنه ، وأخرج من المجلس إخراجاً شائناً . وهكذا لم تنجر الأمور كما كان يشتهي وضاعت به الحال مادياً ومعنوياً . وفي تلك الأثناء حمل إليه البريد نبأ مرض والدته فغادر بغداد قاصداً المعرة ، وفيها هو في الطريق توفيت العجوز فجزع عليها جزءاً شديداً وكان لوفاتها أثر عميق في نفسه ، زاده تشاؤماً وحمله على الزهد واعتزال الدنيا .

٣ - رهن الغنين : لزم المرتضى بيته في المعرة وسمى نفسه « رهين المحبين » يعني البيت والعمرى ، وامتنع عن أكل اللحوم وشق منتجات الحيوان ، واكتفى بالعيش والقول والتبني ، لقلّة ذات يده ثم تأثر بفلسفة براهمه الهند ، وأكب على المطالعة والكتابة ونظم الشعر ، فوضع « رسالة الغفران » ، ونظم ديوانه الفلسفي الذي سماه « الزروميات » ، فطار له صيت عظيم في العالم العربي كله وأصبح مطمح الأنظار ومحط الآمال ، يقصده القاصي والداني ليسمع أقواله ويغرف من بحره . وفي سنة ١٠٥٨ م توفي المرتضى فصيحت لوفاته البلاد ورثى الشعراء من كان ولا يزال « فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة » .

## ٢ شخصه وشخصيته :

كان أبو العلاء نادرة من نوادر الزمان ذكاءً متوقداً ، وحافظةً عجيبة ، وروحاً ساخرة ، وثقافة واسعة ، وشعوراً ملتهباً ، وعقلاً غواصاً على كل عمق ، وحيرةً وشكاً في أمور الدنيا والدين . وكان الى ذلك شديد التشاؤم لا يرى في الوجود وفي الناس إلا شراً وسوءاً ، ولا ينظر الى الناس والوجود إلا من خلال ظلمة عماه . هذا كله الى جانب جسم نحيل ، وقامة قصيرة ، ووجه مجذور ، وعصب مسعور . وقد استطاع مع ذلك كله أن يكون عالماً من الأعلام العالمين ، الذين تركوا أثراً ضخماً في تاريخ البشر .

## ٣ - أدبه :

تُرِي مؤلفات أبي العلاء المعري على السبعين ، ما بين منظوم ومنتور ، وقد فقد بعضها ، وطبع البعض الآخر ، وأشهر المطبوع منها :

١ - «سقط الزند» : ديوان شعر ، عليه الشرح المسمى «ضوء السقط» . طبع في بيروت سنة ١٨٨٤ ، وطبع في مصر ، وقامت أخيراً لجنة إحياء آثار أبي العلاء بطبعه مع شرحه . وفي هذا الديوان مدح وفخر ونسيب وثناء ، ووصف للدروع ، ونظمه الشاعر في مرحلة شبابه ، وجرى في أكثره مجرى يكاد يغلو من الصناعة .

٢ - «لزوم ما لا يلزم» أو «اللزوميات» : ديوان شعر نظمه أبو العلاء في عزله وضمه نظراته في الكون والبشر ، وقد طبع مراراً في الهند ومصر ، وترجم قسماً منه الى الانكليزية المستشرق كارليل وأمين الرحابي ، كما ترجم بعضه الى التركية .

٣ - «رسالة الطفران» : وضعها أبو العلاء سنة ١٠٣٢ وضمها نقداً لبعض آراء والمتفادات طُبعت عدة مرّات ، ومن أشهر طبعاتها تلك التي تمت العناية كامل كيلاني .

٤ - «رسالة الملائكة» : رسالة لغوية أدبية طُبعت مع شرحها في مصر ، ثم في دمشق بتحقيق سليم الجدي سنة ١٩٤٤ .

٥ - «رسالة الهناء» : طُبعت في مصر سنة ١٩٤٤ .

٦ - «ملقى السبيل» : رسالة فلسفية نشرتها مجلة المقتبس بدمشق سنة ١٩١٢ .

٧ - «الفصول والغايات» : كتاب ضبطه وفسره غريب محمود حسن زياتي ونشره المكتب التجاري

بيروت . قيل إن أبا العلاء سعى فيه إلى معارضة القرآن ، وقد نقض محمود زياتي هذا القول ورأى أن العرض الذي حدا بأبي العلاء إلى إملاء هذا الكتاب ينه للطلبة ما وعاه صدره من نواذر العلم وغرائبه ، وقد تحير لذلك أحسن مظهر يظهر فيه وهو « تمجيد الله والمواظع » ليكون ذلك أقرب إلى النفوس وفيه مثوبة وقرى »

٨ - « معجز أحمد » : هو شرح شعر المتنبي ، وقيل إن أبا العلاء اختصر فيه ديوان المتنبي ، وتكلم على غريبه .

٨ - « ذكرى حبيب » : قال ياقوت أنه مختصر في غريب شعر أبي تمام ، وقال ابن خلكان ، إن أبا العلاء اختصر في هذا الكتاب ديوان أبي تمام وشرحه .

٩ - « عبث الوليد » : اختلف المؤرخون في موضوع الكتاب ، والأشهر أنه شرح لشعر البحري وتعليقات عليه .

١٠ - « المعري في رسالة الغفران » :

١ - « رسالة الغفران ومضمونها » : « رسالة الغفران » رسالة كتبها صاحب جواباً على رسالة وجهها إليه أحد معاصريه في حلب يدعى علي بن منصور ويعرف ناسن القارح ، سأل فيها أبا العلاء عن الزنادقة والزنادقة . فأجابه المعري برسالة أيضاً ضمتها مهارته في تقليد الكلام ، وأظهر فيها من معارفه الواسعة ما يعجب . والرسالة تسميان : أولها رواية الغفران ، والآخر الرد على ابن القارح .



أبو العلاء بريشة جبران .

أما رواية الغفران فقصة خيالية تخيل فيها أبو العلاء أن ابن القارح قد غفر له يوم القيامة ، فأدخل الجنة ، فراح يطوف في جناتها وينعم بطيباتها ، ويجمع بطائفة من شعراء الجاهلية والإسلام ويسألهم كيف نالوا الغفران — ومن ذلك اسم الرسالة —

ويعقد معهم المجالس الأدبية ، ثم ينتقل الى جنة العفاريث فإلى الجحيم ، ومن الجحيم يعود الى الجنة .

وأما الردّ على ابن القارح فيبضّعن تحليلاً لبدع العصر ومذاهبه ، وبحثاً في الأشخاص الذين جاء ابن القارح على ذكرهم وجعلهم في جملة الزنادقة والملحدّين ، فيواجهه أبو العلاء في بعضهم ويدافع عن بعضهم الآخر ، كل ذلك في أسلوب مُرسل خالٍ من السجع ، بخلاف الأسلوب المسجّع الذي اعتمده الكاتب في القسم الأول من الرسالة . وهكذا استطاع أبو العلاء في رسالة الغفران أن يُظهر براعته في تقليب العبارة والألفاظ ، وأن ينشر أفكاره وآرائه ، وأن يُظهر بمظهر العالم الواسع الثقافة ، العميق التفكير . وهكذا استطاع أن يكون ناقدًا لغويًا وتاريخيًا وأديبًا ومذهبيًا .

رسالة الغفران مزيج من قصص ، ووصف ، ونقد ، وعلم ، وفلسفة ، وتاريخ ، ودين . أما القصص فطريف حافل بالحوار ولكنه مُبلّ ، وأما الوصف فإغراق في التخيل والإغراب ، وأما النقد فشامل للأدب والدين والتقاليد والأحوال الاجتماعية ، وهو لادع ، حافل بالهكمّ والسخر ، حافل بالنورية والأحد بالتقيّة ، وهو في أمور الأدب يندح الابتكار واللاتزان وينكر الغلوّ وتناثر الألفاظ وشوز القوافي وما الى ذلك ، وهو على كلّ حال طريف بعيد الغور ، وأما العلم والفلسفة والتاريخ فرسالة الغفران فيها بحر واسع ، وأبو العلاء فيها موسوعة كبرى لا ينضب لها معين ولا يُبلغ لها غور .

تتول المعريّ في نقده أموراً كثيرة تقتصر منها على الناحية الأدبية وما يرجع إليها أو يتصل بها . ينطلق أبو العلاء بعليّ بن منصور في الدار الآخرة ، وإذا ابن منصور يَمْضي في نزهته ويمرّ بشائين يتحادثان وكلّ واحد منهما قد حتم على باب قصر من الدّر . فيسألها : مَنْ أَنْتَا رَجِمَكَا اللهُ؟ فيقولان : نحن النابتان ، نابتة بني جملة ونابتة بني دَبَّيَان . ويُطلّ أبو العلاء في شخص ابن القارح ، ويطلق لسانه في المقارنة بين النابتين ، وإذا النابتة الجمعدية قد أدرك الإسلام دون الآخر ، وإذا الآخر مسؤول عن حلقه ربّ الكعبة وما هُريق على أنصابها من دماء ، وإذا الناقد متدرّج الى الشعر المنسوب زوراً الى النابتة الدياني ، وحامل على الأدباء الأتلمعين والزوّاة المزوّدين ،

وناطق بلسان النابتة الذبياني في دفاعه عن نفسه ، ومتطرق الى ملامة الرواة المصحفين والشقلاء الكاذبين ، وجامع لهم في مجلس مناظرة وتقد حول كلمة من بيت للنابتة ، وكيف يكون فيه ضمير المتكلم بالفتح أو بالضم ، وإذا هو متهم ، لادع التهم ، ينال نهكهم عادة أولئك الرواة في تحفيهم حول كلمة واحدة ، وفي إضاعة العمر والوقت في أمور تافهة كهذه فيما أنهم يدلون الأحبار ، ويعرفون الأشعار ويبحوثون في التاريخ والأدب بلغة عظمى وهم لا يكثرثون .

وهكذا يضي أبو العلاء في شخص ابن القارح ويسط نواحي من تاريخ الأدب العربي في الجاهلية وما أدخل عليه من تحريف ونحل . وهكذا ينتقل من أدب الى أدب ، ويظهر أثر الدين الإسلامي في الأدب وحياة الأدباء ، ويوضح قيمة بعض الشعراء وقد جعلهم الرواة والنقاد في غير محلهم ، ويبين عادة الشعراء الأقدمين في المنافرة وسعي كل منهم في جعل نفسه فوق غيره ؛ ويتطرق الى أقوال النحاة في كثير من الآيات الشعرية ومذاهبهم في الإعراب ، حتى إذا وصل الى أبي تمام أقام له عترة ينتقد بعض شعره ويقول : «أما الأصل فعمري وأما الفرع فنطلق غي» وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب .

ويتناول أبو العلاء الناحية الاجتماعية عند بعض الشعراء ولا سيما الإسلاميين والعباسيين منهم ، فيأخذ عليهم خمرياتهم ومخونتهم ، وهو كثيراً ما يتوقف عند النواحي اللغوية والنحوية ، ولا عجب في ذلك فأبو العلاء من أكابر أرباب اللغة والنحو .

ويتناول الأدب الأندلسي في جمل قصيرة تدور حول المبالغات التي أولع بها أولئك الأدباء من غير ما تفصيل ولا نظر واسع .

وهكذا نرى أن أبا العلاء تناول في نقده المعلومات العلمية والأدبية التي تتعلق بأخبار الشعراء الذين سبقوه ، كما تناول نقد المعتقدات الشائعة في عصره ، وعادات القوم وأخلاقهم . وقد عمد في نقده الأدبي الى الشعراء ، فصورهم تصويراً واضحاً ، كما كانوا في حياتهم ، وأوضح نزعاتهم الخاصة ، وناقشهم في بعض شعرهم ، وتحري أخبارهم تحرياً علمياً ، وحاول أن يفصل بين الصحيح والكاذب منها ، وتتبع أقوالهم ليميز المنحول منها والصحيح النسبة إليهم ، وأظهر سعة اطلاعه على الشعر ، قديمه وحديثه ، مدلياً



هنا وهناك بآرائه اللغوية والنحوية والأدبية، وهو في آرائه اللغوية والنحوية يعتمد الثقل أكثر مما يعتمد القياس؛ وكثيراً ما تعرّض لسيبويه والسيدي وأبي علي الفارسي مبيّناً أوهامهم في الإعراب، وتعرّض لأؤس بن حجر وامرئ القيس وبشار، وبين أخطائهم اللغوية.

وقد حمد عند الشعراء الابتداع والابتكار وحمل في نقده على الغلو الشاذ في الشعر، وعلى التزلف، وعلى استعمال الألفاظ النافرة، والقوافي الضعيفة، وهكذا كانت رسالة الغفران محكمة يناقش فيها أبو العلاء الشعراء في استعمال الألفاظ وفي تصفّهم وتأويلهم، ويصب نفسه حكماً يث الأحكام فيثي على هذا ويوم داك، يمتنع هذا ويخطئ ذاك.

وعرض أبو العلاء لشياطين الشعر، وللشعر المنسوب إلى آدم والجن، وما إلى ذلك. وكان شأنه. في كل موضوع وكن موقف، ساعراً منهكاً، لأذع السعير، قارص الكلام، يلتمز الغريب والجناس والأمثال والإشارات التاريخية، بل يغرب ما استطاع الإغراب، ويرمز ما استطاع الرمز، ويحاور ما استطاع الحوار، في طرفة ومهارة. وهو أبداً واقف وراء كلامه. يظفر بعبر الصبرة إلى السهام المتطايرة، وإلى مفعولها في الناس والمجتمع. وهو عالم أن قدّه لمحات وتلميحات، ولكن وراء اللّمحات والتلميحات شخصية قوية بعيدة المرامي والأهداف، شخصية عالمة بأسرار اللغة وأساليب الشعر، تنظر إلى الأدب نظرة النقاش، ولا تساهل في التأويل كالأوافق مذهب القياس في اللغة، شخصية تحمل للحوار مبرحاً وسيماً، فنثر عليه معلوماتها، وتظهر بمظهر الأستاذ الذي يلخص آراءه في عبارات مرصوفة، وتلميحات بعيدة الآفاق، والذي لا يسي أبداً أنه أستاذ.

#### ٥ - أبو العلاء الشاعر:

١ - «سقط الزند»: تتجلى لنا شاعرية أبي العلاء خصوصاً في «سقط الزند» الذي ينطوي على نحو ثلاثة آلاف بيت من الشعر، والذي كان فيه أبو العلاء رجلاً تفكير وهليلج وتركيب، وهو إن مدح أو فخر أو وصف أو رثى، متوكّئ على معاني من

سبقه ، جاد في تصيد صورهم وتركيبها تركيباً عالياً فيه تضخيم وتجسيم وتحميل وواقعية حسية .

وهكذا فالمدح عنده عاطفة مصطنعة ، وتعداد للمكارم الخلقية ، ومغاليات تقليدية ، وصناعة تميرية لا تخلو من جمود حياتي .

والفخر عنده تعويض عن النقص الحياتي ، أي عن المعى والدِّمَاء والمقر والمذلة العارضة . إنه يفخر ويكثر من التمدح ويحاول الإقناع بأن قيمة الإنسان في نفسه وعقله ومكاسبه الخلقية . ولا يمتنع من أشهر الشعر الفخري ، وهو يقول فيها :

أَلَا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ مَا أَنَا فَاعِلٌ عَفَافٌ وَأَقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَتَائِلٌ  
نُعَدُّ ذُنُوبِي عِنْدَ قَوْمٍ كَثِيرَةٍ . وَلَا ذَنْبٌ لِي إِلَّا الْعُلُ وَالْفَضَائِلُ

والولاء عنده وثقة تأملية رائعة يشترك فيها العقل المتعبر ، والعاطفة العميقة ، والخيال الذي يحاول تصوير الأفكار وتجسيم الحقائق . وأروع ما له في هذا الباب داليلته التي روى بها أبا حمزة الفقيه الحنفي وكان عزيزاً عليه ، ومطلعها :

غَيْرُ مُحَلٍّ فِي بَيْتِي وَأَعْقَادِي نَوْحٌ بِأَلِكٍ ، وَلَا تَسْرُفٌ شَادٍ  
صَاحٍ هَلْبِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرُّحَّ سَبَّ ، فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادٍ  
خَفَّفَ الْوُطْءَ . مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْأَرْضِ إِلَّا مِنْ هَلْبِهِ الْأَجْسَادُ  
رُبُّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا . ضَاحِكٌ مِنْ تَرَاحُمِ الْأَصْدَادِ  
وَدَفِينٍ عَلَى بَسْقَايَ دَفِينٍ فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِ  
تَعَبُ كُلُّهَا الْحَيَاةُ ، فَمَا أَعْجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي آزْدِنَادِ

١ - غير محدد : غير ناصح ، من وأطهى أي ألقى - في ملهى في مدعى . الشاذي . الذي يرفع صوته بالثناء يقول لا يعيد الملت أن يكي عليه الناس ، كما لا يعيد اللماء الناس

٢ - صاح . صادى مرجم وصاحي . - الرحب : سعة الأرض . - عاد . هو ابن عوص من آراء بن سام ابن نوح . وجد القبيلة المعروفة باسمه - يقول : إل الأرض أصبحت قوياً فوق قبور .

٣ - أديم الأرض . ظاهرها ، وجهها

٤ - يريد بالأصناد الصبور والكبير ، والغني والفقير ، والمؤنس وانكافر .

١ - كان أبو العلاء اسماعيلي المذهب ، عقلي النزعة ، يقول بإمامة العقل ، ويهاجم التحجر الفكري ، والزنا البشري ، ويدعو الى التحرر من قيود الشكل والخرافة والتقليد ، كما يدعو الى تحكيم العقل في أمور الدين والدنيا ، وكان الى ذلك صاحب مذهب صوفي عقلي ينبع من عقيدته الاسماعيلية ويحمله على نبذ الدنيا واحتقار الأباطيل ، كما يحمله على التطلع الجريء الى حقائق الوجود والمصير .

٢ - وكان رجل التشاؤم الناقم على الوجود بقدر خضوعه لجمحة الحياة والموت ، وكان يرى الدنيا من خلال الظلام المسيطر على عينيه وقبه ، فبرى في كل شيء فساداً ، ويحار ويضطرب أمام النظام الكروني ثم ينفاد له انقياد العصفوان المقهور ، وهكذا تلمس في تشاؤمه ألماً مكتوباً وعنفواناً مضغوطاً .

٣ - وبسبب هذا كله كان أبو العلاء روائي الموقف أمام نكبات الحياة . انه كان عالماً من العاطفة ، وكان شديد الانفعال ، سريع التأثر ، ولكنه مع ذلك أراد أن يكون فيلسوفاً يواجه الدنيا بعقل مسيطر ، وفكر أوسع من الدنيا والوجود . وها هو ذا أمام صديقه الفقيه الحنفي المتوفى يقف موقف القلب الذائب تحت هيمنة العقل التأمل . والفقيه الراحل رجل علم وفضيلة على مذهب فيلسوف المعرفة ، وهو صديق حميم على سنة التناغم العقلي ، وقد ترك ذهابه فراغاً في دنيا أبي العلاء ، وبعث في نفسه حزناً وألماً ذهباً به مذهباً بعيداً في عالم التأمل الكوني والاعتبار الإنساني .

٤ . في قصيدة أبي العلاء ثلاثة أقسام : قسمان للتأمل الفكري والوجداني ، وقسم للولاء . أما الأول فنظرة على الأرض وقد أصبحت مقبرة كبيرة تتزاحم الأضداد في مداها ، وأما الثاني فنظرة لإيمان تظهر فيها الحياة طريقاً الى الخلود ، وأما الثالث فنظرة إلى الفقيد الراحل الذي كانت حياته حياة علم وزهد .

٥ . كان الشاعر في مطلع قصيدته ثورة عاطفية تلقها الفلاسفة لقد ، وتسيطر عليه نظرة العقل سيطرة واسعة . فقد فجع بصديق حميم ، وأخر في المذهب مقيم ، فافعل أشد انفعال . ولكنّ للدمع تحول الى عيرة ، والتوغل تحول الى تأمل ، فوقف ابو العلاء على مشارف الوجود ، وألقى ، من وراء عناه ، نظرة عميقة على الأرض ، وقد أصبحت مقبرة كبيرة شخصت فيها القبور ، وتكدست فيها الرمم البالية ، وغطى تراب

الأجساد صفحتها الكثيرة وتعاقبت المشاهد على شاشة الزوال، فمُرت الخلقة منذ فجرها، وتعاقبت الأجيال، وأتصل طرفا الزمان، وإذا هنالك فناء تغور في أعماقه الحياة، وإذا كل شيء باطل، وإذا الغرور جنون، والتكبر حماقة، والتعلق بالدنيا سخف.

٦ في هذه النظرة عمق واتساع لأن الشاعر طوى فيها الحياة والوجود طياً، وامتد مع الزمان والمكان مدناً وجزراً الى ما لا حد له، فكشف عن حقيقة الوجود الإنساني، وعن حقيقة الزوال، وذلك كله بطريقة والهيبة حافلة بالجرأة، وإنا نلمس تحت هذا كله نغمة أبي العلاء على الحياة والأحياء، وقد ألمه نظام الفناء وأن تكون الحياة بدء الموت، والموت زوالاً شاملاً. ولئن اتخذ موقفاً فلسفياً تجاه هذه الحقائق المصيرية، فما ذلك إلا موقف المشفون المحطم، والمعجز تحت سيطرة القدرة الكونية التي وضعت هذا النظام.

٧ - بعد هذه النظرة التأملية الحزينة، ينتقل الشاعر الى نظرة أخرى تبعث في النفس بعضي العزاء، وهي أن الحياة طريق الى الخلود، وأن الموت رقعة يسرح فيها الجسم، وأن الدهريين الفاتلين بفناء الأرواح جماعة وهم وضلال... وأبو العلاء في هذا كله غير متردد ولا حائر، وكثيراً ما تردّد واضطرب في قضايا المصير، فهو هنا مؤمن صادق الإيمان، وهو يتكلم جازماً، وكلامه حافل بالوضوح والسهولة والبلاغة.

٨ - في القسمين الأول والثاني من القصيدة أسلوب تأملي وجداني، بعيد عن جفاف الشعر التعليمي. فأبو العلاء مفكر عميق الفكر، وفيلسوف بعيد المرامي، ولكنه في الوقت نفسه شاعر ذو عبقرية خلقة، وعاطفة حيّة، وخيال واسع الآفاق. أمّا العاطفة فإننا نلمسها في كل عبارة وكل لفظة، وهي متشائمة حزينة ناثرة، ولا عجب في ذلك إذ تجمعت في نفس الشاعر ذكريات شقائه، ومسللة النكبات التي أثقلت حياته، والظلمات الكثيفة التي تعثرت فيها قدماءه، وتمثلت له وحشة الانفراد في شتى سجون، وشخص أمامه الزوال في قبور البشر، فتساوى عنده البكاء والفناء، والبقاء والفناء، وأصبحت الحياة في نظره كلا شيء.

وأما الحيال فهو المصور واللون، وهو عند أبي العلاء المعري شطحات واسعة تجعل

أديم الأرض من أجساد البشر، وصفحة الأرض قبوراً تملأ الرعب، والمدافن ميادين يتزاحم فيها المتسابقون الى الفناء...

وهكذا كان أبو العلاء شاعراً حيّ العاطفة، واسع الخيال، يهض خياله بالمعاني الغزيرة التي يُثقل بها أدبه، ويسير شعره بطيئاً، في جوٍّ من التناؤم حزين.

٩ - وفي القسم الثالث من القصيدة رثاء للفقير الحنفي، وقد ودّعه الشاعر بكلام مؤثّر تنبض فيه العاطفة الحزينة الصادقة، وحرص على أن يبرز فيه ميزتي العقل والزهد، وأن يوضح فلسفته في الحياة تلك التي اعتنقها أبو العلاء، وكان فيها عميق التفهم للحقيقة الوجود البشرية على وجه الأرض، شديد الترفع عن أباطيل الدنيا:

أَنْفَقَ الْعُمَرُ نَاسِكًا يَطْلُبُ الْعِثْمَ  
بِكَشْفٍ عَنْ أَصْلِهِ وَأَنْتِفَادٍ  
ذَا بَنَانٍ لَا تَلْسُسُ الدَّهَبَ الْأَحْمَرَ  
زُهْدًا فِي الْعَسْجَلِ الْمُسْتَفَادِ

١٠ - وهكذا انتقل الرثاء مع أبي العلاء من طور العاطفة الضعيفة التي تنوّج وتتجلبب الى طور العاطفة القويّة التي تتألم وتُفلسف ألمها، وتُفرقه في جوٍّ من التأمل الفلسفيّ الواسع الآفاق. ومعني الفلسفة والتّصوّف التي اقتصر عليها الشاعر لم تكن جافةً لأنه عرف أن يبعث فيها ماء الحياة من وجدان صحيح عاش هذه الفلسفة، ونجّبر حقائقها، فكانت ثمرة اختبار ونتيجة حياة.

والجدير بالذكر أن التعقيد اللفظي والبياني كان شائعاً في عهد أبي العلاء وأنّ شاعر المعرفة كان شديد الولع به، بخلاف ما نلحده في هذه القصيدة إذ سار الكلام سير سهولة وسلاسة، وكان بعيداً عن الغموض، مشرّق البيان، رائع العبارة.

٦ - أبو العلاء الفيلسوف:

حاول أبو العلاء المعري أن ينحصر فلسفة الحياة بديوان ضخم يُدعى «اللزوميات»،

وهو أول شاعر ينظم ديواناً كاملاً في الفلسفة ، ويصوّر لنا فيه عَصارة المذاهب الفكرية لذلك العصر ، ويقف فيه متحدياً للتقاليد ، مشككاً في معتقدات كثيرة .

واللزوميات ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو اللزوم ، ديوان شعر كبير نظممه صاحبه عقب رجوعه من بغداد ، وذلك في تواريخ مختلفة تمتد على أكثر من عشرين سنة ، وهو مرتّب على حروف المعجم ، يذكر كلّ حرف بوجوه الأربعة من ضمّ وفتح وكسر وسكون<sup>١</sup> ؛ وهذا الديوان يحتوي نحو أحد عشر ألف بيت وكلّه فلسفة واعتبار ونقد للحياة . وسنّي كذلك لأن صاحبه التزم قبل الروي حرفاً إذا غيّر لم يكن مغللاً بالنظم .

واللزوميات تمثل حياة عقل أبي العلاء ووجدانه وخلقته تمثيلاً صادقاً . وهي تحتوي آراء الرجل التي كان يُلقِي بها إلى طالبي العلم . فقد كان المعريّ شيخ مدرسة يأتي إليه طلاب العلم من كلّ فجّ وصب ، فكان يعالج قضاياهم ويهذب نفوسهم وأخلاقهم ، ويعلمهم نظرياً وعملياً ، ومصدر نظرياته عقله ، وغنّير علمياته جسده التحليل الذي قس عليه . وهكذا كان المعريّ لمريديه وقاصدي فضه واعظاً باللسان والمثل يطبّق علمه على عمله .

وقد ذهب مارون عبّود إلى أن كتاب اللزوميات هو كتاب المذهب الفاطمي<sup>٢</sup> ، وأنّ أبا العلاء صوّر فيه للناس شخصية الحاكم<sup>٣</sup> وخصاله من حيث لا يدرون ، وأيد فيه مذهباً ، ووضع في شعره طريقة ، فكانت آراؤه نوعين : نوعاً مستمدّاً من الاختيار

١ - قال المعريّ في حُرّ مقفلة الكتاب : « وهذا حين أبدأ ترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً ، لكلّ حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروي من ضمّ وفتح وكسر وسكون ، وأما الألف وحدها فلها فصل واحد لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالفتحة الواحدة أو بالفتحتين ليكون فضاء لحق التأليف . » وبالله التوفيق .

والذي سُمّ العلم في فصول الكتاب يرى أن الأوزان في كلّ فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبجديات العروصية ، فالبحر تعلوّل في الفصل مقدّم على غيره ، والتمتاز مؤخر عن غيره . والأبجديات ينهمل ترتيبها وليس معنى هذا أن المؤلف استوفى في كلّ فصل الأبجديات الخمسة عشر ، بل المعنى أن ما يوجد من الأوزان في فصل ينتمى فيه الترتيب

٢ الحاكم بأمر الله (٩٨٥ - ١٠٢٠ م / ٣٧٥ - ٤١١ هـ) من شعراء الدولة الفاطمية بمصر . وكان يشتمل بعلوم الفلسفة ، وبطرق العلوم ، وقد تحدّثنا في المقطع سقّط فيه عن أساس ، ودعا إلى تأليفه صحن سحلاً تكتب فيه أسماء المؤمنين به ، فاكتمت من أهل القاهرة سبعة عشر ألفاً كلّهم يحدّثون بلسانه

الإنساني ، وهو ما يطّبق عليه اسم الفلسفة العامة ؛ ونوعاً يتّجه انجهاً معلوماً ، ويعبرُ أو يترجم عن مذهب بعينه هو مذهب الفاطميين<sup>١</sup> . أما التناقض الذي يوجد في آراء أبي العلاء فما هو ، في نظر الأستاذ مارون عبود ، إلّا سخرية أو تنقيّة في عصر كانت فيه كلمة « علم الأوائل » تقضي على الرجل » .

ولنا وإن لم نجاري مارون عبود في رأيه بحجارة كاملة ، لا نشكّ في أنّ الرجل فاطميّ النزعة ، إسماعيليّ المذهب ، وأنّه شديد الاضطراب في سلسلة آرائه . ينحو أحياناً نحو المعلم الحارم في تعليمه ، ويلقيك أحياناً أخرى في جوّ ضبابي لا مخرج له ، يُشت حيناً ثم يُنكر حيناً آخر ، وكأنّ به حائر في حقيقة الوجود والموجود . وإليك خلاصة ما جاء في اللزوميات من آراء :

١ السُّلطة المدنيّة : إنها في نظر المعريّ فاسدة لكون المكر والرّشوة والفسح هي الطريق إليها ، ولكون الحكام جماعة فوضى ورفيلة ، يتبعون هواهم ويسومون الرعيّة ظلماً ، وينعمون بالمال وثمره أتعابها ، والقضاة منهم جماعة استداد ، وعصبية فسد :

يَسْوسُونَ الْأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلٍ      فَيَفْقدُ أَمْرَهُمْ وَيُقَالُ : سَأَسَ  
فَأَفَّ مِنْ الْحَيَاةِ ، وَأَفَّ مِنِّي ،      وَمِنْ زَمَنٍ رَأَسَتْهُ خَسَاسَةٌ

٢ السُّلطة العينيّة : رجال اللّين في نظر المعريّ جماعة فسادٍ وطمعٍ ورثاء ، وليس لهم من اللّين إلّا الاسم ؛ والدين عندهم مصيدة يصطادون بها الناس ، فلا بدّ للإنسان من التنبّه لمكرهم وفسادهم حتى لا يقع في أشراكهم .

٣ - المجتمع : جميع البشر في نظره سواء في الفساد وقبح الطّبع لأنهم ثمرة فساد . وهكذا فكل حي فوق الأرض ظالم وشرير وكذب ، والأجدر بالعقل أن لا يتزوّج أو أن يقترن بامرأة عقيم لأنّ النسل جنابة الآباء على الأبناء :

١ - قال الأستاذ مارون عبود : « الفاطمية مذهب علمي ، وقد أصبح أبو العلاء لهذا أثب وقرّر في اللزوميات شيخها الأعظم وإمامها إياي . فهو لم يدع شيئاً يعني « التسجيبي » إلى هذه الدعوة إلّا ذكره به وفكّده ، وهو لا يقرّ القضية مرة ومرتين بن يعالجه في كل أبواب كتابه . ويحتج الأستاذ أنّ « العلاء لم يسافر إلى بغداد إلّا لأجل التمكن من مذهبه .

هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

وأفسد ما في المجتمع المرأة لأنها موطن فتنه ومكر:

هِيَ الْبَرَانُ تَحْسُنُ مِنْ بَعِيدٍ وَيُحْرِقُنَ الْأَكْثَفُ إِذَا لُمِسَتْ

٤ - الذين. الأديان في نظر المعري هي من صنع أناس مأكرين، وهي مجموعة أضاليل من شأنها أن تمرق اللحمة بين البشر، والعامل العاقل هو الذي يكرها ولا يأخذ بشيء منها؛ وإذ نراه ديباً مؤمناً، تسمعه يقول:

إِنَّا أَهْلُ الْأَرْضِ: دُوعَقْلٍ بِلَا دِينٍ، وَآخِرُ دِينٍ لَا عَقْلَ لَهُ

٥ النفس والجسد: المعري حائر في موضوع المصير البشري، يُبَيِّنُ تَارَةً روحانية النفس، ويقول يبقائها، ويقول تارة أخرى يزوالها فيزغ نزعة مادية مطلقة، ويشبه نفس البشر بنفس الحيوان والنبات، ولا يجد فرقاً بينها وبين الجسد من حيث المصدر والنهاية، وهو إلى ذلك يرى أنَّ الجسد وعاء دَسَ للنفس، وأنَّ النفس تُظَهِّرُ بترقيها عن الجسد، فيضطرب بين المذاهب المختلفة اضطراباً يَبِينُ.



التمثال الذي أقيم لإحياء ذكرى أبي العلاء.

٦ - العقل: ومع نزعة المعري المادية يراه يجعل للعقل مكاناً رفيعاً في فلسفته، فهو الإمام الفرد، وهو النبي، وهو الحكم في حياة البشر وأعاليهم:



كَذِبَ النَّاسُ لَا إِمَامَ سِوَى الْعَقْلِ مُشِيرًا فِي صُبْحِهِ وَالْمَسَاءِ

٧ - الله . يُثَبِّتُ المعريّ وجود الله تعالى وكيالاته وخلقه للعالم ، ويشير الى النظام الكونيّ الذي يسير كلّ شيء في خطّه ؛ وهو يدين بالجزئية ويرى أنّ الإنسان مُكره على أفعاله ، وهو يحصّه مع ذلك على عمل الخير والابتعاد عن المُتكرّر .

وهكذا ترى التشاؤم والحيرة يسيطران على فكر أبي العلاء ، وترى التناقض الفكريّ بارزاً هنا وهناك ، وترى العلماء مضطربين في شأن هذا الأعمى البصريّ ، فمنهم من يجد له عذراً في عاه وفي تطوّره الفكريّ ، ومنهم من يتنكّر له أشدّ التنكّر ويتهمة بالزندقة والإلحاد .

ومن الناحية الأدبيّة نرى أنّ اللزوميّات أقرب الى الشعر التعليميّ ، وقد غرق أديبا في خضمّ من اللفظيّة ، والإغراب ، والتعقيد ، والغموض ، وجفّ فيها الماء والرّواء ، فكانت دروساً في اللغة والبديع والفلسفة أكثر ممّا كانت شعراً .

\* \* \*

هذه نظرة موجزة في تاريخ أبي العلاء وأدبه ، والرّجل أوسع من أن تُحصّر دراسته في كتاب ، لأنّه من العبقريّات العالميّة التي تخطى أثرها حدود المكان والزمان ، فكانت تراثاً إنسانياً خالداً .

\*

### مصادر ومراجع

- ركبي المحاسني : أبو العلاء ناقد المجتمع - القاهرة ١٩٤٦ .  
 محمّد انطريق : الأعداد ١٨ و ١٩ و ٢٠ (١٩٤٤) .  
 عبدس محمودالمقدد : المعري وللسفته - المقتطف ٤٩ : ٢٢٥ و ٤٦٥ .  
 محمد إسعاف النشاشيبي : أبو العلاء المعريّ - الرسالة ٦٠٦ : ١٤٠ .  
 حنا الفاخوري : أبو العلاء المعريّ - حريص ١٩٤٥ .

- كسالم اليارجي : معارج الضلال في اللزومات — الأديب ٣ . ٢٩ .  
 المهرحان الأنثي لأبي العلاء المعري — دمشق ١٩٤٥ .  
 مارون عود : زوينة الدهور — بيروت ١٩٤٥ .  
 دله حسي .  
 - ذكرى أبي العلاء القاهرة ١٩٣٧ .  
 مع أبي العلاء في سجنه — القاهرة  
 تجديد ذكرى أبي العلاء — القاهرة ١٩٥٣ .  
 - صوت أبي العلاء - القاهرة ١٩٤٤ .  
 مجلة الهلال : عدد خاص (يونيو) ١٩٣٨ .  
 مجلة الأديب : عدد خاص (حزيران) ١٩٤٤ .  
 عبدالله العلايلي : المعري ذلك المجهول بيروت ١٩٤٤ .  
 أحمد نيمور : أبو العلاء المعري — القاهرة ١٩٤١ .  
 كامل كيلاني :  
 على هامش الغفران — القاهرة  
 - حديقة أبي العلاء مصر ١٩٤٤ .  
 - حول رسالة الغفران القاهرة .  
 الدكتورة بنت الشاطئ : الحياة الإنسانية عند أبي العلاء - القاهرة .

**Barlein:** Abul Ala, the Syrian - London 1910.

**Barckenbury:** Abul Ala Almaarn, Rissalat al Ghufuran - London 1943

## ابن الفارض - البهاء زهير

أ - ابن الفارض .

١ - تاريخه . وُلد في القاهرة سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨١ م ، ونشأ متحفظاً متزهداً ، ثم مال إلى التصوف واعتزل الناس لذلك عدة سنوات ، ثم توجه إلى مكة وأقام فيها نحو خمس عشرة سنة في الصلاة والتحرير . توفى في القاهرة سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م

٢ - أدبه . لاس لعارض ديوان شعر أشهر ما فيه : لثانية الكرى ، وهي في ٧٦٠ بيتاً من الشعر  
٣ - مميزات شعره : شعره استرسال ، وإطالة ، وتعبيد ، وتكرار ، ونديع ، وموسيقى ، وروعة فكرية وعالمية

ب - البهاء زهير .

١ - تاريخه . وُلد قرب مكة سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، ونشأ في مصر واتصل خدمة الملك الصالح عم الدين أيوب . توفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .

٢ - أدبه : لبهاء ديوان شعر فيه نحو أربعة آلاف بيت في العز والعتاب والزنا  
٣ - مميزات شعره : شعر البهاء زين وعمامة وموسيقى البهاء شاعر الحب ، وهو يلدوب في شعره رقة وعلونة وصفاء ، وسهولة ، ويعتمد السجع اعباداً ، يستعين به للتعبير عن عمق عاصته .

أ . ابن الفارض ( ٥٧٦ هـ / ٦٣٢ هـ - ١١٨١ - ١٢٣٤ م )

١ تاريخه :

هو أبو حفص عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض . وُلد في القاهرة سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨١ م ، ونشأ متحفظاً متزهداً ، ثم عكف على الفقه متعمقاً في أسرارهِ ، ثم مال إلى التصوف سالكاً طريقه ومتدرجاً في حالاتهِ ، واعتزل الناس لذلك عدة سنوات ، وعكف على الخلوة والذكر متشققاً ، مستأصلاً آميال الجسد ، كإبحار جراح الشهوات ، مفرداً للعبادة والتأمل ، ثم عاد إلى أبيه فنزله إلى أن توفاه الله ، فرجع

إذ ذاك إلى عزله يتشدد الانصال بالله عن طريق التصوف فلم يحظ بالكشف<sup>١</sup>، فتوجه إلى مكة وأقام فيها نحو خمس عشرة سنة في الصلاة والتجريد<sup>٢</sup>، ثم قصد مصر فلقي فيها إكراماً وحفاوة، وقد توفي في القاهرة سنة ٦٣٢ هـ، ١٢٣٤ م، ودُفن في سفح جبل المقطم.

#### ٢ - أدبه :

لاين الفارض ديوان شعر صغير الحجم، عظيم المحتوى، طبع مراراً في الشرق وفي الغرب وشرحه على ظاهر معناه الشيخ حسن البوريني، وشرحه صوفياً كثيرون أشهرهم الشيخ عبد الغني الأنباري سنة ١٧٣٠. وأشهر ما في الديوان «التائية الكبرى» أو «نظم السلوك» وهي قصيدة طويلة تقع في ٧٦٠ بيتاً من الشعر، ضمها الشاعر تجاربه الصوفية، والتدرج في سلم الكمال الروحي حتى الفوز بمشاهدة الجمال الإلهي. وهذه التائية من القصائد التي أكب على شرحها والتعليق عليها علماء كثيرون منهم الفرغاني، والكاشاني في القرن التاسع عشر.

#### ٣ - ميزة شعره :

ابن الفارض رجل التوجد والانطلاق الروحاني، سيله في الحياة أن يتجرد من الجسد والمادة، وأن يصعد في مدارج العلاء سعياً وراء مشاهدة الله والفناء فيه. وقد حاول أن يحل الشعر العربي كل ما في قلبه من صبوة روحية وغرام سنّي، وراح يصب معانيه في قوالب غزلية وخمرية، وراح يركب الوجوه البديعية والأساليب اليبانية، ويغدو يغالي في التّعقيد، ويكرر ويسرف في التكرار، وراح يكثر من الهتاف والمناداة والتصغير وما إلى ذلك، وراح يزعج في كلامه اندفاع حبه وثورة اضطرامه، وإذا شعره أثون مسجور، وإذا هنالك وقود دائم ولهب متصاعد، وذوبان يهواه صاحبه ولا يفهم الحياة إلا فيه، وإذا الحياة موت والموت حياة، والسعادة فناء في المحبوب بل هي فناء فناء، حتى لا يكون إنسان، ولا وعي للإنسان بأنه فاني في ذلك المحبوب.

١ - هو كشف حجاب الحسن والأخلاق على عودن من أمر الله ليس لصاحب الحسن ادراك شيء منها.

٢ - التجريد هو التخلص من المقاصص، والترعات للمادية، وضبط الأهواء.

وهكذا كان ابن الفارض «سلطان العاشقين» وكان شعره انبثالاً ذاتياً، وأندفاعاً فكرياً وعاطفياً في غيرهما اهتمام كبير لغة وصقلها، وفي غيرهما اهتمام كبير للصياغة الإيضاحية. همّه أن يتدفق، ويَطِيل الكلام، علّ ذلك الكلام يكون تعبيراً عما في نفسه من شوق وضرام؛ وقد يتعقّد الكلام ويتكرّر، وقد تتداخل الوجوه البديعية وتتزاخم علّها تُفضي، بتزاحمها وتداخلها، بكل ما يتداخل ويتزاحم في قلبه من عواطف...

وللموسيقى في شعر ابن الفارض ما للألفاظ من أداء. إنّها الموسيقى الشجيّة التي تتأرجح على نبراتها نفس الشاعر في سكرة تواجدها:

أَخْفَيْتُ حُبَّكُمْ فَأَخْفَانِي أَسَى حَتَّى لَعَمْرِي كَيْدْتُ عَنْهُ أَخْتَنِي  
وَكَتَمْتُهُ عَنِّي، فَلَوْ أَبْدَيْتُهُ لَوَجَدْتُهُ أَخْفَى مِنَ اللَّطْفِ الْخَفِي

بهاء الدين زهير (٥٨١ هـ / ٦٥٦ هـ - ١١٨٥ - ١٢٥٨ م)

#### ١ - تاريخه:

هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد المهلبي. وُلد بوادي نخلة قرب مكّة سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م، ونشأ في مصر، ثم اتّصل بخدمة الملك الصّالح نجم الدين أيوب، وخرج معه في خدمته إلى بلاد الشام والجزيرة، ولما نُكِب الملك الصّالح وخانه عسكره وانضووا إلى ابن عمه الملك الناصر، حفظ البهاء عهد صاحبه ولبث في نابلس إلى أن عاد الصّالح إلى الديار المصرية فقدم إليها في خدمته ووزر له حتى توفي سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م.

#### ٢. أدبه:

للبهاء زهير ديوان شعر فيه نحو أربعة آلاف بيت في الغزل والعتاب والثناء، وقد طُبِعَ مراراً في مصر، وفي بيروت، وترجمه إلى اللغة الإنكليزية شعراً المستشرق الإنكليزي بالمر في جزعين، وعلّق عليه الحواشي والشرح.

١ - يقول: أحبيب حي كائن، ولو أظهرته لوحده غير ظاهر، وقد أُرِدَ باللفظ الحيّ لله، وهو تعبير صوفي

## ٤ - ميزة شعره :

شعر البهاء لينٌ ونعومةٌ وموسيقى . هو شعرٌ عاطفةٌ العميقة التي تنساب بين السطور فتُدليها ، وتتغلغل في الألفاظ فتُسَهِّلُها ، وتنقل على أكثاف الحروف فتجعلها أوتاراً عذبة الأنغام ساحرة الوقع . هو شعر الوجدان والبهاء .

البهاء رهير شاعر الحب عاش له ، وتقلب في شتى حالاته ، وعرفَ حلوه ومره ، وكان اهدأ خلقاً القلب لكل جميل ، ينوب في سبيله شعراً رقيقاً ، حافلاً بالعلوية ، حافلاً بالصفاء ، بطلق سهلاً ، في غير تعقيد ولا مداورة ، وكأنه النسيم الذي يلامس الأرواح ، أو كأنه الطيب الذي يغزو الكيان في غير عصف ولا شدة . وقد يواجهك أحياناً بلغة التخاطب ، أو بأسلوب النثر الحافل بالسلاسة والطبيعة ، وذلك أن شعر الحب عند البهاء حياة ، ومعاناة حيائية ، وإن اعتمد أحياناً أساليب الترصيع والزخرفة لما ذلك عن تصنعٍ وتحذلق ، بل عن محاولة للتعبير عن جالية التجربة وعذوبة المعاناة .

وتروك في شعر البهاء نزعة الاعترافية الحلوة التي تنم عن وجدان صادق ، وعن عمق في الامتداد الشعوري ، كما تنم عن أصالة شعرية قيّاسة ؛ وتروك في شعره أيضاً تلك النزعة الاسترسالية التي يرافقها نوع من الاسترخاء الحالم ، وشيء من الدهول الشفاف .

قال يُعَاتِبُ حبيباً ويشكو لوعة المجران :

تَحْيِشُ أَنْتَ وَتَبْقَى	أَنَا الَّذِي مَتُّ حَقًّا !
حَاشَاكَ، يَا نُورَ عَيْنِي	تَلْقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى
وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْتِي	وَبَيْنَ مَسْجُوكِ قَرُوقًا !
يَا أَنْعَمَ النَّاسِ قُلُّ لِي :	إِلَى مَتَى فَيْكَ أَشْقَى ؟
سَمِعْتُ عَنْكَ حَدِيثًا ،	يَا رَبِّ ! لَا كَانَ صِدْقًا
حَاشَاكَ تَنْقُضُ عَهْدِي	وَعُسْرُوكِ فَيْكَ وَتُفْسِي
لَمْ يَبْقَ مِنِّي إِلَّا	بَقِيَّةٌ لَيْسَ نَبْقَى !

إنه شعر طيب، تغلب عليه العنوية المعنوية واللفظية، بحيث يسترسل معه القارئ استرسال اطمئنان، ومشاركة في المعاناة والإرتان.

وقال معبراً عن وجده وحرارة وجدانه:

غَيَّرِي عَلَى السُّلُوَانِ قَادِرَ	وَسَوَايَ فِي الْعُشَاقِ غَادِرَ
لِي فِي الْغَرَامِ سَرِيرَةَ،	وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ
وَمُشَبَّهٍ بِالْغُصْنِ قَلْبِي	لَا يَزَالُ عَلَيْهِ طَائِرُ
حَلَوُ الْحَدِيثِ، وَإِنَّمَا	لِحَلَاوَةِ ثَقَّتْ مَسَائِرُ
أَشْكُرُ وَأَشْكُرُ فِعْلُهُ	فَأَعْجَبَ لَشَاكِ مِنْهُ شَاكِرُ
لَا تُنْكِرُوا حَقَّقَانِ قَلْبِي،	وَالْحَبِيبُ لَدَيَّ حَاضِرُ
مَا أَلْقَبَ إِلَّا دَارُهُ	ضَرَبَتْ لَهُ فِيهَا الْبَشَائِرُ...
يَا لَيْلٍ، مَا لَكَ آخِرُ	يُرْجَى، وَلَا لِلشَّوْقِ آخِرُ
يَا لَيْلٍ طُلُ، يَا شَوْقُ دُمُ،	إِنِّي عَلَى الْخَالِئِ صَابِرُ!...
لِي فِيكَ أَجْرٌ مُجَاهِدِ	إِنْ صَحَّ أَنَّ اللَّيْلَ كَافِرُ
طَرَفِي وَطَرَفُ النُّجْمِ فِيكَ	كِلَاهُمَا مَأْوٍ وَمَاهِرُ...

إنها حكاية حال، وتعبير عما في نفس الشاعر من وجد شديد، ومن صياغة تكاد تتحول إلى مأساة بعيدة الأصداء.

وإننا نرى الشاعر في هذه الأبيات يعتمد إلى ضروب من البديعيات كالجناس والطباق والتورية وما إلى ذلك مما يتزلق على ريشته انزلاقاً في غير جهد ولا تعمد.

وقد يسرف البهاء في السهولة حتى ليحفل شعره أحياناً بالألفاظ العامية والأساليب الشعبية، ولكن هذا لا يخرجنا عن كونه شاعر السلاسة، بل شاعر السهل المتنع في النظم، قال مخاطباً أحد لؤامه:

وَصَاحِبٍ أَصْبَحَ لِي لَأَلَمًا لَمَّا رَأَى حَسَالَةَ إِفْلَاسِي  
 قُلْتُ لَهُ إِنِّي أَمَرْتُ لَمْ أَزَلْ أَقْبِي عَلَى الْأَكْبَاسِ أَكْبَاسِي  
 مَا هَذِهِ أَوَّلَ مَا مَرَّ بِي، كَمْ بِمِثْلِهَا مَرٌّ عَلَى رَاسِي  
 دَعْنِي وَمَا أَرْضَى لِنَفْسِي وَمَا عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ مِنْ بَاسٍ  
 لَوْ نَظَرَ النَّاسُ لِأَحْوَالِهِمْ لَاشْتَغَلَ النَّاسُ عَنِ النَّاسِ!

وهكذا ترى البهاء في شعره يميل الى استعمال الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، وهو يؤثرها على الأوزان ذات الموسيقى الشديدة والنبرات الحادة .



### مصادر ومراجع

- محمد مصطفى حلمي : ابن الفارض والحب الإلهي — القاهرة ١٩٤٥  
 أمين الحسّس : ابن الفارض . العرفان ١١ : ٣٦٩ ، ٤٩٩ ، ٧١٨ ، ٨٣٥ .  
 يوسف يعقوب مسكوي : عمر بن الفارض الرسالة ١١ . ٧٥٢ .  
 مصطفى عبد الرازق . البهاء زهير — القاهرة ١٩٢٨ .  
 مارون عتود . الرؤوس — بيروت  
 ركي مبرك . البهاء زهير — الرسالة ١١ . ٩٤٤ ، ٩٦٦ .  
 أنيسة سعيد اشتروني . المنتهى والبهاء زهير — المقتطف ٣٣ . ٢٠٧ .



## الصنوبري - كشاجم - السري الرفاء - البستي مهيار الديلمي - الطفرايت

أ - الصنوبري - أبو بكر الصنوبري ولد في سواحى أنطاكية وعمل خازناً في مكتبة سيف الدولة . وكان رجل الطبيعة ينسجها وملأ ديوانه وصفاً لها . وقد توفي سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م . روصيات الصنوبري من أشهر لشعر العربي ، وقد عالج فيها الشاعر مشاهد الطبيعة معاملة إحياء ، واستعطاف ، وتغدير ، وموسيقى ، وسهولة وانسجام

ب - كشاجم هو من أصل هندي أو فارسي . نفل بين القدس ودمشق وحلب وبعداد ومصر . ثم استقر في حلب وكان من شعراء سيف الدولة له ديوان شعر كان فيه من أصحاب الطريقة الواقعية في الأدب .

ج - السري الرفاء . ولد في الموصل ونشأ نشأة صعبة ثم قصد سيف الدولة علب وأدم عنده يمدحه ، ثم أعيد فاضل إلى بغداد . وقد توفي سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م . له ديوان أكثره في مدح سيف الدولة . وشعره شعر الخيال الصافي ، والصناعة النابية الجميلة ، واللغة السهلة المشرقة .

د - أبو الفتح البستي . ولد في سست ومات في بخارى سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م . له ديوان شعر أشهر من فيه الحكيم ، وأشهر شعره بويته وهي مجموعة مصاليح وحكم

هـ - مهيار الديلمي : هو فارسي ولد بعد د وخرج على يد الشريف الرضي في الشعر والأدب . توفي سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م . وله ديوان فيه شتى الفنون الشعرية العروقة ، وشعره يتناثر موسيقاء العذبة ، والأناقة التي تحيى عى مونه

و - الطفرايت . ولد بأصهان سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م وورث للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل ثم قتل سنة ٥١٣هـ / ١١٢٠م . له ديوان أكثره في المدح وأشهر ما فيه «لأمة الحكم» .

أ - أبو بكر الصنوبري (٣٣٤هـ / ٩٤٥م)

هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الضبي ، المعروف بالصنوبري . ولد بضواحي أنطاكية ، وحضر مجلس سيف الدولة أمير حلب ، وعمل خازناً في مكتبته .

وكان الى ذلك كله رجل الطبيعة يهوى ربيعها وخريفها، وصيفها وشتاءها، ويستنويه كل مشهد جميل من مشاهد جبالها، فيتبعه متأملاً، ويكتب عليه إكباته لتحليل وتعمق، وظلّ كذلك بين الكتاب والقلم، وبين الزهرة والروضة الى أن توفي سنة ٩٤٥، تاركاً لنا وراءه رياضاً شعرية زاهرة، وربيعاً فنياً تتلاحظ فيه عيون الرجس، وتنافس فيه وجوه الشقائق حدود الحسن.

والصنوبري ديوان جمعه الصوليّ في نحو ٢٠٠ ورقة، وجمع الشيخ محمد راغب الطباخ ما وقع عليه من شعره في كتاب صغير سمّاه «الروضيات». وأكثر شعر الصنوبري في وصف الطبيعة، وقد احتك بها احتكاكاً شديداً عندما كان يتجول بين حلب وأنطاكية ودمشق، وأحب الالتفات اليها بعينه ونفسه وشئ جوارحه، يسجل ظاهراتها تسجيل فنّ ودقّة، ثم يخرج تلك الظاهرات إخراجاً فنياً حافلاً بالحياة والحركة، وإن كاد يخلو من ذات نفس الشاعر، وذات قلبه.

برز الصنوبري في وصف الطبيعة حتى عدّه البعض أول شاعر للطبيعة في العربية، وإنه، وإن لم يكن في الحقيقة أول شعراء الطبيعة، فقد أبقى فيها شعراً واقعاً، واشتهرت «روضياته» كما اشتهرت خمريات أبي نواس.

الصنوبري يعالج الطبيعة معالجة فيلسافية ويحاول إحياءها باللون، والحركة، والكلمة، والطبيعة عنده مجتمع من مجتمعات اللّهي البشرية، يجهد في جعلها تتجاوز وتنافس، كما يجهد في استكمال الصور، واستنطاق المشاهد، وأنت أمام هنا كلّ معجب بالفنّ، وروعة التصوير، وجمالية الكلمة في التعبير، معجب بهذا القلم الشعاريّ الذي ينتقل من وردة الى نرجسة، ومن شقيق الى نوار، ومن زعفران الى بهار الى غير ذلك من الثمار والأزهار، يرضع ما طاب له الترصيع، ويشبه ويجرد، ويحانس ويعطيق، فكأنك، وأنت تقرأ روضيات الصنوبري، في معرض من معارض الفنّ، والشاعر دبل يشرح، ويفسر، ويبرز الخطوط والظلال، ويحاول أن يمتعك باللون والزخرفة وتشخيص المشاهد، وإحياء المراثيات... ويواكب ذلك كله موسيقاه العروضية واللفظية، حتى لكأنك في مهرجان تراقص في أرجائه الأنوار، وتهايل قنود

الأزهار ، فتحول ذاتك الى ملاقات لالتقاط الجمال في شتى معانيه وشتى صوره . قال في روض :

تَشْبُهُ الرُّوضِ بِالْحَبَائِبِ قَدْ      زَادَ الْمُحِبِّينَ فِي عَجَبِهَا  
كَمْ مِنْ قُلُودٍ هَتَاكَ، مِنْ قُضْبٍ      تَمِيلُ مِنْ لِينِهَا وَنَعْمِهَا  
كَمْ وَجَنَةٍ، خَالَهَا بُلُوحٌ لَنَا      سَوَادُهُ، فِي صَفَاءِ حُمَرِهَا  
وَكَمْ ثَنَابًا تَسْبِي بِسُكُونِهَا      وَكَمْ عُيُونٍ تُصْبِي بِمَحْضِهَا  
تُسَارِقُ الْعَمَرَ، عَمَزَ خَائِفَةً      رَقِيبَهَا، مِنْ خَفَاءِ نَظَرِهَا

#### ب - كشّاجم (٣٦٠هـ / ٩٧٠م)

هو أبو الفتح محمود بن الحسين بن شاهر المازوني بكشّاجم<sup>١</sup>، قيل إنه من أصل هندي، وقيل انه فارسي الأصل من أهل الرملة بفلسطين، كان أسلافه الأقربون في العراق . وقد تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد ومصر . واستقر بحلب فكان من شعراء أبي الهيثم عبد الله بن حمدان ، ثم ابنه سيف الدولة .

لكشّاجم ديوان شعر طبع في بيروت سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) ، وله عدّة مؤلفات أخرى منها «أدب النديم» ، و«الرسائل» و«خصائص الطرب» و«الطبيخ» . ومن أجل هذا الكتاب الأخير قيل انه كان في بدء أمره طبيباً لسيف الدولة .

كان كشّاجم في شعره من أصحاب الطريقة الواقعية في الأدب ، فعني بوصف الحياة المحسوسة . وقد أحب الطبيعة حباً جمّاً ، فكان لها في أدبه محن واسع .

#### ج - السريّ الرفاء (٣٦٦هـ / ٩٧٦م)

هو أبو الحسن السريّ بن أحمد بن السريّ الكندي ولد في الموصل ، ونشأ فيها

١ لفظ كشّاجم مسحوت من علوم كان أبو الفتح يفضيها . فالكاف من كتابة ، والذين من شعر . والألف من أدب ، والجيم من جمل ، ودم من مطر ، وقيل انه دعي كذلك لأنه كان كاتباً ، شاعراً ، أدبياً ، حليلاً ، معيّناً ، وقيل غير ذلك أيضاً

نشأة ضعة يرفو الثياب ويطرز ، فعُرف لذلك بالرفاء . ولما توثقت عنده ملكة الشعر والأدب قصد سيف الدولة بحلب ، وأقام عنده مدة يمدح ويمدح جماعة من الوزراء والأعيان ، فحسنت حاله وعظم نواله . وكان له مع الخالدين الأخوين<sup>١</sup> ، خازني كتب سيف الدولة ، حصوة ومهاجرة ، فعلا على إبعاده عن محاسن الكبراء ، وحملا أمير حلب على أن يقطع عنه ما كان قد رسمه له من عطاء ، فمال إلى الورقة يكسب بها ضروريات الحياة . وعندما توفي سيف الدولة انتقل الشاعر إلى بغداد ومدح الوزير المهلب وبعض الرؤساء . وظل رقيق الحال إلى أن توفي سنة ٩٧٦م / ٣٦٦هـ .

للسري الرفاء ديوان شعر أكثره في مدح سيف الدولة والوزير المهلب وبني حمدان ، وفيه هجاء للخالدين ، وفيه أخيراً وصف ورثاء .

وشعر السري الرفاء هو شعر الحيال المصافي الذي يأتي بالصورة عامرة بالحياة . طائفة بالنور ، تزيد الصنعة البيانية زهواً وألواناً . وذلك في لغة سهلة مشرقة ، وأوزان يغمرها الفن . وتفيض بالعنونة . وتتصاعد بها موسيقى مطربة .

قال يصف روضة :

عَلَيْلَةُ أَنْفَاسِ الرِّيحِ كَأَنَّهَا      يُعَلُّ بِمَاءِ الْوَرْدِ نَرْجِسُهَا التَّنْدِي  
يَشْقُ جُيُوبَ الْوَرْدِ ، فِي شَجَرَانِهَا ،      نَسِيمٌ مَتَى يَنْظُرُ إِلَى أَنْمَاءِ يَبْرِ

وقال يصف شمعة :

وَشَمْعَةٌ فِي يَدِ الْغَلَامِ حَكَتْ      عُنُقَ ظَلِيمٍ بِغَيْرِ مِثْقَالٍ  
تَبْكِي إِذَا نَارُ شَوْقِهَا أَضْطَرَّتْ      بِنَمْعٍ بَشَرَ مِنَ الْأَسَى جَارٍ  
كَأَنَّهَا نَخْلَةٌ بِلَا سَعَفٍ      تَحْمِلُ أُثْرَجَةً مِنَ النَّارِ<sup>٢</sup>

١ - الخالدين (نسبة إلى الخالدية وهي قرية من أعمال الموصل) هما الأخوان أبو بكر محمد بن هشام ، وأبو عثمان سعيد بن هشام ، تهماها السري الرفاء بسرقة شعره وشعر غيره .

٢ - الظلم ذكر اللعام .

٣ - الأثرج شجر من فصيلة الليمون ناعم الوراق .

## د - أبو الفتح البستيّ (٤٠٠هـ / ١٠١٠م)

هو أبو الفتح علي بن الحسين بن عبد العزيز البستيّ. وُلد في بُسْت بالقرب من سجستان، وولي كتابة ديوانها، ثم انتقل إلى بخارى ومات فيها. له ديوان شعر أشهر ما فيه الحكيم، وأشهر شعره الحكيمُ نونيته التي عُرف بها، وسارت على الألسنة سيرة بعيدة المدى.

تقع النوبة في ثمانية وخمسين بيتاً، وهي مجموعة نصائح وحكم أمنتها على الشاعر تجاربه في الحياة وتأملاته في حقيقة الطباع الإنسانية، والأخلاق الاجتماعية. فالمرء في نظره هدف لسيطرة الحياة الدنيا، وله في العقل والدين خبر معوان على الأبطال والشعور، فما عليه إلا أن يتروى، ويحكم في تصرفه الترضن، ويضبط نزوات النفس وجراح الجسد، ويحسن ما استطاع الإحسان، ويسالم ما استطاع المسالمة، وعليه أن يتحلى بالحكمة والتقوى لكي ينجو من أذى الأيام والناس.

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ تَقْصَانُ وَرَبْحُهُ غَيْرَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ...  
أَحْسَنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ، فَقَطَالًا أَسْتَعْبِدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ  
لَا تُحْسِبَنَّ سُرُورًا دَائِمًا أَبَدًا مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ مَعَتَهُ أَزْمَانُ

يمتاز شعر البستيّ باستقامة الرأي، وسلامة الذوق، وسلاسة التعبير، وسهولة التركيب، إنه شعر النفس الاجتماعية والمثالية الأخلاقية في عهدٍ تهاوت أخلاق بنيهِ، وشاعت الفلسفات المتطرفة في صفوف ذويه.

## هـ - مهيار الديلميّ (٤٢٨هـ / ١٠٣٦م)

هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الفارسيّ الديلمي. ولد ببغداد ونشأ على الجوسية، وقد أسلم على يد الشريف الرضي وتخرّج عليه في نظم الشعر وفي الأدب. ويرى بعض العلماء أنه وُلد في الديلم، في جنوبيّ جيلان، على بحر قزوين، وأنه استُخدم في بغداد للترجمة عن الفارسية. وقد تشبّع وغلا في تشيعه، وسبّ بعض الصحابة في شعره. قال فيه ابن الجوزي: «إنه صار رافضياً غالباً، وفي شعره لطف إلا أنه يدكر الصحة بما لا يصلح».

لمهيار الديلمي ديوان شعر كبير فيه شتى القنن الشعرية المعروفة .

برز مهيار في الغزل الوجداني الرقيق ، والزّناء ، والإخوانيات ، والعتاب ، وشكوى الزّمان . أمّا مديحه ففيه تطويل يقرب أساليب القصيدة من أساليب الرسائل النثرية . وأما وصفه فكثير ولاسيما في الشمع ، والسّمك ، والطليل ، والاسطراب وما إلى ذلك ؛ وهو لا يجيد فيه إجادته في موضوعات الوجدان .

ويمتاز شعر مهيار عموماً بموسيقاه العذبة التي لا تتوقّف على الوزن وحده بل على الوزن وعلى أسلوب الشاعر في الإفصاح ؛ كما يمتاز بقرب التشبيه والاستعارة . ومهيار كثير التأنق في نظمه . إلّا أن شعره لا يخلو من بعض الميوعة والحشو .

#### و- الطّغرائي (٤٥٥ — ٥١٣ هـ / ١٠٦٣ — ١١٢٠ م)

مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد المعروف بالطّغرائي وُلد بأصبهان من أسرة فارسية . اتصل بالسلطان مسعود بن محمد السّلاجوقي صاحب الموصل ، فولّاه وزارته ، وكان كاتباً وشاعراً يعترف له الناس بالعلم والفضل ، ويعتونه بـ «الأستاذ» تقديرًا لمواهبه وإعلاناً لما له عندهم من تحلّة وإكبار .

وحدث أن نشب خلاف حاد بين السلطان مسعود وأخيه محمود ، وكانت الغلبة لمحمود فاستبدّ بأخيه وجماعته ، وقبض على رجاله ، وفي جملتهم الطّغرائي ، وأراد قتله ، ولكنّه خاف عاقبة النّقرة عليه ، فأوعز إلى بعض خاصّته أن يهّموا بالإلحاد والزندقة ، وأن ينشروا هذا الاتّهام بين الناس ، ففعلوا ، فاتخذ السلطان محمود من ذلك حجة على الطّغرائي أتاح له قتله .

للطّغرائي ديوان شعر كبير أكثره في المدح ، وخير ما فيه قصيدته الّلامية المعروفة بـ «لامية العجم» ، عارض فيها قصيدة الشّغرى المعروفة بـ «لامية العرب» .

«لامية العجم» : هي قصيدة طويلة طوّاها الشاعر على شكوى الزّمان والإخوان ، وعلى جكم ونصائح تصلح لأن تكون دستوراً أدبياً واجتماعياً . افتتحها بقوله :

أصالةُ الرأي صانتي عن الخطيِّ وحليّةُ الفضل زانتي لدى العَظَلِ  
وهو في هذه القصيدة رجل الثورة النفسية الفوّارة التي تهاجم الدهر والحظّ  
وتزدرى الناس على أنهم جماعة إفك وكذب ، ورجل العتفوان الذي يأبى الدّلّ ويُنكر  
الحيانة ، ورجل الرأي الذي لا يرضى بالسلمة هدفاً للحياة ، ويدعو الى الانتقال ،  
والصبر على الشدّة ، ومحاذرة الناس ، والاعتماد على النفس . قال :

حبّ السلامة يُثني همّ صاحبه      عن المعالي ، ويُفري المرّة بالكسلِ  
إنّ العليّ حدّثني ، وهيّ صادقاً      في ما تَحدث ، أنّ العزّ في الثقلِ  
أعليلُ النفس بالآمالِ أرقبها ،      ما أضيق العيشَ لولا فسحة الأملِ  
أعدى عدوك أدنى من وثقت به ،      فحاذر الناس ، وأصحبهم على دخولِ  
وإنما رجل الدنيا وواحدُها      من لا يَعْرِفُ في الدنيا على رجلِ

\*

### مصادر ومراجع

جرحي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية — القاهرة ١٩٣٠ .

سيد سويل : شعر الطبيعة — القاهرة ١٩٤٥

عبد الرحمن شكري . شعر مهيار الديلمي الرسالة ٧ ، ص ١٠٠ ١٠٣

شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي — القاهرة ١٩٣٥ .

١ أصالة الرأي . حودته . الخطي : احتياطاً والإعوجاج : التعلل : الخلو من الزمة . يقول لي في  
أصالة الرأي م يعني عن الخطأ ومصاد المنطق ، ولي في ربه الفصل والأدب ما يوم عندي مقام المعنى والمناصب  
الربعة .

٢ على دخل أي على مكر

## الوَأَوَاءُ الدِّمَشْقِيُّ - أبو الفرج البَغَاء - أبو العباس النّائِجِي ابنُ نَبَاتَةَ السَّعْدِيِّ - صَرِيحُ الدِّلاءِ

أ - الوَأَوَاءُ الدِّمَشْقِيُّ (٣٩٠هـ / ٩٩٩م)

هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي . كان منادياً في دار البطيخ بدمشق يُنادي على القواكه وينظم الشعر ، ثم اشتهر بشعره فانضمَّ إلى بلاط سيف الدولة بحلب وحضر فيه مجالس الأدب . وقد توفي سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م . وله ديوان صغير لا يزال مخطوطاً وأكثره في الغزل والوصف والخمر . وشعر الوأواء شعر الصفاء ، والأرواء ، والنعممة العاطفية والخيالية البعيدة عن كل تعقيد وتعسف . إنه شعر الجمال المركب تركيباً بدعياً وفنّاً وأناقة ، وهو شعر السلاسة والسهولة واللّوق . من ذلك قوله :

إِذَا اشْتَدَّ مَا أَلْقَى جَلَسْتُ حَذَاهُ      وَتَارُ الْهَوَى قَدْ أَضْرَمَتْ بَيْنَ أَوْصَالِي  
أَقْبِلْ مِنْ فِيهِ نَسِيمَ كَلَامِهِ      إِذَا مَرَّ بِي صَفْحاً بِأَفْوَاهِ آمَالِي

• • •

قَالَتْ وَقَدْ مَكَتْ فِينَا لَوَاحِظُهَا      لِمَ ذَا ؟ أَمَا لِقَتِيلِ الْحُبِّ مِنْ قَوْدِ  
وَأَسْبَلَتْ لَوْلَا مِنْ تَرْجَمٍ وَسَقَتْ      وَزْدَا ؟ وَعَصَتْ عَنِ الْعُنَابِ بِالْثَبِيدِ

• • •



ب أبو الفرج البَغَاء (٣٩٨هـ / ١٠٠٧م)

هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الخزومي الملقب بالبَغَاء للثغة في لسانه. أصله من نصيبين بالعراق. اتصل بسيف الدولة، وعندما توفي الأمير انتقل إلى الموصل وبغداد وتوفي. أكثر شعره في الغزل والحمر والزهر؛ وهو من أرباب الصَّنَاعَة والتمنيق.

جـ أبو العباس النامي (٣٩٩هـ / ١٠٠٨م)

هو أبو العباس أحمد بن محمد الدَّارِمِي المعروف بالنامي وهو من شعراء البلاط الحمداني، ومن خصوم المتنبّي له معه وقائع، وكان من خواصّ مُنَاح سيف الدولة بن حَمْدَان، وكان عنده بُدُو أَبِي الطَّيِّب المتنبّي في المنزلة والرّتبة. قال ابن خلكان: «وكان (النامي) فاضلاً أديباً بارعاً، عارفاً باللغة والأدب، وله أموالٌ أملاها بحلب روى فيها عن الأخفش وابن درستويه...» توفي سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م.

د ابن بُنَاءَة السَّعْدِي (٤٠٥هـ / ١٠١٤م)

هو أبو نصر عبد العزيز بن عُمَر بن سَعْد من تميم. نشأ في بغداد وتحوّل في البلاد، ومدح الملوك والرؤساء ولا سبّاً سيف الدولة أمير حلب، وابن العميد، وعضد اللولة البُوَيْهِي. وقد توفي ببغداد سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م. قال بمدح سيف الدولة من قصيدة:

لَمْ يَنْتِ جُودُكَ لِي شَيْئاً أَوْمَلُهُ تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ

هـ صَرِيحُ الدَّلَاء (٤١٢هـ / ١٠٢١م)

هو أبو الحسن علي بن عبد الواحد ويُعرف «بصرع الدَّلَاء» و«قتيل الغواني»، أشهر ما له قصيدة مُجَوِّتة مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد، قال فيها:

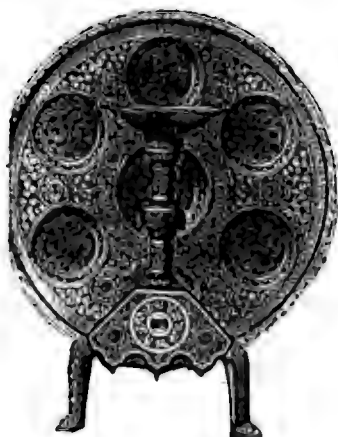
مَنْ لَمْ يَرِدْ أَنْ تَنْقَبَ نَعَالُهُ      يَحْجِلُهَا فِي كَفِّهِ إِذَا مَشَى  
وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصُودَ رَجُلُهُ      فَلَسَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَفَا..  
مَنْ طَبَخَ أَلَدِيكَ وَلَا يَذْبَحُهُ      طَارَ مِنَ الْقَبْرِ إِلَى حَيْثُ يَشَا!

## مصادر ومراجع

- ابن خلكان : وفيات الأعيان القاهرة ١٩٤٨ .  
 محمد بن شاكر بن أحمد : فوات الوفيات — القاهرة ١٩٥١ .  
 الثعالبي : نبتة الدهر  
 الرزكلي : الأعلام .  
 جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية طبعة دار الجيل بيروت ١٩٨٢ .



الباب الرابع  
الحركة الفكرية والعلمية والفنية



من زوايا العرب الأقدمين في الحفر والنقش والتصوير عن الجمال.

## أ - دوافعها :

١ - التمازج العربي والحضاري . أبقظ العقل العربي على وجوب الانفتاح الثقافي والمشاركة في شتى النشاطات العلمية والفنية .

٢ - تعطش العقل العربي إلى المعرفة ، وقابلية العرب للاستيعاب والتجديد والاستقصاء .

٣ - تشجيع الخلفاء والوزراء والأمراء ، ولا سيما أبي جعفر المنصور الذي أسس بغداد وحملها وورثة أئمة والأُسكندرية ، والمأمون الذي أنشأ بيت الحكمة (٨٣٢م) وجمع فيها الثقلنة برئاسة يوحنا بن ماسويه ، ثم برئاسة خنثين بن اسحق (٨٧٧م) .

٤ - المدارس الكبرى التي كانت تغذي العقل الشرقي بعلوم الأوائل ، أعني مدارس الهند ، ونصيبين ، وجنديسابور ، وخرّان . وقد أسهمت حرّان إسهاماً واسعاً وخصباً في الحركة الفكرية والعلمية عند العرب ، وكان لبعض علمائها الفضل في ترجمة الآثار اليونانية ، إلى اللغة العربية ، ومن أساتذة مدرسة حرّان الذين انتقلوا إلى بغداد ثابت بن قرة ، وقسطا بن لوقا ، المترجمان الشهيران .

٥ - التوجهات أحدثت في العالم العربي انقلاباً مكرياً وثقافياً ولغوياً منقطع النظير ، فالعرب في صدر الإسلام وفي العهد الأموي لم يكونوا يُعَنون إلا بالعلوم القرآنية وما نشأ حول القرآن من علوم ، أي الفقه والكلام والحديث واللغة ، أمّا العلوم الدخيلة ، أعني الطبّ والهيئة والهندسة والرياضيات والطبيعات والكيمياء والموسيقى والفلسفة بفروعها المختلفة ، فلم يكن لها نصيب وافر عندهم ، بل كان أكثرها مجهولاً لديهم ؛ ولم تزدهر تلك العلوم في العالم العربي إلا بفضل التوجهات والمترجمين .

## ٢ - مظاهرها :

ظهر أثر التوجهات والاحتكاك العربي والحضاري في شتى النشاطات الفكرية عند العرب ، ففي حقل الدين ظهرت الفِرَق المختلفة التي تسَلّحت بسلّاح المنطق والفلسفة للدفاع عن مذاهبها ، واحتلّ العقل مقاماً رفيعاً ، فتوَدّي به حكماً ، وتوَدّي به نبياً ، وفي حقل الأدب ظهر الأثر الفارسي والهندي عند ابن المقفع وغيره من الأدباء ، وظهر الأثر

انتازجي" في كتب الجاحظ ، وحاول بعض الشعراء معالجة موضوعات جديدة ، وفي حقل اللغة أثر المنطق في النحو ولا يما عند البصريين الذين سُموا «أهل المنطق» ، وعرفت اللغة أساليب جديدة وألفاظاً جديدة مكنتها من استيعاب الحضرة الجديدة

١ - علوم اللغة :

• في النحوية . اللغة مرآة أحوال الأمة ، وسجل حياتها في شتى نزعاتها وتقلباتها . وقد توحّدت هجاتها ، وتهذّبت ألفاظها ولانت أساليبها واتسع نطاق معجمها في العهد الإسلامي ؛ وحرص العرب على تقيتها من طمطانية الداخلين عليها لكونها لغة الدين والسياسة المسيطرة ؛ ولما كان العهد العباسي يمد فيه من طغيان سيل الأعاجم والأترك وغيرهم ، فشا اللحنُ فشواً شديداً ، فهبّ ذوو الغيرة والحرص ، أياً كان أصلهم ، يتعاونون على حفظ العربية خالصة من كلّ شائبة . وراحوا يضعون المعاجم العامة المرتبة على حروف اهجاء ، ويضبطون الألفاظ ويدوّنون المفردات ، فوضع الخليل بن أحمد (٧١٨ - ٧٨٦) كتاب «العين»<sup>١</sup> ، ووضع أبو العباس المبرّد (٨٢٥ - ٨٩٨) كتاب «الكامل» ، وابن فُريد (٨٣٧ - ٩٣٣) كتاب «الجمهرة» ، والأزهري (٨٩٥ - ٩٨٠) كتاب «التهذيب» ، والجوهري (١٠٠٥) كتاب «الصحاح» . والزّمخشري (١٠٧ - ١١٤٤) كتاب «أساس البلاغة»...

• في النحو : ورأى العلماء ضرورة في معالجة النحو وتعميمه والتدقيق فيه ، وفي معالجة البلاغة العربية ، فصرفوا همّهم ، بعد فراغهم من جمع شتات الألفاظ وضبطها في المعاجم ، أو في أثناء ذلك العمل الشاق ، الى ضبط القواعد النحوية ، وقد نشب في ذلك نزاع بين البصرة والكوفة ، ولا سيما وقد انتشرت أساليب المنطق الأرسطوطاليسي ومذاهب الجدل التي راجت بين الفرق الكلامية<sup>٢</sup> وكان لكلّ من البصرة والكوفة في النحو مدرسة وآراء ، أما البصريون فأهل منطق وقياس ، والبادية

١ - سببه كذلك لأنه بحرف العين مراعيّاً في ترتيبه محارح الحروف وأقصاه الحلق واللسان والألسان

فالشعبان .

٢ - علم لكلام هو علم القواعد الشرعية المكتسة عن الأدلة . نشأ تفسير الآيات القرآنية ، وقد تعددت فيه الفرق منها المعتزلة ، والأشعرية .

حولهم عامرة بالأعراب الفصحاء يأخذون عنهم الصحيح وينذون الفاسد الضعيف ؛ وأما أهل الكوفة فمحجهم كلام الأعراب ، ولكنهم دون أهل البصرة مقدرة على التحليل ؛ وهكذا كان الأولون أهل عقل يقدمونه على النقل ، وكان الآخرون أهل نقل يقدمونه على العقل ، جرياً مع التيارات الفكرية الشائعة . واشتهر من علماء البصرة سيّوياً (٧٩٦) ، ومن علماء الكوفة الكسائي (٨٠٤) .

• في البيان والعروض . وكذلك اهتم العلماء البلاغة العربية ، فكان من ذلك ما نسميه علوم البلاغة أي المعاني ، والبيان ، والبدیع ، والعروض ؛ فوضع أبو عبيدة (٨٢٤) «مجاز القرآن» ، ووضع الجرجاني (١٠٨٠) «أسرار البلاغة» في البيان ، و«دلائل الإعجاز» في المعاني ، ووضع ابن المعتز (٩٠٨) كتاب «البدیع» وجمع منه سبعة عشر نوعاً ، وعالج الخليل بن أحمد أوزان الشعر وحصرها في خمسة عشر وزناً أو مجراً أضاف إليها الأخفش مجراً سادساً عشر .

• تطور اللغة : والجدير بالذكر أنّ اللغة لم تقف جامدة أمام التيارات الجديدة ، وهي أداة التعبير والأداء عن شتى نواحي الحياة . فقد اتسع نطاق الحياة اتساعاً مدهشاً ، وتنوّعت المظاهر الحيّاتيّة تنوّعاً عجيّباً ، وكان السبيل للغة ، حتى تستوعب كلّ ذلك وتكون مرآة له ، أن تمتدّ عن طريقين : طريق الاشتقاق ، وطريق التعريب ، فسلكت الطريقتين سلوكاً جيّداً ، وقد دلّ العرب في عملهم هذا على أنهم كانوا جديرين حقاً بهذه المدينة ، فإنهم لم يقفوا جامدين ولم يقبلوا كلّ ما جاءهم من اللغات الأخرى على حاله ، ولكنهم عرفوا أنّ في الجمود حرماناً من الفائدة ، وفي الإباحة المطلقة جناية على اللغة ، فما كان في لغتهم له لفظ آثروه في الغالب على اللفظ الأجنبي وما لم يملوه في لغتهم أخذوه ، فهذبوا حواشيه وأخضعوه في الغالب لأوزان لغتهم ، وغيروا من حروفه ما لا يستطيعون النطق به ، فيخرج اللفظ بعد ذلك سائفاً سهلاً ، وتستفيد اللغة غنى بهذا الجليد عليها . وهكذا أخذوا من الفارسية بعض أسماء الأطعمة والنبات والأزهار ، وبعض مصطلحات العلوم والموسيقى (سِكْجَاج<sup>١</sup> ، نِبرشت<sup>٢</sup> ،

١ - السِكْجَاج : مرق يعمل من اللحم والحل .

٢ - النِبرشت : البيض الذي يشوى بعض الشيء

سَبُوسَجْ<sup>١</sup>، جُلنار<sup>٢</sup>، نُوت، بُستان، مينجاب، زَيْق، بَرِيط<sup>٣</sup>). وأخذوا من اليونانية مصطلحات الفلسفة والمنطق والطب (فيلسوف<sup>٤</sup>)... وهكذا تقلّمت علوم اللغة وازدادت ثروتها اللفظية بفضل التمازج العنصري والثقافي<sup>٥</sup>، وقد برهن علماء العرب في ذلك العصر عن تعلّمهم باللغة، وحرصهم على صفائها، كما برهنوا عن حسن تفهّمهم لحقيقة اللغة على أنها أداة لا بُدّ لها من مماشاة الحياة في تطوّرها وشتّى تقلّباتها.

## ٢ - العلوم الدينية :

- التفسير: اشتهر فيه ابن جرير الطبري (٩٢٣) صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن».

- الحديث: من علمائه محمد البخاري (٨٧٠) صاحب «صحيح البخاري»؛ وأبو الحجاج مُسلم بن الحسن القشيري (٨٧٥) صاحب «صحيح مُسلم».

- الفقه: اشتهر فيه الأئمة الأربعة أبو حنيفة (٧٦٧)، ومالك بن أنس (٧٩٥)، والشافعي (٨١٩)، وابن حنبل (٨٥٥).

علم الكلام: تعدّدت فِرَقُه ومن أشهرها المعتزلة والأشعرية.

- التصوف: وهو الاتصال بالحقائق الإلهية عن طريق الرياضة والتجربة — كان من أساطينه الخلاج (٩٢٢) وعبيد الدين ابن عربي (١١٤٨).

١ - السبوسج: الرقّ ثقل (امنيوسك).

٢ - الجُلنار: زهر الرمان.

٣ - البريط: العود، ومعناه بافارسية صدر لبط.

٤ - الفيلسوف: محبّ الحكمة.

٥ - لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن التعريب كان واسع النطاق، وقد وضع فيه أبو منصور الخوارزمي (١١٤٤) كتابه «المغرب»، ووضع الخفاجي (١٦٥٨) كتابه «شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدجيل».

## ٣ العلوم الفلسفية :

أكبُّ العرب على  
فلسفة اليونان ، وتدارسوا  
المذاهب المختلفة ولاسيما  
منهْجَي أفلاطون  
وأرسطو ، وعملوا على  
التوفيق بين الفلسفة  
والدين ، واشتهر منهم أبو  
سيف يعقوب الكِنْدِي  
(٨٧٣) ، وأبو نصر  
الفارابي (٩٥١) ،  
والشيخ الرئيس ابن سينا  
(١٠٣٧) ، وحجَّة  
الإسلام أبو حامد الغزالي  
(١١١١) ، وإخوان  
الصفاء (القرن ١٠) .



رسائل اخوان الصفاء . جماعة من الاخوان وطالبي المعرفة  
عن مخطوطة من القرن ١٣ مكتبة «اسليمانية» باستنبول.

## ٤ الكيمياء والصيدلة :

كان للعرب نصيب وافر في تقدُّم الكيمياء والصيدلة . ففي الكيمياء أوجدوا طرق  
التقطير والترشيح والتكليس والتحويل والتبخير والتصعيد والتلويب والتبلور ، وهم  
الذين اكتشفوا الكحول والقويات والشادروتترات الفضة والراسب الأحمر والبورق  
وحامض الطرطير وخلافها . — وقد اشتهر في هذا العلم جابر بن حيان (٨١٥) .

— أما علم الصيدلة فالعرب مؤسسوه ، وقد استعانوا بكتب بقراط وجالينوس  
اليونانيين ، واستخرجوا العقاقير ، وبرعوا في معرفة الأدوية سواء كانت من أصل نباتي  
أو من أصل حيواني أو معدني .



## ٥- الطب:

أسهم العرب في تقدّم الطب والعلوم التابعة له إسهاماً واسعاً، ورجعوا في دراساتهم الطبية إلى اليونان والسرّيان والفرس والهنود، وتركوا موسوعات ترجمت كلّها إلى اللاتينية منها «القانون» لأبن سينا، و«الحاوي» لأبي بكر الرّازي (٩٢٥).

واهتم العرب لاستخراج العقاقير الطبية حملهم على دراسة النبات والحيوان، وكان الجاحظ من أشهر من كتب في الحيوان لذلك العهد.

## ٦- العلوم الرياضية:

عنى العرب بالرياضيات وفروعها المختلفة وقد أخذوا الكثير عن اقليدس

وفيثاغورس وعن الهنود والفرس والبابليين والمصريين وأضافوا إلى كلّ ذلك إضافات مهمة.

— الأعداد: تعمّق العرب في دراسة خواصّ الأعداد وتوصلوا إلى معرفة المتواليات الحسابية وقوانين جمعها وما إلى ذلك، وهم أول من أدخل إلى الغرب الأرقام العربية المستعملة اليوم.



←

رسائل ابن خلدون الصفاء: الكاتب

(عن المخطوطة نفسها)

الهندسة : أوجد علم الجبر الخوارزمي (٨٤٤) صاحب كتاب «في الجبر والمقابلة» .  
ولعل أهمّ ابتكارات رياضيي العرب أنهم وضعوا الأسس للهندسة التحليلية لأنهم أول  
من استخدم الجبر لحلّ بعض المسائل الهندسية ، والهندسة لحلّ بعض الأعمال الجبرية .  
وقد أجاد العرب في الهندسة وعندهم أخذها الغربيون .

#### ٧ - الفلك أو علم الهيئة .

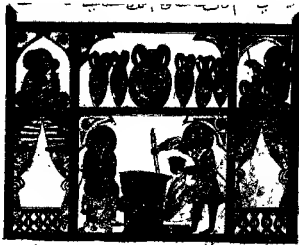
- أخذ العرب معلوماتهم في الفلك عن الفنود واليونان ، ولاسيما ما وجدوه في  
كتاب «السند هند» الكبير ، وكتاب «المجسطي» لبطليموس . ولم يكتفوا بالنقل بل  
صحّحوا الخطأ ، وأضافوا الشيء الكثير .

- بنوا المراصد الكبيرة واخترعوا آلات دقيقة أشهرها الأسطرلاب .

- العرب أول من عرفوا  
أصول الرسم على سطح  
الكرة ، وقالوا باستدارة  
الأرض ودورانها على  
محورها ، وقد أثبتوا انحناء  
الكسوف وميل فلك البروج ،  
كما ضبطوا تقويم الوقت ...  
ومن مشاهير هذا العلم أبو  
عبدالله البتاني (٩٢٩)  
وموسى بن شاكر وأولاده  
(القرن العاشر) .



الرازي في عمله بقطر القاهرة .



الصيلة وقطير المقايير الطيبة عن معطوة من القرن ١٣  
(المتحف للثروبولوجيا في بيرلين)

#### ٨ - الجغرافية أو علم تخطيط الأرض :

- اعتمد العرب في هذا العلم على بطليموس وأضافوا الى معلوماته الشيء الكثير ، وقاموا بتحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية والرحلات .

اشتهر في هذا العلم اليعقوبي (٨٩٧) والمسعودي (٩٥٦) والمقلمي (٩٩٠) وابن خردادبه (٩١٣) .

#### ٩ - الطبيعيات :

اكتشف أرخميدس قوانين الثقل النوعي ، وقد تعمق العرب في الموضوع وتوصلوا الى تعيين الثقل النوعي لكثير من الأجسام الصلبة والسوائل ، والنتائج التي توصلوا اليها قريبة جداً مما توصل إليه العلم الحديث .

يُعتبر ابن الهيثم (١٠٣٨) من أكبر الطبيعيين في القرون الوسطى ، وهو أعظم



علم النبات . الكرمة — عن مخطوطة من القرن ١٠  
فيها ترجمة لكتاب ديسودوريس الطبيب اليوناني  
والثاني المشهور .  
(اسطنبول — مكتبة متحف توبكاني)



علم الطبيعيات :  
طبيعة العين — عن مخطوطة عربية  
من القرن ١٢  
(القاهرة . دار الكتب المصرية)

عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل هو من علماء البصريّات القليلين المشهورين في العالم ، ويُعتبر البيروني (١٠٤٨) من أعظم العقليّات التي عرفها التاريخ ، وله كتاب ضخّم في خواص عدد كبير من العناصر والجواهر . وله اكتشافات كثيرة في البصريّات والفلك والهندسة .

#### ١٠ الموسيقى والهندسة والنقش والرسم :

وانصرف العرب كذلك الى الفنون بعالجونها على أوسع نطاق ، وقد تركوا لنا آثاراً تشهد بما وصلوا اليه من رفيع الشأن . فتمتدح لمع نجم بني العباس أرادوا أن ينافسوا الأكسرة في ترفهم وبنخهم ، فراحوا يشيدون المدن والقصور ، وبيتون البرك ،

وينشئون البساتين؛ فشيد المنصور دار الخلافة المعروف بباب الذهب، وقصر الخلد، وقصر الرصافة؛ وشيد للعتصم قصر الرّيا وأنفق في بنائه أربع مئة ألف دينار؛ وأنشأ المقتدر دار الشجرة وفي بركتها شجرة من الذهب والفضة. قال المقاسي: «بنى (عتصم الدولة) بشيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلاً، ما دخلها عامي إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدللّ بها على نعمة الجنة وطيبها، خرق فيها الأنهر، ونصب عليها «قباب، وأحاطها بالبساتين والأشجار، وحفر فيها الحياض، وجمع فيها المرافق والعدد...».

ونقل العرب فيما نقلوا من العلوم  
كتباً في الموسيقى، فأصبح هذا الفن  
ذا أصولٍ وصوابٍ محكمة. وكانت  
الموسيقى العربية تجمع ما بين ألحان  
العرب واليونان والهنود والعرس؛  
وعمل العرب على استنباط ألحان  
جديدة وابتراع آلات حديثة،  
وتأليف كتب في الموضوع بلغوا فيها  
درجة سامية من الإتقان والبراعة.  
واشتهر من الموسيقيين إبراهيم الموصلي  
(٨٠٤) وابنه اسحاق (٨٥٠)، كما  
اشتهر الفارابي الذي ترك كتاباً ضخماً  
في الموضوع، درس فيه الألحان  
الموسيقية من وجهتي النظر والعمل.



→ في هذا الرسم ساعة على جيل - عن مخطوطة  
من القرن ١٣.

كتاب «معرفة الجبل المقدسية» لبيع الزمان  
اسماعيل الحروي، وضعه شعور بن أرق سنة  
١٢٠٥ وفيه تعليقات عن وضع الساعات.

«وتفنن العباسيون في الصناعات الجميلة من أنواع الخلي، والدقة في النسج، وزركشة الثياب وأنواع العطور والنقش والتصوير، وأصناف الأزياء...» وكان لهم من كل ذلك روائع تشهد بمهارتهم وذوقهم وعبقريتهم الخلاقة.

• • •

تلك لحظة خاطفة اجتزنا بها لانتساع نطاق الموضوع، وتعدد فروعه، واختلاف مظاهره. وهذه النمرة كافية للإشارة الى حقيقة تلك المدينة التي كان لها الأثر العميق في الحضارة العالمية، والى ما أسداه العرب في العهد العباسي للإنسانية من خدمة في حقل العلم تفوق كثير ما تركه أكثر الأمم عراقه وأطولها بأعاً<sup>٢</sup>.



١ - أحمد أمين، طهر الإسلام، ص ١٠٧.

٢ - ملخص عن كتابنا «تاريخ الفلسفة العربية ٢، ١٩ - ٥٩.

## مصادر ومراجع

جرل زلدن :

تارلخ التملذ الإسلامل ٣ صبة دار الللل بلروت ١٩٨١.

- تارلخ آداب اللغة العربية ٢ طعة دار الللل بلروت ١٩٨١

معم فربد الرفاعل : عصر المأمون ج ١ القاهرة

أحمد أمبل . ضلل الإسلام ١ - القاهرة .

عمد السلام الرعونل . البضة العلملة للعصر العلامل - الكلة العربلة (القدس) ١٦ : ١ و ٢ .

لأمبل مصطفى الشهابل : الأسلوب العلمل لى العرب والإسلام - المقتطف ٨٤ . ٢٨٥ .

قءرل حافظ طوفان .

- نواع العرب فل العلوم الرلاضلة - المقتطف ٨٣ : ٦١ و ١٧٠ .

. ثراث العرب العلمل فل الرلاضللات والفلك - القاهرة ١٩٤١

معم كراء علل : الثقل والثقله - ملقنس ١ : ٦١٦ . و ٤١٩

أمبل سعد لئلر الله : الطب العربل بلروت ١٩٤٦ .

عباس عموم المقاد : أثر العرب فل الحضارة الأورلة القاهرة ١٩٤٦

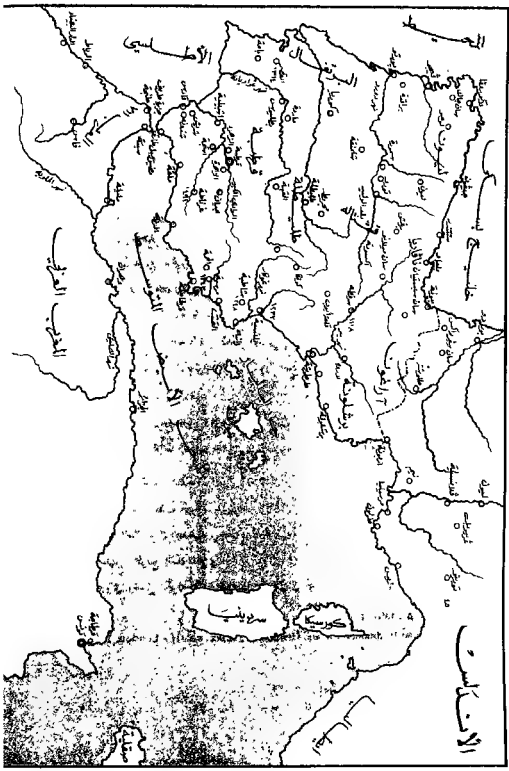
اساعبل مظهر . تارلخ الفكر العربل - القءرة ١٩٢٨ .

لما الفاءورل ولفلل لجر : تارلخ الفلسفة العربلة - الءر ٢ - بلروت ١٩٨٢ .

E. Browne: Introduction Medicine - Cambridge 1921.

G. Sarton: Introduction to the History of Science, vol II London, 1932

# الانسان





# الأدب العربي المولد

## الأدب في الأندلس والمغرب

### الأدب الأندلسي

- بيئة الأدب الأندلسي :

- البيئة السياسية والاجتماعية.

- النثر الأندلسي :

- نظرة عامة.
- الأدب والتقد.
- التوسل.
- التاريخ والجغرافية والرحلة.

الشعر الأندلسي :

- نظرة عامة
- الموشحات
- أشهر شعراء الأندلس :
- شعر التقليد.
- شعر الشخصية.
- شعر التحرر والإغراق في التجديد.

الحركة الفكرية والعلمية والفنية.



أقواس جامع قرطبة (حضارة العرب).

## الباب الأول

### بيئة الأدب الأندلسي

١ - البيئة السياسية . في نحو سنة ٧١٠م هاجم العرب شبه جزيرة إيبيرية يرمون فتحها ، فدخلها طارق بن زياد وأسس على قسم كبير منها دعي «أندلس» تولى على حكم الأندلس الأمويون ، لمولك الطوائف ، فالمرطون ، فالقوشون . بنو الأحمر وكان العهد الأخير عهد اضطرابات وفوضى .

٢ - البيئة الاجتماعية

أ - مدينة مردهرة أنشأ الأمراء والخلفاء في منطقة مديّة نشه مديّة دمشق ، وتنافس كبيراء حداد ، فكانت قرصية لؤلؤة الدنيا ، يندفع إليها الحير ، وتردهي بها القصور والمتنزهات . وفيها الجلع الكبير وهو من أقدم آثار الأندلس وأروعها . وكنت اشيلية أبرز موطن للإشعاع فكريّ والعمل السياسي ، وفيها القصور الشهيرة . وكانت غرناطة كالمشقة وفيها قصر الحمراء

ب - سيجروانافة . أصبحت الأندلس شيئاً فشيئاً ميداناً للتنافس في إنشاء المتنزهات والبرك والرماس الأنيقة ، وشاع الدرف في جميع مرافق الحياة كما شاع النظرف والتألق

ج - فكر وإيمان . وأصبحت الأندلس ميداناً تنمّش دعاب الحياة ، فضعت فيها الروح لدينية ، وشاعت بين الفلاسفة فكرة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وبين الدين والإباحية والجهون .

د - أدب وحياة : وثق الأدب في الأندلس فثراً واسعاً ، ولاعبا الشعر منه ، وكانت المرحلة الأولى مرحلة انتقال الأدب المغربي الى المغرب ، ثم أخذ التأثير الشرقي في التصاؤل وذلك منذ القرن احادي عشر الميلادي

## ١ البيئة السياسية :

١ فتح الأندلس : في نحو سنة ٩٢هـ / ٧١٠م اندفع العرب في موجة فتوحاتهم تسويهم بلاد طلالا استهوت الفاتحين والغزاة من قبلهم ، بلاد تقع في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية قد حباها الله طبيعة جميلة ، وتربة خصبة ، وسماء معتدلة الأجواء ، ونثرت فيها يد الفن على ممر العصور أبنية شاهدة ، وقصوراً رائعة ، وآيات بيّنت في الهندسة والزخرفة ، وقد سميت بالأمس أندلس وهي تسمى اليوم إسبانية .

ضمت بلاد أفريقية الشمالية بالعرب الفاتحين ، ولم يكن بينهم وبين إسبانية إلا فزرة فوق بحر الزقاق ، تحفر لها موسى ابن نصير ، واستأذن لها الوليد ، فسير مولاها طارق بن زياد ، على رأس جيش جزّار ، أكثره من برابرة المغرب ، فاندفع طارق كالعاصفة ، وتغلّب على لدرين في معركة وادي بكة سنة ٧١١م ، وراح يفتح بلداً إثر بلد ، وقد لحق به موسى بن نصير ، الى أن دوخ الملوك ، وأخضع العباد ، ورفع لواء بني أمية على كل جبل وفوق كل واد ، وإذا الأندلس إقليم من أقاليم الإمبراطورية العربية ، يحكمها ولادة من قبل بني أمية الى سنة ٧٥٥م . وقد انتشرت الفتن والاضطرابات في عهد الولاة ، وقام النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب من جهة ، وبين العرب والبرابرة من جهة أخرى .

٢ عهد بني أمية : وفي تلك الأثناء انتقل الحكم في الشرق من يد الأمويين الى يد بني العباس ، وقتك العباسيون ببني أمية فتكاً ذريعاً ، فنجوا من سيفهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وتوجّه شطر الأندلس ، ودخل قرطبة ، واستبد بالأمر سنة ٧٥٥م ، وجعل قرطبة عاصمةً للملك ، وبني فيها القصر والمسجد والجامع ، ونادى بنفسه أميراً للمؤمنين ، وكان عهد بني أمية في الأندلس عهد ازدهار ورفق وحضارة ، وقد امتد إلى سنة ١٠٣١م ، واشتهر فيه الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١م) صاحب الأفصال الكبيرة على العلم والعمران .

٣ ملوك الطوائف : ولما انهار عرش الأمويين في الأندلس حلّ محلّهم ملوك الطوائف وأشهرهم ينو عباد بأشبيلية (١٠٢٣ — ١٠٩١م) ، وبنو جهنم بقرطبة (١٠٣١ — ١٠٧٠م) ، وبنو عامر بشاطبة (١٠٢١ — ١٠٦٥م) ، وبنو هود



طارق بن زياد على رأس سفنه يهيم البحر إلى أسبانية.

سرسقطة (١٠٣٩ - ١١١٠ م) وبنو حمود بمالقة (١٠٣٥ - ١٠٥٧ م) وكان عهدهم عهد اضطراب وتشتت، وعهد قتل وحروب.

٤ عهد المرابطين: وفي سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م قامت دولة المرابطين، وهم من برابرة أفريقية الشمالية، مع عبد الله بن ياسين ثم يوسف بن تاشفين الذي ضم أطراف المغرب وأنقذ الأندلس من يد القونس السادس الذي كاد يستولي عليها، وقرب ما بين أهل المغرب والأندلس تحت ظل دولة واحدة.

٥ عهد الموحدين: ومرت الأندلس، بعد أصبح خلافة المرابطين، بفترة طوائف ثانية، هي صورة مضطربة للفترة الأولى، ثم حل الموحدين محلهم بعد أن استتب لهم الأمر في مراكش، وكان ذلك سنة ١١٤٦ م على يد محمد بن تومرت من جبل السوس في المغرب، وقد بايعه الناس على أنه المهدي المنتظر.

٦ عهد بني الأحمر: وامتد عهد الموحدين إلى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وقد ثار في وجههم محمد بن يوسف بن هود أحد أمراء العرب، ودحروهم من الأندلس إلى



منظر الكathedrale في جنيف

المغرب ، ثم ثار في وجه ابن هود أحد أمراء بني الأحمر ، وأسّس دولة بني الأحمر في غرناطة ، فامتدّ عهدها إلى سنة ٨٩٧ - ١٤٩٢ م وكان عهد اضطرابات وفوضى أذت شيئاً فشيئاً إلى أقول شمس العرب عن إسبانية .

## ٢ - البيئة الاجتماعية :

١ - قصور وجنات : يقع شبه الجزيرة الإيبيرية موقعاً فريداً بين القارتين الأوروبية والأفريقية ، ويمتدّ بين الجبال والبحار في أرهى ما تكون الآفاق وأخصب ما تكون البقاع ، نزلها العرب أولاً نزول الفاتحين ، وكانت المرحلة الأولى مرحلة غزو واستيلاء . ثمّ كان العهد الأموي ، واطمأنت البلاد إلى جيش يحمي برّها وبحرها ، فراح الأمراء والحلماء ينشئون في قرطبة مدينة تشبه مدينة دمشق ، وتنافس كبرياء بغداد .

أما اشيلية فقد احتلت مركز قرطبة منذ القرن الحادي عشر وأصبحت أبرز موطن للإشعاع الفكري والعمل السياسي .

وأما غرناطة فقد ازدهرت في عهد ملوك الطوائف ، واتخذها محمد الغالب (١٢٣٢ - ١٢٧٣) مقرّ حكومته . شَبَّهها العرب بدمشق فزُيِّلها الكثيرون من أهل الشام واليهود ، وشبَّهوا مرجها «الفيكاه» بنوطة دمشق لالتفاف دوحه وكثرة أعشابه .

٢ - متنزهات ساحرة . وإلى جنب القصور والأبنية الفخمة ، وإلى جنب الزُخْرُفة البالغة ، نجد في الأندلس عدداً كبيراً من البُرك والرياض الأنيقة ، والأودية المتحوّلة إلى متنزهات ساحرة ؛ فهناك وادي الطَّلح ووادي العروس قرب اشيلية ؛ وهنالك حوَر المُرْمَل ينشر أغصانه المرتجفة مع امتداد الغدير ، وهنالك السدود والتّوابع والمُوارات المتألّقة بألف ضوء وألف مصباح ؛ وهنالك القناطر التي تتزاحم المياه على أقدامها منشدة أنشودة الرّخاء والهنا ؛ وهنالك ألف لون من ألوان الحياة المترقة النّاعمة . وهكذا فالأندلس أصبحت ميداناً واسعاً للعيش الرّخيّ مع ما اعتور البلاد من فتن واضطراباتٍ سياسية . وكثيراً ما رأى النّاس فيها جنة نعيمهم دون جنة النّعيم حتى قال ابن خفاجة :

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسِ اللَّهُ دَرَكُكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْحَارٌ  
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ وَهَذِهِ كُنْتُ، لَوْ خَيْرْتُ، أُنْخَرْتُ

٣ تطوّف وثائق قال هنري بيريس: «لئن كانت ميزة الحضارة والرفق انتشار الأشياء الثمينة وكثرة استعمال الأواني والأدوات النادرة فإنّ الأندلس بلغت في القرن الحادي عشر قمة الازدهار، فقد شاع الترف في ذلك العهد شيوعاً لا حد له. «أجل شاع الترف في جميع مرافق الحياة كما شاع التطرف والتائق. وحذق الأندلسيون صناعة النسيج النفيس، وكانت قرطبة والمرية من أهم مراكز الحياكة. وحدقوا كذلك معالجة الحجارة الكريمة فاستعملوها لزيّتهم وتزيين أثاثهم، فتألقت في الأذان أقرصاً وعلى النجور قلائد وعقوداً، وفي المعاصم أساور، وفي الأنامل خواتم، وقد بالغوا في ذلك لوفرة الجواهر عندهم.

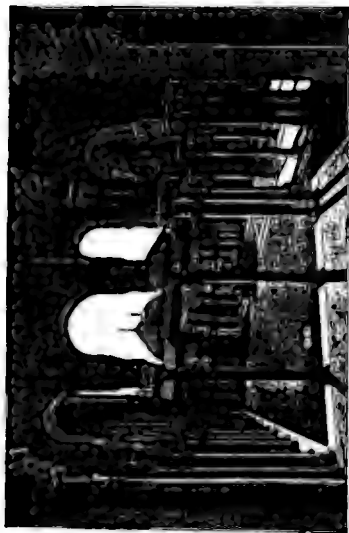
٤ - موسيقى وغناء وإن حياة كهده لا تقوم إلا في جو حافل بالموسيقى ووسائل الطرب. وكلّ شيء في الأندلس جمالاً وموسيقى، وكلّ شيء فنية وغناء.

انتقلت الموسيقى مع العرب إلى الأندلس. وكان زرياب خير من مثل ذلك الانتقال. وقد أنشأ مدرسة غدت معهداً كبيراً للموسيقى الأندلسية، ثم تبعها مدارس أخرى في اشبيلية وطبيلة وبلسية وغرناطة. «ويتلو زرياب مرتبة أبو القاسم عباس بن فرناس (٨٨٨) وإليه يُعزى الفضل الأكبر في إدخال الموسيقى الشرقية إلى إسبانية وتعليمها».

وهكذا انتشرت الموسيقى في الأندلس انتشاراً واسعاً، ولا يستبعد هنري بيريس أن يكون الأندلسيون قد توصّلوا إلى معرفة سرّ «الهرمونية» الموسيقية<sup>١</sup>. وكان للألحان سلطان شديد على قلوبهم حتى قال ابن عبد ربه في الموسيقى: «هي الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وبيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكعب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب... وقد يتوصّل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة، فمن

١ - ميب حنّ: تاريخ العرب - الجزء ٣، ص ٧٠٩ - ٧١٠. ... ويقول ابن عباس بن فرناس هو أول من استنطق في الأندلس صناعة الأرجاح من الحجارة، و به صبح آلة في منزله على هيئة السمكة مجلّ لتناظر فيها أنه يرى النجوم والسموم والورق. وكان أول رجل حاول الطيران بطريقة علمية (طابع القرني، الجزء ٢، ص ٣٥٤)





صورة من داخل المكتبة الوطنية في القاهرة

ذلك أنها تبحث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم ، والذب عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب . وقد يبيكي الرجل بها على خطيئته ، ويرقق القلب من قسوته ، ويتذكر نعم الملكوت ويمثله في ضميره .

٥ كهر وإيمان . والحياة إذا تمددت في مثل هذا الترف والرخاء تصبح شديدة الالتصاق بالمادة والحس وتبتعد عن موارد الروح ، وعن التطلع الى المثل العليا . ومما لا شك فيه أن الروح الدينية ضعفت في الأندلس ولاسيما في القرن الحادي عشر ، وأصبحت نفسية الأندلسي نفسية من لا يؤمن عملياً بغير الوجود الحسي ، ولا سيما بعد أن أطلق ملوك الطوائف حرية الدراسات العلمية ، وبعد أن شاع التحرر الفلسفي . ولكن شهدت الأندلس بعض التشديد أحياناً من قبل الحكام ويزيد من رجال الدين وأهل التزمّت فإنها كانت في أكثر الأحيان مجالاً واسعاً للتادي في المحرمات والإغفال في الموبقات . وكما شاعت عند الفلاسفة فكرة التوفيق بين الدين والفلسفة ، شاعت عند طلاب الملاهي — وما أكثرهم ! — فكرة التوفيق بين الدين والإباحية والمجون . إلا أن الشك الذي سيطر على النفس الأندلسية لم يكن من العمق بحيث يهدم صرح الإيمان والعقيدة ، ولم يكن من العنف بحيث يخلق الأزمات الجارفة . فالنفس الأندلسية مؤمنة في قرايرها ، وإنها ، وإن انغمست في أطياب الحياة ، تعاني آلاماً مبرحة . قال هنري بيرس : « إننا إذا أنعمنا النظر في النفس الأندلسية نجد أنها تنطوي على قلق وكآبة أمام حقيقة الحياة . والأندلسي عاجز عن أن ينعم بملء السعادة في حياة حبه وفي شتى علاقاته بأبناء مجتمعه<sup>٢</sup> . فالحياة حافلة بالأحزان ، وشقاء الإنسان في رغباته وكثرة آماله ، إلا أن الآلام والشدائد لا تقود الأندلسي الى اليأس . فهو يصبر مهما اشتد شقاؤه ، وهو ينظر الى الموت أخيراً نظرة إيمان تجلو القلق وتوضح المعالم .

٦ - ثقافة وعلم وأدب . وهذه الحياة الصاخبة في فنونها ، المضطربة في تقلبات سياستها ، الغريبة في شكها وإيمانها ، هذه الحياة نفسها كانت تنفساً فكرياً وأدبياً جليل الشأن بعيد الأثر . فقد راجعت الثقافة في الأندلس وعززها الحكام ، وعملوا على إنشاء

المعاهد العلمية في المدن والقرى ، وساعدوا على نقل ما صُنِّفَ في الشرق العباسي ونشره في الغرب .

وفشا الأدب في الأندلس فشواً واسعاً ، ولا سيما الشعر منه ، لأنه كان مع الموسيقى والحضر الفسيفسائي من أشدّ وسائل التنفّس الحيّاتي والحضاري . والجدير بالذكر أنّ المرحلة الأولى للأدب العربي في الأندلس هي مرحلة انتقال الأدب الشرقي الى المغرب في غير تبديل ولا تعديل ، فالأغراض هي هي ، والأساليب هي هي وذلك أنّ الأديباء الأوّلين هم من ولدوا ونشأوا في المشرق ثم انتقلوا الى الأندلس مع الفاتحين أو بعد ذلك بقليل ، ولم يتم لهم أن يمتزجوا بشعب البلاد الأصيل . ثم إن الحكام الأوّلين للبلاد ، ولا سيما الأمويّون منهم ، كانوا شديدي التطلّع الى الشرق لمنافسة بني العبّاس في بغداد ، وكانوا في تطلّعهم هذا يُشجّعون على تقليد المشاركة في أدبهم . أصف الى ذلك أنّ الثقافة الأدبيّة في الأندلس كانت في معظمها استيحاءاً لأدب المشرق ، وأن رُسل الثقافة المشرقية كانوا من أشدّ عوامل التأثير المشرقي . وكان خلفاء قرطبة يعملون على استخدام أرباب العلم والأدب من بغداد والحجاز كأبي علي القالي وصاعد اللغوي ، وأبي محمّد العذريّ الحجازي الذي كان في بلاط أمير اشبيلية ابراهيم بن حجاج . وللقيان والمغنيّات فضل كبير على نشر الأدب المشرقي ، وقد ابتاع أمراء الأندلس وحكّامها عدداً كبيراً منهم ، ونقلوهم إليهم من بغداد والمدينة وغيرهما من الحواضر . وفي «نفع الطيب» للمحقري أسماء المشهورات منهم كالعجّفاء ، وفضل ، وعلم ، وقلم ، وقمر . وإنّ نسّ لا ننسّ زدياب وأبنته عليّه وحمدونة ، وجاريتيه غزلان وهنيدة ، وغلامه منّعة الذين حملوا الى الأندلس أروع الألحان وأجمل الشعر<sup>١</sup>

ولكنّ هذا التأثير الشرقي أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً منذ القرن الحادي عشر . وإن لم يتلاش تلاشياً تاماً . وذلك لتنبوغ عدد كبير من أبناء الأندلس في الأدب والشعر والموسيقى ، ولتفوق البلاطات الأندلسيّة على بلاطات المدن الشرقيّة في بعض نواحي التأثير والتشرف .

١ - طالع : « طرق الحجة » لابن حرم ، ص ٢٦ - ٢٧ .

٢ - طالع ونظرات ، لكامل كيلاني ، ص ١١٢ - ١٢١ ، و

## مصادر ومراجع

- حسين مؤنس: لجزر الأندلس القاهرة ١٩٥٥ .
- يوسف أشباح: تاريخ الأندلس عرب محمد عبدالله عناد — الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٨ .
- بيب خني: تاريخ العرب — مطول الجزء ٣ .
- محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس — القاهرة ١٩٥٨ .
- علي محمود حمودة: تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي — القاهرة ١٩٥٧ .
- عمر رضا كحالة: العالم الإسلامي — الجزء ٢ — دمشق ١٩٥٨ .
- المفري: فتح الطيب — الجزء الأول .
- ابن مغلطون: مقدمة طبعة دار الكتاب اللبناني — بيروت ١٩٥٦ .
- ابن عذري المراكشي: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب — طبعة دوري وبروفنسال — لندن ١٩٥١ ١٩٥٢
- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي — بيروت ١٩٦٠ .

E. Lévi - Provençal, La Civilisation arabe en Espagne, Paris 1948.

H. Pérès, La Poésie Andalousie en arabe classique, Paris 1937.

G. Pillement, Palais et Châteaux arabes d'Andalousie, Paris 1951.

R. Dozy, Recherches sur l'histoire de la littérature de l'Espagne, Paris 1821.



## الباب الثاني النثر الأندلسي

### الفصل الأول نظرة عامة

- ١ - أطوار النثر الأندلسي. كان النثر في المرحلة الأولى مقصوراً على الخطب والرسائل، ثم توسعت أغراضه واتزق شيئاً فشيئاً إلى الزخرفة والصناعة اللغوية.
- ٢ - الخطابة: كانت في المرحلة الأولى جزءاً، فصيحة، مقتضبة، تجري مع الطبع؛ ثم تنوعت أغراضها وتسرّب إليها السجع والتمنيق، ثم انحطت منزلتها وأصبحت بلا ماء ولا رواء.
- ٣ - التوسل: كان في يده أمره ذا أغراض عديدة، ومعانٍ جليلة، وأسود موجز حالٍ من الزخرفة، ثم أصبح فناً مستقلاً، وكثرت أغراضه، وتنوعت أساليبه، وكان منه التوسل الديواني، والتوسل الأدبي، وبتوى الأدبي على الاختراعات، والمناظرات، والمناقشات، والقصص الخيالي، والمقامات، والوصف لشئى ظاهرت الوجود.
- وشاعت الصناعة اللغوية شيئاً فشيئاً فانتقل النثر من الرقة والطف إلى الإسهاب السهل والسجع المتكلف.
- ٤ - التصنيف: ازدهرت حركة التصنيف بعد أن اندلقت على الأندلس هبّة المشرق العباسي. فكان «المقد العريد» لابن عبد ربّه، و«الدعوة» لاس بسمّ و«غلاذ الغيان» لابن خاقان، و«التوايح والتوايح» لابن شهيد.

#### ١ - أطوار النثر الأندلسي:

تطوّر النثر في الأندلس كما تطوّر في المشرق العباسي، وتناول من الأغراض والفنون ما عهدناه في المشرق من خطابة وتوسل وتصنيف.

١ - أما الأطوار التي مرّ بها النثر الأندلسي فهي ثلاثة: ففي صدر الفتح وأول العهد الأموي كان هذا النوع من الأدب مقصوراً على الخطب والرسائل لأن أصحابه

الوافدين من الشرق ساروا في بيثهم الجديدة على التقاليد التي ورثوها من الوطن الذي نزحوا عنه. ولم يكن الشرق يعرف آنذاك من مظاهر النثر سوى عظات تحمل الناس على القيام بفرائض الدين، وأقوال تُدكي الحاسة في صدور المجاهدين، وتقطع دابر الشقاق والفئة والتهديد والوعيد، ورسائل يتبادلها الحكّام والعمّال ويظهرون فيها ضروباً من الفن والبراعة.

٢ - وما إن هبّت ريح الثقافة في الأندلس، وراح الخليفة الناصر وابنه الحكم وملوك الطوائف يتبارون في إنشاء المدارس والمكاتب، ويرسلون البعثات الى الشرق لتأثيرهم بآثار نضوجه الأدبي والعلمي، وتُحفّهم بمصنّفات كتابه وشعرائه، ويتنافسون في اسناد مناصب الوزارة الى أصحاب الخلق والمهارة في الترسّل، حتى أصبح النثر وله المقام السامي في عيون الأمراء، يتعاطاه الأدباء ويفتّون في أغراضه وألفاظه، ويسلطون فيه المقالات الضافية، ويطمعون في لقب الكاتب كما يطمعون في لقب الخطيب والشاعر، فنهض هذا الفن نهضة محمودّة واشتهر كتاب مجيدون.

٣ - ولما تقلّد المغاربة، من موحّدين ومُرابطين، زمام الحكم في الأندلس كان النثر قد بلغ أوجه فبدأت تدبّ فيه عوامل الإحطاط، وتلدوي نضارته تحت زعزعة التصنع اللفظي المقيت، ونحت نار القِتْن المُستعيرة، والحروب المستعرة. أمّا فنون النثر الأندلسي فهي الخطابة، والترسل، والتصنيف. وستناول كلّاً منها بالبحث لإظهار خصائصه وميزاته.

#### ٤ - الخطابة :

١ - كانت الخطابة، أوّل الأمر، وليدة الفتح ورفيقة الجهاد. دخل العرب بلاداً جديدة يترصد لهم فيها علوّ قاس لا ينأى عن الضيم، فكان لا بدّ للولاة من الاستعانة بالخطابة لإيقاد الحميّة في الصلور، وحمل الناس على الصبر في الجهاد، والاستبانة في الدفاع عما استحوذوا عليه والعمل على إخضاع الأقاليم الأخرى لسلطانهم. فكان كلامهم كالذي سمعناه عند عليّ وزيد ابن أبيه والحجاج جزلاً، فصيحاً، مقتضباً، يجري مع الطبع خالياً من السجع المتكلف. وكانت معانيهم واضحة جليّة محصورة ضمن دائرة الأغراض الحريّة، ثم تعدّتها الى تأييد العصيّة لما نشب الخلاف

بين القبائل من مُضَرَّة وبِمْثَالَةٍ. ولعلَّ خطبة طارق بن زياد من أصدق النّماذج عن الأسلوب الذي استُعمل في العصر الأوّل، وإن شكَّ البعض في صحّتها.

٢ - ولما اتسع أفق الثقافة، وانتشرت العلوم وأقبل الناس على دروسها كثرت المناقشات والمناظرات فتنوّعت أغراض الخطابة، وتبدّلت أساليبها، وتسرب إليها السّجعُ والتمنيقُ الرقيق، وزاد سواد الذين يرتجلونها ويصنّعونها إذ بالغ الأمراء في تعظيم من يجيدها حتى أضافوا القضاء إلى الخطابة.

٣ - أما في أيام الملوك البرابرة فقد انحطَّت منزلتها، وغلبت عليها الصّنعَة، وشاع فيها السّجعُ المُعلَّل، وكاد يقتصر فيها على الوعظ في المساجد، وكثيراً ما استُعيض عنها بمسومات تُقرأ في مواقف الخطابة.

هذا كان شأن فن الخطابة في الأندلس، وهو وإن لم يصل إلى ما كان عليه في الشرق، فقد ساء به جماعة من مشهوري الخطباء كالوليد بن عبد الرحمن بن غانم في أيام عبد الرحمن الأموي، وعبد الله القحطاني في زمن المرابطين، وأبو الحسن فئلي بن سعيد البلوطي قاضي قرطبة المتوفي سنة ٩٤٦ م (٣٣٥هـ)؛ ولم يصل إلينا من آثار الخطباء الأندلسيين سوى التّزر اليسير مبعثراً في المؤلّفات الأندلسيّة كالفلاذ ونضج الطيب.

#### ٤ التّرسُّل :

١ - وحذا الأندلسيون حذو المشارقة في التّرسُّل فعلمهم في كل شيء. فكان في القرن الأوّل من الفتح صورة للثر الرّسائي، كما تجلّى لنا في مكاتبات الخلفاء والقوّاد والعلماء في العهد الراشديّ والأمويّ. أغراض محدودة تُملأها الأحوال من سياسية وغيرها، ومعاني جليّة تُؤدّي على أوضح وجه وفي أسلوب مُوجز، خالي من التّعريف والتمنيق إلّا ما يأتي عفواً. ولنا مثال على هذه الطّريقة في ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الدّاحيل عتاباً على سيده، قال: «أما كان جزائي في قَطْع البحر، وجَوْبِ القُفَر،

والإقدام على تثبيت نظام مملكة وإقامة أخرى، غيّر المجر الذي أهانني في أكنائي<sup>٢</sup> وأُشمت بي أعدائي... فلنأنا إلى الله ولنا إليه راجعون.

٢ - وسرعان ما تبدلت الحال لما اتسعت آفاق العلم والرقي تحت ظل الخلفاء، وفي رعاية ملوك الطوائف، وجاب الرحالة الشرق، وحملوا إلى بلادهم مؤلفات أشهر المرسلين فيه، وتعددت اللواوين، وانتشرت مظاهر الحضارة في جميع وجوه المعيشة. فأصبح الرسل فناً مستقلاً يتمهده الأدباء كما يتمهون الشعر، وكثرت أغراضه، وتوسعت أساليبه. وكان منه نوعان: الديواني، والأدبي.

أما الرسل الديواني فموضوعاته مكاتبات الأمراء والعلماء وما يتخللها من تهنية بالظفر، وإعلام بالحال، وتقليد وظيفة. وأما الرسل الأدبي فقد انصرف إليه جميع الكتاب، واحتوى على الأحاديث بأصنافها، والمناظرات، والمناقشات، والمقدمات، والقصص الخيالية، والمقامات. وكان من أغراضه الاعتذار، والشوق، والمدح، والهجاء، والعتاب، والرثاء، والشكوى والاستعطاف، والوصف، والاستبزاء، والمناظرات بين السيف والقلم، وأصناف الزهور والحیوان، وما إلى ذلك وكان الوصف غالباً على نثرهم كما كان غالباً على شعرهم. فاستعاروا من مجالات الطبيعة تشابيههم، وتكلموا على السماء وسحبها، والرياض وزهورها، والأنهار والطيور والقصور، والأسفار والحروب، والحمر والندمان، ومجالس اللهو والطرب، إلى غير ذلك من مظاهر الحياة المترفة الناعمة. وبرع في الأندلس كتاب كثيرون منهم ابن زيلون، وابن شهيد، وابن بُرد الأصغر، وابن عبدون، وابن ادريس، وابن خفاجة، وابن الخطيب.

٣ - ومع تعدد الأغراض تطورت الأساليب، فشاعت الصناعة اللفظية في الأندلس شيوعها في الشرق، فانتشر السجع، وحفلت رسائلهم بالأمثال، والإشارات التارخية والعلمية، والتضمين، وحل المنظوم، والاقتباس من القرآن، وتوشيح الكلام بأنواع الجاز والبديع. وكان نثرهم أول الأمر مُستَساعاً، رقيقاً، لطيفاً، ولكن الأدباء في القرون الأخيرة، غمروه بالإسهاب المُحِيل، والسجع المتكلف، ونفقوا المعاني

١ المجر: الترك والاممال.

٢ الأكناء ج كفف. وهو الظير



بزخرف الأنفاط ، فبدت مكرورة طافية لا جديد فيها سوى ما يتصنّع به الكاتب للتعبير عنها باستعاره غريبة أو تلميح بعيد . وسنلاحظ هذه الخصائص عندما عرض للدراسة الأدباء الأندلسيين .

#### ٤ - التصنيف :

١ - أما التصنيف فقد كان معدوماً في الطور الأول ، ولم يتّسع مجاله إلا بعد أن اندفقت ثقافة المشرق العباسي على الأندلس ، فهبّ أدباؤها يجارون المشاركة في كل فن وفي كل علم ، من لغة وعلوم طبيعية ورياضية وفلسفية وتاريخ وجغرافية . أما المؤلفات الأدبية فمنها المجاميع « كالعقد الفريد » لابن عبد ربّه ، و« الذخيرة » لابن بسّم ، و« قلائد العقيان » و« مطمح الأنفس » لابن خاقان ، ومنها التقليديّة ككتاب « التوايح والزوايح » لابن شهيد .

٢ - أما أساليب الإنشاء فتنوّعت بتنوّع الموضوعات وتطوّرت تطوّر النثر الرسائي . ففيما ترى الكلام جزلاً بليغاً يجري مع الطبيعة عند ابن عبد ربّه ، يحلّيه السجع أحياناً ولكن من غير إفراط ، إذ تراه يصبح فيها بعد ، حتى في كتب العلم والتاريخ ، كالشعر المشثور ، فيه من أنواع المجاز والبديع والتّلميح النّفطي الشيء الكثير .



### مصادر ومراجع

- الدكتور شوقي ضيف : الفنّ ومذاهبه في النثر العربي — ص ١٥٩ ١٧٤ القاهرة ١٩٤٦ .  
أنيس المقدسي : تطوّر الأساليب النثرية في الأدب العربي — الجزء الأول — بيروت ١٩٣٥ .  
زكي مبارك : النثر الفتي في القرن الرابع القاهرة ١٩٣٤ .  
إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي — بيروت ١٩٦٠ .

## الفصلُ الثَّانِي

### الأدبُ وَالتَّقْد

بعد أن هدأت حركةُ الفتوحات وَانصرفَ النَّاسُ إلى الثقافة والعلم ، وَاتَّصلَ العقلُ الأندلسيُّ بالعقلَ الشرقيَّ ، وَاتَّصلَ بواسطته ومن ورائه بالعقلَ اليونانيَّ وعقلَ الفرسِ والهنود ، راحَ يبسطُ النَّظْرَ في الأمورِ ، ويجمعُ العلمَ والأدبَ في كُتُبٍ تكونُ ذخيرةً للنفسِ ، وَعَقْدًا فريدًا في النحورِ ، وَقَلَائِدَ عَقِيَانِ في الأعناقِ ، تَتَشَرُّعُ في البلادِ وَتَكُونُ مدارسَ متنقِلةً يَرْتَشِفُ من مَعِيهَا كُلُّ طَالِبٍ عِلْمٍ وَطَالِبٍ أدبٍ .

### أحمد بن عبد ربّه - أحمد بن شُهَيْد

أ ابن عبد ربّه .

أ . تَلَوْنِهِ . وُلِدَ في قرطبة سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م عاصر أربعة من حلفاء بني أمية . في شيوخه مال إلى الزهد . وقد تَوَفَّى سنة ٣٢٨هـ / ٩٤٠م .

٢ . أدبه : أشهر مؤلفاته كتاب العقد الفريد ، وهو مصدر هامّ من مصادر الأدب العربي وتاريخ العرب . وهو من الناحية الفنية يحاول أن يوضح بعض مبادئ الجمال الفني في الأدب ، ومن الناحية الأدبية يجمع طائفة حليلة من الشعر وأخبار الشعراء والأدباء . في أسلوب حافل بالطعنة والسّلامة .

ب ابن شهيد :

١ . تَلَوْنِهِ . وُلِدَ بقرطبة سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م وشهد فيها الاضطرابات الصّباحة وتقلّبات السلطة .

تضاف لحسّاد على البيل من كرامته صحن في عهد «الخوّين»، وتوفي سنة ٤٢٦هـ /  
١٠٣٤م

٢- أذنه : أشهر مؤلفاته رسالة التواضع والروبع ، وهي رسالة أدب وعلم ، وصداقة وفن ، ونقد ومناظرة ، وهي من لدحية الأدبية والتقدية مرحلة حليّة من مراحل التطور والتحليل .

س شهيد بطري في تقديمه إلى الطاهر والباطن ، وقد يتخطى الحدود في الاستنتاج وكتابه صامية الأسلوب ، خيالية المصحح ، وشيقة العبارة ، محكمة التركيب .

واس شهيد كثير الوصف ، ووصفه دقيق يتبع فيه الموصوف ويرره حياً ، راهي الألوان وهو في شعره شاعر الماطقة الحّة . وشاعر ، الألوان والألغام

أ- ابن عبد ربّه (٢٤٦ - ٣٢٨هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠م)

١- تاريخه :

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه . ولد في قرطبة وطلب العلم منذ حداثة ، وأكّس على الطب والموسيقى ، واستطاع أن يحصل منها على بعض المعلومات ، إلا أن أشدّ انصرافه كان إلى الأدب تاريخياً وكتابياً وشعراً . وقد عاصر أربعة من خلفاء بني أمية في الأندلس ومدحهم ، ونال لديهم حظوة ، وله في عبد الرحمن الناصر قصيدة تبلغ نحو أربع مئة وأربعين بيتاً ضمّنها غزوات الرجل ومجيد عاله في قالب قصصي تاريخي . ولما أدركت ابن عبد ربّه الشيخوخة بدم على هوشباه ، ومال إلى الزهد وراح يعارض ما نظمه من قصائد العزل بقصائد زهدية سماها «المصحّصات» . وتوفي ابن عبد ربّه سنة ٩٤٠م / ٣٢٨هـ مغلولاً .

٢- أذنه :

لا من عبد ربّه آثار في الشعر وفي النثر . أما شعره فقد صاع أكثره . وأما نثره فله فيه كتاب «العقد الفريد» الذي قامت عليه شهرته . طبع بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٣هـ وسمّة ١٣٠٢هـ ، ثم طبع أيضاً في مصر بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر وذلك سنة ١٩٤٣م .

١ ما هو كتاب العقد الفريد : كتاب «العقد» هو كتاب أدب حرى فيه صاحبه على أساليب التصنيف في الشرق ولا سيما أسلوب ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» ، فجعله مجموعة تاريخية أدبية فنية ، وضمّنه أخبار الملوك والخلفاء وغيرهم ، وأخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ، وحشر فيه حملة من أقوال الخطباء والشعراء والكتّاب ، وشذرات من أقوال الحكماء والعلماء في موضوع الاجتماع والعروض والألحان وما إلى ذلك ، وجعله في خمسة وعشرين جزءاً أطلق على كل جزء منها اسم جوهرة من جواهر العقد.. والكتاب شرفي في موضوعه ومادته وأسلوبه . وابن عبد ربه لا يزيد على بضاعته الشرقية إلا بعض أبيات ومقاطع شعرية من نظمه يراها خير ما يُقدّم من أدب الأندلس ، وخير ما يجدر الحفاظ عليه . ولا عجب بعد ذلك أن قال الصاحب بن عباد عندما وقع الكتاب بين يديه : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .

ب - قيمة الكتاب : «العقد الفريد» مصدر هام من مصادر الأدب العربي . وتاريخ العرب . وهو ، وإن أعتوره بعض النُقّص من الناحية التاريخية ، جليل الفائدة الأدبية لما احتواه من آراء نقدية ومن مذاهب فنية لها قيمتها الحقة في عالم الثّخين والفناء .

١ النقد : أما من الناحية النقدية فقد عرّف ابن عبد ربه أن يسوق لنا طائفة من الأقوال التي توضح لنا بعض مبادئ الجمال الفنّي في الأدب ، وبعض المقاييس الجمالية ، وأن يقف فيها موقف الحكم الذي يميّز بين الحسن والقبيح ؛ ثم عرف كيف يسوق لنا أقوالاً توضح الحالات النفسية التي لا بدّ منها لقول الشعر ؛ وعرف أيضاً كيف ينصب نفسه حكماً بين النقاد ، فيوضح ما يعاب من الشعر وليس بعيب ، كما يوضح مواطن تقيح الحسن وتحسين القبيح .

ينطلق صاحب العقد من رواية الأقوال ، إلى إبداء الرأي ، إلى التّمييز والتعليل في سعة معرفة ، وسلامة ذوق ، ودقّة إعراف ، وتوازي كثير وراء من يراهم أئمة الأدب والبيان من رجال الشرق .

٢ - الأدب : وأما من ناحية الأدب وتاريخه فقد استطاع ابن عبد ربه أن يجمع

في كتابه طائفة جلية من الشعر في مختلف أغراضه وموضوعاته ، وأن يجمع طائفة من أخبار الشعراء والأدباء إلى جنب طائفة أخرى من الأخبار التي تدخل في صلب تاريخ العرب منذ الجاهلية الى عهده . واستطاع أيضاً أن يؤرخ للأوزان الشعرية وطريقة استخراجها بواسطة الدوائر ، وأن يجمع لنا طائفة من أمثال العرب وخطبهم ، وفكاهاتهم ، وملاحمهم ؛ كل ذلك من غير إغراق في الإسناد ، ولا تكلف في التعليل والمناقشة ، ولا اعتداد للسجع والزخرفة . وهكذا كان أسلوب ابن عبد ربه أسلوب أدب وطبيعة وسلاسة . وكان كتابه كنزاً نفيساً في المكتبة العربية .

### ب - ابن شهيد ( ٣٨٢ — ٤٢٦ هـ / ٩٩٢ — ١٠٣٤ م )

#### ١ - تاريخه :

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد . ولد بقرطبة وتقلب منذ حدثته في أحضان النعمة بين قوم لهم مكانة عالية عند الخلفاء والأمراء ، وأكب على العلم فحصل منه ما استطاع تحصيله ، ولبت في قرطبة عندما اضطربت فيها نيران الفتنة وغزاها البربر ، وعندما ثارت فيها سلطة على سلطة ، وتقلب فيها حيوش بعد جيوش ، وراح يستقبل خليفة ويودع خليفة ، مادحاً هذا ثم مطرأً ذلك ، رامي من وراء ذلك إلى استعادة ما كان له من العز في الدولة العامرية . ولكنها الأيام لا تدوم على حال ، وقد تصافر الحساد على النيل من كرامته فراخوا يدسون له الدسائس ، وراحوا يسودون صحيفته لدى أولي الأمر . ولما كان عهد الحموديين سجن ولحقه من الضيم والمهانة شيء كثير ، ثم أفرج عنه وراح يتقلب بين حال وحال ، إلى أن اعتل وقُلع بسبب شدة انهياره في حياة الترف ، والمجون . وقد توفي سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م .

#### ٢ - أدبه :

لاين شهيد ثر وشعر ، أمّا الثّر فله فيه كتب « كشف الدلة وآثار الشك » ،

وه رسالة التواضع والتواضع<sup>١</sup>، وكتاب حانوت عطاره، كما له فيه رسائل كثيرة في مختلف الموضوعات ممّا وجهه إلى الأمراء والوزراء، وإلى الأدباء والكتاب، وبما دار حول القضايا الاجتماعية أو النقد أو ما إلى ذلك. وأما الشعر فله فيه قصائد طويلة لم يبلغنا منها إلا ما رواه ابن بسّام في الذخيرة، والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس، والمقرّي في نفح الطيب، والعمالي في بئمة الدهر، وابن خلكان في وفيات الأعيان. وقد دار شعر ابن شهيد حول المدح، والزّناء، والهجاء، والغزل، والشكوى، والفخر، والوصف، وما إلى ذلك مما هو معهود في الشعر العربي.

#### ٤- ابن شهيد في رسائله:

أ- رسالة التواضع والتواضع: هي رسالة وضعها ابن شهيد للردّ على خصومه وحساده ومتعديه، ولإظهار بزمته وعلو مقامه في دولة الكتابة والقرىض. وقد تحيل أنه صاحب جنياً اسمه زهير بن نمير فطار به إلى عالم الأرواح، إلى أرض التواضع والتواضع، حيث اتصل صاحب امرى القيس، وصاحب طرفة، وصاحب أبي تمام وغيرهم من الشعراء، ثم صاحب عبد الحميد الكاتب، وصاحب الجاحظ، وغيرهما من أرباب النثر، فبسط لهم جميعاً، ويعرض عليهم بضاعته، ويأخذ الإجازة منهم، ويدافع عن نفسه، ويخرج من ذلك الميدان شاعراً وخطيباً من أكابر الشعراء والخطباء. ثم يحضر مجلساً من محالّس الأدب يدور بين الجنّ حول السرقات الشعرية، ثم ينتقل مع تابعه إلى حيوان الجنّ وإذا به أمام لوحة تدّعي العلم وتحاول أن تتأطّر في النحو العربي، فيرويها بقوارص الكلام، ويرمي من ورائها كل من سار على منهجها، وأضاع العمر في السخافة والحق، وهكذا جعل ابن شهيد رسائله رسالة أدب وعلم، وصناعة وفن، ونقد ومناظرة، وهكذا جعلها معرضاً من معارض بيانه وشعره، كما جعلها مقدّمة حسنة لرسالة أبي العلاء المرّي في الغفران.

ب- سائر رسائله. قال ابن حيّان: «وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال: قصار وطوال، برز فيها شأوه، وأبقاها في الناس خالدة بعده».

١- صُغت رسالة الواضع والتواضع في بيروت سنة ١٩٦٧، وقد نُبت طبعها دار صادر، وقَدّم لها طرس ابستاني بدراسة تاريخية أدبية قيّمة.

وكان في سرعة البديهة، وحضور الجواب وحذنه، مع رقة حواشي كلامه، وسهولة ألفاظه، وبراعة أوصافه، ونزاهة شأئله وخلاتقه، آية من آيات الله خالقه.

جـ - قيمة رسائل ابن شهيد: لرسائل ابن شهيد قيمة كبرى سواء أكان ذلك من الناحية العلمية أم من الناحية الأدبية. فهي تطلعتنا على نفس الرجل، وسعة مداركه، وعمق تفكيره، وهي صفحات تثير حياته وتوضح لنا معالمها، وتفسر لنا كثيراً من غوامضها.

١ - وإذا نظرت إليها من الناحية الأدبية والنقدية وجدت أنها مرحلة جليلة من مراحل النظر والتحليل. فابن شهيد محدود الثقافة، قليل المطالعة، ولكنه بعيد مدى التفكير والإنكفاء على الذات وعلى الأمور، فهو من طبعه فيلسوفٌ نفسيّ ينطلق في عالم الوجود الأدبي، ويتغلغل إلى طوابع النفس البشرية ليرى الصلة بين النفس والجسم، وبينها وبين الأدب، وإذا به يعلن أن البيان لا يقوم بغنى الألفاظ ومعرفه النحو فحسب، بل يقوم أيضاً بقوة الطبيعة التي هي مزيج من تركيب أعضاء وصلة بالنفس: «إصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو، بل بالطبع، مع وزنه من هذين، ومقدار طبع الإنسان إما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه». فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور المعاني في أجمل هيئاتها، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال. ولتركيب الأعضاء كما يقتضي علم الفرسنة تأثير في صلاح الآلة الروحانية وفسادها، ففساد الآلات الظاهرة في الجسم يعين على فساد الآلة القابلة الروحانية، والحادثة لآلات الفهم: منها فرطحة الرأس وتسفيطه، وتنوء القمشولة، والتواء الشدق، ونحز العين، وغلط الأنف، وانزواء الأرنية<sup>١</sup>.

٢ - ولابن شهيد آراء أخرى مختلفة في الأدب والنقد ينثرها هنا وهناك، ومن تلك الآراء أن الشعر ليس باللفظ وحده ولكنه باللفظ والمعنى الكريم، والشاعر الشاعر هو من يفتح بحور البيان، وينطق بالفصل، ويطلب الأشياء الذرة والسائرة،

١ طالع تصدير رسالة «التواضع والرواج» لبطرس البستاني ص ٧٨ - ٨٠.

وينظم من احكمة ما يبقى بعد موته ، متصرفاً في كل غرض وكل من تصرف من يحسن التلون ، ويعرف أساليب الكلام ووجوه المعاني ؛ فعلى الناقد إذن أن لا يحدده ظاهر كلام الشاعر ، ولا تفرّه الديباجة اللهاة ، والألفاظ المسمقة ، بل ينظر في نقده الى الظاهر والباطن . فيجعل لكل شيء ميزاناً ، ويقم لكل ناحية قسطاً من غير ما اضطراب ولا غرور .

ومن آراء ابن شهيد أن للحروف أنساباً وقربات تلبو في تركيب الألفاظ ، فإذا جاور القريب قريبه تم الالتفاف ، وحسنت صور الكلام . وليس من العيب في نظره أن يعتمد الكاتب أو الشاعر الى ألفاظ غريبة أو غير مأنوسة ، وإنما العيب كل العيب في أن يستعملها في غير محلها ، أو في أن تكون متنافرة الحروف أو غير مؤلفة فيما بينها ، أو غير دالة دلالة واضحة على المعنى الذي جعلت في خدمته .

وهو يرى أن البلاغة قائمة في مراعاة مقتضى الحال ، وأنه لا بد للكاتب من تفهم نفسيات من يوجه اليهم كلامه إذا شاء التأثير ورمى الى السيطرة الأدبية وإلا كان كلامه هباءً وأقواله بعيدة عن العقول والقلوب .

وهو يرى أن أسلوب الكتابة يختلف باختلاف العصور والشعوب وقد قال في ذلك : « لكل عصر بيان ولكل دهر كلام . ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطأ والضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه . وكما أن للدنيا دولاً وكذلك للكلام نحل وتعاير في العادة » .

وهو يرى في النثر العربي ثلاث مدرّس : مدرسة عبد الحميد وابن المقفع ، ومدرسة ابواهم بن عباس ومحمد بن الزيات ، ومدرسة بديع الزمان الهمداني ، وهو يرى أن لتطور النثر صلة وثيقة بتطور المدنية .

٣ - ثم إنه يقسم أهل صناعة الكلام الى ثلاث طبقات : فهم القريبو المرامي الذين يحدون التأليف ولا يحسون العوص في الأعماق ، فيكونون لزمن من الأزمان حتى إذا تبدلت الأحوال واتسعت الآفاق تلاشوا كاللُحْخَان واضمحَلُّوا اضمحلالاً ، ومهم الكارعون في بحر الغزارة ، المندفعون سدفاع السيل ، أولئك الذين تزدحم لديهم المعاني ازدحاماً فلا تشكون فشلاً ولا تحظى لهم سهام ، ولا يكون لهم على الدهر أقول أو



ذبول ، ومنهم أخيراً المتجافون عن الكلام ، الذين يألفون الصمت ، والذين ، إذا مثوا بالقول ، جاروا أبغ الناس ومشوا في صفوف أرباب الصاعية . ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في أهل صناعة الكلام .

٤ - وقد عرض ابن شهيد ، في نقده ، لنحاة قرطبة الدين قادهم الغرور الى اصطناع البيان والتعرض لأهله فكواهم بلاذع كلامه ، وشبههم بالقرود اليمانية التي ترقص على الإيقاع ولا تدرك من أسرار الفن شيئاً . وعرض كذلك للجحط فرأى أن كتابه في البيان بعيد عن أن يكون طريقاً سهلاً إلى البلاغة ، ورأى أن الجاحظ أغبن الناس لنفسه لأنه ، وهو واحد البلاغة في عصره ، لم يلتمس شرف المثلثة بشرف الصنعة . فلا يخلو في هذا إما أن يكون مقصراً عن الكتابة وجمع أدواتها ، أو يكون ساقط المهمة ، أو يكون إفراط جحوظ عينيه فقد به عنها .

٥ - وهكذا يمضي ابن شهيد في نقده وأدبه محاولاً أن يحيط طرقاً جديدة ، وأن يحلل ويعمل ، ولكن نتائجهم أوسع نطاقاً من مقدماته ، وتحليلاته لا تخلو من أخطاء ، ونقداته لا تخلو من غلو . وكتابه صافية الأسلوب ، خيالية المسج ، يكثر فيها إجاز والاستعارة ، وهي رشيقة العبارة محكمة التركيب ، لا تخلو من التسجيع والصناعة . وابن شهيد ميال الى الأسلوب القصصي ، ميال الى النقد الجريء الحافل بالهزة الجارح ، ميال الى التوكؤ على الغير في إنشائه ، إلا أن ذلك التوكؤ لا ينجو من شخصية بارزة المعالم ، واضحة الخطوط . وابن شهيد كثير الوصف ، ووصفه دقيق يتبع فيه الموصوف ويبرزه حياً ، زاهي الألوان ، رائع الصورة .

#### ٤ - ابن شهيد في شعره :

وهكذا كان ابن شهيد من أكبر كتاب الأندلس ومن خيرة النقاد في العصور القديمة ، وكان شهاناً لماعاً في طريق التقدم والتحديد .

أبو عامر من أولئك الذين صفت طبائعهم ، ورق شعورهم ، وأوتوا من قوة الخيال واتساعه ، ومن غنى القلب واطلاق القرينة ، ما جعلهم شعراء بالطلع ، يأتيهم الكلام متدفقاً ، ويجري قلمهم بكل عذب ورويق في القول ، ولكنه من أولئك الذين غابت عنهم قوة الإبداع فكان شديد التقليد في شعره لأساليب الأقدمين . شديد الاعتماد على

معانيهم وألفاظهم ، شديد التفتُّ نحو شعراء بني العباس ، كثير المعارضة للقصائد المشهورة . وكان على كل حال شاعر العاطفة الحية التي تنبض في كل بيت وتملأه حياة وحركة ، وكان شاعر الألوان والأنغام ، يرسم بريشته الساحرة على إيقاع ألفاظه وتركيبه ، ويرسل الأبيات تلو الأبيات في عدوية ما بعدها عدوية ، وفي لغة تجمع الصلابة الى اللين ، والجزالة الى السهولة وفي صياغة محشوة بالزخرفة والتشويق .

قال الدكتور إحسان عباس : « يجد من يقرأ شعر ابن شهيد أنه في حدة غاضبة لا تكاد تبدأ ، وهو يُقرّ أنه يعتمد استعمال وحشيّ الكلام غير أنه لا يجعله نايياً في شعره لأنه يُحسن وضعه في مواضعه . . . لقد بنى شعره على الاندفاع والعنف والغضب ... كان عيبه الكبير هو ميرته الكبرى أعني شعوره بأنه متفوق على كل شاعر ... ليس هناك من كان يجمع بين الميزتين كان شهيد أعني بين التعب الذي يتكلّفه في الإحاطة بالمعاني وانتقاء الألفاظ ، وبين سرعة الديبة والقدرة على الارتجال ... وقد غطى على محاكاته وأخذ بعض المعاني من غيره أنه يحاول دائماً أن يكون مبتكراً مجدداً ، يُضيف إلى ما يأخذه ، أو يبتكر معنى أو صورة جديدة . وربما لم يكن من الغلو أن أميزه بكثرة الصور المتكررة ، لا بين شعراء الأندلس فحسب بل بين شعراء المشاركة أيضاً ... وتتسكند الموسيقى الهادئة مع الصور المنظورة في شعره ، ولكنه إلى الثانية أكثر ميلاً ، فإذا تحدّث عن الأصوات كانت مدوية أو مزججة ، أي قوية شديدة ، ولعلّ لذلك صلة بنقل سمعه ، ولذلك أيضاً فيما اعتقده ... يرتاح إلى المراثيات أكثر ... ابن شهيد اقرب الأندلسيين شبيهاً بشعراء المشرق الذين ينسجون في عالمهم الحضاري على نماذج الجاهلية وصدر الإسلام ... » .

الفنج بن خاقان - ابن حزم - الطلحوشى - ابن بسام  
ابن لشكوال - ابن الأبار

أ. الفصح بن عثمان :

كان من علماء دهره، كثير الأسفار، توفي بمهبط الورداء في دولة عرساة حياً من الزمن وتوفي  
تجلى في سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠ م آثاره وفلاذ احقيان في مجلس الأعيان، وه مطمح الأمل  
ومسرح الناس في ملح أهر، الأمل.

ب ابن حزم

٩- ابن رافعة: ولد في قرطبة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، وتلقى شأفة علم وعرقان. أحب جربة منها ثم تزوجها وعلما دانت شدة حبه عليها شاع الأيوبيون وصغر إلى الغرام من قرطبة علما اضطرت له الثورة ولم يعد إليها إلا عندما يبيع المنظر الأموي. وبعد رجوعه أصبح وزيراً ثم شيخاً. وقد توفي سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م.

٢- أودع أشهر مؤلفاته كتاب طوق الحمامة في الحب وأعراضه وصفاته والأقارب المدخلة عليه. وهو كتاب طريف موضوع، يكتسب الأسلوب عميق الفكرة، يصور واقع حياة أساس.

ج۔ اُپر بکر الطُّرطُوشی :

وُلِدَ فِي طَرُوشُةَ سَنَةِ ١٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م. وَتَعَقَّ فِيهَا ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَأَقَامَ مَدَّةً فِي الشَّامِ، ثُمَّ انتَقَلَ إِلَى الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ وَتَوَفَّى فِيهَا سَنَةِ ١٥٢١ هـ / ١١٢٦ م. شُهِرَ مَا لَهُ كِتَابُ «سِرَاجِ الْمُلُوكِ».

د ایندې ټولګې

هو أديب من الكتاب والوراء اشتهر بكتابه «الدحية» في محاسن أهل الحيرة»

۵۔ اپنی پشکوال :

وُلِدَ فِي أَسِيلَةَ وَتَوَفَّى فِي قَرْطَبَةَ أَشْهُرَ مَوْلَانَهُ • الصَّلَاةُ فِي الرَّبِيعِ أَمَّةُ الْأَمْدَسِ • وَكِتَابُ الْعَوَالِمِ  
وَالْمَلِيَّاتِ مِنْ أَهْمَاءِ رَحَالِ الْحَدِيثِ •

و ابن الأثير :

ولد في بسية ولما سقطت بسية في يد الاسبان هاجر الى تونس. وقد مات قتلاً سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م من مؤلفاته «التكلمة» لكتاب الصلاة، «والمحلة السيرة».

## أ - الفتح بن خاقان (٥٣٥هـ / ١١٤٠م)

١ - تاريخه :

هو الإمام أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد القيس الأشبلي. وقد كان من علماء دهره كما كان كثير الأسفار. سريع التنقل، خليع العذار في دياه. تولى منصب الوزارة في دولة غرناطة حيناً من الزمن، ثم ثُوِّفَ قتلاً في فندق عديبة مراكش. سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م.

٢ - أدبه :

للفتح بن خاقان كتابان هما «قلائد العقيان في محاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس ومسرح المناس مراكش، سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م.

٢ - أدبه :

للفتح بن خاقان كتابان هما «قلائد العقيان في محاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس ومسرح المناس في ملح أهل الأندلس». وقد جعل كتابه الأول أربعة أقسام : (١) في محاسن الرؤساء وأبنائهم. (٢) في عرر حبة الوزراء وفقر الكتاب والبلغاء. (٣) في ملح أعيان القضاء وملح أعلام العلماء. (٤) في بدائع نبهاء الأدباء وروائع فحول الشعراء. وجعل كتابه الثاني ثلاثة أقسام : (١) في الكتاب ؛ (٢) في العلماء والقضاة والعقهاء ؛ (٣) في الأدباء وفيه خمس وخمسون ترجمة غير مثبتة في قلائد العقيان. ومما يروى عنه أنه لما عزم على تصنيف كتاب «قلائد العقيان» الذي قدّمه للأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، كتب إلى كل من عرفه من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة، وسأله إنفاذ شيء من شعره ونثره، ليذكره في كتابه، ولما كان الجميع يعرفون سرّه أخذوا ينفذون إليه ما سأل مع صرر الدناير. فكل من أرضته صلبته أحسن في الكتاب وصفه، وكل من تغافل عن برّه هجاه وتلبّه

وأسلوب ابن خاقان في كتابته مسجع كثير التتميق والزخرفة.

## ب - ابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٣ م)

## ١ تاريخه :

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد من أصل فارسي، وقيل بل من أصل إسباني. وُلِدَ في قرطبة من أب كان وزيراً يجمع إلى سعة في العلم قوة في البلاغة، وقد تأثر عليّ بشخصية والده فنشأ نشأة علم وعرفان، وفي مجلس ولده اتّصل بعدد كبير من رجال الثقافة والمكانة الاجتماعية وأفاد مما كان يسمعه منهم، كما اتّصل بالشعراء الذين كانوا يحومون حول الدُور والقصور وحفظ الكثير من أشعارهم.

أحبّ في شبابه جارية اسمها نغم فتزوجها وهو دون العشرين، ثم اختطفها الموت فاشتدّ حزنه عليها وظلّ سبعة أشهر كاملة لا يغيّر ثيابه بعد وفاتها لشدة ما انتابه من الحزن والأسف.

شاع ابن حزم الأمويين كما شاعهم أبوه من قبله، وعندما نشب الخلاف بين الأمويين والعامريين واضطربت نار الثورة في قرطبة لجأ إلى المربة ثم إلى بلنسية ولم يعد إلى قرطبة إلا سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م وفي سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م أي عندما بوع المستظهر الأموي عاد ابن حزم إلى حاشيته وأصبح له وزيراً، وظلّ في زهوة العيش إلى أن سجنه المستنكي، فترك السياسة وجعل همه كله في العلم والتأليف، وراح يتنقل في البلاد الأندلسية ويؤانس أهل العلم والأدب، ويجادل الفقهاء مجادلة حرّت عليه عداوة الكثيرين، فلجأ في آخر أمره إلى قرية من بادية بلّيه حيث أصبح مرجعاً لطلّاب العلم يقصدهون من كل صوب، وحيث أكبّ على التأليف والتصنيف إلى أن توفي سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م.

كان ابن حزم من أوسع أهل زمانه علماً واطّلاعاً، ومن أشدهم تديناً وعزّة نفس. وقد شملت ثقافته جميع أنواع المعرفة في عصره حتى قال عنه القاضي صاعد: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسّعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار».

## ٢ - أدبه :

لابن حزم مؤلفات كثيرة في الفقه والعقائد والمذاهب من مثل «المُحَلَّى» و«مراتب الإجماع»، و«كتاب الأصول والفروع»، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل»، وله في الأنساب والأخبار «كتاب الحمهرة»، وفي الأدب «طوق الحمامة»، كما له رسائل متعدّدة، وشعر لم يصلنا منه إلا النثر القليل. وأكثر ما قامت عليه شهرة ابن حزم كتاب «طوق الحمامة» الذي طبع في لندن سنة ١٩١٤ وكان لطبعه صدق واسع في أوروبا، فتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل، وتناوله العلماء بالدراسة لأنه أول كتاب يؤت في «فن الحب» وذلك في تفصيل ممتع ومبتكر.

## ٣ - كتاب «طوق الحمامة» :

١ - موضوعه : قال الدكتور زكي مبارك : «كان من المستظرف حقاً أن يكشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق واهيام في تفصيل شائق جذّاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب، وذلك كلّه يقع من رجل كان إماماً من أئمة الدين، ومثالاً يُحتذى في أدب النفس، وكرم الطبع، ومثانة الخلق»<sup>١</sup>. ودفعاً لإنكار المنكرين وسوء ظنّ المتزمتين قال : «وما أحلّ لأحد أن يظنّ في غير ما قصدته، قال الله عزّ وجلّ : يا أيّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم»<sup>٢</sup>.

وقد جعل ابن حزم كتابه ثلاثين باباً عشرة منها في أصول الحبّ، وأثنى عشر في أعراض الحبّ وصفاته وعمودها ومذمومها، وستة أبواب في الآفات الداخلة على الحبّ من مثل الهجر، واليأس، وخاتمة في بابين عالج فيها قبح المعصية وفضل التعفّف<sup>٣</sup>.

## ب قيمته :

١ - لكتاب «طوق الحمامة» موضوع يمتاز بالطرافة، وأسلوب يمتاز بالسلامة والطبيعية والسهولة ويبعد كل الابتعاد عن الغموض والتعقيد والتصنع. أضف إلى

١ - النثر الفني ٢ ص ١٦٦ ١٦٧.

٢ - تجد التصحيح في «تاريخ الأدب الأندلسي» للدكتور إحسان عكس ص ٢٨٤.

ذلك أنَّ صاحبه ، وإن بالغ في إيراد النماذج من شعره ، قد استطاع أن يُحكم بناء تفكيره ومواد كتابته ، كما استطاع أن يُحلِّك نزعات نفسه ، ونزوات مجتمعه ، وأن يقدم لنا صورة لواقع حياته وواقع حياة الناس في موضوع الحب . ومن آرائه في هذا الباب أنَّ الحبَّ لا يقوم إلَّا مع الملازمة الطويلة وإن حبَّ النظرة الواحدة مجرد شهوة ، وأن مداومة الوصل لا تُطفىء نار الحب . وهو يقول في ذلك : «إني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادي إلَّا ظمأ... ولقد طال بي ذلك فما أحسستُ بسأمة ولا رهقني قرة... وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا علما الرُقاء ، وأمنا الوشاة ، وسكنا من اليأس ، ورغبنا عن الهجر ، وبعُدنا عن الملل ، وفقدنا العُدال ، وتوافقنا في الأخلاق ، وتكافينا في الحقَّة ، وأتاح الله لها ررقاً داراً ، وعيشاً قاراً ، وزماناً هادياً ، وكان اجتماعها على ما يُرضي الربَّ من الحال ».

٢ - وابن حزم يرى أن الحسن يتلون وفقاً لألفئتنا له ، قال : «لقد شاهدتُ كثيراً من الناس لا يُتهمون في تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط في معرفتهم ، ولا تقصير في حدسهم ، قد وصفوا أحياناً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يُرضى في الجبال فصارت هجيراهم وعرضة لأهوائهم ، ومتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إمَّا يسلبوا أو بين هجر أو بعض عوارض الحبِّ وفارقتهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تقصيلها عن ما هو أفضل منها في الحلقة ولا مالوا الى سواها ، بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا... وما أقول أنَّ ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً واختياراً لا دحلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون في طيِّ عقدهم بغيره... دعني أخبرك أنني أحببتُ في صباي حاريةً في شقراء الشعر فما استحسنتُ من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه ، وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت لا تواتني نفسي على سواه ولا تُحبُّ غيره البتَّة ».

٣ - ويكثر ابن حزم من الكلام على الغنى والوفاء ، ويورد من الأمثال والنماذج ما يُعجب ، ثم يعلن أن المرأة أكثر مؤاسة وإسعاداً في الحبِّ من الرجل وأن عند النساء من المحافظة على سرِّ الحبِّ والتواصي بكمثانه ما ليس عند الرجال ، وهو يرى أن المرأة والرجل سواء في الصعف ، ويضيف الى ذلك قوله : «ولستُ أجد أن يكون

الصلاح في الرجال والنساء موجوداً وأعوذ بالله ان أظنّ غير هذا. وإني رأيتُ الناس يغفلون في معنى هذه الكلمة — أعني الصلاح — غلظاً بعيداً. والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضُبِطت انضبطت، وإذا قطعت عنها الدَّرَائِع امتسكت؛ والفاسدة هي التي إذا ضُبِطت لم تَنْضَبِط، وإذا حِيلَ بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيكت في أن توصل اليها بصروب من الحيل. والصلاح من الرجال لا يُدْخِل أهل الفسوق، ولا يتعرّض للمناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع بصره الى الصور البديعة التركيب. والفاسق من يُعَاشِر أهل النقص وينشر بصره الى الوجوه البديعة الصُّعَة، ويتصدّى للمشاهدة المؤذية، ويحبّ الخلوات المهلكات. والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تُحرق من جاورها إلا بأن تُحرَّك. والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء.

ج - أبو بكر الطرطوشي (٤٥١ - ٥٢٠ هـ / ١٠٥٩ - ١١٢٦ م)

١ - تاريخه:

أبو بكر مُحَمَّد بن الوليد الفهري الطرطوشي، ويُقال له ابن أبي رندقة، وُلد في طرطوشة بشرقيّ الأندلس سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م، وتفقّه في بلاده فقرأ الفقه والأدب في سرقسطة وأشبيلية على أئمتِّها، ثم رحلَ الى المشرق سنة ٤٧٦ هـ فحجَّ وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان، وأقام مدّة في الشام. ثم انتقل الى الاسكندرية فتولّى فيها التدريس واستمرّ فيها الى أن توفّي سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م.

كان الطرطوشي أديباً وفقهاً من فقهاء المالكية، وكان زاهداً لم ينشَبْث من الدنيا بشيء.

٢ - أدبه.

روى له المقرئ في «نفع الطيب» بعض مقاطع شعرية في الغزل والزهد، وأشهر ما له «سراج الملوك» ألّفه في القسطاط للوزير المأمون بن البطاحي، وهو كتاب في السياسة والإدارة حافل بالمواعظ والأحكام والطوائف.



## د - ابنُ بسّام (٥٤٢هـ / ١١٤٧م)

أبو الحسن علي بن بسّام الشّرنبُنيّ أديب من الكتاب والوزراء. نسبته إلى شنترين في غربي الأندلس اشتهر بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وهو في ثمانية مجلدات تشتمل على ١٥٤ ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممّن عاصروهم أو سبقوه قليلاً. طُبِعَ الكتاب في مصر سنة ١٩٤٠ بمناية لجنة التأليف والترجمة والنشر.

## هـ - ابنُ بشكوال (٤٩٤ - ٥٧٨هـ / ١١٠١ - ١١٨٣م)

## ١ - تاريخه:

هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي القرطبي وُلِدَ في اشبيلية وتوفّي في قرطبة. قاضي ومؤرّخ أندلسي كان آخر محدّثيها. علّموا له خمسين مؤلفاً لا يُعرف منها إلّا «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس»، وكتاب «الغوامض والمبهات من أسماء رجال الحديث».

كان ابن بشكوال موصوفاً بالصلاح وسلامة الباطن وصحة التواضع. قال ابن الأبار في «نكمة الصلة»: «كان رحمه الله، متّسّع الرواية، شديد العناية بها، عارفاً بوجوهها، حجةً فيها... حافظاً حافلاً إخبارياً.. تاريخياً مقبلاً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة».

## ٢ - أدبه:

يقول ابن بشكوال في مقدّمة كتاب الصلة: «ورثته على حروف المعجم كتاب ابن الفرّضي، وعلى رسمه وطريقته، وقصدتُ إلى ترتيب الرجال في كل باب على تقدّم وقيّاتهم، كالذي صنع هو رحمه الله؛ ونسبتُ كثيراً من ذلك إلى قائله، واختصرتُ ذلك جهدي، وقلّمتُ هنا ذكر الأسانيد اليهم مخافة تكرارها في مواضعها...».

هكذا أراد ابن بشكوال أن يتّسم «تاريخ علماء الأندلس» لأبي الوليد عبد الله بن محمّد بن يوسف الأردّي المعروف بابن الفرّضي، وقد أوضح في مقدّمته أيضاً السبب

الذي حمّله على تأليف الصلة قال : « أما بعد فإن أصحابنا وصلّ الله توفيقهم ، ونهّج إلى كل صالحٍ من الأعمال طريقهم ، سألوّني أن أصلّ لهم كتاب القاضي الناقد أبي الوليد عبد الله بن محمد الأزديّ .. في رجال علماء الأندلس ... وإن ابتدئ من حيث انتهى كتابه ، وأبني وصل تاليفه ، متصلاً إلى وقتنا . وكنت قد قيّدت كثيراً من أخبارهم وآثارهم ، وسيرهم وبلدانهم وأنسابهم ومواليدهم ووفياتهم ، وعن أخذوا من العلماء ، ومن روى عنهم من أعلام الرواة ، وكبار الفقهاء ، فسارعت إلى ما سألوها ، وشرعت في ابتدائه على ما أحبوا .

وترتيب الصلة ترتب المعجم أي الترتيب المجانيّ ، فهو يبدأ بالهزمة وتليها الأسماء التي أولها باء ، فالتي أولها تاء إلى نهاية الياء . ولكنه يبدأ حرف الهزمة باسم أحمد تيمناً به . ويورد بعد ذكر علماء الأندلس في كل حرف ذكر العلماء الغرباء من ذلك الحرف ، والغرباء هم من ولدوا أو عاشوا زمناً خارج الأندلس ثم جاءوا إليها .

## و- ابنُ الأَبار (٥٩٥ - ٦٥٨ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م)

### ١- تاريخه :

محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن القضاعيّ البلسنيّ المعروف بابن الأَبار ولد في بلسية سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ، ونشأ فيها نشأته الأولى . وعندما ذاع صيته في العلم استدعاه السيد أبو عبد الله الموحّدي والي بلسية وأقامه على كتابته ديوانه ، ثم عيّن على قضاء دائية في عهد الرئيس أبي جميل زيان بن مدافع بن مردّيش . وقد بلغ ابن الأَبار عند هذا الرئيس درجة عالية من التقدير حتى أنه بعث به على رأس جماعة أوفدها ابن مدافع من بلسية لبيعة الأمير أبي زكريا يحيى سلطان إفريقية ، واستصرّاه لإيقاد المدينة من خطر الإسبان .

وعندما سقطت بلسية في يد الإسبان هاجر ابن الأَبار إلى تونس وقد لقي عند سلطانها حظوة ، ثم انتقل إلى بُجاية يكتب ويؤلف ويدرس ، وقد وضع فيها كتابه « اعتاب الكتاب » ورفعه إلى السلطان أبي زكريا فأعاده إلى الكتابة في ديوانه .

ولما خلف السلطان المستنصر بالله أباه أبا زكريا بعد موته سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م رُفِعَ ابن الأثير إلى حضور مجلسه مع من كانوا يحضرونه من أهل الأندلس، ولكن حدث ما أغضب عليه السلطان الذي كان ولي نعمته. قال المقرئ في «أزهار الرياض»: «كان في ابن الأثير أنفة ومأو وضيق خلق. وكان يزرع على المستنصر في مباحثه، ويستقصر مداركه، فخشن له صدره، ومع ما كان يُسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولائها عليه». ويظهر أن ابن الأثير لم يكن في أفرقية حسن المخاطبة، لطيف المعاشرة، متواضعا، لذلك نفر منه الزملاء والرؤساء مع حاجتهم إليه. ويظهر أن ابن الأثير كان عنيفا في خصومته، حادا في معاملته، بقرص ويؤلم عندما ينال خصمه بالهجاء أو الإهانة، ثم يخفي كما يفعل الفار، ومن هذا جاء لقب «الفار» الذي أطلقه عليه خصومه.

وانتهت حياة ابن الأثير بالقتل وبإحراق الكتب والمؤلفات التي كانت له أو عنده، وذلك في العشرين من شهر محرم سنة ٦٨٥ هـ أي في السادس من كانون الثاني سنة ١٢٦٠ م.

#### ٢ - أدبه:

لإبن الأثير عدة مؤلفات منها «التكلمة لكتاب الصلة» و«المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي» و«الحلقة السرياء» وفيه تراجم لشعراء من أعيان الأندلس والمغرب من المئة الأولى للهجرة إلى المئة السابعة. وكان ابن الأثير بصيرا بالرجال، عالما بالتاريخ، إماما في العربية، فقيها وإخباريا فصيحاً. والأمر الذي يتجلى لنا من دراسة مؤلفات ابن الأثير أن أكثرها جمع أو التباس مما كُتِبَ قبله، فهو في «تكلمة الصلة» يواصل عمل ابن بشكوال صاحب «الصلة» ولا يدعي فيه تأليفا إبداعيا ابتكاريا، وإنما يقرر أنه جمع وتصنيف، وهو في كتابه «المعجم» يبين أنه درج فيه على خطة القاضي عياض الذي وضع معجماً جمع فيه تراجم شيوخ الصديقي، وأنه أتم ناحية أخرى من دراسة الصديقي بذكر تراجم من تعلموا عليه، وهو في «الحلقة السرياء» يعالج التاريخ والأدب على طريقة الجمع والاختيار، فيذكر ترجمة الشاعر أو

النثر ويورد شيئاً من شعره أو من نثره ، معتمداً في ما يعمل على مراجع تاريخية وأدبية مختلفة .

وأسلوب اس الأبار يختلف باختلاف الموضوع والهدف ، فهو في مقدمات كتبه وفي رسائله يعتمد أسلوب السجع والترويق الابداعي . وهو في سائر كتاباته سهل الأسلوب ، مرسل الانشاء ، يحمل الى القارىء حقائقه في وضوح وبساطة .

• • •

### مصادر ومراجع

- حرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية .  
 جبرائيل جـور : ابن عبد ربّه وعقده — بيروت .  
 ابن عبد ربّه : العقد الفريد — القاهرة ١٩٤٠ .  
 عبد العزيز عبد المجيد . ابن الأبار — تطوان ١٩٥٤ .  
 شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في النثر العربي القاهرة ١٩٤٦  
 إحسان عباس . تاريخ الأدب الأندلسي بيروت ١٩٦٠  
 الدكتور ركي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع — القاهرة ١٩٣٤ .  
 ابن حرم : طوق الحمامة طعة مصر .  
 ابن شهيد . رسالة التواضع والزواج — طعة دار صادر بيروت ١٩٦٧ .

## الفصل الثالث

### الترسل

#### ابن زيدون - لسان الدين بن الخطيب

- ١ - مراحل الترسُّل : إيجاز وطبع ، ثم رحرقة وتنسيق في اعتدال ، ثم ساعة في غير اعتدال
- ٢ - موضوعاته : تهنيت وتوصيات وإستاد عمل وما الى ذلك .
- ٣ - نزعه : كان صورة من صور لحدة الأندلسية المترفة والناعمة
- ٤ - المرسَلون : من أشهرهم ابن زيدون واس الخطيب .

أ - ابن زيدون - هو من مواليد قرطبة وقصته مع ولادة مشهورة من رسائله الرسالة المزلّة ، والرسالة الخدمية ، وهما حفاظا للتصمين ، والإشارات التاريخية ، والأمثال ، وفيها راحة كبرى في تحليق العبارة ، وصوغ التراكيب ، واختيار الألفاظ .

ب - لسان الدين بن الخطيب : هو من مواليد بوشة ، وقد استورده أبو الحجاج يوسف سلطان غرناطة . كتب في موضوعات مختلفة وله رسائل كثيرة . كاد يتقلب بين مذهب الكفاية وكثير ما اعتمد مذهب التمتع والإطعام والتكبر

#### ٩ - مرحله

سار الترسُّل الأندلسي على الطريق التي سار فيها الترسُّل في الشرق . فكانت خطواته الأولى أشبه بخطوة الترسُّل في صدر الإسلام وفي العهد الأموي ، واتسمت بسمّة الإيجاز والطبع . وما إن كان عهد ملوك الطوائف حتى راح المسترسلون يترسّمون خطى البلاغ في عهد بني العباس ، وينحرفون بالرسالة عن كونها قنّة للفكرة والعاطفة الى جعلها مكرّبا لإظهار المهارة في ضروب الصناعات والزخرفة والتنميق من غير ما إهمال

للفكرة. ثم راح الترسُّل ينحط شيئاً فشيئاً حتى أصبح في آخر الأمر لا يهدف إلا إلى الصناعة وقد أصبحت غاية بعد أن كانت وسيلة من وسائل تقوية الفكرة.

## ٢ - موضوعاته .

أما موضوعات الترسُّل فكانت كلُّ ما يدور بين الأمراء والعَمَّال وأولي الأمر من تهنئات وتوصيات وإسناد عمل من الأعمال وما إلى ذلك ، وكلُّ ما يدور بين الأصدقاء والإخوان من أمور ، وما يحصل من أحوال ، وما يجول من خواطر ، وما ينشأ من عواطف . وكانت موضوعاته أيضاً تلك المناظرات التي ديجتها أقلام الكتّاب وجعلتها بين الرياض والرياحين . وبين السيف والقلم ، وبين أصناف الحيوانات .

## ٣ - نزعه :

وقد امتاز الترسُّل الأندلسي بالترعة الوصفية التي توشّي المعاني والألغاز بالنور ، وتنثر عليها الأصباغ والأزهار ، وتطلقها أعاني وإبتسامات ، على ضفاف الأنهار ، وبين تغريدات الطيور . وهكذا كان الترسُّل صورة من صور الحياة الأندلسية الناعمة المترفة .

## ٤ - المترسلون :

وأصحاب الترسُّل في الأندلس كثيرون وقد أورد ابن بسّام في ذخيرته رسائل لعدد كبير منهم ، وعرض لكتّاب كلِّ مدينة عرضاً مفصّلاً ، وهم في أكثرهم مسجّعون ، وأصحاب زخرفة وتمييق ، ومن أبرعهم في ذلك ابن بُرْد الأصغر ، وقد روى له صاحب الذخيرة مجموعة كبيرة من الرسائل كما روى له مناظرة بين السيف والقلم . وإننا سنقتصر في هذه الدراسة على التوقف عند كاتبين اثنين ، هما ابن زيدون ، ولسان الدين ابن الخطيب ، وفيها الكفاية الكافية لمن أراد الاطلاع على حالة الترسُّل في الأندلس .

## أ - ابن زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣ هـ / ١٠٠٣ - ١٠٧١ م)

ولد ابن زيدون في قرطبة ونشأ في صحبة العلماء والأدباء ، وتقرب من أبي الحزم ابن جهور مؤسس الدولة الجهورية فلقبه بندي الوزارتين ، واتصل بالحليفة المستنكي وعقب بنته ولادة . وقضى رماً في وزارة هدا أو ذاك من الرؤساء الى أن توفي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م .

ابن زيدون ناثر وشاعر ، وسنعود الى شعره فيما بعد ، أما رسائله فأشهرها انتان :

## الرسالة الهزلية ، والرسالة الجدية .

حاول ابن زيدون في رسالته الهزلية أن ينحو نحو الجاحظ في رسالة التريخ والتدوير ، وقد جعل الكلام فيها على لسان معشوقته ولادة ، وإذا هو كلام الاستهزاء والسخرية ، وإذا الاستهزاء يركب تارة مركب النعم في معرض المدح ، وتارة أخرى مركب التهديد والشتائم . وحاول ابن زيدون في رسالته الجدية أن ينحو نحو النابغة في اعتدالياته ، وهو يفتتحها بالاستعطاف ، ويقدم لطلب العفو بمدح أبي الحزم ، ثم بوصف ذنبه وإظهار ضآلته بالنظر الى غيره ، ثم يحاول التوصل من ذنب لم تقترفه إلا السنة الوشاة والحساد ، ثم يعلن أنه ، لولا حبه لوطنه ولولي أمره ، لعارق الوطن والخلان ، ثم يعود الى الاستعطاف في تذلّل وتخلّق ، الى أن يختم رسالته بقصيدة بمدح فيها أبا الحزم مدحاً حافلاً بضروب التوسّل والتذلّل .

ورسلتنا ابن زيدون حافظتان بتضمين الشعر وحله ، وإيراد الأقوال القرآنية والأحداث والإشارات التاريخية ، حافظتان بذكر المعلومات والمعارف ، حافظتان بإيراد الأمثال والأقوال وما الى ذلك مما يدلّ دلالة واضحة على سعة ثقافة الرجل في مختلف ميادين المعرفة .

وأسلوب ابن زيدون هو أسلوب النثر المرسل الذي لا يتقيد بسجع أو بضرب آخر من ضروب البديع ، وإن لم يكن أحياناً من سجع أو استعارة أو ما الى ذلك . ولاين زيدون براعة كبرى في قلب العبارة ، وصوغ التراكيب ، واختيار الألفاظ ، وله مقدرة عجيبة في استخدام الأساليب حتى ليعد بحق أمير الصناعتين في الأندلس .

## ب - لسان الدّين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٤)

هو محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي. وُلد في لوشة وقبل في غرناطة وشأ في بيت علم وفقه وأدب وطب، ينهل من ينابيع المعرفة ما استطاع إليه سبيلاً حتى كان من أوسع أبناء زمانه علماً، ومن أشهرهم صيتاً. وقد استوزره أبو الحجاج يوسف سلطان غرناطة وابنه السلطان محمد. فتألفت عليه جموع الحساد وراحت تسعى في الخطأ من شأنه، وترميه بالكفر والزندقة إلى أن اعتُبلَ في فاس وخُتِنَ في سجنه سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م.

لم يقتصر لسان الدين على الرسائل الديوانية والشخصية، بل كتب في التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطب، ومن كتبه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، و«الحلل المرموقة» في تاريخ خلفاء الشرق والأندلس وأفريقية، و«نفاضة الجواب» في وصف مدن الأندلس وعلماؤها. وله رسائل كثيرة جمع قسماً منها في كتابه «ريحانة الكتاب ونجعة المتاب». وإننا نجتزئ هنا بالكلام على رسائله، ولها الدلالة الواضحة على ما وصل إليه النثر في القرن الثامن الهجري.

لم يتقيد ابن الخطيب، في كتاباته، بمذهب معين من مذاهب النثر العربي فكان يتقلب بين هذا وذلك. يعتمد تارةً هذا ويعتمد تارةً ذلك، إلا أنه اعتمد في أحيان كثيرة مذهباً بعيداً عن الطبع، بعيداً عن الانطلاق والتفجر، مذهب التأميق الذي يمتد في إطناب وإسهاب، الذي لا يهجم الأداء بمثل ما يهجم التّخدير والتّزعزعة، وإظهار الراعة والمهارة، هذا المذهب اللفظي التكراري، الذي يحتال على السجع فيجعله سجعاً ضمن سجع. ويطرز الكلام بأنواع من الجناس والألوان، وبأنواع من الإشارات التاريخية والعلمية، حتى قال عنه أحد المتقّمين: «هو كاتب مترسّل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار، الذي لا يحلو من عثار، والإطناب، الذي يُفضي إلى الاجتناب، والإسهاب، الذي يقدّ الإهاب».



## مصادر ومراجع

نهد رفعة عناية : ابن زيدون - دمشق ١٩٣٩.

شوقي ضيف :

الفن ومناهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦

- الفن ومناهبه في الشعر العربي القاهرة ١٩٤٥.

كاسم كيلاني مقدمة ديوان ابن زيدون - القاهرة ١٩٣٢.

علي حسن القلقيلي : ابن زيدون الأندلسي الكلية العربية ١٨ ، عدد ٣ : ٣٠٨.

فؤاد البستاني : ابن الخطيب وقيمة اللوحات الأندلسية المكتشف عدد ١٤٤ : ٩.

الشيخ أحمد الإسكندري : لسان الدين بن الخطيب - مجلة المعرفة - مجلة المعرفة : ٩٤٦ ،

١٠٥٢ ، ١١٨٨ ، ١٣٠٨ ، ١٤٥٩ . ابن زيدون - مجلة المجمع العلمي العربي ١١ : ٥١٣ ،

٥٧٥ ، ٦٥٦ .



## الفصل الرابع التاريخ والجغرافية والرحلات

اهتم الأندلسيون للتاريخ والجغرافية كما اهتم لها أهل المشرق ، واستهوتهم الأسفار فراحوا يضربون في الأقطار ويدونون الأخبار . وقد اشتهر منهم في التاريخ ابن حيّان صاحب «المتين» ، والفتح بن خاقان صاحب «قلائد العقيان» ، وابن بسم صاحب «الذخيرة» ، وابن بَشْكُوَال . وابن الأَبَر القضاعي ؛ واشتهر في الجغرافية والرحلات أبو عبيد البكري (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) صاحب «معجم ما استعجم» ، وأبو عبد الله المازني (٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م) صاحب «نخبة الأذهان في عجائب البلدان» ، وابن جبير صاحب «الرحلة» . وإننا سنقتصر كلامنا في هذا الباب على ابن حيّان ، وابن جبير .

أ - ابن حيّان . ألف نحو خمسين كتاباً أشهرها «المتين» ، «والمقتبس في تاريخ الأندلس» .  
 ب - ابن جبير : ولد في لُسَبَة ، وكان من هواة السفر فقام بثلاث رحلات أهمها «الرحلة إلى الشرق» .  
 والكتاب مرجع نفيس فيه من المعارف الشيء الكثير ، وفيه من شدة الملاحظة والدقة ما ينهش  
 واس حير بحيث لَبِقَ بِمُحِثَاتٍ في تعصّب وتطوّل ، وأسلوب سهل ، وعبرة رشيقة

أ - ابن حيّان (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ / ٩٨٧ - ١٠٧٦ م)

نكاد نجعل كلّ ما يتعلّق بحياة ابن حيّان من أحداث وأخبار ، ولم يبلغنا عنه إلّا أنه كان غنيّ الإنتاج ، واسع المعارف . وأنه ألف نحو خمسين كتاباً أشهرها «المتين» في ستين جزءاً ، «والمقتبس في تاريخ الأندلس» .

## ب - ابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤ هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧ م)

## ١ - تاريخه :

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنايني ، وأصل أسرته من بلدة شاطبة بالأندلس ، وقد وُلد في بلسية سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ودرس على أبيه علوم اللغة والدين ، وعُي بالأدب فبلغ العاية فيه ، وتقدّم في صناعة القريض والكتابة ، وعندها لمع اسمه استدعاه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن وألحقه بكتاب ديوانه .

كان ابن جبير من هواة السفر ولصّرب في البلاد ولاسيما وأنه رجع للتدوين الشايد الذي تأقت نفسه الى زيارة الأماكن المقدسة للتبرّك والقيام بفريضة الحجّ ، وقد حمّله هذا على القيام بثلاث رحلات دامت الأولى منها ثلاث سنوات (٥٧٨ - ٥٨١ هـ / ١١٨٢ - ١١٨٥ م) ، والثانية سنتين (٥٨٥ - ٥٨٧ هـ / ١١٨٩ - ١١٩١ م) ، وأما الثالثة فكانت خاتمة مطافه في هذه الدّنيا إذ توفّي وهو في منتصفها بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

## ٢ - رحلة ابن جبير أو الرحلة الى الشرق :

دوّن ابن جبير ما شاهده في أسفاره المتعدّدة ، فكان كتبه مصدراً مهماً من مصادر التاريخ والجغرافية ، ولهذا اهتمّ له العمدة فطّيح في لَيْدَن سنة ١٨٥٢ مع مقدّمة للمستشرق رايت ، وأعيد طبعه هنالك أيضاً في سنة ١٩٠٧ . وترجم قسم منه الى الفرنسية . وطُبع في بيروت سنة ١٩٦٤ .

بدأ ابن جبير رحلته في التسع من شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ (١٤ شباط سنة ١١٨٢) وختمها في ٢٢ من شهر محرم سنة ٥٨١ هـ (٢٥ نيسان سنة ١١٨٥ م) . وقد فصلَ عن غرناطة في ٨ من شوال وانتقل الى جيان لقضاء بعض الأُمُور ، ثم أخذ في المسيرة الى جزيرة طريف ثم الى سبتة حيث استقلّ مركباً لبعض أهل جنوة مقلعاً الى الاسكندرية وقد بلغها بعد سفرٍ طويل دام شهراً بكامله . ومن الاسكندرية توجه ابن جبير الى القاهرة ومنها الى قوص بصعيد مصر ، فعُيّداب حيث اجتاز البحر الى جدّة ، ومن جدّة توجه الى مكّة المكرمة حيث قام بفريضة الحجّ ، ثم زار ابلدنية المنيّة ، وبعد

نحو ستة أشهر انتقل إلى العراق فزار الكوفة وبغداد والموصل ، زيارة طويلة ، ثم انتقل إلى بلاد الشام وتجوّل فيها ما استطاع التجوّل ، ومن عكّا ركب البحر عائداً إلى بلاده .

كتاب ابن جبير مرجع نفيس لكل من أراد الاطلاع على أحوال العالم العربي في القرن الثاني عشر الميلاديّ ، فقد وصف ابن جبير كلّ ما شاهدته في طريقه من آثار ومن ظاهراتٍ جغرافيّة وبشريّة . وصف المدن والقرى وما فيها من عجائب ، والمشاهد والمصانع وما فيها من بدائع وغرائب ، كما وصف الأحوال السياسيّة والاجتماعيّة ، ولاسيما النواحي الدينيّة والعادات والتقاليد ، وعُني عناية خاصّة بوصف المساجد وقبور الصحابة ومناسك الحجّ ، ومجالس الوعظ والمستشفيات والمارستانات ، والكنائس والمعابر والقلاع ، وذكر الحروب التي كانت دائرة في الشرق بين الصليبيين والمسلمين ، وما كان عليه المسلمون والمسيحيّون من علاقات حسنة في أثناء تلك الحروب .

وهكذا فالكتاب بحر واسع من العلوم والمعارف ، وابن جبير فيه شديد الملاحظة ، دقيق في تحديد الأمكنة ووصفها ، دقيق في إيراد التواريخ وتحليل المسافات ، وتحليل الأخلاق والنزعات ، وهو إلى ذلك شديد العاطفة الدينيّة يجعل ذكر الله تعالى رفيق كل خطوة يخطوها ، وكل كلمة يفوه بها ، وهو بعد ذلك كلّ محدّث لبق محدّثك في تفصيل وتطويل ، وأسلوب سهل ، وعبارة رشيقة لا تخلو من سجع .

\* \* \*

### مصادر ومراجع

شوقي ضيف :

- الرحلات في سلسلة «فنون الأدب العربي» - ، القاهرة ١٩٥٦ .

رحلة ابن جبير بيروت ١٩٦٤ .

## الباب الثالث الشعر الأندلسي

### الفصل الأول نظرة عامة

١ - انتقال الشعر إلى الأندلس . حمل العرب إلى الأندلس طيبتهم الشعرية كما حملوا نزعاتهم العرقية . وقد نظر العرب إلى الشرق نظر الفرع إلى الأصل ، ونظر الشرق إلى الغرب نظرة استعقار . وما إن كان القرن الحادي عشر حتى قويت الشخصية الأندلسية وحتى أخذ الأندلسيون يعرضون شيئاً فشيئاً عن المشرقة

٢ - شيوع الشعر في الأندلس . انتشر الشعر في جميع الطبقات حتى لتحب أن الشعر في الأندلس لغة الحياة . وكان الشعر شعياً إذ كان تنفس الحياة

٣ - مراحل الشعر الأندلسي .

١ - في عهد الولاة - كان الشعر صدى ضعيفاً للشعر المشرقي .

٢ - في عهد بني أمية : ازداد الشعر انتشاراً

٣ - في عهد الأمارات : تدفّس في نظم الشعر ، ومراسلات شعرية ، وحياة شعرية .

٤ - في عهد المرابطين : انحط الشعر انحطاطاً مشؤوماً ونزع منزع الرجل .

٥ - في عهد الموحدين : كان العهد عهد هدوء وسكينة وعلم .

٦ - في عهد بني الأحمر : كان العهد عهد اعتلال وترداد لأحاديث الماضي .

٤ - موضوعات الشعر الأندلسي : تناول الأندلسيون جميع موضوعات المشاركة ، وزادوا على التراث لوباً سياسياً عثم رثوا المائات الوالدة ، وأوغضوا في الرصف ابتغالاً شديداً

٥ - نزعات الشعر الأندلسي

١ - سنان شعري : هم ما اعتم له شعراء الأندلس الطبيعة والمرأة والحكمة . توقّف بمصهم عند لطيفة توقّف لعاشق آدم العشوق ، واتخذها بعضهم لآخر إصاراً للهوهم يتناغم وأحوالهم التعسبة ليس في مصهم لوحات كاملة .

٢ - مزيج عجيب : مزيج من قديم وحديث ، من أقباعية وابتدعية ، من ناسية وصوفية .

٣ فليفسد شعرة: التصحّ السبق في الشعر الأندلسي بمثابة عصر ضروري من حاصر الحياة ،  
والشاعر الأندلسي يوصف الزخارف والصور والألوان وصفاً فيسياسياً.

٤. حياة ونشيجس: شاع التشخيص في الشعر الأندلسي حتى لتحسب أن في الطبيعة مجسماً على  
جب المصح البشري

٥. موسيقى وألحان: الشاعر الأندلسي موسيقي الأذن واللسان ، وكان القصيدة الأندلسية قطعة  
موسيقية تعمل على إثارة العاطفة في غير اهتمام شديد بالمعاني العميقة الدقيقة.

### ١ - انتقال الشعر الى الأندلس :

لقد تدفّق العرب على الأندلس تدفقاً شديداً ، ولئن تمضي فترة من الزمن يسيرة  
حتى نرى البلاد تتوج بالعرب موجاً. وقد حملوا معهم الى الأندلس طيبتهم  
الشعرية ، كما حملوا زعمائهم العرقية ، وكان الشعر يحلّ حيثما حلوا ، وكان ينمو  
ويتعرّج في انفجار طبيعي أشبه بانطلاق النور من قلب الشمس . وفي هذا الجو الجليل  
أُسّس المجال لموطن شعري جديد ، وإذا هنالك عالمان : عالم شرقي ، وعالم غربي ، عالم  
شرقي بشخصيته التي عرفناها وتغنّناها في أطوارها عبر العصور ، وعالم غربي بشخصيته  
تتكوّن شيئاً فشيئاً ، ويبدأ تكوينها يوم كان يشار وأبو نواس في الشرق بثوران على  
التقاليد الموروثة ، ويريدان شعراً شعبياً ينساق مع البيئة ، ويوضح بروح العصر . عالمان  
عربيان : أصل وفرع ؛ وللأصل تاريخه وأبعاده ، وللفرع طموحه وآماله . وقد نظر  
العرب الى الشرق نظر الفرع الى الأصل ، وفيه عزم على مواصلة الحركة الشعرية في أوج  
ما وصلت اليه ، وفيه طمع في التقليد الحياتي والأدبي . وقد قلّد ما استطاع التقليد ،  
وكان دائم التطلع الى دمشق وبغداد والمدينة ، حتى انقلب وفي نفسه شيء من نقص ،  
وحتى وهمّ أنه دون الشرق منزلة ، وإن عمِلَ على منافسة ذلك الشرق والنهوض في  
وجهه سياسياً واجتماعياً وأدبياً . ونظر الشرق الى الغرب نظرة استصغار ، فالأندلس بلاد  
فتحت على غير إرادة السلطة ، ثم قام فيها حكم يابويء حكم الباسيين في بغداد ، ثم  
ان العرب الذين هاجروا اليها امتزجوا بسكانها امتزاجاً أفقدهم شيئاً من عروبتهم ،  
وساقهم الى الرطانة في اللغة .

وما إن كان القرن الحادي عشر حتى قويت الشخصية الأندلسية ، وحتى أخذ

الأندلسيون يعرضون شيئاً فشيئاً عن المشاركة، ويجدون عندهم العالم والأديب والشاعر، ويجلون عندهم من ينافسون به المشرق. وقد أخذوا في جمع الشعر الأندلسي فوضع أبو الوليد الحميري كتاب «ابديع في وصف الربيع» وأعلن في مقدمته أن الأندلس أصبحت في غنى عن أدب المشرق لما أتى به أديباؤها وشعراؤها من روائع القول. وفي أوائل القرن الثاني عشر وضع ابن بسام كتاب «الدحيرة في محاسن أهل الجزيرة» وأراد فيه أن يكاثر أهل المشرق ويصدّ أباء الأندلس عن التطلّع إليهم، ويقدم الشواهد على أن العبقرية الأندلسية قد تموّقت في أمور كثيرة على العبقرية الشرقية. وفي الوقت نفسه وضع الفتح بن خاقان «قلائد العقبان» للناية نفسها وفي سبيل الغرض نفسه، وظهرت كذلك دواوين الشعراء فكانت البرهان القاطع على عروبة الشعر الأندلسي وعلوّ منزلته.

## ٢ - شيوع الشعر في الأندلس:

شاع الشعر في الأندلس شيوعاً واسعاً جداً، وانتشر في جميع الطبقات. فزاوله الملوك<sup>١</sup> والوزراء، وأنشده القضاة والعلماء، وقاله الأعمى المتسوّل والساعي المتجوّل، وفاه به القائد في مقدّمة الجيوش. والحندي في ميادين القتال، حتى لتحسب أنّ الشعر في الأندلس لغة الحياة، وأنّ الحياة شعرٌ وألحان. والذي يلفت النظر في الموضوع أنّ للريفيين في لشعر الأندلسي أعماق الأثر. قال هنري بريس: «لم يكن عمل الفلاحة ليلفّ الحياة الريفية لفاً كاملاً، ولم يكن الفلاح لينوب في عمله كياناً وبياناً، بل كانت له فترات أحلام، وانسيابات خيال وإلهام، ولئن تخرج عن جادة الصواب إذا قلنا إنّ أعماق الشعر شخصيّة هو شعر الرجال والنساء الذين كانوا ألصق بالأرض، وأقرب إلى الطبيعة. فقد تسرّبت إلى شعرهم عذوبة المشاهد وقسوتها، وعندما انتقلوا إلى ليّن المدينة استطاعوا أن يعبروا، عن أقوى الأفكار في أنصر الصور

١ كان المطر من المصور شدّد الميل إلى شعر البرهيات، وكان يعرض على الشعراء موضوعات طريفة في وصف الجمال والحقوق. وكان المتصد بنظم الشعر ويرتاح إلى سماعه. وكان المتصد من حيرة شعراء الأندلس. وقد حمل انشيلية محور الحركة الأدبية

وأزاهها ألواناً. فهم الذين أكسبوا الشعر الأندلسي تلك الميزة الريفية التي تصبها بأصدق ما كتبه اليونان والرومان في موضوع الريف<sup>١</sup>...

وقد بلغ انتشار الشعر ذروته منذ القرن الحادي عشر، وكان ذلك فريداً في تاريخ العرب. أضف إلى ذلك أن الشعر في المشرق انحصر ضمن نطاق الأرستقراطية، وإن عمل بشار وأبونواس على إنزاله إلى الحيز الشعبي، أما في الأندلس فكان الشعر شعبياً بكل ما في الكلمة من معنى، وكان تنفس الحياة بكل ما في الكلمة من معنى، وكان لغة الجميع. «فهو للعامل والفلاح أنشودة الجاه بعد التعب؛ وهو للكاتب والوزير والأمير انغلافة من عبوديته المموم والمهام؛ وهو للشعراء الرسميين وسيلة للتكسب وكسب لقمة العيش، كما هو في الوقت نفسه مجال لانطلاق الفن؛ وهو للجميع موضوع فخر ومباهاة، ومجال حرّ لا يضيق بوزير ولا أمير. والأندلسيون يميلون إليه لأنه شعر، ولأنه كلام موزون يتطلق من الشفاه أحياناً وأنغاماً، لأنه «كلام مجتج»، وموسيقى قبل أن يكون خطاباً»<sup>٢</sup>.

#### ٢ - مراحل الشعر الأندلسي:

١ - في عهد الولاة: نشأ الشعر الأندلسي في عهد الولاة نشأة غامضة، وكان صدى ضعيفاً للشعر المشرقي تتردد فيه معانيه وأساليبه ومن شعراء تلك الفترة: بكر الكيتاني، وعباس بن ناصح، وعبيد الله بن قرطبان، وعبيد بن محمود، ومحمد بن يحيى القلظاط، وحسانة الشميمية، ويحيى بن حكيم الغزال.

ومما زاد التأثير البغدادي في هذا العهد أنغام الجوارح المشرقيات الآتي حيلن إلى الأندلس من مثل «لمر» و«العجفاء»، وأوتار علي بن نافع الملقب بزرياب (الطائر الأسود)، وقد قر من بغداد تحليفاً من غيرة أستاذة إسحاق الموصلي، وحمل إلى الأندلس طائفة كبرى من أنغام الشرق أصبحت في أصل الموسيقى الإسبانية على مر العصور.

١ - La Poète Andalouse, p. 479.

٢ - المصدر نفسه، ص ٦١ - ٦٢.



وقد ظهرت في هذا العهد الأراجيز التاريخية كما ظهرت الموشحات على يد شاعر ضرير هو مُقدِّم القُبْرِي الذي عاش في أواخر زمن الولاة ، وانتشر شعر «النُورِيَّات» انتشاراً شديداً الى جنب الرُهديَّات والتاريخيَّات وما إلى ذلك .

٢ - في عهد بني أمية : ولما كان عهد بني أمية في الأندلس ازداد الشِعْرُ انتشاراً ، لما أولاه الحكام من عناية ، ولما كان هنالك من حركة علمية وأدبية هي أشبه شيء بحركة أوائل العهد العباسي في الشرق . وقد اشتهر من الشعراء إذ ذاك ابن عَبدِ ربه ٣٣٩ هـ (٩٤٠ م) صاحب العقد الفريد ، وابن هانئ الإلبيري ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، والرَّيْدي ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وابن أبي زَمَنِين ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ، والمُصْحَكي ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) ، وابن إفريس الجزيري ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) ، وابن دَرَّاج القسطلي ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) ، وابن بُرْد ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) . واشتهر في فترة الانتقال من العهد الأموي الى عهد ملوك الطوائف ابن شُهَيْد ٣٨٢ هـ - ٤٢٧ هـ (٩٩٢ - ١٠٣٥ م) وابن حَزَم ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ (٩٩٤ - ١٠٦٣ م) وهما من أظهر أعلام الثقافة الأندلسية ، وقد شهدا سقوط الخلافة الأموية وبكيا قصر الخلافة في قرطبة لما عراها من خراب ودمار .

٣ - في عهد الامارات : وما إن انهارت الخلافة الأموية حتى تحوّلت بلاد الأندلس الى إمارات تنافس فيها الحكّام في طلب العلم ، والأخذ بأسباب الأدب ، وتقريب الشعراء ، بل تنافسوا في نظم الشعر ، وكانوا يتراسلون فيما بينهم شعراً ، ويحاولون أن يعيشوا حياة شعرية . وقد اشتهر في ذلك العهد الْمُعْتَمِد بن عباد صاحب إشبيلية ٤٦١ هـ - ٤٨٤ هـ (١٠٦٨ - ١٠٩١ م) ، وأبن زيدون ٣٩٤ هـ - ٤٦٣ هـ (١٠٠٣ - ١٠٧٠ م) ، وأبو بكر بن عَمَّار الشَّلي ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، وأبو بكر بن اللَّبَّان الدَّائمي ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) ، وأبو عبد الله محمد بن الحُدَّاد ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، وأبو مُحمَّد عبد الجليل بن وَهْبُون المُرَسي ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، وابن صارة الشُّنُتْرَني ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) وأبو عبد الله محمد بن شرف البرجي ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) .

٤ - في عهد المرابطين . وفي عهد المرابطين انحطَّ الشعر انحطاطاً مشؤوماً لأسبابٍ شتى منها أن ذلك العهد كان قصيراً لم يتيسر لأصحابه من الوقت ما يلهيهم عشوتهم

ويرقق من أدواقهم ، ثم إن الثقافة في العهد السابق لم تكن من العمق والمثانة بحيث ينهبا لها البقاء في هذا العهد ، زد على ذلك أن المشرق كان إذا ذاك في انهيار ولم يبق له عى الأندلس إلا أثر ضئيل جداً . فراح الشعر يتضاءل ويتلاشى ويزع نزعة الرُّجُل والتَّوشيح ، وانصرف نفر من أهل الحرص يجمعون الشعر الأندلسي خشية أن يضيع ، فوضع أبو الحسن علي بن بسّام ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) مجموعته **والدخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، ووضع أبو نصر الفتح بن خاقان القلاعي (١١٣٤ م) كتابه **وقلائد العقيان** .

وقد تغلب في هذا العهد ذوق العوام ، ومال الشعر الى كل ما هو سُوقي ، واتسم بسمة البذاءة ، وهكذا كان العهد **«عهد الهجاء اللاذع والسخر العنيف»** ، عهد المتحررين والمُجان من الشعراء ، وعهد كبار الرّجالين كذلك .

وقد اشتهر من الشعراء أبو إسحاق بن خطّاجة ٤٥٠ - ٥٣٣ هـ (١٠٥٨ - ١١٣٨ م) وابن أخته يحيى بن عطية بن الزُّقاق ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) وهما من أهل جزيرة شقر ، والأعمى التّطيلي ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وابن بَقيّ ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . واشتهر في الشعر الرّجلي **ابن قُزّمان** .

٥ - في عهد الموحّدين : وكان عهد الموحّدين عهد هدوء وسكينة ، كما كان عهد علم عرف ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن عربي ، وابن زهر ، وابن البيطار ، واشتهر أبو عبد الله محمد بن غالب البلسني المعروف **بالرّصافي** (٥٧٣ هـ) (١١٧٧ م) ، وأبو بحر صفّوان ابن ادريس الجيميزي صاحب **«زاد المسافر»** ، وأبو عبد الله محمد بن ادريس المعروف **بمِرّج الكحل** ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، واشتهر كذلك عدد من النساء اللواتي تعاطين القريض من مثل حفصة الرُّكوبية ، كما اشتهر ابراهيم بن سهل الاسرائيلي ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، وأبو عبد الله بن الأبار القضاعي .

٦ - في عهد بني الأحمر : أما عهد بني الأحمر في غرناطة فكان عهد انحلال اشتهر فيه الوزير لسان الدين بن الخطيب ٧١٣ - ٧٧٦ هـ (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) ، والوزير محمد بن يوسف الشريحي المعروف **بابن زَمْرُك** ٧٣٤ - ٧٩٦ هـ (١٣٣٣ - ١٣٩٣ م) ، وقد «ردّد» أصداء الماضي المولّي في نغم نادر الجمال والروعة .

تلك هي المراحل التي مرّ بها الشعر الأندلسي ، وإنّنا نرى من خلال ها أن الشعراء

قليلو العدد قبل القرن الحادي عشر ، وأن شعرهم تقليدٌ للشعر العباسي في موضوعاته وأساليبه . وقد ازداد عدد الشعراء بعد ذلك العهد وتضخم الإنتاج الشعري وظهرت فيه الشخصية الأندلسية ، والزعة الشعبية ، وإذا الشعر على السنة جميع الطبقات ، وإذا الحكام والأمراء والوزراء وأرباب الفقه والأطباء والمتصوفون ، وإذا العميان والعمال وغيرهم يتعاطون القريض .

### ٤ - موضوعات الشعر الأندلسي وميزاته :

تناول الأندلسيون في شعرهم جميع الموضوعات التي تناولها المشارقة من مدح ورتاء ، وغزل وخمر ووصف ، وحاسة وفخر وهجاء ، وزهد وحكمة وما إلى ذلك ، إلا أنهم صرفوا معظم مهمهم إلى الوصف ولا سيما وصف الطبيعة بجنائها وأزهارها ومشاهد فصولها . وكانت الطبيعة في نظرهم شخصاً حياً يوشون كل ما يكتبون بما فيها من مظاهر جمال وفتنة .

وقد جرى الأندلسيون في مدحهم ورتائهم وفخرهم على أساليب المشارقة وادوا على الرثاء لوناً مياسياً تناولوا فيه زوال الممالك واللول كما فعل ابن عبدون عندما رثى ملك بني الأفطس أصحاب بطليوس ، وكما فعل أبو البقاء الرندي عندما رثى الأندلس وقد استرجعها الإسبان ، وكما فعل ابن اللبانة عندما رثى بني عباد وصور الأرزاء التي حلت بهم . وأما شعر الحكمة فضيل في الأندلس لضعف التفكير وقرب مدى النظر في الأحداث والأمور . وأما الشعر الزهدي والصوفي فهو في الأندلس واسع النطاق ، بعيد الآفاق . وأما الغزل فهو نوعان : علوي وإباحي على نحو ما كان في الشرق ، وقد أكثر الأندلسيون في الغزل الإباحي من وصف لباي الأنس على ضفاف الأنهر ، والغزل الأندلسي يدور حول الجمال الحسي وقما تراه بتغلغل إلى النفوس ، وقما تراه يهتم للتحليل ، فهو سطحي ، وهو تكرار لمعان واحدة في ألبسة مختلفة من الزهو وألوان الطبيعة .

وأما الشعر الحميري فكان له نصيب وافر في الأندلس ، وهو شعر مجالس الأنس ، وشعر الموائد الفخمة الحافلة بالأطياب ، وشعر المياه الخمرية ، والأزهار الفواحة ، والأوتار الصمدية ، والكثروس الطافحة ، والسقا الخفي الحركة ؛ وهو شعر القلود

الهيفاء التي تملأ الجو مرحاً وعريضة؛ وهو أبدأ شعر السطحية الفكرية وشعر الغنى الوصفي.

وأما الوصف فقد أوغل فيه الأندلسيون إغفالاً شديداً، وأكثروا فيه من التشبيه حتى إنهم لم يتركوا شيئاً إلا شبهوه بشيء، وأكثروا في تشبيهاتهم من التقريب بين المتباعدات؛ كما أنهم وصفوا الأمور في بطن وتراخ، فتوقفوا عند الدقائق وأطالوا الكلام فيها كما يفعل أصحاب النقش والتمنمة، ووصفوا الأمور التافهة بكلام طويل زاحر بالتشبيه وبضروب البديع، وأكثروا في كلامهم من الأحاجي والألغاز والإشارات الدقيقة. وقد قادهم الترف الوصفي إلى أن أقاموا بين الأزهار وغيرها مجالس مناظرات ومناظرات تحمل باللاغة المركبة المترفة والموسيقى العذبة، وإن خلت من العمق والتحليق في عوالم الانطلاق الفسيحة الأرجاء، وهكذا كانت كل الأشياء عديمهم سواء يستعملونها في تكوين صور نباتية ذات جمال نذكرنا بالزخارف المتشابهة التي تنقش في المرمر أو الرخام أو الجص على السواء. كل شيء يصلح أن يكون مادة للفن في أيديهم. هذا ولا وجود لإحساسنا بالطبيعة في هذه الروضيات غير الواقعية.

#### ٥- نزعات الشعر الأندلسي:

١ بستان شعري: إن من يقلب صفحات الدواوين الأندلسية، ويتنبع المجموعات الأدبية التي انطوت على المختارات الكثيرة من أدب الأندلس، يجد أن الموضوعات التي كانت تستأثر باهتمام الشعراء ترجع إلى الطبيعة، والمرأة، والحمرة، والزهد وما إلى ذلك، والشاعر الأندلسي شديد الانحياز إلى الطبيعة، شديد الشغف بها. وهي في زحمة الموضوعات مركز الالتفات، ومنع التصوير والتزيين، يرجع إليها الشاعر في كل ساعة، ويسكب منها في نفسه وخياله ما تنسكب فيه النفس وينطلق به القول. وحب الأندلسي للطبيعة غارق في جو من الحزن الرومنطيقي، فهو يتحدث عنها في حله وترحاله، ويعمل ديوانه سستاناً من بساطتها، يتعاقب فيه الورد والياسمين، ويتناجى فيه البهار والتيلوفر والتسرين؛ سستاناً يلقه النور أو الظلام، وتجري فيه المياه على حصاء فضية، وتنتشر الأطياب في جوه سحراً ونشوة. ولئن توقف بعض شعراء الأندلس عند الطبيعة توقّف العاشق أمام المعشوق، فقد أخذها غيرهم إطاراً للهوهم

يتناغم وأحواضهم النفسية. قال هنري بيرس: «إن المشاهد التي تتفق ومزاجهم الفني ليست مظلمة ولا رهيبة؛ والحُب ينساب فيها أبداً ويصبغها بصيفته المائعة. وليس في وصفهم لوحات كاملة، وإنما هنالك خطوط موجزة؛ وليس في وصفهم صحب، وإنما هنالك وسوسة الكتابة النفسية. لم يجد الصَّيْف الساطع النور في كتابتهم محلاً؛ إنهم آثروا الربيع؛ ولكن التجدد الحياتي الذي يرمز اليه الربيع لم يستحث حواسهم وعقلهم استحثاً شديداً. إنهم شعراء المساء، والليل، والفجر، دون الظهيرة المائلة. ولئن استرسلوا أحياناً إلى لذة العيش؛ فزمنهم لا يفيضون شيئاً على السكينة والانفراد، ويجالس اللهو نفسها لا يحول دون انفلات أحلامهم: فالوسيقى، والغناء، والرقص، وإنشاد الشعر، كل ذلك يتعاون على اقتلاعهم من الواقع. إنهم يشعرون في قرايرهم أن متع الحياة غير صافية. وهنالك قلبي، قلبي تجده عند المشاركة، يعور جميع الأفعال التي يقوم بها الأندلسيون في مجال المجتمع. إن الأحوال السياسية المضطربة تهدد كل مصير، وألق البلاطات الصغيرة قد يزول بين ليلة وضحاها. وأنت تلمس عندهم شيئاً يشبه العاطفة الدنيبة ويحول دون استيعابهم لأطايب الوجود، وهذا الشيء ليس تشاؤماً ولا هو كتابة بالمعنى الدقيق للفظه».

٢ - مزيج عجب: يتجنى لنا الشعر الأندلسي مزيجاً عجيباً من قديم وحديث، من أقباعية وابتداعية، من إباحية وصوفية؛ فأمام المشاهد العارضة، وأمام تأثيرها على النفس لا يستطيع الشاعر الأندلسي أن يتملص من غزو التقاليد العربية القديمة، والأساليب والصور التي درجت عليها أقلام الأقدمين، فهو يتأثر بعض التأثير بالمشاهد التي وصفوها، والمشااعر التي تفاعلت فيها نفوسهم وتلك المشاهد، إنه يحاول التعبير عن تجربته النفسية، ولكنه في تجربته وتصويره يتطلب المبالغات في أدب المشاركة، وإن كان ذلك بطريقة لا وعية، وهذا التطلب يفقد شعره بعض ماله وروائه. ثم إن وجدانيات الأندلسيين يشوبها أحياناً شيء من ضعف بسبب الصبغة العروضية العربية التي تضيق بتلك التجارب التي تختلف عن تحارب العرب الأقدمين. والأندلسيون لا يفقدون شخصيتهم الخاصة في ذلك العمل الابتداعي التقليدي، فهم يلبثون القديم ما استطاعوا التلبيين، وهم يستخرجون من الأساليب القديمة والتعبيرات القديمة ما ينسجم

ومزاجهم الخاص، ويتناغم وأحوالهم الحياتية، وهم من ثم ابتداعيون في ناحية شعرهم التقليديّة، وأندلسيون في الصياغة المشرقية.

٣ - فسياء شعريّة: والأندلسي متأنق في حياته وأعماله، دقيق الأناقة والتظرف، عام الذوق والتذوق. وقد امتد التأنيق عنده الى جميع مظاهر عيشه، وأقام حضارته على الأناقة المترفة، على البناء الجميل، والموسيقى الرقيقة، والزهرة الحاملة، والماء المتغلغل في أرواح الأعشاب، وعالجت أنامله الحفر والتلوين والترويق في العاج والنسيج والفسيخ، وتأنت حتى في تسمية القصر والبستان والكتاب، وتطيّب، وتزيّن، وأقام لمأكله ومشربه، وملبسه وممشاه، آداباً تصطبغ ببصغة الفنّ الراقي، والرقيّ الفنان. ولم يكن الأدب بمعزلٍ عن هذه الروح، فراح الأندلسي ينظم شعره، وكأنه يعالج الحجارّة الكريمة، والجواهر اللماعة، وراح ينساق مع ميله الغلاب الى الثرف وزهر الفنى، ويمشي رغبته الذمّة العميقة في ارتداد أجواء العظمة الجميلة التي تنظم التصنّع التنبهيّ بمثابة عنصر ضروري من عناصر الحياة. وهكذا تصبح القصيدة الأندلسيّة قصراً من القصور، أو جنة من الجنّات، أو مجلساً من مجالس اللّهُو. أما المعاني فهي البضاعة الرائجة بين الناس المترفين؛ وأما الصناعة فهي الصورة للمادة، وهي المظهر الذي يُنسي الخشوع، وهي الألق الذي يبهّر العين، ويُطرب السمع، ويُسكر الأنف، ويتقل الى النفس عباباً من المتعة تفرق فيه غرقاً رقيقاً، وتعم فيه عوماً أنيقاً. وترى الأندلسي يحشد الزخارف حشداً، ويتطلّب الصورة تطلّباً، ويرصف الزخارف والصّور والألوان رصفاً فسيخالياً. وما ذلك كلّهُ إلا صدّى للنفس، وتجربة حقيقة وإن كانت مصطنعة المظاهر. إنّه تجربة الحياة، أو قل تنفس الحياة الأندلسيّة ولا سيما بعد اقرن الحادي عشر. وهكذا تلمس في القصيدة الأندلسيّة تعقيداً شغافاً، تعقيداً بعيداً عن التعقيد الذي لا ينسجم مع الحياة، بعيداً عن التعقيد الغموضي الذي يخفي بعض الشعراء تحته تقصيرهم التجريبي والايابي.

٤ - حياة وتشخيص: وإد كان الأندلسي شديد الإنفصات الى الحياة، شديد القوى الحياتيّة راح يتنمّس الحياة في كل شيء. وفي تشخيص القوى الطبعيّة أشدّ وأغرب مظاهر الشعر عند الأندلسيين، فإنّ عبقرتهم الخلاقة في موضوع التمثيل استطاعت أن

تحيي الحب والموت ، والشباب والربيع ، والفرح والألم . إنهم ، بدافع الغريزة والميل الطبيعي ، يخرجون الأشياء في شكل إنساني ، ويحولونها الإحساس والشعور . وإنهم يعتمدون الى الذكرى نفسها فيعملون على إحيائها بتمثيل الماضي تمثيلاً دقيقاً وكثيفاً . وهم بذلك يحالفون الشعراء المشاركة في كون التجربة السالفة تصبح عند أولئك المشاركة مجرد فكرة ، مجرد اعتبار فلسفي ضعيف الصلة بالذات<sup>١</sup> .

وهكذا شاع التشخيص في الشعر الأندلسي ، حتى لتحسب أن في الطبيعة مجتمعاً الى جنب المجتمع البشري ، مجتمعاً عاطفياً شديد التألق ، مجتمعاً تصطرع فيه الأهواء وتتنازع الأطماع . قال ابن حصن في التبلوفر :

كُلَّمَا أَقْبَلَ الطَّلَامُ عَلَيْهِ غَمَّضَتْ أَنْجُمُ السَّمَاءِ عَيْنَيْهِ  
فَإِذَا عَادَ لِمَصْبَاحِ ضِيَاءِ عَادَ رُوحُ الْحَيَاةِ مِنْهُ إِلَيْهِ

والأمر الذي نلمسه في الشعر الأندلسي هو التصاق المرأة بالطبيعة . ففي الأوصاف نجد المرأة ذات صفة وثيقة بكل مظهر من مظاهر الجمال في الجنائس وجداول الماء . وفقاً يذكر الشاعر حجراً كريماً ، أو زهرة جميلة ، أو ألماً متمعاً ، ولا يشبهها بشيء ، أو خلج ، أو عين ... والألوان - ولا سيما الأحمر والأصفر منها - تُشير بطريقة مُبِحة الى حالات العاشق والمعشوق ، فالأصفر يرمز الى الحب الوطن الذي داب نحولاً وأرق ، والذي نهكه الشوق حتى عبّر لونه الشاحب عن قلقه الدائم وهمته المستبد ، والأحمر يرمز الى الفتاة المغتاج التي تزد تعذيب الحبيب ، كما يُشير الى الحُقر والحياء . قال جعفر بن محمد المصحفي يصف سفرجلة :

وَمُصَفَّرَةٌ تَحْدُدُ فِي ثَوْبٍ زَرْجَسٍ وَتَعْبِقُ عَنْ مِسْكِ دَكِيٍّ التَّنْقَسِ  
لَهَا رِيحٌ مَحْبُوبٍ وَقُوَّةُ قَلْبِهِ وَلَوْ أَنَّ مَجِبَ حَلَّةِ السُّمَمِ مَكْنَسِي  
فَصَفَّرَتْهَا مِنْ صُفْرَتِي مُسْتَعَارَةً وَأَنْفَاسَهَا فِي الطَّيِّبِ أَنْفَاسٌ مُؤَسِّسِ

١ - H. Pérès, La Poésie Andalouse, p. 476.

٢ - عن بلكان بالطيب : تنفرت رائحة العجب فيه . تعنى عن مِسْكٍ : أي تروح بها رائحة المسك .

وَكَاْنَ لَهَا تَوْبٌ مِّنَ الرُّغْبِ أَغْبَرُ      عَلَى جِسْمٍ مُّصْفَرٍّ مِّنَ النَّيْرِ أَمْلَسُ  
فَلَمَّا اسْتَمْتَتْ فِي الْقَضِيبِ شَبَابَهَا      وَحَاكَتْ لَهَا الْأَوْرَاقُ أَنْوَابَ سُنْدُسٍ  
مَدَدْتُ يَدِي بِاللُّطْفِ أَنْفِي اجْتَنَاعَهَا      لِأَجْعَلَهَا رَيْحَانَتِي وَسَطَ مَجْلِسِي  
ذَكَرْتُ بِهَا مَنْ لَا أَوْحُ بِدِكْرِهِ      فَأَذِلُّهَا فِي الْكَفِّ حُرَّ النَّفْسِ

### ٥ موسيقى وألحان

والشاعر الأندلسي موسيقى الأذن واللسان ، وهو إذا نظم استحث القرينة بالوتر ، وإذا أنشد واكب القول بالنغم ، وإذا استغنى من سكرة نطمه وإنشاده وحد نفسه غارقة في جو حافل بأرواح الموسيقيين ولهاث الأوتار المحترق . وهكذا فالموسيقى عنصر ضروري من عناصر الحياة الأندلسية ، تسربت إلى نفوس الشعراء تسرب تكويني وتكيفي ، فكان شعرهم لا ينفصل عنهم عن اللحن . وقد تعاطى بعضهم فن الموسيقى فالتقوا فيه كما فعل ابن باجة الفيلسوف والشاعر<sup>٣</sup> ، وكان أبو عبد الله بن الحداد يرى في الشعر غير النغم القائم على المدات والسكبات ، إنه كان يرى فيه موسيقى حقيقة فصل عناصرها في كتب شهيرة<sup>٤</sup> .

وإن من استقرأ الشعر الأندلسي ، وجده منظوماً على أوزان تنسجم والروح الموسيقية ، ووجد ألفاظه وحروفه وقوافيه تتغنى وكأنها في مهرجان من الألحان . والموسيقى فيه هي ارتعاشات عاطفية ، وتفاعلات ذات اهتزازات ، ومعادلات معوية ولغزية ، وغيبوبة تهدأ على ألوان من امتدادات النغم ، فكان القصيدة قطعة موسيقية تعمل على إثارة العاطفة . وإحداث الغيبوبة في غير اهتمام شديد للمعاني العميقة الدقيقة . إن معانيها قليلة ، ولكن تلك القلة المعنوية تكرر وتُنمق ، وتُنغم وتُلحن ، إلى أن تثير الشعور — ولا غابة لها إلا إثارة الشعور — ومتى بلغت الهدف ، راحت تُلوح

١ الرغب ، الريش أو شعر الصغير ، البئر ، الذهب .

٢ السندس صنف من نسج الحرير أو الشَّاج

٣ طالع وفلان ، المعيار ، للمح من تخالفاً ، ص ٣٠١ ، ٣٠٥

٤ ذكر ابن بسام تلك الكتب في كتابه «المعجم» .



الكيان حتى تصفو الروح وتصل الى تلك الترفانا الفنية التي يصبو اليها الأندلسي في حياة نعيمه .

وهكذا فالشعر الأندلسي يمتاز عموماً بالصَّحالة الفكرية وإن كان غنيّ الصور ، وهو حافل بالزخرفة التي تثقل كاهله ، مُثَقِّلٌ بالأخيلة فوق ما يطيق ، شديد التعميق والترف والتعقيد والتركيب . وهو مكبل بقيود القوالب الشكلية ، فقير من الناحية العاطفية العميقة في قسم كبير منه ، بعيد عن الشعور الإنساني أحياناً كثيرة ، يغلب فيه التكرار . وهو رائع الموسيقى الشعرية ، سهل الالفاظ تبلغ به السهولة أحياناً الى الضعف والركاكة .

\*

### مصادر ومراجع

- إميليو غوسيه غومس . الشعر الأندلسي . عربي عن الإسبانية حسين مؤنس — القاهرة ١٩٥٢ .  
 جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي — الجزء الخامس — القاهرة ١٩٣٤ .  
 ج . ب . ترند : ثوات الإسلام — الجزء الأول . ص ١ — ٩٧ — القاهرة ١٩٣٦ .  
 إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي — بيروت ١٩٦٠ .

H. Pérès, La Poesie Andalous en Arabe Classique au XIe s Paris 1932.

R. Dozy, Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne, Paris, 1820

## الفصل الثاني

### الموشحات

أ - حقيقة الموشح : الموشح نوع من الشعر قاد إليه الغناء ، كما قادت إليه طبيعة الحياة والأحوال الاجتماعية . إنه شعر جديد في سميته ، وفي تركيبه وقالب التصفية فيه ، وفي اتساع دائرة وزنه ، وفي صياغته وتعدد أجزائه .

٢ - تركيبه .

١ - المطلع القفل - المخرجة في الموشح مطلع ، وأنفال ، وحرحة ، والمطلع يُسمى مدحياً إن وُحد المطلع سمي الموشح تاماً ، وإلا فيسمى أفرع .

٢ - الدور : يتألف الدور من بلي المطلع ويقع بين الأنفال .

٣ - المصن السطّ : الجزء في المطلع والقفل والمخرجة يُسمى عُصاً ، والجزء في الدور يُسمى وسمياً .

٤ - تلفية الموشحات ووزنها : تحرر الموشح . بتأثير الغناء والبيئة ، من القيود الشعرية التقليدية . وكان في أوزانه وقويعه شديد التنوع .

٥ - نشأة فن الموشح وأصوله .

١ - نشأته : كانت نشأته في الأندلس ويعزى اختراعه إلى محمد بن حمّود القبري القريري ، وقد نشأ الموشح نشوئاً طبيعياً على ألحان الأناشيد الشعبية التي كانت شائعة في البلاد .

٢ - تطوره : كان في أول أمره أشعاراً حالية من التضمين والأغصان ، ثم أخذ يتقدّد حتى تكامل نظامه مع عبادة بن ماء اسماء .

٣ - أشهر الموشّحين : عبادة بن ماء السهمي محمد بن عبادة القزّاز الأعمى الشّطّلي ابن يحيى الحفيد بن زهر - ابن زمرك

٤ - أغراض الموشحات : كانت الموشحات في بدء أمرها ذات أغراض وجدانية ، ثم سُحِّرت لجميع الأغراض الشعرية التقليدية

## ١ - حَقِيقَةُ الْمَوْشَحِ :

تصارت الآراء في شأن الموشح ، وتباينت الأقوال في حقيقته تبايناً شديداً فذهب ابن سناء الملك (١١٥٥ - ١٢١١) الى أنه «كلام منظوم على وزن مخصوص»<sup>١</sup> . وذهب محمد بن أبي شنب الى أنه «قصيدة منظومة للعناء»<sup>٢</sup> وجعله غيرهما نوعاً من الشعر المسطوط<sup>٣</sup> . والذي يُرسل رائد النظر في هذه الأقوال جميعاً يجد أن أصحابها لم يبينوا حقيقة الموشح تبيناً تاماً ولم يوفوه حقّه من التعريف والتحديد . فكَم من موشح نُظِم على وزن القصائد التقليديّة ولم يكن على وزن مخصوص ، وكَم من قصيدة نُظِمَت للغناء وليست من الموشحات في شيء ، أضف الى ذلك أن التّسبيط نوع من الزخرفة والتنميق وليس فنّاً شعريّاً خاصّاً<sup>٤</sup> . والموشح شعر ، بل نوع خاص من الشعر ، قاد إليه الغناء ، كما قادت إليه طبيعة الحياة والأحوال الاجتماعية لا تطبق عليه قواعد العروض ، وإن نُظِم بعضه على بعض أوزان العروض . وإنه ليُخيل إلينا أنه زجل راقٍ ظهرت فيه اللغة الفصحى وتركت فيه العاميّة بعض آثارها .

أما اسمه فمأخوذ من وشاح المرأة وهو فلادة من سبيج عريض مرصع بالجوهر تشدّه المرأة بين عاتقَيْها وكشْحَيْها ، والأندلسيون شديلو الشغف بمثل هذه التسمية<sup>٥</sup> . ولا سيما وانها تشير الى الزخرفة والتنميق ، والموشح ، كما لا يخفى ، من أشدّ الشعر زخرفةً وتميماً ، قال ابن خلدون : «وأما أهل الأندلس فلما كثّر الشعر في قطرهم ، وتهدّبت مناحيه وفنونه ، وبغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنّاً سموه بالموشح»<sup>٦</sup>

١ - دار لطر ، تحقيق حودة الركابي ، ص ٢٥

٢ - دائرة المعارف الإسلامية ، مادة «موشح» .

٣ - ابراهيم أنيس موسيقى الشعر ، ص ٢٨٥ . والتسبيط من البسيط) وهو لحظ ما دام الحز أو اللواز منتظماً فيه .

٤ - طالع كتاب الدكتور مصطفى عوض الكريم «فنّ الموشح» الذي يبيّن فيه أخطاء من سبقه واستطاع أن يزيل كثيراً من العوض الذي يكتف هذا لموضوع .

٥ - نذكر مثلاً «فلاجل العيان» ، «العقد العريد» ...

٦ - إن رغم أن خلدون هو - كما سرى - زعم طاهر ، فلم يكن مخترع الموشح على يد المتأخرين ، ولم يكن عندما بلغ التنميق العاية في الشعر الأندلسي

ينظمونه أسباطاً أسباطاً، وأغصاناً أغصاناً، يكثرُونَ من أعاريضها المختلفة ويسمُونَ المتعَدُّ منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قوافي ثلث الأغصان وأوزانها مُتتالياً فيها بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كلُّ بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب؛ ويتنصبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد<sup>١</sup>. وبمثل هذا القول أراد صاحب المقلعة أن يبين حقيقة الموشح وطريقة تركيبه، وهو كلام شديد الإجمال، يحتاج إلى تفصيل وإيضاح. وخلاصة ما تقدم أن الموشح شعر جديد في تسميته، وفي تركيبه وقالبه التقفية فيه، وفي اتساع دائرة وزنه، وفي صياغته وتعَدُّ أجزائه. قال مصطفى عوض الكريم: «التوشيح لون من ألوان النظم ظهر أول ما ظهر بالأندلس في عهد الدولة الروانية في القرن التاسع الميلادي، ويختلف عن غيره من ألوان النظم بالتزامه قواعد معينة من حيث التقفية، ومخروجه أحياناً على الأعاريض الحليّة، وبمحتواه أحياناً أخرى من الوزن الشعري، وباستعماله اللغة الدارجة والعجميّة في بعض أجزائه، وباتصاله الوثيق بالغناء»<sup>٢</sup>.

## ٢- تركيب الموشح:

١ المَطْلَع القفل - المخرجة: يتألف الموشح من مطلع يُسمّى مذهباً، وهذا المطلع هو المجموعة الأولى من الأجزاء<sup>٣</sup> وأقدها اثنان فصاعداً إلى ثمانية أجزاء<sup>٤</sup>؛ وليس بضروريّ الوجود؛ فإن وُجد سُمي الموشح تاماً، وإن خلا سُمي أفرع. والقوافي في الأجزاء قد تكون متعقة وقد تكون مختلفة. والمطلع يتردّد في الموشح على نظام معين، تردّداً يحفظ بعدد القوافي ونظامها دون المعاني والألفاظ، ويُسمّى كلُّ مطلع متردّ قفلاً. وليس للأقفال عددٌ محدد، وهي في أكثر الموشحات خمسة<sup>٥</sup>. والقفل الأخير في الموشح يُسمّى مخرجة.

١ المقلعة. طلبة القاهرة، ص ٥٨٣

٢ عن التوشيح، ص ١٧.

٣ - الحرف هو كل شطر ينتهي بروي

٤ - طالع «دار الطراز». لاس ساء المثلث، ص ٢٦. وقد توجد في النادر ما تحله تسعة أجزاء، وعشرة أجزاء.

٥ - نفس المصدر، ص ٢٦.

والخرجة تكون عادةً من ألفاظ العامة ويرى ابن سناء الملك أنها قد تكون معربة أيضاً إذا كانت مستعارة من خرجية مشهورة لوشاح آخر<sup>١</sup>، وإذا كانت يّيت شِعْر مُضَمَّنًا كما فعل ابن بَيْهَي في بيت ابن المعتز:

عَلَّمُونِي كَيْفَ أَسْلُو وَإِلَّا فَاحْبِجُوا عَنْ مُقَلَّتِي أَلَمِلَاحًا<sup>٢</sup>

وقد تكون الخرجة باللفظ الأعجمي « بشرط أن يكون لفظها أيضاً في العجمي سفسافاً نَفْطِيًّا<sup>٣</sup> ، ورمادياً زُطِيًّا<sup>٤</sup> ... والمشروع بل المفروض في الخرجة أن يُجْعَلَ الختروج إليها وثباً واستطراداً ، وقولاً مستعاراً على بعض الألسنة إما ألسنة الناطق أو الصامت ، أو على الأغراض المختمة الأجناس . وأكثر ما تُجْعَل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران . ولا بُدَّ في البيت الذي قبله الخرجة من : قال ، أو قُلْتُ ، أو قَالَتْ ، أو عَمَى ، أو غَشِيَتْ ، أو غَشَتْ ».

وهكذا ترى أنَّ الخرجة من أهم عناصر الموشح ، بل أهمها على الإطلاق . قال ابن سناء الملك : « والخرجة هي أبنزار الموشح ومبجحه وسكره ومسكه وعثره ، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والخاتمة بن السابقة وإن كانت الأخيرة<sup>٥</sup> . »

٢ - الدور . ويتألف الموشح أيضاً من الدور وهو ما يعقب المطع في الموشح ، ويقع بين الأقفال ؛ وهو يتألف من أجزاء أقلها ثلاثة فصاعداً الى خمسة ، ولا يتجاوز الخمسة إلا نادراً . وجميع الأدوار متاثلة في عدد الأجزاء دون المعاني والألفاظ والقوافي ، وليس اختلاف القوافي شرطاً من شروط الموشح . وهكذا فالأقفال في

١ - وقد تكون معربة أيضاً إذا كان فيها اسم المدح ، أو كانت ألفاظها غريبة جداً .

٢ - مطع « فن التوشيح » ، لمصطفى عروس الكريم ، ص ٢٣ . و« دار الطراز » ، ص ٣٣ .

٣ - معطياً أي عرقاً .

٤ - زطياً : سسة الى الزمّ وهم جبل من المد ، والكلام لمرطى أي التمحط .

٥ - دار الطراز ، ص ٣١ .

٦ - دار الطراز ، ص ٣٢ .

الموشحة الواحدة على وزن واحد وقافية واحدة ، لا يجوز فيها التغيير ، أما الأدوار فيجوز تغيير الزوِّي فيها . والدَّور مع القفل الذي يليه يُسمَّى تَيْتًا .

٣ العنن - السَّط : والجزء في المطلع والقفل والخرجة يُسمَّى «عُنْناً» . قال مصطفى عوض الكريم : «وأقلُّ عدد لأغصان المطلع اثنان من نفس القافية كقول لسان الدين بن الخطيب :

رُبَّ لَيْلٍ ظَفِرْتُ بِالْبُذْرِ وَنُحُومُ السَّمَاءِ لَمْ تَنْدِرْ...

وقد يكونان من قافيتين مختلفتين كقول ابن بقي :

عَيْتَ الشُّوقِ يَقْلِي فَأَسْتَكِي أَلَمْ أَلْجِدِ قَلَّتْ أَدْمُعِي...

وقد تكون أغصان المطلع ثلاثة كقول الصَّلاح الصَّعدي :

لَا تَحْسَبِ الْقَلْبَ عَنْ هَوَاكَ سَلَا وَإِنَّا حَاسِدِي الَّذِي نَقَلَا حَرْفَ...

وقد تكون أربعة كقول ابن زَمَرْك :

نَسِيمُ عَرْنَاطَةٍ عَيْلُ لَكِنَّهُ بُبْرِي أَلْعَلِيلُ  
وَرَوْضُهَا زَاهِرٌ بَلِيلُ وَرَشْعُهُ يَتَقَعُ الْغَلِيلُ...

وهذا العدد من الأغصان هو الأكثر انتشاراً عند الوشاحين ، ولكن منهم من تجاوز الحدَّ حتى أغرب ... والمبالغة في الزيادة ضربٌ من التكلُّف عمد إليه نفرٌ من وشاحي المشرق فاستحقوا ما وصمهم به ابن خلدون من التكلُّف<sup>١</sup> .

والجزء من الدَّور يُسمَّى «سَمَطاً» . وقد يكون السَّط مفرداً أو مركباً من فقرتين أو أكثر ، ففي قول ابن القُرَاز مثلاً نجد السَّط مركباً من أربع فقرات :

١ اضطرت أقوال «حقوقي في عناصر الموشح اضطراراً شديداً ، فاستعمل ابن سناء الملك لفظة «بيت» بمعنى ما سميته «الدور» (دار الطراز ص ٢٥) ، واستعمل الأبيشي لفظة «دور» بمعنى ما سميته «البيت» (الاستطراف ، الجزء ٣ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩) واحتفلوا كذلك في استعمال الألفاظ «جزء» و«عنن» و«سَط» .

٢ - في التوشح ، ص ٢٧ - ٢٩ .

بَدْرِيْمُ	شَمْسُ ضَحَى	غُصْنُ نَقَا	مِسْكُ شَم
مَا أَتَمَّ	مَا أَوْصَحَا	مَا أَوْرَقَا	مَا أَنَمَّ
لَا جَرَمَ	مَنْ لَمَحَا	قَدْ عَشِيقَا	قَدْ حُرِمَ

٤ - تَفْطِيَةُ الْمَوْشَحَاتِ وَوَزْنُهَا : بما لا شكَّ فيه أَنَّ المَوْشَحَاتِ شعر عربيّ ، وأنَّ هذا الشعرَ قام في الأساس على قاعدة القافية والوزن التي قام عليها سائر الشعر العربيّ . وأنَّه بتأثير الغناء والبيئة راح يتحرَّر من القيود التقليديَّة التي وضعها الخليل وسائر العروضيين من بعده ، وراح يفجِّر من القافية قوافي ومن الوزن أوزاناً ، في تنوُّع عجيب لا عهد للغة العربيَّة به ، ولا صلة له بما ظهر في الشعر العربي من ضروب الازدهار والتثريب والتربيع والتخميس وما إلى ذلك من ألوان وأفانين .

والوزن شديد التوسع في المَوْشَحَاتِ ، وهذا التوسُّع غير ما نجده عند العروضيين من استعمال البحر تاماً أو مجزئاً أو منهوِكاً أو ما إلى ذلك ، ومن إدخال الرَّحافات والعُلل على التفعيلات ، إنه توسُّع لا يقبِّده قياس ولا يحده حدٌّ .

« وخلاصة القول أن الموشحات تنقسم من حيث الوزن إلى خمسة أقسام : القسم الأول ما كان على وزن شعريّ تقليدي ، والثاني ما أخرجته عن الوزن الخليلي حركة أو كلمة ، والثالث ما اشترك فيه أكثر من وزن واحد ، والرابع ما له وزن من غير الأوزان الخليلية يدركه السمع عند قراءته ، والخامس ما ليس له وزن يدركه السمع عند قراءته ولا يوزن إلا بالتلميح وذلك بمد حرف وقصر آخر ، وإدغام حرف في حرف وغير ذلك من فنون التلميح » . وهكذا ترى أنَّ المَوْشَحَ نوع من الشعر جديد في الأدب العربي من حيث التقنية والوزن لأنه يخرج غروجاً أساسياً عن القواعد العروضية .

### ٣ . نشأة فنِّ التوشيح وأطواره :

١ نشأته : أجمع الثقات من أهل العلم والأدب أنَّ نشأة فنِّ التوشيح كانت

بالأندلس، وأن ما قبل خلافاً لذلك إنما هو وهم فاشل وزعمٌ باطل. فقد أثبت ذلك ابن خاتمة<sup>١</sup>، وابن بسّام<sup>٢</sup>، وابن خلدون<sup>٣</sup>، والمقرئ<sup>٤</sup>، والحجبي<sup>٥</sup> وغيرهم. والذين أخذوا بغير هذا الرأي اعتمدوا على موشح وجدوه في ديوان ابن المعتز (٩٠٨)، فانساقوا في أقوالهم على غير ثاقب نظر، وخطأوا العلماء والمؤرخين في غير خُفَر، ثم جاءت الأبحاث العلمية تُبدد الأوهام. وتنسب ذلك الموشح إلى الحفيد بن زهر، مقنعةً الحجج والبراهين، معتمدةً أوثق المصادر<sup>٦</sup>. وتاريخ ظهور الموشحات في الأندلس غارق في عالم من الغموض، ويُعزى اختراعها إلى محمد بن حمود القبري<sup>٧</sup> الضريير. قال ابن بسّام: «وَأَوَّلُ مَنْ صَعَّ أوزان هذه الموشحات بأقننا وأخترع طريقها — فيما بلغني محمد بن حمود القبري الضريير... وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا»<sup>٨</sup>. وقال المقرئ: «وحكى الكاتب أبو الحسن علي بن سعيد العنسي في كتابه «المقتطف من أراهير الطرف» أن الحجازي ذكر في كتابه «المسهب في غرائب المغرب» أن المخرع لها بجزيرة الأندلس المقنم بن معالي القبري من شعراء الأمير عبد الله المرواني وأخذ عنه أبو عمر أحمد بن عبد ربه صاحب «العقد»، ثم غلبها عليه المتأخرون، وأول من برع فيه منهم عبادة بن القزّاز شاعر المنصم صاحب المربة<sup>٩</sup>. ونحن أمام روايات الزواة وأقوال المؤرخين لا يسعنا إلا الاعتقاد بأن الموشحات نشأت نشوءاً طبعياً على ألحان الأناشيد

١ - طالع وأزهار الرياض، الجزء ٣، ص ٢٥٢.

٢ - الدخيرة، الجزء ٢، ص ١ طالع وفيات، الجزء ١، ص ٤٢٦.

٣ - المقننة، ص ٥٨٣.

٤ - نفع الطبيب، الجزء ٢، ص ١٢٣.

٥ - خلاصة لأثر، الجزء ١، ص ١٠٨.

٦ - طالع والظفر في أشعار أهل المغرب، لاس دحة، تحقيق مصطفى عويس الكرم (١٩٥٧)، ص ١٨٧. وفيات الأعيان، لاس حلكان، الجزء ٤، ص ٦٣. ومعجم الأديان لياقوت، الجزء ٧، ص ٢٢٤. وطققات الأعيان، لاس أبي أصبغة، الجزء ٢، ص ٧٢. والمغرب في جني المغرب، لعل بن سعيد، الجزء ١، ص ٢٦٧. والروايات الوفيات، للتصالح المصعدي، الجزء ٤، ص ٤٠.

٧ - نسة إلى مدينة فورة بالأندلس.

٨ - الدخيرة، الجزء ٢، ص ١.

٩ - أزهار الرياض، الجزء ٢، ص ٢٥٣.



الشعبية التي كانت شائعة في البلاد ، وكان محمد القبري أول من عوف بها ، وابن عبد ربه أول من اشتهر ، والقرّاز من المابغين الذين خطّوا طريق النجاح في ذلك الفن . وانتاريخ لم ينقل إلينا شيئاً من أخبار القبري سوى أنه « السابق » و « المخترع » ، وذلك في القرن الثالث للهجرة ( التاسع للميلاد ) .

وقد اختلف الباحثون اختلافاً شديداً في أصل نشأة الموشحات ، وفي هل هي « تطوير للشعر المسمط الذي عرفه المشارقة من قبل » . أم هي تقليد للأغاني الشعبية الاسبانية والبروفانسية . ومؤيدو الرأي الأول هم المستشرقون مارتن هارتمن . وفرايتاغ ، ونيكل . ثم بعض أدباء العرب كشوقي ضيف وغيره ، ومؤيدو الرأي الثاني طائفة كبيرة من العلماء الغربيين والشرقيين . قال مصطفى عوّض الكريم : « إن كثيراً من الأسئلة الحائرة لا تجد جواباً شافياً إلا إذا قبلنا النظرية القائلة بأن الموشحات ما هي إلا تقليد لشعر غنائي عجمي » . وهي النظرية التي جاء بها المستشرقان الاسبانيان خوليان ريبيرا ومنديث بيدال ، وحشدوا لها من الأدلة ما يجعل رفضها ضرباً من المكابرة والتعنت . فالموشح يختلف عن الشعر المسمط وغيره من فنون النظم المشرقية بأنه إنما صُنِعَ من أجل الغناء ، وأوزانه المستحدثة التي لم يعمدها العرب في المشرق تدلّ دلالة قوية على أن هذه الأوزان تقليد لأوزان أعجمية ، ووجود الحرجة الأعجمية هو الحلقة بين الموشح وذلك الشعر الغنائي العجمي . وظهور الموشح في الأندلس دون المشرق ، وفشل المشاركة في تقليد الأندلسيين في فنّ التوشيح لا نفسره إلا أن الأندلسيين كانوا أحقّ في تقليد ذلك الشعر الغنائي العجمي ، وأن الشاعر المشرقي الوحيد — باعتزاف ابن جلدون — الذي استطاع أن يأتي بموشحة خالية من التكلف هو ابن سناء الملك الذي أدرك أن إحكام صناعة الموشحات لا يتأتى إلا لمن عاش في بيئة أندلسية<sup>١</sup> .

٢ نظره : أما تطوّر فنّ التوشيح فقد جرى وفقاً لسنة التطوّر الحياتي ، فكانت الموشحة — على حدّ قول ابن بسّام — في أول نشأتها تُنظم أشعاراً على الأعرابض المهمة غير المستعملة دون تضمين فيها ولا أغصان . ثم جاء يوسف بن هارون الرمادي (١٠١٢) « فكان أول من أكثر من التضمين في المواضع ، يُضمّن كلّ موقف يقف عليه

في المركز خاصة<sup>١</sup> هـ. ثم جاء عبادة بن ماء السماء (٩١٠٣٠) فتكامل معه نظام الموشحات. وهو الذي أعطاها شكلها التام في بناء الأفعال والأدوار، وانتلاف غصونها ومموطها، وتداخلها بعضها في بعض، بحيث لا نستطيع الوقوف على جزء منها، حتى تنتهي إلى الحرة التي يتشوق إليها السامعون ويتظنونها في شوق ولهفة<sup>٢</sup> هـ. ثم كانت عصور ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين فازدهر فيها الموشح ازدهاراً كبيراً حافظاً بالروعة.

وهكذا كان التوشيح ننة أندلسية قامت على أصول أعجمية<sup>٣</sup>، وكان عمل أوائل الموشحين مزدوجاً، فقد كانوا يعربون الأغاني العجمية، ويضعون الكلمات للألحان العجمية مع التقيد بالأوزان العربية لا سيما ما كان منها مهماً غير مستعمل — كما يقول ابن بسام<sup>٤</sup> — فحاش علمهم هذا متكلفاً قاصراً على إرضاء ذوق العوام الذين لا يطلبون إلا مجارة الشعر للتلحين، فإذا فارنا موشحاتهم بموشحات من جاء بعدهم وجدنا أن الأخيرة تفضن كثيراً من الأوزان غير العربية فكانت بذلك أقرب إلى الأصل من موشحات سابقيهم<sup>٥</sup>.

### ٤ أشهر الموشحين:

انتشر فن التوشيح في الأندلس انتشاراً واسعاً جداً، واشتهر فيه عدد كبير من الشعراء لذكر منهم عبادة بن ماء السماء (٩١٠٣٠) الذي لمع نجمه في عهد العامريين، وه كان في ذلك العصر شيخ الصناعة، وأحكم الجماعة. سلك إلى الشعر مسلماً سهلاً

١ - الدخيرة الجزء ١، ص ٢ ولعل المسمى أن أرمادي قدم للحرية بمثل. قلت. أو غنى. أو أنشد

٢ - شوقي صيد. مقدمه من التوشيح.

٣ - ذهب فؤاد جالي في كتابه الموشحات الأندلسية إلى أن التوشيح تطوير لفكرة الوبى الغانية. وهو رأي لا يقوم على أسس مكينة

٤ - قال ابن بسام أن حمود كان يصممها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعار يض الملهمة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسمي المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين ولا أغصان.

٥ - مصطلقى عوض الكريم: فن التوشيح، ص ١١١

فقلت غرابيه مرجباً وأهلاً<sup>١</sup>، ثم محمد بن عبادة القزّاز الذي اتصل ببني صيادح أصحاب المربة، ويرى في فنّ التوشيح حتى قيل: «كلّ الموشّاحين عيال على عبادة القزّاز»<sup>٢</sup>. وهناك الأعمى التّطلي<sup>٣</sup> (١١٢٦) وابن بقي<sup>٤</sup> (١١٤٥) وموشحاته في غاية الروعة تجمع بين الرّقة والمثانة، وقد ارتفعت بهذين الرجلين (الأعمى وابن بقي) مكانة الموشحة وصمت إلى منافسة القصيدة التقليدية، وابتدأ العصر الذهبي للموشحات بالأندلس، وأخذت الموشحات تطرق كل الموضوعات بعد أن كانت في أول الأمر قاصرة على الغزل والحنن والمدح<sup>٥</sup>. وهناك الحسن بن نزار، ثمّ الحفيد بن زهر (١١٩٨) أشهر الموشّاحين في عهد الموحّدين. ولعلّ آخر وشاح مشهور أنجبته الأندلس هو ابن زَمْرُك (١٣٩٣).

أما في الشرق فقد شاعت الموشحات منذ القرن الثاني عشر ولكنّ المشاركة لم يعالجوا هذا الفنّ معاملة واسعة النطاق إلا في القرن الثاني، وأشهر وشاحهم أبو القاسم هبة الله ابن جعفر بن سناء الملك الشاعر المصري. ولد بالقاهرة سنة ١١٥٥ وتوفي سنة ١٢١١، وله «دار الطراز» في عمل الموشحات.

## ٥ أغراض الموشحات:

وُضِعَت الموشحات أول ما وُضِعَت للتغني بالعواطف القلبيّة، والتعبير عن خوالج الوجدان، فكانت تنفّس النفس العاشقة، ولهمة القلب الحالم، وامتدادة الأمل الباسم، وتحنانّ النشوة الداهية؛ ثم راحت مع الأيام تتسع لكلّ موضوع وكلّ غرض

١ - السحيرة، الجزء ٢، ص ٢.

٢ - خطب بعض المؤرخين بين عبادة بن ماء السماء وابن عبادة القزّاز، لما هالك من تشابه جزئي بين الأسمين ولهذا ترى ابن سناء الملك يشير إلى ابن عبادة القزّاز عبادة. ويرى بعض الباحثين أن عدداً من الموشحات لمسوه إلى القزّاز هو لاس ماء السماء.

٣ - نسبة إلى بلدة تطيلة بالغرب من مرسطة. وقد ذكر العباد الأصفهاني أن له أكثر من ثلاثة آلاف موشحة.

٤ - مصطفى عوض الكرم: من التوشيح، ص ١٣٠ - ١٣٢.

٥ - نفس المرجع، ص ١٤٥.

كالمدح والثناء والهجاء والزهد والتصوف وكانت موشحات المدح تجري على الطريقة التقليدية من افتتاح بالغزل ومن تعظيم للممدوح واستحاث له على العطاء . وكذلك كانت الحال في سائر الأغراض ، فقد درج الوشاحون على طرائق أصحاب القصائد التقليدية ، وأخضعوا الموشح لمعاييرهم وأخيلتهم ، وانحرفوا بذلك عن الهدف الرئيسي الذي وجد له فن التوشيح وعن الاندفاع الوجدانية الصافية التي رافقت ظهوره . وراحوا يخضعونه لأطباعهم وزلفاهم ، ويحملونه من معاني التكسب وقوارص الهجاء ورموز التصوف ما لا يتفق وطبيعته .

والبت هذا الموشح لعبادة بن ماء السماء :

مَنْ وَلِيَ فِي أُمِّهِ أَمْرًا وَلَمْ يَغْدِلْ يُعْزَلْ إِلَّا لِحَاظِ الرَّشْلِ الْأَكْحَلِ  
(مطلع)

جُرْتُ فِي حُكْمِكَ فِي قَتْلِي بَا مُبْرِفٌ  
فَانْصِفْ قَوَاجِبَ أَنْ يُنْصِفَ الْمُنْصِفُ  
وَلَرَأْفَ قَلْبٍ هَذَا الشُّوقُ لَا يَرَأْفُ  
عَلِّي قَلْبِي بِدَاكِ الْبَارِدِ السَّلْسَلِ يَنْجَلِي مَا بِفُؤَادِي مِنْ جَوَى مُشْغَلِ  
(قفل)

إِنَّمَا نَسْبُرُ كَيْ تُوْقِدَ نَارَ الْفِتَنِ  
صَنَمًا مَصُورًا فِي كُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ  
إِنْ رَمَى لَمْ يَخْطُ مِنْ دُونِ الْقُلُوبِ الْجَنَنِ  
كَتَبَ لِي تَخْلُصَ مِنْ سَهْبِكَ الْمُرْسَلِ فَصَلِّ وَأَسْتَيْثِي حَبًّا وَلَا تَقْتُلِ  
(قفل)

١ - قال ابن سناء الملك : «وما كان منها في الزهد يُقال له المكفر ، وإنما في المكفر خاصة أن لا يُعص إلا على وزن موشح معروف وقوالي فقوله ، ويختم بمرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفره ومستقبل ربه عن شاعره واستعماره» .

٢ - جُرْتُ : تجاوزت الحد ، طمعت . السُرور : من تجاوز الحد .

٣ - الحُجَّة : حجة وهي كل ما وقى من السلاح .

بِأَسَا الشَّمْسِ وَيَا أَبْهَى مِنَ الْكَوْكَبِ  
 بِأَمْنِي النَّفْسِ وَيَا سُوْلِي وَيَا مَطْلَبِي } بيت  
 هَا أَنَا حَلٌّ بِأَعْدَاكَ مَا حَلُّ بِي!  
 عَلَيَّ مِنْ أَلَمِ الْهَجْرَانِ فِي مَعَزِلٍ وَالْخَلِّي فِي الْحُبِّ لَا يَسْأَلُ عَنْ بِي  
 (قفل)

أَنْتَ قَدْ صَيَّرْتَ بِالْحُسْنِ مِنَ الرُّشْدِ عَيَّ  
 لَمْ أَجِدْ فِي طَرَفِي حُبَّكَ ذَنْبًا عَلَيَّ } بيت  
 فَاتَّيِدُ وَإِنْ تَشَأْ قَلْبِي شَيْبًا قَشِي  
 أَجْبِلْ وَوَالِي مَيْكَ بَدَّ الْمُفْضِلِ فَهِيَ لِي مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ الْمُفْضِلِ  
 (قفل)

مَا أَشْنَدَى طَرَفِي إِلَّا بِسَنَّا نَاطِرِكَ  
 وَكَلَّا فِي الْحُبِّ مَا بِي يَخْفَى عَلَيْكَ } بيت  
 وَهَكَذَا أَتَشِدُّ وَالْقَلْبُ رَهِينُ لَدَيْكَ  
 يَا عَلِي سَلَطْتَ جَفْنَيْكَ عَلَى مَقْتَلِي فَاتَّبِقْ لِي قَلْبِي وَجِدْ بِالْمُفْضِلِ يَا مَوْئِي!  
 (حرجة)

## مصادر ومراجع

- ابن سناء الملك : دار الطراز — تحقيق ونشر جودة الركابي — دمشق ١٩٤٩ .  
 ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الخمسون — بيروت ١٩٥٦ .  
 أميليو غرسيه عومس : الشعر الأندلسي — ترجمة حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٢ .  
 ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر — الطبعة الأولى .  
 مصطفى عوض الكرم : فن التوشيح — بيروت ١٩٥٩ .  
 فؤاد رحائي : الموشحات الأندلسية — الطبعة الأولى .  
 جميل سلطان : الموشحات — دمشق ١٩٥٣ .



## الفصل الثالث أشهر شعراء الأندلس

### مزملة محمد بن القليل

### الغزال - ابن هاني - ابن دراج القسطلبي

أ القرآن :

وُلِدَ فِي جِيَان سَنَةِ ١٥٦هـ / ٧٧٢م. أَسْرَفَ فِي اللَّهْوِ ثُمَّ تَزَعَّدَ. وَقَدْ سُجِنَ فِي غُرْفَةٍ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٥٠هـ / ٨٦٤م.

كَانَ مِنْ أَوْسَعِ شِعْرَاءِ عَهْدِهِ ثِقَاةً ، وَكَانَ رَجُلٌ ذَكِيًّا وَالْفِكَاهَةِ ، وَشِعْرُهُ يَمْتَزُّ بِعَمَقِ الْفَرَاةِ وَبِإِسْلَامَةِ الْعَبَجِ وَبِإِسْلَامَةِ النَّصِيرِ.

ب - ابن هاني :

وُلِدَ بِالْقُرْبِ مِنْ أَشْبِيلَةَ سَنَةِ ٣٢٦هـ / ٩٣٨م. رُمِيَ بِالزُّبَّةِ ، فَهَرَبَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَنَالَ حَوَائِثَ قَاتِلِ الْمَنْصُورِ ، وَاتَّصَلَ بِالْمَعْرُوفِ لِلدِّينِ اللَّهِ الْعَاطِمِيِّ وَلَقِيَ لَدَيْهِ حَطْوَهُ ، وَتَوَفَّى وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى مَعْرِ سَنَةِ ٣٦٢هـ / ٩٧٣م.

مَدَحَ ابْنُ هَانِي عَمَلًا مِنْ بَحَالِي الْفَرَاةِ ، وَتَقْلِيدَ وَتَصْوِيرَ وَمَغَالَاةِ وَرَثَاةِ آوَادِ عَامَةٍ ، وَهَجَاوَهُ تَصْوِيرَ مَضْمُونٍ . وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ طَوِيلُ النَّفْسِ ، مَتِينُ السُّكِّ ، ضَبْحُ الْمَعَالِي ، كَثِيرُ الْغُرَبِ .

ج - ابن دراج القسطلبي :

وُلِدَ فِي قُسْطَلَةَ سَنَةِ ٣٤٧هـ / ٩٥٨م. اتَّصَلَ بِالْمَنْصُورِ وَلَقِيَ لَدَيْهِ حَطْوَهُ. وَبَعْدَ وَقَاةِ الْمَنْصُورِ سَامَتْ حَالَهُ فَانْقَلَبَ إِلَى سَرْقُسْطَةَ وَفِيهَا تَوَفَّى سَنَةِ ٤٢١هـ / ١٠٣٠م.

سَمِعَ وَمَتَنَّى الْغُرَبِ ، وَهُوَ شَاعِرُ الْحَوَاةِ. وَشَاعِرُ بَعَالِي الْمَلِكِيَّةِ ، وَشَاعِرُ الْقَبِيضِ مَلْتَقِيْنِ ، وَشَاعِرُ الصَّاعَةِ ، وَقَدْ جَمَعَ مِنْ أَيْ مَعَامٍ وَالنَّهْيِ.

## أ - الغَزَال (١٥٦ - ٢٥٠هـ / ٧٧٢ - ٨٦٤م)

## ١ - تاريخه:

هو يحيى بن حَكَم الملقَّب بالغَزَال ، وُلِدَ في جَيَّان سنة ١٥٦هـ / ٧٧٢م ، ودرَسَ في قُرطُبة ، ولم يَصْنَعْ شيئاً يُذكر من أخبار شبابه سوى أنه مال إلى اللهو ، وأسرف في تبديد المال ، ولم يُقْلَع عن شرب الخمر إلَّا عندما شارَفَ السُّتَيْن من العمر ، وعندما عكف على الزُّهد قولاً وعملاً .

في عهد عبد الرحمن بن الحَكَم تولَّى الغَزَال قَبْضَ الأَعْشَار ، واختارَها في الأهراء ، وقد أساء العمل فسجَّه الأمير في قُرطُبة ، ثم عفا عنه ، فراح يتردَّد على القصر في دالَّةِ الأمير يُحسن استقباله ، وتروقه منه الفكاهة العذبة وروح التَّهْكُم .

وفي نحو سنة ٢٣٠هـ هاجم التُّورمان الأندلس وأمعنوا في الناس فتكاً ، فانتدب عبد الرحمن الشاعر الغَزَال ليقوم بسفارةٍ فيما بينه وبين أولئك التُّورمان في أمر الصِّلح ، فتوجَّه إليهم ، وأستطاع بحُكْمته ولباقته أن يُصِيب نجاحاً ، وأن يعود إلى أميره ظافراً . وقد توفي سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م .

يُعَدُّ الغَزَال من أوسع شعراء ذلك العهد ثقافةً ، ومن أقومهم وأياً وحكمة . وهو إلى ذلك رَجُل الحُفنة السياسية ، والفكاهة العذبة ، واللسان الذي يُحسن المحاوره ، والقلب الجريء الذي لا يَتَّيِب الإقدام إذا دعا داعيه ، ولا يتقاعس عن مُجَدَّة إذا دعت إليها الحال .

## ٢ - أدبه:

يُعَدُّ الغَزَال في الطَّلِيعَة من شعراء هذا العهد لما تَنَاز به في شعره من عُمقِ النُّظرة إلى

١ - أورد له ابن عبد ربِّه في العقد المريد قصيدة يُعلن فيها أنه كان في حياته كلها بعيداً عن اللهو والمجون والخمر



الحقائق الوجودية، وسلامة الطبع، وسلامة التعبير، والجري مع الطبيعة الغنية الفياضة، التي تبتعد عن التعقيد والتصنع والإغراب.

«ومما يميّزه بين شعراء الأندلس ميزتان كبيرتان: قيام شعره على النظرة الساحرة، ووضوح نظراته الفلسفية القائمة على تجربته... والسخرية هي القاعدة الصلبة المتصلة بروحه الفكاهية وهي لا تفارقه في أخرج المواقف أو في أشدها جدية... وقد ترتفع هذه السخرية إلى مستوى المرارة في النظر إلى حقائق الحياة... وحين تبلغ سخرية هذا المستوى تلتقي بفلسفته الشككية الجائحة إلى التشاؤم وسوء الظن<sup>١</sup>، فيسيء الظن بالإنسان ولا سيما المرأة.

ابن هانيء (٣٢٦ — ٣٦٢ هـ / ٩٣٨ — ٩٧٣ م)

أ - تاريخه.

هو أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي. وُلد في قرية سكُون من قرى إشبيلية، ونشأ على حبّ الأدب والشعر، ثم استوطن البيرة فعُرف بالإلبيري. وقد اتّصل بصاحب إشبيلية ومدحه وُلقي لديه حظوة كبيرة، إلا أنّ انغماسه في حمأة الذات، واندهاعه في تطلّباتها، وغلوه في تشييعه، واعتقاده إمامة الفاطميين، وإثخاذه مذهب الفلسفة، ونحرده من الدين كل ذلك حمل الإشبيليين على رمية بالزندقة، وعلى تهديده بالقتل، فأوعز إليه الملك بمغادرة المدينة تهدئة لثورة الشعب، فانتقل الشاعر إلى المغرب، وقصد جعفر بن علي قائد المنصور في المرسية، إحدى مدن الزّواب، فمدحه ونال جوائزهم، ثم اتّصل بالمُعزّ لدين الله العبيديّ الفاطميّ ونعيم في جواره بعيشة رغد وهناء وثروة، ولما توجه المُعزّ إلى مصر بعد أن فتحها جوهر، تخفّ الشاعر عنه ريثما يتجهّز ويأخذ عياله. ومما هو في طريق مصر توقّف في برقة عند رجل أضافه وقصّى عنده عدّة أيام في قصص وسكر وعريضة، ثم ألقي في الطريق ميتاً، وكان ذلك سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م.

٢ - أدبه :

لأبن هانيء ديوان شعر طُبع في مصر ثم في بيروت وأكثره في المدح والثناء والوصف والمهجاء .

أدب ابن هانيء هو أدب من حاول المحاربة ، وأراد أن يكون له من المتنبي نفسه الحربي ، ومن أبي تمام صناعته ، ومن البحتري أصباغه وألوانه وصوره . ومن الأندلسيين طبعياتهم . وإنك إذا تدبرت شعره وجدت أمامك شاعراً فياض العبقريّة ، متفجّر القرعجة ، قويّ الشخصية على تلوّها وتقليدها ؛ شاعراً يطلب التأثير باللفظة الغريبة ، والقوافي الشديدة ، والانفجارات العالية ، والطباقات والحناسات الصارخة ، والموسيقى الجياشة ؛ شاعراً يُخضع التفكير للتقليد والمحاكاة ؛ شاعراً يريد أن يكون في الغرب صوتاً شرقياً ، يريد أن يقال عنه إنه المتنبي والبحتري وأبو تمام .

أما مدح ابن هانيء فقد اتّبع فيه أسلوب أبي الطيب وحاول أن يجعله مجلي من مجالي القوّة ، فاختار له ما طال من البحور واشتدّ من القوافي وضخّم من اللفظ . واختار له اللهجة البدوية والمعالي الصحراوية ؛ وحشد فيه طائفة كبرى من أوصاف الحروب ومواقع القتال ؛ وغالى فيه معالاة تنفي فيها السيوف والحدائق ، والرماح والأزهار ، والصحراء والأندلس . وهكذا كانت مدائح ابن هانيء تقليداً وتصويراً ومغالاة ؛ وكانت على كل حال اندفاعاً وإطلاقاً . وميداناً من ميادين المقلدّة الشعرية واللفظيّة والتصنيع .

وأما رثاء ابن هانيء فهو نظرات إلى الحياة والموت ؛ وهو أقوال عامّة تخلو من الابتكارات والعمق ؛ وهو مغالاة في تصوير الفقيّد ؛ وهو أبداً تدلّق تطول معه القصائد ويشدّد الجرس ، وتصعب الألفاظ ، في غير ما تفجّع حقيقي ولا ذوب عاطفة رقيقة .

وأما هجاء ابن هانيء فهو تصوير مصخّم يحاول فيه صاحبه أن يشوّه الصورة ما استطاع ، فيشبه ما استطاع التشبيه ، ويغذّف بالألفاظ الشديدة الوقع ما استطاع القذف ؛ ولكنه لا يملك مقدرة ابن الروميّ في التصوير المؤلم ، ولا يملك ثورة المتنبي التي تندفق اندفاق الحُمَم ، ولا يملك سلاطة لسان جرير التي تصيب المقاتل .

إذا تَصَفَّحْتَ شعر ابن هانيء وحدته في جملة طويل النفس ، متين السبك ، ضحل المعاني ، كثير الغريب من اللفظ والغريب من المغاليات ، ضعيف العاطفة ، ألا في ما هو من أمر الدين والشيعية الإمامية ، قليل التوقف عند الطيعة ومشاهدتها ؛ وذكرت ، ولا شك ، قول أبي العلاء المعري : « وما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً لأجل القعقة التي في ألفاظه »

جـ - ابن درّاج القسطلي (٣٤٧ - ٤٢١ هـ / ٩٥٨ - ١٠٣٠ م)

أ - تاريخه :

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي ، منسوباً الى مدينة بالأندلس يُقال ها قسطلنة ، وبنو درّاج فرع من صنهاجة .

ولد في هذه البلدة وشأ فيه ، ثم اتصل بالنصور مؤسس الدولة العمارية ، فُعجب هذا لشاعريته وبشعره وقربه وأجره . ولكن هذه لحظوة جرّت عليه قسمة القاد والحساد ، فراحوا يحقرون شأنه في عين النصور ، ويُقطعون في مقره الأدبية ، ويتهمونهم بالغم الشعري ، ولكن هذا كله لم يحلّ دون تمديد اسمه في ديوان الشعراء ، وازداد تعصب النصور له وبخيازه لجانبه ، وأجرى عليه الرق في غير الثفات لي غمغمت الماقين .

وظلّ للشاعر في ظل النصور بمدحه بالقصيدة تلو القصيدة . إلى أن كان عهد ابنه سيف الدولة المظفر فمدح ومدح الوزير بُا الإصيص عيسى بن سعيد القطّاع ، وشكا إليه فقره وسوء حاله ، وراح بمدح الأمير تلو الأمير ، ويقف الى حانب هذا كما يقف الى جانب حصمه لا يحدوه ألا لصمع في العيش ، وهو على كل حال يُجيد القول ويمجاري أكبر شعره المدح والتكسب .

ولمّا هبّ ريح الفتنة عى قرطبة لم تذهب بابن درّاج كما ذهب غيره ، فظل فيها فقيراً مُعلماً ، وراح يتقرّب من أرباب الدولة الجديدة فلم يقربوه ، وراح يضرب في

البلاد يقرع الأبواب، ولا من معين، ولا من مُصْغِرٍ، وأخيراً استقرَّ به الأمر في سَرْقِسطَة عند مندر بن يحيى الملقَّب بذي الرئاستين، وظلَّ في سَرْقِسطَة الى أن توفي سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠م.

#### ٤ - أدبه :

لابن دُرَّاج القسطلي ديوان شعر أكثره في المدح، وقد رأى ابن خلكان ديوانه ونقل منه وقال انه في جزأين، وكثير من شعره وارد في يثيمة الدهر للثعالبي وفي الذخيرة لابن بسام. وهو شاعر طويل النفس، شديد الأسر، غَوَّاص على المعاني، وقد سَمَّوه «متنبي المغرب». وسَمَّيت قصائده في مدح الملوك «سُلْطَانِيَّاتٍ»، وقصائده في مدح الأمراء «هَاشِمِيَّاتٍ».

ابن دُرَّاج القسطلي شاعر المجازاة، يعمل أبداً على مجازاة كبار الشعراء في المشرق والمغرب، وعلى معارضة قصائدهم المشهورة، وذلك بزعمة شخصية تهيم عليها ثقافته الواسعة، وتنهض بها عبقرية خَلَّاقة، بعيدة المرامي، واسعة الآفاق، لا يخفُّ نبضها منها طالت القصيدة. ومنها تراكمت المعاني.

وابن دُرَّاج شاعر المعاني الملكية التي تروق ذوي الأمر، وتليق بالملوك والسلاطين، فهو يرتفع بها ارتفاعاً حافلاً بالقوة، حافلاً بالنفحة السوددية، في لغة شديدة الحبك، وعبارات شديدة السبك، وأورانٍ وقوافٍ تُطلق هتافات العظمة والنصر. وقد علَّق الشقندي على إحدى قصائده بقوله: «وأنا أقسم بما حارته هذه الأبيات من غرائب الآيات لو سمعَ هذا المدح سيّد بي حمدان أسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أنَّ هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفتن فيه كل ناظم وناثر».

وابن دُرَّاج شاعر الفيض المتدفق الذي لا يفيض له ماء، ولا يقرنله مضاء. وهو إذا تناول معنى أمعن في تفصيله، وقبَّه في جميع جوابه، وألحَّ عليه إلحاحاً حتى لا يترك مجالاً لزيادة، وقد تبعث إطلانه الملل. وقد تحمل على السأم، وهو مع ذلك بلا حق معابه في غير اقتضاب ويتنقل فيما بينها في غير ضعف ولا اضطراب، فيقلِّد أحياناً، ويتكر أحياناً، ويحيد في كل حين. قال ابن شهيد: «والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع الظام، شديد أسر الكلام، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل

على العلم بالخبر واللغة والنسب، وما تراه من حوكه للكلام، وملكه لأحرار الألفاظ، وسعة صدره وجيشة بجره، وصحة قلبه على البديع، وطول طلقه في الوصف، وبغيته لمعنى وترديده وتلاعبه وتكريره، وراحته بما يتعب الناس فيها يُضيق الأنفاس».

وابن درّاج شاعر الصناعة، قال الدكتور إحسان عباس: «إليه (ابن درّاج) انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد الغزّال، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها، وتعقدتها والتواثبها، لأنه جمع بين أبي تمام والمختار، وحاول أن يبدّل كل من تقدّمه، في المعاني والصياغة، مازجاً كل ذلك بجبكة ابن هانيء، مطبلاً إطالة ابن الرومي، معتمداً في أكثر شعره على الكدّ والمصاربة والتحت... وجمع الى هذا كله في طريقته الشعرية فنون البديع، فأكثر في هذا الموقف من الجناس... وهو في غير هذا الموطن شديد الغرام بالمطابقات وأحياناً بالإشارات على مثال أبي تمام في كثرة إشارات التاريحية».

وهكذا كان ابن درّاج القسطلبي شاعر الأندلس المرموق، قال ابن حزم: «لوقت أنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أعد». وقال ابن شرف: «(ابن درّاج) شاعر ماهر عالم بما يقول، حاذق بوضع الكلام في مواضعه لاسيّما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة، وشكاً ما دهاه في أيام المحنة، وبالحملة فهو أشعر أهل مغربه، في أبعد الزمان وأقربه».

## مَزْمَلَةُ بَغْدَادِ الشَّخْصِيَّةِ

### المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ - ابْنُ زَيْدُونَ

#### أ - المعتد بن عباد.

وُلِدَ سنة ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م وَشَبَّ عَلَى رِجَالِ الْعِيشِ. حُزِمَ فِي مَعْرَكَةِ مَالِقَةِ، وَكَبِيَ عَلَى شَلَب. دَاهَرَهُ مَعَ وَدِيرِهِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ السُّكَّرِ وَالْعَرَبِيَّةِ، وَلَمَّا اعْتَلَى عَرْشَ أَبِيهِ أَظْهَرَ بَأْسًا وَخَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةِ الرِّقَاقَةِ ظَاهِرًا. أَخِيرًا أَسْرَ وَحِيلَ إِلَى أَغْثَاتٍ فِي الْمَرْبِ وَلَبَّ هَتَالِكَ حَتَّى مَاتَ سَنَةَ ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م.

كَانَ ابْنُ عَبَّادٍ شَاعِرَ الْقُرْبِ وَالْأَرْحَامِ قَبْلَ أَسْرِهِ، وَشَاعِرَ الْأَلَمِ وَالذِّكْرِى بَعْدَهُ. وَجِدَائِيَّةٌ وَجِدَائِيَّةٌ النَّعْسِ السَّهْنَةِ الْإِلْبَةِ، فِيهِ إِخْلَاصُ عَاصِمَةٍ وَصِدْقُ تَجَرِبَةٍ، وَحِكَايَةُ حَالِ حَاطِلَةٍ مَالَا تَكْسِرُ النَّفْسَانِي وَالشُّعُورَ الْأَسْفَ لِلتَّائِمِ

#### ب - ابن زيدون:

وُلِدَ فِي فَرْطَةِ وَكَانَ عِلْمًا مِنْ أَعْلَامِ الْفِكْرِ وَالْأَدَبِ تَقَرَّبَ مِنْ أَبِي حَرَمٍ التَّهْجُورِيِّ، ثُمَّ انْصَلَّ بِالْمُسْتَكْبِيِّ وَعَلَى ابْنَتِهِ وَلَدَتْهُ ثُمَّ نَشَأَ بَيْنَهَا خِلَافٌ شَدِيدٌ، فَسَجِنَ الشَّاعِرُ سَبَبَ ذَلِكَ. وَلَمَّا تَوَفَّى أَبُو الْحَرَمِ انْصَلَّ الشَّاعِرُ بَابْنِهِ الْوَلِيدِ فَرَعَهُ إِلَى رَدْبَةٍ وَزَيْرٍ. ثُمَّ انْصَلَّ بِبَنِي عَدَدٍ فَأَكْرَمَهُ الْمُعْتَمِدُ وَقَرَّبَهُ الْمُحَمَّدُ. وَقَدْ تَوَفَّى بِإِشْبِيلِيَّةِ سَنَةَ ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م.

غَزَلَ ابْنُ زَيْدُونَ مَرْجِعَ مَنْ شَوْقٍ وَذِكْرَى وَالْمِ وَأَمَلٍ، حَاطِلَ بِالْإِسْتِطْلَافِ وَالْإِسْتِرْحَامِ، وَالْمَاجِيَاتِ الْحَرَى. فِي شِعْرِهِ صَافَى وَلِينٌ وَسَهْوَةٌ وَصَفَاءٌ وَعُلُوبَةٌ وَابْنُ زَيْدُونَ فِي مَا تَبَقَّى مِنْ شِعْرِهِ مَقْنَدٌ.

#### أ - المعتد بن عباد

#### ١ - تاريخه:

كَانَ ابْنُ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطُّوَالِفِ فِي الْأَنْدَلُسِ. تَوَلَّاهُ حَكَمَ إِشْبِيلِيَّةَ مِنْ سَنَةِ ١٠٣١ إِلَى سَنَةِ ١٠٩١ وَقَدْ أَسَّسَ دَوْلَتَهُمْ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ السُّورِيُّ الْأَصْلُ، وَكَانَ آخِرُهُمُ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ أَمِيرَ إِشْبِيلِيَّةِ (١٠٦٨ - ١٠٩١).

ولد المُعْتَمِد سنة ١٠٤٠ م. وشبَّ في بلاط أبيه على رخاء في العيش وحب للمغامرة. وفي سنة ١٠٥٨ وجهه أبوه المعتمد على رأس أحد جيوشه لافتتاح مَالَقَة ، فسار إليه في نشوة الشراب واللهو ولم يجد إلا صيداً وهزيمة. وفي سنة ١٠٦٤ جعله أبوه والياً على مدينة شَلَب وحاكماً على إقليم الجوف البرتغالي كُلِّه. فعقد مع وزيره أبي بكر ابن عمار صداقة لا تخلو من ريبة ، وانصرف معه الى السكر والعردة ، مما أثار حفيظة أبيه ومما حمسه على إبعاد ابن عمار.

وفي سنة ١٠٦٨ اعتلى عرش أبيه واستَقَدَمَ ابن عمار وولَّاه على شَلَب ، ثم إنَّه تَرَوَّج من جارية استطاعت أن تُجَيِّزَ شَطْرَ بيت أرتجله ، وكان قد سأل صاحبه الشاعر ابن عمار أن يُجَيِّزه فلم يستطع ، فأجازته هي على البديهة وهي تغس في النهر. وقد تمت يوماً أن تعجن الطين برجليه فنثر لها الكافور والعنبر على الحصباء وصنع لها منها طيناً تطأه رجلاها.

وكان ابن عباد شاعراً عبقرياً يظلم الشعر ، وقد حاول أن يجعل حياته كلها قصيدة من قصائد الشعر المترف. وأن يجعل بلاطه موئل الشعراء ، وقد انضمَّ إليه شعراء الأندلس وأفريقية وصقلية ولاسيا عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها.

وكان المعتمد رجل حرب افتتح المدائن ، وذلك الحصون. وقد امتلك قرطبة وامتدَّ سلطانه الى مرسية. وعندما اشتد عليه أمر الأدفنش (ألفونس السادس) ملك قشتالة استنجد يوسف الرابطي ابن تاشمين صاحب مراكش ، وخاض معه معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ، وخرج منها ظافراً. ولكن يوسف لم يلبث أن خاناه وعمل سراً على الاستئثار بالملك في بلاد الأندلس ، فأثار القن على المعتمد وفتح قرطبة واشيبية ، فانهزم الملك الشاعر ثم أُسِرَ وحُمِلَ مع ذويه الى أغات قرب مراكش عند سمع جبال الأطلس ، فأقام في أسرِهِ يندب الحظ ويصف أيامه الماضية والحاضرة في شعر كان عصارة نفسه ولسان وجدانه ، حتى وافاه الأجل في دُور اتَّخَذَتْ له من الطين تحت أغصان النخيل ، وذلك سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م.

٤ - ابن عباد شاعر الوجدان :

كان ابن عباد شاعر الترف والرخاء قبل أسره ، وشاعر الألم والذكرى بعده . كان كأبي فراس من سلبية حلّ الشعر في صدر كل واحد من أفرادها ، وكان كل واحد منهم سيّد السيف والقلم . ونظم الشعر كأبي فراس منذ حداثة سنّه ، ولكنه اختلف عنه في تطلّب اللهو الى حدّ الإسراف ، وفي حياة المحون التي تسرّبت الى شعره فملّأته خمرًا وموسيقى وطربًا .

وأسرّ ابن عباد كأبي فراس ، واقتيد أولاً الى طنجة ثم الى أغات حيث ضاقت به الحال واضطرت بناته الى كسب العيش بعمل أيديهنّ ، وحيث توالى عليه التكبّات والميخ ، وحيث أخيراً عاش أربع سنوات في مذلة الفقر ، وفقر المذلة ، يستوحى الآله شعراً كان حكاية حاله وصورة لآلامه وآماله .

وكانت آلام ابن عباد شديدة الوطأة على نفسه ، وقد أنزلته من بُوجه العالي الى حقيقة الحياة ، ومرّت قلبه بتراب الوجود ، فبكى بعد غيبوبة النشوة ، وتعمّل على فراش الحزن بعد لين المسرة ، وحرّ قيه ذليلاً بعد أن كان على رأسه تاج الملك ، وأنصر بناته يمشين حافيات على قسوة الأرض بعد أن مشين على المسك والكافور ، ويغزلن للناس للحصول على لقمة العيش ، وفقد زوجه ولذّيه وتشّت حوله شمل الأصحاب بعد أن كان نقطة الدائرة ومحطّ الآمال والأبصار .

وراح في حزنه يتأمّل ويعتبر ويخرج من تأمّله حكيمًا يفقه زوال الدّنيا وسراب الوجود . وراح يقارن بين الماضي والحاضر ، وإذا في نفسه صراع يُنسبه الحقائق التي جرى ثمارها من التأمّل والاعتبار ، وإذا الصراع يتحول الى سُخط على الدهر الذي يحارب الصّالحين ، والى كآبة شديدة تحيي فيه الذكريات ، وترجّه في عالم الفرحه السالفة في يأسٍ يهون معه الموت الرّؤام .

وراح في حزنه ينظر الى النّاهيين والياقين من ذويه . ويتقبّل بين دمعة الرّثاء وجرح البقاء ، في لوعة يثث شيعره حرارة اللّهاث المحترق ، وسكّبت على قوافيه عالماً من الأشجان . وهو أبداً صادق الانفعال ، صادق التّصور ، وشعره أبداً تعبيرٌ حيّ عن واقع حاله .



وهكذا فوجدانية ابن عباد هي وجدانية النفس السهلة اللينة التي تنصب على واقعها وواقع أحوالها الحياتية ، وتعالج آلامها بالتهنئة الحرة ، والزفرة العميقة ، والإرتان الطويل . فليس هنالك تعقّد ولا تعقيد ، وليس هنالك نظرات إنسانية بعيدة المرامي ، وإنما هنالك إخلاص في العاطفة ، وصدق في التجربة ، وحكاية حال حافلة بالانكسار النفسي ، والذهول الأسف المتألم .

هكذا يبدو لنا ابن عباد أشدّ تركّزاً شعرياً وعاطفياً من أبي فراس ، وإنّ في ذكرياته الفخرية ما يجعلها أقرب الى النفس والفعل في القلب من ذكريات أبي فراس .

ب - ابنُ زيدون ( ٣٩٤ — ٤٦٣ هـ / ١٠٠٣ — ١٠٧١ م )

١ تاريخه :

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون . وُلد بقرطبة في بيت شرف وقفه وأدب ، ونشأ مكباً على العلم وارتشاف مناهل الثقافة ، وقد تخرّج في ذلك على أبيه الفقيه الكبير ، وعلى صديق أبيه أبي العباس بن دُكوان عالم قرطبة الأول في عصره ، وتخرّج في النحو والأدب واللغة على أبي بكر مُسلم بن أحمد . ثم تردّد على علماء الجامعة الكبيرة في قرطبة ، وأخذ عنهم الشيء الكثير في مختلف نواحي الثقافة ، حتى أصبح بعد زمنٍ قصير عالماً من أعلام الفكر والأدب . وفي تلك الأثناء شبّت الفتنة الكبرى التي انتهت بسقوط الأمويين وقيام دولة بني جهور ، فتقرّب ابن زيدون من مؤسّسها أبي الحزم بن جهور فقيه «بذي الوز رتين» . ثم اتّصل بالخليفة المستنكي وعيّن بته «ولادة» وهام في حبّها الى حدّ بعيد جدّاً . وكان المستنكي — على حدّ قول ابن حيّان — «محبّولاً على الجهالة ، عاطلاً من كلّ خلة تدلّ على فضيلة ... معروفاً بالتخلّف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السرّ والعلانية ، أسير الشهوة ، عهر الحلوة» . وكانت ابنته ولادة من أهل الأدب والشعر والموسيقى ، ولّا توفي والدها سنة ١٠٢٥م فنحت يتيماً للأدباء والشعراء ، قال ابن بسّام : «وكان مجلسها بقرطبة متدياً لأحرار مصر ، وفناؤها منبعاً لحياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب الى ضوء

غُرَّتْهَا، وَبِهَا لِكَأَفْرَادِ الشَّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ عَلَى حِلَاوَةِ عَشْرَتِهَا، إِلَى مَسْهُولَةِ حِجَابِهَا، وَكَثْرَةِ مَتَابِهَا... عَلَى أَنَّهَا سَمِيحٌ اللَّهُ لَهَا وَتَعَمَّدَ زَلُّهَا — أَطْرَحْتُ التَّحْصِيلَ، وَلَوْ جَدْتُ إِلَى الْقَوْلِ فِيهَا السَّبِيلَ، بِقَلَّةِ مِثَالَاتِهَا، وَبِجَاهَرَتِهَا بِلَذَاتِهَا.

عَلَّقَ ابْنُ زَيْدُونَ وَلَادَةَ وَعَلَقَتَهُ، وَقَضِيًّا رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ فِي عَيْشَةِ اسْتِهْتَارٍ وَبُحْجُونٍ إِلَى أَنْ كَانَ يَوْمٌ تَبَدَّلَتْ فِيهِ الْأَحْوَالُ وَتَبَدَّلَتْ فِيهِ وَلَادَةُ لِعَشِيْقِهَا. وَقَدْ يَكُونُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ زَيْدُونَ وَقَعَ فِي هَوًى لِإِحْدَى جَوَارِي وَلَادَةَ أَوْ أَنَّهُ انْتَقَدَ أَحَدَ آيَاتِهَا الشَّعْرِيَّةِ، فَثَالَتْ عَنْهُ لِنَدِّكَ كُلِّ الْمِيلِ، وَوَقَعَتْ فِي هَوًى الْوَزِيرِ أَبِي عَامِرِ بْنِ عَبْدِ دُوسٍ، وَرَاحَ ابْنُ زَيْدُونَ يَتَوَسَّلُ بِغَيْرِ جَنْدَى، وَبِنِظْمِ الشَّعْرِ مَهْدُودًا ابْنَ عَبْدِ دُوسٍ، شَاكِيًّا إِلَى وَلَادَةَ تَبَارِيحِ أَهْوَى، وَكُتِبَ إِلَى ابْنِ عَبْدِ دُوسٍ رِسَالَةٌ عُرِفَتْ «بِالرِّسَالَةِ الْهَزْلِيَّةِ» سَخَّرَ فِيهَا مِنْهُ عَلَى لِسَانِ حَبِيبَتِهِ، فَلَمْ يَلِيْثِ الْوَزِيرُ أَنْ عَمَلَ عَلَى سَجْنِ الشَّاعِرِ، فَرَاخَ ابْنُ زَيْدُونَ فِي سَجْنِهِ بِكُتُبِ الشَّعْرِ مَسْتَرَحِمًا، وَرَاحَ يَكْتُبُ إِلَى أَبِي الْحَزْمِ رِسَالَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ «بِالرِّسَالَةِ الْخَدِيَّةِ» مُسْتَعْطَفًا. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَذْنَا تَصْغِيٍّ وَقَلْبًا يَرْحَمُ، فَصَصَّمَ إِذْ ذَاكَ عَلَى الْهَرَبِ مِنَ السَّجْنِ، فَمَرَّ لَيْلَةَ عِيدِ الْأَضْحَى وَظَلَّ مُتَخَفِيًّا عَنِ الْأَنْظَارِ إِلَى أَنْ عَفَا عَنْهُ أَبُو الْحَزْمِ وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّجْنِ بَعَثَ إِلَى وَلَادَةَ بِقَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ:

أَصْحَى الثَّنَائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِيَا، وَتَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيَا

وَلَمَّا تُوَفِّيَ أَبُو الْحَزْمِ سَنَةَ ١٠٤٣مِ اتَّصَلَ الشَّاعِرُ بِابْنِهِ أَبِي الْوَلِيدِ وَلَقِيَ لَدَيْهِ حِطْوَةَ كَرَى، وَارْتَفَعَ عِنْدَهُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْوِزَارَةِ، ثُمَّ اتَّخَذَهُ أَبُو الْوَلِيدِ سَفِيرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُلُوكِ الطُّوَلَانِ فَرَاخَ بِتَقَلُّبٍ مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ وَهُوَ أَبَدًا مُتَشَوِّقٌ إِلَى قَرْطَبَةِ يَنْظُمُ الشَّعْرَ فِي حَنَانٍ وَلَهْفَةٍ، وَهُوَ أَبَدًا أَسِيرُ حُبِّ وَلَادَةَ وَأَسِيرُ الْكَأْسِ وَاللَّيَالِي السَّاهِرَاتِ، وَأَخِيرًا اتَّصَلَ ابْنُ زَيْدُونَ بِبَلَاطِ بَنِي عُبَادٍ فِي إِشْبِيلِيَّةٍ ثُمَّ فِي قَرْطَبَةِ، فَجَعَلَهُ الْمُعْتَصِدُ وَزِيرًا لَهُ. وَلَمَّا تُوَفِّيَ الْمُعْتَصِدُ زَادَ ابْنُهُ الْمُعْتَمِدُ فِي تَكْرِيمِ الشَّاعِرِ، وَجَعَلَهُ نَدِيمَ شَرَابِهِ وَرَفِيقَ لُحُوهِ وَحَيَاتِهِ، فَقَامَ الْحَسَادُ يَنْفُسُونَ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَكَانَةَ وَيَسْعَوْنَ فِي إِبْعَادِهِ، وَلَمَّا شَبَّتْ ثَوْرَةُ إِشْبِيلِيَّةٍ عَلَى الْيَهُودِ وَجَدُوا سَاعَتَهُمُ الْمُنْتَظَرَةَ، فَأَشَارُوا عَلَى الْمُعْتَمِدِ أَنْ يُرْسِلَ ابْنَ زَيْدُونَ لِإِخْرَاجِ نَارِ الثَّوْرَةِ، فَفَعَلَ. وَهَكَذَا أَقْصَى الشَّاعِرُ وَانْتَقَلَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ حَيْثُ ثَقُلَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ وَتُوَفِّيَ سَنَةَ ١٠٧١م.

٢ - أدبه :

لابن زيدون مجموعة رسائل أتيينا على ذكرها فيما سبق ، وله ديوان شعر طبع في مصر وفيه شتى الأغراض الشعرية الممهودة

٣ ابن زيدون في غزله :

الغزل عند ابن زيدون حاجة في النفس يلبي نداءها ، وميل جامع يسير في ركابه ، وثورة في القلب يندفع في تيارها . فهو رجل المرأة الغاوية يهاها الى حد الجنون والمرس ، ويريد لها أبدا طوع هواه ، ويوجه نحوها جميع قواه ، في ترف أنفلسي ، وجامح نواصي ، وقد عانى من جرأ الحب ألوانا من الألم واللوعة ، وقاسى في سبيل المرأة أمر العذاب ، فوجدها رفيقة حياة ، وسبب مسرات ، كما وجدها موئل غدر ، وعالم تغلب وخيانة ، ولقي في كأس هواها ألف مرارة ومرارة . فراح يسكب نفسه حبرات ، ويعصر قلبه ويرسله نأوهات وزغفرت . وإذا قصائده مزيج من شوق ، وذكرى ، وألم . وأمل ؛ وإذا غزله حافل بالأسعطاف والاستراحام . حافل بالإنجابات الحزرى ، والتذاعات السكزرى ؛ وإذا الأقواب مثورة مع كل نسيم ، مرددة كل صدى ؛ وإذا كل كلمة رسالة حب وغرام ، وكل نفطة لوعة وانطلاقة سهم . وهكذا كان غزل ابن زيدون روحا متمللا ، وكيانا تتقاذفه الأمواج ، وهكذا كان شعره كلام الناطقة والوجدان ، يترقق ترقق الماء الزلال . في صفاء البلور . ولين الأعشاب على ضفاف الغدران ، وفي عدوبة تماوج على أعطافها موسيقى هي السحر الخلال ، موسيقى تنام على أوتارها الدهور ، و تغفو بين حناياها الجلال والنور ، وهكذا كانت ألفاظه . يهولة تنمو في أجواء الطبيعة الزاهية ، وتمتجج بها امتزاج الأرواح بالأرواح ، وإذا كل شيء في القصيدة حي نابض ، وإذا كل شيء رونق وجمال ، وكل شيء حلقة نوازنة بين الذكرى والأمال .

ومن جميل غزله قوله :

ما ضرَّ لو أنك لي راحمٌ      وعِشْتِي أنتَ بِهَا عَالِمٌ ؟  
بَهْنِكَ ، يا سُؤْلِي وَيَا بُعْثِي .      أَنْكُ مِمَّا أَشْتَكِي مَالِمُ

تَصَحَّحْكَ فِي الْحُبِّ، وَأَبْجِي أَنَا      اللَّهُ، فَمَا بَيَّنَّنَا، حَاكِمُ  
أَقُولُ لَمَّا طَارَ عَنِّي الْكَرَى      قَوْلَ مُعَنَّى، قَلَسُهُ هَائِمُ:  
بَا نَائِمًا أَيْقَظْ لِي حُبَّهُ،      هَبْ لِي رُقَادًا أَيُّهَا النَّائِمُ!

٤ ابن زيدون في مدحه وورثاته :

ابن زيدون في مدحه وورثاته مقلدٌ شديد التقليد للشعراء العبَّاسيين ولاسيَّما أبي تمام والبحتري والمتنبي. وهو ينقل الكثير من معانيهم ويجري على الكثير من أساليبهم، ويحسن عرض ما ينقل أو يقتبس، ويخرج به عن القلب القديم إلى قالب أندلسي صميم، وهكذا كانت معانيه لا تختلف عن معاني سابقيه، وكانت ديوانته منسوجة من نور الأندلس وزهرها، ومن لبن طيبة الأندلس وموسيقاها.

• • •

هكذا كان ابن زيدون شاعر الأندلس وبلبلها الغريد، وهكذا كان شاعر العبقرية التي تعطي النفس من خلال الطبيعة التي تصف، وتصور القلب في كزوس الحب التي ترتشف، وتصدد الزفراء والآمال أنعام سحر وروعة، وتتصغر اللغة وتستخرج منها كل إمكاناتها الموسيقية لتشدو ألحانها المشجية التي ملكت على العرب ألبهم في عصورهم القديمة والحديثة، حتى جعلت كبار شعرائهم من همهم أن يعارضوا بعض قصيده، كي يظفروا بعض أنغامه... وليس روم الأندلس وحدهم هم الذين أخذوا عنه لوعة قواده وعمق عشقه، بل أخذهما أيضاً في جنوب فرنسا جماعة التروبادور الذين تأثروا فيما بعد أصحاب الموشحات والأزجال من الأندلسيين، فعمله أو بعبارة أدق غزله كان واسع التأثير بما فيه من عمق الهوى وعذاب الحب وحرقة العشق<sup>١</sup>.

١. شوقي صيف: ابن زيدون. سلسلة «لوايح الفكر العربي» - دار المعارف.

## نَزَمَلَةُ شِعْرِ التَّمَرِّ وَالْإِغْرَاقِ فِي التَّجْدِيدِ

ابن خَفَاجَة - الأَعْمَى النُّطِيلِيّ - ابن الرِّقَاق البَلَنْسِيّ  
الرُّصَافِي البَلَنْسِيّ - ابن سَهْل - ابن زُهْر

١ ابن خَفَاجَة :

وُلِدَ فِي حَرِيرَة شَمَّر وَعَاشَ فِي الْهَوْرَقِ مَنَاجَاةَ الطَّبِيعَةِ وَتَوَفِّيَ سَنَ ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م. وَشِعْرُهُ هُوَ شِعْرُ الطَّبِيعَةِ الزَّاهِيَةِ ، وَاعْتِسَافَاتِ ابْدِيعِيَّةٍ ، وَالشُّعُورِ الْحَمِيّ إِذْ شِعْرُ الْقَنْ وَالْجَلَاثِ .

ب - الأَعْمَى النُّطِيلِيّ :

وُلِدَ فِي أَشْطِيبِيَّةٍ وَقَضَى مَلَّةً مِنَ الزَّمَنِ فِي قَرْطَبَةِ ، وَتَوَفِّيَ سَنَ ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م. مَذْحُ كَثِيرٌ وَبِهِ جِرَالَةٌ وَاتِّسَافٌ وَمَحَاوَلَةٌ اسْتِرْضَاءٍ وَاسْتِثَالَةٍ ، وَفِيهِ أَجْبَانٌ شَكْوَى وَحِكَايَةٌ حَالٍ .  
وَرِثَاؤُهُ يَجْرِي عَلَى عَنَتِ أَسَالِيبَ وَلَيْسَ لَهُ جِدَّةٌ .  
لَمَّا الْوُشَّحَاتِ مَكَانَ الْأَعْمَى مِنْ أَرْبَابِيَا الْمَجْلِيَّيْنِ .

ج - ابْنُ الرِّقَاقِ الْبَلَنْسِيّ :

وُلِدَ فِي بَلَنْسِيَّةٍ . تَزَوَّجَ مِنْ هَانَا تُدْعَى دُرَّةً أَنْجَبَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ وَتَوَفِّيَتْ فِي شِبَاهَا . وَتَوَفِّيَ هُوَ فِي نَحْوِ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، أَيَّ سَنَ ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م.

هُوَ شَاعِرُ اللَّبَاقَةِ وَالْأَنَاقَةِ فِي مَعَالِجَةِ الْمَعَانِي الشَّعْرِيَّةِ ، وَإِضْعَاءِ الصَّبِيبَةِ الْحَمَائِيَّةِ الطَّرِيقَةِ عَلَى الْمَأْلُوفِ مِنَ الْمَعَانِي ، كُلِّ ذَلِكَ فِي سِلَاسَةٍ وَسَهْوَةٍ وَطَرَفَةٍ . أَنَّهُ يَصْغِي بِالْعَمَقِ فِي سَبِيلِ التَّزْوِينِ وَالتَّجْمِيلِ .

د - الرُّصَافِي الْبَلَنْسِيّ

وُلِدَ وَنَشَأَ فِي رُصَافَةِ بَلَنْسِيَّةٍ . اسْتَدْعَاهُ عَبْدُ الْمُؤَسِّسِ الْوَحْدَانِي إِلَى جَبَلِ الْقَتَحِ وَبَعَثَ شِعْرَهُ . ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى غُرَابَاةٍ وَزَهْدٍ فِي الدُّنْيَا وَتَوَفِّيَ سَنَ ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م.

الرُّصَافِي الْبَلَنْسِيّ يَخْتَرَعُ صَوْرَ يَحْلُوقُ أَنَّ يَرَى صُورَةَ الْوَاقِعِ بِنَتَقَةِ عَجَبِيَّةٍ . وَقَدْ حَافِظٌ عَلَى جِرَالَةِ الشَّعْرِ فَكَانَ شِعْرُهُ شِعْرَ التَّحْلِيلِ الْعَرَبِيِّ مَصْبُوغاً بِالْفَصَحَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَكَانَ يَمَاطُهُ مَعَالِجَةً تَتَفَرَّجُ وَتَجْرِي .  
أَنَّهُ شَاعِرُ الْجَمَالِ وَالْحَيْنِ وَشَاعِرُ الْمُقْطُوعَاتِ

هـ - ابْنُ مَهَلٍّ :

نَشَأَ بِأَشْطِيبِيَّةٍ ثُمَّ هَجَرَهَا بَعْدَ اسْتِيلَاءِ الْأَسْبَانِ عَلَيْهَا . وَمَاتَ عَرَقاً سَنَ ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م. أَحْسَنَ شِعْرَهُ مَا قَالَهُ فِي الْفِرْلِ وَقَدْ صَحَّ وَجَدَانُهُ فِيهِ وَكَانَ شَاعِرَ الْعُلُوبَةِ وَاللَّيْنِ وَالتَّصَارُفِ .

و- أبو بكر بن زُهر:

اشتهر في الطبّ قُرْبُه سلطان الموحّدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف المصور ، وتوفّي مسموماً سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م. وكان أشهر الوشّاحين في عهد الموحّدين.

### أ- ابنُ خُفّاجة (٤٥٠- ٥٣٣هـ / ١٠٥٨- ١١٣٨م)

١- تاريخه:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة. ولد في جزيرة شَقَر من أعمال بلنسية. وعاش منصرفاً إلى منع الحياة، مبتعداً عن استجداء الممدوحين، ثم عكف على الطبيعة يستجلي أسرارها، ويصفها ممعناً في ذلك الوصف، إلى أن توفاه الله سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م.

٢- أدبه:

لابن خفاجة ديوان شعر طُبع في مصر سنة ١٢٨٦هـ وأشهر ما فيه الوصف.

شعر ابن خفاجة هو شعر الطبيعة الزاهية، النابضة بالحياة، هو شعر الجنان والمنتزهات، يصورها تصويراً دقيقاً، حافلاً بالركة واللبن والأصباغ، ويسير في نغومة النسيم، وعَبْن الرياحين، على توقيع الأغصان المتمايلة، والأنوار المتهادية، والمياه المترققة، والأطيار المغرّدة.

وابن خفاجة شاعر المحسنات البليغة بتطلّبا بقوة، وبنرها كيف شاء، بل يتكلّفها في بعض الأحيان تكلفاً يؤدّي إلى التعقيد والغموض.

وهو شاعر الشعور الحيّ الذي يتغلغل في الطبيعة فيحيي ويشخص، وإذا الأزهار والأشجار ألسنة حديث، وثغور ابتسام، وإذا النسيم أنفاس نجوى، وامتدادات آمال، وإذا ابن خفاجة في الطبيعة وإذا هي فيه، وإذا المشهد رائع بما فيه من ابتكار وإبداع، وإذا ابن خفاجة شاعر الفنّ والجمال وشاعر الطبيعة الذي ينسج على أرفع

منوال. قال إميبيو غومس: «وقد طار صيت ابن خفاجة بما أنشأ من الشعر في وصف الحداثق والرياض حتى لُقِبَ «بالجئان»، وهو فنٌ من الشعر جَوَّده المُحدَثون من شعراء المشرق وبرع فيه الصُّنوبري. وإن روضيات ابن خفاجة لتفيض عبوديةً وجمالاً، وإنه ليصوِّرها في فنٍّ مصقول حافل بالمعاني، فتبدو وكأنها مشاهد من عالم الخيال أو يجالس أنس تلود فيها الأكواب، بيد أنه من المبالغة أن نذهب إلى أنَّ روضياته كانت السابقة التي نشأ عنها أسلوبنا في فهم الطبيعة. وقد كان أثر ابن خفاجة عظيماً، وظلَّت «الطريقة الخفاجية» محتدة حتى أواخر أيام مملكة غرناطة... وابن خفاجة وابن الزقاق يُعبران الذروة العليا لشعر العربي القديم المحدث في الأندلس، ولا يجد بعدهما إلَّا تكراراً وتخلُّداً».

## ب الأعمى التطلبي (٤٨٢؟ — ٥٢٥هـ / ١٠٨٩ — ٢ — ١١٣٠م)

### أ - تاريخه:

هو أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، وُلد في اشبيلية أو هاجر إليها وهو صغير، وتُطَبِّعُ موطن أهله فيما أن اشبيلية دار هجرتهم، ولهذا يُقال له التطلبيّ الاشبيبيّ؛ وكان ضريباً يقضي أكثر أيامه في اشبيلية (حمص) ويتصل فيها بالأعيان والرؤساء ويمدحهم ولكنه لا يلقي في بلده التقدير الكافي لمواهبه، بل يبقى أحياناً القوضى وتفتش الظلم، فيثور ويرفع الصوت داعياً إلى إصلاح الحال ورأب الصدع. وفي اشبيلية كان يجتمع بالشعراء والشواحين ولا سيما ابن بقي وأبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي.

ويرى بعض المؤرخين أن الأعمى التطلبيّ قضى مدَّةً من الزمن في قرطبة وقد مدح قاضياً بها القاسم بن حمدين. هذا أهمُّ ما وصل إلينا من أخباره، وهو نزر قليل لا يُشبع نهم المؤرخ، ولا يساعد مساعدة كافية على استطلاع عوامل شعره والوقوف على كوامن سرِّه. وإننا مع ذلك نحاول أن نقوم بدراسة، ولو موجزة، لهذا الشاعر الذي وصفه العمريّ في مسالك الأبصار بقوله: «نفس جلاله زكا شمسها، كان لو نادى

الليل لما أسفر، أو نظر الصباح في المشرق لما قر، أي بحر زاهر، وأي بدر زاهر، وأي سيل منحدر لا يردّه زاجر، وأي طيف سرور في حلم المنام زائر، وأي جواد سابق على طريق المحرّة سائر، وأي نجم لا يعدله من الفرقدين سامر...».

#### ٢ - أدبه :

للأعشى التطيلي ديوان شعر حقّقه الدكتور إحسان عباس وصدره بدراسة قيّمة عالج فيها تاريخ الشاعر وشعره في إيجاز، ونشر الديوان في بيروت سنة ١٩٦٣، وفيه مدح وورثاء وغزل ووصف وموشحات.

أما مدح التطيلي فكثير أتخذه وسيلة للكسب وللإتصال بخاصّة المجتمع ولاسيما الفقهاء والقضاة منهم، وفي مدحه جزالةً واندفاعاً ومحاولة استرضاء واستئالة، وفيه نبينا شكوى وحكاية حال، كل ذلك في سبيل التكبّس الذي شاع في ذلك العهد شوعاً حمل الدكتور إحسان عباس على القول: «يومئذ اشتدّت الصلة بين الشعر والتكبّس، وامتوى الشاعر والوشاح والزجّال في هذا، فكانوا جميعاً يمدحون الفقيه والقاضي أو صاحب الأحباس أو صاحب المدينة، وغايتهم من ذلك قد تنضال حتى لا تعلق الحوصل على غفارة أو ثوب أو خروف كما يبدو في أزجال ابن قزمان—، بل قد يكون الممدوح علماً عياراً جميلاً يمزج الشاعر أو الوشاح أو الزجّال بين مدحه له وتقرّله فيه».

وأما ورثاء الأعشى التطيلي فيأتي بعد المدح في ديوانه وهو يتبع فيه عدّة أساليب، فتارةً يعدّد أوصاف الفقيد ويذكر هول الفاجعة وما أحدثته في النفوس من ألم وأسف، وتارةً أخرى يلجأ إلى النظرات التأملية في زوال الدنيا ومن عليها، أو يلجأ إلى استعراض الحقائق المصيرية التي تجعل الإنسان العويّة في يد الأقدار.

وأما الموشحات فقد كان التطيلي من أربابها المُجَلِّين. قال ابن سعيد صاحب «المتنطف من أزهار الطُرف» نقلاً عن الحجاري صاحب «المسهب»: «ثم جاءت الحكبة التي كانت في مدة المُثَمِّين، فظهرت لهم البدائع، وقرسا رهان حُلُبِّهم الأعشى



التطليقي ويحيى بن بقي... وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين الأيضي، وكان في عصرهم أبو بكر بن باجة<sup>١</sup>.

وجملة موشحات الأعمى في المديح والغزل، وأكثرها ناجح وذو شهرة واسعة لما فيه من تنوع، ومن غنى موسيقي وتعريفي.

### ج- ابن الزقاق البلنسي (٤٩٠هـ - ٥٢٩هـ / ١٠٩٦ - ١١٣٤م)

#### ١ - تاريخه:

هو أبو الحسن علي بن عطية المعروف بابن الزقاق البلنسي. ولد في بلنسية نحو سنة ٤٩٠هـ، من أب فقير قيل انه كان يبيع الزقاق فدعي الزقاق نسبة الى عمله، وقيل انه كان ذا حانوت للجدة، كما قيل انه كان مؤذناً في منار المسجد الجامع بلنسية، وكانت زوجة الزقاق أخت الشاعر أبي اسحق بن خفاجة، ولهذا قال احجاري صاحب «المسهب» أن ابن الزقاق «استمد من خاله أبي اسحق بن خفاجة».

طلب شاعرنا العلم، أول ما طلبه، في بلنسية، وقد روي أنه كان «يسهر في الليل ويشغل بالأدب وكان أبوه فقيراً جداً، فلامه وقال له نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذي نسهر عليه». ولما برع الفتي في الأدب والشعر قال في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة فأطلق له ثلاث مئة دينار فجاء بها الى أبيه وهو جالس في حانوته فوضعا في حجره وقال: «خذها فاشتر بها زيتاً».

والشيء القليل الذي نعرفه بعد ذلك عنه أنه تزوج من فتاة تدعى ذرة، أنجب له ولدين هما محمد وإبراهيم، وانها توفيت في شبابها بعدما توفي أخوه الأكبر وعدد من خاصّة أصدقائه وقد رثاهم جميعاً بالهم ولوعة.

أما أسانده فقد عُرِف منهم العلامة أبو محمد بن السيد البطلوسي صاحب الشروح

١ - طالع مقدمة ديوان الأعمى، الدكتور إحسان عباس.

٢ - طالع مقدمة الديوان لمعينة محمود ديرني، ص ٣٣.

الشهيرة الذي انتقل الى بلنسية قبل سنة ٥٠٣ هـ ، وأقام فيها الى آخر حياته يواصل أعماله العلمية ويستقطب رجال الفكر والمعرفة .

وكان لابن الرِّقاق صداقات وعلاقات مع عددٍ من الأدباء والشعراء والأعيان ، جاء في شعره ذكر بعضهم من مثل أبي بكر بن رزق الله الحافظ ، وأبي زكريا يحيى بن أحمد الأركشي .

ولم يُعمر ابن الرِّقاق طويلاً فقد تُوفي وهو في نحو الأربعين من العمر .

#### ٤ - أدبه :

لابن الرِّقاق البلنسي ديوان شعر جمعته وحققته عفيفة محمود ديراني وبشرته دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٤ . وهو مرتبٌ ترتيباً هجائياً على طريقة قديمة حافظت فيه جامعته على نظام المخطوطات التي اعتمدتها في عملها .

والديوان يحتوي من الفنون الشعرية مدحاً وهجاءً ووصفاً وغزلاً وروثاءً . وقد تُرجم الى الاسبانية قسمٌ من شعر ابن الرِّقاق ونُشر بملريد سنة ١٩٦٠ .

ولئن كان ابن الرِّقاق من بيتٍ فقير ، ولئن أكثر من المدح ، فإنه لم يكن ممن يستملهم العطاء ، وممن تحملهم شهوة المادّة على الوقوف بأبواب الملوك والرؤساء للاستجداء . إنه لا يرغب إلّا في مواقف العزّة والإباء ، ولا يقبل بالذلّ وإن كان طريق الثراء . ومن أقواله في ذلك :

وَلِي مُهْجَةٌ لَا تُسْتَمَالُ بِتَائِلٍ      وَلَا تَرْجِي بِالشَّعْرِ خِلْعَةٌ وَاهِبٌ  
بَعِيدَةٌ شَاؤَ اللَّهُمَّ رَعَبٌ فِي الْعُلَى      وَكَسَبَ الْمَسَاعِي الْعُرُ ، لَا فِي الرُّغَائِبِ

وكان ابن الرِّقاق يكره المدح ويحاول الابتعاد عن دواعيه ولكنهم الملوك والأمراء والأعيان لا يرضيهم إلّا أن يتغنى الناس بمناقبهم ، وبما يشتهون من الصفات والآيات ، فاضطرّ أن يمدح ، وأن يقول ما يقوله الناس في المدح والإطراء ، وأن يردّد المعاني التي رددتها الشعراء في صيغة أندلسية تتميز بالرونق والتأنق التصويري والتعبيري .

والرّوعة كل الرّوعة تكن في الوصف والغزل عند ابن الرِّقَاق. وهذه الرّوعة حملت العنماء والنقاد الأقدمين على تعظيم شأنه بين الشعراء وعلى الإغراق في تقريب شعره وإبداعه. قال عنه ابن عبد الملك المراكشي: «كان شاعراً مجيداً غزلاً، حسن التصرف في معاني الشعر، نبيل الأغراض، وشعره واصفاً ومادحاً ومتغزلاً شاهدٌ بإحاطته». وقال فيه ابن الإمام في سبط الجان: «المطبوع بالاصفاق، ذو الأنفاس السحرية الرِّقَاق، المتصرف بين مطبوع الحجاز ومصنوع العراق، الذي حكى بشعره زهر الرياض، وأخرج بإشاراته غترات الحفون العراض...».

وقد امتدحوا في شعره اللباقة والأناقة في معالجة المعاني الشعرية. وإضفاء الصبغة الجمالية الطريفة على المألوف من المعاني، وسيطرة الروح الحية والمرقة على الفكرة والصورة والمعارة، وانسكاب المعاني في قوالب حافلة بالسلامة والسهولة والطرافة.

وأكثر ما يمتاز به ابن الرِّقَاق شدة تطلّبه للصورة الطريفة، وحسن التعليل لمشهد من المشاهد التي يراها ويتحدث عنها، فهو يكدّد ذهبه في سبيل ذلك كدّاً، ويعمد الى الحوار لإحياء صورته وتعليقه، قال بصف المطر وهو ينساقط على زهر الرياض:

ورياض من الشَّقائِ أَضحى      يَهَادى فيها سسيمُ الرياحِ  
زرَّتْهَا والعمامُ يجلدُ منها      زهراتِ تروقي لَوْنُ الرّاحِ  
قيلَ ما ذُنُها فقلتُ مجيأً:      سرّقتُ حمرةَ الحدودِ الجِلّاحِ

وهكذا فابن الرِّقَاق مولع بالصورة شديدة الولوج، بتطلّبه تطلّبا، ويضحي بالعق والتحليل في سبيل التزييق والتجميل، وهو ينظم أكثر شعره مقطوعات قصيرة يجعل في كل منها لوحة صغيرة ينتهي بنكتة تصويرية يحسب الشاعر أنه بلغ بها الهدف الابتكاري الذي يرمي اليه. وهكذا فأكثر شعره لمسات لرسم تغريه اللمحة أكثر ممّا تغريه اللوحة.

قالت عفيفة محمود درياني: «إذا كان الشعر يخسر كثيراً من زخمه الشعوري حين يرتبط الى عتبة أمير أو وزير، فإنه يخسر جانباً كبيراً من طاقاته العميقة حين يُصبح قصيداً

للطرافة في الصورة الجميلة والتعليل المُعْجَب ، وبين هذين معاً واقع ابن الرقاق ...  
أقول انه كان يؤمن بأنجاه في الفن حاصراً محدداً المعاليم ، وهذا الإيمان نفسه يموت حين  
يصبح هذا اللون من التفنن غريباً على الأذواق<sup>١</sup> .

### د - الرصافي البَلَنَسِيّ (٥٧٢هـ / ١١٧٦م)

#### ١ - تاريخه :

أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البَلَنَسِيّ وُلِدَ ونشأ في رصافة بلسية ، وفي نحو  
٥٤٦هـ غادر بلده وانتقل الى مالقة مع والده الذي سعى وراء رزقه وحاول الابتعاد  
عن مواطن الفتن والاضطراب السياسي والاجتماعي . وقد ظهرت ملامح القفلة  
والدكاء عند الفتى الناشئ فراح ينظم الشعر وراح صيته ينتشر شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ  
مسامع عبد المؤمن فاستدعاه مع جماعة من الشعراء الى حبل الفتح (جبل طارق) ، وقد  
أنشده شاعراً اذ ذاك قصيدة بليغة كانت فاتحة عهده مع أمراء الدولة الموحدية .  
وانتقل الرصافي الى غرناطة ووجد في مدينتها الدنيا وتحول من حياة النهو والهجون الى  
حياة العمل ، كما زهد في التردد على الأمراء والملوك ، وأبى أن يخضع شعره لأعطيات  
ذوي السلطان ، وأن يجعله وسيلة للتكسب .

وقد أكثر الرصافي من التجول في بلاد الأندلس ثم عاد الى مالقة ، وظلّ عازباً لم  
يتزوج الى أن توفي سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م .

#### ٢ - أدبه :

للرصافي البلسي ديوان شعر جمعه وأشرف على نشره الدكتور إحسان عباس ، وقد  
طواه على قصائد ومقطوعات تتألف من نحو ٥٤٦ بيتاً من الشعر في المديح والرقاء والغزل

والوصف والحنين. وأكثر شعره في وصف الطبيعة ولا سباً تلك التي تكون جزءاً من وطنه.

قيل ان الرصافي البنسني في العرب كابن الرومي في الشرق من حيث الابتكار . فابن الرومي مخترع معانٍ، ومحلّ أفكار، والرصافي البنسني مخترع صور، وكلاهما يحاولان أن يبرزنا لنا صورة الواقع بدقّة عجيبة، ابن الرومي باللفظة البارة المعبرة، والرصافي البنسني بالصورة الشبقة المؤثرة.

والرّصافي البنسني من أولئك الذين حافظوا على جزالة الشعر ولم يحوّلوه الى مقاطع موسيقية مقطّعة الأوصال. إن شعره شعر التقليد العربي مصبوغاً بالصبغة الأندلسية ذات الألوان المشرقة واللمعات لساحرة.

وهو حين ينظم الشّعر يُكبّ عليه إكباً شديداً ويعالجه معالجة تنقيح وتجويد ومعالجة توليد فكريّ وتصويريّ يروع بمشاهد تعبّره كما يروع بدقّة تعبيره. والرصافي في كل ذلك شاعر السلاسة التي لا يفقدها التجويد والتّجوير شيئاً من ترقّقها، وشاعر الجلال الذي لا تطغى الصنعة عنده على ما في الفن من خطوط وظلال.

أضف الى ذلك أن الرصافي البنسني شاعر الحنين الذي لا تنفك أنظاره متّجهة الى ربوع طفولته ومواطن أنسه. وفي حنينه لوعة واشتياق، وفي تشوّقه حرارة وانسحاق.

وهو أخيراً شاعر المقطوعات التي تحدّدت شخصيتها الشعرية في ذلك العهد، فهاشت القصيدة في لشيوع، وامتازت بالكتّة المبتدعة، والالتماع المفسّرة، والجالية الأخاذة.

هـ- ابن سهل (٦٥٥ - ٦٤٩هـ / ١٢٠٨ - ١٢٥١م)

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الاسميّ. نشأ بأشيلية في عهد الموحّدين ثم هجرها بعد استيلاء الاسبان عليها، واتّصل بابن خلاص والي سبتة، ومات غريقاً معه سنة ٦٤٩هـ - ١٢٥١م.

لابن سهل ديوان شعر في الوصف والغزل والمدح والثناء وغير ذلك من الأبواب الشائعة عند العرب، وأحسن شعره ما قاله في الغزل.

ابن سهل شاعر الوجدان الذي انطلق في عالم العواطف بملء جناحيه وراح ينسج من خياله أنجواء الغرام رحية ، واسعة الأطراف ، وينتقل فيها من أفق إلى أفق ، في رقة القلب الذي كوته اللوعة ، وفي ارتعاشة النفس التي تبخرت توجعاً وتظلماً . وشعر ابن سهل شعر العنوبة واللين والنضارة ، هو شعر السهولة التي تسكب انسكاب الماء المادي ، وهو شعر الموسيقى الساحرة التي توقّع على أوتار النفس في غير ما نشوز ولا اضطراب . وابن سهل من كبار الوشّاحين ، وله في هذا الفن ما يُعدّ من روائع الشعر الأندلسي .

#### و- أبو بكر بن زُهر (٥٠٤ - ٥٩٥ هـ / ١١١٠ - ١١٩٨ م)

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأيادي المعروف بالحفيد ، وهو أشهر الوشّاحين في عهد الموحّدين . وُلد سنة ١١١٠ م / ٥٠٤ هـ .

اشتهرت أسرته كما اشتهر هو في الطبّ فقرّبه سلطان الموحّدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور ، فأقام مدّة في البلاط الملكيّ بمراكش يقوم بأعمال الطبّ والتطبيب .

كان يقرب الوشّاحين ويقوم بينهم مقام الحكم والمرشد . وأخيراً مات مسموماً في سنة ١١٩٨ م / ٥٩٥ هـ . وهو صاحب الموشّح الشهير الذي مطلع :

مَا لِلْمَوْتِ مِنْ سَكْرَةٍ لَا يُغْنِي      يَا لَهُ سَكْرَانُ !

## مصادر ومراجع

- التعاليبي: يتيمة الدهر الجزء ١ - بيروت.
- ابن بسّام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - القاهرة.
- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - بيروت ١٩٦٠.
- حميد الدجيلي: ابن هانيء - المرفان ٨ : ٣٩٤ و ٢٥ : ٩٠١.
- نهد رفعت عنابة: ابن زيدون - دمشق ١٩٣٩.
- أحمد الاسكندري: ابن زيدون مجلة الجمع ١١ : ٥١٣ ، ٥٧٥ ، ٦٥٦.
- ماري عجمي: بين البحري وابن زيدون - الطليعة ٣ : ٥٣٥.
- محمد كرد علي: ابن زيدون - المقتبس ٢ : ٤٤٩.
- محمد مهدي البصير: ابن خفاجة الأندلسي - الملمع الجديد ٤ : ١٧ - ٢٤.
- عبد الرحمن جبير: الطليعة في شعر ابن خفاجة - الرسالة ٢٣ : ٢٢ ، و ٢٤ : ٢٢ ، و ٢٥ : ٢٣.
- أحمد الاسكندري: ابن خفاجة الأندلسي - مجلة الجمع ١١ : ٧٢٤ ، و ١٢ : ٢٦.

## الباب الرابع

### الحركة الفكرية والعلمية والفنية

#### ١ - دولها:

١ - التنازع العربي والحضاريّ، حفز العقل الحديد أو المتجدّد على توسيع نطاق العمل الفكريّ، والعمل الفنيّ في شتىّ مناحيه.

٢ - النهضة العبّاسيّة، في شتىّ ميادين المعرفة والفنّ، والكتب المنقولة والموضوعة التي وصل إشعاعها الى الغرب وكانت للمفكرين والفلاسفة وأرباب الفنّ عاملاً قوياً من عوامل المشاركة، والعمل التطويريّ.

٣ - رجال العلم والفنّ الذين انتقلوا الى الغرب وأسهموا في البنيان الحضاريّ الجديد.

٤ - رواج الثقافة في الأندلس، وتشجيع الحكّام لها ولأربابها، وقد عمل الحكّام على إنشاء المعاهد العلمية في المدن والقرى، وساعدوا على نقل ما صُنّف في الشرق العبّاسي ونشره في الغرب، والحكم من أشهر الخلفاء اهتماماً للقضيّة الثقافيّة، وقد جمع العلماء من الأقطار، وأجرى عليهم المرتبات، وابتنى سبعة وعشرين مدرسة، وفي عهده ازدهرت جامعة قرطبة التي أسسها عبد الرحمن الثالث في الجامع الكبير. وقد ضمت العاصمة، فضلاً عن الجامعة، مكتبة كبيرة.

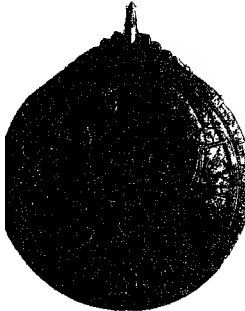
٥ - الفُرّة التي وسّعت حياة الترفّ ووسّعت معها حركة الغناء والموسيقى.

٦ - حرية الفكر التي رافقت عدداً كبيراً من الحكّام والرؤساء والتي أتاحَت للفلاسفة وأصحاب الرأي أن يقبلوا على الفلسفة توسّعاً وتلقيناً وتأليفاً.



## ٢ - مظاهرها :

١ - علوم اللغة : نزع الأندلسيون إلى أن يظلوا متميزين عن سائر إخوانهم في بلاد المشرق ، وإن عملوا في يده أمرهم على الاستعانة بالمشاركة ومحادثتهم في شتى الأحوال والأعمال . أمّا في موضوع اللغة فقد كانوا مشاركة في استعمالها وفي الخضوع لقواعدها والانقياد لنظم بيانها . ولئن تساوت العربية العامية والبربرية ولغة البلاد الأصلية في التخاطب فقد كانت اللغة العربية الفصحى لغة البلاد الرسمية ، يفخر رجال الحكم والقواد بكتابتها ، ويسعى الوزراء والقضاة وكتاب الدواوين في إتقانها وفي استعمالها على أحسن وجه وأفصح أسلوب ؛ وكان ملوك الطوائف يجمعون في بلاطاتهم ودواوينهم من يستطيع تقيد أسلوب ابن العميد والصاحب بن عباد في المشرق ؛ وقد ازدهرت اللغة الفصحى في عهدهم ازدهاراً شديداً لأنهم شجعوا الكتاب وأغدقوا عليهم المال



اسطرلاب أندلسي من صنع طليطلة يربني عهده الى سنة ١٠٦٨

(متحف أكسبورج لتاريخ العلوم)

الجزيل، وأفسحوا مجالاً واسعاً للحرية الفكرية، خصوصاً لأن تدريس اللغة الفصحى في المعاهد كان يحتلُّ الصدارة؛ فكان نظام التدريس أن يلقن الطالب أولاً أشعار العرب الأقدمين ولغتهم، حتى إذا إستقامت له تلك اللغة انتقل الى الحساب، فإلى حفظ القرآن<sup>١</sup>.

والى ذلك فقد اهتم علماء الأندلس للتصنيف في اللغة وعلومها. ومن أشهر أولئك العلماء أبو بكر الزبيدي<sup>٢</sup> (٩٨٩) صاحب «الواضح» في النحو والعربية، و«لحن العامة»؛ وابن التبان (١٠٤٤) صاحب «الموعب» في اللغة؛ وابن سيده (١٠٦٥) صاحب «المُحْكَم» وهو معجم رُتِبَت ألفاظه على ترتيب كتاب «العين» للخليل، وصاحب «المُخَصَّص» وهو معجم نادر رُتِبَت فيه المواد بحسب المعاني؛ و«الشُّستُمري» (١٠٨٤) صاحب «شرح ديوان المتنبي» و«شرح الحجاسة»؛ وابن خروف النحوي (١٢٠١٣).

٢ - علوم الرياضيات والطبيعات: ازدهرت في الأندلس علوم الفلك والرياضيات بكلاهما الأمراء والحكّام في قرطبة وإشبيلية وطليطنة برعاية خاصة، وقد اشتهر فيها المَجَرِطِيُّ القُرْطُبِيُّ (١٠٠٧) و«الزُّرْقَالِي الطَّلِيطِيُّ» (٩١٠٨٧)، وجابر بن أفلح الإشبيلي (٩١٥٠)، ونور الدين أبو اسحق البَطْرُوجِيِّ (٩١٢٠٤) تلميذ ابن طفيل وصاحب «كتاب الهيئة» الذي يُعدُّ قَمَّةَ الحركة الإسلامية المقاومة لآراء بطليموس في الفلك.

وازدهرت كذلك العلوم الطبيعية ولاسيما علم آليات المنطري والتطقي، وقد جمع القرطبي أبو جعفر بن أحمد محمد العافقي (١١٦٥) نباتات اسبانية وأفريقية وسماها بأسماها العربية واللاتينية والبربرية «ووصف هذه النباتات بطريقة يصح أن يقال فيها أنها أوفى وأدق ما في اللغة العربية في هذا الموضوع». ووضع أبو زكرياء يحيى ابن محمد بن العوام (نهاية القرن الحادي عشر) رسالة في الزراعة بعنوان «كتاب الفلاحة»، وهذه

١ - طالع مقدّمة ابن خلدون، ص ٥٣٩. 27. 24. Henri Frères, La Poésie Andalouse, pp.

٢ - طالع «بيضة الشعر» للخال، الجزء ١، ص ٤٠٩، و«وحيات الأعيان» لابن خلكان، الجزء ٣، ص

الرسالة «أهم ما صنّفه المسلمون في الزراعة بل هي أهم مؤلفات العصور الوسطى في هذا الموضوع». ومن أشهر علماء الطبيعة أيضاً ابن البيطار (١٢٤٨) صاحب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، وأبو القاسم الزهراوي (١٠١٣ — ١١٢٢) صاحب «التصريف لمن عجز عن التأليف» في الطب، وأبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء الملقب بابن زهر (١١٦٢) صاحب «التيسير في المداواة والتدبير» في الطب.

٣ - علوم الفلسفة: ذاعت في الأندلس مؤلفات الفلاسفة من أمثال الفارابي وابن سينا وإخوان الصفاء، فأقبل عليها الطلاب في شغف شديد، وهب الفقهاء والمتزمتون في وجه الحركة يعارضونها أشد المعارضة على أنها رجوع إلى الوثنية القديمة وتهجم على العقائد الدينية. أمّا الأمراء والحكام فقد عزّزوا الفلسفة تارة، وهاجموها تارة أخرى لإرضاء لرحل الدين، وتمشياً مع رغبة الماقيين. ومن مشهوري فلاسفة الأندلس ابن باجة (١١٣٨)، وابن طفيل (١١٨٦) صاحب «حي بن يقظان». وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) صاحب «تهافت التهافت» وغيره من الكتب التي كان لها أكبر الأثر في فلسفة القرون الوسطى

٤ - الحفر والنقش والعمارة: وانصرف الأندلسيون كذلك إلى معالجة الأواني الخزفية، فبرعوا في تزويقها. وفي القرن العاشر ظهرت مدرسة حفّاري العاج بقرطبة، فأنتجت من العلب والصدّادين وغير ذلك ما بقي شاهداً على دقة العمل ورقيّ الذوق، وتقدّم الحضارة. ويتصل بالحفر والتطعيم فنّ الفسيفساء الذي بلغ فيه الأندلسيون الغاية، ولا تزال آثارهم باطقة بكلّ عظيم مدهش.

وبرع الأندلسيون بفن العمارة وهندسة البناء، وقد مزجوا فنهم بالطراز الإسباني القديم، وراحوا يبنون الخنايا على هيئة حدوة الفرس، ويرفعون الأقنية على عقود متقاطعة. وقد أشرنا فيما سبق إلى القصور والبرك والحمامات والجسور والمساجد التي بناها الخلفاء والأمراء والتي لا تزال إلى اليوم من أعاجيب الدنيا في الفن والذوق.

٥ الموسيقي: انتقلت الموسيقى مع العرب الى الأندلس. وكان زُرِّيَاب خير من مثل ذلك الانتقال. إنه فارسي الأصل<sup>١</sup>، نشأ في بغداد واشتهر في فن الغناء فقرّبه هارون الرشيد وأبناءؤه. ولما طار صيته نغم عليه اسحق الموصلي ففرّ إلى شمالي افريقية ثم إلى الأندلس. وكان ذلك في سنة ٨٢٢ أي عقب موت الحكم الأول وفي مطلع عهد عبد الرحمن الثاني. وكان عبد الرحمن يسعى في أن تنافس قرطبة بغداد في البذخ والترّف، ومما يروى عنه أنه خرج من عاصمته لملافاة زُرِّيَاب، وأنه أسكنه معه وأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار في السنة، ووجه عقاراً في قرطبة قيمته أربعون ألف دينار حتى ارتفع شأنه وبلغ من الرفعة ما لم يبلغه أحد من أرباب الفن لذلك العهد. وكان زُرِّيَاب من رجال العنقريّة الفنيّة، يعرف عشرة آلاف صوت بأشعارها وألحانها. وكان للعود قديماً أربعة أوتار: الزّير، والمثنى، والمثلث، واليمّ؛ فأضاف إليها زُرِّيَاب وثناً خامساً ثم يسمّاه<sup>٢</sup>، وجعل مضرب العود من قواعد النسر بعد أن كان من خشب. وقد أنشأ مدرسة غدت معهداً كبيراً للموسيقى الأندلسيّة، ثم تبعها مدارس أخرى في إشبيلية وطليطلة ولبنسية وغرناطة. «وتلّو زُرِّيَاب مرتبة أبو القاسم عباس بن فرناس (٨٨٨) وإليه يُعزى الفضل الأكبر في إدخال الموسيقى الشرقيّة الى اسانية وتعميمها»<sup>٣</sup>.

وهكذا انتشرت الموسيقى في الأندلس انتشاراً واسعاً، ولا يستبعد هنري بيرس أن يكون الأندلسيون قد توصّلوا الى معرفة سرّ «الهرمونيّة» الموسيقيّة<sup>٤</sup>. وكان للأخنان سلطان شديد على قلوبهم.

H. Péres, La Poésie andalouse, p. 41 - ١

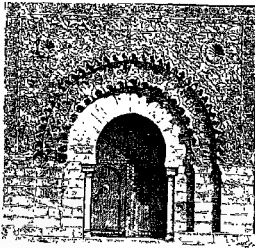
واللمعة «ورباب» محوطة من لفظين فارسيّين: «ر» أي ذهب، و«آب» أي ماء. واسم ذلك المصنّي أبو الحسن علي بن نوح. وابن عبد ربه يذهب الى أن زُرِّيَاب من أصل ربحي. (العقد القعيد، الجزء ٣ ص ٢٤١).  
٢ مقرّي، الجزء ٢ ص ٧٦، ٨٧، الخوارزمي (مناقب العلوم)، ص ١٣٧. وكان زُرِّيَاب الى ذلك رجل علم وأدب وطرف، وكان مرسعاً في أمور الري — طالع. غلبت حتى، الجزء ٣، ص ٦١٣.  
٣ H. Péres، الجزء ٢، ص ٨٧، ٨٨.

٤ غلبت حتى: تاريخ العرب، الجزء ٣، ص ٧٠٩ - ٧١٠. ويقال، د. عباس بن فرناس هو أول من استبطن في الأندلس صناعة الأراج من الحجارة، وأنه صنع آلة في منزله على هيئة السماء يُخيّل للمناظر بها أنه يرى الحوم والقيوم والبروق. وكان أول رجل حاول الطيران بطريقة علميّة (طالع المقرّي، الجزء ٢، ص ٢٥٤).

قال فيليب حتي : «إن المسلمين الغربيين كانوا أكثر ميلاً إلى من السماع والطرب من رملهم الشرقيين. ولم يأت القرن الحادي عشر حتى كانت الموسيقى الأندلسية قد كسفت شهرة بغداد في هذا الموضوع. وفي هذه الحقبة أصبحت إشبيلية تحت حكم بني عبّاد الذين حكموا قرطبة أيضاً مدة وجيزة مركزاً للموسيقى والغناء وغيرهما من ضروب اللهو التي تُقرن عادةً بصورة العرب الزاهية في ربوع الأندلس... واشتهرت عاصمة بني عبّاد بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرها. وهناك رسالة في الموسيقى ترجع إلى عصر ابراهيم بن لفياف ابن باجة (١١٣٨) ... وظهر في عهد الموحدين فيسوف آخر هو ابن سبين (١٢٦٩) بحث في تناسب الأنغم الموسيقية... »

• • •

وهكذا كانت الأندلس منارة إشعاع أبارت العالم وحطّت الطريق و ضحة للعبقريّة الإنسانية في رحلتها الحضارية التي نعم العالم ولا يزال ينعم بثمارها الياقة .



## مصادر ومراجع

- فيليب خني . تاريخ العرب — مطّول — بيروت  
 حرجي زبدان . تاريخ التمدّن الإسلامي بمجموعة دار الحيل — بيروت .  
 لجنة الجامعيّين لنشر العلم . تراث الإسلام — القاهرة ١٩٣٦ .  
 قدري حافظ طوقان . تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ١٩٤١ .  
 Leabon: La Civilisation des Arabes - Paris, 1861.  
 E. Levi-Provençal: La Civilisation Arabe en Espagne, Paris 1948  
 G. Marçais: L'art de l'Islam, Paris 1946  
 H. Terrasse: L'Art Hispano - Mauresque des origines au XIIIe s. Paris 1932.



إباء عربي أندلسي  
 (من روائع قصر الحمراء)

## الأدب المغربي

— بيئة الأدب المغربي

النثر المغربي :

- الخطابة

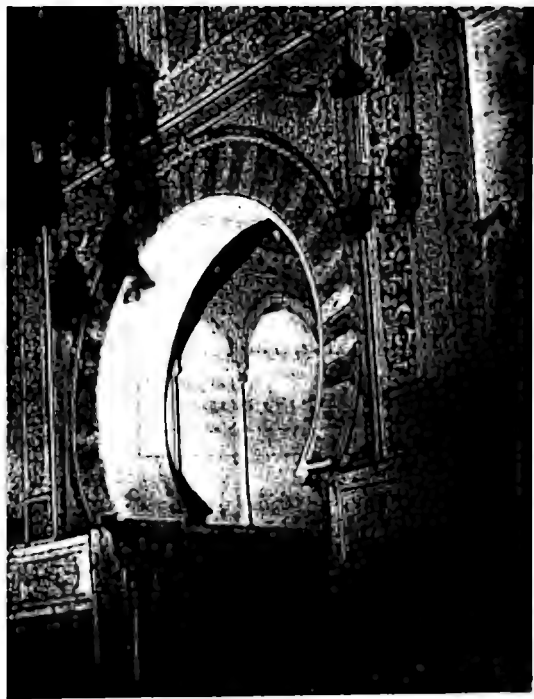
الترسل

التاريخ والجغرافية والرحلات

الشعر المغربي :

نظرة عامة

- شعراء المغرب العربي .



گراب سیدی وحسن فی قاسمان.



## الباب الأول

### بيئة الأوب المغربي

- ١ فتح العرب للمغرب : تمّ هذا الفتح في عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ / ٦٨١ م.
- ٢ استعرايب البربر : تمكّن الإسلام من البلاد فانتشرت معه لغة القرآن ، واهتمّ الحكام للأمر فأعزّوا إلى أفريقية معلّمين وفقهاء ساعدوا على التعريب
- ٣ الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية :  
أ عهد الفتح . حال سنة تمّده بفتح .  
ب - عهد النهضة المغربية بدأ هذا العهد مع المرابطين عندما احتلّ العرب بالأندلس وحصارها ، وانتشر العلم ، وازدهرت الفنون .  
وعندما قامت دولة المرابطين ترعّم المهدي بن تومرت الحركة لأدبية ، ووسع حكام يشجّعوا الترجمة وانتقل والعلوم ، وأنشأوا المدارس وجعلوا التعلم إجبارياً ، منع عدد كبير من الفقهاء والعلماء واشتهر ابن أبيروم في النحو ، وابن خلدون في التاريخ ، وابن بطوطة في الرحلات ، والخزالي في الكيمياء .  
ولكنّ هذه النهضة هزّت في عهد السعديين وعهد العلويين .

#### ١ فتح العرب للمغرب :

تمّ فتح العرب للمغرب في عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ / ٦٨١ م على يد عقبة ابن نافع ، ففتحت طنجة أولاً ، ثم سارت الجيوش العربية في بلاد البربر من بلد إلى بلد حتى بلغت المحيط الأطلسي ، فانتشر للإسلام في جميع الأصقاع المغربية . ولما توفي عقبة بن نافع انتشرت الموضى في البلاد ، وعمّت الفتن . إلى أن كان عهد الوليد بن عبد الملك ، فقدم موسى بن نصير سنة ٨٧ هـ والياً على أفريقية ، وقبض على الأمور بيد من حديد ورفع لواء النظام ، ولما استتب له الأمر فكّر في فتح الأندلس فكان من أمرها ما كان .

## ٢ - استعرا ب البربر :

اعتنق سكان المغرب الإسلام ، وقد دعاهم ذلك الى تعلم لغة القرآن . ولما كان عهد حسان بن النعمان الغساني ، والى افريقية من قبل عبد الملك بن مروان اصسحت اللغة العربية لغة البلاد الرسمية . زد على ذلك أن عمر بن عبد العزيز أنفد الى افريقية عشرة فقهاء يعلمون الناس القرآن والدين ، وكذلك انتدب موسى ابن نصير عدداً يذكر من الفقهاء والقراء للغرض نفسه . وهكذا انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً فيها بين شعوب البربر حتى إن طارق بن زياد استطاع أن يلقي فيها ، عند فتح الأندلس ، خطباً بليغ الكلام ، متين التركيب . وهكذا تقلص ظل اللغة البربرية شيئاً فشيئاً وكانت السيادة للعربية .

## ٣ الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية

أ . عهد الفتح : مرت على المغرب فترة من الزمن طويلة بعد دخول العرب إليه وهو في حال سيئة من الوجهة السياسية والعلمية والأدبية ، وذلك لتعدد الفتن ، ولأن المغرب كان على جانب عظيم من الإخفاط والجهل .

## ب عهد النهضة المغربية (عهد المرابطين والموحدين) :

١ ازدهار شامل : لما قامت دولة المرابطين مع عبد الله بن ياسين وامتدت أطرافها مع يوسف بن تاشفين الذي ضم أطراف المغرب ، وأنفد الأندلس من يد الفونس السادس وقد كاد يستولي عليها ، وقرب ما بين أهل الأندلس والمغرب في ظل دولة واحدة ، كان لاحتكاك المغرب بالأندلس أثر فعال في نهضة شعوب المغرب ، فهامت بحب المعارف والفنون ، وأصسحت مراكز التي بناها يوسف بن تاشفين (٤٥٤هـ) حاضرة المغرب إذ ذلك ، وأصبح بلاطها منتدى الشعراء والأدباء والحكام ، ودبت الحمية في الصدور لارتشاف مناهل العلم والثقافة ، وكانت الحركة مباركة وإن لم تتسع آفاقها ، ومثمرة وإن لم يطل عمر الدولة القائمة عليها .

وما إن قامت دولة الموحدين حتى تزعم المهدي بن تومرت الحركة الأدبية في المغرب العربي وهو الذي شب على طلب العلم وجد في تحصيله . إلا أن العلماء اجتمعوا

على مناهضته ، فلما يش من إصلاحهم وحيي الخير على أيديهم وجههم الى طبقة العامة من الشعب وأخذ يدعوهم الى الرشد ، ويعلمهم أمور الدين ويسعى في تأديبهم ، ولكنه لم ير نتيجة مسعاه ولم يفرح بالانتصار على خصومه إذ عاجلته المنية وهو شاب في مقتبل العمر ، فخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي الكومي الذي أحاط الأمة بسياج الحكمة والتدبير ، وحقق أملها في النهوض بمواصلة السعي والعمل ، وسرعان ما دانت له البلاد بعد أن قوض دعائم الدولة المرابطية . وهكذا انتقل الحكم الى الدولة الموحدية ، وقامت معها حركة تجديد وإنشاء وتعظيم في جميع مرافق الدولة ومصالح الأمة ، وقد عادت تلك الثورة الاجتماعية على المغرب العربي بالقائدة المحسوسة في حقل العلم والأدب ، إذ نبهت الأفكار من الخمول ، ونشطت الهمم من الخمود ، وبما ساعد تلك النهضة الثقافية أن الموحدين اهتموا بشديد بالاهتمام لترجمة ونقل الكتب ، وشجروا العلوم مادياً وأدبياً ، وأنشأوا المدارس والمعاهد وخزائن الكتب ، وجعلوا التعليم إجبارياً واستقدموا من الخارج كبار العلماء لنشر المعارف ، ورفعوا لواء الأمن والحريّة في البلاد . ولم يقتصر عمل الموحدين على تشجيع العلوم الدينية فحسب ، بل تعدّوها الى العلوم الأدبية واللغوية والعلوم الحكيمة التي انتشرت انتشاراً عظيماً لم تبلغه في أي عصر آخر . حتى عدّ هذا العصر عصرها الذهبي في المغرب ، وقد عُيّنت الدولة الموحدية أيضاً بعلوم الكيمياء والتنجيم والحساب والخبر والهندسة والتاريخ والجغرافية .

وقد امتاز الأدب في عهد الموحدين ببساطته وخلوه من الزخرف والصنعة ، وخلوه من السفايف الشائعة في الأدب العربي لذلك العهد ، كما امتاز بتأثره بالطابع الديني الذي كانت عليه الدولة الموحدية .

٢ علوم مختلفة : وما تداعت أركان دولة الموحدين وتوقّضت دعائمها ودبّ الى جسمها الانحلال عاجلها بنو مرين وهم أعراب نزحوا من الصحراء الى المغرب وأجهزوا عليها واستولوا على البلاد . وقد واصلت الحركة العلمية سيرها في عهدهم وشجّعها أمراؤهم تشجيعاً قوياً . فنزعت العلوم الشرعية متزعة التسط والتفريع ، ونغ عدد كبير من الفقهاء في هذا العصر ، وبلغت علوم اللغة والأدب أوجها فاشهر إذ ذاك ابن أجروم في النحو ، وابن هاني في اللغة ، وابن أبي زرع وابن خلدون في التاريخ ، وابن بطوطة في الرحلات . ولئن خفت صوت الفلاسفة فقد ازدهرت علوم الرياضة

والطب والكيمياء والهندسة والهيئة وما الى ذلك ، واشتهر ابن البتاء العدوي في الفلك والرياضيات . وأبو الحسن المراكشي في الطب ، وأبو العباس الجزناني في الكيمياء ، واشتهر غيرهم كثيرون وكلهم من أصل مغربي ، وقد رفعوا اسم بلادهم الى الدروة وكانوا من أركان العلم في العالم . أمّا الأدب فقد بلغ في هذا العصر كماله فتحلّص من سائر التأثيرات الأجنبية عن النفس المغربية ، وشقّ لنفسه طريقاً نحو الغاية المقصودة ، وهي سدّ حاجة تلك النفس النظامية الى حياة أدبية حرة تتمثل فيها عواطفها وميوها وسجاياها ومزاياها مصوّرة بصورة طبق الأصل لا رثاء فيها ولا تصنّع ولا ادّعاء ولا تقليد ، فبلغ تلك الغاية وأوفى عيها بمزيد التفنّن والإبداع ، ولا سيما في الشعر الذي حمل الطابع المغربي منذ هذا العصر ، فتجد الحقيقة فيه تسبق الخيال ، والطبع يغلب التصنّع ، والقصد الى الوضوح أكثر من التعمّق ، والرقّة والجزالة والسهولة في غير ضعف ولا غرابة ولا فسولة . ويكني أن في هذا العصر نبغ ذلك الشاعر الذي يحقّ أن يقال عنه إنه شاعر المغرب الأكبر ، ونعني به «مالك بن المرحّل» الذي طبّقت شهرته العالم العربيّ رغم ما مني به أدناء المغرب من خمول الذكر ، والذي لم يسع ابن خلدون إلّا أن يعترف بشاعريته على ما علّم من تحفّظه الشديد .

٣ - امبار أدبيّ لم نهضة مباركة : وقد أخذت الحركة الأدبية تحطّ شيئاً فشيئاً بعد ذلك العهد ، أي في عهد السعديين وعهد العلويين الى أن كادت جنودتها تنطفئ ، وها هي بلاد المغرب تعود اليوم الى نهضتها الأولى وتقبل على العلم بشغف ، وترفع لواء المعرفة عالياً ، وتريد أن تحدّد الماضي وترجع الى مركزها المرموق في العلم والأدب .

# الباب الثاني النثر المغربي

## الفصل الأول الخطابة

كانت دواعي الخطابة متعدّدة في المغرب ولاسيما في العصور الأولى عصور الفتوحات ونشر الدين الجديد، عصور الأحزاب السياسية، والخصومات القومية، وقد اشتهر من الخطباء عدد كبير نذكر منهم طارق بن زياد، ومحمّد المهدي بن تومرت، وأبا حفص عمر بن عبد الله الأغاثي، وأبا مدين الفاسي.

### طارق بن زياد - محمّد المهدي بن تومرت

أ - طارق بن زياد

هو بربري من زنتة في سنة ٩٢ هـ عبر البحر الى اسبانية، وسنة ٩٤ هـ أجهز على ثا. ث. وقد توفّي في دمشق سنة ١٠١ هـ / ٧١٩ م  
حصّة طارق من الفروع الحرفي، وجها لجهة حسنة، وسلوب متين، وصارة شديدة الرفع، وانفدوع عاصي.

ب - محمد المهدي بن تومرت.

نشأ نشأة علم وصلاح، وقدم برحلة الى اشرق ثم عد الى بلاده يريد إصلاحها، فحارب به العلماء. ولكن طلابه الموحدين أصبحوا دعاه بوحيد. توفّي سنة ٥٢٤ هـ / ١٢٢٩ م  
هو من رجال انكر المصنّف، ولنظر البعد، والبلاغة القائمة على تفهم الغسيات وهو في كلامه ذو منطق متين. وملاسة واستحسان وسهولة.

## أ - طارق بن زياد (١٠١ هـ / ٧١٩ م)

## ١ - تاريخه :

هو قائد شهير من قواد الفتوحات العربية الإسلامية في العهد الأموي. نسبه الإدريسي إلى قبيلة زناتة البربرية وقد ولّاه موسى بن نصير مدينة طنجة ، وفي سنة ٩٢ هـ ، أي في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، جهّزه بأثني عشر ألف جندي عبر بهم البحر إلى إسبانية . فقابلهم للدرق ملك إسبانية بجيش عظيم كثير العدد وافر العدة . فخشي طارق أن يتقهقر رجاله فبادر إلى إحراق أسطوله ليقطع لهم الأمل في الرجوع ، وألقى فيهم خطبته المشهورة ، فاندفعوا على الإسبان اندفاع المستعيت وهزموهم شراً هزيمة . ومضى طارق في طريق فتوحاته ، وقبض على الدرّيق وقتله سنة ٩٤ هـ ، وبعد ذلك استدعاه الوليد إلى دمشق حيث مات سنة ١٠١ هـ / ٧١٩ م .

## ٢ - خطبته :

خطبة ابن زياد من النوع الحرّبي القتالي . وقد توسّل فيها للإقناع باللهجة الحماسية المؤثرة ، وبمنااتة الأسلوب الذي يفيض نبضاً ، وبشدّة وقع العبارة ، وبمحسن سكّ الألفاظ ، وبالاندفاع العاطفي ؛ وقد جعل جنوده في موقف حرج لا مجال فيه إلّا للموت أو الاستبانة في القتال ، وجعل نفسه مثلاً حياً يتقدّم صفوف المحاربين . وخطبة ابن زياد من أروع الخطب الحرية التي عرفها التاريخ .

## ب - محمد المهدي بن تومرت (٤٨٥ - ٥٢٤ / ١٠٩٢ - ١١٢٩ م)

هو أحد خريجي مدرسة ابن ياسين الإصلاحية ، وقد شبّ على طلب العلم ، ولما أكمل دراسته الأولى رحل إلى الشرق للترتيد من المعارف وفنون العلم والأدب ، فتشبع هناك بالأفكار الحرة والمذاهب الفلسفية والكلامية ، ثم عاد إلى بلاده وهو يدغدغ أملاً واسعاً في إصلاح البيئة المغربية وإنعاش الروح الإسلامية ، وما إن بدأ بتنفيذ خطته حتى

هبت العلماء محاربتة ، فاتجه شطر العامة يعلمهم تارة بالبربرية وطوراً بالعربية ، وألف لهم الكتب ، فأقبلوا على دراستها وتفهّمها ، ورسخ مضمونها في عقولهم . وأصبحوا ، كما أرادهم ابن تومرت ، دعاة التوحيد الحقّ ولذلك سباهم «الموحدين» . وأمه الناس فعرف كيف يستميلهم ، وأدخلهم في فرقته حتى أصبح سلطاناً مطاعاً ، بل ملكاً صاحب دولة في قلب الدولة الشرعية ، فأثارت أعماله هذه سخط المرابطين ، وصمّموا على محاربتة ، وأرسلوا له أول طليعة سنة ٥١٥ هـ . وقد ثابر على محاربتهم ، إلّا أنه لم يشهد نتيجة مسعاه ، إذ عاجلته المنية وهو شاب ، فتوفي سنة ٥٢٤ هـ / ١٢٢٩ م .

لاين تومرت عظات وخطب ووصايا كثيرة .

ابن تومرت من رجال الفكر العميق ، والنظر البعيد ، والبلاغة القائمة على تفهّم النفسيات ، وعلى الخلق في تقديم الراهين التي تستهوي الشعب وتسنولي على قلبه ولبه . وقد جمع الى ما تقدّم منطلقاً سديداً ، وكلاماً رائعاً في سلاسته وانسجامه ومسهولته . قال ابن خلدون في كلامه على ابن تومرت : «وانطوى هذا الإمام راجعاً الى المغرب بحراً متفجراً من العلم ، وشهاباً وارباً من الدين» .



## الفصل الثَّانِي الترسل

كانت الكتابة في عهدها الأول محدودة الأغراض، حليّة المعاني، موجزة الأسلوب، خالية من الزخرفة والتنميق، ولما اتسعت آفاق العلم والرقى، وانتشرت الحصارّة في جميع وجوه المعيشة، كثرت أعراض الكتابة وتنوّعت أساليبها، ومن تلك الأساليب الكتابة الديوانيّة وموضوعها مكاتبة الأمراء والعلماء، وما يتخلّلها من إعلام بالحال وتقليد وظيفة وصرف من الخدمة وما إلى ذلك؛ والكتابة الأدبيّة وقد انصرف إليها عدد كبير من الأدباء، وهي تشمل الإحوائيات والمناظرات والمقامات والتوقيعات وما إلى ذلك ومن أشهر المترسلين أبو جعفر بن عطية، وأبو عقيل بن عطية، وسليمان الموحّدي.

### أبو جعفر بن عطية - أبو عقيل بن عطية سليمان الموحّدي

أ - أبو جعفر بن عطية:

التحق في مطلع حياته بملوك لفرقة، واستدعاه عبد المؤمن للكتابة عنده ثم رّفاه إلى رتبة وزير وقد أوقع به حسّاده سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م فأرّكاً مجموعة رسائل نزع فيها مرع الإطباب والزخرفة

ب - أبو عقيل بن عطية:

هو شقيق السابق وله كذلك مجموعة رسائل حاكمة للإطباب والزخرفة

ج - سليمان الموحّدي:

هو الأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن نشأ في بيت ملكي ساعياً وراء العلم، وقد ولي شؤون مجاية صبيحلياسة، وكان قصره محجة الأدباء

له ديوان شعر ومجموعة رسائل



الترسل : أبو جعفر بن عطية — أبو عقيل بن عطية — سليمان الموحدي ١٠٠١

#### أ - أبو جعفر بن عطية (٥١٧ - ٥٥٣ هـ / ١١٢٣ - ١١٥٨ م)

هو أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي المراكشي. ولد عام ٥١٧ هـ ، وكان فتي عصامياً تبوأ ذرى المجد بمحض جده واجتهاده . وقد التحق في مطلع حياته بملوك ختونة ، ثم حارب مع أبي حفص عمر الهنتاني أحد قواد الموحدين . وكتب عنه إلى عبد المؤمن رسالة يخبره فيها بأحد الفتح ويصف الواقعة ، فأعجب بها عبد المؤمن أشد الإعجاب . وسأل عن كتابها وطلبه لكتابة عنده ، ورقاه إلى رتبة وزير ، وكانت وزارته «زياً للوقت وكالاً للدولة» على ما ورد في كتاب الاستقضا . وقد بلغ أبو جعفر منزلة كثر حساده عيباً ، فكادوا له حتى أوقعوا به عام ٥٥٣ هـ .

لأبي جعفر بن عطية مجموعة رسائل أشهرها اثنتان : الأولى رسالة ثرية شعرية يستعطف بها عبد المؤمن ، والثانية رسالة إلى الموحدين بمراكش يصف لهم فيها موقعة حربية انتصر فيها أبو حفص .

أسلوب أبي جعفر في ترسله هو أسلوب العصور المتأخرة من العهد العباسي حيث طغت الصنعة ، وكثر التضمين ، وتعددت الإشارات التاريخية والدينية وما إلى ذلك . هو أسلوب الإطناب والزخرفة والتعقيد . وقد كان لأبي جعفر مكانة عظيمة في نظر أبناء زمانه حتى قال عبد المؤمن : «ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه» .

#### ب - أبو عقيل بن عطية (٥٢٠ - ٥٥٣ هـ / ١١٢٦ - ١١٥٨ م)

هو أخو الوزير أبي جعفر بن عطية .

لأبي عقيل مجموعة رسائل أشهرها رسالة أشأها عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة تلمسان يعلمهم بفتح قسنطينة ، ويخبرهم بلبانة يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية إلى التوحيد .

سار أبو عقيل بن عطية في ركب أصحاب الصناعة وراح يلبيح الرسائل في فائق

وزخرفة وإطنايب ، وقد جعل السجع من القواعد التي تمشى عليها ، وأراد التفتن فيه فتألت القوافي ، وأدخله بعضه ببعض في تركيب وتعقيب ، وفي بلاغة ومثانة .

### سليمانُ الموحّدي (٦٠٠هـ / ١٢٠٣م)

هو الأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الكوميّ الموحّدي . نشأ في بيتٍ ملكيّ وأكْبَ على طلب العلم والأدب . وقد تعشّق المجد وصبّا الى العلماء ، وما لبث أن عينه ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور والياً على بجاية . ولما ثار بها عليّ بن غانية نقله الى ولاية سبجلماسة . أما قصره فكان محبّة الأدباء من كل حذب وصوب . وقد توفي نحو سنة ١٢٠٣م / ٦٠٠هـ .

لأبي الربيع مجموعة رسائل كما له ديوان شعر ، ومختصر الأغاني ، وهو أديب بني عبد المؤمن ونايبتهم .

## الفصل الثالث التاريخ والجغرافية والرحلات

اهتم أهل المغرب للتاريخ والجغرافية والرحلات كما اهتموا لسانر العلوم . وقد شمل تاريخهم السير ، والتراجم ، وتاريخ الملوك ، وتاريخ البلدان وما الى ذلك . وقد ضربوا في البلاد والبحار للعلم ، والحج ، والتجارة ، والاكتشاف ، ودونوا أخبارهم ونتائج اختباراتهم ومشاهداتهم ، واشتهر منهم في هذا الباب الشريف الإدريسي ، وابن بطوطة ، وابن خلدون .

### الشريف الإدريسي - ابن بطوطة ابن خلدون

أ - الشريف الإدريسي :

١ - تلميذه : وُلد سنة ٨٩٤هـ / ١١٠٠م . وبدأ أسفاره في السادسة عشرة من عمره ، وساح في أفريقية وآسية الصغرى وسواحل فرنسا وإنكلترا . وقد استدعاه ملك صقلية فوضع له خريطة العالم . توفي سنة ٩٦٢هـ / ١١٦٦م .

٢ - أدبه : للإدريسي كتاب «زهره المشتاق في سحر اقلاق» . وقد جعله شرحاً للخريطين وتعليقاً عليها فكان من أدق ما وضعه الأئمة في الموضوع .

ب . ابن بطوطة .

١ - تاريخه : وُلد في طنجة وقام بثلاث رحلات زار خلالها أكثر العالم ، يسود لذلك العهد وتوفي سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧ .

٢ - أدبه : لابن بطوطة كتاب «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وفيه خبر رحلاته ، وقد أبدى فيه دقة في الملاحظة ومقدرة على المراقبة واتساع في الآفاق واستقلال في الحكم وكلامه لا يخلو من مقالة .

جـ ابن خلدون .

١ . تاريخه : ولد في تونس وطبق العلم في شتى مراحله ، وتقلب في الوظائف والمسؤوليات ، وأكثر من التنقل والسفر ، وسجى ستين ، وأحيراً سافر إلى مصر وتولى فيها مناصب التدريس وانقضاء ومات هناك سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م

٢ . أدبه : لاس خلدون كتب العَر ، وديوان المُتَد ، والحَقَر ، في أيام العرب والمسلمين والبربر ، ومن عاصريهم من دوى السلطان الأكبر . وأشهر ما في هذا الكتاب «المقدمة» وهي صورة حيّة للحياة الاجتماعية في مختلف البيئات التي تقلّب فيها الرجل . وللعصر الذي انتقلت فيه حياته ، وفيها تحليل وتعليل لشتى ظاهرات وعناصر وأحداث الحياة الاجتماعية .

## أ - الشَّريفُ الإدريسيّ (٤٩٤ هـ / ١١٠٠ - ١١٦٦ م)

١ تاريخه .

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسيّ السبتيّ . ولد بسبته — أو تطوان — وقد بدأ أسفاره في السادسة عشرة من عمره ، فطاف في الأندلس ، ومصر ، وشمال إفريقية ، وتغلغل فيها ، وساح في آسية الصغرى ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعاداتها ، كما طاف في سواحل قرنسة وإنكلترا ، ثم توجه قبيل سنة ١١٣٨ م إلى صقلية بدعوة من ملكها روجر الثاني . وقد اشتهر الإدريسيّ بمعرفة الهيئة ، والجغرافية ، والفلسفة ، والطب ، كما اشتهر بنظم الشعر . توفي في صقلية نحو سنة ٥٦٢ هـ ١١٦٦ م .

٢ أدبه .

وضع الإدريسيّ ملك صقلية خريطتين جغرافيتين للعالم الذي توصّل إلى معرفته . خريطة جدارية ، وخريطة أرضية حضرها على لوح من الفضة ، وكتب عليها ، بأحرف عربية ، كل ما عرفه من البلدان .

وإلى جانب هذا الأثر الجليل وضع الإدريسيّ كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، وضمّنه شرحاً مفصلاً للخريطتين المذكورتين ، وقد قسم الأرض المعروفة لعهد

الى سبعة أقاليم ، أو مناطق ، ثم قسم كلّا من هذه الأقاليم الى عشرة أقطار متساوية ، ووصف كل قسم وصفاً دقيقاً ، فبيّن موقعه ، وتكلّم على جباله وبحاره وانهاره ، وعلى كل ما يحويه من ماء وجباد ، وعلى مدّنه ، وسكّانه وجنسيّاتهم وعاداتهم ودولهم ، وما يعيش فيه من حيوان ونبات... الى غير ذلك ممّا لفّ الموضوع الجغرافي لفّاً في دقّة وواقعيّة وتبيين. وقد طبع الكتاب في رومة سنة ١٥٩٢ ، ونشر باللّاتينية في باريس سنة ١٦١٩ ، وترجم الى الإيطالية والفرنسية ؛ وعُدّ مصدراً مهماً من مصادر علم الجغرافية.

### ب - ابنُ بطوطة (٧٠٣ — ٧٧٩ هـ / ١٣٠٤ — ١٣٧٧ م)

#### ١. تاريخه :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين . ولد في طنجة ونشأ في كنف أبيه ناعم البال هادئ السّرب ، وفي سنة ١٣٢٥ عنّ له أن يقوم بفريضة الحجّ ، فقصّد مكّة ، ولكنه لم يقف عندها فراح يتجول من بلد الى بلد حتى جاب أكثر العالم المعمور لذلك العهد ، ثم قفل راجعاً الى وطنه سنة ١٣٤٩ م . ولم يمض إلّا زمن يسير حتى قام برحلة ثانية الى اسبانية ، ثم برحلة ثالثة دامت سنتين تجول خلالها في بجاهل أفريقية ، ثم عاد إلى بلاده سنة ١٣٥٤ م ، فسأله أمير مراکش ، السلطان أبو عنان المرينيّ ، أن يدوّن أخبار رحلاته ، فأملأها على كاتب السلطان محمد بن جُزّي الكلبيّ ، وانتهى من عمله هذا سنة ١٣٥٦ م ، وأسماه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» . وقد توفي ابن بطوطة سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م .

#### ٢ أدبه :

لاين بطوطة كتاب «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو كتاب يحتوي قسمين ينتهي الأول منها بوصول ابن بطوطة الى نهر السند «بنج آب» في آخر ذي الحجة سنة (٧٣٤ هـ - ١٣٣٤ م) ، وهو يحوي رواية ما رأى الرجل وما سمع ، وإذا به قد جاب في رحلته الأولى بلاد مراکش والجزائر وتونس ومصر والحجاز

وفلسطين ولبنان وسورية والعراق والعجم والأناضول وسائر بلاد العرب والهند وما جاورها، وجاب في الرحلة الثانية بلاد الأندلس، وفي الرحلة الثالثة بلاد السودان مبتدئاً بسجلماسة، فينغازي، وإيولائن، وزاغري، وكارسخو، ومالي، وتنبكتو، وتكدّا، وبلاد هكّار.

وقد اهتمّ العالم لهذه الرحلة فتقلها العلماء إلى اللاتينية والإنكليزية والفرنسية والألمانية والتركية والهندية، وطُبعت طبعات متعدّدة في باريس ومصر.

#### ٤ - قيمة الرحلة:

كتاب ابن بطوطة موسوعة معلومات جغرافية، وقد أبدى فيه صاحبه من دقّة في الملاحظة ومقدرة على المراقبة، واتّساع في الآفاق. واستقلال في الحكم ما يحفل على الإعجاب؛ لأنّ من تتبّع أخبار الرجل لمس في أقواله المبالاة، والإكثار من ذكر الغرائب، كما عثر على عدد من الأضاليل والأوهام. وقد ذهب بعض النقاد إلى أنّ ابن بطوطة لم يصل إلى الصين، وأنّ أقواله فيها مجرد تلفيق. ومهما يكن من أمر فإنّ ابن بطوطة قد أضاع في رحلته الأولى ما دونه من معلومات فلا عجب إن قصّر في بعض التحقيقات والتحرّيات، وهو يروي ما يروي في سذاجة وفكاهة، وفي لغة سهلة تنحط أحياناً إلى الركاكة. وهو يمدّد من المصادر الهامة لعلم الجغرافية، وله الفضل الأكبر على من كتب بعده في هذا الموضوع.

ج - ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)

#### ١ - تاريخه:

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي. ولد في تونس سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م، ونشأ على حبّ العلم وتحصيل المعارف، وقد اتّصل بعلماء عصره من مثل عبد المهيمن «إمام المحدثين والنّحاة بالمغرب»، وإبراهيم الآبلي «شيخ العلوم العقلية»، ولازم عبد المهيمن وأخذ عنه، «مباحاً وإجازة»، الأمّهات الست، وكتاب الموطأ للإمام مالك، وكتاب السير لابن إسحق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، ولازم الآبلي

عدة سنوات ، وأخذ عنه العلوم الرياضية والمنطق ، وسائر الفنون الحكيمة . ثم استدعاه الوزير ابن «تافراكين» الى «كتابة العلامة» عن سلطانه أبي إسحق ، وكانت مهمة كاتب العلامة «وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ ممّا بين البسمة وما بعدها ، من مخاطبة أو مرسوم» . ثم انتقل ابن خلدون إلى آبه ثم إلى تبسة فقفصة حيث التقى بصاحب الزّاب وسافر معه إلى يسكرة ؛ ثم رحل إلى تمنسان حيث التقى بالسلطان أبي عنان ووزيره الحسن بن عمر ، ثم سافر إلى بجاية ثم إلى فاس حيث أقام ثمانية أعوام نظمها فيها السلطان أبو عنان «في أهل مجلسه العلمي» وألزمه شهود الصلوات معه ، ثم استعمله في كتابته والتوقيع بين يديه . وقد جرى إذ ذاك ما حمل السلطان أبا عنان على التّنكّر لابن خلدون والأمر بسجنه ، فسُجن ستين ، ولما توفّي أبو عنان خرج ابن خلدون من سجنه ، وانضم إلى السلطان أبي سالم واستعمله في كتابة سرّه والترسل عنه والإثناء لمخاطباته ، ثم ولّاه «خطة المظالم» .

وفي سنة ١٣٦٢م رحل ابن خلدون إلى الأندلس فنظمه السلطان فيها «في عتبة أهل مجلسه ، واختصّه بالنجى في خلوته ، والمواكبة في ركوبه ، والمواكلة والمطاطبة والفكاهة في خلوات أنسه» .

وفي سنة ١٣٦٥م غادر ابن خلدون الأندلس إلى بجاية حيث ولّاه السلطان محمد أبو عبد الله محمد أرفع مناصب الدولة أعني الحجابة أي «الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد» .

وفي سنة ١٣٦٦م انتقل ابن خلدون إلى يسكرة حيث أقام نحو ست سنوات وحيث اعتزل المناصب وراح يخدم هذا السلطان أو ذاك عن طريق استتلاف القبائل واستتباعها . «ولا نغالي إذا قلنا إنه أصبح بمثابة المترم والمورد لتلك القوى المسلحة : إنه كان يوجه العشائر إلى خدمة السلاطين الذين يشايهم حتى إنه كان يصطحبها في بعض الأحيان» .

وليث ابن خلدون يتقلب في البلاد من بلد إلى آخر حتى بلغ مصر سنة ١٣٨٢م وقد قضى فيها ما بقي من حياته ، وتولّى فيها مناصب التدريس والقضاء إلى أن توفّي سنة ١٤٠٦م .

## ٢ - أدبه :

الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من مؤلفات ابن خلدون هو «كتاب العبر» ، وديوان المبتدا والخير ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» وهو مرتب على مقدمة وثلاثة كتب :

المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإمام بمغالط المؤرخين .  
الكتاب الأول : في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما إلى ذلك من العلل والأسباب

— الكتاب الثاني : في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة الى هذا العهد ؛ وفيه الإمام يبعث من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم ، مثل النبط والسرمانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجية .

— الكتاب الثالث : في أخبار البربر ، ومن إليهم من زنة ، وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

— ومما يجدر ذكره هنا أن الكتاب الذي يعرف الآن باسم «مقدمة ابن خلدون» هو في حقيقة الأمر المقدمة والكتاب الأول من كتاب العبر .

تقلب ابن خلدون بين مختلف المناصب ، ورافق السلاطين في شتى منازلهم وأطوارهم ، وشهد أحوال الأمم والممالك ، واضطرب مع السياسات خائضاً عياها ، متوثباً بألوان هزيمها وشبابها ، وسار مع الدسائس البلاطية مدأً وحزراً ، ثم اعتزل الدنيا ، وخلا الى قفصة ابن سلامة ، يدون زبدة ما محضته في نفسه الأيام ، ونتيجة ما وصل إليه الفكر بالتأمل والاعتبار ، فكان كتاب «المقدمة» الضخم الذي عُرف به ابن خلدون ، والذي جعله من رواد الفكر العالمي . وكانت «المقدمة» صورة حية للحياة الاجتماعية في مختلف البيئات التي تقلب فيها الرجل ، وللعصر الذي انقضت فيه حياته ، وهو عصر ، كما رأينا ، قد حفل بالهزات التاريخية العنيفة في حقلَي السياسة والفكر ، وعمته الفوضى حتى سار في طريق التفهقر فيما كانت أوروبا آخذة في تسلق معارج الرقي والحضارة



أراد ابن خلدون أن يُدَوِّن تاريخ المغرب فقدَّم له بظرائره الاجتماعية والفلسفية التي شغلت المقدمة والجزء الأول من الكتاب الذي أضيف إلى المقدمة . وقد سلخ ابن خلدون في كتابها خمسة أشهر ، ثم عاد عليها بعد ذلك بالتهذيب والتثقيح والزيادة . وكان الداعي إلى وضعها انصرافه إلى كتابة التاريخ « التي تقتضي الرجوع إلى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت ، وهذا كله لا يكون بمجرد الثقل ، بل يُضاف إلى الثقل معرفة أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال في المجتمع الإنساني » . نقد شعراى خلدون بقص التاريخ كما كان يفهمه المؤرخون لعهدده ، إذ كانوا يقتصرون فيه على سرد الوقائع والحوادث والأسماء<sup>(١)</sup> ، فأراد أن يرتفع إلى ما نسميه اليوم بالقوانين التاريخية ، وهكذا لم يكتف بالسرد والأخبار ، بل أراد أن يفهم ويعلّل<sup>(٢)</sup> ، وأن يُعبر جميع الظواهر الاجتماعية ما تستحقه من الأهمية .

من هذه النظرة السريعة على ابن خلدون ومقدمته تجلّى لنا شخصية بارزة تقرر العمل إلى الفكر لقد عاش عيشة اضطراب ومغامرة قلّ من عاشها ، وفي نفسه كثير من الطموح والشجاعة والأنفة والاستقلال الفكري . والظاهر أنه في مغامراته لم يترجع أكثر من مرّة عن التعبير بحياته ، ولعلّ شدة جسارته كانت من عوامل إحفاؤه .

والموضوعية هي الصفة الرئيسية لمقدمته . فابن خلدون يصف الأحداث ويحاول إيجاد القوانين التي تسيرها من غير أن يظهر ميوله وآراءه الخاصة . إلّا أنه يشتم من وراء هذه الموضوعية رائحة تشاؤم قد يكون نتيجة الإخفاق في تحقيق الآمال ، وقد يكون أيضاً من تأثير نظرية القدر المحتوم الذي يسير الأحداث والذي يجعل أن معرفة الأحداث وأسبابها غير كافية للعمل على تغيير سيرها .

١ - طالع القائمة ، طعة دار الكتاب العربي ، ص ٣ .

٢ - نفس المرجع . ص ٦ .

## مصادر ومراجع

- زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥ .  
قزاد ابستاني : ابن بطوطة - الروائع الطبعة الثالثة - بيروت ١٩٤٦ .  
دائرة المعارف لبستاني : ابن بطوطة .  
ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون - القاهرة ١٩٥٣ .  
طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية - القاهرة ١٩٥٢ .  
محمد عبد الله عنان : ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكري - القاهرة ١٩٣٣ .  
محمد علي شأت : رائد الاقتصاد ابن خلدون - القاهرة ١٩٤٤ .



## الباب الثالث الشعر المغربي

### الفصل الأول نظرة عامة

نقل العرب الى المغرب لغتهم وتقاليدهم الأدبية الشعرية ، وكانت حركة الشعر في عهد الفتوح ضعيفة لانصراف الناس الى طلب الاستقرار ، ثم جاء عهد المرابطين والموحدين فكان الازدهار الذي عم البلاد وظهرت آثاره في جميع مرافق الحياة كما ظهرت في الشعر . فما إن فتح الخلفاء والأمراء أبوابهم لرجال العلم والأدب وأجزلوا لهم العطاء الوافر حتى توافد عليهم شعراء عديدون تناولوا أكثر أبواب الشعر من المديح والافتخار ، الى الرثاء والاعتذار ، الى النعم والعتاب والوصف والغزل . وسرى الاعتناء بالشعر من الملوك الى الأمة . جاء في « الفتح » أنه يوم رجع يعقوب المنصور من غزوة الأرك الشهيرة ورد عليه الشعراء من كل قطر من أقطار مملكته يهتفونه ، فلم يمكن لكثرهم أن ينشد كل شاعر قصيدته بل كان يختص بإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة ، وانتهت رقاع القصائد وغيرها في هذا اليوم الى أن حالت بين يعقوب وبين من كان أمامه لكثرها .

وجد الأدب المغربي في هذه الحقبة في أعقاب العصر العباسي وبجور الأدب الأندلسي ، فتأثر بها وأخذ عنها دون أن يفقد شخصيته المغربية وما لها من مميزات أهمها الخلو من الزعرور والابتعاد عن الصنعة ، والترفع عن السلاسل . وقد طبع الشعر أيضاً بالطابع الديني الذي كانت عليه النحلة كما تأثر بالهداية ومبادئها بالعلوم الفلسفية الشائعة في هذا العصر فقل شعر الحمريات وقل أدب التفرد المكشوف .

وقد توافد على المغرب في هذا العهد عددٌ من الوُثَّاحين الأندلسيين — إذ كان القرنُ محبوباً عند ملوك الموحَّدين — وأتصلوا بالشعراء المغاربة الذين نهجوا نهجهم فعاثوا فنَّ التوشيح والخقوة بالرُّجُل واستبطنوا نوعاً آخر من الشعر ذكره ابن جلدون في المقلِّمة حين قال : « ثم استحدث أهل الأماصير في المغرب فنّاً آخر من الشعر في أعاريض مردوجة كالموشَّح ، نظموا فيه بلغتهم الحضريّة وسمّوه «عروض البلد» ، وكان أوّل من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، فنظم قطعة على طريقة الموشَّح لم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب إلا قليلاً فاستحسنه أهلُ فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم ، وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ... »

ووصل الشعر ازدهاره في عهد الصَّنَاحِيّين والمرِيَّيَّين ، ونضج نضوجاً شديداً ، فكان ذا شخصية مغربية تقف في وجه المشرق موقف منافسة . ولما كان عهد السعديّين والعلويّين ، أخذ الشعر يفقد من حرارته ومن بلاغته ، وراح ينحطّ شيئاً فشيئاً ، وظلَّ كذلك إلى عهد النهضة الحديثة التي تداركته وأعادت إليه الحياة والقوّة .

ولنأخذ سنقصرُ دراستنا على بعض أعلام الشعر المغربيّ الذين يمثّلون أطوار هذا الشعر ، وفي هذا القليل دليل على الغنى الفكريّ والفنّي الذي امتاز به أدب المغرب العربي



## الفصلُ الثَّامِنُ

### شُعراءُ المَغْرِبِ العَرَبِيِّ

لقد قام في المغرب شعراء كثيرون تناولوا جميع أغراض الشعر المعهودة لدى العرب ، وقد اقتصرنا على ذكر العدد القليل منهم جرياً على طريقتنا في هذا الكتاب ، إلا أنَّ في ذكر القليل ما يشير إشارة واضحة الى الدرجة العالية التي وصل إليها الشعر في المغرب .

### ابن جبَّوس - مالك بن المرحَّل ابن الطَّيِّب المَكِّي

أ - ابن جبَّوس :

وُلد ابن جبَّوس في فاس ونشأ على نظم الشعر ، وقد لُقِّب بشاعر الحلاوة المهدية . ضَعُفَ في آخر أيامه أن يهرب الى الأندلس حيث توفِّي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م له ديوان شعر متعمِّد الأغراض ، وشعره يمتاز باللطف والعمونة والسلاسة والموسيقى . مدحه تقليديٌّ وفي وصفه نزعة الفلسفية .

ب - مالك بن المرحَّل :

١ - تاريخه . وُلد في مكنة وأدبه وشعره جعلاه منه شاعر المغرب الأول . له ديوان شعر فيه مسح وغزل وقصص وما الى ذلك .

٢ - شاعر اللدح : يسترعي في مدحه أبا تمام والمتنبي ولكنه دونها عصباً وعضواً ومدحه مطبوع بطابع التأنين والجماسة للدين ، وهو لا يخلو من الرقة واللين .

٣ - شاعر الغزل : في غزله فنٌّ وطراقة ، وروعة أداء ، وزخرفة سديعة .

٤ - شاعر القصص والمكاهة . في هذا النوع من الشعر يبدع ابن المرحَّل أبياً إساع ، وقصصه طريف وفيه تخيل وصور مُتَّع .

٤ - شاعر الحكمة والزهد. آراؤه تَحْتُّ على التحلي بالقضية وانتقوى السير في سبيل الاستقامة.

جـ - ابن الطيب العلمي.

وُلِدَ العلمي في فاس وشبَّ على طلب النحو ومحاولة الأداء. همَّ بربوطة الحجاز وبمَّا وصل إلى القاهرة وافته المنية.

عالج في شعره المدح والثناء والنزل والحمرات والموشح. قصَّر في المدح والثناء ولكنه أجاد في النزل.

يمتاز غزله بهدوء المعاملة، وعمق التجربة، وحرارة اللوعة، وسلامة التعبير، وانسجام الألفاظ.

#### أ - ابن حَبُوس (٥٠٠ - ٥٧٠ هـ / ١١٠٦ - ١١٧٤ م)

ولد محمد بن حسين بن عبد الله بن حَبُوس في مدينة فاس، ونشأ على نظم الشعر حتى فاق أهل زمانه في هذا المضمار ولُقِّب شاعر الخلافة المهدية. قَسَّمَهُ الأميران عبد المؤمن وابنه يوسف على مائثر الشعراء وأجزلأ له العطاء، فجمع في أيامها ثروة ضخمة. ولكثرة ما نقله عنه الوشاة، اضطرَّ في آخر أيامه أن يهرب من بلاد المغرب ويدجأ إلى الأندلس. توفي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م.

لابن حَبُوس ديوان شعري متعَدِّ الأغراض؛ وله عدَّة قصائد في التوحيد والزهد، والتمسك بالسنة، وكيفية معاملة الناس.

شعر ابن حَبُوس من أروع الشعر العربي لأنه شعر النعومة واللفظ واللين، شعر السَّلَاسِلة العجيبة التي تنساب كالسحر؛ وهو شعر الموسيقى العذبة الأنغام التي توسوس وسوسة، وتناجي القلب قبل أن تخاطب الأذن؛ وهو أخيراً شعر العاطفة الحية التي تنفعل وتغضن. وهكذا كان ابن حَبُوس شاعر السَّلَاسِلة والموسيقى والعذوبة الذي استطاع أن يجمع في شعره جزالة العباسيين ورقة الأندلسيين.

أما مدحه فيجري على طريقة المشاركة ولاسيما المتنبي مهم، ففيه وصف للجيش، وفيه نفحة ملحمية جميلة، وفيه رونق وصنعة أنيقة تكاد تخفي وراء ستائر

الفنّ الجميل. ابن حُبُوس هو المدّاح صاحب الذوق الذي يروك شعره ، وتعجبك ابتكاراته ، ولكنه لا يملك الذّوق الزاخر الذي يجده عند المتنبّي وأبي تمام.

وأما وصفه فهو أقرب ما يكون الى الوصف الأندلسيّ مادّةً وأسلوباً. فالشاعر يقف أمام مشاهد الوجود مُشْخَصاً ، وهو يتقلّ المشاهد بالتشبيهات والاستعارات والكنائيات ، وينسج حول المشهد البسيط مشهداً مزخرفاً حافلاً بالتأثّق الحضري واللون الأندلسيّ المغربيّ.

#### ب - مالك بن المرحّل (٦٠٤ - ٦٩٩ هـ / ١٢٠٧ - ١٢٩٩ م)

##### ١ - تاريخه :

ولد أبو الحكم مالك بن المرحّل السبّتيّ في بلدة سبتة ونشأ ساقط الذّكر ، خفيّ المنزلّة ، إلّا أنّ أدبه وشعره جعلاه منه شاعر المغرب الأوّل. تعاظم صناعة التوثيق في بلدته وتقرّب كثيراً من يعقوب المنصور المرينيّ وقد خصّه دون غيره بالمدح. وبالرغم من شيخوخته وتقدمه في السنّ بقي نافذ الذّهن ، شديد الإدراك ، سريع البديهة. توفّي فاس سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م.

##### ٢ - أدبه :

لأبي الحكم ديوان شعر لم يبق منه إلّا بعض القصائد في أغراض متنوّعة. وهو يحاول في شعره أن يقدّم أبا تمام وغيره من شعراء المشرق ، ولكنه لا يستطيع أن ينطلق في ميادين الحاسة انطلاقهم ، ولا تشعر أن التأثير بلغ منه مبلغاً شديداً. شعره لين وسهل ، مطبوع بطابع التدينّ والانتصار للدين ، وهو على كلّ حال لا يخلو من رونق وجمال.

«قل عن ابن المرحّل إنه «أطبع شعراء المغرب أسلوباً ، وأرشفهم لفظاً ، وأبلغهم معنى». وهذا يعني أنه من «حقّ الشعراء بالخلود ، وأنه من المعقّرات التي يستطيع المغرب العربي أن ينافس بها أهل المشرق». وإننا سنتّبعه في بعض أغراض شعره لنقف

على بعض مزايا هذا الشاعر العظيم الذي جمع في صدره عالماً من العلم ، وفي شعره عالماً من الرّوعة .

١ - شاعر المدح . ذكرنا سابقاً أنّ ابن المرحّل خصّ يعقوب انصّور المرينيّ بالمديح دون سواه . ويعقوب بن عبد الحقّ هذا هو الذي استطاع أن يقضي على الموحّدين ويرفع لواء بني مرين . وكان فاضلاً تقيّاً ، يحبّ العلم والعلماء ، ويستشير رجال الفكر في شتى أموره . وكان الى ذلك رجل دولة من الدرجة الأولى ، ورجل حرب شديد الناس ، مرهوب الجانب . وقد حاول أن يسترجع ملك أفريقيا من سيطرة بني عبد الواد وبني حفص فلم يُفلح ، ولئن كانت له عليهم انتصارات في مواقع متعدّدة فإنّه لم يتمكن من بلوغ الأهداف ، وتحقيق الوحدة المغربيّة التي حققها الموحّدون .

وعندما فتح مدينة مراكش مدحه شاعرنا بقصيدة ميمية رائعة تجلّت فيها شاعريّته بشتّى مزاياها ، والطريقة التي اتّهجها في مدحه لهذا العاهل الكبير الذي ملأ نفسه إعجاباً ، وقلبه فخاراً ، فكان له بمثابة سيف الدولة لأبي الطيّب المتنبّي ، أو بالحرّي بمثابة المنعم لأبي تمام صاحب البائية الشهيرة التي نظمها عند فتح عمورية . هو الفتح يستحثّ قريحة الشاعرين فينطلقان انطلاق غبطة وعزة ويريان في الممدوح سيفاً من سيوف الله في رقاب الظالمين ، ورحمة من رحمت الله في نفوس العابدين .

تمثّلت لشاعرنا وقفة أبي تمام يومذاك ، ونصّورت في نفسه معانيه ، فراح يعالج الموضوع مستوحياً لا مقلداً ، ومقتسباً لا مُردداً . وهكذا كان البحر البسيط مركّب الشاعرين ، وكان الفتح عندهما فتحة في الوجود وفي أبواب الحجة ، وكان الأمير مختاراً من الله لنصرة الدّين وعقاب الظالمين .

ولكنّ ابن المرحّل لم يستطع بحجارة أبي تمام في ملحمة الحرّية ، وفي قوقته الشعرية ، ولم يسلك مسلكه في الزحرفة المدويّة التي عمرت أبياته وقوافيه ، ولا في التعقيد الفكريّ واللفظي الذي انطوت عليه قصيدته ، بل نزع منزع اللين والسّهولة ، واستعاض عن وصف الحرب بالإطّباب في ذكر صفات الأمير الكبير ، وإذا هو خير الحاكمين ، وملاك الله الأمين بل هو درع الدّين وحصى المسلمين ، فسبحان من خصّه بالفضل كلّ ، وسبحان من وهبه نور العقل ونور اليقين .



وهكذا فالقسم الأول من القصيدة نشيد الفتح ، وهو أقرب الى وصف الطبيعة والنسيب منه الى الحماسة وشعر الفتح . والقسم الثاني لنعمة الله التي رافقت الأب المنصور الى الولد المنصور . والقسم الثالث للفاتح رجل السيف والقلم . وفي هذه الأقسام سكب الشاعر روحه المتدينة ، وإيمانه العميق ، على كل بيت وكل عبارة ، فكانت القصيدة مطبوعة بطابع التدنن والانصار للدين .

أضف الى ذلك أن ابن المرحل مزج المدح بوصف الطبيعة على طريقة الأندلسيين ، ممّا أضفى على كثير من الآيات شيئاً من الرقة واللين هما لغير هذه المواقف .

٢ - شاعر الغزل - لابن المرحل غزل طريف ، وإننا ستوقف عند قصيدتين نستجلي من خلالها ميزات هذا الشاعر في فنّ النسيب والنشيب .

القصيدة الأولى من وحي ابن الفارض ، وقد تأثر به شاعرنا ، وراح ينهج نهجه في التقبُّب على نار الهوى ، وفقدان الصبر ، والتلذذ على فراش السهر والدموع ، وراح — وهو الخبير بالقضاء والمرامع — يحتكم الى قاضي الحب ، ويُعِمُّ الشهود لإثبات الحقيقة التي يعاها .

شَكَيْتُ لِقَاضِيِ الْحُبِّ ، قُلْتُ أَجِيتِي حَقَوْنِي وَقَالُوا أَنْتَ فِي الْحُبِّ مُدْعٍ  
وَعِنْدِي شُهُودٌ بِالصَّبَابَةِ وَالْأَسَى يُزَكُّونَ دَعَوَايَ إِذَا جِئْتُ أَدْعِي  
سُهَادِي ، وَشَوْتِي ، وَأَكْبَتَايَ ، وَلَوْعَتِي ، وَوَجْدِي ، وَسُقْمِي ، وَأَصْفِرَارِي ، وَأَذْمَعِي

ليس في هذا الحب معاناة حقيقية ، وليس فيه تعبير عن تجربة ، وإنما فيه فنّ وطراقة ، وروعة أداء ، وإن كان قليل الإثارة ، ضعيف التأثير في عالم النفس والحس ، فهو يُحِبُّ بما فيه من زخرفة بيانية وبديعية ، وبما يمتاز به من رقة وسلاسة وسهولة ، ويُعجب خصوصاً بالطراقة التي يتحنى بها .

ولابن المرحل قصيدة أخرى حافلة بالطراقة نظمها على وزن مجزوء الدوبيت<sup>١</sup>

١ الدوبيت . وزن استمرجه . بولسود عن طريقة الفرس ، وزنه :  
فَعْلُنْ مُتَعَدِّينُ فَعْلُنْ فَعْلُنْ      فَعْلُنْ مُتَعَدِّينُ فَعْلُنْ فَعْلُنْ

افتتحها بفلسفة الحب والحبيب، ويَبِينُ أَنَّ الْقَلْبَ عِيدُ الْجَمَالِ، وَأَنَّ لِلْحَبِّ الْحَقِيقِيِّ دَلَالَتٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ. ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى نَفْسِهِ وَإِذَا هُوَ هَدَفٌ لِسَهَامِ الْجَمَالِ تَنْطَلِقُ مِنْ حَبِيبِهِ إِلَى مَقَاتِلِهِ، وَإِذَا هَذَا الْحَبِيبُ تَمَثَّلَ حَيًّا مِنْ تَمَثُّلِ الْفَنِّ وَالْبَهَاءِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ تَمَثَّلَ يُغَيِّرُ الْأَعْيَابَ :

يَا حُسْنَ طُلُوعِهِ عَلَيَّيَا، وَالسُّكْرُ بِمِعْطَفِهِ مَائِلٌ  
قَدْ نَمَّ بِهِ شَذَا أَلْغَوَالِي إِذْ هَبَّ، وَنَمَّتِ أَلْغَوَالِي  
وَالسَّحَرُ رَسُولُ مَقَاتِلِيهِ، مَا أَقْرَبَ عَهْدَهُ بِبَابِلِ

٣- شاعر القصص والفكاهة: وهذه ناحية أخرى لطيفة تتجلى لنا في شعر ابن المرحّل. ومن أمثال هذا القصص الفكاهي والمأسوي في آنٍ واحد قصته مع امرأة شوهاء أرغم على زواجها بالحيلة والدَّهَاءِ؛ وَلَمَّا اخْتَلَى بِهَا وَجَدَهَا قِرْعَاءَ حَوْلَاءَ، فَطَسَّاهُ، صَمَاءَ، بَكَاهُ، عَرَجَاهُ؛ فَأَمَّا كَانَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَهْرَبَ تَحْتَ جَنَحِ الظَّلَامِ، وَيَنْجُو بِنَفْسِهِ مِنْ غَوَالِلِ الْأَيَّامِ.

يفتتح الشاعر قصيدته بالتكبير وإعلان تدينه ثم يعلن أنه كان ضحية لمكر النساء:  
إِنَّ النِّسَاءَ خَدَعْنِي وَمَكَّرَنِي وَمَلَأَنَ مِنِّي ذِكْرَ الْنِّسَاءِ مَسَامِعِي  
حَتَّى وَقَعْتُ، وَمَا وَقَعْتُ لِجَانِبٍ لَكِنْ عَلَى رَأْسِي لِأَمْرِ وَأَقْبَعِ

ثم يروي لنا كيف احتلن عليه ووصفن له العروس بأوصاف الفتنة والسحر، وكيف أقدم بعد تردد، فكتب الكتاب وشرطت الشروط... وكان في قرارة نفسه يخشى ما آلت إليه حاله:

نَمْ أَنْفَضْتُ وَقَدْ عَلِمْتُ يَأْتِي أُوْقِفْتُ فِي عَنِّي لَهَا بِجَوَامِعِ

ولم تلبث النساء أن عُدْنَ إِلَيْهِ وَأَمَرَتْهُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْبِنَاءِ، وَأَنْ يَصْبَحَ لِلْعُرُوسِ عَرَسًا وَأَنْ لَا يُخْرِجَ إِلَى قَاضٍ وَمَحَاكِمَةٍ... عند ذلك شعر الشاعر بالمسؤولية الباهظة، ورأى في الأمر ما يريب، فندم، وهبأت أن ينفعَ الدَّمُ، ومكَّرَ فِي الطَّلَاقِ وَلَكِنَّهُ طَمَعَ فِي الْحَسَنِ الَّذِي أَطْنَبَتِ النِّسَاءُ فِي وَصْفِهِ، فَأَقَامَ الْعَرَسَ، وَطَمَعَ فِي أَنْ تُجَلِّيَ الْعُرُوسَ فَيُبْصِرَ وَجْهَهَا، وَلَكِنَّ النِّسَاءَ كُنَّ بِالْمُرْصَادِ :

فَذَكَّرَنِي لِي أَنْ لَيْسَ عَادَةً أَهْلِهَا جَلَوُ الْعُرُوسِ، وَتِلْكَ خُدَعَةُ خَادِعٍ  
ثُمَّ قَلَّتُهُ لَيْلًا إِلَى دَارِهَا، وَإِذَا هُوَ بَيْتٌ صَغِيرٌ مَظْلَمٌ، فَسَمِعْتُ حِسًّا مَنَكْرًا أَشْبَهَ  
بِنَفْيِ الضَّفَادِعِ، فَحَاوَلْتُ أَنْ يَهْرَبَ، وَلَكِنَّ النِّسَاءَ جَلَنَ دُونَ ذَلِكَ، فَخَضَعَ أَخِيرًا لَمَا لَا  
يُدُّ مِنْهُ، وَاحْتَلَى بِعُرُوسِهِ، وَأَرْغَمَهَا عَلَى نَزْعِ الْحِجَارِ عَنْ رَأْسِهَا، وَإِذَا بِهِ أَمَامَ مَشْهَدٍ  
رَهِيْبٍ :

فَوَجَدْتُهَا قَرَعَاءَ تَحْسَبُ أَنَّهَا مَفْرُوعَةٌ فِي رَأْسِهَا بِمَقَارِعِ  
حَوْلَاءٍ تَنْظُرُ قَرْنَهَا فِي سَاقِهَا فَتَسْخَالُهَا مَبْهُوتَةٌ فِي الشَّارِعِ  
فَطَسَاءُ تَحْمُحُو أَنْ رَوْتَهُ أَتْفِهَا قُطِعَتْ، فَلَا شَلْتَ يَمِينُ الْقَاطِعِ<sup>١</sup>  
صَمَاءٌ...

لَمَّا كَانَ مِنْهُ عَدَ هَذَا الْمَشْهَدُ إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ فِي الرِّقَاقِ هَارِبًا، كَأَنَّهُ لَصٌّ أَحْسَنُ بِطَالِبِهِ  
أَوْ تَابِعِهِ.

حَتَّى إِذَا لَاحَ الصَّبِيحُ، وَفَتَحُوا بَابَ الْمَدِينَةِ كُنْتُ أَوَّلَ كَامِعٍ<sup>٢</sup>  
إِنَّهَا وَالْحَقُّ بِقَالَ قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ فِيهَا تَحْلِيلٌ دَقِيقٌ، وَفِيهَا سِرٌّ مُتَعَبٌ، وَفِيهَا سِلَاسَةٌ  
وَعَذُوبَةٌ وَرَوَاءُ.

٥ - شاعر الحكمة والزهد مالك ابن المرحل رجل امتاز بمصافة العقل، وسعة  
الثقافة وحسن التدبير، وله في الحياة والناس والرومان آراء مبثوثة هنا وهناك في شعره،  
وهي أبداً محض على التحلي بالفضيلة والتقوى، وعلى السير في سبيل الاستقامة.

والفتى الذي يرجئ توبته جدير بأن يكي على نفسه :

جَدِيرٌ بِأَنْ يَكِي عَلَى نَفْسِهِ أَسَى فَتَى كُلَّمَا تَزَجَّى لَهُ تَوْبَةٌ تَرَحَّأَ  
جَبَانَ عَنِ الثَّقْوَى، جَرِيءٌ عَلَى الْهَوَى، قَرِيبٌ مِنَ الْمَهْوَى، بَعِيدٌ مِنَ الْمَلْجَأِ  
وَكَمْ فِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ تَرَضُّنٍ، وَمِنْ صَدَقِ عَقِيدَةٍ. وَكَمْ فِيهِ مِنْ جِالٍ فَتَى فِي

١ - محمّد : تعل. الرّوّة - طرّف لأرية من الألف

٢ - الكابيع : أي الغلاب.

التعبير ! فالجناس في البيت الأول رائع ، والطباق في البيت الثاني حافل بموسيقى الأسى والأسف

وابن المرحّل شديد التأثر بجماعة المتصوّف ، وإننا نراه يسير في خطاهم ويستعير بعض تعبيراتهم وألفاظهم ليعبر عما في نفسه من لواعج ، وعمّا في قلبه من صبوّ الى عالم الله تعالى . فهو يبكي على ذنوبه ويتنحب ، ويدعو صاحبه الى البكاء والنحيب معه علّه يغسل بالدموع أدران آثامه :

يَحْكُكُ لَا تَبْرَحْ أَطَارِحُكَ لَوْعَتِي      عَنَى نَعَمٍ مِنْ أَنِّهِ وَنَحِيبِ  
بِدَارًا إِلَى هَذِي الدُّمُوعِ قُرْبَهَا      عَسَلْتُ ذُنُوبًا جَمَّةً يَذُنُوبُ<sup>١</sup>

وهو ، الى جانب ندمه عمّا أتى من سيئات ، يدعو الناس الى التعقّل ، ونبذ الدّنيا الغرّارة ، وعدم تأجيل التوبة الى زمن الشيخوخة :

بَعِيدٌ مِنَ التَّوْبَةِ مَنْ نَاتَ سَاهِرًا      رَجَاءَ بَعِيدٍ ، لَا مَخَافَ قَرِيبِ  
بَطِيءٌ لَعْمَرِي مَنْ مَرَى اللَّيْلَ كُلَّهُ      وَأَصْبَحَ حَوْلَ الْحَيِّ بَعْدَ لُغُوبِ  
بَخِيلٌ لَعْمَرِي مَنْ دَعَاهُ حَبِيبُهُ      هَلُمَّ إِلَيْنَا — وَهُوَ غَيْرُ مُجِيبِ

هذا هو مالك بن المرحّل الذي قبل عنه «إليه أعظم شعراء المغرب شهرةً على الإطلاق». إنه شاعر الدّين والدّنيا الذي استطاع أن يجمع في شعره جزالة العباسيين ، ورقة الأندلسيين ، وتلوّع المتصوّفين ، وأن يكون صاحب الشخصية المغربية الفدّة التي صبغت عبرتيه بصغة المغرب<sup>٢</sup>.

### جـ - ابن الطّيب العلمي (١١٣٤هـ / ١٧٢٢م)

هو أبو عبدالله محمّد بن أحمد الشريف العلمي. وُلِدَ في فاس وفقد أباه وهو طفل ، وشبّ على طلب اللّهُو ومخالطة الأدباء. ونظّم الشعر في صباه ، وأخذ عن ابن زاكور رجل العلم والأدب. كان كثير الحنين والتشوّق الى ديار الحجار ، وقد همّ بزيارتها سنة ١١٣٤هـ ولَمَّا وصل الى القاهرة وافته المنية.

١ - التّوْب: التّوْبَات المُكَوْنَات المُتَابَعَات ، أشار هـ الى الدموع طغزيرة

٢ عن كتابنا «تاريخ الأدب العربي في المغرب» ص ١٨٨ — ١٩٦

لابن الطيّب العلمي آثار في الشعر وفي النثر، منها «الأليس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب»، وله مقامات حاول أن يسلك فيها مسلك بديع الزمان الهمذاني والحريري، هذا فضلاً عن قصائد مشهورة ومقطوعات شعرية حافلة بالروعة. وقد عالج في شعره المدح والثناء والغزل والحمريات والموضح.

لم يبرز العلمي في مدحه ورنائه بروزاً توثق وتفوق، فكان فيها كاتيب أبيات، ومركب قصائد، ومزخرف كلام، أكثر مما كان شاعر انطلاقي، وحاول أن يستعص على الفن بالتفتن وعن الواقع بالمغاليات السمجية التي يمجتها الذوق.

ولئن قصر العلمي في المدح والثناء فلم يُقصر في الغزل، بل كان فيه من المتفوقين الذين ذابوا في الشعر رقةً وعاطفةً وجمالاً. قال وفي قوله كثير من الفن والرواق:

تَفْتَحْ وَرْدُ يَابِغٍ فَوْقَ خَدِّهِ أَلَا فَانْظُرُوا وَرْدًا تَفْتَحُ فِي الْخَدِّ  
وَفِي تَغْرِهِ وَرْدٌ مُبْعُثٌ وَرُودُهُ وَمَا ضَرَّهُ لَوْ جَادَ بِالْوَرْدِ وَالْوَرْدُ

يمتاز غزل العلمي بصدق العاطفة، وعمق التجربة، وحرارة اللوعة، كما يمتاز بسلاسة التعبير وسهولته وانسجام ألفاظه.

ولئن كان في أوصاف العنمي محبوبته تشبهات تقليدية وتصورات قديمة فقد بث فيها من روحه روحاً، ومن جوارحه حياةً ودفئاً، فكانت جميلة في معناها ومبناها.

ابن الطيّب العلمي شاعر الحب والخمر والجمال، والحمرة في نظره ربحانة النفس، وعجوبة السعد والسعادة، وهو يحرص على شربها في غير تردد، وهو يفسف مذهب الحمري، ويجاول مجازاة أبي نواس في الرأي وفي الأسلوب، فيعرف من معانيه وصوره ما استطاع، ويُلقي على ذلك ظله، ويصبغه بصبغته الشخصية. والعلمي يجعل الحمرة والمرأة في كأس واحدة. وهكذا تتصل نشوة الحمرة بفنر الحبيب وتمتد امتداداً حياتياً حافلاً بمتعة النفس ومتعة الجسد.

نلمس في شعر العلمي نفحة نواصية كما نلمس محاولته الجادة في الابتكار. وهو عندما يتحدث عن الحمرة يكثر من التحدث عن مجليها وعن ساقها، فاجلس اجلس أزهار وأصير وموسيقى، مجلس ندامي لا يخشون الوشدة ولا يهتمون لأقوال الناس

وآرائهم، والسَّاقِي عصارة جبال بضاعف النُّشوة والفرحة. وشعر العَلَمِيَّ أبداً شعر  
الرَّقَّة، والدُّوق المرهف، والسَّلاسة العذبة، والرويق التعبيريّ والتصويريّ.  
كان ابن الطَّيِّب العَلَمِيَّ من أقدر الشعراء على معالجة الموشَّح معالجةً فنيَّةً حافلة  
بالرَّقة والرَّوعة، ومهارة التصرُّف بالأوزان<sup>١</sup>.

\* \* \*

### مصادر ومراجع

- حنّا الماخوري: تاريخ الأدب العربي في المغرب — جونية ١٩٨٢  
عبدالله كُؤن: النبرغ المغربي — بيروت ١٩٦١.  
خير الدِّين الزركلي: الأعلام — مصر ١٣٧٣ — ١٣٧٨.  
محمد بن تاويت...: الأدب المغربي - بيروت ١٩٦٠.  
محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحَّدين — تطوان ١٩٥٠.

١ - بعض هذه القُرَاسم مستقًى من كتابنا «تاريخ الأدب العربي في المغرب».

## أدب الانحطاط

(١٢٥٨ — ١٧٨٩ م / ٦٥٦ - ١٢١٣ م)

البيئة السياسية والاجتماعية

— النشر:

• الأدب

• التاريخ والجغرافية

• العلوم

الشعر

## الباب الأول

### البيئة السياسية والاجتماعية

- ١ - بيئة أدب الإعتباط : تحركت قتال القطار بقيادة جيكيزخان ثم بقيادة هولكو ، واستولت على البلاد العربية ، وقصت على معالم الحضارة فيها ثم جاء تيمورلنك ومن بعده الأتراك المنغوليون معهم الويل وجاءت القرائح
- ٢ - الشعر الفصيح : تجمعت موضوعاته ضمن نطاق الكتابة الديبونية والرسائل الأدبية ، وأصبح فيه الأسلوب غنة الكتابة.
- ٣ - الشعر أصبح اشعر نقيداً وقبائلاً مع زيادة في الزخرفة والتنميق ، وشاعت المدائح الجبوتية والسيبوتية وسقط الشعر أسلوباً رمعي وعاطفة وحيالاً.

#### ١ - البيئة السياسية

يقسم هذا العهد من الوجهة السياسية إلى قسمين : أوها الطور المغولي (١٢٥٨ - ١٥١٦م / ٦٥٦ - ٩٢٢هـ) الذي بدأ بسقوط بغداد في حوزة هولكو ، وينتهي باستيلاء سليم الفاتح على الشام ومصر ، وتانيها الطور العثماني (١٥١٦ - ١٧٩٨م / ٩٢٢ - ١٢١٣هـ) الذي ينتهي بحملة نابليون على مصر.

كانت الخلافة العباسية منذ عهد بعيد منكسة الأعلام. تستظل في فنيء الفرس والأتراك الذين أقوا عليها مع تصضع قواها وضعف سلطانها. لما عثمت أن انهارت لماً هجم المغول على البقاع الإسلامية واستولوا على بغداد. فإن جنكيزخان كان قد ترأسهم ووحد كلمتهم وقادهم إلى الفتوحات. فهبوا من جنوب سيبيريا واندفقوا على الشرق الأقصى ، ثم عادوا فاكتمسحوا مملكة شاه خوارزم ، وخراسان وفارس وعاثوا في



البلاد فساداً. ولما ولي أمرهم **هولاكو** حميد جكيزخان عقد النية على الإيقاع ببغداد، فهاجم قلعة الموت واستحود عليها، ثم استولى على الريّ. وجاء بعدد فإذا أهلها في خلاف مستحکم يفرّق السنيين عن الشيعيين، فلم تثبت أمامه جيوش المستعصم بالله، فدخل المدينة سنة ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ وأمر بذبح الخليفة والأعيان، وأباح العاصمة العباسية أربعين يوماً فقتل من أهلها خلق كثير، وألقيت الكتب في دجلة، ودبست معالم الثقافة بأرجل الثّار، وغاضت مياه الحضارة في أنفج البقاع العربية خصباً عقياً وأديماً. وبعد «هولاكو» جاء **تيمورلنك** فكانت العاصفة الثالثة أشدّ هولاً من الأوليين فاكسحت آسية الصغرى وامتدت إلى الشام التي سلعت قبلاً، وألوت بخيرة رجال البلاد علماء وصناعة، فأضحت المدن العابرة خرواً والمكاتب طعمة للنار. ولبثت مصر في حكم المماليك وكذلك الشام بعد نزوح «تيمورلنك» عنها.

وقويت شوكة الأتراك العثمانيين في آسية الصغرى وطمحو إلى ثلّ عرش قياصرة القسطنطينية فكان لهم ذلك على يد محمد الثاني سنة ١٤٥٣. ولما تحالف اسماعيل شاه مؤسس الدولة الصفوية، مع قانصوه غوري سلطان مصر، على العثمانيين، هاجمهم السلطان سليم الثاني، فاحتلّ تبريز ثم تغلب على المماليك في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ واستولى على الشام ومصر.

## ٢ البيئة الاجتماعية :

كانت الأحوال الاجتماعية تنطوي على هزل وقلق. فمن غزوات المغول لم تبق ولم تثر، وظلم المماليك والأتراك قس كاهل الشعب بالضرائب، وكتبهم بالاستبداد، فتجاذب الناس في هذا العهد القاسي نزعتان هما رفيقا أيام الشدة والعسر : نزعة إباحية، ونزعة زهدية. أحسوا مرارة العيش فقال بعض منهم إلى الخفريات والمسكرات ولذات الدنيا يستمتعون بها غير متورعين، ويكفون عنها غير خجلين. وانصرف غيرهم إلى أمور الدين يستعوضون برجاء المستقبل عن ألم الحاضر، فكثرت مدارس الصوفيّة، والتجأ الشعراء إلى المذائح النبويّة واستشفعوا بالأولياء.

## ٢- الحالة الأدبية:

كان هذا العصر بمجمله وبالأعلى على الأدب. بدد المغول نفائس المصنّفات، وأحرقوا المكاتب، وشردوا رجال العلم، في البلاد التي استحوذوا عليها. ونجت مصر من شرهم كما أن الشام عادت فدخلت في حكم المالك. فكان هذان البلدان أرقى البلاد العربية أدباً، لأن سلاطينها كانوا آيين من المغول جانباً وأكثر مجاراة للرعية في نزعاتها الدينية واللغوية. فغصت القاهرة والاسكندرية وأسيوط والقيوم ودمشق وحلب وحمص وحماة بالمكاتب والمساجد والمدارس، ونزع إليها العلماء، ونشطت فيها الحركة الأدبية ولكن ضمن نطاق التقليد غالباً. ولما جاء العهد العثماني انحط الأدب العربي إلى أسفل الدرجات لشيوخ التركية في المخاطبات والمراسيم والدواوين، وتسلط الحمول على العقول، والتقليد على المعاني، والصناعة المقيتة على الأساليب.

أ. النثر: عالج الكتاب في هذا العصر النثر الفني والنثر العلمي، وكان النثر العتي على نوعين: الكتابة الديوانية والرسائل الأدبية.

١ أما الكتابة الديوانية فموضوعها ما يصدر عن السلاطين والحكام من الرسائل، وقد أنشئ لها ديوان خاص عرف «بديوان الإنشاء»، تولى أمره خيرة الرجال أدباً وسياسة وثقافة، لأن مهمة صاحبه تتطلب حسن الرأي والمشورة، والدقة في العلاقات، والمعرفة بأمزجة النفوس، والاطلاع على أساليب البلاغة لتكليف الكلام بحسب مقتضى الحال فيصاوغ القبول والرضى. ثم ألّفت كتب كثيرة لاعداد المرشحين لهذا المنصب. ومن خصائص هذا النوع المحافظة على الألقاب المصطلح عليها، فهناك الأشرف والشريف والكرام والعالي إلى غير ذلك من صفات التفضيم، والمحافظة على مخادج موعية في الموضوعات المختلفة من تهنئة بنصر، وتقليد منصب، ومكاتبات عامل أو أمير. وهذا الفن يحتاج إلى كثير من الدقة في التعبير لعظم ما ينتج عن الإخلال بالدقة من وخيم العواقب. ولكن موجة السجع والبديع بأنواعه طغت عليه أيضاً فشوهته أيما تشويه، فأسمعنا محيي الدين بن عبد الله الظاهر وهو من أشهر كتاب هذا العهد مثل هذا القول:

«حَرَسَ اللَّهُ نِعْمَةَ مَوْلَايَ، وَلَا زَالَ كَلِمُ السَّعْدِ مِنْ أَسْمِهِ وَفِعْلِهِ وَحَرْفِ قَلَمِهِ يَأْتَلَفُ، وَمُنَادَى جُودِهِ لَا يُرْخَمُ وَأَحْمَدُ عَيْشِهِ لَا يَنْصَرِفُ، وَلَا عَلِيمٌ مُسْتَوْصِلُ الرِّزْقِ مِنْ يَرَاغِيهِ الَّتِي لَا تَقِفُ الْوَصْلُ وَلَا عَدِمَتْ نَحَاةُ الْجُودِ مِنْ تَوَالِهِ كُلُّ مُؤَزُونٍ وَمُعْدُونٍ، وَمِنْ فَضْلِهِ وَظِلِّهِ كُلُّ مَقْصُورٍ وَمُعْدُونٍ، وَمَا خَاطَبَتْ الْأَيَّامُ مُلْتَمِسَةً إِلَّا بِلَامِ التَّوَكُّيدِ وَلَا عَدُوَّهُ إِلَّا بِلَامِ الْجُحُودِ».

وكان انتشار اللغة التركية في العهد العثماني الضربة القاضية على النثر الديواني. ومن أنبه كتب الدواوين في عهد المالك محيي الدين بن عبد الله الظاهر، وابنه فتح الدين، وتاج الدين بن الأثير، وشهاب الدين محمود الحلبي، والقلقشندي صاحب «صبح الأعشى».

٢ - وأما النثر الأدبي فيتناول الإخوانيات بأنواعها من مراسلات بين الأصدقاء، ومناظرات أدبية، ونحو ذلك. وقد سار كتاب هذا النوع على الحطة التي اتبناها كتب الدواوين فراعوا شكل الألفاظ أكثر من جوهر المعاني، وأغرقوا في استعمال التورية والتضمين والاقتراس والجاس ملتزمين السجع الممل، حتى أصبحت الكتابة أخيراً ولا لفظ لها يستساغ ولا معنى يروق. ومن البارزين في هذا الفن بدر الدين الحلبي صاحب «نسيم الصبا»، والقلقشندي الذي ألف رسالة دعاها «حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم»؛ وقد امتاز القلقشندي عن غيره من كتاب زمانه بالإقتصاد في استعمال البديع.

وكثر أصحاب التصنيف في هذا العهد من لغويين ومؤرخين ورحالة. فكان أسلوبهم أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف لأن غايتهم العلمية لم تدع لهم محلاً للسمي وراء التمييق اللفظي، فلان كلامهم وسهل كما هي الحال عند ابن خلدون. ولكن المتأخرين منهم لم يأمنوا من التعقيد والإسفاف فاحتجوا إنشاؤهم أحياناً إلى مستوى النثر العامي.

ب. الشعر:

١ زالت في هذا العصر كثير من الأسباب التي تنهض بالشعر وتحمل أصحابه

على الإجادة ، فالملوك والسياسيين أعاجم لا يعنون إلا في النادر بتشجيع الشعراء ، وتقريبهم إليهم وإغداق الخير عليهم . فعمل هؤلاء على كسب معيشتهم عن سبل الحرف والصناعات فكان بينهم الجزّار والدّهّان والكحّال . وقُتِرَت العصية والحمية اللتان نهضتا قديماً بالشعر الفخري والقومي ، وقُلّت دواعي الهوى في جرّ الاضطراب السياسي وصرامة العيش . إلا أن معين الشعر لم يضب ، وقرائح الشعراء لم تجف .

٢ أُصيب الشعر في العهد التركي بوباء التسميق اللفظي الذي ذهب عائه ورونقه وتركه مراراً كثيرة على حالة المريض المدنف بعدما ألحّ عليه السقم والحزال . فإذا ما أرحت سائر الألفاظ البراقة لا تقع غالباً إلا على معاني مكرورة مسروقة غثة . واقتنّ الشعراء في أنواع البديع والتصنع .

قال الشاب الظريف (١٢٦٢ - ١٢٨٩) متظرفاً :

بَا سَاكِماً قَلْبِي الْمُعْتَى      وَلَيْسَ وَبِهِ سِوَاكَ ثَانٍ  
لِإِي شَيْءٍ كَسَرَتْ قَلْبِي      وَمَا التَّقَى فِيهِ سَاكِتَانِ

وأوقع الشعراء خصوصاً بالتورية وتباهوا بأنّها من خصائص عصرهم . فقال ابن حجة : «ولمّا وقع الإجماع على أن المتأخّرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شمسها ، ومزحوا بها الدوق السليم لمّا أداروا كؤوسها» .

ونظموا الألفاظ والأحاجي ، واستكثروا ، لإظهار براعتهم وحذقهم ، من الألفاظ المنصرفة والمُصنّعة والمهملة ، والتزموا ما لا يلزم ، وأتوا بما لا يستحيل بالانعكاس وبالنحو في التاريخ الشعري وهو أن يأتي الشاعر بألفاظ تدلّ حروفها بحساب الجمل على سنة معينة . فقال مثلاً أحدهم مؤرخاً وفاة والي مصر محمد باشا :

قَسَمُهُ بِالنَّارِ نُورٌ      وَهُوَ فِي التَّارِيخِ «ظُلُمَةٌ»

ومما شاع في هذا العهد المدائح النبوية والبديعيات . فنظم البوصيري برده المشهورة التي مطلعها .

أَمِنْ تُدَكِّرِ جِيرَاكِ بِنْدِي سَلَمٌ      مَزَجَتْ دُمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بَدَمٌ

وهمرته ولايته التي عارض بها «بانت سعاد». فراحت قصائده هذه، ولاسيما البردة، وقلدها الشعراء. وكثر الميل إلى المقطوعات القصيرة التي تحوي نكتة أو فكاهة ولم يحجم الشعراء عن وصف الأشياء المألوفة كالسجادة والبساط والمسيحة والسكين والمروحة.

ثم أسرف الشعراء في استعمال الكلام العادي الصريح في الهجو، والتعابير البذيئة والمزول المذكر، وانتشرت في الشعر الألفاظ العامية والكلام غير العرب والأوزان الشعبية من مثل «الموالي» و«القوما» و«الرجل» و«الدوييت» والموشح وغيرها. فاستساغت آذان آل تلاوون وآل برقوق هذا الشعر، وأجازوا عليه. واشتهر فيه خلف النُبَّاري، وأحمد بن عثمان الأمشاطي، وأحمد الدرويش وغيرهم. وعى الجملة فقد سقط الشعر أسلوباً ومعنى وعاطفة وخيالاً إلا في القليل النادر.

#### ٤- انجمايع الأدبية والعلمية:

وبينا كان الشعراء والكتاب ينظمون وينثثون كان غيرهم يجمع المختارات من أدب هذا العصر والمصور السابقة. فوضع جمال الدين الوطواط (١٣١٨ م - ٧١٨هـ) كتاب «غرر الخصائص الواضحة» وفيه نظم ونثر؛ وألف علاء الدين البهائي (١٤١٢ م - ٨١٥هـ)، «مطابع البدور في منار السرور»؛ وألف شهاب الدين الأبيشي (١٤٤٦ م - ٨٥٠هـ)، «المُسْتَطَرَف في كل فن مُسْتَطَرَف»؛ وألف شمس الدين التواجي (١٤٥٥ م - ٨٥٩هـ) «حَبَّة الكُمَيْت» فيما قيل في الخير وما إليها، و«تحفة الأديب» في الأشعار التي حرت بحرى الأمثال؛ وألف داود الأنطاكى (١٦٠٠ م - ١٠٠٨هـ) كتاباً عن الحب وما قيل فيه سماه «تزيين الأسواق».

وفضلاً عن ذلك كان هذا العهد ازدهار في التصنيف العلمي، وظهرت الموسوعات التي تجمع في مجلدات ضخمة أنواعاً شتى من المعارف والعلوم؛ فقد وضع شهاب الدين التويري (١٣٣٢) «نهاية الأرب في فنون العرب» في السماء والآثار العلوية والأرض والعالم السفلية والإنسان وما يتعلّق به والحیوان الصامت... ووصع ابن فضل الله العمري (١٣٤٨) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» في أكثر من

عشرين جزءاً ، ووضع القلقشندي (١٣٥٥ - ١٤١٨) «صبح الأعشى في صناعة الانشاء» ، وبهاء الدين العاملي (١٦٢٢) «الكنشكول» وه «المحلاة» في العلم والأدب ... ووضع حاجي خليفة (١٦٥٦) «كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون» ، ووضع جمال الدين بن مكرم المعروف بابن منظور (١٣١١) «لسان العرب» ، ومجد الدين محمد الفيروز آبادي (١٣٢٩ - ١٤١٤) «القاموس المحيط» ، ومرغص الزبيدي (١٧٣٢ - ١٧٩٠) «ناج العروس في شرح القاموس» ... ووضع ابن خلكان «وفيات الأعيان» ...



## الباب الثاني المشتر

### الفصل الأول الأدب

كان للأدب وما إليه محل واسع في كتابة هذا العهد ، وكانت المؤلفات فيه موسوعات تحتوي أنواعاً شتى من المعارف والعلوم . وقد أكب على هذا النوع من الكتابة كثيرون نفق عند بعضهم وقفة إيجاز تشير إلى تلك الكنوز الأدبية والمعلوماتية التي انصرف الأدباء الى جمعها وتديجها في كثير من الصبر والتبذير والجهد :

١ - جَمَالُ الدِّينِ الوُطَواط ( ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ - ١٣١٨ م )

هو جمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الأنصاري . كان مروياً الأصل ، مصري المولد ، وكان كنيئاً وراقاً . وقد تعاطى الأدب وبرع فيه . توفي سنة ١٣١٨ م .

لجمال الدين الوطواط رسالة «مفتي الفتوة ومرتأة المروة» ، وحواش على «الكامل» لابن الأثير ، وكتاب «مناهج الفكر ومباهج العيو» في أربعة مجلدات ، وله كتاب «غور الحاصلات الواضحة وغور النقايس الفاضحة» . وقد رتب هذا الكتاب الأخير على سنة عشر باباً يشتمل كل باب منها على ستة فصول ضمها مختارات من النثر والشعر .

٢ - شهاب الدين النُؤَيْري ( ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ) :

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، وهو من النُؤيرة إحدى قرى

الصعيد الأدنى بمصر. ولّد ونشأ بقوص وتوفي بالقاهرة. عمل في خدمة المالك. وقد اشتهر بالفقه والتاريخ وتوفي سنة ١٣٣٢ م.

للنويري «نهاية الأرب في فنون العرب» وهو موسوعة تقع في ثلاثين مجلداً مرتبة على خمسة أقسام: السماء والآثار العلوية والأرض والمعلم السفلية الإنسان وما يتعلق به — الحيوان الصامت — النبات — التاريخ من بدء الخليقة إلى سنة ١٢٣١ م.

٣ ابن فضل الله المحرّي (٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م):

هو من نسل عمر بن الخطّاب، وُلد في دمشق، ولما شبّ راح يضربُ في البلاد، ثم تولى القضاء بالقاهرة، وقد عمل أيضاً في ديوان الملك الناصر، وتوفي سنة ١٣٤٨ م.

للمحرّي كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وهو يقع في أكثر من عشرين جزءاً حافلة بالمعاني والقيمة والمعلومات الواسعة في التراجم والتاريخ والجغرافيا وما إلى ذلك.

٤ - أبو العباس القلقشندي (٧٥٦ - ٨٢١ هـ / ١٣٥٥ - ١٤١٨ م):

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عليّ المعروف بالقلقشندي نسبةً إلى قلّقشنة في القلبيّة بمصر، وهو مصريّ المولد والمنشأ. ينتهي نسبه إلى بني فزارة. وقد ولي ديوان الإنشاء في عهد المالك، وتوفي في القاهرة سنة ١٤١٨ م.

للقلقشندي «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب» وه قلائد الجان في التعريف بقبائل عرب الزمان، وله «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» وهو موسوعة ضخمة تحتوي مقدمة وعشر مقالات. أما المقدمة فهي فضل الكتابة، وصفات الكتاب، والتعريف بديوان الإنشاء وقوانينه؛ وأما المقالة الأولى فهي يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية، والثانية في المسالك والممالك؛ وأما الثالثة والرابعة فهي تاريخ الكتابة وتطوراتها وما التزم في بدنها وختامها، واختلافها باختلاف المکتوب إليه وموضوع الكتاب. وأما الخامسة فهي الشيعة والمهد وأنواع المناصب من رجال السيف والقلم...



الأدب: الوطواط الثوري. العمري الفلقشندي. الحلبي. الأبيشيبي ابن عربشاه ١٠٣٣

وهكذا يتناول المؤلف جميع ما يحتاج إليه الكاتب من معلومات. وقد قال فيه صاحب كشف الظنون: «هو على سبعة أجزاء كل منها مجلد كبير في صناعة الإنشاء لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، وجعل باباً من أبوابه مخصوصاً بعلم الخط وأدواته، فرغ من تأليفه سنة ٨١٤هـ، وقد طبع صبح الأعشى في أربعة عشر مجلداً بمطبعة دار الكتب المصرية من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٠.

وكتابة الفلقشندي «من أمثل ما عُرف لأهل زمانه في أداء الغرض، وقلة التكلف، وعدم الإلحاح في البديع».

٥- بيدر الدين الحلي (٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

كان بدر الدين بن حبيب الحلبي من أشهر كتّاب عصره وله كتاب «نسيم الصبا» وهو يقع في نحو ثلاثين فصلاً في وصف الطبيعة والأخلاق والأدب ونحو ذلك

٦- شهاب الدين الأبيشيبي (٧٩١- ٨٥٠هـ / ١٣٨٨- ١٤٤٦م):

هو الشيخ الإمام أبو الفتح محمد بن أحمد الأبيشيبي. وُلد بأبشويه ودخل القاهرة وحضر دروس اجلال البلقيني وولي خطابة بلده. وقد توفي سنة ١٤٤٦.

للأبيشيبي كتاب «المُسْتَظَرَفُ فِي كُلِّ فَرْقٍ مُسْتَظَرَفٍ» وهو يشتمل على كلّ فنّ ظريف وفيه الاستدلال بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وحكايات عن الأخيار. وقد نقل فيه صاحبه كثيراً مما أودعه الزمخشري في ربيع الأبرار، وابن عديّ في العقد الفريد. ولغة الأبيشيبي ضعيفة ولذا وقع اللحن في تصنيفه.

٧- ابن عربشاه (٧٩٠- ٨٥٤هـ / ١٣٨٨- ١٤٥٠م):

هو أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي، وهو من أصل رومي، وُلد بدمشق ونشأ بها ثم رحل إلى بلاد الروم، ثم توجه إلى خوارزم وأخذ الفقه عن محمد البنزري الكردي، ثم قطع بحر الروم إلى مملكة ابن عثمان فأقام بها عشر سنين وترجم للملكها محمد بن بايزيد بن مراد بعض الكتب من الفارسية إلى التركية وباشر عنده ديوان الإرشاء. وقد تُوِّفِيَ بالقاهرة سنة ١٤٥٠م.

من آثار ابن عَرَبْشاه **وَفَاكِهِةُ الْخُلَفَاءِ وَمُفَاكِهِةُ الطُّرَفَاءِ** وهي مرآة لحياة الملوك ،  
و**عَجَائِبُ الْمُقَدَّرِ فِي نَوَائِبِ تَمُورِهِ** وهي وصف لفتوحات ذلك الطاغية وأحوال  
البلاد في أيام خلفه ولا سيما ما يتعلق بسمرقند .

#### ٨ - شمس الدين التَّوْاجِي (٧٨٧ - ٨٥٩ هـ / ١٣٨٥ - ١٤٥٤ م) :

هو شمسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ حَسَنِ بنِ عَلِي بنِ عَثْمَانَ التَّوْاجِي . وُلِدَ بالقاهرة وقرأ على  
مشايخ عصره ، ثم دخل دِمَياط والإسكندرية وتردّد الى الحلة وغيرها متطلباً العلم  
والأدب حتى برع فيها . وقد توفي سنة ١٤٥٤ م .

للتَّوْاجِي كتاب **«حُلِيَّةُ الْكُمَيْتِ»** في الأدب والنوادر المتعلقة بالبحر . وهو مجلّد  
نُظِمَ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ غَرِيبٍ ، وقد رُتِبَ عَلَى خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ بَاباً في أوصاف البحر  
والنديم والسائي والجلس وآدابه والأغاني والملاحم والحلاعة والأزهار والفواكه والحامّة  
في التوبة وذمّ الخمر .

#### ٩ - جلال الدين السَّيُوطِي (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :

هو عبد الرحمن جلال الدين ابن الإمام كمال الدين الحُضَيْرِي السَّيُوطِي . وُلِدَ  
بالقاهرة ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وهو دون الثامنة ، وأخذ العلم عن مشايخ وقته . قرأ  
على واحد وخمسين عالماً ، وزار جميع البلاد العربيّة والهند في طلب العلم وابتدأ في  
التصنيف في السابعة عشرة من عمره . وقد نبغ في كثير من العلوم وترك للناس نحو  
خمس مئة مصنف في التفسير والحديث والفقه واللغة . وتوفي في القاهرة سنة ١٥٠٥ م .

من آثار السيوطي **«تاريخ الخلفاء»** من عهد أبي بكر إلى الأشرف قايتباي و**«تحفة  
الجالس ونزهة المجالس»** ، و**«المزهر»** في فلسفة اللغة ، و**«حسن المحاضرة»** في أخبار  
مصر والقاهرة ، يشتمل على ما ورد في فضائل مصر وذكر من دخلها من الصحابة  
والتابعين ، كما يشتمل على ذكر أعيانها وملوكها وما فيها من الجوامع والمدارس والتيل ،  
وما قبل فيها من الأشعار .

وهكذا كان السيوطي من عظماء الأدب واللغة والدين .

٩٠ - بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الخارثي العاملي ولد في بعلبك ثم

سافر إلى أصفهان ، فوصل خبره إلى سلطانها شاه عباس فطلبه لرئاسة العلماء فولّيا  
فَعَظَم قدره وارْتَفَعَ شأنه ، ثم دخل مصر وقصد من بعدها القدس ولزم قضاء المسجد  
الأقصى وكان متمسماً بلباس السّياح ، ثم سافر إلى حلب فأصمها حيث توفي سنة  
١٦٢٢ م.

لباه الدين العاملي آثار كثيرة أشهرها « الكشكول » وقد جمع فيه كلّ نادرة من  
شئ العلوم . و« الحلا » وهي تشتمل على نواذر يسر لها المحزون وعلى لطائف وأشعار  
ومواعظ في الأدب ومكارم الأخلاق وغير ذلك . وكتبه في الرياضيات والفلك ظلّت  
زمناً طويلاً مرجعاً للكثيرين من علماء المشرق .

٩١ - شهاب الدين الخفاجي ( ٩٧٩ - ١٠٦٩ هـ / ١٥٧١ - ١٦٥٩ م ) :

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي . ولد بسرياقوس من  
مديرية القليوبية بمصر ثم قرأ العلوم العربية على خاله أبي بكر الشنواني ثم درس للمعاني  
والمنطق والطب وغيرها من العلوم ، ثم ارتحل إلى القسطنطينية وولي فيها المناصب العالية  
ثم ولي قضاء سلانيك . ثم أرسل إلى مصر « قاضي عسكره » ثم عاد إلى القسطنطينية ثم  
عاد إلى مصر قاضياً . وقد توفي سنة ١٦٩٥ م .

من آثار الخفاجي « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » ، و« حيايا الزوايا »  
في ترجمة أدياء عصره ، و« ربحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا » وفيها أشعار وتراجم  
ناظميها ، و« شرح ذرة الفواص » .

وأسلوب الخفاجي مسجوع بادي التكلف .

٩٢ - عبد القادر البغدادي ( ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م ) :

هو عبد القادر بن عمر البغدادي نزيل القاهرة . ورد دمشق وقرأ بها على أكابر  
علمائها ، ثم رحل إلى مصر وأخذ العلوم الشرعيّة عن جمع من مشايخ الأزهر ، ثم دخل

دمشق سنة ١٠٨٥ هـ وكان في صحبة الوزير إبراهيم باشا المعروف بكتبخدا ، وسافر الى أدرنة وعاد مريضاً الى مصر وتوفي بها سنة ١٠٩٣ هـ.

أشهر آثار البغدادي «خزانة الأدب ولبّ لبان العرب» وهي شرح على شواهد شرح العلامة رضى الدّين محمد بن الحسن الشهير بالرضى الاسترنادي على الكافية ، وقد ترجم فيها لكثير من الأدباء والشعراء من الجاهليين ومن بعدهم ، وجمع فيها معلومات قيمة.



### مصادر ومراجع

- الأب لويس شيخو: صح الأعشى للفلقشندي - المشرق ٩ : ٥١٥ .  
 محمد عبد الله عنان : التراث المنسي : صح الأعشى - المجلد ٤٣ : ٦٧٣ .  
 محمد كرد علي : صح الأعشى للفلقشندي - المقتبس ٨ : ١٧١ .  
 مجلة المشرق : فهارس صح الأعشى للفلقشندي - المجلد ٣٣ : ١٢٦ .  
 خير الدين الزركني : الاعلام .  
 جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية - طبعة دار الجيل - بيروت .

## الفصل الثاني التاريخ والجغرافية

كثُر في هذا العهد من اهتمَّ للتاريخ وما إليه . وقد أخذ هذا النوع من الكتابة اتجاهاً شمولياً فكان منه ما دار حول تراجم الرجال ، وكان منه ما دار حول تاريخ المدن ، وكان منه ما انحصر في التاريخ السياسي لدولة من الدول أو لدول متعاقبة . وأشهر من كتب في هذا الفن ابن خلكان ، وابن طباطبا ، وأبو الفداء ، والمقريزي .

### ابن خلكان - ابن طباطبا أبو الفداء - المقريزي

٦ ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ / ١٢١١ - ١٢٨٢ م)

هو شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان ، وهو من سلالة يجبي بن خالد البرمكي . وُلِدَ في إربل بالعراق وتفقّه فيها على والده ، ثم انتقل بعد موت أبيه إلى الموصل ثم إلى حلب ودمشق . ثم دخل الديار المصرية وسكنها ، وناب في القضاء عن القاضي بدر الدين السخاوي ثم ولي قضاء الشام مرتين وأخيراً عُزل . وقد توفي سنة ١٢٨٢ م .

لإبن خلكان «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» (مما ثبت بالنقل أو السماع وأئبته العيان) وهو كتاب يتضمن تراجم المشهورين من رجال العلم والأدب والصناعة والمال غير الصحابة والتابعين والخلفاء ، وقد تحرّى فيه صاحبه الدقة ولاسيما في تاريخ الوفاة ، وابتعد فيه عن الخرافات والتلفيقات ، وأبرزه لنا في لغة سليمة وبسيطة وفي أسلوب عملي ، فكان من أهم مراجع التاريخ ، وكان أول كتاب من نوعه لشموله وسعة نطاقه وعدم المحاصرة في نوع معين أو بلد معين . وهكذا حوى نحو ٨٦٥ ترجمة .

وقد ذُله عدة علماء مترجمين لبعض من تركه ابن خلدان ، أشهرهم ابن شاکر الکتبی المتوفى نحو سنة ١٣٠٣ صاحب «فوات الوفيات» .

#### ٢- ابن طباطبا (٥٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) :

هو فخر الدین محمد بن علی بن طباطبا بن الطقطقی . وُلد ونشأ في الموصل وألف كتابه «الفخري» لفخر الدين عيسى بن ابراهيم . وقد فرغ من تأليفه واستنساخه سنة ٧٠١هـ أي قبل وفاته بثلاثي سنين ، وتوفي سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م .

لابن طباطبا «الفخري» في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، وقد عرض فيه لتاريخ الدولة الإسلامية من أول عهدها الى آخر الدولة العباسية ، وأخرجه في أسلوب أنيق ، وتعبير دقيق ، وخرج فيه عن نظرات دقيقة في شؤون السياسة العامة ، وقواعد كلية يستشهد عليها بالأحداث الإسلامية الجزئية .

#### ٣- أبو الفداء (٦٧٢ - ٧٣٢هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١م) :

هو الملك المؤيد عاد الدين اسماعيل أبو الفداء ، صاحب حاة من قبل الملك الناصر ، ومن نسل الأيوبيين . كان أميراً بدمشق ، وخدم الملك الناصر لما كان في الكرك ، وبالغ في ذلك فأعطاه حاة وجعله سلطاناً يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره ، ولقب «الملك الصالح» ثم «الملك المؤيد» ، وكان كل سنة يتوجه الى مصر بأنواع من الخيل والرقيق والجواهر يهديها الى السلطان الملك الناصر .

وكان أبو الفداء رجل علم له مشاركة في الفقه والطب والهيئة ، وكان محباً لأهل العلم يقرهم ويحزل لهم العطاء . توفي في الستين من عمره سنة ٧٣٢هـ .

أهم مؤلفات أبي الفداء «المختصر في تاريخ البشر» اعتمد فيه على الطبري وابن الأثير ، وتاريخه للفترة الأخيرة التي كانت بعد ابن الأثير أكثر فائدة وأجل قيمة .

#### ٤- المقرئ (٧٦٦ - ٨٤٥هـ / ١٣٦٥ - ١٤٤١م) :

هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي البعلبكي الأصل . وُلد ونشأ في القاهرة ساعياً وراء العلم والتحصيل ، وقد تولى عدة مناصب من حسبة وخطابة وإمامة ،

التاريخ والجغرافية : ابن خلدون — ابن طباطبا — أبو الفداء — المقرئزي ١٠٣٩

واتصل بالملك الظاهر برفوق ويولده الملك الناصر. وقد أكثر من التأليف ولاسيما تاريخ مصر. وتوفي في القاهرة سنة ١٤٤١ م.

للمقرئزي «آعاط الحففاء في تاريخ الفاطميين، وه السلوك في معرفة دول الملوك» في تاريخ المائلك، وله خصوصاً «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» وقد ضمن هذا الكتاب الأخير ما تفرق من أخبار الإقليم المصري وحرفائته ومدنيته؛ وللمقرئزي فضلاً عن ذلك «جنى الأزهار من الروض المعطار» في الجغرافية العامة. والمقرئزي كثير الثقل في نواحيه، قليل النقد والتمحيص.

\*

## مصادر ومراجع

حبيب الريات : الملقى لتي الدين المقرئزي والتاريخ القصصي أو الفكاكي. — المشرق ٣٥ : ١٨٠.

محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن التاسع الهجري : المقرئزي — انتفاة ١٩ : ١٥ ، و ٢٣ : ١٨

محمد عبدالله عان : تي الدين المقرئزي ، مؤرخ مصر السياسي والاجتماعي ، سياسة الأسوعية ١٥٩ : ١١.

حير الدين الزركلي : الأعلام.

جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية - طبعة دار الجيل — بيروت.

## الفصل الثالث العلوم

كثُر الاشتغال بالعلوم في هذا العهد، وكان بمجمله احتصاراً أو تطويلاً أو جمعاً. وقد اشتهر في علوم اللغة جمال الدين بن مكرم المعروف بابن منظور (٧١١هـ / ١٣١١م) صاحب «لسان العرب»، ومحمد الدين محمد الفيروزآبادي (٨١٦هـ / ١٤١٤م) صاحب «القاموس المحيط»، ومرفعي الزبيدي (١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م) صاحب «تاج العروس في شرح القاموس». واشتهر في علوم النحو محمد بن عبد الله بن مالك (٦٧٢هـ / ١٢٧٣م) صاحب «الألفية»، وعبد الله بن هشام (٧٦١هـ / ١٣٦٠م) صاحب «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» و«قطر الندى وبل الصدى»، واشتهر في العلوم الدينية أحمد بن قسيم (٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، وابن قيم الحزني (٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، واشتهر في العلوم الطبيعية وما إليها زكريا بن محمد الفزويني، وكمال الدين أبو البقاء الدغيري. وإنا سنجتري بدراسة هذين الأخيرين وفيها الكفاية

## القزويني - الدميري

أ- القزويني (٦٠٥ - ٦٨٢هـ / ١٢٠٨ - ١٢٨٣م)

هو أبو يحيى زكريا بن محمد من سلالة مالك بن أنس<sup>١</sup>. وُلد في قزوين سنة ١٢٠٨م. ولما شبَّ ترك بده وراح يضرب في الأمصار حتى بلغ دمشق في سنة ١٢٣٣م واحتكَّ فيها بابن عربي الطائر الشهرة في التصوف. ولما كان عهد المحتصم انتقل القزويني إلى العراق حيث تولى قصبة مدينتي واسط والجلَّة، وكان في ذلك المنصب حين سقطت بغداد في يد هولاكو. وقد توفي سنة ١٢٨٣م / ٦٨٢هـ.

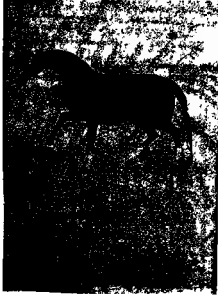
١ - مالك بن أنس هو أحد الأئمة والأعلام وصاحب المذهب المالكي. وُلد في المائة سنة ٧١٥م وتوفي سنة ٧٥٩م. مؤلفاته كتاب «موطأ الإمام مالك» وهو أساس المذهب المالكي.



بَلَّغْنَا للقزويني كتابان أحدهما في علم الهيئة وعنوانه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» والآخر في علم الجغرافية وعنوانه «آثار البلاد وأخبار العباد»، والكتابان شهيران عند العرب، وقد استقى القزويني معلوماته فيها من مصادر شتى كما أنه ضمنها، فضلاً عن المادة مواد أخرى مختلفة من أدب وميامنة ودين وما إلى ذلك.

١ - كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات : عندما ظهر كتاب القزويني طارت له شهرة واسعة لأنه كتاب جامع ، ولأنه يقدم خلاصة الحكمة الطبيعية . والقزويني يتبع خطة الجمع ، وهو ينظر الى الوجود نظرة المعجب ، ويجعل نظرته ذات هدف ديني وصيغة دينية ، وهو لا يكاد يشك في قول قيل ، ولا يكاد يميز بين الحقيقة والخُرافة . زد على ذلك أن القزويني يهتم شديد الاهتمام لأن يستخرج من الدين وتعاليمه براهين وحججاً على صحة ما يقول في الصعيد العلمي .

وخلاصة القول أن القزويني لم يرم في كتابه الى غاية فلسفية — وقد صرح بذلك — ولا يعالج الأمور معالجة فلسفية ، وإنما أراد أن يجعل من كتابه مجل من مجالي العجب في الوجود ، وبرهاناً على حكمة الله وعظمته وقدرته ، وتصديقاً لما ورد في



علم الطبيعيات  
طبيعة الفرس  
عن مخطوطة  
من القرن الخامس عشر  
(مكتبة الجامعة بسلطانيون).

الكتب السماوية. ولا شك أن عمده شريف الغاية، حافل بالمعلومات، ولكنه ضعيف القيمة العلمية، يفيد ويفكّه، ولكنه لا يرضي العقل المفكّر في كثير من أواحيه. والقزويني كثير الاستشهاد، وامتنعاده، إن لم يقم على ناحية دينية قام على مظاهر حسية، وخبرة سطحية. وأسلوبه من ثم شديد الوضوح، لا يخلو من تسلسل، مهما عراه من تطويل وتفصيل، وتكثيف لمادة المعلومات والامتنعادات. أما عبارة القزويني فشديدة السهولة من غير ركازة، تسير في هدوء من غير ثقل، وتعبّر عن الموضوعات العلمية من غير تعقيد ولا غموض.

٢ كتاب آثار البلاد وأخبار العباد: هو كتاب جمع فيه القزويني ما عرف وسمع وشاهد من خصائص البلاد والعباد. وهو يتبع فيه تقسيم بطليموس للأرض ويجعل



كتاب عجائب الخلق، والقزويني، الملائكة إسرائيل  
من مخطوطة من القرن ١٤ (معرض الفن - واشنطن)

ويزعمون أنها لأبنا الديار والنبي يستأجر الديار الأوتوم من ذوقه هذه المورث



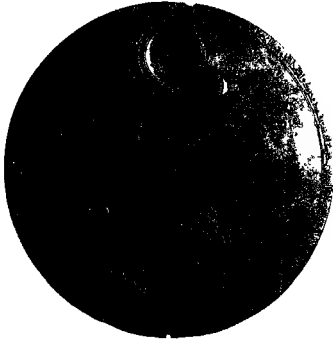
مؤلفة القويين وهذه المورثات ثمانية عشر موكباً في العترة وسبعة خارجة

كتاب عجائب الخلوقات، للقروي، الرد - عن غطوطه من القرن ١٣  
(مكتبة مونيخ)

الأقسام سبعة أقاليم، ثم يرتب البلاد والمدن والجبال والأنهار والبرك ترتيباً هجائياً، وذلك في كل إقليم من الأقاليم السبعة. والقزويني يورد ميزات كل مدة من مواد كلامه ويضيف إلى ذلك معلومات تاريخية شتى، ويذكر مشاهير الرجال الذين طهروا في كل بلد ويفصّل تاريخ حياتهم. وهكذا كان كتاب القزويني موسوعة علمية حافلة بالفوائد وحافلة أيضاً بالغث والخرافات

ب - الدّميري (٧٤٥ - ٨٠٨ هـ / ١٣٤٤ - ١٤٠٥ م) :

هو كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى بن عليّ الدّميري. وُلد في القاهرة ونُسب إلى دميّة قرب سننود بالوجه البحري من مصر، وقدم على الشيخ بها



روزنفة موضوعة على الأساس العلمي الذي وضعه البيروني (٩٧٣ — ١٠٤٨) قام بصنعها على شكل  
إسطرلاب في القرن الثالث عشر محمد بن أبي بكر الأصفهاني.  
(متحف أكسفورد للتاريخ والعلوم)

الدين السبكي، وأخذ عنه وعن الشيخ جمال الدين الأسنوي. وقد مهر في الفتوى،  
وقال الشعر، وتولى تدريس الحديث، وحجَّ مراراً. وتوفي في القاهرة سنة ١٤٠٥ م.  
أشهر آثاره الديري «حياة الحيوان الكبرى» وهو أشبه بقاموس حيواني رُتت فيه  
أسماء الحيوانات على حسب حروف الهجاء، وعولجت فيه تلك الأسماء معالجة لغوية،  
ثم وُصفت الحيوانات وصفاً يتناول الأجسام والطبائع، ثم ذُكر من الحديث والأمثال ما  
وردت فيه أسماء الحيوانات المدروسة، ثم ذُكرت جملُ من الفوائد الطيِّبة المتعلقة  
بالحيوانات نفسها، إلى غير ذلك ممَّا أظهر الكتاب بمظهر الشمول، ومما جعله قوضى  
تأليف وترتيب.

## الباب الثالث الشعر

إنه لمن الصعب إحصاء الأدباء الذين نظموا الشعر في هذا العهد، ذلك أنه انحط الخطأ شنيعاً، فأصبح مطية لكل عاجز أو مغرور . يعالجه النحوي لتضمينه قواعد نحوه، والعروضي لحصر الأصول والفروع في عروضه . ويعالجه ناظم المناسبات لتأريخ ولاية أو ولادة أو بناء دار، ويعالجه المتحذلق الذي يرغب في إظهار براعته اليدوية، فكانه لعبة شطرنجية أو تركيبة فسيماوية جفّ بها الماء وغاب عنها الدقن الذاتي الحياتي، وغاب معه الزواء. وفيما نذكر من شعراء هذا العهد شهاب الدين التلعفري (٦٧٥هـ / ١٢٧٦م)، وسراج الدين الورّاق (٦٩٥هـ / ١٢٩٦م)، وابن حجة الحموي (٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) وعائشة الباعونية (٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) وابن معرق (١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م) وعبد الغني النابلسي (١١٤٤هـ / ١٧٣١م) وعبدالله الشبراوي (١١٧٨هـ / ١٧٦٤م) ... نتوقف عند خمسة منهم يُعدّون من المجلدين بالنسبة الى غيرهم هم : الشاب الظريف، وشرف الدين البوصيري، وابن الوردي، وصفي الدين الحلبي، وابن نباتة.

### الشاب الظريف - شرف الدين البوصيري ابن الورددي - صفي الدين الحلبي - ابن نباتة

- ١ - الشاب الظريف: وُلد في القاهرة ونشأ في دمشق، وتوفي سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م. — له ديوان شعر، وهو في عرله حفيظ الروح، كثير التقليد، مادي الصنع.
- ٢ - شرف الدين البوصيري: ولد في بوسير وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م. — أشهر شعره «البردة»، وهي بديعية دلت شهره وسعة.
- ٣ - ابن الورددي: وُلد في مرة العمان وكتب في التاريخ والنحو والشعر توفي بحلب سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م.

— له ديوان شعر أشهر ما فيه اللامية ، وشعر ابن اوردني عجيب السلامة والسهولة والاثرائ

٤ - صليّ الثعلب الحليّ . وُلد ونشأ في الحلة انقطع مدّة الى ملوك الدولة الأرمينية أشهر شعره «الأرقعات» و«الناسريّات» توفي في عنناد سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م — شعر صليّ الثعلب حاص بالكلّف.

٥ - ابن تباة . وُلد في مباحرة ونشأ في مصر وكانت وفاته كذلك في مصر سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م . — له ديوان شعر ممتاز باللين والسهولة والتصيح .

### ١ - الشابّ الظريف (٦٦١ - ٦٩٥هـ / ١٢٦٣ - ١٢٩٥م) :

هو محمد بن سليمان المعروف بالشابّ الظريف . وُلد في القاهرة ونشأ في دمشق وولي عمالة الحزاة فيها ، ثم توفّي فيها أيضاً وهو في ريعان الشباب سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م .

للشابّ الظريف ديوان شعر طُبع في بيروت وفي مصر .

والشابّ الظريف شاعرٌ غزَلُ حفيف الروح ، كثير التقليد ، أولع بالتلاعب بالألفاظ ، كما أولع بالبديع فأكثر من استعمال الجناس والطباق ، فكان شعره ، على رفته وعذوبته ، بادي التصع .

### ٢ - شرف الدّين البوصيريّ (٦٠٨ - ٦٩٦هـ / ١٢١٢ - ١٢٩٦م) :

هو العارف بالله شرف الدّين محمد بن سعيد . وُلد في بوصير في أول شهر شوال ، وقد برع في الخط ، وتولّى مديرية اشرقية ، وتوفي بالإسكندرية نحو سنة ١٢٩٦م / ٦٩٦هـ

للبوصيريّ في مدائح النبيّ قصائد شهيرة ، منها الحمزية ومطلعها :

كَيْفَ تَرْتَضَى رُفَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ ، يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ

ومنها «البُرْدَة» وتُعرف «بالكواكب الدريّة» في مدح خير الرّية ، وهي تقع في ١٦٢ بيتاً قيل إنّ البوصيريّ نظمها في مدة مرض اعتراه بُرْكَاً ، فأثاء النبي وغطاه بِرْدَتِهِ فُشِمِي وَلِلذَلِكَ سَمِيَ بِدِيعَتِهِ «البُرْدَة» .

ولهذه القصيدة شهرة واسعة جداً وقد شُرِّحتْ وفُسِّرَتْ أكثر من تسعين مرة في العربية، والفارسية، والتركية، والبربرية. وحُمِّست وتُلِّثت وشطِّرتْ مرَّاتٍ كثيرة، وقد تُرْجِمَتْ إلى عدَّة لغات منها اللاتينية والألمانية والفارسية. وهي من أروع الشعر الديني عاطفةً وانطلاقاً. وإليك شيئاً منها.

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانِ بِذِي سَلَمٍ  
مَرَحَتْ دَمْعاً حَرَى مِنْ مُقَلَّةِ بَدَمٍ ١  
أَمْ هَبَّ أَرْيَحُ مِنْ بَلَاءِ كَاظِمَةٍ  
وَأَوْمَضَ أَلْرُقُ فِي لُظْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ ٢  
فَا لِبَيْتِكَ إِنْ قُلْتَ: «أَكْفُفَا» هَمَّتَا  
وَمَا لِقَبَيْتَ إِنْ قُلْتَ: «أَسْتَعِزَّ!» بِهِمَا  
يَا لَا يَحْيِي فِي الْهَوَى الْعُدْرَى، مَعْدِرَةٌ  
مِثِّي إِلَيْكَ، وَلَوْ أَصْفَتْ لَمْ تَلَمْ ٣  
فَإِنَّ أُمَارَتِي سَالُوهَ مَا أَتْعَظْتُ  
مِنْ جَهْلِهِ بِتَنْدِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ ٤  
وَلَا أَعَدْتُ مِنَ الْفِعْلِ الْحَمِيلِ قَرَى  
صَيْفِ أَلَمٍ، بِرَأْسِي غَيْرِ مُحْسَنِيمٍ  
وَالْفَسْ كَالظُّلِّ، إِنْ تَهَمَّلْهُ شَبُّ عَلَى  
حُبِّ الرِّضَاعِ، وَإِنْ تَقَطَّعْهُ يَنْفَعِيمٍ  
فَأَصْرِفْ هَوَاهَا، وَحَادِرْ أَنْ تُؤَلِّمَهُ،  
إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى بُضْمٍ أَوْ يَصْمٍ ٥

١ - ذو سم اسم موضع

٢ - كاظمة: موضع على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة به وبن الصرة مرحتان. إضم. ود  
بجبال نهاية من بلاد العرب يقع قرب المدينة (يثرب)

٣ - الهوى العُدري: الهوى الشديد الغيف، يريد به حب محبة الله

٤ - الأُمرة المعربة بالثاء، يريد بها انتمس

٥ - أصمى: قتل، وصم: لحق عبثاً.

٣- ابنُ الوردِيّ (٦٨٩ - ٧٤٩ هـ / ١٢٨٩ - ١٣٤٨ م) :

هو زينُ الدِّينِ عُمَرُ المعروف بابنِ الوردِيّ. وُلِدَ في معرّة النعمان . في عهدِ كان الأدب فيه شديدَ الانحطاط ، وقد اُكْتُبَ على علوم اللغة والأدب فحصل منها على الشيء الكثير ، وراح يكتب في التاريخ والنحو وينظم الشعر . وقد تُوَفِّيَ في حلب سنة ١٣٤٨ م / ٧٤٩ هـ .

لابن الوردِيّ ديوان شعر أشهر ما فيه قصيدته المعروفة «بلامية ابن الوردِيّ» وهي تقع في ٧٧ بيتاً إليك شيئاً منها :

اِسْتَرَلْ ذِكْرُ الْأَغَانِي وَالغَزَلِ ،	وَقُلْ الْفَصْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَرَلْ
وَدَعِ الذِّكْرَى لِأَيَّامِ الصَّاءِ ،	فَلِأَيَّامِ الصَّاءِ نَجَسٌ أَقْلْ
وَأَتَقَى اللَّهَ . فَتَقَوَّى اللَّهَ مَا	جَاوَزَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلْ
لَيْسَ مَنْ يَطْعُ طَرَفًا ظَلَاً .	إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ الْبَطْلْ
وَأَهْجُرُ الثَّوْمَ وَحَصْلَهُ ، فَمَنْ	يَعْرِفُ الْمَطْلُوبَ يَحْبِرْ مَا بَدَلْ
لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَيَّامُهُ ،	كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ
لَا تَقُلْ أَصْلِي وَقَصْلِي أَبَدًا .	إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلْ
بِحَسَةِ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ .	أَكْبَرُ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَمْ أَقْلْ

حكمة ابن الوردِيّ هي نثر في قالبٍ موزون ، وهي تخلو من كل روعة أدبية ، وإن لم تُنَلَّ من معرفة عميقة لأخلاق الناس وطباعهم وأحوال الدنيا وأحداثها . وهذه الحكمة دستور أخلاقي يتضمن آداب النفس ، وآداب المعاملة ، وهو قائم على نظرة جديّة الى حقيقة الأشياء من غير ما تمويه ولا تزييف .

وشعر ابن الوردِيّ ظاهرُ الجمود ، ضعيفُ التسلسل ، بعيدٌ عن كل إطلاق في عالم الخيال ، يسير في سلامة وسهولة عجبتين . وإن فيه من الأبيات ما يدور على السنة

١ - قل للفصل : قل الحق

٢ - أعل : غاب .



الناس وما أصبح نموذجاً من نماذج الحكمة البشرية التي تُعبر عن الحقائق العميقة في ظاهري من البساطة يروق ويُعجب.

وهكذا كانت حكمة ابن الوردی حكمةً أترانٍ وحصانةً، موسومةً بالسمة الدينية، ومصطبغةً بصيغة التفاضل والوالمعية.

#### ٤ - صفي الدين الحلبي (٦٧٦ - ١٢٧٧ / ١٣٤٩ م)

هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم الطائي. وُلد ونشأ في الحلة، بين الكوفة وبغداد؛ واشتغل بالتجارة فكان يرحل إلى الشام ومصر وماردين وغيرها في تجارته ويعود إلى العراق.

انقطع مدةً إلى ملوك الدولة الأرتقية في ماردين، فمدحهم وأجزلوا له عطاياهم. ولاسيما الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح عاري الذي مدحه الشاعر بشع وعشرين قصيدة، سماها «الأرتقيات».

رحل إلى مصر ومدح السلطان الناصر ابن قلاوون، وسُمّت قصائده فيه «الناصريات».

توفي في بغداد سنة ١٢٧٧ / ١٣٤٩ م.

لصفي الدين الحلبي ديوان شعر جمعه هو بنفسه ورثته على اثني عشر باباً. وهو فيه شديد التكلف يُكثر من وجوه البديع ومن الألاعب اللفظية، وله في التصنيع قصيدته «الكافية البديعية في المدائح النبوية»، وقد جمع فيها أنواع الحسنات اللفظية والمعنوية.

صفي الدين من أشهر شعراء هذا العهد، بل أشهرهم على الإطلاق، وهو ذو قريحة فياضة، وخيال خلاق، وقد حاول في فخره ومدائحه أن يعارض المتنبي. «وهو يمثل أكبر تمثيل شعر عصره من التصنع واللعب بأنواع البديع. فمثلاً أنشأ القصائد الأرتقيات وهي تشتمل على ٢٩ قصيدة كل قصيدة ٢٩ بيتاً، وكل قصيدة لحرف من حروف الهجاء، يبتدئ كل بيت به وينتهي به، فتصيدة أول كل بيت فيها همزة وآخره

هزة وهكذا. ومحال أن تجتمع الروح الشعرية العالية مع هذا التصنع البالغ... ومن أشهر شعره نوبته التي قالها في صباه مفاجئاً بقومه، وإليك شيئاً منها:

سَلِيَ الرُّمَاحَ الْعَوَالِي عَنِّ مَعَالِينَا      وَاسْتَنْهَدِي الْبَيْصَ هَلْ خَابَ الرُّجَا فِينَا  
وَسَأَلِي الْعَرَبَ وَالْأَتْرَاكَ مَا فَعَلْتُ      فِي أَرْضِ قَبْرِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَيْدِينَا  
وَفِتْنَةٍ إِنْ نَقُلْ أَصْغَوْا مَسَامِعَهُمْ      لِقَوْلِنَا أَوْ دَعَوْنَاهُمْ أَجَابُونَا  
إِذَا ادَّعَوْا جَلَّتِ الدُّنْيَا مُصَدِّقَةً،      وَإِنْ دَعَوْا قَالَتِ الْأَيَّامُ آمِينَا  
إِنَّ الزَّرَازِيرَ لَمَّا قَامَ قَائِمُهَا      تَوَهَّمَتْ أَنَّهَا صَارَتْ شَوَاهِينَا  
طَلَّتْ تَأْتِي الْبِرَاقَ الشَّهْبِ عَنْ جَزَعٍ،      وَمَا دَرَتْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَهْوِينَا  
ذَلُّوا بِأَسْبَابِنَا طُولَ الْوَمَادِ،      نَحْكُمُوا أَظْهَرُوا أَحْقَادَهُمْ فِينَا  
إِنَّا لَقَوْمٌ أَنْتَ أَخْلَقْنَا، شَرَفْنَا،      أَنْ تَبْتَدِيَ بِالْأَدَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِنَا  
بَيْضٌ صَنَائِعُنَا، سُودٌ وَقَائِعُنَا      خَضِرُ مَرَايِعُنَا، حُمْرُ مَوَاضِينَا  
لَا يَطْهَرُ الْعَجْزُ بِنَا دُونَ نَيْلِ مَنَى،      وَلَوْ رَأَيْتَا الْمَنَايَا فِي أَمَانِينَا

٥- ابن نباتة (٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ - ١٣٦٦ م):

هو أبو بكر جمال الدين القرشي. وُلِدَ في مِيفَارِقِينَ ونشأ بمصر، ورحل إلى دمشق، ثم اتصل بالملك المؤيد أمير حجة، وكان كاتباً له، ثم دعاه السلطان حسن في مصر ليكتب له، فلبى الدعوة ولكن السلطان مات في السنة التالية. وقد توفي ابن نباتة في مصر سنة ١٣٦٦ م.

لابن نباتة ديوان شعر طُبع في مصر سنة ١٢٨٨ هـ ثم سنة ١٣٢٣ هـ. وله أيضاً «الديوان الصغير» المعروف بـ «المؤيدات» وقد طُبع عدة مرات في مصر وبيروت.

كتب إليه صفي الدين الحلبي قصيدة يعاتبه فيها أولها:

مَنْ لَصَبٌ أَدْنَى الْبِعَادِ وَفَاتَهُ      مُدُّ عَدَاهُ وَصَلُ الْحَبِيبِ وَفَاتَهُ

فأجابه ابن نباتة :

مَا لَطَفَنِي الْجَمِي إِلَيَّ الْفَنَانَةُ  
 لَهَجُ بِالْهَوَى ، وَإِنْ نَفَرْتُ أَبْرَ  
 كُلَّمَا قِيلَ : قَدْ سَلَ عَنْ فَنَانَةٍ  
 مَا عَلَى مَنْ عَصَى النَّهْيَ فِيهِ رَأْيُ  
 بِأَبِي قَاتِرُ اللَّحَاطِ غَرِيرُ  
 صَائِلُ الْحُسْنِ : إِنْ رَنَّا وَتَنَّى  
 لِعُيُونِ الْوَرَى بِخَدَّيْهِ وَرَدُّ  
 سَاقِي الرِّاحِ بَادُكَارِ لُقَاهُ  
 هَاتِ كَأَمِي ، وَإِنْ لَحَنْتُ مِنَ السُّكْرِ  
 أَنَا قَرِيعٌ مِنَ أَسْبَاتِ ، إِذَا مَا  
 انْبَسَتْ نَعْمَى الصَّمِيِّ ، وَأُحْبِتْ

تَعَدَّ مَا كَدَّرَ الْمَشِيبُ حَيَاتَهُ  
 مَدَى اللَّيَالِي عَزَالُهُ وَمَهَاتُهُ  
 عَادَهُ الْحُبُّ ، فَاسْتَجَدَّ فَنَانَتَهُ  
 لَوْ عَصَى فِي الْهَوَى عَلَى نُهَاتَهُ  
 رَامَ تَشْبِيهِهُ الْعَزَلُ فَنَانَتَهُ  
 سَلَّ أَسِيفَهُ وَهَزَّ قَنَازَتَهُ  
 طَالَمَا عَاقَبَ السُّهَادُ جُنَانَتَهُ  
 لَا عَدِمْنَا ذَلِكَ اللَّقَى وَسُقَاتَهُ  
 بَرَّ ، فَلَا تَلْحَحِي إِذَا قُلْتُ : هَاتَهُ  
 مَجَرَّتُهُ السَّقَاةُ خَافَ مَمَاتَهُ  
 ذَكَرَ أَسْلَافِهِ ، فَهَزَّتْ نَبَاتَتَهُ ...

عالج ابن نباتة جميع الموضوعات الشعرية وقد غلب على شعره الشكوى ، وكان  
 لِيناً في كلامه ، سهلاً في تعبيره ، يزرع مترج الرقة ، ويكثر من الاعتماد على البديع  
 وطرائقه ولا سيما التورية ومراعاة النظير والتضمين وحسن التعليل ، ويبلغ به تطلب  
 الزخرف أحياناً الى السخف ، كما يبلغ به اللين الى الإسفاف والحشو واللحن .

١ - الهاء : القرة الرخشية شبه بها المرة في حسنها وسجل عيبها

٢ - تشبيهه : أي محاكاته .

## مصادر ومراجع

- خير الدين الزركلي : الاعلام.
- حرجي زيدان. تاريخ آداب اللغة العربية - في مجموعة دار الحيل - بيروت.
- شرف الدين الوصيري وقصيدته البودة - المقتطف ٣٢ : ٦١٦.
- اسماعيل حسين. ابن نباتة الشاعر المصري - القاهرة مطبعة الآداب واللسون.
- علي الجديم : الشاعر المصري. جمال الدين بن نباتة - الهلال ٤١ : ١٠٣٩.
- أحمد الاسكندري : صفي الدين الحلبي مجلة المجمع العلمي ١٢ : ٢٤٣ ، ٢٩٢.
- صبا الرئيس : صفي الدين الحلبي الرسالة ٢٧ : ٢٤ ، ٢٨ : ١٠١ ، و ٢٩ : ١٤٥.
- ضياء الرئيس : صفي الدين الحلبي - الرسالة ٢٧ : ٢٤ ، ٢٨ : ١٠١ ، و ٢٩ : ١٤٥.
- محمد كرد علي : رسالتان لصفي الدين الحلبي مجلة المجمع ٤ : ٢١٠ ، ٢٢٠.
- محمد رزق سليم : صفي الدين الحلبي في بلاط بني أرتق الرسالة - العدد ٧٦٧ (١٩٤٨).



## فهرست الأعلام



— أ —

الآبلي (ابراهيم) ١٠١٦

الآمدي ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ .

الإباضية وعد الله بن إياص ٣٦٩

ابراهيم بن العباس ٥٨٤

ابراهيم الخليل ١٤٨ ، ٢٨٧ .

أبرهة ٨٠ .

الأشبيهي ٩٥٠ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٣ .

أبقراط ٥١٩

الألق ٢٨٢ ، ٧٥١ .

الألمة ٣٣٧ .

ابن آجروم ٩٩٥

ابن الأبار ٩٢١ ، ٩٢٢ — ٩٢٤ ، ٩٣٠ .

٩٣٨ .

ابن أبي دؤاد (نحمد) ٥٥٤

ابن أبي زرع ٩٩٥ .

اس أثال ٥٠٨

ابن الأثير (تاج الدين) ١٠٢٧ .

ابن الأثير (ضياء الدين) ٦٤٨ ، ٦٤٩ —

٦٥٥ .

ابن ادريس ٩٣٨ ، ٩٠٤ .

ابن باجة ٩٤٤ ، ٩٧٧ ، ٩٨٧ ، ٩٨٩ .

ابن برد الأصغر ٩٠٤ ، ٩٢٦ ، ٩٣٧

ابن بسام ٣٥ ، ٩٠٥ ، ٩١٠ ، ٩٢١ .

٩٢٦ ، ٩٣٠ ، ٩٣٨ ، ٩٣٥ ، ٩٥٢ .

٩٥٤ ، ٩٦٤ ، ٩٦٩ .

ابن بشكوال ٩٢١ — ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٣٠ .

ابن الطريق ٥٥٧ .

ابن بطوطة ٦٦١ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ .

ابن بني ٩٣٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥٥ ، ٩٧٧

بن الليطار ٩٣٨ ، ٩٨٧

ابن تاشفين (يوسف) ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٩٦٧ .

ابن التوام ٥٦٦

ابن نومرت ٨٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ —

٩٩٩ .

ابن ابيان ٩٨٦ .

ابن جبير ٦٦١ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ — ٩٣٢ .

ابن حُزي ١٠٠٥ .

ابن حُتي ٧٩٣ ، ٧٩٤ .

ابن حُوس ١٠١٤ — ١٠١٥ .

ابن الحطاد (أبو عبد الله محمد) ٩٣٧ .

ابن حديم ٨٣ .

ابن حرم ٩١٧ ، ٩٢٠ ، ٩٣٧ .

ابن حنبل ٨٧٩ .

- ابن حوقل ٦٦١ .  
 ابن حيان ٩٣٠ .  
 ابن خاقان (الفتح) ٩٠٥ ، ٩١٠ ، ٩١٦ ، ٩٣٨ ، ٩٣٥ ، ٩٣٠ .  
 ابن خرداذبه ٦٦١ ، ٨٨٣ .  
 اس خروف ٩٨٦ .  
 ابن الخطيب ٩٠٤ ، ٩٢٦ ، ٩٢٨ ، ٩٣٨ ، ٩٥٠ .  
 ابن خواجه ٩٠٤ ، ٩٣٨ ، ٩٧٤ — ٩٧٥ ، ٩٧٧ .  
 ابن خلدون ٧٩ ، ١٤٩ ، ٣١٣ ، ٥٧٠ ، ٦٥٩ ، ٩٤٧ ، ٩٥٠ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٦ — ١٠١٠ ، ١٠١٢ .  
 ابن حلكان ٩١٠ ، ٩٦٤ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣٧ .  
 ابن درستويه ٧٨٧ .  
 ابن ذرید ٨٧٧ .  
 ابن رشد ٩٣٨ ، ٩٨٧ .  
 ابن رشتيق ١٤٩ ، ٣٨٧ .  
 ابن الرومي ٧٥٧ ، ٧٨١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٥ ، ٩٨١ .  
 ابن الرزق (يحيى بن عطية) ٩٣٨ ، ٩٧٥ ، ٩٧٧ — ٩٨٠ .  
 ابن زمرک ٩٣٨ ، ٩٥٠ ، ٩٥٥ .  
 ابن زهر ٩٣٨ ، ٩٥٢ ، ٩٥٥ ، ٩٨٢ .  
 ابن زيدون ٩٠٤ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٣٧ ، ٩٦٩ ، ٩٧٢ .  
 ابن زينات ٥٥٤ ، ٩١٢ .  
 ابن سعين ٩٨٩ .  
 ابن سريج ٣٩٣ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٥٠٩ ، ٥٨٣ ، ٥١٠ .  
 ابن سعيد ٦٦١ .  
 ابن سلام ٣٥ ، ٣٨٦ ، ٤١٦ ، ٦٤٧ .  
 ابن سناء الملك ٩٤٧ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥٣ ، ٩٥٥ .  
 ابن سهل ٩٣٨ ، ٩٨١ — ٩٨٢ .  
 ابن سينا ٩٨٦ .  
 ابن سينا ٨٨٠ ، ٨٨١ .  
 ابن شاکر (موسی) ٨٨٢ .  
 ابن شرف البرجي ٩٣٧ .  
 ابن شريج ٣١٤ .  
 ابن شهيد ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٩ ، ٩١٤ ، ٩٣٧ .  
 ابن الضحاک (الحسين) ٦٩٨ .  
 ابن طباطبا ١٠٣٨ .  
 ابن طقيل ٩٣٨ ، ٩٨٧ .  
 ابن الطيب العلمي ١٠٢٠ — ١٠٢٢ .  
 ابن عتيق ٦٤٦ .  
 ابن عبد ربّه ٥٥ ، ٥٦ ، ١٤٩ ، ٣٩٠ ، ٩٠٥ ، ٩٠٧ ، ٩٠٩ ، ٩٣٧ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ .  
 ابن عدوس ٩٧٠ .  
 ابن عبدون ٩٠٤ ، ٩٣٩ .  
 ابن عربشاه ١٠٣٣ .  
 ابن عربي (عبيد الدين) ٨٧٩ ، ٩٣٨ .  
 ابن عطية (أبو جعفر) ١٠٠٠ ، ١٠٠١ .  
 ابن عطية (أبو عقيل) ١٠٠١ — ١٠٠٢ .  
 ابن عسار (أبو بكر) ٩٦٧ .



- ابن العميد ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦١٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٧٩٤ ، ٨٧٣ ، ٩٨٥ .  
 ابن العوام (أبو زكريا يحيى) ٩٨٦ .  
 ابن فارس ١٣٣ ، ٦٢٣ .  
 ابن الفارض ٧٨٣ ، ٨٥٩ — ٨٦١ ، ١٠١٧ .  
 ابن مرناس (عباس) ٨٩٦ ، ٩٨٨ .  
 ابن القارح (علي بن منصور) ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ .  
 ابن قتيبة ٣٥ ، ١٩٠ ، ٣٨٧ ، ٥٧٣ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٩٠٨ .  
 ابن قرقان (عبيد الله) ٩٣٦ .  
 ابن القزاز ٩٥٠ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٥ .  
 ابن قزمان ٩٣٨ ، ٩٧٦ .  
 ابن كيعان ٧٩١ ، ٨٠٣ .  
 ابن ماسرجويه ٥٠٨ .  
 ابن ماسويه ٥١٩ .  
 ابن اللدبر ٦١٥ .  
 ابن مخرز ٣٩٣ .  
 ابن المعتز ٦٧٨ ، ٧٢١ ، ٧٢٣ ، ٨٧٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٢ .  
 ابن معنوق ١٠٤٥ .  
 ابن المقفع ٥٢٤ ، ٥٣٠ — ٥٥٠ ، ٥٥٤ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٨٧٦ ، ٩١٢ .  
 ابن ملجم (عبد الرحمن) ٣٠٣ ، ٣٤٢ .  
 ابن منظور ١٠٣٠ .  
 ابن ناصح (عباس) ٩٣٦ .  
 ابن نباتة ١٠٤٥ ، ١٠٥٠ — ١٠٥١ .  
 ابن النديم ٦٠٣ .  
 ابن هاني ٩٣٧ ، ٩٩٥ ، ٩٦١ ، ٩٦٣ .  
 ابن هشام ٧٩ ، ٣٣٤ ، ٣٨٧ .  
 ابن الحيثم ٨٨٣ .  
 ابن الوردى ١٠٤٥ ، ١٠٤٨ — ١٠٤٩ .  
 ابن وهيب المروسي ٩٣٧ .  
 ابن ياسين (عبد الله) ٩٩٤ .  
 أبو بكر ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٧ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٨٣ ، ٤٠٢ .  
 أبو نعام ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٧٥ ، ٧٢٨ ، ٧٤٢ ، ٧٤٥ ، ٧٦٢ ، ٧٨١ ، ٨٤٦ ، ٨٤٨ ، ٩١٠ ، ٩٦٢ ، ٩٦٥ ، ٩٧٢ ، ١٠١٦ .  
 أبو حفص عمر ٩٩٧ .  
 أبو حمزة الخارجي ٣٦٨ — ٣٧٠ .  
 أبو حنيفة ٨٧٩ .  
 أبو دؤاد الأيادي ١٦٧ ، ٢٧٢ .  
 أبو ذر ٧٩٨ .  
 أبو سفيان بن حرب ٣٨٩ .  
 أبو شجاع قاتك ٧٩٢ .  
 أبو الشعمق ٦٨٦ .  
 أبو عبيدة ٢٨٥ ، ٧٠٤ ، ٨٧٨ .  
 أبو العاتية ٦٧٥ ، ٦٧٨ ، ٦٨٩ ، ٧١٤ ، ٧٢٠ .  
 أبو العشائر ٧٩١ .  
 أبو العلاء سالم ٣٢٥ .  
 أبو عمرو بن العلاء ١٠٣ ، ١٣٠ ، ١٣٤ .  
 أبو العنان المروسي ١٠٠٥ .  
 أبو غيثان ١٤٧ .  
 أبو القلاء ٦٥٩ ، ١٠٣٨ .

- أبو فراس الحمداني ٧٨٣ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨١٩ — ٨٣٢ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ .  
 أبو ماضي (لُيْلِيَّيَا) ٤٤  
 أبو مسلم الحرّاساني ٦٨٥ .  
 أبو نواس ٤٢ ، ٣٩٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، ٦٩١ — ٧١٣ ، ٧٢٢ ، ٦٣٥ ، ٨٦٦ ، ٩٣٤ ، ٩٣٦ ، ٩٢٤ ، ٩٣٦ .  
 الأبرك ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٥٨٤ .  
 الأحقاف ٦٥ .  
 الأحموس ٣١٧ ، ٤٤٤ ، ٤٥٢ — ٤٥٣ ، ٦٩٧ .  
 الإخشيد ٧٨٧ .  
 الأخشيدية (الدولة) ٥٢٠ .  
 الأخطل ٤٢ ، ٣١٧ ، ٣٣٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٦٤ — ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٦٢٨ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٦٨٠ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧٠٢ ، ٧٢٢ .  
 الأخص ٢٤ ، ١٣٤ ، ٥٥٣ ، ٨٧٨ .  
 اخوان الصفاء ٥٣٤ ، ٨٤٤ ، ٨٨٠ .  
 الأدرسي ٦٦١ ، ٩٩٨ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ .  
 أدب ٧٦ .  
 أرب ٢٨٠ ، ٢٨١ .  
 أرخميدس ٥٧٤ ، ٨٨٣ .  
 أرسطو ٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٤٠ ، ٥٤٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٧٤ ، ٥٩٩ ، ٦٦٨ ، ٨٨٠ .  
 إرم ذات العماد ١٢٠ .  
 الأزهرى ٨٧٧ .  
 أسد ١٧٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ .  
 إسفنديار ١٢٠ .  
 الإسكندر ٥٧٢ .  
 الاسكندرية ٣٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٢٣ ، ٩٣١ .  
 اساعيل بن يسار ٣١٩ ، ٣٩٢ ، ٥٠٣ .  
 الاساعيلية ٣١٨ ، ٥٢٤ ، ٦٢٣ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٩١ .  
 اشيلية ٨٩٢ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٩٢٠ ، ٩٣٧ ، ٩٦١ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧٥ ، ٩٨١ ، ٩٨٦ ، ٩٨٩ .  
 الأشتر النخعي ٣٤٨ .  
 الأشعرية ٨٧٩ .  
 الأصفهانى (أبو الفرج) ٥٨١ — ٥٨٣ ، ٥٩٦ .  
 الأصمعي ٢٨٥ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٥٥٣ ، ٥٩٧ ، ٧٠٤ .  
 إضرم ٨٣٩ ، ٨٤٠ .  
 الأعشى ١٢١ ، ١٥٢ ، ١٦٧ ، ٢٤٤ — ٢٤٨ ، ٢٤٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤٧٢ ، ٦٩٨ ، ٧٠٢ .  
 أعشى تغلب ٣١٧ .  
 أعشى ربيعة ٣٩١ ، ٥٠٣ .  
 أعشى همدان ٣٨٩ .  
 الأعمى (أبو العباس) ٥٠٣ .  
 الأعمى التطيلي ٩٥٥ .  
 أغمات ٩٦٧ .

- الأشيش ٧٣٢ -  
أفلاطون ٥١٩ ، ٥٤٣ ، ٥٧٤ ، ٨٨٠ .  
الأفوه الأودي ٢٢٥ - ٢٢٦ .  
أفيلس ٥١٩ ، ٥٧٤ ، ٨٨١ .  
أكم بن صفي ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ ،  
١٤٥ - ١٤٦ .  
امرؤ القيس ٨٤ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،  
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،  
١٦١ ، ١٦٦ ، ١٧٥ - ١٨٨ ، ٢٣٦ ،  
٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٣٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ،  
٤٨٧ ، ٦٢٧ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٧٢٢ ،  
٨٤٩ ، ٩١٠ .  
الأمويون ٢٩٨ ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣٥٨ ،  
٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٩٨ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ،  
٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ،  
٤٧١ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٥١٤ .  
الأمين ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧٣٩ -  
أمية بن أبي الصلت ١٦٨ ، ٢٨٦ - ٢٨٧ .  
الأنبار ٦٨ .  
الأنباط (دولة) ٦٨ ، ٧٦ .  
الأنجيل ٥٦ ، ٥٩٥ .  
الأنصار ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ،  
٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ .  
الأنصاري (أبو زيد) ٥٥٣ .  
انطاكية ٥٠٨ ، ٥٥٤ ، ٧٩١ ، ٨٤٤ ، ٨٦٦ .  
الأنطاكي (داود) ١٠٢٩ .  
أقرة ١٧٦ .  
الأوس ٥٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ .  
أوس بن حجر ٢١٤ ، ٨٤٩ .
- إياد ١٢٥ .  
إيزوب ٥٤٥ .  
- ب -  
باب الذهب ٨٨٥ .  
بايك الحرزي ٧٨٧ ، ٧٩٥ .  
بابليون (حصن) ٣٠٢ .  
الباخرزي (أبو الحسن) ٣٥ .  
الباغونية (عائشة) ١٠٤٥ .  
الباهي (أبو هشام) ٦٨٦ .  
البيغاه (أبو الفرج) ٨٧٣ .  
البيغاني ٨٨٢ .  
البيراء ٧٦ .  
بشينة ٣٩٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،  
٤٢٤ .  
بجاية ٩٢٢ .  
بجير بن زهير ٧١٤ ، ٤٠٢ .  
البحجري ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ،  
٦٨٣ ، ٧٢٨ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ - ٧٥٥ ،  
٧٦٢ ، ٨٤٦ ، ٩٦٢ ، ٩٧٢ .  
البحرين ٥٢٠ .  
البيخاري (محمد) ٨٧٩ .  
بدر (غزوة) ٢٩٩ .  
بربر ٦٠٩ .  
البرسكة ٦٩٢ .  
برداس فوكاس ٨١٠ .  
برداس (قسطنطين) ٨٠٩ .  
البردة ٤٠٢ ، ٤٠٣ .  
برزويه ٥٣٧ .

- بزرجهر ٥٦٩ ، ٥٧٢ .  
 البستي (أبو الفتح) ٨٦٩ .  
 بسطام بن قيس ١٢١ .  
 البسوس (حرب) ٩٢ ، ٩٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ .  
 بشامة ٢١٤ .  
 بشر بن حازم ١٣٤ .  
 بشار ٤٢ ، ٥٢٣ ، ٥٦٩ ، ٦٣٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ — ٦٨٩ ، ٨٤٩ ، ٩٣٤ ، ٩٣٦ .  
 البصري (أبو عبيدة) ٥٥٦ .  
 البصري (الحسن) ٥٠٥ .  
 البصرة ٣٠١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٨٣ ، ٤٧٩ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٥ ، ٥٨٨ ، ٦٠٩ ، ٦٣٦ ، ٦٩٢ ، ٧٤٩ ، ٧٦٣ ، ٨٧٧ .  
 البطحاء ٦٥ .  
 البطروجي ٩٨٦ .  
 بطليموس ٥١٩ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ .  
 البطليوسي ٥٨٨ ، ٩٧٧ .  
 بُغا ٥٢٠ .  
 بعداد ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٥٥٣ ، ٥٨٨ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦٢٦ ، ٦٩٢ ، ٧١٤٠ ، ٧٢٧ ، ٧٤٢ ، ٧٥٠ ، ٧٥٩ ، ٨٤٤ ، ٨٧٦ ، ٨٩٥ ، ٨٩٩ ، ٩٣٢ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ .  
 البغدادي (عبد القادر) ١٠٣٥ .  
 البكري (أبو عبيدة) ٦٦١ ، ٩٣٠ .  
 بكة (معركة وادي) ٨٩٢ .  
 البلاذري ٣٣٤ ، ٦٥٩ .  
 البلخي ٦٦١ .  
 بلنسية ٨٩٦ ، ٩١٧ ، ٩٢٢ ، ٩٣٨ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ .  
 بنو عامر ٨٩٢ .  
 بنو خنهور ٨٩٢ .  
 بنو حمود ٨٩٣ .  
 بنو عباد ٨٩٢ .  
 بنو هود ٨٩٢ .  
 بهاء الدولة ٨٣٣ ، ٨٣٤ .  
 بهاء الدين زهير ٨٦١ ، ٨٦٤ .  
 البوصيري ٤٠٣ ، ١٠٢٨ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ — ١٠٤٧ .  
 البويهية (الملوثة) — البويهيون ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٥٤٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ .  
 البيهقي (أبو الرمان) ٦٦١ ، ٨٨٤ .  
 بيت الحكمة ٨٧٦ .  
 البيهقي ٦٦٦ .  
 — ت —  
 ناطق شراً ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٠ — ١٧٢ .  
 التبريزي ٧٣١ .  
 تلعر (دولة) ٦٨ ، ٧٦ .  
 التطيلي (الأعشى) ٩٣٨ ، ٩٧٥ .  
 تطلب ١٩٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ .  
 التلغري ١٠٤٥ .  
 تميم الداري ٣٨٢ ، ٥٩٤ .

- القيمية (حسانة) ٩٣٦ .  
التنوخى ٥٨١ .  
تهامة (القور) ١٤٧ ، ٦٤ .  
توبة ٤٢٦ .  
التوراة ٥٩ ، ٧٣ ، ٥٩٥ .  
تيماء ٢٨٢ .  
تيمورلنك ١٠٢٥ .
- ث —  
ثابت بن قرّة ٥١٩ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٨٧٦ .  
الثعالبي (أبو منصور) ٣٥ ، ٥٨٩ ، ٩١٠ ، ٩٦٤ .  
ثعلب (أبو العباس) ٧٢١ .  
ثعلبة (بنو) ٧٤ .  
الثغور (حرب) ٧٩٩ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ .  
الثقفي (أبو العاص) ٥٦٦ .  
الثقفي (أبو عجن) ٥٠٣ .  
ثمود (قبيلة) ٧٢ .
- ج —  
جابر بن أفلح ٩٨٦ .  
الجاحظ ٩٧ ، ١٣١ ، ٢٨٤ ، ٣٣٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٢٧ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ .  
٥٥١ — ٥٧٩ ، ٥٩٦ ، ٦١٥ ، ٦١٦ .  
٦٤٧ ، ٨٧٧ ، ٨٨١ ، ٩١٠ ، ٩١٣ .  
٩٢٧ .  
الجاحظية ٥٥٣ ، ٥٥٥ .  
جاسم (قبيلة) ٧٢ .  
جالينوس ٥١٩ ، ٥٧٤ ، ٨٨٠ .  
الجامع الأقصى ٥١١ .
- الجامع الأموي ٥١١ .  
الجزيرة ٣١٩ ، ٥٠٩ ، ٨٥٨ .  
جلّة ٩٣١ .  
جندريس (قبيلة) ٧٢ .  
جرجان ٦٢٦ .  
الجزجاني (عبد العزيز) ١٣ ، ٦٤٨ ، ٨٧٨ .  
جرير ٤٢ ، ٣٣٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ — ٤٩٨ ، ٥٧١ ، ٦٨٠ ، ٦٨٦ .  
الجزنالي (أبو العباس) ٩٩٦ .  
الجزيري (ابن ادريس) ٩٣٧ .  
حسناس ١٢٢ ، ١٩٠ .  
الجعفري (قصر) ٥٢٠ .  
جُفينة ٥٧ .  
الجمحي (أبو دهيل) ٣٩٣ .  
الجليل (واقعة) ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٤٧٥ .  
جميل بن مَعْمَر ٣٩٤ ، ٤٢٠ — ٤٢٥ .  
جنديسابور ٥٠٥ ، ٥٢٣ ، ٨٧٦ .  
جنكيز خان ١٠٢٤ .  
الجهشياري ٥٦ .  
جُفينة ١١٠ .  
الجوالقي ١٣ .  
الجوهري ٨٧٧ .
- ح —  
حاتم الطائي ١٤٢ ، ١٦٧ ، ٢٢٣ — ٢٢٤ ، ٢٥١ .  
حاجي خليفة ٦٥٩ ، ١٠٣٠ .

- الحارث بن جبلة النساني ٧٧.  
الحارث بن حِزْرَة ١٢١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٩٥ - ١٩٧.  
الحارث بن عباد البكري ١٢٣.  
الحارث بن عمرو ١٤٥.  
الحارث بن كلدة ٨٣.  
الحارث بن هشام ٣٨٩.  
الحارث بن همام بن مرة ٢٧٢.  
الحاكم بأمر الله ٨٥٤.  
حائر ٣١٤ ، ٥٠٩.  
الحبيشة ٢٩٨.  
الحجاز ٦٤ ، ٦٥ ، ٣١٢ - ٣١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٨٩٩.  
الحجاج بن يوسف ١٣ ، ٥٧ ، ٣٠٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ - ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٤٥٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٣ ، ٤٩١.  
الحديث الحمره (معركة) ٨٠٩ ، ٨١٠.  
الحديث ٣٣٣ - ٣٣٤ ، ٥٠٥.  
حران ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٠٨ ، ٥٢٣ ، ٦٨٠ ، ٨٧٦.  
أر ٦٢٣ ، ٦٣٦ - ٦٣٩.  
الحرام ٥٦٥.  
حصار ثابت ١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٣ - ٤١٥.  
الحسن ٣٠٣ ، ٣١٨.  
الحسن البصري ٣٠٩.  
الحسن بن نزار ٩٥٥.  
الحسن بن وهب ٧٣٠.  
الحسين ٣٠٣ ، ٣١٨ ، ٦١١ ، ٨٤١.  
حضر موت ٦٤ ، ٦٥ ، ٣٦٨.  
الخطبة ١٣٣ ، ١٦٧ ، ٢٧٥ - ٢٧٨ ، ٢٤٨٥.  
حفصة الركوتية ٩٣٨.  
حُفَني ناصف ٣٤.  
الحكم ٩٨٤.  
حلب ٥٢٦ ، ٧٤٢ ، ٧٨٧ ، ٧٩١ ، ٧٩٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٢ ، ٨٢٠ ، ٨١٤ ، ٨٤٦ ، ٨٦٦.  
الحلي (بلد الدين) ١٠٢٧ ، ١٠٣٣.  
الحلي (شهاب الدين) ١٠٢٧.  
الحلاج ٦٧٥ ، ٨٧٩.  
الحلي (صني الدين) ١٠٤٥ ، ١٠٤٩ - ١٠٥٠.  
حليمة (يوم) ٧٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠.  
الحمداية (الدولة) — الحمدانيون ٥٢٠ ، ٥٢٦.  
حماد الراوية ١٠٣ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٤٥٣.  
حماد حجرد ٦٨١ ، ٦٨٦.  
الحموي (ابن حجة) ١٠٤٥.  
جُمَيْر (ملكة) ٧٦ ، ١١٠.  
الجُمَيْرِيَّة ٧٣.  
حُن (بنو) ٢٥٩ ، ٢٦٠.  
حنين بن اسحق ٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٨٧٦.  
حنين (يوم) ٤٠٢.  
الحير (قصر) ٥١٢.

- الحيرة ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٢٤١ ، ٢٨٤ ، ٤١٣ ، ٤٦٥ .
- خ —
- خالد البرمكي ٦٨٠ .
- خالد بن الوليد ٣٠٠ ، ٤٣٢ .
- خالد بن يزيد ٣١٥ ، ٥٠٨ .
- خديجة ٢٩٨ .
- خراسان ٥١٨ ، ٥٦٤ .
- خراساني (أبو مسلم) ٥١٨ ، ٥٣٤ .
- خرشة ٨٠٩ ، ٨٢١ .
- الخرزج ٥٧ ، ٤٠٢ .
- الحصيب ٦٩٢ .
- الخطيب البغدادي ٧٨٨ .
- الحقاجي (ابن منان) ٦٥٠ ، ٦٥١ .
- الحقاجي (شهاب الدين) ٣٥ ، ٦٥٠ .
- ٦٥١ ، ١٠٣٥ .
- خلف الأحمر ١٠٣ ، ٦٩٢ .
- الخليل بن أحمد ٢٤ ، ١٣٤ ، ٥٠٢ ، ٥٠٧ .
- ١٧٨ ، ٨٧٧ ، ٩٥٥ .
- الغنساء ١٠٤١ ، ١٦٧ ، ٢٨٩ ، ٤٣٣ .
- الحوارج ٣٠٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ —
- ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٥٨ ، ٣٤٧ ، ٣٦٩ .
- ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٨ ، ٥١٩ .
- الحوارزمي (أبو بكر) ٦١٧ ، ٦٢٥ ، ٦٤١ .
- الحوارزمي (محمد) ٨٨٢ .
- الخورنق (قصه) ٧٧ .
- د —
- داحس والغبراء (حرب) ٢٠٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٥٩٦ .
- دارة جلجل (يوم) ١٧٧ ، ١٧٨ .
- دار الشجرة ٨٨٥ .
- الدكائي (أبو بكر بن الليثانة) ٩٣٧ .
- داود بن سلم ٥٨٦ .
- دبشليم ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ .
- الدرب (معركة) ٨٠٩ ، ٨١٢ .
- دريد بن الصمة ١٢١ ، ١٦٧ ، ٢٢٦ ، ٢٨٩ .
- دعل ٧٣٧ — ٧٤٠ .
- الدمستق ٧٩٩ .
- دمشق ٢٨٤ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥٥٤ ، ٦٠٩ ، ٧٨٧ .
- ٧٩١ ، ٨٦٦ ، ٨٩٥ .
- الدميري ٩٦ ، ١٠٤٣ — ١٠٤٤ .
- الدناء (صحراء) ٦٥ .
- الدولي (أبو الأسود) ١٣٤ ، ١٥٠٦ .
- دبك الجن ٧٢٩ .
- ذ —
- ذنان ٢٥٠ ، ٢٦٠ .
- ذو الرمة ٣٩٢ ، ٤٣٧ — ٤٣٩ .
- ذو سلم ٨٤٠ .
- ذو قار (يوم) ٣٣٧ .
- ذو الجناز (سوق) ٥١ ، ٦٥ ، ٩٥ .
- ر —
- الرازي ٨٨٠ .
- الراضي ٥٨٩ .
- الراعي ٤٣٦ ، ٤٩٦ .
- الراوندية ٦٧١ .

- الزبير (عبد الله بن) ٣٥٩ ، ٣٦٥ .  
 الزبيرية — الزبيريون ٢١٩ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ،  
 ٣٥٨ ، ٣٩٨ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٥٩ ،  
 ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٨٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ .  
 الزبيدي ٩٣٧ ، ١٠٣٠ .  
 الزبيدي (أبو بكر) ٩٨٦ .  
 الزرادشتية ٥٣٢ .  
 زُرْعَة بن عمرو ٢٥٢ ، ٢٦١ .  
 الزرقالي ٩٨٦ .  
 زوياب ٨٩٦ ، ٩٣٦ ، ٩٨٨ .  
 زُفَر بن الحارث ٤٦٦ ، ٤٧٤ .  
 الزقاق (بهر) ٨٩٢ .  
 الزلافة (معركة) ٩٦٧ .  
 الزُشَترِي ١٧٢ ، ٨٧٧ .  
 الزهرلوي أبو القاسم ٩٨٧ .  
 الزهري (ابن شهاب) ٥٠٥ .  
 زهير (البهاء) ٧٨٣ .  
 زُهير بن أبي سلمى ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ،  
 ١٦٠ ، ١٦٦ ، ٢١٣ — ٢٢١ ، ٢٣٦ ،  
 ٢٣٧ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،  
 ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤٧٢ ، ٦١٥ ، ٦٢٧ ،  
 ٦٤٥ .  
 زُهير بن جذيمة ٢٥٢ ، ٢٥٣ .  
 زياد ابن أبيه ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ،  
 ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٤٨٠ .  
 زيد ٢٩٨ .  
 زيد بن ثابت ٥٧ .  
 زيد بن عمرو ٩٤٩ .  
 زيدان (جرجي) ٥٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ .  
 الأربع الخالي (مغازة صبيد) ٦٥ .  
 ربيعة بن مَكْتَم ١٧١ .  
 رَحْرَحان ٢٥٢ .  
 الرقة (حروب) ٣٠٠ ، ٣٣١ .  
 رُسَم ١٢٠ .  
 الرسول ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ،  
 ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٥٠٥ .  
 الرشيد ٥١٩ ، ٥٥٣ ، ٥٨٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ،  
 ٦٠٩ ، ٦٩٢ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٧ ،  
 ٧٣٩ ، ٩٨٨ .  
 الرصافي (محمد بن غالب) ٩٣٨ ، ٩٨٠ —  
 ٩٨١ .  
 ركن الدولة ٦٤٣ .  
 الرمادي (يوسف بن هارون) ٩٥٣ .  
 الرندي (أبو البقاء) ٩٣٩ .  
 الرها ٥٠٥ ، ٥٢٣ ، ٨٧٦ .  
 رواحة ٢٨٩ .  
 رؤية ٥٠١ ، ٥٠٢ — ٥٠٣ .  
 رُوح بن زُبَاع ٣٦٥ .  
 الروم ٥٢ ، ١٢١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٣٦ ،  
 ٣٨٦ ، ٥٢٦ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ،  
 ٨١٢ .  
 — ز —  
 الزاب (موقعة) .  
 الزباء (زينب) ٧٦ .  
 زَبَد ٥٤ .  
 الزبيري (عبد الله بن) ٣٨٩ ، ٤٠٩ .  
 الزبير ٣٠٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ .



- الزبدية ٣١٨ .  
 زين العابدين ٤٨٠ ، ٤٨٣ .  
 — ص —  
 السامانيون (الفرس) ٩٦ .  
 السامانية (الدولة) ٥٢٠ .  
 سامراء ٥٢٠ ، ٥٥٤ ، ٥٨٤ ، ٧٤٢ ، ٧٥٠ ، ٧٥٩ .  
 سامراء (مُرمَن رأى) ٥٢٠ ، ٥٥٤ ، ٥٨٤ ، ٧٤٢ ، ٧٥٠ ، ٧٥٩ .  
 سائب ٣١٤ ، ٥٠٩ .  
 السباق (حرب) ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ .  
 ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٥٣ .  
 سحيان ٥٥٦ .  
 السدير (قصص) ٧٧ .  
 سرقسطة ٨٩٣ ، ٩٦٤ .  
 السرقطي ٦٢٣ .  
 السري الرفاء ٨٦٧ ، ٨٦٨ .  
 مطيح ١١٠ .  
 سعد بن أبي وقاص (٣٠١) ٧٤٩ .  
 سعد بن الربيع ١١٨ .  
 السعدي (ابن نباتة) ٨٧٣ .  
 سعيد مسح ٥١٠ .  
 سقراط ٨٨٠ .  
 السفاح ٥١٨ .  
 السكرى ٧٨٧ .  
 سكة ٣٨٧ .  
 السلاجقة ٥٢٠ .  
 سلامة بن جندل ١٦٧ ، ٢٢٤ — ٢٢٥ .  
 السلامي ٧٠٠ .  
 سلم الحارث ٦٨٣ .  
 سلوق ٩٣ .  
 سليم التجيبي ٥٩٤ .  
 سليم الفاتح ١٠٢٤ .  
 سليمان بن هشام ٦٨٠ .  
 سنان (التاجر) ٦٦١ .  
 السموأل ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ ، ٧٥١ .  
 سهل بن هارون ٥٥٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٣ .  
 سهيل بن عمرو ١١٨ .  
 سبيويه ٣٠٩ ، ٦٨٥ ، ٨٤٩ ، ٨٧٨ .  
 السراقى ٨٤٩ .  
 سيف الدولة ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٥٢٦ ، ٥٨٢ ، ٨٠٠ ، ٨٠٢ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١٢ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٥ ، ٨٤٦ ، ٨٦٥ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٧١ ، ٨٧٣ ، ٧٩٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ .  
 ١٠٩١ .  
 سيل العرم ٧٤ ، ١٢٠ .  
 سيناء ٩٣ .  
 السيوطي (جلال الدين) ١٠٣٤ .  
 السيد الحميري ٦٨٩ .  
 — ش —  
 الشاب الظريف ١٠٢٨ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ .  
 شاطبة ٨٩٢ ، ٩٣١ .  
 الشافعي ٧٠٤ ، ٨٧٩ .

- الشام ٦٣ ، ٦٨ ، ٣١٥ — ٣١٦ ، ٤٦٦ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ .  
 الشبراوي ١٠٤٥ .  
 شراكسة ٦٠٩ .  
 شُرحيل بن حسنة ٣٠٠ .  
 شرف الدولة ٨٣٣ .  
 الشريشي ٦١٥ .  
 الشريف الرضي ٧٨٣ ، ٨٣٣ - ٨٤٣ ، ٨٣٢ - ٨٤٢ ، ٨٦٩ .  
 الشريف المرتضى ٨٤٤ .  
 الشعبي (عمرو بن شراحيل)  
 الشعوية ٣٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٦٩٨ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ ، ٧٠١ .  
 شق ١١٠ .  
 الشُّلي (أبو بكر بن عمّار) ٩٣٧ .  
 الشنترني ٩٣٧ .  
 الشتمري ٢٥٧ ، ٢٧٢ ، ٩٨٦ .  
 الشنفرى ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٧١ — ١٧٢ .  
 شهرزاد ٦٠٢ .  
 شهریار ٦٠٢ ، ٦٠٦ .  
 الشيباني (ابن قيس) ٣٣٧ .  
 شيبوب ٦٠٠ .  
 الشيعة (العلويون) ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٩٨ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٧٩٥ .  
 — — —  
 الصابي (أو اسحق) ٦١٧ ، ٦٤١ ، ٨٣٣ .  
 صاحب بن عبّاد ٥٨٢ ، ٦٢٣ ، ٦١٧ ، ٦٤١ ، ٩٠٨ ، ٩٨٥ .  
 صحر (قبيلة) ٧٢ .  
 صخر ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .  
 صريح الدلاء ٨٧٣ .  
 الصفدي (الصلاح) ٩٥٠ .  
 صقّين (واقعة) ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٦٩ ، ٤١٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ .  
 صلاح الدين ٦١٠ ، ٦٤٣ .  
 الصنوبري (أبو بكر) ٨٦٥ ، ٨٦٧ ، ٩٧٥ .  
 الصولي (أبو بكر) ٥٨٩ ، ٦٤٨ ، ٧٥٩ .  
 — — —  
 الضحالك بن قيس ٤٦٦ .  
 الضحالك بن مزاحم ٥٠٧ .  
 ضرار بن الخطاب ٣٨٩ .  
 ضمرة بن ضمرة ١١٩ .  
 — — —  
 طلوز بن زياد ٨٩٢ ، ٩٠٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ .  
 الطابع ٨٤١ .  
 الطلائع ٢٩٨ ، ٣٦٢ ، ١٠٥ ، ١٠٠ .  
 الطائي (أبو عثمان) ١١٩ .  
 الطبري ٥٧ ، ٧٩ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٨٧٩ .  
 طرابلس ٨٤٤ .  
 الطوطشي (أبو بكر) ٩٢٠ .  
 طرقة ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٧٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٦٢٧ ، ٩١٠ .  
 طريف (جزيرة) ٩٣١ .

عبد الله بن روضة ٣٨٨ ، ٣٩٦ .  
 علة ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٦٠٠ .  
 عبد المؤمن ١٠٠١ ، ١٠١٤ .  
 عبد الملك بن مروان ٢٤٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ،  
 ٣٦٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ ،  
 ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ،  
 ٤٩٢ ، ٤٩٤ .  
 عبد المهيم ١٠٠٦ .  
 عبد يثوث ١٣٦ ، ٢٢٦ .  
 عبيد ٥٠٧ .  
 عبد بن الأبرص ١٥٢ ، ١٦٧ ، ٢٤١ —  
 ٢٤٣ .  
 عبد الله بن قيس الرقيات ٤٥٨ — ٤٦٢ ،  
 ٤٦٨ .  
 عنة من غزوة ٣٨٨ .  
 عثمان بن عفان ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٧ ، ٣٤١ ،  
 ٣٥٩ ، ٤١٦ ، ٤٧١ ، ٣٥٠ .  
 السمّاح ٥٠١ .  
 العجفاء ٩٣٦ .  
 عثمان والعذنانة ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ،  
 ٩٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٠ ، ٣٨٩ ، ٤٥٧ .  
 العدوي (ابن انتاء) ٩٩٦ .  
 علي بن الرّاق ٣١٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٩ .  
 علي بن ريد ٥٧ ، ٨١ ، ١٤٧ ،  
 ١٦٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ .  
 علرة (بنو) ٣١٠ .  
 العراق ٦٧ ، ٣١٤ — ٣١٥ ، ٣٥٨ ، ٥٢٠ ،  
 ٥٢٦ .  
 العربي ٤٦٨ ، ٥٠٣ ، ٦٩٧ .

طسم (قبيلة) ٧٢ .  
 الطفرائي ٨٧٠ .  
 طلحة ٣٠٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ .  
 طليطلة ٨٩٦ ، ٩٨٦ .  
 الطرمّاح بن حكيم ٤٢ ، ٣٩٠ .  
 طه حسين ١٠١ ، ١٠٢ .  
 الطوسي ٧٨٩ .  
 طويس ٣١٤ ، ٣٩٣ ، ٥٠٩ .  
 - ع -  
 عائشة ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٤١ .  
 عائشة بنت طلحة ٣٨٧ .  
 عاد (قبيلة) ٧٢ .  
 عامر بن صعصعة ٤٥٢ .  
 عامر بن الطفيل ٢٢٦ .  
 عامر بن الطرب ١١٢ ، ١١٤ .  
 العاملي (بهاء الدين) ١٠٣٥ .  
 عبادة بن ماء السماء ٩٥٤ ، ٩٥٦ .  
 العباد ٢٨٣ ، ٢٨٤ .  
 عبود (مارون) ٤٩٤ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ .  
 عبد العزيز بن مروان ٤٩٢ .  
 عبدة بن الطبيب ٦٩٨ .  
 عبد الحميد الكاتب ٣٢٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ،  
 ٣٧٦ — ٨٠ ، ٥٢٤ ، ٥٤٧ ، ٥٧٦ ،  
 ٩١٠ ، ٩١٢ .  
 عبد الرحمن الثالث ٨٩٢ ، ٩٨٤ .  
 عبد الرحمن الداخل ٨٩٢ ، ٩٠٣ .  
 عبد الرحمن الناصر ٩٠٢ ، ٩٠٧ .  
 عبد الله بن حمران القُرشي ١٢٢ .

- عروق ٤٠٥ .  
العروس (قص) ٥٨٤ .  
العروض ٦٤ .  
عروة بن حزام ٣٩٤ .  
عروة بن الورد ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٣ .  
عُرى ١١٠ .  
العزيز بالله ٥٩٧ .  
العسكري (أبو هلال) ١٣١ .  
عشتر ٨٠ .  
عفد الدولة ٦٤٢ ، ٧٩٤ ، ٨٧٣ ، ٨٨٥ .  
عفره ٣٩٤ .  
عقة بن سلم ٦٨٠ .  
عقة بن نافع ٩٩٣ .  
العقاد (عباس محمود) ٧٦٠ .  
عكاظ (سوق) ٥١ ، ٦٥ ، ٩٥ ، ١٢٥ ، ٢٦٣ .  
العكبري ٧٩٤ .  
عكاشة العمي ٦٩٩ .  
علقمة الفحل ٢٧٢ .  
علي بن أبي طالب ١٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٠ — ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩٣ ، ٨٣٣ ، ٨٣٥ .  
عُمان ٦٥ .  
عمران بن حطان ٣٩١ ، ٤٥٧ .  
عمر بن أبي ربيعة ٣٩٣ ، ٤٣٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ — ٤٥٢ ، ٤٨٧ ، ٦٤٦ ، ٦٧٣ .  
عمر بن الخطاب ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٧ ، ٣٣١ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ .  
عمر بن عبد العزيز ٣٤٣ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٩٩٤ .  
عمرة (قص) ٥١١ .  
عمرو بن الحارث ٢٥٥ ، ٢٦٤ .  
عمرو بن الأهتم البكري ١١٩ .  
عمرو بن العاص ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٧١ .  
عمرو بن العلاء ٥١ ، ٦٤٧ .  
عمرو بن كلثوم ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٩٧ — ٢٠٢ ، ٤٠٥ .  
عمرو بن معدي كرب ١٢٦ — ١٢٧ ، ٣٩٠ .  
عمرو بن هند ٧٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٠ ، ٢٧٣ .  
عمورية ٧٣٠ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ١٠١٦ .  
العمرى (ابن فضل الله) ١٠٢٩ ، ١٠٣٢ .  
عشرة ١٢١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ٢٠٤ — ٢١٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٦٠٢ ، ٨٤٨ .  
عقّح بن عناق ١٢٠ .  
غ —  
الغافقي ٩٨٦ .  
غالب بن عبد القدوس (أبو الهندى) ٦٩٨ .  
غرناطة ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٩١٦ ، ٩٢٨ ، ٩٣١ ، ٩٣٨ ، ٩٧٥ ، ٩٨٠ .  
الغريض ٣٩٣ ، ٤٤٥ .  
الغزال (يحيى بن حكيم) ٩٣٦ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ .

القاهرة ٦٠٦، ٦٠٩، ٨٥٩، ٨٦٠، ٩٣١،  
القبري ٩٣٦، ٩٥٢، ٩٥٣،  
قبط ٦٠٩.

قحطان — القحطانيون — القحطانية ٥٠،  
٧٢، ٧٣، ٧٩، ٩٣٢، ٣١٤، ٣٣٠،  
٣٨٩.

قدامة بن جعفر ٥٧٣، ٦٤٧، ٦٦١،  
القدرية ٣١٩، ٥٠٩،  
القدس ٦٠٩.

القرآن ٥٠، ٥٦، ٧٣، ٣٠٤، ٣٠٧،  
٣١١، ٣٢٢، ٣٢٧ — ٣٣٣، ٣٥١،  
٤٠٤، ٤٠٦، ٥٠٥، ٥٩٥، ٧٠٦،  
القرامطة ٥٢٠، ٧٨٧.

قرطبة ٨٩٢، ٨٩٥، ٨٩٦، ٩٠٧، ٩٠٩،  
٩١٣، ٩١٧، ٩٣٧، ٩٦٠، ٩٦٣،  
٩٦٧، ٩٧٠، ٩٧٥، ٩٨٤، ٩٨٦،  
٩٨٨، ٩٨٩.

قريش ٥٠، ٥٢، ٢٩٨، ٣٩٢، ٤٠٩،  
٤١٤، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١،  
٤٦٩، ٤٧٣، ٤٩٣.

القرظيني ١٠٤٠ - ١٠٤١.

قس بن ساعدة ١١٩، ١٢٤، ١٢٥،  
قسطنطين ٨٧٦.

القسطلي (ابن دراج) ٩٣٧، ٩٦٣ - ٩٦٥،  
القسطنطينية ٢٨٤، ٦٠٨، ٨٢١،  
القشيري ٨٧٩.

قصر الرّيا ٨٨٥.

قصر الخلد ٨٨٥.

قصر الرّصافة ٨٨٥.

الغزالي ٨٨٠.

الفسانة ٥٢، ٦٣، ٦٨، ٧٧، ٧٥، ٩٦،  
٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦٠، ٤١٣،  
غطفان ٤٠١.

ق

فاتك الأسدي ٧٩٤.

الفارابي ٣٤٥، ٥٣٦، ٧٩٨، ٨٨٠، ٨٨٥،  
الفارسي (أبو علي) ٨٤٩.

فاس ٩٢٨، ١٠١٢، ١٠١٤، ١٠١٥،  
فاطمة ٣٠٠.

الفاطميون — الفاطمية (الدولة) ٥٢٠،  
٥٢٥.

الفتح بن حاقان ٣٥، ٥٢٠، ٥٥٤، ٧٤٣،  
الفرزدق ٤٢، ٣٣٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٣٦،  
٤٣٧، ٤٥٢، ٤٧٩، ٤٨٦، ٤٩٠،  
٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٥٧١،  
٦٢٨، ٦٨٠، ٦٨٦.

الفرس ٥٢، ١٢، ٢٩٨، ٣٠٨، ٣٣٦،  
٣٨٦، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢٦، ٥١٨.

فوكاس (نيقيفور) ٨١٢.

فيثاغورس ٨٨١.

فيدر ٥٤٥.

الفيروزآبادي ١٠٣٠.

ق

القادر ٨٤١.

القادمية ٦٨، ١٢٦، ٣٠١، ٣٩٠.

القاضي الفاضل ٦٤١، ٦٤٣.

القالبي (أبو علي) ٨٩٩.

- القطامي ، ٤١ ، ٣١٧ ، ٣٨٩ ، ٥٠٣ .  
 قطري بن الفجاعة ٣١٨ ، ٣٥٩ ، ٣٩٠ .  
 القلقاط (محمد بن يحيى) ٩٣٦ .  
 القلقشندي ١٠٢٧ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣٢ .  
 القليس ٨٠ .  
 قر ٩٣٦ .  
 قيس بن الخطيم ١٦٧ ، ٢٢٦ .  
 قيس بن ذريح ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ — ٤٣٠ .  
 قيس بن زهير ٢٥٣ .  
 قيس بن الشمس ١١٨ .  
 قيس بن عاصم الميغري ١٢٢ .  
 قيس عيلان (القيسية) ٢٥٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ .  
 قيس بن المكشوح ٤١ ، ٣٨٩ .  
 قيس بن الملوّح (محول ليل) ٣٩٤ ، ٤٢٦ — ٤٢٩ .
- ك .
- كافور ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٦ ، ٨١٢ .  
 كثير عزة ٣٩١ ، ٥٠٣ .  
 كربلاء ٣٠٣ ، ٣١٨ .  
 الكرخ ٨٣٣ .  
 كرد ٦٠٩ .  
 كرد علي (محمد) ٥٣٨ .  
 الكسائي ٨٧٨ .  
 كسرى ٦٨ ، ١٢٦ ، ٢٥١ ، ٢٨٤ .  
 كشاجم ٨٦٧ .
- كعب بن جعيل ٣٩١ ، ٤٦٥ .  
 كعب بن زهير ٤١ ، ٢١٤ ، ٤٠١ — ٤١١ .  
 كعب بن مالك ٣٨٨ .  
 الكعبة ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٨٤٧ .  
 الكلاب (يوم) ١٣٦ .  
 كليب ١٢٢ ، ١٩٠ .  
 الكُميت بن زيد الأسدي ٤٢ ، ٣٩١ ، ٤٥٧ — ٤٥٨ .  
 الكناسة ٣١٤ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦ .  
 الكِنَافِي (بكر) ٩٣٦ .  
 كِنْدَة (ملكة) ٧٨ .  
 الكندي ٥٦٥ ، ٨٨٠ .  
 كهلان ٧٩ .  
 الكوفة ٦٨ ، ٧٦ ، ٢٨٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢ ، ٤٥٧ ، ٤٧٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٥٣ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٦٢٦ ، ٦٩٢ ، ٧٣٦ ، ٧٤٩ ، ٧٨٧ ، ٧٩٣ ، ٨٧٧ ، ٩٣٢ .  
 الكوفي (عبد المؤمن) ٩٩٥ .  
 الكوفي (هشام بن محمد) ٥٥٦ .  
 الكومي (عبد المؤمن) ٩٩٥ .  
 الكيسانية ٣١٨ .
- ل —
- اللاذقية ٧٨٨ ، ٨٤٤ .  
 لاقونتين ٥٤٥ .  
 لُثْبِي ٤٢٨ ، ٤٢٩ .  
 لبيد بن ربيعة ٨٤ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٦٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ .

- ليد العامري ٦١٥ .  
 اللخميون ٧٥ .  
 لَدْرِيق ٨٩٢ ، ٩٩٨ .  
 لُقْمَان ٨٣ ، ١١٤ .  
 لُوْلُو ٧٨٨ ، ٧٩٠ .  
 لَيْل ٣٤٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ .  
 لَيْلِ الْأَخِيَّةِ ٣٨٧ ، ٤٢٦ .  
 — م —  
 مَارِب (سَدِّ) ٧٤ ، ١٢٠ .  
 الْمَازَنِي (أَبُو عَبْدِ اللَّهِ) ٩٣٠ .  
 مَالِقَةُ ٨٩٣ ، ٩٨٠ .  
 مَالِك (الْإِمَامُ) ٣٣٤ ، ٨٧٩ .  
 مَالِكُ بْنُ أَبِي السَّمْحِ ٣٩٣ .  
 مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ ٩٩٦ ، ١٠١٥ — ١٠٢٠ .  
 الْمَأْمُون ٥١٩ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٧١٥ ، ٧٣٩ .  
 ٨٧٦ .  
 الْمَبْرَدُ ٣٩٠ ، ٥٧٣ ، ٥٨٨ — ٥٨٩ ، ٧٢١ ، ٨٧٧ .  
 الْمَتْلُسُ ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٧٣ .  
 مُتَمِّمُ بْنُ نُؤَيْرَةَ ٤٣٢ ، ٤٣٦ .  
 الْمُتَنَبِّي ٥٢٤ ، ٥٣٤ ، ٥٤٠ ، ٦٥٠ ، ٦٧٥ ، ٧٢٨ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ — ٨١٧ ، ٨٢٥ ، ٨٤١ ، ٨٤٤ ، ٨٤٦ ، ٨٧٣ ، ٩٦٢ ، ٩٦٥ ، ٩٧٢ ، ١٠١٦ .  
 الْمُنَوَّكِلُ ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٨٨ ، ٥٥٤ ، ٦٨٣ ، ٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٤٧ ، ٧٤٩ .  
 الْمُتَنَبِّي التَّبْدِي ٢٧٤ .  
 الْمُتَجَرِّطِي ٩٨٦ .  
 مَجَنَّة (سُوق) ٥١ ، ٦٥ ، ٩٥ .  
 مَجْنُونُ لَيْلِ ٣٨٦ ، ٣٨٧ .  
 الْمُجَنَّبِي ٩٥٢ .  
 مُحَرِّزُ بْنُ الْمُكْتَفِرِ ١٣٦ .  
 الْمُحَلَّقُ ٢٤٤ .  
 مُحَمَّد (النَّبِي — الرَّسُولُ) ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٨٣٥ .  
 مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّاسٍ ٥١٨ .  
 مُحَمَّدُ عِيْدُهُ ٣٤٤ .  
 مُحَمَّدُ بْنُ الدِّينِ الظَّاهِرِ ١٠٢٦ .  
 مُخَافُ بْنُ شِهَابٍ ١٣٦ .  
 الْمُذَاتَانِ ٦٨ ، ٢٨٤ ، ٣٠١ ، ٧٤٩ .  
 الْمَدِينَةُ (يَثْرِبُ) ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٣٦ ، ٣٦٨ ، ٤١٣ ، ٤٥٨ ، ٥٠٩ ، ٥٠٩ ، ٩٣١ .  
 الْمُتَمَنِّي (صَدْرُ الدِّينِ) ٣٥ .  
 الْمُزَيْدُ ٣١٤ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ، ٥٥٣ .  
 الْمُرْجَةُ ٣١٩ ، ٥٠٩ .  
 مَرْجُ رَاهِطُ ٣٠٠ ، ٤٦٦ .  
 مَرْجُ الْكُحْلِ (عَمَدُ بْنُ أَدْرِيسَ) ٩٣٨ .  
 مَرَاكِشُ ٨٩٣ ، ٩١٦ ، ٩٩٤ ، ١٠١٦ .  
 الْمَرَاكِشِي (أَبُو أَسْمَنِ) ٩٩٦ .  
 الْمَرْزُبَانِي ٣٥ ، ٥٥٥ .  
 الْمَرْقُشُ ١٦٧ ، ٢٧٢ ، ٥٨٦ .  
 مَرُو ٥١٨ ، ٥٦٥ .  
 مَرُوَانُ بْنُ الْحَكَمِ ٤٢٠ ، ٤٦٦ .  
 مَرُوَانُ بْنُ مُحَمَّدِ الْأَمَوِيِّ ٣٦٨ ، ٣٧٦ .

- مَرْيَانَس ٥٠٨.  
 مَرْيَانَس ٩١٧، ٨٩٦، ٩١٧.  
 الْمَسْطَهَر ٤١، ٩١٧، ٦٣٦.  
 الْمَسْكُونِي ٩٦٩، ٩٢٧، ٩١٧.  
 الْمَسْعُودِي ٥٦، ٣٣١، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٧٠، ٦٠٣، ٦٥٩، ٦٦٣، ٦٦٤.  
 ٨٨٣.  
 مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ ٦٨٣، ٧٣٧، ٧٤٠، ٧٤٥.  
 الْمَسِيحُ (عِيسَى) ٥٧٣، ٥٧٢، ٣٢٨.  
 ٧٨٩، ٧٩٠.  
 الْمُسَيْبُ بْنُ عَلَسَ ٦١٥.  
 الْمُسْنَى (قَصْر) ٥١٢.  
 الْمَصْحُفِي ٩٣٧، ٩٤٣.  
 مَصْر ٧٩٢، ٧٩١، ٥٥٤، ٥٧٢.  
 مَصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ ٣٥٩، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٧١.  
 مَعَاوِيَةُ ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٧، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧١، ٤٦٨.  
 مَعْبُدُ ٣١٤، ٣٩٣، ٤٤٥، ٥١٠، ٥٨٣.  
 الْمُعْتَزِلَةُ ٥٠٩، ٥٦٢، ٦٨٠، ٨٧٩.  
 الْمُعْتَصِمُ ٥٢٢، ٥٥٤، ٧٣١، ٧٣٣.  
 ٧٣٩، ١٠١٦.  
 الْمُعْتَصِدُ ٧٢١، ٧٢٢، ٨٨٥.  
 الْمُعْتَمِدُ بْنُ عِيَادٍ ٩٣٧، ٩٦٦، ٩٦٩.  
 الْمُعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ ٥٨٨، ٧٢١.  
 الْمُعَرَّةُ ٨٤٤.  
 الْمُعَرِّي (أَبُو الْعَلَاءِ) ٥٣٤، ٦٧٥، ٧٨٣، ٨٤٣، ٩١٠، ٩٦٥، ٨٥٨.  
 مَعْرَ الدَّوْلَةِ ٥٨١.  
 الْمَعْلَقَاتُ ١٤٩، ١٥٢.  
 مَعْنُ بْنُ أَوْسَ ٥٠٣.  
 الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ٣٠٣.  
 الْمُفْجَرُ (خَرَّة) ٥١١.  
 الْمُفَضَّلُ ١٠٣.  
 الْمُفْتَلِحُ ٥٨٩، ٧٢١، ٨٨٣.  
 الْمُقَدَّسِي ٨٨٣.  
 الْمُقَرِّبِيُّ ٣٨٢، ١٠٣٨.  
 الْمُقَصِّمُ ٨٦٠.  
 الْمُقَرِّي ٨٩٩، ٩١٠، ٩٢٠، ٩٢٣، ٩٥٢.  
 الْمُكْتَنِي ٥٨٩، ٧٢١.  
 مَكَّةُ ٥٠، ٥٢، ٦٥، ٦٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٣٦، ٣٦٨، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٠٩، ٤٤٥، ٥٠٩، ٨٦٠، ٨٦٠، ٩٣١.  
 الْمَنَازِدَةُ (مَمْلُكَةٌ) ٩٦، ٧٧.  
 مَنِيحُ ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٩٠، ٧٩٩، ٨٢٠، ٨٢٨.  
 الْمَدْرُ الثَّلَاثُ «بَيْنَ مَاءِ السَّمَاءِ وَبَيْنَ» ٧٧، ٢٤١.  
 ٢٥١.  
 الْمَنصُورُ (أَبُو جَعْفَرٍ) ٥٣٤، ٥٣٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٧٥٠، ٨٧٦، ٨٨٥.  
 الْمَنصُورُ (يَعْقُوبُ) ١٠١٥، ١٠١٦.  
 الْمَنفَرِيُّ (عَمْرُو بْنُ الْأَهْمَمِ) ١١٩.  
 مَنَى ٢٨٠، ٣٩٣.  
 الْمَهَنْدِي ٧٢١.  
 الْمَهْدِي ٦٨٠، ٧١٤.  
 الْمَهْلَبُ (أَبُو) ٤٩٢.



- المهلبى (الوزير) ٥٨١ .  
 المهلبس ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٦٦ .  
 ١٨٩ - ١٩٣ .  
 مهدي الديلمي ٨٦٩ - ٨٧٠ .  
 الموالي ٥١٨ ، ٥٣٤ .  
 الموحدى (سليمان) ١٠٠٢ .  
 موسى ٣٢٨ .  
 موسى بن نصير ٨٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٨ .  
 الموصل ٧٣٠ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٩٣٢ .  
 الموصلى (ابراهيم) ٥٠٩ ، ٥٨٢ ، ٨٨٥ .  
 الموصلى (اسحق) ٥٠٩ ، ٥٨٢ ، ٨٨٥ ، ٩٣٦ ، ٩٨٨ .  
 مية ٤٣٧ ، ٤٣٨ .  
 — ن —  
 النابغة الجعدى ٤١٦ — ٤١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٨٥ ، ٨٤٧ .  
 النابغة الذبياني ١٣٤ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ٢٤٩ — ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٣٨٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٨٥ ، ٦٣٧ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٩٧٢ .  
 النابغة الشيباني ٤٨٥ ، ٥٠٣ .  
 النابلسى (عبد الغنى) ١٠٤٥ .  
 نابليون ١٠٢٤ .  
 نافع بن الأزرق ٣١٨ .  
 النسي (أبو العباس) ٨٧٣ .  
 نجد ٦٤ ، ٣١٤ .  
 نجران ١٢٥ ، ١٢٦ .  
 التزوية ٤٩٢ .  
 نشيط ٣١٤ ، ٥٠٩ .  
 نصيبين ٥٠٥ ، ٥٢٣ ، ٨٧٦ .  
 النضر بن الحارث ١٢٠ .  
 النظام (ابراهيم بن سيار) ٥٥٦ ، ٥٥٥ ، ٥٦١ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ .  
 النفراوات (يوم) ٢٥٢ .  
 نعطويه ٧٨٧ .  
 النقوم (صحراء) ٦٥ .  
 النعمان الأول ٧٧ .  
 النعمان بن المنذر ٧٧ ، ١١٢ ، ١٢٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٤ ، ٤١٣ .  
 النعمان بن بشير ٤٦٦ .  
 النعمان بن الجلاح ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ .  
 النعمان بن الحارث الغساني ٢٥١ ، ٢٥٩ .  
 ٢٦٠ ، ٢٦١ .  
 النجارة ٥٣ ، ٥٤ .  
 نهاوند (موقعة) ١٢٦ .  
 النهراوان ٣٤٧ .  
 النواجى (شمس الدين) ١٠٢٩ ، ١٠٣٤ .  
 نوبخت (ابن) ٧٦٦ .  
 التويرى (شهاب الدين) ٦٥٩ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣١ .  
 نيسابور ٦١٨ ، ٦٢٣ .  
 — ه —  
 احادي ٧١٤ .  
 هاشم (بنو) ٤٥٨ ، ٤٦٨ .  
 هانى بن قبيصة ١١٩ .

- الهذليّ (أبو ذؤيب) ٤١٥ ، ٣٩٠ ، ٤١٦ — ٤١٦ .  
 هرم بن سنان ٢١٤ .  
 هشام بن عبد الملك ٤٨٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ .  
 ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٢١ .  
 الحمدانيّ (بيع الزمان) ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٢٣ — ٦٢٣ ، ٦٤١ ، ٦٩٢ .  
 هوازن ٢٥١ ، ٢٥٢ .  
 هولاء ٥٢١ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ .  
 هوميرس ٥٢٥ ، ٦٦٩ .  
 — و —  
 الواواء النمشتي ٨٧٢ .  
 الواثق ٥٨٢ .  
 الواحدنيّ ٧٩٤ .  
 وادي القرى ٦٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٦٨ ، ٤٢٠ .  
 واسط ٣٦٥ .  
 واصل بن عطاء ٣٥٩ ، ٥٠٩ ، ٥٦٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨٥ ، ٦٨١ .  
 والبة بن الحباب ٦٩٢ .  
 وبار (قبيلة) ٧٢ .  
 ودّ (الإله) ٨٠ .  
 ودك المازني ١٤٢ .  
 الوراق (سراج الدين) ١٠٤٥ .  
 ورقة بن نوفل ٥٧ ، ٨١ .  
 وصيف ٥٢٠ .  
 الوطواط (جمال الدين) ١٠٢٩ ، ١٠٣١ .  
 ولادة ٩٢٧ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ .  
 الوليد بن عبد الملك ٤٥٢ ، ٤٦٦ ، ٥١٨ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٩٩٣ .  
 الوليد بن المغيرة ١٣٤ .  
 الوليد بن يزيد ٣١٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٨٣ ، ٦٧٣ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ .  
 وهب (آل) ٧٦٠ .  
 وهب بن منبه ٥٠٧ .  
 — ي —  
 ياقوت ١٤ ، ٦٦١ ، ٧٣٨ .  
 اليرموك ٣٠٠ .  
 يزيد بن ضبة ٣١٩ .  
 يزيد بن عبد الملك ٣٢٠ ، ٥٨٣ .  
 يزيد بن معاوية ٣٠٠ ، ٣٣١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٩٩٣ .  
 يعرب ٧٣ .  
 يعقوب بن داود ٦٨٠ ، ٦٨٥ .  
 اليعقوبي ٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٨٨٣ .  
 اليمن ٦٤ ، ٦٥ ، ١٢٥ .  
 يوحنا د ماسويه ٨٧٦ .  
 يوحنا النمشتي ٣١٥ ، ٥٠٩ .  
 يوسف بن اساعيل المصري ٥٩٧ .

## فهرست المَوَادِّ



العصل الثالث : الخطبة	
والقصص	١١٥
الفصل الرابع : مشاهير الحكماء والخطباء في الجاهلية :	
قس بن سعد	١٢٤
أكرم بن صبي	١٢٥
عمر بن مئني كرب	١٢٦
الباب الرابع : الشعر الجاهلي	١٢٩
الفصل الأول : نظرة عامة	١٢٩
الفصل الثاني : أقسام الشعر الجاهلي	١٦٤
الباب الخامس : شعراء الانفرادية البلوية	١٦٩
الفصل الأول :	
ذيق شرأ	١٦٩
الشعري	١٧١
عروة بن الورد	١٧٣
افص الثاني :	
امرؤ القيس	١٧٥
الباب السادس : شعراء الحياة والمناقب الفيلة	١٨٩

مقدمة	٥
المعلم حنا الفاخوري	٦
نظرة تمهيدية : الأدب وتاريخه	١١
جدول بمصور الأدب العربي وخصائصه العامة	٤١
الأدب العربي القديم : الأدب الجاهلي	٤٥
الباب الأول : اللغة العربية لغة المد التعبيري والاقصاع المحيطي	٤٧
الباب الثاني : بيئة الأدب الجاهلي	٦١
الفصل الأول : البيئة الجغرافية	٦١
الفصل الثاني : البيئة البشرية والاجتماعية	٧١
الفصل الثالث : بواعث الأدب الجاهلي ومصادره	٨٧
الباب الثالث : النثر الجاهلي	١٠٧
الفصل الأول : غموص واضطراب	١٠٧
الفصل الثاني : سجع الكهفان - الحكمة والثل	١١٠

- ٢٧٢ أبو دُواد الزبائدي  
٢٧٢ المرقش الأكبر  
٢٧٢ علقمة القحط  
٢٧٣ المتلوس  
٢٧٤ المصعب العبدني  
٢٧٥ الحطيطية

الباب الثامن : شعراء المذاهب الدينية

- ٢٧٩ والآراء الاجتماعية  
٢٨٠ لبيد بن ربيعة  
٢٨٢ السموأل  
٢٨٣ عدني بن زيد  
٢٨٦ أمية بن أبي الصلت

الباب التاسع :

شاعرة البكاء والزلاء

- ٢٨٩ اختساء

الأدب العربي القديم : أدب

- ٢٩٥ المهديين الإسلامي والأموي

الباب الأول : بيئة الأدب في هذين

- ٢٩٧ المهديين

الباب الثاني : الحياة الجديدة وأثرها في

- ٣٠٦ اللغة والأدب

الفصل الأول : الحياة الجديدة

- ٣٠٧ واللغة العربية

الفصل الثاني : الحياة الجديدة

- ٣١٠ والأدب العربي

الباب الثالث : اثر الإسلام

- ٣٢٢ الفصل الأول : نظرة عامة

الفصل الثاني : القرآن الكريم

- ٣٢٦ والحديث الشريف

الفصل الأول :

- ١٨٩ في قطب حرب البسوس

- ١٨٩ المهليل

- ١٩٥ الحارث بن حذرة

- ١٩٧ عمرو بن كلثوم

الفصل الثاني :

- ٢٠٤ في قطب حرب السباق

- ٢٠٤ عترة بن شداد

- ٢١٣ زهير بن أبي سلمى

الفصل الثالث :

شعر الكرم والفروسية

- ٢٢٢ والحمة

- ٢٢٣ حاتم الطائي

- ٢٢٤ سلامة بن جندل

- ٢٢٥ الأقرع الأودي

- ٢٢٦ ذريرد بن الصمة

- ٢٢٦ قيس بن الخطيم

- ٢٢٦ عبد يثوث

- ٢٢٦ عابر بن الطفيل

الباب السابع : شعراء الكلاط

- ٢٢٩ والتكس

الفصل الأول :

- ٢٢٩ في موكب المعلقات

- ٢٢٩ طرفة بن العبد

- ٢٤١ عبيد بن الأبرص

- ٢٤٤ الأعشى الأكبر

- ٢٤٩ الثابتة الذيباني

الفصل الثاني :

- ٢٧٧ ما بين التألف والتلف

- ٤٢٦ قيس بن الملوّح  
٤٢٩ قيس بن ذريح  
الفصل الرابع: شعراء النفس  
٤٣٢ الأعرابية والطليعة البدوية  
٤٣٢ مُنَمَّم بن نويرة  
٤٣٦ الراعي  
٤٣٧ ذو الرثمة  
الفصل الخامس: شعراء اللهو  
والجون  
نظرة تمهيدية في تطوّر النزل  
القديم  
٤٤١ عمر بن أبي ربيعة  
٤٤٥ الأحوص  
٤٥٢ الوليد بن يزيد  
٤٥٣ الفصل السادس: شعراء  
الأحزاب  
٤٥٧ عمران بن حطان  
٤٥٧ الكُميت بن زيد الأسدي  
٤٥٨ عُبيد الله بن قيس الرقيّات  
٤٦٢ عليّ بن الرُّقع  
الفصل السابع: شعراء البلاط  
والتكسّب  
٤٦٤ الأحمط  
٤٦٩ القزّزدق  
٤٨٩ جرير  
الفصل الثامن: شعراء الرّجز  
وطائفة من الشعراء الآخرين  
٥٠٠ رؤبة بن العجاج  
٥٠٢ أبو العباس، لأعمى -

- الفصل الثالث: الخطابة  
والتوقيعات  
٣٣٥ الخطابة في عهد الرّسول  
والخلفاء الرّاشدين  
٣٣٥ عليّ بن أبي طالب  
٣٤٠ الخطابة في عهد بني أميّة  
٣٥٨ زياد ابن أبيه  
٣٦٢ الحجاج بن يوسف  
٣٦٥ أبو حمزة الخارشي  
٣٦٨ التوقيعات  
٣٧١ الفصل الرابع: الكتب والرّسائل  
والتوصيات  
٣٧٢ عبد الحميد بن يحيى  
الكاتب  
٣٧٦ الفصل الخامس: المحاورات  
والقصص والنقد الأدبي  
٣٨١ الباب الرابع: الشعر الإسلامي  
المصل الأول: نظرة عامة في  
الشعر الإسلامي وفنونه  
٣٨٥ الفصل الثاني: شعراء الدين  
الجديد:  
٤٠١ كعب بن زهير  
٤٠١ حسان بن ثابت  
٤١٣ أبو ذؤيب الهذلي  
٤١٤ الثابتة الجعدي  
٤١٦ الفصل الثالث: شعراء البادية:  
الشعراء المتيمنون  
٤١٩ جميل بن مَعْمَر  
٤٢٠ ليلى الأحمليّة  
٤٢٦

- ٦٤١ الفصل الخامس : الترسل  
٦٤٢ ابن العميد  
٦٤٣ القاضي الفاضل  
٦٤٤ الفصل السادس : النقد الأدبي  
٦٤٩ ابن الأثير

- الفصل السابع : التاريخ  
٦٥٧ والجغرافية والرحلات  
٦٦٢ الطبري  
٦٦٣ المسعودي  
الباب الثالث : الشعر العباسي  
٦٦٦ الفصل الأول : نظرة عامة  
الفصل الثاني : شعر الثورة  
٦٧٨ التجديدية  
٦٧٩ بشار  
٦٩١ أبو نواس  
٧١٤ أبو العتاهية  
٧٢١ ابن المعتز

- الفصل الثالث : النيوكلاميكية  
٧٢٥ الشعرية  
٧٢٩ أبو تمام  
٧٣٧ دُعبل  
٧٤١ البحترى  
٧٥٧ ابن الرومي

- الفصل الرابع : الشعر في ظل  
الإمارات  
٧٨٣ أبو الطيب المتنبي  
٧٨٤ أبو فراس الحمداني  
٨١٩

- أعشى ربيعة — نايقة بني  
شيبان — اسماعيل بن يسار —  
العرجي — كثير عزة —  
القطامي — من بن لؤس —  
٥٠٣ أبو محمد القني

## الأدب العربي المؤلّد : الأدب العباسي

- ٥١٥  
الباب الأول : بيئة الأدب العباسي  
٥١٧ الفصل الأول : البيئة السياسية  
والاجتماعية  
٥١٧ الفصل الثاني : الحياة الجديدة  
وأثرها في الأدب  
٥٢٢  
الباب الثاني : التأثير العباسي  
٥٢٨ الفصل الأول : نظرة عامة  
٥٢٨ الفصل الثاني : الأدب  
٥٣٠ ابن المقفع  
٥٣٠ الجاحظ  
٥٥١ أبو الفرج الأصبهاني  
٥٨١ ابن قتيبة  
٥٨٧ المراد  
٥٨٨ الصولي  
٥٨٩ الثعالبي  
٥٨٩ الفصل الثالث : القصّة  
٥٩١ سيرة عنترة  
٥٩٦ ألفت ليلة وليلة  
٦٠٢ الفصل الرابع : المقامة  
٦١٤ احمداني  
٦٢٣ حريري  
٦٣٦



٩٢٠	أبو بكر الطرطوشي	٨٣٢	الشريف الرضي
٩٢١	ابن بسام	٨٤٣	أبو العلاء المعري
٩٢١	ابن بشكوال	٨٥٩	ابن القارض
٩٢٢	ابن الأبار	٨٦١	البهاء زهير
٩٢٥	الفصل الثالث: الترمس	٨٦٥	الصنوبري
٩٢٧	أبن زيدون	٨٦٧	كشاجم
٩٢٨	ابن الخطيب	٨٦٧	السري الرفاء
	الفصل الرابع: التاريخ	٨٦٩	البيسي
٩٣٠	والجغرافية والرحلات	٨٦٩	مهار الديلمي
٩٣٠	ابن حيان	٨٧٠	الطغراني
٩٣١	ابن جبير	٨٧٢	الزوائد المتشقي
٩٣٣	الباب الثالث: الشعر الأندلسي	٨٧٣	أبو الفرج البغلاء
٩٣٣	الفصل الأول: نظرة عامة	٨٧٣	أبو العباس الثاني
٩٤٦	الفصل الثاني: الموشحات	٨٧٣	ابن تينة السعدي
	الفصل الثالث: أشهر شعراء	٨٧٣	صريح اللآء
٩٥٩	الأندلس:		
٩٥٩	• مرحلة شعر التقليد:		الباب الرابع: الحركة الفكرية
٩٦٠	الغزل	٨٧٥	والعلمية والفنية
٩٦١	ابن هاني		
٩٦٣	ابن دراج القسطل		الأدب في الأندلس والمغرب:
٩٦٦	• مرحلة شعر الشخصية:		
٩٦٦	المعتمد بن عباد	٨٨٩	الأدب الأندلسي
٩٦٩	ابن زيدون		
	• مرحلة شعر التحرر	٨٩١	الباب الأول: بيئة الأدب الأندلسي
٩٧٣	والإغراق في التجديد:		
٩٧٤	ابن خفاجة	٩٠١	الباب الثاني: النثر الأندلسي
		٩٠١	الفصل الأول: نظرة عامة
		٩٠٦	الفصل الثاني: الأدب والنقد
		٩٠٧	أحمد بن عبد ربه
		٩٠٩	أحمد بن شهيد
		٩١٦	الفتح بن خاقان
		٩١٧	ابن حزم

- القصل الثاني : شعراء المغرب  
 ١٠١٣ العربي  
 ١٠١٣ ابن حَبُوس  
 ١٠١٥ مالك بن المرحل  
 ١٠٢٠ ابن الطَّيِّب العَلَمِيّ

## أدب الانحطاط

- الباب الأول : البيئة السياسيّة والاجتماعيّة  
 ١٠٢٤  
 الباب الثاني : النثر  
 ١٠٣١  
 القصل الأول : الأدب  
 ١٠٣١ جمال الدين الوطواط  
 ١٠٣١ شهاب الدين الثوريّ  
 ١٠٣٢ ابن فضل الله العسريّ  
 ١٠٣٢ أبو العباس الفلقشنديّ  
 ١٠٣٣ بدر الدين الحليّ  
 ١٠٣٣ شهاب الدين الأبهسيّ  
 ١٠٣٣ ابن عربيّ  
 ١٠٣٤ شمس الدين التوابعي  
 ١٠٣٤ جلال الدين السيوطي  
 ١٠٣٥ بهاء الدين العاملي  
 ١٠٣٥ شهاب الدين الحفاجي  
 ١٠٣٥ عبد القادر البغداديّ  
 القصل الثاني : التاريخ والجغرافية  
 ١٠٣٧ ابن خلكان  
 ١٠٧٨ ابن طباطبا  
 ١٠٣٨ أبو القدر  
 ١٠٣٨ المقرئزيّ

- الأعمى الشطليّ  
 ٩٧٧ ابن الرِّقَاق البَكْسِيّ  
 ٩٨٠ الرُّصافيّ البَلَنْسِيّ  
 ٩٨١ ابن سهيل  
 ٩٨٢ ابن زُهر

## الباب الرابع : الحركة الفكرية والعلمية والفنيّة

- ٩٨٤  
 الأدب المغربي  
 ٩٩١  
 الباب الأول : بيئة الأدب المغربي  
 ٩٩٣  
 الباب الثاني : النثر لغربي  
 ٩٩٧  
 القصل الأول : الخطابة  
 ٩٩٧ طارق بن زياد  
 ٩٩٨ ابن تومرت  
 ٩٩٨  
 القصل الثاني : النثر  
 ١٠٠٠  
 ١٠٠١ أبو جعفر بن عطية  
 ١٠٠١ أبو عقيل بن عتيبة  
 ١٠٠٢ سليمان الموحديّ  
 القصل الثالث : التاريخ والجغرافية والرحلات  
 ١٠٠٣  
 الإدرسيّ  
 ١٠٠٤ ابن بطوطة  
 ١٠٠٥ ابن خلدون  
 ١٠٠٦  
 الباب الثالث : الشعر مغربي  
 ١٠١١  
 القصل الأول : نظرة عامة  
 ١٠١١

١٠٤٦	البوصيري	١٠٤٠	الفصل الثالث : العلوم
١٠٤٨	ابن الوردي	١٠٤٠	القزويني
١٠٤٩	صفي الدين الحلي	١٠٤٣	التهيري
١٠٥٠	ابن نباتة	١٠٤٥	الباب الثالث : الشعر
١٠٥٣	فهرس الاعلام	١٠٤٦	انشاب الظريف





## مؤلفات حنا الفأخوري

- ١ - جداول الصرف والنحو، أو النحو العربي في سبع صفحات.  
— حريصا ١٩٤٠.
- ٢ - أبو العلاء المعري، دراسة علمية وأدبية وضعها بداعي الاحتفال بذكرى فيلسوف المرأة  
— حريصا ١٩٤٥.
- ٣ - القيصران. رواية تمثيلية نقلها الى العربية شعراً وبصرف، وطلعت في حريصا سنة ١٩٤٢.
- ٤ - اخوان الصفا: دراسة موسعة في سلسلة «فلاسفة العرب» — حريصا ١٩٤٧.
- ٥ - عدة سلاسل مدرسية في اللغة والقواعد والإنشاء والأدب والفلسفة حريصا بيروت.
- ٦ - تاريخ الأدب العربي. في نحو ١٢٠٠ صفحة كبيرة. حريصا ١٩٥١.  
وقد ترجم في جامعة موسكو الى اللغة الروسية، وقرر تدريسه في أكثر
- الجامعات العلمية وهو لا يزال الكتاب الأول في مادة الأدب العربي في جميع الاقطار العربية.
- ٧ - الخلاصة في الأدب العربي، حريصا ١٩٥٢.
- ٨ - الجاحظ في سلسلة «نوايغ الفكر العربي» — دار المعارف بيروت ١٩٥٣.
- ٩ - منتخبات الأدب العربي — حريصا ١٩٥٤.
- ١٠ - سلسلة الجديد في الأدب العربي، في ستة أجزاء — مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٥.
- ١١ - الموجز في الأدب العربي في خمسة أجزاء — دار المعارف بمصر ١٩٥٥.
- ١٢ - الحكم والأمثال في سلسلة «قنون الأدب» دار المعارف بمصر ١٩٥٦.
- ١٣ - الفخر والحاسة في سلسلة «قنون الأدب» دار المعارف بمصر ١٩٥٦.
- ١٤ - ابن المقفع في سلسلة «نوايغ الفكر العربي» — دار المعارف بمصر ١٩٥٧.

- ١٥ - تاريخ الفلسفة العربية ، في جزءين  
كثيرين بالاشتراك مع الدكتور خليل  
الجر - دار المعارف - بيروت  
١٩٥٧ - ١٩٥٨ . وقد اختصر في  
طبعة مدرسية ، وترجم الى اللغة  
الرومية .
- ١٦ - تاريخ الأدب العربي في المغرب  
(المغرب الأقصى - الجزائر -  
تونس - ليبيا) . كتاب ضخيم كان له
- الأثر الواسع في الأوساط العلمية -  
بيروت ١٩٨٢ .
- ١٧ - المعجم الوافي في علوم النحو والبيان  
والقوافي . بالاشتراك مع وفاء الباني  
وانطوان اسطفان - بيروت ١٩٨٣ .
- ١٨ . الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، في  
أربعة أجزاء - دار الجيل - بيروت  
١٩٨٥ .
- ١٩ - الجامع في تاريخ الأدب العربي . دار  
الجيل ١٩٨٦ .



- الرسوم: بعضها بريشة الفنان سمير غنطوس، وبعضها من مجموعة المؤلف، والبعض الآخر مما أنحفنا به بعض الأصدقاء.
- الخطوط: بقلم الخطاط سمير حداد.
- الطباعة: مؤسسة خليفة للطباعة.
- التجليد الفني: مؤسسة نصري الحلوي.



















